

مُقَدِّمَاتُ ابْنِ خَلْدُون

وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمّى
ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر
ومن عايرهم من ذوى الشأن الأَكْبَر

مُتَالِفٌ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلْدُون

٧٣٢-٨٠٨ هـ - ١٣٣٢-١٤٠٦ م

مراجعة الدكتور

سهيل زكار

ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس

الاستاذ خليل شحادة

طبعة مُستكملة ومُقارنة مع عدّة نسخ
ومخطوطات ومُدَيلة بحواشي وشروح وتمتاز
بفهارس للموضوعات والأعلام والأماكن الجغرافية

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

جميع حقوق إعادة الطبع محفوظة للناسِر

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

Email: darelfkr@cyberia.net.lb
E-mail: darifkr@cyberia.net.lb
Home Page: www.darelfkr.com.lb



حارة حريك - شارع عبد النور - برقيًا: فكيك - صرْب: ١١/٧٠٦١

تلفون: ٥٥٩٩٠٠ - ٥٥٩٩٠١ - ٥٥٩٩٠٢ - ٥٥٩٩٠٣

فاكس: ٠٠٩٦١١٥٥٩٩٠٤



بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف والكتاب

كلمة الناشر

العلامة ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، ولد في تونس سنة ٧٣٢هـ — ٣٣٢م ، ينحدر من أصل أندلسي أشبيلي ، تلقى العلم على عدد كبير من العلماء الأندلسيين الذين هاجروا إلى تونس .

وإذا كان في شبابه اجتذبه بلاط بني مرين في فاس للخدمة فيه فقد اتيح له الاتصال هناك بالوزير لسان الدين ابن الخطيب خلال فترة نفيه مع سلطانه إلى المغرب وقد توطدت بين الرجلين صداقة متينة ظهرت بوضوح في تلك الترجمة التي افردها له ابن الخطيب في كتابه «الاحاطة في أخبار غرناطة» بعد عودته الى وطنه قال فيه :

... مفخر من مفاخر التخوم المغربية — أي ابن خلدون — شرح البردة شرحاً بديعاً دل على غزارة حفظه وتفنن ادراكه ولخص كثيراً من كتب — ابن رشد وعلق للسلطان أبي سالم في العقلیات تقييداً مفيداً في المنطق ، ولخص محصل الامام فخر الدين الرازي ، وألف كتاباً في الحساب ، وشرع في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوجه في الكمال^(١) .

وإذا كان ابن خلدون انغمر في حياة سياسية حافلة سواء في بلاط المرينيين بفاس أو الحفصيين في تونس فإنه اعتزل السياسة وآثر الانطواء بعد مقتل صديقه ابن الخطيب في سجنه فقد ملّ السياسة وانسحب من الحياة العامة واختلى أربع سنوات ٧٧٦ — ٧٨٠هـ في قلعة بني سلامه في ولاية وهران غربي الجزائر وفي تلك الخلوة كتب «مقدمة» والتي اشتهرت بمقدمة ابن خلدون والتي قال عنها هو : «سالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتحضت زبدتها وتألّفت نتائجها ، على ذلك النحو الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة» .

وعاش ابن خلدون بعد ذلك مدة طويلة ارتحل خلالها الى الشام ومصر حيث ولي منصب قاضي القضاة المالكية ، في مصر عدة مرات ، وتصادف أيضاً وجوده في دمشق عندما حاصرها المغولي ، تيمورلنك . وتمكن من الخروج قاصداً تيمورلنك ، متوسلاً إليه انقاذ المدينة . وبعدها

(١) يشير بذلك الى كتاب الحلل المرموقة في اللمع المنظومة لابن الخطيب وهو الفية في أصول الفقه .

عاد ابن خلدون الى مصر وتوفي فيها سنة ٨٠٨ هـ ومن أشهر مؤلفاته في التاريخ : « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » وكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر » وهو كتابنا هذا الذي نقدم له .

يتألف الكتاب من سبعة أجزاء وجزء ثامن للفهارس الجزء الأول منه : مقدمة ابن خلدون المشهورة والتي تضمنت نظريته في التاريخ على أنه فرع من الفلسفة وأنه لا بد من تحليل الحوادث التاريخية وذلك بدراسة طبائع البشر والعمران وأنظمة الحكم والسلطان واستقصاء عللها وأسبابها لفهم التاريخ وإستخلاص منه العبر وتناول في بقية الاجزاء الستة التالية أخبار العرب وأجيالهم ودولهم ومن عاصرهم من الدول المشاهير منذ بدء الخليقة الى عصره ، ثم أخبار البربر وأجيالهم وما كان بديار المغرب خاصة والمشرق عامة من الملك والدول .

والجزء الثامن فهارس عامة .

وقد تفردت هذه النسخة بتعليقات وشروحات معتمدة على المقارنة بين كل النسخ المتوافرة بالاضافة الى المراجع العديدة لضبط النص والأحداث والأسماء حيث لاحظنا تحريف في الأسماء ناجم عن الأسماء الأعجمية والبربرية وغيرها كما يعود الاضطراب الى أخطاء النساخ والناقلين وقد ضبطنا هذه الأسماء وأشرنا في الهوامش اليها كما وردت في مختلف النسخ واستعنا لذلك بتاريخ ابن الأثير « الكامل في التاريخ » وتاريخ الطبري كما استعنا بمكتبة الدكتور سهيل زكار فيما يخص تاريخ شمال افريقية .

كما لاحظنا اضطراباً في نقل النص أحياناً وأحياناً أخرى عمد المؤلف الى ترك أمكنة بيضاء ليعود الى إكمالها فيما بعد ولكن الموت عاجله قبل ذلك كما أن بعض النساخ أحياناً يترك فراغاً مكان الكلمة التي لا يفهمها أو غير المقروءة ولا يعود اليها وعمدنا الى ملأ الفراغ ما أمكن من النسخ الأخرى وأشرنا اليه في الهوامش .

كما وجدنا بعض الفصول قد حذف من نسخة ووجد في نسخة أخرى وبالعكس لذلك أضفنا هذا النقص الحاصل بحيث تخرج هذه الطبعة كاملة متكاملة .

وأضفنا اليها جزءاً خاصاً يحتوي على فهارس للأسماء والقبائل والمدن والإماكن .
هذه النسخة الجديدة نضعها بين أيدي القراء الكرام آملين أن يجدوا فيها ما يتوخون من الدقة شاكرين لكل من ساهم معنا وقدم لنا العون والله من وراء القصد .

٢٥ جمادى الآخرة ١٤٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

يَقُولُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْغَنِيِّ بِلُطْفِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ خَلْدُونِ الْحَضْرَمِيِّ وَفَقَّهُ اللَّهُ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَالْجَبْرُوتُ ، وَبِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ ، وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالنُّعُوتُ ، الْعَالِمُ فَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ مَا تُظْهِرُهُ النُّجُوى أَوْ يُخْفِيهِ السُّكُوتُ ، الْقَادِرُ فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَفُوتُ ، أَنْشَأَنَا مِنَ الْأَرْضِ نَسْماً^(١) وَاسْتَعْمَرَنَا فِيهَا أَجْيَالاً وَأَمَمَا وَيَسَّرَ لَنَا مِنْهَا أَرْزَاقاً وَقَسَمَا ، تَكُنْفُنَا الْأَرْحَامَ وَالْبَيُوتُ ، وَيَكْفِلُنَا الرِّزْقَ وَالْقُوَّةَ ، وَتُبْلِيْنَا الْأَيَّامَ وَالْوُقُوتَ ، وَتَعْتَوِرُنَا الْأَجَالَ الَّتِي خُطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا الْمَوْقُوتُ وَلَهُ الْبَقَاءُ وَالثَّبُوتُ ، وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكْتُوبِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْمُنْعُوتِ ، الَّذِي تَمَحَّضَ لِفَضَالِهِ الْكَوْنُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ الْأَحَادُ وَالسُّبُوتُ ، وَيَتَبَايَنَ زُحُلُ وَالْيَهْمُوتُ^(٢) ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَهُمْ فِي صُحْبَتِهِ وَاتِّبَاعِهِ الْأَثَرُ

(١) أي نفوساً ، والله باري النسم أي خالق النفوس (قاموس) .

(٢) قوله اليهموت هو التون أي الحوت الذي على ظهره الأرض السابقة ويسمى أيضاً لوتيا كما في المزهرو روح البيان واللبهة ومعلوم ان بينه وبين زحل الذي مر في الفلك السابع بونا بعيداً وقال الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي ١ هـ في أول سورة نون اليهموت بفتح اللثناة التحمية وسكون الهاء وما لشهر من أنه بالباء الموحدة غلط على ما ذكره الفاضل المحشي ومثله في روح البيان قاله نصر الهوريني أقره المصحح الثاني .

الْبَعِيدُ وَالصَّيْتُ ، وَالشَّمْلُ الْجَمِيعُ فِي مَظَاهِرَتِهِ وَلِعَدْوِهِمُ الشَّمْلُ الشَّتِيتُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا اتَّصَلَ بِالْإِسْلَامِ جَدُّهُ الْمُبْخُوتُ . وَانْقَطَعَ بِالْكَفْرِ حَبْلُهُ الْمُبْتُوتُ ، وَسَلَّمَ كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مِنَ التَّارِيخِ مِنَ الْفُنُونِ الَّتِي تَتَدَاوَلُهُ الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ وَتَشُدُّ إِلَيْهِ الرُّكَائِبُ وَالرَّحَالُ ، وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ السُّوقَةُ وَالْأَغْفَالُ ، وَتَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ وَالْأَقْيَالُ ^(١) ، وَتَسَاوَى فِي فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَالُ ، إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَخْبَارِهِ عَنِ الْأَيَّامِ وَالْدُّوَلِ ، وَالسُّوَابِقِ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولِ ، تَنُمُو ^(٢) فِيهَا الْأَقْوَالُ ، وَتُضْرَبُ فِيهَا الْأَمْثَالُ ، وَتُطْرَفُ بِهَا الْأَنْدِيَّةُ إِذَا غَضِبَ الْإِحْتِفَالُ ، وَتُؤَدِّي لَنَا شَانَ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا الْأَحْوَالُ ، وَاتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا النُّطَاقُ وَالْمَجَالُ ، وَعَمَرُوا الْأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمُ الْإِرْتِحَالُ ، وَحَانَ مِنْهُمْ الزَّوَالُ ، وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ ، وَتَغْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِيهَا دَقِيقٌ ، وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْوَقَائِعِ وَأَسْبَابِهَا عَمِيقٌ ، فَهُوَ لِذَلِكَ أَصِيلٌ فِي الْحِكْمَةِ عَرِيقٌ ، وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٍ .

وَإِنَّ فُحُولَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي الْإِسْلَامِ قَدْ اسْتَوْعَبُوا أَخْبَارَ الْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا ، وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ الدَّفَاتِرِ وَأَوْدَعُوهَا ، وَخَلَطُوهَا الْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ الْبَاطِلِ وَهَمُّوا فِيهَا وَابْتَدَعُوهَا ، وَزَخَّارَفَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمُضَعَّفَةَ لَفُتُّوهَا وَوَضَعُوهَا ، وَاقْتَفَى تِلْكَ الْأَثَارَ الْكَثِيرَ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَاتَّبَعُوهَا ، وَأَذَوْهَا إِلَيْنَا كَمَا سَمِعُوهَا ، وَلَمْ يَلْحِظُوا أَسْبَابَ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْوَالِ وَلَمْ يَرَاعَوْهَا ، وَلَا رَفَضُوا تَرْهَاتِ الْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا ، فَالتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ ، وَطَرَفُ التَّنْقِيحِ فِي الْغَالِبِ كَلِيلٌ ، وَالْغَلَطُ وَالْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ ، وَالتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي الْأَدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ ، وَالتَّطَفُّلُ عَلَى الْفُنُونِ غَرِيبٌ طَوِيلٌ ، وَمَرْغَى الْجَهْلِ بَيْنَ الْأَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ ، وَالْحَقُّ لَا يَقَاوِمُ سُلْطَانَهُ ، وَالْبَاطِلُ يُفْذَفُ بِشَهَابِ النَّظَرِ شَيْطَانَهُ ، وَالنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ ، وَالْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ الصَّحِيحَ إِذَا تَمَقَّلَ ، وَالْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ الْقُلُوبِ وَيَصْفُلُ .

(١) جمع قيل ، والتقيل الملك وقيل ، هو الرئيس دون الملك الأعلى .

(٢) نما الخبر أو الحديث ، ارتفع وذاع .

هذا وقد دَوَّنَ النَّاسُ فِي الْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا ، وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ الْأُمَمِ وَالْدُّوَلِ فِي الْعَالَمِ وَسَطَّرُوا ، وَالَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ الشُّهْرَةِ وَالْإِمَامَةِ الْمُعْتَبَرَةِ ، وَاسْتَفْرَغُوا دَوَائِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمُ الْمُتَأَخَّرَةِ ، هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ الْأَنَامِلِ ؛ وَلَا حَرَكَاتِ الْعَوَامِلِ ، مِثْلُ ابْنِ إِسْحَقَ وَالطَّبْرِيِّ وَابْنِ الْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ الْوَاقِدِيِّ وَسَيِّفِ بْنِ عَمْرِو الْأَسَدِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِيرِ ، الْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ الْجَمَاهِيرِ ، وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ الْمَسْعُودِيِّ وَالوَاقِدِيِّ مِنَ الْمَطْعَنِ وَالْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْأَثْبَاتِ . وَمَشْهُورٌ بَيْنَ الْحَفَظَةِ الثَّقَاتِ ، إِلَّا أَنَّ الْكَافَّةَ اخْتَصَّصَهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ ، وَاقْتِفَاءَ سُنَنِهِمْ فِي التَّصْنِيفِ وَاتِّبَاعَ آثارِهِمْ ؛ وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قَسَطَاسٌ نَفْسِهِ فِي تَرْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقَلُونَ أَوْ اعْتَبَرَهُمْ . فَلِلْمُعْزَنِ طِبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا الْأَخْبَارُ ، وَتَحْمَلُ عَلَيْهَا الرُّوَايَاتُ وَالْآثَارُ .

ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّوَارِيخِ لَهُوْلَاءُ عَامَّةُ الْمَنَاهِجِ وَالْمَسَالِكِ ، لِعُمُومِ الدُّوَلَتَيْنِ صَدَرِ الْإِسْلَامِ ^(١) فِي الْآفَاقِ وَالْمَمَالِكِ ؛ وَتَنَاوَلَهَا الْبَعِيدُ مِنَ الْغَايَاتِ فِي الْمَأْخِذِ وَالْمَتَارِكِ وَمِنْ هُوْلَاءَ مَنْ اسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ الْمِلَّةِ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ ، وَالْأَمْرُ الْعَمَمُ ^(٢) . كَالْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنَحَاهُ وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْإِطْلَاقِ إِلَى التَّقْيِيدِ وَوَقَفَ فِي الْعُمُومِ وَالْإِحَاطَةِ عَنِ الشَّأْوِ الْبَعِيدِ ، فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ ؛ وَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أَفْقِهِ وَقَطَرِهِ ، وَاقْتَصَرَ عَلَى تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ ، كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ الْأَنْدَلُسِ وَالِدَوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِهَا وَابْنُ الرَّفِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَّةِ وَالِدَوْلَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَيْرَوَانِ .

ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هُوْلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ ، وَيَلِيدُ الطَّنْبَعِ وَالْعَقْلِ وَ بَلِيدٌ ، يَنْسُجُ عَلَى ذَلِكَ الْمَنَوَالِ ، وَيَخْتَذِي مِنْهُ بِالْمِثَالِ ، وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ الْأَيَّامُ مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَاسْتَبَدَّلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ ، فَيَجْلِبُونَ ^(٣) الْأَخْبَارَ عَنِ الدُّوَلِ ،

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ وتصويب العبارة : لعموم صدر الإسلام والدولتين (أي دولة بني أمية

والدولة العباسية) .

(٢) امرعم ، تام ، عام (لسان العرب) .

(٣) بمعنى يجمعون .

وَحِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ فِي الْعُصُورِ الْأُولِ ، صَوْرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا ، وَصِفَاحًا
 انْتَضَيْتْ مِنْ أَعْمَادِهَا ، وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتَلَادِهَا ^(١) ، إِنَّمَا هِيَ
 حَوَادِثُ لَمْ تَعْلَمْ أَصُولُهَا ، وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُفْتَبِّرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا ، يُكَرَّرُونَ
 فِي مَوْضُوعَاتِهَا الْأَخْبَارَ الْمُتَدَاوِلَةَ بِأَعْيَانِهَا ، اتِّبَاعًا لِمَنْ غَنِيَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا ،
 وَيُعْفِلُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيَوَانِهَا ، يَمَّا أَعُوزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجُمَانِهَا ،
 فَتُسْتَعْجَمُ ^(٢) صُحُفُهَا عَنْ بَيَانِهَا ، ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا
 مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهَمًّا أَوْ صِدْقًا ، لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا ، وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ
 الَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا ، وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا ، وَلَا عِلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا ، فَيَبْقَى
 النَّاضِرُ مُتَطَلِّعًا بَعْدَ إِلَى افْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِي الدَّوْلِ وَمَرَاتِبِهَا ، مُفْتَشًّا عَنْ أَسْبَابِ
 تَزَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا ، بِإِحْسَانٍ عَنِ الْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُلِهَا ، حَسْبَمَا نَذَكَّرُ ذَلِكَ كُلَّهُ
 فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الْإِخْتِصَارِ ، وَذَهَبُوا إِلَى الْاِكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ
 الْمُلُوكِ وَالْاِقْتِصَارِ ، مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ ، مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَغْدَادُ أَيَّامِهِمْ
 بِحُرُوفِ الْعُبَارِ ^(٣) ، كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ ، وَمَنْ اقْتَفَى هَذَا الْأَثَرَ
 مِنَ الْهَمَلِ ، وَلَيْسَ يُفْتَبِّرُ لَهُوْلَاهُ مَقَالَ ، وَلَا يَعُدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا انْتِقَالَ ، لَمَّا أَذْهَبُوا
 مِنَ الْفَوَائِدِ ، وَأَخْلَوْا بِالْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ .

وَلَمَّا طَالَعْتُ كُتُبَ الْقَوْمِ ، وَسَبَرْتُ غَوْرَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ ، نَبَّهْتُ عَيْنَ الْقَرِيحَةِ
 مِنْ سِنَةِ الْعَقْلَةِ وَالنَّوْمِ ، وَسَمِعْتُ التَّضْئِيلَ مِنْ نَفْسِي وَأَنَا الْمَفْلِسُ أَحْسِنُ السُّوْمِ ^(٤) ،
 فَأَنْشَأْتُ فِي التَّارِيخِ كِتَابًا ، رَفَعْتُ بِهِ عَنْ أَحْوَالِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَجْيَالِ حِجَابًا ،
 وَفَضَّلْتُهُ فِي الْأَخْبَارِ وَالْاِعْتِبَارِ بَابًا بَابًا ، وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوَّلِيَةِ الدَّوْلِ وَالْعِمْرَانِ عِلَلًا
 وَأَسْبَابًا ، وَبَنَيْتُهُ عَلَى أَخْبَارِ الْأُمَمِ الَّذِينَ عَمَّرُوا الْمَغْرِبَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ ، وَمَلَأُوا

(١) أي قديمها وحديثها .

(٢) أسعج الكلام ، أصبح مبهمًا .

(٣) اسم العلامات تدل على الأعداد (قاموس) .

(٤) السوم ، طلب الشراء (لسان العرب) .

أَكْنَافِ الصُّوَا حِي مِنْهُ وَالْأَنْصَارِ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الطُّوَالِ أَوْ الْفِصَارِ ، وَمَنْ
سَلَفَ لَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَنْصَارِ ، وَهُمَا الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ ، إِذْ هُمَا الْجِيلَانِ اللَّذَانِ عُرِفَ
بِالْمَغْرِبِ مَا وَاهُمَا وَطَالَ فِيهِ عَلَى الْأَحْقَابِ مَثْوَاهُمَا ، حَتَّى لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُ فِيهِ
مَا عَدَاهُمَا ، وَلَا يَعْرِفُ أَهْلُهُ مِنْ أَجْيَالِ الْأَدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا ، فَهَذَبْتُ مَنَاجِيهَ
تَهْذِيبًا ، وَقَرَّبْتُه لَأَفْهَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْخَاصَّةِ تَقْرِيبًا ، وَسَلَكْتُ فِي تَرْتِيْبِهِ وَتَبْوِيْهِ
مَسْلَكًا غَرِيْبًا ، وَاخْتَرَعْتُهُ مِنْ بَيْنِ الْمَنَاجِيْ مَذْهَبًا عَجِيْبًا ، وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً
وَأَسْلُوبًا . وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَاءِ وَالتَّمَدُّنِ وَمَا يَغْرُضُ فِي الْاجْتِمَاعِ
الْإِنْسَانِي مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّائِيَةِ مَا يُمْتَعِكُ بِعِلَلِ الْكَوَائِنِ وَأَسْبَابِهَا ، وَيَعْرِفُكَ كَيْفَ
دَخَلَ أَهْلُ الدُّوَلِ مِنْ أَبْوَابِهَا : حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ التَّقْلِيدِ يَدَكَ ، وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ
مَا قَبْلَكَ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ وَرَبَّنْتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ .

المُقَدِّمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ وَالْإِلْمَاعِ بِمَفَالِطِ الْمُؤَرِّخِينَ .

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ فِي الْعُمَرَاءِ وَذَكَرَ مَا يَغْرُضُ فِيهِ مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّائِيَةِ مِنَ الْمُلُوكِ
وَالسُّلْطَانِ وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَمَا لِدَلِكِ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ .

الْكِتَابُ الثَّانِي فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدَوْلِهِمْ مِنْذُ مَبْدَأِ الْخَلِيقَةِ إِلَى هَذَا
الْعَهْدِ وَفِيهِ مِنَ الْإِلْمَاعِ بِنَغْضِ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَشَاهِيرِ وَدَوْلِهِمْ مِثْلَ النُّبُطِ
وَالسَّرِّيَانِيِّينَ وَالْفَرَسِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْقُبُطِ وَالْيُونَانِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ وَالْإِفْرَنْجَةِ

الْكِتَابُ الثَّلَاثُ فِي أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَمَوَالِيهِمْ مِنْ زَنَاتَةٍ وَذَكَرَ أَوَّلِيَّتِهِمْ وَأَخْيَالِهِمْ
وَمَا كَانَ يَدِيَارِ الْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ الْمُلُوكِ وَالدُّوَلِ ثُمَّ كَانَتْ الرِّخْلَةُ إِلَى الْمَشْرِقِ
لِاجْتِنَاءِ ^(١) أَنْوَارِهِ ، وَقَضَاءِ الْفَرَضِ وَالسُّنَّةِ فِي مَطَافِهِ وَمَزَارِهِ : وَالْوُقُوفِ عَلَى آثَارِهِ فِي
دَوَاوِينِهِ وَأَسْفَارِهِ : فَزِدْتُ مَا نَقَصَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ الْعَجَمِ يَتَلَكَّ الدِّيَارِ ، وَدَوْلِ
التُّرْكِ فِيمَا مَلَكَوهُ مِنَ الْأَقْطَارِ ، وَاتَّبَعْتُ بِهَا مَا كَتَبْتُهُ فِي تِلْكَ الْأَسْطَارِ ، وَأَذَرَجْتُهَا

(١) وَفِي بَعْضِ النُّسخِ لِاجْتِنَاءِ .

في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النواحي ، وملوك الأمصار والضواحي ،
سالكاً سبيل الاختصار والتلخيص ، مفتدياً بالمرام السهل من العويص ، داخلاً من
باب الأسباب على العموم إلى الإخبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليقة
استيعاباً ، ودلّل من الحكم النافرة صغاباً ، وأعطى لحوادث الدول عللاً وأسباباً ،
فأصبح للحكمة صواناً . وللتاريخ جراباً .

ولما كان مشتملاً على أخبار العرب والبربر ، من أهل المدن والوُبر ، والإلماع
بمن عاصرهم من الدول الكبرى ، وأفصح بالذكرى والعبر ، في مبتدأ الأحوال ومما
بغدها من الخبر ، سميته كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب
والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ولم أترك شيئاً في أولية
الأجيال والدول ، وتعاصر الأمم الأول ، وأسباب التصرف والحوال ، في القرون
الخالية والملي ، وما يعرض في العمران من دولة وملة ، ومدينة وحلة ^(١) ، وعزة
وذلة ، وكثرة وقلة ، وعلم وصناعة ، وكسب وإضاعة ، وأحوال متقلبة مشاعة ،
وبدور وحضر ، وواقع ومنتظر ، إلا واستوعبت جملة ، وأوضحت براهينه وعلله ،
فجاء هذا الكتاب فداً بما ضمنت من العلوم الغريبة ، والحكم المخجوية القريبة ،
وأنا من بعدها موقن بالقصور ، بين أهل العصور ، معترف بالعجز عن المضاء ، في
مثل هذا القضاء ^(٢) ، راغب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتسعة الفضاء ، في
النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء ، والتغميد ^(٣) لما يغترون عليه بالإصلاح
والإغضاء ، فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة ، والاعتراف من اللوم منجاة ،
والحسنى من الإخوان مرتجاة ، والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه
الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل .

وبعد أن استوفيت علاجه ، وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكنت سراجَه .

(١) الحلة ، القرية مجازاً ، ومعناها في الأصل ، القوم النازلون في مكان ما .

(٢) بمعنى ، هذه القضايا .

(٣) تغمده ، ستر ما كان منه .

وَأَوْضَحْتُ بَيْنَ الْعُلُومِ طَرِيقَهُ وَمِنْهَاجَهُ ، وَأَوْسَعْتُ فِي فُضَاءِ الْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ وَأَدْرْتُ
سِيَّاجَهُ ، أَتَحَفْتُ بِهَذِهِ النُّسخَةِ مِنْهُ ^(١) خِزَانَةَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْإِمَامِ الْمُجَاهِدِ ،
الْفَاتِحِ الْمَاهِدِ ، الْمُتَحَلِّيِّ مُنْذُ خَلَعِ التَّمَائِمِ ^(٢) ، وَلَوْثُ ^(٣) الْعَمَائِمِ ، بِحُلَى الْقَانِتِ
الزَّاهِدِ ، الْمُتَوَشِّجِ بِزَكَاةِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَحَامِدِ ، وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ وَالشَّوَاهِدِ ، بِأَجْمَلِ
مِنَ الْقَلَائِدِ ، فِي نُحُورِ الْوَلَائِدِ ، الْمُتَنَاولِ بِالْعِزِّ الْقَوِيِّ السَّاعِدِ ، وَالْجَدِّ الْمُوَاتِي
الْمُسَاعِدِ ، وَالْمَجْدِ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ ، ذَوَائِبِ مُلْكِهِمُ الرُّأْسِيِّ الْقَوَاعِدِ ، الْكَرِيمِ
الْمَعَالِي وَالْمَصَاعِدِ ، جَامِعِ أَشْجَاتِ الْعُلُومِ وَالْفَوَائِدِ ، وَنَاطِظِ شَمْلِ الْمَعَارِفِ
وَالشُّوَارِدِ ، وَمُظْهِرِ آيَاتِ الرُّبَانِيَّةِ ، فِي فَضْلِ الْمَدَارِكِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، بِفِكْرِهِ الثَّاقِبِ
النَّاقِدِ ، وَرَأْيِهِ الصَّحِيحِ الْمَعَاقِدِ ، النِّيرِ الْمَذَاهِبِ وَالْعَقَائِدِ ، نُورِ اللَّهِ الْوَاضِحِ
الْمَرَّاشِدِ ، وَنِعْمَتِهِ الْعُذْيَةِ الْمَوَارِدِ ، وَلُطْفِهِ الْكَامِنِ بِالْمَرَاصِدِ لِلشُّدَائِدِ ، وَرَحْمَتِهِ
الْكَرِيمَةِ الْمَقَالِدِ ، الَّتِي وَسِعَتْ صَلَاحَ الزَّمَانِ الْفَاسِدِ ، وَاسْتِقَامَةَ الْمَائِدِ مِنَ الْأَحْوَالِ

(١) قوله اتحفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله اتحفت
وبعد قوله وادرت سياجه ونصها التمس لهُ الكف الذي يلوح بعين الاستبصار فنونة . ويلحظ بمباركه الشريفة
معياره الصحيح وقانونه . ويميز رتبته في المعارف عما دونه . فسرحت فكري في فضاء الوجود . واجلت نظري ليل
التمام والوجود . بين التهايم والنجود . في العلماء الركع والسجود . والخلفاء أهل الكرم والوجود . حتى وقف
الاختيار بساحة الكمال . وطافت الأفكار بموقف الآمال . وظفرت أيدي المساعي والاعتماد . بمنتهى المعارف
مشروقة فيه غرر الجمال . وحدائق العلوم الوارفة الظلال . عن اليمين والشمال . فانخت مطمئ الأفكار في عرصاتها .
وجلوت محاسن الأنظار على منصاتها . واتحفت بديوانها مقاصير إيوانها . واطلعت كوكبا وقادا في أفق خزانها
وصوانها . ليكون آية للعقاء يهتدون بمناره . ويعرفون فضل المدارك الإنسانية في آثاره . وهي خزانة مولانا
السلطان الامام المجاهد . الفاتح الماهد . إلى آخر النعوت المذكورة هنا ثم قال الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب
العالمين أبو العباس أحمد ابن مولانا الأمير الطاهر المقدس أبي عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس أمير
المؤمنين . أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين . من أئمة الموحدين الذين جدوا الدين . ونهجوا السبل
للمهتدين . ومحووا أثر البغاة المفسدين من الجسمة والمعتدين . سلالة أبي الحفص والفاروق . والنبعة النامية على
تلك المغارس الزاكية والعروق . والنور المتألّهي من تلك الأشعة والبروق . فأوردته من مودعها إلى العلي بحيث مقر
الهدى . ورياض المعارف خضلة الندي . إلى آخر ما ذكر هنا الا أنه لم يقيّد الامامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة
مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة إلى المشرق الخ .

(٢) التيممة ، خريزة رقطاع تنظم في السير ، ثم يعقد في العنق ، وهي التمام والتيميم . عن ابن جنبي
وقيل ، هي قلادة يُجعل فيها سبور وعود ، وحكي عن ثعلب ، تمّت الولود ، علقت عليه التمام (لسان العرب) .
(٣) لوث ، غضب العمامة .

وَالْعَوَائِدِ ، وَذَهَبَتْ بِالْخَطُوبِ الْأَوَائِدِ ، وَخَلَعَتْ عَلَى الزَّمَانِ رَوْنَقَ الشَّبَابِ الْعَائِدِ ، وَحُجَّتِهِ الَّتِي لَا يُبْطِلُهَا إِنْكَارُ الْجَا حِدِ وَلَا شُبُهَاتُ الْمُعَانِدِ ، (أمير المؤمنين) أَبِي فَارِسٍ عَبْدُ الْعَزِيزِ ابْنُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُعْظَمِ الشَّهِيرِ الشَّهِيدِ أَبِي سَالِمٍ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُقَدَّسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبِي الْحَسَنِ ابْنِ السَّادَةِ الْأَعْلَامِ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مُرَيْنَ ، الَّذِينَ جَدُّوهُمُ الدِّينَ ، وَنَهَجُوا السَّبِيلَ لِلْمُهْتَدِينَ ، وَمَحَوُا أَثَارَ الْبَغَاةِ الْمُفْسِدِينَ ، أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْأُمَّةِ ظِلَالَهُ ، (وَبَلَّغَهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ أَمَالَهُ) .

وَبَعَثْتُهُ إِلَى خِزَانَتِهِمُ الْمُوقِفَةِ لِطَلَبَةِ الْعِلْمِ بِجَامِعِ الْقَرْوِيِّينَ مِنْ مَدِينَةِ فَارَسَ حَاضِرَةِ مُلْكِهِمْ وَكُرْسَى سُلْطَانِهِمْ ، حَيْثُ مَقَرَّ الْهُدَى ، وَرِيَاضُ الْمَعَارِفِ خَصْلَةُ النَّدَى . وَفَضَاءُ الْأَسْرَارِ الرُّبَائِيَّةِ فَسِيحُ الْمَدَى ، وَالْإِمَامَةُ الْفَارَسِيَّةُ الْكَرِيمَةُ ^(١) الْعَزِيزَةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَنْظُرُهَا الشَّرِيفُ ، وَفَضْلُهَا الْغَنِيُّ عَنِ التَّغْرِيفِ ، تَبَسُّطُ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ مِهَادًا ، وَتَنْفَسُحُ لَهُ فِي جَانِبِ الْقَبُولِ أَمَادًا ، فَتُوضَحُ بِهَا أُدْلَةُ عَلَى رُسُوحِهِ وَأَشْهَادًا ، فَفِي سَوْقِهَا تُنْفَقُ بَضَائِعُ الْكُتَابِ وَعَلَى حَضْرَتِهَا تُعْكَفُ رَكَائِبُ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ ، وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا الْمُنِيرَةِ نَتَائِجُ الْقَرَائِحِ وَالْأَلْبَابِ ، وَاللَّهُ يُوَزِّعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا ، وَيُوفِّرُ لَنَا حُطُوطَ الْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا ، وَيَجْعَلُنَا مِنَ السَّابِقِينَ فِي مِيدَانِهَا الْمُحَلِّينَ فِي حَوْمَتِهَا ، وَيُضْفِي عَلَى أَهْلِ إِيَالَتِهَا ، وَمَا أَوْيَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عَمَالَتِهَا ، لُبُوسَ حِمَايَتِهَا وَحُرْمَتِهَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وَجْهِتِهَا ، بَرِيئَةً مِنْ شَوَائِبِ الْغَفْلَةِ وَشُبُهَتِهَا ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) قوله الفارسية أي النسوبة إلى أبي فارس للتقدم ذكره ١ هـ .

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض
للمؤرخين

من المغالط وذكر شيء من أسبابها

اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا^(١) على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم . والأنبياء في سيرهم . والملوك في دولهم وسياساتهم . حتى تيمم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبوت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزالات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والخيد عن جادة الصدى وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأغداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد .

(٢) بمعنى يطلعا . وهي لغة ضعيفة .

وَهَذَا كَمَا نَقَلَ الْمَسْعُودِي وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي جُيُوشِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّ
 مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْصَاهُمْ فِي التَّيِّهِ بَعْدَ أَنْ أجازَ مَنْ يُطِيقُ حَمْلَ السِّلَاحِ خَاصَّةً
 مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ فَمَا فَوْقَهَا فَكَانُوا سِتْمَائَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَيَذْهَلُ فِي ذَلِكَ عَنْ
 تَقْدِيرِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَأَتَسَاعِيهِمَا لِمِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْجُيُوشِ لِكُلِّ مَمْلَكَةٍ مِنْ
 الْمَمَالِكِ حِصَّةً مِنَ الْحَامِيَةِ تَتَّسِعُ لَهَا وَتَقُومُ بِوُطَائِفِهَا وَتَضِيقُ عَمَّا فَوْقَهَا تَشْهَدُ
 بِذَلِكَ الْعَوَائِدُ الْمَعْرُوفَةُ وَالْأَحْوَالُ الْمَأْلُوفَةُ ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجُيُوشِ الْبَالِغَةِ إِلَى مِثْلِ
 هَذَا الْعَدَدِ يَنْبَغُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَخَفٌ أَوْ قِتَالٌ لِيَضِيقَ سَاحَةَ الْأَرْضِ عَنْهَا وَبُعْدُهَا إِذَا
 اضْطَفَّتْ عَنْ مَدَى الْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا فَكَيْفَ يَقْتَتِلُ هَذَانِ الْفَرِيقَانِ أَوْ
 تَكُونُ غَلَبَةُ أَحَدِ الصَّفَيْنِ وَشَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ لَا يَشْعُرُ بِالْجَانِبِ الْآخَرِ وَالْحَاضِرُ
 يَشْهَدُ لِذَلِكَ فَالْمَاضِي أَشْبَهُ بِالْآتِي مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ .

وَلَقَدْ كَانَ مَلِكُ الْفُرْسِ وَدَوْلَتُهُمْ أَعْظَمُ مِنْ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ يَشْهَدُ
 لِذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ بَخْتَنْصَرٍ لَهُمْ وَالتَّيْهَامِيهِ بِلَادَهُمْ وَاسْتِيلَايِهِ عَلَى أَمْرِهِمْ
 وَتَغْرِيْبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَاعِدَةَ مَلِكْتِهِمْ وَسُلْطَانِيَّتِهِمْ وَهُوَ مِنْ بَعْضِ عُمَالِ مَمْلَكَةِ فَارِسَ
 يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مَرْزُبَانَ الْمَغْرِبِ مِنْ تَخُومِهَا وَكَانَتْ مَمَالِكُهُمْ بِالْعِرَاقَيْنِ وَخَرَّاسَانَ
 وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَالْأَبْوَابِ أَوْسَعُ مِنْ مَمَالِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ وَقَعَ ذَلِكَ لَمْ تَبْلُغْ
 جُيُوشُ الْفُرْسِ قَطُّ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَأَعْظَمُ مَا كَانَتْ جُمُوعُهُمْ
 بِالْقَادِسِيَّةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتَّبِعُونَ عَلَى مَا نَقَلَهُ سَيْفٌ ^(١) قَالَ وَكَانُوا فِي
 أَتْبَاعِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ أَلْفٍ وَعَنْ عَائِشَةَ وَالزُّهْرِيِّ فَإِنْ جُمُوعُ رُسْتَمِ الَّذِينَ زَخَفَ
 بِهِمْ سَعْدٌ بِالْقَادِسِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا سِتِّينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتَّبِعُونَ وَأَيْضًا فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ
 مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ لَاتَّسَعَ نِطَاقُ مُلْكِهِمْ وَانْفَسَحَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ فَإِنَّ الْعِمَالَاتِ وَالْمَمَالِكِ فِي
 الدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَامِيَةِ وَالْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي قَلْبِهَا وَكَثَرَتِهَا حَسَبًا نَبِيْنُ فِي
 فَضْلِ الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْقَوْمُ لَمْ تَتَّسِعْ مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ الْأَرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ
 مِنَ الشَّامِ وَبِلَادِ يَثْرِبَ وَخَيْبَرَ مِنَ الْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ .

(١) هُوَ سَيْفُ بَنِ غَمَرِ الْأَسَدِيِّ ، مِنْ جَامِعِي تَوَارِيخِ الْأُمَمِ وَالْدُّوَلِ .

وَأَيْضاً فَالَّذِي بَيْنَ مُوسَى وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ
فَإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ يَصْهَرِ بْنِ قَاهَتَ يَفْتَحَ النَّهَاءَ وَكَسَرَهَا ابْنُ لَأَوِي يَكْسِرُ
الْوَاوَ وَفَتْحَهَا ابْنُ يَعْقُوبَ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ اللَّهُ هَكَذَا نَسَبُهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْمَدَّةُ بَيْنَهُمَا عَلَى
مَا ثَقَّلَهُ الْمَسْعُودِيُّ قَالَ دَخَلَ إِسْرَائِيلُ مِصْرَ مَعَ وَلَدِهِ الْأَسْبَاطِ وَأَوْلَادِهِمْ حِينَ أَتَوْا إِلَى
يُوسُفَ سَبْعِينَ نَفْساً وَكَانَ مَقَامُهُمْ بِمِصْرَ إِلَى أَنْ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى
الْتِيهِ مِائَتَيْنِ وَعَشْرِينَ سَنَةً تَتَدَاوَلُهُمْ مُلُوكُ الْقِبْطِ مِنَ الْفِرَاعِنَةِ وَيَبْعُدُ أَنْ يَتَشَعَّبَ
النَّسْلُ فِي أَرْبَعَةِ أَجْيَالٍ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ عَدَدَ تِلْكَ الْجُيُوشِ إِنَّمَا كَانَ
فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ وَمِنْ بَعْدِهِ فَبَعِيدٌ أَيْضاً إِذْ لَيْسَ بَيْنَ سُلَيْمَانَ وَإِسْرَائِيلَ إِلَّا أَحَدُ عَشَرَ
أَباً فَإِنَّهُ سُلَيْمَانَ بْنُ دَاوُدَ بْنِ يَشَا بْنِ عَوْفِيذَ (وَيُقَالُ ابْنُ عَوْفِيذَ) ابْنُ بَاغَزَ
(وَيُقَالُ بُوَعَزَ) ابْنُ سَلْمُونِ بْنِ نَحْشُونِ بْنِ عَمِينُودَبَ (وَيُقَالُ حَمِينَاذَابَ) ابْنُ
رَمَ بْنِ حَضْرُونَ (وَيُقَالُ حَسْرُونَ) ابْنُ بَارَسَ (وَيُقَالُ بَيْرَسَ) ابْنُ يَهُوذَا بْنِ
يَعْقُوبَ وَلَا يَتَشَعَّبُ النَّسْلُ فِي أَحَدٍ عَشَرَ مِنَ الْوُلْدِ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ الَّذِي زَعَمُوهُ
اللَّهُمَّ إِلَى الْمِائَتَيْنِ وَالْآلَافِ فَرُبَّمَا يَكُونُ وَأَمَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ إِلَى مَا بَعْدَهُمَا مِنْ عَقُودِ
الْأَعْدَادِ فَبَعِيدٌ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْحَاضِرِ الْمَشَاهِدِ وَالْقَرِيبِ الْمَعْرُوفِ تَجِدُ زَعْمَهُمْ
بَاطِلاً وَنَقْلَهُمْ كَاذِباً .

وَالَّذِي ثُبِتَ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنَّ جُنُودَ سُلَيْمَانَ كَانَتْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً خَاصَّةً
وَأَنَّ مَقَرَّ بَاتِيهِ ^(١) كَانَتْ أَلْفاً وَأَرْبَعِمِائَةً فَرَسٍ مُرْتَبِطَةً عَلَى أَبْوَابِهِ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ
أَخْبَارِهِمْ وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى خِرَافَاتِ الْعَامَّةِ مِنْهُمْ وَفِي أَيَّامِ سُلَيْمَانَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)
وَمُلْكِهِ كَانَ عُنْفُوَانُ دَوْلَتِهِمْ وَاتَّسَاعَ مُلْكُهُمْ هَذَا وَقَدْ نَجِدُ الْكَافَّةَ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ إِذَا
أَفَاضُوا فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَسَاكِرِ الدُّوَلِ الَّتِي لِعَهْدِهِمْ أَوْ قَرِيباً مِنْهُ وَتَفَافُضُوا فِي
الْأَخْبَارِ عَنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ النَّصَارَى أَوْ أَخَذُوا فِي إِخْصَاءِ أَمْوَالِ الْجَبَايَاتِ
وَخَرَاجِ السُّلْطَانِ وَنَفَقَاتِ الْمُتَرْفِينَ وَبَضَائِعِ الْأَغْنِيَاءِ الْمُسَوِّرِينَ تَوَعَّلُوا فِي الْعَدَدِ

(١) المقربات ، جمع مقربة ، وهي من الخيل التي يقرب مملعها ومربطها لكرامتها .

وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ الْعَوَائِدِ وَطَاوَعُوا وَسَاوَسَ الْإِعْرَابِ فَإِذَا اسْتُكْشِفَ أَصْحَابُ
الدَّوَاوِينِ عَنْ عَسَاكِرِهِمْ وَاسْتَنْبَطَتْ أَحْوَالُ أَهْلِ الثَّرْوَةِ فِي بِضَائِعِهِمْ وَفَوَائِدِهِمْ
وَاسْتَجْلَيْتْ عَوَائِدُ الْمُتَرَفِّينَ فِي نَفَقَاتِهِمْ لَمْ تَجِدْ مِعْشَارَ مَا يَعُدُّونَهُ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَوْلُوعِ
النَّفْسِ بِالْفَرَائِبِ وَسُهُولَةِ التَّجَاوُزِ عَلَى اللِّسَانِ وَالْغَفْلَةِ عَلَى الْمُتَعَقِّبِ وَالْمُنْتَقِدِ حَتَّى
لَا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى خَطَا وَلَا عَمْدٍ وَلَا يَطَالِبُهَا فِي الْخَبَرِ بِتَوْسِطٍ وَلَا عَدَالَةٍ
وَلَا يُرْجِعُهَا إِلَى بَحْثٍ وَتَفْتِيشٍ فَيُرْسِلُ عَنَانَهُ وَيَسِيمُ فِي مَرَاتِعِ الْكَذِبِ لِسَانَهُ وَيَتَّخِذُ
آيَاتِ اللَّهِ هِزَاءً^(١) وَيَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثَ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَحُسْبِكَ بِهَا صَفْقَةٌ
خَاسِرَةٌ .

وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي أَخْبَارِ التَّبَاعَةِ مُلُوكِ
الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْزُونَ مِنْ قُرَاهُمْ بِالْيَمَنِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةٍ^(٢) وَالْبَرْبَرِ
مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَأَنَّ أَفْرِيقِيَّشَ بْنِ قَيْسٍ بْنِ صَيْفِيٍّ مِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِهِمُ الْأَوَّلِ وَكَانَ
لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ غَزَا أَفْرِيقِيَّةً وَأَثَخَنَ فِي الْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ الَّذِي
سَمَّاهُمْ بِهَذَا الْإِسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَانَتَهُمْ وَقَالَ مَا هَذِهِ الْبَرْبَرَةُ فَأَخَذَ هَذَا الْإِسْمَ عَنْهُ
وَدَعَا بِهِ مِنْ حِينِيذٍ وَأَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الْمَغْرِبِ حَجَزَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ مِنْ حِمِيرٍ
فَأَقَامُوا بِهَا وَاخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صَنْهَاجَةٌ^(٣) وَكِتَامَةٌ وَمِنْ هَذَا ذَهَبَ الطَّبْرِيُّ
وَالْجَرْجَانِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَابْنُ الْكَلْبِيِّ وَالْبَيْهَقِيُّ إِلَى أَنَّ صَنْهَاجَةَ وَكِتَامَةَ مِنْ حِمِيرٍ
وَتَأْبَاهُ نَسَابَةُ الْبَرْبَرِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضاً أَنَّ ذَا الْإِذْغَارِ مِنْ مُلُوكِهِمْ
قَبْلَ أَفْرِيقِيَّشَ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) غَزَا الْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ وَكَذَلِكَ
ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَاسِرِ ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِي الرُّمْلِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ
فِيهِ مَسْلُكاً لِكَثْرَةِ الرُّمْلِ فَزَجَعَ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي تَبَعِ الْآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرْبٍ
وَكَانَ عَلَى عَهْدِ يَسْتَأْسَفَ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ الْكِيَانِيَّةِ أَنَّهُ مَلِكُ الْمُوصِلِ وَأَذْرِيجَانَ

(١) وفي بعض النسخ هُزُواً .

(٢) كَذَا المشهور بدون تشديد الباء ، وقد تشددت الباء ، (أفريقية) في معجم البلدان لياقوت الحموي .

(٣) صنهاجة بفتح الصاد كما هي معروفة في المغرب ، وبكسر الصاد كما وردت في ألف .

وَلَقِيَ التُّرْكُ فَهَزَمَهُمْ وَأَتَخَنَ ثُمَّ غَرَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ وَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَغْرَى ثَلَاثَةً مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ وَإِلَى بِلَادِ الصُّغَدِ مِنْ بِلَادِ أَمَمِ التُّرْكِ وَرَاءَ النَّهْرِ وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ فَمَلَكَ الْأَوَّلُ الْبِلَادَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَطَعَ الْمَفَازَةَ إِلَى الصِّينِ فَوَجَدَ أَخَاهُ الثَّانِي الَّذِي غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأَتَخَنَا فِي بِلَادِ الصِّينِ وَرَجَعَا جَمِيعاً بِالْغَنَائِمِ وَتَرَكَوْا بِلَادَ الصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ حِمِيرٍ فَهُمْ بِهَا إِلَى هَذَا الْقَعْدِ وَبَلَغَ الثَّالِثُ إِلَى قِسْطَنْطِينِيَّةٍ فَدَرَسَهَا^(١) وَدَوَّخَ بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ .

وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة . وذلك أن ملك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن . وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه إلى البصرة من المشرق وبحر السويس الهابط منه إلى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصور الجغرافيا فلا يجد السالكون من اليمن إلى المغرب طريقاً من غير السويس والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قد مرّ حلتين فما دونهما ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن يصير من أعماله هذه ممتنع في العادة . وقد كان يتلك الأعمال العمالة وكنعان بالشام والقبط بمصر ثم ملك العمالة مصر وملك بنو إسرائيل الشام ولم ينقل قط أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم ولا ملكوا شيئاً من تلك الأعمال وأيضاً فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا إلى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرّون عليه ولا يكفي ذلك للأزودة والعلوفة عادة وإن نقلوا كما يتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله فلا بد وأن يمرّوا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها وإن قلنا إن تلك العساكر تمرّ بهؤلاء الأمم من غير أن

(٢) درس الأثر : بمعنى محاه (لسان العرب) .

تَهَيَّجَهُمْ فَتَخْضَلُ لَهُمُ الْمِيرَةُ بِالمَسَالِمَةِ فَذَلِكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتِنَاعاً فَذَلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ
الْأَخْبَارَ وَاهِيَةً أَوْ مَوْضُوعَةً .

وَأَمَّا وَادِي الرُّمْلِ الَّذِي يُعْجِزُ السَّالِكَ فَلَمْ يَسْمَعْ قَطُّ ذِكْرَهُ فِي الْمَغْرِبِ عَلَى
كَثْرَةِ سَالِكِيهِ وَمَنْ يَقْصُ طَرِيقَهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَالْقَرَى ^(١) فِي كُلِّ عَصْرِ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ
عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْغَرَابَةِ تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى تَقْلِهِ . وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ وَأَرْضَ
التُّرْكِ وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ السُّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ الشُّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ وَأَمَمَ فَارِسَ
وَالرُّومَ مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ وَلَمْ يَنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعِيَةَ مَلَكَوْا بِلَادَ فَارِسَ
وَلَا بِلَادَ الرُّومِ وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ وَالْحِيرَةِ وَالْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفَرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْأَعْمَالِ وَقَدْ وَقَعَ
ذَلِكَ بَيْنَ ذِي الْإِذْعَارِ مِنْهُمْ وَكَيْكَائُوسَ مِنْ مُلُوكِ الْكِيَانِيَّةِ وَبَيْنَ تَيْعِ الْأَصْغَرِ أَبِي
كَرْبَ وَيَسْتَأْسِفُ مِنْهُمْ أَيْضاً وَمَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بَعْدَ الْكِيَانِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ
بَعْدِهِمْ بِمَجَاوِزَةِ ^(٢) أَرْضِ فَارِسَ بِالْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَادَةً مِنْ
أَجْلِ الْأَمَمِ الْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ وَالْحَاجَةِ إِلَى الْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَاتِ مَعَ بَعْدِ الشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ
فَالْأَخْبَارُ بِذَلِكَ وَاهِيَةٌ مَذْخُولَةٌ وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً النُّقْلِ لَكَانَ ذَلِكَ قَادِحاً فِيهَا
فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرٍ يَثْرِبُ وَالْأَوْسَ
وَالْخَزْرَجَ أَنَّ تَبْعاً الْآخِرَ سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ مَحْمُولاً عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَمَّا بِلَادُ
التُّرْكِ وَالتَّبَتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا يَوْجِيهِ لَمَّا تَقَرَّرَ فَلَا تَثْقَنَ بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ
ذَلِكَ وَتَأْمَلِ الْأَخْبَارَ وَاعْرِضْهَا عَلَى الْقَوَائِنِ الصَّحِيحَةِ يَقَعُ لَكَ تَمْحِصُهَا بِأَحْسَنِ
وَجْهِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ .

فصل

وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْرَقَ فِي الْوَهْمِ مَا يَتَنَاقَلُهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ «الْفَجْرِ»

(١) بمعنى ، الأشخاص الذين يطوفون في البلاد (قاموس) .

(٢) كذا بالأصل في جميع النسخ وتصويب العبارة ، وأما مجاوزة أرض فارس . .

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) فَيَجْعَلُونَ لَفْظَةَ إِرَمَ اسْمًا لِمَدِينَةٍ وَصِفَتْ بِأَنَّهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَيْ أَسَاطِينٍ وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ عَوْصٍ بْنِ إِرَمَ ابْنَانِ هُمَا شَدِيدٌ وَشَدَادٌ مَلَكَا مِنْ بَعْدِهِ وَهَلَكَ شَدِيدٌ فَخَلَصَ الْمَلِكُ لَشَدَادٍ وَذَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ وَسَمِعَ وَصَفَ الْجَنَّةِ فَقَالَ لَا بُدَّ مِنْ مِثْلِهَا فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي صَحَارَى عَدَنَ فِي مَدَّةٍ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ عُمْرُهُ تِسْعِمِائَةِ سَنَةٍ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ قُصُورُهَا مِنَ الذَّهَبِ وَأَسَاطِينُهَا مِنَ الزَّبَرْجَدِ وَالْيَاقُوتِ وَفِيهَا أَصْنَافُ الشَّجَرِ وَالْأَنْهَارُ الْمُطْرَدَةُ^(١) وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً مِنَ السَّمَاءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ . ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبْرِيُّ وَالثَّعَالِبِيُّ وَالزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَيَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَلَابَةَ^(٢) مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَلَ مِنْهَا مَا قَدِرَ عَلَيْهِ وَبَلَغَ خَبْرَهُ مُعَاوِيَةَ فَأَخْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ فَتَبَحَّثَ عَنْ كُفِّ الْأَخْبَارِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ هِيَ إِرَمُ ذَاتُ الْعِمَادِ وَسَيَدْخُلُهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحْمَرُ أَشَقَرُ قَصِيرٌ عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ وَعَلَى عُنُقِهِ خَالٌ يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ ثُمَّ التَفَّتْ فَأَبْصَرَ ابْنَ قَلَابَةَ فَقَالَ هَذَا وَاللَّهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ .

وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا خَبَرٌ مِنْ يَوْمِئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ وَصَحَارَى عَدَنَ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بُنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسْطِ الْيَمَنِ وَمَا زَالَ عُمْرَانُهَا مُتَعاقِبًا وَالْأَدْلَاءُ تَقْصُ طَرَفَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَلَمْ يَنْقُلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ خَبَرٌ وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنَ الْإِخْبَارِيِّينَ وَلَا مِنَ الْأَمَمِ وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دُرُسَتْ فِيمَا دُرُسَ مِنَ الْأَثَارِ لَكَانَ أَشْبَهَ إِلَّا أَنَّ ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا دِمَشْقُ بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكُوهَا وَقَدْ يَنْتَهِي الْهَذْيَانُ يَبْغِضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ وَإِنَّمَا يَغْتَرُّ عَلَيْهَا أَهْلُ الرِّيَاضَةِ وَالسَّحَرِ مَزَايِمَ كُلِّهَا أَشْبَهَ بِالْخِرَافَاتِ وَالَّذِي حَمَلَ الْمَفْسَّرِينَ

(١) الجارية .

(٢) هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي وكنيته ، أبو قلابة وهو من التابعين (معجم الأدباء) .

على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة ذات العِمَاد أنها صفة إِرَمَ وَحَمَلُوا
 العِمَاد على الأساطين فَتَعَيَنَ أَنْ يَكُونَ بِنَاءً وَرَشَّحَ لَهُمْ ذَلِكَ قِرَاءَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ عَادَ
 إِرَمَ عَلَى الإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ
 بِالْأَقَاصِيصِ الْمَوْضُوعَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْكُذِبِ الْمَنْقُولَةِ فِي عِدَادِ الْمُضْحِكَاتِ
 وَإِلَّا فَالْعِمَادُ هِيَ عِمَادُ الْأَخْيَةِ بَلِ الْخِيَامِ وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا الْأَسَاطِينُ فَلَا بَدْعَ فِي
 وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينُ عَلَى الْعُمُومِ بِمَا اشْتَهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ لِأَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ
 فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَإِنْ أَضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَعَلَى إِضَافَةِ الْفَصِيلَةِ
 إِلَى الْقَبِيلَةِ كَمَا تَقُولُ قُرَيْشُ كِنَانَةَ وَالنَّاسُ مُضَرٌّ وَرَبِيعَةٌ نِزَارَةٌ وَأَيُّ ضَرُورَةٍ إِلَى هَذَا
 الْمُحْمِلِ الْبَعِيدِ الَّذِي تُمَحَّلَتْ^(١) لِتَوْجِيهِهِ لَأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي يُنَزَّهُ
 كِتَابُ اللَّهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعِيدِهَا عَنِ الصَّحَةِ .

وَمِنْ الْحِكَايَاتِ الْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ الرَّشِيدِ
 لِلْبِرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ الْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مَوْلَاهُ وَأَنَّهُ لِكَلْفِهِ
 بِمَكَانِهِمَا مِنْ مَعَاقَرَتِهِ إِيَاهُمَا الْخَمْرَ أَذِنَ لَهُمَا فِي عَقْدِ النِّكَاحِ دُونَ الْخُلُوةِ حِرْصًا
 عَلَى اجْتِمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ وَأَنَّ الْعَبَّاسَةَ تَحَيَّلَتْ عَلَيْهِ فِي التَّمَسُّكِ الْخُلُوةَ بِهِ لَمَّا شَفَقَهَا
 مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَهَا (زَعَمُوا فِي حَالَةِ السُّكْرِ) فَحَمَلَتْ وَوَشَّى بِذَلِكَ لِلرَّشِيدِ
 فَاسْتَفْضَبَ وَهِنْهَا ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ الْعَبَّاسَةِ فِي دِينِهَا وَأَبَوِيَّتِهَا وَجَلَالِهَا وَأَنَّهَا بِنْتُ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ هُمْ أَشْرَافُ الدِّينِ وَعُظَمَاءُ
 الْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَالْعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ الْمِهْدِيِّ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرِ
 الْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّجَّادِ ابْنِ عَلِيِّ أَبِي الْخُلَفَاءِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ تَرْجُمَانِ
 الْقُرْآنِ ابْنِ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ (ﷺ) ابْنَةُ خَلِيفَةِ أُخْتُ خَلِيفَةٍ مَخْهُوفَةٍ بِالْمَلِكِ
 الْغَزِيرِ وَالْخِلَافَةِ النَّبَوِيَّةِ وَصَحْبَةِ الرَّسُولِ وَعُمُومَتِهِ وَإِقَامَةِ الْمِلَّةِ وَنُورِ الْوَحْيِ وَمَهْبطُ

(١) تمحل للشيء بمعنى احتال في طلبه . وفي العبارة اضطراب . والتصويب « الذي تمحل لتوجيهه
 بأمثال هذه الحكايات » .

الْمَلَائِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا قَرِيبَةً عِنْدَ بِيَدَاوَةِ الْعُرُوْبِيَّةِ وَسَدَاجَةِ ^(١) الدِّينِ الْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَائِدِ التَّرَفِّ وَمَرَاتِعِ الْفَوَاحِشِ فَأَيُّنَ يُطْلَبُ الصُّوْنُ وَالْعَفَافُ إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا أَوْ أَيْنَ تَوْجَدُ الطَّهَارَةُ وَالذِّكَاؤُ ^(٢) إِذَا فَقِدَا مِنْ بَيْتِهَا أَوْ كَيْفَ تَلْحَمُ نَسَبُهَا بِخَفْمَرِ بْنِ يَحْيَى وَتَدْنُسُ شَرْفَهَا الْعَرَبِيُّ بِمَوْلَى مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ بِمَلَكَ جَدِّهِ مِنَ الْفُرسِ أَوْ بِوَلَاءِ جَدِّهَا مِنْ عُمُوْمَةِ الرُّسُولِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتُهُمْ بِضِعْبِهِ وَضَمَّعَ أَيْبِهِ وَاسْتَخْلَصَتْهُمْ وَرَقَّتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الْأَشْرَافِ وَكَيْفَ يَسُوْعُ مِنَ الرُّشِيدِ أَنْ يُضَهَرَ إِلَى مَوَالِي الْأَعَاجِمِ عَلَى بُعْدِ هِمَّتِهِ وَعَظَمِ آبَائِهِ وَلَوْ نَظَرَ الْمُتَأَمِّلُ فِي ذَلِكَ نَظَرَ الْمُنْصِيفِ وَقَاسَ الْعِبَاسَةَ بِأَبْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عَظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ لَاسْتَنَكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ مَوْلَى مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وَفِي سُلْطَانِ قَوْمِهَا وَاسْتَنَكْرَهُ وَلَجَّ فِي تَكْذِيبِهِ وَأَيْنَ قَدَّرَ الْعِبَاسَةَ وَالرُّشِيدَ مِنَ النَّاسِ .

وَإِنَّمَا نَكَبُ الْبَرَامِكَةَ مَا كَانَ مِنْ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى الدَّوْلَةِ وَاجْتِنَافِهِمْ ^(٣) أَمْوَالَ الْجَبَايَةِ حَتَّى كَانَ الرُّشِيدُ يُطْلَبُ الْيَسِيرُ مِنَ الْمَالِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ فَعَلَبُوهُ عَلَى أَمْرِهِ وَشَارَكُوهُ فِي سُلْطَانِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُورِ مُلْكِهِ فَعَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَبَعُدَ صِيَّتُهُمْ وَعَمَرُوا مَرَاتِبَ الدَّوْلَةِ وَخَطَطُهَا ^(٤) بِالرُّؤَسَاءِ مِنْ وَلَدِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَاجْتَنَزَوْهَا عَنْ سِوَاهُمْ مِنْ وَزَارَةٍ وَكِتَابَةٍ وَقِيَادَةٍ وَحِجَابَةٍ وَسَيْفٍ وَقَلَمٍ . يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَذَارُ الرُّشِيدَ مِنْ وَلَدِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ خَمْسَةَ وَعِشْرُونَ رَئِيسًا مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ زَاخَمُوا فِيهَا أَهْلَ الدَّوْلَةِ بِالْمَنَاقِبِ وَدَفَعُوهُمْ عَنْهَا بِالزَّوْجِ لِمَكَانٍ أَيْبِهِمْ يَحْيَى مِنْ كِفَالَةِ هَارُونَ وَلِيٍّ عِنْدَ وَخَلِيفَةٍ حَتَّى شَبَّ فِي حُجْرِهِ وَدَرَجَ

(١) بمعنى الوضع الصحيح الطبيعي الذي لم تشبه شائبة (قاموس) .

(٢) في جميع النسخ المطبوعة الذكاء بالذال . وفي النسخة الباريسية المخطوطة . الزكاء بالزيم وهو الأصح بمعنى الصلاح .

(٣) احتجف الشيء . استخلصه وحازه . والأصح استعمال كلمة احتجانبهم . واحتجن الشيء أي جذبه . ولكن ابن خلدون يعتمد استعمال الكلمات الفريدة .

(٤) جمع خُطَّة بضم الخاء وهي بمعنى الامر . واما بالكسر كما أوردها محقق لجنة البيان العربي بمعنى « المكان المخطط لعمارة » فليس لها معنى في هذا المقام .

مِنْ عَشِيهِ وَغَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ يَدْعُوهُ يَا أَبَتِ فَتَوَجَّهَ الْإِيثَارُ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ
 وَعَظُمَتِ الدَّالَّةُ مِنْهُمْ وَانْبَسَطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ وَانْصَرَفَتْ نَحْوُهُمُ الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهُمْ
 الرِّقَابُ وَقَصُرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَمَالُ وَتَخَطَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْصَى التُّخُومِ هَذَا يَا الْمُلُوكِ
 وَتَحَفُ الْأَمْرَاءُ وَتَسَرَّبَتْ إِلَى خَزَائِنِهِمْ فِي سَبِيلِ التَّرْلِفِ وَالِاسْتِمَالَةِ أَمْوَالُ الْجَبَايَةِ
 وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الشَّيْعَةِ وَعَظَمَاءِ الْقَرَايَةِ الْعَطَاءَ وَطَوَّقُوهُمْ الْمِنْنَ وَكَسَبُوا^(١) مِنْ
 يَبُوتَاتِ الْأَشْرَافِ الْمُعْدَمِ وَفَكُّوا الْعَانِي^(٢) وَمَدَحُوا بِمَا لَمْ يُمْدَخْ بِهِ خَلِيفَتَهُمْ وَأَسْنَوْا
 لِعُفَاتِهِمْ^(٣) الْجَوَائِزَ وَالصَّلَاتِ وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْقُرَى وَالضِّيَاعِ مِنَ الصَّوَاغِي وَالْأَمْصَارِ
 فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ حَتَّى أَسَفُوا الْبَطَانَةَ وَأَخَقَدُوا الْخَاصَّةَ وَأَغْصُوا^(٤) أَهْلَ الْوِلَايَةِ
 فَكَشِفَتْ لَهُمْ وَجُوهُ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ وَذُبَّتْ إِلَى مِهَادِهِمُ الْوُثِيرِ مِنَ الدَّوْلَةِ عَقَارِبُ
 السَّعَايَةِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ بَنُو قُحْطَبَةَ أَخْوَالُ جَعْفَرٍ مِنْ أَعْظَمِ السَّاعِينَ عَلَيْهِمْ لَمْ
 تَغْطِفْهُمْ لَمَّا وَقَرَ فِي نَفُوسِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ عَوَاطِفُ الرَّحِمِ وَلَا وَزَعَتْهُمْ أَوَاصِرُ الْقَرَايَةِ
 وَقَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَ مَخْدُومِهِمْ نَوَاشِيءَ الْغَيْرَةِ وَالِاسْتِنْكَافِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْأَنْفَةِ
 وَكَانَ الْحُقُودُ الَّتِي بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ الدَّالَّةِ . وَانْتَهَى بِهَا الْإِضْرَارُ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى
 كِبَائِرِ الْمُخَالَفَةِ كَقِصَّتِهِمْ فِي يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ
 عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ الْمُلقَّبِ بِالنَّفْسِ الزُّكِّيَّةِ الْخَارِجِ عَلَى
 الْمَنْصُورِ وَيَحْيَى هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بِلَادِ الدَّيْلَمِ عَلَى أَمَانِ
 الرَّشِيدِ بِخَطِّهِ وَبَذَلَ لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَدَفَعَهُ الرَّشِيدُ
 إِلَى جَعْفَرٍ وَجَعَلَ اغْتِقَالَهُ بِذَارِهِ وَإِلَى نَظَرِهِ فَحَبَسَهُ مُدَّةً ثُمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ
 سَبِيلِهِ وَالِاسْتِبْدَادِ بِحَلِّ عِقَالِهِ حُرْمًا^(٥) لِدِمَائِهِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِزَعْمِهِ وَدَّالَّةً عَلَى السُّلْطَانِ
 فِي حُكْمِهِ . وَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ عَنْهُ لَمَّا وَشَى بِهِ إِلَيْهِ فَفَطِنَ وَقَالَ أَطْلَقْتَهُ فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَهُ

(١) يتعدى فعل كسب بنفسه إلى مفعول ثانٍ . وهو هنا بمعنى : كسب فلاناً ما لا أي اناله (قاموس) .

(٢) العاني ، الأسير .

(٣) أسنوا الجوائز ، أي اجزلوها . والعفاة جمع عافٍ . وهو طالب للمعروف .

(٤) يقال كلمة غص للطعام . واستعملها هنا ابن خلدون للفيظ على التشبيه .

(٥) أي لحرمة دمائه أهل البيت .

الاستيخسان وأسرها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم
والقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبذارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين
أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر
ممهّد الأسباب وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد عم جدّه داود بن
علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقيد في محاوراة
الأضمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تنفهم أنه إنما قتلتهم الغيرة
والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من
البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على إسماعه للخليفة وتخريك
حقائظه لهم وهو قوله :

لَيْتَ هَذَا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعِدُ وَشَفْتَ أَنْفُسَنَا بِمَا نَجِدُ
وَأَسْتَبْدُتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدُ
وإن الرشيد لما سمعها قال : « إني والله إني عاجز » حتى بعثوا بأمثال هذه
كأمن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال .
وأما ما تموه له الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتزان سكره يسكر النذمان
فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء ، وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب
لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء
ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمرى ومكاتبته سفيان الثوري
وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة
على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها . حكى الطبري وغيره أنه كان
يُصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً ولقد زجر ابن
أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ
« ومالي لا أعبد الذي فطرني » وقال والله ما أدري لم ؟ فما تمالك الرشيد أن
ضحك ثم التفت إليه مغضباً وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً إياك إياك

وَالْقُرْآنَ وَالَّذِينَ وَلَكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا وَايْضاً فَقَدْ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ وَالسَّادَجَةِ بِمَكَانٍ
لِقُرْبِ عَهْدِهِ مِنْ سَلَفِهِ الْمُتَّحِلِينَ لِذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ بَعِيدُ
زَمَنٍ إِنَّمَا خَلْفُهُ غُلَاماً وَقَدْ كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ بِمَكَانٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالَّذِينَ قَبْلَ الْخِلَافَةِ
وَبَعْدَهَا وَهُوَ الْقَائِلُ لِمَالِكٍ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيْفِ الْمُوطَّأِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُ لَمْ
يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلْتَنِي الْخِلَافَةُ فَضَعُ أَنْتَ لِلنَّاسِ
كِتَاباً يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَجَنَّبَ فِيهِ رُخْصَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ابْنِ عُمَرَ وَوُطْئَهُ لِلنَّاسِ
تَوُطُّئُهُ قَالَ مَالِكٌ فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي التَّضَنُّيْفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ابْنُهُ الْمَهْدِيُّ أَبُو
الرُّشَيْدِ هَذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كُسُوةِ الْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا
وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يَبَاشِرُ الْخِيَاطِينَ فِي إِزْقَاعِ^(١) الْخُلُقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ فَاسْتَنْكَفَ
الرُّشَيْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ كُسُوةِ هَذِهِ الْعِيَالِ غَامَنَا هَذَا مِنْ
عَطَائِي فَقَالَ لَهُ لَكَ ذَلِكَ وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ وَلَا سَمَحَ بِالْإِنْفَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ
فَكَتِيفَ يَلِيقُ بِالرُّشَيْدِ عَلَى قُرْبِ الْعَهْدِ مِنْ هَذَا الْخَلِيفَةِ وَأَبُوئِهِ وَمَا رَبِّي عَلَيْهِ مِنْ
أَمْثَالِ هَذِهِ السَّيْرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَالتَّخَلُّقِ بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ الْخَمْرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ
حَالَةُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ يَكُنِ الْكُزْمُ
شَجَرَتَهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذْمُومَةً عِنْدَ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ وَالرُّشَيْدُ وَأَبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى ثُبُجٍ^(٢) مِنْ
اجْتِنَابِ الْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَالتَّخَلُّقِ بِالْمَخَامِدِ وَأَوْصَافِ الْكَمَالِ
وَنَزَعَاتِ الْعَرَبِ . وَأَنْظُرْ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جَبْرِيلَ بْنِ
بَخْتِشُوعِ الطَّبِيبِ حِينَ أَحْضَرَ لَهُ السَّمَكُ فِي مَا يَذِيهِ فَخَمَاهُ عَنْهُ ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ
الْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَفُطِنَ الرُّشَيْدُ وَارْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمُهُ حَتَّى غَايَنَهُ
يَتَنَاوَلُهُ فَأَعَادَ ابْنُ بَخْتِشُوعٍ لِلْإِعْتِذَارِ ثَلَاثَ قِطْعٍ مِنَ السَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ
إِحْدَاهَا بِاللَّحْمِ الْمَعَالِجِ بِالتَّوَابِلِ وَالبُقُولِ وَالبُّوَارِدِ وَالحُلُوى وَصَبَّ عَلَى الثَّانِيَةِ مَاءَ

(١) الأصح أن يقول في رفع الخلقان أو في ترقيعها . والخلقان الثياب البالية (قاموس) .

(٢) الثبج من كل شيء ، معظمه ، أعلاه ووسطه ومنه حديث عبادة ، يوشك أن يرى الرجل من ثبج المسلمين أي من وسطهم . وقيل ، من سرانهم وعليتهم (قاموس)

مُتَلَجًا وَعَلَى الثَّالِثَةِ خَمْرًا صِرْفًا وَقَالَ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي هَذَا طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ خَلَطَ السَّمَكُ بغيره أَوْلَمْ يَخْلُطْهُ وَقَالَ فِي الثَّالِثِ هَذَا طَعَامُ ابْنِ بَخْتِشُوعَ وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ الْمَائِدَةِ حَتَّى إِذَا انْتَبَهَ الرَّشِيدُ وَأَخْضَرَهُ لِلتَّوْبِيخِ ، أَخْضَرَ الثَّلَاثَةَ الْأَقْدَاحَ فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخَمْرِ قَدْ اخْتَلَطَ وَأَمَاعَ وَتَفَتَّتْ وَوَجَدَ الْآخَرَيْنِ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ مَعْذِرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَالَ الرَّشِيدِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بَطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ وَلَقَدْ ثُبَّتْ عَنْهُ أَنَّهُ عَهْدَ بِخُبْسِ أَبِي نُوَاسٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِنْ انْهَمَاكِهِ فِي الْمَعَاقَرَةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ وَإِنَّمَا كَانَ الرَّشِيدُ يَشْرَبُ نَبِيذَ التَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ ^(١) وَفَتَاوِيهِمْ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ وَأَمَّا الْخَمْرُ الصَّرْفُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى انْتِهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدِ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ فِيهَا فَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ بِحَيْثُ يُوَاقِعُ مَحْرَمًا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَقَدْ كَانَ أَوْلَئِكَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ بِمَنْحَاةٍ مِنْ ارْتِكَابِ السَّرَفِ وَالتَّرَفِ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ مُمْتَنَآلَاتِهِمْ لَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُوعَةِ الْبِدَاوَةِ وَسَدَاجَةِ الدِّينِ الَّتِي لَمْ يَفَارِقُوهَا بَعْدَ فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِبَاحَةِ إِلَى الْخَطَرِ وَعَنِ الْحِلَّةِ إِلَى الْحَرَمَةِ وَلَقَدْ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ الطَّبِيعِيُّ وَالْمُسَعُودِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ إِنَّمَا كَانُوا يَرْكَبُونَ بِالْحِلَّةِ الْخَفِيفَةِ مِنَ الْقِصَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ وَالسِّيُوفِ وَاللَّحْمِ وَالسُّرُوجِ وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةِ أَخْذَثِ الرُّكُوبِ بِحِلَّةِ الذَّهَبِ هُوَ الْمُعْتَزُّ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ الْخُلَفَاءِ بَعْدَ الرَّشِيدِ وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَابِسِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ ؟ وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ بِأَتَمِّ مِنْ هَذَا إِذَا فَهِمْتَ طَبِيعَةَ الدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْفَضَاضَةِ كَمَا نَشْرَحُ فِي مَسَائِلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصُّوَابِ . وَيُنَاسِبُ هَذَا أَوْ قَرِيبَ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قَاضِي الْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ وَأَنَّهُ كَانَ يُعَاقِرُ الْخَمْرَ وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرِبِهِ ^(٢) فَدَفِنَ فِي الرِّيحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشِدُونَ عَلَى لِسَانِهِ:

يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي

(١) يقصد به مذهب أبي حنيفة .

(٢) الشرب ، الذين يشربون معاً ، جمع شارب (قاموس) .

إِنِّي غَفِلْتُ عَنِ السَّاقِي فَصَيَّرَنِي كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ الْعَقْلِ وَالذِّينِ
وَحَالَ ابْنُ أَكْثَمَ وَالْمَأْمُونُ فِي ذَلِكَ مِنْ خَالِ الرَّشِيدِ وَشَرَابُهُمْ إِنَّمَا كَانَ النَّبِيدَ
وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُوراً عَنْدهُمْ وَأَمَّا السُّكَّرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا
كَانَتْ خِلَّةً فِي الدِّينِ وَلَقَدْ ثُبَّتْ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ وَتَقِلُّ فِي فَضَائِلِ الْمَأْمُونِ
وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ أَنَّهُ انْتَبَهَ ذَلِكَ لَيْلَةً عَطْشَانٌ فَقَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَلْتَمِسُ الْإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ
يُوقِظَ يَخْيَى بْنُ أَكْثَمَ وَثُبَّتْ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعاً فَأَيْنَ هَذَا مِنْ
الْمُعَافَاةِ وَأَيْضاً فَإِنَّ يَخْيَى بْنَ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ
الإمامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي وَخَرَجَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ كِتَابَهُ الْجَامِعَ ^(١)
وَذَكَرَ الْمَرْزِيُّ الْحَافِظُ أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ فَالْقَدْخُ فِيهِ قَدْخٌ فِي
جَمِيعِهِمْ وَكَذَلِكَ مَا يَنْبَرُهُ ^(٢) الْمَجَانُ بِالْمِيلِ إِلَى الْعِلْمَانِ بُهْتَاناً عَلَى اللَّهِ
وَفَرِيَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ وَيَسْتَنْدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقُصَاصِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي لَعَلَّهَا مِنْ
افْتِرَاءِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّهُ كَانَ مَحْسُوداً فِي كَمَالِهِ وَخَلَّتِيهِ لِلْسُلْطَانِ وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ
وَالدِّينِ مُنْزَهاً عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَقَدْ ذَكَرَ لَابْنُ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ النَّاسُ فَقَالَ سُبْحَانَ
اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَنْ يَقُولُ هَذَا ؟ وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَاراً شَدِيداً وَأَثْنَى عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ
الْقَاضِي فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَتُهُ مِثْلَهُ بِتَكْذِيبِ
بَاغٍ وَجَاسِدٍ وَقَالَ أَيْضاً يَخْيَى بْنُ أَكْثَمَ أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا
كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْعِلْمَانِ وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوْفِ
مِنَ اللَّهِ لَكِنُّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خَلْقٍ فَرُمِيَ بِمَا رُمِيَ بِهِ ابْنُ حَيَّانٍ فِي
الثَّقَابِ وَقَالَ لَا يُسْتَعْلَى بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لِأَنَّهُ أَكْثَرُهَا لَا يَصُحُّ عَنْهُ وَمِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ
الْحِكَايَاتِ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعَقْدِ مِنْ حَدِيثِ الزُّنْبِيلِ فِي سَبَبِ إِضْهَارِ
الْمَأْمُونِ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ فِي بَيْتِهِ بُوْرَانٍ وَأَنَّهُ عَثَرَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فِي تَطَوُّفِهِ
بِسِكَكِ بَغْدَادَ فِي زُنْبِيلٍ ^(٣) مُدْلَى مِنْ بَعْضِ السُّطُوحِ بِمَعَالِقٍ وَجَدَلَ مُغَارَةً الْقَتْلِ

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ . والتصويب ، وخرج عنه الترمذي في كتابه الجامع .

(٢) الأصح ، ما ينبره به المجان . وفي بعض النسخ (ما يشبه المجان) .

(٣) كذا بالأصل في جميع النسخ ولعلها عشر على زنبيل . أو بمعنى زل . أي لم ينتبه للزنبيل فوقه فيه .

مِنَ الْحَرِيرِ فَأَعْتَقَهُ وَتَنَاوَلَ الْمَعَالِقَ فَاهْتَرَتْ وَذَهَبَ بِهِ صُعْدًا إِلَى مَجْلِسِ شَأْنِهِ كَذَا
 وَوَصَفَ مِنْ زِينَةِ فُرْشِهِ وَتَنْضِيدِ ابْنَيْتِهِ وَجَمَالِ رُؤْيَتِهِ مَا يَسْتَوْقِفُ الطَّرْفَ وَيَمْلِكُ
 النَّفْسَ وَأَنَّ امْرَأَةً بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلْلِ السُّتُورِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَائِقَةُ الْجَمَالِ فَتَانَةٌ
 الْمَحَاسِنِ فَحَيْثُ وَدَعَتْهُ إِلَى الْمُنَادِمَةِ فَلَمْ يَزَلْ يُعَاقِرُهَا الْخَمْرَ حَتَّى الصُّبَاحِ وَرَجَعَ إِلَى
 أَصْحَابِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ انْتِظَارِهِ وَقَدْ شَغَفَتْهُ حُبًّا بَعَثَهُ عَلَى الْإِضْهَارِ إِلَى أَبِيهَا وَأَيْنَ
 هَذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ الْأُمَامُونَ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ وَعِلْمِهِ وَاقْتِفَائِهِ سُنَنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ
 مِنْ آبَائِهِ وَأَخِذِهِ بِسِيرِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَرْكَانِ الْمِلَّةِ وَمَنَاظَرَتِهِ الْعُلَمَاءَ وَحِفْظِهِ
 لِحُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي صَلَوَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ فَكَيْفَ تَصُحُّ عَنْهُ أَحْوَالُ الْفُسَاقِ
 الْمُسْتَهْزِئِينَ ^(١) فِي التَّطَوُّافِ بِاللَّيْلِ وَطُرُوقِ الْمَنَازِلِ وَغَشْيَانِ السُّمْرِ سَبِيلَ عُشَاقِ
 الْأَعْرَابِ وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ابْنَةِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ يَذَارُ أَبِيهَا
 مِنَ الصُّونِ وَالْعَفَافِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ وَفِي كُتُبِ الْمُؤَرِّخِينَ مَعْرُوفَةٌ
 وَإِنَّمَا يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا وَالْحَدِيثُ بِهَا الْإِنْهَمَاكَ فِي اللَّذَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَهَتْكَ قِنَاعِ
 الْمُخَذَّرَاتِ وَيَتَعَلَّلُونَ بِالتَّأْسِي بِالْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونَهُ مِنْ طَاعَةِ لَذَاتِهِمْ فَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ
 كَثِيرًا مَا يَلْهَجُونَ بِأَشْبَاهِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَيُنْقَرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَفُّحِهِمْ لِأَوْرَاقِ
 الدُّوَاوِينِ وَلَوْ ائْتَسَوْا بِهِمْ فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ اللَّائِقَةِ بِهِمْ
 الْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَذَلْتُ يَوْمًا بَعْضَ الْأَمْرَاءِ
 مِنْ أُنْبَاءِ الْمُلُوكِ فِي كَلْفِهِ بِتَعَلُّمِ الْغِنَاءِ وَلَوْلَوْعِهِ بِالْأَوْتَارِ وَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ
 وَلَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِكَ فَقَالَ لِي أَفَلَا تَرَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَدِّي كَيْفَ كَانَ إِمَامَ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ وَرَئِيسَ الْمُغْنِيِّينَ فِي زَمَانِهِ ؟ فَقُلْتُ لَهُ يَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَهَلَّا تَأْسَيْتَ بِأَبِيهِ أَوْ
 أَخِيهِ أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ عَنْ مَنْاصِبِهِمْ فَصَمَّ عَنْ عَذْلِي وَأَعْرَضَ
 وَاللَّهِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْأَثْبَاتِ فِي
 الْعُبَيْدِيِّينَ خُلَفَاءِ الشَّيْعَةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَالْقَاهِرَةِ مِنْ نَفْيِهِمْ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
 (١) المستهزئ : لشيء بالفتح المولع به لا يبالي بما فعل فيه وشم له والذي كثرت أباطيله ١ هـ قاموس .

عَلَيْهِمْ وَالطَّغْنِ فِي نَسَبِهِمْ إِلَى إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ ابْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ يَفْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى أَحَادِيثَ لُفَّتْ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ تَزَلُّفًا إِلَيْهِمْ بِالْقَدْحِ فِيمَنْ نَاصَبَهُمْ وَتَفَنَّنَا فِي السَّمَاتِ بِعَدُوِّهِمْ حَسَبًا تَذَكَّرُ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيَفْقُلُونَ عَنِ التَّفَطُّنِ لَشَوَاهِدِ الْوَاقِعَاتِ وَأَدِلَّةِ الْأَحْوَالِ الَّتِي اقْتَضَتْ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ تَكْذِيبِ دَعْوَاهُمْ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ .

فَإِنَّهُمْ مَتَّفِقُونَ فِي حَدِيثِهِمْ عَنْ مَبْدَأِ دَوْلَةِ الشَّيْعَةِ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمُخْتَسِبِ لَمَّا دُعِيَ بِكُتَامَةِ لِلرَّضِيِّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَاشْتَهَرَ خَبَرُهُ وَعَلِمَ تَحْوِيمَهُ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَابْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ خَشِيَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا فَهَرَبَا مِنَ الْمَشْرِقِ مَحَلَّ الْخِلَافَةِ وَاجْتَارَا بِمِصْرَ وَأَنْتَهَمَا خَرَجَا مِنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ فِي زِيِّ الثُّجَارِ وَنَمِيَ خَبَرُهُمَا إِلَى عِيسَى النُّشَرِيِّ غَامِلِ مِصْرَ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ فَسَرَّحَ فِي طَلَبِهِمَا الْخِيَالَةَ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَمَا خَفِيَ خَالَهُمَا عَلَى تَابِعِيهِمَا بِمَا لَبَسُوا بِهِ مِنَ الشَّارَةِ وَالزَّيِّ فَافْلَتُوا إِلَى الْمَغْرِبِ . وَأَنَّ الْمُفْتَضِلَ أَوْعَزَ إِلَى الْأَغَالِبَةِ أَمْرَاءَ أَفْرِيقِيَا بِالْقَيْرَوَانِ وَبَنِي مِثْرَارِ أَمْرَاءَ سِجْلَمَاسَةَ بِأَخِذِ الْأَفَاقِ عَلَيْهِمَا وَإِذْكَاءِ الْعَيُونِ فِي طَلَبِهِمَا فَعَثَرَ أَلِشَّعُ صَاحِبُ سِجْلَمَاسَةَ مِنْ آلِ مِثْرَارِ عَلَى خَفِيِّ مَكَانِهِمَا بِبَلَدِهِ وَاعْتَقَلَهُمَا مَرْضَاةً لِلْخَلِيفَةِ .

هَذَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الشَّيْعَةُ عَلَى الْأَغَالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ ثُمَّ بِالْيَمَنِ ثُمَّ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ثُمَّ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَقَاسَمُوا بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ شِقَّ الْأَبْلَمَةِ ^(١) وَكَادُوا يَلْجُونَ عَلَيْهِمْ مَوَاطِنَهُمْ وَيَزَايِلُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتَهُمْ بِبَغْدَادَ وَعِرَاقَهَا الْأَمِيرَ الْبَسَاسِيرِيَّ مِنْ مَوَالِي الدُّيْلَمِ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مُغَاضِبَةِ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْرَاءِ الْعَجَمِ وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا حَوْلًا كَامِلًا وَمَا زَالَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَغْصُونَ بِمَكَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ وَمُلُوكُ بَنِي أُمَيَّةَ وَرَاءَ الْبَحْرِ يُنَادُونَ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ

(١) يقال ، الأمر بيننا شقَّ الأبلمة . والأبلمة هي الخوصة أي ورقة الدوم وهي شجرة تشبه النخلة . وذلك لأنها تؤخذ فتشق طولاً على السواء . وللمنى أنهم قاسموا بني العباس أعمالهم . وفي نسخة لجنة البيان العربي « شقَّ الأبله » وهو تحريف .

مِنْهُمْ وَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا كُلُّهُ لِدَعْيِي فِي النَّسَبِ يَكْذِبُ فِي انْتِحَالِ الْأَمْرِ وَاعْتَبِرْ خَالَ
الْقَرْمَطِيِّ إِذْ كَانَ دَعِيًّا فِي انْتِسَابِهِ كَيْفَ تَلَاشَتْ دَعْوَتُهُ وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ وَظَهَرَ سَرِيعاً
عَلَى حُبِّهِمْ وَمَكْرِهِمْ فَسَاءَتْ عَاقِبَتُهُمْ وَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَوْ كَانَ أَمْرُ الْعَبِيدِ يَنْ
كَذَلِكَ لَعُرِفَ وَلَوْ بَعْدَ مَهْلَةٍ .

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ أَمْرٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تَعْلَمُ
فَقَدْ اتَّصَلَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْوَ مِنْ مَائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَمَلَكَوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ وَمُضْلَاهُ وَمَوْطِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَمَدْفِنَهُ وَمَوْقِفَ الْخَجِيجِ وَمَهْبطَ الْمَلَائِكَةِ
ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَشِيعَتُهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى أَتَمِّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُمْ وَالْحُبِّ
فِيهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ بِنَسَبِ الْإِمَامِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَلَقَدْ خَرَجُوا مِرَاراً بَعْدَ
ذَهَابِ الدَّوْلَةِ وَدُرُوسِ أَثَرِهَا دَاعِينَ إِلَى بَدْعَتِهِمْ هَاتِفِينَ بِأَسْمَاءِ صَبِيَّانٍ مِنْ أَغْقَابِهِمْ
يَزْعَمُونَ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِلْخِلَافَةِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَغْيِينِهِمْ بِالْوَصِيَّةِ مِنْ سَلَفٍ قَبْلَهُمْ مِنْ
الْأَيِّمَةِ وَلَوْ ارْتَابُوا فِي نَسَبِهِمْ لَمَا رَكِبُوا أَغْنَاقَ الْأَخْطَارِ فِي الْإِنْتِصَارِ لَهُمْ فَصَاحِبُ
الْبِدْعَةِ لَا يُلْبَسُ فِي أَمْرِهِ وَلَا يُشَبَّهُ فِي بَدْعَتِهِ وَلَا يَكْذِبُ نَفْسَهُ فِيمَا يَنْتَجِلُهُ .

وَالْعَجَبُ مِنَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيِّ شَيْخِ النُّظَارِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ كَيْفَ
يَجْنَحُ إِلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ الْمَرْجُوحَةِ وَيَرَى هَذَا الرَّأْيَ الضَّعِيفَ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا
كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِلْحَادِ فِي الدِّينِ وَالتَّعَمُّقِ فِي الرَّافِضِيَّةِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ فِي صَدْرِ
دَعْوَتِهِمْ وَلَيْسَ إِثْبَاتُ مُنْتَسَبِهِمْ بِالَّذِي يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً فِي كُفْرِهِمْ فَقَدْ قَالَ
تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ أَنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ فَلَا
تَسْأَلُنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» (١) وَقَالَ ﷺ لِفَاطِمَةَ يَعْظُمُهَا يَا فَاطِمَةُ اْعْمَلِي فَلَنْ
أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَمَتَى عَرَفَ امْرُؤٌ قَضِيَّةً أَوْ اسْتَيْقَنَ أَمْرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ
يُضَدِّعَ بِهِ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ وَالْقَوْمُ كَانُوا فِي مَجَالِ لُظُنُونِ الدُّوَلِ
بِهِمْ وَتَحْتَ رَقَبَةِ مِنَ الطَّغَاةِ لِتَوْفُرِ شِيعَتِهِمْ وَاتِّسَارِهِمْ فِي الْقَاصِيَةِ بِدَعْوَتِهِمْ وَتَكَرُّرِ

خُرُوجِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَلَاذَتْ رِجَالَهُمْ بِالْإِخْتِفَاءِ وَلَمْ يَكَادُوا يُعْرِفُونَ كَمَا قِيلَ .

فَلَوْ تَسَالِ الْأَيَّامَ مَا اسْمِيَ مَا ذَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِيَا

حَتَّى لَقَدْ سَمِيَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامُ جَدُّ عُبَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ بِالْمَكْتُومِ سَمْتُهُ بِذَلِكَ شَيْعَتُهُمْ لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْفَائِهِ خَذَرًا مِنَ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِمْ فَتَوَصَّلَ شَيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِهِمْ إِلَى الطُّغْنِ فِي نَسَبِهِمْ وَازْدَلَفُوا بِهَذَا الرَّأْيِ الْقَائِلَ ^(١) لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ خُلَفَائِهِمْ وَأَعْجَبَ بِهِ أَوْلِيَائُهُمْ وَأَمْرَاءُ دَوْلَتِهِمُ الْمُتَوَلُّونَ لِحُرُوبِهِمْ مَعَ الْأَعْدَاءِ يَذْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعْرَةَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوِمَةِ وَالْمُدَافَعَةِ لِمَنْ غَلَبَهُمْ عَلَى الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ مِنَ الْبَرْبَرِ الْكُتَّامِينَ شَيْعَةَ الْعُبَيْدِيِّينَ وَأَهْلِي دَعْوَتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ الْقَضَاءُ بِبَغْدَادَ بِنَفْيِهِمْ عَنْ هَذَا النَّسَبِ وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ النَّاسِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الشَّرِيفُ الرُّضِيُّ وَأَخُوهُ الْمُرْتَضَى وَابْنُ الْبُطْحَاوِيِّ وَمِنْ الْعُلَمَاءِ أَبُو حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِيُّ وَالْقُدُورِيُّ وَالصَّنَمِيرِيُّ وَابْنُ الْأَكْفَانِيِّ وَالْأَبْيُورْدِيُّ وَأَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ بْنُ النُّعْمَانِ فَقِيهِ الشَّيْعَةِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَعْلَامِ الْأُمَّةِ بِبَغْدَادَ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ وَذَلِكَ سَنَةَ سِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فِي أَيَّامِ الْقَادِرِ وَكَانَتْ شَهَادَتُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى السَّمَاعِ لَمَّا اشْتَهَرَ وَعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ بِبَغْدَادَ وَغَالِبُهَا شَيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ الطَّاعِنُونَ فِي هَذَا النَّسَبِ فَتَنَقَّلَهُ الْأَخْبَارِيُّونَ كَمَا سَمِعُوهُ وَرَوَوْهُ حَسْبَمَا وَعَوُّهُ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ .

وَفِي كِتَابِ الْمُعْتَضِدِ فِي شَأْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ إِلَى ابْنِ الْأَغْلَبِ بِالْقَيْرَوَانِ وَابْنِ مِزْزَارٍ بِسِجِلْمَاسَةَ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِمْ فَالْمُعْتَضِدُ أَقْعَدُ ^(٢) بِنَسَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَالدَّوْلَةُ وَالسُّلْطَانُ سَوْقٌ لِلْعَالَمِ تَجْلِبُ إِلَيْهِ بِضَائِعُ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَتَلْتَمِسُ فِيهِ ضَوَالُ الْحُكْمِ وَتُخْدَى إِلَيْهِ رَكَائِبُ الرِّوَايَاتِ وَالْأَخْبَارِ وَمَا

(١) أَي الضَّعِيفُ أَوْ الْخَاطِئُ .

(٢) أَقْعَدُ - بِمَعْنَى أَكْفَأُ .

نَفَقَ فِيهَا نَفَقَ عِنْدَ الْكَافَّةِ فَإِنْ تَنَزَّهَتْ الدُّوْلَةُ عَنِ التَّعَسُّفِ وَالْمَيْلِ وَالْأَفْنِ^(١)
وَالسُّفْسَفَةِ وَسَلَكَتِ السَّجَّجَ الْأَمَمَ وَلَمْ تَجْرُ^(٢) عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ نَفَقَ فِي سَوْقِهَا الْإِبْرِيزُ
الْخَالِصُ وَاللَّجِينُ^(٣) الْمُصَفَّى وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ الْأَعْرَاضِ وَالْحُقُودِ وَمَاجَتْ بِسَمَاسَةِ
الْعَرَبِ الْبَغْيِ وَالْبَاطِلِ نَفَقَ الْبَهْرَجُ وَالزَّائِفُ وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قَسْطًا سَظَرُهُ وَمِيزَانُ
بَحْثِهِ وَمُلْتَمَسِهِ .

وَمِثْلُ هَذَا وَأَبْعَدُ مِنْهُ كَثِيرًا مَا يَتَنَاجَى بِهِ الطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ إِدْرِيسَ بْنِ
إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رَضَوَانِ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ) الْإِمَامِ بَعْدَ أَبِيهِ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَيَعْرِضُونَ تَغْرِيبَ الْحَدِّ بِالتَّظَنُّنِ فِي
الْجَمَلِ الْمُخْلَفِ عَنْ إِدْرِيسَ الْأَكْبَرِ إِنَّهُ لِرَاشِدٍ مَوْلَاهُمْ قَبَحَهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمُ
مَا أَجْهَلَهُمْ أَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ إِدْرِيسَ الْأَكْبَرَ كَانَ إِضْهَارُهُ فِي الْبَزْبَرِ وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ
الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ غَرِيقٌ فِي الْبَدْوِ وَأَنَّ حَالِ الْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَيْرُ
خَافِيَةٍ إِذْ لَا مَكَامِينَ لَهُمْ يَتَأْتَى فِيهَا الرِّيبُ وَأَحْوَالُ حُرْمِهِمْ أَجْمَعِينَ يَمْرَأَى مِنْ
جَارَاتِهِمْ وَمَسْمَعٍ مِنْ جِيرَانِهِمْ لِتِلَاصِقِ الْجُدْرَانِ وَتَطَامُنِ^(٤) الْبُنْيَانِ وَعَدَمِ الْفَوَاصِلِ
بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَتَوَلَّى خِدْمَةَ الْحَرَمِ أَجْمَعَ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ بِمَشْهَدٍ مِنْ
أُولِيائِهِمْ وَشَيْعَتِهِمْ وَمُرَاقِبَةٍ مِنْ كَافَتِهِمْ وَقَدْ اتَّفَقَ بَرَابَرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى غَامَّةٌ عَلَى
بَيْعَةِ إِدْرِيسَ الْأَضْفَرِ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِ وَأَتَوْهُ طَاعَتَهُمْ عَنْ رَضَى وَإِصْفَاقٍ^(٥) وَبَا يَعُوهُ عَلَى
الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ وَخَاصُوا دُونَهُ بِخَارِ الْمَنَآيَا فِي حُرُوبِهِ وَغَزَوَاتِهِ وَلَوْ حَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ
بِمِثْلِ هَذِهِ الرِّيَّةِ أَوْ قُرِعَتْ أَسْمَاعُهُمْ وَلَوْ مِنْ عَدُوٍّ كَاشِحٍ أَوْ مُنَافِقٍ مُرْتَابٍ لَتَخَلَّفَ

(١) الْأَفْنُ ، ضَعْفُ الرَّأْيِ .

(٢) قَوْلُهُ وَلَمْ تَجْرُ بِضَمِّ الْجِيمِ ، أَيِ لَمْ تَمَلْ .

(٣) اللَّجِينُ ، الْفُضَّةُ .

(٤) اطْمَأْنَنَ وَتَطَامُنَتْ ، انْخَفَضَتْ (لِسَانُ الْعَرَبِ) .

(٥) وَاصْفَقَتْ يَدُهُ بِكَذَا أَيِ صَادَقَتْهُ وَوَافَقَتْهُ . وَقَدْ اسْتَعْمَلَهَا ابْنُ خُلْدُونَ بِمَعْنَى الْمَوَافَقَةِ وَهُوَ ضَعِيفٌ .

وَالْأَصَحُّ عَنْ رِضَا وَصَفَقَ مِنْ صَفَقَ ، أَيِ ضَرَبَ يَدُهُ عَلَى يَدِهِ (لِسَانُ الْعَرَبِ) .

عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ بَعْضُهُمْ كَلًّا وَاللَّهِ إِنَّمَا صَدَرَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ
أَقْتَالِهِمْ^(١) وَمِنْ بَنِي الْأَغْلَبِ عَمَالِهِمْ كَانُوا بِأَفْرِيقِيَّةَ وَوَلَاتِهِمْ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ إِدْرِيسُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَقْعَةِ بَلَخِ أَوْعَزَ الْهَادِي إِلَى
الْأَغْلَبَةِ أَنْ يَقْعُدُوا لَهُ بِالْمَرَاصِدِ وَيَذْكُوا عَلَيْهِ الْعِيُونَ فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ وَخَلَصَ إِلَى
الْمَغْرِبِ فَتَمَّ امْرَأَهُ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ وَظَهَرَ الرَّشِيدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِحِ
مَوْلَاهُمْ وَعَامِلِهِمْ عَلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ مِنْ دَسِيسَةِ التَّشْيِيعِ لِلْعُلُوِيَّةِ وَإِذْهَانِهِ^(٢) فِي نَجَاةِ
إِدْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَقَتَلَهُ وَدَسَّ الشَّمَاخَ مِنْ مَوَالِي الْمَهْدِيِّ أَبِيهِ لِلتَّحْيِيلِ عَلَى قَتْلِ
إِدْرِيسَ فَأَظْهَرَ الْحَقَّ بِهِ وَالْبَرَاءَةَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مَوَالِيهِ فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ إِدْرِيسُ
وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ وَنَاوَلَهُ الشَّمَاخَ فِي بَعْضِ خَلَوَاتِهِ سُمًّا اسْتَهْلَكَهُ بِهِ^(٣) وَوَقَعَ خَبْرُ
مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ لَمَّا رَجَوْهُ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ الْعُلُوِيَّةِ
بِالْمَغْرِبِ وَاقْتِلَاعِ جُرْثُومَتِهَا وَلَمَّا تَأْدَى إِلَيْهِمْ خَبْرُ الْحِمْلِ الْمُخْلَفِ لِإِدْرِيسَ فَلَمْ
يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا كَلًّا وَلَا^(٤) وَإِذَا بِالدَّعْوَةِ قَدْ عَادَتْ وَالشَّيْعَةُ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ
وَدَوَّلَتْهُمْ بِإِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ قَدْ تَجَدَّدَتْ فَكَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكَى مِنْ وَقْعِ السَّهَامِ
وَكَانَ الْفُشْلُ وَالْهَرَمُ قَدْ نَزَلَا بِدَوْلَةِ الْعَرَبِ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى الْقَاصِيَةِ فَلَمْ يَكُنْ
مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى إِدْرِيسَ الْأَكْبَرِ بِمَكَانِهِ مِنْ قَاصِيَةِ الْمَغْرِبِ وَاشْتِمَالِ الْبَرْبَرِ
عَلَيْهِ إِلَّا التَّحْيِيلُ فِي إِهْلَاكِهِ بِالسُّمُومِ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَرَعُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْأَغْلَبَةِ
بِأَفْرِيقِيَّةَ فِي سَدِّ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ نَاحِيَّتِهِمْ وَحَسَمَ الدَّاءَ الْمُتَوَقَّعَ بِالدَّوْلَةِ مِنْ قِبَلِهِمْ
وَاقْتِلَاعَ تِلْكَ الْعُرُوقِ قَبْلَ أَنْ تَشْجَ^(٥) مِنْهُمْ يُخَاطِبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَأْمُونُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ
خُلَفَائِهِمْ فَكَانَ الْأَغْلَبَةُ عَنْ بَرَابَرَةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى أَعْجَزَ وَلِمِثْلِهَا مِنَ الزُّبُونِ^(٦)

(١) جمع قتل وهو العدو للقابل .

(٢) بمعنى الفش .

(٣) بمعنى أهلكه .

(٤) كذا في جميع النسخ . وأظن أنها محرفة عن كلاله أي الوارث الذي ليس بولد للميت ولا والد له .

(٥) بمعنى تمتد وترسخ .

(٦) يقال للناقة إذا كان من عاداتها أن تدفع حالبا عن حلبها ، « زبون » (لسان العرب) وقد استعملت

هنا بمعنى الأشخاص الذين يدافعون عن الملوك . وإن كان هذا الاستعمال ضعيفا . وقد تكررت هذه العبارة بنفسها
عدة مرات في تاريخ ابن خلدون . لذلك لا يمكننا أن نقول أن ابن خلدون قصد بها كلمة سواها .

عَلَى مُلُوكِهِمْ أَحْوَجَ لَمَّا طَرَقَ الْخِلَافَةُ مِنْ انْتِزَاهُ^(١) مَمَالِكِ الْعَجَمِ عَلَى سُدَّتِهَا
وَأَمْتِطَائِهِمْ صَهْوَةَ التَّغْلِبِ عَلَيْهَا وَتَضْرِيْفِهِمْ أَحْكَامَهَا طَوُّعَ أَغْرَاضِهِمْ فِي رَجَالِهَا
وَجَبَائِثِهَا وَأَهْلِ خِطِطِهَا^(٢) وَسَائِرِ نَقْضِهَا وَإِزْرَامِهَا كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ :

خَلِيفَةُ فِي قَفْصٍ بَيْنَ وَصِيفٍ وَبَغَا
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ كَمَا تَقُولُ الْبَيْغَا

فَخَشِيَ هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءُ الْأَغَالِبِيَّةُ بَوَادِرِ السَّعَايَاتِ وَتَلَّوْا بِالْمَعَادِيرِ فَطُورًا
بِاخْتِقَارِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِهِ وَطُورًا بِالْإِزْهَابِ بِشَأْنِ إِدْرِيسَ الْخَارِجِ بِهِ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ
مِنْ أَغْقَابِهِ يُخَاطِبُونَهُمْ بِتَجَاوُزِهِ حُدُودَ التَّخُومِ مِنْ عَمَلِهِ وَيَنْفِذُونَ سِكَّتَهُ فِي تَحْفِهِمْ
وَهَذَا يَأْتِيهِمْ تَغْرِيسًا بِاسْتِنْفَالِهِ وَتَهْوِيلًا بِاسْتِدَادِ شَوْكِيَّةِ وَتَعْظِيمًا
لِمَا دَفَعُوا إِلَيْهِ مِنْ مُطَالَبَتِهِ وَمَرَاسِيهِ وَتَهْدِيدًا بِقَلْبِ الدَّعْوَةِ إِنْ أَلْجَأُوا إِلَيْهِ وَطُورًا
يَطْعَمُونَ فِي نَسَبِ إِدْرِيسَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الطُّغْيَانِ الْكَاذِبِ تَخْفِيزًا لِشَأْنِهِ لَا يُبَالُونَ
بَصِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ وَأَقْنِ عَقُولٍ مَنْ خَلَفَ مِنْ صِنِيَّةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
وَمَمَالِكِهِمْ الْعَجَمِ فِي الْقَبُولِ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ وَالسَّمْعِ لِكُلِّ نَاعِقٍ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا دَائِبَهُمْ
حَتَّى انْقَضَى أَمْرُ الْأَغَالِبِيَّةِ فَفَرَعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الشَّنْعَاءُ أَسْمَاعَ الْفَوْغَاءِ وَصَرَ عَلَيْهَا
بَعْضُ الطَّاعِنِينَ أَذْنَهُ وَاعْتَدَّهَا ذُرِيَّةً إِلَى النَّيْلِ مِنْ خَلِيفِهِمْ عِنْدَ الْمُنَافَسَةِ . وَمَا لَهُمْ
قَبْحَهُمُ اللَّهُ وَالْعُدُولُ عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فَلَا تَعَارُضَ فِيهَا بَيْنَ الْمَقْطُوعِ وَالْمَظْنُونِ
وَإِدْرِيسُ وَلَدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِيهِ وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ .

عَلَى أَنْ تَنْزِيهِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَنْ مِثْلِ هَذَا مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فَإِنَّهُ سَيُخَانَهُ
قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا فَفِرَاشَ إِدْرِيسَ طَاهِرٍ مِنَ الدَّنَسِ وَمَنْزَرَةٍ
عَنِ الرَّجْسِ بِحُكْمِ الْقُرْآنِ وَمَنْ اعْتَقَدَ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ وَوَلَجَ الْكُفْرَ مِنْ
بَايِهِ وَإِنَّمَا أَطْنَبْتُ فِي هَذَا الرَّدِّ سَدًّا لِأَنْبَوَابِ الرُّيْبِ وَدَفْعًا فِي صَدْرِ الْحَاسِدِ لَمَّا

(١) بمعنى الوثوب .

(٢) الخطة ، الأرض . والدار يختطها الرجل في أرض غير مملوكة ليتحجرها ويبني فيها وذلك إذا أذن

السلطان (لسان العرب) وعنى بها ابن خلدون هنا ، بالموظفين المشرفين على أعمال الخطط

سَمِعْتُهُ أَذْنَايَ مِنْ قَائِلِهِ الْمُفْتَدِي عَلَيْهِمُ الْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِفَرِيَّتِهِ وَيَنْقُلُهُ بِزَعْمِهِ عَنْ بَعْضِ
مُؤَرَّخِي الْمَغْرِبِ مِمَّنْ انْحَرَفَ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَارْتَابَ فِي الْإِيمَانِ بِسَلَفِهِمْ وَالْأَ
فَالْمَحَلُّ مُنْزَرَةً عَنْ ذَلِكَ مَعْصُومٌ مِنْهُ وَنَفَى الْعَيْبَ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْنٌ لَكُنِي
جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ أَكْثَرَ
الطَّاعِنِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا هُمْ الْحَسَدَةُ لِأَعْقَابِ إِدْرِيسَ هَذَا مِنْ مُنْتَمِرٍ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ أَوْ
ذَخِيلٍ فِيهِمْ فَإِنَّ أَدْعَاءَ هَذَا النَّسَبِ الْكَرِيمِ دَعْوَى شَرَفٍ عَرِيضَةٌ عَلَى الْأَمَمِ وَالْأَجْيَالِ
مِنْ أَهْلِ الْإِفَاقِ فَتَعَرَّضُ التُّهْمَةُ فِيهِ .

وَلَمَّا كَانَ نَسَبُ بَنِي إِدْرِيسَ هَؤُلَاءِ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَارِسَ وَسَائِرِ دِيَارِ الْمَغْرِبِ
قَدْ بَلَغَ مِنَ الشُّهُرَةِ وَالْوُضُوحِ مَبْلَغًا لَا يَكَادُ يُلْحَقُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي دَرْكِهِ إِذْ هُوَ
نَقْلُ الْأُمَّةِ وَالْجِيلِ مِنَ الْخَلْفِ عَنِ الْأُمَّةِ وَالْجِيلِ مِنَ السَّلَفِ وَبَيَّتْ جَدَّهُمْ إِدْرِيسَ
مُخْتَطِّطًا فَاسَ وَمُؤَسَّسِيهَا مِنْ بَيْوتِهِمْ وَمَسْجِدُهُ لَصِقَ مَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوبِهِمْ وَسَيَفُهُ مُنْتَضَى
بِرَأْسِ الْمَادَنَةِ الْعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ آثَارِهِ الَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارُهَا
حُدُودَ التَّوَاتُرِ مَرَاتٍ وَكَادَتْ تُلْحَقُ بِالْعَيَانِ فَإِذَا نَظَرْتَ غَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا النَّسَبِ إِلَى
مَا أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهَا وَمَا عَصَدَ شَرَفُهُمُ النَّبَوِيُّ مِنْ جَلَالِ الْمُلْكِ الَّذِي كَانَ
لِسَلَفِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَاسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بِمَغْزَلٍ عَنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَدَّ أَحَدِهِمْ
وَلَا نَصِيفَهُ ^(١) وَأَنْ غَايَةَ أَمْرِ الْمُنْتَمِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيمِ مِمَّنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ أَمْثَالُ
هَذِهِ الشُّوَاهِدِ أَنْ يُسَلَّمَ لَهُمْ حَالُهُمْ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَبَيِّنَ
الْعِلْمَ وَالظَّنَّ وَالْيَقِينَ وَالتَّسْلِيمَ فَإِذَا عَلِمَ بِذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ غَضَّ بِرَبِّقِهِ وَوَدَّ كَثِيرَ مِنْهُمْ
لَوْ يَرُدُّونَهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ سَوْفَةً وَوُضْعَاءً ^(٢) حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى
الْعِنَادِ وَارْتِكَابِ اللَّجَاجِ وَالْبُهْتِ بِمِثْلِ هَذَا الطَّعْنِ الْفَائِلِ وَالْقَوْلِ الْمَكْذُوبِ تَعَلُّلًا
بِالْمَسَاوَاةِ فِي الظَّنِّ وَالْمُشَابَهَةِ فِي تَطَرُّقِ الْاِحْتِمَالِ وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذَلِكَ فَلَيْسَ فِي

(١) قوله : « لا يبلغ قد أحدهم ولا نصيفه » مثل يكنى به عن ضمة مكانة شخص بالنسبة لشخص آخر .
(٢) قوله : « ووضعاء بضم الواو جمع وضع .

المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه
مبالغ أعقاب إدريس هذا من آل الحسن .

وكبرائهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يخى الحوطي بن
محمد بن يخى العوام بن القاسم بن إدريس بن إدريس وهم نقباء أهل البيت
هناك والسالكون ببنت جدتهم إدريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة حسبما
نذكرهم عند ذكر الإدارة إن شاء الله تعالى ويلحق بهذه المقالات الفاسدة
والمذاهب الفائلة ما يتناول ضعة الرأي من فقهاء المغرب من القذح في الإمام
المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته إلى الشعوذة والتليس فيما أتاه من القيام
بالتوحيد الحق والنعمي على أهل البغي قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك
حتى فيما يزعم الموحدون اتباعه من أتسايه في أهل البيت وإنما حمل الفقهاء
على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه فإنهم لما رأوا من أنفسهم
مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه مشبوع الرأي
مسموع القول موطو العقب نفسوا ذلك عليه ^(١) وغضوا منه بالقذح في مذاهبه
والتكذيب لمدعياته وأيضاً فكانوا يؤنسونه ^(٢) من ملوك المتونة أعدائه تجلّة
وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة فكان
لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى
قدره في قومه فأصبحوا بذلك شيعة لهم وخرباً لعدوهم وتقموا على المهدي ما جاء
به من خلافهم والتشريب ^(٣) عليهم والمناصبة ^(٤) لهم تشيماً للمتونة وتعصباً لدولتهم
ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم وما ظنك برجل نقم على أهل
الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاؤهم فنادى في قومه ودعا إلى

(١) أي حسده .

(٢) بمعنى يعلمون .

(٣) التشريب كالتأنيث والتعير والاستفشاء في اللوم (قاموس) .

(٤) ناصبه مناصبة : عاداه وقاومه .

جِهَادِهِمْ بِنَفْسِهِ فَأَقْتَلَعَ الدُّوْلَةَ مِنْ أَصُولِهَا وَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا أَعْظَمَ مَا كَانَتْ قُوَّةً
وَأَشَدَّ شَوْكَةً وَأَعَزَّ أَنْصَاراً وَحَامِيَةً وَتَسَاقَطَتْ فِي ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِ نَفُوسٌ لَا يُخَصِّيها
إِلَّا خَالِقَهَا وَقَدْ بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ وَوَقَّوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَكَةِ وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
بِإِتْلَافٍ مُهَيَّجٍ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ وَالتَّعَصُّبِ لِتِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمِ
وَذَالَتْ بِالْعَدَوَّتَيْنِ مِنَ الدُّوْلِ وَهُوَ بِحَالَةٍ مِنَ التَّقْشُّفِ وَالْحَضَرِ^(١) وَالصَّبْرِ عَلَى
الْمَكَارِهِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَطِّ وَالْمَتَاعِ فِي
دُنْيَاهُ حَتَّى الْوَلَدُ الَّذِي رُبَّمَا تَجَنَّحَ إِلَيْهِ النَّفُوسُ وَتَخَادَعَ عَنْ تَمَتُّيهِ فَلَيْتَ شِغْرِي
مَا الَّذِي قَصَدَ بِذَلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَجْهَ اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَخْضَلْ لَهُ حَظٌّ مِنَ الدُّنْيَا فِي
عَاجِلِهِ وَمَعَ هَذَا فَلَوْ كَانَ قَضَاهُ غَيْرَ صَالِحٍ لَمَا تَمَّ أَمْرُهُ وَانْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ سُنَّةَ اللَّهِ
الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَأَمَّا إِنْكَارُهُمْ نَسَبَهُ فِي أَهْلِ النَّبِيِّ فَلَا تَعْضُدُهُ^(٢) حُجَّةٌ لَهُمْ
مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثَبُتَ أَنَّهُ ادَّعَاةً وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ فَلَا دَلِيلَ يَقُومُ عَلَى بَطْلَانِهِ لِأَنَّ النَّاسَ
مُضْطَفُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إِنْ الرُّئُوسَةُ لَا تَكُونُ عَلَى قَوْمٍ فِي غَيْرِ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَمَا
هُوَ الصَّحِيحُ حَسْبَمَا يَأْتِي فِي الْفَضْلِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَالرَّجُلُ قَدْ رَأَسَ سَائِرَ
الْمَضَامِدَةِ وَذَانُوا بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِتْقِيَادِ إِلَيْهِ وَإِلَى عِصَانِيهِ مِنْ هَرَعَةٍ حَتَّى تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِي
دَعْوَتِهِ فَأَعْلَمَ أَنَّ هَذَا النَّسَبَ الْفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرٌ مُهَيَّيٌّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وَلَا اتَّبَعَهُ
النَّاسُ بِسَبَبِهِ وَإِنَّمَا كَانَ اتِّبَاعُهُمْ لَهُ بِعَصِيَّةِ الْهَرَعِيَّةِ وَالْمُضْمُودِيَّةِ وَمَكَانِهِ مِنْهَا
وَرُسُوحُ شَجَرَتِهِ فِيهَا وَكَانَ ذَلِكَ النَّسَبُ الْفَاطِمِيَّ خَفِيًّا قَدْ دُرِسَ عِنْدَ النَّاسِ وَبَقِيَ
عِنْدَهُ وَعِنْدَ عَشِيرَتِهِ يَتَنَاقَلُونَهُ بَيْنَهُمْ فَيَكُونُ النَّسَبُ الْأَوَّلُ كَأَنَّهُ انْسَلَخَ مِنْهُ وَلَيْسَ
جِلْدَةً هَؤُلَاءِ وَظَهَرَ فِيهَا فَلَا يَضُرُّهُ الْإِنْتِسَابُ الْأَوَّلُ فِي غَضَبِيَّتِهِ إِذْ هُوَ مَجْهُولٌ عِنْدَ
أَهْلِ الْعِصَايَةِ وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ كَثِيراً إِذَا كَانَ النَّسَبُ الْأَوَّلُ خَفِيًّا وَانْظُرْ قِصَّةَ عَرْفَجَةَ
وَجَرِيرٍ فِي رِئَاسَةِ بَجِيلَةٍ وَكَيْفَ كَانَ عَرْفَجَةُ مِنَ الْأَزْدِ وَلَيْسَ جِلْدَةً بِجِيلَةٍ حَتَّى
تَنَازَعَ مَعَ جَرِيرٍ رِئَاسَتَهُمْ عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ تَتَفَهَّمُ مِنْهُ وَجْهَ

(١) بمعنى الامتناع عن النساء .

(٢) عضده ، بكسر الضاد ، بمعنى أعانه وكان له عضداً (لسان العرب) .

الْحَقُّ وَاللَّهُ الْهَادِي لِلصُّوَابِ وَقَدْ كِدْنَا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ غَرْضِ الْكِتَابِ بِالْإِطْنَابِ فِي هَذِهِ الْمَغَالِطِ فَقَدْ زِلْتُ أَقْدَامَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَثْبَاتِ وَالْمُؤَرِّخِينَ الْحُفَاطِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَالْآرَاءِ وَعَلَقْتُ أَفْكَارَهُمْ وَنَقَلْتُ عَنْهُمْ الْكَافَّةَ مِنْ ضَعْفَةِ النَّظَرِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ الْقِيَّاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضاً كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَانْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ فَنُ التَّارِيخِ وَاهِياً مُخْتَلِطاً وَنَازِطَةً مَرْتَبِئاً وَعُدَّ مِنْ مَنَاجِي الْعَامَّةِ فَإِذَا يَخْتِاجُ صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ إِلَى الْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ السِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ الْمَوْجُودَاتِ وَاخْتِلَافِ الْأُمَمِ وَالْبِقَاعِ وَالْأَغْصَارِ فِي السَّيْرِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَوَائِدِ وَالنَّحْلِ وَالْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْإِحَاطَةِ بِالْحَاضِرِ مِنْ ذَلِكَ وَمُمَازِلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغَائِبِ مِنَ الْوَفَاقِ أَوْ بَيِّنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخِلَافِ وَتَغْلِيلِ الْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَالْمُخْتَلِفِ وَالْقِيَامِ عَلَى أَصُولِ الدُّوَلِ وَالْمِلَلِ وَمَبَادِيءِ ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ خُدُوشِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا وَأَحْوَالِ الْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِباً لِأَسْبَابِ كُلِّ خَبْرِهِ وَحِينِيذٍ يَغْرُضُ خَبَرَ الْمُنْقُولِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالْأَصُولِ فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحاً وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَاسْتَفْنَى عَنْهُ وَمَا اسْتَكْبَرَ الْقَدَمَاءُ عِلْمَ التَّارِيخِ إِلَّا لِذَلِكَ حَتَّى انْتَحَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَالْبُخَارِيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَقَدْ ذَهَلَ الْكَثِيرُ عَنْ هَذَا السَّرْفِ فِيهِ حَتَّى صَارَ انْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً^(١) وَاسْتَحْفُ الْعَوَامُ وَمَنْ لَا رُسُوحَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ مُطَالَعَتُهُ وَحَمَلُهُ وَالْخَوْضُ فِيهِ وَالتَّطَفُّلُ عَلَيْهِ فَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْهَمَلِ^(٢) وَاللُّبَابُ بِالْقَشْرِ وَالصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمِنْ الْغُلَطِ الْخَفِيِّ فِي التَّارِيخِ الذُّهُولُ عَنْ تَبْدُلِ الْأَحْوَالِ فِي الْإِمَمِ وَالْأَجْيَالِ يَتَبَدَّلُ الْأَغْصَارُ وَمُرُورُ الْأَيَّامِ وَهُوَ ذَاءٌ دَوِيٌّ شَدِيدُ الْخَفَاءِ إِذْ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ أَخْقَابِ مُطَاوَلَةٍ فَلَا يَكَادُ يَتَفَتَّنُ لَهُ إِلَّا الْآحَادُ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَالْإِمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنَحْلَهُمْ لَا تَدُومُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَا جُ مَسْتَقِرٌّ إِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافٌ عَلَى الْأَيَّامِ وَالْأَزْمِنَةِ وَانْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَشْخَاصِ

(١) المججلة، ما يحمك على الجهل (قاموس).

(٢) هو مثل جيد لاختلاط الجيد بالقبيح.

وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَمْصَارِ فَكَذَلِكَ يَقَعُ فِي الْآفَاقِ وَالْأَقْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالْأَدُولِ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي
قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ أُمَمُ الْفَرَسِ الْأُولَى وَالسَّرْيَانِيُّونَ وَالنَّبَطُ
وَالْتَّبَاعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْقَبِطُ وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دَوْلِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ
وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ^(١) وَلُغَاتِهِمْ وَاصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشَارَكَاتِهِمْ مَعَ أَبْنَاءِ جَنْسِهِمْ
وَأَحْوَالِ اعْتِمَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا أَثَارُهُمْ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمُ الْفَرَسُ الثَّانِيَةُ وَالرُّومُ
وَالْعَرَبُ فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ وَانْقَلَبَتْ بِهَا الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا
وَلَى مَا يُبَايِنُهَا أَوْ يُبَاعِدُهَا ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةٍ مُضَرٍّ فَانْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ
أَجْمَعُ انْقِلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارِفٌ لِهَذَا الْعَهْدِ يَأْخُذُهُ الْخَلْفُ عَنِ
السُّلْفِ ثُمَّ دُرِسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَتْ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ شِيدُوا عِزَّهُمْ وَمَهْدُوا
مُلْكُهُمْ وَصَارَ الْأَمْرُ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلُ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْبَرْبَرِ
بِالْمَغْرِبِ وَالْفَرَنْجَةِ بِالشَّمَالِ فَذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَمٌ وَانْقَلَبَتْ أَحْوَالُ وَعَوَائِدُ نُسَى
شَانِهَا وَأَغْفَلَ أَمْرُهَا وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ
تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يَقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْحَكِيمَةِ النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ وَأَهْلُ
الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ إِذَا اسْتَوْلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْرَعُوا إِلَى^(٢) عَوَائِدِ
مَنْ قَبْلَهُمْ وَيَأْخُذُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفِلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ
الدَّوْلَةِ بَغْضَ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ
وَمَزَجَتْ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَفَتْ أَيْضاً بَغْضَ الشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلأَوَّلَى أَشَدَّ
مُخَالَفَةً ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّدْرِيجُ فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمُبَايَنَةِ بِالْجُمْلَةِ فَمَا
دَامَتِ الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ تَتَعَاقَبُ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَائِدِ
وَالْأَحْوَالِ وَاقِعَةً . وَالْقِيَاسُ وَالْمَحَاكَاةُ لِلإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنْ الْغَلْطِ غَيْرُ
مَأْمُونَةٍ تُخْرِجُهُ مَعَ الذُّهُولِ وَالْغَفْلَةِ عَنْ قَصْدِهِ وَتَفْوُجُ بِهِ^(٣) عَنْ مَرَامِهِ فَرُبَّمَا يَسْمَعُ

(١) صنائع ، جمع صناعة ، وجمع صنعة بمعنى الإحسان (قاموس) .

(٢) وفي بعض النسخ (لا بد وأن) وهو تركيب غير فصيح وقد استعمله ابن خلدون كثيراً في كتابه
والأصح استعمال « لا بد أن ... » وفزع إلى معنى ، لجأ إلى .

(٣) بمعنى ترجع به .

السَّامِعُ كَثِيراً مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ وَلَا يَتَفَتَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَانْقِلَابِهَا
فَيَجْعَلُهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَيَقِيسُهَا بِمَا شَهِدَ وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيراً
فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ الْغَلَطِ فَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَنْقُلُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَحْوَالِ الْحِجَابِ
وَأَنَّ أَبَاءَهُ كَانَ مِنَ الْمُعَلِّمِينَ مَعَ أَنَّ التَّعْلِيمَ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَةِ
الْبَعِيدَةِ مِنَ اغْتِرَازِ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَالْمُعَلِّمِ مُسْتَضْعَفٍ مَسْكِينٍ مُنْقَطِعِ الْجِذْمِ^(١)
فَيَشْشَوُفُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلَ الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَةِ إِلَى نَيْلِ الرُّتَبِ
الَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ وَيَعْدُونَهَا مِنَ الْمُمْكِنَاتِ لَهُمْ فَتَذْهَبُ بِهِمْ وَسَاوِسُ الْمَطَامِعِ
وَرُبَّمَا انْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاةِ الْهَلَكَةِ وَالتَّلَفِ وَلَا يَعْلَمُونَ
اسْتِحْثَالَتَهَا فِي حَقِّهِمْ وَأَنَّهُمْ أَهْلُ حِرَفٍ وَصَنَائِعٍ لِلْمَعَاشِ وَأَنَّ التَّعْلِيمَ صَدَرَ الْإِسْلَامِ
وَالدُّوَلَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَلَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِنَاعَةً إِنَّمَا كَانَ نَقْلاً لِمَا سَمِعَ مِنَ
الشَّارِعِ وَتَعْلِيماً لِمَا جُهِلَ مِنَ الدِّينِ عَلَى جِهَةِ الْبَلَاغِ فَكَانَ أَهْلُ الْأَنْسَابِ
وَالْعَصِيَّةِ الَّذِينَ قَامُوا بِالْمِلَّةِ هُمُ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ عَلَى
مَعْنَى التَّبْلِيغِ الْخَبْرِيِّ لَا عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ الصَّنَاعِيِّ إِذْ هُوَ كِتَابُهُمُ الْمُنَزَّلُ عَلَى
الرُّسُولِ مِنْهُمْ وَبِهِ هَذَا يَأْتِيهِمْ وَالْإِسْلَامُ دِينُهُمْ قَاتَلُوا عَلَيْهِ وَقَتَلُوا وَاخْتَصَمُوا بِهِ مِنْ بَيْنِ
الْأُمَمِ وَشَرَفُوا فَتَحَرَّصُونَ عَلَى تَبْلِيغِ ذَلِكَ وَتَفْهِيمِهِ لِلأُمَّةِ لَا تَصُدُّهُمْ عَنْهُ لَأِيْمَةُ الْكِبَرِ
وَلَا يَزْعُمُهُمْ غَاذِلُ الْأَنْفَةِ وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ كِبَارَ أَصْحَابِهِ مَعَ وَفُودِ
الْعَرَبِ يُعَلِّمُونَهُمْ حُدُودَ الْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ بَعَثَ فِي ذَلِكَ مِنْ
أَصْحَابِهِ الْعَشْرَةَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ فَمَا اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ وَوَسَّجَتْ عُرُوقُ الْمِلَّةِ حَتَّى تَنَاوَلَهَا
الْأُمَمُ الْبَعِيدَةُ مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا وَاسْتَحَالَتْ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ أَحْوَالُهَا وَكَثُرَ اسْتِنْبَاطُ
الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوصِ لِتَعَدُّدِ الْوَقَائِعِ وَتَلَاخُفِهَا فَاحْتَاجَ ذَلِكَ لِقَانُونٍ
يُحْفَظُهُ مِنَ الْخَطِإِ وَصَارَ الْعِلْمُ مَلَكَةً يَخْتِاجُ إِلَى التَّعْلُمِ فَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ
وَالْحِرَفِ كَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ وَاشْتَغَلَ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ بِالْقِيَامِ

(١) الجِذْمُ ، الْأَصْلُ (قَامُوسٌ) .

بِالْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ فَدَفَعَ لِعَلِمٍ مِّنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعَاشِ وَشَمَخَتْ
أَنْوُفُ الْمُتَرَفِّينَ وَأَهْلُ السُّلْطَانِ عَنِ التَّصَدِّي لِلتَّعْلِيمِ وَاخْتَصَّ انْتِحَالُهُ بِالْمُسْتَضْعَفِينَ
وَصَارَ مُنْتَحَلُهُ مُحَقَّرًا عِنْدَ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْمَلِكِ وَالْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ كَانَ أَبُوهُ
مِنْ سَادَاتِ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافِهِمْ وَمَكَانَهُمْ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْعَرَبِ وَمُنَاهِضَةُ قُرَيْشٍ فِي الشَّرَفِ
مَا عَلِمْتَ وَلَمْ يَكُنْ تَعْلِيمُهُ لِلْقُرْآنِ عَلَى مَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةٌ
لِلْمَعَاشِ وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فِي الْإِسْلَامِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا
مَا يَتَوَهَّمُ الْمُتَصَفِّحُونَ لِكُتُبِ التَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ الْقَضَاءِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ
الرَّئَاسَةِ فِي الْحُرُوبِ وَقُودِ الْعَسَاكِرِ فَتَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوِسُ الْهَمِّ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الرُّتَبِ
يَحْسَبُونَ أَنَّ الشَّانَ خِطَّةُ الْقَضَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَيَظُنُّونَ

يَا بَنِي أَبِي عَامِرٍ صَاحِبِ^(١) هِشَامِ الْمُسْتَبَدِّ عَلَيْهِ وَابْنِ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ
بِأَسْبِيلِيَّةٍ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا قَضَاءً أَنَّهُمْ مِثْلُ الْقَضَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا يَتَفَقَّطُونَ
لَمَّا وَقَعَ فِي رُتَبَةِ الْقَضَاءِ مِنْ مَخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ كَمَا نَبَّيْنَاهُ فِي فَضْلِ الْقَضَاءِ مِنَ الْكِتَابِ
الْأَوَّلِ وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ وَابْنُ عَبَّادٍ كَانَا مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
بِالْأَنْدَلُسِ وَأَهْلُ عَصَبِيَّتِهَا وَكَانَ مَكَانَهُمْ فِيهَا مَغْلُومًا وَلَمْ يَكُنْ نَيْلُهُمْ لَمَّا نَالُوهُ مِنَ
الرَّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ بِخِطَّةِ الْقَضَاءِ كَمَا هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ بَلْ إِنَّمَا كَانَ الْقَضَاءُ فِي الْأَمْرِ
الْقَدِيمِ لِأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ مِنْ قِبَلِ^(٢) الدَّوْلَةِ وَمَوَالِيهَا كَمَا هِيَ الْوِزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِالْمَغْرِبِ
وَانْظُرْ خُرُوجَهُمْ بِالْعَسَاكِرِ فِي الطُّوَائِفِ^(٣) وَتَقْلِيدَهُمْ عِظَائِمَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَقْلُدُ إِلَّا
لِمَنْ لَهُ الْغِنَى^(٤) فِيهَا بِالْعَصَبِيَّةِ فَيَغْلُطُ السَّامِعُ فِي ذَلِكَ وَيَحْمِلُ الْأَحْوَالَ عَلَى غَيْرِ
مَا هِيَ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِي هَذَا الْغَلَطِ ضَعْفَاءُ الْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ . وأظننا تحريف من الناسخ وصوابها (حاجب هشام) وهشام هذا هو
أحد ملوك الأندلس ، وكان ابن أبي عامر حاجباً له .

(٢) بمعنى جماعة الدولة .

(٣) كذا بالأصل في جميع النسخ والغالب أنه تحريف عن « صوائف » وهي غزوات الصين .

(٤) كذا بالأصل في جميع النسخ ولا معنى لها هنا والصحيح ، الغناء بمعنى الاجزاء والكفاية .

لِفَقْدَانِ الْعَصِيَّةِ فِي مَوَاطِنِهِمْ مُنْذُ أَغْصَارِ بَعِيدَةٍ بِفَنَاءِ الْعَرَبِ وَدَوْلَتِهِمْ بِهَا وَخُرُوجِهِمْ
عَنْ مَلَكِيَةِ أَهْلِ الْعَصِيَّاتِ ^(١) مِنَ الْبَرَبْرِ فَبَقِيَتْ أَنْسَابُهُمُ الْعَرَبِيَّةُ مَحْفُوظَةً وَالذَّرِيعَةُ
إِلَى الْعِزِّ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالتَّنَاصُرُ مَفْقُودَةٌ بَلْ صَارُوا مِنْ جُمْلَةِ الرِّعَايَا الْمُتَخَاذِلِينَ
الَّذِينَ تَعْبُدُهُمُ الْقَهْرُ وَرَبُّوهُمْ لِلْمَذَلَّةِ ^(٢) يَحْسَبُونَ أَنَّ أَنْسَابَهُمْ مَعَ مُخَالَطَةِ الدَّوْلَةِ هِيَ
الَّتِي يَكُونُ لَهُمْ بِهَا الْغَلْبُ وَالتَّحَكُّمُ فَتَجِدُ أَهْلَ الْحَرْفِ وَالصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَصَدِّينَ
لِذَلِكَ سَاعِمِينَ فِي نَيْلِهِ فَأَمَّا مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصِيَّةِ وَدَوْلَتِهِمْ بِالْعُدْوَةِ
الْعَرَبِيَّةِ وَكَيْفَ يَكُونُ التَّغْلُبُ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالْعَشَائِرِ فَقَلَّمَا يَغْلَطُونَ فِي ذَلِكَ
وَيُخْطِئُونَ فِي اعْتِبَارِهِ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضاً مَا يَسْلُكُهُ الْمُؤَرِّخُونَ عِنْدَ ذِكْرِ الدُّوَلِ
وَنَسَقِ مُلُوكِهَا فَيَذْكُرُونَ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ وَأَبَاهُ وَأُمَّهُ وَنِسَاءَهُ وَلَقَبَهُ وَخَاتَمَهُ وَقَاضِيَهُ
وَحَاجِبَهُ وَوَزِيرَهُ كُلُّ ذَلِكَ تَقْلِيدٌ لِمُؤَرِّخِي الدَّوْلَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَفْطَنٍ لِمَقَاصِدِهِمْ
وَالْمُؤَرِّخُونَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ كَانُوا يَضَعُونَ تَوَارِيخَهُمْ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَأَبْنَاءُهَا مُتَشَوِّفُونَ
إِلَى سِيرِ أَسْلَافِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ لِيَقْتَفُوا آثَارَهُمْ وَيَنْسَجُوا عَلَى مَنَوالِهِمْ حَتَّى فِي
اضْطِنَاعِ الرِّجَالِ مِنْ خَلْفِ دَوْلَتِهِمْ وَتَقْلِيدِ الْخَطِطِ وَالْمَرَاتِبِ لِأَبْنَاءِ صَنَائِعِهِمْ
وَدَوِيهِمْ وَالْقَضَاةِ أَيْضاً كَانُوا مِنْ أَهْلِ عَصِيَّةِ الدَّوْلَةِ وَفِي عِدَادِ الْوُزَرَاءِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ
لَكَ فَيَحْتَاجُونَ إِلَى ذِكْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَمَّا حِينَ تَبَايَنَتِ الدُّوَلُ وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْعُصُورِ
وَوَقَفَ الْغَرَضُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُلُوكِ بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً وَنَسَبِ الدُّوَلِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فِي

(١) العصية بفتح العين التمسب وهو أن يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد في نصره
منسوبة إلى العصبة محركة وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لأنهم هم الذابون عن حريم من هو منتهاهم وهي بهذا
المعنى ممدوحة وإما العصية المذمومة في الحديث الجامع الصغير ليس منا من دعا إلى عصية وليس منا من قاتل
على عصية فهي تمصب رجال لقبيلة على رجال لقبيلة أخرى لغير ديانة كما كان يقع من قيام سعد على حرام
نسبة إلى العصبة بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير أقاربه ظالماً كان أو مظلوماً وفي الفتاوي
الخيرية من موانع قبول الشهادة العصية وهي أن يبغض الرجل الرجل لأنه من بني فلان أو من قبيلة كذا والوجه
في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم ففي الحديث ليس منا من دعي إلى عصية وهو موجب للفسق ولا شهادة
لمرتكبه . قاله الأستاذ أبو الوفا .

(٢) في القاموس ، يقولون ، « هو رؤوم للضم أي ذليل راضي بالخسف » وهذه العبارة قليلة الاستعمال .
والأصح ، رثمو المذلة بمعنى القوها .

قُوَّتْهَا وَغَلَبَتَهَا وَمَنْ كَانَ يُنَاهِضُهَا مِنَ الْأَمَمِ أَوْ يَقْصُرُ عَنْهَا فَمَا الْفَائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ فِي
هَذَا الْعَهْدِ فِي ذِكْرِ الْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ وَنَقْشِ الْخَائِمِ وَالْقَبْرِ وَالْقَاضِي وَالْوَزِيرِ وَالْحَاجِبِ
مِنْ دَوْلَةٍ قَدِيمَةٍ لَا يَعْرِفُ فِيهَا أَصُولَهُمْ وَلَا أَنْسَابَهُمْ وَلَا مَقَامَاتِهِمْ إِنَّمَا حَمَلْنَاهُمْ عَلَى
ذَلِكَ التَّقْلِيدِ وَالْعَقْلَةَ عَنْ مَقَاصِدِ الْمُؤَلِّفِينَ الْأَقْدَمِينَ وَالذُّهُولَ عَنْ تَحْرِي الْأَغْرَاضِ
مِنَ التَّارِيخِ اللَّهُمَّ إِلَّا ذَكَرَ الْوُزَرَاءَ الَّذِينَ عَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَعَفَتْ ^(١) عَلَى الْمُلُوكِ
أَخْبَارُهُمْ كَالْحِجَاجِ وَبَنِي الْمَهْلَبِ وَالْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلٍ بَنِي نُوبَخْتٍ وَكَافُورِ
الْأَخْشِيدِيِّ وَابْنِ أَبِي عَامِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ فَغَيْرُ نَكِيرِ الْأَلْمَاعِ بِأَبَائِهِمْ وَالْإِشَارَةِ إِلَى أَحْوَالِهِمْ
لَا نَتِظَامِيهِمْ فِي عِدَادِ الْمُلُوكِ . وَلِنَذْكُرْ هُنَا فَائِدَةً نَحْنُ كَلَامَنَا فِي هَذَا الْفَضْلِ بِهَا وَهِيَ
أَنَّ التَّارِيخَ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ الْأَخْبَارِ الْخَاصَّةِ بِعَصْرِ أَوْ جِيلٍ فَأَمَّا ذِكْرُ الْأَحْوَالِ الْعَامَّةِ
لِلْأَفَاقِ وَالْأَجْيَالِ وَالْأَعْصَارِ فَهُوَ أَسْلَمُ لِلْمُؤَرِّخِ تَنْبِيهِ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مَقَاصِدِهِ وَتَتَبُّعُ بِهِ
أَخْبَارَهُ وَقَدْ كَانَ النَّاسُ يُفَرِّدُونَهُ بِالتَّالِيفِ كَمَا فَعَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي كِتَابِ مَرْوَجِ
الذَّهَبِ شَرَحَ فِيهِ أَحْوَالَ الْأَمَمِ وَالْأَفَاقِ لِعَهْدِهِ فِي عَصْرِ الثَّلَاثِينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ غَرْبًا
وَشَرْقًا وَذَكَرَ نَحْلَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ وَوَصَفَ الْبُلْدَانَ وَالْجِبَالَ وَالْبَحَارَ وَالْمَمَالِكَ وَالْدُّوَلِ
وَفَرَّقَ شُعُوبَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فَصَارَ إِمَامًا لِلْمُؤَرِّخِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَأَصْلًا يُعْوَلُونَ فِي
تَحْقِيقِ الْكَثِيرِ مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ ثُمَّ جَاءَ الْبَكْرِيُّ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي
الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْوَالِ لِأَنَّ الْأَمَمَ وَالْأَجْيَالَ لِعَهْدِهِ لَمْ
يَقَعْ فِيهَا كَثِيرٌ انْتَقَالَ وَلَا عَظِيمٌ تَغَيَّرَ وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ آخِرُ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ فَقَدْ
انْقَلَبَتْ أَحْوَالَ الْمَغْرِبِ الَّذِي نَحْنُ شَاهِدُوهُ وَتَبَدَّلَتْ بِالْجُمْلَةِ وَاعْتَاضَ مِنْ أَجْيَالِ
الْبَرْبَرِ أَهْلُهُ عَلَى الْقِدَمِ بِمَا طَرَأَ فِيهِ مِنْ لَدُنِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ أَجْيَالِ الْعَرَبِ بِمَا
كَسَرُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ وَانْتَزَعُوا مِنْهُمْ عَامَّةَ الْأَوْطَانِ وَشَارَكُوهُمْ فِيهَا بَقِي مِنَ الْبُلْدَانِ
لِمَلِكِهِمْ هَذَا إِلَى مَا نَزَلَ بِالْعُمَرَانِ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي مُنْتَصَفِ هَذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ
الطَّاعُونَ الْجَارِفِ الَّذِي تَحَيَّفَ الْأَمَمَ وَذَهَبَ بِأَهْلِ الْجِيلِ وَطَوَى كَثِيرًا مِنْ مَحَاسِنِ

(١) عفا عليه ، زاد (قاموس) .

الْعُمْرَانِ وَمَخَاهَا وَجَاءَ لِلدُّوَلِ عَلَى حِينِ هَرَمِهَا وَبُلُوغِ الْغَايَةِ مِنْ مَدَاهَا فَقَلَصَ مِنْ
 ظِلَالِهَا وَقُلَّ مِنْ حَدِّهَا وَأَوْهَنَ مِنْ سُلْطَانِهَا وَتَدَاعَتْ إِلَى التَّلَاشِي وَالْإِضْمِخْلَالِ
 أَمْوَالُهَا وَانْتَقَضَ عُمْرَانُ الْأَرْضِ بِانْتِقَاضِ الْبَشَرِ فَخَرَبَتِ الْأَمْصَارُ وَالْمَصَانِعُ وَدُرِسَتْ
 السُّبُلُ وَالْمَعَالِمُ وَخَلَّتِ الدِّيَارُ وَالْمَنَازِلُ وَضَعُفَتِ الدُّوَلُ وَالْقَبَائِلُ وَتَبَدَّلَ السَّاكِنُ
 وَكَانَنِي بِالْمَشْرِقِ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِالْمَغْرِبِ لَكِنْ عَلَى نِسْبَتِهِ وَمَقْدَارِ عُمْرَانِهِ
 وَكَأَنَّمَا نَادَى لِسَانُ الْكَوْنِ فِي الْعَالَمِ بِالْخُمُولِ وَالْإِنْتِبَاضِ فَبَادَرَ بِالْإِجَابَةِ وَاللَّهُ
 وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِذَا تَبَدَّلَتِ الْأَحْوَالُ جُمْلَةً فَكَأَنَّمَا تَبَدَّلَ الْخَلْقُ مِنْ أَصْلِهِ
 وَتَحَوَّلَ الْعَالَمُ بِأَسْرِهِ وَكَأَنَّهُ خَلَقَ جَدِيدَ وَنَشَأَ مُسْتَأْنَفَةً وَعَالَمٌ مُحَدَّثٌ فَاحْتَاجَ لِهَذَا
 الْعَهْدِ مَنْ يُدَوِّنُ أَحْوَالَ الْخَلِيقَةِ وَالْآفَاقِ وَأَجْيَالِهَا وَالْعَوَائِدِ وَالنَّحْلِ الَّتِي تَبَدَّلَتْ
 لِأَهْلِهَا وَيَقْفُو مَسْلَكَ الْمَسْعُودِي لِعَصْرِهِ لِيَكُونَ أَصْلًا يَقْتَدِي بِهِ مَنْ يَأْتِي مِنَ
 الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَا ذَاكِرٌ فِي كِتَابِي هَذَا مَا أُمَكِّنِي مِنْهُ فِي هَذَا الْقَطْرِ الْمَغْرِبِيِّ
 إِمَّا صَرِيحاً أَوْ مُنْذِجاً فِي أَخْبَارِهِ وَتَلْوِيحاً لِإِخْتِصَاصِ قَضِي فِي التَّأْلِيفِ بِالْمَغْرِبِ
 وَأَحْوَالِ أَجْيَالِهِ وَأَمَمِهِ وَذَكَرَ مَمَالِكِهِ وَدَوْلِهِ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَقْطَارِ لِعَدَمِ اطِّلَاعِي
 عَلَى أَحْوَالِ الْمَشْرِقِ وَأَمَمِهِ وَأَنَّ الْأَخْبَارَ الْمُتَنَاقِلَةَ لَا تَقِي كُنْهَ مَا أُرِيدُهُ مِنْهُ
 وَالْمَسْعُودِي إِنَّمَا اسْتَوْفَى ذَلِكَ لِبُعْدِ رَحْلَتِهِ وَتَقَلُّبِهِ فِي الْبِلَادِ كَمَا ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مَعَ
 أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْرِبَ قَصَرَ فِي اسْتِيفَاءِ أَحْوَالِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ وَمَرْدُ الْعِلْمِ كُلِّهِ
 إِلَى اللَّهِ وَالْبَشَرُ عَاجِزٌ قَاصِرٌ وَالْإِعْتِرَافُ مُتَعَيِّنٌ وَاجِبٌ وَمَنْ كَانَ اللَّهُ فِي عَوْنِهِ تيسَّرَتْ
 عَلَيْهِ الْمَذَاهِبُ وَأُنِجِحَتْ لَهُ الْمَسَاعِي وَالْمَطَالِبُ وَنَحْنُ آخِذُونَ بِعَوْنِ اللَّهِ فِيمَا رُمْنَا
 مِنْ أَغْرَاضِ التَّأْلِيفِ وَاللَّهُ الْمُسَدِّدُ وَالْمُعِينُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نُقَدِّمَ
 مُقَدِّمَةً فِي كَيْفِيَّةِ وَضْعِ الْحُرُوفِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ لُغَاتِ الْعَرَبِ إِذَا عَرَضَتْ فِي كِتَابِنَا
 هَذَا .

إَعْلَمُ أَنَّ الْحُرُوفَ فِي النُّطْقِ كَمَا يَأْتِي شَرْحُهُ بَعْدَ هِيَ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ
 الْخَارِجَةِ مِنَ الْحَنَجَرَةِ تَغْرُضُ مِنْ تَقْطِيعِ الصُّوْتِ بِقَرْعِ اللِّهَاءِ وَأَطْرَافِ اللِّسَانِ مَعَ

الْحَنَكِ وَالْخَلْقِ وَالْأَضْرَاسِ أَوْ يَقْرَعُ الشَّقَتَيْنِ أَيْضاً فَتَتَغَايِرُ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ
بِتَغَايِرِ ذَلِكَ الْقَرَعِ وَتَجِيءُ الْحُرُوفُ مُتَمَايِزَةً فِي السَّمْعِ وَتَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلِمَاتُ
الدَّالَّةُ عَلَى مَا فِي الصَّمَائِرِ وَلَيْسَتْ الْأَمَمُ كُلُّهَا مُتَسَاوِيَةً فِي النُّطْقِ بِتِلْكَ الْحُرُوفِ فَقَدْ
يَكُونُ لَأَمَّةٍ مِنَ الْحُرُوفِ مَا لَيْسَ لِأَمَّةٍ أُخْرَى وَالْحُرُوفُ الَّتِي نَطَقْتُ بِهَا الْعَرَبُ
هِيَ ثَمَانِيَّةٌ وَعَشْرُونَ حَرْفًا كَمَا عَرَفْتُ وَنَحْدُ لِلْعِبْرَانِيِّينَ حُرُوفًا لَيْسَتْ فِي لُغَتِنَا وَفِي
لُغَتِنَا أَيْضاً حُرُوفٌ لَيْسَتْ فِي لُغَتِهِمْ وَكَذَلِكَ الْإِفْرَنْجُ وَالتُّرْكُ وَالْبَرْبَرُ وَغَيْرُهُمْ لَا مِنْ
الْعَجَمِ ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْعَرَبِ اضْطَلَحُوا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى حُرُوفِهِمُ الْمَشْمُوعَةِ
بِأَوْضَاعِ حُرُوفٍ مَكْتُوبَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بِأَشْخَاصِهَا كَوَضْعِ أَلِفٍ وَبَاءٍ وَجِيمٍ وَزَاءٍ وَطَاءٍ إِلَى
آخِرِ الثَّمَانِيَّةِ وَالْعِشْرِينَ وَإِذَا عَرَضَ لَهُمُ الْحَرْفُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ لُغَتِهِمْ بَقِيَ
مُهْمَلًا عَنْ الدَّلَالَةِ الْكِتَابِيَّةِ مُغْفَلًا عَنِ الْبَيَانِ وَرُبَّمَا يَرْسُمُهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ بِشَكْلِ
الْحَرْفِ الَّذِي يَكْتَنِفُهُ مِنْ لُغَتِنَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ وَلَيْسَ بِكَافٍ فِي الدَّلَالَةِ بَلْ هُوَ تَغْيِيرٌ
لِلْحَرْفِ مِنْ أَصْلِهِ . وَلَمَّا كَانَ كِتَابُنَا مُشْتَمِلًا عَلَى أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَبَعْضِ الْعَجَمِ
وَكَانَتْ تَعْرِضُ لَنَا فِي أَسْمَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوفٌ لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ كِتَابَتِنَا وَلَا
اضْطِلَاحٌ أَوْضَاعِنَا اضْطَرَرْنَا إِلَى بَيَانِهِ وَلَمْ نَكْتَفِ بِرِسْمِ الْحَرْفِ الَّذِي يَلِيهِ كَمَا قُلْنَا
لَأَنَّهُ عِنْدَنَا غَيْرُ وَافٍ بِالدَّلَالَةِ عَلَيْهِ فَاضْطَلَحْتُ فِي كِتَابِي هَذَا عَلَى أَنْ أَضَعُ ذَلِكَ
الْحَرْفَ الْعَجَمِيَّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْحَرْفَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكْتَنِفَانِهِ لِيَتَوَسَّطَ الْقَارِءُ بِالنُّطْقِ
بِهِ بَيْنَ مَخْرَجِي ذَيْنِكَ الْحَرْفَيْنِ فَتَحْصُلَ تَأْدِيَتُهُ وَإِنَّمَا اقْتَبَسْتُ ذَلِكَ مِنْ رِسْمِ أَهْلِ
الْمُضْحَفِ حُرُوفِ الْإِسْمَامِ كَالصَّرَاطِ فِي قِرَاءَةِ خَلْفٍ فَإِنَّ النُّطْقَ بِصَادِهِ فِيهَا مُعْجَمٌ
مُتَوَسَّطٌ بَيْنَ الصَّادِ وَالزَّايِ فَوَضَعُوا الصَّادَ وَرَسَمُوا فِي دَاخِلِهَا شَكْلَ الزَّايِ وَذَلِكَ
عِنْدَهُمْ عَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ فَكَذَلِكَ رَسَمْتُ أَنَا كُلَّ حَرْفٍ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ
حَرْفَيْنِ مِنْ حُرُوفِنَا كَالْكَافِ الْمُتَوَسِّطَةِ عِنْدَ الْبَرْبَرِ بَيْنَ الْكَافِ الصَّرِيحَةِ عِنْدَنَا
وَالْجِيمِ أَوْ الْقَافِ مِثْلَ اسْمِ بَلَكَيْنِ فَأَضَعُهَا كَافًا وَأَنْقَطَعُهَا بِنُقْطَةِ الْجِيمِ وَاحِدَةً مِنْ
أَسْفَلٍ أَوْ بِنُقْطَةِ الْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ فَوْقٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُتَوَسَّطٌ بَيْنَ
الْكَافِ وَالْجِيمِ أَوْ الْقَافِ وَهَذَا الْحَرْفُ أَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي لُغَةِ الْبَرْبَرِ وَمَا جَاءَ مِنْ

غَيْرِهِ فَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ أَضْعُ الْحَرْفِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ لُقَيْنَا بِالْحَرْفَيْنِ مَعًا
لِيَعْلَمَ الْقَارِئُ أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ فَيَنْطِقُ بِهِ كَذَلِكَ فَتَكُونُ قَدْ دَلَّلْنَا عَلَيْهِ وَلَوْ وَضَعْنَاهُ بِرَسْمِ
الْحَرْفِ الْوَاحِدِ عَنْ جَانِبِهِ لَكُنَّا قَدْ صَرَفْنَاهُ مِنْ مَخْرَجِهِ إِلَى مَخْرَجِ الْحَرْفِ الَّذِي مِنْ
لُقَيْنَا وَغَيْرِنَا لَعَمَّا الْقَوْمُ فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ^(١)

(١) يعتبر ابن خلدون أول من حاول استخدام العلوم الاجتماعية والسياسية مجتمعة وتسخيرها لدراسة التاريخ . غير أنه لم يجد من يخلفه في الإسلام إلى أن جاءت المؤثرات الحديثة تؤثر في العالم الإسلامي وقد باءت بالفشل حتى اليوم كل محاولة لمعرفة المثال الذي احتذاه ابن خلدون في تفكيره ومن المحتمل أنه كانت في بيئته . شمالي إفريقيا وفي إسبانيا ، أفكار تناقش أمامه بشكل أولي . غير أنه لا جدال في إبداعه الأساس . وقد ذكر إبداعه بقوة إذ قال « ونحن ألهمنا الله إلى ذلك الهاماً . واعثرنا على علم بين بكرة وجهينة خبره . فان كنت قد استوفيت مسأله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنعاه . فتوفيق من الله وهداية . وإن فاتني شيء من إحصائه واشتبعت بغيره مسأله فللناظر المحقق اصلاحه ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق . والله يهدي بنوره من يشاء » ويؤيد صدق قوله تواضعه الواضح . ثم انه ليس هناك مبرر للريبة بابن خلدون عندما يقول ان مصادر الهامه هي أصول الفقه وكتب الآداب . فهو يقول « وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم من جنس مسأله بالموضوع والمطلب مثل ما يذكره الحكماء في اثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الحاكم والوازع . ومثلاً يذكر في أصول الفقه في باب اثبات اللغات أن الناس محتاجون للعبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وشأن العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخلط للأنساب مفسد للنوع والقتل أيضاً مفسد للنوع وإن الظلم مؤذن بخراب العمران . . . » ولا شك أن أعظم ما قام به ابن خلدون هو تطبيق الأفكار السياسية والاجتماعية المبشرة على التاريخ الذي يعتبره القوة الحية التي تربط الماضي بالحاضر بعملية واحدة مستمرة . فالإنسان والبيئة والجهود الفردية والتنظيمات الاجتماعية كلها مادة أولية للتاريخ . حسب تحليل ابن خلدون العميق رغم تمسفه أحياناً . وتحليل ابن خلدون هذا رغم إمكان تفسيره على ضوء أسسه الإسلامية . إلا أنه أقرب إلى التوقف الفذ منه إلى مجرد وقفة عادية في مجرى علم التاريخ الإسلامي .

(علم التاريخ عند المسلمين ص ١٦٥ - ١٦٦ . فرانز روزنتال) .

الكتاب الأول

في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البذو والحضر
والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من
العلل والأسباب

إِغْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ التَّارِيخِ أَنَّهُ خَبَرَ عَنِ الْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ
عُمُرَانُ الْعَالَمِ وَمَا يَفْرُضُ لِطَبِيعَةِ ذَلِكَ الْعُمُرَانِ مِنَ الْأَحْوَالِ مِثْلِ التَّوَحُّشِ وَالتَّائُسِ
وَالْمَعْصِيَّاتِ وَأَصْنَافِ التَّغْلِبَاتِ لِلْبَشَرِ بَفْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ
الْمُلْكِ وَالْذُّوْلِ وَمَرَاتِبِهَا وَمَا يَنْتَحِلُهُ الْبَشَرُ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَسَاعِيِهِمْ مِنَ الْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ
وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ مَا يَخْدُثُ مِنْ ذَلِكَ الْعُمُرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَلَمَّا
كَانَ الْكَذِبُ مُتَطَرِّقًا لِلْخَبَرِ بِطَبِيعَتِهِ وَلَهُ أَسْبَابٌ تَقْتَضِيهِ . فَمِنْهَا التَّشْيِيعَاتُ لِلْأَزَاءِ
وَالْمَذَاهِبِ فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ الْإِعْتِدَالِ فِي قَبُولِ الْخَبَرِ أَغْطَتْهُ حَقُّهُ مِنْ
التَّمْحِصِ وَالنَّظَرِ حَتَّى تَتَبَيَّنَ صِدْقُهُ مِنْ كَذِبِهِ وَإِذَا خَامَرَهَا تَشْيِيعٌ لِرَأْيٍ أَوْ نَحْلَةٍ
قَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنَ الْأَخْبَارِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ ذَلِكَ الْمَيْلُ وَالتَّشْيِيعُ غِطَاءً عَلَى عَيْنِ
بَصِيرَتِهَا عَنِ الْإِنْتِقَادِ وَالتَّمْحِصِ فَتَقَعُ فِي قَبُولِ الْكَذِبِ وَتَقْلَهُ . وَمِنْ الْأَسْبَابِ
الْمُقْتَضِيَةِ لِلْكَذِبِ فِي الْأَخْبَارِ أَيْضًا الثِّقَّةُ بِالنَّاقِلِينَ وَتَمْحِصُ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى
التَّغْدِيلِ وَالتَّجْرِيعِ . وَمِنْهَا الدُّهُوْلُ عَنِ الْمَقَاصِدِ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاقِلِينَ لَا يَعْرِفُ
الْقَصْدَ بِمَا عَايَنَ أَوْ سَمِعَ وَيَتَقَلُّ الْخَبَرَ عَلَى مَا فِي ظَنِّهِ وَتَخْمِينِهِ فَيَقَعُ فِي الْكَذِبِ .
وَمِنْهَا تَوَهُمُ الصِّدْقِ وَهُوَ كَثِيرٌ وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي الْأَكْثَرِ مِنْ جِهَةِ الثِّقَّةِ بِالنَّاقِلِينَ وَمِنْهَا
الْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ الْأَحْوَالِ عَلَى الْوَقَائِعِ لِأَجْلِ مَا يُدَاخِلُهَا مِنَ التَّلْبِيسِ وَالتَّضَنُّعِ
فَيَنْقُلُهَا الْمُخْبِرُ كَمَا رَأَاهَا وَهِيَ بِالتَّضَنُّعِ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فِي نَفْسِهِ . وَمِنْهَا تَقَرُّبُ النَّاسِ

فِي الْأَكْثَرِ لِأَصْحَابِ التَّجَلُّةِ وَالْمَرَاتِبِ بِالشَّيْنِ وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ
 الذِّكْرِ بِذَلِكَ فَيَسْتَفِيضُ الْإِخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ فَالْأَنفُسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ الشَّيْنِ
 وَالنَّاسُ مُتَطَلِّعُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا فِي الْأَكْثَرِ بِرَاضِينَ فِي
 الْفَضَائِلِ وَلَا مُتَنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا . وَمِنْ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أَيْضاً وَهِيَ سَابِقَةٌ عَلَى
 جَمِيعِ مَا تَقْدَمُ الْجَهْلُ بِطَبَائِعِ الْأَحْوَالِ فِي الْعُمُرَانِ فَإِنْ كُلُّ حَادِثٍ مِنَ الْحَوَادِثِ
 ذَاتاً كَانَ أَوْ فِعْلاً لَا بُدَّ لَهُ مِنْ طَبِيعَةٍ تَخْصُهُ فِي ذَاتِهِ وَفِيهَا يَغْرُضُ لَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ فَإِذَا
 كَانَ السَّامِعُ عَارِفاً بِطَبَائِعِ الْحَوَادِثِ وَالْأَحْوَالِ فِي الْوُجُودِ وَمُقْتَضِيَاتِهَا أَعَانَهُ ذَلِكَ فِي
 تَمْحِصِ الْخَبَرِ عَلَى تَمْيِيزِ الصَّدَقِ مِنَ الْكُذْبِ وَهَذَا أَبْلَغُ فِي التَّمْحِصِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ
 يَغْرُضُ وَكَثِيراً مَا يَغْرُضُ لِلْسَّامِعِينَ قَبُولَ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ وَيَنْقُلُونَهَا وَتَوَثَّرُ عَنْهُمْ
 كَمَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ عَنِ الْإِسْكَندَرِ لَمَّا صَدَّتْهُ دَوَابُّ الْبَحْرِ عَنْ بِنَاءِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ
 وَكَيْفَ اتَّخَذَ صُنْدُوقَ الرُّجَاجِ وَغَاصَ فِيهِ إِلَى قَعْرِ الْبَحْرِ حَتَّى صَوَّرَ تِلْكَ الدَّوَابَّ
 الشَّيْطَانِيَّةَ الَّتِي رَأَاهَا وَعَمِلَ تَمَائِيلَهَا مِنْ أَجْسَادِ مَعْدِنِيَّةٍ وَنَصَبَهَا حِذَاءَ الْبَنِيَانِ فَبَرَزَتْ
 تِلْكَ الدَّوَابَّ حِينَ خَرَجَتْ وَعَايَنْتَهَا وَتَمَّ بِنَاؤُهَا فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ مِنْ أَحَادِيثِ
 خُرَافَةِ مُسْتَحِيلَةٍ مِنْ قَبْلِ اتِّخَاذِهِ التَّابُوتِ الرُّجَاجِيِّ وَمُضَادَّةِ الْبَحْرِ وَأَمْوَاجِهِ
 بِجُزْمِهِ وَمِنْ قَبْلِ أَنْ الْمُلُوكُ لَا تَحْمِلُ أَنْفُسَهَا عَلَى مِثْلِ هَذَا الْغُرُورِ ^(١) وَمَنْ اعْتَمَدَهُ
 مِنْهُمْ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ وَانْتِقَاضِ الْعُقْدَةِ وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَى غَيْرِهِ وَفِي ذَلِكَ
 إِتْلَافَةٌ وَلَا يَنْظُرُونَ بِهِ رُجُوعَهُ مِنْ غُرُورِهِ ^(٢) ذَلِكَ طَرَفَةٌ عَيْنٍ وَمِنْ قَبْلِ أَنْ الْجِنُّ
 لَا يُعْرِفُ لَهَا صُورَ وَلَا تَمَائِيلَ تَخْتَصُّ بِهَا إِنَّمَا هِيَ قَادِرَةٌ عَلَى التَّشْكِيلِ وَمَا يُذَكَّرُ
 مِنْ كَثَرَةِ الرُّؤُوسِ لَهَا فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْبَشَاعَةُ وَالتَّهْوِيلُ لَا أَنَّهُ حَقِيقَةٌ . وَهَذِهِ كُلُّهَا
 قَادِحَةٌ فِي تِلْكَ الْحِكَايَةِ وَالْقَادِحُ الْمُحِيلُ لَهَا مِنْ طَرِيقِ الْوُجُودِ أَتَيْنُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ
 وَهُوَ أَنَّ الْمُتَغَمِّسَ فِي الْمَاءِ وَلَوْ كَانَ فِي الصُّنْدُوقِ يَضِيقُ عَلَيْهِ الْهَوَاءُ لِلتَّنَفُّسِ الطَّبِيعِيِّ
 وَتَسَخُّنِ رُوحِهِ بِسُرْعَةٍ لِقَلَّتِهِ فَيَفْقَدُ صَاحِبَهُ الْهَوَاءَ الْبَارِدَ الْمُعَدَّلَ لِمَزَاجِ الرُّقَّةِ وَالرُّوحِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ الْغُرُورُ أَيُّ بِمَعْنَى تَعْرِيزِ النَّفْسِ لِلْهَلَاكِ .

(٢) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ وَمُقْتَضَى السِّيَاقِ : أَغْرَرَهُ .

القلبي وَيَهْلِكُ مَكَانَهُ وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي هَلَاكِ أَهْلِ الْحَمَامَاتِ إِذَا أَطْبَقَتْ ^(١) عَلَيْهِمُ
عَنِ الْهَوَاءِ الْبَارِدِ وَالْمُتَدَلِّيْنَ فِي الْأَبَارِ وَالْمَطَامِيرِ الْعَمِيقَةِ الْمَهْوَى إِذَا سَخُنَ هَوَاؤُهَا
بِالْمُفَوْنَةِ وَلَمْ تُدَاخِلْهَا الرِّيحُ فَتُخْلَجَلْهَا فَإِنَّ الْمُتَدَلِّيَّ فِيهَا يَهْلِكُ لِحَبِينِهِ وَبِهَذَا
السَّبَبِ يَكُونُ مَوْتُ الْحَوْبِ إِذَا فَارَقَ الْبَحْرَ فَإِنَّ الْهَوَاءَ لَا يَكْفِيهِ فِي تَعْدِيلِ رَيْبِهِ إِذْ
هُوَ حَارٌّ بِإِفْرَاطٍ وَالْمَاءُ الَّذِي يُعَدِّلُهُ بَارِدٌ وَالْهَوَاءُ الَّذِي خَرَجَ إِلَيْهِ حَارٌّ فَيَسْتَوِلِي
الْحَارُّ عَلَى رُوحِهِ الْحَيَوَانِيِّ وَيَهْلِكُ دَفْعَةً وَمِنْهُ هَلَاكِ الْمَضْغُوقِينَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَمِنْ
الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضاً فِي تِمَثَالِ الزَّرْزُورِ الَّذِي بِرُومَةٍ تَجْتَمِعُ
إِلَيْهِ الزَّرَازِيرُ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ حَامِلَةً لِلزَّرْتُونَ وَمِنْهُ يَتَّخِذُونَ زَيْتَهُمْ وَانْظُرْ
مَا أَبْعَدَ ذَلِكَ عَنِ الْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ فِي اتِّخَاذِ الزَّيْتِ . وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ الْبُكْرِيُّ فِي
بِنَاءِ الْمَدِينَةِ الْمُسَمَّاةِ ذَاتِ الْأَبْوَابِ تُحِيطُ بِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ مَرَحَلَةً وَتَشْتَمِلُ عَلَى
عَشْرَةِ آلَافِ بَابٍ وَالْمُدُنُ إِنَّمَا اتَّخَذَتْ لِلتَّحْصَنِ وَالِإِغْتِصَامِ كَمَا يَأْتِي وَهَذِهِ خَرَجَتْ
عَنْ أَنْ يُحَاطَ بِهَا فَلَا يَكُونُ فِيهَا حُصْنٌ وَلَا مُغْتَصَمٌ وَكَمَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضاً فِي
حَدِيثِ مَدِينَةِ النَّحَاسِ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ كُلُّ بِنَائِهَا نَحَاسٌ بِصَخْرَاءٍ سَجْلَمَاسَةٍ ظَفِرَ بِهَا
مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ فِي غَزْوَتِهِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَنَّهَا مَغْلَقَةٌ الْأَبْوَابِ وَأَنَّ الصَّاعِدَ إِلَيْهَا مِنْ
أَسْوَارِهَا إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الْحَائِطِ صَفَّقَ وَرَمَى بِنَفْسِهِ فَلَا يَرْجِعُ آخِرَ الدَّهْرِ فِي حَدِيثِ
مُسْتَحِيلٍ عَادَةً مِنْ خُرَافَاتِ الْقُصَاصِ وَصَخْرَاءٍ سَجْلَمَاسَةٍ قَدْ نَفَضَهَا ^(٢) الرُّكَّابُ
وَالْأَدِلَاءُ وَلَمْ يَقِفُوا لِهَذِهِ الْمَدِينَةِ عَلَى خَبَرِ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ الَّتِي ذَكَرُوا عَنْهَا كُلَّهَا
مُسْتَحِيلٌ عَادَةً مُنَافٍ لِلْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي بِنَاءِ الْمُدُنِ وَاخْتِطَاطِهَا وَأَنَّ الْمَعَادِنَ غَايَةُ
الْمَوْجُودِ مِنْهَا أَنْ يُصْرَفَ فِي الْإِنِّيَّةِ وَالْخُرْتِي ^(٣) وَأَمَّا تَشْيِيدُ مَدِينَةٍ مِنْهَا فَكَمَا تَرَاهُ
مِنَ الْإِسْتِحَالَةِ وَالْبُعْدِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَتَمَحِيصُهُ إِنَّمَا هُوَ بِمَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الْعُمْرَانِ
وَهُوَ أَحْسَنُ الْوُجُوهِ وَأَوْثَقُهَا فِي تَمَحِيصِ الْأَخْبَارِ وَتَمَيِّيزِ صِدْقِهَا مِنْ كَذِبِهَا وَهُوَ سَاقٍ

(١) بمعنى دامت .

(٢) نفخ المكان ، نظر جميع ما فيه حتى يتعرفه (قاموس) .

(٣) الخرتي بالضم أثاث البيت (قاموس) .

على التَّمْهِيصِ بِتَعْدِيلِ الرُّوَاةِ وَلَا يُرْجَعُ إِلَى تَعْدِيلِ الرُّوَاةِ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ
الْخَبَرَ فِي نَفْسِهِ مُمَكِّنٌ أَوْ مُمْتَنَعٌ وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُسْتَحِيلًا فَلَا فَائِدَةَ لِلنَّظَرِ فِي التَّعْدِيلِ
وَالْتَجَرِيحِ وَلَقَدْ عَدَّ أَهْلُ النَّظَرِ مِنَ الْمَطَاعِينَ فِي الْخَبَرِ اسْتِحَالَةَ مَذْلُولِ اللَّفْظِ وَتَأْوِيلَهُ
بِمَا لَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ وَإِنَّمَا كَانَ التَّعْدِيلُ وَالتَّجَرِيحُ هُوَ الْمُعْتَبَرُ فِي صِحَّةِ الْأَخْبَارِ
الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا تَكَالِيفُ إِنْشَائِيَّةٌ^(١) أَوْجَبَ الشَّارِعُ الْعَمَلَ بِهَا حَتَّى حَصَلَ
الظَّنُّ بِصِدْقِهَا وَسَبِيلُ صِحَّةِ الظَّنِّ الثِّقَةُ بِالرُّوَاةِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ . وَأَمَّا الْأَخْبَارُ عَنْ
الْوَاقِعَاتِ فَلَا بُدَّ فِي صِدْقِهَا وَصِحَّتِهَا مِنْ اِعْتِبَارِ الْمَطَابَقَةِ فَلِذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يُنْظَرَ فِي
إِمْكَانِ وَقُوعِهِ وَصَارَ فِيهَا ذَلِكَ أَهَمُّ مِنَ التَّعْدِيلِ وَمَقْدَمًا عَلَيْهِ إِذْ فَائِدَةُ الْإِنْشَاءِ
مُقْتَبَسَةٌ مِنْهُ فَقَطُّ وَفَائِدَةُ الْخَبَرِ مِنْهُ وَمِنْ الْخَارِجِ بِالْمَطَابَقَةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْقَانُونُ
فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ بِالْإِمْكَانِ وَالِاسْتِحَالَةِ أَنْ نَنْظُرَ فِي الْاجْتِمَاعِ
الْبَشَرِيِّ الَّذِي هُوَ الْعُمَرَانُ وَنَمَيِّزَ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَبِمُقْتَضَى طَبِيعِهِ وَمَا
يَكُونُ عَارِضًا لَا يُغْتَدُّ بِهِ وَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَغْرَضَ لَهُ وَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ لَنَا
قَانُونًا فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ وَالصَّدَقِ مِنَ الْكُذِبِ بِوَجْهِ بَرْهَانِيٍّ
لَا مَدْخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ وَحِينَئِذٍ فَإِذَا سَمِعْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ فِي الْعُمَرَانِ
عَلِمْنَا مَا نَحْكُمُ بِقَبُولِهِ مِمَّا نَحْكُمُ بِتَرْيِيفِهِ وَكَانَ ذَلِكَ لَنَا مَعْيَارًا صَحِيحًا يَتَخَرَّى
بِهِ الْمُؤَرِّخُونَ طَرِيقَ الصَّدَقِ وَالصُّوَابِ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ وَهَذَا هُوَ غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ
الْأَوَّلِ مِنْ تَالِيفِنَا وَكَانَ هَذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ ذُو مَوْضُوعٍ وَهُوَ الْعُمَرَانُ الْبَشَرِيُّ
وَالْاجْتِمَاعُ الْإِنْسَانِيُّ وَذُو مَسَائِلَ وَهِيَ بَيَانُ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْعَوَارِضِ وَالْأَحْوَالِ
لِذَاتِهِ^(٢) وَاحِدَةٌ بَعْدَ أُخْرَى وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَضَعِيًّا كَانَ أَوْ عَقْلِيًّا .
وَاعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْغَرَضِ مُسْتَحْدَثُ الصَّنْعَةِ غَرِيبُ النَّزْعَةِ غَرِيزُ الْفَائِدَةِ أَغْثَرُ
عَلَيْهِ الْبَحْثُ وَأَدَى إِلَيْهِ الْغَوْصُ وَلَيْسَ مِنْ عِلْمِ الْخِطَايَةِ إِنَّمَا هُوَ الْأَقْوَالُ الْمُقْبِعَةُ

(١) انشائية نسبة إلى انشاء وهو الذي يشمل الأمر والنهي وما شاكل وهو قابل للخبر ويقال جملة انشائية

في مقابل جملة خبرية .

(٢) أي ما يلحق للمجتمع من العوارض والأحوال لذاته .

النَّافِعَةُ فِي اسْتِمَالَةِ الْجُمْهُورِ إِلَى رَأْيٍ أَوْ صَدِهِمْ عَنْهُ وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ
الْمَدْنِيَّةِ إِذِ السِّيَاسَةُ الْمَدْنِيَّةُ هِيَ تَذْيِيرُ الْمَنْزِلِ أَوِ الْمَدِينَةِ بِمَا يَجِبُ بِمُقْتَضَى
الْأَخْلَاقِ وَالْحِكْمَةِ لِيَحْمَلَ الْجُمْهُورُ عَلَى مِنْهَاجٍ يَكُونُ فِيهِ حِفْظُ النُّوعِ وَبَقَاؤُهُ فَقَدْ
خَالَفَ مَوْضُوعُهُ مَوْضُوعَ هَذَيْنِ الْفَنَيْنِ اللَّذَيْنِ رُبَّمَا يُشَبِّهَانِهِ وَكَأَنَّهُ عِلْمٌ مُسْتَنْبَطٌ
النِّشَاءَ وَلَعَمْرِي لَمْ أَقِفْ عَلَى الْكَلَامِ فِي مَنْحَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلِيقَةِ مَا أَذْرِي الْفِغْلَتِيهِمْ عَنْ
ذَلِكَ وَلَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَتَبُوا فِي هَذَا الْغَرَضِ وَاسْتَوْفَوْهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا
فَالْعُلُومُ كَثِيرَةٌ وَالْحُكَمَاءُ فِي أَمْرِ النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مُتَعَدِّدُونَ وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنْ
الْعُلُومِ أَكْثَرُ مِمَّا وَصَلَ فَأَيْنَ عُلُومُ الْفَرَسِ الَّتِي أَمَرَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَخُودِهَا عِنْدَ
الْفَتْحِ وَأَيْنَ عُلُومُ الْكِلدَانِيِّينَ وَالسَّرْيَانِيِّينَ وَأَهْلِ بَابِلَ وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ آثَارِهَا
وَنَتَائِجِهَا وَأَيْنَ عُلُومُ الْقَبْطِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْنَا عُلُومُ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ يُونَانُ
خَاصَّةً لِكُلِّبِ الْمَأْمُونِ بِإِخْرَاجِهَا مِنْ لَفْتِهِمْ وَاقْتِدَارِهِ عَلَى ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْمُتَرْجِمِينَ
وَبَذَلِ الْأَمْوَالِ فِيهَا وَلَمْ نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عُلُومِ غَيْرِهِمْ وَإِذَا كَانَتْ كُلُّ حَقِيقَةٍ
مُتَعَلِّقَةٍ طَبِيعِيَّةٍ يَضِلُّحُ أَنْ يَنْحَثَ عَمَّا يَغْرُضُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ لِذَاتِهَا وَجِبَ أَنْ
يَكُونَ بِإِعْتِبَارِ كُلِّ مَفْهُومٍ وَحَقِيقَةٍ عِلْمٌ مِنَ الْعُلُومِ يَخْصُهُ لَكِنَّ الْحُكَمَاءَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا
لَاخَظُوا فِي ذَلِكَ الْعِنَايَةَ بِالثَّمَرَاتِ وَهَذَا إِنَّمَا ثَمَرَتُهُ فِي الْأَخْبَارِ فَقَطْ كَمَا رَأَيْتَ وَإِنْ
كَانَتْ مَسَائِلُهُ فِي ذَاتِهَا وَفِي اخْتِصَاصِهَا شَرِيفَةً لَكِنَّ ثَمَرَتَهُ تَضَحِيحُ الْأَخْبَارِ وَهِيَ
ضَعِيفَةٌ فَلِهَذَا هَجَرُوهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » . وَهَذَا الْفَنُ الَّذِي
لَاخَ لَنَا النَّظَرُ فِيهِ نَجِدُ مِنْهُ مَسَائِلَ تَجْرِي بِالْعَرَضِ لِأَهْلِ الْعُلُومِ فِي بَرَاهِينِ عُلُومِهِمْ
وَهِيَ مِنْ جِنْسِ مَسَائِلِهِ بِالْمَوْضُوعِ وَالطَّلِبِ مِثْلُ مَا يَذْكُرُهُ الْحُكَمَاءُ وَالْعُلَمَاءُ فِي
إثْبَاتِ النُّبُوَّةِ مِنْ أَنَّ الْبَشَرَ مُتَعَاوِنُونَ فِي وَجُودِهِمْ فَيَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى الْحَاكِمِ
وَالْوَزَاعِ ^(١) وَمِثْلُ مَا يَذْكُرُ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ فِي بَابِ إِثْبَاتِ اللُّغَاتِ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ
إِلَى الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ بِطَبِيعَةِ التَّعَاوُنِ وَالْاجْتِمَاعِ وَتَبْيَانِ الْعِبَارَاتِ أَخْفُ وَمِثْلُ
مَا يَذْكُرُهُ الْفُقَهَاءُ فِي تَغْلِيلِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْمَقَاصِدِ فِي أَنَّ الزَّنَا مُخْلَطٌ لِلْإِنْسَابِ

(١) الوزاع ج وزعة ووزاع ، من يدبر أمور الجيش ، الزاجر . (قاموس)

مُفْسِدٌ لِلنُّوعِ وَأَنَّ الْقَتْلَ أَيْضاً مُفْسِدٌ لِلنُّوعِ وَأَنَّ الظُّلْمَ مُؤَذِّنٌ بِخَرَابِ الْعُمْرَانِ الْمُفْضِي
لِفَسَادِ النُّوعِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْأَحْكَامِ فَإِنَّهَا كُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى
الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْعُمْرَانِ فَكَانَ لَهَا النَّظَرُ فِيمَا يَغْرِضُ لَهُ وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنْ كَلَامِنَا هَذَا فِي
هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْمُمَثِّلَةِ وَكَذَلِكَ أَيْضاً يَقَعُ إِلَيْنَا الْقَلِيلُ مِنْ مَسَائِلِهِ فِي كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ
لِحُكَمَاءِ الْخَلِيقَةِ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَوْفَوْهُ فَمِنْ كَلَامِ الْمُؤَبِّدَانِ ^(١) بَهْرَامُ بْنُ بَهْرَامٍ فِي
حِكَايَةِ النَّبِيِّ النَّبِيِّ تَقْلَبَهَا الْمَسْعُودِيُّ . « أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْمَلِكَ لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا
بِالشَّرِيعَةِ وَالْقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ وَالتَّصَرُّفِ تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِيَامَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا
بِالْمَلِكِ وَلَا عِزٌّ لِلْمَلِكِ إِلَّا بِالرِّجَالِ وَلَا قِيَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِالنَّمَالِ وَلَا سَبِيلَ لِلنَّمَالِ إِلَّا
بِالْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْعَدْلُ الْمِيزَانُ الْمَنْصُوبُ بَيْنَ الْخَلِيقَةِ
نَضَبَهُ الرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قِيَمًا وَهُوَ الْمَلِكُ » . وَمِنْ كَلَامِ أَنْوَشِرْوَانَ فِي هَذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ
« الْمَلِكُ بِالْجُنْدِ وَالْجُنْدُ بِالنَّمَالِ وَالنَّمَالُ بِالْخَرَاجِ وَالْخَرَاجُ بِالْعِمَارَةِ وَالْعِمَارَةُ
بِالْعَدْلِ وَالْعَدْلُ بِإِصْلَاحِ الْعُمَالِ وَإِصْلَاحِ الْعُمَالِ بِاسْتِقَامَةِ الْوُزَرَاءِ وَرَأْسُ الْكُلِّ
بِاِفْتِقَادِ الْمَلِكِ حَالَ رَعِيَّتِهِ بِنَفْسِهِ وَاقْتِدَارِهِ عَلَى تَأْذِيْبِهَا حَتَّى يَمْلِكَهَا وَلَا تَمْلِكُهُ .
وَفِي الْكِتَابِ الْمَنْسُوبِ لِأَرْسَطُو فِي السِّيَاسَةِ الْمُتَدَاوِلِ بَيْنَ النَّاسِ جُزْءٌ صَالِحٌ مِنْهُ إِلَّا
أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَوْفٍ وَلَا مُعْطَى حَقُّهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ وَمُخْتَلِطٌ بِغَيْرِهِ وَقَدْ أَشَارَ فِي ذَلِكَ
الْكِتَابِ إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَقْلَبُهَا عَنْ الْمُؤَبِّدَانِ وَأَنْوَشِرْوَانَ وَجَعَلَهَا فِي الدَّائِرَةِ
الْقَرِيبَةِ الَّتِي أَغْظَمَ الْقَوْلَ فِيهَا هُوَ قَوْلُهُ : « الْعَالَمُ بُسْتَانٌ سِيَاحَةُ الدَّوْلَةِ الدَّوْلَةُ
سُلْطَانٌ تَحْيَا بِهِ السُّنَّةُ السُّنَّةُ سِيَاسَةٌ يَسُوسُهَا الْمَلِكُ الْمَلِكُ نِظَامٌ يَفْضُذُهُ الْجُنْدُ
الْجُنْدُ أَغْوَانٌ يَكْفُلُهُمُ الْمَالُ الْمَالُ رِزْقٌ تَجْمَعُهُ الرِّعْيَةُ الرِّعْيَةُ عَبِيدٌ يَكْنِفُهُمُ الْعَدْلُ
الْعَدْلُ مَالُوفٌ وَبِهِ قِيَامُ الْعَالَمِ الْعَالَمُ بُسْتَانٌ » ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ الْكَلَامِ . فَهَذِهِ ثَمَانُ
كَلِمَاتٍ حِكْمِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ ارْتَبَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَارْتَدَّتْ أَعْجَازُهَا إِلَى صُدُورِهَا
وَاتَّصَلَتْ فِي دَائِرَةٍ لَا يَتَمَيَّنُ طَرَفُهَا فَخَرَّ بِعُثُورِهِ عَلَيْهَا وَعَظَّمْ مِنْ قَوَائِدِهَا . وَأَنْتَ إِذَا

(١) اللوبدان فقيه الفرس وحاكم الجوس (قاموس) .

تَأَمَّلْتَ كَلَامَنَا فِي فَضْلِ الدُّوْلِ وَالْمَلِكِ وَأَعْطَيْنَاهُ حَقَّهُ مِنَ التَّصْفُحِ وَالتَّفْهِيمِ عَثَرْتَ فِي
أَثْنَائِهِ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَتَفْصِيلِ إِجْمَالِهَا مُسْتَوْفَى بَيِّنًا بِأَوْعَبِ^(١) بَيَانٍ
وَأَوْضَحِ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ أَطْلَعَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمِ أَرِسْطُو وَلَا إِفَادَةِ مُؤَبَّدَانِ
وَكَذَلِكَ تَجَدَّدَ فِي كَلَامِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ وَمَا يُسْتَطَرَّدُ فِي رَسَائِلِهِ مِنْ ذِكْرِ السِّيَاسَاتِ الْكَثِيرِ
مِنْ مَسَائِلِ كِتَابِنَا هَذَا غَيْرِ مُبْرَهَنَةٍ كَمَا بَرَهْنَاهُ إِنَّمَا يُجْلِيهَا فِي الذِّكْرِ عَلَى مَنْحَى
الْخَطَابِيَةِ فِي أَسْلُوبِ التَّرْسُلِ وَبَلَاغَةِ الْكَلَامِ وَكَذَلِكَ حَوْمُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ
الطَّرطُوشِيُّ فِي كِتَابِ سَرَاجِ الْمُلُوكِ وَبُوبَةُ عَلَى أَبْوَابِ تَقَرُّبٍ مِنْ أَبْوَابِ كِتَابِنَا هَذَا
وَمَسَائِلُهُ لَكِنَّهُ لَمْ يُصَادَفْ فِيهِ الرَّمِيَّةُ وَلَا أَصَابَ الشَّاكِلَةَ^(٢) وَلَا اسْتَوْفَى الْمَسَائِلَ وَلَا
أَوْضَحَ الْأَدْلَةَ إِنَّمَا يُتَوَبُّ الْبَابُ لِلْمَسْئَلَةِ ثُمَّ يَسْتَكْثِرُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَيَنْقُلُ
كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً لِحُكَمَاءِ الْفَرَسِ مِثْلَ بَزْرَجْمَهَرٍ وَالْمُؤَبَّدَانِ وَحُكَمَاءِ الْهِنْدِ وَالْمَأْثُورِ
عَنْ دَانِيَالٍ وَهَرَمَسَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكَابِرِ الْخَلِيقَةِ وَلَا يَكْشِفُ عَنِ التَّحْقِيقِ قِنَاعًا وَلَا
يَرْفَعُ الْبَرَاهِينَ الطَّبِيعِيَّةَ حِجَابًا إِنَّمَا هُوَ نَقْلٌ وَتَرْكِيبٌ شَبِيهٌ بِالْمَوْاعِظِ وَكَأَنَّهُ حَوْمٌ
عَلَى الْغَرَضِ وَلَمْ يُصَادَفْهُ وَلَا تَحَقَّقْ قَضَدُهُ وَلَا اسْتَوْفَى مَسَائِلَهُ وَنَحْنُ أَلْهَمْنَا اللَّهَ إِلَى
ذَلِكَ إِلْهَامًا وَاعْتَرْنَا عَلَى عِلْمٍ جَعَلْنَا بَيْنَ نُكْرَةٍ وَجَهَنَّةٍ خَبْرَهُ^(٣) فَإِنْ كُنْتُ قَدْ
اسْتَوْفَيْتُ مَسَائِلَهُ وَمَيَّزْتُ عَنْ سَائِرِ الصَّنَائِعِ أَنْظَارَهُ وَأَنْجَاهَهُ فَتَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ وَهَدَايَةٌ
وَأَنْ فَاتِنِي شَيْءٌ فِي إِخْصَائِهِ وَاسْتَبْتَهَتْ بِغَيْرِهِ فَلِنَّاظِرِ الْمُحَقِّقِ إِصْلَاحُهُ وَلِيَّ الْفَضْلِ
لَأَنِّي نَهَجْتُ لَهُ السَّبِيلَ وَأَوْضَحْتُ لَهُ الطَّرِيقَ وَاللَّهُ يَهْدِي بَنُورَهُ مَنْ يَشَاءُ . وَنَحْنُ
الْآنَ نُبَيِّنُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا يَغْرُضُ لِلْبَشَرِ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمْرَانِ فِي
الْمُلْكِ وَالْكَسْبِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِوُجُوهٍ بُرْهَانِيَّةٍ يَتَضَحُّ بِهَا التَّحْقِيقُ فِي مَعَارِفِ
الْخَاصَةِ وَالْعَامَةِ وَتَنْدَفِعُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَتَرْفَعُ الشُّكُوكُ . وَنَقُولُ لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ

(١) أَوْعَبُ ، أَيَابًا الشَّيْءَ أَخَذَهُ بِأَجْمَعِهِ (قَامُوسٌ) .

(٢) الرَّمِيَّةُ ، مَا يَرْمِي مِنْ حَيَوَانٍ . وَالشَّاكِلَةُ ، الْوَجْهَةُ وَالطَّرِيقَةُ وَالْمَعْنَى فِي الْجُمْلَتَيْنِ لَمْ يَصُبْ الْغَرَضُ .

(٣) فِي بَعْضِ النُّسخِ ، جَعَلْنَا سَنَ بَكْرِهِ وَجَهَنَّةَ خَبْرِهِ وَهُوَ مِثْلُ يَطْلُقُ عَلَى مَنْ يَأْتِي بِالْخَبَرِ الصَّادِقِ

وَالْيَقِينِ . وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَثَلِ لِلشُّهُورِ « وَعِنْدَ جَهَنَّةِ الْخَبَرِ الْيَقِينِ » .

مُتَمَيِّزاً عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِخَوَاصِّ اخْتَصَّ بِهَا فَمِنْهَا الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَشُرْفَ بَوَافِهِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَمِنْهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْحَكْمِ الْوَارِعِ وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ إِذْ لَا يُمْكِنُ وُجُودُهُ دُونَ ذَلِكَ ^(١) مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يُقَالُ عَنِ النَّحْلِ وَالْجَرَادِ وَهَذِهِ وَإِنْ كَانَ لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ فَبَطَرِيقِ الْإِهَامِ لَا يَفْكَرُ وَرَوِيَّةٍ وَمِنْهَا السَّعْيُ فِي الْمَعَاشِ وَالْإِعْتِمَالُ فِي تَخْصِيلِهِ مِنْ وَجْهِهِ وَاكْتِسَابِ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الْإِفْتِقَارِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ وَهَذَاهُ إِلَى الْإِهْمَاسِ وَطَلَبِهِ قَالَ تَعَالَى : « أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وَمِنْهُمَا الْعُمْرَانُ وَهُوَ السَّاكُنُ وَالتَّنَازُلُ فِي مَضَرٍّ ^(٢) أَوْ حِلَّةٍ لِلْأَنْسِ بِالْعَشِيرِ وَاقْتِضَاءُ الْحَاجَاتِ لِمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَى الْمَعَاشِ كَمَا نَبَّيْنَاهُ وَمِنْ هَذَا الْعُمْرَانِ مَا يَكُونُ بَدَوِيًّا وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ فِي الضَّوَاحِي وَفِي الْجِبَالِ وَفِي الْحِلَالِ الْمُنتَجِعَةِ فِي الْقِفَارِ وَأَطْرَافِ الرَّمَالِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ حَضَرِيًّا وَهُوَ الَّذِي بِالْأَمْصَارِ وَالْقُرَى وَالْمَدُنِ وَالْمَدَرِ ^(٣) لِلْإِعْتِصَامِ بِهَا وَالتَّحْصُنِ بِجُدُرَانِهَا وَلَهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ أُمُورٌ تَغْرِضُ مِنْ حَيْثُ الْاجْتِمَاعُ غَرُوضاً ذَاتِئاً لَهُ فَلَا جَرَمَ أَنْ حَصَرَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْكِتَابِ فِي سِتَّةِ فُصُولٍ . الْأَوَّلُ فِي الْعُمْرَانِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقَسْطِهِ مِنَ الْأَرْضِ . وَالثَّانِي فِي الْعُمْرَانِ الْبَدَوِيِّ وَذَكَرَ الْقَبَائِلَ وَالْأَمَمَ الْوَحْشِيَّةَ . وَالثَّالِثُ فِي الدُّوَلِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ وَذَكَرَ الْمَرَاتِبَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالرَّابِعَ فِي الْعُمْرَانِ الْحَضَرِيِّ وَالْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ . وَالْخَامِسُ فِي الصَّنَائِعِ وَالْمَعَاشِ وَالْكَسْبِ وَوَجْهِهِ . وَالسَّادِسُ فِي الْعُلُومِ وَاكْتِسَابِهَا وَتَعَلُّمِهَا . وَقَدْ قَدِّمْتُ الْعُمْرَانِ الْبَدَوِيِّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا نَبَّيْنَاهُ لَكَ بَعْدَ وَكَذَا تَقْدِيمُ الْمُلْكِ عَلَى الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَعَاشِ فَلَأَنَّ الْمَعَاشَ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعَلُّمُ الْعِلْمِ كِمَالِيٌّ أَوْ حَاجِيٌّ وَالطَّبِيعِيُّ أَقْدَمُ مِنَ الْكِمَالِيِّ وَجَعَلْتُ

(١) يظهر أن هنا عبارة ساقطة من جميع النسخ لأن الكلام غير مستقيم . وفي نسخة لجنة البيان العربي

عبارة بين قوسين وهي : « ولا يشبهه في ذلك » .

(٢) مضر ج امصار . أي البلد أو المدينة .

(٣) اللذر . سكان القرى والأمصار والعرب تسمى القرية المدرة (قاموس) .

الصَّنَائِعَ مَعَ الْكَسْبِ لِأَنَّهَا مِنْهُ يَبْغِضُ الْوُجُوهَ وَمِنْ حَيْثُ الْعُمَرَانُ كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ
وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ لِلصَّوَابِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ .

الباب الأول

من الكتاب الأول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

الأولى في أَنَّ الاجْتِمَاعَ الْإِنْسَانِيَّ ضَرُورِيٌّ وَيُعْتَبَرُ الْحُكْمَاءُ عَنْ هَذَا يَقُولُهُمُ
الْإِنْسَانُ مَدْنِيٌّ بِالطَّبِيعِ أَيْ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْاجْتِمَاعِ الَّذِي هُوَ الْمَدِينَةُ فِي اضْطِلَاجِهِمْ
وَهُوَ مَعْنَى الْعُمَرَانِ وَبَيَانُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصْحُ
حَيَاتُهَا وَبَقَاؤُهَا إِلَّا بِالْغِذَاءِ وَهَذَا إِلَى التَّمَاسِيهِ يَفْطَرْتُهُ وَيَمَا رُكَّبَ فِيهِ مِنَ الْقُدْرَةِ
عَلَى تَحْصِيلِهِ إِلَّا أَنَّ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الْبَشَرِ قَاصِرَةٌ عَنْ تَحْصِيلِ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ
الْغِذَاءِ غَيْرَ مُوفِيَةٍ لَهُ بِمَادَّةِ حَيَاتِهِ مِنْهُ وَلَوْ فَرَضْنَا مِنْهُ أَقَلَّ مَا يُمْكِنُ فَرَضُهُ وَهُوَ قُوَّةُ
يَوْمٍ مِنَ الْحِنْطَةِ مَثَلًا فَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِعِلَاجٍ كَثِيرٍ مِنَ الطَّحْنِ وَالْعَجْنِ وَالطَّبِخِ وَكُلِّ
وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الثَّلَاثَةِ يَخْتَاجُ إِلَى مَوَاعِينٍ وَأَلَابٍ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِصُنَاغَاتٍ
مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ حَدَادٍ وَنَجَّارٍ وَفَاحُورِيٍّ وَهَبَّ أَنَّهُ يَأْكُلُهُ حَبًّا مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ فَهُوَ أَيْضًا
يَخْتَاجُ فِي تَحْصِيلِهِ أَيْضًا حَبًّا إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ مِنَ الزَّرَاعَةِ وَالْحِصَادِ
وَالدَّرَاسِ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ غِلَافِ السُّنْبُلِ وَيَخْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ آلَابٍ
مُتَعَدِّدَةٍ وَصَّنَائِعَ كَثِيرَةٍ أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلَى بِكَثِيرٍ وَيَسْتَحِيلُ أَنْ تَقِيَّ بِذَلِكَ كُلُّهُ أَوْ
يَبْغِضِيهِ قُدْرَةُ الْوَاحِدِ فَلَا بُدَّ مِنَ اجْتِمَاعِ الْقُدَرِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ لِيَحْصَلَ
الْقُوَّةُ لَهُ وَلَهُمْ فَيَحْصُلُ بِالتَّعَاوُنِ قَدْرُ الْكِفَايَةِ مِنَ الْحَاجَةِ لِأَكْثَرِ مِنْهُمْ بِأَضْعَافٍ
وَكَذَلِكَ يَخْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَيْضًا فِي الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الْاسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ
لَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَكَّبَ الطَّبَاعَ فِي الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا وَقَسَمَ الْقُدْرَ بَيْنَهَا جَعَلَ

خُطُوْطٌ كَثِيْرٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ مِنَ الْقُدْرَةِ أَكْمَلُ مِنْ حَظِّ الْإِنْسَانِ فَقُدْرَةُ الْفَرَسِ مَثَلًا أَعْظَمُ بِكَثِيْرٍ مِنْ قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ وَكَذَا قُدْرَةُ الْحِمَارِ وَالثَّوْرِ وَقُدْرَةُ الْأَسَدِ وَالْفِيلِ أَضْعَافٌ مِنْ قُدْرَتِهِ . وَلَمَّا كَانَ الْعَدَوَانُ طَبِيعِيًّا فِي الْحَيَوَانِ جَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَضْوًا يَخْتَصُّ بِمُدَافَعَتِهِ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ عَادِيَةٍ غَيْرِهِ وَجَعَلَ لِلْإِنْسَانِ عَوْضًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الْفِكْرَ وَالْيَدَ فَالْيَدُ مُهَيَّئَةٌ لِلصَّنَائِعِ بِخِدْمَةِ الْفِكْرِ وَالصَّنَائِعُ تُحْصَلُ لَهُ الْآلَاتُ الَّتِي تَنْوِبُ لَهُ عَنِ الْجَوَارِحِ الْمُعَدَّةِ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدَّفَاعِ مِثْلَ الرَّمَاكِ الَّتِي تَنْوِبُ عَنِ الْقُرُونِ النَّاطِحَةِ وَالسُّيُوفِ النَّائِبَةِ عَنِ الْمَخَالِبِ الْجَارِحَةِ وَالتَّرَاسِ^(١) النَّائِبَةِ عَنِ الْبَشَرَاتِ الْجَاسِيَةِ^(٢) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَغَيْرُهُ مِمَّا ذَكَرَهُ جَالِينُوسُ فِي كِتَابِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ فَالْوَاحِدُ مِنَ الْبَشَرِ لَا تَقَاوِمُ قُدْرَتُهُ قُدْرَةَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ سِيمَا الْمُفْتَرَسَةِ فَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ مُدَافَعَتِهَا وَحَدَهُ بِالْجُمْلَةِ وَلَا تَنْفِي قُدْرَتُهُ أَيْضًا بِاسْتِعْمَالِ الْآلَاتِ الْمُعَدَّةِ لَهَا فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّعَاوُنُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ قُوَّةٌ وَلَا غَدَاءٌ وَلَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ لَمَّا رَكَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى

عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغَدَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضًا دِفَاعٌ عَنْ نَفْسِهِ لِفَقْدَانِ السَّلَاحِ فَيَكُونُ فَرِيْسَةً لِلْحَيَوَانَاتِ وَيُعَاجِلُهُ الْهَلَاكُ عَنْ مَدَى حَيَاتِهِ وَيَبْطُلُ نَوْعُ الْبَشَرِ وَإِذَا كَانَ التَّعَاوُنُ حَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ لِلْغَدَاءِ وَالسَّلَاحُ لِلْمُدَافَعَةِ وَتَمَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي بَقَائِهِ وَحَفِظَ نَوْعُهُ فَإِذَنْ هَذَا الْاجْتِمَاعُ ضَرْوِيٌّ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْأَلَمُ لَا يَكْمُلُ وَجُودُهُمْ وَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ اعْتِمَارِ الْعَالَمِ بِهِمْ وَاسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُمْ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعُمَرَانِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَوْضُوعًا لِهَذَا الْعِلْمِ وَفِي هَذَا الْكَلَامِ نَوْعُ إِثْبَاتِ الْمَوْضُوعِ فِي قَبْلِهِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعٌ لَهُ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَى صَاحِبِ الْفَنِّ لِمَا تَقَرَّرَ فِي الصَّنَاعَةِ الْمُنَظَّمَةِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ عِلْمِ إِثْبَاتِ الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ فَلَيْسَ أَيْضًا مِنَ الْمَمْنُوعَاتِ عِنْدَهُمْ فَيَكُونُ إِثْبَاتُهُ مِنَ التَّبَرُّعَاتِ وَاللَّهُ الْمُؤَوَّقُ بِفَضْلِهِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْاجْتِمَاعَ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَتَمَّ عُمَرَانُ الْعَالَمِ بِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ وَازِعٍ يَنْدَفِعُ

(١) جمع ترس وهو ما يلبس على الجسم لاتقاء السهام والسيوف (قاموس) .

(٢) القاسية والصلبة .

بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي طِبَاعِهِمُ الْخَيَوَانِيَّةُ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ وَلَيْسَتْ السَّلَاحُ الَّتِي جَعَلَتْ دَافِعَةً لِعُدْوَانِ الْخَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَنْهُمْ كَافِيَةٌ فِي دَفْعِ الْعُدْوَانِ عَنْهُمْ لِأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ لِجَمِيعِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدْوَانَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ وَلَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ لِقُصُورِ جَمِيعِ الْخَيَوَانَاتِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَالْهَامَاتِيهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَارِعُ وَاحِدًا مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِمُ الْغَلْبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ حَتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى غَيْرِهِ بِعُدْوَانٍ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمَلِكِ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ لِلْإِنْسَانَ خَاصَّةً طَبِيعِيَّةً وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا وَقَدْ يُوْجَدُ فِي بَعْضِ الْخَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْحُكَمَاءُ كَمَا فِي النَّحْلِ وَالْجَرَادِ لِمَا اسْتَقْرَى فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالْإِتْقَانِ وَالْإِتِّبَاعِ لِرَأْسٍ مِنْ أَشْخَاصِهَا مُتَمَيِّزٌ عَنْهُمْ فِي خَلْقِهِ وَجُثْمَانِهِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ لِغَيْرِ الْإِنْسَانِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَالْهِدَايَةِ لَا بِمُقْتَضَى الْفِكْرَةِ وَالسِّيَاسَةِ « أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وَتَزِيدُ الْفَلَاسِفَةُ عَلَى هَذَا الْبُرْهَانِ حَيْثُ يَحَاوِلُونَ إِثْبَاتَ النُّبُوَّةِ بِالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ وَأَنَّهَا خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ فَيَقَرُّوْنَ هَذَا الْبُرْهَانَ إِلَى غَايَةٍ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِنَ الْحُكْمِ الْوَارِعِ ثُمَّ يَقُولُونَ بَعْدَ ذَلِكَ وَذَلِكَ الْحُكْمُ يَكُونُ بِشَرْعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَأْتِي بِهِ وَاحِدٌ مِنَ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يُوَدِّعُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصٍ هِدَايَتِهِ لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالْقَبُولُ مِنْهُ حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ وَلَا تَرْذِيفٍ وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحُكَمَاءِ غَيْرُ بُرْهَانِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ إِذَا الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ تَبَيَّنَتْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ بِمَا يَفْرُضُهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ أَوْ بِالْعَصِيَّةِ الَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَتِهِ فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِالنُّسْبَةِ إِلَى الْمَجُوسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ الدُّوَلُ وَالْأَثَارُ فَضْلًا عَنِ الْحَيَاةِ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ فِي الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ بِخِلَافِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَارِعٍ لَهُمُ الْبَتَّةُ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلْطُهُمْ فِي وَجُوبِ النُّبُوتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِيٍّ وَإِنَّمَا مَذْرُوعُ الشَّرْعِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ مِنَ الْأُمَّةِ وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ .

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه
من الأشجار^(١) والأنهار والأقاليم

إِغْلَمَ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ النَّاطِرِينَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ
كَرَوِيٌّ وَأَنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِعُنْصُرِ الْمَاءِ كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ فَانْحَسَرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ
جَوَانِبِهَا لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَكْوِينِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَعُمُرَانِهَا بِالنُّوعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَهُ
الْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا وَقَدْ يَتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ
وَأِنَّمَا النُّحْتُ الطَّبِيعِيُّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَوَسْطُ كُرَّتِهَا الَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا وَالْكُلُّ يَطْلُبُهُ
بِمَا فِيهِ مِنَ الثَّقَلِ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا وَأَمَّا الْمَاءُ الْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ الْأَرْضِ
وَلَنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَبِالإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا الَّذِي
انْحَسَرَ عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النُّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَّتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةِ احْتَاطَ
الْعُنْصُرُ الْمَائِيُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بَحْرًا يُسَمَّى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ وَيُسَمَّى أَيْضًا
لِبَلَايَةِ يَتَفَخِّيمُ اللَّامِ الثَّانِيَةِ وَيُسَمَّى أَوْقِيَانُوسَ أَسْمَاءَ أُعْجَمِيَّةٍ وَيُقَالُ لَهُ الْبَحْرُ
الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُتَكَشِّفَ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمُرَانِ فِيهِ الْفِقَارُ وَالْخَلَاءُ أَكْثَرُ
مِنْ عُمُرَانِهِ وَالْخَالِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَإِنَّمَا الْمَغْمُورُ مِنْهُ
أَمِيلٌ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلِ مُسَطَّحٍ كَرَوِيٍّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَى

(١) ورد بالأصل في جميع النسخ الأشجار وهو تحريف . وفي النسخة الباريسية المخطوطة : البحار وهو الصحيح لأن البحث في هذه المقدمة مستفيض عن البحار ولا يكاد يكون للأشجار به ذكر .

خَطَ الْإِسْتِوَاءَ وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى خَطِّ كُرْوَيْ وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
 الْمَاءِ الْمُغْصِرِي الَّذِي بَيْنَهُمَا سُدٌّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهَذِهِ الْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ
 الْمَشْرِقِ وَيَنْتَهِي مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَى غَنْصَرِ الْمَاءِ أَيْضاً بِقِطْعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَةِ
 الْمُحِيطَةِ وَهَذَا الْمُتَكَشِّفُ مِنَ الْأَرْضِ قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ النِّصْفِ مِنَ الْكُرَّةِ أَوْ أَقْلُ
 وَالْمَعْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ رُبْعِهِ وَهُوَ الْمُتَقَسِّمُ بِالْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَخَطُّ الْإِسْتِوَاءِ يَفْسِمُ
 الْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَهُوَ طَوَّلُ الْأَرْضِ وَأَكْبَرُ خَطِّ فِي كُرَّتِهَا
 كَمَا أَنَّ مِنْطَقَةَ فَلَكِ الْبُرُوجِ وَدَائِرَةَ مُعَدِّلِ النَّهَارِ أَكْبَرُ خَطِّ فِي الْفَلَكَ وَمِنْطَقَةُ الْبُرُوجِ
 مُتَقَسِّمَةٌ بِثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَالْدَّرَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ الْأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرْسَخاً
 وَالْفَرْسَخُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ ذِرَاعٍ وَالذِّرَاعُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إصْبَعاً وَالْإِصْبَعُ سِتُّ حَبَّاتٍ
 شَعِيرٍ مُضَفُوفَةٍ مُلْتَصِقٍ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ظَهراً لِبَطْنٍ وَبَيْنَ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ الَّتِي
 تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ وَتَسَامِيَتْ خَطُّ الْإِسْتِوَاءِ مِنَ الْأَرْضِ وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ
 الْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً لَكِنَّ الْعِمَارَةَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ أَرْبَعُ
 وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَالْبَاقِي مِنْهَا خَلَاءٌ لَا عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَّةِ الْبُرْدِ وَالْجُمُودِ كَمَا كَانَتْ
 الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ خَلَاءً كُلُّهَا لِشِدَّةِ الْحَرِّ كَمَا نَبَّيْنُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ثُمَّ إِنَّ
 الْمُخْبِرِينَ عَنْ هَذَا الْمَعْمُورِ وَخُدُودِهِ وَعَمَّا فِيهِ مِنَ الْأَمْصَارِ وَالْمَدِينِ وَالْجِبَالِ وَالْبَحَارِ
 وَالْأَنْهَارِ وَالْقِفَارِ وَالرَّمَالِ مِثْلُ بَطْلِيمُوسَ فِي كِتَابِ الْجُغْرَافِيَا وَصَاحِبِ كِتَابِ
 زَخَارٍ ^(١) مِنْ بَعْدِهِ قَسَمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ يُسَمُّونَهَا الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِحُدُودِ
 وَهَمِيَّةٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةٍ فِي الْغَرَضِ مُخْتَلِفَةٍ فِي الطَّوْلِ فَإِلْقِيمُ الْأَوَّلِ
 أَطْوَلُ مِمَّا بَعْدَهُ وَهَكَذَا الثَّانِي إِلَى آخِرِهَا فَيَكُونُ السَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا اقْتَضَاهُ وَضَعُ

(١) وردت في بعض النسخ روجار وهو الصحيح وروجار هو ملك صقلية وقد ألف له الشريف الإدريسي كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وقد طاف الإدريسي في بلاد الروم واليونان ومصر والمغرب وفرنسا وجزيرة بريطانيا وقد دعاه الملك روجار إلى زيارة صقلية فرسم له ما عاينه من البلاد على كرة من فضة . وقد ازدهرت العلوم في أيام الملك روجار لاحتكاك الثقافتين العربية واليونانية في بلاده (قاموس) .

الدائرة الناشئة عن انحسار الماء عن كرة الأرض وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بمشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي وفي كل جزء الخبر عن أخواله وأحوال عمرانيه . وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج من جهة المغرب في الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف يبدأ في خليج متضيق في عرض اثني عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الرقاق ثم يذهب مشرقاً وينفسح إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبداه وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم أفريقية^(١) ثم برقة إلى الإسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الإفرنجة ثم الأندلس إلى طريف عند الرقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية قالوا : ويخرج منه في جهة الشمال بخران آخران من خليجين . أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضيقاً في عرض رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسح في عرض أربعة أميال ويمر في جزريه ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر بأرض هرقله وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والتürk وبرزجان والروس . والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة^(٢) يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة وينتهي إلى بلاد إنكلاية على ألف ومائة ميل من مبداه وعلى خافتيه من

(١) كانت تطلق قديماً على الغرب الأدنى أي تونس وما يليها .

(٢) هو بحر الادرياتيک . نسبة إلى شعوب البنادقة الذين توطنوا على سواحلهم ودعوا ببنادقة نسبة إلى

مدينة البندقية (فينيسيا اليوم) .

الْبَنَادِقَةِ وَالرُّومَ وَغَيْرَهُمْ أُمَّمٌ وَيُسَمَّى خَلِيجَ الْبَنَادِقَةِ . قَالُوا وَيَنْسَاحُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ
 الْمُحِيطِ أَيْضاً مِنَ الشَّرْقِ وَعَلَى ثَلَاثَ عَشْرَةَ دَرَجَةً فِي الشَّمَالِ مِنْ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ بَحْرٌ
 عَظِيمٌ مُتَّسِعٌ يَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ قَلِيلاً حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ ثُمَّ يَمُرُّ فِيهِ مَغْرِباً
 إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالزَّنْجِ وَإِلَى بِلَادِ بَابِ
 الْمَنْدَبِ مِنْهُ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ فَرَسَخٍ مِنْ مَبْدِئِهِ وَيُسَمَّى الْبَحْرَ الصِّينِيَّ وَالْهِنْدِيَّ
 وَالْحَبَشِيَّ ^(١) وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ بِلَادُ الزَّنْجِ وَبِلَادُ بَرْبَرِ الْيَمَنِ ذَكَرَهَا امْرُؤُ
 الْقَيْسِ فِي شِعْرِهِ وَلَيْسُوا مِنَ الْبَرْبَرِ الَّذِينَ هُمْ قَبَائِلُ الْمَغْرِبِ ثُمَّ بَلَدٌ مَقْدُشُوثٌ ثُمَّ بَلَدٌ
 سَفَالَةُ وَأَرْضُ الْوَاقِ وَأُمَّمٌ أُخْرَى لَيْسَ بَعْدَهُمْ إِلَّا الْفِقَارُ وَالْخَلَاءُ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ
 الشَّمَالِ الصِّينُ مِنْ عِنْدِ مَبْدِئِهِ ثُمَّ الْهِنْدُ ثُمَّ السُّنْدُ ثُمَّ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ مِنَ الْأَخْفَافِ
 وَزَيْدٍ وَغَيْرِهَا ثُمَّ بِلَادُ الزَّنْجِ عِنْدَ نَهَائِيَّتِهِ وَبَعْدَهُمُ الْحَبَشَةُ . قَالُوا وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا
 الْبَحْرِ الْحَبَشِيُّ بِخَرَانِ آخَرَانِ أَحَدُهُمَا يَخْرُجُ مِنْ نَهَائِيَّتِهِ عِنْدَ بَابِ الْمَنْدَبِ فَيَبْدَأُ
 مُتَّصِيقاً ثُمَّ يَمُرُّ مُسْتَبْجِراً إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَمَغْرِباً قَلِيلاً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْقَلْزَمِ
 فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى أَلْفٍ وَأَرْبَعِينَ مِيلَ مِنْ مَبْدِئِهِ وَيُسَمَّى
 بَحْرَ الْقَلْزَمِ ^(٢) وَبَحْرَ السُّوَيْسِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ فِسْطَاطِ مِصْرَ مِنْ هُنَالِكَ ثَلَاثَ مَرَاحِلَ
 وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ ثُمَّ الْحِجَازُ وَجَدَةُ ثُمَّ مَذِينُ وَأَيْلَةُ وَفَارَانُ عِنْدَ
 نَهَائِيَّتِهِ وَمِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الصُّعَيْدِ وَعَيْذَابُ وَسَوَاكِينُ وَزَيْلَعُ ثُمَّ بِلَادُ الْحَبَشَةِ
 عِنْدَ مَبْدِئِهِ وَآخِرُهُ عِنْدَ الْقَلْزَمِ يَسَامِتُ الْبَحْرَ الرُّومِيَّ عِنْدَ الْعَرِيشِ وَبَيْنَهُمَا نَحْوُ
 سِتِّ مَرَاحِلَ وَمَا زَالَ الْمُلُوكُ فِي الْإِسْلَامِ وَقَبْلَهُ يَرُومُونَ خَرَقَ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَتَمَّ
 ذَلِكَ ^(٣) . وَالْبَحْرُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ وَيُسَمَّى الْخَلِيجَ الْأَخْضَرَ ^(٤) يَخْرُجُ

(١) هو المحيط الهندي .

(٢) بحر القلزم ، اسم أطلقه العرب سابقاً على البحر الأحمر وسمي نسبة إلى مدينة (قلبيمة) بالقرب

من السويس . (المنجد) .

(٣) هنا شرح للدكتور علي عبد الواحد وافي . في طبعه دار « الجنة البيان العربي » نقلها بنصها « تم

ذلك بعد وفاة ابن خلدون بنحو أربعة قرون ونصف قرن عن طريق قناة السويس . وكلام ابن خلدون يدل على
 أن توصيل هذين البحرين أحدهما بالآخر مشروع قديم فكر فيه الملوك في الإسلام ومن قبل الإسلام . وفي الحق أن

مَا بَيْنَ بِلَادِ السِّنْدِ وَالْأَخْقَافِ مِنَ الْيَمَنِ وَيَمُرُّ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامِ مُغْرَبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْأَبْلَةِ مِنْ سَوَاحِلِ الْبَصْرَةِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ فَرَسَخٍ وَأَرْبَعِينَ فَرَسَخًا مِنْ مَبْدِئِهِ وَيُسَمَّى بَحْرَ فَارِسَ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ السِّنْدِ وَمَكْرَانَ وَكُرْمَانَ وَفَارِسَ وَالْأَبْلَةُ وَعِنْدَ نَهَائِهِ مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الْبَحْرَيْنِ وَالْيَمَامَةِ وَعُمَانَ وَالشَّحْرِ وَالْأَخْقَافِ عِنْدَ مَبْدِئِهِ وَفِيمَا بَيْنَ بَحْرِ فَارِسَ وَالْقُلْزَمِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ الْحَبَشِيُّ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ الْقُلْزَمِ مِنَ الْغَرْبِ وَبَحْرُ فَارِسَ مِنَ الشَّرْقِ وَتَقْضِي إِلَى الْعِرَاقِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ بَيْنَهُمَا وَهُنَالِكَ الْكُوفَةُ وَالْقَادِسِيَّةُ وَبَغْدَادُ وَإِيَوَانُ كِسْرَى وَالْحِيرَةُ وَوَرَاءَ ذَلِكَ أُمُّ الْأَعَاجِمِ مِنَ التُّرْكِ وَالْخَزَرِ وَغَيْرِهِمْ وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِلَادُ الْحِجَازِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَامَةِ وَالْبَحْرَيْنِ وَعُمَانَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَنِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهَا وَسَوَاحِلُهُ عَلَى الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ . قَالُوا وَفِي هَذَا الْمَعْمُورِ بَحْرٌ آخَرٌ مُنْقَطِعٌ مِنْ سَائِرِ الْبَحَارِ فِي نَاحِيَةِ الشَّامِ بِأَرْضِ الدَّيْلَمِ يُسَمَّى بَحْرَ جُرْجَانَ وَطَبْرِسْتَانَ طَوْلُهُ أَلْفٌ مِيلًا فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ فِي غَرْبِهِ أَذْرَبِجَانَ وَالدَّيْلَمَ وَفِي شَرْقِيهِ أَرْضُ التُّرْكِ وَخَوَارِزْمَ وَفِي جَنُوبِيهِ طَبْرِسْتَانَ وَفِي شَمَالِيهِ أَرْضُ الْخَزَرِ وَاللَّانَ . هَذِهِ جُمْلَةُ الْبَحَارِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغْرَافِيَا . قَالُوا وَفِي هَذَا الْجُزْءِ الْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ وَهِيَ النَّيْلُ وَالْفُرَاتُ وَدَجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخِ الْمُسَمَّى جِيخُونَ . فَأَمَّا النَّيْلُ فَمَبْدَأُهُ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ حَظِّ الْإِسْتِوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً عَلَى سَمْتِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَيُسَمَّى جَبَلُ الْقَمَرِ وَلَا يُعْلَمُ فِي الْأَرْضِ جَبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ تَخْرُجُ مِنْهُ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ فَيَنْصُبُ بَعْضُهَا فِي بَحِيرَةٍ هُنَاكَ وَبَعْضُهَا فِي أُخْرَى ثُمَّ تَخْرُجُ أَنْهَارٌ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ فَتَنْصُبُ كُلُّهَا فِي بَحِيرَةٍ وَاحِدَةٍ عِنْدَ حَظِّ الْإِسْتِوَاءِ عَلَى عَشْرِ

تاريخه يبدأ من العهد الفرعوني نفسه ويقال ان أول ملك من الفراعنة فكر في حفر القناة هو سنوبرات الثالث الذي يفكر أولياء الأمور في مصر الآن في إقامة تمثال له في بور سعيد .

(٤) هو الخليج الفارسي .

مَرَّاحِلَ مِنَ الْجَبَلِ وَيَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ نَهْرَانِ يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ
الشَّمَالِ عَلَى سَمْتِهِ وَيَمُرُّ بِبِلَادِ التُّوْبَةِ ثُمَّ بِبِلَادِ مِصْرَ فَإِذَا جَاوَزَهَا تَشَعَّبَ فِي شُعَبٍ
مُتَقَارِبَةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَلِيجًا وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ
الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَيُسَمَّى نَيْلَ مِصْرَ وَعَلَيْهِ الصُّعِيدُ مِنْ شَرْقِيَّهِ وَالْوَاخَاتُ مِنْ غَرْبِيَّهِ
وَيَذْهَبُ الْآخَرُ مُنْعَطِفًا إِلَى الْمَغْرِبِ ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ
الْمُحِيطِ وَهُوَ نَهْرُ السُّودَانِ وَأَمَمَهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى صِفَتَيْهِ . وَأَمَّا الْفُرَاتُ فَمَبْدُؤُهُ مِنْ بِلَادِ
أَرْمِينِيَّةٍ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَمُرُّ جَنُوبًا فِي أَرْضِ الرُّومِ وَمَلَطِيَّةٍ
إِلَى مَنْبَجٍ ثُمَّ يَمُرُّ بِصِفَيْنِ ثُمَّ بِالرَّقَّةِ ثُمَّ بِالْكُوفَةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَطْحَاءِ الَّتِي بَيْنَ
النُّصْرَةِ وَوَأَسْطِ وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ أَنْهَارٌ
كَثِيرَةٌ وَيَخْرُجُ مِنْهَا أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دِجْلَةٍ . وَأَمَّا دِجْلَةُ فَمَبْدُؤُهَا عَيْنٌ بِبِلَادِ خَلَّاطٍ
مِنْ أَرْمِينِيَّةٍ أَيْضًا وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْجَنُوبِ بِالْمَوْصِلِ وَأَذْرَبِجَانَ وَبَغْدَادَ إِلَى وَاسِطٍ
فَتَتَفَرَّقُ إِلَى خَلْجَانٍ كُلُّهَا تَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ النُّصْرَةِ وَتَقْضِي إِلَى بَحْرِ فَارَسَ وَهُوَ فِي
الشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ الْفُرَاتِ وَيَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفِيهَا
بَيْنَ الْفُرَاتِ وَدِجْلَةٍ مِنْ أَوَّلِهِ جَزِيرَةُ الْمَوْصِلِ قِبَالَ الشَّامِ مِنْ عُذُوتَيْ الْفُرَاتِ وَقِبَالَ
أَذْرَبِجَانَ مِنْ عُذُوتِ دِجْلَةٍ . وَأَمَّا نَهْرُ جِيحُونَ فَمَبْدُؤُهُ مِنْ بَلْخِ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ
الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِنْ عَيُونٍ هُنَاكَ كَثِيرَةٌ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ عَظَامٌ وَيَذْهَبُ مِنَ
الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَاسَانَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خَوَارِزَمَ فِي الْجُزْءِ
الثَّامِنِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ الْجُرْجَانِيَّةِ الَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا وَهِيَ
مَسِيرَةُ شَهْرِ فِي مِثْلِهِ وَإِلَيْهَا يَنْصُبُّ نَهْرُ فَرْعَانَةَ وَالشَّاشُ الْآتِي مِنَ بِلَادِ التُّرْكِ وَعَلَى
غَرْبِيِّ نَهْرِ جِيحُونَ بِلَادُ خُرَاسَانَ وَخَوَارِزَمَ وَعَلَى شَرْقِيَّهِ بِلَادُ بُخَارَى وَتَرْمِذُ
وَسَمَرْقَنْدَ وَمِنْ هُنَاكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ بِلَادُ التُّرْكِ وَفَرْعَانَةَ وَالْخَزْلَجِيَّةَ وَأَمَمُ الْأَعَاجِمِ
وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ بَطْلِيمُوسُ فِي كِتَابِهِ وَالشَّرِيفُ فِي كِتَابِ رُوحَارِ وَصَوَّرُوا فِي
الْجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي الْمَغْمُورِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَوْدِيَةِ وَاسْتَوْفُوا مِنْ ذَلِكَ

مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لَطُولِهِ وَلَآنَ عَنَانَتَنَا فِي الْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِالْمَغْرِبِ الَّذِي هُوَ وَطَنُ
الْبَرْبَرِ وَبِالْأَوْطَانِ الَّتِي لِلْمَغْرِبِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ .

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي
وذكر السبب في ذلك

وَنَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي مِنَ الْأَقَالِيمِ
الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمَرَانًا مِمَّا بَعْدَهُمَا وَمَا وَجَدَ مِنْ عُمَرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ
وَالرَّمَالُ وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا وَأَمُّ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ وَأُنَاسِيُهُمَا
لَيْسَتْ لَهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذَلِكَ وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا
يَخْلَافُ ذَلِكَ فَالْقِفَارُ فِيهَا قَلِيلٌ وَالرَّمَالُ كَذَلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَأَمْمَهَا وَأُنَاسِيُهَا تَجُوزُ
الْحَدَّ مِنَ الْكَثْرَةِ وَأَمْصَارُهَا وَمُدُنُهَا تَجَاوِزُ الْحَدَّ عَدْدًا وَالْعُمَرَانُ فِيهَا مُنْدَرِجٌ مَا بَيْنَ
الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ
الْحَرِّ وَقِلَّةِ مِيلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمَتِ الرُّؤُوسِ فَلَنُوضِحَ ذَلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَيَتَبَيَّنُ مِنْهُ
سَبَبُ كَثْرَةِ الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ
وَالسَّابِعِ . فَنَقُولُ إِنَّ قُطْبِيَّ الْفَلَكَ الْجَنُوبِيَّ وَالشَّمَالِيَّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأَفْقِ فَهَذَا
دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَارَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ
وَتُسَمَّى دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ النَّبْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ
مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يَحْرُكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاقِ فِي جَوْفِهِ قَهْرًا وَهَذِهِ
الْحَرَكَةُ مَخْسُوسَةٌ وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاقِهَا حَرَكَةً مُخَالِفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ
وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَخْتَلِفُ أَمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي

السُرْعَةِ وَالْبُطْءِ وَمَمَرَاتِ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا تُوَارِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ
الْفَلَكَ الْأَعْلَى تَقْسِمُهُ بِنِصْفَيْنِ وَهِيَ دَائِرَةٌ فَلِكَ الْبُرُوجُ مُنْقَسِمَةٌ بِاثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا
وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مَقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى نَقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ
مِنَ الْبُرُوجِ هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ
نِصْفٌ مَائِلٌ عَنِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ وَنِصْفٌ
مَائِلٌ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحُوتِ وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى
الْأَفْقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ خَطٌ وَاحِدٌ يُسَامَتُ دَائِرَةُ
مُعَدِّلِ النَّهَارِ يَمُرُّ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَيُسَمَّى خَطُ الْإِسْتِوَاءِ وَوَقَعَ هَذَا الْخَطُ
بِالرُّصْدِ عَلَى مَا زَعَمُوا فِي مَبْدَأِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَقَالِيمِ السُّنْبَعَةِ وَالْعُمُرَانِ كُلُّهُ فِي
الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ يَرْتَفِعُ عَنْ آفَاقِ هَذَا الْمَعْمُورِ بِالتَّذْرِيجِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ارْتِفَاعُهُ إِلَى
أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَهَذَا يَنْقَطِعُ الْعُمُرَانُ وَهُوَ آخِرُ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَإِذَا ارْتَفَعَ عَلَى
الْأَفْقِ تِسْعِينَ دَرَجَةً وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ الْقُطْبِ وَدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى الْأَفْقِ وَبَقِيَتْ
سِتَّةٌ مِنَ الْبُرُوجِ فَوْقَ الْأَفْقِ وَهِيَ الشَّمَالِيَّةُ وَسِتَّةٌ تَحْتَ الْأَفْقِ وَهِيَ الْجَنُوبِيَّةُ
وَالْعِمَارَةُ فِيمَا بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ وَالسَّتِينَ إِلَى التَّسْعِينَ مُمْتَنِعَةٌ لِأَنَّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ حِينَئِذٍ
لَا يَحْصُلَانِ مُمْتَرَجَيْنِ لِبُعْدِ الزَّمَانِ بَيْنَهُمَا فَلَا يَحْصُلُ التَّكْوِينُ فَإِذَا الشَّمْسُ
تَسَامَتِ الرُّؤُوسَ عَلَى خَطِ الْإِسْتِوَاءِ فِي رَأْسِ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ ثُمَّ تَمِيلُ عَنِ الْمُسَامَتَةِ
إِلَى رَأْسِ السَّرْطَانِ وَرَأْسِ الْجُذْيِ وَيَكُونُ نِهَائُهُ مَائِلًا عَنْ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ أَرْبَعًا
وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ثُمَّ إِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنِ الْأَفْقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَنْ
سَمَتِ الرُّؤُوسِ بِمِقْدَارِ ارْتِفَاعِهِ وَانْخَفَضَ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ كَذَلِكَ بِمِقْدَارِ مُتَسَاوِي
الثَّلَاثَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ الْمَوَاقِبِ غَرَضُ الْبَلَدِ وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ
عَنِ سَمَتِ الرُّؤُوسِ عَلَتْ عَلَيْهَا الْبُرُوجُ الشَّمَالِيَّةُ مُنْدَرَجَةً فِي مِقْدَارِ عُلُوِّهَا إِلَى رَأْسِ
السَّرْطَانِ وَانْخَفَضَتِ الْبُرُوجُ الْجَنُوبِيَّةُ مِنَ الْأَفْقِ كَذَلِكَ إِلَى رَأْسِ الْجُذْيِ لَانْجِرَافِهَا
إِلَى الْجَانِبَيْنِ فِي أَفْقِ الْإِسْتِوَاءِ كَمَا قُلْنَا فَلَا يَزَالُ الْأَفْقُ الشَّمَالِيُّ يَرْتَفِعُ حَتَّى يَصِيرَ

أَبْعَدَ الشَّمَالِيَّةِ وَهُوَ رَأْسُ السَّرَطَانِ فِي سَمْتِ الرُّؤُوسِ وَذَلِكَ حَيْثُ يَكُونُ عَرْضُ الْبَلَدِ
أَرْبَعًا وَعَشْرِينَ فِي الْحِجَازِ وَمَا يَلِيهِ وَهَذَا هُوَ الْمَيْلُ الَّذِي إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عَنْ
مُعْدِلِ النَّهَارِ فِي أَفْقِ الْإِسْتِوَاءِ ارْتَفَعَ بِارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ حَتَّى صَارَ مُسَامِتًا فَإِذَا
ارْتَفَعَ الْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ نَزَلَتِ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَتَةِ وَلَا تَزَالُ فِي
انْخِفَاضٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ ارْتِفَاعُ الْقُطْبِ أَرْبَعًا وَسِتِّينَ وَيَكُونُ انْخِفَاضُ الشَّمْسِ عَنِ
الْمُسَامَتَةِ كَذَلِكَ وَانْخِفَاضُ الْقُطْبِ الْجَنُوبِيِّ عَنِ الْأَفْقِ مِثْلَهَا فَيَنْقَطِعُ التَّكْوِينُ
لِإِفْرَاطِ الْبَرْدِ وَالْجَمْدِ وَطَوِيلِ زَمَانِهِ غَيْرَ مُمْتَرِجٍ بِالْحَرِّ . ثُمَّ إِنَّ الشَّمْسَ عِنْدَ الْمُسَامَتَةِ
وَمَا يُقَارِبُهَا تَبَعُثُ الْأَشِعَّةَ قَائِمَةً وَفِيمَا دُونَ الْمُسَامَتَةِ عَلَى زَوَايَا مُنْفَرِجَةٍ وَحَادَّةٍ وَإِذَا
كَانَتْ زَوَايَا الْأَشِعَّةِ قَائِمَةً عَظُمَ الضَّوُّ وَانْتَشَرَ بِخِلَافِهِ فِي الْمُنْفَرِجَةِ وَالْحَادَّةِ فَلِهَذَا
يَكُونُ الْحَرُّ عِنْدَ الْمُسَامَتَةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيمَا بَعْدَ لِأَنَّ الضَّوَّ سَبَبُ الْحَرِّ
وَالْتَشْحِينِ .

ثُمَّ إِنَّ الْمُسَامَتَةَ فِي خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ عِنْدَ نَقْطَتَيْ الْحَمَلِ
وَالْمِيزَانِ وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيدٍ وَلَا يَكَادُ الْحَرُّ يَغْتَدِلُ فِي آخِرِ مَيْلِهَا عِنْدَ رَأْسِ
السَّرَطَانِ وَالْجُذْيِ إِلَّا أَنْ صَعِدَتْ إِلَى الْمُسَامَتَةِ فَتَبْقَى الْأَشِعَّةُ الْقَائِمَةُ الزَّوَايَا تُلِحُّ عَلَى
ذَلِكَ الْأَفْقِ وَيَطُولُ مَكْثُهَا أَوْ يَدُومُ فَيَشْتَعِلُ الْهَوَاءُ حَرَارَةً وَيَفْرِطُ فِي شِدَّتِهَا وَكَذَا
مَا دَامَتِ الشَّمْسُ تُسَامِتُ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى عَرْضِ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ
فَإِنَّ الْأَشِعَّةَ مُلِحَّةٌ عَلَى الْأَفْقِ فِي ذَلِكَ بِقَرِيبٍ مِنَ الْحَاحِهَا فِي خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ وَإِفْرَاطُ
الْحَرِّ يَفْعَلُ فِي الْهَوَاءِ تَخْفِيفًا وَيَبْسًا يَمْنَعُ مِنَ التَّكْوِينِ لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ الْحَرُّ جَفَّتِ
الْمِيَاهُ وَالرُّطُوبَاتُ وَفُسَدَ التَّكْوِينُ فِي الْمَعْدِنِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ إِذَ التَّكْوِينُ
لَا يَكُونُ إِلَّا بِالرُّطُوبَةِ ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فِي عَرْضِ
خَمْسٍ وَعَشْرِينَ فَمَا بَعْدَهُ نَزَلَتِ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَتَةِ فَيَصِيرُ الْحَرُّ إِلَى الْإِغْتِدَالِ أَوْ
يَمِيلُ عَنْهُ مَيْلًا قَلِيلًا فَيَكُونُ التَّكْوِينُ وَيَتَزَايِدُ عَلَى التَّذْرِيجِ إِلَى أَنْ يَفْرِطَ الْبَرْدُ فِي
شِدَّتِهِ لِقَلَّةِ الضَّوِّ وَكَوْنِ الْأَشِعَّةِ مُنْفَرِجَةٍ الزَّوَايَا فَيَنْقُصُ التَّكْوِينُ وَيَفْسُدُ بَيِّنُ أَنْ

فَسَادَ التَّكْوِينِ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْحَرِّ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْبَرْدِ لِأَنَّ الْحَرَّ أَسْرَعَ تَأْثِيرًا فِي التَّخْفِيفِ مِنْ تَأْثِيرِ الْبَرْدِ فِي الْجَمْدِ فَلِذَلِكَ كَانَ الْعُمُرَانُ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي قَلِيلًا وَفِي الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا لِإِعْتِدَالِ الْحَرِّ بِنَقْضَانِ الضَّوِّهِ وَفِي السَّادِسِ وَالسَّابِعِ كَثِيرًا لِنَقْضَانِ الْحَرِّ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ الْبَرْدِ لَا تُؤَثِّرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا فِي فَسَادِ التَّكْوِينِ كَمَا يَفْعَلُ الْحَرُّ إِذْ لَا تَخْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ الْإِفْرَاطِ بِمَا يَغْرِضُ لَهَا حِينَئِذٍ مِنَ النَّيْسِ كَمَا بَعْدَ السَّابِعِ فَلِهَذَا كَانَ الْعُمُرَانُ فِي الرُّبْعِ الشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ هُنَا أَخَذَ الْحُكَمَاءُ خَلَاءَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ وَأُورِدَ ^(١) عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالْمُشَاهِدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَكَيْفَ يَتِمُّ الْبُرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا امْتِنَاعَ الْعُمُرَانِ فِيهِ بِالْكُلِّيَّةِ إِنَّمَا أَذَاهُمْ الْبُرْهَانُ إِلَى أَنَّ فَسَادَ التَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَالْعُمُرَانِ فِيهِ إِمَّا مُمْتَنِعٌ أَوْ مُمَكِّنٌ أَقْلِيٍّ وَهُوَ كَذَلِكَ فَإِنَّ خَطَّ الْإِسْتِوَاءِ وَالَّذِي وَرَاءَهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمُرَانٌ كَمَا نَقَلَ فَهُوَ قَلِيلٌ جِدًّا . وَقَدْ زَعَمَ ابْنُ رُشْدٍ أَنَّ خَطَّ الْإِسْتِوَاءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي الْجَنُوبِ بِمِثَالِ مَا وَرَاءَهُ فِي الشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا عَمَرَ مِنْ هَذَا وَالَّذِي قَالَهُ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ مِنْ جِهَةِ فَسَادِ التَّكْوِينِ وَإِنَّمَا امْتَنَعَ فِيمَا وَرَاءَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ فِي الْجَنُوبِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْعُنْصُرَ الْمَائِيَّ غَمَرَ وَجْهَ الْأَرْضِ هُنَاكَ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي كَانَ مُقَابِلَهُ مِنَ الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ قَابِلًا لِلتَّكْوِينِ ^(٢) وَلَمَّا امْتَنَعَ الْمُعْتَدِلُ لِغَيْبَةِ الْمَاءِ تَبَعَهُ مَا سِوَاهُ لِأَنَّ الْعُمُرَانَ مُتَدَرِّجٌ وَيَأْخُذُ فِي التَّدْرِيجِ مِنْ جِهَةِ الْوُجُودِ لَا مِنْ جِهَةِ الْإِمْتِنَاعِ وَأَمَّا الْقَوْلُ بِامْتِنَاعِهِ فِي خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ فَيَرُدُّهُ النُّقْلُ الْمُتَوَاتِرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَلَنُرْسِمَ بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ صُورَةَ الْجُغْرَافِيَا كَمَا رَسَمَهَا صَاحِبُ كِتَابِ رُوحَارِثُمْ نَأْخُذُ فِي تَفْصِيلِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ .

(١) أورد عليه الخبر : قضه (قاموس) .

(٢) جاء كشف أستراليا وأميركا والقسم الواقع جنوب خط الإستواء من أفريقيا مؤيداً لرأي ابن رشد .

ومبيناً فساد ما كان يعتقد حينئذ من قلة العمران جنوب خط الاستواء (عن طبعة لجنة البيان العربي) .

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

إِغْلَمْ أَنَّ الْحُكَمَاءَ قَسَمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ عَلَى سَبْعَةِ أَقْسَامٍ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ يُسَمُّونَ كُلَّ قِسْمٍ مِنْهَا إِقْلِيمًا فَانْقَسَمَ الْمَعْمُورُ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهِ عَلَى هَذِهِ السَّبْعَةِ الْأَقْلِيمِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَخَذَ مِنَ الْمَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ عَلَى طَوْلِهِ . فَالْأَوَّلُ مِنْهَا مَارٌّ مِنَ الْمَرْبِ إِلَى الْمَشْرِقِ مَعَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ بِحَدِّهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ هُنَالِكَ إِلَّا الْقِفَارُ وَالرَّمَالُ وَبَقِضُ عِمَارَةٍ إِنْ صَحَّتْ فِيهِ كَلَا عِمَارَةٍ وَبَقِضُ عِمَارَةٍ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ الْإِقْلِيمُ الثَّانِي ثُمَّ الثَّالِثُ كَذَلِكَ ثُمَّ الرَّابِعُ وَالْخَامِسُ وَالسَّادِسُ وَالسَّابِعُ وَهُوَ آخِرُ الْعُمُرَانِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَلَيْسَ وَرَاءَ السَّابِعِ إِلَّا الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ كَالْحَالِ فِيمَا وَرَاءَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَّا أَنَّ الْخَلَاءَ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ أَقْلُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْخَلَاءِ الَّذِي فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ . ثُمَّ إِنَّ أَرْمَنَةَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تَتَفَاوَتُ فِي هَذِهِ الْأَقْلِيمِ بِسَبَبِ مِيلِ الشَّمْسِ عَنْ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ وَارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ عَنْ أَفَاقِهَا فَيَتَفَاوَتُ قَوْسُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِذَلِكَ وَيَنْتَهِي طَوْلُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي آخِرِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَذَلِكَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ الْجَدِيِّ لِلَّيْلِ وَبِرَأْسِ السَّرْطَانِ لِلنَّهَارِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي مِمَّا يَلِي الشَّمَالَ فَيَنْتَهِي طَوْلُ النَّهَارِ فِيهِ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ السَّرْطَانِ وَهُوَ مُنْقَلِبُهَا الصُّبْحِيِّ إِلَى ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ وَنِصْفِ سَاعَةٍ وَمِثْلُهُ أَطْوَلُ اللَّيْلِ عِنْدَ مُنْقَلِبِهَا الشَّوْصِيِّ بِرَأْسِ الْجَدِيِّ وَيَبْقَى لِلْأَقْصَرِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَا يَبْقَى بَعْدَ الثَّلَاثِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ وَنِصْفِ مِنْ جُمْلَةِ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ السَّاعَاتِ الزَّمَانِيَّةِ لِمَجْمُوعِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهِيَ دَوْرَةُ الْفَلَكَ الْكَامِلَةُ وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ مِمَّا يَلِي الشَّمَالَ أَيْضًا يَنْتَهِيَانِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ وَفِي آخِرِ الرَّابِعِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ

وَنُصِفُ سَاعَةً فِي آخِرِ الْخَامِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَفِي آخِرِ السَّادِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنُصِفُ وَإِلَى آخِرِ السَّابِعِ إِلَى سِتِّ عَشْرَةَ سَاعَةً وَهُنَالِكَ يَنْقَطِعُ الْعُمُرَانُ فَيَكُونُ تَفَاوُتُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ فِي الْأَطْوَلِ مِنْ لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا يَنْصِفُ سَاعَةً لِكُلِّ إِقْلِيمٍ يَتَزَايِدُ مِنْ أَوَّلِهِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ إِلَى آخِرِهِ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُوزَّعَةً عَلَى أَجْزَاءِ هَذَا الْبُعْدِ . وَأَمَّا عَرْضُ الْبُلْدَانِ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بُعْدِ مَا بَيْنَ سَمْتِ رَأْسِ الْبَلَدِ وَدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ الَّذِي هُوَ سَمْتُ رَأْسِ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ وَبِمِثْلِهِ سِوَاءٌ يَنْخَفِضُ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ عَنْ أَفْقِ ذَلِكَ الْبَلَدِ وَيَرْتَفِعُ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنْهُ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَعْيَادٍ مُتَسَاوِيَةٍ تُسَمَّى عَرْضُ الْبَلَدِ كَمَا مَرَّ ذَلِكَ قَبْلُ . وَالْمُتَكَلِّمُونَ عَلَى هَذِهِ الْجُغَرَفِيَّةِ قَسَمُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ فِي طَوِيلِهِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ وَيَذْكُرُونَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْأَنْصَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي الْمَسَالِكِ وَنَحْنُ الْآنَ نُوْجِزُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَنَذْكُرُ مَشَاهِيرَ الْبُلْدَانِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبَخَارِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا وَنُحَازِي بِذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ الَّذِي أَلْفَهُ الْعُلُوِّي الْأَدْرِيسِيُّ الْحَمُودِيُّ لِمَلِكِ صِقْلِيَّةٍ مِنَ الْإِفْرَنْجِ وَهُوَ زَخَارُ بْنُ زَخَارٍ^(١) عِنْدَمَا كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ بِصِقْلِيَّةٍ بَعْدَ خُرُوجِ صِقْلِيَّةٍ مِنْ إِمَارَةِ مَالِقَةٍ وَكَانَ تَأْلِيفُهُ لِلْكِتَابِ فِي مُنْتَصَفِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ وَجَمَعَ لَهُ كُتُبًا جَمَّةً لِلْمُسْعُودِيِّ وَابْنِ خَرْدَادِيهِ وَالْحَوْقَلِيِّ وَالْقُدْرِيِّ وَابْنِ إِسْحَاقِ الْمُنْجِمِ وَبَطْلِيمُوسَ وَغَيْرَهُمْ وَنَبَدَأُ مِنْهَا بِالْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْصِمُنَا بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

الْإِقْلِيمُ الْأَوَّلُ ، وَفِيهِ مِنْ جِهَةِ غَرْبِيَّةِ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتُ الَّتِي مِنْهَا بَدَأَ بَطْلِيمُوسُ بِأَخْذِ أَطْوَالِ الْبِلَادِ وَلَيْسَتْ فِي بَسِيطِ الْإِقْلِيمِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ جُزُرٌ مُتَكَثِرَةٌ أَكْبَرُهَا وَأَشْهَرُهَا ثَلَاثٌ وَيُقَالُ إِنَّهَا مَعْمُورَةٌ وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ سَفَائِنَ مِنَ الْإِفْرَنْجِ مَرَّتْ بِهَا فِي أَوَاسِطِ هَذِهِ الْمِائَةِ وَقَاتَلُوهُمْ فَقَتِلُوا مِنْهُمْ وَسَبَّوْا وَبَاعُوا بَعْضَ

(١) روجار الثاني .

أَسْرَاهُمْ بِسَوَاحِلِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَصَارُوا إِلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ فَلَمَّا تَعَلَّمُوا اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ أَخْبَرُوا عَنْ حَالِ جَزَائِرِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَخْتَفِرُونَ الْأَرْضَ لِلزَّرَاعَةِ بِالْقُرُونِ وَأَنَّ الْحَدِيدَ مَفْقُودٌ بِأَرْضِهِمْ وَعَيْشُهُمْ مِنَ الشَّعِيرِ وَمَاشِيَتِهِمُ الْمَعَزُ وَقَتَالَهُمْ بِالْحِجَارَةِ يَرْمُونَهَا إِلَى خَلْفِ وَعِبَادَتُهُمُ السُّجُودُ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا وَلَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةٌ وَلَا يُوقَفُ عَلَى مَكَانٍ هَذِهِ الْجَزَائِرُ إِلَّا بِالْعُثُورِ لَا بِالْقَصْدِ إِلَيْهَا لِأَنَّ سَفَرَ السُّفْنِ فِي الْبَحْرِ إِنَّمَا هُوَ بِالرِّيَّاحِ وَمَعْرِفَةِ جِهَاتِ مَهَابِهَا وَإِلَى أَيْنَ يُوَصِّلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي فِي مَمَرِ ذَلِكَ الْمَهَبِ وَإِذَا اخْتَلَفَ الْمَهَبُ وَعَلِمَ حَيْثُ يُوَصِّلُ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ حُودِي بِهِ الْقَلْعُ مُحَادَاةً يَحْمِلُ السَّيْفِينَةَ بِهَا عَلَى قَوَائِنِ فِي ذَلِكَ مُحَصَّلَةٌ عِنْدَ النَّوَاتِيَةِ^(١) وَالْمَلَّاحِينَ الَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ السُّفْنِ فِي الْبَحْرِ وَالْبِلَادِ الَّتِي فِي حَافَاتِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَفِي عُذُوتِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ وَفِي وَضْعِهَا فِي سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَمَهَابِ الرِّيَّاحِ وَمَمَرَاتِهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا مَعَهَا فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ وَيُسَمُّونَهَا الْكِتَابَصَ وَعَلَيْهَا يَغْتَمِدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ وَهَذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَلِذَلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ السُّفْنُ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ عَنْ مَرَأَى السَّوَاحِلِ فَقُلْ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَنْعَقِدُ فِي جَوْهَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ الْأَنْخِرَةِ الْمُمَانِعَةِ لِلْسُّفْنِ فِي مَسِيرِهَا وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُدْرِكُهَا أَضْوَاءُ الشَّمْسِ الْمُتْعَكِسَةِ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ فَتُحَلِّلُهَا فَلِذَلِكَ عَسَرَ الْإِهْتِدَاءُ إِلَيْهَا وَضَعَبَ الْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا . وَأَمَّا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فَفِيهِ مَصَبُ النَّيْلِ الْآتِي مِنْ مَبْدِئِهِ عِنْدَ جَبَلِ الْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيُسَمَّى نَيْلَ السُّودَانِ وَيَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أُولِيكَ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ مَدِينَةٌ سَلَا وَتَكْرُورُ وَغَانَةُ وَكُلُّهَا لِهَذَا الْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكٍ مَالِيٍّ مِنْ أُمَّةِ السُّودَانِ وَإِلَى بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تِجَارَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شَمَالِهَا بِلَادُ لِمْتُونَةَ وَسَائِرُ طَوَائِفِ الْمُلْثَمِينَ وَمَفَاوِزُ يَجُولُونَ فِيهَا وَفِي جَنُوبِي هَذَا النَّيْلِ قَوْمٌ مِنَ السُّودَانِ يُقَالُ لَهُمْ

(١) بالعامة ، الملاحون .

« لِمَلَم » وَهُمْ كُفَارٌ وَيَكْتُونُ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَصْدَاغِهِمْ وَأَهْلُ غَانَةَ وَالتَّكْرُورَ يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونَهُمْ وَيَبْعُونَهُمْ لِلتَّجَارِ فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ وَكُلُّهُمْ غَامَّةٌ رَقِيقُهُمْ وَلَيْسَ رَأَاهُمْ فِي الْجَنُوبِ عُمَرَانُ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنْاسِيٌّ أَقْرَبُ إِلَى الْحَيَوَانِ الْعَجَمِ مِنَ النَّاطِقِ يَسْكُنُونَ الْفَيَافِي وَالْكُهُوفَ وَيَأْكُلُونَ الْعِشْبَ وَالْحُبُوبَ غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَيْسُوا فِي عِزَادِ الْبَشَرِ . وَفَوَاكِهُ بِلَادُ السُّودَانِ كُلُّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ مِثْلُ تَوَاتٍ وَتَكْدَرَارِينَ وَوَزْكَلَانَ . فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيمَا يُقَالُ مَلِكٌ وَدَوْلَةُ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ يُعْرِفُونَ بِبَنِي صَالِحٍ وَقَالَ صَاحِبُ كِتَابِ رُوحِ جَارِ إِنَّهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ وَلَا يُعْرِفُ صَالِحُ هَذَا فِي وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَصَارَتْ غَانَةُ لِسُلْطَانِ مَالِي فِي شَرْقِيَّ هَذَا الْبَلَدِ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ بَلَدٌ (كُوكُو) عَلَى نَهْرِ يَنْبُعُ مِنْ بَعْضِ الْجِبَالِ هُنَالِكَ وَيَمُرُّ مَغْرِبًا فَيَغُوصُ فِي رِمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي وَكَانَ مَلِكُ كُوكُو قَائِمًا بِنَفْسِهِ ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ مَالِي وَأَصْبَحَتْ فِي مَمْلَكَتِهِ وَخَرِبَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَعَتْ هُنَاكَ نَذَرُهَا عِنْدَ ذِكْرِ دَوْلَةِ مَالِي فِي مَحَلِّهَا مِنْ تَارِيخِ الْبَرْبَرِ وَفِي جَنُوبِيَّ بَلَدِ كُوكُو بِلَادُ كَاتَمٌ ^(١) مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ وَبَعْدَهُمْ وَنَفَارَةٌ عَلَى ضِفَّةِ النَّيْلِ مِنْ شِمَالِيَّةِ وَفِي شَرْقِيَّ بِلَادِ وَنَفَارَةٌ وَكَاتَمٌ بِلَادُ زَغَاوَةٌ وَتَاجِرَةٌ الْمُتَّصِلَةُ بِأَرْضِ النَّوِيَّةِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِيهِ يَمُرُّ نَيْلٌ مِضْرَ ذَاهِبًا مِنْ مَبْدَإِهِ عِنْدَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الشَّمَالِ وَمَخْرُجُ هَذَا النَّيْلِ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي فَوْقَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَاخْتَلَفُوا فِي ضَبْطِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فَضَبَطَهَا بَعْضُهُمْ بِفَتْحِ الْقَافِ وَالْيَمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ لِشِدَّةِ بَيَاضِهِ وَكَثْرَةِ ضَوْوِهِ وَفِي كِتَابِ الْمُشْتَرَكِ لِيَأْقُوتَ بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ الْيَمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ وَكَذَا ضَبَطَهُ ابْنُ سَعِيدٍ فَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْجَبَلِ عَشْرُ عَيُونٍ تَجْتَمِعُ كُلُّ خَمْسَةٍ مِنْهَا فِي بَحِيرَةٍ وَبَيْنَهُمَا سِتَّةُ أَمْيَالٍ وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي بَطِيحَةٍ

(١) كَاتَمٌ وَلَيْسَ كَاتَمٌ : بَكْرُ النَّونِ مِنْ بِلَادِ الْبَرْبَرِ بِأَقْصَى الْغَرْبِ فِي بِلَادِ السُّودَانِ وَقِيلَ كَاتَمٌ صَنَفٌ مِنَ

السُّودَانِ . (معجم البلدان)

وَاحِدَةٍ فِي أَسْفَلِهَا جَبَلٌ مُفْتَرَضٌ يَشُقُّ الْبُحَيْرَةَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَيَنْقَسِمُ مَاؤُهَا
بِقِسْمَيْنِ فَيَمُرُّ الْغَرْبِيُّ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ مُغْرِباً حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ
وَيَخْرُجُ الشَّرْقِيُّ مِنْهُ ذَاهِباً إِلَى الشَّمَالِ عَلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالنُّوبَةِ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا
وَيَنْقَسِمُ فِي أَعْلَى أَرْضِ مِصْرَ فَيَصُبُّ ثَلَاثَةً مِنْ جَدَاوِلِهِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ. وَرَشِيدٌ وَدُمِيَّاطٌ وَيَصُبُّ وَاحِدٌ فِي بُحَيْرَةِ مُلْحَةٍ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْبَحْرِ
فِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ بِلَادُ النُّوبَةِ وَالْحَبَشَةِ وَبَعْضُ بِلَادِ
الْوَاخَاتِ إِلَى أَسْوَانٍ وَحَاضِرَةُ بِلَادِ النُّوبَةِ مَدِينَةٌ دَنَقَلَةٌ وَهِيَ فِي غَرْبِيِّ هَذَا النَّيْلِ
وَبَعْدَهَا غُلُوَّةٌ وَبِلَاقٌ ^(١) وَبَعْدَهُمَا جَبَلُ الْجَنَادِلِ عَلَى سِتَّةِ مَرَاحِلَ مِنْ بِلَاقٍ فِي
الشَّمَالِ وَهُوَ جَبَلٌ عَالٍ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ وَمُنْخَفِضٌ مِنْ جِهَةِ النُّوبَةِ فَيَنْفُذُ فِيهِ النَّيْلُ
وَيَصُبُّ فِي مَهْوًى يَبْعِيدُ صَبّاً هَائِلاً فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْلُكَهُ الْمَرَائِبُ بَلْ يَحُولُ الْوَسْقُ
مِنْ مَرَائِبِ السُّودَانِ فَيُخَمَلُ عَلَى الظُّهْرِ إِلَى بَلَدِ أَسْوَانٍ قَاعِدَةُ الصُّعَيْدِ إِلَى فَوْقِ
الْجَنَادِلِ وَبَيْنَ الْجَنَادِلِ وَأَسْوَانٍ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَرَّحَلَةً وَالْوَاخَاتُ فِي غَرْبِهَا عَذْوَةُ النَّيْلِ
وَهِيَ الْآنَ خَرَابٌ وَبِهَا آثَارُ الْعِمَارَةِ الْقَدِيمَةِ . وَفِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ
الْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ الْحَبَشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ ذَاهِباً إِلَى أَرْضِ
النُّوبَةِ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي النَّيْلِ الْهَاطِطِ إِلَى مِصْرَ وَقَدْ وَهَمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَزَعَمُوا
أَنَّهُ مِنْ نَيْلِ الْقَمَرِ وَبَطْلِيمُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الْجُغَرَفِيَا وَذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هَذَا
النَّيْلِ . وَإِلَى وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ يَنْتَهِي بَحْرُ الْهِنْدِ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْ
نَاحِيَةِ الصِّينِ وَيَغْمُرُ عَامَّةَ هَذَا الْإِقْلِيمِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ عُمُرَانٌ
إِلَّا مَا كَانَ فِي الْجَزَائِرِ الَّتِي فِي دَاخِلِهِ وَهِيَ مُتَقَدِّدَةٌ يَقَالُ تَنْتَهِي إِلَى أَلْفِ جَزِيرَةٍ أَوْ
فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا طَرَفٌ مِنْ
بِلَادِ الصِّينِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَفِي بِلَادِ الْيَمَنِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِيمَا
بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ الْهَاطِطَيْنِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَهُمَا بَحْرٌ قَلْزَمٌ

(١) بِلَاق : هِيَ - بِلَاق .

وَبَحْرُ فَارِسَ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ الْعَرَبِ وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ وَبِلَادِ الشَّحْرِ^(١) فِي شَرْقِيَّهَا عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَعَلَى بِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهِمَا كَمَا نَذَكُرُهُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ فَأَمَّا الَّذِي عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيهِ فَبَلَدُ زَالَعٍ مِنْ أَطْرَافِ بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَمَجَالَاتُ الْبَحَّةِ^(٢) فِي شَمَالِي الْحَبَشَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعَلَاقِي فِي أَعَالِي الصُّعِيدِ وَبَيْنَ بَحْرِ الْقَلْزَمِ الْهَابِطِ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَتَحْتَ بِلَادِ زَالَعٍ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ فِي هَذَا الْجُزْءِ خَلِيجُ بَابِ الْمَنْدَبِ يَضِيقُ الْبَحْرُ الْهَابِطُ هُنَالِكَ بِمُزَاحِمَةِ جَبَلِ الْمَنْدَبِ الْمَائِلِ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ مُتَمَدِّاً مَعَ سَاحِلِ الْيَمَنِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فِي طُولِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا فَيَضِيقُ الْبَحْرُ بِسَبَبِ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْثَالٍ أَوْ نَحْوِهَا وَيُسَمَّى بَابَ الْمَنْدَبِ وَعَلَيْهِ تَمَرُّ مَرَكَبُ الْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ السُّوَيْسِ قَرِيباً مِنْ مِصْرَ وَتَحْتَ بَابِ الْمَنْدَبِ جَزِيرَةُ سَوَاكِينِ وَذَلِكَ وَقِبَالَتُهُ مِنْ غَرْبِيهِ مَجَالَاتُ الْبَحَّةِ مِنْ أَمَمِ السُّودَانِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ شَرْقِيهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ تَهَائِمُ الْيَمَنِ وَمِنْهَا عَلَى سَاحِلِهِ بَلَدٌ عَلِيٌّ بَنِي يَعْقُوبَ وَفِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالَعٍ وَعَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيهِ قَرَى بَزْبَرٍ يَتَلَوُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَيَنْعَظُفُ مِنْ جَنُوبِيهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَلِيهَا هُنَالِكَ مِنْ جِهَةِ شَرْقِيَّهَا بِلَادُ الزَّنْجِ ثُمَّ بِلَادُ سَفَالَةَ مِنْ سَاحِلِهِ الْجَنُوبِيِّ بِلَادُ الْوُقُوقِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عِنْدَ مَدْخَلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ . وَأَمَّا جَزَائِرُ هَذَا الْبَحْرِ فَكَثِيرَةٌ . مِنْ أَكْثَرِهَا جَزِيرَةُ سَرَنْدِيبَ مَدَوَّرَةُ الشَّكْلِ . وَبِهَا الْجَبَلُ الْمَشْهُورُ يَقَالُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعْلَى مِنْهُ وَهِيَ قِبَالَةُ سَفَالَةَ . ثُمَّ جَزِيرَةُ الْقَمَرِ وَهِيَ جَزِيرَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ تَبْدَأُ مِنْ قِبَالَةِ أَرْضِ سَفَالَةَ وَتَذْهَبُ إِلَى الشَّرْقِ مُنْحَرِفَةً بِكَثِيرٍ إِلَى أَنْ تَقْرُبَ مِنْ سَوَاحِلِ أَعَالِي الصِّينِ وَيَخْتَفُ بِهَا فِي هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَنُوبِيَّهَا جَزَائِرُ الْوُقُوقِ وَمِنْ شَرْقِيَّهَا جَزَائِرُ السَّيْلَانِ إِلَى جَزَائِرِ آخَرٍ فِي هَذَا الْبَحْرِ كَثِيرَةٌ الْعَدَدُ وَفِيهَا أَنْوَاعُ الطَّيْبِ

(١) الشحر ، ساحل اليمن وقيل الساحل ما بين عدن وعمان .

(٢) ويقال أيضاً البجاة وأما زالع فهي زيلع ، مجموعة قبائل تسكن ما بين النيل والبحر الأحمر .

وَالْأَفَاوِيهِ وَفِيهَا يُقَالُ مَعَادِنُ الذَّهَبِ وَالزُّمُرُودِ وَغَامَةُ أَهْلِهَا عَلَى دِينِ الْمَجُوسِيَّةِ وَفِيهِمْ
مُلُوكٌ مُتَعَدِّدُونَ وَبِهَذِهِ الْجَزَائِرِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَاءِ عَجَائِبُ ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغَرَفِيَّاتِ
وَعَلَى الضَّفَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الْيَمَنِ
كُلُّهَا فَمِنْ جِهَةِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ بِلَدُ زَبِيدَ وَالْمَهْجَمِ وَتِهَامَةَ الْيَمَنِ وَبَعْدَهَا بِلَدُ صَعْدَةَ مَقَرُّ
الإِمَامَةِ الزُّيْدِيَّةِ وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَعَنِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ وَفِيمَا بَعْدَ
ذَلِكَ مَدِينَةُ عَدَنَ وَفِي شَمَالِهَا صَنْغَاءُ وَبَعْدَهُمَا إِلَى الْمَشْرِقِ أَرْضُ الْأَخْقَافِ وَظَفَّارِ
وَبَعْدَهَا أَرْضُ حَضْرَمَوْتَ ثُمَّ بِلَادُ الشَّحْرِ مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَبَحْرِ فَارَسَ .
وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ هِيَ الَّتِي انْكَشَفَ عَنْهَا الْبَحْرُ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْإِقْلِيمِ
الْوُسْطَى وَيَنْكَشِفُ بَعْدَهَا قَلِيلٌ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ وَأَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ الْعَاشِرِ فِيهِ أَعَالِي
بِلَادِ الصِّينِ وَمِنْ مَدَنِهِ الشَّهِيرَةِ خَانِكُو وَقَبَالَتَهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَزَائِرُ السَّيْلَانِ وَقَدْ
تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا وَهَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ
بِعَمَلِهِ وَفَضْلِهِ .

الإِقْلِيمُ الثَّانِي ، وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْأَوَّلِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَقَبَالَةَ الْمَغْرِبِ مِنْهُ فِي
الْبَحْرِ الْمُحِيطِ جَزِيرَتَانِ مِنَ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ
وَالثَّانِي مِنْهُ فِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى مِنْهُمَا أَرْضُ قَنُورِيَّةَ وَبَعْدَهَا فِي جِهَةِ الشَّرْقِ أَعَالِي
أَرْضِ غَانَةَ ثُمَّ مَجَالَاتُ زَغَاوَةَ مِنَ السُّودَانِ وَفِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ مِنْهُمَا صَحْرَاءُ نِسْتَرِ
مُتَّصِلَةٌ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ ذَاتُ مَفَاوِزَ تَسْلُكُ فِيهَا التُّجَّارُ مَا بَيْنَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ
وَبِلَادِ السُّودَانِ وَفِيهَا مَجَالَاتُ الْمُكَلِّمِينَ مِنْ صِنْهَاجَةَ وَهُمْ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ مَا بَيْنَ
كَزُولَةَ وَلَمْتُونَةَ وَمَسْرَاتَةَ وَلَمْطَةَ وَوَرِيكََةَ وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْمَفَاوِزِ شَرْقًا أَرْضُ فَرْزَانَ
ثُمَّ مَجَالَاتُ أَرْكَارَ^(١) مِنْ قِبَائِلِ الْبَرْبَرِ ذَاهِبَةً إِلَى أَعَالِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ عَلَى سَمْتِهَا فِي
الشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّالِثِ وَهِيَ جِهَةُ الشَّمَالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وُدَّانَ وَعَلَى
سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ سِنْتَرِيَّةَ وَتُسَمَّى الْوَاحَاتِ الدَّاخِلَةُ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ أَعْلَاهُ

(١) وفي بعض النسخ اركار .

بَقِيَّةُ أَرْضِ الْبَاجَوِيِّينَ ثُمَّ يَغْتَرِضُ فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ الصُّعَيْدِ خَافَاتُ النَّيْلِ
الذَّاهِبِ مِنْ مَبْدَاهِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى مَضْيَعِهِ فِي الْبَحْرِ فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ
الْجَبَلَيْنِ الْحَاجِزَيْنِ وَهُمَا جَبَلُ الْوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِيهِ وَجَبَلُ الْمُقَطِّمِ مِنْ شَرْقِيهِ وَعَلَيْهِ
مِنْ أَغْلَاهُ بِلَادُ أَسْنَا وَأَزْمَنْتَ وَيَتَّصِلُ كَذَلِكَ خَافَاتُهُ إِلَى أَسْيُوطَ وَقُوصٍ ثُمَّ إِلَى صُولِ
وَيَفْتَرِقُ النَّيْلُ هُنَاكَ عَلَى شُعْبَتَيْنِ يَنْتَهِي الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِي هَذَا الْجُزْءِ عِنْدَ اللَّاهُونِ
وَالْأَيْسَرُ عِنْدَ دِلَاصٍ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِي دِيَارِ مِصْرَ وَفِي الشَّرْقِ مِنْ جَبَلِ الْمُقَطِّمِ
صَحَارَى عِيذَابٍ ذَاهِبَةٌ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ السُّوَيْسِ وَهُوَ بَحْرُ
الْقَلْزَمِ الْهَاطِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَفِي غُدُوَّتِهِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ
هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ الْحِجَازِ مِنْ جَبَلٍ يَلْمَلَمُ إِلَى بِلَادٍ يَثْرِبُ فِي وَسْطِ الْحِجَازِ مَكَّةُ شَرْفُهَا
اللَّهُ فِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جَدَّةٌ تُقَابِلُ بِلَادَ عِيذَابٍ فِي الْغُدُوَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ .
وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ غَرْبِيهِ بِلَادُ نَجْدٍ أَغْلَاهَا فِي الْجَنُوبِ وَتَبَالُهُ وَجَرَشُ إِلَى عَكَاظِ
مِنَ الشَّمَالِ وَتَحْتَ نَجْدٍ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْحِجَازِ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّرْقِ
بِلَادُ نَجْرَانَ وَخَيْبَرَ وَتَحْتَهَا أَرْضُ الْيَمَامَةِ وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فِي الشَّرْقِ أَرْضُ سَبَأَ
وَمَارِبَ ثُمَّ أَرْضُ الشُّحْرِ وَيَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ الْبَحْرُ الثَّانِي الْهَاطِطُ مِنَ الْبَحْرِ
الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّمَالِ كَمَا مَرَّ وَيَذْهَبُ فِي هَذَا الْجُزْءِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الْغَرْبِ فَيَمُرُّ مَا بَيْنَ
شَرْقِيهِ وَجُوفِيهِ قِطْعَةً مُثَلَّثَةً عَلَيْهَا مِنْ أَغْلَاهُ مَدِينَةُ قَلْهَاتٍ وَهِيَ سَاحِلُ الشُّحْرِ ثُمَّ
تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ بِلَادُ عُمَانَ . ثُمَّ بِلَادُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجَرُ مِنْهَا فِي آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي
الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْ غَرْبِيهِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ فَارِسَ تَتَّصِلُ بِالْقِطْعَةِ الْأُخْرَى فِي
السَّادِسِ وَيَغْمُرُ بَحْرُ الْهِنْدِ جَانِبَهُ الْأَعْلَى كُلُّهُ وَعَلَيْهِ هُنَاكَ بِلَادُ السُّنْدِ إِلَى بِلَادِ
مَكْرَانَ وَيَقَابِلُهَا بِلَادُ الطُّوْبَرَانَ وَهِيَ مِنَ السُّنْدِ أَيْضاً فَيَتَّصِلُ السُّنْدُ كُلُّهُ فِي الْجَانِبِ
الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَتَحُولُ الْمَفَاوِزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ الْهِنْدِ وَيَمُرُّ فِيهِ نَهْرُهُ الْآتِي
مِنْ نَاحِيَةِ بِلَادِ الْهِنْدِ وَيَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ وَأَوَّلُ بِلَادِ الْهِنْدِ عَلَى
سَاحِلِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقاً بِلَادُ بَلَهْرَا وَتَحْتَهَا الْمَلْتَانُ بِلَادُ الصَّنَمِ

الْمُعْظَمُ عِنْدَهُمْ ، ثُمَّ إِلَى أَسْفَلَ مِنَ السَّنْدِ ، ثُمَّ إِلَى أَعَالِي بِلَادِ سَجِسْتَانَ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِيَّةِ بَقِيَّةِ بِلَادِ بَلَهَرَا مِنَ الْهِنْدِ ، وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ الْقَنْدَهَارِ ، ثُمَّ بِلَادُ مَنِيْبَارَ وَفِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَتَحْتِهَا فِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ أَرْضُ كَابِلَ وَبَعْدَهَا شَرْقًا إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ بِلَادُ الْقُنُوجِ مَا بَيْنَ قَشْمِيرِ الدَّاخِلَةِ وَقَشْمِيرِ الْخَارِجَةِ عِنْدَ آخِرِ الْإِقْلِيمِ وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ الْهِنْدِ الْأَقْصَى وَيَتَّصِلُ فِيهِ إِلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ فَيَتَّصِلُ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى الْعَاشِرِ وَتَبْقَى فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الْجَانِبِ قِطْعَةً مِنْ بِلَادِ الصِّينِ فِيهَا مَدِينَةُ شِيغُونِ ثُمَّ تَتَّصِلُ بِلَادُ الصِّينِ فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ التَّوْفِيقُ وَهُوَ وَلِيُّ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ .

الْإِقْلِيمُ الثَّلَاثُ ، وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ فِيهِ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ وَعَلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ أَعْلَاهُ جَبَلٌ دَرَنُ مُعْتَرِضٌ فِيهِ مِنْ غَرْبِيَّةِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى الشَّرْقِ عِنْدَ آخِرِهِ وَيَسْكُنُ هَذَا الْجَبَلُ مِنَ الْبَرْبَرِ أُمَّمٌ لَا يُخَصِّصُهُمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ حَسَبَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ وَفِي الْقِطْعَةِ الَّتِي بَيْنَ هَذَا الْجَبَلِ وَالْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا رِبَاطٌ مَاسَّةٌ وَيَتَّصِلُ بِهِ شَرْقًا بِلَادُ سَوْسُ وَنُولُ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ دَرْعَةُ ثُمَّ بِلَادُ سَجِلْمَاشَةَ ثُمَّ قِطْعَةٌ مِنْ صَخْرَاءِ نَشْتَرِ الْمَفَازَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَهَذَا الْجَبَلُ مُطْلُ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ كُلِّهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ وَهُوَ قَلِيلُ الثَّنَائِيَا وَالْمَسَالِكِ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَى أَنْ يُسَامِتَ وَادِي مَلُوءِيَّةَ فَتَكْثُرُ ثَنَائِيَاهُ وَمَسَالِكُهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ وَفِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ مِنْهُ أُمَّمٌ الْمَصَامِدَةُ ثُمَّ هَنْتَانَةُ ثُمَّ تَيْنَمَلَكُ ثُمَّ كَذِمِيوَهُ ثُمَّ مَشْكُورَةُ وَهُمْ آخِرُ الْمَصَامِدَةِ فِيهِ ثُمَّ قَبَائِلُ صِنْهَاكَةَ وَهُمْ صِنْهَاجَةَ وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْهُ بَعْضُ قَبَائِلِ زَنَاتَةَ وَيَتَّصِلُ بِهِ هُنَالِكَ مِنْ جَوْفِيَّةِ جَبَلِ أَوْرَاسَ وَهُوَ جَبَلٌ كُتَامَةٌ وَبَعْدَ ذَلِكَ أُمَّمٌ أُخْرَى مِنَ الْبَرَابِرَةِ نَذَكْرَهُمْ فِي أَمَاكِينِهِمْ . ثُمَّ إِنَّ جَبَلَ دَرَنَ هَذَا مِنْ جِهَةِ غَرْبِيَّةِ مُطْلُ عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَهِيَ فِي جَوْفِيَّةِ فِيهِ

النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهَا بِلَادُ مَرَائِشَ وَأَغَمَاتٍ وَتَادِلًا^(١) وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا رِبَاطُ أَسْفَى وَمَدِينَةُ سَلَا وَفِي الْجَوْفِ عَنْ بِلَادِ مَرَائِشَ بِلَادُ فَاسٍ وَمَكْنَسَةُ وَتَارَا وَقَصْرُ كَتَامَةٍ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى فِي عَرَفِ أَهْلِهَا وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا بِلَدَانُ أُصَيْلَا وَالْعَرَائِشَ وَفِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ وَقَاعِدَتَهَا ثُلُمُسَانُ وَفِي سَوَاحِلِهَا عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ بِلَدُ هَنِينَ وَوَهْرَانُ وَالْجَزَائِرُ لِأَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الرُّومِيَّ يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْ خَلِيجِ طَنْجَةَ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَشْرِقًا فَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ الشَّامِ فَإِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلِيجِ الْمُتَضَائِقِ غَيْرَ يَمِيدٍ أَنْفَسَحَ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَدَخَلَ فِي الْإِقْلِيمِ

الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ فَلِهَذَا كَانَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ الْكَثِيرُ مِنْ بِلَادِهِ ثُمَّ يَتَّصِلُ بِبِلَادِ الْجَزَائِرِ مِنْ شَرْقِيَّهَا بِلَادُ بَجَايَةَ فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ ثُمَّ قُسْطَنْطِينِيَّةُ فِي الشَّرْقِ مِنْهَا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَعَلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي جَنُوبِيَّ هَذِهِ الْبِلَادِ وَمُرْتَفَعًا إِلَى جَنُوبِ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ بِلَدُ أُشِيرَ ثُمَّ بِلَدُ الْمَسِيلَةِ ثُمَّ الزَّابُ وَقَاعِدَتُهُ بِسَكْرَةٍ تَحْتَ جَبَلِ أَوْرَاسِ الْمُتَّصِلِ بِدَرَنْ كَمَا مَرَّ وَذَلِكَ عِنْدَ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَالْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عَلَى هَيْئَةِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ثُمَّ جَبَلُ دَرَنْ عَلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ جَنُوبِهِ ذَاهِبًا فِيهِ مِنْ غَرْبٍ إِلَى شَرْقٍ فَيَقْسِمُهُ بِقِطْعَتَيْنِ وَيَتَعَمَّرُ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ مَسَافَةً مِنْ شَمَالِهِ فَالْقِطْعَةُ الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ غَرْبِيَّهَا كُلُّهُ مَفَاوِزُ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بِلَدُ عَذَامَسَ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ وَدَّانِ الَّتِي بَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي كَمَا مَرَّ وَالْقِطْعَةُ الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْغَرْبِ مِنْهَا جَبَلُ أَوْرَاسِ وَتَبَسَةُ وَالْأَوْبَسُ وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بِلَدُ بُونَةِ ثُمَّ فِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ أَفْرِيقِيَّةَ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مَدِينَةُ تُونَسَ ثُمَّ السُّوسَةُ ثُمَّ الْمَهْدِيَّةُ وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ تَحْتَ جَبَلِ دَرَنْ بِلَادُ الْخَرِيدِ تَوَزُّزُ وَقَفْصَةُ وَنَفْرَاوَةُ وَفِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السُّوَاكِحِلِ مَدِينَةُ الْفَيْرَوَانِ وَجَبَلُ وَسَلَاتٍ وَسَيْبِلَةُ وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ وَقَدْ ذَكَرَهَا يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ فِي مَعْجَمِهِ تَادِلَةً .

كُلُّهَا شَرْقًا بَلَدٌ طَرَابُلُسَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَبِلَازَائِهَا فِي الْجَنُوبِ جَبَلٌ دُمَرٌ وَتَقَرُّ
 مِنْ قَبَائِلِ هَوَارَةَ مُتَّصِلَةٌ بِجَبَلِ دَرَنْ وَفِي مُقَابِلَةِ غَدَامِسَ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي آخِرِ
 الْقِطْعَةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَآخِرُ هَذَا الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ سَوِيقَةُ ابْنِ مَشْكُورَةَ عَلَى الْبَحْرِ وَفِي
 جَنُوبِهَا مَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِي أَرْضِ وَدَّانَ وَفِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ يَمُرُّ أَيْضًا
 فِيهِ جَبَلٌ دَرَنْ إِلَّا أَنَّهُ يَنْعَطِفُ عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ
 يَدْخُلَ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ طَرَفَ أَوْتَانَ وَالْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنْ شَمَالِيهِ
 يَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى أَنْ يُضَاقَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنْ فَالَّذِي وَرَاءَ الْجَبَلِ فِي
 الْجَنُوبِ وَفِي الْعَرَبِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانَ . وَمَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِيهَا ثُمَّ زُوَيْلَةُ ابْنِ
 خَطَّابٍ ثُمَّ رِمَالٌ وَقَفَّارٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ وَفِيمَا بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ فِي الْعَرَبِ
 مِنْهُ بَلَدٌ سَرَتْ عَلَى الْبَحْرِ ثُمَّ خَلَاءٌ وَقَفَّارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ ثُمَّ أَجْدَابِيَّةٌ ثُمَّ بَرْقَةُ عِنْدَ
 مُنْعَطِفِ الْجَبَلِ ثُمَّ طَلَمَسَةُ عَلَى الْبَحْرِ هُنَالِكَ ثُمَّ فِي شَرْقِ الْمُنْعَطِفِ مِنَ الْجَبَلِ
 مَجَالَاتُ هَيْبٍ وَرَوَاحَةُ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي الْأَعْلَى
 مِنْ غَرْبِيهِ صَحَارَى بَرْزِيقٍ وَأَسْفَلُ مِنْهَا بِلَادُ هَيْبٍ وَرَوَاحَةُ ثُمَّ يَدْخُلُ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ
 فِي هَذَا الْجُزْءِ فَيَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يُزَاحِمَ طَرَفَهُ الْأَعْلَى وَيَبْقَى بَيْنَهُ
 وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ قَفَّارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ الْفَيُومِ وَهِيَ عَلَى
 مَصَبِّ أَحَدِ الشَّعْبَيْنِ مِنَ النَّيْلِ ^(١) الَّذِي يَمُرُّ عَلَى اللَّاهُوتِ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ فِي الْجُزْءِ
 الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَيَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ فَيُومٍ ^(٢) وَعَلَى سَمْتِهِ شَرْقًا أَرْضُ مِصْرَ
 وَمَدِينَتُهَا الشَّهِيرَةُ عَلَى الشَّعْبِ الثَّانِي الَّذِي يَمُرُّ بِدِلَاصٍ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ عِنْدَ آخِرِ
 الْجُزْءِ الثَّانِي وَيَفْتَرِقُ هَذَا الشَّعْبُ اقْتِرَاقَةً ثَانِيَةً مِنْ تَحْتِ مِصْرَ عَلَى شَعْبَيْنِ آخَرَيْنِ
 مِنْ شَطْنُوفٍ وَزَفْتِي وَيَنْقَسِمُ الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا مِنْ قَرْمُطٍ بِشَعْبَيْنِ آخَرَيْنِ وَيَصُبُّ

(١) يقصد به بحر يوسف الذي يأخذ مياهه من ترعة الإبراهيمية عند ديروط . ويمر بمدينة دياريات

أسيوط والنيليا وبني سويف والفيوم (عن نسخة لجنة البيان العربي) .

(٢) يقصد بها بحيرة قارون . وهي المشهورة في التاريخ باسم « بحيرة موريس » (عن نسخة لجنة البيان

العربي) .

جَمِيعُهَا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فَعَلَى مَصَبِّ الْغَرِيبِيِّ مِنْ هَذَا الشَّعْبِ بَلَدُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ
 وَعَلَى مَصَبِّ الْوَسْطِ بَلَدُ رَشِيدَ وَعَلَى مَصَبِّ الشَّرْقِيِّ بَلَدُ دَمِيَاطَ وَبَيْنَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ
 وَبَيْنَ هَذِهِ السَّوَاكِحِ الْبَحْرِيَّةِ أَسَافِلُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ كُلُّهَا مَخْشُوءَةٌ عَمْرَانًا وَقَلْجًا^(١)
 وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الشَّامِ وَأَكْثَرُهَا عَلَى مَا أَصِفُ وَذَلِكَ لِأَنَّ
 بَحْرَ الْقَلْزَمِ يَنْتَهِي مِنَ الْجَنُوبِ وَفِي الْغَرْبِ مِنْهُ عِنْدَ السُّوَيْسِ لِأَنَّهُ فِي مَمَرِهِ مُبْتَدِئٌ
 مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّمَالِ يَنْعَطِفُ أَخْذًا إِلَى جِهَةِ الْغَرْبِ فَتَكُونُ قِطْعَةٌ مِنْ
 أَنْعَاطِهِ فِي الْجُزْءِ طَوِيلَةً فَيَنْتَهِي فِي الطَّرَفِ الْغَرِيبِيِّ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ وَعَلَى هَذِهِ
 الْقِطْعَةِ بَعْدَ السُّوَيْسِ فَارَانُ ثُمَّ جَبَلُ الطُّورِ ثُمَّ أَيْلَةُ مَذِينِ ثُمَّ الْخَوْرَاءُ فِي آخِرِهَا وَمِنْ
 هُنَالِكَ يَنْعَطِفُ بِسَاحِلِهِ إِلَى الْجَنُوبِ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَمَا مَرَّ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي فِي
 الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
 غَمَرَتْ كَثِيرًا مِنْ غَرْبِيَّةِ عَلَيْهَا الْقُرْمَا وَالْعَرِيشُ وَقَارِبَ طَرَفِهَا بَلَدُ الْقَلْزَمِ فَيَضَاقُ
 مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَالِكَ وَبَقِيَ شِبْهُ الْبَابِ مُفْضِيًا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ وَفِي غَرْبِيِّ هَذَا الْبَابِ
 فَحْصُ التِّيهِ أَرْضُ جَرْدَاءَ لَا تَنْبُتُ كَانَتْ مَجَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ
 مِصْرَ وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى الشَّامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً كَمَا قُصَّةُ الْقُرْآنِ وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنَ
 الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي هَذَا الْجُزْءِ طَائِفَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ قَبْرُصَ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ كَمَا
 نَذَرْتُ وَعَلَى سَاحِلِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ عِنْدَ الطَّرَفِ الْمُتَضَاقِ لِبَحْرِ السُّوَيْسِ بَلَدُ الْعَرِيشِ
 وَهُوَ آخِرُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَعَسْقلَانُ وَبَيْنَهُمَا طَرَفُ هَذَا الْبَحْرِ ثُمَّ تَنْحَطُّ هَذِهِ الْقِطْعَةُ
 فِي أَنْعَاطِهَا مِنْ هُنَالِكَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُلُسَ وَغَزَّةَ وَهُنَالِكَ يَنْتَهِي الْبَحْرُ
 الرُّومِيُّ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ أَكْثَرُ سَوَاكِحِ الشَّامِ فِيهِ شَرْقِيَّةُ غَزَّةَ ثُمَّ
 عَسْقلَانُ وَبِأَنْحَرَافٍ يَسِيرُ عَنْهَا إِلَى الشَّمَالِ بَلَدُ قَيْسَارِيَّةَ ثُمَّ كَذَلِكَ بَلَدُ عَكَّاءَ ثُمَّ
 صُورُ ثُمَّ صَيْدَاءَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ الْبَحْرُ إِلَى الشَّمَالِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَقَابِلُ هَذِهِ الْبِلَادَ
 السَّاحِلِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةَ مِنْ بَحْرِ

(١) وفي بعض النسخ خلجاً ، جمع خليج . والفليج الشق في الأرض الزراعة (قاموس)

الْقَلْزُومُ وَيَذْهَبُ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُنْحَرِفًا إِلَى الشَّرْقِ إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ هَذَا الْجُزْءَ وَيُسَمَّى جَبَلُ اللَّكَّامِ وَكَأَنَّهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ فَفِي طَرَفِهِ عِنْدَ أَيْلَةَ الْعَقْبَةِ الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا الْحُجَّاجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ بَعْدَهَا فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مَدْفُنُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ السَّرَاةِ يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ جَبَلِ اللَّكَّامِ الْمَذْكُورِ مِنْ شَمَالِ الْعَقْبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ الشَّرْقِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلًا وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ بَلَدُ الْحَجَرِ وَدِيَارُ ثُمُودَ وَتِيْمَاءَ وَدُومَةَ الْجَنْدَلِ وَهِيَ أَسْفَلُ الْحِجَارِ وَفَوْقَهَا جَبَلُ رِضْوَى

وَحُصُونُ خَيْبَرَ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ عَنْهَا وَفِيمَا بَيْنَ جَبَلِ السَّرَاةِ وَبَحْرِ الْقَلْزُومِ صَخْرَاءُ تَبُوكَ وَفِي شَمَالِ جَبَلِ السَّرَاةِ مَدِينَةُ الْقُدْسِ عِنْدَ جَبَلِ اللَّكَّامِ ثُمَّ الْأَزْدُنُ ثُمَّ طَبْرِيَّةُ وَفِي شَرْقِيَّهَا بِلَادُ الْغُورِ إِلَى أَذْرُعَاتٍ وَفِي سَمْتِهَا دُومَةُ الْجَنْدَلِ آخِرُ هَذَا الْجُزْءِ وَهِيَ آخِرُ الْحِجَارِ . وَعِنْدَ مُنْعَطِفِ جَبَلِ اللَّكَّامِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مَدِينَةُ دِمَشْقَ مُقَابِلَةَ صَيْدَا وَبَيْرُوتَ مِنَ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ وَجَبَلُ اللَّكَّامِ يَفْتَرِضُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا وَعَلَى سَمْتِ دِمَشْقَ فِي الشَّرْقِ مَدِينَةُ بَغْلَبَكُ ثُمَّ مَدِينَةُ حِمَصَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ آخِرُ الْجُزْءِ عِنْدَ مُنْقَطِعِ جَبَلِ اللَّكَّامِ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بَغْلَبَكُ وَحِمَصَ بَلَدٌ تَذْمُرُ وَمَجَالَاتُ الْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ أَعْلَاهُ مَجَالَاتُ الْأَغْرَابِ تَحْتَ بِلَادِ نَجْدٍ وَالْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعُرْجِ وَالصُّمَّانِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرٌ عَلَى بَحْرِ فَارَسَ وَفِي أَسْفَلِ هَذَا الْجُزْءِ تَحْتَ الْمَجَالَاتِ بَلَدُ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَمَغَايِضُ الْفُرَاتِ . وَفِيمَا بَعْدَهَا شَرْقًا مَدِينَةُ الْبُصْرَةِ وَفِي هَذَا الْجُزْءِ يَنْتَهِي بَحْرُ فَارَسَ عِنْدَ عَبَادَانَ وَالْأُبْلَةَ مِنْ أَسْفَلِ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ عَبَادَانَ نَهْرٌ دَجَلَةٌ بَعْدَ أَنْ يَنْقَسِمَ بِجَدَاوِلَ كَثِيرَةٍ وَتَخْتَلِطُ بِهِ جَدَاوِلُ أُخْرَى مِنَ الْفُرَاتِ ثُمَّ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا عِنْدَ عَبَادَانَ وَتَصُبُّ فِي بَحْرِ فَارَسَ وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْبَحْرِ مُتَّسِقَةٌ فِي أَعْلَاهُ مُتَّصِقَةٌ فِي آخِرِهِ فِي شَرْقِيَّهِ وَضِيقَةٌ عِنْدَ مُنْتَهَاهُ مُتَّصِقَةٌ لِلْحَدِّ الشَّمَالِيِّ مِنْهُ وَعَلَى غُدُوتِهَا الْغَرِيبَةُ مِنْهُ أَسْفَلُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرٌ وَالْإِحْسَاءُ وَفِي غَرْبِهَا أَخْطَبُ وَالصُّمَّانُ وَبَقِيَّةُ أَرْضِ الْيَمَامَةِ وَعَلَى غُدُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ سَوَاحِلُ فَارَسَ مِنْ أَعْلَاهَا وَهُوَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّرْقِ

على طرفٍ قد امتدَّ من هذا البحرِ مُشرقاً ووراءَهُ إلى الجنُوبِ في هذا الجزءِ جبالُ القفصِ من كرمانَ وتحتَ هرمِزٍ على الساحلِ بِلَدِ سِرافَ ونَجِرمَ على ساحلِ هذا البحرِ وفي شَرْقيهِ إلى آخرِ هذا الجزءِ وتحتَ هرمِزٍ بِلادُ فارسَ مثلُ سابورَ ودارُ أبجرَدَ ونَساَ واضطخَرَ والشاهجانَ وشيرازَ وهي قاعدَتُها كُلُّها وتحتَ بِلادِ فارسَ إلى الشَّمالِ عندَ طرفِ البحرِ بِلادُ خُودستانَ ومنها الأهوازُ وتشتُرُ وصدىَ وسابورُ والسُوسُ ورامَ هرمِزَ وغيرها وأرجانُ وهي حدُّ ما بينَ فارسَ وخُودستانَ وفي شَرْقيِّ بِلادِ خُوزستانَ جبالُ الأكرادِ مُتصلةٌ إلى نواحيِ أَصْبَهانَ وبها مَساكِنُهُمْ ومَجالاتُهُمْ ورَءِها في أرضِ فارسَ وتسمى الرُسومُ . وفي الجزءِ السَّابعِ في الأعلى مِنْهُ مِنَ المَغْرِبِ بَقِيَّةُ جِبالِ القفصِ وَيَلِيها مِنَ الجنُوبِ والشَّمالِ بِلادُ كُرمانَ ومَكْرانَ وَمِنْ مَدَنِها الرُودنَ والشَّيرجانَ ^(١) وجيرفتَ وَيَزْدَشِيرَ والبَهْرَجَ وتحتَ أرضِ كُرمانَ إلى الشَّمالِ بَقِيَّةُ بِلادِ فارسَ إلى حُدُودِ أَصْبَهانَ ومَدِينَةُ أَصْبَهانَ ^(٢) في طرفِ هذا الجزءِ ما بينَ غَرْبِهِ وشَمالِهِ ثُمَّ في المَشْرِيقِ عَن بِلادِ كُرمانَ وبِلادِ فارسَ أرضُ سِجستانَ وكُوهستانَ ^(٣) في الجنُوبِ وأرضُ كُوهستانَ في الشَّمالِ عَنها وَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ كُرمانَ وفارسَ وَبَيْنَ سِجستانَ وكُوهستانَ وفي وَسَطِ هذا الجزءِ المَفارِزُ العُظْمى القَلِيلَةُ المَسالِكُ لِصُغُوتِها وَمِنْ مَدَنِ سِجستانَ بَسْتُ والطَّاقُ وأما كُوهستانَ فَهِيَ مِنْ بِلادِ خُراسانَ وَمِنْ مَشاهيرِ بِلادِها سَرْخُسُ وقُوهستانَ آخِرُ الجزءِ . وفي الجزءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَجنُوبِهِ مَجالاتُ الحَلِجِ مِنْ أَمَمِ التُّركِ مُتصلةٌ بِأَرْضِ سِجستانَ مِنْ غَرْبِها وبِأَرْضِ كابلِ الهِنْدِ مِنْ جَنُوبِها . وفي الشَّمالِ عَن هَذِهِ المَجالاتِ جِبالُ الغُورِ وبِلادِها وقاعدَتُها غَزَنَةُ فَرُضَةُ الهِنْدِ وفي آخِرِ الغُورِ مِنَ الشَّمالِ بِلادُ أَستَرابادَ ثُمَّ في الشَّمالِ غَرْباً إلى آخِرِ الجزءِ . بِلادُ هَرَاةِ أوسَطُ خُراسانَ وبِها أَسفَرائِنُ وقاشانُ وبُوشنجُ ومَرُو الرُودَ والطَّالِقانَ والجُوزجانَ وتَنتهِي خُراسانُ هُنالِكَ إلى نَهْرِ

(١) لم نَعثرَ على شيرجانَ في معجمِ البلدانَ ولكن وجدنا سِرجانَ ونَعْتقدُ أَنها المَقصُودَةُ .

(٢) هي مَدِينَةُ أَصْبَهانَ اليَومِ .

(٣) ذَكَرَها ياقوتُ الجُمُوي في معجمِهِ « قُوهستانَ » .

جِيحُونَ . وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ مِنْ غَرْبِيهِ مَدِينَةُ بَلْخَ وَفِي شَرْقِيهِ
مَدِينَةُ تَرْمُذَ وَمَدِينَةُ بَلْخَ كَانَتْ كُرْسَى مَمْلَكَةِ التُّرْكِ وَهَذَا النَّهْرُ نَهْرُ جِيحُونَ
مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَجَارٍ فِي حُدُودِ بَذَخْشَانَ مِمَّا يَلِي الْهِنْدَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَنُوبِ هَذَا
الْجُزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ الشَّرْقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبِ مُغْرَبًا إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى
هُنَالِكَ نَهْرَ خَرْنَابَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَاسَانَ وَيَذْهَبَ عَلَى سَمْتِهِ
إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي بَحِيرَةِ خَوَازَرَمَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كَمَا نَذَكُرُهُ وَيُمِدُّهُ عِنْدَ انْعِطَافِهِ
فِي وَسْطِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ عَظِيمَةٍ مِنْ بِلَادِ الْخَتَلِ
وَالْوُخْشِ مِنْ شَرْقِيهِ وَأَنْهَارٌ أُخْرَى مِنْ جِبَالِ الْبَتَمِ مِنْ شَرْقِيهِ أَيْضًا وَجَوْفِي الْجَبَلِ
حَتَّى يَتَسَّعَ وَيَعْظُمَ بِمَا لَا كِفَاءَ ^(١) لَهُ وَمِنْ هَذِهِ الْأَنْهَارِ الْخَمْسَةِ الْمُمِدَّةُ لَهُ نَهْرُ
وُخْشَابَ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ التَّبَّتِ وَهِيَ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فَيَمُرُّ
مُغْرَبًا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا
الْجُزْءِ يَغْتَرِضُهُ فِي طَرِيقِهِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَمُرُّ مِنْ وَسْطِ الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ وَيَذْهَبُ
مُشْرِقًا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا
الْجُزْءِ فَيَجُوزُ بِلَادَ التَّبَّتِ إِلَى الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَحُولُ بَيْنَ
التُّرْكِ وَبَيْنَ بِلَادِ الْخَتَلِ وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَسَلَكٌ وَاحِدٌ فِي وَسْطِ الشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
جَعَلَ فِيهِ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى سُدًّا وَبَنَى فِيهِ بَابًا كَسَدَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ فَإِذَا خَرَجَ
نَهْرُ وَخْشَابَ مِنْ بِلَادِ التَّبَّتِ وَاعْتَرَضَهُ هَذَا الْجَبَلُ فَيَمُرُّ تَحْتَهُ فِي مَدَى بَعِيدٍ إِلَى أَنْ
يَمُرَّ فِي بِلَادِ الْوُخْشِ وَيَصُبَّ فِي نَهْرِ جِيحُونَ عِنْدَ حُدُودِ بَلْخَ ثُمَّ يَمُرُّ هَاطِطًا إِلَى
التَّرْمُذِ فِي الشَّمَالِ إِلَى بِلَادِ الْجُوزْجَانِ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بِلَادِ الْغُورِ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ
نَهْرِ جِيحُونَ بِلَادُ النَّاسَانِ مِنْ خُرَاسَانَ وَفِي الْعُدُوةِ الشَّرْقِيَّةِ هُنَالِكَ مِنَ النَّهْرِ بِلَادُ
الْخَتَلِ وَأَكْثَرُهَا جِبَالٌ وَبِلَادُ الْوُخْشِ وَيَحُدُّهَا مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جِبَالُ الْبَتَمِ تَخْرُجُ
مِنْ طَرَفِ خُرَاسَانَ غَرْبِي نَهْرِ جِيحُونَ وَتَذْهَبُ مُشْرِقَةً إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ طَرَفُهَا
بِالْجَبَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي خَلْفَهُ بِلَادُ التَّبَّتِ وَيَمُرُّ تَحْتَهُ نَهْرُ وَخْشَابَ كَمَا قُلْنَا فَيَتَّصِلُ

(١) بمعنى لا مثيل له .

عِنْدَ بَابِ الْفَضْلِ بْنِ يَعْنَى وَيَمُرُّ نَهْرُ جِيحُونَ بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَأَنْهَارِ أُخْرَى
تَصُبُّ فِيهِ مِنْهَا نَهْرُ بِلَادِ الْوُخْشِ يَصُبُّ فِيهِ مِنَ الشَّرْقِ تَحْتَ التُّرْمُذِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ
وَنَهْرُ بَلَخٍ يَخْرُجُ مِنْ جِبَالِ الْبَتَمِ مَبْدَاهُ عِنْدَ الْجَوْزَجَانِ وَيَصُبُّ فِيهِ مِنْ غَرْبِيهِ وَعَلَى
هَذَا النَّهْرِ مِنْ غَرْبِيهِ بِلَادُ أَمِدٍ مِنْ خُرَاسَانَ وَفِي شَرْقِي النَّهْرِ مِنْ هُنَاكَ أَرْضُ الصُّغْدِ
وَأَسْرُوشَنَةُ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ فِرْعَانَةَ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَكُلُّ
بِلَادِ التُّرْكِ تَحْوِزُهَا جِبَالُ الْبَتَمِ إِلَى شَمَالِهَا وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ غَرْبِهِ أَرْضُ التَّنَبِتِ
إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ وَفِي جَنُوبِهَا بِلَادُ الْهِنْدِ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادُ الصِّينِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي
أَسْفَلِ هَذَا الْجُزْءِ شَمَالاً عَنْ بِلَادِ التَّنَبِتِ بِلَادُ الْخَزَلِجِيَّةِ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ إِلَى آخِرِ
الْجُزْءِ شَرْقاً وَشَمَالاً وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ غَرْبِهَا أَرْضُ فِرْعَانَةَ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً
وَمِنْ شَرْقِهَا أَرْضُ التُّغْرُغُرِ مِنَ التُّرْكِ إِلَى الْجُزْءِ شَرْقاً وَشَمَالاً . وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ فِي
الْجَنُوبِ مِنْهُ جَمِيعاً بَقِيَّةُ الصِّينِ وَأَسَافِلُهُ وَفِي الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ التُّغْرُغُرِ ثُمَّ شَرْقاً
عَنْهُمْ بِلَادُ خِرَخِيرٍ مِنَ التُّرْكِ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَفِي الشَّمَالِ مِنْ أَرْضِ
خِرَخِيرٍ بِلَادُ كَتْمَانَ مِنَ التُّرْكِ وَقِبَالَتَهَا فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ جَزِيرَةُ الْيَاقُوتِ فِي وَسْطِ
جَبَلٍ مُسْتَدِيرٍ لَا مَنَفَذَ مِنْهُ إِلَيْهَا وَلَا مَسْلَكَ وَالصُّعُودُ إِلَى أَغْلَاهُ مِنْ خَارِجِهِ صَعْبٌ فِي
الْغَايَةِ وَفِي الْجَزِيرَةِ حَيَاتٌ قَتَالَةٌ وَحَصَى مِنَ الْيَاقُوتِ كَثِيرَةٌ فَيَحْتَبَالُ أَهْلُ تِلْكَ
النَّاحِيَةِ بِمَا يُلْهِمُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ فِي هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ وَالْعَاشِرِ فِيمَا وَرَاءَ
خُرَاسَانَ وَالْجِبَالِ كُلِّهَا مَجَالَاتٌ لِلتُّرْكِ أُمَّةٌ لَا تُحْصَى وَهُمْ ظَوَاعِنُ رَحَالَةٍ أَهْلُ إِبِلٍ
وَشَاءٍ وَبَقَرٍ وَخَيْلٍ لِلنَّتَاجِ وَالرُّكُوبِ وَالْأَكْلِ وَطَوَائِفُهُمْ كَثِيرَةٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ
وَفِيهِمْ مُسْلِمُونَ مِمَّا يَلِي بِلَادَ النَّهْرِ نَهْرُ جِيحُونَ وَيَغْزُونَ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ الدَّائِنِينَ ^(١)
بِالْمَجُوسِيَّةِ فَيَبِيعُونَ رَقِيقَهُمْ لِمَنْ يَلِيهِمْ وَيَخْرُجُونَ إِلَى بِلَادِ خُرَاسَانَ وَالْهِنْدِ
وَالْعِرَاقِ

الإقليم الرابع : يتصل بالثالث من جهة الشمال . والجزء الأول منه في غربيه

(١) الذين يدينون بالمجوسية .

قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مُسْتَطِيلَةً مِنْ أَوَّلِهِ جَنُوبًا إِلَى آخِرِهِ شَمَالًا وَعَلَيْهَا فِي
 الْجَنُوبِ مَدِينَةُ طَنْجَةَ وَمِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ تَحْتَ طَنْجَةَ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى الْبَحْرِ
 الرُّومِيِّ فِي خَلِيجٍ مُتَضَايِقٍ بِمِقْدَارِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا مَا بَيْنَ طَرِيفِ وَالْجَزِيرَةِ
 الْخَضْرَاءِ شَمَالًا وَقَصْرِ الْمَجَازِ وَسَبْتَةَ جَنُوبًا وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى وَسْطِ
 الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَيَنْفَسِحُ فِي ذَهَابِهِ بِتَدْرِيجٍ إِلَى أَنْ يَغْمُرَ الْأَرْبَعَةَ
 الْأَجْزَاءَ وَأَكْثَرَ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَيُسَمَّى هَذَا
 الْبَحْرُ الْبَحْرُ الشَّامِيُّ أَيْضًا وَفِيهِ جَزَائِرٌ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُهَا فِي جِهَةِ الْغَرْبِ يَابِسَةٌ ثُمَّ
 مَا يَزِقُّ ثُمَّ مَرْقَةُ ثُمَّ سَرْدَانِيَّةٌ ثُمَّ صِقْلِيَّةٌ وَهِيَ أَكْثَرُهَا ثُمَّ بَلُونُسُ ثُمَّ أَقْرِيطُسُ ثُمَّ
 قَبْرُصُ كَمَا نَذْكُرُهَا كُلَّهَا فِي أَجْزَائِهَا الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيُّ
 عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْهُ وَفِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ الْبَنَادِقَةِ
 يَذْهَبُ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ عِنْدَ وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ جُوفِهِ وَيَمُرُّ مَغْرِبًا إِلَى أَنْ
 يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْخَامِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضًا فِي آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ شَرْقًا
 مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَمُرُّ فِي الشَّمَالِ مُتَضَايِقًا فِي عَرْضِ رَمِيَّةِ
 السُّهْمِ إِلَى آخِرِ الْإِقْلِيمِ ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ إِلَى
 بَحْرِ نِيطُسَ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ كُلِّهِ وَنِصْفِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
 السَّادِسِ كَمَا نَذْكُرُ ذَلِكَ فِي أَمَاكِينِهِ وَعِنْدَمَا يَخْرُجُ هَذَا الْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنَ الْبَحْرِ
 الْمُحِيطِ فِي خَلِيجِ طَنْجَةَ وَيَنْفَسِحُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ . يَبْقَى فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْخَلِيجِ
 قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا مَدِينَةُ طَنْجَةَ عَلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وَبَعْدَهَا مَدِينَةُ
 سَبْتَةَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ثُمَّ قَطَاوُنُ ثُمَّ بَادِيسُ ثُمَّ يَغْمُرُ هَذَا الْبَحْرُ بَقِيَّةَ هَذَا الْجُزْءِ
 شَرْقًا وَيَخْرُجُ إِلَى الثَّالِثِ وَأَكْثَرُ الْعِمَارَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي شَمَالِهِ وَشَمَالِ الْخَلِيجِ مِنْهُ
 وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ أَوَّلُهَا
 طَرِيفُ عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ الْجَزِيرَةُ
 الْخَضْرَاءُ ثُمَّ مَالِقَةُ ثُمَّ الْمَنْقَبُ ^(١) ثُمَّ الْمَرِيَّةُ وَتَحْتَ هَذِهِ مِنْ لَدُنِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا

(١) وفي بعض النسخ المنكب .

وَعَلَى مَقَرِّيَّةٍ مِنْهُ شَرِيشٌ ثُمَّ لَبْلَةٌ وَقَبَالَتُهَا فِيهِ جَزِيرَةٌ قَادِسٌ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ شَرِيشَ
وَلَبْلَةَ إِشْبِيلِيَّةٌ ثُمَّ اسْتَجَّةٌ وَقَرْطَبَةٌ وَمَدْيَلَةٌ ثُمَّ غَرْنَاطَةٌ وَجِيَّانٌ وَأُبْدَةٌ ثُمَّ وَاْدِيَّاشُ
وَبَسْطَةٌ وَتَحْتَ هَذِهِ شَنْتَمَرِيَّةٌ وَشَلْبٌ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا وَفِي الشَّرْقِ عَنْهُمَا
بَطْلْيُوسٌ وَمَارْدَةٌ وَيَا بَرَّةٌ ثُمَّ غَافِقٌ وَبَرْجَالَةٌ ثُمَّ قَلْعَةٌ رِيَّاحٌ وَتَحْتَ هَذِهِ أَشْبُونَةٌ عَلَى
الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا وَعَلَى نَهْرِ بَاجَةَ وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا شَنْتَرِينٌ وَمَوْزِيَّةٌ عَلَى النَّهْرِ
الْمَذْكُورِ ثُمَّ قَنْطَرَةُ السَّيْفِ وَيُسَامِتُ أَشْبُونَةٌ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَبَلُ الشَّارَاتِ يَبْدَأُ مِنَ
الْمَغْرِبِ هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا مَعَ آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِيهِ فَيَنْتَهِي إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ
فِيهَا بَعْدَ النِّصْفِ مِنْهُ وَتَحْتَ هَذَا الْجَبَلِ طَلْبِيرَةٌ فِي الشَّرْقِ مِنْ فُورَنَةٍ ثُمَّ طَلِيلْطَلَةٌ ثُمَّ
وَاْدِي الْحِجَارَةِ ثُمَّ مَدِينَةُ سَالِمٍ وَعِنْدَ أَوَّلِ هَذَا الْجَبَلِ فِيهَا بَيْنُهُ وَبَيْنَ أَشْبُونَةٍ بَلَدٌ
قَلْمَرِيَّةٌ وَهَذِهِ غَرْبِي الْأَنْدَلُسِ . وَأَمَّا شَرْقِي الْأَنْدَلُسِ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
مِنْهَا بَعْدَ الْمَرْيَةِ قَرْطَاجَنَةُ ثُمَّ لَفْتَةٌ ثُمَّ دَانِيَّةٌ ثُمَّ بَلَنْسِيَّةٌ إِلَى طَرْطُوشَةٍ آخِرِ الْجُزْءِ فِي
الشَّرْقِ . وَتَحْتَهَا شَمَالًا لِيُورْقَةُ وَشَقُورَةُ تَتَاخِمَانِ بَسْطَةٌ وَقَلْعَةٌ رِيَّاحٌ مِنْ غَرْبِ
الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ مَرْسِيَّةٌ شَرْقًا ثُمَّ شَاطِبَةٌ تَحْتَ بَلَنْسِيَّةٍ شَمَالًا ثُمَّ شَقَرٌ ثُمَّ طَرْطُوشَةٌ ثُمَّ
طَرْكُونَةُ آخِرِ الْجُزْءِ ثُمَّ تَحْتَ هَذِهِ شَمَالًا أَرْضٌ مِنْجَالَةٌ وَرَيْدَةٌ مُتَاخِمَانِ لِشَقُورَةٍ
وَطَلِيلْطَلَةٍ مِنَ الْغَرْبِ ثُمَّ أَقْرَاغَةُ شَرْقًا تَحْتَ طَرْطُوشَةٍ وَشَمَالًا عَنْهَا ثُمَّ فِي الشَّرْقِ عَنْ
مَدِينَةِ سَالِمٍ قَلْعَةُ أَيُوبَ ثُمَّ سِرْقَسْطَةُ ثُمَّ لَارْدَةٌ ^(١) آخِرُ الْجُزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا . وَالْجُزْءُ
الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَمَرُ الْمَاءِ جَمِيعُهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنْ غَرْبِيهِ فِي الشَّمَالِ فِيهَا بَقِيَّةُ
جَبَلِ الْبَرْزَنَاتِ وَمَغْنَاءُ جَبَلِ الثَّنَائِيَا وَالسَّالِكُ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ
الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ يَبْدَأُ مِنَ الطَّرَفِ الْمُنْتَهِي مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عِنْدَ آخِرِ ذَلِكَ الْجُزْءِ
جَنُوبًا وَشَرْقًا وَيَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ
مُنْخَرِفًا عَنْ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الثَّانِي فَيَقَعُ فِيهِ قِطْعَةٌ مِنْهُ تَفْضِي ثَنَائِيَا
إِلَى الْبَرِّ الْمُتَّصِلِ وَتَسْمَى أَرْضُ عَشْكَوْنِيَّةٍ وَفِيهِ مَدِينَةٌ خَرِيدَةٌ وَقَرْشُونَةٌ وَعَلَى سَاحِلِ
الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مَدِينَةُ بَرْشَلُونَةٍ ثُمَّ أَرْبُونَةٌ وَفِي هَذَا الْبَحْرِ الَّذِي غَمَرَ

(١) هكذا في معجم البلدان وفي نسخة لجنة البيان العربي لارادة وهو تحريف .

الْجُزْءُ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ وَالْكَثِيرُ مِنْهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ لِصِغَرِهَا فَفِي غَرْبِيهِ جَزِيرَةُ سِرْدَانِيَّةٌ ^(١) وَفِي شَرْقِيهِ جَزِيرَةُ صِقْلِيَّةٌ مُتَّسِعَةٌ الْأَقْطَارُ يَقَالُ إِنَّ دَوْرَهَا سَبْعِمِائَةَ مِيلٍ وَبِهَا مَدَنٌ كَثِيرَةٌ مِنْ مَشَاهِيرِهَا سَرْقُوسَةُ وَبَلَرْزُ وَطَرَابِغَةُ وَمَازِرُ وَمَسِينِي وَهَذِهِ الْجَزِيرَةُ تُقَابِلُ أَرْضَ أَفْرِيْقِيَّةَ وَفِيْمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ أَغْدُوشُ وَمَالِطَةُ . وَالْجُزْءُ الثَّالِثُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضاً بِالْبَحْرِ إِلَّا ثَلَاثَ قِطْعٍ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا أَرْضُ قُلُورِيَّةَ وَالْوُسْطَى مِنْ أَرْضِ أَبْكَيرِدَةَ وَالشَّرْقِيَّةَ مِنْ بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ . وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضاً بِالْبَحْرِ كَمَا مَرَّ وَجَزَائِرُهُ كَثِيرَةٌ وَأَكْثَرُهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ كَمَا فِي الثَّالِثِ وَالْمَغْمُورُ مِنْهَا جَزِيرَةُ بَلُونَسُ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ وَجَزِيرَةُ أَقْرِيطِشُ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ وَسْطِ الْجُزْءِ إِلَى مَا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْهُ . وَالْجُزْءُ الْخَامِسُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَمَرَهُ الْبَحْرُ مِنْهُ مُثَلَّثَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ يَنْتَهِي الضَّلْعُ الْغَرْبِيُّ مِنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ وَيَنْتَهِي الضَّلْعُ الْجَنُوبِيُّ مِنْهَا إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْجُزْءِ وَيَنْتَقِي فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزْءِ قِطْعَةً نَحْوَ الثَّلَاثِ يَمُرُّ الشَّمَالِي مِنْهَا إِلَى الْغَرْبِ مُنْعَطِفاً مَعَ الْبَحْرِ كَمَا قُلْنَا وَفِي النِّصْفِ الْجَنُوبِيِّ مِنْهَا أَسَافِلُ الشَّامِ وَيَمُرُّ فِي وَسْطِهَا جَبَلُ اللَّكَّامِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الشَّامِ فِي الشَّمَالِ فَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَاكَ ذَاهِباً إِلَى الْقَطْرِ الشَّرْقِيِّ الشَّمَالِيِّ وَيُسَمَّى بَعْدَ انْعِطَافِهِ جَبَلُ السَّلْسِلَةِ وَمِنْ هُنَاكَ يَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَجُوزُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ قِطْعَةً مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ وَيَقُومُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ جِبَالٌ مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى طَرَفٍ خَارِجٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مُتَأَخِّرٍ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ ثَنَائِيَا تُسَمَّى الدُّرُوبُ وَهِيَ الَّتِي تَقْضِي إِلَى بِلَادِ الْأَرَمَنِ وَفِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْهَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ جَبَلِ السَّلْسِلَةِ فَأَمَّا الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ الَّتِي قَدَّمْنَا أَنَّ فِيهَا أَسَافِلَ الشَّامِ وَأَنَّ جَبَلُ اللَّكَّامِ مَقْتَرَضٌ فِيهَا بَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَآخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فَعَلَى سَاحِلِ

(١) أَي سِرْدَانِيَّة .

الْبَحْرِ بِلْدَ أَنْطَرطُوسَ ^(١) فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ مُتَاخِمَةً لِعَزَّةَ وَطَرَابُلُسَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَفِي شَمَالِ أَنْطَرطُوسَ جَبَلَةٌ ثُمَّ اللَّاذِقِيَّةُ ثُمَّ إِسْكَندَرُونَةُ ثُمَّ سَلُوقِيَّةُ وَبَعْدَهَا شَمَالاً بِلَادُ الرُّومِ وَأَمَّا جَبَلُ اللَّكَّامِ الْمُغْتَرِضُ بَيْنَ الْبَحْرِ وَآخِرِ الْجُزْءِ بِحَافَاتِهِ فَيَصَاقِبُهُ مِنَ بِلَادِ الشَّامِ مِنْ أَعْلَى الْجُزْءِ جَنُوباً مِنْ غَرْبِيهِ حَضْنُ الْحَوَانِي وَهُوَ لِلْحَشِيشَةِ ^(٢) الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَيَعْرِفُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْفِدَاوِيَّةِ وَيُسَمَّى مِصْيَاتٍ ^(٣) وَهُوَ قِبَالَةُ أَنْطَرطُوسَ وَقِبَالَةُ هَذَا الْحَضْنِ فِي شَرْقِ الْجَبَلِ بِلْدَ سَلْمِيَّةَ ^(٤) فِي الشَّمَالِ عَنْ حِمَصٍ وَفِي الشَّمَالِ وَفِي مِصْيَاتٍ بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ بِلْدَ أَنْطَاكِيَّةَ وَيَقَابِلُهَا فِي شَرْقِ الْجَبَلِ الْمَعْرَةُ وَفِي شَرْقِهَا الْمَرَاغَةُ وَفِي شَمَالِ أَنْطَاكِيَّةَ الْمَصِيصَةُ ثُمَّ أَدْنَى ثُمَّ طَرَسُوسَ آخِرَ الشَّامِ وَيَخَاضِيهَا مِنْ غَرْبِ الْجَبَلِ قَسْرِينَ ثُمَّ عَيْنُ زُرْبَةَ ^(٥) وَقِبَالَةُ قَسْرِينَ فِي شَرْقِ الْجَبَلِ حَلَبُ وَيَقَابِلُ عَيْنُ زُرْبَةَ مَنبِجَ آخِرِ الشَّامِ . وَأَمَّا الدُّرُوبُ فَقَدْ يَمِينُهَا مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ بِلَادُ الرُّومِ الَّتِي هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ لِلتُّرْكَمَانَ وَسُلْطَانُهَا ابْنُ عُثْمَانَ وَفِي سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْهَا بِلْدُ أَنْطَاكِيَّةَ وَالْعَلَايَا . وَأَمَّا بِلَادُ الْأَرَمَنِ الَّتِي بَيْنَ جَبَلِ الدُّرُوبِ وَجَبَلِ السَّلْسِلَةِ فَفِيهَا بِلْدُ مَرْعَشَ وَمَلْطِيَّةَ وَالْمَعْرَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ فِي بِلَادِ الْأَرَمَنِ نَهْرُ جِيحَانَ وَنَهْرُ سِيحَانَ فِي شَرْقِيهِ فَيَمُرُّ بِهَا جِيحَانُ جَنُوباً حَتَّى يَتَجَاوَزَ الدُّرُوبَ ثُمَّ يَمُرُّ بِطَرَسُوسَ ثُمَّ بِالْمَصِيصَةِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ هَا بَطَأً إِلَى الشَّمَالِ وَمُغْرَباً حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ جَنُوبَ سَلُوقِيَّةَ وَيَمُرُّ نَهْرُ سِيحَانَ مُوَازِياً لِنَهْرِ جِيحَانَ فَيَخَاضِي الْمَعْرَةَ وَمَرْعَشَ وَيَتَجَاوَزُ جِبَالَ الدُّرُوبِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ثُمَّ يَمُرُّ بِعَيْنِ زُرْبَةَ وَيَحُوزُ عَنْ نَهْرِ جِيحَانَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ مُغْرَباً فَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ جِيحَانَ عِنْدَ الْمَصِيصَةِ

(١) أي طرطوس .

(٢) أظن أنه يعني الحشاوشون الاسماعيلية .

(٣) ورد ذكرها في معجم البلدان مصياب أو مصيف كما تعرف اليوم أما مصيات فهي محرفة .

(٤) كذا ذكرها ياقوت بياء مفتوحة غير مشددة وتعرف في أنحاء بلاد الشام بياء مشددة وفتح اللام

وتسكين الميم .

(٥) ذكرها ياقوت « عين زربي » .

وَمِنْ غَرْبِهَا وَأَمَّا بِلَادُ الْجَزِيرَةِ الَّتِي يُحِيطُ بِهَا مُنْعَطِفُ جَبَلِ اللَّكَّامِ إِلَى جَبَلِ
السُّلْسِلَةِ فَفِي جَنْبِهَا الرَّاغِصَةُ وَالرَّقَّةُ ثُمَّ حُرَّانُ ثُمَّ سُرُوجُ وَالرَّهَّا ثُمَّ نَصِيبِينَ ثُمَّ
سَمِيسَاطُ وَأَمَدُ تَحْتَ جَبَلِ السُّلْسِلَةِ وَآخِرُ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَهُوَ أَيْضاً آخِرُ الْجُزْءِ مِنْ
شَرْقِيهِ وَيَمُرُّ فِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ نَهْرُ الْفَرَاتِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ يَخْرُجَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
الْخَامِسِ وَيَمُرَّانِ فِي بِلَادِ الْأَزْمَنِ جَنُوباً إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلِ السُّلْسِلَةِ فَيَمُرُّ نَهْرُ
الْفَرَاتِ مِنْ غَرْبِي سَمِيسَاطُ وَسُرُوجُ وَيَنْحَرِفُ إِلَى الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الرَّاغِصَةِ
وَالرَّقَّةِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ دِجْلَةُ فِي شَرْقِ أَمَدَ وَيَنْعَطِفُ قَرِيباً إِلَى
الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيباً إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ
غَرْبِيهِ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بِلَادُ الْعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا تَنْتَهِي فِي الشَّرْقِ إِلَى
قُرْبِ آخِرِ الْجُزْءِ وَيَعْتَزُّزُ مِنْ آخِرِ الْعِرَاقِ هُنَالِكَ جَبَلُ أَصْبَهَانَ هَاطِطاً مِنْ جَنُوبِ
الْجُزْءِ مُنْحَرِفاً إِلَى الْغَرْبِ فَإِذَا انْتَهَى إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي الشَّمَالِ يَذْهَبُ
مُغْرَباً إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَتَّصِلَ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ السُّلْسِلَةِ فِي الْجُزْءِ
الْخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هَذَا الْجُزْءُ السَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ عَزْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ فَفِي الْعَزْبِيَّةِ مِنْ
جَنُوبِهَا مَخْرَجُ الْفَرَاتِ مِنَ الْخَامِسِ وَفِي شَمَالِهَا مَخْرَجُ دِجْلَةَ مِنْهُ أَمَّا الْفَرَاتُ فَأَوَّلُ
مَا يَخْرُجُ إِلَى السَّادِسِ يَمُرُّ بِقَرْقِيسِيَا وَيَخْرُجُ مِنْ هُنَالِكَ جَدُولٌ إِلَى الشَّمَالِ يَنْسَابُ
فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَيَغُوصُ فِي نَوَاحِيهَا وَيَمُرُّ مِنْ قَرْقِيسِيَا غَيْرَ يَمِيدُ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى
الْجَنُوبِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ الرُّحْبَةِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدَاوُلٌ مِنْ هُنَالِكَ يَمُرُّ
جَنُوباً وَيَبْقَى صَفِينِ فِي غَرْبِيهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقاً وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ فَيَمُرُّ بَعْضُهَا
بِالْكُوفَةِ وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ ابْنِ هَبِيرَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ وَتَخْرُجُ جَمِيعاً فِي جَنُوبِ الْجُزْءِ إِلَى
الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ فَيَغُوصُ هُنَالِكَ فِي شَرْقِ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَيَخْرُجُ الْفَرَاتُ مِنْ
الرُّحْبَةِ مُشْرِقاً عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هَيْتَ مِنْ شَمَالِهَا يَمُرُّ إِلَى الزَّابِ وَالْأَنْبَارِ مِنْ جَنُوبِهَا
ثُمَّ يَصُبُّ فِي دِجْلَةَ عِنْدَ بَغْدَادَ . وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةَ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى هَذَا
الْجُزْءِ يَمُرُّ بِجَزِيرَةِ ابْنِ عَمَرَ عَلَى شَمَالِهَا ثُمَّ بِالْمَوْصِلِ كَذَلِكَ وَتَكَرَّرَتْ وَيَنْتَهِي إِلَى

الْحَدِيثَةُ فَيَنْعَطِفُ جَنُوباً وَتَبْقَى الْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ كَذَلِكَ
 وَيَمُرُّ عَلَى سَمِيهِ جَنُوباً وَفِي غَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْتَلِطُ
 بِالْفَرَاتِ ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوباً عَلَى غَرْبِ جَرْجَرَايَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى الْإِقْلِيمِ
 الثَّالِثِ فَتَنْتَشِرُ هُنَالِكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ فَارِسَ
 عِنْدَ عَبَّادَانَ وَفِيمَا بَيْنَ نَهْرِ دَجْلَةٍ وَالْفَرَاتِ قَبْلَ مَجْمَعِهِمَا بِبَغْدَادَ هِيَ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ
 وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دَجْلَةٍ بَعْدَ مَفَارِقَتِهِ بِبَغْدَادَ نَهْرٌ آخَرُ يَأْتِي مِنَ الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ
 الشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ النَّهْرَوَانِ قِبَالَ بَغْدَادَ شَرْقاً ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوباً
 وَيَخْتَلِطُ بِدَجْلَةٍ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَيَبْقَى مَا بَيْنَ هَذَا النَّهْرِ وَبَيْنَ
 جَبَلِ الْعِرَاقِ وَالْأَعَاجِمِ بِلَدُ جَلُولَاءَ وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ الْجَبَلِ بِلَدُ حُلْوَانَ وَصَيْمَرَةَ^(١).
 وَأَمَّا الْقِطْعَةُ الْغَرْبِيَّةُ مِنَ الْجُزْءِ فَيَنْعَضِرُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنَ جَبَلِ الْأَعَاجِمِ مُشْرِقاً إِلَى
 آخِرِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى جَبَلُ شَهْرَزُورَ وَيَقْسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ فِي الْجَنُوبِ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
 الصُّغْرَى بِلَدُ خَوْنَجَانَ مِنَ الْغَرْبِ وَالشَّمَالِ عَنْ أَصْبَهَانَ وَتُسَمَّى هَذِهِ الْقِطْعَةُ بِلَدُ
 الْهَلُوسِ وَفِي وَسْطِهَا بِلَدُ نَهَاوَنْدَ وَفِي شَمَالِهَا بِلَدُ شَهْرَزُورَ غَرْباً عِنْدَ مُلتَقَى الْجَبَلَيْنِ
 وَالْدَيْنُورَ شَرْقاً عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى الثَّانِيَةِ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ قَاعِدَتُهَا
 الْمَرَاغَةُ وَالَّذِي يُقَالُ لَهَا مِنْ جَبَلِ الْعِرَاقِ يُسَمَّى بَارِيَا وَهُوَ مَسَاكِينُ لِلْأَكْرَادِ وَالزَّابِ
 الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ الَّذِي عَلَى دَجْلَةٍ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنَ جِهَةِ الشَّرْقِ
 بِلَادُ أَذْرَبَيْجَانَ وَمِنْهَا تَبْرِيزُ وَالْبَيْدَقَانُ وَفِي الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
 قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطَشَ وَهُوَ بَحْرُ الْخَزَرِ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ
 وَجَنُوبِهِ مُعْظَمُ بِلَادِ الْهَلُوسِ وَفِيهَا هَمْدَانُ وَقَرْوِينُ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَفِيهَا
 هُنَالِكَ أَصْبَهَانَ وَيُحِيطُ بِهَا مِنَ الْجَنُوبِ جَبَلٌ يَخْرُجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِالْإِقْلِيمِ
 الثَّالِثِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ فِي
 شَرْقِيهِ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ هُنَالِكَ وَهُوَ مُحِيطٌ بِبِلَادِ الْهَلُوسِ فِي الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ وَيَنْهَبُ

(١) ورد في بعض النسخ صميرة وهو تحريف.

هَذَا الْجَبَلُ الْمُحِيطُ بِأَصْبَهَانَ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ إِلَى جِبَةِ الشَّمَالِ وَيَخْرُجُ إِلَى هَذَا
الْجُزْءِ السَّابِعِ فَيَحِيطُ بِبِلَادِ الْهَلُوسِ مِنْ شَرْقِهَا وَتَحْتَهُ هُنَالِكَ قَاشَانُ ثُمَّ قُمْ وَيَنْعَطِفُ
فِي قُرْبِ النُّصَفِ مِنْ طَرِيقِهِ مَغْرِبًا بَعْضَ الشَّيْءِ ثُمَّ يَرْجِعُ مُسْتَدِيرًا فَيَذْهَبُ مُشْرِقًا
وَمُنْحَرِفًا إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى مُنْعَطِفِهِ
وَاسْتِدَارَتِهِ عَلَى بَلَدِ الرَّيِّ فِي شَرْقِيَّةِ وَيَبْدَأُ مِنْ مُنْعَطِفِهِ جَبَلٌ آخَرُ يَمُرُّ غَرْبًا إِلَى آخِرِ
هَذَا الْجُزْءِ وَمِنْ جَنْبِهِ مِنْ هُنَالِكَ قَرْوَيْنُ وَمِنْ جَانِبِهِ الشَّمَالِيِّ وَجَانِبِ جَبَلِ الرَّيِّ
الْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ ثُمَّ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ بِلَادُ
طَبْرِسْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ وَيَدْخُلُ مِنَ الْإِقْلِيمِ
الْخَامِسِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي نَحْوِ النُّصَفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَيَعْتَزُّ عِنْدَ جَبَلِ الرَّيِّ
وَعِنْدَ أَنْعِطَافِهِ إِلَى الْغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ مُشْرِقًا وَبِأَنْحِرَافٍ قَلِيلٍ إِلَى
الْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَيَبْقَى بَيْنَ جَبَلِ الرَّيِّ وَهَذَا
الْجَبَلِ مِنْ عِنْدِ مَبْدَأِهِمَا بِلَادُ جَرْجَانَ فِيمَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ وَمِنْهَا بِسْطَامُ وَوَرَاءَ هَذَا
الْجَبَلِ قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا بَقِيَّةُ الْمَفَازَةِ الَّتِي بَيْنَ فَارَسَ وَخُرَاسَانَ وَهِيَ فِي
شَرْقِيَّ قَاشَانَ وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ هَذَا الْجَبَلِ بَلَدُ أَسْتَرَابَادَ وَخَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ مِنْ
شَرْقِيَّةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ نَيْسَابُورَ مِنْ خُرَاسَانَ فَفِي جَنْبِ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَفَازَةِ
بَلَدُ نَيْسَابُورَ ثُمَّ مَرُّ الشَّاهِجَانَ آخِرَ الْجُزْءِ وَفِي شَمَالِهِ وَشَرْقِيَّ جَرْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ
وَخَازَرُونَ وَطُوسَ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ الْجَبَلِ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا بِلَادُ نَسَا
وَيَحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجُزْئَيْنِ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ مَفَاوِزُ مُعْطَلَةٌ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ
مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي غَرْبِيَّةِ نَهْرٍ جَنَحُونَ ذَاهِبًا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فَفِي غُدُوتِهِ
الْغَرْبِيَّةِ رَمَمٌ ^(١) وَأَمْلٌ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَالظَّاهِرِيَّةِ وَالْجَرْجَانِيَّةِ مِنْ بِلَادِ خَوَارَزَمَ
وَيَحِيطُ بِالزَّوَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلٌ أَسْتَرَابَادَ الْمُعْتَزُّ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ رَمَ بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَتَشْدِيدِ ثَانِيهِ . جَمَعَ رَمُومَ وَمَعْنَاهَا مَحَالُ الْاِكْرَادِ وَمَنَازِلِهِمْ . بَلْفَةُ أَهْلِ

فَارَسَ . وَهِيَ مَوَاضِعُ بِفَارَسَ (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ) .

قَبْلَهُ وَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ غَرْبِيهِ وَيُحِيطُ بِهَذِهِ الزَّاوِيَةِ وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةَ
وَالْجُوزْخَانِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ الْبُتْمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَاكَ وَفِي شَرْقِي نَهْرٍ جَنُحُونَ
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْجَنُوبِ مِنْهُ بِلَادُ بُخَارَى ثُمَّ بِلَادُ الصُّغْدِ وَقَاعِدَتُهَا سَمَرْقَنْدُ ثُمَّ
سَرْدَارَا وَأَشْنَةُ ^(١) وَمِنْهَا خَجَنْدَةُ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ سَمَرْقَنْدِ وَسَرْدَارِ
وَأَشْنَةُ أَرْضُ إِيْلَاقَ ^(٢) ثُمَّ فِي الشَّمَالِ عَنْ إِيْلَاقِ أَرْضُ الشَّاشِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا
وَيَأْخُذُ قِطْعَةً مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي جَنُوبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ فَرْغَانَةِ وَيَخْرُجُ
مِنْ تِلْكَ الْقِطْعَةِ الَّتِي فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ الشَّاشِ يَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ إِلَى
أَنْ يَنْصَبَ فِي نَهْرِ جَنُحُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّامِنِ فِي شَمَالِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ
الْخَامِسِ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ فِي أَرْضِ إِيْلَاقَ نَهْرٌ يَأْتِي مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ
مِنْ تَخُومِ بِلَادِ التُّبَّتِ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ فَرْغَانَةِ وَعَلَى
سَمْتِ نَهْرِ الشَّاشِ جَبَلُ جَبْرَاغُونِ يَبْدَأُ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَنْعَطِفُ شَرْقًا وَمُنْخَرِفًا
إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مُحِيطًا بِأَرْضِ الشَّاشِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ فِي
الْجُزْءِ التَّاسِعِ فَيَحِيطُ بِالشَّاشِ وَفَرْغَانَةَ هُنَاكَ إِلَى جَنُوبِهِ فَيَدْخُلُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ
وَيَبِينُ نَهْرُ الشَّاشِ وَطَرَفِ هَذَا الْجَبَلِ فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ فَاَرَابَ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ
أَرْضِ بُخَارَى وَخَوَازِمَ مَفَاوِزَ مُعْطَلَّةَ وَفِي زَاوِيَةِ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ أَرْضُ
خَجَنْدَةَ وَفِيهَا بَلَدُ إِسْبِجَابَ وَطَرَارَ . وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيهِ
بَعْدَ أَرْضِ فَرْغَانَةِ وَالشَّاشِ أَرْضُ الْخَزَلِجِيَّةِ فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ الْخَلِيجَةِ فِي الشَّمَالِ
وَفِي شَرْقِ الْجُزْءِ كُلِّهِ أَرْضُ الْكِيْمَاكِئَةِ وَيَتَّصِلُ فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى جَبَلِ قُوقِيَا
آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا وَعَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ هُنَاكَ وَهُوَ جَبَلُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
وَهَذِهِ الْأَمَمُ كُلُّهَا مِنْ شُعُوبِ التُّرْكِ . اَنْتَهَى .

الْإِقْلِيمُ الْخَامِسُ : الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَغْمُورٌ بِالْمَاءِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ جَنُوبِهِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ اسْرُوشَنَةُ وَفِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ : اسْرُوشَنَةُ .

(٢) فِي الْمَشْتَرِكِ اِقْلِيمِ اِيْلَاقِ مُتَّصِلٌ بِاِقْلِيمِ الشَّاشِ لَا فَصْلَ بَيْنَهُمَا وَهُوَ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْيَاءِ بَعْدَهَا .

وَشَرْقِهِ لَأَنَّ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ بِهَذِهِ الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ دَخَلَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ
وَالسَّابِعِ عَنِ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْإِقْلِيمِ فَأَمَّا الْمُنْكَشِفُ مِنْ جَنْوِبِهِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ
مُثَلَّثٍ مُتَّصِلَةٍ مِنْ هُنَالِكَ بِالْأَنْدَلُسِ وَعَلَيْهَا بَقِيَّتُهَا وَيُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ
كَأَنَّهُمَا ضِلْعَانِ مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ الْمُثَلَّثِ فَمِنْهَا مِنْ بَقِيَّةِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ سَعِيورُ عَلَى
الْبَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَسَلْمَنْكَةُ شَرْقًا عَنْهَا وَفِي جَوْفِهَا سَمُورَةُ
وَفِي الشَّرْقِ عَنْ سَلْمَنْكَةَ أَيْلَةُ آخِرِ الْجَنُوبِ وَأَرْضُ قَسْتَالِيَّةٍ ^(١) شَرْقًا عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةُ
شَقُوبْنِيَّةٍ وَفِي شِمَالِهَا أَرْضُ لِيُونٍ وَبَرْغَشْتُ ^(٢) ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي الشَّمَالِ أَرْضُ جَلِيْقِيَّةٍ إِلَى
زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي آخِرِ الضِّلْعِ الْغَرْبِيِّ بَلَدٌ شَنْتِيَاقُو وَمَعْنَاهُ
يَعْقُوبُ وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةُ شِطْلِيَّةٍ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْجَنُوبِ
وَشَرْقًا عَنْ قَسْتَالِيَّةٍ وَفِي شِمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشَقَّةٌ وَبَنْبُلُونَةُ عَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا وَشِمَالًا وَفِي
غَرْبِ بَنْبُلُونَةِ قَسْتَالَةَ ثُمَّ نَاجِزَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْغَشْتُ وَيَعْتَرِضُ وَسَطَ هَذِهِ
الْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ مُحَاذٍ لِلْبَحْرِ وَلِلضِّلْعِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى قَرْبٍ وَيَتَّصِلُ
بِهِ وَبِطَرَفِ الْبَحْرِ عِنْدَ بَنْبُلُونَةِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّصِلَ فِي
الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَصِيرُ حَجَرًا ^(٣) عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ
جِهَةِ الشَّرْقِ وَثَنَاتُهَا لَهَا أَبْوَابٌ تَفْضِي إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَّةٍ مِنْ أَمَمِ الْفَرَنْجِ فَمِنْهَا مِنْ
الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ بَرْشَلُونَةُ وَأَرْبُونَةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَرِيدَةُ وَقَرْشُونَةُ
وَرَاءَهُمَا فِي الشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ طَلُوشَةُ شِمَالًا عَنْ خَرِيدَةَ . وَأَمَّا
الْمُنْكَشِفُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَتُهُ
الْحَادَّةُ وَرَاءَ الْبُرْنَاتِ شَرْقًا وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ
بِهَا جَبَلُ الْبُرْنَاتِ بَلَدٌ نِيُونَةُ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ
الْجُزْءِ أَرْضٌ يَنْطَوِي مِنَ الْفَرَنْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ

(١) قَسْتَالَةَ .

(٢) بَرْغَشُ (معجم البلدان) .

(٣) يَصِيرُ مَانِعًا .

مِنْهُ أَرْضُ عَشْكَوْنِيَّةَ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ بَنْطُو وَبَرْغَشَتْ وَقَدْ ذَكَرْنَا هُمَا فِي شَرْقِ بِلَادِ
 عَشْكَوْنِيَّةَ فِي شَمَالِهَا قِطْعَةً أَرْضٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَالضَّرْسِ
 مَائِلَةً إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلًا وَصَارَتْ بِلَادُ عَشْكَوْنِيَّةَ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةً فِي جُودِ مِنَ الْبَحْرِ
 وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ شَمَالًا بِلَادُ جَنْوَةَ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلُ نَيْتِ جُونِ
 وَفِي شَمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْضُ بَرْغُونَةَ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ طَرَفِ جَنْوَةَ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ
 الرُّومِيِّ طَرَفٌ آخَرٌ خَارِجٌ مِنْهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جُونٌ دَاخِلٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ فِي غَرْبِهِ
 نَيْشٌ وَفِي شَرْقِيهِ مَدِينَةُ رُومَةَ الْعَظْمَى كُرْسِيُّ مَلِكِ الْإِفْرَنْجَةِ وَمَسْكِنُ الْبَابَا
 بَطْرِكِهِمُ الْأَعْظَمِ وَفِيهَا مِنَ الْمَبَانِي الضَّخْمَةِ وَالنَّيَاكِلِ الْهَائِلَةِ وَالْكَنَائِسِ الْعَادِيَّةِ ^(١)
 مَا هُوَ مَعْرُوفُ الْأَخْبَارِ وَمِنْ عَجَائِبِهَا النَّهْرُ الْجَارِي فِي وَسْطِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى
 الْمَغْرِبِ مَفْرُوشٌ قَاعُهُ بِبِلَاطِ النُّحَاسِ وَفِيهَا كَنِيسَةُ بَطْرُسَ وَبُولُسَ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ
 وَهُمَا مَذْفُونَانِ بِهَا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ بِلَادِ رُومَةَ بِلَادُ أَقْرَنْصِيصَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ ، وَعَلَى
 هَذَا الطَّرَفِ مِنَ الْبَحْرِ الَّذِي فِي جَنْوِبِهِ رُومَةُ بِلَادُ نَابِلِ ^(٢) فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ
 مُتَّصِلَةٌ بِبِلَدِ قُلُورِيَّةَ مِنْ بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَفِي شَمَالِهَا طَرَفٌ مِنْ خَلِيجِ الْبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي
 هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مَغْرَبًا وَمُخَازِيًا لِلشَّمَالِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَانْتَهَى إِلَى نَحْوِ
 الثَّلَاثِ مِنْهُ وَعَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جَنْوِبِهِ فِيمَا بَيْنَهُ
 وَبَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَمِنْ شَمَالِهِ بِلَادُ إِنْكَلَايَةَ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ . وَفِي الْجُزْءِ
 الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بِلَادُ قُلُورِيَّةَ بَيْنَ خَلِيجِ الْبَنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ
 يُحِيطُ بِهَا مِنْ شَرْقِيهِ يَصِلُ مِنْ بَرِّهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي جُودِ
 بَيْنَ طَرَفَيْنِ خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ فِي شَرْقِي بِلَادِ
 قُلُورِيَّةَ بِلَادُ أَنْكِيرْدَةَ فِي جُودِ بَيْنَ خَلِيجِ الْبَنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيَدْخُلُ طَرَفٌ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي الْجُودِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُحِيطُ بِهِ مِنْ شَرْقِيهِ

(١) نسبة إلى عاد .

(٢) نابولي .

خَلِيجُ الْبَنَادِقَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ذَاهِباً إِلَى سَمْتِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْغَرْبِ
 مُحَازِياً لِأَخْرِ الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ
 يُوَازِيهِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى الشَّمَالِ ثُمَّ يَغْرُبُ مَعَهُ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ
 قُبَالَةَ خَلِيجٍ فِي شَمَالِيهِ فِي بِلَادِ إِنْكَلَايَةِ مِنْ أَمَمِ الْأَلْمَانِيِّينَ كَمَا نَذَكُرُ وَعَلَى هَذَا
 الْخَلِيجِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا الْجَبَلِ مَا دَامَا ذَاهِبَيْنِ إِلَى الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَنَادِقَةِ فَإِذَا ذَهَبَا إِلَى
 الْمَغْرِبِ فَبَيْنَهُمَا بِلَادُ حَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادُ الْأَلْمَانِيِّينَ عِنْدَ طَرَفِ الْخَلِيجِ . وَفِي الْجُزْءِ
 الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ
 مُضْرَسَةٌ كُلُّهَا يَقْطَعُ مِنَ الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ وَبَيْنَ كُلِّ ضَرْسَيْنِ مِنْهَا
 طَرَفٌ مِنَ الْبَحْرِ فِي الْجُؤُنِ بَيْنَهُمَا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً قِطْعٌ مِنَ الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا
 إِلَى الشَّمَالِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الطَّرَفِ الْجَنُوبِيِّ وَيَذْهَبُ عَلَى
 سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَالِكَ عَنْ قُرْبِ
 مُشْرِقاً إِلَى بَحْرِ نِيطَشٍ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَبَعْضُ الرَّابِعِ قَبْلَهُ وَالسَّادِسِ بَعْدَهُ مِنَ
 الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا نَذَكُرُ وَبَلَدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَرْقِيِّ هَذَا الْخَلِيجِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ
 مِنَ الشَّمَالِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ كُرْسِيُّ الْقِيَاصَةِ وَبِهَا مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ
 وَالضُّخَامَةِ مَا كَثُرَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالْقِطْعَةُ الَّتِي مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَلِيجِ
 الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِيهَا بِلَادُ مَقْدُونِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْيُونَانِيِّينَ وَمِنْهَا
 ابْتَدَأَ مُلْكُهُمْ وَفِي شَرْقِيِّ هَذَا الْخَلِيجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ بَاطُوسَ وَأُظُنُّهَا
 لِهَذَا الْعَهْدِ مَجَالَاتٍ لِلتُّرُكْمَانِ وَبِهَا مُلْكُ ابْنِ عُثْمَانَ وَقَاعِدَتُهُ بِهَا بِورْصَةُ وَكَانَتْ
 مِنْ قَبْلِهِمْ لِلرُّومِ وَغَلَبَهُمْ عَلَيْهَا الْأَمَمُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِلتُّرُكْمَانِ . وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ
 مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيهِ وَجَنُوبِيهِ أَرْضُ بَاطُوسَ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
 بِلَادُ عَمُورِيَّةَ وَفِي شَرْقِيِّ عَمُورِيَّةَ نَهْرٌ قَبَاقِبِ الَّذِي يُمِدُّ الْفَرَاتَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ
 هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ فِي الْجَنُوبِ حَتَّى يُخَالِطَ الْفَرَاتَ قَبْلَ وُصُولِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ إِلَى
 مَمَرِهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَهُنَالِكَ فِي غَرْبِيهِ آخِرُ الْجُزْءِ فِي مَبْدَأِ نَهْرِ سِيحَانَ ثُمَّ نَهْرُ
 جِيحَانَ غَرْبِيهِ الذَّاهِبَيْنِ عَلَى سَمْتِهِ وَقَدْ مَرَّ ذَكَرُهُمَا وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ مَبْدَأُ نَهْرِ دِجْلَةَ

الدَاهِبِ عَلَى سَمْتِهِ وَفِي مُوَارَاتِهِ حَتَّى يُخَالِطَهُ عِنْدَ بَغْدَادَ وَفِي الزَّوَايَةِ الَّتِي بَيْنَ
 الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ دَجْلَةَ بَلَدُ مِيَاْفَارِقِينَ
 وَنَهْرُ قَبَاقِبِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَقْسِمُ هَذَا الْجُزْءَ يَقْطَعَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا غَرْبِيَّةٌ جَنُوبِيَّةٌ وَفِيهَا
 أَرْضُ بَاطُوسَ كَمَا قُلْنَا وَاسَافِلُهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَمَالًا وَوَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ
 نَهْرُ قَبَاقِبِ أَرْضُ عَمُورِيَّةَ كَمَا قُلْنَا وَالْقِطْعَةُ الثَّانِيَّةُ شَرْقِيَّةٌ شَمَالِيَّةٌ عَلَى الثَّلَاثِ فِي
 الْجَنُوبِ مِنْهَا مَبْدَأُ دَجْلَةَ وَالْفُرَاتِ وَفِي الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَيْلَقَانِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ عَمُورِيَّةَ
 مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ قَبَاقِبِ وَهِيَ غَرِيضَةٌ وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ مَبْدَأِ الْفُرَاتِ بَلَدُ خَرْشَنَةَ وَفِي
 الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطِشُ الَّذِي يُمِدُّهُ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ .
 وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي جَنُوبِهِ وَغَرْبِهِ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةَ مُتَّصِلَةٌ إِلَى أَنْ
 يَتَجَاوَزَ وَسَطَ الْجُزْءِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ وَفِيهَا بِلْدَانُ أَرْدُنَ فِي الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَفِي
 شَمَالِهَا تَفْلَيْسُ وَدُبَيْلُ وَفِي شَرْقِ أَرْدُنَ مَدِينَةُ خِلَاطُ ثُمَّ بَرْدَعَةُ فِي جَنُوبِهَا بِانْحِرَافٍ
 إِلَى الشَّرْقِ مَدِينَةُ أَرْمِينِيَّةَ وَمِنْ هُنَاكَ مَخْرَجُ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِيهَا
 هُنَاكَ بَلَدُ الْمَرَاغَةِ فِي شَرْقِي جَبَلِ الْأَكْرَادِ الْمُسَمَّى بِأَرْمَى وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فِي الْجُزْءِ
 السَّادِسِ مِنْهُ وَيَتَاخَمُ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةَ فِي هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ قَبْلَهُ مِنْ جِهَةِ
 الشَّرْقِ فِيهَا بِلَادُ أَدَرْبِيغَانَ وَآخِرُهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ شَرْقًا بِلَادُ أَرْدَبِيلَ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ
 بَحْرِ طَبَرْسْتَانَ دَخَلَتْ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ وَيُسَمَّى بِحَرِ
 طَبَرْسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ شَمَالِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْخَزَرِ وَهُمْ التُّرْكُمَانُ وَيَبْدَأُ
 مِنْ عِنْدِ آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ فِي الشَّمَالِ جِبَالٌ يَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى سَمْتِ
 الْغَرْبِ إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَتَمُرُّ فِيهِ مُنْعَطِفَةٌ وَمُحِيطَةٌ بِبَلَدِ مِيَاْفَارِقِينَ وَيَخْرُجُ إِلَى
 الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ آمِدَ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ السُّلْسِلَةِ فِي أَسَافِلِ الشَّامِ وَمِنْ هُنَاكَ يَتَّصِلُ
 بِجَبَلِ اللَّكَّامِ كَمَا مَرَّ وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ الشَّمَالِيَّةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ ثَنَائِيَا كَالْأَبْوَابِ
 تُفْضِي مِنَ الْجَانِبَيْنِ فَنَفِي جَنُوبِهَا بِلَادُ الْأَبْوَابِ مُتَّصِلَةٌ فِي الشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ
 طَبَرْسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ مَدِينَةُ بَابِ الْأَبْوَابِ وَتَتَّصِلُ بِلَادُ الْأَبْوَابِ فِي

الْغَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ جَنُوبِهَا بِبَلَدِ أَرْمِينِيَّةٍ وَيَنْتَهِمَا فِي الشَّرْقِ وَبَيْنَ بِلَادِ أَذْرَبَيْجَانَ
الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادِ الزَّابِ ^(١) مُتَّصِلَةً إِلَى بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَفِي شَمَالِ هَذِهِ الْجِبَالِ قِطْعَةٌ مِنْ
هَذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا مَمْلَكَةُ السَّرِيرِ فِي الزَّائِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا وَفِي زَاوِيَةِ
الْجُزْءِ كُلِّهِ قِطْعَةٌ أَيْضاً مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ الَّذِي يَمُدُّهُ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَقَدْ مَرَّ
ذِكْرُهُ وَيَخْفُ بِهَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ نِيطِشَ بِلَادِ السَّرِيرِ وَعَلَيْهَا مِنْهَا بَلَدٌ أُطْرَا بَزِيدَةُ ^(٢)
وَتَتَّصِلُ بِلَادِ السَّرِيرِ بَيْنَ جَبَلِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ
شَرْقاً إِلَى جَبَلِ حَاجِزٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صُولَ وَوَرَاءَ هَذَا
الْجَبَلِ الْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ تَنْتَهِي إِلَى الزَّائِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا
الْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَآخِرُ الْجُزْءِ شَمَالاً . وَالْجُزْءُ السَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَرْبِيَّةُ
كُلِّهِ مَغْمُورٌ بِبَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا
هُنَاكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلَادَ طَبْرَسْتَانَ وَجِبَالَ الذَّنِيلِ إِلَى قَرْوِينَ وَفِي غَرْبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ
مُتَّصِلَةٌ بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شَمَالِهَا
الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِهِ أَيْضاً وَيُنْكَشِفُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ
زَاوِيَتِهِ الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ أُنْثَلِ ^(٣) فِي هَذَا الْبَحْرِ وَيَنْقُى مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
فِي نَاحِيَةِ الشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ هِيَ مَجَالَاتُ لِلْغَزِّ مِنْ أَمِّ التُّرْكِ يُحِيطُ
بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَيَذْهَبُ فِي الْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ
وَسَطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَلَاقِيَ بَحْرَ طَبْرَسْتَانَ فَيُخْتَفُّ بِهِ دَاهِباً مَعَهُ إِلَى
بَقِيَّتِهِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيُفَارِقُهُ وَيُسَمَّى هُنَاكَ جَبَلُ سِيَاءَ
وَيَذْهَبُ مُغْرَباً إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوباً إِلَى الْجُزْءِ
السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَهَذَا الطَّرَفُ مِنْهُ وَهُوَ الَّذِي اغْتَرَضَ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ

(١) لا بد أن الزاب محرفة فالزاب تقع في الجزائر ولا صلة لها بالمنطقة التي يتكلم عنها ابن خلدون .

(٢) كذا في جميع النسخ وفي معجم البلدان . أما اليوم فتسمى طرابزون .

(٣) هو نهر أورال .

أَرْضِ السَّرِيرِ وَأَرْضِ الْخَزَرِ وَاتَّصَلَتْ بِأَرْضِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ خَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ الْمُسَمَّى جَبَلِ سِيَاهَ كَمَا سَيَأْتِي . وَالْجُزْءُ الثَّامِنُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْخَامِسُ كُلُّهُ مَجَالَاتٌ لِلْفَزِّ مِنْ أَمَمِ التُّرْكِ وَفِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ خَوَارِزْمُ الَّتِي يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ جَيْخُونٍ دَوْرَهَا ثَلَاثُمِائَةَ مِيلٍ وَيَصُبُّ فِيهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ وَفِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ غَرْغُونٍ دَوْرَهَا أَرْبَعُمِائَةَ مِيلٍ وَمَاوُهَا حُلُوفٌ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ جَبَلٌ مِرْغَارٌ وَمَعْنَاهُ جَبَلُ الثَّلْجِ لِأَنَّهُ لَا يَذُوبُ فِيهِ وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِآخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجَنُوبِ عَنْ بُحَيْرَةِ غَرْغُونٍ جَبَلٌ مِنَ الْحَجَرِ الصُّلْدِ لَا يُنْبِتُ شَيْئاً يُسَمَّى غَرْغُونٌ وَبِهِ سُمِّيَتِ الْبُحَيْرَةُ وَيَنْجَلِبُ مِنْهُ وَمِنْ جَبَلِ مِرْغَارٍ شَمَالِي الْبُحَيْرَةِ أَنْهَارٌ لَا تَنْحَصِرُ عِدَّتُهَا فَتَصُبُّ فِيهَا مِنَ الْجَانِبَيْنِ . وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ أَرْكُسَ مِنْ أَمَمِ التُّرْكِ فِي غَرْبِ بِلَادِ الْفَزِّ وَشَرْقِ بِلَادِ الْكِيْمَاكِئَةِ وَيَخْفُ بِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ آخِرُ الْجُزْءِ جَبَلٌ قَوْقِيَا الْمُحِيطُ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَغْتَرِضُ هُنَالِكَ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَنْعَطِفَ أَوَّلَ دُخُولِهِ مِنَ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ وَقَدْ كَانَ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ قَبْلَهُ وَاخْتَفَ هُنَالِكَ بِالنَّخْرِ الْمُحِيطِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ ثُمَّ انْعَطَفَ مَغْرَباً فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ إِلَى مَا دُونَ نِصْفِهِ وَأَحَاطَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هُنَا بِبِلَادِ الْكِيْمَاكِئَةِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَذَهَبَ فِيهِ مَغْرَباً إِلَى آخِرِهِ وَبَقِيَتْ فِي جَنُوبِيهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْغَرْبِ قَبْلَ آخِرِ بِلَادِ الْكِيْمَاكِئَةِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي شَرْقِيهِ وَفِي الْأَعْلَى مِنْهُ وَانْعَطَفَ قَرِيباً إِلَى الشَّمَالِ وَذَهَبَ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِيهِ السُّدُ هُنَالِكَ كَمَا نَذَكُرُهُ وَبَقِيَتْ مِنْهُ الْقِطْعَةُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا جَبَلٌ قَوْقِيَا عِنْدَ الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْجَنُوبِ وَهِيَ مِنْ بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ أَرْضُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ كُلُّهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ غَمَرَتْ طَرَفاً فِي شَرْقِيهِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ إِلَّا الْقِطْعَةَ الَّتِي يَفْضُلُهَا إِلَى جِهَةِ

الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ جَبَلٌ قَوْقِيَا حِينَ مَرَّ فِيهِ وَمَا سَوَى ذَلِكَ فَأَرْضٌ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الإقليم السادس . فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ غَمَرَ الْبَحْرُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِهِ وَاسْتَدَارَ شَرْقًا
مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى الْجَنُوبِ وَانْتَهَى قَرِيبًا مِنَ
النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ فَانْكَشَفَ قِطْعَةً مِنَ هَذِهِ الْأَرْضِ فِي هَذَا الْجُزْءِ دَاخِلَةٌ بَيْنَ
الطَّرْفَيْنِ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ كَالْجَوْنِ فِيهِ وَيَنْفَسِحُ
طَوْلًا وَعَرْضًا وَهِيَ كُلُّهَا أَرْضٌ بَرِيطَانِيَّةٌ وَفِي بَابِهَا بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ وَفِي الزَّوَايَةِ
الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادٌ صَاقِسٌ مُتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ بِنْتُوَالْتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي
الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ . وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ دَخَلَ
الْبَحْرَ الْمُحِيطَ مِنْ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ فَمِنْ غَرْبِهِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ أَكْبَرُ مِنْ نِصْفِهِ الشَّمَالِيِّ
مِنْ شَرْقِ أَرْضِ بَرِيطَانِيَّةٍ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَاتَّصَلَتْ بِهَا الْقِطْعَةُ الْأُخْرَى فِي الشَّمَالِ
مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَانْفَسَحَتْ فِي النُّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ وَفِيهِ هُنَالِكَ
قِطْعَةٌ مِنْ جَزِيرَةٍ أَكْثَرًا وَهِيَ جَزِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مَدْنٍ وَبِهَا مُلْكٌ ضَخْمٌ
وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَجَزِيرَتُهَا فِي النُّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْ
هَذَا الْجُزْءِ بِلَادٌ أَرْمَنْدِيَّةٌ وَبِلَادٌ أَفْلَادَشٌ مُتَّصِلَيْنِ بِهَا ثُمَّ بِلَادٌ إِفْرَنْسِيَّةٌ جَنُوبًا وَعَرْضًا
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَبِلَادٌ بَرَّغُونِيَّةٌ شَرْقًا عَنْهَا وَكُلُّهَا لِأَمَمِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَبِلَادُ اللَّمَّانِيِّينَ فِي
النُّصْفِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزْءِ فَجَنُوبُهُ بِلَادٌ أُنْكِلايَّةٌ ثُمَّ بِلَادٌ بَرَّغُونِيَّةٌ شَمَالًا ثُمَّ أَرْضُ
لَهْوِيكَّةَ وَشَطُونِيَّةَ وَعَلَى قِطْعَةِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي الزَّوَايَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ
أَفْرِيْرَةٍ وَكُلُّهَا لِأَمَمِ اللَّمَّانِيِّينَ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ
بِلَادٌ مَرَاتِيَّةٌ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادٌ شَطُونِيَّةٌ فِي الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ بِلَادٌ أُنْكَوِيَّةٌ
فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادٌ بَلُونِيَّةٌ فِي الشَّمَالِ يَغْتَرِضُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بَلَوَاطٌ دَاخِلًا مِنَ الْجُزْءِ
الرَّابِعِ وَيَمُرُّ مُغْرَبًا بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي بِلَادِ شَطُونِيَّةٍ آخِرِ النُّصْفِ
الْغَرْبِيِّ . وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ أَرْضُ جَنُولِيَّةٌ وَتَحْتَهَا فِي الشَّمَالِ بِلَادُ

الرُّوسِيَّة وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بَلَوَاطٌ مِنْ أَوَّلِ الْجُزْءِ غَرْباً إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي النُّصْفِ الشَّرْقِيِّ وَفِي شَرْقِ أَرْضِ جَثُولِيَّةٍ بِلَادُ جَرْمَانِيَّةٍ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَمَدِينَتُهَا عِنْدَ آخِرِ الْخَلِيجِ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَعِنْدَ مَدْفَعِهِ فِي بَحْرِ نِيطَشٍ فَيَقَعُ قُطْبُوعٌ مِنْ بَحْرِ نِيطَشٍ فِي أَعَالِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيُمِدُّهَا الْخَلِيجُ وَبَيْنَهُمَا فِي الزَّوَايَةِ بَلَدُ مَسِينَاةٍ . وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ عِنْدَ بَحْرِ نِيطَشٍ يَتَّصِلُ مِنَ الْخَلِيجِ فِي آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَيَخْرُجُ مِنْ سَمْتِهِ مُشْرِقاً فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ كُلِّهِ وَفِي بَعْضِ السَّادِسِ عَلَى طُولِ أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ مِيلٍ مِنْ مَبْدَاهِ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةٍ مِيلٍ وَيَبْقَى وَرَاءَ هَذَا الْبَحْرِ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا إِلَى شَرْقِهَا بَرٌّ مُسْتَطِيلٌ فِي غَرْبِهِ هِرْقَلِيَّةٌ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ نِيطَشٍ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ الْبَيْلَقَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَفِي شَرْقِهِ بِلَادُ اللَّانِيَّةِ وَقَاعِدَتُهَا سَوْتَلِي عَلَى بَحْرِ نِيطَشٍ وَفِي شَمَالِ بَحْرِ نِيطَشٍ فِي هَذَا الْجُزْءِ غَرْباً أَرْضُ تَرْخَانَ وَشَرْقاً بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَكُلُّهَا عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ وَبِلَادُ الرُّوسِيَّةِ مُحِيطَةٌ بِبِلَادِ تَرْخَانَ مِنْ شَرْقِهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهَا فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَمِنْ غَرْبِهَا فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ بَحْرِ نِيطَشٍ وَيَنْحَرِفُ قَلِيلاً إِلَى الشَّمَالِ وَيَبْقَى بَيْنَهُ هُنَالِكَ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ شَمَالاً بِلَادُ قِمَانِيَّةٍ وَفِي جَنُوبِهِ مُنْفَسِحاً إِلَى الشَّمَالِ بِمَا انْحَرَفَ هُوَ كَذَلِكَ بَقِيَّةُ بِلَادِ اللَّانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ آخِرَ جَنُوبِهِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مُتَّصِلُ أَرْضِ الْخَزَرِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَلْغَارَ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ أَرْضُ بَلْجَرٍ يَجُوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلٍ سِيَاكُوهَ الْمُنْعَطِفِ مَعَ بَحْرِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ بَعْدَهُ وَيَذْهَبُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ مُغْرَباً فَيَجُوزُ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَيَدْخُلُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِجَبَلِ الْأَبْوَابِ وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَالِكَ نَاحِيَةُ بِلَادِ الْخَزَرِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مَا جَارَهُ جَبَلُ سِيَاةٍ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ

بَحْر طَبْرَسْتَانَ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ غَرْباً وَفِي شَرْقِهَا الْقِطْعَةُ
 مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ الَّتِي يَجُوزُهَا هَذَا الْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا وَوَرَاءَ جَبَلِ سِيَاهِ فِي
 النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ
 شَحْرَبَ وَيَخْنَاكَ وَهُمْ أُمَّمُ التُّرْكِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَالنَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ كُلُّهَا
 أَرْضُ الْجَوْلُخِ مِنَ التُّرْكِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ غَرْباً وَالْأَرْضُ الْمُتْنِنَةُ وَشَرْقُ الْأَرْضِ
 الَّتِي يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خَرَبَاهَا قَبْلَ بِنَاءِ السُّدِّ وَفِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُتْنِنَةُ مَبْدَأُ
 نَهْرِ الْأَثَلِ مِنْ أَكْثَرِ أَنْهَارِ الْعَالَمِ وَمَمَرُهُ فِي بِلَادِ التُّرْكِ وَمَصْبُهُ فِي بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ فِي
 الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ وَهُوَ كَثِيرُ الْإِنْعِطَافِ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ مِنْ
 الْأَرْضِ الْمُتْنِنَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ يَنَابِيعَ تَجْتَمِعُ فِي نَهْرٍ وَاحِدٍ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ إِلَى
 آخِرِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فَيَنْعَطِفُ شَمَالاً إِلَى الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ
 فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ السَّابِعِ وَيَذْهَبُ
 مَغْرِباً غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى الْجَنُوبِ وَيَرْجِعُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
 السَّادِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدُولٌ يَذْهَبُ مَغْرِباً وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ نِيْطَشَ فِي ذَلِكَ الْجُزْءِ
 وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ فِي بِلَادِ بُلْغَارَ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ
 الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً إِلَى الْجَنُوبِ وَيَنْفُذُ فِي جَبَلِ سِيَاهِ وَيَمُرُّ فِي بِلَادِ
 الْخَزَرِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ
 طَبْرَسْتَانَ فِي الْقِطْعَةِ الَّتِي انْكَشَفَتْ مِنَ الْجُزْءِ عِنْدَ الزَّائِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ .
 وَالْجُزْءُ الثَّاسِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَقَشَاخَ مِنَ التُّرْكِ وَهُمْ
 قَقَجَاقُ وَبِلَادُ الشَّرْكَسَ مِنْهُمْ أَيْضاً وَفِي الشَّرْقِ مِنْهُ بِلَادُ يَأْجُوجَ يَفْصُلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ
 قَوْقِيَا الْمُحِيطُ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ بَيِّنْدَا مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي شَرْقِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ
 مَعَهُ إِلَى آخِرِ الْإِقْلِيمِ فِي الشَّمَالِ وَيُفَارِقُهُ مَغْرِباً وَيَانْحَرِفُ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ
 فِي الْجُزْءِ الثَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَرْجِعُ إِلَى سَمْتِهِ الْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هَذَا
 الْجُزْءِ الثَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ يَانْحَرِفُ إِلَى الْمَغْرِبِ وَفِي وَسْطِهِ هَهْنَا

السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الإسْكَندَرُ ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْهُ فَيَمُرُّ فِيهِ إِلَى الْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ فِي شَمَالِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَالِكَ مُغْرَبًا إِلَى الإِقْلِيمِ السَّابِعِ إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي غَرْبِيهِ وَفِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ هُوَ السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الإسْكَندَرُ كَمَا قُلْنَا وَالصَّحِيحُ مِنْ خَبَرِهِ فِي الْقُرْآنِ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَزْدَازْبَةَ فِي كِتَابِهِ فِي الْجُغْرَافِيَا أَنَّ الْوَاتِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ السُّدَّ انْفَتَحَ فَأَنْتَبَهَ فَرَعَا وَبَعَثَ سَلَامًا التَّرْجُمَانِ فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بِخَبَرِهِ وَوَضَفِهِ فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هَذَا وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الإِقْلِيمِ بِلَادٌ مَأْجُوجٌ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَالِكَ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةٌ فِي الشَّمَالِ وَعَرِيضَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الشَّرْقِ .

الإِقْلِيمُ السَّابِعُ ، وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ قَدْ غَمَرَ غَامَتَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِجَبَلٍ قُوقِيَا الْمُحِيطِ بِمَأْجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ . فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي مَغْمُورَانِ بِالْمَاءِ إِلَّا مَا انْكَشَفَ مِنْ جَزِيرَةٍ أَنْكِلِتْرَا الَّتِي مُعْظَمُهَا فِي الثَّانِي وَفِي الْأَوَّلِ مِنْهَا طَرَفٌ انْعَطَفَ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ وَبَقِيَّتُهَا مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ مُسْتَدِيرَةٌ عَلَيْهِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَالْمَجَازُ مِنْهَا إِلَى الْبَرِّ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ سَعَةً اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا وَوَرَاءَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ فِي شَمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي جَزِيرَةٌ رَسْلَانْدَةُ مُسْتَطِيلَةٌ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ . وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذَا الإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَكْثَرُهُ بِالْبَحْرِ إِلَّا قِطْعَةً مُسْتَطِيلَةً فِي جَنُوبِهِ وَتَتَّسِعُ فِي شَرْقِهَا وَفِيهَا هُنَالِكَ مُتَّصِلٌ أَرْضُ فُلُونِيَّةٍ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الثَّلَاثِ مِنَ الإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَأَنَّهَا فِي شَمَالِهِ وَفِي الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الَّتِي تَغْمُرُ هَذَا الْجُزْءَ ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهَا مُسْتَدِيرَةٌ فَسِيحَةٌ وَتَتَّصِلُ بِالْبَرِّ مِنْ بَابٍ فِي جَنُوبِهَا يُفْضِي إِلَى بِلَادِ فُلُونِيَّةٍ وَفِي شَمَالِهَا جَزِيرَةٌ بَرْعَاقِبَةُ (وَفِي نَسْخَةِ بَوَاقِعَةِ) مُسْتَطِيلَةٌ مَعَ الشَّمَالِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ . وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الإِقْلِيمِ شَمَالُهُ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِالْبَحْرِ

الْمُحِيطِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَجَنُوبُهُ مُنْكَشِفٌ وَفِي غَرْبِهِ أَرْضٌ قِيَمَازَكَ مِنْ
 التُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادٌ طُسْتٌ ثُمَّ أَرْضٌ رَسْلَانٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَهِيَ دَائِمَةٌ
 الثُّلُوجِ وَعُمْرَانُهَا قَلِيلٌ وَيَتَّصِلُ بِبِلَادِ الرُّوسِيَّةِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ
 وَالْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بِلَادُ
 الرُّوسِيَّةِ وَيَنْتَهِي فِي الشَّمَالِ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلٌ قَوْقِيَا
 كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلٌ أَرْضُ الْقِمَانِيَّةِ الَّتِي عَلَى قِطْعَةٍ
 بَحْرٍ نِيطِشٌ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَنْتَهِي إِلَى بُحَيْرَةِ طَرْمَى مِنْ
 هَذَا الْجُزْءِ وَهِيَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجِبَالِ عَنِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ
 وَفِي شَمَالِ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ التَّتَارِيَّةِ مِنَ التُّرْكِ (وَفِي نَسْخَةِ
 التُّرْكَمَانِ) إِلَى آخِرِهِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مُتَّصِلٌ
 بِبِلَادِ الْقِمَانِيَّةِ وَفِي وَسْطِ النَّاحِيَةِ بُحَيْرَةٌ عَثُورَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ مِنَ الْجِبَالِ
 فِي النُّوَاحِي الشَّرْقِيَّةِ وَهِيَ جَامِدَةٌ دَائِمًا لِشِدَّةِ الْبَرْدِ إِلَّا قَلِيلًا فِي زَمَنِ الصَّيْفِ وَفِي
 شَرْقِ بِلَادِ الْقِمَانِيَّةِ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ الَّتِي كَانَ مَبْدُؤُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ فِي النَّاحِيَةِ
 الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الزَّاوِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا
 الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بَلْغَارِ الَّتِي كَانَ مَبْدُؤُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
 الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ وَفِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بَلْغَارٍ مُنْعَطَفُ نَهْرٍ
 أَثْلُ الْقِطْعَةِ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ كَمَا مَرُّ وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَمَالِهِ جَبَلٌ
 قَوْقِيَا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ
 أَرْضِ يَخْنَاكَ مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ وَكَانَ مَبْدُؤُهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ
 السَّادِسِ قَبْلَهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ
 السَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ سُحْرَبِ ثُمَّ بَقِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُتَبَنِّةِ
 إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جَبَلٌ قَوْقِيَا الْمُحِيطُ مُتَّصِلًا مِنْ
 غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلٌ

الْأَرْضِ الْمُنْتَبَةِ وَفِي شَرْقِهَا الْأَرْضُ الْمَحْفُورَةُ وَهِيَ مِنَ الْعَجَائِبِ خَرْقٌ عَظِيمٌ فِي
الْأَرْضِ يَبْعِدُ الْمَهْوَى فَسِيحُ الْأَقْطَارِ مُفْتَنُ الْوُصُولِ إِلَى قَعْرِهِ يُسْتَبَدَّلُ عَلَى عُمْرَانِهِ
بِالدُّخَانِ فِي النَّهَارِ وَالنَّيِّرَانِ فِي اللَّيْلِ تُضَيءُ وَتُخْفَى وَرُبَّمَا رُئِيَ فِيهَا نَهْرٌ يَشْقُهَا مِنَ
الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الْبِلَادُ الْخَرَابُ الْمَتَاخِمَةُ
لِلسُّدِّ وَفِي آخِرِ الشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلٌ قُوقِيَا مُتَّصِلًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْقَرْبِ وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ

مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْقَرْيَبِيِّ مِنْهُ بِلَادٌ خَفْشَاخَ وَهُمْ قَفَجَقُ يَجُوزُهَا جَبَلٌ قُوقِيَا
حِينَ يَنْعَطِفُ مِنَ شَمَالِهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَيَذْهَبُ فِي وَسْطِهِ إِلَى الْجَنُوبِ
بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ مُعْتَزًّا فِيهِ
وَفِي وَسْطِهِ هُنَالِكَ سُدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا
الْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجَ وَرَاءَ جَبَلٍ قُوقِيَا عَلَى الْبَحْرِ قَلِيلَةَ الْغُرْضِ مُسْتَطِيلَةً أَحَاطَتْ بِهِ
مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ . وَالْجُزْءُ الْعَاشِرُ غَمَرُ الْبَحْرِ جَمِيعُهُ . هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ عَلَى
الْجُغْرَافِيَا وَأَقَالِيمِهَا السَّبْعَةِ وَفِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَا يَأْتِ لِلْعَالَمِينَ^(١) .

(١) جاء في سورة آل عمران الآية ١٩٠ قوله تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَايَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » وقوله تعالى في سورة الروم الآية ٢٢ « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَسْمَاتِكُمْ
وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ » .

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر
والكثير في أحوالهم

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْمُورَ مِنْ هَذَا الْمُنْكَشِفِ مِنَ الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ وَسْطُهُ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ وَالْبَرْدِ فِي الشَّمَالِ . وَلَمَّا كَانَ الْجَانِبَانِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ مُتَضَادَّيْنِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَجَبَ أَنْ تَتَدَرَّجَ الْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى الْوَسْطِ فَيَكُونَ مُعْتَدِلًا فَالْإِقْلِيمُ الرَّابِعُ أَعْدَلُ ^(١) الْعُمُرَانِ وَالَّذِي حَافَتُهُ مِنَ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى الْإِعْتِدَالِ وَالَّذِي يَلِيهِمَا وَالثَّانِي وَالسَّادِسُ يَعِيدَانِ مِنَ الْإِعْتِدَالِ وَالْأَوَّلُ وَالسَّابِعُ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ فَلِهَذَا كَانَتْ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَالْمَبَانِي وَالْمَلَابِسُ وَالْأَقْوَاتُ وَالْفَوَاكِهُ بَلْ وَالْحَيَوَانَاتُ وَجَمِيعُ مَا يَتَكَوَّنُ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ مَخْصُوصَةً بِالْإِعْتِدَالِ وَسُكَّانُهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَامًا وَأَلْوَانًا وَأَخْلَاقًا وَأَذْيَانًا حَتَّى النُّبُوتَاتُ فَإِنَّمَا تَوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ فِيهَا وَلَمْ تَقِفْ عَلَى خَبَرٍ بَعَثَتْ فِي الْأَقَالِيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلَا الشَّمَالِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ النُّوعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ قَالَ تَعَالَى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » وَذَلِكَ لِيَتِمَّ الْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لَوْجُودِ الْإِعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِينِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ الْمُنَجَّدَةَ بِالْحِجَارَةِ الْمُنَمَّقَةِ بِالصَّنَاعَةِ وَيَتَنَاعُونَ فِي اسْتِجَادَةِ الْأَلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَتَوْجَدُ لَدَيْهِمُ الْمَعَادِنُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ

(١) أعْدَلُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ عَدَلَ وَلَيْسَ لَهَا مَعْنَى الْأَصَحُّ ، أَكْثَرُ اعْتِدَالًا

وَالنَّحَاسَ وَالرَّصَاصَ وَالْقَصْدِيرَ وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَعَامِلَاتِهِمْ بِالنَّقْدَيْنِ الْعَرِيزَيْنِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ الْإِنْحِرَافِ فِي غَامَةِ أَحْوَالِهِمْ وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقَيْنِ وَالْهِنْدِ وَالسِّنْدِ وَالصِّينِ وَكَذَلِكَ الْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قَرُبَ مِنْهَا مِنَ الْفَرَنْجَةِ وَالْجَلَالِقَةِ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِيِّينَ وَمَنْ كَانَ مَعَ هَؤُلَاءِ أَوْ قَرِيباً مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَلِهَذَا كَانَ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَعْدَلَ هَذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسَطٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ . وَأَمَّا الْأَقَالِيمُ الْبَعِيدَةُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ مِثْلُ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي وَالسَّادِسِ وَالسَّابِعِ فَأَهْلُهَا أُبْعَدُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ فَبِنَاوَهُمْ بِالطِّينِ وَالْقَصَبِ وَأَقْوَاتُهُمْ مِنَ الدُّرَّةِ وَالْعِشْبِ وَمَلَابِسُهُمْ مِنْ أَوْزَاقِ الشَّجَرِ يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِمْ أَوْ الْجُلُودِ وَأَكْثَرُهُمْ عَزَايَا مِنَ اللَّبَاسِ وَقَوَاكِهِ بِلَادِهِمْ وَأَدَمَهَا غَرِيبَةُ التَّكْوِينِ مَائِلَةٌ إِلَى الْإِنْحِرَافِ وَمَعَامِلَاتُهُمْ بِغَيْرِ الْحَجَرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مِنْ نَحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ جُلُودٍ يَقْدَرُونَهَا لِلْمَعَامِلَاتِ وَأَخْلَاقُهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبَةٌ مِنْ خَلْقِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ حَتَّى لِيَنْقُلَ عَنْ الْكَثِيرِ مِنَ السُّودَانِ أَهْلُ الْإِفْلِيمِ الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الْكَهُوفَ وَالْفِيَاضَ وَيَأْكُلُونَ الْعِشْبَ وَأَنَّهُمْ مُتَوَحِّشُونَ غَيْرُ مُسْتَأْنِسِينَ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَكَذَا الصَّقَالِبَةُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِبُعْدِهِمْ عَنِ الْإِعْتِدَالِ يَقْرُبُ عَرَضُ أَمْرَجِيَّتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي الدِّيَانَةِ أَيْضاً فَلَا يَعْرِفُونَ نُبُوَّةَ وَلَا يَدِينُونَ بِشَرِيعَةٍ إِلَّا مَنْ قَرُبَ مِنْهُمْ مِنْ جَوَانِبِ الْإِعْتِدَالِ وَهُوَ فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ مِثْلُ الْحَبَشَةِ الْمُجَاوِرِينَ لِلْيَمَنِ الدَّائِنِينَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ فِيمَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمِثْلُ أَهْلِ مَالِي وَكُوكُو وَالتَّكُرُورِ الْمُجَاوِرِينَ لِأَرْضِ الْمَغْرِبِ الدَّائِنِينَ بِالْإِسْلَامِ لِهَذَا الْعَهْدِ يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي الْمِائَةِ السَّابِقَةِ وَمِثْلُ مَنْ دَانَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ أُمَمِ الصَّقَالِبَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ وَالتُّرْكِ مِنَ الشَّمَالِ وَمِنْ سِوَى هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ جَنُوباً وَشَمَالاً فَالَّذِينَ مَجْهُولٌ عَنْدَهُمْ وَالْعِلْمُ مَفْقُودٌ بَيْنَهُمْ وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْبَهَائِمِ « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ

بوجود اليمَن وحَضْرَمُوتَ والأَحْقَافِ وِبِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا يَلِيهَا مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي فَإِنَّ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ كُلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا الْبَحَارُ مِنْ الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَا فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي رُطُوبَةِ هَوَائِهَا فَتَقْصُ ذَلِكَ مِنَ الْيَبْسِ وَالْإِنْحِرَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَرُّ وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ الْإِغْتِدَالِ بِسَبَبِ رُطُوبَةِ الْبَحْرِ . وَقَدْ تَوَهَّمُ بَعْضُ النَّسَائِينَ مِمَّنْ لَا عِلْمَ لَدَيْهِ بِطَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ أَنَّ السُّودَانَ هُمْ وَلَدُ حَامِ بْنِ نُوحٍ اخْتَصَمُوا بِلَوْنِ السُّودِ لِدَعْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ وَفِيمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الرِّقِّ فِي عَقِيهِ وَيَنْقُلُونَ فِي ذَلِكَ حِكَايَةً مِنْ خُرَافَاتِ الْقُصَاصِ وَدَعَاءِ نُوحٍ عَلَى ابْنِهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ السُّودِ وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ عَبِيداً لَوْلَدِ إِخْوَتِهِ لَا غَيْرَ وَفِي الْقَوْلِ بِنِسْبَةِ السُّودِ إِلَى حَامٍ غَفْلَةٌ عَنْ طَبِيعَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَأَثَرِهِمَا فِي الْهَوَاءِ وَفِيمَا يَتَكَوَّنُ فِيهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا اللَّوْنُ شَمَلَ أَهْلَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمُ لِلْحَرَارَةِ الْمُتَضَاعِفَةِ بِالْجَنُوبِ فَإِنَّ الشَّمْسَ تُسَامِتُ رُؤُوسَهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَرِيبَةً إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى فَتَطْوُلُ الْمُسَامَتَةُ غَايَةَ الْفُصُولِ فَيَكْثُرُ الضَّوُّ لِأَجْلِهَا وَيُلَحُّ الْقَيْظُ الشَّدِيدُ عَلَيْهِمْ وَتَسْوَدُّ جُلُودُهُمْ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَنَظِيرُ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ مِمَّا يَقَابِلُهُمَا مِنَ الشَّمَالِ الْإِقْلِيمُ السَّابِعُ وَالسَّادِسُ شَمَلَ سُكَّانُهُمَا أَيْضاً الْبَيَاضُ مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ لِلْبَرْدِ الْمُفْرِطِ بِالشَّمَالِ إِذِ الشَّمْسُ لَا تَرَالُ بِأَفْقِهِمْ فِي دَائِرَةِ مَرَأَى الْعَيْنِ أَوْ مَا قَرَبَ مِنْهَا وَلَا تَرْتَفِعُ إِلَى الْمُسَامَتَةِ وَلَا مَا قَرَبَ مِنْهَا فَيَضَعُفُ الْحَرُّ فِيهَا وَيَشْتَدُّ الْبَرْدُ غَايَةَ الْفُصُولِ فَتَبْيِضُ أَلْوَانُ أَهْلِهَا وَتَنْتَهِي إِلَى الزُّعُورَةِ ^(١) وَيَتَنَعُّ ذَلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ مِزَاجُ الْبَرْدِ الْمُفْرِطِ مِنْ زُرْقَةِ الْعُيُونِ وَبَرَشِ الْجُلُودِ وَصَهْوِيَةِ الشُّعُورِ وَتَوَسَّطَتْ بَيْنَهُمَا الْأَقَالِيمُ الثَّلَاثَةُ الْخَامِسُ وَالرَّابِعُ وَالثَّالِثُ فَكَانَ لَهَا فِي الْإِغْتِدَالِ الَّذِي هُوَ مِزَاجُ الْمُتَوَسِّطِ حَظٌّ وَافِرٌ وَالرَّابِعُ أَبْلَغُهَا فِي الْإِغْتِدَالِ غَايَةً لِنَهَايَتِهِ فِي التَّوَسُّطِ كَمَا قَدْ مَنَّا فَكَانَ لِأَهْلِهِ مِنَ الْإِغْتِدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ مَا اقْتَضَاهُ مِزَاجُ أَهْوِيَّتِهِمْ وَتَبِعَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ الثَّالِثُ وَالْخَامِسُ وَإِنْ لَمْ يَنْبَلُغَا غَايَةَ التَّوَسُّطِ لِمِثْلِ هَذَا

(١) كلمة ليست من الفصحى وعنى بها شدة البياض .

قَلِيلًا إِلَى الْجَنُوبِ الْحَارِّ وَهَذَا قَلِيلًا إِلَى الشَّمَالِ الْبَارِدِ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يَنْتَهِيَا إِلَى
الْإِنْجِرَافِ وَكَانَتِ الْأَقَالِيمُ الْأَرْبَعَةُ مُنْخَرَفَةً وَأَهْلُهَا كَذَلِكَ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ فَالْأَوَّلُ
وَالثَّانِي لِلْحَرِّ وَالسُّودِ وَالسَّابِعُ لِلْبَرْدِ وَالْبَيَاضِ وَيُسَمَّى سُكَّانُ الْجَنُوبِ مِنَ
الْإَقْلِيمَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي بِاسْمِ الْحَبَشَةِ وَالزَّنَجِ وَالسُّودَانِ أَسْمَاءً مُتَرَادِفَةً عَلَى الْأَمَمِ
الْمُتَغَيِّرَةِ بِالسُّودِ وَإِنْ كَانَ اسْمُ الْحَبَشَةِ مُخْتَصًّا مِنْهُمْ بِمَنْ تَجَاهَ مَكَّةُ وَالْيَمَنُ وَالزَّنَجِ
بِمَنْ تَجَاهَ بَحْرُ الْهِنْدِ وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى آدَمَیْ أَسْوَدَ
لَا حَامٍ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ نَجَدُ مِنَ السُّودَانِ أَهْلَ الْجَنُوبِ مَنْ يَسْكُنُ الرُّنَجَ الْمُغْتَدِلَ أَوْ
السَّابِعَ الْمُنْخَرَفَ إِلَى الْبَيَاضِ فَتَبَيُّضُ أَلْوَانُ أَغْقَابِهِمْ عَلَى التَّدْرِيجِ مَعَ الْأَيَّامِ
وَبِالْعَكْسِ فَيَمَنْ يَسْكُنُ مِنْ أَهْلِ الشَّمَالِ أَوْ الرَّابِعِ بِالْجَنُوبِ فَتَسْوَدُّ أَلْوَانُ أَغْقَابِهِمْ
وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّوْنَ تَابِعٌ لِمَزَاجِ الْهَوَاءِ قَالَ ابْنُ سِينَا فِي أَرْجُوزِيهِ فِي الطَّبِّ

بِالزَّنَجِ حَرٌّ غَيْرُ الْأَجْسَادِ حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادًا
وَالصَّقْلُبُ اكْتَسَبَتِ الْبَيَاضَا حَتَّى غَدَتْ جُلُودَهَا بَيَاضًا

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّمَالِ فَلَمْ يُسَمُّوا بِاعْتِبَارِ أَلْوَانِهِمْ لِأَنَّ الْبَيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ
اللُّغَةِ الْوَاضِعَةِ لِلْأَسْمَاءِ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَحْمِلُ عَلَى اعْتِبَارِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ
وَاعْتِيَادِهِ وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ التُّرْكِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالطُّغْرُغُرِ وَالْخَزَرِ وَاللَّانِ وَالْكَثِيرِ مِنَ
الْإِفْرَنْجَةِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَسْمَاءً مُتَفَرِّقَةً وَأَجْيَالًا مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءٍ مُتَنَوِّعَةٍ
وَأَمَّا أَهْلُ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ أَهْلُ الْإِعْتِدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَسَيْرِهِمْ وَكَافَّةُ الْأَحْوَالِ
الطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِعْتِمَارِ لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِينِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالرَّئَاسَاتِ
وَالْمُلْكِ فَكَانَتْ فِيهِمُ النَّبَوَاتُ وَالْمُلْكُ وَالذُّوُلُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ وَالْأَمْصَارُ
وَالْمَبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ الْمُغْتَدِلَةِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ
الَّتِي وَقَفْنَا عَلَى أَجْبَارِهِمْ مِثْلَ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَفَارِسَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانِ وَأَهْلِ
السَّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ . وَلَمَّا رَأَى النَّسَابُونَ اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأُمَمِ بِسِمَاتِهَا وَسِعَارِهَا

حَسِبُوا ذَلِكَ لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ مِنْ وَلَدِ حَامٍ وَارْتَابُوا فِي أَلْوَانِهِمْ فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كُلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ مِنْ وَلَدِ يَافِثَ وَأَكْثَرَ الْأُمَمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلَ الْوَسْطِ الْمُنتَحِلِينَ لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالْمِلَلِ وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ وَلَدِ سَامٍ وَهَذَا الرَّغْمُ وَإِنْ صَادَفَ الْحَقُّ فِي انْتِسَابِ هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ مُطَرَّدٍ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ لَا أَنْ تُسَمِّيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِالسُّودَانِ وَالْحَبْشَانِ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامِ الْأَسْوَدِ . وَمَا أَذَاهُمْ إِلَى هَذَا الْغَلَطِ إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَقَعُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ لِلْجِيلِ أَوْ الْأُمَّةِ يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفُرْسِ وَيَكُونُ بِالْجِهَةِ وَالسِّمَةِ كَمَا لِلزَّنَجِ وَالْحَبَشَةِ وَالصَّقَالِيَةِ وَالسُّودَانِ وَيَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالشُّعَارِ وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ . وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَخَوَاصِهِمْ وَمُمَيِّزَاتِهِمْ فَتَغْمِيمُ الْقَوْلِ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْ شَمَالٍ بِأَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ فَلَانٍ الْمَعْرُوفِ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ نَخْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سِمَةٍ وَجَدَتْ لِذَلِكَ الْأَبِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَغَالِيطِ الَّتِي أَوْقَعَ فِيهَا الْغَفْلَةُ عَنْ طَبَائِعِ الْأَكْوَانِ وَالْجِهَاتِ وَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا تَتَبَدَّلُ فِي الْأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ اسْتِمْرَارُهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ وَأَحْكَمُ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعِمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ.



المقدمة الرابعة

في أثر الهواء في أخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السُّودَانِ عَلَى الْعُمُومِ الْخِفَّةَ وَالطَّيْشَ وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ فَتَجِدُهُمْ مُؤَلِّعِينَ بِالرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوْقِيعِ مَوْصُوفِينَ بِالْخُمَقِ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ هِيَ انْتِشَارُ الرُّوحِ الْخَيَوَانِيِّ وَتَفَشِيهِ وَطَبِيعَةُ الْحُزَنِ بِالْعَكْسِ وَهُوَ انْقِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ . وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَرَارَةَ مُفَشِيَةً لِلْهَوَاءِ وَالْبَخَارِ مُخْلِخَلَةٌ لَهُ زَائِدَةٌ فِي كَمِّيَّتِهِ وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُنْتَشِي مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ وَذَلِكَ بِمَا يَدْخُلُ بَخَارُ الرُّوحِ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْحَرَارَةِ الْعَزِيزِيَّةِ الَّتِي تَبْعَثُهَا سُورَةُ الْخُمْرِ فِي الرُّوحِ مِنْ مِزَاجِهِ فَيَتَفَشَّى الرُّوحُ وَتَجِيءُ طَبِيعَةُ الْفَرَحِ وَكَذَلِكَ نَجِدُ الْمُتَنَعِّمِينَ بِالْحَمَامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا وَاتَّصَلَتْ حَرَارَةُ الْهَوَاءِ فِي أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ لِذَلِكَ حَدَثَ لَهُمْ فَرَحٌ وَرُبَّمَا انْبَعَثَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِالْفَنَاءِ النَّاشِءِ عَنِ السُّرُورِ . وَلَمَّا كَانَ السُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي الْإِقْلِيمِ الْحَارِّ وَاسْتَوْلَى الْحَرُّ عَلَى أَمْرَجِيَّتِهِمْ وَفِي أَصْلِ تَكْوِينِهِمْ كَانَ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَبْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ فَتَكُونُ أَرْوَاحُهُمْ بِالْقِيَاسِ إِلَى أَرْوَاحِ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا فَتَكُونُ أَكْثَرَ تَفَشِيًّا فَتَكُونُ أَسْرَعَ قَرَحًا وَسُرُورًا وَأَكْثَرَ انْبِسَاطًا وَيَجِيءُ الطَّيْشُ عَلَى أَثَرِ هَذِهِ وَكَذَلِكَ يَلْحَقُ بِهِمْ قَلِيلًا أَهْلُ الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ لَمَّا كَانَ هَوَاؤها مُتَضَاعِفَ الْحَرَارَةِ بِمَا يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ مِنْ أَضْوَاءِ بَسِيطِ الْبَحْرِ وَأَشْعَتِهِ كَانَتْ حِصَّتُهُمْ مِنْ تَوَابِعِ الْحَرَارَةِ فِي الْفَرَحِ وَالْخِفَةِ مَوْجُودَةً أَكْثَرَ مِنْ بِلَادِ الثَّلُولِ وَالْجِبَالِ الْبَارِدَةِ وَقَدْ نَجِدُ يَسِيرًا مِنْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ لِتَوَفُّرِ الْحَرَارَةِ فِيهَا وَفِي

هَوَائِهَا لِأَنَّهَا عَرِيقَةٌ فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْأَرْيَافِ وَالتُّلُولِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ أَيْضاً بِأَهْلِ مِصْرَ فَإِنَّهَا مِثْلُ عَرْضِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ أَوْ قَرِيباً مِنْهَا كَيْفَ غَلَبَ الْفَرَحُ عَلَيْهِمْ وَالْخُفَّةُ وَالْفَقْلَةُ عَنِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَذْخِرُونَ أَقْوَاتَ سَنَتِهِمْ وَلَا شَهْرَهُمْ وَعَامَّةُ مَا كُلَّيْهِمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ . وَلَمَّا كَانَتْ فَاسٌ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ بِالْعَكْسِ مِنْهَا فِي التَّوْغُلِ فِي التُّلُولِ الْبَارِدَةِ كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مُطْرِقِينَ إِطْرَاقَ الْحُزَنِ وَكَيْفَ أَفْرَطُوا فِي نَظَرِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَذْخِرُ قُوْتَ سَنَتَيْنِ مِنْ حُبُوبِ الْحِنْطَةِ وَيُبَاكِرُ الْأَسْوَاقَ لِشِرَاءِ قُوْتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةً أَنْ يُزْرَأَ^(١) شَيْئاً مِنْ مُدْخَرِهِ وَتَتَّعِ ذَلِكَ فِي الْأَقَالِيمِ وَبِلْدَانِ تَجِدُ فِي الْأَخْلَاقِ أَثْراً مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْهَوَاءِ وَاللَّهِ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ وَقَدْ تَعَرَّضَ الْمَسْعُودِيُّ لِلْبَحْثِ عَنِ السَّبَبِ فِي خُفَّةِ السُّودَانِ وَطَيْشِهِمْ وَكَثْرَةِ الطَّرَبِ فِيهِمْ وَحَاوَلَ تَغْلِيلَهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِينُوسَ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيِّ أَنَّ ذَلِكَ لِيُضْعِفَ أَدَمِيَّتَهُمْ وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنْ ضَعْفِ عُقُولِهِمْ وَهَذَا كَلَامٌ لَا مُحْصَلَ لَهُ وَلَا بُرْهَانَ فِيهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

المقدمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك

من الآثار في ابدان البشر وأخلاقهم

إِغْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَقَالِيمَ الْمُعْتَدِلَةَ لَيْسَ كُلُّهَا يُوجَدُ بِهَا الْخِصْبُ وَلَا كُلُّ سُكَّانِهَا فِي رَغْدٍ مِنَ الْعَيْشِ بَلْ فِيهَا مَا يُوجَدُ لِأَهْلِهِ خِصْبُ الْعَيْشِ مِنَ الْحُبُوبِ وَالْأَدَمِ وَالْحِنْطَةِ وَالْفَوَاكِهِ لِزَكَاءِ الْمَنَاطِيطِ وَاعْتِدَالِ الطَّيْنَةِ وَوُفُورِ الْعُمَرَانِ وَفِيهَا الْأَرْضُ الْخَرَّةُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ زَرْعاً وَلَا عِشْباً بِالْجُمْلَةِ فَسُكَّانُهَا فِي شَطَفٍ مِنَ الْعَيْشِ مِثْلُ

(١) أَنْ يَنْقُصَ .

أَهْلِي الْحِجَازِ وَجَنُوبَ الْيَمَنِ وَمِثْلَ الْمُثْمِينِ مِنْ صِنْهَاجَةِ السَّاكِينِ بِصَخْرَاءِ
 الْمَغْرِبِ وَأَطْرَافِ الرَّمَالِ فِيمَا بَيْنَ الْبَرْبَرِ وَالسُّودَانِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَفْقِدُونَ الْحُبُوبَ
 وَالْأَدَمَ جُمْلَةً وَإِنَّمَا أَغْدِيَتُهُمْ وَأَقْوَاتُهُمْ الْأَلْبَانُ وَاللَّحُومُ وَمِثْلُ الْعَرَبِ أَيْضًا الْجَائِلِينَ فِي
 الْقِفَارِ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْحُبُوبَ وَالْأَدَمَ مِنَ التَّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَخَايِينِ
 وَتَحْتَ رِبْقَةٍ مِنْ حَامِيَّتِهَا وَعَلَى الْإِقْلَالِ لِقَلَّةٍ وَجِدِهِمْ فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سَدِّ
 الْخَلَّةِ ^(١) أَوْ دُونَهَا فَضْلًا عَنِ الرُّغْدِ وَالْخَضْبِ وَتَجِدُهُمْ يَقْتَصِرُونَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ
 عَلَى الْأَلْبَانِ وَتَعْوِضُهُمْ مِنَ الْحِنْطَةِ أَحْسَنَ مَعَاضٍ وَتَجِدُ مَعَ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْفَاقِدِينَ
 لِلْحُبُوبِ وَالْأَدَمِ مِنْ أَهْلِ الْقِفَارِ أَحْسَنَ حَالًا فِي جُسُومِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَهْلِ التَّلُولِ
 الْمُتَغَمِّسِينَ فِي الْعَيْشِ قَالُوا إِنَّهُمْ أَضْفَى وَأَبْدَانُهُمْ أَتْقَى وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحْسَنُ وَأَخْلَاقُهُمْ
 أَبْعَدُ مِنَ الْإِنْحِرَافِ وَأَذْهَانُهُمْ أَثَقَبُ فِي الْمَعَارِفِ وَالْإِذْرَاكَاتِ هَذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ
 التَّجَرُّبَةُ فِي كُلِّ جِيلٍ مِنْهُمْ فَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ فِيمَا وَصَفْنَاهُ وَبَيْنَ
 الْمُثْمِينِ وَأَهْلِ التَّلُولِ يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ خَبَرَهُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ كَثْرَةَ
 الْأَغْذِيَةِ وَكَثْرَةَ الْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ الْعَفْنَةِ وَرُطُوبَاتِهَا تُولَدُ فِي الْجِسْمِ فَضْلًا رَدِيئَةً
 تَنْشَأُ عَنْهَا بَعْدَ أَفْظَارِهَا فِي غَيْرِ نَسَبَةٍ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ انْكِسَافُ الْأَلْوَانِ وَقُبْحُ الْأَشْكَالِ
 مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ كَمَا قُلْنَا وَتَغْطِي الرُّطُوبَاتُ عَلَى الْأَذْهَانِ وَالْأَفْكَارِ بِمَا يَضَعِدُ إِلَى
 الدَّمَاعِ مِنْ أَنْبِخَرَتِهَا الرُّدِيَّةِ فَتُجَيءُ الْبِلَادَةُ وَالْغَفْلَةُ وَالْإِنْحِرَافُ عَنِ الْإِعْتِدَالِ
 بِالْجُمْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي حَيَوَانِ الْفَقْرِ وَمَوَاطِنِ الْجَذْبِ مِنَ الْغَزَالِ وَالنَّعَامِ وَالْمَهَا
 وَالزَّرَافَةِ وَالْحُمْرِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْبَقَرِ مَعَ أَمْثَالِهَا مِنْ حَيَوَانِ التَّلُولِ وَالْأَزْيَافِ وَالْمَرَاعِي
 الْخَصْبَةِ كَيْفَ تَجِدُ بَيْنَهَا بَوْنًا يَبْعِدُ فِي صَفَاءِ أَدِيمِهَا وَحُسْنِ رَوْنِقِهَا وَأَشْكَالِهَا
 وَتَنَاسُبِ أَعْضَائِهَا وَحِدَّةِ مَدَارِكِهَا فَالْغَزَالُ أَخُو الْمَعَزِ وَالزَّرَافَةُ أَخُو الْبَيْعِيرِ وَالْحِمَارُ
 وَالْبَقَرُ أَخُو الْحِمَارِ وَالْبَقَرُ وَالْبَوْنُ بَيْنَهُمَا مَا رَأَيْتَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَجْلِ أَنَّ الْخَضْبَ فِي
 التَّلُولِ فَعَلَ فِي أَبْدَانِ هَذِهِ مِنَ الْفَضَلَاتِ الرُّدِيَّةِ وَالْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ مَا ظَهَرَ عَلَيْهَا

(١) الفقر والحاجة (قاموس)

أَثَرُهُ وَالْجُوعُ لِحَيَوَانِ الْقَفْرِ حَسَنٌ فِي خَلْقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي
الْأَدَمِيِّينَ أَيْضاً فَإِنَّا نَجِدُ أَهْلَ الْأَقَالِيمِ الْمُخَصَّصَةِ الْعَيْشَ الْكَثِيرَةَ الزَّرْعَ وَالضَّرْعَ وَالْأَدَمِ
وَالْفَوَاكِهَ يَتَّصِفُ أَهْلُهَا غَالِباً بِالْبِلَادَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَالْخُسُونَةِ فِي أَجْسَامِهِمْ وَهَذَا شَأْنُ
الْبَرِّبَرِ الْمُتَنَفِّسِينَ فِي الْأَدَمِ وَالْحِنْطَةِ مَعَ الْمُتَقَشِّفِينَ فِي عَيْشِهِمُ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى
الشَّعِيرِ أَوْ الذَّرَّةِ مِثْلَ الْمَصَامِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلُ غِمَارَةِ وَالسُّوسِ فَتَجِدُ هَؤُلَاءِ أَحْسَنَ خَالاً
فِي عُقُولِهِمْ وَجُسُومِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ بِلَادِ الْمَغْرِبِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُتَنَفِّسِينَ فِي الْأَدَمِ وَالْبَرِّ
مَعَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الْمَفْقُودِ بِأَرْضِهِمُ السُّنْ حُمْلَةً وَغَالِبُ عَيْشِهِمُ الذَّرَّةُ فَتَجِدُ لِأَهْلِ
الْأَنْدَلُسِ مِنْ ذِكَاةِ الْمَقُولِ وَخَفَةِ الْأَجْسَامِ وَقَبُولِ التَّغْلِيمِ مَا لَا يُوْجَدُ لِغَيْرِهِمْ وَكَذَا
أَهْلُ الصُّوَاغِي مِنَ الْمَغْرِبِ بِالْجُمْلَةِ مَعَ أَهْلِ الْخَضِرِ وَالْأَمْصَارِ فَإِنَّ الْأَمْصَارَ وَإِنْ
كَانُوا مُكَثَّرِينَ مِثْلَهُمْ مِنَ الْأَدَمِ وَمُخَصَّصِينَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا أَنَّ اسْتِعْمَالَهُمْ إِيَّاهَا بَعْدَ
الْعِلَاجِ بِالطَّبَخِ وَالتَّلْطِيفِ بِمَا يَخْلُطُونَ مَعَهَا فَيَذْهَبُ لِذَلِكَ غِلْظُهَا وَيَرِقُّ قِوَامُهَا
وَعَامَّةُ مَا كُلُّهُمْ لُحُومُ الضَّأْنِ وَالذَّجَاجِ وَلَا يَغْبِطُونَ^(١) السُّنْ مِنْ بَيْنِ الْأَدَمِ لِتَفَاهِتِهِ
فَتَقُلُّ الرُّطُوبَاتُ لِذَلِكَ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَيَخَفُ مَا تُؤْذِيهِ إِلَى أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْفَضَلَاتِ
الرَّدِيَّةِ فَلِذَلِكَ تَجِدُ جُسُومَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَلْفَافٍ مِنْ جُسُومِ الْبَادِيَةِ الْمُخَشَّينَ فِي
الْعَيْشِ وَكَذَلِكَ تَجِدُ الْمُعْوَدِينَ بِالْجُوعِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لَا فَضْلَاتَ فِي جُسُومِهِمْ
غَلِيظَةً وَلَا لَطِيفَةً . وَاعْلَمْ أَنَّ أَثَرَهُ هَذَا الْخَضْبِ فِي الْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ يَظْهَرُ حَتَّى فِي حَالِ
الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ فَتَجِدُ الْمُتَقَشِّفِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَوْ الْحَاضِرَةِ مِمَّنْ يَأْخُذُ نَفْسَهُ
بِالْجُوعِ وَالتَّجَافِي عَنْ الْمَلَادُ أَحْسَنَ دِيناً وَاقْبَالاً عَلَى الْعِبَادَةِ مِنْ أَهْلِ التَّرَفِ
وَالْخَضْبِ بَلْ نَجِدُ أَهْلَ الدِّينِ قَلِيلِينَ فِي الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ لِمَا يَعْمُرُهَا مِنَ الْقَسَاوَةِ
وَالْفُغْلَةِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْإِكْثَارِ مِنَ اللَّحْمَانِ وَالْأَدَمِ وَلُبَابِ الْبَرِّ وَيَخْتَصُّ وَجُودُ الْعِبَادِ
وَالزُّهَادِ لِذَلِكَ بِالْمُتَقَشِّفِينَ فِي غِذَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبُؤَادِي وَكَذَلِكَ نَجِدُ هَؤُلَاءِ
الْمُخَصَّصِينَ فِي الْعَيْشِ الْمُتَنَفِّسِينَ فِي طَيِّبَاتِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَمِنْ أَهْلِ الْخَوَاصِرِ

(١) لَا يَكْثُرُونَ مِنْ اسْتِعْمَالِ السُّنْ وَلَا يَلْتَزِمُونَهُ فِي أَدَمِهِمْ .

وَالْأَمْصَارُ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ السَّنُونَ ^(١) وَأَخَذَتْهُمْ الْمَجَاعَاتُ يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْهَلَاكُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ مِثْلُ بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِ مَدِينَةِ فَاسَ وَمِصْرَ فِيمَا يَبْلُغُنَا لَا مِثْلَ الْعَرَبِ أَهْلِ الْقَفْرِ وَالصَّحْرَاءِ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ بِلَادِ النَّخْلِ الَّذِينَ غَالِبَ عَيْشِهِمُ التَّمَرُ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِينَ غَالِبَ عَيْشِهِمُ الشَّعِيرُ وَالزَّيْتُ وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ غَالِبَ عَيْشِهِمُ الذُّرَّةَ وَالزَّيْتُ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ وَإِنْ أَخَذَتْهُمْ السَّنُونَ وَالْمَجَاعَاتُ فَلَا تَنَالُ مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أَوْلِيكَ وَلَا يَكْثُرُ فِيهِمُ الْهَلَاكُ بِالْجُوعِ بَلْ وَلَا يَنْدُرُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَغَمِّسِينَ فِي الْخَضْبِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلْأَدَمِ وَالسَّمَنِ خُصُوصًا تَكْتَسِبُ مِنْ ذَلِكَ أَمْعَاؤُهُمْ رُطُوبَةً فَوْقَ رُطُوبَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ الْمِزَاجِيَّةِ حَتَّى تَجَاوِزَ حَدَّهَا فَإِذَا خُولِفَ بِهَا الْعَادَةُ بِقَلَّةِ الْأَقْوَاتِ وَفَقْدَانِ الْأَدَمِ وَاسْتِغْمَالِ الْخَشَنِ غَيْرِ الْمَالُوفِ مِنَ الْغِذَاءِ أَسْرَعَ إِلَى الْمَعَايِيسِ وَالْإِنْكَمَاشِ وَهُوَ ضَعِيفٌ فِي الْغَايَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَرَضُ وَيَهْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَةً لِأَنَّهُ مِنَ الْمُقَاتِلِ فَالْهَالِكُونَ فِي الْمَجَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الشَّعْ الْمُعْتَادُ السَّابِقُ لَا الْجُوعُ الْحَادِثُ الْآخِ قُ . وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدُونَ لِقَلَّةِ الْأَدَمِ ^(٢) وَالسَّمَنِ فَلَا تَزَالُ رُطُوبَتُهُمُ الْأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةً عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهِيَ قَائِلَةٌ لِجَمِيعِ الْأَغْذِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلَا يَقَعُ فِي مَعَاهِمُ بِتَبْدُلِ الْأَغْذِيَةِ يَبَسَ وَلَا انْحِرَافَ فَيَسْلَمُونَ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي يَغْرُضُ لِغَيْرِهِمْ بِالْخَضْبِ وَكَثْرَةِ الْأَدَمِ فِي الْمَاكِلِ وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ أَنَّ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَغْذِيَةَ وَائْتِلَافَهَا أَوْ تَرْكَهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْعَادَةِ فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ غِذَاءً وَلَا عَمَّةَ تَنَاوَلَهُ كَانَ لَهُ مَالُوفًا وَصَارَ الْخُرُوجُ عَنْهُ وَالتَّبَدُّلُ بِهِ دَاءٌ مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ غَرَضِ الْغِذَاءِ بِالْجُمْلَةِ كَالسُّمُومِ وَالْيَتُوعِ ^(٣) وَمَا أَفْرَطَ فِي الانْحِرَافِ فَأَمَّا مَا وَجَدَ فِيهِ التَّغْذِيَّ وَالْمَلَأَمَّةَ فَيَصِيرُ غِذَاءً مَالُوفًا بِالْعَادَةِ فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِاسْتِغْمَالِ اللَّبَنِ وَالْبَقْلِ عِوَضًا عَنِ الْحِنْطَةِ حَتَّى صَارَ لَهُ دَيْدَنًا فَقَدْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ

(١) السَّنُونَ ، ج السَّنَةِ ، الجذب والقحط (قاموس) .

(٢) فِي بَعْضِ النُّسخ ، أَمَّا الْمُتَعَوِّدُونَ لِلْعِمَةِ وَتَرَكَ الْأَدَمَ وَالْعِمَةَ شَهْوَةَ اللَّبَنِ (قاموس) .

(٣) قَالَ فِي الْقَامُوسِ الْيَتُوعُ كَصُورٍ أَوْ تَنْوَرُ نَبَاتٍ لَهُ لَبَنٌ دَارٍ مَسْهَلٌ مَحْرَقٌ مَقْطَعٌ وَالْمَشْهُورُ مِنْهُ سَبْعَةُ الشَّيْءِ وَاللَّاعِيَةِ وَالْعَرَطِيثَا وَالْمَاهُودَانَةُ وَالْمَازَرِيُونَ وَالْفَلْجَلِشَتِ وَالْعَشْرُ وَكُلُّ الْيَتُوعَاتِ إِذَا اسْتَعْمَلَتْ فِي غَيْرِ وَجْهِهَا أَهْلَكَتْ .

غذاءً واشتغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما يُنقل عن أهل الرياضيات فإننا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبةً يكاد يُنكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فإن النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادةً طبيعيتها لها وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعةً وقطع عنها الغذاء بالكلية فإنه حينئذ ينحسم المعاء ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك وأما إذا كان ذلك القدر تدريجاً ورياضةً بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً كما يفعل المتصوفة فهو بمنزلة عن الهلاك وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعةً خيف عليه الهلاك وإنما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصلاً وأكثر. وحضر أشيخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتئم ثديها في بعض النهار أو عند الإفطار ويكون ذلك غذاءً واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك. وأعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الإقلال منها وإن له أثراً في الأجسام والعقول في صفاتها وصلاحيها كما قلناه واعتبر ذلك بآثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسوم فقد رأينا المتغذيين بلحوم الحيوانات الفاحرة العظيمة الجثمان تنشأ أجيالهم كذلك وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا المتغذون باللبان الإبل ولحومها أيضاً مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والإختمال والقدرة على حمل الأثقال الموجود ذلك للإبل وتنشأ أمعاؤهم أيضاً على نسبة أمعاء الإبل

فِي الصَّحَّةِ وَالْعِلَاطِ فَلَا يَطْرُقُهَا الْوَهْنُ وَلَا يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ الْأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ
 فَيَشْرَبُونَ الْإِتِّوَاعَاتِ لِاسْتِطْلَاقِ بَطُونِهِمْ غَيْرَ مَخْجُوعِيَةٍ كَالْحَنْظَلِ قَبْلَ طَبِخِهِ
 وَالذَّرِّيَّاسِ وَالْقَرْيَبِيِّينَ وَلَا يَنَالُ أَمْعَاءَهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِيَ لَوْ تَنَاوَلَهَا أَهْلُ الْحَضَرِ
 الرِّقِيقَةُ أَمْعَاءُهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الْأَغْذِيَةِ لَكَانَ الْهَلَاكُ أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ
 طَرْفَةِ الْعَيْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ السَّمِيَةِ وَمِنْ تَأْثِيرِ الْأَغْذِيَةِ فِي الْأَبْدَانِ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ
 الْفِلَاحَةِ وَشَاهَدَهُ أَهْلُ التَّجَرِبَةِ أَنَّ الدَّجَاجَ إِذَا غُذِيَ بِالْحُبُوبِ الْمَطْبُوخَةِ فِي بَعْرِ
 الْإِبِلِ وَاتَّخَذَ بَيْضُهَا ثُمَّ خَضَّتْ عَلَيْهِ جَاءَ الدَّجَاجُ مِنْهَا أَغْظَمَ مَا يَكُونُ وَقَدْ
 يَسْتَعْنُونَ عَنْ تَغْذِيَّتِهَا وَطَبَخِ الْحُبُوبِ يَطْرَحُ ذَلِكَ الْبَعْرُ مَعَ الْبَيْضِ الْمُخَضَّنِ
 فَيُجِئُ دَجَاجَهَا فِي غَايَةِ الْعِظَمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فَإِذَا رَأَيْنَا هَذِهِ الْآثَارَ مِنَ
 الْأَغْذِيَةِ فِي الْأَبْدَانِ فَلَا شَكَّ أَنَّ لِلْجُوعِ أَيْضاً آثَاراً فِي الْأَبْدَانِ لِأَنَّ الضَّيْقَ عَلَى نِسْبَةِ
 وَاحِدَةٍ فِي التَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ الْجُوعِ فِي نَقَاءِ الْأَبْدَانِ مِنَ الزِّيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ
 وَالرُّطُوبَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُخْلَةِ بِالْجِسْمِ وَالْعَقْلِ كَمَا كَانَ الْغِذَاءُ مُؤَثِّراً فِي وَجُودِ ذَلِكَ
 الْجِسْمِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ .



المقدمة السادسة

في اصناف المدركين من البشر بالفطرة أو الرياضة

ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

إِغْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اضْطَفَى مِنَ الْبَشَرِ أَشْخَاصًا فَضَّلَهُمْ بِخَطَايِهِ وَقَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادِهِ يُعْرِفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ وَيَحَرِّضُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَيَأْخُذُونَ بِخُجَرَاتِهِمْ عَنِ النَّارِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ وَكَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى السَّنَنِ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْأَخْبَارِ الْكَائِنَاتِ الْمُغَيَّبَةِ عَنِ الْبَشَرِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنَ اللَّهِ بِوَسَاطَتِهِمْ وَلَا يَعْلَمُونَهَا إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ قَالَ ﷺ أَلَا وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ خَبَرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ خَاصِّيَّتِهِ وَضُرُورَتِهِ الصَّدْقُ لِمَا يَتَّبِعُنَّ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ وَعَلَامَةُ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ تَوْجَدَ لَهُمْ فِي حَالِ الْوَحْيِ غَيْبَةٌ عَنِ الْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ عَظِيمٍ كَأَنَّهَُا غَشِيَ أَوْ إِغْمَاءٌ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ اسْتِفْرَاقٌ فِي لِقَاءِ الْمَلِكِ الرُّوحَانِيِّ بِإِذْرَاكِهِمُ الْمُنَاسِبَ لَهُمُ الْخَارِجَ عَنْ مَدَارِكِ الْبَشَرِ بِالْكُلِّيَّةِ ثُمَّ يَنْتَزِلُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ إِمَّا بِسَمَاعِ دَوِيِّ مِنَ الْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ أَوْ يَتِمَثَّلُ لَهُ صُورَةً شَخْصٍ يُخَاطَبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ الْحَالِ وَقَدْ وَعَى مَا الْقِيَ إِلَيْهِ قَالَ ﷺ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْوَحْيِ «أَخْيَانًا يَأْتِيَنِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيَقْصِمُ^(١) عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَخْيَانًا يَتِمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْبِي مَا يَقُولُ» وَيَذَرُكَ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مِنْ

(١) يفصم عني ، يفارقتني

السَّيِّئَةِ وَالْفُطْرَ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ فِي الْحَدِيثِ كَانَ مِمَّا يُعَالَجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةُ (١)
وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَقْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينُهُ
لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا وَقَالَ تَعَالَى «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» وَلَأَجَلَ عَذَابَهُ الْغَايَةِ فِي تَنْزِيلِ
الْوَحْيِ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَزْمُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِالْجُنُونِ وَيَقُولُونَ لَهُ رَبِّي أَوْ تَابِعَ مِنَ الْجِنِّ
وَأِنَّمَا لُبَسَ عَلَيْهِمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
هَادٍ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُمْ قَبْلَ الْوَحْيِ خُلُقُ الْخَيْرِ وَالزَّكَاةِ وَمُجَانِبَةُ
الْمَذْمُومَاتِ وَالرَّجْسِ أَجْمَعَ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعِصْمَةِ وَكَأَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى التَّنَزُّهِ عَنِ
الْمَذْمُومَاتِ وَالْمُنَافَرَةِ لَهَا وَكَأَنَّهُا مُنَافِيَةٌ لِجَبَلِيَّتِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ حَمَلَ الْحِجَارَةَ وَهُوَ
غَلَامٌ مَعَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ فَأَنكَشَفَ فَسَقَطَ مَغْشِيًا عَلَيْهِ
حَتَّى اسْتَشْرَّ بِإِزَارِهِ وَدَعِيَ إِلَى مُجْتَمَعٍ وَلِيَمَّةٍ فِيهَا عُرْسٌ وَلِعَبٌ فَأَصَابَهُ غَشْيُ النَّوْمِ إِلَى
أَن طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَمْ يُخْضَرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ بَلْ نَزَّهَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ حَتَّى إِذَا
بَجَلَّتِيهِ يَتَنَزَّهُ عَنِ الْمَطْعُومَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ فَقَدْ كَانَ ﷺ لَا يَقْرُبُ الْبَصَلَ
وَالثُّومَ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ إِنِّي أَنَا جِي مِنْ لَا تَتَأَجُونَ وَانْظُرْ لِمَا أَخْبَرَ
النَّبِيُّ ﷺ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِحَالِ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَأَتْهُ وَأَرَادَتْ اخْتِبَارَهُ
فَقَالَتْ اجْعَلْنِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ ثَوْبِكَ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ فَقَالَتْ إِنَّهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ
بَشِيطَانٍ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرُبُ النِّسَاءَ وَكَذَلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ الثِّيَابِ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ
فِيهَا فَقَالَ الْبَيَاضُ وَالْخَضِرَةُ فَقَالَتْ إِنَّهُ الْمَلَكُ يَعْنِي أَنَّ الْبَيَاضَ وَالْخَضِرَةَ مِنَ أَلْوَانِ
الْخَيْرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالسَّوَادُ مِنَ أَلْوَانِ الشَّرِّ وَالشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ
أَيْضًا دُعَاؤُهُمْ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعِفَافِ وَقَدْ اسْتَدَلَّتْ خَدِيجَةُ
عَلَى صِدْقِهِ ﷺ بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَخْتَاجَا فِي أَمْرِهِ إِلَى دَلِيلٍ خَارِجٍ عَنْ
حَالِهِ وَخُلُقِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ هِرْقُلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَدْعُوهُ إِلَى
الْإِسْلَامِ أَخْضَرَ مَنْ وَجَدَ يَبْلُغُهُ مِنْ قَرِيشٍ وَفِيهِمْ أَبُو سَفْيَانَ لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حَالِهِ فَكَانَ

(١) الحديث : « كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل بشدة » رواه ابن عباس .

فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ بِهِ يَأْمُرُكُمْ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّلَةِ وَالْعَفَافِ إِلَى
 آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ فَقَالَ إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا فَهُوَ نَبِيٌّ وَسَيَمْلُكَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْ
 هَاتَيْنِ وَالْعَفَافُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرَقْلُ ^(١) هُوَ الْعِصْمَةُ فَانْظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ
 وَالِدُعَاءِ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوتِهِ وَلَمْ يَخْتِجْ إِلَى مُعْجَزَةٍ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ
 ذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنْ يَكُونُوا ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ وَفِي
 الصَّحِيحِ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي ثُرُوءِهِ مِنْ قَوْمِهِ
 اسْتَدْرَكَهُ الْحَاكِمُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ وَفِي مَسْئَلَةِ هِرَقْلَ لِأَبِي سَفْيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ
 قَالَ كَيْفَ هُوَ فِيكُمْ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ فَقَالَ هِرَقْلُ وَالرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي
 أَحْسَابِ قَوْمِهَا وَمَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِصْبَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ عَنْ أَذَى الْكُفَّارِ حَتَّى يَبْلُغَ
 رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيَتِمَّ مَرَادُ اللَّهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا وَقُوعُ
 الْخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةٌ بِصِدْقِهِمْ وَهِيَ أَفْعَالٌ يَعْجَزُ الْبَشَرُ عَنْ مِثْلِهَا فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ
 مُعْجَزَةً وَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ وَإِنَّمَا تَقَعُ فِي غَيْرِ مَحَلِّ قُدْرَتِهِمْ وَلِلنَّاسِ فِي
 كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ خِلَافٌ فَالْمُتَكَلِّمُونَ بِنَاءً عَلَى الْقَوْلِ
 بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَقِيعَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ لَا يَفْعَلُ النَّبِيُّ وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالُ
 الْعِبَادِ عِنْدَ الْمُعْتَزَلَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ إِلَّا أَنْ الْمُعْجَزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَفْعَالِهِمْ وَلَيْسَ
 لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحْدِي بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا
 النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ وَقُوعِهَا عَلَى صِدْقِهِ فِي مُدْعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنْزَلَتْ مَنْزِلَةَ الْقَوْلِ
 الصَّرِيحِ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ وَتَكُونُ دَلَالَتُهَا جَيْنُذَ عَلَى الصَّدَقِ قَطْعِيَّةً فَالْمُعْجَزَةُ
 الدَّالَّةُ بِمَجْمُوعِ الْخَارِقِ وَالتَّحْدِي وَلِذَلِكَ كَانَ التَّحْدِي جُزْأً مِنْهَا وَعِبَارَةً
 الْمُتَكَلِّمِينَ صِفَةً نَفْسَهَا وَهُوَ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ مَعْنَى الذَّاتِي عِنْدَهُمْ وَالتَّحْدِي هُوَ الْفَارِقُ
 بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكِرَامَةِ وَالسَّحَرِ إِذْ لَا حَاجَةَ فِيهِمَا إِلَى التَّصْدِيقِ فَلَا وَجُودَ لِلتَّحْدِي إِلَّا
 إِنْ وَجَدَ اتِّفَاقًا وَإِنْ وَقَعَ التَّحْدِي فِي الْكِرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُجَيِّزُهَا وَكَانَتْ لَهَا دَلَالَةٌ فَإِنَّمَا
 هِيَ عَلَى الْوِلَايَةِ وَهِيَ غَيْرُ النُّبُوَّةِ وَمِنْ هُنَا مَنَعَ الْأَسْتَاذُ أَبُو إِسْحَقَ وَغَيْرَهُ وَقُوعُ

(١) قوله الذي أشار إليه هرقل الظاهر أبو سفيان .

الْخَوَارِقِ كَرَامَةٍ فِرَاراً مِنَ الْإِلْتِبَاسِ بِالنَّبُوءَةِ عِنْدَ التَّحْدِي بِالْوَلَايَةِ وَقَدْ أَرَيْنَاكَ
الْمُعَايِرَةَ بَيْنَهُمَا وَإِنَّهُ يَتَّخِذُ بِغَيْرِ مَا يَتَّخِذُ بِهِ النَّبِيُّ فَلَا لِبَسِّ عَلَى أَنْ النُّقْلَ عَنْ
الْأَسَازِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ صَرِيحاً وَرُبَّمَا حَمَلَ عَلَى إِنْكَارٍ لِأَنْ تَقَعَ خَوَارِقُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ
بِنَاءً عَلَى اخْتِصَاصِ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِخَوَارِقِهِ . وَأَمَّا الْمُعْتَزَلَةُ فَالْمَنْعُ مِنْ وَقُوعِ
الْكِرَامَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْخَوَارِقَ لَيْسَتْ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَأَعْمَالُهُمْ مُعْتَادَةٌ فَلَا فَرْقَ وَأَمَّا
وَقُوعُهَا عَلَى يَدِ الْكَاذِبِ تَلْبِيساً فَهُوَ مُحَالٌ أَمَّا عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ فَلَأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ
الْمُعْجِزَةِ التَّصْدِيقُ وَالْهِدَايَةُ فَلَوْ وَقَعَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ انْقَلَبَ الدَّلِيلُ شُبْهَةً وَالْهِدَايَةُ
ضَلَالَةً وَالتَّصْدِيقُ كَذِباً وَاسْتَحَالَتِ الْحَقَائِقُ وَانْقَلَبَتِ صِفَاتُ النَّفْسِ وَمَا يُلْزَمُ مِنْ
فَرْضِ وَقُوعِهِ الْمُحَالِ لَا يَكُونُ مُمَكِّناً وَأَمَّا عِنْدَ الْمُعْتَزَلَةِ فَلَأَنَّ وَقُوعَ الدَّلِيلِ شُبْهَةً
وَالْهِدَايَةُ ضَلَالَةً فَبَيْحٌ فَلَا يَقَعُ مِنَ اللَّهِ . وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ فَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ
النَّبِيِّ وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ مَحَلِّ الْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي الْإِيجَابِ الدَّائِيَّ وَوَقُوعِ
الْحَوَادِثِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ مُتَوَقَّفٌ عَلَى الْأَسْبَابِ وَالشُّرُوطِ الْحَادِثَةِ مُسْتَنِدَّةٌ أَخيراً
إِلَى الْوَاجِبِ الْفَاعِلِ بِالذَّاتِ لَا بِالِاخْتِيَارِ وَإِنَّ النَّفْسَ النَّبَوِيَّةَ عِنْدَهُمْ لَهَا خَوَاصُّ
ذَاتِيَّةٌ مِنْهَا صُدُورُ هَذِهِ الْخَوَارِقِ بِقُدْرَتِهِ وَطَاعَةِ الْعُنَاصِرِ لَهُ فِي التَّكْوِينِ وَالنَّبِيُّ
عِنْدَهُمْ مُجْبُولٌ عَلَى التَّضْرِيفِ ^(١) فِي الْأَكْوَانِ مِنْهَا تَوَجُّهُ إِلَيْهَا وَاسْتَجْمَاعُ لَهَا بِمَا جَعَلَ
اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سِوَاءَ كَانَ لِلتَّحْدِي أَمْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ
شَاهِدٌ بِصِدْقِهِ مِنْ حَيْثُ دَلَالَتُهُ عَلَى تَصَرُّفِ النَّبِيِّ فِي الْأَكْوَانِ الَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ
النَّفْسِ النَّبَوِيَّةِ لَا بِأَنَّهُ يَنْتَزِلُ مَنْزِلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ بِالتَّصْدِيقِ فَلِذَلِكَ لَا تَكُونُ
دَلَالَتُهَا عِنْدَهُمْ قَطْعِيَّةً كَمَا هِيَ عِنْدَ الْمُشْكَلِيمِينَ وَلَا يَكُونُ التَّحْدِي جِزْأً مِنَ الْمُعْجِزَةِ
وَلَمْ يَصَحَّ فَارِقاً لَهَا عَنِ السَّخَرِ وَالْكِرَامَةِ وَفَارِقُهَا عِنْدَهُمْ عَنِ السَّخَرِ أَنَّ النَّبِيَّ مُجْبُولٌ
عَلَى أَعْمَالِ الْخَيْرِ مَضْرُوفٌ عَنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ فَلَا يَلُمُّ الشَّرَّ بِخَوَارِقِهِ وَالسَّاحِرُ عَلَى الضَّدِّ
فَأَعْمَالُهُ كُلُّهَا شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ الشَّرِّ وَفَارِقُهَا عَنِ الْكِرَامَةِ أَنَّ خَوَارِقَ النَّبِيِّ مَخْصُوصَةٌ

(١) صرفه في الأمر ، فَوْضُ الْأَمْرِ إِلَيْهِ (قاموس)

كَالصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَالنُّفُودِ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ وَإِخْيَاءِ الْمَوْتَى وَتَكْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ
وَالطَّيْرَانِ فِي الْهَوَاءِ وَخَوَارِقِ الْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ كَتَكْثِيرِ الْقَلِيلِ وَالْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ
الْمُسْتَقْبَلِ وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَضْرِيفِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَأْتِي النَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ
وَلَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْمُتَصَوِّفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي
طَرِيقَتِهِمْ وَلَقْنُوهُ عَنْ أَخْبَرَهُمْ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ الْمُعْجَزَاتِ وَأَشْرَفَهَا
وَأَوْضَحَهَا دِلَالَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمُنْزَلُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّ الْخَوَارِقَ فِي
الْغَالِبِ تَقَعُ مُغَايِرَةً لِلْوَحْيِ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ النَّبِيُّ وَيَأْتِي بِالْمُعْجَزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ
وَالْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ الْوَحْيُ الْمُدْعَى وَهُوَ الْخَارِقُ الْمُعْجَزُ فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَفْتَقِرُ
إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرٍ لَهُ كَسَائِرِ الْمُعْجَزَاتِ مَعَ الْوَحْيِ فَهُوَ أَوْضَحُ دِلَالَةٍ لِاتِّحَادِ الدَّلِيلِ
وَالْمَذْلُولِ فِيهِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَاتَى مِنَ الْآيَاتِ
مَا مِثْلُهُ أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحِيَ إِلَيَّ فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ
أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُعْجَزَةَ مَتَى كَانَتْ بِهَذِهِ الْمَثَانِيَةِ فِي
الْوُضُوحِ وَقُوَّةِ الدَّلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسَ الْوَحْيِ كَانَ الصَّدَقُ لَهَا أَكْثَرَ لَوْضُوحَهَا فَكَثُرَ
الْمُصَدِّقُ الْمُؤْمِنُ وَهُوَ التَّابِعُ وَالْأُمَّةُ .



وَلنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من
المحققين

ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شان العرافين

وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

إِعلم . أَرشدنا الله وإياك أَنَا نُشاهدُ هذا العالمَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا
عَلَى هَيْئَةٍ مِنَ التَّرْتِيبِ وَالْإِحْكَامِ وَرَبَطَ الْأَسْبَابَ بِالْمُسَبِّبَاتِ وَاتَّصَلَ الْأَكْوَانُ
بِالْأَكْوَانِ وَاسْتَحَالَتْ بَعْضُ الْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ لَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ فِي ذَلِكَ وَلَا
تَنْتَهِي غَايَاتُهُ وَأَبْدَأَ مِنْ ذَلِكَ بِالْعَالَمِ الْمَخْسُوسِ الْجُثْمَانِيِّ وَأَوَّلًا عَالَمَ الْعُنَاصِرِ
الْمُشَاهِدَةِ كَيْفَ تَدْرُجُ صَاعِدًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْمَاءِ ثُمَّ إِلَى الْهَوَاءِ ثُمَّ إِلَى النَّارِ مُتَّصِلًا
بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُسْتَعِدٌّ إِلَى أَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِدًا وَهَاطِبًا
وَيَسْتَحِيلُ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ وَالصَّاعِدُ مِنْهَا أَلْفٌ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عَالَمِ
الْأَفْلَاقِ وَهُوَ أَلْفٌ مِنَ الْكُلِّ عَلَى طَبَقَاتٍ اتَّصَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يُدْرِكُ
الْحِسُّ مِنْهَا إِلَّا الْحَرَكَاتِ فَقَطْ وَبِهَا يَهْتَدِي بَعْضُهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِهَا وَأَوْضَاعِهَا
وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ وُجُودِ الذَّوَاتِ الَّتِي لَهَا هَذِهِ الْأَثَارُ فِيهَا ثُمَّ انْظُرْ إِلَى عَالَمِ التَّكْوِينِ
كَيْفَ ابْتَدَأَ مِنَ الْمَعَادِنِ ثُمَّ النَّبَاتِ ثُمَّ الْحَيَوَانِ عَلَى هَيْئَةٍ بَدِيعَةٍ مِنَ التَّدْرِيجِ آخِرُ
أَفْقِ الْمَعَادِنِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلَ الْخَشَائِشِ وَمَا لَا بَذْرَ لَهُ وَآخِرُ أَفْقِ
النَّبَاتِ مِثْلَ النَّخْلِ وَالْكَرْمِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ الْحَيَوَانِ مِثْلَ الْحَلَزُونِ وَالصَّدَفِ وَلَمْ
يُوجَدْ لِهَما إِلَّا قُوَّةُ اللَّمْسِ فَقَطْ وَمَعْنَى الْإِتِّصَالِ فِي هَذِهِ الْمَكُونَاتِ أَنَّ آخِرَ أَفْقٍ مِنْهَا

مُسْتَعِدٌّ بِالِاسْتِعْدَادِ الْغَرِيبِ^(١) لِأَن يَصِيرَ أَوَّلَ أَفْقِ الَّذِي بَعْدَهُ وَاتَّسَعَ عَالَمُ الْحَيَوَانِ وَتَعَدَّدَتْ أَنْوَاعُهُ وَانْتَهَى فِي تَذْرِيجِ التَّكْوِينِ إِلَى الْإِنْسَانِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالرُّوْيَةِ تَرْتَفَعُ إِلَيْهِ مِنْ عَالَمِ الْقُدْرَةِ^(٢) الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ الْحِسُّ وَالْإِذْرَاكُ وَلَمْ يَنْتَهَ إِلَى الرُّوْيَةِ وَالْفِكْرِ بِالْفِعْلِ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ أَفْقٍ مِنَ الْإِنْسَانِ بَعْدَهُ وَهَذَا غَايَةُ شُهُودِنَا ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي الْعَوَالِمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا أَثَاراً مُتَنَوِّعَةً فِيهِ عَالَمُ الْحِسِّ أَثَارٌ مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلَاكِ وَالْعَنَاصِرِ وَفِي عَالَمِ التَّكْوِينِ أَثَارٌ مِنْ حَرَكَةِ النُّمُو وَالْإِذْرَاكِ تَشْهَدُ كُلُّهَا بِأَنَّ لَهَا مُؤَثَّرًا مُبَازِنًا لِلْأَجْسَامِ فَهُوَ رُوحَانِيٌّ وَيَتَّصِلُ بِالْمَكُونَاتِ لَوْجُودِ اتِّصَالِ هَذَا الْعَالَمِ فِي وُجُودِهَا وَلِذَلِكَ هُوَ النَّفْسُ الْمُدْرِكَةُ وَالْمُحَرَّكَةُ وَلَا بُدَّ فَوْقَهَا مِنْ وُجُودِ آخَرَ يُعْطِيهَا قُوَى الْإِذْرَاكِ وَالْحَرَكَةِ وَيَتَّصِلُ بِهَا أَيْضًا وَيَكُونُ ذَاتُهُ إِذْرَاكًا صَرَفًا وَتَعْقُلًا مَخْصُصًا وَهُوَ عَالَمُ الْمَلَائِكَةِ فَوَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ لِلنَّفْسِ اسْتِعْدَادٌ لِلْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ لِيَصِيرَ بِالْفِعْلِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَقْتًا مِنَ الْأَوْقَاتِ فِي لَمَحَةٍ مِنَ اللَّمَحَاتِ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَكْمَلَ ذَاتُهَا الرُّوحَانِيَّةُ بِالْفِعْلِ كَمَا نَذَكُرُهُ بَعْدَ وَيَكُونُ لَهَا اتِّصَالٌ بِالْأَفْقِ الَّذِي بَعْدَهَا شَأْنُ الْمَوْجُودَاتِ الْمُرْتَبَةِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ فَلَهَا فِي الْإِتِّصَالِ جِهَتَا الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ وَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْبَدَنِ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهَا وَتَكْتَسِبُ بِهِ الْمُدَارِكَ الْحِسِّيَّةَ الَّتِي تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْحُصُولِ عَلَى التَّعْقُلِ بِالْفِعْلِ وَمُتَّصِلَةٌ مِنْ جِهَةِ الْأَعْلَى مِنْهَا بِأَفْقِ الْمَلَائِكَةِ وَمُكْتَسِبَةٌ بِهِ الْمُدَارِكَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْعَيْنِيَّةَ فَإِنَّ عَالَمَ الْخَوَادِثِ مَوْجُودٌ فِي تَعَقُّلَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ زَمَانٍ وَهَذَا عَلَى مَا قَدْ مَنَاهُ مِنَ التَّرْتِيبِ الْمُحْكَمِ فِي الْوُجُودِ بِاتِّصَالِ ذَوَاتِهِ وَقَوَاهُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ غَائِبَةً عَنِ الْعِيَانِ وَأَثَارُهَا ظَاهِرَةٌ فِي الْبَدَنِ فَكَأَنَّهُ وَجَمِيعُ أَجْزَائِهِ مُجْتَمِعَةٌ وَمُفْتَرَقَةٌ آلَاتٌ لِلنَّفْسِ وَلِقَوَاهَا أَمَا الْفَاعِلِيَّةُ فَالْبَطْشُ بِالْيَدِ وَالْمَشْيُ بِالرَّجْلِ وَالْكَلَامُ بِاللِّسَانِ وَالْحَرَكَةُ الْكُلِّيَّةُ بِالْبَدَنِ مُتَدَايِعًا وَأَمَا الْمُدْرِكَةُ وَإِنْ كَانَتْ قُوَى الْإِذْرَاكِ مُرْتَبَةً

(١) وفي بعض النسخ : القريب وليس لهما أي معنى هنا . والمرجح أنها محرفة عن كلمة غريزي .

(٢) كذا في جميع النسخ ما عدا نسخة لجنة البيان العربي ، القردة وهي منسجمة مع سياق معنى العبارة

وَمَرْتَبِيَّةٌ إِلَى الْقُوَّةِ الْعَلِيَا مِنْهَا وَمِنَ الْمَفَكْرَةِ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالنَّاطِقِيَّةِ فَقُوَى الْحِسِّ
الظَّاهِرَةِ بِأَلَاتِهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائِرِهَا يَرْتَقِي إِلَى الْبَاطِنِ وَأَوَّلُهُ الْحِسُّ
الْمُشْتَرِكُ وَهُوَ قُوَّةٌ تَذَرُكَ الْمَحْسُوسَاتِ مُبْصَرَةً وَمَسْمُوعَةً وَمَلْمُوسَةً وَغَيْرَهَا فِي حَالَةٍ
وَاحِدَةٍ وَبِذَلِكَ فَارَقَتْ قُوَّةَ الْحِسِّ الظَّاهِرِ لِأَنَّ الْمَحْسُوسَاتِ لَا تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا فِي
الْوَقْتِ الْوَاحِدِ ثُمَّ يُؤَدِّيهِ الْحِسُّ الْمُشْتَرِكُ إِلَى الْخِيَالِ وَهِيَ قُوَّةٌ تُمَثِّلُ الشَّيْءَ
الْمَحْسُوسَ فِي النَّفْسِ كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطْ وَاللَّهُ هَاتَيْنِ الْقَوَتَيْنِ فِي
تَضْرِيْفِهِمَا الْبَطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الدِّمَاغِ مُقَدِّمُهُ لِلأَوَّلَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلثَّانِيَةِ ثُمَّ يَرْتَقِي الْخِيَالُ
إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةِ فَالْوَاهِمَةُ لِإِذْرَاكِ الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ كَعَدَاوَةِ زَيْدٍ
وَصَدَاقَةِ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ الْأَبِ وَافْتِرَاسِ الذَّنْبِ وَالْحَافِظَةُ لِإِنْدَاعِ الْمَذَرَكَاتِ كُلِّهَا
مُتَخَيِّلَةٌ وَهِيَ لَهَا كَالْخَزَانَةِ تَحْفَظُهَا لَوْقَتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَاللَّهُ هَاتَيْنِ الْقَوَتَيْنِ فِي
تَضْرِيْفِهِمَا الْبَطْنُ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدِّمَاغِ أَوَّلُهُ لِلأَوَّلَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلْآخِرَى ثُمَّ تَرْتَقِي
جَمِيعُهَا إِلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ وَآلَتُهُ الْبَطْنُ الْأَوْسَطُ مِنَ الدِّمَاغِ وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَقَعُ بِهَا
حَرَكََةُ الرُّؤْيَا وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ التَّعْقُلِ فَتَحْرُكُ النَّفْسُ بِهَا دَائِمًا لِمَا رُكِبَ فِيهَا مِنَ
النُّزُوعِ لِلتَّخْلِصِ مِنْ دَرَكِ الْقُوَّةِ وَالِاسْتِعْدَادِ الَّذِي لِلْبَشَرِيَّةِ وَتَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ فِي
تَعْقُلِهَا مُتَشَبِّهَةً بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي
إِذْرَاكِهَا بِغَيْرِ الْآلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ فَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ وَقَدْ تَنْسَلِخُ
بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ بَلْ
بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجَبَلَةِ وَالْفِطْرَةِ الْأَوَّلَى فِي ذَلِكَ .

أَصْنَافُ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ

إِنَّ النُّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ عَاجِزٌ بِالطَّبْعِ عَنِ الْوُصُولِ
فَيَنْقَطِعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الْجِهَةِ السُّفْلَى نَحْوَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ وَتَرْكِيبُ
الْمَعَانِي مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَاهِمَةِ عَلَى قَوَانِينٍ مَخْصُورَةٍ وَتَرْتِيبٍ خَاصٍّ يَسْتَفِيدُونَ بِهِ
الْعُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصْدِيقِيَّةَ الَّتِي لِلْفِكْرِ فِي الْبَدَنِ وَكُلِّهَا خَيَالِيٌّ مُنْخَصَرٌّ نِطَاقُهُ إِذْ

هُوَ مِنْ جِهَةٍ مُبْدَاهُ يَنْتَهِي إِلَى الْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا وَإِنْ فَسَدَ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا وَهَذَا هُوَ فِي الْأَغْلَبِ نِطاقُ الْإِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي مَذَارِكُ الْعُلَمَاءِ وَفِيهِ تَرْسُخُ أَقْدَامُهُمْ . وَصِنْفٌ مُتَوَجِّعٌ بِتِلْكَ الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ نَحْوُ الْعَقْلِ الرُّوحَانِيِّ وَالْإِدْرَاكِ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْأَلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ الْإِسْتِعْذَادِ لِدَبَائِهَا فَيَتَسَّعُ نِطاقُ إِدْرَاكِهَا عَنِ الْأَوَّلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ نِطاقُ الْإِدْرَاكِ الْأَوَّلِ الْبَشَرِيِّ وَيَسْرُحُ فِي فضاءِ الْمُشَاهَدَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَهِيَ وَجْدَانٌ كُلُّهَا نِطاقٌ مِنْ مُبْدَاهَا وَلَا مِنْ مُنْتَهَاهَا وَهَذِهِ مَذَارِكُ الْعُلَمَاءِ الْأَوْلِيَاءِ أَهْلِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الرُّبَانِيَّةِ وَهِيَ الْحَاصِلَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ فِي الْبَرْزَخِ .

الوحي

وَصِنْفٌ مَفْطُورٌ عَلَى الْإِنْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ جُمْلَةً جِسْمَانِيَّتِهَا وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى لِيَصِيرَ فِي لَمْحَةٍ مِنَ اللَّمَحَاتِ مَلَكًا بِالْفِعْلِ وَيَخْصُلَ لَهُ شُهُودُ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى فِي أَفْقِهِمْ وَسَمَاعِ الْكَلَامِ النَّفْسَانِيِّ وَالْخِطَابِ الْإِلَهِيِّ فِي تِلْكَ اللَّمْحَةِ وَهَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْإِنْسِلَاخَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ فِي تِلْكَ اللَّمْحَةِ وَهِيَ حَالَةُ الْوَحْيِ فِطْرَةً فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا وَجَبَلَهُ صَوْرَهُمْ فِيهَا وَنَزَّهَهُمْ عَنْ مَوَانِعِ الْبَدَنِ وَعَوَائِقِهِ مَا دَامُوا مُلَاسِّينَ لَهَا بِالْبَشَرِيَّةِ بِمَا رُكِبَ فِي غَرَائِزِهِمْ مِنَ الْقَضِيدِ وَالْإِسْتِقَامَةِ الَّتِي يُحَادِّثُونَ بِهَا تِلْكَ الْوَجْهَةَ وَرُكُزَ فِي طَبَائِعِهِمْ رَغْبَةً فِي الْعِبَادَةِ تُكْشِفُ بِتِلْكَ الْوَجْهَةِ وَتُسَبِّغُ نَحْوَهَا فَهُمْ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ بِذَلِكَ النَّوعِ مِنَ الْإِنْسِلَاخِ مَتَى شَاءُوا بِتِلْكَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرُوا عَلَيْهَا لَا بِاِحْتِسَابٍ وَلَا صِنَاعَةٍ فَلِذَا تَوَجَّهُوا وَانْسَلَخُوا عَنْ بَشَرِيَّتِهِمْ وَتَلَقَّوْا فِي ذَلِكَ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى مَا يَتَلَقَّوْنَهُ ، وَعَاجَوْا بِهِ عَلَى الْمَذَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مُنْزِلًا فِي قُوَاهَا لِحِكْمَةِ التَّبْلِيغِ لِلْعِبَادِ فَتَارَةً يَسْمَعُ أَحَدُهُمْ دَوِيًّا كَأَنَّهُ رَمَزٌ مِنَ الْكَلَامِ يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَعْنَى الَّذِي أَلْقَى إِلَيْهِ فَلَا يَنْقُضِي الدَّوِيَّ إِلَّا وَقَدْ وَعَاهُ وَفَهِمَهُ وَتَارَةً يَتِمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُلْقِي إِلَيْهِ رَجُلًا فَيُكَلِّمُهُ وَيَنْبَغِي مَا يَقُولُهُ وَالتَّلَقِّيُّ مِنَ الْمَلَكِ وَالرُّجُوعُ إِلَى الْمَذَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ وَفَهْمُهُ

مَا أَلْفَمَ عَلَيْهِ كُلُّهُ كَأَنَّهُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ أَقْرَبَ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي زَمَانٍ بَلْ كُلُّهَا تَقَعُ جَمِيعاً فَيُظْهِرُ كَأَنَّهَا سَرِيعَةٌ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ وَحْيًا لِأَنَّ الْوَحْيَ فِي اللُّغَةِ الْإِسْرَافُ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُولَى وَهِيَ حَالَةُ الدَّوِيِّ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ الْمُرْسَلِينَ عَلَى مَا حَقَّقُوهُ وَالثَّانِيَّةُ وَهِيَ حَالَةُ تُمَثُّلِ الْمَلِكِ رَجُلًا يُخَاطَبُ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَكْمَلَ مِنَ الْأُولَى وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ الَّذِي فُسِّرَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ الْوَحْيَ لَمَّا سَأَلَهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ وَقَالَ : كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ ؟ فَقَالَ : « أحياناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلَاطَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيَقْصِمُ عَنِّي وَقَدْ

وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأحياناً يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ فَيُكَلِّمُنِي فَأَعْبِي مَا يَقُولُ » وَإِنَّمَا كَانَتْ الْأُولَى أَشَدَّ لِأَنَّهَا مُبْدَأُ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ فَيُفَسِّرُ بَعْضُ الْعُسْرِ وَلِذَلِكَ لَمَّا عَاجَ فِيهَا عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ اخْتَصَّتْ بِالسَّمْعِ وَصُعِبَ مَا سِوَاهُ وَعِنْدَمَا يَتَكَرَّرُ الْوَحْيُ وَيَكْثُرُ التَّلَقِّي يَسْهُلُ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ فَعِنْدَمَا يُعْرَجُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ يَأْتِي عَلَى جَمِيعِهَا وَخُصُوصاً الْأَوْضَحَ مِنْهَا وَهُوَ إِذْ ذَاكَ الْبَصَرُ وَفِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْوَحْيِ فِي الْأُولَى بِصِيغَةِ الْمَاضِي وَفِي الثَّانِيَّةِ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لَطِيفَةٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَهِيَ أَنَّ الْكَلَامَ جَاءَ مَجِيئاً التَّمَثُّلِ لِحَالَتِهِ الْوَحْيِ فَمَثَلُ الْحَالَةِ الْأُولَى بِالْدَّوِيِّ الَّذِي هُوَ فِي الْمُتَعَارَفِ غَيْرُ كَلَامٍ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْفَهْمَ وَالْوَعْيَ يَتَّبَعُهُ غَبْ انْقِضَائِهِ فَتَنَاسَبَ عِنْدَ تَصْوِيرِ انْقِضَائِهِ وَانْفِصَالِهِ الْعِبَارَةَ عَنِ الْوَحْيِ بِالْمَاضِي الْمُطَابِقِ لِلْانْقِضَاءِ وَالْإِنْقِطَاعِ وَمَثَلُ الْمَلِكِ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَّةِ بِرَجُلٍ يُخَاطَبُ وَيَتَكَلَّمُ وَالْكَلَامُ يُسَاوِقُهُ الْوَحْيُ فَتَنَاسَبَ الْعِبَارَةُ بِالْمُضَارِعِ الْمُقْتَضِي لِلتَّجَدُّدِ . وَاعْلَمْ أَنَّ فِي حَالَةِ الْوَحْيِ كُلِّهَا صُعُوبَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ وَشَدَّةٌ قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ قَالَ تَعَالَى : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » وَقَالَتْ عَائِشَةُ : « كَانَ مِمَّا يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةٌ » ^(١) وَقَالَتْ : « كَانَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَقْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا » . وَلِذَلِكَ كَانَ يَخْذُثُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالْعَطِيطِ

(١) رواه ابن عباس وليست عائشة .

مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْوَحْيَ كَمَا قَرَرْنَا مُفَارَقَةُ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ الْمَلَكِيَّةِ وَتَلْقَى كَلَامَ النَّفْسِ فَيَحْدُثُ عَنْهُ شِدَّةٌ مِنْ مُفَارَقَةِ الذَّاتِ ذَاتَهَا وَأَنْسِلَاحَهَا عَنْهَا مِنْ أَفْقِهَا إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ الْآخِرِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْفُطْ أَلَّذِي عَبَّرَ بِهِ فِي مَبْدَأِ الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ « فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً ». كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ يُفْضَى الْإِغْتِيَادُ بِالتَّدرِيجِ فِيهِ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى بَعْضِ السَّهْوَةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا قَبْلَهُ وَلِذَلِكَ كَانَ تَنْزُلُ نُجُومِ الْقُرْآنِ وَسُورِهِ وَأَيُّهُ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ أَقْصَرَ مِنْهَا وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ وَانْظُرْ إِلَى مَا نُقِلَ فِي نُزُولِ سُورَةِ بَرَاءةٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَأَنَّهَا نَزَلَتْ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى نَاقَتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ بِمَكَّةَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ بَعْضُ السُّورَةِ مِنْ قِصَارِ الْمَفْصِلِ فِي وَقْتٍ وَيُنْزَلُ الْبَاقِي فِي حِينَ آخَرَ وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرُ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ آيَةُ الدِّينِ وَهِيَ مَا هِيَ فِي الطُّوْلِ بَعْدَ أَنْ كَانَتِ الْآيَةُ تُنْزَلُ بِمَكَّةَ مِثْلَ آيَاتِ الرَّحْمَنِ وَالذَّارِيَاتِ وَالْمُدَّثِّرِ وَالضُّحَى وَالْفَلَاقِ وَأُمَثَالِهَا . وَاعْتَبِرْ مِنْ ذَلِكَ عَلَامَةً تُعَيِّرُ بِهَا بَيْنَ الْمَكِّيِّ وَالْمَدِينِيِّ مِنَ السُّورِ وَالْآيَاتِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ إِلَى الصَّوَابِ . هَذَا مُحْصَلُ أَمْرِ النُّبُوَّةِ .

الكهانة

وَأَمَّا الْكُهَانَةُ فَهِيَ أَيْضاً مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنَّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ اسْتِعْدَاداً لِلْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا وَأَنَّهُ يَخْصُلُ مِنْ ذَلِكَ لِمَحَةٍ لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَخْصُلُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَلَا مِنَ التَّصَوُّرَاتِ وَلَا مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ كَلَاماً أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ إِنَّمَا هُوَ انْسِلَاحٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ بِالْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةِ اقْتِرَابٍ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَكَانَ ذَلِكَ الْاسْتِعْدَادُ مُوجُوداً فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَيُعْطَى التَّقْسِيمُ الْعَقْلِيُّ وَإِنَّ هُنَا صِنْفاً آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَاقِصاً عَنْ رُتْبَةِ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ نَقْصَانٌ الضَّدُّ عَنْ ضِدِّهِ الْكَامِلِ لِأَنَّ عَدَمَ الْإِسْتِعَانَةِ فِي ذَلِكَ الْإِدْرَاكِ ضِدُّ الْإِسْتِعَانَةِ فِيهِ وَشَتَانُ مَا بَيْنَهُمَا

فَإِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمُ الْوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ مَفْطُورًا عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ
الْعَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا الْفِكْرِيَّةَ بِالْإِرَادَةِ عِنْدَمَا يَنْبَغُهَا النُّزُوعُ لِذَلِكَ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ
بِالْجَبَلَةِ عِنْدَمَا يَعُوقُهَا الْعَجْزُ عَنْ ذَلِكَ تَشَبُّثُ بِأُمُورٍ جَزْئِيَّةٍ مَحْسُوسَةٍ أَوْ مُتَخَيَّلَةٍ
كَالْأَجْسَامِ الشُّفَافَةِ وَعِظَامِ الْحَيَوَانَاتِ وَسَجْعِ الْكَلَامِ وَمَا سَنَحَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ
فَيَسْتَدِيمُ ذَلِكَ الْإِخْسَاسُ أَوْ التَّخِيلُ مُسْتَعِينًا بِهِ فِي ذَلِكَ الْإِنْسِلَاحَ الَّذِي يَقْصِدُهُ
وَيَكُونُ كَالْمُشْيِعِ لَهُ وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي فِيهِمْ مَبْدَأُ ذَلِكَ الْإِذْرَاكِ هِيَ الْكِهَانَةُ وَلَكُونِ
هَذِهِ النُّفُوسُ مَفْطُورَةٌ عَلَى النِّقْصِ وَالْقُصُورِ عَنِ الْكَمَالِ كَانَ إِذْرَاكُهَا فِي الْجَزْئِيَّاتِ
أَكْثَرَ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ وَلِذَلِكَ تَكُونُ الْمُخَيَّلَةُ فِيهِمْ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ لِأَنَّهَا آلَةُ الْجَزْئِيَّاتِ
فَتَنْفُذُ فِيهَا نَفُودًا تَامًا فِي نَوْمٍ أَوْ يَقْظَةٍ وَتَكُونُ عِنْدَهَا حَاضِرَةٌ غَثِيْدَةٌ تُخْضِرُهَا الْمُخَيَّلَةُ
وَتَكُونُ لَهَا كَالْمِرْآةِ تَنْظُرُ فِيهَا دَائِمًا وَلَا يَقْوَى الْكَاهِنُ عَلَى الْكَمَالِ فِي إِذْرَاكِ
الْمَعْقُولَاتِ لِأَنَّ وَخِيَهُ مِنْ وَخِي الشَّيْطَانِ وَأَرْفَعَ أَحْوَالِ هَذَا الصَّنْفِ أَنْ يَسْتَعِينُ
بِالْكَلَامِ الَّذِي فِيهِ السَّجْعُ وَالْمُوَازَنَةُ لِيَسْتَغْلِبَ بِهِ عَنِ الْحَوَاسِ وَيَقْوَى بَغْضُ الشَّيْءِ
عَلَى ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ النَّاقِصِ فَيَنْجَسُ فِي قَلْبِهِ عَنْ تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَالَّذِي يُشَيِّعُهَا مِنْ ذَلِكَ
الْأَجْنِبِيِّ مَا يَقْدِفُهُ عَلَى لِسَانِهِ فَرُبَّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ الْحَقَّ وَرُبَّمَا كَذَبَ لِأَنَّهُ يُتِمُّ
نَقْصَهُ بِأَمْرِ أَجْنِبِيٍّ عَنْ ذَاتِهِ الْمُدْرِكَةِ وَمُبَايِنٍ لَهَا غَيْرِ مُلَائِمٍ فَيَغْرِضُ لَهُ الصَّدْقَ
وَالْكَذِبَ جَمِيعًا وَلَا يَكُونُ مُؤْتَوَقًا بِهِ وَرُبَّمَا يَفْزَعُ إِلَى الظُّنُونِ وَالتَّخْمِينَاتِ حِرْصًا
عَلَى الظُّفْرِ بِالْإِذْرَاكِ بِزَعْمِهِ وَتَمْوِيهِهَا عَلَى السَّائِلِينَ وَأَصْحَابِ هَذَا السَّجْعِ هُمْ
الْمَخْصُوصُونَ بِاسْمِ الْكُهَّانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ وَقَدْ قَالَ ﷺ فِي مِثْلِهِ « هَذَا
« مِنْ سَجْعِ الْكُهَّانِ » فَجَعَلَ السَّجْعَ مُخْتَصًّا بِهِمْ بِمُقْتَضَى الْإِضَافَةِ وَقَدْ قَالَ لِابْنِ
صَيَّادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ خَالِهِ بِالْأَخْبَارِ كَيْفَ يَأْتِيكَ هَذَا الْأَمْرُ؟ قَالَ :
« يَأْتِيَنِي صَادِقًا وَكَاذِبًا » فَقَالَ : « خَلِطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ » يَعْنِي أَنَّ النُّبُوَّةَ خَاصَّتْهَا
الصَّدْقُ فَلَا يَغْتَرِبُهَا الْكَذِبُ بِخَالٍ لِأَنَّهَا اتِّصَالٌ مِنْ ذَاتِ النَّبِيِّ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى مِنْ
غَيْرِ مُشْيِعٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِأَجْنِبِيٍّ وَالْكِهَانَةُ لَمَّا احتَاجَ صَاحِبُهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى

الاستيعانية بالتصورات الأجنبية كانت داخلية في إدراكه والتبست بالإدراك الذي توجه إليه فصار مختلطاً بها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجج لأن معنى السجج أخف من سائر المعانيات من المرئيات والمسموعات وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بغض الشيء وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قررناه وأيضاً فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك . وأيضاً فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفى معه كل نور ويذهب .

وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع وهكذا كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معنى الكاهن على ما قررناه فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكاهن إما واحداً أو متعدداً فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله وانتضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلم . فلعل الوضع إنما يقتضي ذلك الأثر بهيئته الخالصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيئاً ، لا إنه يقتضي ذلك الأثر

نَاقِصًا كَمَا قَالُوهُ . ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّانَ إِذَا عَاصَرُوا زَمَنَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُمْ غَارِفُونَ بِصِدْقِ
النَّبِيِّ وَدَلَالَةِ مُعْجِزَتِهِ لِأَنَّ لَهُمْ بَعْضَ الْوَجْدَانِ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ كَمَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَمْرِ
الْيَوْمِ وَمَعْقُوبِيَّةِ تِلْكَ النَّسَبَةِ مَوْجُودَةً لِلْكَاهِنِ بِأَشَدِّ مِمَّا لِلنَّائِمِ وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ
وَيُوقِعُهُمْ فِي التَّكْذِيبِ إِلَّا قُوَّةُ الْمُطَامِعِ فِي أَنَّهَا نُبُوَّةٌ لَهُمْ فَيَقْعُونَ فِي الْعِنَادِ كَمَا وَقَعَ
لَأُمِّيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَتَنَبَّأَ وَكَذَا وَقَعَ لَابْنِ صَيَّادٍ وَلِمُسَيْلَمَةَ
وغيرهم فإذا غلبَ الْإِيمَانُ وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الْأُمَانِيُّ أَمِنُوا أَحْسَنَ إِيْمَانٍ كَمَا وَقَعَ
لِطَلِيحَةَ الْأَسَدِيِّ وَسَوَادِ بْنِ قَارِبَ وَكَانَ لَهُمَا فِي الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْأَثَارِ
الشَّاهِدَةُ بِحُسْنِ الْإِيْمَانِ .

الرؤيا

وَأَمَّا الرُّؤْيَا فَحَقِيقَتُهَا مَطَالَعَةُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ فِي ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ لَمْحَةٍ مِنْ
صُورِ الْوَاقِعَاتِ فَإِنَّهَا عِنْدَمَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً تَكُونُ صُورَ الْوَاقِعَاتِ فِيهَا مَوْجُودَةٌ
بِالْفِعْلِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الذَّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ كُلِّهَا وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً بِأَنْ تَتَجَرَّدَ عَنِ الْمَوَادِّ
الْجِسْمَانِيَّةِ وَالْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَقَدْ يَقَعُ لَهَا ذَلِكَ لَمْحَةً بِسَبَبِ النَّوْمِ كَمَا نَذَكُرُ
فَتَقْتَبِسُ بِهَا عِلْمَ مَا تَشْهَدُ إِلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَتَعُودُ بِهِ إِلَى مَدَارِكِهَا فَإِنْ
كَانَ ذَلِكَ الْإِقْتِبَاسُ ضَعِيفًا وَغَيْرَ جَلِيٍّ بِالْمُحَاكَاةِ وَالْمِثَالِ فِي الْخِيَالِ لِتَخْلُصِهِ
فِيخْتِاجُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمُحَاكَاةِ إِلَى التَّغْيِيرِ وَقَدْ يَكُونُ الْإِقْتِبَاسُ قَوِيًّا يُسْتَفْنَى فِيهِ
عَنِ الْمُحَاكَاةِ فَلَا يَخْتِاجُ إِلَى تَغْيِيرٍ لِخُلُوصِهِ مِنَ الْمِثَالِ وَالْخِيَالِ وَالسَّبَبِ فِي وَقُوعِ
هَذِهِ اللَّمْحَةِ لِلنَّفْسِ أَنَّهَا ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ بِالْقُوَّةِ مُسْتَكْمِلَةٌ بِالْبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ ^(١) حَتَّى
تَصِيرَ ذَاتَهَا تَعْقُلًا مَخْصُصًا وَيَكْمُلُ وُجُودُهَا بِالْفِعْلِ فَتَكُونُ حِينَئِذٍ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً
مُدْرِكَةً بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ الْأَلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ إِلَّا أَنَّ نَوْعَهَا فِي الرُّوحَانِيَّاتِ دُونَ نَوْعِ

(١) في نسخة لجنة البيان العربي عبارة بين قوسين وهي (ولا بد من تخلصها من البدن ومداركه) وهذه
الجملة غير واردة في جميع النسخ الأخرى وهي متممة لمعنى الجملة التي قبلها . ولا يستقيم المعنى بدونها .

الْمَلَائِكَةُ أَهْلُ الْأَفْقِ الْأَعْلَى عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا ذَوَاتِهِمْ شَيْءٌ مِنْ مَذَارِكِ الْبَدَنِ
 وَلَا غَيْرِهِ فَهَذَا الْإِسْتِعْدَادُ حَاصِلٌ لَهَا مَا دَامَتْ فِي الْبَدَنِ وَمِنْهُ خَاصٌّ كَالَّذِي لِلْأَوْلِيَاءِ
 وَمِنْهُ عَامٌّ لِلْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ وَهُوَ أَمْرُ الرُّؤْيَا . وَأَمَّا الَّذِي لِلْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ اسْتِعْدَادُ
 بِالْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْمَخْضَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَخْرُجُ
 هَذَا الْإِسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّرًا فِي خَالَاتِ الْوَحْيِ وَهُوَ عِنْدَمَا يَخْرُجُ عَلَى الْمَذَارِكِ
 الْبَدَنِيَّةِ وَيَقَعُ فِيهَا مَا يَقَعُ مِنَ الْإِذْرَاكِ يَكُونُ ^(١) شَيْبًا بِحَالِ النَّوْمِ شَبَهَا بَيْنًا وَإِنْ
 كَانَ جَالِ النَّوْمِ أَذْوَنَ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فَلَأَجَلَ هَذَا الشَّيْبِ عَبْرَ الشَّارِعِ عَنِ الرُّؤْيَا بِأَنَّهَا
 جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْأً مِنَ النَّبُوءَةِ وَفِي رَوَايَةٍ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعِينَ وَفِي رَوَايَةٍ سَبْعِينَ
 وَلَيْسَ الْعَدَدُ فِي جَمِيعِهَا مَقْصُودًا بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْكَثْرَةُ فِي تَفَاوُتِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ
 بِدَلِيلِ ذِكْرِ السَّبْعِينَ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ وَهُوَ لِلتَّكْثِيرِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ
 فِي رَوَايَةِ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ مِنْ أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ فِي مَبْدَإِهِ بِالرُّؤْيَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَهِيَ نِصْفُ
 سَنَةٍ وَمُدَّةُ النَّبُوءَةِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ثَلَاثَ وَعِشْرُونَ سَنَةً فَنِصْفُ السَّنَةِ مِنْهَا جُزْءٌ
 مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ فَكَلَامٌ يَعِيدُ مِنَ التَّحْقِيقِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَمِنْ
 أَتَيْنَا أَنَّ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُعْطَى نِسْبَةً زَمَنَ
 الرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ النَّبُوءَةِ وَلَا يُعْطَى حَقِيقَتُهَا مِنْ حَقِيقَةِ النَّبُوءَةِ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ هَذَا مِمَّا
 ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ الْإِسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ الشَّامِلِ لِلْبَشَرِ إِلَى
 الْإِسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخَاصِّ بِصِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ الْفِطْرِيِّ لَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ هُوَ
 الْإِسْتِعْدَادُ الْبَعِيدُ وَإِنْ كَانَ عَامًّا فِي الْبَشَرِ وَمَعَهُ عَوَائِقُ وَمَوَانِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ حُصُولِهِ
 بِالْفِعْلِ وَمِنْ أَكْثَرِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ فَفَطَرَ اللَّهُ الْبَشَرَ عَلَى ارْتِفَاعِ
 حِجَابِ الْحَوَاسِّ بِالنَّوْمِ الَّذِي هُوَ جَبَلِيٌّ لَهُمْ فَتَتَعَرَّضُ النَّفْسُ عِنْدَ ارْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ
 مَا تَشْهَدُ إِلَيْهِ فِي عَالَمِ الْحَقِّ فَتَذْكُرُ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ مِنْهُ لَمَحَّةٌ يَكُونُ فِيهَا الظُّفَرُ

(١) وردت هذه الكلمة في نسخة لجنة البيان العربي فقط وهي غير موجودة في جميع النسخ ولا يستقيم

المعنى بدونها .

بِالْمَطْلُوبِ وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا الشَّارِعُ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ فَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوءَةِ إِلَّا
 الْمُبَشِّرَاتُ قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ
 الصَّالِحُ أَوْ تَرَى لَهُ وَأَمَّا سَبَبُ ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْخَوَاسِّ بِالنُّوْمِ فَقُلَى مَا أَصْفَهُ لَكَ وَذَلِكَ
 أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ إِنَّمَا إِدْرَاكُهَا وَأَفْعَالُهَا بِالرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَهُوَ بُخَارٌ
 لَطِيفٌ مَرْكَزُهُ بِالتَّخْوِيفِ الْأَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى مَا فِي كُتُبِ التَّشْرِيحِ لِجَالِينُوسَ
 وَغَيْرِهِ وَيَنْبَعُثُ مَعَ الدَّمِ فِي الشَّرَيَانَاتِ وَالْعُرُوقِ فَيُعْطِي الْحِسَّ وَالْحَرَكََةَ وَسَائِرَ
 الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ وَيَرْتَفِعُ لَطِيفُهُ إِلَى الدِّمَاغِ فَيَعْدِلُ مِنْ بَرْدِهِ وَتَتِمُّ أَعْمَالُ الْقَوَى الَّتِي فِي
 بَطْنِهِ فَالنَّفْسُ النَّاطِقَةُ إِنَّمَا تَذَرُكَ وَتَعْقُلُ بِهَذَا الرُّوحِ الْبَخَارِيِّ وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِمَا
 اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ التَّكْوِينِ فِي أَنَّ اللَّطِيفَ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْكَثِيفِ وَلَمَّا لَطَفَ هَذَا الرُّوحُ
 الْحَيَوَانِيُّ مِنْ بَيْنِ الْمَوَادِّ الْبَدَنِيَّةِ صَارَ مَحَلًّا لِآثَارِ الذَّاتِ الْمُبَايِنَةِ لَهُ فِي جِسْمَانِيَّتِهِ
 وَهِيَ النَّفْسُ النَّاطِقَةُ وَصَارَتْ آثَارُهَا حَاصِلَةً فِي الْبَدَنِ بِوَاسِطِيَّتِهِ وَقَدْ كُنَّا قَدْ مَنَّا أَنَّ
 إِدْرَاكُهَا عَلَى نَوْعَيْنِ إِدْرَاكِ بِالظَّاهِرِ وَهُوَ الْخَوَاسِّ الْخَمْسُ وَإِدْرَاكِ بِالْبَاطِنِ وَهُوَ
 الْقَوَى الدِّمَاغِيَّةُ وَأَنَّ هَذَا الْإِدْرَاكِ كُلُّهُ صَارَفَ لَهَا عَنْ إِدْرَاكِهَا مَا فَوْقَهَا مِنْ ذَوَاتِهَا
 الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ بِالْفِطْرَةِ وَلَمَّا كَانَتْ الْخَوَاسِّ الظَّاهِرَةُ جِسْمَانِيَّةً
 كَانَتْ مُعَرَّضَةً لِلْوَسَنِ وَالْفُشْلِ بِمَا يُذَرِّكُهَا مِنَ التَّبَعِ وَالْكَلالِ وَتَغْشَى الرُّوحُ
 بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ فَخَلَقَ اللَّهُ لَهَا طَلَبَ الْإِسْتِجْمَامِ لِتَجَرُّدِ الْإِدْرَاكِ عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ
 وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِانْخِنَاسِ ^(١) الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ مِنَ الْخَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ كُلِّهَا وَرُجُوعِهِ
 إِلَى الْحِسِّ الْبَاطِنِ وَيُعِينُ عَلَى ذَلِكَ مَا يَغْشَى الْبَدَنَ مِنَ الْبَرْدِ بِاللَّيْلِ فَتَطْلُبُ
 الْحَرَارَةُ الْفَرِيضِيَّةُ أَعْمَاقَ الْبَدَنِ وَتَذْهَبُ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَى بَاطِنِهِ فَتَكُونُ مُشِيعَةً
 مَرْكَبَهَا وَهُوَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ إِلَى الْبَاطِنِ وَلِذَلِكَ كَانَ النَّوْمُ لِلْبَشَرِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ
 بِاللَّيْلِ فَإِذَا انْخَسَ الرُّوحُ عَنِ الْخَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ وَرَجَعَ إِلَى الْقَوَى الْبَاطِنَةِ وَخَفَتْ
 عَنِ النَّفْسِ شَوَاعِلُ الْحِسِّ وَمَوَانِعُهُ وَرَجَعَتْ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ تَمَثَّلُ مِنْهَا

(١) انخناس ، تأخر وانقباض وتخلف (قاموس) .

بالتَّرْكِيبِ وَالتَّخْلِيلِ صُورَ خَيَالِيَّةٍ وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ مُعْتَادَةً لِأَنَّهَا مُنْتَزَعَةٌ مِنَ
 الْمُدْرَكَاتِ الْمُتَعَاهِدَةِ قَرِيباً ثُمَّ يَنْزِلُهَا الْحِسُّ الْمُشْتَرِكُ الَّذِي هُوَ جَامِعُ الْخَوَاسِ
 الظَّاهِرَةِ فَيَذَرُكُهَا عَلَى أَنْحَاءِ الْخَوَاسِ الْخَمْسِ الظَّاهِرَةِ وَرُبَّمَا التَّفَتَّتِ النَّفْسُ لَفْتَةً
 إِلَى ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ مَعَ مُنَازَعَتِهَا الْقَوَى الْبَاطِنِيَّةِ فَتَذَرُكَ بِإِذْرَاكِهَا الرُّوحَانِيَّةِ لِأَنَّهَا
 مَفْطُورَةٌ عَلَيْهِ وَتَقْتَبِسُ مِنْ صُورِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي صَارَتْ مُتَعَلِّقَةً فِي ذَاتِهَا حِينَئِذٍ ثُمَّ يَأْخُذُ
 الْخَيَالُ تِلْكَ الصُّورَ الْمُدْرَكَةَ فَيُمَثِّلُهَا بِالْحَقِيقَةِ أَوْ الْمُحَاكَاةِ فِي الْقَوَالِبِ الْمَغْهُودَةِ
 وَالْمُحَاكَاةِ مِنْ هَذِهِ هِيَ الْمُحْتَاجَةُ لِلتَّعْبِيرِ وَتَصَرُّفُهَا بِالتَّرْكِيبِ وَالتَّخْلِيلِ فِي صُورِ
 الْخَافِظَةِ قَبْلَ أَنْ تَذَرُكَ مِنْ تِلْكَ اللَّمْحَةِ مَا تَذَرُكُهُ هِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ . وَفِي الصَّحِيحِ
 أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الرُّؤْيَا ثَلَاثُ رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلِكِ وَرُؤْيَا مِنَ
 الشَّيْطَانِ » وَهَذَا التَّفْصِيلُ مُطَابِقٌ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَالْجَلِيُّ مِنَ اللَّهِ وَالْمُحَاكَاةُ الدَّاعِيَةُ
 إِلَى التَّعْبِيرِ مِنَ الْمَلِكِ وَأَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ مِنَ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهَا كُلُّهَا بَاطِلٌ
 وَالشَّيْطَانُ يُنْبِغُ الْبَاطِلِ هَذِهِ حَقِيقَةُ الرُّؤْيَا وَمَا يُسَبِّبُهَا وَيُسْتَعِينُهَا مِنَ النَّوْمِ وَهِيَ
 خَوَاصُ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مُوجُودَةٌ فِي الْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ لَا يَخْلُو عَنْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ بَلْ
 كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِنْسَانِيَّ رَأَى فِي نَوْمِهِ مَا صَدَّرَ لَهُ فِي يَقْظِيَّتِهِ مِرَاراً غَيْرَ وَاحِدَةٍ وَحَصَلَ
 لَهُ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّ النَّفْسَ مُدْرَكَةً لِلْغَيْبِ فِي النَّوْمِ وَلَا بُدَّ إِذَا جَازَ ذَلِكَ فِي عَالَمِ النَّوْمِ
 فَلَا يَمْتَنِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ لِأَنَّ الذَّاتَ الْمُدْرَكَةَ وَاحِدَةً وَخَوَاصُهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ
 حَالٍ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ بِيَمِينِهِ وَفَضْلِهِ .

فَصَلِّ : وَوَقُوعُ مَا يَقَعُ لِلْبَشَرِ مِنْ ذَلِكَ غَالِباً إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا قُدْرَةٍ
 عَلَيْهِ وَإِنَّمَا تَكُونُ النَّفْسُ مُتَشَوِّقَةً لِذَلِكَ الشَّيْءِ فَيَقَعُ بِتِلْكَ اللَّمْحَةِ فِي النَّوْمِ لِأَنَّهَا
 تَقْصِدُ إِلَى ذَلِكَ فَتَرَاهُ وَقَدْ وَقَعَ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الرِّيَاضِيَّاتِ
 ذَكَرُوا أَسْمَاءَ تَذَكَّرُوا عِنْدَ النَّوْمِ فَتَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا فَيَمَّا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَيَسْمُونَهَا
 الْحَالُومِيَّةَ وَذَكَرُوا مِنْهَا مَسْلَمَةً فِي كِتَابِ الْغَايَةِ حَالُومَةً سَمَاهَا حَالُومَةُ الطَّبَّاعِ التَّامِّ
 وَهُوَ أَنْ يَقَالَ عِنْدَ النَّوْمِ بَعْدَ فَرَاغِ السَّرِّ وَصَحَّةِ التَّوَجُّهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْأَعْجَمِيَّةُ وَهِيَ

« تماغس بعد أن يسود وغداس نوفنا غادس^(١) » وَيَذْكُرُ حَاجَتَهُ فَإِنَّهُ يَرَى الْكُشْفَ
عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ فِي النَّوْمِ . وَحَكِيمِي إِنْ رَجُلًا فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ رِيَاضَةٍ لَيْالٍ فِي مَا كُلِّهِ
وَذَكَرَهُ فَتَمَثَّلَ لَهُ شَخْصٌ يَقُولُ لَهُ أَنَا طَبَاعُكَ التَّامُ فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ عَمَّا كَانَ يَتَشَوَّفُ
إِلَيْهِ وَقَدْ وَقَعَ لِي أَنَا بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ مَرَّاءَ عَجِيبَةٍ وَأَطْلَعْتُ بِهَا عَلَى أُمُورٍ كُنْتُ أَتَشَوَّفُ
عَلَيْهَا مِنْ أَحْوَالِي وَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْقَضَدَ لِلرُّؤْيَا يُخْدِئُهَا وَإِنَّمَا هَذِهِ
الْخَالُومَاتُ تُحْدِثُ اسْتِعْدَادًا فِي النَّفْسِ لَوْقُوعِ الرُّؤْيَا فَإِذَا قَوِيَ الْإِسْتِعْدَادُ كَانَ أَقْرَبَ
إِلَى حُصُولِ مَا يُسْتَعَدُّ لَهُ وَلِلشَّخْصِ أَنْ يَفْعَلَ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ مَا أَحَبَّ وَلَا يَكُونُ
دَلِيلًا عَلَى إِنْقَاعِ الْمُسْتَعَدِّ لَهُ فَالْقُدْرَةُ عَلَى الْإِسْتِعْدَادِ غَيْرُ الْقُدْرَةِ عَلَى الشَّيْءِ فَاعْلَمْ
ذَلِكَ وَتَذَبَّرْهُ فِيمَا تَجِدُ مِنْ أَمْثَالِهِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

فصل : ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ أَشْخَاصًا يُخْبِرُونَ بِالْكَائِنَاتِ قَبْلَ
وُقُوعِهَا بِطَبِيعَةٍ فِيهِمْ يَتَمَيَّزُ بِهَا صِنْفُهُمْ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ وَلَا يَرْجِعُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى
صِنَاعَةٍ وَلَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَثَرٍ مِنَ النُّجُومِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا إِنَّمَا نَجِدُ مَدَارِكَهُمْ فِي ذَلِكَ
بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا وَذَلِكَ مِثْلُ الْعَرَّافِينَ وَالنَّاطِرِينَ فِي الْأَجْسَامِ
الشَّفَافَةِ كَالْمَرَايَا وَطَسَاسِ الْمَاءِ وَالنَّاطِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَكُتُبِهَا
وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الزَّرْخَرِ فِي الطَّيْرِ وَالسَّبَاعِ وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالْحُبُوبِ مِنَ
الْجَنْطِ وَالنَّوَى وَهَذِهِ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ لَا يَسَعُ أَحَدًا جَحْدُهَا وَلَا
إِنْكَارُهَا وَكَذَلِكَ الْمَجَانِينُ يُلْقَى عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كَلِمَاتٌ مِنَ الْغَيْبِ فَيُخْبِرُونَ بِهَا
وَكَذَلِكَ النَّائِمُ وَالْمَيِّتُ لِأَوَّلِ مَوْتِهِ أَوْ نَوْمِهِ يَتَكَلَّمُ بِالْغَيْبِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الرِّيَاضِيَّاتِ
مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ لَهُمْ مَدَارِكٌ فِي الْغَيْبِ عَلَى سَبِيلِ الْكَرَامَةِ مَعْرُوفَةٌ . وَنَحْنُ الْآنَ نَتَكَلَّمُ
عَنْ هَذِهِ الْإِذْرَاكَاتِ كُلِّهَا وَنَبْتَدِئُ مِنْهَا بِالْكُهَانَةِ ثُمَّ نَأْتِي عَلَيْهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً إِلَى
آخِرِهَا وَنَقْدُمُ عَلَى ذَلِكَ مُقَدِّمَةً فِي أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ كَيْفَ تَسْتَعِدُّ لِإِذْرَاكِ الْغَيْبِ فِي
جَمِيعِ الْأَصْنَافِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَذَلِكَ أَنَّهَا ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ مَوْجُودَةٍ بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ

(١) ليس لهذه الكلمات أي معنى في اللغات التي نعرفها وربما تكون لأسماء بعض الجن .

بِالْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ وَهَذَا أَمْرٌ مُذْرَكٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَكُلُّ مَا بِالْقُوَّةِ فَلَهُ مَادَّةٌ وَصُورَةٌ وَصُورَةُ هَذِهِ
 النَّفْسِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ وَجُودُهَا هُوَ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ وَالتَّعْقِلِ فِيهِ تَوَجَّدَ أَوَّلًا بِالْقُوَّةِ
 مُسْتَعِدَّةً لِلْإِدْرَاكِ وَقَبُولِ الصُّورِ الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ ثُمَّ يَتِمُّ نَشْوَها وَوُجُودُها بِالْفِعْلِ
 بِمُصَاحَبَةِ الْبَدَنِ وَمَا يَعُودُهَا يَورُودُ مُذْرَكَاتِهَا الْمَحْسُوسَةِ عَلَيْهَا وَمَا تَنْتَزِعُ مِنْ تِلْكَ
 الْإِذْرَاكَاتِ مِنَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ فَتَتَعَقَّلُ الصُّورَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى يَخْصُلَ لَهَا الْإِدْرَاكِ
 وَالتَّعْقُلُ بِالْفِعْلِ فَتَتِمُّ ذَاتُهَا وَتَبْقَى النَّفْسُ كَالْهَيُولَى وَالصُّورُ مُتَعَاقِبَةٌ عَلَيْهَا بِالْإِدْرَاكِ
 وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ وَلِذَلِكَ نَجِدُ الصَّبِيَّ فِي أَوَّلِ نَشَأَتِهِ لَا يَغْيِرُ عَلَى الْإِدْرَاكِ الَّذِي لَهَا مِنْ
 ذَاتِهَا لَا يَنُومُ وَلَا يَكْشِفُ وَلَا يَغْيِرُهَا وَمَذَلِكَ أَنَّ صُورَتَهَا الَّتِي هِيَ عَيْنُ ذَاتِهَا وَهِيَ
 الْإِدْرَاكِ وَالتَّعْقُلُ لَمْ يَتِمَّ بَعْدَ بَلْ لَمْ يَتِمَّ لَهَا انْتِزَاعُ الْكُلِّيَّاتِ ثُمَّ إِذَا تَمَّتْ ذَاتُهَا بِالْفِعْلِ
 خَصَلَ لَهَا مَا دَامَتْ مَعَ الْبَدَنِ نَوْعَانِ مِنَ الْإِدْرَاكِ إِذْرَاكِ بِآلَاتِ الْجِسْمِ تُؤَدِّيهِ إِلَيْهَا
 الْمَذَارِكُ الْبَدَنِيَّةُ وَإِذْرَاكِ بِذَاتِهَا مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةِ وَهِيَ مَخْجُوبَةٌ عَنْهُ بِالْإِنْغِمَاسِ فِي
 الْبَدَنِ وَالْحَوَاسِ وَبَشَوَاعِلِهَا لِأَنَّ الْحَوَاسَ أَبَدًا جَاذِبَةٌ لَهَا إِلَى الظَّاهِرِ بِمَا قُطِرَتْ
 عَلَيْهِ أَوَّلًا مِنَ الْإِدْرَاكِ الْجِسْمَانِيِّ وَرُبَّمَا تَنْغَمِسُ مِنَ الظَّاهِرِ إِلَى الْبَاطِنِ فَيَرْتَفِعُ
 حِجَابُ الْبَدَنِ لِحُظَّةٍ إِمَّا بِالْخَاصِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِلْإِنْسَانِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِثْلُ النَّوْمِ أَوْ
 بِالْخَاصِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ لِبَعْضِ الْبَشَرِ مِثْلُ الْكَهَانَةِ وَالطَّرِيقِ أَوْ بِالرِّيَاضَةِ مِثْلُ أَهْلِ
 الْكَشْفِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فَتَلْتَفِتُ حِينَئِذٍ إِلَى الذَّوَاتِ الَّتِي فَوْقَهَا مِنَ الْمَلَايِمَا بَيْنَ أَفْقِهَا
 وَأَفْقِهِمْ مِنَ الْإِتِّصَالِ فِي الْوُجُودِ كَمَا قَرَّرْنَا قَبْلَ وَتِلْكَ الذَّوَاتُ رُوحَانِيَّةٌ وَهِيَ إِذْرَاكِ
 مَخْصُوعٌ وَعَقُولٌ بِالْفِعْلِ وَفِيهَا صُورُ الْمَوْجُودَاتِ وَحَقَائِقُهَا كَمَا مَرَّ فَيَتَجَلَّى فِيهَا شَيْءٌ
 مِنْ تِلْكَ الصُّورِ وَتَقْتَبِسُ مِنْهَا عُلُومًا وَرُبَّمَا دَفَعَتْ تِلْكَ الصُّورُ الْمَذْرُكَةَ إِلَى الْخِيَالِ
 فَيُصَرِّفُهَا فِي الْقَوَالِبِ الْمُغْتَادَةِ ثُمَّ يَرْجِعُ الْجِسْمَ بِمَا أَدْرَكَتْ إِمَّا مُجَرِّدًا أَوْ فِي قَوَالِبِهِ
 فَتُخْبِرُ بِهِ . هَذَا هُوَ شَرْحُ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ لِهَذَا الْإِدْرَاكِ الْغَيْبِيِّ . وَلَنَرْجِعَ إِلَى
 مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ بَيَانِ أَصْنَافِهِ . فَأَمَّا النَّاطِرُونَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ مِنَ الْمَرَايَا
 وَطَسَاسِ الْمِيَاهِ وَقُلُوبِ الْحَيَوَانِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامَتِهَا وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالنَّوَى

فَكُلُّهُمْ مِنْ قَبِيلِ الْكَهَانِ إِلَّا أَنَّهُمْ أضعفُ رتبةً فِيهِ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ لِأَنَّ الْكَاهِنَ لَا يَخْتَاجُ فِي رَفْعِ حِجَابِ الْحِسِّ إِلَى كَثِيرِ مُعَانَاةٍ وَهَؤُلَاءِ يَعَانُونَهُ بِانْحِصَارِ الْمَذَارِكِ الْحِسِّيَّةِ كُلِّهَا فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا وَأَشْرَفُهَا الْبَصَرُ فَيَعْكِفُ عَلَى الْمَرْئِيِّ الْبَسِيطِ حَتَّى يَبْدُو لَهُ مَذْرُكُهُ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَرُبَّمَا يَظُنُّ أَنَّ مُشَاهَدَةَ هَؤُلَاءِ لِمَا يَرُونَهُ هُوَ فِي سَطْحِ الْمِرَاةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ لَا يَزَالُونَ يَنْظُرُونَ فِي سَطْحِ الْمِرَاةِ إِلَى أَنْ يَغِيبَ عَنِ الْبَصَرِ وَيَبْدُوَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَطْحِ الْمِرَاةِ حِجَابٌ كَأَنَّهُ غَمَامٌ يَتِمَثَّلُ فِيهِ صُورُ هِيَ مَذَارِكُهُمْ فَيُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَقْصُودِ لِمَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ نَفْيِ أَوْ اثْبَاتِ فَيُخْبِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أَذْرَكُوهُ وَأَمَّا الْمِرَاةُ وَمَا يُذْرِكُ فِيهَا مِنَ الصُّورِ فَلَا يُذْرِكُونَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَإِنَّمَا يَنْشَأُ لَهُمْ بِهَا هَذَا النَّوعُ الْآخَرُ مِنَ الْإِذْرَاكِ وَهُوَ نَفْسَانِيٌّ لَيْسَ مِنْ إِذْرَاكِ الْبَصَرِ بَلْ يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمَذْرُكُ النَّفْسَانِيُّ لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا يَغْرُضُ لِلنَّاظِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأكْبَادِهَا وَلِلنَّاظِرِينَ فِي الْمَاءِ وَالطُّسَاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَشْغُلُ الْحِسَّ بِالْبُخُورِ فَقَطَّ ثُمَّ بِالْعَزَائِمِ لِلِاسْتِعْذَادِ ثُمَّ يُخْبِرُ كَمَا أَذْرَكُ وَيَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الصُّورَ مُتَشَخَّصَةً فِي الْهَوَاءِ تَحْكِي لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى إِذْرَاكِهَا بِالْمِثَالِ وَالْإِشَارَةِ وَغَيْبَةً هَؤُلَاءِ عَنِ الْحِسِّ أَخْفَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْعَالَمِ أَبُو الْغَرَائِبِ . وَأَمَّا الزُّجَرُ وَهُوَ مَا يَخْذُلُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْغَيْبِ عِنْدَ سُنُوحِ طَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ وَالْفِكْرُ فِيهِ بَعْدَ مَغْيِبِهِ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ تَبْعَثُ عَلَى الْحِرْصِ وَالْفِكْرِ فِيمَا زَجَرَ فِيهِ مِنَ مَرْئِيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ وَتَكُونُ قُوَّتُهُ الْمُخَيَّلَةُ كَمَا قَدْ مَنَاهُ قُوَّةٌ فَيَبْعَثُهَا فِي الْبَحْثِ مُسْتَعِينًا بِمَا رَأَاهُ أَوْ سَمِعَهُ فَيُوْدِيهِ ذَلِكَ إِلَى إِذْرَاكِ مَا ، كَمَا تَفْعَلُهُ الْقُوَّةُ الْمُتَخَيَّلَةُ فِي النَّوْمِ وَعِنْدَ رُكُودِ الْحَوَاسِّ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْمَحْسُوسِ الْمَرْئِيِّ فِي يَقْظَتِهِ وَتَجْمَعُهُ مَعَ مَا عَقَلْتَهُ فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا . وَأَمَّا الْمَجَانِينُ فَنَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ضَعِيفَةُ التَّعَلُّقِ بِالْبَدَنِ لِفَسَادِ أَمْرَجَتِهِمْ غَالِبًا وَضعفِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ فِيهَا فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَفْرِقَةٍ فِي الْحَوَاسِّ وَلَا مُنْعَمِيَةٍ فِيهَا بِمَا شَغَلَهَا فِي نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ النِّقْصِ وَمَرْضِهِ وَرُبَّمَا زَاخَمَهَا عَلَى

التَّلَقِّي بِهِ رُوحَانِيَّةٌ أُخْرَى شَيْطَانِيَّةٌ تَتَشَبَّثُ بِهِ وَتَضَعُفُ هَذِهِ عَنْ مُمَانَعَتِهَا فَيَكُونُ
 عَنْهُ التَّخَبُّطُ فَإِذَا أَصَابَهُ ذَلِكَ التَّخَبُّطُ إِمَّا لِفَسَادِ مِرَاجِهِ مِنْ فَسَادٍ فِي ذَاتِهَا أَوْ لِمَزَاحِمَةِ
 مِنَ النُّفُوسِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي تَعَلُّقِهِ غَابَ عَنْ حِسِّهِ جَمْلَةٌ فَأَذْرَكَ لَمَحَّةً مِنْ عَالَمِ نَفْسِهِ
 وَأَنْطَبَعَ فِيهَا بَعْضُ الصُّوَرِ وَصَرَفَهَا الْخَيَالُ وَرُبَّمَا نَطَقَ عَنْ لِسَانِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِنْ
 غَيْرِ إِرَادَةٍ النُّطْقِ وَإِذْرَاكَ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَشُوبٌ فِيهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ لِأَنَّهُ لَا يَخْصُلُ لَهُمُ
 الْإِتِّصَالُ وَإِنْ فَقَدُوا الْحِسَّ إِلَّا بَعْدَ الْإِسْتِعَانَةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَمِنْ
 ذَلِكَ يَجِيءُ الْكَذِبُ فِي هَذِهِ الْمَدَارِكِ وَأَمَّا الْعَرَّافُونَ فَهُمْ الْمُتَعَلِّقُونَ بِهَذَا الْإِذْرَاكِ
 وَلَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ فَيَسْلُطُونَ الْفِكْرَ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ وَيَأْخُذُونَ
 فِيهِ بِالظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ بِنَاءً عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ مَبَادِيءِ ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ وَالْإِذْرَاكِ
 وَيَدْعُونَ بِذَلِكَ مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ وَلَيْسَ مِنْهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَذَا تَخْصِيلُ هَذِهِ الْأُمُورِ وَقَدْ
 تَكَلَّمَ عَلَيْهَا الْمُسْعُودِي فِي مَرْجُوحِ الذَّهَبِ فَمَا صَادَفَ تَحْقِيقاً وَلَا إِصَابَةً وَيَظْهَرُ مِنْ
 كَلَامِ الرَّجُلِ أَنَّهُ كَانَ يَبْعِدُ عَنِ الرُّسُوحِ فِي الْمَعَارِفِ فَيَنْقَلُ مَا سَمِعَ مِنْ أَهْلِهِ وَمِنْ
 غَيْرِ أَهْلِهِ وَهَذِهِ الْإِذْرَاكَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مَوْجُودَةٌ كُلُّهَا فِي نَوْعِ الْبَشَرِ فَقَدْ كَانَ
 الْعَرَبُ يَفْرَعُونَ إِلَى الْكُفَّانِ فِي تَعْرِفِ الْحَوَادِثِ وَيَتَنَافَرُونَ إِلَيْهِمْ فِي الْخُصُومَاتِ
 لِيَعْرِفُوهُمْ بِالْحَقِّ فِيهَا مِنْ إِذْرَاكِ غَيْبِهِمْ وَفِي كُتُبِ أَهْلِ الْأَدَبِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ
 مِنْهُمْ فِي الْعِبَاهِلِيَّةِ شَيْقُ بْنُ أُنْمَارِ بْنِ نِزَارٍ وَسَطِيحُ بْنُ مَازِنِ بْنِ غَسَّانَ وَكَانَ يَنْدَرُجُ
 كَمَا يَنْدَرُجُ الثُّوبُ وَلَا عَظَمَ فِيهِ إِلَّا الْجَمِجِمَةُ وَمِنْ مَشْهُورِ الْحِكَايَاتِ عَنْهُمَا تَأْوِيلُ
 رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ مُضَرَ وَمَا أَخْبَرَاهُ بِهِ مُلْكُ الْحَبَشَةِ لِلْيَمَنِ وَمُلْكُ مُضَرَ مِنْ بَعْدِهِمْ
 وَظُهُورُ النُّبُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي قُرَيْشٍ وَرُؤْيَا الْمُؤَبِّدَانِ الَّتِي أَوْلَاهَا سَطِيحُ لَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِ
 بِهَا كِسْرَى عَبْدَ الْمَسِيحِ فَأَخْبَرَهُ بِشَأْنِ النُّبُوَّةِ وَخَرَابِ مُلْكِ فَارِسَ وَهَذِهِ كُلُّهَا
 مَشْهُورَةٌ وَكَذَلِكَ الْعَرَّافُونَ كَانَ فِي الْعَرَبِ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَذَكَرُوهُمْ فِي أَشْعَارِهِمْ قَالَ
 فَقُلْتُ لَعَرَّافِ الْيَمَامَةِ دَاوْنِي فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيْتَنِي لَطَيْبٌ
 وَقَالَ الْآخَرُ

جَعَلْتُ لَعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفِيَانِي

فَقَالَ شَفَاكَ اللَّهُ وَاللَّهِ مَا لَنَا بِمَا حَمَلْتَ مِنْكَ الضَّلُوعُ يَدَانِ (١)

وَعَرَفَ الْيَمَامَةَ هُوَ رَبَاحُ بْنُ عَجَلَةَ وَعَرَفَ نَجْدَ الْأَبْلَقِ الْأَسَدِيَّ . وَمِنْ هَذِهِ الْمَدَارِكِ الْغَيْبِيَّةِ مَا يَصْدُرُ لِبَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ وَالتَّبَاسِيهِ بِالنَّوْمِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبُ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ إِلَّا فِي مَبَادِيءِ النَّوْمِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ وَذَهَابِ الْإِخْتِبَارِ فِي الْكَلَامِ فَيَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ مُجْبُورٌ عَلَى النُّطْقِ وَغَايَتُهُ أَنْ يَسْمَعَهُ وَيَفْهَمَهُ وَكَذَلِكَ يَصْدُرُ عَنِ الْمُقْتُولِينَ عِنْدَ مُفَارَقَةِ رُؤُوسِهِمْ وَأَوْسَاطِ أَبْدَانِهِمْ كَلَامٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَلَقَدْ بَلَّغْنَا عَنْ بَعْضِ الْجَبَابِرَةِ الظَّالِمِينَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا مِنْ سُجُونِهِمْ أَشْخَاصًا لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ عِنْدَ الْقَتْلِ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَعْلَمُوهُمْ بِمَا يُسْتَبْشَعُ . وَذَكَرَ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ لَهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنَّ آدَمِيًّا إِذَا جُعِلَ فِي دَنْ مَمْلُوءٍ بِدِهْنِ السَّنَسِمِ وَمَكَثَ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يُغْذَى بِالتِّينِ وَالْجَوْزِ حَتَّى يَذْهَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْعُرُوقُ وَشُؤُونُ رَأْسِهِ فَيُخْرَجُ مِنْ ذَلِكَ الدَّهْنِ فَيَحِينَ يَجِفُّ عَلَيْهِ النَّهْوَاءُ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَهَذَا فِعْلٌ مِنْ مَنَاقِيرِ أَفْعَالِ السَّحَرَةِ لَكِنْ يُفْهَمُ مِنْهُ عَجَائِبُ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُحَاوِلُ حُصُولَ هَذَا الْمُدْرِكِ الْغَيْبِيِّ بِالرِّيَاضَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالْمُجَاهَدَةِ مَوْتًا صِنَاعِيًّا بِإِمَاتَةِ جَمِيعِ الْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ مُحْوِ آثَارَهَا الَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا النَّفْسُ ثُمَّ تَغْذِيَّتَهَا بِالذِّكْرِ لِتَزْدَادَ قُوَّةً فِي نَشْئِهَا وَيَحْصُلُ ذَلِكَ بِجَمْعِ الْفِكْرِ وَكَثْرَةِ الْجُوعِ وَمِنْ الْمَعْلُومِ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ بِالْبَدَنِ ذَهَبَ الْحِسُّ وَحَجَابُهُ وَاطْلَعَتِ النَّفْسُ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الرِّيَاضَةِ السَّحَرِيَّةِ يَرْتَاضُونَ بِذَلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الْإِطْلَاعُ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ فِي الْعَوَالِمِ وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا خُصُوصًا بِبِلَادِ الْهِنْدِ وَيُسَمُّونَ هُنَالِكَ الْحُوكِيَّةَ وَلَهُمْ كُتُبٌ فِي كَيْفِيَّةِ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ كَثِيرَةٌ وَالْأَخْبَارُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ غَرِيبَةٌ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَرِيَاضَتُهُمْ دِينِيَّةٌ وَغَرِيبَةٌ عَنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْمَذْمُومَةِ

(١) أي لا نستطيع أن نشفيك من الحب الذي تحمله ضلوعك

وَأِنَّمَا يَقْصُدُونَ جَمْعَ الْهَيْمَةِ وَالْإِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ لِيَخْصَلَ لَهُمْ أَذْوَاقُ أَهْلِ
الْعِرْفَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَيَزِيدُونَ فِي رِيَاضَتِهِمْ إِلَى الْجَمْعِ وَالْجُوعِ التَّغْذِيَّةِ بِالدُّكْرِ فَهِيَ
تَبْمٌ وَجَهَتُهُمْ فِي هَذِهِ الرِّيَاضَةِ لِأَنَّهُ إِذَا نَشَأَتِ النَّفْسُ عَلَى الدُّكْرِ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى
الْعِرْفَانِ بِاللَّهِ وَإِذَا عَرِيَتْ عَنِ الدُّكْرِ كَانَتْ شَيْطَانِيَّةً وَحُصُولُ مَا يَخْصُلُ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْغَيْبِ وَالتَّصَرُّفِ لَهُوْلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَرَضِ وَلَا يَكُونُ مَقْصُوداً مِنْ أَوَّلِ
الْأَمْرِ لِأَنَّهُ إِذَا قَصِدَ ذَلِكَ كَانَتْ الْوُجْهَةُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ التَّصَرُّفِ
وَالْإِطْلَاجِ عَلَى الْغَيْبِ وَأَخْسِرَ بِهَا صَفَقَةً فَإِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ شَرَكٌ قَالَ بَعْضُهُمْ : « مَنْ
أَثَرَ الْعِرْفَانَ لِلْعِرْفَانِ فَقَدْ قَالَ بِالثَّانِي ^(١) » فَهُمْ يَقْصُدُونَ بِوُجْهَتِهِمُ الْمَعْبُودَ لَا لِشَيْءٍ
سِوَاهُ وَإِذَا حَصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَا يَخْصُلُ فَبِالْعَرَضِ وَغَيْرِ مَقْصُودٍ لَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
يَفِرُّ مِنْهُ إِذَا عَرَضَ لَهُ وَلَا يَخْفَلُ بِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِذَاتِهِ لَا لِغَيْرِهِ وَحُصُولُ ذَلِكَ لَهُمْ
مَعْرُوفٌ وَيُسَوُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَالْحَدِيثِ عَلَى الْخَوَاطِرِ فِرَاسَةً وَكَشْفاً وَمَا
يَقَعُ لَهُمْ مِنَ التَّصَرُّفِ كَرَامَةً وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِنَكِيرٍ فِي حَقِّهِمْ وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى
إِنْكَارِهِ الْأَسْتَاذُ أَبُو إِسْحَقَ الْإِسْفَرَايْنِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الْمَالِكِيُّ فِي
آخِرِينَ ^(٢) فِرَاراً مِنَ الْتِبَاسِ الْمُعْجِزَةِ بِغَيْرِهَا وَالْمَعْمُولُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ حُصُولُ
التَّفَرُّقَةِ بِالتَّحْدِيدِ فَهُوَ كَافٍ . وَقَدْ ثُبَّتْ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :
« إِنْ فِيكُمْ مُحَدِّثِينَ وَإِنْ مِنْهُمْ عَمَرٌ » وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ مِنْ ذَلِكَ وَقَائِعٌ مَعْرُوفَةٌ
تَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ » وَهُوَ سَارِيَةُ بْنُ
زَنْبِرٍ كَانَ قَائِداً عَلَى بَعْضِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ بِالْعِرَاقِ أَيَّامَ الْفَتْوحَاتِ وَتَوَرَّطَ مَعَ
الْمُشْرِكِينَ فِي مُعْتَرَكٍ وَهُمْ بِالْإِنْهَرَامِ وَكَانَ بِقَرْيَةِ جَبَلٍ يَتَحَيَّرُ إِلَيْهِ فَرَفَعَ لِعَمَرَ
ذَلِكَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْمَدِينَةِ فَنَادَاهُ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ وَسَمِعَهُ سَارِيَةً وَهُوَ
بِمَكَانِهِ وَرَأَى شَخْصَةً هُنَالِكَ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَوَقَعَ مِثْلُهُ أَيْضاً لِأَبِي بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ

(١) أي اشرك بالله بمعنى ان الله له ثان.

(٢) استعمال غير صحيح . وقد استعمله ابن خلدون في مواضع متفرقة من كتابه والصحيح : آخرون .

عائشة ابنته رضي الله عنهما في شأن ما نحلها^(١) من أوسق^(٢) التمر من حديقته ثم نبهها على جذاده لتحوزه^(٣) عن الورثة فقال في سياق كلامه « وإنما هما أخواك وأختاك » فقالت : « إنما هي أسماء فمن الأخرى ؟ » فقال : « إن ذا بطن بنت خارجة أراها جارية » فكانت جارية وقع في الموطأ في باب ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء إلا أن أهل التصوف يقولون إنه يقل في زمن النبوة إذ لا ينقضي للمريد حالة بحضرة النبي حتى إنهم يقولون إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حالة ما دام فيها حتى يفارقها والله يزرقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق .

ومن هؤلاء المریدین من المتصوفة قوم بهاليل^(٤) مغتوهمون أشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق^(٥) مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الأخبار عن المعانيب عجائب لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب وزبما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط فإن فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء القوم لم تغد نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وإنما فقد لهم العقل الذي يناط به التكليف وهي صفة خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة منزله

(١) نحلها : أعطاه . ولكن هنا تعني خضها . والأصح أن يقول أنحلها .

(٢) أوسق : ج وشق ، وهو وزن ستمين صاعاً أو خمل بعير .

(٣) لتختص به .

(٤) بهاليل : ج بهلول وهو السيد الجامع لكل خير . والمعنى الشائع لكلمة بهلول هو المتهو .

(٥) أهل الذوق : (الذين يتاح لهم أن ينوقوا حلاوة المعرفة الالهية) .

لَمْ يَتَّقْ لَهُ عُذْرٌ فِي قَبُولِ التَّكْلِيفِ لِإِصْلَاحِ مَعَادِهِ وَلَيْسَ مَنْ فَقَدَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِفَاقِدِ
لِنَفْسِهِ وَلَا ذَاهِلٍ عَنْ حَقِيقَتِهِ فَيَكُونُ مَوْجُودَ الْحَقِيقَةِ مَعْدُومَ الْعَقْلِ التَّكْلِيفِيِّ الَّذِي
هُوَ مَعْرِفَةُ الْمَعَاشِ وَلَا اسْتِحَالَةَ فِي ذَلِكَ وَلَا يَتَوَقَّفُ اصْطِفَاءُ اللَّهِ عِبَادَهُ لِلْمَعْرِفَةِ عَلَى
شَيْءٍ مِنَ التَّكْلِيفِ وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ رَبُّمَا يَلْتَمِسُ حَالَهُ هَؤُلَاءِ بِالْمَجَانِينِ
الَّذِينَ تَفْسُدُ نَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ وَيَلْتَحِقُونَ بِالْبَهَائِمِ وَلَكَ فِي تَمْيِيزِهِمْ عَلَامَاتٌ مِنْهَا أَنَّ
هَؤُلَاءِ الْبَهَائِلَ لَا تَجِدُ لَهُمْ وَجْهَةً أَصْلًا وَمِنْهَا أَنَّهُمْ يُخْلَقُونَ عَلَى الْبَلَاءِ مِنْ أَوَّلِ نَشَأَتِهِمْ
وَالْمَجَانِينِ يَغْرَضُ لَهُمُ الْجُنُونُ بَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الْعُمُرِ لِعَوَارِضَ بَدَنِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ فَإِذَا
غَرَضَ لَهُمْ ذَلِكَ وَفَسَدَتْ نَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِالْخَنِيَّةِ وَمِنْهَا كَثْرَةُ تَصَرُّفِهِمْ فِي
النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى إِذْنٍ لِعَدَمِ التَّكْلِيفِ فِي حَقِّهِمْ وَالْمَجَانِينُ
لَا تَصَرَّفُ لَهُمْ وَهَذَا فَضْلٌ انْتَهَى بِنَا الْكَلَامِ إِلَيْهِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ لِلصُّوَابِ .

وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَا مَذَارِكَ ^(١) لِلْغَيْبِ مِنْ دُونِ غَيْبِيَّةٍ عَنِ الْجَسِّ
فَمِنْهُمْ الْمُتَجَمُّعُونَ الْقَائِلُونَ بِالدَّلَالَةِ النُّجُومِيَّةِ وَمُقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِي الْفَلَكَ وَأَثَارِهَا
فِي الْعُنَاصِرِ وَمَا يَخْصُلُ مِنَ الْإِمْتِزَاجِ بَيْنَ طِبَاعِهَا بِالتَّنَاطُرِ وَيَتَأَدَّى مِنْ ذَلِكَ
الْمِزَاجِ إِلَى الْهَوَاءِ وَهَؤُلَاءِ الْمُتَجَمُّعُونَ لَيْسُوا مِنَ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ
خَدْسِيَّةٌ وَتَخْمِينَاتٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّأثيرِ النُّجُومِيَّةِ وَحُصُولِ الْمِزَاجِ مِنْهُ لِلْهَوَاءِ مَعَ مَزِيدِ
خَدْسٍ يَقِفُ بِهِ النَّاطِرُ عَلَى تَفْصِيلِهِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْعَالَمِ كَمَا قَالَهُ بَطْلِيمُوسُ
وَنَحْنُ نَبِينُ بَطْلَانَ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهُوَ لَوْ ثُبُتَ فَعَايَتُهُ خَدْسٌ وَتَخْمِينٌ
وَلَيْسَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيْءٍ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْعَامَّةِ اسْتَنْبَطُوا لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ
وَتَعْرِيفِ الْكَائِنَاتِ صِنَاعَةً سَمَّوْهَا خَطَّ الرُّمْلِ نِسْبَةً إِلَى الْمَادَّةِ الَّتِي يَضَعُونَ فِيهَا
عَمَلَهُمْ وَمَخْصُولُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّهُمْ صَيَّرُوا مِنَ النُّقْطِ أَشْكَالًا ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاتِبٍ
تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي الزُّوجِيَّةِ وَالْفَرْدِيَّةِ وَاسْتَوَاتِهَا فِيهِمَا فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ

(١) كذا في جميع النسخ والكلمة ضعيفة والأصح أن يقال : قد يظن البعض أن هنا من يدرك الغيب .

فتنسجم العبارة كلها .

شَكْلًا لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ أَزْوَاجًا كُلُّهَا أَوْ أَفْرَادًا كُلُّهَا فَشَكْلَانِ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِيهِمَا فِي
مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ فَأَرْبَعَةٌ أَشْكَالٍ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِي مَرْتَبَتَيْنِ فَسِتَّةُ أَشْكَالٍ وَإِنْ كَانَ
فِي ثَلَاثِ مَرَاتِبَ فَأَرْبَعَةٌ أَشْكَالٍ جَاءَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا مَيِّزُوهَا كُلُّهَا بِأَسْمَائِهَا
وَأَنْوَاعِهَا إِلَى سُعُودٍ وَنُحُوسٍ شَأْنِ الْكَوَاكِبِ وَجَعَلُوا لَهَا سِتَّةَ عَشَرَ بَيْتًا طَبِيعِيَّةً
بِرِزْغِمِهِمْ وَكَانَتْهَا الْبُرُوجُ الْإِثْنَا عَشَرَ الَّتِي لِلْفَلَكَ وَالْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةُ وَجَعَلُوا لِكُلِّ شَكْلٍ
مِنْهَا بَيْتًا وَخُطُوطًا^(١) وَدَلَالَةً عَلَى صِنْفٍ مِنْ مَوْجُودَاتِ عَالَمِ الْعَنَاصِرِ يَخْتَصُّ بِهِ
وَاسْتَنْبَطُوا مِنْ ذَلِكَ فَنًا حَادِثًا بِهِ فَنَ النَّجْمَةِ وَنَوْعَ فُضَائِهِ إِلَّا أَنَّ أَحْكَامَ النَّجْمَةِ
مُسْتَنَدَةٌ إِلَى أَوْضَاعٍ طَبِيعِيَّةٍ كَمَا يَزْعُمُ بَطْلِيمُوسُ وَهَذِهِ إِنَّمَا مُسْتَنَدُهَا أَوْضَاعُ
تَحْكِيمِيَّةٌ وَأَهْوَاءُ إِتْفَاقِيَّةٌ وَلَا دَلِيلَ يَقُومُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَضْلَ ذَلِكَ مِنْ
النُّبُوءَاتِ الْقَدِيمَةِ فِي الْعَالَمِ وَرُبَّمَا نَسَبُوهَا إِلَى دَانِيَالٍ أَوْ إِلَى إِدْرِيسَ صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِمَا شَأْنِ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا وَرُبَّمَا يَدْعُونَ مَشْرُوعِيَّتَهَا وَيَخْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ ﷺ
« كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ » وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ
خَطِّ الرَّمْلِ كَمَا يَزْعُمُهُ بَعْضُ مَنْ لَا تَخْصِيلَ لَهُ لِدَلِيلِهِ لَأَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ كَانَ نَبِيٌّ
يَخْطُ فَيَأْتِيهِ الْوَحْيُ عِنْدَ ذَلِكَ الْخَطِّ وَلَا اسْتِحْوَاجَ فِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَادَةً لِبَعْضِ
الْأَنْبِيَاءِ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ ذَلِكَ النَّبِيُّ فَهُوَ ذَاكَ أَيْ فَهُوَ صَحِيحٌ مِنْ بَيْنِ الْخَطِّ بِمَا
عَصَدَهُ مِنَ الْوَحْيِ لِذَلِكَ النَّبِيِّ الَّذِي كَانَتْ عَادَتُهُ أَنْ يَأْتِيَهُ الْوَحْيُ عِنْدَ الْخَطِّ وَأَمَّا
إِذَا أَخَذَ ذَلِكَ مِنَ الْخَطِّ مُجَرَّدًا مِنْ غَيْرِ مُوَافَقَةٍ وَحْيٍ فَلَا وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ . فَإِذَا أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ مُغَيِّبٍ بِرِزْغِمِهِمْ عَمَدُوا إِلَى قِرْطَاسٍ أَوْ رَمْلِ أَوْ دَقِيقٍ
فَوَضَعُوا النُّقْطَ سَطُورًا عَلَى عَدَدِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ ثُمَّ كَرَّرُوا ذَلِكَ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ فَتَجِيءُ
سِتَّةَ عَشَرَ سَطْرًا ثُمَّ يَطْرَحُونَ النُّقْطَ أَزْوَاجًا وَيَضَعُونَ مَا بَقِيَ مِنْ كُلِّ سَطْرِ زَوْجًا
كَانَ أَوْ فَرْدًا فِي مَرْتَبَتِهِ عَلَى التَّرْتِيبِ فَتَجِيءُ أَرْبَعَةٌ أَشْكَالٍ يَضَعُونَهَا فِي سَطْرِ مُتَتَالِيَةٍ
ثُمَّ يُولَدُونَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ أَشْكَالٍ أُخْرَى مِنْ جَانِبِ الْقَرَضِ بِإِعْتِبَارِ كُلِّ مَرْتَبَةٍ وَمَا

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ ، حِظُوطًا .

قَابَلَهَا مِنَ الشَّكْلِ الَّذِي بِإِزَائِهِ وَمَا يَجْتَمِعُ مِنْهُمَا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ ثَمَانِيَّةً أَشْكَالٍ مَوْضُوعَةً فِي سَطْرٍ ثُمَّ يُؤَلَّدُونَ مِنْ كُلِّ شَكْلَيْنِ شَكْلًا تَحْتَهُمَا بِإِغْتِنَابِ مَا يَجْتَمِعُ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الشَّكْلَيْنِ أَيْضًا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ أَرْبَعَةً أُخْرَى تَحْتَهَا ثُمَّ يُؤَلَّدُونَ مِنَ الْأَرْبَعَةِ شَكْلَيْنِ كَذَلِكَ تَحْتَهَا مِنَ الشَّكْلَيْنِ شَكْلًا كَذَلِكَ تَحْتَهُمَا ثُمَّ مِنْ هَذَا الشَّكْلِ الْخَامِسَ عَشَرَ مَعَ الشَّكْلِ الْأَوَّلِ شَكْلًا يَكُونُ آخِرَ السُّتَةِ عَشَرَ ثُمَّ يَحْكُمُونَ عَلَى الْخَطِّ كُلِّهِ بِمَا اقْتَضَتْ أَشْكَالُهُ مِنَ السُّعُودَةِ وَالنُّحُوسَةِ بِالذَّاتِ وَالنَّظَرِ وَالْحُلُولِ وَالْإِمْتِزَاجِ وَالِدَّلَالَةِ عَلَى أَصْنَافِ الْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ ذَلِكَ تَحْكُمًا غَرِيبًا وَكَثُرَتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي الْعُمْرَانِ وَوُضِعَتْ فِيهَا التَّالِيفُ وَاشْتَهَرَ فِيهَا الْأَغْلَامُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ تَحْكُمُ وَهَوَى وَالتَّخْقِيقُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نُصَبَ فِكْرِكَ أَنْ الْغَيْبُ لَا تُدْرِكُ بِصَّنَاعَةِ الْبَتَّةِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَعْرِفِهَا إِلَّا لِلْخَوَاصِّ مِنَ الْبَشَرِ الْمُفْطَوْرِينَ عَلَى الرَّجُوعِ مِنْ عَالَمِ الْحِسِّ إِلَى عَالَمِ الرُّوحِ وَلِذَلِكَ يُسَمَّى الْمُتَجَمُّعُونَ هَذَا الصَّنَفَ كُلُّهُمْ بِالزَّهْرِيِّينَ نِسْبَةً إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ دَلَالَةُ الزَّهْرَةِ بِزَعْمِهِمْ فِي أَصْلِ مَوَالِيدِهِمْ عَلَى إِدْرَاكِ الْغَيْبِ فَالْخَطُّ وَغَيْرُهُ مِنْ هَذِهِ إِنْ كَانَ النَّاطِرُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْخَاصِيَّةِ وَقَصَدَ بِهِذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ النُّقْطِ أَوْ الْعِظَامِ أَوْ غَيْرِهَا إِشْغَالَ الْحِسِّ لِتَرْجِعَ النَّفْسُ إِلَى عَالَمِ الرُّوحَانِيَّاتِ لِحُطَّةِ مَا ، فَهُوَ مِنْ بَابِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالنَّظَرِ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَرَايَا الشَّفَافَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا قَصَدَ مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ بِهِذِهِ الصَّنَاعَةِ وَأَنَّهَا تُفِيدُهُ ذَلِكَ فَهَذَرُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَاللَّهِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وَالْعَلَامَةُ لِهَذِهِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا أَهْلُ هَذَا الْإِدْرَاكِ الْغَيْبِيِّ أَنَّهُمْ عِنْدَ تَوَجُّهِهِمْ إِلَى تَعْرِفِ الْكَائِنَاتِ يَغْتَرِيهِمْ خُرُوجُ عَنْ خَالَتِهِمِ الطَّبِيعِيَّةِ كَالْتَّأَوُّبِ وَالتَّمْطِطِ وَتَبَادُءِ الْغَيْبِيَّةِ عَنِ الْحِسِّ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ عَلَى اخْتِلَافِ وَجُودِهَا فِيهِمْ فَمَنْ لَمْ تَوْجَدْ لَهُ هَذِهِ الْعَلَامَةَ فَلَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ سَاعٍ فِي تَنْفِيقِ ^(١) كَذِبِهِ .

فصل

وَمِنْهُمْ طَوَائِفٌ يَضَعُونَ قَوَانِينَ لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ لَيْسَتْ مِنَ الطُّورِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ مِنْ مَذَارِكِ النَّفْسِ الرُّوحَانِيَّةِ وَلَا مِنَ الْحَدْسِ الْمَبْنِيِّ عَلَى تَأْثِيرَاتِ النُّجُومِ كَمَا زَعَمَهُ بَطْلِيمُوسُ وَلَا مِنَ الظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ الَّذِي يُحَاوِلُ عَلَيْهِ الْعَرَّافُونَ وَإِنَّمَا هِيَ مَغَالِطٌ يَجْعَلُونَهَا كَالْمَصَائِدِ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الْمُسْتَضْعَفَةِ وَلَسْتُ أَذْكَرُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُونَ وَوَلَعَ بِهِ الْخَوَاصُّ فَمِنْ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْحِسَابُ الَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ النِّيمِ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي آخِرِ كِتَابِ السِّيَاسَةِ الْمَنْسُوبِ لِأَرِسْطُو يُعَرَّفُ بِهِ الْغَالِبُ مِنَ الْمَغْلُوبِ فِي الْمُتَحَارِبِينَ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ أَنْ تُحَسَبَ الْحُرُوفُ الَّتِي فِي اسْمِ أَحَدِهِمَا بِحِسَابِ الْجَمْلِ الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ فِي حُرُوفِ أُبْجَد^(١) مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى

(١) حساب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد هو أن لكل حرف من الحروف الهجائية رقماً خاصاً على

النحو الآتي :

أولاً ، على طريقة المغاربة وهي الطريقة التي عنها ابن خلدون وسار عليها ،

ا ب ج د ه و ز ح ط ي ن م ل ك ل م ن ص ع ف ض ق ر س ث ت خ ذ ظ غ ش
١٠٠٠ ٩٠٠ ٨٠٠ ٧٠٠ ٦٠٠ ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٩٠ ٨٠ ٧٠ ٦٠ ٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١

ثانياً ، على طريقة المشارقة وهي الطريقة المشهورة في مصر والعراق وسورية وغيرها من البلاد العربية

الأخرى ،

ا ب ج د ه و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت ث خ ذ ض ظ غ
١٠٠٠ ٩٠٠ ٨٠٠ ٧٠٠ ٦٠٠ ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٩٠ ٨٠ ٧٠ ٦٠ ٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١

ويستعمل حساب الجمل هنا المنجمون والذين يتعاطون تاريخ الاحداث التاريخية والوفيات والولادات

وما شاكل .

الألف آحاداً وَعَشْرَاتٍ وَمِئِينَ وَالْوَفا فَإِذَا حُسِبَتِ الْإِسْمُ وَتَحْصَلَ لَكَ مِنْهُ عَدَدٌ فَاحْصِبِ اسْمَ الْآخِرِ كَذَلِكَ ثُمَّ اطْرَحْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تِسْعَةً وَاحْفَظْ بَقِيَّةَ هَذَا وَبَقِيَّةَ هَذَا ثُمَّ انْظُرْ بَيْنَ الْعَدَدَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ مِنْ حِسَابِ الْإِسْمَيْنِ فَإِنْ كَانَ الْعَدَدَانِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي الْكَمِّيَّةِ وَكَانَا مَعًا زَوْجَيْنِ أَوْ فَرْدَيْنِ مَعًا فَصَاحِبُ الْأَقْلِ مِنْهُمَا هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجًا وَالْآخَرُ فَرْدًا فَصَاحِبُ الْأَكْثَرِ هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانَ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي الْكَمِّيَّةِ وَهُمَا مَعًا زَوْجَانِ فَالْمَطْلُوبُ هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانَ مَعًا فَرْدَيْنِ فَالطَّالِبُ هُوَ الْغَالِبُ وَيُقَالُ هُنَالِكَ نِشَانٌ فِي هَذَا الْعَمَلِ اشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ وَهُمَا :

أَرَى الزَّوْجَ وَالْأَفْرَادَ يَسْمُو أَقْلَهَا وَأَكْثَرَهَا عِنْدَ التَّخَالُفِ غَالِبٌ
وَيُغْلَبُ مَطْلُوبٌ إِذَا الزَّوْجُ يَسْتَوِي وَعِنْدَ اسْتِوَاءِ الْفَرْدِ يُغْلَبُ طَالِبٌ

ثُمَّ وَضَعُوا لِمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الْحُرُوفِ بَعْدَ طَرَحِهَا تِسْعَةً قَانُونًا مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ فِي طَرَحِ تِسْعَةٍ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْحُرُوفَ الدَّالَّةَ عَلَى الْوَاحِدِ فِي الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ وَهِيَ (ا) الدَّالَّةُ عَلَى الْوَاحِدِ وَهِيَ (ي) الدَّالَّةُ عَلَى الْعَشْرَةِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْعَشْرَاتِ وَ (ق) الدَّالَّةُ عَلَى الْمِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْمِئِينَ وَ (ش) الدَّالَّةُ عَلَى الْأَلْفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْأَلْفِ وَلَيْسَ بَعْدَ الْأَلْفِ عَدَدٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ بِالْحُرُوفِ لِأَنَّ الشَّيْنَ هِيَ آخِرُ حُرُوفِ أَبْجَدِ ثُمَّ رَتَبُوا هَذِهِ الْأَحْرَفَ الْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ فَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ (ا ي ق ش) ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ الْأَلْفِ مِنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أَبْجَدِ فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ الْإِثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ وَهِيَ (ب) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْآحَادِ وَ (ك) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْعَشْرَاتِ وَهِيَ عَشْرُونَ وَ (ر) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمِئِينَ وَهِيَ مِائَتَانِ وَصَيَّرُوهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً ثَلَاثِيَّةً عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ وَهِيَ بَكَرٌ ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ

فَنَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةٌ جَلَسَ وَكَذَلِكَ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ أَبْجَدٍ وَصَارَتْ تِسْعَ كَلِمَاتٍ نِهَائِيَّةٍ
عَدَدِ الْآحَادِ وَهِيَ اَيْقَشُ بَكَرُ جَلَسَ دَمَتَ هَنْتَ وَصَخُ زَعَدَ حَفْظَ طَضَعُ مَرْتَبَةٌ عَلَى
تَوَالِي الْأَعْدَادِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا الَّذِي هِيَ فِي مَرْتَبَتِهِ فَالْوَاحِدُ لِكَلِمَةِ اَيْقَشُ
وَالْإِثْنَانِ لِكَلِمَةِ بَكَرُ وَالثَّلَاثَةُ لِكَلِمَةِ جَلَسَ وَكَذَلِكَ إِلَى التَّاسِعَةِ الَّتِي هِيَ طَضَعُ
فَتَكُونُ لَهَا التَّسْعَةُ فَإِذَا أَرَادُوا طَرْحَ الْإِسْمِ يَتَسَعَةً نَظَرُوا كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ فِي أَيِّ كَلِمَةٍ
هُوَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَخَذُوا عَدَدَهَا مَكَانَهُ ثُمَّ جَمَعُوا الْأَعْدَادَ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بَدَلًا
مِنْ حُرُوفِ الْإِسْمِ فَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى التَّسْعَةِ أَخَذُوا مَا فَضَلَ عَنْهَا وَإِلَّا أَخَذُوهُ كَمَا
هُوَ ثُمَّ يَفْعَلُونَ كَذَلِكَ بِالْإِسْمِ الْآخَرِ وَيَنْظُرُونَ بَيْنَ الْخَارِجِينَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ وَالسَّرِّيَّ
هَذَا بَيِّنٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْبَاقِيَّ مِنْ كُلِّ عَقْدٍ مِنْ عَقُودِ الْأَعْدَادِ يَطْرَحُ تِسْعَةً إِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ
فَكَانَهُ يَجْمَعُ عَدَدَ الْعُقُودِ خَاصَّةً مِنْ كُلِّ مَرْتَبَةٍ فَصَارَتْ أَعْدَادُ الْعُقُودِ كَأَنَّهَا آحَادٌ فَلَا
فَرْقَ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ وَالْعَشْرَيْنِ وَالْمِائَتَيْنِ وَالْأَلْفَيْنِ وَكُلُّهَا اثْنَانِ وَكَذَلِكَ الثَّلَاثَةُ
وَالثَّلَاثُونَ وَالثَّلَاثِمِائَةُ وَالثَّلَاثَةُ الْأَلْفِ كُلُّهَا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ فَوُضِعَتْ الْأَعْدَادُ عَلَى التَّوَالِي
دَالَّةً عَلَى أَعْدَادِ الْعُقُودِ لَا غَيْرَ وَجُعِلَتْ الْحُرُوفُ الدَّالَّةُ عَلَى أَصْنَافِ الْعُقُودِ فِي كُلِّ
كَلِمَةٍ مِنَ الْآحَادِ وَالْعَشْرَاتِ وَالْمِائِينَ وَالْأَلُوفِ ^(١) وَصَارَ عَدَدُ الْكَلِمَةِ الْمَوْضُوعِ عَلَيْهَا
نَائِبًا عَنْ كُلِّ حَرْفٍ فِيهَا سِوَاءَ ذَلِكَ عَلَى الْآحَادِ أَوِ الْعَشْرَاتِ أَوِ الْمِائِينَ فَيُؤْخَذُ عَدَدُ كُلِّ
كَلِمَةٍ عِوَضًا مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي فِيهَا وَتُجْمَعُ كُلُّهَا إِلَى آخِرِهَا كَمَا قُلْنَا هَذَا هُوَ الْعَمَلُ
الْمُتَدَاوِلُ بَيْنَ النَّاسِ مُنْذُ الْأَمْرِ الْقَدِيمِ وَكَانَ بَعْضُ مَنْ لَقِينَاهُ مِنْ شَيْوَحْنَا يَرَى أَنَّ
الصَّحِيحَ فِيهَا كَلِمَاتٌ أُخْرَى تِسْعَةٌ مَكَانَ هَذِهِ وَمُتَوَالِيَةٌ كَتَوَالِيهَا وَيَفْعَلُونَ بِهَا فِي
الطَّرْحِ يَتَسَعَةً مِثْلَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سِوَاءَ هَذِهِ أَرَبِ يَسْقُكُ جَزَلُطْ
مَدُوصُ هَفْ تَحْذَنُ عَشْ خَعْ تُضْطَرُّ تِسْعُ كَلِمَاتٍ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا

(١) قوله الألف فيه نظر لأن الحروف ليس فيها ما يزيد عن الألف كما سبق في كلامه (الهويرني في طبعة بولاق) وعلق د. علي عبد الواحد وافي على قول الهويرني: «وقد أورد ابن خلدون كلمة الألف بالجمع للمشكلة مع قوله الآحاد والعشرات والمئين. وإن لم يكن في الحروف إلا ألف واحد».

عَدَّهَا الَّذِي فِي مَرْتَبَتِهِ فِيهَا الثَّلَاثِيُّ وَالرُّبَاعِيُّ وَالثَّنَائِيُّ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً عَلَى أَضَلِّ
مُطَرِّدٍ كَمَا تَرَاهُ لَكِنْ كَانَ شَيْوَحْنَا يَنْقُلُونَهَا عَنْ شَيْخِ الْمَغْرِبِ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ مِنَ
السِّمِّيَاءِ وَأَسْرَارِ الْحُرُوفِ وَالنَّجَامَةِ وَهُوَ أَبُو الْعُبَّاسِ بْنِ الْبَنَاءِ وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَنَّ
الْعَمَلَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي طَرَحِ حِسَابِ النِّيمِ أَصْحَ مِنْ الْعَمَلِ بِكَلِمَاتِ ائِشِ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ كَيْفَ ذَلِكَ وَهَذِهِ كُلُّهَا مَدَارِكُ لِلْغَيْبِ غَيْرَ مَعْرُوفٍ إِلَى أَرِسْطُو عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ لِمَا
فِيهِ مِنَ الْآرَاءِ الْبَعِيدَةِ عَنِ التَّحْقِيقِ وَالْبَرْهَانِ يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ تَصَفُّحُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ
أَهْلِ الرُّسُوحِ ١ هـ . وَمِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الصَّنَاعِيَّةِ لِاسْتِخْرَاجِ الْغُيُوبِ فِيمَا يَزْعُمُونَ
الرَّايِرَجَةَ الْمُسَمَّاءَ « بِزَايِرَجَةِ الْعَالِمِ » الْمَعْرُوفَةُ إِلَى أَبِي الْعُبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ
السَّنْبَتِيِّ مِنْ أَغْلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ بِمَرَكَشَ وَلَقَبَهُ
أَبِي يَنْقُوبَ الْمَنْصُورَ مِنْ مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ وَهِيَ غَرِيبَةٌ الْعَمَلِ صِنَاعَةٌ . وَكَثِيرٌ مِنَ
الْخَوَاصِّ يُوَلِّعُونَ بِإِفَادَةِ الْغَيْبِ مِنْهَا بِعَمَلِهَا الْمَعْرُوفِ الْمَلْفُوزِ فَيَحْرُضُونَ بِذَلِكَ
عَلَى حَلِّ رَمْزِهِ وَكَشْفِ غَامِضِهِ . وَصَوْرَتُهَا الَّتِي يَقَعُ الْعَمَلُ عَنْدهُمْ فِيهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ
فِي دَاخِلِهَا دَوَائِرُ مُتَوَازِيَةٌ لِلْأَفْلَاقِ وَالْعُنَاصِرِ وَالْمَكُونَاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ وَغَيْرُ ذَلِكَ
مِنْ أَصْنَافِ الْكَائِنَاتِ وَالْعُلُومِ وَكُلُّ دَائِرَةٍ مَقْسُومَةٌ بِأَقْسَامٍ فَلِكُلِّهَا إِثْمُ الْبُرُوجِ وَإِثْمَا
الْعُنَاصِرِ أَوْ غَيْرَهُمَا وَخُطُوطُ كُلِّ قِسْمٍ مَازَةٌ إِلَى الْمَرْكَزِ وَيُسَمُّونَهَا الْأَوْتَارَ وَعَلَى كُلِّ
وَتَرٍ حُرُوفٌ مُتَتَابِعَةٌ مَوْضُوعَةٌ فِيمَنْهَا بِرُشُومِ^(١) الزَّمَامِ الَّتِي هِيَ أَشْكَالُ الْأَعْدَادِ عِنْدَ
أَهْلِ الدَّوَاوِينِ وَالْحِسَابِ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْقَهْدِ وَمِنْهَا بِرُشُومِ الْغُبَارِ الْمُتَعَارَفَةِ فِي
دَاخِلِ الزَّايِرَجَةِ وَبَيْنَ الدَّوَائِرِ أَسْمَاءُ الْعُلُومِ وَمَوَاضِعُ الْأَكْوَانِ وَعَلَى ظَاهِرِ الدَّوَائِرِ
جَدُولٌ مُتَكَثَرُ الْبُيُوتِ الْمُتَقَاطِعَةِ طَوْلًا وَعَرْضًا يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةِ وَخَمْسِينَ بَيْتًا فِي
الْعَرْضِ وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِي الطَّوْلِ جَوَانِبُ مِنْهُ مَعْمُورَةٌ الْبُيُوتِ تَارَةً بِالْعَدَدِ

(١) قوله برشوم أي موضوعة بضم الراء جمع رشم بالشين المعجمة ١ هـ ، ومعنى رشم : كتب . والرشم

الكتابة والشكل . ومعنى رسوم الزمام : أشكال الأعداد المستعملة في الغرب . ورشوم الغبار : أشكال الأرقام الهندية
المصطلح عليها في الشرق .

وَأُخْرَى بِالْحُرُوفِ وَجَوَانِبِ خَالِيَةِ الْبَيُوتِ وَلَا تَعْلَمُ نِسْبَةَ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فِي أَوْضَاعِهَا وَلَا الْقِسْمَةَ الَّتِي عَيَّنَتْ الْبَيُوتَ الْعَامِرَةَ مِنَ الْخَالِيَةِ وَخَافَاتُ الزَّائِرِجَةِ أُنْيَاتٌ مِنْ غُرُوضِ الطُّوِيلِ عَلَى رِوِيِّ اللَّامِ الْمَنْصُوبَةِ تَتَضَمَّنُ صُورَةَ الْعَمَلِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّائِرِجَةِ إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْإِلْفَازِ فِي عَدَمِ الْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ وَفِي بَعْضِ جَوَانِبِ الزَّائِرِجَةِ بَيِّنَةٌ مِنَ الشَّعْرِ مَنْسُوبٌ لِبَعْضِ أَكَابِرِ أَهْلِ الْحَدَّثَانِ ^(١) بِالْمَغْرِبِ وَهُوَ مَالِكُ بْنُ وَهَبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَشْجَلِيَّةٍ كَانَتْ فِي الدَّوْلَةِ اللَّمْتُونِيَّةِ وَنَصُّ الْبَيِّنَةِ .

سُؤَالَ عَظِيمِ الْخَلْقِ حُزْتُ فَضْنُ إِذَنْ غَرَائِبُ شَكِّ ضَبْطُهُ الْجِدُّ مَثَلًا

وَهُوَ الْبَيِّنَةُ الْمُتَدَاوِلُ عَنْدهُمْ فِي الْعَمَلِ لِاسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ السُّؤَالِ فِي هَذِهِ الزَّائِرِجَةِ وَغَيْرِهَا فَإِذَا أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ الْجَوَابِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مِنَ الْمَسَائِلِ كَتَبُوا ذَلِكَ السُّؤَالَ وَقَطَعُوهُ حُرُوفًا ثُمَّ أَخَذُوا الطَّالِعَ لِذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ بُرُوجِ الْفَلَكَ وَدَرَجَاتِهَا وَعَمَدُوا إِلَى الزَّائِرِجَةِ ثُمَّ إِلَى الْوُتْرِ الْمُكْتَنَفِ فِيهَا بِالْبُرْجِ الطَّالِعِ مِنْ أَوَّلِهِ مَا رَأَى إِلَى الْمَرْكَزِ ثُمَّ إِلَى مُحِيطِ الدَّائِرَةِ قِبَالَةَ الطَّالِعِ فَيَأْخُذُونَ جَمِيعَ الْحُرُوفِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَالْأَعْدَادَ الْمَرْسُومَةَ بَيْنَهُمَا وَيُصَيِّرُونَهَا حُرُوفًا بِحَسَابِ الْجُمْلِ وَقَدْ يَنْقَلِبُونَ أَحَادَهَا إِلَى الْعَشَرَاتِ وَعَشْرَاتِهَا إِلَى الْمِئِينَ وَبِالْعَكْسِ فِيهِمَا كَمَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ الْعَمَلِ عَنْدهُمْ وَيَضْعُونَهَا مَعَ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَيُضَيِّفُونَ إِلَى ذَلِكَ جَمِيعَ مَا عَلَى الْوُتْرِ الْمُكْتَنَفِ بِالْبُرْجِ الثَّالِثِ مِنَ الطَّالِعِ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْأَعْدَادِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى الْمَرْكَزِ فَقَطْ لَا يَتَجَاوَزُونَهُ إِلَى الْمُحِيطِ وَيَقْلِبُونَ بِالْأَعْدَادِ مَا فَعَلُوهُ بِالْأَوَّلِ وَيُضَيِّفُونَهَا إِلَى الْحُرُوفِ الْأُخْرَى ثُمَّ يَقْطَعُونَ حُرُوفَ الْبَيِّنَةِ الَّتِي هُوَ أَصْلُ الْعَمَلِ وَقَانُونُهُ عَنْدهُمْ وَهُوَ بَيِّنَةُ مَالِكِ بْنِ وَهَبٍ الْمُتَقَدِّمُ وَيَضْعُونَهَا نَاحِيَةً ثُمَّ يَضْرِبُونَ عَدَدَ دَرَجِ الطَّالِعِ فِي أَسِّ الْبُرْجِ وَأَسْهُ عَنْدهُمْ هُوَ بَعْدَ الْبُرْجِ عَنْ آخِرِ الْمَرَاتِبِ عَكْسَ مَا عَلَيْهِ الْأُسُّ عِنْدَ أَهْلِ صَنَاعَةِ الْحِسَابِ فَإِنَّهُ عَنْدهُمْ الْبَعْدُ عَنْ أَوَّلِ الْمَرَاتِبِ ثُمَّ

(٢) أَيِ إِنْهُ مِنْ كِبَارِ الْمُحَدِّثِينَ وَالْمُخْبِرِينَ عَمَّا يَخْبِيهِ الْغَيْبُ مِنْ أَحْدَاثِ الدَّهْرِ وَشُؤُونِ الْمُسْتَقْبَلِ .

يَضْرِبُونَهُ فِي عَدَدٍ آخَرَ يُسَمُّونَهُ الْأَسَّ الْأَكْبَرَ وَالْذُّورَ الْأَصْلِيَّ وَيَدْخُلُونَ بِمَا تَجَمُّعُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فِي بُيُوتِ الْجَدُولِ عَلَى قَوَانِينٍ مَعْرُوفَةٍ وَأَعْمَالٍ مَذْكُورَةٍ وَأَذْوَارٍ مَعْدُودَةٍ وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حُرُوفًا وَيَسْقِطُونَ أُخْرَى وَيَقَابِلُونَ بِمَا مَعَهُمْ فِي حُرُوفِ الْبَيْتِ وَيَنْقُلُونَ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَ إِلَى حُرُوفِ السُّوَالِ وَمَا مَعَهَا ثُمَّ يَطْرَحُونَ تِلْكَ الْحُرُوفَ بِأَعْدَادٍ مَعْلُومَةٍ يُسَمُّونَهَا الْأَذْوَارَ وَيَخْرِجُونَ فِي كُلِّ ذُّورٍ الْحَرْفَ الَّذِي يَنْتَهِي عَنْدهُ الدُّورُ وَيَعَاوِدُونَ ذَلِكَ بِعَدَدِ الْأَذْوَارِ الْمُعَيَّنَةِ عَنْدهُمْ لِذَلِكَ فَيَخْرِجُ آخَرَهَا حُرُوفَ مُتَقَطَّعَةٍ وَتَوَلَّفَ عَلَى التَّوَالِي فَتَصِيرُ كَلِمَاتٍ مَنْظُومَةٌ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ عَلَى وَزْنِ الْبَيْتِ الَّذِي يُقَابَلُ بِهِ الْعَمَلُ وَرَوِيهِ وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ ابْنِ وَهْبٍ الْمُتَقَدِّمُ حَسْبَمَا نَذَكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي فَضْلِ الْعُلُومِ عِنْدَ كَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ بِهَذِهِ الزَّائِرِجَةِ وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيرًا مِنَ الْخَوَاصِّ يَتَهَفَّتُونَ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ مِنْهَا بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّ مَا وَقَعَ مِنْ مُطَابَقَةِ الْجَوَابِ لِلسُّوَالِ فِي تَوَافُقِ الْخِطَابِ دَلِيلٌ عَلَى مُطَابَقَةِ الْوَاقِعِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ الْغَيْبَ لَا يُدْرِكُ بِأَمْرِ صِنَاعِي الْبَتَّةِ وَإِنَّمَا الْمُطَابَقَةُ الَّتِي فِيهَا بَيْنَ الْجَوَابِ وَالسُّوَالِ مِنْ حَيْثُ الْإِفْهَامُ وَالتَّوَافُقُ فِي الْخِطَابِ حَتَّى يَكُونَ الْجَوَابُ مُسْتَقِيمًا أَوْ مُوَافِقًا لِلسُّوَالِ وَوُقُوعُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي تَكْسِيرِ الْحُرُوفِ الْمُجْتَمِعَةِ مِنَ السُّوَالِ وَالْأَوْتَارِ وَالْدُّخُولِ فِي الْجَدُولِ بِالْأَعْدَادِ الْمُجْتَمِعَةِ مِنْ ضَرْبِ الْأَعْدَادِ الْمَفْرُوضَةِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحُرُوفِ مِنَ الْجَدُولِ بِذَلِكَ وَطَرَحُ أُخْرَى وَمُعَاوَدَةُ ذَلِكَ فِي الْأَذْوَارِ الْمَعْدُودَةِ وَمُقَابَلَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ بِحُرُوفِ الْبَيْتِ عَلَى التَّوَالِي غَيْرُ مُسْتَنَكِرٍ وَقَدْ يَقَعُ الْإِطْلَاعُ مِنْ بَعْضِ الْأَذْكِيَاءِ عَلَى تَنَاسُبِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَيَقَعُ لَهُ مَعْرِفَةُ الْمَجْهُولِ فَالتَّنَاسُبُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ هُوَ سَبَبُ الْحُصُولِ عَلَى الْمَجْهُولِ مِنَ الْمَعْلُومِ الْحَاصِلِ لِلنَّفْسِ وَطَرِيقُ لِحْصُولِهِ سِيَّمَا مِنْ أَهْلِ الرِّيَاضَةِ فَإِنَّهَا تَفِيدُ الْعَقْلَ قُوَّةً عَلَى الْقِيَاسِ وَزِيَادَةً فِي الْفِكْرِ وَقَدْ مَرَّ تَغْلِيلُ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَمِنْ أَجْلِ هَذَا الْمَعْنَى يَنْسَبُونَ هَذِهِ الزَّائِرِجَةَ فِي الْغَالِبِ لِأَهْلِ الرِّيَاضَةِ فَهِيَ مَنْسُوبَةٌ لِلْسِّيَّيِّ وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى أُخْرَى مَنْسُوبَةٍ لِسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَلَعَمْرِي إِنَّهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ

وَالْمَعَانَاةُ^(١) الْعَجِيبَةُ وَالْجَوَابُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهَا فَالْسُرُّ فِي خُرُوجِهِ مَنْظُومًا يَظْهَرُ
لِي إِنَّمَا هُوَ الْمُقَابَلَةُ بِحُرُوفِ ذَلِكَ الْبَنِيْتِ وَلِهَذَا يَكُونُ النَّظْمُ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيهِ وَيَدُلُّ
عَلَيْهِ أَنَا وَجَدْنَا أَعْمَالًا أُخْرَى لَهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَشَقَطُوا فِيهَا الْمُقَابَلَةُ بِالْبَنِيْتِ فَلَمْ
يَخْرُجِ الْجَوَابُ مَنْظُومًا كَمَا تَرَاهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ
تَضِيقُ مَذَارِكُهُمْ عَنِ التَّضْدِيقِ بِهَذَا الْعَمَلِ وَتَقُوذُهُ إِلَى الْمَطْلُوبِ فَيُنْكَرُ صِحَّتَهَا
وَيَعْصِبُ أَنَّهَا مِنَ التَّخِيلَاتِ وَالْإِيهَامَاتِ وَأَنَّ صَاحِبَ الْعَمَلِ بِهَا يُثَبِّتُ حُرُوفَ
الْبَنِيْتِ الَّذِي يَنْظِمُهُ كَمَا يُرِيدُ بَيْنَ أَثْنَاءِ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ وَيَفْعَلُ تِلْكَ
الصَّنَاعَاتِ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَلَا قَانُونٍ ثُمَّ يَجِيءُ بِالْبَنِيْتِ وَيُوهِمُ أَنَّ الْعَمَلُ جَاءَ عَلَى
طَرِيقَةٍ مُنْضَبِطَةٍ وَهَذَا الْحُسْبَانُ تَوَهُمٌ فَاسِدٌ حَمَلَ عَلَيْهِ الْقُصُورُ عَنْ فَهْمِ التَّنَاسُبِ
بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمَذَارِكِ وَالْعُقُولِ وَلَكِنْ مِنْ شَأْنِ كُلِّ
مُذْرِكٍ إِنْكَارُ مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِ إِذْرَاكُهُ وَيَكْفِينَا فِي رَدِّ ذَلِكَ مُشَاهَدَةُ الْعَمَلِ بِهَذِهِ
الصَّنَاعَةِ وَالْحَدْسُ الْقَطْعِيُّ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَرِّدٍ وَقَانُونٍ صَحِيحٍ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ
عِنْدَ مَنْ يَبَاشِرُ ذَلِكَ مِنْ لَهْ ذِكَاةٍ وَحَدْسٍ وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَعَايَاةِ فِي الْعَدَدِ الَّذِي
هُوَ أَوْضَحُ الْوَاضِحَاتِ يَغْسُرُ عَلَى الْفَهْمِ إِذْرَاكُهُ لِبُعْدِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَخَفَائِهَا فَمَا ظَنُّكَ
بِمِثْلِ هَذَا مَعَ خِفَاءِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَغَرَايِبِهَا فَلْنَذْكُرْ مَسْئَلَةً مِنَ الْمَعَايَاةِ يَتَضَحُّ لَكَ بِهَا
شَيْءٌ مِمَّا ذَكَّرْنَا مِثَالَهُ لَوْ قِيلَ لَكَ خُذْ عَدَدًا مِنَ الدَّرَاهِمِ وَاجْعَلْ بِإِزَاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ
ثَلَاثَةً مِنَ الْفُلُوسِ ثُمَّ اجْمَعْ الْفُلُوسَ الَّتِي أَخَذْتَ وَاشْتَرِ بِهَا طَائِرًا ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمِ
كُلَّهَا طَيُورًا بِسِعْرِ ذَلِكَ الطَّائِرِ فَكَمْ الطَّيُورُ الْمُشْتَرَاةُ بِالدَّرَاهِمِ فَجَوَابُهُ أَنْ تَقُولَ هِيَ
تِسْعَةٌ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ فُلُوسَ الدَّرَاهِمِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَأَنَّ الثَّلَاثَةَ ثَمَنُهَا وَأَنَّ عِدَّةَ أَثْمَانِ
الْوَاحِدِ ثَمَانِيَّةٌ فَإِذَا جَمَعْتَ الثَّمَنَ مِنَ الدَّرَاهِمِ إِلَى الثَّمَنِ الْآخَرِ فَكَانَ كُلُّهُ ثَمَنَ طَائِرٍ
فَهِيَ ثَمَانِيَّةٌ طَيُورٍ عِدَّةُ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ وَتَزِيدُ عَلَى الثَّمَانِيَّةِ طَائِرًا آخَرَ وَهُوَ الْمُشْتَرَى
بِالْفُلُوسِ الْمَأْخُودَةِ أَوَّلًا وَعَلَى سِعْرِهِ اشْتَرَيْتَ بِالدَّرَاهِمِ فَتَكُونُ تِسْعَةٌ فَأَنْتَ تَرَى

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ . وَلَعَلَّهَا مُحَرَّفَةٌ عَنْ (الْمَعَايَاة) وَهُوَ الْإِثْنَانُ بِكَلَامٍ لَا يَهْتَدِي كُلَّهُ هَكَذَا يَقْتَضِي

سِيَاقُ الْكَلَامِ .

كَيْفَ خَرَجَ لَكَ الْجَوَابُ الْمُضْمَرُ بِسِرِّ التَّنَاسُبِ الَّذِي يَتَنَزَّلُ أَعْدَادُ الْمَسْئَلَةِ وَالْوَهْمُ أَوَّلُ مَا يُلْقَى إِلَيْكَ هَذِهِ وَأَمْثَالُهَا إِنَّمَا يَجْعَلُهُ مِنْ قَبِيلِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ وَظَهَرَ أَنَّ التَّنَاسُبَ بَيْنَ الْأُمُورِ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ مَجْهُولَهَا مِنْ مَعْلُومِهَا وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي الْوَاقِعَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي الْوُجُودِ أَوِ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْكَائِنَاتُ الْمُسْتَقْبَلَةُ إِذَا لَمْ تُعْلَمْ أَسْبَابُ وَقُوعِهَا وَلَا يَثْبُتَ لَهَا خَبَرٌ صَادِقٌ عَنْهَا فَهُوَ غَيْبٌ لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ فَالْأَعْمَالُ الْوَاقِعَةُ فِي الزَّائِرَةِ كُلُّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ الْفَاطِ السُّؤَالِ لِأَنَّهَا كَمَا رَأَيْتَ اسْتِنْبَاطَ حُرُوفٍ عَلَى تَرْتِيبٍ مِنْ تِلْكَ الْحُرُوفِ بِعَيْنِهَا عَلَى تَرْتِيبٍ آخَرَ وَسِرُّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَنَاسُبِ بَيْنَهُمَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ فَمَنْ عَرَفَ ذَلِكَ التَّنَاسُبَ تَيَسَّرَ عَلَيْهِ اسْتِخْرَاجُ ذَلِكَ الْجَوَابِ بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ وَالْجَوَابُ يَدُلُّ فِي مَقَامٍ آخَرَ مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعُ الْفَاطِ وَتَرَكَيبِهِ عَلَى وَقُوعِ أَحَدِ طَرَفِي السُّؤَالِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ بَلْ إِنَّمَا يَرْجِعُ لِمَطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِمَا فِي الْخَارِجِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ بَلِ الْبَشَرُ مَخْجُوبُونَ عَنْهُ وَقَدْ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ يَعْلَمُهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

الباب الثاني

في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في

ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الأول

في أن أجيال البدو والحضر طبيعية

إِغْلَمَ أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَجْيَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ نِخْلَتِهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ فَإِنَّ اجْتِمَاعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَاوُنِ عَلَى تَخْصِيلِهِ وَالْإِتِّدَاءِ بِمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ مِنْهُ وَتَشْيِيطُ قَبْلَ الْحَاجِي وَالْكَمَالِي فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُ الْفُلْخَ مِنَ الْفِرَاسَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ

يَنْتَحِلُ الْقِيَامَ عَلَى الْحَيَوَانِ مِنَ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْمَعَزِ وَالنَّحْلِ وَالذُّودِ لِنَتَاجِهَا
وَاسْتِخْرَاجِ فَضْلَاتِهَا وَهَؤُلَاءِ الْقَائِمُونَ عَلَى الْفُلُحِ وَالْحَيَوَانِ تَدْعُوهُمْ الضَّرُورَةُ وَلَا بُدَّ
إِلَى الْبَدْوِ لِأَنَّهُ مُتَّسِعٌ لِمَا لَا يَتَّسِعُ لَهُ الْخَوَاضِرُ مِنَ الْمَزَارِعِ وَالْقُدُنِ ^(١) وَالْمَسَارِحِ
لِلْحَيَوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَكَانَ اخْتِصَاصُ هَؤُلَاءِ بِالْبَدْوِ أَمْرًا ضَرُورِيًّا لَهُمْ وَكَانَ حِينَئِذٍ
اجْتِمَاعُهُمْ وَتَعَاوُنُهُمْ فِي حَاجَاتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَعُمُرَانِهِمْ مِنَ الْقَوْتِ وَالْكِنِّ وَالذَّفْعِ إِنَّمَا
هُوَ بِالْمِقْدَارِ الَّذِي يَحْفَظُ الْحَيَاةَ وَيَحْصُلُ بُلْغَةُ الْغَيْشِ مِنْ غَيْرِ مَزِيدٍ عَلَيْهِ لِلْمَعْزِ
عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ ثُمَّ إِذَا اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ الْمُنتَحِلِينَ لِلْمَعَاشِ وَحَصَلَ لَهُمْ مَا فَوْقَ

الْحَاجَةِ مِنَ الْغَنَى وَالرَّفَةِ دَعَاهُمْ ذَلِكَ إِلَى السُّكُونِ وَالذَّعَةِ وَتَعَاوَنُوا فِي الرِّائِدِ عَلَى
الضَّرُورَةِ وَاسْتَكْتَرُوا مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالتَّائِقِ فِيهَا وَتَوَسَّعَ الْبُيُوتُ وَاخْتِطَاطِ
الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ لِلتَّخَضُّرِ ثُمَّ تَزِيدُ أَحْوَالُ الرَّفَةِ وَالذَّعَةِ فَتَجِيءُ عَوَائِدُ التَّرَفِ الْبَالِغَةِ
مَبَالِغَهَا فِي التَّائِقِ فِي عِلَاجِ الْقَوْتِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطْبَإِخِ وَانْتِقَاءِ الْمَلَابِسِ الْفَاحِشَةِ فِي
أَنْوَاعِهَا مِنَ الْخَرِيرِ وَالذَّيْبَاجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَمُعَالَاةِ الْبُيُوتِ وَالصُّرُوحِ وَإِحْكَامِ وَضْعِهَا
فِي تَنْجِيدِهَا ^(٢) وَالْإِنْتِهَاءِ فِي الصَّنَائِعِ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِلَى غَايَتِهَا
فَيَتَّخِذُونَ الْقُصُورَ وَالْمَنَازِلَ وَيَخْرُونَ فِيهَا الْمِيَاءَ وَيَعَالُونَ فِي صَرْحِهَا وَيُبَالِغُونَ فِي
تَنْجِيدِهَا وَيَخْتَلِفُونَ فِي اسْتِجَادَةِ مَا يَتَّخِذُونَهُ لِمَعَاشِهِمْ مِنْ مَلْبُوسٍ أَوْ فِرَاشٍ أَوْ آتِيَةٍ أَوْ
مَاعُونٍ وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْحَضَرُ وَمَعْنَاهُ الْحَاضِرُونَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ وَالْبُلْدَانِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ
يَنْتَحِلُ فِي مَعَاشِهِ الصَّنَائِعَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ التَّجَارَةَ وَتَكُونُ مَكَاسِيهِمْ أَنْمَى وَأَرْفَهُ
مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ وَمَعَاشُهُمْ عَلَى نِسْبَةِ وَجْدِهِمْ فَقَدْ
تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا .

(١) الفدن ، ج فدان ، موزعة (منجد)

(٢) ترتيبها وتزيينها .

الفصل الثاني

في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ هُمْ الْمُتَخِلُّونَ لِلْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ مِنَ
الْفُلُحِ وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَنْعَامِ وَأَنَّهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ
وَالْمَسَاكِينِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ وَمُقَصِّرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَالِيٍّ
يَتَخَذُونَ الْبُيُوتَ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبَرِ أَوْ الشَّجَرِ أَوْ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ غَيْرَ مُنْجَذَةٍ إِنَّمَا
هِيَ قَصْدُ الْإِسْتِظْلَالِ وَالْكَيْنَ لَا مَا وَرَاءَهُ وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى الْغَيْرَانِ ^(١) وَالْكُهُوفِ وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ
فَيَتَنَاوَلُونَ بِهَا يَسِيرًا يِعْلَاجُ أَوْ بِغَيْرِ عِلَاجِ الْبَتَّةِ إِلَّا مَا مَسَّتْهُ النَّارُ فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ
مِنْهُمْ فِي الزَّرَاعَةِ وَالْقِيَامِ بِالْفُلُحِ كَانَ الْمَقَامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ الظُّغْنِ وَهَؤُلَاءِ سُكَّانُ الْمَدَرِ
وَالْقَرَى وَالْجِبَالِ وَهُمْ عَامَّةُ الْبَرَبْرِ وَالْأَعَاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي السَّائِمَةِ مِثْلَ الْغَنَمِ
وَالْبَقَرِ فَهُمْ ظُغْنٌ فِي الْأَغْلَبِ لِازْتِيَادِ الْمَسَارِحِ وَالْمِيَاهِ لِحَيَوَانَاتِهِمْ فَالتَّقَلُّبُ فِي الْأَرْضِ
أَصْلَحَ بِهِمْ وَيُسَمُّونَ شَاوِيَةً وَمَعْنَاهُ الْقَائِمُونَ عَلَى الشَّاءِ وَالْبَقَرِ وَلَا يُبْعَدُونَ فِي الْقَفْرِ
لِفَقْدَانِ الْمَسَارِحِ الطَّبِيعِيَّةِ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ الْبَرَبْرِ وَالتُّرْكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ التُّرْكَمَانِ
وَالضُّقَالِيَّةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي الْإِبِلِ فَهُمْ أَكْثَرُ ظُغْنًا وَأَبْعَدُ فِي الْقَفْرِ مَجَالًا لِأَنَّ
مَسَارِحَ التَّلُولِ وَنَبَاتَهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَعْنِي بِهَا الْإِبِلُ فِي قَوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِي
الشَّجَرِ بِالْقَفْرِ وَوُرُودِ مِيَاهِهِ الْمِلْحَةِ ^(٢) وَالتَّقَلُّبُ فَضْلُ الشَّاءِ فِي نَوَاحِيهِ فِرَارًا مِنْ أَدَى
الْبَرْدِ إِلَى دِفْءِ هَوَائِهِ وَطَلَبًا لِمَا خَصِرَ النَّجَاحِ فِي رَمَالِهِ إِذَا الْإِبِلُ أَصْعَبُ الْحَيَوَانِ فَصَالًا

(١) الغور ، ما انحدر واطمأن من الأرض وجمعها مغاور ومغارات . وهذا مقتضى السياق . وقد استعمل

ابن خلدون الغيران بهذا المعنى . والأصح مغاور أو مغارات .

(٢) يقال : أملح الماء ، صار « ملحاً » بعد أن كان عذبا (قاموس) .

وَمَخَاضاً وَأُخُوجَهَا فِي ذَلِكَ إِلَى الدَّفءِ فَاضْطَرُّوا إِلَى إِبْعَادِ النُّجْعَةِ وَرُبَّمَا زَادَتْهُمْ
الْحَامِيَةُ عَنِ التَّلَوْلِ أَيْضاً فَأَوْغَلُوا فِي الْقِفَارِ نَفَرَةً عَنِ الضَّعَةِ مِنْهُمْ فَكَانُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ
النَّاسِ تَوَحُّشاً وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَوَاضِرِ مَنْزِلَةَ الْوَحْشِ غَيْرِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ
وَالْمُقْتَرَسِ مِنَ الْحَيَوَانِ الْعُجْمِ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْعَرَبُ وَفِي مَغْنَاهُمْ ظُغُونُ الْبَرَبْرِ وَزَنَاتُهُ
بِالْمَغْرِبِ وَالْأَكْرَادِ وَالتُّرُكْمَانِ وَالتُّرُكِ بِالْمَشْرِقِ إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ نُجْعَةً وَأَشَدَّ
بِدَاوَةً لِأَنَّهُمْ مُخْتَصُونَ بِالْقِيَامِ عَلَى الْإِبْلِ فَقَطَّ وَهَؤُلَاءِ يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى الشَّيَاهِ
وَالْبَقَرِ مَعَهَا فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِيلَ الْعَرَبِ طَبِيعِيٌّ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الْعُمُرَانِ وَاللَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الثالث

في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وان البادية أصل العمران
والأمصار مدد لها

قَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّ الْبَدُوَ هُمُ الْمُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ فِي أَحْوَالِهِمُ الْعَاجِزُونَ عَمَّا
فَوْقَهُ وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُفْتَنُونَ بِحَاجَاتِ التَّرَفِ وَالْكَمَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَلَا شَكَّ
أَنَّ الضَّرُورِيَّ أَقْدَمَ مِنَ الْحَاجِيِّ وَالْكَمَالِيِّ وَسَابِقَ عَلَيْهِ وَلِأَنَّ الضَّرُورِيَّ أَصْلُ
وَالْكَمَالِيِّ فَرَعٌ نَاشِئٌ عَنْهُ فَالْبَدُوُّ أَصْلٌ لِلْمَدُنِ وَالْحَضَرِ ، وَسَابِقٌ عَلَيْهِمَا لِأَنَّ أَوَّلَ
مَطَالِبِ الْإِنْسَانِ الضَّرُورِيَّ وَلَا يَنْتَهِي إِلَى الْكَمَالِ وَالتَّرَفِ إِلَّا إِذَا كَانَ الضَّرُورِيَّ
حَاصِلًا فَخُشُونَةُ الْبِدَاوَةِ قَبْلَ رِقَّةِ الْحَضَارَةِ وَلِهَذَا نَجِدُ التَّمَدُّنَ غَايَةً لِلْبَدَوِيِّ يَجْرِي
إِلَيْهَا وَيَنْتَهِي بِسَعْيِهِ إِلَى مُقْتَرَحِهِ مِنْهَا وَمَتَّى حَصَلَ عَلَى الرِّيَاشِ الَّذِي يَخْصُلُ لَهُ بِهِ
أَحْوَالُ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ عَاجَ إِلَى الدُّعَا وَأَمَكْنَ نَفْسَهُ إِلَى قِيَادِ الْمَدِينَةِ وَهَكَذَا شَأْنُ
الْقَبَائِلِ الْمُتَبَدِّيَةِ كُلِّهِمْ وَالْحَضَرِيِّ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَى أَحْوَالِ الْبَادِيَةِ إِلَّا لِضُرُورَةٍ تَدْعُوهُ
إِلَيْهَا أَوْ لِتَقْصِيرٍ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَمِمَّا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ الْبَدُوَ أَصْلٌ لِلْحَضَرِ

وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ أَنَا إِذَا فَتَشْنَا أَهْلَ مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ وَجَدْنَا أَوْلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ الَّذِينَ بِنَاحِيَةِ ذَلِكَ الْمِصْرِ وَعَدَلُوا إِلَى الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ الَّذِي فِي الْحَضَرِ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحْوَالَ الْحَضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنْ أَحْوَالِ الْبَدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلُ لَهَا فَتَفَهَّمْنَاهُ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ مُتَّفَاوِتُ الْأَحْوَالِ مِنْ جَنْسِهِ قَرُبُ حَيٍّ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ وَقَبِيلَةٍ أَعْظَمُ مِنْ قَبِيلَةٍ وَمِصْرٌ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ وَمَدِينَةٌ أَكْثَرُ عُفْرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وُجُودَ الْبَدْوِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ وَأَصْلُ لَهَا بِمَا أَنَّ وُجُودَ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ وَالدَّعَةِ الَّتِي هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ الضَّرُورَةِ الْمَعَاشِيَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الرابع

في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة

وَسَبَبُهُ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى كَانَتْ مُتَهَيِّئَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا وَيَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَالَ ﷺ « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِيهِ أَوْ يَمَجْسَانِيهِ » وَبِقَدْرِ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ الْخُلُقَيْنِ تَبَعْدُ عَنْ الْآخَرِ وَيَضَعُفُ عَلَيْهَا اكْتِسَابُهُ فَصَاحِبُ الْخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدُ الْخَيْرِ وَحَصَلَتْ لَهَا مَلَكَتُهُ بَعْدَ عَنِ الشَّرِّ وَصَعِبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ وَكَذَا صَاحِبُ الشَّرِّ إِذَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ أَيْضًا عَوَائِدُهُ وَأَهْلُ الْحَضَرِ لِكَثْرَةِ مَا يُعَانُونَ مِنْ فَنُونِ الْمَلَادِ وَعَوَائِدِ التَّرَفِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الدُّنْيَا وَالْعُكُوفِ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا وَقَدْ تَلَوْنَتْ أَنْفُسُهُمْ بِكَثِيرٍ مِنْ مَذْمُومَاتِ الْخُلُقِ وَالشَّرِّ وَبَعُدَتْ عَنْهُمْ طُرُقُ الْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ الْحِشْمَةِ فِي أَحْوَالِهِمْ فَتَجَدَّ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ يَقْدَعُونَ فِي أَقْوَالِ الْفُحْشَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَبَيْنَ كِبَرَائِهِمْ وَأَهْلٍ مَحَارِمِهِمْ لَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَازِعُ الْحِشْمَةِ لَمَّا أَخَذَتْهُمْ بِهِ عَوَائِدُ السُّوءِ فِي التَّظَاهَرِ بِالْفَوَاحِشِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَأَهْلُ الْبَدْوِ وَإِنْ كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى الدُّنْيَا مِثْلَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْمَقْدَارِ الضَّرُورِيِّ لَا فِي

التَّزَفِ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَذَوَائِعِهَا فَعَوَّادُهُمْ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ عَلَى نِسْبَتِهَا وَمَا يَحْصُلُ فِيهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ السُّوءِ وَمَذْمُومَاتِ الْخُلُقِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ أَقْلُ بِكَثِيرِ قُرْبِهِمْ أَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النَّفْسِ مِنْ سُوءِ الْمَلَكَاتِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْمَذْمُومَةِ وَقُبْحِهَا فَيَسْهَلُ عِلَاجُهُمْ عَنْ عِلَاجِ الْحَضَرِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَقَدْ يَتَوَضَّحُ فِيمَا بَعْدَ أَنْ الْحَضَارَةُ هِيَ نِهَايَةُ الْعُمُرَانِ وَخُرُوجِهِ إِلَى الْفَسَادِ وَنِهَايَةُ الشَّرِّ وَالْبُعْدُ عَنِ الْخَيْرِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَلَا يَغْتَرِضُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ قَوْلِ الْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى الْبَادِيَةِ فَقَالَ لَهُ ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ فَقَالَ لَا وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَذِنَ لِي فِي الْبَدْوِ فَأَعْلَمْتُ أَنَّ الْهَجْرَةَ افْتَرَضَتْ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَكُونُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ حَلَّ مِنَ الْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيَخْرُسُونَهُ وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى الْأَغْرَابِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَمْسُهُمْ مِنْ غَضَبِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمُظَاهَرَةِ وَالْحِرَاسَةِ مَا لَا يَمَسُّ غَيْرَهُمْ مِنَ بَادِيَةِ الْأَغْرَابِ وَقَدْ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَسْتَعِينُونَ بِاللَّهِ مِنَ التَّعَرُّبِ وَهُوَ سُكْنَى الْبَادِيَةِ حَيْثُ لَا تَجِبُ الْهَجْرَةُ وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عِنْدَ مَرَضِهِ بِمَكَّةَ « اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هُجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَغْقَابِهِمْ » وَمَعْنَاهُ أَنْ يُوقِفَهُمْ لِمُلَازِمَةِ الْمَدِينَةِ وَعَدَمِ التَّحَوُّلِ عَنْهَا فَلَا يَرْجِعُوا عَنْ هُجْرَتِهِمُ الَّتِي ابْتَدَأُوا بِهَا وَهُوَ مِنْ بَابِ الرُّجُوعِ عَلَى الْعَقِبِ فِي السَّعْيِ إِلَى وَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَقِيلَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ خَاصًّا بِمَا قَبْلَ الْفَتْحِ حِينَ كَانَتِ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى الْهَجْرَةِ لِقَلَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ وَحِينَ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَاعْتَزُّوا وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ بِالْعِصْمَةِ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّ الْهَجْرَةَ سَاقِطَةٌ حِينَئِذٍ لِقَوْلِهِ ﷺ « لَا هَجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ » وَقِيلَ سَقَطَ إِنْشَاؤها عَنْهُ يَسْلِمُ بَعْدَ الْفَتْحِ وَقِيلَ سَقَطَ وَجُوبُهَا عَنْهُ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَالْكُلُّ مُجْمَعُونَ عَلَى أَنَّهَا بَعْدَ الْوَفَاةِ سَاقِطَةٌ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ افْتَرَقُوا مِنْ يَوْمِئِذٍ فِي الْأَفَاقِ وَانْتَشَرُوا وَلَمْ

يَبْقَى إِلَّا فَضْلُ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ هُجْرَةٌ فَقَوْلُ الْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ حِينَ سَكَنَ
الْبَادِيَةَ ارْتَدَدَتْ عَلَى عَقْبَيْكَ تَعَرَّبْتَ نَعَى عَلَيْهِ فِي تَرْكِ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ بِالْإِشَارَةِ
إِلَى الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ الَّذِي قَدْ مَنَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَغْيَابِهِمْ وَقَوْلُهُ تَعَرَّبْتَ إِشَارَةً
إِلَى أَنَّهُ صَارَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَا يُهَاجِرُونَ وَأَجَابَ سَلَمَةَ بِإِنْكَارِ مَا أَلْزَمَهُ مِنَ
الْأَمْرَيْنِ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَذِنَ لَهُ فِي الْبَدْوِ وَيَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا بِهِ كَشَهَادَةِ
خُزَيْمَةَ ^(١) وَعَنَاقِ أَبِي بُرْدَةَ ^(٢) أَوْ يَكُونُ الْحَجَّاجُ إِنَّمَا نَعَى عَلَيْهِ تَرْكِ السُّكْنَى
بِالْمَدِينَةِ فَقَطْ لِعِلْمِهِ بِسُقُوطِ الْهُجْرَةِ بَعْدَ الْوَفَاةِ وَأَجَابَهُ سَلَمَةُ بِأَنَّا اغْتِنَانَاهُ لِأَذْنِ
النَّبِيِّ ﷺ أُولَى وَأَفْضَلُ فَمَا أَثَرُهُ بِهِ وَاخْتَصُّهُ إِلَّا لِمَعْنَى عَلَيْهِ فِيهِ وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ
فَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى مَذْمُومَةِ الْبَدْوِ الَّذِي عُبِّرَ عَنْهُ بِالتَّعَرُّبِ لِأَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْهُجْرَةِ إِنَّمَا
كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ لِمُظَاهَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَحِرَاسَتِهِ لَا لِمَذْمُومَةِ الْبَدْوِ فَلَيْسَ فِي النَّعْيِ
عَلَى تَرْكِ هَذَا الْوَاجِبِ دَلِيلٌ عَلَى مَذْمُومَةِ التَّعَرُّبِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل الخامس

في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ أَلْقَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مِهَادِ الرَّاحَةِ وَالِدُّغَةِ
وَانْفَمَسُوا فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ وَوَكَلُوا أَمْرَهُمْ فِي الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ
وَالْحَاكِمِ الَّذِي يَسُوسُهُمْ وَالْحَامِيَةِ الَّتِي تَوَلَّتْ حِرَاسَتَهُمْ وَاسْتَنَامُوا إِلَى الْأَسْوَارِ الَّتِي
تَحُوطُهُمْ وَالْحَزْرَ الَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلَا تَهَيِّجُهُمْ هَيْعَةً ^(٣) وَلَا يَنْفِرُ لَهُمْ صَيْدٌ فَهُمْ
غَارُونَ ^(٤) أَمْنُونَ ، قَدْ أَلْقَوْا السَّلَاحَ وَتَوَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ الْأُجْيَالُ وَتَنَزَّلُوا مَنْزِلَةَ

(١) هو خزيمة بن ثابت الأنصاري من أصحاب رسول الله ﷺ . وقد جعل شهادته بشهادة رجلين .

(٢) العناق ، أم الأنثى من ولد للز قبل استكمالها السنة . وقد أجاز النبي ﷺ لأبي بردة ابن نيار
خاصة أن يضحي بها . قصد ابن خلدون فهو استثناء الخصوصية من عموم الأحكام . لما ورد بشأنها في
أحاديث الرسول ﷺ

(٣) هَيْعَةٌ ، الصوت للرعب والخيف .

(٤) غَارُونَ ، مطمئنون .

النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مشواهم حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الصواحي وبغدهم عن الحامية وانتبازهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمداقة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوع إلا غزراً في المجالس وعلى الرجال وفوق الأقتاب ويتوجسون للنبات^(١) والهيئات ويتفردون في القفر والبيداء مذلين بيأسهم وإثمين بأنفسهم قد صار لهم الناس خلقاً والشجاعة سجية يزعجون إليها متى دعاهم داع أو استنفروهم صارخ وأهل الخضر منهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئاً من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرحناه وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً ومملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر ذلك في الادميين تجده كثيراً صحيحاً والله يخلق ما يشاء .



(١) يتوجسون ، يسمعون . النبات ، الأصوات الخفية .

الفصل السادس

في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة

منهم

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه إذ الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبة إلى غيرهم فمن الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره ، ولا بُد فإن كانت الملكة رفيقة وعادلة لا يعانى منها حكم ولا منع وصدا كان الناس من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن وإثمين بعدم الوازع حتى صار لهم الإذلال جيلة لا يعرفون سواها وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاثر في النفوس المضطهدة كما نبئناه وقد نهي عمر سعداً رضي الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوبة سلب الجالوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفاً من الذهب وكان اتبع الجالوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فانتزعه منه سعد وقال له هلاً انتظرت في اتباعي إذني وكتب إلى عمر يستأذنه فكتب إليه عمر نعمد إلى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به ^(١) وبقي عليك ما بقي من حزبك وتكسر فوقه ^(٢) وتفسد قلبه وأمضى له عمر سلبه وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يَكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لمزباه على المخافة والإنقياد

(١) بمعنى قاسى شدائد الحرب .

(٢) تشبط همته .

فَلَا يَكُونُ مُدَلًّا بِبَاسِهِ وَلِهَذَا نَجِدُ الْمُتَوَحِّشِينَ مِنَ الْعَرَبِ ^(١) أَهْلَ الْبَدْوِ أَشَدَّ بَاسًا
مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْأَحْكَامُ وَنَجِدُ أَيْضًا الَّذِينَ يُعَانُونَ الْأَحْكَامَ وَمَلَكَتْهَا مِنْ لَدُنْ مَرَبَاهُمْ
فِي التَّأْدِيبِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالذِّيَانَاتِ يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ بَاسِهِمْ كَثِيرًا
وَلَا يَكَادُونَ يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَادِيَّةَ بَوَاجِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَهَذَا شَأْنُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ
الْمُنْتَحِلِينَ لِلْقِرَاءَةِ وَالْأَخْذِ عَنِ الْمَشَايخِ وَالْأَيِّمَةِ الْمُمَارِسِينَ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ فِي
مَجَالِسِ الْوَقَارِ وَالنَّهْيَةِ فِيهِمْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ وَذَهَابُهَا بِالْمِنْعَةِ وَالْبَاسِ . وَلَا تَسْتَنْكِزُ
ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الصَّحَابَةِ مِنْ أَخْذِهِمْ بِأَحْكَامِ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ وَلَمْ يُنْقِصْ ذَلِكَ مِنْ
بَاسِهِمْ بَلْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ بَاسًا لِأَنَّ الشَّارِعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ
عَنْهُ دِينَهُمْ كَانَ . وَازْعَهُمْ فِيهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَمَّا تَلَّى عَلَيْهِمْ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ وَلَمْ
يَكُنْ بِتَّعْلِيمِ صِنَاعِيٍّ وَلَا تَأْدِيبِ تَعْلِيمِيٍّ إِنَّمَا هِيَ أَحْكَامُ الدِّينِ وَأَدَابُهُ الْمُتَلَفَّاتُ نَقْلًا
يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا بِمَا رَسَخَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ فَلَمْ تَزَلْ سُورَةُ
بَاسِهِمْ مُسْتَحْكِمَةً كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تَخْدِشْهَا أَظْفَارُ التَّأْدِيبِ وَالْحُكْمِ قَالَ عَمْرُو رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ « مَنْ لَمْ يُوَدِّدْهُ الشَّرْعُ لَا أَدْبَهُ اللَّهُ » حَرْصًا عَلَى أَنْ يَكُونَ الْوَارِعُ لِكُلِّ أَحَدٍ
مِنْ نَفْسِهِ وَيَقِينًا بِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ وَلَمَّا تَنَاقَصَ الدِّينُ فِي النَّاسِ
وَأَخْذُوا بِالْأَحْكَامِ الْوَارِعَةِ ثُمَّ صَارَ الشَّرْعُ عِلْمًا وَصِنَاعَةً يُؤْخَذُ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ
وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى الْحَضَارَةِ وَخُلِقَ الْإِنْقِيَادُ إِلَى الْأَحْكَامِ تَقَصَّتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْبَاسِ
فِيهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ لِلْبَاسِ لِأَنَّ الْوَارِعَ فِيهَا
ذَاتِيٌّ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مِمَّا تَوَثَّرُ فِي أَهْلِ الْحَوَاضِرِ فِي
ضَعْفِ نَفْسِهِمْ وَخَضِ ^(٢) الشُّوْكَةَ مِنْهُمْ بِمَعَانِيَّتِهِمْ فِي وَلِيدِهِمْ وَكُهُولِهِمْ وَالبَدْوُ بِمَغْزَلٍ
مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ لِبَعْدِهِمْ عَنْ أَحْكَامِ السُّلْطَانِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْآدَابِ وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ
أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَحْكَامِ الْمُعَلِّمِينَ وَالتَّوَعَّلِّمِينَ « أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤَدَّبِ أَنْ
يَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الصَّبْيَانِ فِي التَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ » نَقْلُهُ عَنْ شَرْيْحِ الْقَاضِي

(١) التَّوَحِّشِينَ مِنَ الْعَرَبِ ، بِمَعْنَى الْبَدْوِ أَوْ سَكَانِ الْبَادِيَةِ .

(٢) انْكَسَارُ الشُّوْكَةِ .

وَاجْتَنَّبْ لَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ بَدءِ الْوَحْيِ مِنْ شَأْنِ الْفَطْ وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَلَا يَصْلُحُ شَأْنُ الْفَطْ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ لِبُعْدِهِ عَنِ التَّعْلِيمِ الْمُتَعَارِفِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

الفصل السابع

في أن سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية

إِغْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » وَقَالَ « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » وَالشَّرُّ أَقْرَبُ الْخِلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أَهْمِلَ فِي مَرْعَى عَوَائِدِهِ وَلَمْ يَهْدُ بِهِ الْإِقْتِدَاءُ بِالذِّينِ وَعَلَى ذَلِكَ الْجَمُّ الْغَفِيرُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْبَشَرِ فِيهِمُ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَمَنْ امْتَدَّتْ عَيْنُهُ إِلَى مَتَاعِ أَخِيهِ فَقَدْ امْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخِيهِ إِلَّا أَنْ يَضُدَّهُ وَارَعَ كَمَا قَالَ .

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّدَ دَا عِفَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

فَأَمَّا الْمَدَنُ وَالْأَمْصَارُ فَعُدْوَانُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَذْفَعُهُ الْحُكَامُ وَالْدَوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا عَلَى أَيْدِي مَنْ تَخَتَّهَتْ مِنَ الْكَافَّةِ أَنْ يُمْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ يَغْدُو عَلَيْهِ فَهُمْ مَكْبُوحُونَ بِحِكْمَةِ الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ التَّظَالُمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ وَأَمَّا الْعُدْوَانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَيَذْفَعُهُ سِيَاجُ الْأَسْوَارِ عِنْدَ الْغَفْلَةِ أَوْ الْغِرَّةِ لَيْلًا أَوْ الْعَجْزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ نَهَارًا أَوْ يَذْفَعُهُ اِزْدِيَادُ الْحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الْإِسْتِعْدَادِ وَالْمَقَاوِمَةِ وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدْوِ فَيَنْزِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَائِخُهُمْ وَكِبَرُؤُهُمْ بِمَا وَفَّرَ فِي نَفُوسِ الْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالتَّجَلَّةِ وَأَمَّا جَلَلُهُمْ فَإِنَّمَا يَنْوَدُ عَنْهَا مِنْ خَارِجِ حَامِيَةِ الْحَيِّ مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفَتْيَانِهِمُ الْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ فِيهِمْ وَلَا يَصْدُقُ دِفَاعُهُمْ وَذِيَادُهُمْ إِلَّا إِذَا كَانُوا غَضَبِيَّةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ وَيُخْشَى جَانِبُهُمْ إِذْ نَفَرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ أَهْمٌ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ

عِبَادِهِ مِنَ الشُّفَقَةِ وَالنُّفَرَةِ^(١) عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةٌ فِي الطَّبَائِعِ
 الْبَشَرِيَّةِ وَبِهَا يَكُونُ التَّعَاوُدُ وَالتَّنَاصُرُ وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِيمَا
 حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِأَيِّهِ لَنْ أَكُلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ
 غَضَبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّاسِرُونَ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَتَوَهَّمُ الْعَدُوَّانُ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ الْعِصْيَةِ لَهُ
 وَأَمَّا الْمُتَفَرِّدُونَ فِي أُنْسَابِهِمْ فَقَلٌّ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نُفَرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَإِذَا أَظْلَمَ
 الْجَوُّ بِالشَّرِّ يَوْمَ الْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَنْفِي النِّجَاةَ لِنَفْسِهِ خِيفَةً وَاسْتِيحَاشًا
 مِنَ التَّخَاذُلِ فَلَا يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سُكْنَى الْقَفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُغْمَةٌ لِمَنْ
 يَلْتَهُمُهُمْ مِنَ الْأَمَمِ سِوَاهُمْ وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي تَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ
 فَبِمِثْلِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَحْمِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ إِقَامَةِ مَلِكٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِذْ
 بُلُوعُ الْفَرَضِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ مِنَ الْإِسْتِعْصَاءِ
 وَلَا بُدَّ فِي الْقِتَالِ مِنَ الْعِصْيَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَنْفَاءً فَاتَّخِذْهُ إِمَامًا تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ
 عَلَيْكَ بَعْدَ وَاللَّهِ الْمَوْفُوقُ لِلصَّوَابِ .

الفصل الثامن

في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه

وَذَلِكَ أَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ لَا فِي الْأَقْلَ وَمِنْ صِلَتِهَا النُّفَرَةُ عَلَى ذَوِي
 الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَلَكَةٌ فَإِنَّ الْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ
 غَضَاضَةً مِنْ ظَلَمِ قَرِيبِهِ أَوْ الْعَدَاءُ عَلَيْهِ وَيَوَدُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ
 الْمَغَاطِبِ وَالْمَهَالِكِ نَزْعَةً طَبِيعِيَّةً فِي الْبَشَرِ مِثْلُ مَا كَانَ إِذَا كَانَ النَّسَبُ الْمُتَوَاصِلُ
 بَيْنَ الْمُتَنَاصِرِينَ قَرِيبًا جَدًّا بِحَيْثُ حَصَلَ بِهِ الْإِتِّحَادُ وَالْإِلْتِحَامُ كَانَتْ الْوُصْلَةُ
 ظَاهِرَةً فَاسْتَدْعَتْ ذَلِكَ بِمَجْرَدِهَا وَوُضُوحِهَا وَإِذَا بَعُدَ النَّسَبُ بَعْضُ الشَّيْءِ قَرُبًا

(١) النفرة والنمار بالضم فيهما والنعر، الصراخ والصياح في حرب أو شر (قاموس) والمعنى هنا التعصب

لذوي الأرحام ونجدتهم .

تَنُوسِي بَعْضُهَا وَيَبْقَى مِنْهَا شَهْرَةٌ فَتَحْمِلُ عَلَى النُّصْرَةِ لِذَوِي نَسَبِهِ بِالْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْهُ فِرَاراً مِنَ الْغَضَاظَةِ الَّتِي يَتَوَهَّمُهَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ظُلْمٍ مَنْ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْوَلَاءُ وَالْجِلْفُ إِذْ نُفَرَةُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى أَهْلِ وَلَايَتِهِ وَحَلْفِهِ لِلْأَلْفَةِ الَّتِي تَلْحَقُ النَّفْسَ مِنْ اهْتِصَامِ جَارِهَا أَوْ قَرِيبِهَا أَوْ نَسَبِهَا بِوَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ النَّسَبِ وَذَلِكَ لِأَجْلِ اللَّحْمَةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ الْوَلَاءِ مِثْلَ لَحْمَةِ النَّسَبِ أَوْ قَرِيباً مِنْهَا وَمِنْ هَذَا تَفَهُمُ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ «تَعْلَمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ» اِبْتِغَاءً أَنْ النَّسَبُ إِنَّمَا فَائِدَتُهُ هَذَا الْإِلْتِحَامُ الَّذِي يُوجِبُ صِلَةَ الْأَرْحَامِ حَتَّى تَقَعَ الْمُنَاصَرَةُ وَالنُّفَرَةُ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَفْتًى عَنْهُ إِذِ النَّسَبُ أَمْرٌ وَهَمِيٌّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَنَفْعُهُ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الْوُضْعَةِ وَالْإِلْتِحَامِ فَإِذَا كَانَ ظَاهِراً وَاضِحاً حَمَلَ النَّفُوسَ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ النُّفَرَةِ كَمَا قُلْنَا وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْخَيْرِ الْبَعِيدِ ضَعُفٌ فِيهِ الْوَهْمُ وَذَهَبَتْ فَائِدَتُهُ وَصَارَ الشُّغْلُ بِهِ مَجَاناً وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهْوِ الْمُنْهَبِ عَنْهُ وَمِنْ هَذَا الْإِغْتِبَارِ مَعْنَى قَوْلِهِمُ النَّسَبُ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ وَجْهَالَةٌ لَا تُضِرُّ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِذَا خَرَجَ عَنِ الْوُضُوحِ وَصَارَ مِنْ قَبِيلِ الْعُلُومِ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ الْوَهْمِ فِيهِ عَنِ النَّفْسِ وَأَنْتَفَتِ النُّفَرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا الْعَصِيَّةُ فَلَا مَنَفْعَةَ فِيهِ حِينَئِذٍ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

الفصل التاسع

في أن الصريح من النسب إنسا يوجد للمتوحشين في القفر من

العرب ومن في معنائهم

وَذَلِكَ لِمَا اخْتَصُّوا بِهِ مِنْ نَكِدِ الْعَيْشِ وَشَطَفِ الْأَحْوَالِ وَسُوءِ الْمَوَاطِنِ حَمَلَتْهُمْ عَلَيْهَا الضَّرُورَةُ الَّتِي عَيَّنَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْقِسْمَةَ وَهِيَ لِمَا كَانَ مَعَاشُهُمْ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْإِبِلِ وَتَنَاجِيهَا وَرِعَايَتِهَا وَالْإِبِلُ تَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوَحُّشِ فِي الْقَفْرِ لِرِعَايَتِهَا مِنْ شَجَرَةٍ

(١) الاصول أن يقول مجانة أو مجونا.

وَتَبَاجُهَا فِي رِمَالِهِ كَمَا تَقَدَّمَ وَالْقَفَرُ مَكَانُ الشَّطَفِ وَالسَّغَبِ ^(١) فَصَارَ لَهُمْ الْفَأُ وَعَادَةً
وَرَبِيتَ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ حَتَّى تَمَكَّنَتْ خُلُقًا وَجِبِلَّةً فَلَا يَنْزِعُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ أَنْ
يَسَاهِمَهُمْ فِي حَالِهِمْ وَلَا يَأْنَسُ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ بَلْ لَوْ وَجَدَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ السَّبِيلَ
إِلَى الْفِرَارِ مِنْ حَالِهِ وَأَمَكَّنَهُ ذَلِكَ لَمَا تَرَكَهُ فَيُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَاطِ
أَنْسَابِهِمْ وَفَسَادِهَا وَلَا تَزَالُ بَيْنَهُمْ مَحْفُوظَةٌ صَرِيحَةٌ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي مُضَرٍّ مِنْ قُرَيْشٍ
وَكَيْنَانَةَ وَثَقِيفَ وَبَنِي أَسَدٍ وَهَذِيلَ وَمَنْ جَاوَرَهُمْ مِنْ خُرَاعَةَ لَمَّا كَانُوا أَهْلَ شَطَفٍ
وَمَوَاطِنَ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ وَبَعُدُوا مِنْ أَرْيَافِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ الْأَدَمِ
وَالْحُبُوبِ كَيْفَ كَانَتْ أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةٌ مَحْفُوظَةٌ لَمْ يَدْخُلْهَا اخْتِلَاطٌ وَلَا عُرْفٌ فِيهَا
شَوْبٌ . وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ كَانُوا بِالتَّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ الْخَصْبِ لِلْمَرَاعِي وَالْعَيْشِ مِنْ
حَمِيرٍ وَكَهْلَانٍ مِثْلَ لَحْمٍ وَجُدَامٍ وَغَسَّانٍ وَطَبِئٍ وَقَضَاعَةٍ وَإِيَادٍ فَاخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ
وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ فَبَقِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ بَيُوتِهِمْ مِنَ الْخِلَافِ عِنْدَ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ
وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْعَجَمِ وَمُخَالِطَتِهِمْ وَهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ الْمُحَافَظَةَ عَلَى
النَّسَبِ فِي بَيُوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ ^(٢) فَقَطْ . قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى
عَنْهُ « تَعَلَّمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبِطِ السَّوَادِ إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ
قَرْيَةٍ كَذَا هَذَا أَيْ مَا لِحَقَ هَؤُلَاءِ الْعَرَبُ أَهْلُ الْأَرْيَافِ مِنَ الْإِزْدَحَامِ مَعَ النَّاسِ عَلَى
الْبَلَدِ الطَّيِّبِ وَالْمَرَاعِي الْخَصِيْبَةِ فَكَثُرَ الْإِخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلَتْ الْأَنْسَابُ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ
فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ الْإِنْتِمَاءُ إِلَى الْمَوَاطِنِ فَيُقَالُ جُنْدٌ قَنْسَرِينَ جُنْدٌ دِمَشْقَ جُنْدٌ الْعَوَاصِمِ
وَأَنْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَطْرَاحِ الْعَرَبِ أَمْرُ النَّسَبِ وَإِنَّمَا كَانَ
لِاخْتِصَاصِهِمْ بِالْمَوَاطِنِ بَعْدَ الْفَتْحِ حَتَّى عَرَفُوا بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى
النَّسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أَمْرَائِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ الْإِخْتِلَاطُ فِي الْحَوَاصِرِ مَعَ الْعَجَمِ وَغَيْرِهِمْ

(١) السَّغَبُ : الجوع مع التعب .

(٢) بمعنى أن المحافظة على النسب محصورة في العرب سكان البادية والأرياف أو كما يعني بهم ابن خلدون (العرب التوحشون) .

وَقَسَدَتِ الْأَنْسَابُ بِالْجُمْلَةِ وَقَعِدَتْ ثَمَرَتُهَا مِنَ الْعَصِيَّةِ فَاطْرَحَتْ ثُمَّ تَلَاشَتْ الْقَبَائِلُ
وَذَثُرَتْ فَذَثُرَتِ الْعَصِيَّةُ بِذُثُورِهَا وَبَقِيَ ذَلِكَ فِي الْبَدْنِ كَمَا كَانَ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ
وَمَنْ عَلَيْهَا .

الفصل العاشر

في اختلاط الأنساب كيف يقع

إِغْلَمَ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ يَنْسَقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ
بِقَرَابَةٍ إِلَيْهِمْ أَوْ حِلْفٍ أَوْ وِلَاءٍ أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجَنَائَةٍ أَصَابَهَا فَيُدْعَى بِنَسَبِ
هَؤُلَاءِ وَيَعُدُّ مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ النُّعْرَةِ وَالْقَوَدِ^(١) وَحَمَلِ الدِّيَاتِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَإِذَا
وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ النَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وَجَدَ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكَوْنِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا
جَرَيَانُ أَحْكَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ التَّحَمُّ بِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى النَّسَبَ الْأَوَّلَ
يَطُولُ الزَّمَانُ وَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ فَيَخْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ وَمَا زَالَتْ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ
مِنْ شُعْبٍ إِلَى شُعْبٍ وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَالْعَجَمِ .
وَانْظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِي نَسَبِ آلِ الْمُنْدِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنُ لَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُ شَأْنُ
بَيْحِلَةَ فِي عَرْفَجَةَ بْنِ هَرَثْمَةَ لَمَّا وَلَاهُ عَمْرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ الْإِغْفَاءَ مِنْهُ وَقَالُوا هُوَ فِينَا
لَزِيْقٌ أَيْ دَخِيلٌ وَلَصِيقٌ وَطَلَبُوا أَنْ يُؤَلَّى عَلَيْهِمْ جَرِيرًا فَسَأَلَهُ عَمْرُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ
عَرْفَجَةُ صَدَقُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ أَصَبْتُ دَمًا فِي قَوْمِي وَلِحَقْتُ
بِهِمْ وَانْظُرْ مِنْهُ كَيْفَ اخْتَلَطَ عَرْفَجَةُ بِبَيْحِلَةَ وَلَيْسَ جِلْدَتُهُمْ وَدُعَايُ بَنَسَبِهِمْ حَتَّى
تَرَشَّحَ لِلرَّئَاسَةِ عَلَيْهِمْ لَوْلَا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوُشَائِحِهِ وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذَلِكَ وَامْتَدَّ الزَّمَنُ
لَتَنَوَسَّى بِالْجُمْلَةِ وَعَدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهِ وَمَذْهَبٍ فَافْهَمَهُ وَاعْتَبَرَ سِرُّ اللَّهِ فِي خَلِيقَتِهِ
وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَمَّا قَبْلَهُ مِنَ الْعُهُودِ وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ
وَكَرَمِهِ .

(١) القود ، القصاص في القتل .

الفصل الحادي عشر (١)

في أن الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية

إِذْ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ أَوْ بَطْنٍ مِنَ الْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عَصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمُ الْعَامِّ فَفِيهِمْ أَيْضاً عَصَبِيَّاتٌ أُخْرَى لِأَنْسَابٍ خَاصَّةٍ هِيَ أَشَدُّ التَّحَاماً مِنَ النُّسَبِ الْعَامِّ لَهُمْ مِثْلَ عَشِيرَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ أَوْ إِخْوَةٍ بَنِي أَبِي وَاحِدٍ لَا مِثْلَ بَنِي الْعَمِّ الْأَقْرَبِينَ أَوْ الْأَبْعَدِينَ فَهَؤُلَاءِ أَقْعَدُ بِنَسَبِهِمُ الْمَخْصُوصِ وَيُشَارِكُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَصَائِبِ فِي النُّسَبِ الْعَامِّ وَالتَّغَرُّةِ تَقَعُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمُ الْمَخْصُوصِ وَمِنْ أَهْلِ النُّسَبِ الْعَامِّ إِلَّا أَنَّهَا فِي النُّسَبِ الْخَاصِّ أَشَدُّ لِقُرْبِ اللَّحْمَةِ وَالرَّئَاسَةِ فِيهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي نَصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَكُونُ فِي الْكُلِّ وَلَمَّا كَانَتِ الرَّئَاسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْغُلْبِ وَجِبَ أَنْ تَكُونَ عَصَبِيَّةً ذَلِكَ النُّصَابُ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ الْعَصَائِبِ لِيَقَعُ الْغُلْبُ بِهَا وَيَتِمَّ الرَّئَاسَةُ لِأَهْلِهَا فَإِذَا وَجِبَ ذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ الرَّئَاسَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النُّصَابِ الْمَخْصُوصِ بِأَهْلِ الْغُلْبِ عَلَيْهِمْ إِذْ لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَارَتْ فِي الْعَصَائِبِ الْأُخْرَى النَّازِلَةِ عَنْ عَصَابَتِهِمْ فِي الْغُلْبِ لَمَّا تَمَّتْ لَهُمُ الرَّئَاسَةُ فَلَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النُّصَابِ مُتَنَاقِلَةً مِنْ فَرْعٍ مِنْهُمْ إِلَى فَرْعٍ وَلَا تَنْتَقِلُ إِلَّا إِلَى الْأَقْوَى مِنْ فُرُوعِهِ لِمَا قُلْنَا مِنْ سِرِّ الْغُلْبِ لِأَنَّ الْإِجْتِمَاعَ وَالْعَصَبِيَّةَ بِمَثَابَةِ الْمِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ وَالْمِزَاجُ فِي الْمُتَكَوِّنِ لَا يَصْلُحُ إِذَا تَكَافَأَتِ الْعُنَاصِرُ فَلَا بُدَّ مِنْ غَلْبَةِ أَحَدِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ التَّكْوِينُ فَهَذَا هُوَ سِرُّ اشْتِرَاطِ الْغُلْبِ فِي الْعَصَبِيَّةِ وَمِنْهُ تَعَيَّنَ اسْتِمْرَارُ الرَّئَاسَةِ فِي النُّصَابِ الْمَخْصُوصِ بِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ .

(١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفارسية وموجود في النسخة التونسية وإبائه أولى ليطابق كلام أول

الفصل ١١٢ هـ قاله نصر الهوريني .

الفصل الثاني عشر

في ان الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وذلك ان الرئاسة لا تكون إلا بالغلب والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب إنما هو ملصق لزيق وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غلباً عليهم البتة وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسي هذه الأول من الالتصاق وليس جلدتهم ودعي بنسبهم فكيف له الرئاسة قبل هذا الالتحام أو لأحد من سلفه والرئاسة على القوم إنما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية فالأولوية التي كانت لهذا الملصق قد عرفت فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرئاسة حينئذ فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الالتصاق والرئاسة لا بد وأن تكون موروثه عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب إلى أنساب يلتهجون بها إما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق فينزعون إلى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القدح في رئاستهم والطعن في شرفهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن ذلك ما يدعيه زناتة جملة أنهم من العرب ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد

مِنْهُمْ لِحَقِّ جَدِّهِمْ بِنِي غَامِرٍ نَجَاراً يَضَعُ الْحَرْجَانُ ^(١) وَاخْتَلَطَ بِهِمْ وَالتَّحَمَّ بِنَسَبِهِمْ
 حَتَّى رَأَسَ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهُ الْحِجَازِيَّ . وَمِنْ ذَلِكَ ادِّعَاءُ بَنِي عَبْدِ الْقَوِيِّ بْنِ
 الْعَبَّاسِ بْنِ تَوْجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَغْبَةً فِي هَذَا النَّسَبِ
 الشَّرِيفِ وَغُلَطاً بِاسْمِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةِ أَبِي عَبْدِ الْقَوِيِّ وَلَمْ يَعْلَمْ دُخُولَ أَحَدٍ مِنْ
 الْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ أَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ عَلَى دَعْوَةِ الْعُلُوِيِّينَ أَغْدَائِهِمْ مِنَ
 الْأَدَارِسَةِ وَالْعَبِيدِيِّينَ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سِبْطِ الْعَبَّاسِ أَحَدٌ مِنْ شِيعَةِ الْعُلُوِيِّينَ ؟
 وَكَذَلِكَ مَا يَدَّعِيهِ أَبْنَاءُ زِيَانَ مُلُوكِ تَلْمَسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَاحِدِ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ
 الْقَاسِمِ بْنِ إِدْرِيسَ ذَهَاباً إِلَى مَا اشْتَهَرَ فِي نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْقَاسِمِ فَيَقُولُونَ
 بِلِسَانِهِمُ الزَّنَاتِيَّ أَنْتَ الْقَاسِمُ أَيُّ بَنُو الْقَاسِمِ ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّ الْقَاسِمَ هَذَا هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ
 إِدْرِيسَ أَوْ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ إِدْرِيسَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحاً فَقَايَةُ الْقَاسِمِ هَذَا
 أَنَّهُ فَرٌّ مِنْ مَكَانِ سُلْطَانِهِ مُسْتَجِيرٌ بِهِمْ فَكَيْفَ تَبِمَ لَهُ الرِّئَاسَةُ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَتِهِمْ
 وَإِنَّمَا هُوَ غُلَطٌ مِنْ قِبَلِ اسْمِ الْقَاسِمِ فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْوُجُودِ فِي الْأَدَارِسَةِ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ قَاسِمَهُمْ
 مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ وَهُمْ غَيْرُ مُحْتَاجِينَ لِذَلِكَ فَإِنْ مَنَالَهُمُ لِلْمُلْكِ وَالْعِزَّةِ إِنَّمَا كَانَ
 بِعَصِيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ بِادِّعَاءِ عُلُوِيَّةٍ وَلَا عَبَّاسِيَّةٍ وَلَا شَيْءٍ مِنَ الْأَنْسَابِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ
 عَلَى هَذَا الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمُلُوكِ بِمَنَازِعِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَيَشْتَهَرُ حَتَّى يَتَعَدَّ عَنِ الرَّدِّ
 وَلَقَدْ بَلَغْنِي عَنْ يَغْمُرَاسِينَ بْنِ زِيَانَ مُؤْتَلٍ سُلْطَانِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ ذَلِكَ أَنْكَرَهُ وَقَالَ
 بَلَغْتِهِ الزَّنَاتِيَّةُ مَا مَغْنَاهُ أَمَا الدُّنْيَا وَالْمُلْكُ فَنَلْنَاهُمَا بِسُيُوفِنَا لَا بِهَذَا النَّسَبِ وَأَمَّا
 نَفْعُهُمَا فِي الْآخِرَةِ فَمَرْدُودٌ إِلَى اللَّهِ وَأَعْرَضَ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ . وَمِنْ هَذَا
 الْبَابِ مَا يَدَّعِيهِ بَنُو سَعْدِ شَيْخٍ بِنِي يَزِيدَ مِنْ رَغْبَةٍ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ أَبِي بَكْرٍ
 الصَّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبَنُو سَلَامَةَ شَيْخٍ بِنِي يَذَلَّتْنِ مِنْ تَوْجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمٍ
 وَالزَّوَادَةَ شَيْخٍ رِيَّاحٍ أَنَّهُمْ مِنْ أَغْقَابِ الْبَرَامِكَةِ وَكَذَا بَنُو مَهْنَا أَمْرَاءَ طَبِيعٍ
 بِالْمَشْرِقِ يَدَّعُونَ فِيمَا بَلَغْنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَغْقَابِهِمْ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَرِئَاسَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ
 مَانِعَةٌ مِنْ ادِّعَاءِ هَذِهِ الْأَنْسَابِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ بَلْ تَعَيَّنُ أَنَّ يَكُونُوا مِنْ صَرِيحِ ذَلِكَ

(١) قولة الحرجان بكسر الحاء جمع حرج يفتحان نعش الموتى . هـ .

النَّسَبِ وَأَقْوَى عَصِيَّاتِهِ فَاعْتَبَرَهُ وَاجْتَنَبَ الْمَغَالِطَ فِيهِ وَلَا تَجْعَلْ مِنْ هَذَا الْبَابِ
إِلْحَاقَ مَهْدِيِّ الْمُوَحِدِينَ بِنَسَبِ الْعَلَوِيَّةِ فَإِنَّ الْمَهْدِيَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنْبِتِ الرَّئَاسَةِ فِي
هَرِثْمَةِ قَوْمِهِ ، وَإِنَّمَا رَأْسُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ اشْتِهَارِهِ بِالْعِلْمِ وَالَّذِينَ وَدَّخُولِ قَبَائِلِ
الْمَصَامِدَةِ فِي دَعْوَتِهِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمَنَابِتِ الْمُتَوَسَّطَةِ فِيهِمْ وَاللَّهُ عَالِمُ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .

الفصل الثالث عشر

في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لأهل العصبية
ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرَفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِالْخِلَالِ وَمَعْنَى الْبَيْتِ أَنْ يَعُدَّ الرَّجُلُ فِي
أَبَائِهِ أَشْرَافًا مَذْكُورِينَ يَكُونُ لَهُ بِوِلَادَتِهِمْ إِثَاءٌ وَالْإِنْتِسَابُ إِلَيْهِمْ تَجَلَّةٌ فِي أَهْلِ
جِلْدَتِهِ لِمَا وَقَرَّ فِي نَفُوسِهِمْ مِنْ تَجَلَّةِ سَلَفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِخِلَالِهِمْ وَالنَّاسُ فِي نَشَاتِهِمْ
وَتَنَاسُلِهِمْ مَعَادُنُ قَالَ ﷺ « النَّاسُ مَعَادُنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي
الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا » فَمَعْنَى الْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى الْأَنْسَابِ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ الْأَنْسَابِ
وَفَائِدَتَهَا إِنَّمَا هِيَ الْعَصِيَّةُ لِلنُّفُورَةِ وَالتَّنَاصُرِ فَحَيْثُ تَكُونُ الْعَصِيَّةُ مَرْهُوبَةً وَالْمَنْبِتُ
فِيهَا زَكِيٌّ مَحْمِيٌّ تَكُونُ فَائِدَةُ النَّسَبِ أَوْضَحَ وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى وَتَعْدِيدُ الْأَشْرَافِ مِنْ
الْآبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا فَيَكُونُ الْحَسَبُ وَالشَّرَفُ أَضْلِيَيْنِ فِي أَهْلِ الْعَصِيَّةِ لَوْجُودِ ثَمَرَةِ
النَّسَبِ وَتَفَاوُتِ الْبَيُوتِ فِي هَذَا الشَّرَفِ بِتَفَاوُتِ الْعَصِيَّةِ لِأَنَّهُ سِرُّهَا وَلَا يَكُونُ
لِلْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَنْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا بِالْمَجَازِ وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ فَرُخَرَفَ مِنَ الدُّعَاوَى
وَإِذَا اغْتَبَرْتَ الْحَسَبَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَجَدْتَ مَعْنَاهُ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يُعَدُّ سَلَفًا فِي
خِلَالِ الْخَيْرِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ مَعَ الرُّكُونِ إِلَى الْعَافِيَةِ مَا اسْتَطَاعَ وَهَذَا مُغَايِرٌ لِسِرِّ
الْعَصِيَّةِ الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ النَّسَبِ وَتَعْدِيدُ الْآبَاءِ لَكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيَّتْ

بِالْمَجَازِ لِعِلَاقَةٍ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ الْمُتَعَاقِبِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَيْرِ
وَمَسَالِكِهِ وَلَيْسَ حَسَبًا بِالْحَقِيقَةِ وَعَلَى الْإِطْلَاقِ وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِالْوَضْعِ
الْفُغْوِيِّ فَيَكُونُ مِنَ الْمُسْكَكِ الَّذِي هُوَ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوَّلَى وَقَدْ يَكُونُ لِلْبَنِيَّةِ
شَرَفٌ أَوَّلٌ بِالْعَصِيَّةِ وَالْخِلَالِ ثُمَّ يَنْسَلِخُونَ مِنْهُ لِذَهَابِهَا بِالْحَضَارَةِ كَمَا تَقْدَمُ
وَيَخْتَلِطُونَ بِالْغَمَارِ وَيَبْقَى فِي نَفُوسِهِمْ وَسْوَاسٌ ذَلِكَ الْحَسَبِ يُعَدُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ
أَشْرَافِ الْبَيُوتَاتِ أَهْلِ الْعَصَائِبِ وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ لِذَهَابِ الْعَصِيَّةِ جَمْلَةً وَكَثِيرًا
مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ النَّاشِئِينَ فِي بَيُوتِ الْعَرَبِ أَوْ الْعَجَمِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمْ مُوسُوسُونَ بِذَلِكَ
وَأَكْثَرُ مَا رَسَخَ الْوَسْوَاسُ فِي ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ كَانَ لَهُمْ بَيْتٌ مِنْ أَعْظَمِ بَيُوتِ
الْعَالَمِ بِالْمَنْبِتِ أَوَّلًا لِمَا تَعَدَّدَ فِي سَلَفِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ إِلَى مُوسَى صَاحِبِ مِلَّتِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ ثُمَّ بِالْعَصِيَّةِ ثَانِيًا وَمَا آتَاهُمُ اللَّهُ بِهَا مِنْ
الْمُلْكِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ ثُمَّ أَنْسَلَخُوا مِنْ ذَلِكَ أَجْمَعَ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمُسْكَنَةُ
وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ فِي الْأَرْضِ وَانْفَرَدُوا بِالِاسْتِغْبَادِ لِلْكَفْرِ آلَافًا مِنَ السِّنِينَ وَمَا زَالَ
هَذَا الْوَسْوَاسُ مُصَاحِبًا لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ يَقُولُونَ هَذَا هَارُونِي هَذَا مِنْ نَسْلِ يُوْشَعَ هَذَا مِنْ
عَقِبِ كَالِبٍ هَذَا مِنْ سِنِيطٍ يَهُودًا مَعَ ذَهَابِ الْعَصِيَّةِ وَرُسُوحِ الذَّلِّ فِيهِمْ مُنْذُ أَحْقَابِ
مُتَطَاوِلَةٍ وَكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَغَيْرِهِمُ الْمُتَقَطِّعِينَ فِي أَنْسَابِهِمْ عَنِ الْعَصِيَّةِ
يَذْهَبُ إِلَى هَذَا الْهَيْدْيَانِ . وَقَدْ غَلِطَ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ فِي هَذَا لَمَّا ذَكَرَ الْحَسَبَ فِي
كِتَابِ الْخَطَايَةِ مِنْ تَلْخِيصِ كِتَابِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ ^(١) وَالْحَسَبُ هُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ
قَدِيمٍ نَزَلَهُمْ بِالْمَدِينَةِ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَنْفَعُهُ قَدَمُ
نَزْلِهِمْ بِالْمَدِينَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عِصَابَةٌ يَرْهَبُ بِهَا جَانِبُهُ وَتَحْمِلُ غَيْرَهُمْ عَلَى الْقَبُولِ
مِنْهُ فَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ الْحَسَبَ عَلَى تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ فَقَطُّ مَعَ أَنَّ الْخَطَايَةَ إِنَّمَا هِيَ اسْتِمَالَةٌ
مَنْ تَوَثَّرَ اسْتِمَالَتُهُ وَهُمْ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَأَمَّا مَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ الْبَتَّةَ فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ
وَلَا يَقْدَرُ عَلَى اسْتِمَالَةِ أَحَدٍ وَلَا يُسْتَمَالُ هُوَ وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنَ الْحَضَرِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ
إِلَّا أَنْ ابْنَ رُشْدٍ رَبَّا فِي جَبَلٍ وَبَلَدٍ وَلَمْ يَمَارِسُوا الْعَصِيَّةَ وَلَا أَنْسُوا أَحْوَالَهَا فَبَقِيَ فِي

(١) المعلم الأول هو أرسطو . أما المعلم الثاني فهو الفارابي .

أَمْرُ الْبَيْتِ وَالْحَسَبِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْ تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يُزَاجَعْ
فِيهِ حَقِيقَةُ الْعَصِيَّةِ وَسِرُّهَا فِي الْخَلِيقَةِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

الفصل الرابع عشر

فِي أَنَّ الْبَيْتَ وَالشَّرَفَ لِلْمَوَالِي وَأَهْلَ الْأَصْطِنَاعِ إِنَّمَا هُوَ بِمَوَالِيهِمْ
لَا بِأَنْسَابِهِمْ

وَذَلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الشَّرَفَ بِالأَصَالَةِ وَالْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ فَإِذَا
اضْطَنَّعَ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ قَوْمًا مِنْ غَيْرِ نَسَبِهِمْ أَوْ اسْتَرْقُوا الْعِبْدَانِ وَالْمَوَالِي وَالتَّخَمُّوا بِهِ
كَمَا قُلْنَا ضَرَبَ مَعَهُمْ أُولَئِكَ الْمَوَالِي وَالْمُضْطَنِّعُونَ بِنَسَبِهِمْ فِي تِلْكَ الْعَصِيَّةِ وَلَبَسُوا
جِلْدَتَهَا كَأَنَّهَا عَصَبَتُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِنْتِظَامِ فِي الْعَصِيَّةِ مُسَاهَمَةٌ فِي نَسَبِهَا كَمَا
قَالَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ وَسَوَاءٌ كَانَ مَوْلَى رَقٍّ أَوْ مَوْلَى
اضْطِنَاعٍ وَحَلَفَ ^(١) وَلَيْسَ نَسَبٌ وَلَدَاتِهِ يَنْفَعُ لَهُ فِي تِلْكَ الْعَصِيَّةِ إِذْ هِيَ مُبَايَنَةٌ
لِذَلِكَ النَّسَبِ وَغَضَبِيَّةٌ ذَلِكَ النَّسَبِ مَفْقُودَةٌ لِذَهَابِ سِرِّهَا عِنْدَ التَّخَامِيهِ بِهَذَا النَّسَبِ
الْآخِرِ وَفَقْدَانِهِ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهَا فَيَصِيرُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَيَنْدَرِجُ فِيهِمْ فَإِذَا تَعَدَّدَتْ لَهُ الْأَبَاءُ
فِي هَذِهِ الْعَصِيَّةِ كَانَ لَهُ يَتَنَبَّهُمْ شَرَفٌ وَيَبْتَئُ عَلَى نَسَبِهِ فِي وَلَائِهِمْ وَاضْطِنَاعِهِمْ
لَا يَتَجَاوِزُهُ إِلَى شَرَفِهِمْ بَلْ يَكُونُ أَدْوَنَ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَهَذَا شَأْنُ الْمَوَالِي فِي
الدُّوَلِ وَالْخِدْمَةِ كُلِّهِمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْرَفُونَ بِالرُّسُوحِ فِي وِلَاءِ الدُّوَلَةِ وَخِدْمَتِهَا وَتَعَدُّدِ
الْأَبَاءِ فِي وَلَايَتِهَا أَلَا تَرَى إِلَى مَوَالِي الْأَتْرَاكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى بَنِي بَرْمَكٍ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَبَنِي تُوبَخْتٍ كَيْفَ أَذْرَكُوا الْبَيْتَ وَالشَّرَفَ وَبَنَوْا الْمَجْدَ وَالْأَصَالَةَ
بِالرُّسُوحِ فِي وِلَاءِ الدُّوَلَةِ فَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ بَيْتًا
وَشَرَفًا بِالْإِنْتِسَابِ إِلَى وِلَاءِ الرُّشَيْدِ وَقَوْمِهِ لَا بِالْإِنْتِسَابِ فِي الْفُرْسِ وَكَذَا مَوَالِي كُلِّ

(١) مولى الرق هو العبد يعتقه سيده فيصبح ولاؤه له . ثم يرثه إذا مات ولم يترك غصبة . ومولى

الحلف ، الرجل الحر الأصل يتخذ له مولى بعقد صريح . فيصبح بمنزلة عضو في أسرة مولاه .

دَوْلَةٌ وَخَدَمَهَا إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ الْبَيْتُ وَالْحَسَبُ بِالرُّسُوخِ فِي وَلَائِهَا وَالْأَصَالَةِ فِي
 اضْطِنَاعِهَا وَيَضْمَحِلُّ نَسَبُهُ الْأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا وَيَبْقَى مُلْفَى لَا عِبْرَةَ بِهِ فِي
 أَصَالَتِهِ وَمَجْدِهِ وَإِنَّمَا الْمُعْتَبَرُ نَسَبُهُ وَلَائِهِ وَاضْطِنَاعُهُ إِذْ فِيهِ سِرُّ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا
 الْبَيْتُ وَالشَّرَفُ فَكَانَ شَرَفُهُ مُشْتَقًّا مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ وَبِنَاؤُهُ مِنْ بِنَائِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعَهُ
 نَسَبُ وَلَادَتِهِ وَإِنَّمَا بَنَى مَجْدَهُ نَسَبُ الْوَلَاءِ فِي الدَّوْلَةِ وَلُحْمَةُ الْاضْطِنَاعِ فِيهَا
 وَالتَّرْبِيَّةُ وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ الْأَوَّلُ فِي لُحْمَةِ عَصِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَلَاؤُهُ
 وَاضْطِنَاعُهُ فِي أُخْرَى لَمْ تَنْفَعَهُ الْأَوَّلَى لِذَهَابِ عَصِيَّتِهَا وَانْتَفَعُ بِالثَّانِيَةِ لَوُجُودِهَا وَهَذَا
 حَالُ بَنِي بَرْمَكٍ إِذِ الْمَنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْفَرَسِ مِنْ سَدَنَةِ بَيُوتِ النَّارِ
 عِنْدَهُمْ وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وَلَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ لَمْ يَكُنْ بِالْأَوَّلِ اعْتِبَارًا وَإِنَّمَا كَانَ شَرَفُهُمْ
 مِنْ حَيْثُ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ وَاضْطِنَاعُهُمْ وَمَا سِوَى هَذَا فَوَهُمْ تَوَسَّسُوا بِهِ النُّفُوسُ
 الْجَامِحَةُ وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ وَالْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَا « وَإِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ »
 وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

الفصل الخامس عشر

في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء

إِغْلَمُ أَنَّ الْعَالَمَ الْمُعْصِرِيَّ بِمَا فِيهِ كَائِنٌ فَاسِدٌ لَا مِنْ ذَوَاتِهِ وَلَا مِنْ أَحْوَالِهِ
 وَالْمُكَوَّنَاتُ مِنَ الْمُعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ كَائِنَةٌ فَاسِدَةٌ
 بِالْمَعَانِيَةِ وَكَذَلِكَ مَا يَغْرُضُ لَهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَخُصُوصًا الْإِنْسَانِيَّةُ فَالْعُلُومُ تَنْشَأُ ثُمَّ
 تُدْرَسُ وَكَذَا الصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا وَالْحَسَبُ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَغْرُضُ لِلْأَدْمِيِّينَ فَهُوَ
 كَائِنٌ فَاسِدٌ لَا مَحَالَةَ وَلَيْسَ يُوجَدُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ فِي آبَائِهِ مِنْ
 لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَرَامَةً بِهِ وَحِيَاظَةً عَلَى السَّرِّ فِيهِ
 وَأَوَّلُ كُلِّ شَرَفٍ خَارِجِيَّةٌ كَمَا قِيلَ ، وَهِيَ الْخُرُوجُ عَنِ الرَّئَاسَةِ وَالشَّرَفِ إِلَى الضَّعْفَةِ

وَالْإِتِّدَالِ وَعَدَمِ الْحَسَبِ وَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسَبٍ فَعَدَمُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ شَأْنُ كُلِّ مُحَدِّثٍ ثُمَّ إِنَّ نَهَائِيَّتَهُ فِي أَرْبَعَةِ آبَاءٍ وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي الْمَجْدِ عَالِمٌ بِمَا عَانَاهُ فِي بَنَائِهِ وَمُحَافِظٌ عَلَى الْخِلَالِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبَقَائِهِ وَابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ مُبَاشِرٌ لِأَبِيهِ فَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ وَأَخَذَهُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي ذَلِكَ تَقْصِيرَ السَّامِعِ بِالشَّيْءِ عَنِ الْمُعَانِي لَهُ ثُمَّ إِذَا جَاءَ الثَّالِثُ كَانَ حَظُّهُ الْإِقْتِفَاءُ وَالتَّقْلِيدُ خَاصَّةً فَقَصَرَ عَنِ الثَّانِي تَقْصِيرَ الْمُقْلِدِ عَنِ الْمُجْتَهِدِ ثُمَّ إِذَا جَاءَ الرَّابِعُ قَصَرَ عَنْ طَرِيقَتِهِمْ جُمْلَةً وَأَضَاعَ الْخِلَالَ الْحَافِظَةَ لِبِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَاحْتَقَرَهَا وَتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ الْبُنْيَانُ لَمْ يَكُنْ بِمُعَانَاةٍ وَلَا تَكَلُّفٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَجِبَ لَّهُمْ مِنْذُ أَوَّلِ النُّشْأَةِ بِمَجْرَدِ انْتِسَابِهِمْ وَلَيْسَ بِعِصْيَانَةٍ وَلَا بِخِلَالٍ لِمَا يَرَى مِنَ التَّجَلُّةِ بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ حَدُوثُهَا وَلَا سَبَبُهَا وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ النَّسَبُ فَقَطْ فَيَرْبَأُ بِنَفْسِهِ عَنْ أَهْلِ عَصِيَّتِهِ وَيَرَى الْفَضْلَ لَهُ عَلَيْهِمْ وَثُوقًا بِمَا رُبِّيَ فِيهِ مِنْ اسْتِتْبَاعِهِمْ وَجَهْلًا بِمَا أَوْجَبَ ذَلِكَ الْإِسْتِتْبَاعَ مِنَ الْخِلَالِ الَّتِي مِنْهَا التَّوَاضُّعُ لَّهُمْ وَالْأَخْذُ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَيَحْتَقِرُهُمْ بِذَلِكَ فَيَنْغَضُونَ عَلَيْهِ وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيَدِيلُونَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَنْسَبِ وَمِنْ فُرُوعِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقَبِ لِلْإِدْغَانِ لِعِصْيَانِهِمْ كَمَا قُلْنَا بَعْدَ الْوُثُوقِ بِمَا يَرْضُونَهُ مِنْ خِلَالِهِ فَتَنْمُو فُرُوعُ هَذَا وَتَبْدُو فُرُوعُ الْأَوَّلِ وَيَنْهَدِمُ بِنَاءُ بَيْتِهِ هَذَا فِي الْمُلُوكِ وَهَكَذَا فِي بُيُوتِ الْقَبَائِلِ وَالْأَمْزَاءِ وَأَهْلِ الْعِصْيَانَةِ أَجْمَعِ ثُمَّ فِي بُيُوتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذَا انْحَطَّتْ بُيُوتُ نَشَأَتْ بُيُوتٌ أُخْرَى مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ »^(١) وَاشْتِرَاطُ الْأَرْبَعَةِ فِي الْأَحْسَابِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْغَالِبِ وَالْأَقْصَى يَذْثُرُ الْبَيْتُ مِنْ دُونِ الْأَرْبَعَةِ وَيَتَلَأْسَى وَيَنْهَدِمُ وَقَدْ يَتَّصِلُ أَمْرُهَا إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ إِلَّا أَنَّهُ فِي انْحِطَاطٍ وَذَهَابٍ وَاعْتِبَارُ الْأَرْبَعَةِ مِنْ قَبْلِ الْأَحْيَالِ الْأَرْبَعَةِ بَانَ وَمُبَاشِرٌ لَهُ وَمُقْلَدٌ وَهَادِمٌ وَهُوَ أَقْلٌ مَا يُمْكِنُ وَقَدْ اعْتَبَرَتِ الْأَرْبَعَةُ فِي نَهَايَةِ الْحَسَبِ فِي بَابِ الْمَدْحِ وَالنِّسَاءِ قَالَ ﷺ « إِنَّمَا الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ

(١) سورة فاطر الآية ١٦ و ١٧ .

يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ « إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ بَلَغَ الْغَايَةَ مِنَ الْمَجْدِ وَفِي التَّوْرَةِ مَا مَغْنَاهُ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكَ طَائِقٌ ^(١) غَيُورٌ مُطَالِبٌ يَذْنُوبُ الْآبَاءَ لِلْبَنِينَ عَلَى الثَّوَالِثِ وَالرَّوَابِعِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعَةَ الْأَعْقَابِ غَايَةٌ فِي الْأَنْسَابِ وَالْحَسَبِ . وَفِي كِتَابِ الْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَزِيفِ الْقَوَانِي أَنْ كَسَرَى قَالَ لِلنُّعْمَانِ هَلْ فِي الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ تَتَشَرَّفُ عَلَى قَبِيلَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ بِأَيِّ شَيْءٍ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ مُتَوَالِيَةٍ رُؤَسَاءُ ثُمَّ اتَّصَلَ ذَلِكَ بِكَمَالِ الرَّابِعِ فَالْبَيْتُ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَطَلَبَ ذَلِكَ فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حَذِيفَةَ بْنِ بَذْرِ الْفَزَارِيِّ وَهُمْ بَيْتُ قَيْسٍ وَآلِ ذِي الْجَذَنِ بَيْتُ شَيْبَانَ وَآلِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كُنْدَةَ وَآلِ حَاجِبِ بْنِ زُرَّارَةَ وَآلِ قَيْسٍ بْنِ عَاصِمِ الْمَنْقَرِيِّ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَجَمَعَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمُ الْحُكَّامَ وَالْعُدُولَ فَقَامَ حَذِيفَةُ بْنُ بَذْرِ ثُمَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقَرَاتِيهِ مِنَ النُّعْمَانِ ثُمَّ بَسْطَامُ بْنُ قَيْسٍ بْنُ شَيْبَانَ ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ وَخُطِبُوا وَتَنَرُّوا فَقَالَ كَسَرَى كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْبُيُوتَاتُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْعَرَبِ بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ وَمَعَهُمْ بَيْتُ بَنِي الدُّبْيَانِ مِنْ بَنِي الْحَرِثِ بْنِ كَعْبٍ الْيَمِينِ وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعَةَ الْآبَاءَ نِهَايَةٌ فِي الْحَسَبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل السادس عشر

في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها

إِغْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الْبَدَاوَةُ سَبَبًا فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَا فِي الْمَقْدَمَةِ الثَّلَاثَةِ ^(١) لَا جَرَمَ كَانَ هَذَا الْجَيْلُ الْوَحْشِيُّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ الْجَيْلِ الْآخَرِ فَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى التَّغْلِبِ وَانْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْأُمَمِ بَلِ الْجَيْلُ الْوَاحِدُ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُ فِي ذَلِكَ

(١) طائِقٌ ، قَادِرٌ

(٢) وَرَدَ هَذَا الْعَنْوَانُ فِي الْمَقْدَمَةِ الْخَامَةِ .

بِاخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ فَكُلَّمَا نَزَلُوا الْأَرْيَافَ وَتَفَنَّنُوا^(١) النَّعِيمَ وَالْفُؤَادَ عَوَائِدِ الْخَضْبِ فِي الْمَعَاشِ وَالنَّعِيمِ . نَقَصَ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ بِمِقْدَارِ مَا نَقَصَ مِنْ تَوْحُّشِهِمْ وَبَدَاوَتِهِمْ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ بِدَوَاجِنِ الطُّبَاءِ وَالْبَقَرِ الْوُخْشِيَّةِ وَالْحُمْرِ إِذَا زَالَ تَوْحُّشُهَا بِمُخَالَطَةِ الْأَدَمِيِّينَ وَأَخْصَبَ عَيْشُهَا كَيْفَ يَخْتَلِفُ حَالُهَا فِي الْإِنْتِهَاضِ^(٢) وَالشَّدَّةِ حَتَّى فِي مِشْيَتِهَا وَحُسْنِ أَدِيمِهَا وَكَذَلِكَ الْأَدَمِيُّ الْمُتَوْحُّشُ إِذَا أُنْسَ وَأُلْفَ وَسَبَبُهُ أَنْ تَكُونَ السَّجَايَا وَالطُّبَائِعُ إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْمَأْلُوفَاتِ وَالْعَوَائِدِ وَإِذَا كَانَ الْغُلْبُ لِلْأَمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِقْدَامِ وَالْبَسَالَةِ فَمَنْ كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْيَالِ أَغْرَقَ فِي الْبِدَاوَةِ وَكَثُرَ تَوْحُّشُهَا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى التَّغْلِبِ عَلَى سِوَاهُ إِذَا تَقَارَبَا فِي الْعَدَدِ وَتَكَافَا فِي الْقُوَّةِ الْعَضْبِيَّةِ وَانْظُرْ فِي ذَلِكَ شَأْنَ مُضَرٍّ مَعَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ حَمِيرٍ وَكِهْلَانٍ السَّابِقِينَ إِلَى الْمُلْكِ وَالنَّعِيمِ وَمَعَ رَبِيعَةِ الْمُتَوَطَّنِينَ أَرْيَافَ الْعِرَاقِ وَنَعِيمِهِ لَمَّا بَقِيَ مُضَرٌّ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَتَقَدَّمَهُمُ الْآخَرُونَ إِلَى خَضْبِ الْعَيْشِ وَغَضَارَةِ^(٣) النَّعِيمِ كَيْفَ أَرْهَفَتْ الْبِدَاوَةُ حَدَّهُمْ فِي التَّغْلِبِ فَغَلِبُوهُمْ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَهَذَا حَالُ بَنِي طَمِيٍّ وَبَنِي غَامِرٍ وَبَنِي صَفْصَعَةَ وَبَنِي سُلَيْمٍ وَبَنِي مَنْصُورٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ لَمَّا تَأَخَّرُوا فِي بَادِيَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قَبَائِلِ مُضَرٍّ وَالْيَمَنِ وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا بِشَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ حَالُ الْبِدَاوَةِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصِيَّتِهِمْ وَلَمْ تَخْلُفْهَا مَذَاهِبُ التَّرَفِ حَتَّى صَارُوا أَغْلَبَ عَلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ وَكَذَا كُلُّ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ يَلِي نَعِيمًا وَعَيْشًا خَصْبًا دُونَ الْحَيِّ الْآخَرِ فَإِنَّ الْحَيَّ الْمُتَبَدِّيَّ^(٤) يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرُ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَا فِي الْقُوَّةِ وَالْعَدَدِ . سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

(١) تفننوا ، تنعموا .

(٢) الانتهاض ، القيام بالأمر .

(٣) الغضارة ، النعمة والخضب (قاموس) .

(٤) المتبدي ، اللقيم في البادية .

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك

وذلك لأننا قدمنا أن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه وقدمنا أن الأدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم ينزع بغضهم عن بغض فلا بد أن يكون متغلباً عليهم بتلك العصبية وإلا لم يتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرئاسة لأن الرئاسة إنما هي سودد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعاً فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات مفترقة وعصبيات متعددة فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستبعبها وتلتجم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى والأوقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع « ولولا دفع الله الناس بغضهم يبغي لفسدت الأرض »^(١) ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبيعتها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها فإن كافاتها أو مانعتها كانوا اقترالاً وأنظاراً ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم وإن غلبتها واستبعبتها التحمت بها أيضاً وزادت قوة في التغلب

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١

إلى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد وهكذا دائماً حتى تكافىء بقوتها قوة الدولة في هزمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها وإن انتهت قوتها ولم يقارن ذلك هزم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعين من مقاصدها وذلك ملك آخر دون الملك المستعبد وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس ولصنّاجة وزناته مع كرامة ولبنى حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبيّة وأنّها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك إما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وإن عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبئناه وقفت في مقامها إلى أن يقضي الله بأمره .

الفصل الثامن عشر

في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بغض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخضب في نعمتهم وخضبهم وضربت معهم في ذلك يسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والنفوس بما يسوغون من نعمتها ويشركون^(١) فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبايه إنما همتمهم النعيم والكسب وخضب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني

(١) شركته في البيع والميراث والأمر . أشركه . إذا صرت له شريكاً (قالوس) .

وَالْمَلَاسِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ وَالتَّائِقِ فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الرِّيَاشِ وَالتَّرَفِ
وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوَاجِعِ ذَلِكَ فَتَذْهَبُ خُشُونَةُ الْبَدَاوَةِ وَتَضَعُفُ الْعَصِيَّةُ وَالْبَسَالَةُ
وَيَتَنَعَّمُونَ فِيمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْبَسْطَةِ وَتَنْشَأُ بَنُوهُمْ وَأَغْفَابُهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنَ
التَّرَفِ عَنْ خِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ وَوِلَايَةِ حَاجَاتِهِمْ وَيَسْتَنْكِفُونَ عَنْ سَائِرِ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ
فِي الْعَصِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ خُلُقًا لَهُمْ وَسَجِيَّةً فَتَنْقُصُ عَصِيَّتُهُمْ وَبَسَالَتُهُمْ فِي
الْأَجْيَالِ بَعْدَهُمْ يَتَعَاقَبُهَا إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الْعَصِيَّةُ فَيَأْذَنُونَ بِالْإِنْقِرَاضِ وَعَلَى قَدَرِ
تَرْفِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَافُهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ فَضْلًا عَنِ الْمُلْكِ فَإِنَّ عَوَارِضَ التَّرَفِ
وَالْفَرَقِ فِي النِّعَمِ كَاسِرٌ مِنْ سُورَةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا التَّغْلُبُ وَإِذَا انْقَرَضَتِ الْعَصِيَّةُ
قُصِرَ الْقَبِيلُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَضْلًا عَنِ الْمُطَالِبَةِ وَالتَّهْمَتِ الْأَمَمِ سِوَاهُمْ فَقَدْ
تَبَيَّنَ أَنَّ التَّرَفَ مِنْ عَوَائِقِ الْمُلْكِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ .

الفصل التاسع عشر

في أن من عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَذْلَةَ وَالْإِنْقِيَادَ كَاسِرَانِ لِسُورَةِ الْعَصِيَّةِ وَشِدَّتِهَا فَإِنَّ انْقِيَادَهُمْ
وَمَذْلَتَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فَقْدَانِهَا فَمَا رَتَمُوا لِلْمَذْلَةِ حَتَّى عَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ فَأُولَى أَنْ
يَكُونَ عَاجِزًا عَنِ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالِبَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا دَعَاهُمْ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مُلْكِ الشَّامِ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مُلْكَهَا كَيْفَ
عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَالُوا : « إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا
مِنْهَا » ^(١) أَيْ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا بِضَرْبٍ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرَ عَصِيَّتِنَا وَتَكُونُ مِنْ
مُعْجَزَاتِكَ يَا مُوسَى وَلَمَّا غَزَمَ عَلَيْهِمْ لَجُّوا وَارْتَكَبُوا الْعِصْيَانَ وَقَالُوا لَهُ : « اذْهَبْ
أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا » ^(٢) وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا أَنْسَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعُجْزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ

(١) سورة المائدة الآية ٢٢ .

(٢) سورة المائدة الآية ٢٤ .

وَالْمُطَالَبَةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْآيَةُ ^(١) وَمَا يُؤَثِّرُ فِي تَفْسِيرِهَا وَذَلِكَ بِمَا حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الْإِنْقِيَادِ وَمَا رَثَمُوا مِنَ الدَّلِّ لِلْقَبْطِ أَخْقَاباً حَتَّى ذَهَبَتِ الْعَصِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ لَهُمْ وَأَنَّ الْعَمَالِقَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِأَرِيحَا فَرِيَسَتَهُمْ بِحُكْمٍ مِنَ اللَّهِ قَدَرَهُ لَهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَعَجَزُوا تَغْوِيلاً عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُطَالَبَةِ لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ خُلُقِ الْمَذَلَّةِ وَطَعَنُوا فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِالتَّيِّهِ وَهُوَ أَنَّهُمْ تَاهُوا فِي قَفَرٍ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا الْعُمُرَانِ وَلَا نَزَلُوا مِصْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا كَمَا قَضَى الْقُرْآنُ لِبَلْغَةِ الْعَمَالِقَةِ بِالشَّامِ وَالْقَبْطِ بِمِصْرَ عَلَيْهِمْ لِعَجْزِهِمْ عَنْ مَقَاوِمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ وَيُظْهِرُ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ وَمَقْهُومِهَا أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ التَّيِّهِ مَقْصُودَةٌ وَهِيَ فَنَاءُ الْجِيلِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الدَّلِّ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ وَتَخَلَّقُوا بِهِ وَأَفْسَدُوا مِنْ عَصِيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ التَّيِّهِ جِيلٌ آخَرُ غَرِيزٌ لَا يَعْرِفُ الْأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلَا يُسَامُ بِالْمَذَلَّةِ فَتَشَاتَ بِذَلِكَ عَصِيَّةٌ أُخْرَى اقْتَدَرُوا بِهَا عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَالتَّغْلِبِ وَيُظْهِرُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا يَأْتِي فِيهَا فَنَاءُ جِيلٍ وَنَشَأُ جِيلٍ آخَرَ سُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ وَفِي هَذَا أَوْضَحَ دَلِيلٌ عَلَى شَأْنِ الْعَصِيَّةِ وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْمُدَافَعَةُ وَالْمَقَاوِمَةُ وَالْحِمَايَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَأَنَّ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَيُلْحَقُ بِهَذَا الْفَضْلُ فِيمَا يُوجِبُ الْمَذَلَّةَ لِلْقَبِيلِ شَأْنُ الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ فَإِنَّ الْقَبِيلَ الْغَارِمِينَ مَا أُعْطُوا الْيَدَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى رَضُوا بِالْمَذَلَّةِ فِيهِ لِأَنَّ فِي الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ ضَيْماً وَمَذَلَّةً لَا تَحْتَمِلُهَا النَّفُوسُ الْآيِيَّةُ إِلَّا إِذَا اسْتَهْوَتْهُ عَنِ الْقَتْلِ وَالتَّلَفِ وَأَنَّ عَصِيَّتَهُمْ جِينِيذُ ضَعِيفَةٌ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ وَمَنْ كَانَتْ عَصِيَّتُهُ لَا تَدْفَعُ عَنْهُ الضَّيْمَ فَكَيْفَ لَهُ بِالْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْإِنْقِيَادُ لِلدَّلِّ وَالْمَذَلَّةُ عَاقِبَةٌ كَمَا قَدْ مَنَّا . وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي شَأْنِ الْحَرِثِ لَمَّا رَأَى سِكَّةَ الْمَحْرَاثِ فِي بَعْضِ دُورِ الْأَنْصَارِ « مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ الدَّلُّ »

(١) جاء ختام هذه القصة في القرآن الكريم بقوله تعالى : « قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون

في الأرض . فلا تأس على القوم الفاسقين . (سورة المائدة) .

فَهُوَ دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ الْمَغْرَمَ مُوجِبٌ لِلذَّلَّةِ ^(١) هَذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذَلِكَ الْمَغَارِمَ مِنْ خُلُقِ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ بِسَبَبِ مَلَكََةِ الْقَهْرِ فَإِذَا رَأَيْتَ الْقَبِيلَ بِالْمَغَارِمِ فِي رُبْقَةٍ مِنَ الدُّلِّ فَلَا تَطْمَعَنَّ لَهَا بِمُلْكٍ آخَرَ الدَّهْرِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غُلَطُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ كَانُوا شَاوِيَةً يُودُّونَ الْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ غُلَطٌ فَاحِشٌ كَمَا رَأَيْتَ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمَا اسْتَتَبَ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا تَمُتَ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَانْظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرُ بَرَّازُ مَلِكِ الْبَابِ لِعَبِيدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا أُطْلِعَ عَلَيْهِ وَسَّالَ شَهْرُ بَرَّازُ أَمَانَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ فَقَالَ أَنَا الْيَوْمَ مِنْكُمْ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ وَصَعْرِي ^(٢) مَعَكُمْ فَمَرْحَبًا بِكُمْ وَبَارَكَ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ وَجَزَيْتُنَا إِلَيْكُمْ النَّصْرَ لَكُمْ وَالْقِيَامَ بِمَا تَحْبُونَ وَلَا تَذِلُّونَا بِالْجِزْيَةِ فَتَوْهُونَا لِعَدُوِّكُمْ فَاعْتَبِرْ هَذَا فِيمَا قُلْنَا فَإِنَّهُ كَافٍ .

الفصل العشرون

في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لَمَّا كَانَ الْمُلْكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْاجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَا وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ النَّاطِقَةِ الْعَاقِلَةِ لِأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قَبْلِ الْقَوَى الْخَيَوَانِيَّةِ الَّتِي فِيهِ وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ إِلَى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبَ وَالْمُلْكُ وَالسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُمَا لِلْإِنْسَانِ خَاصَّةٌ لَا لِلْخَيَوَانِ فَإِذَا خِلَالُ الْخَيْرِ فِيهِ هِيَ الَّتِي تُنَاسِبُ السِّيَاسَةَ وَالْمُلْكَ إِذَا الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْسِّيَاسَةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَجْدَ لَهُ أَصْلٌ يُبْنَى عَلَيْهِ وَتَتَحَقَّقُ بِهِ حَقِيقَتُهُ وَهُوَ الْعَصَبِيَّةُ وَالْعَشِيرُ وَفَرَعٌ يَتِمُّ وَجُودُهُ وَيَكْمِلُهُ وَهُوَ الْخِلَالُ وَإِذَا كَانَ الْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصَبِيَّةِ فَهُوَ غَايَةٌ لِفُرُوعِهَا وَمُتَمِّمَاتِهَا وَهِيَ الْخِلَالُ لِأَنَّ وَجُودَهُ دُونَ

(١) لأن المشتغلين بالزراعة كانوا يدفعون غالباً الخراج للدولة . وهناك حديث شائع على السنة العامة ، « إذا غضب الله على قوم أسكنهم القرى أو الزارع » وهو مثل قديم سببه أن الدولة العثمانية التي كانت تحكم على بلادنا كان جل اعتمادها على الضرائب الزراعية .

(٢) صمر ، صمراً وجهه ، مال إلى أحد الشقين (قاموس) .

مُتَمَمَاتِهِ كَوْجُودِ شَخْصٍ مَقْطُوعِ الْأَعْضَاءِ أَوْ ظُهُورِهِ عُرْيَانًا بَيْنَ النَّاسِ وَإِذَا كَانَ
وُجُودُ الْعَصِيَّةِ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ انْتِحَالِ الْخِلَالِ الْحَمِيدَةِ نَقْصًا فِي أَهْلِ الْبَيُوتِ
وَالْأَحْسَابِ فَمَا ظَنُّكَ بِأَهْلِ الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ لِكُلِّ مَجْدٍ وَنَهَايَةُ لِكُلِّ حَسَبٍ
وَأَيْضًا فَالْسياسةُ وَالْمُلْكُ هِيَ كِفَالَةُ لِلْخَلْقِ وَخِلَافَةُ لِلَّهِ فِي الْعِبَادِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ
وَأَحْكَامِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ إِنَّمَا هِيَ بِالْخَيْرِ وَمُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ
الشَّرَائِعُ وَأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّيْطَانِ بِخِلَافِ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ
وَقُدْرِهِ فَإِنَّهُ فَاعِلٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا وَمَقْدَرُهُمَا إِذَا لَا فَاعِلَ سِوَاهُ فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ
الْعَصِيَّةُ الْكُفَيْلَةُ بِالْقُدْرَةِ وَأَوْنَسَتْ مِنْهُ خِلَالَ الْخَيْرِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي
خَلْقِهِ فَقَدْ تَهَيَّأَ لِلْخِلَافَةِ فِي الْعِبَادِ وَكِفَالَةِ الْخَلْقِ وَوُجِدَتْ فِيهِ الصَّلَاحِيَّةُ لِذَلِكَ . وَهَذَا
الْبُرْهَانُ أَوْثَقُ مِنَ الْأَوَّلِ وَأَصَحُّ مَبْنًى فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ خِلَالَ الْخَيْرِ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِ الْمُلْكِ
لِمَنْ وَجِدَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ فَإِذَا نَظَرْنَا فِي أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْغَلَبِ عَلَى
كَثِيرٍ مِنَ النَّوَاجِحِ وَالْأَمَمِ فَوَجَدْنَاهُمْ يَتَنَافَسُونَ فِي الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ مِنَ الْكَرَمِ وَالْعَفْوِ
عَنِ الزَّلَّاتِ وَالْإِحْتِمَالِ مِنْ غَيْرِ الْقَادِرِ وَالْقَرَى لِلضُّيُوفِ وَحَمْلِ الْكُلِّ ^(١) وَكَسْبِ
الْمُعْدِمِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ فِي صَوْنِ الْأَعْرَاضِ
وَتَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ وَإِجْلَالِ الْعُلَمَاءِ الْحَامِلِينَ لَهَا وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَا يُحَدِّدُونَهُ لَهُمْ مِنْ
فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ وَاعْتِقَادِ أَهْلِ الدِّينِ وَالتَّبَرُّكِ بِهِمْ وَرَغْبَةِ الدُّعَاءِ مِنْهُمْ
وَالْحَيَاءِ مِنَ الْأَكَابِرِ وَالْمَشَايِخِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ وَالْإِنْقِيَادَ إِلَى الْحَقِّ مَعَ الدَّاعِي
إِلَيْهِ وَإِنْصَافِ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالتَّبَدُّلِ ^(٢) فِي أَحْوَالِهِمْ وَالْإِنْقِيَادَ لِلْحَقِّ
وَالْتَوَاضُعَ لِلْمُسْكِينِ وَاسْتِمَاعَ شَكْوَى الْمُسْتَغِيثِينَ وَالتَّذَرُّعَ بِالشَّرَائِعِ وَالْعِبَادَاتِ
وَالْقِيَامَ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا وَالتَّجَافِيَ عَنِ الْغَدْرِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَنَقْضِ الْعَهْدِ
وَأَمْثَالِ ذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ خُلُقُ السِّيَاسَةِ قَدْ حَصَلَتْ لِدِينِهِمْ وَاسْتَحَقُّوا بِهَا أَنْ يَكُونُوا
سَاسَةً لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ أَوْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَنَّهُ خَيْرٌ سَاقَةَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ مُنَاسِبٌ

(١) الكل . اليتيم . من لا يقدر على القيام بشؤون نفسه (قاموس) .

(٢) التبذل . ترك التزين والتجهيز بالهيئة الحسنى على جهة التواضع (قاموس) .

لِعَصَبِيَّتِهِمْ وَعَلَيْهِمْ وَلَيْسَ ذَلِكَ سُدَى فِيهِمْ وَلَا وَجَدَ عِبَثًا مِنْهُمْ وَالْمُلْكُ أَنْسَبُ الْمَرَاتِبِ
وَالْخَيْرَاتِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَأَذَّنَ لَهُمْ بِالْمُلْكِ وَسَاقَهُ إِلَيْهِمْ وَبِالْعَكْسِ
مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الْمُلْكِ مِنْ أُمَّةٍ حَمَلَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَذْمُومَاتِ
وَانْتِحَالِ الرِّذَائِلِ وَسُلُوكِ طَرَفِهَا فَتَفْقَدَ الْفَضَائِلَ السِّيَاسِيَّةَ مِنْهُمْ جُمْلَةً وَلَا تَزَالُ فِي
انْتِقَاصٍ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْمُلْكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَتَبَدَّلَ بِهِ سِوَاهُمْ لِيَكُونَ نَفْعًا عَلَيْهِمْ فِي
سَلْبِ مَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَجَعَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ
نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا »^(١)
وَاسْتَفْرَى ذَلِكَ وَتَتَبَعَهُ فِي الْأَمَمِ السَّابِقَةِ تَجَدُّدٌ كَثِيرٌ مِمَّا قُلْنَاهُ وَرَسْمْنَاهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ خِلَالِ الْكَمَالِ الَّتِي يَتَنَافَسُ فِيهَا الْقَبَائِلُ أَلْوُ الْعَصَبِيَّةِ
وَتَكُونُ شَاهِدَةً لَهُمْ بِالْمُلْكِ إِكْرَامُ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَشْرَافِ وَأَهْلِ الْأَخْسَابِ
وَأَصْنَافِ التَّجَارِ وَالْغُرَبَاءِ وَإِنْزَالُ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ إِكْرَامَ الْقَبَائِلِ وَأَهْلِ
الْعَصَبِيَّاتِ وَالْعَشَائِرِ لِمَنْ يُنَافِضُهُمْ فِي الشَّرَفِ وَيَجَادُّهُمْ حَبْلُ الْعَشِيرِ وَالْعَصَبِيَّةِ
وَيُشَارِكُهُمْ فِي اتِّسَاعِ الْجَاهِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ يَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي الْأَكْثَرِ الرِّغْبَةُ فِي الْجَاهِ أَوْ
الْمُخَافَةُ مِنْ قَوْمِ الْمُكْرَمِ أَوْ الْتِمَاسُ مِثْلِهَا مِنْهُ وَأَمَّا أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ عَصَبِيَّةٌ
تَتَّقَى وَلَا جَاهٌ يَرْتَجَى فَيَنْدَفِعُ الشُّكُّ فِي شَأْنِ كَرَامَتِهِمْ وَيَتَمَحَّضُ الْقَصْدُ فِيهِمْ أَنَّهُ
لِلْمُجِدِّ وَانْتِحَالِ الْكَمَالِ فِي الْخِلَالِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى السِّيَاسَةِ بِالْكُلِّيَّةِ لِأَنَّ إِكْرَامَ
أَقْبَالِهِ^(٢) وَأَمْثَالِهِ ضَرْبِيٌّ فِي السِّيَاسَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ قَبِيلِهِ وَنَظَرَاتِهِ وَإِكْرَامَ الطَّارِئِينَ
مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالْخُصُوصِيَّاتِ كَمَالٌ فِي السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ فَالصَّالِحُونَ لِلدِّينِ
وَالْعُلَمَاءُ لِلجَاهِ إِلَيْهِمْ فِي إِقَامَةِ مَرَاسِمِ الشَّرِيعَةِ وَالتَّجَارِ لِلتَّرْغِيبِ حَتَّى تَعْمَ الْمَنْفَعَةُ
بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَالْغُرَبَاءُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَإِنْزَالُ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْإِنْصَافِ
وَهُوَ مِنَ الْعَدْلِ فَيَعْلَمُ بِوُجُودِ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ انْتِمَاؤَهُمْ لِلْسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ
الْمُلْكُ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ تَأَذَّنَ بِوُجُودِهَا فِيهِمْ لِوُجُودِ عِلَامَاتِهَا وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ مَا يَذْهَبُ

(١) سورة الاسراء الآية ١٦ .

(٢) اقتال ج قتل بكسر القاف ، العدو - الصديق - القرن ، النظرير وهنا تعني النظرير (قاموس) .

مِنَ الْقَبِيلِ أَهْلَ الْمُلْكِ إِذَا تَأَذَّنَ اللَّهُ تَعَالَى بِسَلْبِ مُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ إِكْرَامَ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْخَلْقِ فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ ذَهَبَ مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ فَأَعْلَمْ أَنَّ الْفَضَائِلَ قَدْ أَخَذَتْ فِي الذَّهَابِ عَنْهُمْ وَارْتَقَبْ زَوَالَ الْمُلْكِ مِنْهُمْ « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ » وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الحادي والعشرون

في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع

وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى التَّغْلِبِ وَالِاسْتِبْدَادِ كَمَا قُلْنَا وَاسْتِعْبَادِ الطَّوَائِفِ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى مُحَارَبَةِ الْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَلِأَنَّهُمْ يَتَنَزَّلُونَ مِنَ الْأَهْلِينَ مِنْزِلَةَ الْمُفْتَرِسِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ الْعَرَبِ ^(١) وَزَنَائَتْهُ وَمَنْ فِي مَغْنَاهُمْ مِنَ الْأَكْرَادِ وَالتَّرْكُمَانِ وَأَهْلِ اللُّثَامِ مِنْ صَنْهَاجَةٍ وَأَيْضًا هَؤُلَاءِ الْمُتَوَحُّشُونَ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ يَرْتَفِقُونَ ^(٢) مِنْهُ وَلَا بَلَدٌ يَجْنَحُونَ إِلَيْهِ فَنِسْبَةُ الْأَقْطَارِ وَالْمَوَاطِنِ إِلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ فَلِهَذَا لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَلَكَةِ قَطْرِهِمْ وَمَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ وَلَا يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ أَقِيمِهِمْ بَلْ يَظْفُرُونَ إِلَى الْأَقَالِيمِ الْبَعِيدَةِ وَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْأُمَمِ النَّائِيَةِ وَانْظُرْ مَا يُحْكِي فِي ذَلِكَ عَنْ عَمَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بُويعَ وَقَامَ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الْعِرَاقِ فَقَالَ : إِنَّ الْحِجَارَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ إِلَّا عَلَى النُّجْعَةِ وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذَلِكَ أَيْنَ الْقُرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ اللَّهِ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَكُمْ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمْوهَا ، فَقَالَ : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » ^(٣) وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ أَيْضًا بِحَالِ الْعَرَبِ السَّالِفَةِ مِنْ قَبْلُ مِثْلِ التَّبَايَعَةِ وَحَمِيرَ كَيْفَ كَانُوا يَخْطُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَرَّةً وَإِلَى الْعِرَاقِ وَالْهِنْدِ أُخْرَى وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِغَيْرِ

(١) يعني ابن خلدون العرب التوحشون الذين ذكرهم في مواضع عدة .

(٢) يعتاشون منه .

(٣) سورة الصف الآية ٩

الْعَرَبِ مِنَ الْأَمَمِ وَكَذَا خَالَ الْمُلُكِيِّينَ مِنَ الْمَغْرِبِ لَمَّا نَزَعُوا إِلَى الْمُلْكِ طَفِرُوا مِنَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَمَجَالَاتِهِمْ مِنْهُ فِي جَوَارِ السُّودَانِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ فِي مَمَالِكِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهَذَا شَأْنُ هَذِهِ الْأَمَمِ الْوَحْشِيَّةِ فَلِذَلِكَ تَكُونُ دَوْلَتُهُمْ أَوْسَعَ نِطَاقًا وَأَبْعَدَ مِنْ مَرَكَزِهَا نِهَايَةً « وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » ^(١) وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

الفصل الثاني والعشرون

في أن الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من

عوده إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بَعْدَ سَوْرَةِ الْغُلَبِ وَالْإِدْعَانِ لَهُمْ مِنْ سَائِرِ الْأَمَمِ سِوَاهُمْ فَيَتَعَيَّنُ مِنْهُمْ الْمُبَاشِرُونَ لِأَمْرِ الْحَامِلُونَ سَرِيرَ الْمُلْكِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ لِجَمِيعِهِمْ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكَثْرَةِ الَّتِي يَضِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ الْمُرَاحِمَةِ وَالْغَيْرَةِ الَّتِي تَجْدَعُ أَنْوَافَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَطَوِّلِينَ لِلرُّتْبَةِ فَإِذَا تَعَيَّنَ أُولَئِكَ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ انْفَعَسُوا فِي النِّعِيمِ وَغَرِقُوا فِي بَحْرِ التَّرَفِ وَالْخَضْبِ وَاسْتَعْبَدُوا إِخْوَانَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحِيلِ وَأَنْفَقُوهُمْ فِي وُجُوهِ الدَّوْلَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَبَقِيَ الَّذِينَ بَعُدُوا عَنِ الْأَمْرِ وَكَبِخُوا عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي ظِلٍّ مِنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ الَّتِي شَارَكُوهَا بِنَسَبِهِمْ وَبِمَنْجَاةٍ مِنَ الْهَرَمِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ التَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ فَإِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَى الْأَوَّلِينَ الْأَيَّامُ وَأَبَادَ غَضَاءَهُمُ الْهَرَمُ فَطَبَخَتْهُمْ الدَّوْلَةُ وَأَكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَشَرِبَ بِمَا أَرْهَفَ النِّعِيمُ مِنْ حَدِّهِمْ وَاسْتَمَتَّ غَرِيزَةُ التَّرَفِ مِنْ مَائِهِمْ وَبَلَّغُوا غَايَتَهُمْ مِنْ طَبِيعَةِ التَّمَدُّنِ الْإِنْسَانِيِّ وَالتَّقَلُّبِ السِّيَاسِيِّ (شعر) .

كَدُودُ الْقَرْزِ يَنْسِجُ ثُمَّ يَفْنَى بِمَرْكَزِ نَسِجِهِ فِي الْإِنْعِكَاسِ

(١) سورة الزمّل الآية ٢٠ .

كَانَتْ حِينَئِذٍ عَصِيَّةُ الْآخَرِينَ مَوْفُورَةٌ وَسَوْرَةٌ غَلِبَهُمْ مِنَ الْكَاسِرِ مَحْفُوظَةٌ وَشَارَتْهُمْ فِي الْغَلْبِ مَعْلُومَةٌ فَتَسْمُو آمَالُهُمْ إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي كَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنْهُ بِالْقُوَّةِ الْغَالِيَةِ مِنْ جِنْسِ عَصِيَّتِهِمْ وَتَرْتَفِعُ الْمُنَازَعَةُ لِمَا عُرِفَ مِنْ غَلِبِهِمْ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَيَصِيرُ إِلَيْهِمْ وَكَذَا يَتَّفِقُ فِيهِمْ مَعَ مَنْ بَقِيَ أَيْضاً مُنْتَبِداً عَنْهُ مِنْ عَشَائِرِ أُمَّتِهِمْ فَلَا يَرَالُ الْمَلِكُ مُلْجِئاً فِي الْأُمَّةِ إِلَى أَنْ تَنْكَسِرَ سَوْرَةُ الْعَصِيَّةِ مِنْهَا أَوْ يَفْنَى سَائِرُ عَشَائِرِهَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا « وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » ^(١) وَاعْتَبِرْ هَذَا بِمَا وَقَعَ فِي الْعَرَبِ لَمَّا انْقَرَضَ مُلْكُ عَادٍ قَامَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ ثَمُودَ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ الْعَمَالِقَةُ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ حَمِيرٍ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ التَّبَابِغَةُ مِنْ حَمِيرٍ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِمُ الْأَذْوَاءُ كَذَلِكَ ثُمَّ جَاءَتِ الدَّوْلَةُ لِمُضَرَ وَكَذَا الْفُرْسُ لَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ الْكَيْنِيَّةِ مَلِكٌ مِنْ بَعْدِهِمُ السَّاسَانِيَّةُ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِمْ أَجْمَعٍ بِالإِسْلَامِ وَكَذَا الْيُونَانِيُّونَ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَانْتَقَلَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنَ الرُّومِ وَكَذَا الْبَرْبَرُ بِالْمَغْرِبِ لَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ مَغْرَاوَةَ وَكُنَامَةَ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ رَجَعَ إِلَى صَنَهَاجَةَ ثُمَّ الْمُلْتَمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ مَنْ بَقِيَ مِنْ شُعُوبِ زَنَاطَةَ وَهَكَذَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْأَجْيَالِ وَالْمُلُكُ يُخْلِقُهُ التَّرَفُّ وَيَذْهَبُهُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ ^(٢) بَعْدَ فَإِذَا انْقَرَضَتْ دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْأَمْرُ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ عَصِيَّةٌ مُشَارِكَةٌ لِعَصِيَّتِهِمُ الَّتِي عُرِفَ لَهَا التَّسْلِيمُ وَالْإِنْقِيَادُ وَأَوْنَسَ مِنْهَا الْغَلْبُ لِجَمِيعِ الْعَصِيَّاتِ وَذَلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ فِي النَّسَبِ الْقَرِيبِ مِنْهُمْ لِأَنَّ تَفَاوُتَ الْعَصِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قَرَّبَ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ الَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعْدَ حَتَّى إِذَا وَقَعَ فِي الْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمَرَانٍ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ قُدْرَتِهِ فَحِينَئِذٍ يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ الْحِجَالِ إِلَى الْحِجَالِ الَّذِي يَأْذَنُ اللَّهُ بِقِيَامِهِ بِذَلِكَ التَّبْدِيلِ كَمَا وَقَعَ لِمُضَرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى الْأَمَمِ وَالْدُّوَلِ وَأَخَذُوا الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْعَالَمِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَحْقَاباً .

(١) سورة الزخرف آخر الآية ٣٥ .

(٢) ذكر ابن خلدون هذا في الفصلين ١٦ و ١٧ ولملحه غير ترتيب الفصول فكان هذا الفصل سابقاً للفصلين المذكورين ثم أصبح لاحقاً . ولم ينتبه ابن خلدون إلى هذه الكلمة ليحذفها أو يبدلها .

الفصل الثالث والعشرون

في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه
ونحلته وسائر أحواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما
لنظره بالكمال بما وقّر^(١) عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس
لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقاد
فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه والله
أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلته من
العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول ولذلك ترى
المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومزكيه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل
وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً
وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب
على أهله زئ الحامية وجند السلطان في الأكثر لأنهم الغالبون لهم حتى أنه إذا
كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء
خط كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالة فإنك تجدهم يتشبهون
بهم في ملابسهم وشاربهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في
الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه
من علامات الاستيلاء والأمر لله . وتأمل في هذا سر قولهم العامة على دين الملك

(١) وقّر، يؤفّر وقارة وقاراً الرجل ، كان رزيناً ذا وقار (المنجد) .

فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ إِذَ الْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ وَالرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لَا غِتْقَادَ الْكَمَالِ فِيهِ اِغْتِقَادُ الْاَبْنَاءِ بِاَبَائِهِمُ وَالْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِيهِمْ وَاللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَيَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّوْفِيقُ .

الفصل الرابع والعشرون

في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا يَخْصُلُ فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّكَاسُلِ إِذَا مَلَكَ أَمْرُهَا عَلَيْهَا وَصَارَتْ بِالْاِسْتِعْبَادِ آلَةً لِسَوَاهَا وَعَالَةً عَلَيْهِمْ فَيَقْصُرُ الْأَمَلُ وَيَضْعُفُ التَّنَاسُلُ وَالْإِعْتِمَارُ إِنَّمَا هُوَ عَنْ جِدَّةِ الْأَمَلِ وَمَا يَخْدُثُ عَنْهُ مِنَ النِّشَاطِ فِي الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ فَإِذَا ذَهَبَ الْأَمَلُ بِالتَّكَاسُلِ وَذَهَبَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَكَانَتْ الْعَصِيَّةُ ذَاهِبَةً بِالْقَلْبِ الْحَاصِلِ عَلَيْهِمْ تَنَاقُصُ عُمرَانُهُمْ وَتَلَاشَتْ مَكَاسِيهِمْ وَمَسَاعِيهِمْ وَعَجِزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَا خَضَ (١) الْقَلْبُ مِنْ شَوْكَتِهِمْ فَأَصْبَحُوا مُغْلَبِينَ لِكُلِّ مُغْلَبٍ وَطَعْمَةٌ لِكُلِّ أَكِلٍ وَسَوَاءٌ كَانُوا جَصلُوا عَلَى غَايَتِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ أَمْ لَمْ يَخْصَلُوا . وَفِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ سِرٌّ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ رَئِيسٌ بِطَبِيعِهِ بِمُقْتَضَى الْاِسْتِخْلَافِ الَّذِي خَلَقَ لَهُ وَالرَّئِيسُ إِذَا غَلِبَ عَلَى رِئَاسَتِهِ وَكَبِحَ عَنْ غَايَةِ عِزِّهِ تَكَاسَلَ حَتَّى عَنْ شَيْعِ بَطْنِهِ وَرِئِ كِبِيدِهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي أَخْلَاقِ الْإِنْسَانِي . وَلَقَدْ يُقَالُ مِثْلُهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرَسَةِ وَإِنَّهَا لَا تَسَافِدُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِي مَلَكَةِ الْأَدَمِيِّينَ فَلَا يَزَالُ هَذَا الْقَبِيلُ الْمَمْلُوكُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فِي تَنَاقُصٍ وَاضْمِخْلَالٍ إِلَى أَنْ يَأْخُذَهُمُ الْفَنَاءُ وَالبَقَاءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أُمَّةِ الْفَرَسِ كَيْفَ كَانَتْ قَدْ مَلَاتِ الْعَالَمَ كَثْرَةً وَلَمَّا فَنِيَتْ حَامِيَتُهُمْ فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ بَقِيَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَأَكْثَرُ مِنَ الْكَثِيرِ يُقَالُ إِنَّ سَعْدًا أَحْصَى مَا وَرَاءَ الْمَدَائِنِ فَكَانُوا مِائَةً أَلْفٍ وَسَبْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْهُمْ سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ

(١) خضد ، خضداً العود ، كسره ولم يبين .

أَلَمْ يَرَبُّ بَيَّنَّ وَلَمَّا تَحَصَّلُوا فِي مَلَكَةِ الْعَرَبِ وَقَبْضَةِ الْقَهْرِ لَمْ يَكُنْ بَقَاؤُهُمْ إِلَّا قَلِيلًا وَذَثَرُوا كَأَن لَّمْ يَكُونُوا وَلَا تَحَسَّبَنَّ أَنَّ ذَلِكَ لَظَلَمَ نَزَلَ بِهِمْ أَوْ عُدْوَانٍ شَمَلَهُمْ فَمَلَكَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْعَدْلِ مَا عَلِمَتْ وَإِنَّمَا هِيَ طَبِيعَةٌ فِي الْإِنْسَانِ إِذَا غَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَضَارَ آلَةٌ لِّغَيْرِهِ وَلِهَذَا إِنَّمَا تُدْعَى لِلرَّقِّ فِي الْغَالِبِ أَمُّ السُّودَانِ لِنَقْصِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِمْ وَقَرَّبِهِمْ مِنْ عَرْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ كَمَا قَلْنَاهُ أَوْ مَنْ يَرْجُو بِانْتِظَامِهِ فِي رِبْقَةِ الرَّقِّ حُصُولَ رُتْبَةٍ أَوْ إِفَادَةِ مَالٍ أَوْ عِزٍّ كَمَا يَقَعُ لِمَمَالِكِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْمُلُوجِ^(١) مِنَ الْجَلَالَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ فَإِنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةً بِاسْتِخْلَاصِ الدَّوْلَةِ لَهُمْ فَلَا يَأْنِفُونَ مِنَ الرَّقِّ لِمَا يَأْمَلُونَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالرُّتْبَةِ بِاصْطِفَاءِ الدَّوْلَةِ وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ.

الفصل الخامس والعشرون

في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِطَبِيعَةِ التَّوَحُّشِ الَّذِي فِيهِمْ أَهْلُ انْتِهَابٍ وَعَيْثُ يَنْتَهَبُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُغَالَبَةٍ وَلَا رُكُوبِ خَطَرٍ وَيَفِرُّونَ إِلَى مُنْتَجَعِهِمْ بِالْقَفْرِ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى الْمُزَاخَفَةِ وَالْمُحَارَبَةِ إِلَّا إِذَا دَفَعُوا بِذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَكُلُّ مَغْقِلٍ أَوْ مُسْتَضْعَبٍ عَلَيْهِمْ فَهُمْ تَارِكُوهُ إِلَى مَا يَسْهُلُ عَنْهُ وَلَا يَغْرُضُونَ لَهُ وَالْقَبَائِلُ الْمُمْتَنِعَةُ عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ الْجِبَالِ بِمَنْجَاةٍ مِنْ عَيْشِهِمْ وَفَسَادِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَسَنَّمُونَ إِلَيْهِمْ الْهَضَابَ وَلَا يَرْكَبُونَ الصُّعَابَ وَلَا يَحَاوِلُونَ الْخَطَرَ وَأَمَّا الْبَسَائِطُ فَمَتَى اقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفَقْدَانِ الْحَامِيَةِ وَضَعْفِ الدَّوْلَةِ فَهِيَ نَهَبٌ لَهُمْ وَطُمْعَةٌ لَا كِلِمَهُ يَرْدُدُونَ عَلَيْهَا الْغَارَةَ وَالنَّهْبَ وَالزَّخْفَ لِسَهُولَتِهَا عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ أَهْلُهَا مُغْلِبِينَ لَهُمْ ثُمَّ يَتَعَاوَرُونَهُمْ بِاخْتِلَافِ الْأَيْدِي وَانْحِرَافِ السِّيَاسَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ عُمْرَانُهُمْ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ .

(١) الملوج ، بمعنى كفار العجم .

الفصل السادس والعشرون

في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَخَشِيَّةٌ بِاسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ التَّوْحُشِ وَأَسْبَابِيهِ فِيهِمْ
فَصَارَ لَهُمْ خُلُقًا وَجِلَّةً وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلَذُودًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الْحُكْمِ
وَعَدَمِ الْإِنْقِيَادِ لِلسِّيَاسَةِ وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمَرَانِ وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ فَعَايَةُ الْأَحْوَالِ
الْعَادِيَّةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمُ الرِّخْلَةُ وَالتَّغْلِبُ ^(١) وَذَلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ الَّذِي بِهِ الْعُمَرَانُ
وَمُنَافٍ لَهُ فَالْحَجَرُ مَثَلًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنَضْبِهِ أَثَافِي الْقِدْرِ فَيَنْقَلِبُونَ مِنَ الْمَبَانِي
وَيَخْرُبُونَهَا عَلَيْهِ وَيَعُدُّونَهُ لِدَلِكِ وَالْخَشَبُ أَيْضًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيُعَمِّدُوا ^(٢) بِهِ
خِيَامَهُمْ وَيَتَّخِذُوا الْأَوْتَادَ مِنْهُ لِبَيْوتِهِمْ فَيَخْرُبُونَ السَّقْفَ عَلَيْهِ لِدَلِكِ فَصَارَتْ طَبِيعَةُ
وُجُودِهِمْ مُنَافِيَةً لِلْبِنَاءِ الَّذِي هُوَ أَضَلُّ الْعُمَرَانِ هَذَا فِي حَالِهِمْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَيْضًا
فَطَبِيعَتُهُمْ انْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَأَنْ رَزَقَهُمْ فِي ظِلَالِ رِمَاحِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي
أَخِذِ أَمْوَالِ النَّاسِ حَدٌّ يَنْتَهَوْنَ إِلَيْهِ بَلْ كُلَّمَا امْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ أَوْ مَاعُونٍ
انْتَهَبُوهُ فَإِذَا تَمَّ اقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالتَّغْلِبِ وَالْمُلْكِ بَطَلَتِ السِّيَاسَةُ فِي حِفْظِ أَمْوَالِ
النَّاسِ وَخَرِبَ الْعُمَرَانُ وَأَيْضًا فَلَأَنَّهُمْ يُكَلِّفُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَائِعِ
وَالْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لَا يَرَوْنَ لَهَا قِيَمَةً وَلَا قِسْطًا مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّمَنِ وَالْأَعْمَالِ كَمَا
سَنَذْكُرُهُ هِيَ أَضَلُّ الْمَكَاسِبِ وَحَقِيقَتُهَا إِذَا فَسَدَتِ الْأَعْمَالُ وَصَارَتْ مَجَانًا ضَعُفَتِ
الْأَمَالُ فِي الْمَكَاسِبِ وَانْقَبَضَتِ الْأَيْدِي عَنِ الْعَمَلِ وَابْدَعَرُ السَّاكِنُ وَفَسَدَ الْعُمَرَانُ
وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِالْأَحْكَامِ وَزَجَرَ النَّاسِ عَنِ الْمَفَاسِدِ وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ

(١) بمعنى التغلب .

(٢) عمد السقف ، دعائمه وركائزه .

عَنْ بَعْضِ إِنْمَا هُمُكُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ نَهَبًا أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ أَغْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهْرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَغْرَاضِ الْمَفَاسِدِ وَرَبُّمَا فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْجَبَايَةِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ وَذَلِكَ لَيْسَ بِمُعْنٍ فِي دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَزَجَرَ الْمُتَعَرِّضِ لَهَا بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ زَائِدًا فِيهَا لِاسْتِنْسَالِ الْغَرَمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ الْغَرَضِ فَتَبْقَى الرُّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ كَأَنَّهَا فَوْضَى ^(١) دُونَ حُكْمِ وَالْفَوْضَى مَهْلَكَةٌ لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةٌ لِلْعُمَرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنْ وُجُودَ الْمَلِكِ خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وَجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا وَتَقَدَّمَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْفَضْلِ وَأَيْضًا فَهُمْ مُتَنَافِسُونَ فِي الرِّئَاسَةِ وَقُلْ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَعَلَى كَرَاهٍ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاءِ فَيَتَعَدَّدُ الْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَالْأَمْرَاءُ وَتَخْتَلِفُ الْأَيْدِي عَلَى الرُّعِيَّةِ فِي الْجَبَايَةِ وَالْأَحْكَامِ فَيَفْسُدُ الْعُمَرَانُ وَيَنْتَقِضُ . قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الْوَاقِدُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْحِجَاجِ وَأَرَادَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمَرَانِ فَقَالَ : « تَرَكْتُهُ يَظْلِمُ وَحْدَهُ » وَانْظُرْ إِلَى مَا مَلَكَوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقْوُضُ عُمْرَانُهُ وَاقْفَرِ سَاكِنُهُ وَبَدَّلَتْ الْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ فَالْيَمَنُ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْأَمْصَارِ وَعِرَاقُ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمْرَانُهُ الَّذِي كَانَ لِلْفَرَسِ أَجْمَعَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ كَذَلِكَ وَأَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مِنْذُ أَوَّلِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَتَمَرَّسُوا بِهَا لِثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ لِحَقَ بِهَا وَعَادَتْ بِسَائِطِهِ خَرَابًا كُلُّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ كُلُّهُ عُمَرَانًا تَشْهَدُ بِذَلِكَ أَثَارُ الْعُمَرَانِ فِيهِ مِنَ الْمَعَالِمِ وَتَمَائِيلِ الْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ وَاللَّهِ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

(١) ومما يعزى إلى سيدنا علي :

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

الفصل السابع والعشرون

في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية
أو أثر عظيم من الدين على الجملة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَخُلُقِ التَّوَحُّشِ الَّذِي فِيهِمْ أَضْعَبُ الْأُمَمِ انْقِيَاداً بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ لِلْغُلْظَةِ وَالْأَنَفَةِ وَبُعْدِ الْهَيْمَةِ وَالْمُنَافَسَةِ فِي الرِّئَاسَةِ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ أَهْوَاؤُهُمْ فَإِذَا
كَانَ الدِّينُ بِالنُّبُوَّةِ أَوْ الْوِلَايَةِ كَانَ الْوَارِثُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَذَهَبَ خُلُقُ الْكَبِيرِ
وَالْمُنَافَسَةِ مِنْهُمْ فَسَهَّلَ انْقِيَادَهُمْ وَاجْتِمَاعَهُمْ وَذَلِكَ بِمَا يَشْمَلُهُمْ مِنَ الدِّينِ الْمَذْهَبِ
لِلْغُلْظَةِ وَالْأَنَفَةِ الْوَارِثِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّنَافُسِ فَإِذَا كَانَ فِيهِمُ النَّبِيُّ أَوْ الْوَلِيُّ الَّذِي
يَنْتَعِشُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ يُذْهِبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتِ الْأَخْلَاقِ وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا
وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ تَمَّ اجْتِمَاعَهُمْ وَحَصَلَ لَهُمْ التَّغَلُّبُ وَالْمُلْكُ وَهُمْ مَعَ
ذَلِكَ أَسْرَعَ النَّاسَ قَبُولاً لِلْحَقِّ وَالْهُدَى لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عَوَجِ الْمَلِكَاةِ وَبَرَاءَتِهَا
مِنْ ذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ التَّوَحُّشِ الْقَرِيبِ الْمَعَانَاةِ الْمُتَهَيِّءِ لِقَبُولِ
الْخَيْرِ بِنَقَائِهِ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ الْعَوَائِدِ
وَسُوءِ الْمَلِكَاةِ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ .

الفصل الثامن والعشرون

في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بِدَاوَةٍ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ وَأَبْعَدُ مَجَالاً فِي الْفَقْرِ وَأَغْنَى
عَنْ حَاجَاتِ التَّلَوُّلِ وَحُبُوبِهَا لِإِعْتِيَادِهِمُ الشُّطْفَ وَخَشَوَةَ الْعَيْشِ فَاسْتَفْتَوْا عَنْ
غَيْرِهِمْ فَصَعَبَ انْقِيَادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لَا يَلَافُهُمْ ذَلِكَ وَلِلتَّوَحُّشِ وَرِئِيسُهُمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ

غَالِباً لِلْعَصَبِيَّةِ الَّتِي بِهَا الْمُدَافَعَةُ فَكَانَ مُضْطَرِراً إِلَى إِحْسَانِ مَلَكَتِهِمْ وَتَرْكِ مُرَاعِيَتِهِمْ^(١) لِئَلَّا يَخْتَلَّ عَلَيْهِ شَأْنُ عَصَبِيَّتِهِ فَيَكُونُ فِيهَا هَلَاكُهُ وَهَلَاكُهُمْ وَسِيَاسَةُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ السَّائِسُ وَارِعاً بِالْقَهْرِ وَالْأَلَمِ لَمْ تَسْتَقِمَّ سِيَاسَتُهُ وَأَيْضاً فَإِنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَخَذَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ خَاصَّةً وَالتَّجَافِي عَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ وَدَفَاعَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ فَإِذَا مَلَكَوا أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ جَعَلُوا غَايَةَ مَلَكَتِهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِأَخْذِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَتَرْكُوا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ وَرُبَّمَا جَعَلُوا الْقَوَابِطَ عَلَى الْمَفَاسِدِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصاً عَلَى تَكْثِيرِ الْجَبَايَا وَتَحْصِيلِ الْفَوَائِدِ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ وَارِعاً وَرُبَّمَا يَكُونُ بَاعِثاً بِحَسَبِ الْأَعْرَاضِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْمَفَاسِدِ وَاسْتِهَانَةً مَا يُعْطِي مِنْ مَالِهِ فِي جَانِبِ غَرْضِهِ فَتَنَمُو الْمَفَاسِدُ بِذَلِكَ وَيَقَعُ تَخْرِيْبُ الْعُمَرَانِ فَتَبْقَى تِلْكَ الْأُمَّةُ كَأَنَّهَا فَوْضَى مُسْتَطِيلَةً أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَلَا يَسْتَقِيمُ لَهَا عُمُرَانٌ وَتَخْرُبُ سَرِيعاً شَأْنُ الْفَوْضَى كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَبَعْدَتْ طِبَاعُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ انْقِلَابِ طِبَاعِهِمْ وَتَبَدُّلِهَا بِصِغَةِ دِينِيَّةٍ تَمَحُّو ذَلِكَ مِنْهُمْ وَتَجْعَلُ الْوَارِعَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى دِفَاعِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِدَوْلَتِهِمْ فِي الْمِلَّةِ لَمَّا شَيْدَ لَهُمُ الدِّينُ أَمْرَ السِّيَاسَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا الْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ الْعُمَرَانِ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَتَتَابَعَ فِيهَا الْخُلَفَاءُ عَظَمَ حِينَئِذٍ مَلَكَتُهُمْ وَقَوِيَ سُلْطَانُهُمْ .

كَانَ رُسْتَمُ^(٢) إِذَا رَأَى الْمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ يَقُولُ أَكُلَ عَمْرُ كَيْدِي يُعَلِّمُ الْكِلَابَ الْأَدَابَ ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ انْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ الدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَدُوا الدِّينَ فَنَسُوا السِّيَاسَةَ وَرَجَعُوا إِلَى قَفْرِهِمْ وَجَهَلُوا شَأْنَ عَصَبِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ يَبْعِدُهُمْ عَنِ الْإِنْتِقَادِ وَإِعْطَاءِ النُّصَفَةِ فَتَوَحَّشُوا كَمَا كَانُوا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنْ اسْمِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنْ جِنْسِ الْخُلَفَاءِ وَمِنْ جِيلِهِمْ وَلَمَّا ذَهَبَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَأَمُحِيَ رَسْمُهَا انْقَطَعَ الْأَمْرُ جُمْلَةً مِنْ أَيْدِيهِمْ وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الْعَجَمُ دُونَهُمْ وَأَقَامُوا فِي بَادِيَةِ قَفَارِهِمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَلِكَ

(١) عدائهم وهجرانهم .

(٢) رستم هو قائد جيوش الفرس في معركة القاسية .

وَلَا سِيَاسَتَهُ بَلْ قَدْ يَجْهَلُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي الْقَدِيمِ وَمَا كَانَ فِي الْقَدِيمِ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْخَلِيقَةِ مَا كَانَ لِأَجْيَالِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ وَدَوْلُ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ وَحَمِيرَ وَالتَّبَاعَةَ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ ثُمَّ دَوْلَةُ مُضَرَ فِي الْإِسْلَامِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ لَكِنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا الدِّينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَقَدْ يَخْصُلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ غَلَبٌ عَلَى الدُّوَلِ الْمُسْتَضْعَفَةِ كَمَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَلَا يَكُونُ مَالُهُ وَغَايَتُهُ إِلَّا تَخْرِيبُ مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُمَرَانِ كَمَا قَدْ مَنَّا وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ .

الفصل التاسع والعشرون

في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار

قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ عُمَرََانَ الْبَادِيَةَ نَاقِصٌ عَنْ عُمَرَانِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ لِأَنَّ الْأُمُورَ الضَّرُورِيَّةَ فِي الْعُمَرَانِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةً لِأَهْلِ الْبَدْوِ . وَإِنَّمَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ أُمُورَ الْفَلَحِ وَمَوَادِّهَا مَقْدُومَةٌ وَمُعْظَمُهَا الصَّنَائِعُ فَلَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي الْكُلِّيَّةِ مِنْ نَجَارٍ وَخِيَاطٍ وَحَدَادٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يَقِيمُ لَهُمْ ضَرُورِيَّاتَ مَعَاشِهِمْ فِي الْفَلَحِ وَغَيْرِهِ وَكَذَا الدَّنَانِيرُ وَالْدَّرَاهِمُ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ وَإِنَّمَا بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاضُهَا مِنْ مَغْلٍ الزَّرَاعَةِ وَأَعْيَانِ الْحَيَوَانِ أَوْ فَضْلَاتِهِ الْبَنَانِ وَأُوبَاراً وَأَشْعَاراً وَلَهَا بَأٌ مِمَّا يَخْتِاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ فَيَعْوِضُونَهُمْ عَنْهُ بِالدَّنَانِيرِ وَالْدَّرَاهِمِ إِلَّا أَنَّ حَاجَتَهُمْ إِلَى الْأَمْصَارِ فِي الضَّرُورِيِّ وَحَاجَةُ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِلَيْهِمْ فِي الْحَاجِيِّ ^(١) وَالْكَمَالِيِّ فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى الْأَمْصَارِ بِطَبِيعَةِ وَجُودِهِمْ فَمَا دَامُوا فِي الْبَادِيَةِ وَلَمْ يَخْصُلْ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا اسْتِيلَاءٌ عَلَى الْأَمْصَارِ فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى أَهْلِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ مَتَى دَعَوْهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَطَالَبُوهُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ فِي الْمِصْرِ مُلْكٌ كَانَ خُضُوعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِغَلَبِ الْمُلْكِ

(١) بمعنى الضروري .

وَأَن لَّمْ يَكُنْ فِي الْمِضْرِ مَلِكٌ فَلَا يَدْفِئُ بِهِ مِنْ رَّأْسِيَّةٍ وَنَوْعِ اسْتِبْدَادٍ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَى الْبَاقِينَ وَلَا انْتَقَصَ عُمرَانُهُ وَذَلِكَ الرَّئِيسُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَالسَّغِيْرُ فِي مَصَالِحِهِ إِمَّا طَوْعًا يَبْذُلُ الْمَالِ لَهُمْ ثُمَّ يُبَيِّدِي لَهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ فِي مِضْرِهِ فَيَسْتَقِيمُ عُمرَانُهُمْ وَإِمَّا كَرْهًا إِنْ تَمَّتْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَلَوْ بِالتَّغْرِيبِ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَخْضَلَ لَهُ جَانِبٌ مِنْهُمْ يُغَالِبُ بِهِ الْبَاقِينَ فَيَضْطَرُّ الْبَاقُونَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ لِذَلِكَ مِنْ فَسَادِ عُمرَانِهِمْ وَرُبَّمَا لَا يَسْعُهُمْ مُفَارَقَةُ تِلْكَ النَّوَاجِي إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى لِأَنَّ كُلَّ الْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِالْبُذُوِّ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَيْهَا وَمَنَعُوهَا مِنْ غَيْرِهَا فَلَا يَجِدُ هَؤُلَاءِ مَلْجَأً إِلَّا طَاعَةَ الْمِضْرِ فَهُمْ بِالضَّرُورَةِ مَغْلُوبُونَ لِأَهْلِ الْأُمْصَارِ وَاللَّهُ قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَهَّارُ .



الباب الثالث من الكتاب الأول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك
كله من الأحوال وفيه قواعد ومتممات
الفصل الأول

في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية
وذلك أنا قررنا في الفصل الأول أن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصبية لما
فيها من النعرة والتذامر^(١) واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه . ثم إن الملك
منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية
والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب
عليه فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لا يقع إلا
بالعصبية كما ذكرناه آنفاً وهذا الأمر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون
له لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها وطال أمد مزباهم في الحضارة وتعاقبهم
فيها جيلاً بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة إنما يذكرون أصحاب
الدولة وقد استحكمت صبتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبية في تمهيد
أمرهم ولا يعرفون كيف كان الأمر من أوله وما لقي أولهم من المتاعب دونه

(١) تذامر القوم ، حض بعضهم بعضاً على القتال .

وخصوصاً أهل الأندلس في نسيان هذه العصبية وأثرها لطول الأمد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطنهم وخلا من العصائب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الفصل الثاني

في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يضعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب للفرانية وأن الناس لم يألّفوا ملكها ولا اعتادوه فإذا اشتقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأوليّة واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عناية بل كأن طاعتها كتاب من الله لا يبدل ولا يعلم خلافه ولأمر ما يوضع الكلام في الإمامة آخر الكلام على العقائد الإيمانية كأنه من جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة إما بالموالي والمضطنعين الذين نشأوا في ظل العصبية وغيرها وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها ومثل هذا وقع لبني العباس فإن عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنيه الواثق واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم الأولياء على التواحي وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها وصار الخلاق في حكمهم ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم ثم انقرض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحو رسم الدولة وكذا صنّها

بِالْمَغْرِبِ فَسَدَتْ عَصِيَّتُهُمْ مِنْذُ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمُ الدُّوْلَةُ
مُتَقَلِّصَةً الظِّلِّ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِجَايَةِ وَالْقَلْعَةِ وَسَائِرِ ثُغُورِ أَفْرِيقِيَّةٍ وَرُبَّمَا انْتَرَى ^(١) يَتْلِكَ
الثُّغُورَ مَنْ نَارَعَهُمُ الْمُلْكُ وَاعْتَصَمَ فِيهَا وَالسُّلْطَانُ وَالْمُلْكُ مَعَ ذَلِكَ مُسَلِّمٌ لَهُمْ حَتَّى
تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الدُّوْلَةِ وَجَاءَ الْمُوَحِّدُونَ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ الْعَصِيَّةِ فِي الْمَصَامِدَةِ

فَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَكَذَّأ دَوْلَةً بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ لَمَّا فَسَدَتْ عَصِيَّتُهَا مِنَ الْعَرَبِ اسْتَوْلَى
مُلُوكُ الطَّوَائِفِ عَلَى أَمْرِهَا وَاقْتَسَمُوا خِطَّتَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ وَتَوَزَّعُوا مَمَالِكَ الدُّوْلَةِ
وَانْتَرَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وَلَايَتِهِ وَشَمَخَ بِأَنفِهِ وَبَلَغَهُمْ شَأْنُ الْعَجَمِ مَعَ
الدُّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِالْقَابِ الْمَلِكِ وَلَبَسُوا شَارَتَهُ وَأَمِنُوا مِنْ يَنْقُضَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ
أَوْ يُغَيِّرَهُ لَأَنَّ الْأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَائِبٍ وَلَا قَبَائِلَ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمْ ذَلِكَ
كَمَا قَالَ ابْنُ شَرَفٍ .

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ . أَسْمَاءُ مُغْتَصِرٍ فِيهَا وَمُغْتَصِدٍ
الْقَابُ مَمْلُوكَةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

فَاسْتَظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْمَوَالِي وَالْمُصْطَنِعِينَ وَالطَّرَاءَ ^(٢) عَلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ
أَهْلِ الْعُدُوَّةِ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتِهِ وَغَيْرِهِمْ اقْتِدَاءً بِالدُّوْلَةِ فِي آخِرِ أَمْرِهَا فِي
الِاسْتِظْهَارِ بِهِمْ حِينَ ضَعُفَتْ عَصِيَّةُ الْعَرَبِ وَاسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى الدُّوْلَةِ فَكَانَ
لَهُمْ دَوْلٌ عَظِيمَةٌ اسْتَبَدَّتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَحَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ
الْمُلْكِ عَلَى نِسْبَةِ الدُّوْلَةِ الَّتِي اقْتَسَمُوهَا وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى جَازَ إِلَيْهِمْ
الْبُجُرُ الْمُرَاطِبُونَ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةٍ فَاسْتَبَدُّوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ
مَرَائِزِهِمْ وَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَدِرُوا عَلَى مَدَافِعَتِهِمْ لِفَقْدَانِ الْعَصِيَّةِ لَدَيْهِمْ فَبِهِدِهِ
الْعَصِيَّةِ يَكُونُ تَمْهِيدُ الدُّوْلَةِ وَحَمَايَتُهَا مِنْ أَوْلِيَّهَا وَقَدْ ظَنَّ الطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ
الدُّوْلِ بِإِطْلَاقِ هُمْ الْجُنْدِ أَهْلُ الْعَطَاءِ الْمَفْرُوضِ مَعَ الْإِهْلَةِ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي

(١) بِمَعْنَى تَوَثَّبَ . وَالْأَصَحُّ تَنْزَى .

(٢) بِمَعْنَى الَّذِينَ أَتَوْا مِنْ أَمَاكِنَ أُخْرَى .

سَمَاءُ سِرَاجِ الْمُلُوكِ وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ الدُّوَلِ الْعَامَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ بِالدُّوَلِ الْأَخِيرَةِ بَعْدَ التَّمْهِيدِ وَاسْتِقْرَارِ الْمُلْكِ فِي النَّصَابِ وَاسْتِحْكَامِ الصُّبْغَةِ لِأَهْلِهِ فَالرَّجُلُ إِنَّمَا أَدْرَكَ الدُّوْلَةَ عِنْدَ هَرَمِهَا وَخَلَقَ جَدَّتْهَا وَرَجُوعَهَا إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ بِالْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ ثُمَّ إِلَى الْمُسْتَعْدِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ بِالْأَجْرِ عَلَى الْمُدَافَعَةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَدْرَكَ دَوَلَ الطَّوَائِفِ وَذَلِكَ عِنْدَ اخْتِلَالِ بَنِي أُمَيَّةَ وَانْقِرَاضِ غَضَبِئِهَا مِنَ الْعَرَبِ وَاسْتِبْدَادِ كُلِّ أَمِيرٍ يَقْطُرُهُ وَكَانَ فِي إِيَالَةِ الْمُسْتَعِينِ بْنِ هُوْدٍ وَابْنِهِ الْمُظْفَرِ أَهْلُ سِرْقَسْطَةَ وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْعَصْبِيَّةِ شَيْءٌ لِاسْتِيْلَاءِ التَّرَفِ عَلَى الْعَرَبِ مِنْذُ ثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ السِّنِينَ وَهَلَاكِهِمْ وَلَمْ يَرِ إِلَّا سُلْطَانًا مُسْتَبْدًا بِالْمُلْكِ عَنْ عَشَائِرِهِ قَدْ اسْتَحْكَمَتْ لَهُ صِبْغَةُ الْإِسْتِبْدَادِ مِنْذُ عَهْدِ الدُّوْلَةِ وَبَقِيَّةُ الْعَصْبِيَّةِ فَهُوَ لِذَلِكَ لَا يُنَازِعُ فِيهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى أَمْرِهِ بِالْأَجْرَاءِ مِنَ الْمُزْتَرِّقَةِ فَأُطْلِقَ الطَّرْطُوشِيُّ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَتَفَتَّنْ لِكَيْفِيَّةِ الْأَمْرِ مِنْذُ أَوَّلِ الدُّوْلَةِ وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِأَهْلِ الْعَصْبِيَّةِ فَتَفْطُنْ أَنْتَ لَهُ وَافْهَمْ سِرُّ اللَّهِ فِيهِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ .

الفصل الثالث

في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية

وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِعَصْبِيَّةٍ غَلَبٌ كَثِيرٌ عَلَى الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ وَفِي نَفُوسِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْقَاصِيَةِ إِذْغَانٌ لَهُمْ وَانْقِيَادٌ فَإِذَا نَزَعَ إِلَيْهِمْ هَذَا الْخَارِجُ وَانْتَبَذَ عَنْ مَقَرِّ مُلْكِهِ وَمَنْبَتِ عِزِّهِ اشْتَمَلُوا عَلَيْهِ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ وَظَاهَرُوهُ عَلَى شَأْنِهِ وَعَنُوا بِتَمْهِيدِ دَوْلَتِهِ يَرْجُونَ اسْتِقْرَارَهُ فِي نِصَايِهِ وَتَنَاوُلَهُ الْأَمْرِ مِنْ يَدِ أَغْيَاصِهِ ^(١) وَجَزَاءَهُ لَهُمْ عَلَى مَظَاهِرَتِهِ بِاصْطِفَائِهِمْ لِرَتَبِ الْمُلْكِ وَخَطِطِهِ مِنْ وَزَارَةٍ أَوْ قِيَادَةٍ أَوْ وِلَايَةٍ تُغْنِيهِمْ وَلَا

(١) اغياص : ج عيص . الاصل بمعنى أنهم يرجون انتقال الملك إليه من أصوله أي من أبائه وأجداده .

يَطْمَعُونَ فِي مُشَارِكَتِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ تَسْلِيمًا لِعَصَبِيَّتِهِ وَانْقِيَادًا لِمَا اسْتَحْكَمَ لَهُ
وَلِقَوْمِهِ مِنْ صَبْغَةِ الْغَلَبِ فِي الْعَالَمِ وَعَقِيدَةِ إِيْمَانِيَّةِ اسْتَقَرَّتْ فِي الْإِدْعَانِ لَهُمْ فَلَوْ
رَامُوهَا مَعَهُ أَوْ دُونَهُ لَزُلْزَلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلدَّارِسَةِ بِالْمَغْرِبِ
الْأَقْصَى وَالْعَبِيدِيِّينَ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ وَمِصْرَ لَمَّا انْتَبَذَ الطَّالِبِيُّونَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْقَاصِيَةِ
وَابْتَعَدُوا عَنْ مَقَرِّ الْخِلَافَةِ وَسَمَوْا إِلَى طَلَبِهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ بَعْدَ أَنْ
اسْتَحْكَمَتِ الصَّبْغَةُ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لِبَنِي أُمَيَّةٍ أَوَّلًا ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ
فَخَرَجُوا بِالْقَاصِيَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَدَعَاوُا لِنَفْسِهِمْ وَقَامَ بِأَمْرِهِمُ الْبَرَابَرَةُ مَرَّةً بَعْدَ
أُخْرَى فَأَوْرُبَةُ وَمَغِيلَةُ لِلدَّارِسَةِ وَكُتَامَةُ وَصَنْهَاجَةُ وَهَوَازَةُ لِلْعَبِيدِيِّينَ فَشِيدُوا دَوْلَتُهُمْ
وَمَهَّدُوا بِعَصَائِبِهِمْ أَمْرَهُمْ وَاقْتَطَعُوا مِنْ مَمَالِكِ الْعَبَّاسِيِّينَ الْمَغْرِبِ كُلَّهُ ثُمَّ أَفْرِيْقِيَّةَ
وَلَمْ يَزَلْ ظِلُّ الدَّوْلَةِ يَتَقَلَّصُ وَظِلُّ الْعَبِيدِيِّينَ يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ مَلَكَوا مِصْرَ وَالشَّامَ
وَالْحِجَازَ وَقَاسَمُوهُمْ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ شَقَّ الْأَبْلَمَةِ وَهَؤُلَاءِ الْبَرَابَرَةُ الْقَائِمُونَ
بِالدَّوْلَةِ مَعَ ذَلِكَ كُلُّهُمْ مُسْلِمُونَ لِلْعَبِيدِيِّينَ أَمْرَهُمْ مُذْعِنُونَ لِمَلِكِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا
يَتَنَافَسُونَ فِي الرُّتَبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيمًا لِمَا حَصَلَ مِنْ صَبْغَةِ الْمُلِكِ لِبَنِي هَاشِمٍ
وَلَمَّا اسْتَحْكَمَ مِنَ الْغَلَبِ لِقُرَيْشٍ وَمِصْرَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ فَلَمْ يَزَلِ الْمُلْكُ فِي أَغْقَابِهِمْ
إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ بِأَسْرِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ .

الفصل الرابع

في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين

أما من نبوة أو دعوة حق

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُلْكَ إِنَّمَا يَخْصُلُ بِالتَّغْلِبِ وَالتَّغْلِبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَاتِّفَاقِ
الْأَهْوَاءِ عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَجَمْعِ الْقُلُوبِ وَتَأْلِيفِهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةِ مِنَ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ
دِينِهِ قَالَ تَعَالَى « لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » وَسِرُّهُ أَنَّ

الْقُلُوبَ إِذَا تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ الْبَاطِلِ وَالْمِيلِ إِلَى الدُّنْيَا حَصَلَ التَّنَافُسُ وَفَسَا الْخِلَافُ
وَإِذَا انْصَرَفَتْ إِلَى الْحَقِّ وَرَفَضَتْ الدُّنْيَا وَالْبَاطِلَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى اللَّهِ اتَّحَدَتْ وَجْهَتُهَا
فَذَهَبَ التَّنَافُسُ وَقَلَّ الْخِلَافُ وَحَسُنَ التَّعَاوُنُ وَالتَّعَاوُضُ وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْكَلِمَةِ لِذَلِكَ
فَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ كَمَا نَبَّيْنُ لَكَ بَعْدَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ
سِوَاهُ .

الفصل الخامس

في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية
التي كانت لها من عددها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ الصَّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ تَذْهَبُ بِالتَّنَافُسِ وَالتَّحَاسُدِ
الَّذِي فِي أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَتَقَرُّدُ الْوَجْهَةِ إِلَى الْحَقِّ فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْإِسْتِبْصَارُ فِي أَمْرِهِمْ لَمْ
يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ لَأَنَّ الْوَجْهَةَ وَاحِدَةً وَالْمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ وَهُمْ مُسْتَمِيتُونَ عَلَيْهِ
وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الَّتِي هُمْ طَالِبُوهَا وَإِنْ كَانُوا أضعَافَهُمْ فَأَغْرَضَهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِالْبَاطِلِ
وَتَخَاضَلَهُمْ لِنَقِيَّةِ الْمَوْتِ حَاصِلٍ فَلَا يُقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ بَلْ يَغْلِبُونَ
عَلَيْهِمْ وَيُعَاجِلُهُمُ الْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّرَفِ وَالذَّلِّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ
صَدَرَ الْإِسْلَامَ فِي الْفَتْوحَاتِ فَكَانَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَادِسِيَّةِ وَالْيَرْمُوكِ بِضَعَةِ
وَثَلَاثِينَ أَلْفًا فِي كُلِّ مُعَسْكَرٍ وَجُمُوعُ فَارِسَ مِائَةِ وَعِشْرِينَ أَلْفًا بِالْقَادِسِيَّةِ وَجُمُوعُ
هَرَقلَ عَلَى مَا قَالَهُ الْوَاقِدِيُّ أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفٍ فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
وَهَزَمُوهُمْ وَغَلِبُوهُمْ عَلَى مَا بَأْيَدِيهِمْ وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ أَيْضًا فِي دَوْلَةِ لِمْتُونَةَ وَدَوْلَةِ
الْمُوَحِّدِينَ فَقَدْ كَانَ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْقَبَائِلِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُقَاوِمُهُمْ فِي الْعَدَدِ وَالْعَصَبِيَّةِ أَوْ
يَشِفُ^(١) عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنَّ الْاجْتِمَاعَ الدِّينِيَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالْإِسْتِبْصَارِ

(١) يشف ، يزيد .

وَالِاسْتِمَاتَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ إِذَا حَالَتْ صِبْغَةُ الدِّينِ وَفَسَدَتْ كَيْفَ يَنْتَقِضُ الْأَمْرُ وَيَصِيرُ الْغَلْبُ عَلَى نِسْبَةِ الْعَصْبِيَّةِ وَخَدَهَا دُونَ زِيَادَةِ الدِّينِ فَتَغْلِبُ الدَّوْلَةُ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ الْعَصَائِبِ الْمُكَافِئَةِ لَهَا أَوْ الزَّائِدَةِ الْقُوَّةِ عَلَيْهَا الَّذِينَ غَلَبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ الدِّينِ لِقُوَّتِهَا وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصْبِيَّةً مِنْهَا وَأَشَدَّ بِدَاوَةَ وَاعْتَبِرْ هَذَا فِي الْمُوَحِّدِينَ مَعَ زَنَاتَةٍ لَمَّا كَانَتْ زَنَاتُهُ أَبَدَى ^(١) مِنَ الْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوَحُّشًا وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ الدَّعْوَةُ الدِّينِيَّةُ بِاتِّبَاعِ الْمَهْدِيِّ فَلَبِسُوا صِبْغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصَبِيَّتِهِمْ بِهَا فَغَلَبُوا عَلَى زَنَاتِهِ أَوَّلًا وَاسْتَبْعَوْهُمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ الْعَصْبِيَّةُ وَالْبِدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ تِلْكَ الصَّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ انْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَغَلَبَوْهُمْ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَرَعَوْهُ مِنْهُمْ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

الفصل السادس

في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وَهَذَا لِمَا قَدْ مَنَاهُ مِنْ أَنْ كُلُّ أَمْرٍ تُحْمَلُ عَلَيْهِ الْكَافَّةُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْعَصْبِيَّةِ وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ كَمَا مَرَّ « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ » وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِخَرْقِ الْعَوَائِدِ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِمْ أَنْ لَا تَخْرُقَ لَهُ الْعَادَةُ فِي الْغَلْبِ بِغَيْرِ عَصْبِيَّةٍ وَقَدْ وَقَعَ هَذَا لِابْنِ قَسِيٍّ شَيْخِ الصُّوفِيَّةِ وَصَاحِبِ كِتَابِ خَلْعِ النَّعْلَيْنِ فِي التَّصَوُّفِ ثَارَ بِالْأَنْدَلُسِ ذَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَسُمِّيَ أَصْحَابُهُ بِالْمُرَاطِبِيِّينَ قَبِيلَ دَعْوَةِ الْمَهْدِيِّ فَاسْتَبَتْ لَهُ الْأَمْرُ قَلِيلًا لِشَغْلِ لِمَتُونَةٍ بِمَا دَهَمَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْمُوَحِّدِينَ وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَصَائِبٌ وَلَا قَبَائِلُ يَدْفَعُونَهُ عَنْ شَأْنِهِ فَلَمْ يَلِثْ حِينَ اسْتَوْلَى الْمُوَحِّدُونَ عَلَى الْمَغْرِبِ أَنْ أَدْعَنَ لَهُمْ وَدَخَلَ فِي دَعْوَتِهِمْ وَتَابَعَهُمْ مِنْ مَقِيلِهِ ^(١) أَبَدَى ، مِنَ الْبِدَاوَةِ وَأَبَدَى أَفْعَلُ التَّفْضِيلِ مِنْ بَدَا وَمَعْنَاهَا أَشَدَّ بِدَاوَةَ .

يَحْضِي أَرْكَشَ ^(١) وَأَمَكْنَهُمْ مِنْ ثَغْرِهِ وَكَانَ أَوَّلَ دَاعِيَةٍ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ وَكَانَتْ ثَوْرَتُهُ تُسَمَّى ثَوْرَةَ الْمُرَاطِينِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَحْوَالُ الثَّوَارِ الْقَائِمِينَ بِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْفُقَهَاءِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُتَحِلِّينَ لِلْعِبَادَةِ وَسُلُوكِ طَرِيقِ الدِّينِ يَذْهَبُونَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى أَهْلِ الْجَوْرِ مِنَ الْأَمْرَاءِ دَاعِينَ إِلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ رَجَاءً فِي الثَّوَابِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ فَيَكْثُرُ أَتْبَاعُهُمْ وَالْمُتَثَلِّثُونَ ^(٢) بِهِمْ مِنَ الْغَوَّاءِ وَالِدَّهْمَاءِ وَيَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ لِلْمَهَالِكِ وَأَكْثَرُهُمْ يَهْلِكُونَ فِي هَذَا السَّبِيلِ مَا زُوْرِينَ ^(٣) غَيْرَ مَا جُورِينَ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكْتُبْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّمَا أَمَرَ بِهِ حَيْثُ تَكُونُ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ قَالَ ﷺ « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ » وَأَحْوَالُ الْمُلُوكِ وَالْدُّوَلِ رَاسِخَةٌ قَوِيَّةٌ لَا يُزْخَرْحُهَا وَيَنْهَدُمُ بِنَاءُهَا إِلَّا الْمُطَالَبَةُ الْقَوِيَّةُ الَّتِي مِنْ وَرَائِهَا غَضَبِيَّةُ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ وَهَكَذَا كَانَ حَالُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ بِالْعَشَائِرِ وَالْعَصَائِبِ وَهُمْ الْمُؤَيَّدُونَ مِنَ اللَّهِ بِالْكَوْنِ كُلِّهِ لَوْ شَاءَ ، لَكِنَّهُ إِنَّمَا أَجْزَى الْأُمُورَ عَلَى مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ « وَاللَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ هَذَا الْمَذْهَبِ وَكَانَ فِيهِ مُحِقًّا قَصَرَ بِهِ الْإِنْفِرَادُ عَنِ الْعَصَبِيَّةِ فَطَاحَ فِي هُوَةِ الْهَلَاكِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَثَلِّسِينَ بِذَلِكَ فِي طَلَبِ الرِّئَاسَةِ فَأَجْدَرُ أَنْ تَعَوَّقَهُ الْعَوَاقِقُ وَتَنْقَطِعَ بِهِ الْمَهَالِكُ لِأَنَّهُ أَمَرَ اللَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِرِضَاةٍ وَإِعَانَتِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالنَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ مُسْلِمٌ وَلَا يَرْتَابُ فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ وَأَوَّلُ ابْتِدَاءِ هَذِهِ النَّزْعَةِ فِي الْمِلَّةِ يَبْغِذَادَ حِينَ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ ^(٤) وَقَتْلَ الْأَمِينِ وَأَبْطَأَ الْمَأْمُونُ بِخُرَاسَانَ عَنْ مُقَدِّمِ الْعِرَاقِ ثُمَّ عَهْدَ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرَّضِيِّ مِنْ آلِ الْحُسَيْنِ فَكَشَفَ بَنُو الْعَبَّاسِ عَنْ

(١) لم نعثر على حصن اركش في معجم البلدان وكذلك في المراجع التي بين أيدينا وربما هناك تحريف بالاسم وهو حصن اركون ، وهو حصن منيع في الأندلس وموقعه ينسجم مع سياق الحديث عن المرابطين بالأندلس .

(٢) وفي بعض النسخ للتشبيون .

(٣) الأصح موزورين .

(٤) هو طاهر بن الحسين ، كان قائداً لجيش المأمون زمن الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وقد خرج

أيام الأمين .

وَجِهَ النُّكِيرَ عَلَيْهِ وَتَدَاعَوْا لِلْقِيَامِ وَخَلَعَ طَاعَةَ الْمَأْمُونِ وَالِاسْتِئْذَالَ مِنْهُ وَبُوعَ
إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ فَوَقَعَ الْهَرْجُ ^(١) يَبْغَدَادَ وَانْطَلَقَتْ أَيْدِي الزُّعْرَةِ ^(٢) بِهَا مِنْ
الشُّطَارِ ^(٣) وَالْحَزْرِيَّةِ ^(٤) عَلَى أَهْلِ الْعَافِيَةِ وَالصُّوْنِ وَقَطَعُوا السَّبِيلَ وَامْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ
مِنْ نِهَابِ النَّاسِ وَبَاغَوْهَا عَلَانِيَةً فِي الْأَسْوَاقِ وَاسْتَعْدَى ^(٥) أَهْلُهَا الْحُكَّامَ فَلَمْ يَغْدُوهُمْ
فَتَوَافَرَ أَهْلُ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ عَلَى مَنَعِ الْفَسَاقِ وَكَفَّ عَادِيَتَهُمْ وَقَامَ يَبْغَدَادَ رَجُلٌ
يُعْرِفُ بِخَالِدِ الدُّرْيُوسِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ
فَأَجَابَهُ خَلْقٌ وَقَاتَلَ أَهْلَ الزُّعَارَةِ فَغَلَبَهُمْ وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِيهِمْ بِالضَّرْبِ وَالتَّنْكِيلِ ثُمَّ قَامَ
مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرُ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ يُعْرِفُ بِسَهْلِ بْنِ سَلَامَةَ الْأَنْصَارِيِّ
وَيُكْنَى أَبَا جَاتِمَ وَعَلَّقَ مِصْحَفًا فِي عُنُقِهِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَالْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فَاتَّبَعَهُ النَّاسُ كَافَّةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفِ
وَوَضِيعٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَمَنْ دُونَهُمْ وَنَزَلَ قَصْرَ طَاهِرٍ وَاتَّخَذَ الدِّيَّانَ وَطَافَ يَبْغَدَادَ
وَمَنَعَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ الْمَارَةَ وَمَنَعَ الْخِفَارَةَ ^(٦) لِأُولَئِكَ الشُّطَارِ وَقَالَ لَهُ خَالِدُ
الدُّرْيُوسُ أَنَا لَا أَعِيبُ عَلَى السُّلْطَانِ فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ لَكِنِّي أَقَاتِلُ كُلَّ مَنْ خَالَفَ
الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَذَلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمِائَتَيْنِ وَجَهَّزَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ
الْمَهْدِيِّ الْعَسَاكِرَ فَغَلَبَهُ وَأَسْرَهُ وَانْحَلَّ أَمْرُهُ سَرِيعًا وَذَهَبَ وَنَجَا بِنَفْسِهِ ثُمَّ اقْتَدَى
بِهَذَا الْعَمَلِ بَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَسَّسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَلَا يَعْرِفُونَ
مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَلَا يَشْعُرُونَ بِمَغْنَمَةِ أَمْرِهِمْ وَمَالِ أَحْوَالِهِمْ
وَالَّذِي يَخْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِهِ هَؤُلَاءِ إِمَّا الْمُدَاوَاةَ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجُنُونِ وَإِمَّا التَّنْكِيلَ
بِالْقَتْلِ أَوْ الضَّرْبِ إِنْ أَخَذُوا هَرْجًا وَإِمَّا إِدَاعَةَ السُّخْرِيَّةِ مِنْهُمْ وَعَذَهُمْ مِنْ جُمْلَةٍ

(١) الفتنه .

(٢) الزعرة ج زعر وفي العامية ازعر وزعران وهم ذوي الأخلاق السيئة . (قاموس) .

(٣) اللصوص والمجرمين .

(٤) هو نهب مال الإنسان بأجمعه . وفي الحديث الحارب الميثلح أي الغاصب الناهب . الذي يعزى

الناس ثيابهم .

(٥) طلب النجدة والعون .

(٦) المحافظة أي منع المحافظة عليهم .

الصَّفَاعِينَ^(١) وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ أَوْ بِأَنَّهُ دَاخِلٌ لَهُ وَلَيْسَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَلَا مَا هُوَ وَأَكْثَرُ الْمُنْتَحِلِينَ لِمِثْلِ هَذَا تَجِدُهُمْ مُؤَسَّسِينَ أَوْ مَجَانِينَ أَوْ مُلْبَسِينَ يَطْلُبُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ رِئَاسَةَ امْتِلَآتِ بِهَا جَوَانِحَهُمْ وَعَجَزُوا عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِشَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا الْعَادِيَةِ فَيَحْسِبُونَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الْبَالِغَةِ بِهِمْ إِلَى مَا يُؤْمَلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ فِيهِ مِنَ الْهَلَكَةِ فَيَسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْقَتْلُ بِمَا يُخْدِثُونَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَتَسْوَأُ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ وَقَدْ كَانَ لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ خَرَجٌ بِالسُّوسِ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ يُدْعَى التَّوْبَذْرِيَّ عَمَدٌ إِلَى مَسْجِدٍ مَاسَةً بِسَاحِلِ الْبَحْرِ هُنَاكَ وَزَعَمَ أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ تَلْبِيسًا عَلَى الْعَامَّةِ هُنَاكَ بِمَا مَلَأَ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْخَدَثَانِ بِانتِظَارِهِ هُنَاكَ وَأَنَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ يَكُونُ أَصْلُ دَعْوَتِهِ فَتَهَافَّتَ عَلَيْهِ طَوَائِفُ مِنْ عَامَّةِ الْبَزْبَرِ تَهَافَّتَ الْفَرَّاشُ ثُمَّ خَشِيَ رُؤُسَاؤُهُمْ اتِّسَاعَ نِطَاقِ الْفِتْنَةِ فَدَسَّ إِلَيْهِ كَبِيرُ الْمَصَامِدَةِ يَوْمُئِذٍ عَمْرُ السُّكْسِيوِيِّ مِنْ قَتْلِهِ فِي فِرَاشِهِ وَكَذَلِكَ خَرَجَ فِي غِمَارِهِ أَيْضًا لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ وَادَّعَى مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَاتَّبَعَ نَعِيقَهُ الْأَرْدَلُونَ مِنْ سُفَهَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَأَغْمَارِهِمْ^(٢) وَزَحَفَ إِلَى بَادِسٍ مِنْ أَمْصَارِهِمْ وَدَخَلَهَا غَنَوَةً . ثُمَّ قُتِلَ لِأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِ وَمَضَى فِي الْهَالِكِينَ الْأَوَّلِينَ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَالْغُلَطُ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنْ اِعْتِبَارِ الْعَصَبِيَّةِ فِي مِثْلِهَا وَأَمَّا إِنْ كَانَ التَّلْبِيسُ فَأُخْرَى أَنْ لَا يَتِمُّ لَهُ أَمْرٌ وَأَنْ يَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا مَعْبُودٌ سِوَاهُ .

الفصل السابع

في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عِصَابَةَ الدَّوْلَةِ وَقَوْمَهَا الْقَائِمِينَ بِهَا الْمُمَهِّدِينَ لَهَا لَا بُدَّ

(١) الكذابين .

(٢) أغمارهم ، أحداثهم الذين لم يفقهوا الأمور بعد .

مِنْ تَوْزِيْعِهِمْ حِصْصاً عَلَى الْمَمَالِكِ وَالثُّغُورِ الَّتِي تَصِيرُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا
 لِحِمَايَتِهَا مِنَ الْعَدُوِّ وَامْتِصَاءِ أَحْكَامِ الدَّوْلَةِ فِيهَا مِنْ جَبَايَةِ وَرَدِّعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلِذَا
 تَوَزَّعَتِ الْعَصَائِبُ كُلُّهَا عَلَى الثُّغُورِ وَالْمَمَالِكِ فَلَا بُدَّ مِنْ نَفَادِ عِدْدِهَا وَقَدْ بَلَغَتْ
 الْمَمَالِكُ حِينِيذٍ إِلَى حَدٍّ يَكُونُ ثَغْراً لِلدَّوْلَةِ وَتَحْماً لَوَطْنِهَا وَنِطَاقاً لِمَرْكَزِ مُلْكِهَا فَإِنْ
 تَكَفَّلَتِ الدَّوْلَةُ بَعْدَ ذَلِكَ زِيَادَةً عَلَى مَا بِيَدِهَا بَقِيَ دُونَ حَامِيَةٍ وَكَانَ مَوْضِعاً
 لِانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنَ الْعَدُوِّ وَالْمُجَاوِرِ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ
 التَّجَاسُرِ وَخَرْقِ سِيَاجِ الْهَيْبَةِ وَمَا كَانَتْ الْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً وَلَمْ يَنْفُذْ عِدْدُهَا فِي تَوْزِيْعِ
 الْخِصَصِ عَلَى الثُّغُورِ وَالنَّوَاجِيِ بَقِيَ فِي الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ الْغَايَةِ حَتَّى
 يَنْفَسِحَ نِطَاقُهَا إِلَى غَايَتِهِ وَالْعِلَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي ذَلِكَ هِيَ قُوَّةُ الْعَصَبِيَّةِ مِنْ سَائِرِ الْقُوَى
 الطَّبِيعِيَّةِ وَكُلُّ قُوَّةٍ يَضْدُرُّ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ الْأَفْعَالِ فَشَأْنُهَا ذَلِكَ فِي فِعْلِهَا وَالدَّوْلَةُ فِي
 مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِي الطَّرَفِ وَالنَّطَاقِ وَإِذَا انْتَهَتْ إِلَى النَّطَاقِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ
 عِجَزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ شَأْنُ الْأَشْعةِ وَالْأَنْوَارِ إِذَا انْبَعَثَتْ مِنَ الْمَرَائِزِ وَالدَّوَائِرِ
 الْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مِنَ النُّقْرِ عَلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا الْهَرَمُ وَالضُّعْفُ فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي
 التَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ الْأَطْرَافِ وَلَا يَزَالُ الْمَرْكَزُ مَحْفُوظاً إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ
 الْأَمْرِ جُمْلَةً فَحِينِيذٍ يَكُونُ انْقِرَاضُ الْمَرْكَزِ وَإِذَا غَلِبَ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ مَرْكَزِهَا فَلَا
 يَنْفَعُهَا بَقَاءُ الْأَطْرَافِ وَالنَّطَاقِ بَلْ تَضْمَحِلُ لَوَقْتِهَا فَإِنَّ الْمَرْكَزَ كَالْقَلْبِ الَّذِي
 تَتَّبِعُ مِنْهُ الرُّوحُ فَإِذَا غَلِبَ عَلَى الْقَلْبِ وَمَلَكَ انْهَزَمَ جَمِيعُ الْأَطْرَافِ وَانْظُرْ هَذَا فِي
 الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ كَمَا مَرْكَزُهَا الْمَدَائِنُ فَلَمَّا غَلِبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْمَدَائِنِ انْقَرَضَ أَمْرُ
 فَارِسَ أَجْمَعٍ وَلَمْ يَنْفَعِ يَزْدَجَرْدُ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنْ أَطْرَافِ مَمَالِكِهِ وَبِالْعَكْسِ مِنْ
 ذَلِكَ الدَّوْلَةُ الرُّومِيَّةُ بِالشَّامِ لَمَّا كَانَ مَرْكَزُهَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ وَغَلِبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ
 بِالشَّامِ تَحَيَّرُوا إِلَى مَرْكَزِهِمُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَلَمْ يَضُرَّهُمْ انْتِزَاعُ الشَّامِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَلَمْ
 يَزَلْ مُلْكُهُمْ مُتَصِلاً بِهَا إِلَى أَنْ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِ وَانْظُرْ أَيْضاً شَأْنَ الْعَرَبِ أَوَّلَ
 الْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَتْ عَصَائِبُهُمْ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ

وَمَضَرَ لِأَسْرَعَ وَقَبْتُ ثُمَّ تَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ السِّنْدِ وَالْحَبْشَةِ وَأَفْرِيقِيَّةِ
وَالْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصَصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالْبُقُورِ وَنَزَلُوهَا حَامِيَةً
وَنَفَذَ عَدَدَهُمْ فِي تِلْكَ التَّوْزِيعَاتِ أَقْصَرُوا عَنِ الْفَتْوحَاتِ بَعْدَ وَانْتَهَى أَمْرُ الْإِسْلَامِ وَلَمْ
يَتَجَاوَزْ تِلْكَ الْحُدُودَ وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ الدَّوْلَةُ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا وَكَذَا كَانَ
حَالُ الدَّوْلِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كُلِّ دَوْلَةٍ عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثَرَةِ وَعِنْدَ
نَفَادِ عَدَدِهِمْ بِالتَّوْزِيعِ يَنْقَطِعُ لَهُمُ الْفَتْحُ وَالْإِسْتِيلَاءُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

الفصل الثامن

في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها
في القلة والكثرة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَأَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ هُمُ الْحَامِيَّةُ
الَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِمَمَالِكِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا وَيَنْقَسِمُونَ عَلَيْهَا فَمَا كَانَ مِنَ الدَّوْلَةِ
الْعَامَّةِ قَبِيلُهَا وَأَهْلُ عَصَائِهَا أَكْثَرُ كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ مَمَالِكِ وَأَوْطَانًا وَكَانَ مُلْكُهَا
أَوْسَعَ لِذَلِكَ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا أَلْفَ اللَّهُ كَلِمَةَ الْعَرَبِ عَلَى الْإِسْلَامِ
وَكَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ آخِرَ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ مِائَةً أَلْفٍ وَعَشْرَةَ
أَلْفٍ مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَرَاجِلَ إِلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى
الْوَفَاةِ فَلَمَّا تَوَجَّهُوا لِطَلَبِ مَا فِي أَيْدِي الْأُمَمِ مِنَ الْمُلْكِ لَمْ يَكُنْ دُونَهُ جَمْعٌ وَلَا
وَزْدٌ^(١) فَاسْتَبِيحَ جَمْعُ فَارِسَ وَالرُّومِ أَهْلَ الدَّوْلَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ فِي الْعَالَمِ لِعَهْدِهِمْ
وَالْتُرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْإِفْرَنْجِيَّةِ وَالتَّبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ وَالْقُوطِ بِالْأَنْدَلُسِ وَخَطُّوا مِنَ
الْحِجَازِ إِلَى السُّوسِ الْأَقْصَى وَمِنَ الْيَمَنِ إِلَى التُّرْكِ بِأَقْصَى الشَّمَالِ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى
الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ دَوْلَةَ صَنْهَاجَةَ وَالْمُوحِدِينَ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ قَبْلَهُمْ

(١) للمقل والملجأ (قاموس) .

لَمَّا كَانَ كُتَامَةُ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ أَكْثَرَ مِنْ صَنْهَاجَةٍ وَمِنْ الْمَصَامِدَةِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ فَمَلَكَوْا أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ وَالشَّامَ وَمِصْرَ وَالْحِجَازَ ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ دَوْلَةَ زَنَاطَةَ لَمَّا كَانَ عَدَدُهُمْ أَقَلَّ مِنَ الْمَصَامِدَةِ قَصَرَ مَلِكُهُمْ عَنْ مَلِكِ الْمُوَحِّدِينَ لِقُصُورِ عَدَدِهِمْ عَنْ عَدَدِ الْمَصَامِدَةِ مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ ثُمَّ اعْتَبِرْ بَعْدَ ذَلِكَ حَالَ الدَّوْلَتَيْنِ لِهَذَا الْعَهْدِ لِرِزْنَاتِهِ بَنِي مُرَيْنَ وَبَنِي عَبْدِ الْوَادِ ، كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعُ نِطَاقًا وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الْغَلَبُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى . يُقَالُ إِنَّ عَدَدَ بَنِي مُرَيْنَ لِأَوَّلِ مُلْكِهِمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَإِنَّ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ كَانُوا أَلْفًا إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ بِالرَّفْعِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ كَثُرَتْ مِنْ أَعْدَادِهِمْ وَعَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ فِي أَعْدَادِ الْمُتَغَلِّبِينَ لِأَوَّلِ الْمُلْكِ يَكُونُ اتِّسَاعُ الدَّوْلَةِ وَقُوَّتُهَا وَأَمَّا طَوْلُ أَمْدِهَا أَيْضًا فَعَلَى تِلْكَ النِّسْبَةِ لِأَنَّ عُمَرَ الْحَادِثِ مِنْ قُوَّةِ مَزَاجِهِ وَمَزَاجِ الدَّوْلِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصَبِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ الْعَصَبِيَّةُ قَوِيَّةً كَانَ الْمِزَاجُ تَابِعًا لَهَا وَكَانَ أَمْدُ الْعُمُرِ طَوِيلًا وَالْعَصَبِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَوُفُورِهِ كَمَا قُلْنَا هُنا وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَبْدُو فِي الدَّوْلَةِ مِنَ الْأَطْرَافِ فَإِذَا كَانَتْ مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً وَكُلُّ نِقْصٍ يَقَعُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ فَتَكْثُرُ أَرْزَامُ النِّقْصِ لِكَثْرَةِ الْمَمَالِكِ وَاخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنِقْصٍ وَزَمَانٍ فَيَكُونُ أَمْدُهَا أَطْوَلَ الدَّوْلِ لَا بَنُو الْعَبَّاسِ أَهْلُ الْمَرْكَزِ وَلَا بَنُو أُمَيَّةِ الْمُسْتَبْدُونَ بِالْأَنْدَلُسِ ^(١) . وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ وَدَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ كَانَ أَمْدُهَا قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ صَنْهَاجَةٍ دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ أَمْرَ أَفْرِيقِيَّةٍ لِبَلْكَيْنِ بْنِ زَيْرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ إِلَى حِينِ اسْتِيلَاءِ الْمُوَحِّدِينَ عَلَى الْقَلْعَةِ وَبِجَايَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَدَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَنَاضَرُ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَهَكَذَا نَسَبُ الدَّوْلِ فِي أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا سَنَةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ .

(١) هناك تشويش في معنى العبارة وربما تكون العبارة : يتساوى في ذلك بنو العباس أهل المركز وبنو

أمية المستبدون بالأندلس .

الفصل التاسع

في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافُ الآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَأَنَّ وَرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا وَهْوَى عَصِيَّةٍ تَمَانَعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ الْإِنْتِقَاضُ عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ عَصِيَّةٍ لِأَنَّ كُلَّ عَصِيَّةٍ مِمَّنْ تَحْتَ يَدِهَا تَظُنُّ فِي نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً وَانْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَالْمَغْرِبِ مِنْذُ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَلِهَذَا الْعَهْدُ فَإِنْ سَاكِنَ هَذِهِ الْأَوْطَانِ مِنَ الْبَرْبَرِ أَهْلِ قَبَائِلَ وَعَصِيَّاتٍ فَلَمْ يُغْنِ فِيهِمُ الْغَلْبُ الْأَوَّلُ الَّذِي كَانَ لِابْنِ أَبِي سَرْجٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْإِفْرَنْجَةِ شَيْئًا وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذَلِكَ الثُّورَةَ وَالرَّدَّةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَعَظُمَ الْإِثْنَانُ ^(١) مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الدِّينُ عِنْدَهُمْ عَادُوا إِلَى الثُّورَةِ وَالْخُرُوجِ وَالْأَخِذِ بِدِينِ الْخَوَارِجِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً قَالَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ ارْتَدَّتِ الْبَرْبَرَةُ بِالْمَغْرِبِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَلَمْ تَسْتَقِرْ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ إِلَّا لِعَهْدِ وَلَايَةِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ فَمَا بَعْدَهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عُمَرَ أَنَّ أَفْرِيقَةَ مُفَرَّقَةٌ لِقُلُوبِ أَهْلِهَا إِيَّارَةً إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ الْحَامِلَةِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الْإِذْعَانِ وَالْإِنْقِيَادِ وَلَمْ يَكُنِ الْعِرَاقُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ يَتَلَكَّ الصِّفَّةَ وَلَا الشَّامُ إِنَّمَا كَانَتْ حَامِيَتَهَا مِنْ فَارِسَ وَالرُّومِ وَالْكَافَّةُ دَهْمَاءُ أَهْلِ مَدَنٍ وَأَمْصَارٍ فَلَمَّا غَلِبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا مَمَانَعٌ وَلَا مُشَاقٌّ ^(٢) وَالْبَرْبَرُ قَبَائِلُهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُخْصَى وَكُلُّهُمْ بَادِيَّةٌ وَأَهْلُ عَصَائِبٍ وَعَشَائِرٍ وَكُلُّمَا هَلَكَتْ قَبِيلَةٌ عَادَتْ الْأُخْرَى مَكَانَهَا وَإِلَى دِينِهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالرَّدَّةِ فَطَالَ أَمْرُ الْعَرَبِ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ بِوُطْنِ أَفْرِيقِيَّةٍ وَالْمَغْرِبِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ بِالشَّامِ لِعَهْدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ فِيهِ مِنْ

(١) اثْنَانِ فِي الْعَدُوِّ أَكْثَرُ فِي الْقَتْلِ وَالْجَرَحِ وَوَرَدَ فِي الْآيَةِ ٦٧ مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ « مَا كَانَ لَنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ » .

(٢) مُخَالَفٌ وَفِي الْآيَةِ ٤ مِنْ سُورَةِ الْحَشْرِ « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

قَبَائِلِ فَلَسْطِينٍ وَكَنْعَانَ وَبَنِي عِيصُو وَبَنِي مِذْيَنَ وَبَنِي لُوطَ وَالرُّومَ وَالْيُونَانَ
وَالْعَمَالِقَةَ وَأَكْرِيكِشَ وَالنَّبِطَ مِنْ جَانِبِ الْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلَ مَا لَا يُخْصَى كَثْرَةُ
وَتَنوعُهُ فِي الْعَصَبِيَّةِ فَصَعَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ تَمْهِيدُ دَوْلَتِهِمْ وَرُسُوحُ أَمْرِهِمْ
وَاضْطَرَبَ عَلَيْهِمُ الْمُلْكُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَسَرَى ذَلِكَ الْخِلَافُ إِلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا عَلَى
سُلْطَانِهِمْ وَخَرَجُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُلْكٌ مُوَطَّدٌ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ إِلَى أَنْ غَلِبَهُمُ الْفَرَسُ
ثُمَّ يُونَانُ ثُمَّ الرُّومُ آخِرَ أَمْرِهِمْ عِنْدَ الْجَلَاءِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَيَعْكَسُ هَذَا أَيْضاً
الْأَوَطَانَ الْخَالِيَةَ مِنَ الْعَصَبِيَّاتِ يَسْهُلُ تَمْهِيدُ الدَّوْلَةِ فِيهَا وَيَكُونُ سُلْطَانُهَا وَازِعاً
لِقِلَّةِ الْهَرَجِ وَالْإِنْتِقَاصِ وَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ فِيهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ كَمَا هُوَ الشَّانُ فِي
مِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ إِذْ هِيَ خُلُوٌ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ كَانَ لَمْ يَكُنِ الشَّامُ
مَعْدِناً لَهُمْ كَمَا قُلْنَا فَهَلْكَ مِصْرَ فِي غَايَةِ الدَّعَةِ وَالرُّسُوحِ لِقِلَّةِ الْخَوَارِجِ وَأَهْلِ
الْعَصَائِبِ إِنَّمَا هُوَ سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ وَدَوْلَتُهَا قَائِمَةٌ بِمُلُوكِ التُّرْكِ وَعَصَائِبِهِمْ يَغْلِبُونَ
عَلَى الْأَمْرِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ وَيَنْتَقِلُ الْأَمْرُ فِيهِمْ مِنْ مَنْبِتٍ إِلَى مَنْبِتٍ وَالْخِلَافَةُ مُسْمَاةٌ
لِلْعَبَّاسِيِّ مِنْ أَغْقَابِ الْخُلَفَاءِ يَبْغِذَادُ وَكَذَا شَأْنُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ ابْنِ
الْأَحْمَرَ سُلْطَانُهَا لَمْ تَكُنْ لِأَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ بِقَوِيَّةٍ وَلَا كَانَتْ كُرَاتٍ ^(١) إِنَّمَا يَكُونُ أَهْلُ
بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بَقُوا مِنْ ذَلِكَ الْقِلَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ
الْأَنْدَلُسِ لَمَّا انْقَرَضَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْهُمْ وَمَلِكُهُمُ الْبَرْبَرُ مِنْ لِمْتُونَةٍ وَالْمُوَحِّدِينَ
سَيَّمُوا مَلِكَتُهُمْ وَثَقَلَتْ وَطَأَتُهُمْ عَلَيْهِمْ فَأَشْرَبَتِ الْقُلُوبُ بَغْضَاءَهُمْ وَأَمَكْنَ الْمُوَحِّدُونَ
وَالسَّادَةَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ كَثِيراً مِنَ الْحُصُونِ لِلطَّاعِيَةِ ^(٢) فِي سَبِيلِ الْاسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى
شَائِهِمْ مِنْ تَمَلُّكِ الْحَضَرَةِ مَرَائِشَ فَاجْتَمَعَ مَنْ كَانَ بَقِيَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ
الْقَدِيمَةِ مَعَادِنُ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ تَجَافَى بِهِمُ الْمُنْبِتُ عَنِ الْحَاضِرَةِ وَالْأَمْصَارِ بَعْضُ
الشَّيْءِ وَرَسَّخُوا فِي الْعَصَبِيَّةِ مِثْلَ ابْنِ هُودَ وَابْنِ الْأَحْمَرَ وَابْنِ مَرْذَنْشَ وَأَمْثَالِهِمْ فَقَامَ
ابْنُ هُودَ بِالْأَمْرِ وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِالْمَشْرِقِ وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْخُرُوجِ

(١) متتالية ومتتابعة .

(٢) الاسم الذي أطلقه عرب الأندلس على ملك الفرنج في البرتغال وقشتالة .

على الموحدين فنبذوا إليهم العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالأمر في الأندلس ثم سما ابن الأحمر للأمر وخالف ابن هود في دعوته فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب أفريقية من الموحدين وقام بالأمر وتناول بعضا من قريته من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لأكثر منهم لقلية العصائب بالأندلس وإنها سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يحيز إليه البحر من أعيان زناته فصاروا معه عضبة على المشاغرة والرباط ثم سما لصاحب من ملوك زناته أمل في الاستيلاء على الأندلس فصار أولئك الأعيان عصبة ابن الأحمر على الامتناع منه إلى أن تأمل^(١) أمره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقابها لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصاية فليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصاية إلا أنها قليلة وعلى قدر الحاجة فإن قطر الأندلس لقلية العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصية في التغلب عليهم والله غني عن العالمين .

الفصل العاشر

في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصية والعصية متألفة من عضبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تضيرها جميعا في ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسره أن العصية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون والمزاج إنما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا بل لا بد من أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعهما وتؤلّفهما وتضيرها عصية واحدة شاملة لجميع العصائب وهي موجودة في ضمنها

(١) ترسخ وتأصل .

وَتِلْكَ الْعَصِيَّةُ الْكُبْرَى إِنَّمَا تَكُونُ لِقَوْمِ أَهْلِ بَيْتِ وَرِثَانَةِ فِيهِمْ ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَئِيساً لَهُمْ غَالِباً عَلَيْهِمْ فَيَتَعَيَّنُ رَئِيساً لِلْعَصِيَّاتِ كُلِّهَا لِقَلْبٍ مِنْتِيهِ لَجَمِيعِهَا وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ فَمِنْ الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ خُلُقُ الْكِبَرِ وَالْأَنَفَةِ فَيَأْتِفُ حِينَئِذٍ مِنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي اسْتِثْبَاعِهِمْ وَالتَّحْكُمِ فِيهِمْ وَيَجِيءُ خُلُقُ التَّأَلُّهِ الَّذِي فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ مِنْ انْفِرَادِ الْحَاكِمِ لِفَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلَافِ الْحُكَامِ « لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » ^(١) فَتُجَدِّعُ حِينَئِذٍ أَنْوُفَ الْعَصِيَّاتِ وَتَقْلُحُ شَكَايَهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي التَّحْكُمِ وَتَقْرَعُ عَصِيَّتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَتْرَكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَا نَاقَةَ وَلَا جَمَلاً فَيَنْفَرِدُ بِذَلِكَ الْمَجْدُ بِكُلِّيَّتِهِ وَيُدْفَعُ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّالِثِ عَلَى قَدَرِ مُمَانَةِ الْعَصِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا إِلَّا أَنَّهُ أَمَرَ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدَّوَلِ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الحادي عشر

في ان من طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُرَ رِيَاشُهَا وَنَعَمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوَزُونَ ضُرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِينَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَتَصِيرُ لَتِلْكَ النَوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٍ فِي تَحْصِيلِهَا وَيَنْزِعُونَ مَعَ ذَلِكَ إِلَى رِقَّةِ الْأَحْوَالِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْفُرُشِ وَالْأَنْيَةِ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي ذَلِكَ وَيَتَفَاخَرُونَ فِيهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فِي أَكْلِ الطَّيِّبِ وَنَسِ الْأَنْبِقِ وَرُكُوبِ الْفَارَةِ ^(٢) وَيُنَاقِضُ خَلْفَهُمْ فِي ذَلِكَ سَلَفَهُمْ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَعَلَى قَدَرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرْفَهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

(٢) الفارة في الفرس والبرذون والحمار ، الجيد السير .

الْغَايَةِ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ
وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الثاني عشر

في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا يَخْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ إِلَّا بِالْمُطَابَآتِ وَالْمُطَابَآتُ غَايَتُهَا الْعُلْبُ
وَالْمُلْكُ وَإِذَا حَصَلَتِ الْغَايَةُ انْقَضَى السُّعْيُ إِلَيْهَا (قال الشاعر)

عَجِبْتُ لِسُعْيِ الدَّهْرِ يَنْبِي وَيَنْهَى فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

فَإِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنِ الْمَتَاعِ الَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فِي طَلَبِهِ وَآثَرُوا
الرَّاحَةَ وَالسُّكُونَ وَالِدَّعَةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْمَبَانِي وَالْمَسَاكِينِ
وَالْمَلَابِسِ فَيَبْنُونَ الْقُصُورَ وَيَخْرُونَ الْمِيَاهَ وَيَغْرِسُونَ الرِّيَاضَ وَيَسْتَمْتِعُونَ بِأَحْوَالِ
الدُّنْيَا وَيُؤْثِرُونَ الرَّاحَةَ عَلَى الْمَتَاعِ وَيَتَأَنَّقُونَ فِي أَحْوَالِ الْمَلَابِسِ وَالْمَطَاعِمِ
وَالْأَنْبِيَةِ وَالْفُرُشِ مَا اسْتَطَاعُوا وَيَأْلَفُونَ ذَلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْيَالِهِمْ وَلَا
يَزَالُ ذَلِكَ يَتَزَايَدُ فِيهِمْ إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ وَاللَّهُ تَعَالَى
أَعْلَمُ .

الفصل الثالث عشر

في أنه إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف
والدعة

اقبلت الدولة على الهرم

وَبَيَانُهُ مِنْ وَجْهِهِ . الْأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِي الْإِنْفِرَادَ بِالْمَجْدِ كَمَا قُلْنَا وَمِنْهَا كَانَ
الْمَجْدُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْعَصَايَةِ وَكَانَ سَعْيُهُمْ لَهُ وَاحِدًا كَانَتْ هِمَمُهُمْ فِي التَّغْلِبِ عَلَى

الغِيرِ وَالذَّبَّ عَنِ الْخُزَةِ^(١) أَسْوَةٌ فِي طُمُوحِهَا وَقُوَّةُ شَكَايِمِهَا وَمَرَمَاهُمْ إِلَى الْعِزِّ جَمِيعاً
يَسْتَطِيعُونَ الْمَوْتَ فِي بِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَيُؤْثِرُونَ الْهَلَكَةَ عَلَى فَسَادِهِ وَإِذَا انْفَرَدَ الْوَاحِدُ
مِنْهُمْ بِالْمَجْدِ قَرَعَ عَصِيَّتَهُمْ وَكَبَحَ مِنْ أَعْنِيَتِهِمْ وَاسْتَأْثَرَ بِالْأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنْ
الْفَزْوِ وَقَسَلُ رُبُحُهُمْ وَرَبُّمُوا^(٢) الْمَذَلَّةَ وَالِاسْتِعْبَادَ ثُمَّ رُبِّيَ الْحِيلُ الثَّانِي مِنْهُمْ عَلَى
ذَلِكَ يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ مِنَ الْعَطَاءِ أَجْراً مِنَ السُّلْطَانِ لَهُمْ عَنِ الْحِمَايَةِ وَالْمَعُونَةِ
لَا يَجْرِي فِي عُقُولِهِمْ سِوَاهُ وَقُلْ أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَى الْمَوْتِ فَيَصِيرَ ذَلِكَ وَهناً
فِي الدَّوْلَةِ وَخُضداً مِنَ الشُّوْكَةِ وَتَقْبُلَ بِهِ عَلَى مَنَاجِي الضَّعْفِ وَالْهَرَمِ لِفَسَادِ الْعَصِيَّةِ
يَذْهَابِ النَّاسُ مِنْ أَهْلِهَا . وَالْوَجْهَ الثَّانِي أَنَّ طَبِيعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِي التَّرَفَ كَمَا
قَدَّمَاهُ فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيدُ نَفَقَاتُهُمْ عَلَى أُعْطِيَاتِهِمْ وَلَا يَفِي دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ
فَالْفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ وَالتَّرَفُ يَسْتَفْرِقُ عَطَاءَهُ بِتَرْفِهِ ثُمَّ يَزْدَادُ ذَلِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ
الْمُتَأَخِّرَةِ إِلَى أَنْ يَقْصُرَ الْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَتَمْسَهُمُ الْحَاجَةُ وَتَطَالِبُهُمْ
مُلُوكُهُمْ بِخَضِرِ نَفَقَاتِهِمْ فِي الْفَزْوِ وَالْخُرُوبِ فَلَا يَجِدُونَ وَلِيجَةً^(٣) عَنْهَا فَيُوقِعُونَ بِهِمُ
الْعُقُوبَاتِ وَيَنْتَزِعُونَ مَا فِي أَيْدِي الْكَثِيرِ مِنْهُمْ يَسْتَأْثِرُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْثِرُونَ بِهِ
أَبْنَاءَهُمْ وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ فَيَضَعِفُونَهُمْ لِذَلِكَ عَنْ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ وَيَضَعُفُ صَاحِبُ
الدَّوْلَةِ بِضَعْفِهِمْ وَأَيْضاً إِذَا كَثُرَ التَّرَفُ فِي الدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ مُقْصِراً عَنْ حَاجَاتِهِمْ
وَنَفَقَاتِهِمْ اخْتِاجَ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ الَّذِي هُوَ السُّلْطَانُ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي أُعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى
يَسُدَّ خَلْلَهُمْ^(٤) وَيُزِيحَ عِلْلَهُمْ وَالْجَبَايَةُ مِقْدَارُهَا مَعْلُومٌ وَلَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ وَإِنْ
زَادَتْ بِمَا يُسْتَحْدَثُ مِنَ الْمَكُوسِ فَيَصِيرُ مِقْدَارُهَا بَعْدَ الزِّيَادَةِ مَحْدُوداً فَإِذَا وَزَعَتْ
الْجَبَايَةُ عَلَى الْأَعْطِيَاتِ وَقَدْ حَدَّثَتْ فِيهَا الزِّيَادَةَ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَّثَتْ مِنْ تَرْفِهِمْ
وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ نَقَصَ عَدَدُ الْحَامِيَةِ حِينَئِذٍ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ الْأَعْطِيَاتِ ثُمَّ يَعْظُمُ

(١) الدفاع عن الناحية .

(٢) أحبوا وألفوا .

(٣) الوليجة ، البطانة والخاصة ومن يتخذها الانسان معتمداً عليه من غير أهله (قاموس) .

(٤) الخلل ، الوهن في الأمر والرقعة في الناس (قاموس) ولعل الكلمة محرفة من كلمة الخلّة وهي

التَّزَفُ وَتَكْثُرُ مَقَادِيرُ الْأَعْطِيَّاتِ لِذَلِكَ فَيَنْقُصُ عَدَدُ الْحَامِيَةِ وَثَالِثًا وَرَابِعًا إِلَى أَنْ يَعُودَ الْعَسْكَرُ إِلَى أَقْلِ الْأَعْدَادِ فَتَضَعُفُ الْحِمَايَةُ لِذَلِكَ وَتَسْقُطُ قُوَّةُ الدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا مَنْ يُجَاوِزُهَا مِنَ الدُّوَلِ أَوْ مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَيَأْذُنُ اللَّهُ فِيهَا بِالْفَنَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلْقِيَّتِهِ وَأَيْضًا فَالتَّزَفُ مُفْسِدٌ لِلخَلْقِ بِمَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنَ الْوَانِ الشَّرِّ وَالسُّفْسَفَةِ ^(١) وَعَوَائِدُهَا كَمَا يَأْتِي فِي فَضْلِ الْحَضَارَةِ فَتَذْهَبُ مِنْهُمْ خِلَالُ الْخَيْرِ الَّتِي كَانَتْ عَلَامَةً عَلَى الْمُلْكِ وَقَلِيلًا عَلَيْهِ وَيَتَصِفُونَ بِمَا يَنَاقِضُهَا مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ فَيَكُونُ عَلَامَةً عَلَى الْإِذْوَارِ وَالْإِنْفِرَاضِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فِي خَلْقِيَّتِهِ وَتَأْخُذُ الدَّوْلَةُ مَبَادِيءَ الْعَطَبِ وَتَتَضَعُّعُ أَحْوَالُهَا وَتَنْزِلُ بِهَا أَمْرَاضٌ مُزْمِنَةٌ مِنَ الْهَرَمِ إِلَى أَنْ يَقْضَى عَلَيْهَا. الْوَجْهُ الثَّالِثُ أَنَّ طَبِيعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِي الدَّعَةَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِذَا اتَّخَذُوا الدَّعَةَ وَالرَّاحَةَ مَالَفًا وَخَلَقُوا صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ طَبِيعَةً وَجِبَلَةً شَانَ الْعَوَائِدِ كُلِّهَا وَإِلَافِهَا فَتَرْبِي أَجْيَالُهُمُ الْخَادِثَةَ فِي غَضَارَةِ الْعَمِيشِ وَمِهَادِ التَّزَفِ وَالدَّعَةِ وَيَنْقَلِبُ خُلُقُ التَّوَحُّشِ وَيَنْسَوْنَ عَوَائِدَ الْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَ بِهَا الْمُلْكَ مِنْ شِدَّةِ الْبَاسِ وَتَعُودُ الْإِفْتِرَاسَ وَرُكُوبَ الْبَيْدَاءِ وَهَذَايَةِ الْقَفْرِ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السُّوقَةِ مِنَ الْخَضَرِ إِلَّا فِي الثَّقَافَةِ وَالشَّارَةِ فَتَضَعُفُ حِمَايَتُهُمْ وَيَذْهَبُ بِأَسْمِهِمْ وَتَنْخَضُ شَوْكَتُهُمْ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا تَلْبَسُ مِنْ ثِيَابِ الْهَرَمِ ثُمَّ لَا يَزَالُونَ يَتَلَوَّنُونَ بِعَوَائِدِ التَّزَفِ وَالْحَضَارَةِ وَالسُّكُونِ وَالدَّعَةِ وَرَقَّةِ الْخَاشِيَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَيَنْغَمِشُونَ فِيهَا وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَنْعُدُونَ عَنِ الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ وَيَنْسَلِخُونَ عَنْهَا شَيْئًا فَشَيْئًا وَيَنْسَوْنَ خُلُقَ الْبَسَالَةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ حَتَّى يَعُودُوا عِيَالًا عَلَى حَامِيَةٍ أُخْرَى إِنْ كَانَتْ لَهُمْ وَاعْتَبَرُوا ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ الَّتِي أَخْبَارَهَا فِي الصُّخْبِ لَدَيْكَ تَجِدُ مَا قَلَّتْهُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ صَحِيحًا مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ وَرُبَّمَا يَخْدُثُ فِي الدَّوْلَةِ إِذَا طَرَقَهَا هَذَا الْهَرَمُ بِالتَّزَفِ وَالرَّاحَةِ أَنْ يَتَخَيَّرَ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنْصَارًا وَشِيعَةً مِنْ غَيْرِ جَلَدَتِهِمْ مِمَّنْ تَعُودُ الْخُشُونَةُ فَيَتَّخِذُهُمْ جُنْدًا يَكُونُ أَصْبَرَ عَلَى الْحَرْبِ وَأَقْدَرَ عَلَى

(١) الرديء من كل شيء.

مُعَانَاةَ الشَّدَائِدِ مِنَ الْجُوعِ وَالشَّطْفِ وَيَكُونُ ذَلِكَ دَوَاءً لِلدُّوْلَةِ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي عَسَاءَ أَنْ يَطْرُقَهَا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهَا بِأَمْرِهِ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَإِنْ غَالِبَ جُنْدُهَا الْمَوَالِي مِنَ التُّرْكِ فَتَتَخَيَّرُ مَلُوكُهُمْ مِنْ أَوْلِيكَ الْمَمَالِيكِ الْمَجْلُوبِينَ إِلَيْهِمْ فُرْسَانًا وَجُنْدًا فَيَكُونُونَ أَجْرًا عَلَى الْحَرْبِ وَأَضْبَرَ عَلَى الشَّطْفِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَمَالِيكِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ وَزَبُوا فِي مَاءِ النِّعِيمِ وَالسُّلْطَانِ وَظَلَّهِ وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الْمَوْحِدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ فَإِنْ صَاحِبَهَا كَثِيرًا مَا يَتَّخِذُ أَجْنَادَهُ مِنْ زَنَائَةِ وَالْعَرَبِ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْهُمْ وَيَتْرَكُ أَهْلَ الدُّوْلَةِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلتَّرَفِ فَتَسْتَجِدُّ الدُّوْلَةُ بِذَلِكَ عُمْرًا آخَرَ سَالِمًا مِنَ الْهَرَمِ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

الفصل الرابع عشر

في أن الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص

إِغْلَمَ أَنَّ الْعُمَرَ الطَّبِيعِيَّ لِلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ الْأَطِبَّاءُ وَالْمَنْجَمُونَ مِائَةً وَعِشْرُونَ سَنَةً وَهِيَ سِنُو الْقَمَرِ الْكَبْرَى عِنْدَ الْمُنْجِمِينَ وَيَخْتَلِفُ الْعُمَرُ فِي كُلِّ جِيلٍ بِحَسَبِ الْقِرَآنَاتِ فَيَزِيدُ عَنْ هَذَا وَيَنْقُصُ مِنْهُ فَتَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ الْقِرَآنَاتِ مِائَةً ثَامَةً وَبَعْضُهُمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ أُدْلَةُ الْقِرَآنَاتِ عِنْدَ النَّاطِرِينَ فِيهَا وَأَعْمَارُ هَذِهِ الْمِلَّةِ مَا بَيْنَ السَّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَلَا يَزِيدُ عَلَى الْعُمَرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ إِلَّا فِي الصُّورِ النَّادِرَةِ وَعَلَى الْأَوْضَاعِ الْغَرِيبَةِ مِنَ الْفَلَكَ كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَلِيلٌ مِنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ . وَأَمَّا أَعْمَارُ الدُّوَلِ أَيْضًا وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْقِرَآنَاتِ إِلَّا أَنَّ الدُّوْلَةَ فِي الْغَالِبِ لَا تَعْمُو أَعْمَارُ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ وَالْجِيلُ هُوَ عُمَرُ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ الْعُمَرِ الْوَسْطِ فَيَكُونُ أَرْبَعِينَ السَّنَةِ الَّذِي هُوَ انْتِهَاءُ النُّمُوِّ وَالنُّشُوءِ إِلَى غَايَتِهِ قَالَ تَعَالَى « حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » ^(١) وَلِهَذَا قُلْنَا إِنَّ عُمَرَ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ هُوَ عُمَرُ الْجِيلِ

(١) سورة الأحقاف الآية ١٥ .

وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي حِكْمَةِ التَّيِّهِ الَّذِي وَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّ الْمَقْصُودَ
بِالْأَرْبَعِينَ فِيهِ فَنَاءُ الْجِيلِ الْأَحْيَاءِ وَنَشَأُ جِيلٍ آخَرَ لَمْ يَغْفِدُوا الدَّلَّ وَلَا عَرَفُوهُ فَدَلَّ
عَلَى اعْتِبَارِ الْأَرْبَعِينَ فِي عُمُرِ الْجِيلِ الَّذِي هُوَ عُمُرُ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ عُمُرَ
الدَّوْلَةِ لَا يَغْدُو فِي الْغَالِبِ ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ لِأَنَّ الْجِيلَ الْأَوَّلَ لَمْ يَزَلُوا عَلَى خُلُقِ الْبِدَاوَةِ
وَحُشُونَتِهَا وَتَوَحُّشِهَا مِنْ شَطَطِ الْعَيْشِ وَالْبَسَالَةِ وَالْإِفْتِرَاسِ وَالِاشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ فَلَا
تَزَالُ بِذَلِكَ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ مَحْفُوظَةً فِيهِمْ فَحَدُّهُمْ مَرْهَفٌ وَجَانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ وَالنَّاسُ
لَهُمْ مَغْلُوبُونَ وَالْجِيلُ الثَّانِي تَحَوَّلَ خَالَتُهُمْ بِالْمُلْكِ وَالتَّرَفِ مِنَ الْبِدَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ
وَمِنْ الشُّطَطِ إِلَى التَّرَفِ وَالْخُصْبِ وَمِنْ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ إِلَى انْفِرَادِ الْوَاحِدِ بِهِ
وَكَسَلِ الْبَاقِينَ عَنِ السَّعْيِ فِيهِ وَمِنْ عَزِّ الْإِسْطِبَالَةِ إِلَى ذُلِّ الْإِسْتِكَانَةِ فَتَنَكَّسَتْ سُورَةُ
الْعَصِيَّةِ بَعْضُ الشَّيْءِ وَتَوَسَّسَ مِنْهُمْ الْمَهَانَةُ وَالْخُضُوعُ وَبَقِيَ لَهُمُ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ
بِمَا أَدْرَكُوا الْجِيلَ الْأَوَّلَ وَبَاشَرُوا أَحْوَالَهُمْ وَشَاهَدُوا اغْتِرَازَهُمْ وَسَفِيهِمْ إِلَى الْمَجْدِ
وَمَرَامِيهِمْ فِي الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَلَا يَسْعُهُمْ تَرْكُ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ وَإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ
مَا ذَهَبَ وَيَكُونُونَ عَلَى رَجَاءٍ مِنْ مُرَاجَعَةِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَتْ لِلْجِيلِ الْأَوَّلِ أَوْ عَلَى
ظَنٍّ مِنْ وُجُودِهَا فِيهِمْ وَأَمَّا الْجِيلُ الثَّالِثُ فَيَنْسُونُ عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَالْحُشُونَةِ كَأَن لَمْ
تَكُنْ وَيَفْقِدُونَ خِلَاوَةَ الْعِزِّ وَالْعَصِيَّةِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَكَةِ الْقَهْرِ وَيَبْلُغُ فِيهِمُ التَّرَفُ
غَايَتَهُ بِمَا تَبْنَقُوهُ^(١) مِنَ النِّعَمِ وَغَضَارَةِ الْعَيْشِ فَيَصِيرُونَ عِيَالًا عَلَى الدَّوْلَةِ وَمِنْ
جُمْلَةِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الْمُحْتَاجِينَ لِلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَتَسْقُطُ الْعَصِيَّةُ بِالْجُمْلَةِ وَيَنْسُونَ
الْحِمَايَةَ وَالْمُدَافَعَةَ وَالْمُطَالَبَةَ وَيَلْبَسُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الشَّارَةِ وَالزِّيِّ وَرُكُوبِ الْخَيْلِ
وَحُسْنِ الثَّقَافَةِ يُمَوِّهُونَ بِهَا وَهُمْ فِي الْأَكْثَرِ أَجْبَنُ مِنَ النِّسْوَانِ عَلَى ظُهُورِهَا فَإِذَا جَاءَ
الْمُطَالِبُ لَهُمْ لَمْ يَقَاوِمُوا مُدَافَعَتَهُ فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ
بِسِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ النُّجْدَةِ وَيَسْتَكْثِرُ بِالْمَوَالِي وَيَضْطَنِعُ مَنْ يَغْنِي عَنِ الدَّوْلَةِ بَعْضُ
الْغِنَاءِ حَتَّى يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا فَتَذْهَبُ الدَّوْلَةُ بِمَا حَمَلَتْ فَهَذِهِ كَمَا تَرَاهُ ثَلَاثَةُ
أَجْيَالٍ فِيهَا يَكُونُ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَتَخْلُفُهَا وَلِهَذَا كَانَ انْقِرَاضُ الْحَسَبِ فِي الْجِيلِ الرَّابِعِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ تَبْنَقُوهُ ، أَيِ تَتَمَمُّوهُ بِهِ (قَامُوسٌ) وَتَبْنَقُوهُ ، تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ .

كَمَا مَرَّ فِي أَنَّ الْمَجْدَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ وَقَدْ أَتَيْنَاكَ فِيهِ بِبُرْهَانٍ طَبِيعِيٍّ
كَافٍ ظَاهِرٍ مَبْنِيٍّ عَلَى مَا مَهْدَنَاهُ قَبْلَ مِنَ الْمَقْدَمَاتِ فَتَأَمَّلْهُ فَلَنْ تَعْدُو وَجْهَ الْحَقِّ إِنْ
كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْإِنْصَافِ وَهَذِهِ الْأَجْيَالُ الثَّلَاثَةُ عُمُرُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً عَلَى مَا مَرَّ
وَلَا تَعْدُو الدُّوْلُ فِي الْغَالِبِ هَذَا الْعُمُرَ بِتَقْرِيْبٍ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ إِلَّا إِنْ عَرَضَ لَهَا عَارِضٌ
آخَرٌ مِنْ فَقْدَانِ الْمَطَالِبِ فَيَكُونُ الْهَرَمُ حَاصِلًا مُسْتَوِلِيًّا وَالطَّالِبُ لَمْ يَخْضُرْهَا وَلَوْ قَدْ
جَاءَ الطَّالِبُ لَمَّا وَجَدَ مُدَافِعًا « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ » فَهَذَا الْعُمُرُ لِلدُّوْلَةِ بِمَتَايَةِ عُمُرِ الشَّخْصِ مِنَ التَّزْيِيدِ إِلَى سِنِّ الْوُقُوفِ ثُمَّ
إِلَى سِنِّ الرُّجُوعِ وَلِهَذَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّ عُمُرَ الدُّوْلَةِ مِائَةٌ سَنَةً
وَهَذَا مَعْنَاهُ فَاعْتَبِرْهُ وَاتَّخِذْ مِنْهُ قَانُونًا يُصَحِّحُ لَكَ عَدَدَ الْأَبَاءِ فِي عُمُودِ النَّسَبِ الَّذِي
تُرِيدُهُ مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ السِّنِّينَ الْمَاضِيَةِ إِذَا كُنْتَ قَدْ اسْتَرَبَّتْ فِي عَدَدِهِمْ وَكَانَتْ
السَّنُونَ الْمَاضِيَةَ مِنْذُ أَوَّلِهِمْ مُحْصَلَةً لَدَيْكَ فَقَدْ لِكُلِّ مِائَةٍ مِنَ السِّنِّينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَبَاءِ
فَإِنْ نَفَدَتْ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ مَعَ نَفُودِ^(١) عَدَدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ بِجِيلٍ
فَقَدْ غُلِطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةٍ وَاحِدَةٍ فِي عُمُودِ النَّسَبِ وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ
وَكَذَلِكَ تَأْخُذُ عَدَدَ السِّنِّينَ مِنْ عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحْصَلًا لَدَيْكَ فَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ فِي الْغَالِبِ
صَحِيحًا « وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » .

الفصل الخامس، عشر

في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة

إِعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوْلِ فَإِنَّ الْغَلَبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْمُلْكُ إِنَّمَا هُوَ
بِالْعَصَبِيَّةِ وَبِمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ شِدَّةِ النَّاسِ وَتَعَوُّدِ الْإِفْتِرَاسِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَالِبًا إِلَّا مَعَ
الْبِدَاوَةِ فَطَوْرُ الدُّوْلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بِدَاوَةٌ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ تَبِعَهُ الرِّفَّةُ وَاتَّسَاعُ الْأَحْوَالِ

(١) الأصح أن يقول نفاذ عددهم .

وَالْحَضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَفَنُّنٌ فِي التَّرَفِ وَإِحْكَامِ الصَّنَائِعِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وُجُوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ مِنْ الْمَطَابِخِ وَالْمَلَابِيسِ وَالْمَبَانِي وَالْفُرُشِ وَالْأَبْنِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعٌ فِي اسْتِجَادَتِهِ وَالتَّائِقُ فِيهِ تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَتَكَثَّرُ بِاخْتِلَافِ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَادِّ وَالتَّنْعُمِ بِأَحْوَالِ التَّرَفِ وَمَا تَتَلَوُّنُ بِهِ مِنَ الْعَوَائِدِ فَصَارَ طَوْرُ الْحَضَارَةِ فِي الْمُلْكِ يَتَّبِعُ طَوْرَ الْبِدَاوَةِ ضَرُورَةً لِمُتَعَبِّهِ الرِّفَةِ لِلْمُلْكِ وَأَهْلُ الدُّوَلِ أَبَدًا يُقْلَدُونَ فِي طَوْرِ الْحَضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا لِلدُّوَلَةِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ . فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِدُونَ ، وَمِنْهُمْ فِي الْغَالِبِ يَأْخُذُونَ ، وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ وَمَلَكُوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَاسْتَخَذُوا بَنَاتِهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا لِذَلِكَ الْقَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَضَارَةِ فَقَدْ حُكِيَ أَنَّهُ قَدْ مَ لَهُمُ الْمَرْقُوقُ ^(١) فَكَانُوا يَحْسِبُونَهُ رِقَاعًا وَعَثَرُوا عَلَى الْكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى فَاسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجِينِهِمْ مِلْحًا وَمِثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ فَلَمَّا اسْتَعْبَدُوا أَهْلَ الدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَاسْتَعْمَلُوهُمْ فِي مِهْنِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِمْ وَاخْتَارُوا مِنْهُمْ الْمَهْرَةَ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ وَالْقَوْمَةَ عَلَيْهِمْ أَفَادُوهُمْ عِلَاجَ ذَلِكَ وَالْقِيَامَ عَلَى عَمَلِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ اتِّسَاعِ الْعَيْشِ وَالتَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِهِ فَبَلَغُوا الْغَايَةَ فِي ذَلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطَوْرِ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ فِي الْأَحْوَالِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَابِخِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِيسِ وَالْمَبَانِي وَالْأَسْلِحَةِ وَالْفُرُشِ وَالْأَبْنِيَةِ وَسَائِرِ الْمَاعُونِ وَالْخُرَتِيِّ ^(٢) وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ الْمُبَاهَاةِ وَالْوَلَائِمِ وَلِيَالِي الْأَعْرَاسِ فَاتُّوا مِنْ ذَلِكَ وَرَاءَ الْغَايَةِ وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ وَالطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُمَا فِي أَعْرَاسِ الْمَأْمُونِ بِبُورَانَ بِنْتِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَمَا بَدَّلَ أَبُوهَا لِحَاشِيَةِ الْمَأْمُونِ حِينَ وَافَاهُ فِي خِطْبَتِهَا إِلَى دَارِهِ بِفَمِ الصُّلْحِ وَرَكِبَ إِلَيْهَا فِي السَّفِينِ وَمَا أَنْفَقَ فِي أَمْلَاقِهَا ^(٣) وَمَا نَحَلَهَا الْمَأْمُونُ وَأَنْفَقَ فِي عَرَسِهَا تَقِفُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْعَجَبِ فَمِنْهُ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ نَشَرَ يَوْمَ الْأَمْلَاقِ فِي الصَّنِيعِ الَّذِي حَضَرَهُ حَاشِيَةُ الْمَأْمُونِ فَنَشَرَ عَلَى

(١) الخبز المرقوق .

(٢) اردأ للتاع .

(٣) املاكها ، زواجها .

الطَبَقَةُ الْأُولَى مِنْهُمْ بَنَادِقُ الْمِسْكِ مَلْثُوثةٌ عَلَى الرَّقَاعِ بِالصِّيَاحِ وَالْعَقَارِ مُسَوَّغَةٌ لِمَنْ
 حَصَلَتْ فِي يَدِهِ يَقَعُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا أَذَاهُ إِلَيْهِ الْإِتْفَاقُ وَالْبَحْثُ وَفُرِّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ
 الثَّانِيَةِ بَدْرٌ^(١) الدُّنَانِيرُ فِي كُلِّ بُدْرَةٍ عَشْرَةُ آلَافٍ وَفُرِّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ بَدْرُ
 الدَّرَاهِمِ كَذَلِكَ يَغْدُ أَنْ أَتَفَقَ عَلَى مَقَامَةِ الْمَأْمُونِ بِدَارِهِ أَضَاعَفَ ذَلِكَ وَمِنْهُ أَنْ
 الْمَأْمُونُ أَعْطَاهَا فِي مَهْرِهَا لَيْلَةً زَفَافَهَا أَلْفَ خَصَاةٍ مِنَ الْيَاقُوتِ وَأَوْقَدَ شَمُوعَ الْعَنْبَرِ فِي
 كُلِّ وَاحِدَةٍ مِائَةً مِنْ وَهُوَ رَطْلٌ وَثَلَاثَانِ^(٢) وَبَسَطَ لَهَا فَرْشًا كَانَ الْخَصِيرُ مِنْهَا
 مَنَسُوجًا بِالذَّهَبِ مَكْلَلًا بِالذُّرِّ وَالْيَاقُوتِ وَقَالَ الْمَأْمُونُ حِينَ رَأَاهُ قَاتِلُ اللَّهِ أَبَا نُوَّاسٍ
 كَأَنَّهُ أَبْصَرَ هَذَا حَيْثُ يَقُولُ فِي صِفَةِ الْخُمَرِ :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا خَضَاءٌ دُرٌّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ
 وَأَعْدُ بِدَارِ الطَّبَخِ مِنَ الْخَطْبِ لِلَّيْلَةِ الْوَلِيمَةِ نَقْلَ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ بَغْلًا مَدَّةَ غَامٍ
 كَامِلٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَفَنِي الْخَطْبُ لِللَّيْلَتَيْنِ وَأَوْقَدُوا الْجَرِيدَ يَصُبُّونَ عَلَيْهِ
 الزَّيْتَ وَأَوْعَزَ إِلَى النَّوَاتِيَةِ بِإِخْضَارِ السُّفْنِ لِإِجَازَةِ الْخَوَاصِّ مِنَ النَّاسِ بِدِجْلَةٍ مِنْ
 بَغْدَادَ إِلَى قُصُورِ الْمَلِكِ بِمَدِينَةِ الْمَأْمُونِ لِحُضُورِ الْوَلِيمَةِ فَكَانَتِ الْحَرَاقَاتُ^(٣)
 الْمُعَدَّةُ لِذَلِكَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا أَجَازُوا النَّاسَ فِيهَا أُخْرِيَاتِ نَهَارِهِمْ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ
 وَكَذَلِكَ عَزَسَ الْمَأْمُونُ بْنُ ذِي النُّونِ بِطُلَيْطَلَةَ نَقْلَهُ ابْنُ سَامٍ فِي كِتَابِ الذَّخِيرَةِ
 وَابْنُ حَيَّانٍ يَغْدُ أَنْ كَانُوا كُلُّهُمْ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبِدَاوَةِ عَاجِزِينَ عَنْ ذَلِكَ جُمْلَةً
 لِفَقْدَانِ أَسْبَابِهِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى صَنَائِعِهِ فِي غَضَاضَتِهِمْ^(٤) وَسَدَّاجَتِهِمْ يُذَكِّرُ أَنَّ الْحَجَّاجَ
 أَوَّلَمَ فِي اخْتِتَانِ بَعْضٍ وَلَيْدِهِ فَاسْتَخْصَرَ بَعْضَ الدَّهَاقِينِ^(٥) يَسْأَلُهُ عَنْ وَلَائِمِ الْفُرْسِ
 وَقَالَ أَخْبَرَنِي بِأَعْظَمِ صَنِيعٍ شَهِدْتُهُ فَقَالَ لَهُ نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ شَهِدْتُ بَعْضَ مَرَازِيَةِ
 كَسْرَى وَقَدْ صَنَعَ لِأَهْلِ فَارَسٍ صَنِيعًا أَخْضَرَ فِيهِ صِحَافُ الذَّهَبِ عَلَى أُخُوْنَةِ الْفِضَّةِ

(١) بدر، ج بدرة وهي عشرة آلاف درهم.

(٢) قوله وثلثان الذي كتب في اللغة أن الرطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية ثلثان.

(٣) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو هـ مختار.

(٤) نضارتهم.

(٥) اسم فارسي يطلق على رئيس القرية وأصحاب العقارات الكبيرة.

أَرْبَعًا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَتَحْمِلُهُ أَرْبَعُ وَصَائِفَ وَيَجْلِسُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ مِنَ النَّاسِ فَإِذَا طَعِمُوا أَتَبِعُوا أَرْبَعَتَهُمُ الْمَائِدَةَ بِصِحَافِهَا وَوُصَفَاتِهَا فَقَالَ الْحَجَّاجُ : « يَا غَلَامُ انْخِرِ الْجُزْرَ وَأَطْعِمِ النَّاسَ » ^(١) وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ بِهَذِهِ الْأَبْنَةِ وَكَذَلِكَ كَانَتْ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أُعْطِيَتْ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَوَائِزُهُمْ فَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُهَا الْإِبِلَ أَخْذًا بِمَذَاهِبِ الْقَرْبِ وَبِدَاوَتِهِمْ ثُمَّ كَانَتْ الْجَوَائِزُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبِيدِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا عَلِمَتْ مِنْ أَحْصَالِ الْمَالِ وَتُخَوِّتِ الثِّيَابِ وَإِعْدَادِ الْخَيْلِ بِمَرَكَبِهَا وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ كِتَامَةِ مَعَ الْأَغَالِبَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَكَذَا بَنِي طُفُجٍ بِمِصْرَ وَشَأْنُ لِمْتُونَةَ مَعَ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمُوَحِّدِينَ كَذَلِكَ وَشَأْنُ زَنَاتَةَ مَعَ الْمُوَحِّدِينَ وَهَلُمُ جَرَأُ تَنْتَقِلُ الْحَضَارَةُ مِنَ الدَّوَلِ السَّالِفَةِ إِلَى الدَّوَلِ الْخَالِفَةِ فَانْتَقَلَتْ حَضَارَةُ الْفَرَسِ لِلْقَرْبِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ وَانْتَقَلَتْ حَضَارَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى مُلُوكِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَزَنَاتَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَانْتَقَلَتْ حَضَارَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الدَّيْلَمِ ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ ثُمَّ إِلَى السُّلْجُوقِيَّةِ ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ الْمَمَالِيكِ بِمِصْرَ وَالتُّرْكِ بِالْعِرَاقَيْنِ وَعَلَى قَدَرِ عَظَمِ الدَّوَلَةِ يَكُونُ شَأْنُهَا فِي الْحَضَارَةِ إِذَا أُمُورُ الْحَضَارَةِ مِنْ تَوَائِعِ التَّرَفِ وَالتَّزْوِجِ مِنْ تَوَائِعِ الثَّرْوَةِ وَالنَّعْمَةِ وَالثَّرْوَةِ وَالنَّعْمَةِ مِنْ تَوَائِعِ الْمَلِكِ وَمِقْدَارِ مَا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ أَهْلُ الدَّوَلَةِ فَعَلَى نِسْبَةِ الْمَلِكِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ فَاعْتَبِرْهُ وَتَقَبَّضْهُ وَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ صَحِيحًا فِي الْقُمْرَانِ « وَاللَّهِ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ » .

الفصل السادس عشر

في أن الترف يزيد السولة في أولها قوة إلى قوتها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمُلْكُ وَالتَّرَفُ كَثُرَ التَّنَاسُلُ وَالْوُلْدُ وَالْعُمُومِيَّةُ فَكَثُرَتِ الْعِصَابَةُ وَاسْتَكْثَرُوا أَيْضًا مِنَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَزَيَّيْتُ أَجْيَالَهُمْ

(١) ان طبيعة الحجاج البدوية آبت التصنع والتكلف فأمر غلامه بذيبح الجزر واطعام الناس .

فِي جَوْ ذَلِكَ النُّعِيمِ وَالرُّفَةِ فَازْدَادُوا بِهِ عَدَدًا إِلَى عَدَدِهِمْ وَقُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمْ بِسَبَبِ كَثْرَةِ
 الْمَصَائِبِ حِينَئِذٍ يَكْثُرَةُ الْعَدَدِ فَإِذَا ذَهَبَ الْجِيلُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي وَأَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي
 الْهَرَمِ لَمْ تَسْتَقِلْ أُولَئِكَ الصَّنَائِعُ وَالْمَوَالِي بِأَنْفُسِهِمْ فِي تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ مُلْكِيهَا
 لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِنَّمَا كَانُوا عِيَالًا عَلَى أَهْلِهَا وَمَعُونَةً لَهَا فَإِذَا ذَهَبَ
 الْأَصْلُ لَمْ يَسْتَقِلْ الْفَرْعُ بِالرُّسُوحِ فَيَذْهَبُ وَيَتَلَاشَى وَلَا تَبْقَى الدَّوْلَةُ عَلَى خَالِهَا مِنْ
 الْقُوَّةِ . وَاعْتَبِرْ هَذَا بِمَا وَقَعَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ . كَانَ عَدَدُ الْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا
 لِعَهْدِ النَّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرٍّ وَقُحْطَانٍ وَلَمَّا بَلَغَ
 التَّرَفُ مَبَالِغَهُ فِي الدَّوْلَةِ وَتَوَفَّرَ نُمُوهُمْ بِتَوَفُّرِ النِّعْمَةِ وَاسْتَكْثَرَ الْخُلَفَاءُ مِنَ الْمَوَالِي
 وَالصَّنَائِعِ بَلَغَ ذَلِكَ الْعَدَدُ إِلَى أَضْعَافِهِ يُقَالُ إِنَّ الْمُعْتَصِمَ نَازَلَ عُمُورِيَّةً لَمَّا افْتَتَحَهَا فِي
 تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ وَلَا يَبْعُدُ مِثْلُ هَذَا الْعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا إِذَا اغْتَبَرْتَ حَامِيَّتَهُمْ فِي
 الشُّغُورِ الدَّائِنَةِ وَالْقَاصِيَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا إِلَى الْجُنْدِ الْحَامِلِينَ سَرِيرَ الْمُلْكِ وَالْمَوَالِي
 وَالْمُضْطَّيْعِينَ وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ أَحْصَى بَنُو الْعَبَّاسِ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ
 الْمَأْمُونِ لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا بَيْنَ ذِكْرَانٍ وَإِنَّا نَظَرُ مَبَالِغَ هَذَا الْعَدَدِ
 لِأَقَلِّ مِنْ مِائَتَيْ سَنَةٍ وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَ الرُّفَةِ وَالنُّعِيمِ الَّذِي حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرَبَّى فِيهِ
 أَجْيَالُهُمْ وَالْأَفْعَدُ الْعَرَبِ لِأَوَّلِ الْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ
 الْعَلِيمُ .

الفصل السابع عشر

فِي أَطْوَارِ الدَّوْلَةِ وَاخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا وَخَلْقِ أَهْلِهَا بِاخْتِلَافِ الْأَطْوَارِ
 اعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَتَنَقَّلُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَّحِدَةٍ وَيَكْتَسِبُ الْقَائِمُونَ
 بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أَحْوَالِ ذَلِكَ الطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلُهُ فِي الطَّوْرِ الْآخِرِ لِأَنَّ
 الْخُلُقَ تَابِعَ بِالطَّبِيعِ لِمِزَاجِ الْحَالِ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَحَالَاتِ الدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهَا لَا تَعْدُو فِي
 الْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ . الطَّوْرُ الْأَوَّلُ طَوْرُ الظُّفْرِ بِالْبَغْيَةِ وَغَلَبِ الْمَدَافِعِ وَالْمَمَانِعِ

وَالِاسْتِيْلَاءَ عَلَى الْمُلْكِ وَانْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي الدُّوْلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ أَسْوَأُ قَوْمِهِ فِي اكْتِسَابِ
 الْمَجْدِ وَجَبَايَةِ الْمَالِ وَالْمُدَافَعَةَ عَنِ الْحُوزَةِ وَالْحِمَايَةَ لَا يَنْفَرِدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ لِأَنَّ
 ذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْغَلَبُ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ تَعْدُ بِحَالِهَا . الطُّورُ
 الثَّانِي طُورُ الْإِسْتِزَادِ عَلَى قَوْمِهِ وَالْإِنْفِرَادِ دُونَهُمْ بِالْمُلْكِ وَكُنْهِجِهِمْ عَنِ التَّطَاوُلِ
 لِلْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدُّوْلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ مَعْنِيًا بِاضْطِنَاعِ الرِّجَالِ
 وَاتِّخَاذِ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ لِحِذْقِ أَتُوفِ أَهْلِ عَصِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ
 الْمَقَاسِمِينَ لَهُ فِي نِسْبَةِ الضَّارِبِينَ فِي الْمُلْكِ بِمِثْلِ سَهْمِهِ فَهُوَ يُدَافِعُهُمْ عَنِ الْأَمْرِ
 وَيَصُدُّهُمْ عَنْ مَوَارِدِهِ وَيَرُدُّهُمْ عَلَى أَغْقَابِهِمْ ، أَنْ يَخْلُصُوا إِلَيْهِ حَتَّى يَقْرَأَ الْأَمْرُ فِي
 نِصَابِهِ وَيُفْرِدَ أَهْلُ بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِي مِنْ مَجْدِهِ فَيُعَانِي مِنْ مُدَافَعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ مِثْلَ
 مَا عَانَاهُ الْأَوَّلُونَ فِي طَلَبِ الْأَمْرِ أَوْ أَشَدُّ لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ دَافَعُوا الْأَجَانِبَ فَكَانَ ظَهْرًا وَهُمْ
 عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَهَذَا يُدَافِعُ الْأَقَارِبَ لَا يُظَاهِرُهُ عَلَى
 مُدَافَعَتِهِمْ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ الْأَبَاعِدِ فَيَرْكَبُ صَغْبًا مِنَ الْأَمْرِ . الطُّورُ الثَّلَاثُ طُورُ
 الْفَرَاغِ وَالدَّعَاةِ لِتَخْضِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِمَّا تَنْزِعُ طِبَاغَ الْبُشْرِ إِلَيْهِ مِنْ تَخْضِيلِ الْمَالِ
 وَتَخْلِيدِ الْأَنْثَارِ وَبُعْدِ الصِّيْتِ فَيَسْتَفْرِغُ وَسْعَهُ فِي الْجَبَايَةِ وَضَبْطِ الدُّخْلِ وَالْخَرْجِ
 وَإِحْصَاءِ النِّفَقَاتِ وَالْقَصْدِ فِيهَا وَتَشْيِيدِ الْمَبَانِي الْخَافِلَةِ وَالْمَصَانِعِ الْعَظِيمَةِ وَالْأَمْصَارِ
 الْمُتَسَعِّةِ وَالْهَيَاكِلِ الْمُزْتَفِعَةِ وَإِجَارَةِ الْوُقُودِ مِنْ أَشْرَافِ الْأُمَمِ وَوُجُوهِ الْقَبَائِلِ وَبَثِّ
 الْمَعْرُوفِ فِي أَهْلِهِ هَذَا مَعَ التَّوَسُّعِ عَلَى صَنَائِعِهِ وَخَاشِيَّتِهِ فِي أَحْوَالِهِمْ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ
 وَاعْتِرَاضِ^(١) جُنُودِهِ وَإِذْرَارِ أَرْزَاقِهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ فِي أُعْطِيَاتِهِمْ لِكُلِّ هَلَالٍ حَتَّى يَظْهَرَ
 أَثَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشِكْمَتِهِمْ^(٢) وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ فَيُبَاهِي بِهِمُ الدُّوْلَ
 الْمُسَالِمَةَ وَيَزْهَبُ الدُّوْلُ الْمُحَارِبَةَ وَهَذَا الطُّورُ آخِرُ أَطْوَارِ الْإِسْتِزَادِ مِنْ أَصْحَابِ
 الدُّوْلَةِ لِأَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كُلِّهَا مُسْتَقِلُّونَ بِأَرَائِهِمْ بَانُونَ لِعِزِّهِمْ مُوَضِّحُونَ الطَّرِيقَ
 لِمَنْ يَتَّبَعُهُمْ . الطُّورُ الرَّابِعُ طُورُ الْقَنُوعِ وَالْمُسَالَمَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدُّوْلَةِ فِي هَذَا

(١) بمعنى استعراض جنده .

(٢) سلاحهم .

قَانِمًا بِمَا بَنَى أَوْلُوهُ سِلْمًا لَأَنْظَارِهِ مِنَ الْمُلُوكِ وَأَقْتَالِهِ مُقْلَدًا لِلْمَاضِينَ مِنْ سَلَفِهِ
فَيَتَّبِعُ آثَارَهُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَيَقْتَفِي طَرَفَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاهِجِ الْإِقْتِدَاءِ وَيَرَى أَنَّ
فِي الْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فَسَادَ أَمْرِهِ وَأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا بِمَا بَنَوْا مِنْ مَجِيدِهِ . الطُّورُ
الْعَامِسُ طُورُ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ مُتْلِفًا لِمَا
جَمَعَ أَوْلُوهُ فِي سَبِيلِ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَذِّ وَالْكَرَمِ عَلَى بَطَانَتِهِ وَفِي مَجَالِسِهِ وَاضْطِنَاعِ
أَخْدَانِ السُّوءِ . وَخَضِرَاءُ الدَّمَى ^(١) وَتَقْلِيدُهُمْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَسْتَقِلُّونَ
بِحَمْلِهَا وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مِنْهَا مُسْتَفْسِدًا لِكِبَارِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ
وَصَنَائِعِ سَلَفِهِ حَتَّى يَضْطَرُّوا عَلَيْهِ وَيَتَخَذَلُوا عَنْ نَصْرَتِهِ مُضْيعًا مِنْ جُنْدِهِ بِمَا أَنْفَقَ
مِنْ أُعْطِيَاتِهِمْ فِي شَهَوَاتِهِ وَحَجَبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مَبَاشَرَتِهِ وَتَفَقَّدَهُ فَيَكُونُ مُخْرَبًا لِمَا كَانَ
سَلَفُهُ يُؤَسِّسُونَ وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ وَفِي هَذَا الطُّورِ تَخْصُلُ فِي الدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ
الْهَرَمِ وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمَزْمِنُ الَّذِي لَا تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ وَلَا يَكُونُ لَهَا مَعَهُ
بُرْءٌ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ كَمَا نَبِيئُهُ فِي الْأَحْوَالِ الَّتِي نَسَرَدَهَا وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الثامن. عشر

في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَثَارَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عَنِ الْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوَّلًا وَعَلَى
قَدَرِهَا يَكُونُ الْأَثَرُ فَمِنْ ذَلِكَ مَبَانِي الدَّوْلَةِ وَهِيَ كُلُّهَا الْعَظِيمَةُ فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ
قُوَّةِ الدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا لِأَنَّهَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْفَعْلَةِ وَاجْتِمَاعِ الْأَيْدِي عَلَى الْعَمَلِ
بِالتَّعَاوُنِ فِيهِ فَإِذَا كَانَتْ الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسِيحَةُ الْجَوَانِبِ كَثِيرَةٌ الْمَمَالِكِ وَالرُّعَايَا
كَانَ الْفَعْلَةُ كَثِيرِينَ جَدًّا وَحَشَرُوا مِنْ آفَاقِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا فَتَمَّ الْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ
هَيَاكِلِهِ لَا تَرَى إِلَى مَصَانِعِ قَوْمٍ عَادٍ وَثُمُودَ وَمَا قَصَصَ الْقُرْآنُ عَنْهُمَا .

(١) (بمعنى الجميل في مظهره . الوضع في مخبره وفي الحديث : « وإياكم وخضراء الدمن » قالوا ، وما
خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : « المرأة الحسنة في اللبث السوء ») .

وَانْظُرْ بِالمُشَاهَدَةِ إِيوَانَ كِسْرَى وَمَا اقْتَدَرَ فِيهِ الْفَرْسُ حَتَّى إِنَّهُ عَزَمَ الرُّشِيدُ عَلَى هَدمِهِ وَتَخْرِيبِهِ فَتَكَادَ^(١) عَنْهُ وَشَرَعَ فِيهِ ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْعَجْزُ وَقِصَّةُ اسْتِشَارَتِهِ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ فِي شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ فَانْظُرْ كَيْفَ تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءٍ لَا تَسْتَطِيعُ أُخْرَى عَلَى هَدمِهِ مَعَ بَوْنٍ مَا بَيْنَ الْهَدمِ وَالْبِنَاءِ فِي السُّهُولةِ . تَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ بَوْنَ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ وَانْظُرْ إِلَى بِلَاطِ الْوَلِيدِ بِدِمَشْقَ وَجَامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ بِقَرْطَبَةَ وَالْقَنْطَرَةَ الَّتِي عَلَى وَادِيهَا وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الْحَنَائَا لِجَلْبِ الْمَاءِ إِلَى قَرْطَابَجَنَّةٍ فِي الْقَنَاءِ الرَّائِكِيَةِ عَلَيْهَا وَآثَارُ شَرْشَالٍ بِالمَغْرِبِ وَالْأَهْرَامِ بِمِصْرَ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْآثَارِ الْمَائِلَةِ لِلْعِيَانِ يُعْلَمُ مِنْهُ اخْتِلَافُ الدَّوَلِ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ الْأَنْعَالَ لِلْأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِالْهِنْدَامِ^(٢) وَاجْتِمَاعِ الْفَعْلَةِ وَكَثْرَةِ الْأَيْدِي عَلَيْهَا فَبِذَلِكَ شِيدَتْ تِلْكَ الْهَيْكُلُ وَالْمَصَانِعُ وَلَا تَتَوَهَّمُ مَا تَتَوَهَّمُهُ الْعَامَّةُ أَنَّ ذَلِكَ لِعَظَمِ أَجْسَامِ الْأَقْدَمِينَ عَنْ أَجْسَامِنَا فِي أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا فَلَيْسَ بَيْنَ الْبَشَرِ فِي ذَلِكَ كَبِيرُ بَوْنٍ كَمَا نَجِدُ بَيْنَ الْهَيْكُلِ وَالْآثَارِ وَلَقَدْ وَلَعَ الْقُصَاصُ بِذَلِكَ وَتَعَالَوْا فِيهِ وَسَطَرُوا عَنْ غَايَةِ وَثُمُودِ الْعَمَالِقَةِ فِي ذَلِكَ أَخْبَارًا عَرِيقَةً فِي الْكُذِبِ مِنْ أَغْرِبِهَا مَا يَحْكُونُ عَنْ عَوْجِ بْنِ عِنَاقٍ^(٣) رَجُلٍ مِنَ الْعَمَالِقَةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الشَّامِ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لَطُولِهِ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ مِنَ الْبَحْرِ وَيَشْوِيهِ إِلَى الشَّمْسِ وَيَزِيدُونِ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِ الْبَشَرِ الْجَهْلِ بِأَحْوَالِ الْكَوَاكِبِ لِمَا اعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قَرُبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْحَرَّ هُوَ الضَّوُّ وَأَنَّ الضَّوَّ فِيمَا قَرُبَ مِنَ الْأَرْضِ أَكْثَرُ لِإِنْعِكَاسِ الْأَشِعَّةِ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ بِمُقَابَلَةِ الْأَضْوَاءِ فَتَتَضَاعَفُ الْحَرَارَةُ هُنَا لِأَجْلِ ذَلِكَ وَإِذَا تَجَاوَزَتْ مَطَارِحَ الْأَشِعَّةِ الْمُتَنَعِكِسَةِ

(١) تَكَادَ ، تَكَلفَهُ وَكَابَدَهُ . وَالْأَصَحُّ أَنْ يَقُولَ تَكَادَهُ .

(٢) الْهِنْدَامُ ، التَّنْظِيمُ وَالْإِصْلَاحُ .

(٣) قَوْلُهُ ابْنُ عِنَاقٍ الَّذِي فِي الْقَامُوسِ فِي بَابِ الْجِيمِ عَوْجُ بْنُ عَوْقٍ بِالْوَاوِ وَالْمَشْهُورُ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ عِنَقُ

بِالنُّونِ قَالَهُ نَصْرُ الْهَوَازِنِيِّ (وَهُوَ رَجُلٌ وَلِدَ فِي مَنْزِلِ آدَمَ . فَعَاشَ إِلَى زَمَنِ مُوسَى . وَذَكَرَ مِنْ عَظَمِ خَلْقِهِ مَا لَا يَصْدُقُهُ الْعَقْلُ) .

فَلَا حَرُّ هُنَالِكَ بَلْ يَكُونُ فِيهِ الْبَرْدُ حَيْثُ مَجَارِي السَّحَابِ وَأَنْ الشَّمْسُ فِي نَفْسِهَا لَا حَارَةٌ وَلَا بَارِدَةٌ وَإِنَّمَا هِيَ جِسْمٌ بَسِيطٌ مُضِيءٌ لَا مِزَاجَ لَهُ ^(١).

وَكَذَلِكَ عُوجُ بَنِي عِنَاقٍ هُوَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَمَالِقَةِ أَوْ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا قَرِيسَةً بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ فَتْحِهِمُ الشَّامَ وَأَطْوَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَسْمَانَهُمْ لِذَلِكَ الْعَهْدِ قَرِيبَةٌ مِنْ هَيَاكِلِنَا يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَبْوَابُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَإِنَّهَا وَإِنْ خُرِبَتْ وَجُدَّتْ لَمْ تَزَلِ الْمُحَافَظَةُ عَلَى أَشْكَالِهَا وَمَقَادِيرِ أَبْوَابِهَا وَكَيْفَ يَكُونُ التَّفَاوُتُ بَيْنَ عُوجٍ وَبَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بِهَذَا الْمِقْدَارِ وَإِنَّمَا مَثَارُ غَلْطِهِمْ فِي هَذَا أَنَّهُمْ اسْتَعْظَمُوا آثَارَ الْأَمَمِ وَلَمْ يَفْهَمُوا حَالَ الدُّوَلِ فِي الْإِجْتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ وَمَا يَخْصُلُ بِذَلِكَ وَبِالْهِنْدَامِ مِنَ الْآثَارِ الْعَظِيمَةِ فَصَرَفُوهُ إِلَى قُوَّةِ الْأَجْسَامِ وَشَدِيدِهَا يَعْظُمُ هَيَاكِلُهَا وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . وَقَدْ زَعَمَ الْمَسْعُودِيُّ وَنَقَلَهُ عَنِ الْفَلَاسِفَةِ مَرْعَمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُ إِلَّا التَّحَكُّمُ وَهُوَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الَّتِي هِيَ جَبَلَةٌ لِلْأَجْسَامِ لَمَّا بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَانَتْ فِي تَمَامِ الْكُرَّةِ ^(٢) وَنَهَايَةُ الْقُوَّةِ وَالْكَمَالِ وَكَانَتْ الْأَعْمَارُ أَطْوَلَ وَالْأَجْسَامُ أَقْوَى لِكَمَالِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّ طُرُوءَ الْمَوْتِ إِنَّمَا هُوَ بِإِنْحِلَالِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ قُوَّةُ

كَانَتْ الْأَعْمَارُ أَزِيدَ فَكَانَ الْعَالَمُ فِي أَوَّلِيَّةِ نَشَأَتِهِ تَامَ الْأَعْمَارُ كَامِلَ الْأَجْسَامِ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَتَنَاقَصُ لِنَقْصَانِ الْمَادَّةِ إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَنَاقَصُ إِلَى وَقْتِ الْإِنْحِلَالِ وَانْقِرَاضِ الْعَالَمِ وَهَذَا رَأْيِي لَا وَجْهَ لَهُ إِلَّا التَّحَكُّمُ كَمَا تَرَاهُ وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ وَلَا سَبَبٌ بُرْهَانِيٌّ وَنَحْنُ نَشَاهِدُ مَسَاكِينَ الْأَوَّلِينَ وَأَبْوَابَهُمْ وَطُرُقَهُمْ فِيمَا أَحْدَثُوهُ مِنَ الْبُنْيَانِ وَالْهَيَاكِيلِ وَالْدِّيَارِ وَالْمَسَاكِينِ كَدِيَارِ ثُمُودَ الْمُنْحَوْتَةِ فِي الصُّلْدِ مِنَ الصُّخْرِ يَبُوتًا صِفَارًا وَأَبْوَابِهَا ضَيِّقَةً وَقَدْ أَشَارَ ﷺ إِلَى أَنَّهَا دِيَارُهُمْ وَنَهَى عَنِ اسْتِعْمَالِ مِيَاهِهِمْ وَطَرَحَ مَا عِجَنَ بِهِ وَأَهْرَقَ

(١) ثبت للعلم الحديث أن الشمس جسم ملتهب ، وأنها محتفظة بالتهابها وحرارتها .

(٢) في بعض النسخ المرة ، بمعنى القوة وقال تعالى في آيتي ٥ و ٦ من سورة النجم : « علمه شديد القوى »

ذو مرة فاستوى »

وَقَالَ « لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » .

وَكَذَلِكَ أَرْضُ عَاذٍ وَمِصْرَ وَالشَّامَ وَسَائِرَ بَقَاعِ الْأَرْضِ شَرْقاً وَغَرْباً وَالْحَقُّ مَا قُرَّرْنَاهُ وَمِنْ أَثَارِ الدُّوَلِ أَيْضاً خَالِهَا فِي الْأَغْرَاسِ وَالْوَلَايِمِ كَمَا ذَكَّرْنَاهُ فِي وَلِيْمَةِ بُورَانَ وَصَنِيعِ الْحَجَّاجِ وَابْنِ ذِي النُّونِ وَقَدْ مَرَّ ذَلِكَ كُلُّهُ .

وَمِنْ أَثَارِهَا أَيْضاً عَطَايَا الدُّوَلِ وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نَسَبِهَا وَيُظْهَرُ ذَلِكَ فِيهَا وَلَوْ أَشْرَفَتْ عَلَى الْهَرَمِ فَإِنَّ الْهَمَمَ الَّتِي لِأَهْلِ الدُّوَلَةِ تَكُونُ عَلَى نَسَبِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ وَغَلَبِهِمْ لِلنَّاسِ وَالْهَمَمُ لَا تَزَالُ مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى انْقِرَاضِ الدُّوَلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِجَوَائِزِ ابْنِ ذِي يَزْنَ لَوْفِدٍ قُرَيْشٍ كَيْفَ أَعْطَاهُمْ مِنْ أَرْطَالِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَعْبِيدِ وَالْوَصَائِفِ عَشْرًا عَشْرًا وَمِنْ كَرَشٍ ^(١) الْقَنْبَرِ وَاحِدَةً وَأَضْعَفَ ذَلِكَ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهِ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَإِنَّمَا مُلْكُهُ يَوْمَئِذٍ قَرَارَةٌ الَّتِي تَحْتَ اسْتِبدَادِ فَارِسَ وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ هَمَّةٌ نَفْسِهِ بِمَا كَانَ لِقَوْمِهِ التَّبَاعِيَّةُ مِنَ الْمُلْكِ فِي الْأَرْضِ وَالْغَلَبُ عَلَى الْأُمَمِ فِي الْبِعْرَاقَيْنِ وَالْهِنْدِ وَالْمَغْرِبِ وَكَانَ الصُّنْهَاجِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ أَيْضاً إِذَا أَجَارُوا الْوَفْدَ مِنْ أَمْرَاءِ زَنَاتَةِ الْوَأْفِدِينَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّمَا يُعْطَوْنَهُمُ الْمَالَ أَحْمَالاً وَالْكِسَاءَ تُخَوْتاً مَمْلُوءَةً وَالْحَمَلَانَ ^(٢) جَنَائِبَ عَدِيدَةً .

وَفِي تَارِيخِ ابْنِ الرُّيْقِيِّ مِنْ ذَلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ وَكَذَلِكَ كَانَ عَطَاءُ الْبَرَامِكَةِ وَجَوَائِزُهُمْ وَنَفَقَاتُهُمْ وَكَانُوا إِذَا كَسَبُوا مُعْذِمًا فَإِنَّمَا هُوَ الْوَلَايَةُ وَالنِّعْمَةُ آخِرَ الدَّهْرِ لَا الْعَطَاءُ الَّذِي يَسْتَنْفِذُهُ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مُسْطُورَةٌ وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نَسَبِ الدُّوَلِ جَارِيَّةٌ هَذَا جَوْهَرُ الصَّقْلِيِّ الْكَاتِبِ قَائِدُ جَيْشِ الْعُبَيْدِيِّينَ لَمَّا ارْتَحَلَ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ اسْتَعَدَّ مِنَ الْقَيْزُرِ بَالْفِ حِمْلٌ مِنَ الْمَالِ وَلَا تَنْتَهِي الْيَوْمَ دَوْلَةٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا . وَكَذَلِكَ وَجَدَ يَخْطُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ عَمَلٌ بِمَا يَخْمَلُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ يَبْتَغِدَادُ أَيَّامِ الْمَأْمُونِ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي نَقْلَتْهُ مِنْ جَرَابِ

(١) كَرَشٌ ، وعاء الطيب (قاموس) .

(٢) الحملان ، ما يحمل عليه من الدواب في البهية خاصة (قاموس) .

الدُّوْلَةُ (غلات السواد) ^(١) سَنَعٌ وَعَشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْحَلَلِ ^(٢) النَّجْرَانِيَّةُ مِائَتًا حِلَّةً وَمِنْ طِينِ الْخَتَمِ مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ رَطْلًا (كنكر) ^(٣) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسِتِّمِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ (كورد جلة) عَشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَثَمَانِيَّةً دِرْهَمٍ . (حلوان) ^(٤) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ (الأهواز) خَمْسَةُ وَعَشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً وَمِنْ السُّكَّرِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَطْلٍ (فارس) سَبْعَةُ وَعَشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَمِنْ مَاءِ الْوَرْدِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ قَارُورَةٍ وَمِنْ الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ عَشْرُونَ أَلْفَ رَطْلٍ (كرمان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِائَتًا أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْمَتَاعِ الْيَمَانِيِّ خَمْسُمِائَةَ ثُوبٍ وَمِنْ التَّمْرِ عَشْرُونَ أَلْفَ رَطْلٍ (مكران) أَرْبَعُمِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّةً (السند وما يليه) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْعُودِ الْهِنْدِيِّ مِائَةً وَخَمْسُونَ رَطْلًا (سجستان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ الثِّيَابِ الْمُعَيَّنَةِ ثَلَاثُمِائَةَ ثُوبٍ وَمِنْ الْفَانِيْدِ ^(٥) عَشْرُونَ رَطْلًا (خراسان) ثَمَانِيَّةً وَعَشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ نُقْرِ ^(٦) الْفِضَّةِ أَلْفًا نَقْرَةً وَمِنْ الْبَرَادِيزِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَمِنْ الرِّقِيقِ أَلْفَ رَأْسٍ وَمِنْ الْمَتَاعِ عَشْرُونَ أَلْفَ ثُوبٍ وَمِنْ الْإِهْلِيلِجِ ^(٧) ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَطْلٍ (جرجان) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ الْإِبْرِيسِمِ أَلْفُ شَقَّةٍ . (قومس) أَلْفُ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةَ مِنْ نُقْرِ الْفِضَّةِ (طبرستان والروبان ونهاوند) سِتَّةُ آلَافِ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثُمِائَةَ أَلْفٍ وَمِنْ الْفَرَشِ الطَّبْرِيِّ سِتِّمِائَةَ قِطْعَةٍ وَمِنْ الْأَكْسِيَةِ مِائَتَانِ وَمِنْ الثِّيَابِ خَمْسُمِائَةَ ثُوبٍ وَمِنْ الْمَنَادِيلِ ثَلَاثُمِائَةَ وَمِنْ الْجَامَاتِ ثَلَاثُمِائَةَ (الري) اثْنَا عَشَرَ

(١) السواد ، كان العرب يطلقونها على الأراضي الزراعية (سواد العراق سواد فارس الخ .)

(٢) الحلل ، ج حلة ، فوبان من جنس واحد .

(٣) كنكور في معجم البلدان هكذا ذكرها ياقوت الحموي .

(٤) حلوان ، مقاطعة في العراق وهي غير حلوان مصر وهي في شرقي العراق .

(٥) نوع من الحلوى .

(٦) القطعة للذابة من الفضة أو الذهب .

(٧) ثمر معروف ج أهليلجة .

ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون ألف رطل (همدان) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف ومن رب الرمان ألف رطل ومن العسل اثنا عشر ألف رطل (ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم (ماسبدان والدينار^(١)) أربعة آلاف ألف درهم مرتين (شهر زور) ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم (الموصل وما يليها) أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل (اذريجان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين (الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أربعة وثلاثون ألف ألف درهم مرتين ومن الرقيق ألف رأس ومن العسل اثنا عشر ألف زق ومن البزاة^(٢) عشرة ومن الأكسية عشرون (ارمينية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن البسط^(٣) المخفور عشرون ومن الزم خمسمائة وثلاثون رطلاً ومن المسايح السور ما هي عشرة آلاف رطل ومن الصونج عشرة آلاف رطل ومن البغال مائتان ومن المهرة ثلاثون (قنشرين) أربعمائة ألف دينار ومن الزيت ألف حمل (دمشق) أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار (الأردن) سبعة وتسعون ألف دينار (فلسطين) ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلاثمائة ألف رطل (مصر) ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار. (برقة) ألف ألف درهم مرتين. (افريقية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون. (اليمن) ثلاثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع. (الحجاز) ثلاثمائة ألف دينار انتهى.

وأما الأندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار.

(١) قوله والدينار والظاهر أنها الدينور وفي الترجمة التركية ماسبدان وربان اهـ

(٢) قوله ومن البزاة في التركية ومن السكر عشرة صناديق اهـ

(٣) وفي نسخة القسط وهو عود يتداوى به

وَرَأَيْتُ فِي بَغْضِ تَوَارِيخِ الرَّشِيدِ أَنَّ الْمُخْمُولَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فِي أَيَّامِهِ سَبْعَةُ
 آلَافٍ قِنْطَارٍ وَخَمْسُمِائَةٍ قِنْطَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي نِسْبِ الدُّوَلِ بَعْضُهَا مِنْ
 بَعْضٍ وَلَا تُتَكَبَّرَنَّ مَا لَيْسَ بِمَعْنُودٍ عِنْدَكَ وَلَا فِي عَصْرِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْثَالِهِ فَتَضَيِّقَ
 حَوْصَلَتُكَ عِنْدَ مُلْتَقَطِ الْمُمَكِّنَاتِ فَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِّ إِذَا سَمِعُوا أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ
 عَنِ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ بَادَرُوا بِالْإِنْكَارِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الصَّوَابِ فَإِنَّ أَحْوَالَ الْوُجُودِ
 وَالْعُمُرَانِ مُتَفَاوِتَةٌ وَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهَا رُتَبَةً سَفْلَى أَوْ وَسْطَى فَلَا يَخْصُرُ الْمَدَارَكَ كُلَّهَا
 فِيهَا وَنَحْنُ إِذَا اغْتَبَرْنَا مَا يُنْقَلُ لَنَا عَنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَبَنِي أُمَيَّةٍ وَالْعَبِيدِيِّينَ
 وَنَاسِبُنَا الصَّحِيحَ مِنْ ذَلِكَ وَالَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ بِالَّذِي نَشَاهِدُهُ مِنْ هَذِهِ الدُّوَلِ الَّتِي
 هِيَ أَقْلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وَجَدْنَا بَيْنَهَا بَوْنًا وَهَوْلًا بَيْنَهَا مِنَ التَّفَاوُتِ فِي أَصْلِ قُوَّتِهَا
 وَعُمُرَانِ مَمَالِكِهَا فَالْآثَارُ كُلُّهَا جَارِيَةٌ عَلَى نِسْبَةِ الْأَصْلِ فِي الْقُوَّةِ كَمَا قَدْ مَنَّا وَلَا
 يَسَعُنَا إِنْكَارُ ذَلِكَ عَنْهَا إِذْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي غَايَةِ الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ بَلْ فِيهَا
 مَا يُلْحَقُ بِالْمُسْتَفِيزِ وَالْمُتَوَاتِرِ وَفِيهَا الْمَعَايِنُ وَالْمُشَاهِدُ مِنْ أَثَارِ الْبِنَاءِ وَغَيْرِهِ فَخُذْ
 مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُنْقُولَةِ مَرَاتِبَ الدُّوَلِ فِي قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا وَضَخَامَتِهَا أَوْ صِغَرِهَا وَاعْتَبِرْ
 ذَلِكَ بِمَا نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ الْمُسْتَظَرَّةِ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ وَرَدَ بِالْمَغْرِبِ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرْزِينَ رَجُلٌ
 مِنْ مَشِيخَةِ طَنْجَةَ يُعْرَفُ بِابْنِ بَطُوطَةَ ^(١) كَانَ رَحَلَ مِنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً قَبْلَهَا إِلَى
 الْمَشْرِقِ وَتَقَلَّبَ فِي بِلَادِ الْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ وَالْهِنْدِ وَدَخَلَ مَدِينَةَ دِهْلِي ^(٢) حَاضِرَةَ مَلِكِ
 الْهِنْدِ وَهُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ شَاهٍ وَاتَّصَلَ بِمَلِكِهَا لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَهُوَ فَيْرُوزْ جُوهٌ وَكَانَ لَهُ
 مِنْهُ مَكَانٌ وَاسْتَعْمَلَهُ فِي خِطَّةِ الْقَضَاءِ بِمَذْهَبِ الْمَالِكِيَّةِ فِي عَمَلِهِ ثُمَّ انْقَلَبَ إِلَى
 الْمَغْرِبِ وَاتَّصَلَ بِالسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رَحْلَتِهِ وَمَا رَأَى مِنْ
 الْعَجَائِبِ بِمَمَالِكِ الْأَرْضِ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ الْهِنْدِ وَيَأْتِي مِنْ

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهأها سنة ٧٥٤ وهي عجبية ومختصرها ٧ كراريس ١ هـ .

(٢) كذا في جميع النسخ وتعرف اليوم باسم دلهي .

أَحْوَالِهِ بِمَا يَسْتَفْرِئُهُ السَّامِعُونَ مِثْلُ أَنَّ مَلِكَ الْهِنْدِ إِذَا خَرَجَ إِلَى السَّفَرِ أَخَصَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ تُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ وَأَنَّهُ عِنْدَ رُجُوعِهِ مِنْ سَفَرِهِ يَدْخُلُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْرُزُ فِيهِ النَّاسُ كَافَّةً إِلَى صَحْرَاءِ الْبَلَدِ وَيَطُوفُونَ بِهِ وَيُنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذَلِكَ الْحَقْلِ مَنْجَنِيقاتٌ عَلَى الظَّهْرِ تُرْمَى بِهَا شُكَايَرُ^(١) الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ عَلَى النَّاسِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ إِيَّوَانَهُ وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ فَتَنَاحَى النَّاسُ بِتَكْذِيبِهِ وَلَقِيتُ أَيَّامِيذَ وَزِيرَ السُّلْطَانِ فَارِسَ بْنِ وَرْدَارِ الْبَعِيدِ الصَّبِيَّ فَفَاوَضْتُهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ وَأَرَيْتُهُ إِنكَارَ أَخْبَارِ ذَلِكَ الرَّجُلِ لِمَا اسْتَفَاضَ فِي النَّاسِ مِنْ تَكْذِيبِهِ .

فَقَالَ لِي الْوَزِيرُ فَارِسُ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَنْكِرَ مِثْلَ هَذَا مِنْ أَحْوَالِ الدُّوَلِ بِمَا أَنَّكَ لَمْ تَرَهُ فَتَكُونَ كَابْنِ الْوَزِيرِ النَّاشِئِ فِي السَّجَنِ وَذَلِكَ أَنَّ وَزِيرًا اغْتَقَلَهُ سُلْطَانُهُ وَمَكَثَ فِي السَّجَنِ سِنِينَ رَبْعَى فِيهَا ابْنُهُ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ فَلَمَّا أَذْرَكَ وَعَقَلَ سَأَلَ عَنِ اللُّحْمَانِ الَّتِي كَانَ يَتَغَذَّى بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هَذَا لَحْمُ الْغَنَمِ فَقَالَ وَمَا الْغَنَمُ فَيَصِفُهَا لَهُ أَبُوهُ بِشَيَاتِهَا وَتُعَوِّثُهَا فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تَرَاهَا مِثْلَ الْفَارِ فَيَنْكِرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ أَيْنَ الْغَنَمُ مِنْ الْفَارِ وَكَذًا فِي لَحْمِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ إِذْ لَمْ يُعَايِنْ فِي مَحْبَسِهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ إِلَّا الْفَارَ فَيَحْسَبُهَا كُلُّهَا أَبْنَاءَ جِنْسِ الْفَارِ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَغْتَرِي النَّاسَ فِي الْأَخْبَارِ كَمَا يَغْتَرِيهِمُ الْوَسْوَاسُ فِي الزِّيَادَةِ عِنْدَ قَصْدِ الْإِغْرَابِ كَمَا قَدْ مَنَّا أَوَّلَ الْكِتَابِ فَلْيَرْجِعِ الْإِنْسَانُ إِلَى أَصُولِهِ وَلْيَكُنْ مُهَيِّمًا عَلَى نَفْسِهِ وَمُمَيِّزًا بَيْنَ طَبِيعَةِ الْمُمَكِّنِ وَالْمُمْتَنِعِ بِصُرِيحِ عَقْلِهِ وَمُسْتَقِيمِ فِطْرَتِهِ فَمَا دَخَلَ فِي نِطَاقِ الْإِمْكَانِ قَبْلَهُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ رَفَضَهُ وَلَيْسَ مُرَادُنَا الْإِمْكَانَ الْعَقْلِيَّ الْمَطْلُوقَ فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسَعُ شَيْءٍ فَلَا يُفَرِّضُ حَدًّا بَيْنَ الْوَاقِعَاتِ وَإِنَّمَا مُرَادُنَا الْإِمْكَانَ بِحَسَبِ الْمَادَّةِ الَّتِي لِلشَّيْءِ فَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا أَصْلَ الشَّيْءِ وَجَنْسَهُ وَصِنْفَهُ وَمِقْدَارَ عَظَمِهِ وَقُوَّتِهِ أَجَرَيْنَا الْحُكْمَ مِنْ نِسْبَةِ ذَلِكَ عَلَى أَحْوَالِهِ وَحَكَمْنَا بِالْإِمْتِنَاعِ عَلَى مَا خَرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) شُكَايَرٌ مِنْ شُكْرٍ ، بِمَعْنَى الضَّرْعِ .

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته بالموالي
والمصطنعين

إِغْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ أَمْرُهُ كَمَا قُلْنَا بِقَوْمِهِ فَهَمَّ عِصَابَتُهُ وَظَهْرَاؤُهُ
عَلَى شَأْنِهِ وَبِهِمْ يُقَارِعُ الْخَوَارِجَ عَلَى دَوْلَتِهِ وَمِنْهُمْ يُقْلَدُ أَعْمَالَ مَمْلَكَتِهِ وَوِزَارَةَ دَوْلَتِهِ
وَجَبَايَةَ أُمُورِهِ لِأَنَّهُمْ أَغْوَانُهُ عَلَى الْغَلْبِ وَشُرَكَائُهُ فِي الْأَمْرِ وَمُسَاهِمُوهُ فِي سَائِرِ مُهِمَّاتِهِ
هَذَا مَا دَامَ الطُّورُ الْأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا فَإِذَا جَاءَ الطُّورُ الثَّانِي وَظَهَرَ الْإِسْتِئْذَانُ
عَنْهُمْ وَالْإِنْفِرَادُ بِالْمَجْدِ وَدَافَقَتْهُمْ عَنْهُ بِالْمَرَّاحِ صَارُوا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مِنْ بَعْضِ
أَعْدَائِهِ وَاحْتِاجَ فِي مَدَافَقَتِهِمْ عَنِ الْأَمْرِ وَصَدَّهِمْ عَنِ الْمُشَارَكَةِ إِلَى أَوْلِيَاءِ آخَرِينَ مِنْ
غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ يَسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ دُونَهُمْ فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِمْ

وَأَخْصَ بِهِ قُرْبًا وَاضْطِنَاعًا وَأَوَّلَى إِيْثَارًا وَجَاهًا لِمَا أَنَّهُمْ يَسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فِي مَدَافِقَةِ
قَوْمِهِ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَالرُّتْبَةِ الَّتِي أَلْفَوْهَا فِي مُشَارَكَتِهِمْ فَيَسْتَخْلِصُهُمْ
صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَخْصُمُهُ بِمَزِيدِ التَّكْرِمَةِ وَالْإِيْثَارِ وَيَقْسِمُ لَهُمْ مَا لِلْكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ
وَيُقْلَدُهُمْ جَلِيلَ الْأَعْمَالِ وَالْوَلَايَاتِ مِنَ الْوِزَارَةِ وَالْقِيَادَةِ وَالْجَبَايَةِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ
لِنَفْسِهِ وَتَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنَ أَلْقَابِ الْمَمْلَكَةِ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ أَوْلِيَاؤُهُ
الْأَقْرَبُونَ وَنُصَحَاؤُهُ الْمُخْلِصُونَ وَذَلِكَ حِينَئِذٍ مُؤَذَّنٌ بِاهْتِضَامِ ^(١) الدَّوْلَةِ وَعَلَامَةٍ عَلَى
الْمَرَضِ الْمَزْمِنِ فِيهَا لِفَسَادِ الْعَصْبِيَّةِ الَّتِي كَانَ بِنَاءَ الْغَلْبِ عَلَيْهَا .

وَمَرَضُ قُلُوبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنَ الْإِمْتِهَانِ وَعَدَاوَةِ السُّلْطَانِ فَيَضْطَظُّونَ ^(٢)
عَلَيْهِ وَيَتَرَبُّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ وَلَا يُطْمَعُ فِي بُرْئِهَا مِنْ

(١) بمعنى رخاوة .

(٢) بمعنى يحقدون عليه .

هَذَا الدَّاءُ لِأَنَّهُ مَا مَضَى يَتَأَكَّدُ فِي الْأَعْقَابِ إِلَى أَنْ يَذْهَبَ رَسْمَهَا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ
بَنِي أُمَيَّةَ كَيْفَ كَانُوا إِنَّمَا يَسْتَظْهِرُونَ فِي حُرُوبِهِمْ وَوَلَايَةِ أَعْمَالِهِمْ بِرِجَالِ الْعَرَبِ
مِثْلَ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ وَابْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ وَابْنُ أَبِي سَفْيَانَ
وَالْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ وَالْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صَفْرَةَ وَخَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ وَابْنُ
هَبِيرَةَ وَمُوسَى بْنُ نَصِيرٍ وَبِلَالُ بْنُ أَبِي بَرْزَةَ وَابْنُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَنَضْرُ بْنُ
سَيَّارٍ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ رِجَالِ الْعَرَبِ وَكَذَا صَدَرَتْ الدَّوْلَةُ لِلْأَنْفِرَادِ بِالْمَجْدِ وَكَبَحَ الْعَرَبُ عَنْ
التَّطَاوُلِ لِلْوَلَايَاتِ صَارَتِ الْوِزَارَةُ لِلْعَجَمِ وَالصَّنَائِعُ مِنَ الْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلٍ بْنُ
نُوبَخْتٍ وَبَنِي طَاهِرٍ ثُمَّ بَنِي بُوَيْهِ وَمَوَالِي التُّرْكِ مِثْلُ بَغَا وَوَصِيفٍ وَأَثْلَمِشَ
وَبَاكِكَ وَابْنُ طُولُونَ وَأَبْنَائِهِمْ وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ فَتَكُونُ الدَّوْلَةُ لِغَيْرِ
مَنْ مَهْدَهَا وَالْعِزُّ لِغَيْرِ مَنْ اجْتَلَبَهُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل العشرون

في أحوال الموالى والمصطنعين في الدول

إِغْلَمُ أَنَّ الْمُصْطَنَعِينَ فِي الدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْإِلْتِحَامِ بِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ بِتَفَاوُتِ
قَدِيمِهِمْ وَخَدِيثِهِمْ فِي الْإِلْتِحَامِ بِصَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُقْصُودَ فِي الْعَصَبِيَّةِ
مِنْ الْمُدَافَعَةِ وَالْمُغَالَبَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالنَّسَبِ لِأَجْلِ التَّنَاصُرِ فِي دَوَى الْأَرْحَامِ وَالْقُرْبَى
وَالْتَحَاذُلِ فِي الْأَجَانِبِ وَالْبَعْدَاءِ كَمَا قَدَّمَاهُ وَالْوَلَايَةُ وَالْمُخَالَطَةُ بِالرَّقِّ أَوْ بِالْحَلْفِ
تَنْزُلُ مَنْزِلَةً ذَلِكَ لِأَنَّ أَمْرَ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ وَالْمَعْنَى الَّذِي
كَانَ بِهِ الْإِلْتِحَامُ إِنَّمَا هُوَ الْعِشْرَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَطُولُ الْمُمَارَسَةِ وَالصُّخْبَةِ بِالْمَرْبَى
وَالرِّضَاعِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ وَإِذَا حَصَلَ الْإِلْتِحَامُ بِذَلِكَ جَاءَتِ النُّفُورَةُ
وَالْتَّنَاصُرُ وَهَذَا مُشَاهِدٌ بَيْنَ النَّاسِ وَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي الْأَصْطِنَاعِ فَإِنَّهُ يَخْدُثُ بَيْنَ
الْمُصْطَنَعِ وَمَنْ اضْطَنَعَهُ نِسْبَةً خَاصَّةً مِنَ الْوَصْلَةِ تَنْزُلُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَتُوَكَّدُ لِلْخِمَةِ

وَأِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَتَمَرَّتْ النُّسَبُ مَوْجُودَةً فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْوَلَايَةُ بَيْنَ الْقَبِيلِ
وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ الْمَلِكِ لَهُمْ كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ وَنَسَبُهَا
أَصْرَحَ لِوَجْهِينِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ الْمَلِكِ أَسَوَةٌ فِي خَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ النُّسَبُ عَنِ
الْوَلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ الْأَقْلَ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلُ أَرْحَامِهِمْ وَإِذَا
اضْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمَلِكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ الْمَلِكِ مُمَيَّزَةً لِلشَّيْءِ عَنِ الْمَوْلَى . وَلَأَهْلُ
الْقَرَابَةِ عَنِ أَهْلِ الْوَلَايَةِ وَالْاضْطِنَاعِ لِمَا تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ الرِّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ مِنْ تَمَيُّزِ
الرُّتَبِ وَتَفَاوُتِهَا فَتَتَمَيَّزُ خَالَتُهُمْ وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةً الْأَجَانِبِ وَيَكُونُ الْإِتِّحَامُ بَيْنَهُمْ
أَضْعَفَ وَالتَّنَاصُرُ لِذَلِكَ أَبْعَدَ وَذَلِكَ أَنْقَصَ مِنَ الْاضْطِنَاعِ قَبْلَ الْمَلِكِ .

الْوَجْهُ الثَّانِي أَنَّ الْاضْطِنَاعَ قَبْلَ الْمَلِكِ يَبْعُدُ عَنْهُ عَنِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِطَوِيلِ
الزَّمَانِ وَيُخْفِي شَأْنَ تِلْكَ اللَّحْمَةِ وَيُظَنُّ بِهَا فِي الْأَكْثَرِ النُّسَبُ فَيَقْوَى حَالُ الْعَصَبِيَّةِ
وَأَمَّا بَعْدَ الْمَلِكِ فَيَقْرُبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ الْأَكْثَرُ فَتَتَبَيَّنُ اللَّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ
النُّسَبِ فَتَضَعُفُ الْعَصَبِيَّةُ بِالنُّسَبَةِ إِلَى الْوَلَايَةِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الدَّوْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي
الدُّوَلِ وَالرِّئَاسَاتِ تَحْذُهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ اضْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ الرِّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ
لِمُضْطَنِعِهِ تَحْذُهُ أَشَدَّ اتِّحَامًا بِهِ وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ
وَذَوِي رَحِمِهِ وَمَنْ كَانَ اضْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمَلِكِ وَالرِّئَاسَةِ لِمُضْطَنِعِهِ لَا يَكُونُ
لَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ وَاللَّحْمَةِ مَا لِلأَوَّلِينَ وَهَذَا مُشَاهِدٌ بِالْعِيَانِ حَتَّى إِنْ الدَّوْلَةَ فِي آخِرِ
عُمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَجَانِبِ وَاضْطِنَاعِهِمْ وَلَا يُبْنَى لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ
الْمُضْطَنِعُونَ قَبْلَ الدَّوْلَةِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوْلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْإِنْقِرَاضِ
فَيَكُونُونَ مُنْخَطِئِينَ فِي مَهَاوِي الضَّعَةِ .

وَأَمَّا يَخْمَلُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَلَى اضْطِنَاعِهِمْ وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَائِهَا
الْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الْأَوَّلِينَ مَا يَغْتَرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ
وَقَلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لِتَأْكِيدِ اللَّحْمَةِ مِنْذُ الْعُصُورِ
الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْمَرْبَى وَالْإِتِّصَالِ بِأَبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَالْإِنْتِظَامِ مَعَ كِبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ

فَيَحْصُلُ لَهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَاعْتِرَازٌ فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عِنْدَ اسْتِجْلَاصِهِمْ وَاضْطِنَاعِهِمْ قَرِيباً فَلَا يَبْلُغُونَ رُتَبَ الْمَجِيدِ وَيَتَّقُونَ عَلَى خَالِهِمْ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ وَهَكَذَا شَأْنُ الدَّوْلِ فِي أَوَّخَرِهَا وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمُ الصَّنَائِعِ وَالْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُحَدَّثُونَ فَخَدَمَ وَأَعْوَانَ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجب السلطان والاستبداد عليه

إِذَا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمَنْبَتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ وَانْفَرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ قُرْبَمَا حَدَثَ التَّغَلُّبُ عَلَى الْمُنْصِبِ مِنْ وَزَرَائِهِمْ وَخَاشِيَتِهِمْ وَسَبَبُهُ فِي الْأَكْثَرِ وَلَايَةُ صَبِيٍّ صَغِيرٍ أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ الْمَنْبَتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوَلَايَةِ بِعَهْدِ أَبِيهِ أَوْ بِتَرْشِيحِ ذَوِيهِ وَخَوَلِهِ وَيُؤْنَسُ مِنْهُ الْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وَزَرَاءِ أَبِيهِ وَخَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ وَيُورِي بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْنَسَ مِنْهُ الْإِسْتِبْدَادُ وَيَجْعَلَ ذَلِكَ ذَرْيَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْجُبُ الصَّبِيَّ عَنِ النَّاسِ وَيَعُودُهُ إِلَيْهَا تَرْفُ أَحْوَالِهِ وَيَسِيمُهُ فِي مَرَاعِيهَا مَتَى أَمَكَّنَهُ وَيُنْسِيهِ النَّظَرَ فِي الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَا عُودُهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ حَظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ السَّرِيرِ وَإِعْطَاءُ الصَّفَقَةِ وَخُطَابُ التَّهْوِيلِ وَالْقُعُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ الْحِجَابِ وَأَنَّ الْحُلَّ وَالزُّبْنَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَمُبَاشَرَةَ الْأَحْوَالِ الْمُلْكِيَّةِ وَتَفَقُّدُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجَيْشِ وَالْمَالِ وَالثُّغُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ وَيَسْلَمُ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ صِبْغَةُ الرِّئَاسَةِ وَالْإِسْتِبْدَادُ وَيَتَحَوَّلَ الْمُلْكُ إِلَيْهِ وَيُؤَثِّرُ بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي بُؤْيَةِ وَالتُّرْكِ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ وَغَيْرِهِمْ بِالْمَشْرِقِ وَلِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِالْأَنْدَلُسِ .

وَقَدْ يَتَفَتَّنُ ذَلِكَ الْمَخْجُورُ الْمُغْلَبُ لِشَأْنِهِ فَيُحَاوِلُ عَلَى ^(١) الْخُرُوجِ مِنْ رَبْقَةِ الْحَجَرِ وَالْإِسْتِبْدَادِ وَيَرْجِعُ الْمُلْكَ إِلَى نِصَايِهِ وَيَضْرِبُ عَلَى أَيْدِي الْمُتَغْلِبِينَ عَلَيْهِ إِمَّا يَقْتُلُ أَوْ يَرْفَعُ عَنِ الرُّبُوبَةِ فَقَطْ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ فِي النَّادِرِ الْأَقْلَ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فِي تَغْلِبِ الْوُزَرَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ اسْتَمَرَّتْ لَهَا ذَلِكَ وَقَلَّ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهُ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ وَنَشَاةِ أَبْنَاءِ الْمُلْكِ مُنْعَمِينَ فِي نَعِيمِهِ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الرُّجُولَةِ وَالْفَوَاحِشَ الدَّيَاثِرَاتِ وَالْأُظْطَارَ ^(٢) وَرَبَّوْا عَلَيْهَا فَلَا يَنْزِعُونَ إِلَى رِئَاسَةٍ وَلَا يَعْرِفُونَ اسْتِبْدَادًا مِنْ تَغْلِبِ إِنَّمَا هُمْ فِي الْقُنُوعِ بِالْأَهْمَةِ وَالتَّنَفُّسِ فِي اللَّذَاتِ وَأَنْوَاعِ التَّرَفِ وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي وَالْمُضْطَنِّعِينَ عِنْدَ اسْتِبْدَادِ عَشِيرِ الْمُلْكِ عَلَى قَوْمِهِمْ وَأَنْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونَهُمْ وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرُورِيٌّ كَمَا قَدْ مَنَّا وَهَذَا مَرَضَانِ مَرَضَانِ لَا بُرْءَ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الفصل الثاني والعشرون

فِي إِنْ الْمُتَغْلِبِينَ عَلَى السُّلْطَانِ لَا يَشَارِكُونَهُ فِي اللَّقَبِ الْخَاصِّ بِالْمُلْكِ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِهِ مِذْ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ بِعَصِيَّةِ قَوْمِهِ وَعَصِيَّةِ الْبَنِي اسْتَبْعَتْهُمْ حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبْغَةُ الْمُلْكِ وَالْغَلْبِ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً وَبِهَا انْحَفَظَ رَسْمُ الدَّوْلَةِ وَبَقَاؤُهَا وَهَذَا الْمُتَغْلِبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ الْمُلْكِ أَوْ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ فَعَصِيَّتُهُ مُنْدرَجَةٌ فِي عَصِيَّةِ أَهْلِ الْمُلْكِ وَتَابِعَةٌ لَهَا وَلَيْسَ لَهُ صِبْغَةٌ فِي الْمُلْكِ وَهُوَ لَا يُحَاوِلُ فِي اسْتِبْدَادِهِ انْتِزَاعَ ثَمَرَاتِهِ مِنَ الْأُمُورِ وَالنَّهْيِ وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْإِبْرَامِ وَالنَّقْضِ يُوهِمُ فِيهَا أَهْلُ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ

(١) لَيْسَ لَهَا مَعْنَى وَرَبْمَا تَكُونُ زَائِدَةً .

(٢) أَظْطَارُ جَ ظَطَرَ، الرُّضْعُ . وَظَطَرَ الْقَصْرَ، رَكَتَهُ (قَامُوسُ)

سُلْطَانِهِ مُنْفَذٌ فِي ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ . فَهُوَ يَتَجَافَى عَنْ سِمَاتِ الْمَلِكِ وَشَارَاتِهِ وَالْقَائِيهِ جَهْدَهُ وَيُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنِ التُّهْمَةِ بِذَلِكَ .

وَأِنْ حَصَلَ لَهُ الْإِسْتِئْذَانُ لِأَنَّهُ مُسْتَتِرٌ فِي اسْتِئْذَانِهِ ذَلِكَ بِالْحِجَابِ الَّذِي ضَرَبَهُ السُّلْطَانُ وَأَوَّلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ الْقَبِيلِ مِنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ وَمُغَالِطَ عَنْهُ بِالنِّيَاةِ وَلَوْ تَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ ^(١) عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ وَقَبِيلُ الْمَلِكِ وَحَاوَلُوا الْإِسْتِئْذَانِ بِهِ دُونَهُ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكَمْ لَهُ فِي ذَلِكَ صِنْفَةٌ تَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّسْلِيمِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ فَيَهْلِكُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ النَّاصِرِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ حِينَ سَمَا إِلَى مُشَارَكَةِ هِشَامٍ وَأَهْلٍ بَيْتِهِ فِي لَقَبِ الْخِلَافَةِ وَلَمْ يَقْنَعْ بِمَا قَنَعَ بِهِ أَبُوهُ وَأَخُوهُ مِنَ الْإِسْتِئْذَانِ بِالْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَالْمَرَامِ الْمَتَّابَةِ فَطَلَبَ مِنْ هِشَامٍ خَلِيفَتِهِ أَنْ يَعْهَدَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فَفَسَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ بَنُو مَرْوَانَ وَسَائِرُ قُرَيْشٍ وَبَايَعُوا لِابْنِ عَمِّ الْخَلِيفَةِ هِشَامٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجُبَّارِ بْنِ النَّاصِرِ وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ خَرَابٌ دَوْلَةَ الْعَامِرِيِّينَ وَهَلَكَ الْمُؤَيَّدُ خَلِيفَتِهِمْ وَاسْتُيْدِلَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَعْيَاصٍ ^(٢) الدَّوْلَةَ إِلَى آخِرِهَا وَاخْتَلَتْ مَرَامِ مُلْكِهِمْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك وأصنافه

الْمَلِكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمَكِّنُ حَيَاتُهُمْ وَوُجُودُهُمْ إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوَّتِهِمْ وَضُرُورِيَّاتِهِمْ وَإِذَا اجْتَمَعُوا دَعَتْ الضَّرُورَةُ إِلَى الْمُعَامَلَةِ وَاقْتِضَاءِ الْحَاجَاتِ وَمَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ يَأْخُذُهَا مِنْ صَاحِبِهِ لِمَا فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والتون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كفرح لم يره اهلا له . كما في

القاموس .

(٢) اعياص ج عيص : منبت خيار الشجر . ويقال هو من عيص كريم : أي من أصل كريم (قاموس)

وَيَمَانَعُهُ الْآخَرُ عَنْهَا بِمُقْتَضَى الْغَضَبِ وَالْأَنَفَةِ وَمُقْتَضَى الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ فَيَقَعُ التَّنَازُعُ الْمُفْضِي إِلَى الْمُقَاتَلَةِ وَهِيَ تُوَدِّي إِلَى الْهَزَجِ وَسَفْكِ الدَّمَاءِ وَأَذْهَابِ النُّفُوسِ الْمُفْضِي ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ النَّوْعِ وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ الْبَارِي سُبْحَانَهُ بِالْمُحَافَظَةِ فَاسْتَحَالَ بَقَاؤُهُمْ قَوْضَى دُونَ خَالِهِمْ يَزْعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَاحْتِاجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوَارِعِ وَهُوَ الْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَلِكُ الْقَاهِرُ الْمُتَحَكِّمُ وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ لِمَا قَدْ مَنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمُطَالِبَاتِ كُلَّهَا وَالْمُدَافَعَاتِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّةِ وَهَذَا الْمُلْكُ كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ تَتَوَجَّهُ نَحْوُهُ الْمُطَالِبَاتُ وَيَخْتِاجُ إِلَى الْمُدَافَعَاتِ .

وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصَبِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ وَكُلُّ عَصَبِيَّةٍ فَلَهَا تَحَكُّمٌ وَتَغْلِبُ عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرَتِهَا وَلَيْسَ الْمُلْكُ لِكُلِّ عَصَبِيَّةٍ وَإِنَّمَا الْمُلْكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعِيدُ الرُّعْيَةَ وَيَجْبِي الْأَمْوَالَ وَيَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَحْمِي الثُّغُورَ وَلَا تَكُونُ فَوْقَ يَدِهِ يَدٌ قَاهِرَةٌ وَهَذَا مَعْنَى الْمَلِكِ وَحَقِيقَتُهُ فِي الْمَشْهُورِ فَمَنْ قَصُرَتْ يَهْ عَصَبِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلَ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ أَوْ بَعَثِ الْبُعُوثِ فَهُوَ مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَرْبَرِ فِي دَوْلَةِ الْأَعَالِيَةِ بِالْفَيْرَوَانِ وَلِمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدَرَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ .

وَمَنْ قَصُرَتْ يَهْ عَصَبِيَّتُهُ أَيْضاً عَنِ الْإِسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصَبِيَّاتِ ، وَالضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمٌ غَيْرُهُ فَهُوَ أَيْضاً مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ أُمَرَاءِ النَّوَاحِي وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِينَ تَجْمَعُهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَكَثِيرًا مَا يُوْجَدُ هَذَا فِي الدَّوْلَةِ الْمَتَّسِعَةِ النَّطَاقِ أَغْنَى تَوْجُدُ مُلُوكٍ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي النَّوَاحِي الْقَاصِيَةِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ مِثْلَ صَنْهَاجَةٍ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ وَزَنَاطَةَ مَعَ الْأُمَوِيِّينَ تَارَةً وَالْعَبِيدِيِّينَ تَارَةً أُخْرَى وَمِثْلُ مُلُوكِ الْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمِثْلُ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ مِنَ الْفَرَسِ مَعَ الْإِسْكَندَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ وَكَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ فَاعْتَبَرَهُ تَجْدَةً وَاللَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ .

الفصل الرابع والعشرون

في أن إرهاف الحد مضرٌ بالملك ومفسد له في الأكثر

إِغْلَمْ أَنَّ مَصْلَحَةَ الرُّعْيَةِ فِي السُّلْطَانِ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَجَسْمِهِ مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ أَوْ مَلَاحَةِ وَجْهِهِ أَوْ عَظَمِ جُثْمَانِهِ أَوْ اتِّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جُودَةِ خَطِّهِ أَوْ ثَقُوبِ ذَهَبِهِ وَإِنَّمَا مَصْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ الْمَلِكَ وَالسُّلْطَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَهِيَ نِسْبَةٌ بَيْنَ مُنْتَسِبَيْنِ فَحَقِيقَةُ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلرُّعْيَةِ الْقَائِمِ فِي أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ فَالسُّلْطَانُ مَنْ لَهُ رَعِيَّةٌ وَالرُّعِيَّةُ مَنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَالصِّفَةُ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ هِيَ الَّتِي تَسْمَى الْمَلَكَ وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَلَكَهُ وَتَوَابَعُهَا مِنَ الْجُودَةِ يَمَكَانُ حَصَلَ الْمَقْصُودِ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً كَانَ ذَلِكَ ضَرًّا عَلَيْهِمْ وَاهْلَاكًا لَهُمْ .

وَيَعُودُ حُسْنُ الْمَلَكَهَةِ إِلَى الرَّفْقِ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا بَاطِشًا بِالْعُقُوبَاتِ مُنْقَبًا عَنْ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ شَمْلَهُمُ الْخَوْفُ وَالذُّلُّ وَلَاذُومًا مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فَتَخَلَّقُوا بِهَا وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ وَرُبَّمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ الْخُرُوبِ وَالْمُدَافَعَاتِ فَفَسَدَتْ الْحِمَايَةُ بِفَسَادِ النِّيَّاتِ وَرُبَّمَا أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ لِذَلِكَ فَتَفْسَدَ الدَّوْلَةُ وَيَخْرُبَ السِّيَاحُ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَهُ فَسَدَتْ الْعَصَبِيَّةُ لِمَا قُلْنَا أَوَّلًا وَفَسَدَ السِّيَاحُ مِنْ أَضْلِهِ بِالْعَجْزِ عَنِ الْحِمَايَةِ وَإِذَا كَانَ رَفِيقًا بِهِمْ مُتَجَاوِزًا عَنْ سِيَّاتِهِمْ اسْتَنَامُوا إِلَيْهِ وَلَاذُومًا بِهِ وَأَشْرَبُوا مَحَبَّتَهُ وَاسْتَمَاتُوا دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ فَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ الْمَلَكَهَةِ فَهِيَ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ فَالْمُدَافَعَةُ بِهَا تَتِمُّ حَقِيقَةُ الْمَلِكِ وَأَمَّا النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانُ لَهُمْ فَمِنْ جُمْلَةِ الرَّفْقِ بِهِمْ وَالنَّظَرِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَهِيَ أَضَلُّ كَبِيرٍ مِنَ التَّحَبُّبِ إِلَى الرُّعْيَةِ وَاعْلَمْ أَنَّهُ

قَلَمَّا تَكُونُ مَلَكَ الرَّفْقِ فِي مَنْ يَكُونُ يَقْظاً شَدِيدَ الذِّكَاءِ مِنَ النَّاسِ وَأَكْثَرُ مَا يُوْجَدُ الرَّفْقُ فِي الْغُفْلِ وَالْمُتَعَفِّلِ وَأَقْلُ مَا يَكُونُ فِي الْيَقِظِ لِأَنَّهُ يُكَلِّفُ الرِّعْيَةَ فَوْقَ طَائِفَتِهِمْ لِنَفوذِ نَظَرِهِ فِيمَا وَرَاءَ مَذَارِكِهِمْ وَأَطْلَاعِهِ عَلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ فِي مَبَادِئِهَا بِالْمَعِيَةِ فَيَهْلِكُونَ لِذَلِكَ قَالَ ﷺ « سِيرُوا عَلَى سِيرِ أضعِفِكُمْ » وَمِنْ هَذَا الْبَابِ اشْتَرَطَ الشَّارِعُ فِي الْحَاكِمِ قَلَّةَ الْإِفْرَاطِ فِي الذِّكَاءِ . وَمَأْخُذُهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ لَمَّا عَزَلَهُ عُمَرُ عَنِ الْعِرَاقِ وَقَالَ لَهُ ، « لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَجْزُ أَمْ الْخِيَانَةُ » فَقَالَ عُمَرُ ، « لَمْ أَغْزِلْكَ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُحْمِلَ فَضْلَ عَقْلِكَ عَنِ النَّاسِ » فَأَخَذَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَكُونُ مُفْرِطَ الذِّكَاءِ وَالْكَيْسِ مِثْلَ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ وَعُمَرُو بْنُ الْعَاصِ لَمَّا يَتَّبِعْ ذَلِكَ مِنَ التَّعَسُّفِ وَسُوءِ الْمَلَكََةِ وَحَمْلِ الْوُجُودِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَبْعِهِ كَمَا يَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْكِتَابِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَالِكِينَ وَتَقَرَّرَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكَيْسَ وَالذِّكَاءَ غَيْبٌ فِي صَاحِبِ السِّيَاسَةِ لِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ فِي الْفِكْرِ كَمَا أَنَّ الْبَلَادَةَ إِفْرَاطٌ فِي الْجُمُودِ وَالطَّرْفَانِ مَذْمُومَانِ مِنْ كُلِّ صِفَةِ إِنْسَانِيَّةٍ وَالْمَحْمُودُ هُوَ التَّوَسُّطُ كَمَا فِي الْكَرَمِ مَعَ التَّبَذِيرِ وَالْبُخْلِ وَكَمَا فِي الشُّجَاعَةِ مَعَ الْهَوَجِ وَالْجُبْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلِهَذَا يُوصَفُ الشَّدِيدُ الْكَيْسِ بِصِفَاتِ الشَّيْطَانِ فَيُقَالُ شَيْطَانٌ وَمُتَشَبِّهٌ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ .

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والامامة

لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُلْكِ أَنَّهُ الْاجْتِمَاعُ الصُّرُورِيُّ لِلْبَشَرِ وَمُقْتَضَاهُ التَّغَلُّبُ وَالْقَهْرُ اللَّذَانِ هُمَا مِنْ أَقَارِ الْغَضَبِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ كَانَتْ أَحْكَامُ صَاحِبِهِ فِي الْغَالِبِ جَائِزَةً عَنِ الْحَقِّ مُجَحِّفَةً بِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ الْخَلْقِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ لِحَمْلِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْغَالِبِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ

الْمَقَاصِدِ مِنَ الْخَلْفِ وَالسَّلَفِ مِنْهُمْ فَتَغَسُرُ طَاعَتُهُ لَذَلِكَ وَتَحْيَى الْعَصِيَّةُ الْمُفْضِيَّةُ إِلَى
 الْهَرْجِ وَالْقَتْلِ فَوَجِبَ أَنْ يُرْجَعَ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوَانِينِ سِيَاسِيَّةٍ مَفْرُوضَةٍ يُسَلِّمُهَا الْكَافَّةُ
 وَيَنْقَادُونَ إِلَى أَحْكَامِهَا كَمَا كَانَ ذَلِكَ لِلْفَرَسِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ وَإِذَا خَلَّتِ الدَّوْلَةُ
 مِنْ مِثْلِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ لَمْ يَسْتَتِبْ أَمْرُهَا وَلَمْ يَتِمَّ اسْتِيلَاؤُهَا «سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا
 مِنْ قَبْلُ» . فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْقَوَانِينُ مَفْرُوضَةً مِنَ الْعُقَلَاءِ وَأَكَابِرِ الدَّوْلَةِ وَبُصَرَائِهَا
 كَانَتْ سِيَاسَةً عَقْلِيَّةً وَإِذَا كَانَتْ مَفْرُوضَةً مِنَ اللَّهِ بِشَارِعٍ يُقَرِّرُهَا وَيَشْرَعُهَا كَانَتْ
 سِيَاسَةً دِينِيَّةً نَافِعَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَلْقَ لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهِمْ
 دُنْيَاهُمْ فَقَطْ فَإِنَّهَا كُلُّهَا عِبَتْ وَبَاطِلٌ إِذْ غَايَتُهَا الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ ، وَاللَّهُ يَقُولُ
 « أَفَحَسِبْتُمْ إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا » فَالْمَقْصُودُ بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ دِينُهُمُ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى
 السَّعَادَةِ فِي آخِرَتِهِمْ « صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » فَجَاءَتْ
 الشَّرَائِعُ بِحَمْلِهِمْ عَلَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مِنْ عِبَادَةٍ وَمُعَامَلَةٍ حَتَّى فِي الْمُلْكِ الَّذِي
 هُوَ طَبِيعِيٌّ لِلِاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ فَأَجْرَتْهُ عَلَى مِنْهَاجِ الَّذِينَ لِيَكُونَ الْكُلُّ مَحْوَطًا
 بِنَظَرِ الشَّارِعِ . فَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى الْقَهْرِ وَالتَّغْلِبِ وَإِهْمَالِ الْقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ فِي
 مَرْعَاهَا فَجَوْرٌ وَعُدْوَانٌ وَمَذْمُومٌ عِنْدَهُ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَمَا كَانَ مِنْهُ
 بِمُقْتَضَى السِّيَاسَةِ وَأَحْكَامِهَا فَمَذْمُومٌ أَيْضًا لِأَنَّهُ نَظَرٌ بِغَيْرِ نُورِ اللَّهِ « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ
 اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » لِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْكَافَّةِ فِيمَا هُوَ مُغَيَّبٌ عَنْهُمْ
 مِنْ أُمُورِ آخِرَتِهِمْ وَأَعْمَالِ الْبَشَرِ كُلِّهَا عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي مَعَادِهِمْ مِنْ مُلْكِ أَوْ غَيْرِهِ
 قَالَ ﷺ « إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تَرُدُّ عَلَيْكُمْ » وَأَحْكَامُ السِّيَاسَةِ إِنَّمَا تُطْلَعُ عَلَى
 مَصَالِحِ الدُّنْيَا فَقَطْ « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ حَيَاةِ الدُّنْيَا » ، وَمَقْصُودُ الشَّارِعِ بِالنَّاسِ
 صَلَاحُ آخِرَتِهِمْ فَوَجِبَ بِمُقْتَضَى الشَّرَائِعِ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي
 أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ وَكَانَ هَذَا الْحُكْمُ لِأَهْلِ الشَّرِيعَةِ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ قَامَ فِيهِ
 مَقَامُهُمْ وَهُمْ الْخُلَفَاءُ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى الْخِلَافَةِ وَأَنَّ الْمُلْكَ الطَّبِيعِيَّ هُوَ
 حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى الْفَرَضِ وَالشَّهْوَةِ وَالسِّيَاسِيِّ هُوَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى

النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدنيوية الرجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به فأنهم ذلك واعتبره فيما نوره عليك من بعد والله الحكيم العليم .

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه

وَإِذْ قَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ هَذَا الْمَنْصِبِ وَأَنَّهُ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ تَسْمَى خِلَافَةً وَإِمَامَةً وَالْقَائِمُ بِهِ خَلِيفَةٌ وَإِمَامًا فَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ إِمَامًا فَتَشْبِيهَا بِإِمَامِ الصَّلَاةِ فِي اتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِ وَلِهَذَا يُقَالُ الْإِمَامَةُ الْكُبْرَى وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ خَلِيفَةً فَلِكُونِهِ يَخْلُفُ النَّبِيَّ فِي أُمْتِهِ فَيُقَالُ خَلِيفَةً بِإِطْلَاقٍ وَخَلِيفَةً رَسُولَ اللَّهِ وَاخْتَلَفَ فِي تَسْمِيَتِهِ خَلِيفَةَ اللَّهِ فَأَجَازَهُ بَعْضُهُمْ اقْتِبَاسًا مِنَ الْخِلَافَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي لِلْأَدَمِيِّينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » وَقَوْلِهِ « جَعَلَكُمْ خُلَافَةً الْأَرْضِ » .

وَمَنْعَ الْجُمْهُورِ مِنْهُ لِأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ لَيْسَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْهُ لَمَّا دُعِيَ بِهِ وَقَالَ « لَسْتُ خَلِيفَةَ اللَّهِ وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ » وَلِأَنَّ الْإِسْتِخْلَافَ إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّ الْغَائِبِ وَأَمَّا الْحَاضِرُ فَلَا . ثُمَّ إِنَّ نَصْبَ الْإِمَامِ وَاجِبٌ قَدْ عُرِفَ وَجُوبُهُ فِي الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ وَفَاتِهِ بَادَرُوا إِلَى بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَسْلِيمِ النَّظَرِ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِمْ وَكَذَا فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَلَمْ تَتْرِكِ النَّاسُ قَوْضَى فِي عَصْرِ مِنَ الْأَعْصَارِ وَاسْتَقَرَّ ذَلِكَ

إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام . وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه العقل ، وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه .

قالوا وإنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض . فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نبهنا على فسادِه وأن إحدى مقدماتِه أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما في أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو نقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتخريم الظلم عليه بحكم العقل فادعائهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذي قدمناه .

وقد شدّ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم ، والواجب عند هؤلاء إنما هو انضاء الحكم الشرع فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتاج إلى إمام ولا يجب نصبه هؤلاء مخجوجون بالإجماع . والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمئاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممثلة بدم ذلك والتغني على أهله ومرغبة في رفضه . وأعلم أن الشرع لم يدم الملك لذاته ولا خطر القيام به وإنما دم المفساد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع بالذات ولا شك أن في هذه مفساد مخطورة

وَهِيَ مِنْ تَوَابِعِهِ كَمَا أَتَى عَلَى الْعَدْلِ وَالنِّصْفَةِ وَإِقَامَةِ مَرَامِ الدِّينِ وَالذَّبِّ عَنْهُ
وَأَوْجَبَ بِإِزَائِهَا الثَّوَابَ وَهِيَ كُلُّهَا مِنْ تَوَابِعِ الْمُلْكِ .

فَإِذَا إِنَّمَا وَقَعَ الذَّمُّ لِلْمُلْكِ عَلَى صِفَةٍ وَحَالٍ دُونَ حَالٍ أُخْرَى وَلَمْ يَذُمَّ لِذَاتِهِ وَلَا
طَلَبَ تَرْكُهُ كَمَا ذَمَّ الشُّهُوَّةُ وَالْفُضْبُ مِنَ الْمُكَلِّفِينَ وَلَيْسَ مُرَادُهُ تَرْكُهُمَا بِالْكُلِّيَّةِ
لِدَعَايَةِ الضَّرُورَةِ إِلَيْهَا وَأَمَّا الْمُرَادُ تَضْرِيْفُهُمَا عَلَى مُقْتَضَى الْحَقِّ وَقَدْ كَانَ لِدَاوُدَ
وَسُلَيْمَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا الْمُلْكُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِمَا وَهُمَا مِنْ أَنْبِيَاءِ
اللَّهِ تَعَالَى وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ عِنْدَهُ ثُمَّ نَقُولُ لَهُمْ إِنَّ هَذَا الْفِرَارَ عَنِ الْمُلْكِ بَعْدَ وَجُوبِ هَذَا
النِّصْبِ ^(١) لَا يُغْنِيكُمْ شَيْئاً لَأَنْكُمْ مُوَافِقُونَ عَلَى وَجُوبِ إِقَامَةِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَذَلِكَ
لَا يَخْصُلُ إِلَّا بِالنِّصْبِ وَالشُّوْكَةِ وَالْعَصِيَّةِ مُقْتَضِيَةً بِطَبْعِهَا لِلْمُلْكِ فَيَخْصُلُ الْمُلْكُ
وَإِنْ لَمْ يُنْصَبْ إِمَامٌ وَهُوَ عَيْنُ مَا قَرَّرْتُمْ عَنْهُ . وَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ هَذَا النِّصْبَ وَاجِبٌ
بِاجْتِمَاعِ فَهْوٍ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ وَرَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ أَهْلِ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ
نُصْبُهُ وَيَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ جَمِيعاً طَاعَتُهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » .

وَأَمَّا شُرُوطُ هَذَا الْمَنْصِبِ فَهِيَ أَرْبَعَةٌ : الْعِلْمُ وَالْعَدَالَةُ وَالْكِفَايَةُ وَسَلَامَةُ
الْحَوَاسِّ وَالْأَعْضَاءِ مِمَّا يُؤَثِّرُ فِي الرَّأْيِ وَالْعَمَلِ وَاخْتِلَافٌ فِي شَرْطٍ خَامِسٍ وَهُوَ النَّسَبُ
الْقُرَشِيُّ فَأَمَّا اشْتِرَاطُ الْعِلْمِ فَظَاهِرٌ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مُنْفِذاً لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا كَانَ
عَالِماً بِهَا وَمَا لَمْ يَعْلَمْهَا لَا يَصِحُّ تَقْدِيمُهُ لَهَا وَلَا يَكْفِي مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
مُجْتَهِداً لِأَنَّ التَّقْلِيدَ تَقْصُ وَالْإِمَامَةَ تَسْتَدْعِي الْكَمَالَ فِي الْأَوْصَافِ وَالْأَحْوَالِ وَأَمَّا
الْعَدَالَةُ فَلِأَنَّهُ مَنْصِبٌ دِينِيٌّ يَنْظَرُ فِي سَائِرِ الْمَنَاصِبِ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِيهَا فَكَانَ أَوْلَى
بِاشْتِرَاطِهَا فِيهِ .

وَلَا خِلَافَ فِي انْتِفَاءِ الْعَدَالَةِ فِيهِ بِفُسْقِ الْجَوَارِحِ مِنْ ارْتِكَابِ الْمَحْظُورَاتِ
وَأَمْثَالِهَا وَفِي انْتِفَائِهَا بِالْبِدْعِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ خِلَافٌ .

(١) أَيِ نَصْبِ الْإِمَامِ .

وَأَمَّا الْكِفَايَةُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ جَرِيئاً عَلَى إِقَامَةِ الْحُدُودِ وَاقْتِحَامِ الْحُرُوبِ
بَصِيراً بِهَا كَفِياً يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهَا عَارِفاً بِالْعَصِيَّةِ وَأَحْوَالِ الدَّهَاءِ قَوِيّاً عَلَى
مُعَانَاةِ السِّيَاسَةِ لِيَصْحَ لَهُ بِذَلِكَ مَا جَعَلَ إِلَيْهِ مِنْ حِمَايَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْعَدُوِّ وَإِقَامَةِ
الْأَحْكَامِ وَتَنْذِيرِ الْمَصَالِحِ .

وَأَمَّا سَلَامَةُ الْحَوَاسِّ وَالْأَغْضَاءِ مِنَ النِّقْصِ وَالْعُطْلَةِ ^(١) كَالْجُنُونِ وَالْعَمَى وَالصَّمَمِ
وَالْخَرَسِ وَمَا يُؤْتَرُ فَقَدُهُ مِنَ الْأَغْضَاءِ فِي الْعَمَلِ كَقَدِّ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْأَنْثَيْنِ
فَتَشْتَرِطُ السَّلَامَةُ مِنْهَا كُلُّهَا لِتَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي تِمَامِ عَمَلِهِ وَقِيَامِهِ بِمَا جَعَلَ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ
إِنَّمَا يَشِينُ فِي الْمَنْظَرِ فَقَطْ كَقَدِّ إِحْدَى هَذِهِ الْأَغْضَاءِ فَشَرُطُ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرُطُ
كَمَالٍ وَيُلْحَقُ بِفَقْدَانِ الْأَغْضَاءِ الْمَنْعُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَهُوَ ضَرْبَانِ ضَرْبٌ يُلْحَقُ بِهِذِهِ
فِي اشْتِرَاطِ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرُطٌ وَجُوبٌ وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْعَجْزُ عَنِ التَّصَرُّفِ جُمْلَةً بِالْأَسْرِ
وَشَبْهِهِ وَضَرْبٌ لَا يُلْحَقُ بِهِذِهِ وَهُوَ الْحَجْرُ بِاسْتِيلَاءِ بَعْضِ أَعْوَانِهِ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ
عِصْيَانٍ وَلَا مُشَاقَّةٍ فَيَنْتَقِلُ النَّظَرُ فِي حَالِ هَذَا الْمُسْتَوْلى فَإِنْ جَرَى عَلَى حُكْمِ الدِّينِ
وَالْعَدْلِ وَحَمِيدِ السِّيَاسَةِ جَازَ قَرَارُهُ وَإِلَّا اسْتَنْصَرَ الْمُسْلِمُونَ بِمَنْ يَقْبِضُ يَدَهُ عَنْ
ذَلِكَ وَيَذْفَعُ عِلَّتَهُ حَتَّى يُنْفَذَ فِعْلُ الْخَلِيفَةِ .

وَأَمَّا النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ فَلِاجْتِمَاعِ الصُّحَابَةِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ عَلَى ذَلِكَ وَاخْتِجَتْ
قُرَيْشٌ عَلَى الْأَنْصَارِ لَمَّا هُمُوا يَوْمِيذٍ بَيْنَعَةِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَقَالُوا « مَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ
أَمِيرٌ » بِقَوْلِهِ ﷺ ، « الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ » وَبِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَانَا بِأَنْ
نُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ وَنَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ وَلَوْ كَانَتْ الْإِمَارَةُ فِيمَكُمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ
بِكُمْ فَحَجُّوا الْأَنْصَارَ وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ « مَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ » وَعَدَلُوا عَمَّا كَانُوا
هُمُوا بِهِ مِنْ بَيْنَعَةِ سَعْدٍ لِذَلِكَ . وَتَبَّتْ أَيْضاً فِي الصَّحِيحِ « لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي هَذَا
الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ » وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَدْلَةِ كَثِيرَةٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ قُرَيْشٍ وَتَلَاشَتْ

(١) تعطل الرجل إذا بقي لا عمل له والاسم العطلة وفلان ذو عطلة إذا لم تكن له صنعة يمارسها

(لسان العرب) وقد استعملها ابن خلدون بمعنى فقد الحواس أو تعطيلها .

عَصِيَّتُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّرَفِ وَالنِّعَمِ وَبِمَا أَنْفَقَتْهُمْ الدَّوْلَةُ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَجَزُوا بِذَلِكَ عَنْ حَمْلِ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعَاجِمُ وَصَارَ الْحُلُ وَالْعَقْدُ لَهُمْ فَاشْتَبَهَ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ حَتَّى ذَهَبُوا إِلَى نَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ وَعَوَّلُوا عَلَى ظَوَاهِرٍ فِي ذَلِكَ ، مِثْلَ قَوْلِهِ ﷺ « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ وَلِيَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ذُو زَبِيَّةٍ » وَهَذَا لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّمْثِيلِ وَالْفَرْضِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي إِنْجَابِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَمِثْلَ قَوْلِ عُمَرَ « لَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى حَذِيفَةَ حَيًّا لَوَلَّيْتُهُ أَوْ لَمَّا دَخَلْتَنِي فِيهِ الظَّنَّةُ » وَهُوَ أَيْضًا لَا يُفِيدُ ذَلِكَ لِمَا عَلِمَتْ أَنَّ مَذْهَبَ الصَّحَابِيِّ لَيْسَ بِحُجَّةٍ وَأَيْضًا فَمَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ وَعَصِيَّةُ الْوَلَاءِ حَاصِلَةٌ لِسَالِمٍ فِي قُرَيْشٍ وَهِيَ الْفَائِدَةُ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ وَلَمَّا اسْتَعْظَمَ عُمَرُ أَمْرَ الْخِلَافَةِ وَرَأَى شُرُوطَهَا كَأَنَّهَا مَفْقُودَةٌ فِي ظَنِّهِ عَدَلَ إِلَى سَالِمٍ لِتَوْفُرِ شُرُوطِ الْخِلَافَةِ عِنْدَهُ فِيهِ حَتَّى مِنَ النَّسَبِ الْمُفِيدِ لِلْعَصِيَّةِ كَمَا نَذَكُرُ وَلَمْ يَنْبِقِ إِلَّا صُرَاخَةُ النَّسَبِ فَرَأَهُ غَيْرَ مُخْتَارٍ إِلَيْهِ إِذِ الْفَائِدَةُ فِي النَّسَبِ إِنَّمَا هِيَ الْعَصِيَّةُ وَهِيَ حَاصِلَةٌ مِنَ الْوَلَاءِ فَكَانَ ذَلِكَ حِرْصًا مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْلِيدِ أَمْرِهِمْ لِمَنْ لَا تَلَحُّقُهُ فِيهِ لَائِمَةٌ وَلَا عَلَيْهِ فِيهِ عَهْدَةٌ .

وَمِنَ الْقَائِلِينَ بِنَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ لَمَّا أَدْرَكَ عَلَيْهِ عَصِيَّةُ قُرَيْشٍ مِنَ التَّلَاشِي وَالْإِضْمِخْلَالِ وَاسْتِبْدَادِ مُلُوكِ الْعَجَمِ مِنَ الْخُلَفَاءِ فَاسْقَطَ شَرْطَ الْقُرَشِيَّةِ وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِرَأْيِ الْخَوَارِجِ لَمَّا رَأَى عَلَيْهِ خَالَ الْخُلَفَاءِ لِعَهْدِهِ وَبَقِيَ الْجُمُهورُ عَلَى الْقَوْلِ بِاشْتِرَاطِهَا وَصَحَّةِ الْإِمَامَةِ لِلْقُرَشِيِّ وَلَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ الْقِيَامِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ سُقُوطُ شَرْطِ الْكِفَايَةِ الَّتِي يَقْوَى بِهَا عَلَى أَمْرِهِ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَتِ الشُّوْكَةُ بِذَهَابِ الْعَصِيَّةِ فَقَدْ ذَهَبَتِ الْكِفَايَةُ وَإِذَا وَقَعَ الْإِخْلَالُ بِشَرْطِ الْكِفَايَةِ تَطَرَّقَ ذَلِكَ أَيْضًا إِلَى الْعِلْمِ وَالذِّينِ وَسَقَطَ اعْتِبَارُ شُرُوطِ هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُوَ خِلَافُ الْاجْتِمَاعِ .

وَلْتَتَكَلَّمِ الْآنَ فِي حِكْمَةِ اشْتِرَاطِ النَّسَبِ لِيَتَحَقَّقَ بِهِ الصُّوَابُ فِي هَذِهِ الْمَذَاهِبِ

فَنَقُولُ : إِنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَقَاصِدَ وَحَكَمٍ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا وَتُشَرِّعُ لِأَجْلِهَا وَنَحْنُ إِذَا بَحَثْنَا عَنِ الْحِكْمَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ الْقُرَشِيِّ وَمَقْصِدِ الشَّارِعِ مِنْهُ لَمْ يَقْتَصِرْ فِيهِ عَلَى التَّبَرُّكِ بِوَصْلَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا هُوَ فِي الْمَشْهُورِ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْوَصْلَةُ مَوْجُودَةً وَالتَّبَرُّكِ بِهَا حَاصِلًا لَكِنَّ التَّبَرُّكَ لَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ كَمَا عَلِمْتَ فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّتِهَا وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَمْنَا لَمْ نَجِدْهَا إِلَّا اِعْتِبَارَ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَيَرْتَفِعُ الْخِلَافُ وَالْفَرْقَةُ بِوُجُودِهَا لِصَاحِبِ الْمَنْصِبِ فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ الْمِلَّةُ وَأَهْلُهَا وَيَنْتَظِمُ حُبُّ الْإِلْفَةِ فِيهَا وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا عِصْبَةً مُضَرَّ وَأَصْلُهُمْ وَأَهْلُ الْغَلْبِ مِنْهُمْ وَكَانَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ مُضَرِّ الْعِزَّةُ بِالكَثْرَةِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَالشَّرَفِ فَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَعْتَرِفُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَيَسْتَكِينُونَ لِغَلْبِهِمْ فَلَوْ جُعِلَ الْأَمْرُ فِي سِوَاهُمْ لَتَوَقَّعَ افْتِرَاقُ الْكَلِمَةِ بِمُخَالَفَتِهِمْ وَعَدَمِ انْقِيَادِهِمْ وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُمْ مِنْ قِبَائِلِ مُضَرَّ أَنْ يَرُدُّهُمْ عَنِ الْخِلَافِ وَلَا يَحْمِلَهُمْ عَلَى الْكُرَّةِ فَتَتَفَرَّقُ الْجَمَاعَةُ وَتَخْتَلِفُ الْكَلِمَةُ .

وَالشَّارِعُ مُحَذَّرٌ مِنْ ذَلِكَ خَرِيصٌ عَلَى اتِّفَاقِهِمْ وَرَفِعَ التَّنَازُعَ وَالشَّتَاتَ بَيْنَهُمْ لِيَتَخَصَّلَ اللَّحْمَةُ وَالْعَصَبِيَّةُ وَتَحْسُنَ الْحِمَايَةُ بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ . لِأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى سَوْقِ النَّاسِ بِعَصَا الْغَلْبِ إِلَى مَا يَرَادُ مِنْهُمْ فَلَا يُخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ خِلَافِ عَلَيْهِمْ وَلَا فَرْقَةٍ لِأَنَّهُمْ كَفِيلُونَ حِينَئِذٍ بِدَفْعِهَا وَمَنْعِ النَّاسِ مِنْهَا فَاشْتَرَطَ نَسَبَهُمُ الْقُرَشِيَّ فِي هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُمْ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ لِيَكُونَ أُبْلَغَ فِي انْتِظَامِ الْمِلَّةِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ وَإِذَا انْتَضَمَتْ كَلِمَتُهُمْ انْتَضَمَتْ بِانْتِظَامِهَا كَلِمَةُ مُضَرَّ أَجْمَعَ فَأَدْعَى لَهُمْ سَائِرُ الْعَرَبِ وَانْقَادَتِ الْأُمَمُ سِوَاهُمْ إِلَى أَحْكَامِ الْمِلَّةِ وَوُطِّئَتْ جُنُودُهُمْ قَاصِيَةَ الْبِلَادِ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ الْفَتْوحَاتِ وَاسْتَمَرَّ بَعْدَهَا فِي الدَّوْلَتَيْنِ إِلَى أَنْ اِضْمَحَلَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ وَيَعْلَمُ مَا كَانَ لِقُرَيْشٍ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالتَّغْلِبِ عَلَى بَطُونِ مُضَرَّ مِنْ مَارَسِ أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَسِيرَتِهِمْ وَتَفَقُّنِ لِدَلِكِ فِي أَحْوَالِهِمْ .

وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ السِّيَرِ وَغَيْرِهِ فَإِذَا ثُبِتَ أَنَّ اشْتِرَاطَ

الْقُرَشِيَّةُ إِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ التَّنَازُعِ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَالغَلَبِ وَعَلِمْنَا أَنَّ الشَّارِعَ لَا يَخْصُ الْأَحْكَامَ بِجِيلٍ وَلَا عَصْرٍ وَلَا أُمَّةٍ عَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْكِفَايَةِ فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهَا وَطَرَدْنَا الْعِلَّةَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْقُرَشِيَّةِ وَهِيَ وَجُودُ الْعَصَبِيَّةِ فَاشْتَرَطْنَا فِي الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ أُولَى عَصَبِيَّةٍ قَوِيَّةٍ غَالِبَةٍ عَلَى مَنْ مَعَهَا لِعَضْرُهَا لِيَسْتَشْبِعُوا مَنْ سِوَاهُمْ وَتَجْتَمَعَ الْكَلِمَةُ عَلَى حُسْنِ الْحِمَايَةِ وَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ فِي الْأَقْطَارِ وَالْآفَاقِ كَمَا كَانَ فِي الْقُرَشِيَّةِ إِذِ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ كَانَتْ عَامَّةً وَعَصَبِيَّةً الْقَرْبِ كَانَتْ . وَافِيَةً بِهَا فَعَلُّوا سَائِرَ الْأُمَمِ وَإِنَّمَا يَخْصُ لِهَذَا الْعَهْدِ كُلِّ قُطْرٍ بِمَنْ تَكُونُ لَهُ فِيهِ الْعَصَبِيَّةُ الْغَالِبَةُ وَإِذَا نَظَرْتَ سِرُّ اللَّهِ فِي الْخِلَافَةِ لَمْ تَعُدْ هَذَا لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا جَعَلَ الْخَلِيفَةَ نَائِباً عَنْهُ فِي الْقِيَامِ بِأُمُورِ عِبَادِهِ لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَرْدَهُمْ عَنْ مَضَارِهِمْ وَهُوَ مُخَاطَبٌ بِذَلِكَ وَلَا يُخَاطَبُ بِالْأَمْرِ إِلَّا مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ أَلَا تَرَى مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ ^(١) فِي شَأْنِ النِّسَاءِ وَأَنَّهِنَّ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ جُعِلْنَ تَبَعاً لِلرِّجَالِ وَلَمْ يَدْخُلْنَ فِي الْخِطَابِ بِالْوَضْعِ . وَإِنَّمَا دَخَلْنَ عِنْدَهُ بِالْقِيَاسِ وَذَلِكَ لِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَكَانَ الرِّجَالُ قَوَّامِينَ عَلَيْهِنَّ اللَّهُمَّ إِلَّا فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي كُلُّ أَحَدٍ فِيهَا قَائِمٌ عَلَى نَفْسِهِ فَيُخَاطَبُ فِيهَا بِالْوَضْعِ لَا بِالْقِيَاسِ ثُمَّ إِنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِأَمْرِ أُمَّةٍ أَوْ جِيلٍ إِلَّا مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ وَقُلْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ مُخَالِفاً لِلْأَمْرِ الْوُجُودِيِّ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) قوله الإمام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر .

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

إِغْلَمْ أَنَّ الشَّيْعَةَ لَفَةٌ هُمْ الصُّحْبُ وَالْأَتْبَاعُ وَيُطْلَقُ فِي عَرَفِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ ^(١) مِنَ الْخَلْفِ وَالسُّلَفِ عَلَى اتِّبَاعِ عَلِيِّ وَبَنِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَذْهَبِهِمْ جَمِيعاً مُتَّفِقِينَ عَلَيْهِ أَنَّ الْإِمَامَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَقُوضُ إِلَى نَظَرِ الْأُمَّةِ وَيَتَعَيَّنُ الْقَائِمُ بِهَا بِتَغْيِينِهِمْ بَلْ هِيَ رُكْنُ الدِّينِ وَقَاعِدَةُ الْإِسْلَامِ وَلَا يَجُوزُ لِنَبِيِّ إِغْفَالِهِ وَلَا تَقْوِيضُهُ إِلَى الْأُمَّةِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَغْيِينُ الْإِمَامِ لَهُمْ وَيَكُونُ مَغْضُوماً مِنَ الْكِبَائِرِ وَالصُّغَائِرِ وَإِنْ عَلِيّاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الَّذِي عَيْنُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِنُصُوصٍ يَنْقُلُونَهَا وَيُؤْوِلُونَهَا عَلَى مُقْتَضَى مَذْهَبِهِمْ لَا يَعْرِفُهَا جِهَابُذَةُ السُّنَّةِ وَلَا نَقْلَةُ الشَّرِيعَةِ بَلْ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ أَوْ مَطْعُونٌ فِي طَرِيقِهِ أَوْ يَعِيدُ عَنْ تَأْوِيلَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ .

وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ النُّصُوصُ عِنْدَهُمْ إِلَى جَلِيٍّ وَخَفِيِّ فَالْجَلِيُّ مِثْلُ قَوْلِهِ « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاً فَعَلِيٌّ مَوْلَاً » قَالُوا وَلَمْ تُطَرِّدْ هَذِهِ الْوَلَايَةَ إِلَّا فِي عَلِيٍّ وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُمَرُ « أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ » وَمِنْهَا قَوْلُهُ « أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ » وَلَا مَعْنَى لِلْإِمَامَةِ إِلَّا الْقَضَاءُ بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَهُوَ الْمُرَادُ بِأُولَى الْأَمْرِ الْوَاجِبَةِ طَاعَتُهُمْ بِقَوْلِهِ « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » وَالْمُرَادُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ وَلِهَذَا كَانَ حُكْمًا

(١) هم علماء التوحيد المسمى بعلم الكلام .

فِي قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْهَا قَوْلُهُ « مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى رُوحِهِ وَهُوَ وَصِيٌّ وَوَلِيُّ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي » فَلَمْ يُبَايِعْهُ إِلَّا عَلِيُّ .

وَمِنْ الْخَفِيِّ عِنْدَهُمْ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا لِقِرَاءَةِ سُورَةِ بَرَاءَةِ فِي الْمَوْسِمِ حِينَ أَنْزَلَتْ فَإِنَّهُ بَعَثَ بِهَا أَوَّلًا أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ أَوْحَى إِلَيْهِ لِيُبَلِّغَهُ رَجُلٌ مِنْكَ أَوْ مِنْ قَوْمِكَ فَبَعَثَ عَلِيًّا لِيَكُونَ الْقَارِئُ الْمُبَلِّغُ قَالُوا ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيمِ عَلِيٍّ . وَأَيْضًا فَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ قَدَّمَ أَحَدًا عَلَى عَلِيٍّ . وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَدَّمَا عَلَيْهِمَا فِي غَزَاتَيْنِ ^(١) أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ مَرَّةً وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ أُخْرَى وَهَذِهِ كُلُّهَا أُدْلَةٌ شَاهِدَةٌ بِتَغْيِينِ عَلِيٍّ لِلْخِلَافَةِ دُونَ غَيْرِهِ فَمِنْهَا مَا هُوَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ وَمِنْهَا مَا هُوَ يَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلِهِمْ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ تَدُلُّ عَلَى تَغْيِينِ عَلِيٍّ وَتَشْخِصِهِ . وَكَذَلِكَ تَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْإِمَامِيَّةُ وَيَتَبَرَّأُونَ مِنَ الشَّيْخَيْنِ حَيْثُ لَمْ يَقْدُمُوا عَلِيًّا وَيُبَايِعُوهُ بِمُقْتَضَى هَذِهِ النُّصُوصِ وَيَغْمِضُونَ ^(٢) فِي إِمَامَتِهِمَا وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى ثَقُلِ الْقُدْحِ فِيهِمَا مِنْ غَلَاتِهِمْ فَهُوَ مَرْدُودٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ هَذِهِ الْأَدْلَةَ إِنَّمَا اقْتَضَتْ تَغْيِينَ عَلِيٍّ بِالْوُضْفِ لَا بِالشَّخْصِ وَالنَّاسُ مُقْصَرُونَ حَيْثُ لَمْ يَضَعُوا الْوُضْفَ مَوْضِعَهُ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الزَّيْدِيَّةُ وَلَا يَتَبَرَّأُونَ مِنَ الشَّيْخَيْنِ وَلَا يَغْمِضُونَ فِي إِمَامَتِهِمَا مَعَ قَوْلِهِمْ بِأَنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْهُمَا لَكِنَّهُمْ يَجُوزُونَ إِمَامَةَ الْمَفْضُولِ مَعَ وَجُودِ الْأَفْضَلِ .

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ تَقُولُ هَؤُلَاءِ الشَّيْعَةِ فِي مَسَاقِ الْخِلَافَةِ بَعْدَ عَلِيٍّ فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا فِي وَلَدِ فَاطِمَةَ بِالنِّصِّ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى مَا يُذَكَّرُ بَعْدَ وَهَؤُلَاءِ يَسْمَوْنَ الْإِمَامِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى مَقَالَتِهِمْ بِاشْتِرَاطِ مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ وَتَغْيِينِهِ فِي الْإِيمَانِ وَهِيَ أَضَلُّ عِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا فِي وَلَدِ فَاطِمَةَ لَكِنْ بِالِاخْتِيَارِ مِنَ الشُّيُوخِ وَيَشْتَرِطُ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ مِنْهُمْ عَالِمًا زَاهِدًا جَوَادًا شَجَاعًا وَيَخْرُجُ دَاعِيًا إِلَى إِمَامَتِهِ وَهَؤُلَاءِ هُمُ

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ وَالْأَصَحُّ أَنْ يَقُولَ غَزَوَتَيْنِ . مَشْنَى غَزْوَةٍ .

(٢) غَمَضَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ، كَذَبَ عَلَيْهِ كَلَامُهُ . عَابَهُ عَلَيْهِ . وَغَمَضَهُ ، حَقَرَهُ وَاسْتَصْفَرَهُ (قَامُوسٌ) .

الزَيْدِيَّةُ نِسْبَةٌ إِلَى صَاحِبِ الْمَذْهَبِ وَهُوَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّبْطِ ^(١) وَقَدْ كَانَ يَنَظُرُ أَخَاهُ مُحَمَّدًا الْبَاقِرَ عَلَى اشْتِرَاطِ الْخُرُوجِ فِي الْإِمَامِ فَلِئَلَّا يُنَزَّمَهُ الْبَاقِرُ أَنْ لَا يَكُونَ أَبُوهُمَا زَيْنُ الْعَايِدِينَ إِمَامًا لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ وَلَا تَعَرَّضَ لِلْخُرُوجِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَنْعَى عَلَيْهِ مَذَاهِبَ الْمُعْتَزَلَةِ وَأَخَذَهُ إِيَّاهَا عَنْ وَاصِلِ بْنِ عَطِيَاءٍ وَلَمَّا نَظَرَ الْإِمَامِيَّةُ زَيْدًا فِي إِمَامَةِ الشَّيْخَيْنِ وَرَأَوْهُ يَقُولُ بِإِمَامَتِهِمَا وَلَا يَتَّبِعُ مِنْهُمَا رَفْضُوهُ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ مِنَ الْأَثِمَةِ وَبِذَلِكَ سُمُّوا رَافِضَةً وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَ عَلِيٍّ وَابْنَيْهِ السَّبْطَيْنِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَى أَحْيَاهُمَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ ثُمَّ إِلَى وَلَدِهِ وَهُمْ الْكَيْسَانِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى كَيْسَانَ مَوْلَاهُ وَبَيَّنَ هَذِهِ الطَّوَائِفِ اخْتِلَافَاتٌ كَثِيرَةٌ تَرَكْنَاهَا اخْتِصَارًا

وَمِنْهُمْ طَوَائِفٌ يَسْمُونَ الْغَلَاةَ تَجَاوَزُوا حَدَّ الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ فِي الْقَوْلِ بِالْهُوِيَّةِ هَؤُلَاءِ الْأَثِمَةُ . إِمَّا عَلَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ اتَّصَفُوا بِصِفَاتِ الْأَلُوْهِيَّةِ أَوْ أَنَّ الْإِلَهَ حَلَّ فِي ذَاتِهِ الْبَشَرِيَّةَ وَهُوَ قَوْلٌ بِالْحُلُولِ يُوَافِقُ مَذْهَبَ النَّصَارَى فِي عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَقَدْ حَرَقَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ مَنْ ذَهَبَ فِيهِ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ وَسَخَطَ ^(٢) مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْهُ فَصَرَّحَ بِلُغْنَتِهِ وَالْبَرَاءَةَ مِنْهُ وَكَذَلِكَ فَعَلَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنْ بَلَغَهُ مِثْلُ هَذَا عَنْهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ كَمَالَ الْإِمَامِ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ فَإِذَا مَاتَ انْتَقَلَتْ رُوحُهُ إِلَى إِمَامٍ آخَرَ لِيَكُونَ فِيهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ وَهُوَ قَوْلٌ بِالتَّنَاسُخِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْغَلَاةِ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثِمَةِ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى غَيْرِهِ بِحَسَبِ مَنْ يُعَيِّنُ لِذَلِكَ عَنْدَهُمْ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْوَاقِفِيَّةُ فَبَغَضَهُمْ يَقُولُ هُوَ حَقٌّ لَمْ يَمُتْ إِلَّا أَنَّهُ غَائِبٌ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَيَسْتَشْهَدُونَ لِذَلِكَ بِقِصَّةِ الْخَضِرِ ^(٣) قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِنَّهُ فِي السُّحَابِ وَالرَّعْدِ

(١) السبط ، ولد البنت . ولذلك يطلق على الحسن والحسين ابني الإمام علي (رضي الله عنهم) من فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) بنت رسول الله ﷺ فكل منهما سبط للرسول ﷺ .

(٢) ربما سقط حرف على من الجملة . بحيث تصبح الجملة « وسخط محمد بن الحنفية على المختار » .

(٣) ورد ذكر هذه القصة في القرآن الكريم « سورة الكهف بين الآية ٦٥ - ٨٥ » .

صَوْتُهُ وَالْبَرْقُ فِي صَوْتِهِ وَقَالُوا مِثْلَهُ فِي مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَإِنَّهُ فِي جَبَلٍ رَضَوَى مِنْ
أَرْضِ الْحِجَازِ .

وَقَالَ شَاعِرُهُمْ .

أَلَا إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَوَلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ
عَلَيَّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خِفَاءٌ
فَسَبَطُ سَبَطِ إِيْمَانٍ وَبِرٍّ وَسَبَطُ غَيْبَتِهِ كَرْبَلَاءُ
وَسَبَطُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْجَيْشَ يَقْدُمُهُ اللَّوَاءُ
تَغَيَّبَ لَا يَرَى فِيهِمْ زَمَانًا بِرَضَوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ
وَقَالَ مِثْلَهُ غُلَاةُ الْإِمَامِيَّةِ وَخُصُوصًا الْإِثْنَا عَشْرِيَّةُ مِنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الثَّانِي عَشَرَ
مِنْ أَيْمَتِهِمْ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ وَيَلْقَبُونَهُ الْمُهْدِيَّ دَخَلَ فِي سِرْدَابٍ
بِدَارِهِمْ فِي الْحِلَّةِ ^(١) وَتَغَيَّبَ حِينَ اغْتَقَلَ مَعَ أُمِّهِ وَغَابَ هُنَالِكَ وَهُوَ يَخْرُجُ آخِرَ
الزَّمَانِ فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَذْلًا يُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْخَبَرِ الْوَاقِعِ فِي كِتَابِ التَّرْمِذِيِّ فِي
الْمُهْدِيِّ وَهُمْ إِلَى الْآنِ يَنْتَظِرُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ الْمُنتَظَرُ لِذَلِكَ ، وَيَقْفُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ
صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بِيَابَ هَذَا السِّرْدَابِ وَقَدْ قَدَّمُوا مَرْكَبًا فَيَتَقَفُونَ بِاسْمِهِ وَيَدْعُونَهُ
لِلْخُرُوجِ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ ثُمَّ يَنْفُضُونَ وَيَرْجِعُونَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّيْلَةِ الْآتِيَةِ وَهُمْ عَلَى
ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَبَعْضُ هَؤُلَاءِ الْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ
الدُّنْيَا وَيَسْتَشْهَدُونَ لِذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَالَّذِي مَرَّ
عَلَى قَرْيَةٍ وَقَتِيلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ الْبَقَرَةِ الَّتِي أَمَرُوا بِذَبْحِهَا وَمِثْلُ
ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى طَرِيقِ الْمُعْجِزَةِ وَلَا يَصِحُّ الْإِسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ
مَوَاضِعِهَا وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّيِّدُ الْحِمَيْرِيُّ وَمِنْ شِعْرِهِ فِي ذَلِكَ

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَذَالٌ وَعَلَّلَهُ الْمَوَاسِطُ بِالْخِضَابِ ^(٢)

فَقَدْ ذَهَبَتْ بَشَاشَتُهُ وَأَوْدَى فَقَمَّ يَاصَاحُ نَبْكَ عَلَى الشَّبَابِ

(١) المعروف أنه غاب في سامراء ومقامه معروف إلى اليوم .

(٢) قذال ، ج قذَل وأقذلة ، ما بين الأذنين من مؤخر الرأس . الخضاب ، الحنة .

إلى يَوْمِ تَتُوبُ النَّاسُ فِيهِ إلى ذُنُوبِهِمْ قَبْلَ الْحِسَابِ
فَلَيْسَ بِعَائِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ إلى أَحَدٍ إلى يَوْمِ الْإِيَابِ
أَدِينُ بِأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقٍّ وَمَا أَنَا فِي النُّشُورِ بِذِي ارْتِيَابِ
كَذَاكَ اللَّهُ أَخْبَرَ عَنْ أَنَسٍ حَيُوا مِنْ بَعْدِ دَرَسٍ فِي التُّرَابِ

وَقَدْ كَفَانَا مَوْتُهُ هَؤُلَاءِ الْغَلَاةِ أَيْمَةُ الشَّيْعَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَا وَيَنْبَطِلُونَ
اِخْتِجَاجَاتِهِمْ عَلَيْهَا وَأَمَّا الْكَيْسَانِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ إِلَى
ابْنِهِ أَبِي هَاشِمٍ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْهَاشِمِيَّةُ ثُمَّ افْتَرَقُوا فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيِّ
ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ وَآخَرُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هَاشِمٍ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ السَّرَاةِ
مُنْصَرَفًا مِنَ الشَّامِ أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَوْصَى مُحَمَّدٌ
إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفِ بِالْإِمَامِ وَأَوْصَى إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِيَّةِ
الْمُلَقَّبِ بِالسَّفَاحِ وَأَوْصَى هُوَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرِ الْمُلَقَّبِ بِالْمَنْصُورِ
وَانْتَقَلَتْ فِي وَلَدِهِ بِالنَّصِّ وَالْعَهْدِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهِمْ وَهَذَا مَذْهَبُ الْهَاشِمِيَّةِ
الْقَائِمِينَ بِذَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو مُسْلِمٍ وَسَلِيمَانُ بْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو سَلَمَةَ
الْخَلَّالُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ شَيْعَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَرُبَّمَا يَفْضُدُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ حَقَّهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ
يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَبَّاسِ لِأَنَّهُ كَانَ حَيًّا وَقَتَ الْوَفَاةِ وَهُوَ أَوْلَى بِالْوَرَاثَةِ بِعَصْبِيَّةِ
الْعُمُومَةِ وَأَمَّا الزَّيْدِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِيهَا وَإِنَّمَا بِاخْتِيَارِ أَهْلِ الْحُلِّ
وَالْعَقْدِ لَا بِالنَّصِّ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ عَلِيٍّ ثُمَّ ابْنِهِ الْحَسَنِ ثُمَّ أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ ابْنِهِ
زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ وَهُوَ صَاحِبُ هَذَا الْمَذْهَبِ وَخَرَجَ بِالْكُوفَةِ دَاعِيًا إِلَى الْإِمَامَةِ فَقُتِلَ
وَصُلِبَ بِالْكُنَاسَةِ وَقَالَ الزَّيْدِيَّةُ بِإِمَامَةِ ابْنِهِ يَحْيَى مِنْ بَعْدِهِ فَمَضَى إِلَى خُرَاسَانَ
وَقُتِلَ بِالْجُورْجَانِ بَعْدَ أَنْ أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ
السَّبْطِ وَيُقَالُ لَهُ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ ، فَخَرَجَ بِالْحِجَازِ وَتَلَقَّبَ بِالْمَهْدِيِّ وَجَاءَتْهُ عَسَاكِرُ
الْمَنْصُورِ فَقُتِلَ وَعُهِدَ إِلَى أَخِيهِ إِبْرَاهِيمَ فَقَامَ بِالْبَصْرَةِ وَمَعَهُ عَيْسَى بْنُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ
فَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ عَسَاكِرَهُ فَهَزَمَ وَقُتِلَ إِبْرَاهِيمُ وَعَيْسَى وَكَانَ جَعْفَرُ الصَّادِقِ

أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَعْدُودَةٌ فِي كَرَامَاتِهِ وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّفْسَ الزُّكِّيَّةَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عُمَرَ ، وَعُمَرُ هُوَ أَخُو زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بِالطَّلَاقِ فَقَبَضَ عَلَيْهِ وَسِيقَ إِلَى الْمُقْتَصِمِ فَحَبَسَهُ وَمَاتَ فِي حَبْسِهِ وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزَّيْدِيَّةِ إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ هُوَ أَخُوهُ عَيْسَى الَّذِي حَضَرَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قِتَالِهِ مَعَ مَنْصُورٍ وَنَقَلُوا الْإِمَامَةَ فِي عَقِبِهِ وَآلِيهِ انْتَسَبَ دَعْيُ الزَّنْجِ كَمَا نَذَكُرُهُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزَّيْدِيَّةِ إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَخُوهُ إِدْرِيسُ الَّذِي فَرَّ إِلَى الْمَغْرِبِ وَمَاتَ هُنَاكَ وَقَامَ بِأَمْرِهِ ابْنُهُ إِدْرِيسُ وَاخْتَطَّ مَدِينَةَ فَاسَ وَكَانَ مِنْ بَعْدِهِ عَقِبُهُ مُلُوكًا بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَنْ انْقَرَضُوا كَمَا نَذَكُرُهُ فِي أَخْبَارِهِمْ . وَيَبْقَى أَمْرُ الزَّيْدِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرُ مُنْتَظِمٍ وَكَانَ مِنْهُمْ الدَّاعِي الَّذِي مَلَكَ طَبْرَسْتَانَ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ زَيْدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّبْطِ وَأَخُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ ثُمَّ قَامَ بِهِذِهِ الدَّعْوَةُ فِي الدَّيْلَمِ النَّاصِرُ الْأَطْرُوشُ مِنْهُمْ ، وَأَسْلَمُوا عَلَى يَدِهِ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عُمَرَ وَعُمَرُ أَخُو زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَكَانَتْ لِبَنِيهِ بَطْبَرَسْتَانُ دَوْلَةٌ وَتَوَصَّلَ الدَّيْلَمُ مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى الْمُلْكِ وَالْإِسْتِبْدَادِ عَلَى الْخُلَفَاءِ بِنَعْدَادٍ كَمَا نَذَكُرُ فِي أَخْبَارِهِمْ . وَأَمَّا الْإِمَامِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيِّ الرِّضِيِّ ^(١) إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بِالْوَصِيَّةِ ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَمِنْ هُنَا افْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةٌ سَاقَوْهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ بِالْإِمَامِ وَهُمْ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَفِرْقَةٌ سَاقَوْهَا إِلَى ابْنِهِ مُوسَى الْكَاطِمِ وَهُمْ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةُ لَوْقُوفِهِمْ عِنْدَ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَقَوْلِهِمْ بِغَيْبِيَّتِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا مَرَّ قَامَا الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامَ بِالنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ وَفَائِدَةُ النَّصِّ عَلَيْهِ عَنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ الْإِمَامَةِ فِي عَقِبِهِ كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا قَالُوا ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْمَكْتُومِ وَهُوَ أَوَّلُ الْأَئِمَّةِ

(١) يقصد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

المستورين لأن الإمام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر وتكون دُعَاة ظاهرين إقامة للحجة على الخلق وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته قالوا وبَعْدَ مُحَمَّدٍ الْمَكْتُومِ ابْنُهُ جَعْفَرُ الصَّادِقُ ^(١) وَبَعْدَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَبِيبُ وَهُوَ آخِرُ الْمُسْتُورِينَ وَبَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ الْمُهْدِي الَّذِي أَظْهَرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْمِيُّ فِي كِتَابَةِ وَتَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مَغْتَلِهِ بِسِجْلَمَاسَةَ وَمَلِكُ الْقَيْزَوَانَ وَالْمَغْرِبَ وَمَلِكُ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ مِضَرٌ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيُسَمَّى هَؤُلَاءِ نِسْبَةً إِلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ وَيُسَمُّونَ أَيْضًا بِالْبَاطِنِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى قَوْلِهِمْ بِالْإِمَامِ الْبَاطِنِ أَيْ الْمُسْتُورِ وَيُسَمُّونَ أَيْضًا الْمُلْحِدَةَ لِمَا فِي ضَمَنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ الْإِلْحَادِ وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ قَدِيمَةٌ وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ دَعَا إِلَيْهَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصُّبَّاحِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَمَلِكُ خُصُونًا بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَلَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ تَوَزَّعَ الْهَلَاكُ بَيْنَ مُلُوكِ التُّرْكِ بِمِضَرٍ وَمُلُوكِ التُّتَرِ بِالْعِرَاقِ فَأَنْفَرَضَتْ . وَمَقَالَةُ هَذَا الصُّبَّاحِ فِي دَعْوَتِهِ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ « الْمِلَلِ وَالنَّحْلِ » لِلشَّهْرِسْتَانِيِّ ، وَأَمَّا الْإِثْنَا عَشْرِيَّةُ فَرُبَّمَا خُصُّوا بِاسْمِ الْإِمَامِيَّةِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ مُوسَى الْكَاطِمِ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ لِقَوَاةِ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أُبَيِّهِمَا جَعْفَرٍ فَفَضَّ عَلَى إِمَامَةِ مُوسَى هَذَا ، ثُمَّ ابْنُهُ عَلَيْهِ الرِّضَا الَّذِي عَهْدَ إِلَيْهِ الْمُأْمُونُ وَمَاتَ قَبْلَهُ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ التَّقِيُّ ثُمَّ ابْنُهُ عَلَيْهِ الْهَادِي ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيُّ ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْمُهْدِي الْمُنْتَظَرُ الَّذِي قَدَّمَ نَاهَ قَبْلُ وَفِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ لِلشَّيْعَةِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ أَشْهُرُ مَذَاهِبِهِمْ وَمَنْ أَرَادَ اسْتِيْعَابَهَا وَمُطَالَعَتَهَا فَعَلَيْهِ بِكِتَابِ الْمِلَلِ وَالنَّحْلِ لِابْنِ حَزْمٍ ^(٢) وَالشَّهْرِسْتَانِيِّ وَغَيْرِهِمَا فَبَيَّنَ ذَلِكَ وَاللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

(١) لقب الاسماعيلية جعفر بن محمد للكثوم بلقب جده الثاني جعفر الصادق .

(٢) كتاب ابن حزم اسمه : « الفضل في الملل والنحل » وكتاب الشهرستاني « الملل والنحل » .

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة إلى الملك

إِغْلَمْ أَنَّ الْمُلْكَ غَايَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْعَصِيَّةِ لَيْسَ وَقُوعُهُ عَنْهَا بِاخْتِيَارٍ إِنَّمَا هُوَ بِضَرُورَةِ الْوُجُودِ وَتَرْتِيبِهِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ الشَّرَائِعَ وَالذِّيَانَاتِ وَكُلَّ أَمْرٍ يَخْلُ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَصِيَّةِ إِذِ الْمُطَالَبَةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهَا كَمَا قَدْ مَنَّا . فَالْعَصِيَّةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمِلَّةِ وَبُجُودُهَا يَتِمُّ أَمْرُ اللَّهِ مِنْهَا وَفِي الصَّحِيحِ « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ » ثُمَّ وَجَدْنَا الشَّارِعَ قَدْ ذَمَّ الْعَصِيَّةَ وَنَدَبَ إِلَى اطْرَاحِهَا وَتَرْكِهَا فَقَالَ « إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ ^(١) الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَّرَهَا بِالْأَبَاءِ أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » وَقَالَ تَعَالَى « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » وَوَجَدْنَا أَيْضًا قَدْ ذَمَّ الْمُلْكَ وَأَهْلَهُ وَنَعَى عَلَى أَهْلِهِ أَحْوَالَهُمْ مِنَ الْإِسْتِمْتَاعِ بِالْخِلَاقِ ^(٢) وَالْإِسْرَافِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ وَالتَّنَكُّبِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ وَإِنَّمَا حَصَّ عَلَى الْإِلَافَةِ فِي الدِّينِ وَحَذَرَ مِنَ الْخِلَافِ وَالْفِرْقَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَأَحْوَالَهَا مَطِيَّةٌ لِلْآخِرَةِ وَمَنْ فَقَدَ الْمَطِيَّةَ فَقَدَ الْوُصُولَ ، وَلَيْسَ مُرَادُهُ فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ أَوْ يَذْمُهُ مِنْ أَعْقَالِ الْبَشَرِ أَوْ يَنْدُبُ إِلَى تَرْكِهِ إِهْمَالَهُ بِالْكُلِّيَّةِ أَوْ اقْتِلَاعَهُ مِنْ أَضْلِهِ وَتَعْطِيلُ الْقَوَى الَّتِي يَنْشَأُ عَلَيْهَا بِالْكُلِّيَّةِ إِنَّمَا قَصْدُهُ تَضْرِيْفُهَا فِي أَغْرَاضِ الْحَقِّ جُهْدُ الْإِسْتِطَاعَةِ حَتَّى تَصِيرَ الْمَقَاصِدُ كُلُّهَا حَقًّا وَتَتَّحِدَ الْوُجْهَةُ كَمَا قَالَ ﷺ « مَنْ كَانَتْ هُجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هُجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا فَهُجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » فَلَمْ يَذْمُ الْعُصْبَ وَهُوَ يَقْصِدُ نَزْعَهُ مِنَ الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَوْ زَالَتْ مِنْهُ قُوَّةُ الْعُصْبِ لَفَقِدَ مِنْهُ الْإِنْتِصَارُ لِلْحَقِّ وَبَطَلَ الْجِهَادُ وَإِعْلَاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِنَّمَا يَذْمُ الْعُصْبَ

(١) غبة بضم العين وكسر هاء اللوحدة المشددة وتشديد اللشاة التحتية الكبر والفخر والنخوة اه قاموس .

(٢) الخلاق ، النصيب الوافر من الخير ، وبكسر الخاء نوع من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .

لِلشَّيْطَانِ وَلِلْأَغْرَاضِ الذَّمِيمَةِ فَإِذَا كَانَ الْغَضَبُ لِدَلِكْ كَانَ مَذْمُومًا وَإِذَا كَانَ الْغَضَبُ فِي اللَّهِ وَاللَّهُ كَانَ مَمْدُوحًا وَهُوَ مِنْ شَمَائِلِهِ ﷺ وَكَذَا ذُمُّ الشَّهَوَاتِ أَيْضًا لَيْسَ الْمُرَادُ إِبْطَالُهَا بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنْ مَنْ بَطَلَتْ شَهْوَتُهُ كَانَ تَقْصًا فِي حَقِّهِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ تَضْرِيْفُهَا فِيمَا أُبِيحَ لَهُ بِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمَصَالِحِ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ عَبْدًا مُتَضَرِّفًا طَوَّعَ الْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ وَكَذَا الْعَصِيَّةُ حَيْثُ ذَمُّهَا الشَّارِعُ وَقَالَ : « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ » فَإِنَّمَا مُرَادُهُ حَيْثُ تَكُونُ الْعَصِيَّةُ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَحْوَالِهِ كَمَا كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فَخْرٌ بِهَا أَوْ حَقٌّ عَلَى أَحَدٍ لِأَنَّ ذَلِكَ مِجَانٌ مِنْ أَفْعَالِ الْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ نَافِعٍ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْقَرَارِ فَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الْعَصِيَّةُ فِي الْحَقِّ وَإِقَامَةِ أَمْرِ اللَّهِ فَأَمْرٌ مَطْلُوبٌ وَلَوْ بَطَلَ لَبَطَلَتِ الشَّرَائِعُ إِذْ لَا يَتِمُّ قِوَامُهَا إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ وَكَذَا الْمَلِكُ لَمَّا ذَمُّهُ الشَّارِعُ لَمْ يَذُمَّ مِنْهُ الْغَلَبُ بِالْحَقِّ وَقَهْرُ الْكَافَةِ عَلَى الدِّينِ وَمُرَاعَاةُ الْمَصَالِحِ وَإِنَّمَا ذَمُّهُ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّغْلِبِ بِالْبَاطِلِ وَتَضْرِيْفِ الْآدَمِيِّينَ طَوَّعَ الْأَغْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ كَمَا قُلْنَا ، فَلَوْ كَانَ الْمَلِكُ مُخْلِصًا فِي غَلْبِهِ لِلنَّاسِ أَنَّهُ لِلَّهِ وَلِحَمْلِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَذْمُومًا وَقَدْ قَالَ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ « رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » لِمَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَمْعَزِلُ عَنِ الْبَاطِلِ فِي النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ . وَلَمَّا لَقِيَ مُعَاوِيَةَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَى الشَّامِ فِي أُبْهَةِ الْمُلْكِ وَزِيَّهِ مِنَ الْعَدِيدِ وَالْعُدَّةِ اسْتَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ : « أَكِسْرَوِيَّةٌ يَا مُعَاوِيَةُ ؟ » فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَا فِي ثَغْرِ تَجَاهِ الْعَدُوِّ وَبِنَا إِلَى مِبَاهِاتِهِمْ بِزِينَةِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ حَاجَةٌ » فَسَكَتَ وَلَمْ يَخْطِئْهُ لِمَا اخْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَقِّ وَالدِّينِ فَلَوْ كَانَ الْقَضْدُ رَفْضُ الْمُلْكِ مِنْ أَصْلِهِ لَمْ يَقْنَعَهُ الْجَوَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرَوِيَّةِ وَانْتِحَالِهَا بَلْ كَانَ يُخَرِّصُ عَلَى خُرُوجِهِ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ بِالْكِسْرَوِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارَسَ فِي مُلْكِهِمْ مِنْ اِزْتِكَابِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَسُلُوكِ سَبِيلِهِ وَالْعُقْلَةِ عَنِ اللَّهِ وَأَجَابَةِ مُعَاوِيَةَ بِأَنَّ الْقَضْدَ بِذَلِكَ لَيْسَ كِسْرَوِيَّةً فَارَسَ وَبَاطِلُهُمْ وَإِنَّمَا قَضْدُهُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ

فَسَكَتَ ، وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الصُّحَابَةِ فِي رَفْضِ الْمُلْكِ وَأُخْوَالِهِ وَنَسِيَانِ عَوَائِدِهِ حَذَرًا
 مِنَ التَّبَاسُهَا بِالْبَاطِلِ فَلَمَّا اسْتَحْضَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى
 الصَّلَاةِ إِذْ هِيَ أَهَمُّ أُمُورِ الدِّينِ وَارْتِضَاءُ النَّاسِ لِلْخِلَافَةِ وَهِيَ حِمْلُ الْكَافَةِ عَلَى أَحْكَامِ
 الشَّرِيعَةِ وَلَمْ يَجْرَ لِلْمُلْكِ ذِكْرٌ لَمَّا أَنَّهُ مَطْنَةٌ لِلْبَاطِلِ وَنَحْلَةٌ يَوْمِئِذٍ لِأَهْلِ الْكُفْرِ
 وَأَعْدَاءِ الدِّينِ فَقَامَ بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ مَا شَاءَ اللَّهُ مُتَّبِعًا سُنَنَ صَاحِبِهِ وَقَاتِلَ أَهْلَ الرَّذَّةِ
 حَتَّى اجْتَمَعَ الْعَرَبُ عَلَى الْإِسْلَامِ ثُمَّ عَهْدَ إِلَى عُمَرَ فَاقْتَفَى أَثَرَهُ وَقَاتَلَ الْأُمَمَ فَغَلَبَهُمْ
 وَأَذِنَ لِلْعَرَبِ بِانْتِزَاعِ مَا بِيَايِدِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالْمُلْكِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ
 ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ثُمَّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْكُلُّ مُتَبَرِّئُونَ مِنَ
 الْمُلْكِ مُنْكَبُونَ عَنْ طَرَفِهِ وَأَكَّدَ ذَلِكَ لَدَيْهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ غَضَاضَةِ الْإِسْلَامِ
 وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ فَقَدْ كَانُوا أَبْعَدَ الْأُمَمِ عَنْ أَخْوَالِ الدُّنْيَا وَتَرَفَهَا لَا مِنْ حَيْثُ دِينُهُمُ
 الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الزُّهْدِ فِي النِّعَمِ وَلَا مِنْ حَيْثُ بَدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ
 مِنْ خُشُونَةِ الْعَيْشِ وَشَطْفِهِ الَّذِي أَلْفَوْهُ ، فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ أَسْغَبَ عَيْشًا مِنْ مُضَرٍّ
 لَمَّا كَانُوا بِالْحِجَازِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ وَكَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ الْأَرْيَافِ
 وَحُبُوبِهَا لِبُعْدِهَا وَاخْتِصَاصِهَا بِمَنْ وَلِيَهَا مِنْ رِبِيعَةٍ وَالْيَمَنِ فَلَمْ يَكُونُوا يَتَطَاوَلُونَ
 إِلَى خِصْبِهَا وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا مَا يَأْكُلُونَ الْعُقَارِبَ وَالْخَنَافِسَ وَيَفْخَرُونَ بِأَكْلِ
 الْعَلَّهِزِّ وَهُوَ وَبَرُّ الْإِبِلِ يَمْهُونَهُ^(١) بِالْحِجَارَةِ فِي الدَّمِ وَيَطْبُخُونَهُ وَقَرِيبًا مِنْ هَذَا
 كَانَتْ خَالُ قَرِيشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ عَصِيَّةُ الْعَرَبِ عَلَى
 الدِّينِ بِمَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ زَحَفُوا إِلَى أُمَمِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَطَلَبُوا
 مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِوَعْدِ الصَّدَقِ فَابْتَزَوْا مُلْكَهُمْ وَاسْتَبَاحُوا دُنْيَاهُمْ
 فَزَخَرَتْ بِحَارِ الرُّفَةِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كَانَ الْفَارِسُ الْوَاحِدُ يُقَسِّمُ لَهُ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ
 ثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ أَوْ نَحْوَهَا فَاسْتَوَلُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ الْحَصَرُ وَهُمْ مَعَ
 ذَلِكَ عَلَى خُشُونَةِ عَيْشِهِمْ فَكَانَ عُمَرُ يَرْقُعُ ثَوْبَهُ بِالْجِلْدِ وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ ،

(١) أي يضربونه بالحجارة حتى يبرق .

« يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غَيْرِي » وَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَافَى عَنْ أَكْلِ الدَّجَاجِ
لأنَّهُ لَمْ يَمُضْهَا لِلْعَرَبِ لِقَلَّتِهَا يَوْمئِذٍ وَكَانَتْ الْمَنَاحِلُ مَفْقُودَةً عِنْدَهُمْ بِالْجُمْلَةِ وَأَنَّمَا
يَأْكُلُونَ الْحِنْطَةَ يَبْخَالُهَا وَمَكَاسِيَهُمْ مَعَ هَذَا أَتَمُّ مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ قَالَ
الْمَسْعُودِيُّ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ اقْتَنَى الصُّحَابَةُ الضِّيَاعَ وَالْمَالُ فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قُتِلَ عِنْدَ
خَازِنِهِ خَمْسُونَ وَمِائَةً أَلْفَ دِينَارٍ وَأَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَقِيمَةُ ضِيَاعِهِ بِوَادِي الْقُرَى
وَحُنَيْنٍ وَغَيْرِهِمَا مِائَتَا أَلْفٍ ^(١) دِينَارٍ وَخَلْفَ إِبِلًا وَخَيْلًا كَثِيرَةً وَبَلَغَ الثَّمَنُ الْوَاحِدُ
مِنْ مَثْرُوكِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَخَلْفَ أَلْفِ فَرَسٍ وَأَلْفَ أَمِيَّةٍ
وَكَانَتْ غَلَّةُ طَلْحَةَ مِنَ الْعِرَاقِ أَلْفَ دِينَارٍ كُلُّ يَوْمٍ وَمِنْ نَاحِيَةِ السَّرَاةِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ
وَكَانَ عَلَى مَرْبِطِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَلْفُ فَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وَعَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ
الْغَنَمِ وَبَلَغَ الرَّبْعُ مِنْ مَثْرُوكِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةٌ وَثَمَانِينَ أَلْفًا وَخَلْفَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ
مِنَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ مَا كَانَ يُكْسَرُ بِالْفُؤُوسِ غَيْرَ مَا خَلْفَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالضِّيَاعِ
بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَبَنَى الزُّبَيْرُ دَارَهُ بِالْبَصْرَةِ وَكَذَلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَالْكُوفَةِ
وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَذَلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَهُ بِالْكُوفَةِ وَشَيْدَ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَبَنَاهَا
بِالْجَصِّ وَالْأَجْرَ وَالسَّاجَ وَبَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ دَارَهُ بِالْعَقِيقِ وَرَفَعَ سَفْكَهَا
وَأَوْسَعَ فضاءَهَا وَجَعَلَ عَلَى أَغْلَاهَا شُرَفَاتٍ وَبَنَى الْمِقْدَادُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَجَعَلَهَا
مُجَصَّصَةً الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَخَلْفَ يَغْلَى بْنُ مُنْبِيهِ ^(٢) خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَعَقَارًا
وغير ذلك مَا قِيمَتُهُ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ١ هـ كَلَامُ الْمَسْعُودِيِّ . فَكَانَتْ مَكَاسِبُ
الْقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَنَعِيًّا عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ إِذْ هِيَ أَمْوَالٌ حَلَالٌ لِأَنَّهَُا غَنَائِمٌ
وَفُيُوءٌ وَلَمْ يَكُنْ تَصَرُّفُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ إِنَّمَا كَانُوا عَلَى قَصْدٍ فِي أَحْوَالِهِمْ كَمَا قُلْنَا فَلَمْ
يَكُنْ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ الْإِسْتِكْثَارُ مِنَ الدُّنْيَا مَذْمُومًا فَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى
مَا أَسْرَنَّا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالْخُرُوجِ بِهِ عَنِ الْقَصْدِ وَإِذَا كَانَ خَالَهُمْ قَصْدًا وَتَفَقَّاتَهُمْ
فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ كَانَ ذَلِكَ الْإِسْتِكْثَارُ غَوْنًا لَهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَاتِّسَابٍ

(١) وفي بعض النسخ مائة ألف .

(٢) يعلى بن منبه أو يعلى بن أمية (أعلام الرجال) .

الدار الآخرة فلما تدرجت البداوة والفضاضة إلى نهايتها وجاءت طبيعة الملك
التي هي مقتضى العصبية كما قلناه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك
عندهم حكم ذلك الرقبه والاستكثار من الأموال فلم يضرقوا ذلك التغلب في باطل
ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق . ولما وقعت الفتنة بين علي
ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في
محاربتهم لغرض دنيوي أو لا يثار باطل أو لا يستعمار حقد كما قد يتوهمه متوهم
وينزع إليه ملحد وإنما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه
باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه وإن كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما فيها
بقصد الباطل إنما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت
طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع عن
نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم
يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوبوا عليه واستماتوا
دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقوع
في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتآليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير
مخالفة وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن
محمد بن أبي بكر « لو كان لي من الأمر شيء لوليت الخليفة » ولو أراد أن يفهد
إليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر
أن يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة . وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي
هي مقتضى العصبية فالملك إذا حصل وفرضنا أن الواحد انفرد به وصرفه في
مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه ولقد انفرد سليمان وأبوه داود
صلوات الله عليهما بملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك من الانفراد به
وكانوا ما علمت من النبوة والحق وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفا من افتراق
الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم . فلو قد عهد إلى

غَيْرِهِ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ مَعَ أَنْ ظَنَّهُمْ كَانَ بِهِ صَالِحًا وَلَا يَزْتَابُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ وَلَا يُظَنُّ
 بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَكُنْ لِيُعْتَدَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْفُسْقِ خَاشَا اللَّهَ
 لِمُعَاوِيَةَ مِنْ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ كَانَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ وَابْنُهُ وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا لَمْ يَكُنْ
 مَذْهَبُهُمْ فِي الْمُلْكِ مَذْهَبَ أَهْلِ الْبَطَالَةِ وَالْبَغْيِ إِنَّمَا كَانُوا مُتَحَرِّينَ لِمَقَاصِدِ الْحَقِّ
 جُهْدَهُمْ إِلَّا فِي ضَرُورَةٍ تَحْمِلُهُمْ عَلَى بَعْضِهَا مِثْلَ خَشْيَةِ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّتِي هُوَ أَهْمُّ
 لَدَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَقْصِدٍ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِتْبَاعِ وَالِافْتِدَاءِ وَمَا عَلِمَ
 السَّلَفُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ فَقَدْ اخْتَجَّ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ ^(١) بِعَمَلِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَمَّا
 مَرْوَانُ فَكَانَ مِنَ الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ التَّائِبِينَ وَعَدَّائِهِمْ مَعْرُوفَةٌ ثُمَّ تَدَرَّجَ الْأَمْرُ فِي وَلَدِ
 عَبْدِ الْمَلِكِ وَكَانُوا مِنَ الدِّينِ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ وَتَوَسَّطَهُمْ عَمَرُ بْنُ عَبْدِ
 الْقَزِيزِ فَتَنَزَعَ إِلَى طَرِيقَةِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَالصَّحَابَةِ جُهْدَهُ وَلَمْ يَهْمِلْ . ثُمَّ جَاءَ
 خَلْفُهُمْ وَاسْتَعْمَلُوا طَبِيعَةَ الْمُلْكِ فِي أَغْرَاضِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةَ وَمَقَاصِدِهِمْ وَنَسُوا مَا كَانَ
 عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ مِنْ تَحَرِّيِ الْقَصْدِ فِيهَا وَاعْتِمَادِ الْحَقِّ فِي مَذَاهِبِهَا فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا دَعَا
 النَّاسَ إِلَى أَنْ نَعُوا عَلَيْهِمْ أَفْعَالَهُمْ وَأَدَالُوا بِالذُّعْوَةِ الْعَبَاسِيَّةِ مِنْهُمْ وَوَلَّى رِجَالُهَا الْأَمْرَ
 فَكَانُوا مِنَ الْعَدَالَةِ بِمَكَانٍ وَصَرَفُوا الْمُلْكَ فِي وَجْهِهِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ مَا اسْتَطَاعُوا
 حَتَّى جَاءَ بَنُو الرَّشِيدِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانَ مِنْهُمْ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ثُمَّ أَقْصَى الْأَمْرُ إِلَى
 بَنِيهِمْ فَأَعْطَوْا الْمُلْكَ وَالتَّرَفَ حَقَّهُ وَانْغَمَسُوا فِي الدُّنْيَا وَبَاطِلِهَا وَتَبَذُوا الدِّينَ وَرَأَاهُمْ
 ظَهْرِيًّا فَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِخَرْبِهِمْ وَانْتِزَاعِ الْأَمْرِ مِنْ أَيْدِي الْعَرَبِ جُمْلَةً وَأَمَكْنَ سِوَاهُمْ
 وَاللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ . وَمَنْ تَأَمَّلَ سَيْرَ هَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَاخْتِلَافَهُمْ فِي
 تَحَرِّيِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ عَلِمَ صِحَّةَ مَا قُلْنَا وَقَدْ حَكَاهُ الْمُسَعُودِيُّ مِثْلَهُ فِي أَحْوَالِ
 بَنِي أُمَيَّةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ وَقَدْ حَضَرَ عُمُومَتَهُ وَذَكَرُوا بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ : « أَمَّا
 عَبْدُ الْمَلِكِ فَكَانَ جَبَّارًا لَا يَبَالِي بِمَا صَنَعَ وَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَكَانَ هُمًّا بَطْنَةً وَفَرَجَةً
 وَأَمَّا عَمَرُ فَكَانَ أَعْوَرَ بَيْنَ عَمِيَانٍ وَكَانَ رَجُلٌ الْقَوْمِ هَشَامَ » قَالَ وَلَمْ يَزَلْ بَنُو أُمَيَّةَ
 ضَا بِطِينٍ لِمَا مَهَّدَ لَهُمْ مِنَ السُّلْطَانِ يَحْوَطُونَهُ وَيَصُونُونَ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهُ مَعَ

(١) هو كتاب مشهور في الحديث للمالك بن أنس .

تَسْنِمُهُمْ مَعَالِي الْأُمُورِ وَرَفَضِهِمْ دُنْيَاتِهَا حَتَّى أَقْضَى الْأَمْرَ إِلَى أُنْبَائِهِمُ الْمُتَشْرِفِينَ
فَكَانَتْ هِمَّتُهُمْ قَصْدُ الشَّهَوَاتِ وَرُكُوبُ اللَّذَاتِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ جَهْلًا بِاسْتِزْجَارِهِ
وَأَمْنَا لِمَكْرِهِ مَعَ اطِّرَاحِهِمْ صِيَانَةَ الْخِلَافَةِ وَاسْتِخْفَافِهِمْ بِحَقِّ الرِّئَاسَةِ وَضَعْفِهِمْ عَنِ
السِّيَاسَةِ فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسْكَمُ الذُّلَّ وَنَفَى عَنْهُمْ النِّعْمَةَ ثُمَّ اسْتَخْضَرَ عَبْدَ اللَّهِ ^(١)
ابْنَ مَرْوَانَ فَقَصَّ عَلَيْهِ خَبْرَهُ مَعَ مَلِكِ النُّوْبَةِ لَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُمْ فَأَرَاهُ أَيَّامَ السَّفَاحِ قَالَ
أَقَمْتُ مَلِيًّا ثُمَّ أَتَانِي مَلِكُهُمْ فَقَعَدَ عَلَيَّ الْأَرْضِ وَقَدْ بَسِطْتُ لِي فُرْشَ ذَاتِ قِيَمَةٍ فَقُلْتُ
مَا مَنَعَكَ عَنِ الْقُعُودِ عَلَيَّ ثِيَابِنَا ^(٢) فَقَالَ إِنِّي مَلِكٌ وَحَقٌّ لِكُلِّ مَلِكٍ أَنْ يَتَوَاضَعَ
لِعِظَمَةِ اللَّهِ إِذْ رَفَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ لِي : لِمَ تَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي
كِتَابِكُمْ ؟ فَقُلْتُ : اجْتَرَأَ عَلَى ذَلِكَ عَبِيدُنَا وَاتَّبَاعُنَا قَالَ : فَلِمَ تَطْشُونَ الزَّرْعَ
يَدْوَابَكُمْ وَالْفَسَادَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ ؟ قُلْتُ : فَعَلَّ ذَلِكَ عَبِيدُنَا وَاتَّبَاعُنَا يَجْهَلُهُمْ قَالَ :
فَلِمَ تَلْبَسُونَ الدِّيَابَجَ وَالذَّهَبَ وَالْحَرِيرَ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ ؟ قُلْتُ : ذَهَبَ
مِنَّا الْمُلْكُ وَانْتَصَرْنَا بِقَوْمٍ مِنَ الْعَجَمِ دَخَلُوا فِي دِينِنَا فَلَبَسُوا ذَلِكَ عَلَى الْكُرْهِ مِنَّا ،
فَاطَّرَقَ يَنْكِثُ بِيَدِهِ فِي الْأَرْضِ وَيَقُولُ عَبِيدُنَا وَاتَّبَاعُنَا وَأَعَاجِمُ دَخَلُوا فِي دِينِنَا ثُمَّ
رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : « لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ اسْتَخْلَلْتُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
وَأَتَيْتُمْ مَا عَنْهُ نُهْيْتُمْ وَظَلَمْتُمْ فِيمَا مَلَكَتُمْ فَسَلَبَكُمْ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسْكَمُ الذُّلَّ بِذُنُوبِكُمْ
وَلِلَّهِ نِقْمَةٌ لَمْ تَبْلُغْ غَايَتَهَا فَيْكُمْ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَحُلَّ بِكُمْ الْعَذَابُ وَأَنْتُمْ بِيَلَدِي
فَيُنَالَنِي مَعَكُمْ وَإِنَّمَا الضِّيَافَةُ ثَلَاثُ فِتْرَوْدَ مَا اخْتَجَّتْ إِلَيْهِ وَارْتَحَلَّ عَنْ أَرْضِي »
فَتَعَجَّبَ الْمَنْصُورُ وَاطَّرَقَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ كَيْفَ انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمُلْكِ وَأَنَّ الْأَمْرَ
كَانَ فِي أَوَّلِهِ خِلَافَةً وَوَارَعَ كُلَّ أَحَدٍ فِيهَا مِنْ نَفْسِهِ وَهُوَ الدِّينُ وَكَانُوا يُؤَثِّرُونَهُ عَلَى
أُمُورِ دُنْيَاهُمْ وَإِنْ أَقْضَتْ إِلَى هَلَاقِهِمْ وَخَذَهُمْ دُونَ الْكَافَةِ فَهَذَا عُثْمَانُ لَمَّا حُصِرَ فِي
الدَّارِ جَاءَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ جَعْفَرٍ وَأَمْثَالُهُمْ يُرِيدُونَ

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية وفي بعضها عبد الملك وأظنه تصحيحاً (قاله

نصر)

(٢) فرشنا .

الْمُدَافَعَةُ عَنْهُ فَأَبَى وَمَنَعَ مِنْ سَلِّ السُّيُوفِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَخَافَةَ الْفُرْقَةِ وَحِفْظًا لِلْإِلْفَةِ الَّتِي بِهَا حِفْظُ الْكَلِمَةِ وَلَوْ أَدَّى إِلَى هَلَاكِهِ . وَهَذَا عَلَيَّ أَشَارَ عَلَيْهِ الْمُغِيرَةُ الْأَوَّلُ وَلَا يَتَّبِعُهُ بِاسْتِيقَاءِ الزُّبَيْرِ وَمُعَاوِيَةَ وَطَلْحَةَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حَتَّى يَجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى بَيْعَتِهِ وَتَتَفَقَّ الْكَلِمَةُ وَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ مِنْ أَمْرِهِ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ فَأَبَى فِرَاراً مِنَ الْعِشِّ الَّذِي يُنَافِيهِ الْإِسْلَامَ وَغَدَا عَلَيْهِ الْمُغِيرَةُ مِنَ الْغَدَاةِ فَقَالَ ، « لَقَدْ أَشْرْتُ عَلَيْكَ بِالْأَمْسِ بِمَا أَشَرْتُ ثُمَّ غَدْتُ إِلَى نَظْرِي فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ وَأَنَّ الْحَقَّ فِيمَا رَأَيْتَهُ أَنْتَ » فَقَالَ عَلِيٌّ ، « لَا وَاللَّهِ بَلْ أَعْلَمُ أَنَّكَ نَصَخْتَنِي بِالْأَمْسِ وَغَشَشْتَنِي الْيَوْمَ وَلَكِنْ مَنَعَنِي مِمَّا أَشَرْتُ بِهِ زَائِدُ الْحَقِّ وَهَكَذَا كَانَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي إِصْلَاحِ دِينِهِمْ بِفَسَادِ دُنْيَاهُمْ وَنَحْنُ

نُرْقِعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا فَلَا دِينَئَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرْقِعُ فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ صَارَ الْأَمْرُ إِلَى الْمَلِكِ وَبَقِيَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ مِنْ تَحْرِي الدِّينِ وَمَذَاهِبِهِ وَالْجَرِيِّ عَلَى مِنْهَاجِ الْحَقِّ وَلَمْ يَظْهَرْ التَّغْيِيرُ إِلَّا فِي الْوَارِعِ الَّذِي كَانَ دِيناً ثُمَّ انْقَلَبَ غَضْبَةً وَسَيْفًا وَهَكَذَا كَانَ الْأَمْرُ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ وَمَوْوَانَ وَابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَالصُّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الرَّشِيدِ وَبَغْضِ وَلَدِهِ ثُمَّ ذَهَبَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اسْمُهَا وَصَارَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَخْتًا وَجَرَتْ طَبِيعَةُ التَّغْلِبِ إِلَى غَايَتِهَا وَاسْتُعْمِلَتْ فِي أَغْرَاضِهَا مِنَ الْقَهْرِ وَالتَّقْلِبِ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَادُ وَهَكَذَا كَانَ الْأَمْرُ لَوْلَدِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَلَمَّا جَاءَ بَعْدَ الرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَاسْمُ الْخِلَافَةِ بَاقِيًا فِيهِمْ لِبَقَاءِ غَضْبَةِ الْعَرَبِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمَلِكِ فِي الطُّورَيْنِ مُلْتَبِسٌ بَعْضُهُمَا بِبَعْضٍ ثُمَّ ذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَأَثَرُهَا بِذَهَابِ غَضْبَةِ الْعَرَبِ وَفَنَاءِ جِيلِهِمْ وَتَلَاشَى أَحْوَالُهُمْ وَبَقِيَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَخْتًا كَمَا كَانَ الشَّأْنُ فِي مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَبَرُّكًا وَالْمَلِكِ بِجَمِيعِ الْقَابِ وَنَاحِيهِ لَهُمْ وَلَيْسَ لِلْخَلِيفَةِ مِنْهُ شَيْءٌ وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُلُوكُ زَنَاطَةِ الْمَغْرِبِ مِثْلَ صُنْهَاجَةِ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ وَمَغْرَاوَةِ وَبَنِي يَفْرُنَ أَيْضًا مَعَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْعَبِيدِيِّينَ بِالْقَيْرَوَانِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ

وَجَدَتْ بِدُونِ الْمَلِكِ أَوْلَا ثُمَّ التَّبَسَّتْ مَعَانِيهِمَا وَاخْتَلَطَتْ ثُمَّ انْفَرَدَ الْمَلِكُ حَيْثُ
افْتَرَقَتْ عَصِيَّتُهُ مِنْ عَصِيَّةِ الْخِلَافَةِ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة^(١)

إِغْلَمْ أَنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ كَأَنَّ الْمُبَايَعَ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ
لَهُ النَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُنَازِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا
يُكَلِّفُهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى الْمُنْشِطِ وَالْمَكْرَهِ وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ
جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ تَأْكِيداً لِلْعَهْدِ فَأُشْبِهَ ذَلِكَ فِعْلُ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي فَسُمِّيَ بَيْعَةً
مُضَدَّرٌ بَاعَ وَصَارَتْ الْبَيْعَةُ مُصَافَحَةً بِالْأَيْدِي هَذَا مَذْلُولُهَا فِي عَزْفِ اللَّغَةِ وَمَعْنَاهُ
الشَّرْعَ وَهُوَ الْمُرَادُ فِي الْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ وَعِنْدَ الشَّجَرَةِ
وَحَيْنَمَا وَرَدَ هَذَا اللَّفْظُ وَمِنْهُ بَيْعَةُ الْخُلَفَاءِ وَمِنْهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ كَانَ الْخُلَفَاءُ
يُسْتَحْلِفُونَ عَلَى الْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ الْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذَلِكَ فَسُمِّيَ هَذَا الْإِسْتِيعَابُ
أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ وَكَانَ الْإِكْرَاهُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ وَلِهَذَا لَمَّا أَقْبَى مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
يَسْقُوطُ يَمِينُ الْإِكْرَاهِ أَنْكَرَهَا الْوَلَاةُ عَلَيْهِ وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ الْبَيْعَةِ ، وَوَقَعَ
مَا وَقَعَ مِنْ مَخْنَةِ الْإِمَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الشَّهْرُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ
الْمُلُوكِ الْكِسْرَوِيَّةِ مِنْ تَقْبِيلِ الْأَرْضِ أَوْ الْيَدِ أَوْ الرَّجْلِ أَوْ الذَّنْبِلِ أَطْلُقَ عَلَيْهَا اسْمُ
الْبَيْعَةِ الَّتِي هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ مَجَازاً لَمَّا كَانَ هَذَا الْخُضُوعُ فِي التَّحِيَّةِ وَالْتِزَامُ
الْأَدَابِ مِنْ لَوَازِمِ الطَّاعَةِ وَتَوَاطَعُهَا وَغَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عَزْفِيَّةً وَاسْتَعْنَى
بِهَا عَنْ مُصَافَحَةِ أَيْدِي النَّاسِ الَّتِي هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي الْأَصْلِ لَمَّا فِي الْمُصَافَحَةِ لِكُلِّ
أَحَدٍ مِنَ التَّنَزُّلِ وَالْإِنْتِدَالِ الْمُنَافِيَيْنِ لِلرَّئَاسَةِ وَصَوْنِ الْمَنْصِبِ الْمُلُوكِيِّ إِلَّا فِي الْأَقْلِ

(١) البيعة بفتح الموحدة أما بكسرها على وزن شيعه يسكون الياء فيها فهي معبد النصارى ١٠ هـ .

مَنْ يَقْصِدُ التَّوَاضُّعَ مِنَ الْمُلُوكِ فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِّهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَاغْنِهِمْ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فِي الْعُرْفِ فَإِنَّهُ أَكِيدُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتَهُ لِمَا يُلْزِمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ وَلَا تَكُونُ أَعْمَالُهُ عَبَثًا وَمَجَانًا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ .

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

إِغْلَمْ أَنَا قَدَمْنَا الْكَلَامَ فِي الْإِمَامَةِ وَمَشْرُوعِيَّتِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَأَنَّ حَقِيقَتَهَا لِلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ وَالْأَمِينُ عَلَيْهِمْ يَنْظُرُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ وَيُقِيمَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ كَمَا كَانَ هُوَ يَتَوَلَّاهَا وَيَتَّقُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَا وَثَقُوا بِهِ فِيمَا قَبْلُ وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِهِ وَإِنْعِقَادِهِ إِذْ وَقَعَ بِعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعُمَرَ بِمَخْضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَجَازُوهُ وَأَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ طَاعَةَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ وَكَذَلِكَ عَهْدَ عُمَرَ فِي الشُّورَى إِلَى السَّنَةِ بِقِيَّةِ الْعَشْرَةِ وَجَعَلَ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ فَقَوْضَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى أَقْضَى ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَاجْتَهَدَ وَبَاطَرَ الْمُسْلِمِينَ فَوَجَدَهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى عَلِيٍّ فَأَثَرُ عُثْمَانَ بِالْبَيْعَةِ عَلَى ذَلِكَ لِمُوَافَقَتِهِ إِثْيَاهُ عَلَى لُزُومِ الْإِقْتِدَاءِ بِالشَّيْخَيْنِ فِي كُلِّ مَا يَبْعُدُ دُونَ اجْتِهَادِهِ فَانْتَقَدَ أَمْرَ عُثْمَانَ لِذَلِكَ وَأَوْجَبُوا طَاعَتَهُ وَالْمَلَأَ مِنَ الصَّحَابَةِ حَاضِرُونَ لِلأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَلَمْ يُنْكَرْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فَدُلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَهْدِ غَارِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ .

وَالْإِجْمَاعُ حُجَّةٌ كَمَا عُرِفَ وَلَا يُتَمَّهِمُ الْإِمَامُ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَإِنْ عَهْدَ إِلَى أَبِيهِ أَوْ ابْنِهِ لِأَنَّهُ مَأْمُونٌ عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ فَأَوْلَى أَنْ لَا يَخْتَمِلَ فِيهَا تَبَعَةً بَعْدَ مَمَاتِهِ

خِلَافاً لِمَنْ قَالَ بِاتِّهَامِهِ فِي الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ أَوْ لِمَنْ خَصَّصَ التُّهْمَةَ بِالْوَلَدِ دُونَ الْوَالِدِ فَإِنَّهُ يَمِيدُ عَنِ الظُّنَّةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَاعِيَةٌ تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ إِثَارِ مَضْلَحَةٍ أَوْ تَوَقُّعِ مَفْسَدَةٍ فَتَنْتَفِيهِ الظُّنَّةُ فِي ذَلِكَ رَأْساً كَمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ مُعَاوِيَةَ لِابْنِهِ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فِعْلُ مُعَاوِيَةَ مَعَ وِفَاقِ النَّاسِ لَهُ حُجَّةٌ فِي الْبَابِ وَالَّذِي دَعَا مُعَاوِيَةَ لَا يَثَارُ ابْنُهُ يَزِيدَ بِالْعَهْدِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ إِنَّمَا هُوَ مُرَاعَاةُ الْمَضْلَحَةِ فِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ أَهْوَائِهِمْ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِذْ بَنُو أُمَيَّةٍ يَوْمئِذٍ لَا يَرْضُونَ سِوَاهُمْ وَهُمْ عَصَابَةُ قُرَيْشٍ وَأَهْلُ الْمِلَّةِ أَجْمَعُ وَأَهْلُ الْقَلْبِ مِنْهُمْ فَأَثَرُهُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ يُظُنُّ أَنَّهُ أَوَّلَى بِهَا وَعَدَلَ عَنِ الْفَاضِلِ إِلَى الْمَفْضُولِ حِرْصاً عَلَى الْإِتِّفَاقِ وَاجْتِمَاعِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي شَأْنُهُ أَهْمٌ عِنْدَ الشَّارِعِ .

وَإِنْ كَانَ لَا يُظُنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُ هَذَا فَعَدَالَتُهُ وَصُحْبَتُهُ مَانِعَةٌ مِنْ سِوَى ذَلِكَ وَحُضُورُ أَكَابِرِ الصُّحَابَةِ لِذَلِكَ وَسُكُوتُهُمْ عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى انْتِفَاءِ الرِّيبِ فِيهِ فَلْيَسُوا مِمَّنْ يَأْخُذُهُمْ فِي الْحَقِّ هَوَادَةٌ وَلَيْسَ مُعَاوِيَةَ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْعِزَّةُ فِي قَبُولِ الْحَقِّ فَإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ أَجَلٌ مِنْ ذَلِكَ وَعَدَالَتُهُمْ مَانِعَةٌ مِنْهُ وَفِرَارُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ مُبَاحِخاً كَانَ أَوْ مَحْظُوراً كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي الْمُخَالَفَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ إِلَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ وَنُدُورُ الْمُخَالَفِ مَعْرُوفٌ ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ مُعَاوِيَةَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسُلَيْمَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ وَالسُّفَّاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَالرُّشَيْدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ عَرَفَتْ عَدَالَتُهُمْ وَحَسَنَ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّظَرُ لَهُمْ وَلَا يُعَابُ عَلَيْهِمْ إِثَارُ أَبْنَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ عَنْ سُنَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أَوْلِيكَ الْخُلَفَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِينٍ لَمْ تَحْدُثْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَكَانَ الْوَانِعُ دِينِيّاً فَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ فَمَهْدُوا إِلَى مَنْ يَرْضِيهِ الَّذِينَ فَقَطُّ وَآثَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ وَوَكَّلُوا كُلٌّ مَنْ يَسْمُو إِلَى ذَلِكَ إِلَى وَازِعِهِ . وَأَمَّا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَدُنْ مُعَاوِيَةَ فَكَانَتِ الْعَصِيَّةُ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنَ الْمَلِكِ

وَالْوَارِعُ الدِّينِيُّ قَدْ ضَعُفَ وَاجْتَبَحَ إِلَى الْوَارِعِ السُّلْطَانِيِّ وَالْعِضْبَانِيِّ فَلَوْ عَهْدَ إِلَى غَيْرِ مَنْ تَرْتَضِيهِ الْعَصِيَّةُ لَرُدَّتْ ذَلِكَ الْعَهْدَ وَانْتَقَضَ أَمْرُهُ سَرِيعاً وَصَارَتْ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ .

سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيّاً وَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، « مَا بَالُ الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ؟ » فَقَالَ ، « لَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا وَالْيَمِينَ عَلَى مِثْلِي وَأَنَا الْيَوْمَ وَالْإِلَى مِثْلِكَ » يُشِيرُ إِلَى وَارِعِ الدِّينِ أَفْلاً تَرَى إِلَى الْمَأْمُونِ لَمَّا عَهْدَ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَسَمَاءُ الرِّضَا كَيْفَ انْكَرَبَتِ الْعَبَاسِيَّةُ ذَلِكَ وَتَقَضُوا بَيْنَعَتَهُ وَبَايَعُوا لِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَظَهَرَ مِنَ الْهَرَجِ وَالْخِلَافِ وَانْقِطَاعِ السُّبُلِ وَتَعَدُّدِ الثُّوَارِ وَالْخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ يَضْطَلِمَ الْأَمْرُ حَتَّى بَادَرَ الْمَأْمُونُ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمَعَاهِدِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ اعْتِبَارِ ذَلِكَ فِي الْعَهْدِ فَالْمَقْصُورُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافٍ مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمَصَالِحِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يَخْصُهُ لُطْفاً مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْقَضْدُ بِالْعَهْدِ حِفْظَ التَّرَاثِ عَلَى الْأَبْنَاءِ فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ إِذْ هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ يَخْصُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَنْبَغِي أَنْ تَحْسَنَ فِيهِ النِّيَّةُ مَا أَمَكْنَ خَوْفاً مِنَ الْعَبَثِ بِالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ وَالْمُلْكِ لِلَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو الضَّرُورَةَ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيهَا .

فَالْأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الْفِسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ يَزِيدَ فَإِنَّهُ أَعْدَلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَفْضَلُ بَلْ كَانَ يَغْدُلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الْغَنَاءِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ وَهُوَ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً وَلَمَّا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَّثَ مِنَ الْفِسْقِ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَتَقَضَى بَيْنَعَتُهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ الْحُسَيْنُ وَعَبَدَ اللَّهُ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ لِمَا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمِئِذٍ هِيَ

عِصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْقَعْدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَتَسْتَشْبِعُ عَصِيَّةَ مُضَرَ أَجْمَعَ وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تُطَاقُ مُقَاوَمَتُهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَأَقَامُوا عَلَى الدُّعَاءِ بِهَذَا نَبِيِّهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ وَهَذَا كَانَ شَأْنُ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُلِّ مُجْتَهِدُونَ وَلَا يُنْكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي الْبَرِّ وَتَحْرِى الْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ وَفَقْنَا اللَّهَ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ .

وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا تَدْعِيهِ الشَّيْعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصَحَّ وَلَا نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ النُّقْلِ وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ الْوَصِيَّةَ وَأَنْ عَمَرَ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ وَكَذَا قَوْلُ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فِي الْعَهْدِ فَقَالَ : « إِنْ أَعْهَدَ فَقَدْ عَهَدَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي » يَغْنِي أبا بَكْرٍ « وَإِنْ أَتْرَكَ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي » يَغْنِي النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَعْهَدْ وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا فِي الْعَهْدِ فَأَبَى عَلِيٌّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعْنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَوْصَرْ وَلَا عَهْدَ إِلَى أَحَدٍ وَشُبْهَةُ الْإِمَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الْإِمَامِيَّةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ كَمَا يَزْعُمُونَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمَفُوضَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ الصَّلَاةِ وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا كَمَا اسْتَخْلَفَ أبا بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ وَلَكَانَ يَشْتَهَرُ كَمَا اشْتَهَرَ أَمْرُ الصَّلَاةِ وَاجْتِنَاجُ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا عَلَى الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِمْ ارْتِضَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَدِينَنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَقَعْ . وَيَذُلُّ ذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ أَمْرَ الْإِمَامَةِ وَالْعَهْدَ بِهَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا كَمَا هُوَ الْيَوْمَ وَشَأْنُ الْعَصِيَّةِ الْمُرَاعَاةِ فِي الْاجْتِمَاعِ وَالْإِفْتِرَاقِ فِي مَجَارِي الْعَادَةِ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ بِذَلِكَ الْإِعْتِبَارُ لِأَنَّ أَمْرَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ الْعَادَةِ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ وَاسْتِمَاتَةِ النَّاسِ دُونَهُ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْأَخْوَالِ الَّتِي كَانُوا يَشَاهِدُونَهَا فِي حُضُورِ

الْمَلَائِكَةُ لِنُصْرِهِمْ وَتَرْدُدِ خَبَرِ السَّمَاءِ بَيْنَهُمْ وَتَجَدُّدِ خُطَابِ اللَّهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ تُتْلَى عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَخْتَجِ إِلَى مُرَاعَاةِ الْعَصِيَّةِ لِمَا شَمَلَ النَّاسَ مِنْ صِنْفَةِ الْإِنْتِقَادِ وَالْإِذْعَانِ وَمَا يَسْتَفِزُّهُمْ مِنْ تَتَابُعِ الْمُعْجَزَاتِ الْخَارِقَةِ وَالْأَحْوَالِ الْإِلَهِيَّةِ الْوَاقِعَةِ وَالْمَلَائِكَةِ الْمُتَرَدِّدَةِ الَّتِي وَجَمُوا مِنْهَا وَدَهَشُوا مِنْ تَتَابُعِهَا فَكَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ وَالْعَهْدِ وَالْعَصِيَّةِ وَسَائِرِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مُنْذَرِجاً فِي ذَلِكَ الْقَبِيلِ كَمَا وَقَعَ فَلَمَّا انْحَصَرَ ذَلِكَ الْمَدَدُ بِذَهَابِ تِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ ثُمَّ بَقَاءِ الْقُرُونِ الَّذِينَ شَاهَدُوهَا فَاسْتَحَالَتْ تِلْكَ الصَّبْغَةُ قَلِيلاً قَلِيلاً وَدَهَبَتِ الْخَوَارِقُ وَصَارَ الْحُكْمُ لِلْعَادَةِ كَمَا كَانَ فَاعْتَبِرْ أَمْرَ الْعَصِيَّةِ وَمَجَارِي الْعَوَائِدِ فِيمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ وَالْخِلَافَةُ وَالْعَهْدُ بِهِمَا مَهْماً مِنَ الْمَهْمَاتِ الْأَكِيدَةِ كَمَا رَعَمُوا وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ الْخِلَافَةُ لِعَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرَ مَهْمَةٍ فَلَمْ يَفْهَمْ فِيهَا ثُمَّ تَدَرَّجَتِ الْأَهْمِيَّةُ زَمَانَ الْخِلَافَةِ بَعْضُ الشَّيْءِ بِمَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ فِي الْحِمَايَةِ وَالْجِهَادِ وَشَأْنِ الرَّدَّةِ وَالْفَتْوحَاتِ فَكَانُوا بِالْخِيَارِ فِي الْفِعْلِ وَالتَّرَكِّ كَمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ عَمَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ صَارَتِ الْيَوْمَ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ لِلْإِلْفَةِ عَلَى الْحِمَايَةِ وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ فَاعْتَبِرْتَ فِيهَا الْعَصِيَّةَ الَّتِي هِيَ سِرُّ الْوَانِعِ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالتَّخَاذُلِ وَمَنْشَأُ الْجَمَاعِ وَالتَّوَافُقِ الْكَفِيلُ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا .

وَالْأَمْرُ الثَّالِثُ شَأْنُ الْخُرُوبِ الْوَاقِعَةِ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَاعْلَمْ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَيَنْشَأُ عَنِ الْجَهْدِ فِي الْأَدْلَةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ وَالْمُجْتَهِدُونَ إِذَا اخْتَلَفُوا فَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْحَقَّ فِي الْمَسَائِلِ الْجَهْدِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ وَمَنْ لَمْ يُصَادِفْهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ فَإِنْ جِهَتْهُ لَا تَتَّعَيْنُ بِإِجْمَاعٍ فَيَنْبَغِي الْكُلُّ عَلَى اخْتِمَالِ الْإِصَابَةِ وَلَا يَتَّعَيْنُ الْمُخْطِئُ مِنْهَا وَالتَّائِيْمُ مَذْفُوعٌ عَنِ الْكُلِّ إِجْمَاعاً وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ حَقٌّ وَإِنْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ فَأُخْرَى يَنْفِي الْخَطَأَ وَالتَّائِيْمَ وَغَايَةُ الْخِلَافِ الَّذِي بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّهُ خِلَافٌ اجْتِهَادِيٌّ فِي مَسَائِلِ دِينِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ وَهَذَا حُكْمُهُ وَالَّذِي وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ إِنَّمَا هُوَ

وَاقِعَةُ عَلِيٍّ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةُ وَطَلْحَةُ وَوَاقِعَةُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَوَاقِعَةُ
ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَمَّا وَاقِعَةُ عَلِيٍّ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ
مُفْتَرِقِينَ فِي الْأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بِنِعَّةِ عَلِيٍّ وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ وَمِنْهُمْ
مَنْ تَوَقَّفَ حَتَّى يَجْتَمَعَ النَّاسُ وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامِ كَسَعِدٍ وَسَعِيدٍ وَابْنِ عُمَرَ
وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَالْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ وَقَدَامَةَ بْنَ مَطْعُونٍ وَأَبِي
سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَكَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَالنُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ وَحَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ
وَمُسْلِمَةَ بْنَ مُخَلِّدٍ وَفَضَالََةَ بْنَ عُبَيْدٍ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَالَّذِينَ كَانُوا فِي
الْأَمْصَارِ عَذَلُوا عَنْ بِنِعَّتِهِ أَيْضاً إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ وَتَرَكُوا الْأَمْرَ فَوُضِيَ حَتَّى
يَكُونَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ يُؤَلِّوْنَهُ وَظَنُّوا بِعَلِيٍّ هَوَادَةً فِي السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ
عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلِهِ لَا فِي الْمَمَالَةِ عَلَيْهِ فَخَاشَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ .

وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَخَ بِمَلَامَتِهِ إِنَّمَا يُوجِّهُهَا عَلَيْهِ فِي سُكُوتِهِ فَقَطْ ثُمَّ
اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّ بِنِعَّتَهُ قَدْ انْعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعِ
مَنْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَوَاطِنِ الصَّحَابَةِ وَأَرْجَاءِ الْأَمْرِ فِي
الْمُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ فَيَتِمَّ كُنْ حِينَئِذٍ مِنْ ذَلِكَ
وَرَأَى الْآخَرُونَ أَنَّ بِنِعَّتَهُ لَمْ تَنْعَقَدْ لِافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِالْأَفَاقِ وَلَمْ
يَخْضَرْ إِلَّا قَلِيلٌ وَلَا تَكُونُ الْبِنِيعَةُ إِلَّا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَلَا تُلْزَمُ بِعَقْدٍ مَنْ
تَوَلَّاهَا مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ مِنَ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوُضِيَ فَيُطَالِبُونَ أَوَّلًا
بِدَمِ عُثْمَانَ ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ وَذَهَبَ إِلَى هَذَا مُعَاوِيَةُ وَعَمَرُو بْنُ الْعَاصِ وَأُمُّ
الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَابْنَةُ عَبْدِ اللَّهِ وَطَلْحَةُ وَابْنَةُ مُحَمَّدٍ وَسَعْدٌ وَسَعِيدٌ
وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ خَدِيجٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ
تَخَلَّفُوا عَنْ بِنِيعَةِ عَلِيٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعَصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِمْ
اتَّفَقُوا عَلَى انْعِقَادِ بِنِيعَةِ عَلِيٍّ وَلَزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ وَتَصَوُّبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ وَتَغْيِيرِ الْخَطِّاءِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ وَخُصُوصاً طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ

لِإِتِّفَاقِهِمَا عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ النَّبِيِّ لَهُ فِيمَا ثَقُلَ مَعَ دَفْعِ الثَّائِمِينَ عَنْ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ
كَالشَّانِ فِي الْمُجْتَهِدِينَ وَصَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعاً مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلِي
أَهْلِ الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .

وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلِ الْجَمَلِ وَصِفَيْنَ فَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي
بِيَدِهِ لَا يَمُوتُنَّ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » يُشِيرُ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ نَقْلَهُ
الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قُدْحٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ
فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنْ الْمُسْتَنَدَاتِ وَعَدَالَتُهُمْ مَفْرُوعٌ مِنْهَا عِنْدَ
أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَلَا
عَرِجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ الْإِخْتِلَافِ فِي
عُثْمَانَ وَاخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدِ وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً ابْتَلَى اللَّهُ بِهَا الْأُمَّةَ
بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عُدُوَّهُمْ وَمَلَكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدَيَارَهُمْ وَنَزَلُوا الْأَمْصَارَ عَلَى
حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا هَذِهِ
الْأَمْصَارَ جَفَاءً لَمْ يَسْتَكْبِرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا ارْتَاضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ
فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعَصِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالبُعْدِ عَنْ سَكِينَةِ الْإِيمَانِ وَإِذَا
يَهُمْ عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ قَدْ أَصْبَحُوا فِي مِلْكِةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ
وَكِنَانَةَ وَثَقِيفَ وَهَذِيلَ وَأَهْلَ الْحِجَازِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى الْإِيمَانِ
فَاسْتَنَكَفُوا مِنْ ذَلِكَ وَغَضُّوا بِهِ لِمَا يَرَوْنَ لَأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثَرَتِهِمْ
وَمُضَادَمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ مِثْلَ قَبَائِلَ بَكْرِ بْنِ وَائِلَ وَعَبِيدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقَبَائِلَ
كَنْدَةَ وَالْأَزْدَ مِنَ الْيَمَنِ وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مِصْرَ فَصَارُوا إِلَى الْغَضِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنْفَةِ
عَلَيْهِمْ . وَالتَّمْرِيزُ فِي طَاعَتِهِمْ وَالتَّعَلُّلُ فِي ذَلِكَ بِالتَّظْلُمِ مِنْهُمْ وَالِاسْتِعْدَاءَ عَلَيْهِمْ
وَالطُّغْنَ فِيهِمْ بِالْعِجْزِ عَنِ السُّوِّيَّةِ وَالْعَدْلِ فِي الْقِسْمِ عَنِ السُّوِّيَّةِ وَفَشَتِ الْمَقَالَةُ بِذَلِكَ
وَاتَّهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانُ فَبَعَثَ إِلَى الْأَمْصَارِ مَنْ
يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ .

بَعَثَ ابْنُ عُمَرَ وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَأَسَامَةَ بْنُ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى
الْأَمْرَاءِ شَيْئاً وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَغِئاً وَأَدَّوْا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ الطَّغْنُ مِنْ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ تَنْمُو وَرَمَى الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ بِشَرْبِ
الْخَمْرِ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّثَ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزْلَ الْعُمَالِ وَشَكَّوْا إِلَى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعَزَلَ لَهُمْ
عُثْمَانُ بَعْضَ الْعُمَالِ فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذَلِكَ أَلْسِنَتُهُمْ بَلْ وَقَدْ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِي وَهُوَ عَلَى
الْكُوفَةِ فَلَمَّا رَجَعَ اعْتَرَضُوهُ بِالطَّرِيقِ وَرَدُّوهُ مَغْزُولاً ثُمَّ انْتَقَلَ الْخِلَافُ بَيْنَ عُثْمَانَ
وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ وَتَقَمُّوا عَلَيْهِ امْتِنَاعَهُ مِنَ الْعَزْلِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ
عَلَى جُرْحَةٍ ^(١) ثُمَّ نَقَلُوا النُّكَيْرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَهُوَ مُتَمَسِّكٌ بِالْاجْتِهَادِ وَهُمْ
أَيْضاً كَذَلِكَ ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ الْفَوْغَاءِ وَجَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ طَلَبَ النِّصْفَةِ
مِنْ عُثْمَانَ وَهُمْ يُضْمِرُونَ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِ وَفِيهِمْ مِنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَمِصْرَ
وَقَامَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَغَيْرُهُمْ يَحَاوِلُونَ تَسْكِينَ الْأُمُورِ
وَرُجُوعَ عُثْمَانَ إِلَى رَأْيِهِمْ وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلٌ مِصْرَ فَانْصَرَفُوا قَلِيلاً ثُمَّ رَجَعُوا وَقَدْ لَبَسُوا
بِكِتَابٍ مُدْلَسٍ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لِقَوْهُ فِي يَدِ حَامِلِهِ إِلَى عَامِلٍ مِصْرَ بِأَنْ يَقْتُلَهُمْ وَخَلَفَ
عُثْمَانُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا مَكَّنَّا مِنْ مَرْوَانَ فَإِنَّهُ كَاتِبُكَ فَخَلَفَ مَرْوَانُ فَقَالَ لَيْسَ فِي
الْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا فَحَاصَرُوهُ بِدَارِهِ ثُمَّ نَبَّئُوهُ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَقَتَلُوهُ
وَانْفَتَحَ بَابُ الْفِتْنَةِ فَلِكُلِّ مِنْ هَؤُلَاءِ عَذْرٌ فِيمَا وَقَعَ وَكُلُّهُمْ كَانُوا مُهْتَمِّينَ بِأَمْرِ الدِّينِ
وَلَا يُضَيِّعُونَ شَيْئاً مِنْ تَعَلُّقَاتِهِ .

ثُمَّ نَظَرُوا بَعْدَ هَذَا الْوَاقِعِ وَاجْتَهَدُوا وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَعَالِمٌ بِهِمْ وَنَحْنُ
لَا نَظُنُّ بِهِمْ إِلَّا خَيْراً لِمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ وَمَقَالَاتُ الصَّادِقِ فِيهِمْ وَأَمَّا الْحُسَيْنُ
فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فَسَقَ يَزِيدٌ عِنْدَ الْكَافَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ بَعَثَتْ شِيعَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ
بِالْكُوفَةِ لِلْحُسَيْنِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ فَرَأَى الْحُسَيْنُ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدٍ
مُنْتَعَيْنٌ مِنْ أَجْلِ فَسَقِهِ لَا سِيَّماً مَنْ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ وَظَنُّهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ

(١) ما تخرج به شهادة خصمك أو حجته .

وَشَوْكِهِ فَأَمَّا الْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ كَمَا ظَنُّ وَزِيَادَةُ وَأَمَّا الشُّوْكَةُ فَغَلِطَ يَرْحُمُهُ اللَّهُ فِيهَا
لَأَنَّ عَصِيَّةَ مُضَرَّ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ وَعَصِيَّةَ عَبْدِ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمَيَّةَ
تَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُمْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ النَّاسِ وَلَا يُنْكِرُونَهُ وَإِنَّمَا نُسِيَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لِمَا
شَغَلَ النَّاسَ مِنَ الذُّهُولِ بِالْخَوَارِقِ وَأَمْرِ الْوَحْيِ وَتَرَدُّدِ الْمَلَائِكَةِ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ
فَأَغْفَلُوا أُمُورَ عَوَائِدِهِمْ وَذَهَبَتْ عَصِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعَهَا وَنُسِيَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا
الْعَصِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي الْحِمَايَةِ وَالِدِفَاعِ يُنْتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ
وَالَّذِينَ فِيهَا مُحْكَمٌ وَالْعَادَةُ مَعْرُوزَةٌ حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْخَوَارِقُ الْمَهْوُولَةُ
تَرَاجَعَ الْحُكْمُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِلْعَوَائِدِ فَعَادَتِ الْعَصِيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تَكُنْ كَانَتْ
وَأَصْبَحَتْ مُضَرُّ أَطْوَعَ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِنْ سِوَاهُمْ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ
غَلَطُ الْحُسَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ فِي أَمْرٍ ذُنُوبِي لَا يُضِرُّهُ الْغَلَطُ فِيهِ وَأَمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فَلَمْ
يَغْلُطْ فِيهِ لِأَنَّهُ مَنُوطٌ بِظَنِّهِ وَكَانَ ظَنُّهُ الْقُدْرَةَ عَلَى ذَلِكَ وَلَقَدْ عَذَّلَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ
وَإِبْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ الْخَنْفِيَّةِ أَخُوهُ وَغَيْرُهُ فِي مَسِيرِهِ إِلَى الْكُوفَةِ وَعَلِمُوا
غَلَطُهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ .

وَأَمَّا غَيْرُ الْحُسَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْحِجَازِ وَمَعَ يَزِيدَ بِالشَّامِ
وَالْعِرَاقِ وَمِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ فَرَأَوْا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَجُوزُ لِمَا
يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَزَجِ وَالذَّمِّ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَتَابِعُوا الْحُسَيْنَ وَلَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ
وَلَا أَتَمُّوهُ لِأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ وَهُوَ أَسْوَأُ الْمُجْتَهِدِينَ وَلَا يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنْ تَقُولَ بِتَأْيِيمِ
هَؤُلَاءِ بِمُخَالَفَةِ الْحُسَيْنِ وَقَعُودِهِمْ عَنْ نُصْرِهِ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ
وَلَمْ يَرَوْا الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَشْهَدُ بِهِمْ وَهُوَ بِكَرْبَلَاءَ عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ
وَيَقُولُ سَلُّوا جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا سَعِيدَ الْخُدْرِيَّ وَأَنَسَ بْنَ مَالِكٍ وَسَهْلَ بْنَ
سَعِيدٍ وَيَزِيدَ بْنَ أَرْقَمَ وَأَمثالَهُمْ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ قُعُودَهُمْ عَنْ نُصْرِهِ وَلَا تَعَرُّضَ لِدَلِيلِ
لِعِلْمِهِ أَنَّهُ عَنِ اجْتِهَادٍ وَإِنْ كَانَ هُوَ عَلَى اجْتِهَادٍ وَيَكُونُ ذَلِكَ كَمَا يَحُدُّ الشَّافِعِيُّ
وَالْمَالِكِيُّ وَالْحَنْفِيُّ عَلَى شَرْبِ النَّبِيذِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ وَقَتَالَهُ لَمْ يَكُنْ عَنْ

اجْتِهَادِ هَوْلَاءُ وَإِنْ كَانَ خِلَافُهُ عَنِ اجْتِهَادِهِمْ وَإِنَّمَا انْفَرَدَ بِقِتَالِهِ يَزِيدٌ وَأَصْحَابَهُ وَلَا تَقُولُونَ إِنَّ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا وَلَمْ يُحِزْ هَوْلَاءُ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ فَأَقْعَالُهُ عِنْدَهُمْ صَحِيحَةٌ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْفِذُ مِنْ أَعْمَالِ الْفَاسِقِ مَا كَانَ مَشْرُوعًا وَقِتَالُ الْبَغَاةِ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَهُوَ مَفْقُودٌ فِي مَسْئَلَتِنَا فَلَا يَجُوزُ قِتَالُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَلَا لِيَزِيدَ بَلْ هِيَ مِنْ فَعَلَاتِهِ الْمُؤَكَّدَةِ لِفَسَقِهِ وَالْحُسَيْنُ فِيهَا شَهِيدٌ مُثَابٌ وَهُوَ عَلَى حَقٍّ وَاجْتِهَادِ وَالصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ يَزِيدَ عَلَى حَقٍّ أَيْضًا وَاجْتِهَادِ وَقَدْ غَلَطَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي هَذَا فَقَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِالْعَوَاصِمِ وَالْقَوَاصِمِ مَا مَعْنَاهُ :

إِنَّ الْحُسَيْنَ قُتِلَ بِشَرْعِ جَدِّهِ وَهُوَ غَلَطَ حَمَلْتُهُ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ عَنِ اشْتِرَاطِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَمَنْ أَعْدَلَ مِنَ الْحُسَيْنِ فِي زَمَانِهِ فِي إِمَامَتِهِ وَعَدَالَتِهِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْآرَاءِ وَأَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ رَأَى فِي مَنَامِهِ مَا رَأَى الْحُسَيْنُ وَظَنَّ كَمَا ظَنَّ وَغَلَطَهُ فِي أَمْرِ الشُّوْكَةِ أَعْظَمَ لِأَنَّ بَنِي أَسَدٍ لَا يُقَاوِمُونَ بَنِي أُمَيَّةَ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ . وَالْقَوْلُ بِتَعْيِينِ الْخَطَاءِ فِي جِهَةِ مُخَالَفَةِ كَمَا كَانَ فِي جِهَةِ مُعَاوِيَةَ مَعَ عَلِيٍّ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ . لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ هُنَالِكَ قَضَى لَنَا بِهِ وَلَمْ نَحْذَهُ هَا هُنَا . وَأَمَّا يَزِيدُ فَقَعَيْنَ خَطَاهُ فِسْقُهُ . وَعَبْدُ الْمَلِكِ صَاحِبُ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَعْظَمَ النَّاسِ عَدَالَةً وَنَاهِيكَ بِعَدَالَتِهِ اخْتِجَاجَ مَالِكٍ بِفِعْلِهِ وَعَدُولُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عَمْرٍ إِلَى بَيْعَتِهِ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُمْ مَعَهُ بِالْحِجَازِ مَعَ أَنَّ الْكَثِيرَ^(١) مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ بَيْعَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَمْ تَنْفَعِدْ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْضَرْهَا أَهْلُ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ كَبَيْعَةِ مَرْوَانَ وَابْنِ الزُّبَيْرِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ وَالْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ مَحْمُولُونَ عَلَى الْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَّعَيْنِ فِي جِهَةِ مَنِهْمَا وَالْقَتْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَّرْنَاهُ يَجِيءُ عَلَى قَوَاعِدِ الْفَقْهِ وَقَوَانِينِهِ مَعَ أَنَّهُ شَهِيدٌ مُثَابٌ بِاعْتِبَارِ قَضِيهِ وَتَحَرِّيهِ الْحَقِّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُحْمَلَ عَلَيْهِ أَفْعَالُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَهُمْ خِيَارُ الْأُمَّةِ وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عَرْضَةً لِلْقُدْحِ فَمَنْ الَّذِي يَخْتَصُّ

(١) كذا في جميع النسخ ومقتضى السياق : هذا إلى أن الكثير .

بِالْعَدَالَةِ وَالنَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ « خَيْرُ النَّاسِ قِرْنِي » ^(١) ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ فَجَعَلَ الْخَيْرَةَ وَهِيَ الْعَدَالَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْقِرْنِ الْأَوَّلِ وَالَّذِي يَلِيهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تُعَوِّدَ نَفْسَكَ أَوْ لِسَانَكَ التَّعَرُّضَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا يَشْوَشَ قَلْبُكَ بِالرَّيْبِ فِي شَيْءٍ مِمَّا وَقَعَ مِنْهُمْ وَالتَّمَسُّ لِهِمْ مَذَاهِبَ الْحَقِّ وَطَرَفَهُ مَا اسْتَطَعْتَ فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا عَنْ بَيِّنَةٍ وَمَا قَاتَلُوا أَوْ قَتَلُوا إِلَّا فِي سَبِيلِ جِهَادٍ أَوْ إظهارِ حَقٍّ وَاعْتَمَدَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ رَحْمَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ لِيَقْتَدِيَ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ وَيَجْعَلَهُ إِمَامَةً وَهَادِيَةً وَدَلِيلَةً فَافْهَمْ ذَلِكَ وَتَبَيَّنَ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَكْوَانِهِ وَاعْلَمْ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَالْيَهُ الْمَلْجَأُ وَالْمَصِيرُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافية

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْخِلَافَةِ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا فَصَاحِبِ الشَّرْعِ مُتَصَرِّفٌ فِي الْأُمُورِ أَمَّا فِي الدِّينِ فَمُبْتَقِضُ التَّكَالُيفِ الشَّرْعِيَّةِ الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِهَا وَحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا سِيَاسَةُ الدُّنْيَا فَمُبْتَقِضُ رِعَايَتِهِ لِمَصَالِحِهِمْ فِي الْعُمُرَانِ الْبَشَرِيِّ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْعُمُرَانَ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ وَأَنَّ رِعَايَةَ مَصَالِحِهِ كَذَلِكَ لِئَلَّا يَفْسُدَ إِنْ أَهْمِلَتْ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْمَلِكَ وَسَطَوْتُهُ كَافٍ فِي حُصُولِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ .

نَعَمْ إِنَّمَا تَكُونُ أَكْمَلُ إِذَا كَانَتْ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّهُ ^(٢) أَعْلَمُ بِهِذِهِ الْمَصَالِحِ

(١) (ورد في لسان العرب قول الأزهري ، والذي يقع عندي . والله أعلم . ان القرن) هل كل مدة كان فيها . أو كان فيها طبقة من أهل العلم . قلت السنون أو كثرت والدليل على هذا قول النبي ﷺ « خيركم قِرْنِي » . يعني أصحابي ثم الذين يلونهم . يعني التابعين . ثم الذين يلونهم . يعني الذين أخذوا عن التابعين « قال ، وجائز أن يكون القرن لجملة الأمة . وهؤلاء قرون فيها .

(٢) الضمير يعود إلى الله تعالى .

فَقَدْ صَارَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا وَقَدْ يَنْفَرِدُ إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ الْمِلَّةِ وَلَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتِبُ خَادِمَةٍ وَوُظَائِفُ تَابِعَةٍ تَتَعَيَّنُ خَطَطًا وَتَتَوَرَّعُ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَوُظَائِفُ فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوُظَيْفَتِهِ حَسَبَ مَا يُعَيَّنُهُ الْمَلِكُ الَّذِي تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ فَيَسْتَمُ بِذَلِكَ أَمْرُهُ وَيَحْسُنُ قِيَامُهُ بِسُلْطَانِهِ وَأَمَّا الْمَنْصِبُ الْخِلَافِيُّ وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَتَصَرُّفُهُ الدِّينِي يَخْتَصُّ بِخَطِيطٍ وَمَرَاتِبُ لَا تُعْرَفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ فَلْنَذْكُرِ الْآنَ الْخِطَطَ الدِّينِيَّةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْخِلَافَةِ وَنَرْجِعَ إِلَى الْخِطِيطِ الْمُلْكِيَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ .

فَاعْلَمْ أَنَّ الْخِطَطَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْفَتْنِ وَالْقَضَاءِ وَالْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ كُلُّهَا مُنْدرِجَةٌ تَحْتَ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى الَّتِي هِيَ الْخِلَافَةُ فَكَانَتْهَا الْإِمَامُ الْكَبِيرُ وَالْأَصْلُ الْجَامِعُ وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا وَدَاخِلَةٌ فِيهَا لِعُمُومِ نَظَرِ الْخِلَافَةِ وَتَصَرُّفُهَا فِي سَائِرِ أَحْوَالِ الْمِلَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ وَتَنْفِيذُ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فِيهَا عَلَى الْعُمُومِ .

فَأَمَّا إِمَامَةُ الصَّلَاةِ فَهِيَ أَرْفَعُ هَذِهِ الْخِطِيطِ كُلُّهَا وَأَرْفَعُ مِنَ الْمَلِكِ بِخُصُوصِهِ الْمُنْدرِجَ مَعَهَا تَحْتَ الْخِلَافَةِ . وَلَقَدْ يَشْهَدُ لِذَلِكَ اسْتِدْلَالُ الصَّحَابَةِ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِاسْتِخْلَافِهِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى اسْتِخْلَافِهِ فِي السِّيَاسَةِ فِي قَوْلِهِمْ ارْتِضَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَدِينَنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا ؟ فَلَوْلَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَرْفَعُ مِنَ السِّيَاسَةِ لَمَا صَحَّ الْقِيَاسُ وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَسَاجِدَ فِي الْمَدِينَةِ صِنْفَانِ ، مَسَاجِدَ عَظِيمَةً كَثِيرَةً الْفَاشِيَّةُ ^(١) مَعْدَةٌ لِلصَّلَوَاتِ الْمَشْهُودَةِ . وَآخَرَى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ وَلَيْسَتْ لِلصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ فَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْعَظِيمَةُ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوْ مَنْ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ مِنْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ فَيَنْصِبُ لَهَا الْإِمَامَ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَالْخُسُوفَيْنِ وَالْإِسْتِسْقَاءَ وَتَعَيَّنَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْأَوَّلِ

(١) الَّذِينَ يَزُورُونَهَا لِلصَّلَاةِ .

وَالِاسْتِحْسَانِ وَلَكُلًّا يَفْتَاتُ ^(١) الرُّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَقَدْ يَقُولُ بِالْوُجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ إِقَامَةِ الْجُمُعَةِ فَيَكُونُ نَصَبُ الْإِمَامِ لَهَا عِنْدَهُ وَاجِبًا وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْجِيرَانِ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْوَلَايَةِ وَشُرُوطُهَا وَالْمَوْلَى فِيهَا مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ لِلْمَاوَزِدِيِّ وَغَيْرِهِ فَلَا نَطُولُ بِذِكْرِهَا وَلَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ لَا يُقَلِّدُونَهَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ . وَانْظُرْ مَنْ طَمِعَ مِنَ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ وَتَرَضُّدِهِمْ لَذَلِكَ فِي أَوْقَاتِهَا ، يَشْهَدُ لَكَ ذَلِكَ بِمُبَاشَرَتِهِمْ لَهَا وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَخْلِفِينَ فِيهَا . وَكَذَا كَانَ رِجَالُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتِثَارًا بِهَا وَاسْتِعْظَامًا لِرِثْيَتِهَا .

يُحْكِي عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّهُ قَالَ لِحَاجِبِهِ « قَدْ جَعَلْتُ لَكَ حِجَابَةً يَأْبَى إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ ، صَاحِبِ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ بِالتَّأَخِيرِ وَالْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاجٍ إِلَى اللَّهِ وَالتَّبَرِيدِ فَإِنَّ فِي تَأَخِيرِهِ فَسَادَ الْقَاصِيَةِ » فَلَمَّا جَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَعَوَارِضُهُ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالتَّرَفُّعِ عَنْ مُسَاوَاةِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ اسْتَنَابُوا فِي الصَّلَاةِ فَكَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ بِهَا فِي الْأَحْيَانِ وَفِي الصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ كَالْعَمِيدِينَ وَالْجُمُعَةِ إِشَارَةً وَتَنْوِينًا فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبِيدِيِّينَ صَدَرَ دَوْلَتِهِمْ .

وَأَمَّا الْفَتَا فَلَِلْخَلِيفَةِ تَصَفُّحُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّدْرِيسُ وَرَدُّ الْفَتَا إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُ لَهَا وَإِعَانَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْعُ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا وَزَجْرُهُ لِأَنَّهَا مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَذْيَانِهِمْ فَتَجِبُ عَلَيْهِ مَرَاعَاتُهَا لِكُلِّ يَتَعَرَّضُ لِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلُّ النَّاسَ . وَلِلْمُدْرَسِ الْإِنْتِصَابُ لِتَعْلِيمِ الْعِلْمِ وَبَقِيَّةُ الْجُلُوسِ لِذَلِكَ فِي الْمَسَاجِدِ فَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْمَسَاجِدِ الْعِظَامِ الَّتِي لِلْسُلْطَانِ الْوَلَايَةُ عَلَيْهَا وَالنَّظَرُ فِي أَمْرِهَا كَمَا مَرَّ فَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِئْذَانِهِ فِي ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مَسَاجِدِ الْعَامَّةِ فَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى إِذْنِهِ . عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُفْتِينَ وَالْمُدْرَسِينَ زَاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ يَمْنَعُهُ عَنِ

(١) يَخَالِفُهُ .

التَّصَدِّي لِمَا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلُّ^(١) بِهِ الْمُسْتَهْدِي وَيُضِلُّ بِهِ الْمُسْتَرْشِدُ وَفِي الْأَثَرِ « أَجْرَاكُمْ عَلَى الْفَتْيَا أَجْرَاكُمْ عَلَى جَرَائِمِ جَهَنَّمَ » فَلِلْسلْطَانِ فِيهِمْ لِذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ مَا تُوجِبُهُ الْمَصْلَحَةُ مِنْ إِجَازَةٍ أَوْ رَدٍّ .

وَأَمَّا الْقَضَاءُ فَهُوَ مِنَ الْوُظَائِفِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِأَنَّهُ مَنْصِبُ الْفَضْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْخُصُومَاتِ حَسْبًا لِلتَّدَايِي وَقَطْعًا لِلتَّنَازُعِ إِلَّا أَنَّهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَلَقَّاةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَكَانَ لِذَلِكَ مِنَ وَظَائِفِ الْخِلَافَةِ وَمُنْدَرَجًا فِي عُمُومِهَا وَكَانَ الْخُلَفَاءُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ يَنَاشِرُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَلَا يَجْعَلُونَ الْقَضَاءَ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ . وَأَوَّلُ مَنْ دَفَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَفَوَّضَهُ فِيهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ وَوَلَّى شَرِيحًا بِالْبَصْرَةِ وَوَلَّى أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ بِالْكُوفَةِ وَكُتِبَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ الْمَشْهُورُ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْقَضَاءِ وَهِيَ مُسْتَوْفَاةٌ فِيهِ يَقُولُ أَمَّا بَعْدُ ،

« فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَافْهَمْ إِذَا أَذْلَى إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمُ بِحَقٍّ لَا نَفَازَ لَهُ وَأَسْ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَعَذْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي خَيْفِكَ وَلَا يَنَاسُ ضَعِيفٌ مِنْ غَذْلِكَ الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ . وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صَلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا وَلَا يَمْنَعُكَ قَضَاءُ قَضِيَّتِهِ أَمْسَ فَرَأَجَعْتَ الْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهَدَيْتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ الْفَهْمُ الْفَهْمُ فِيمَا يَتَلَجَّلُجُ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ثُمَّ اعْرِفِ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْبَاهَ وَقَسِ الْأُمُورَ بِنَظَائِرِهَا وَاجْعَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمْدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا اسْتَخْلَلْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشُّكِّ وَأَجْلَى لِلْعَمَى . الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ أَوْ مُجْرَى^(٢) عَلَيْهِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ ، فَيُذِلُّ أَيُّ يَتَّقُ بِهِ وَيَعْتَرِ .

(٢) وَفِي بَعْضِ النُّسخِ ، مَجْرَبًا .

شَهَادَةُ زُورٍ أَوْ ظَنِينًا فِي نَسَبٍ أَوْ وِلَاءٍ . فَإِنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ عَفَا عَنِ الْإِيمَانِ وَدَرَأَ
بِالْبَيِّنَاتِ . وَإِيَّاكَ وَالْقَلْقَ وَالضَّجَرَ وَالتَّائِفَ بِالْخُصُومِ فَإِنَّ اسْتِقْرَارَ الْحَقِّ فِي مَوَاطِنَ
الْحَقِّ يُعَظِّمُ اللَّهُ بِهِ الْأَجَرَ وَيُحْسِنُ بِهِ الذِّكْرَ وَالسَّلَامَ » .

إِنْتَهَى كِتَابُ عَمَرَ وَإِنَّمَا كَانُوا يَقْلُدُونَ الْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ
بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَكَثْرَةِ اشْغَالِهَا مِنَ الْجِهَادِ وَالْفَتْوحَاتِ وَسَدِّ الثُّغُورِ
وَحِمَايَةِ الْأَبْنِيَّةِ . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُمْ لِعَظَمِ الْعِمَايَةِ فَاسْتَحَقُّوا
الْقَضَاءَ فِي الْوَأَقِعَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَخْلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ بِهِ تَخْفِيفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَقْلُدُونَهُ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالنَّسَبِ أَوْ الْوِلَاءِ وَلَا يَقْلُدُونَهُ لِمَنْ بَعْدَ
عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ . وَأَمَّا أَحْكَامُ هَذَا الْمَنْصِبِ وَشُرُوطُهُ فَمَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَخُصُوصًا
كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ الْقَاضِيَّ إِنَّمَا كَانَ لَهُ فِي عَصْرِ الْخُلَفَاءِ الْفَضْلُ بَيْنَ
الْخُصُومِ فَقَطْ ثُمَّ دَفَعَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورٌ أُخْرَى عَلَى التَّدْرِيجِ بِحَسَبِ اشْتِغَالِ الْخُلَفَاءِ
وَالْمُلُوكِ بِالسِّيَاسَةِ الْكُبْرَى وَاسْتَقَرَّ مَنْصِبُ الْقَضَاءِ آخِرَ الْأُمُورِ عَلَى أَنَّهُ يَجْمَعُ مَعَ
الْفَضْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ اسْتِيفَاءَ بَعْضِ الْحُقُوقِ الْعَامَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّظَرِ فِي أُمُورٍ ^(١)
الْمَخْجُورِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَجَانِينِ وَالْيَتَامَى وَالْمَفْلِسِينَ وَأَهْلِ السُّفْهِ وَفِي وَصَايَا
الْمُسْلِمِينَ وَأَوْقَافِهِمْ وَتَرْوِيجِ الْأَيَامَى عِنْدَ فَقْدِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى رَأْيٍ مَنْ رَأَاهُ وَالنَّظَرِ فِي
مَصَالِحِ الطَّرِيقَاتِ وَالْأَبْنِيَّةِ وَتَصْفُحِ الشُّهُودِ وَالْأَمْنَاءِ وَالنُّوَابِ وَاسْتِيفَاءِ الْعِلْمِ وَالْخُبْرَةِ
فِيهِمْ بِالْعَدَالَةِ وَالْجَرَحِ لِيَحْصَلَ لَهُ الْوُثُوقُ بِهِمْ وَصَارَتْ هَذِهِ كُلُّهَا مِنْ تَعَلُّقَاتِ
وِظَافَتِهِ وَتَوَاجِعِ وَلَايَتِهِ . وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ مِنْ قَبْلُ يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِيِ النَّظَرَ فِي
الْمَظَالِمِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ مُمْتَرِجَةٌ مِنْ سَطْوَةِ السُّلْطَانَةِ وَنَصَفَةِ الْقَضَاءِ وَتَحْتَاجُ إِلَى عُلُوِّ يَدٍ
وَعَظِيمِ رَهْبَةٍ تَقْمَعُ الظَّالِمَ مِنَ الْخَصْمَيْنِ وَتَرْجُرُ الْمُتَعَدِّيَّ وَكَأَنَّهُ يُمَضِي مَا عَجَزَ
الْقَضَاءُ أَوْ غَيْرُهُمْ عَنْ إِمْضَائِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ فِي الْبَيِّنَاتِ وَالتَّقْرِيرِ وَاعْتِمَادِ الْأَمَارَاتِ

(١) وَفِي بَعْضِ النُّسخِ : أُمُورِ .

وَالْقَرَائِنِ وَتَأْخِيرِ الْحُكْمِ إِلَى اسْتِحْلَاءِ الْحَقِّ وَحَمْلِ الْخُصْمَيْنِ عَلَى الصُّلْحِ وَاسْتِخْلَافِ الشُّهُودِ وَذَلِكَ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي .

وَكَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ يَبَاشِرُونَهَا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى أَيَّامِ الْمُتَّهِدِي مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَهَا لِقَضَائِهِمْ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ قَاضِيهِ أَبِي أَدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ وَكَمَا فَعَلَهُ الْمَأْمُونُ لِيَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ وَالْمُعْتَصِمُ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِي قِيَادَةَ الْجِهَادِ فِي عَسَاكِرِ الطُّوَائِفِ ^(١) وَكَانَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ يَخْرُجُ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ بِالطَّائِفَةِ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ وَكَذَا مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ قَاضِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ تَوَلِيَّةُ هَذِهِ الطُّوَائِفِ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْخُلَفَاءِ أَوْ مَنْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مَفُوضٍ أَوْ سُلْطَانٍ مُتَغَلِّبٍ . وَكَانَ أَيْضًا النَّظَرُ فِي الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْعَبِيدِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ رَاجِعًا إِلَى صَاحِبِ الشَّرْطَةِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ أُخْرَى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِنَ الطُّوَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ فِي تِلْكَ الدَّوْلِ تَوْسَعُ النَّظَرُ فِيهَا عَنْ أَحْكَامِ الْقَضَاءِ قَلِيلًا فَيَجْعَلُ لِلتُّهْمَةِ فِي الْحُكْمِ مَجَالًا وَيَفْرَضُ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةَ قَبْلَ ثُبُوتِ الْجَرَائِمِ وَيُقِيمُ الْحُدُودَ الثَّابِتَةَ فِي مَحَالِّهَا وَيَحْكُمُ فِي الْقَوَدِ ^(٢) وَالْقِصَاصِ وَيُقِيمُ التَّغْزِيرَ وَالتَّادِيَةَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْجَرِيمَةِ .

ثُمَّ تُنَوِّسِي شَأْنُ هَاتَيْنِ الْوُظَيْفَتَيْنِ فِي الدَّوْلِ الَّتِي تُنَوِّسِي فِيهَا أَمْرَ الْخِلَافَةِ فَصَارَ أَمْرُ الْمَظَالِمِ رَاجِعًا إِلَى السُّلْطَانِ كَانَتْ لَهُ تَفْوِيضُ مِنَ الْخَلِيفَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ وَانْقَسَمَتْ وَظِيفَةُ الشَّرْطَةِ قِسْمَيْنِ مِنْهَا وَظِيفَةُ التُّهْمَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا وَمُبَاشَرَةُ الْقَطْعِ وَالْقِصَاصِ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ وَنُصِبَ لِذَلِكَ فِي هَذِهِ الدَّوْلِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمُوجِبِ السِّيَاسَةِ دُونَ مُرَاجَعَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَيُسَمَّى تَارَةً بِاسْمِ الْوَالِي وَتَارَةً بِاسْمِ الشَّرْطَةِ وَبَقِيَ قِسْمُ التَّغَاذِيرِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ فِي الْجَرَائِمِ الثَّابِتَةِ شَرْعًا فَجُمِعَ

(١) ربما تكون محرّفة من الصوائف ؛ أي الغزو أثناء الصيف .

(٢) القود : قتل القاتل بدل القاتيل (منجد) .

ذَلِكَ لِلْقَاضِي مَعَ مَا تَقَدَّمَ وَصَارَ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِ وَظِيفَةٍ وَلَا يَتَنَبَّهُ وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى ذَلِكَ وَخَرَجَتْ هَذِهِ الْوَظِيفَةُ عَنْ أَهْلِ عَصَبِيَّةِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الْأَمْرَ لَمَّا كَانَ خِلَافَةً دِينِيَّةً وَهَذِهِ الْخِطَّةُ مِنْ مَرَامِسِ الدِّينِ فَكَانُوا لَا يُؤَلِّقُونَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ بِالْحِلْفِ أَوْ بِالزُّقِّ أَوْ بِالِاضْطِنَاعِ مِنْ يُوَثِّقُ بِكِفَايَتِهِ أَوْ غَنَائِهِ فِيمَا يَنْدَفِعُ إِلَيْهِ ، وَلَمَّا انْقَرَضَ شَأْنُ الْخِلَافَةِ وَطَوَّرَهَا وَصَارَ الْأَمْرُ كُلُّهُ مُلْكًا أَوْ سُلْطَانًا صَارَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ الدِّينِيَّةُ بَعِيدَةً عَنْهُ بَغْضِ الشَّيْءِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقَابِ الْمَلِكِ وَلَا مَرَامِسِهِ ثُمَّ خَرَجَ الْأَمْرُ جُمْلَةً مِنَ الْعَرَبِ وَصَارَ الْمُلْكُ لِسِوَاهُمْ مِنْ أُمَّةِ التُّرْكِ وَالتَّبَرُّبَرِ فَازْدَادَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ الْخِلَافِيَّةُ بُغْدًا عَنْهُمْ بِمَنَحِهَا وَعَصَبِيَّتِهَا . وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ دِينُهُمْ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْهُمْ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ يَخْلُتُهُمْ بَيْنَ الْأَمَمِ وَطَرِيقُهُمْ ، وَغَيْرُهُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤَلِّقُونَهَا جَانِبًا مِنَ التَّعْظِيمِ لِمَا دَانُوا بِالْمِلَّةِ فَقَطْ . فَصَارُوا يُقَلِّدُونَهَا مِنْ غَيْرِ عَصَابَتِهِمْ مِنْ كَانَ تَأَهَّلَ لَهَا فِي دَوْلِ الْخُلَفَاءِ السَّالِفَةِ .

وَكَانَ أُولَئِكَ الْمُتَأَهِّلُونَ بِمَا أَخَذَهُمْ تَرْفُ الدَّوْلِ مُنْذُ مَبْنِئٍ مِنَ السَّنِينَ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَخَشَوْتَهَا وَالتَّبَسُّوْا بِالْحَضَارَةِ فِي عَوَائِدِ تَرْفِهِمْ وَدَعَبَتِهِمْ ، وَقَلَّتْ الْمَمَانَعَةُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَصَارَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ فِي الدَّوْلِ الْمُلُوكِيَّةِ مِنْ بَعْدِ الْخُلَفَاءِ مُخْتَصَةً بِهَذَا الصَّنِفِ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَنَزَلَ أَهْلُهَا عَنْ مَرَاتِبِ الْعِزِّ لِفَقْدِ الْأَهْلِيَّةِ بِأَنْسَابِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَضَارَةِ فَلَحِقَهُمْ مِنَ الْإِحْتِقَارِ مَا لَحِقَ الْخَضَرِ الْمُتَنَفِّسِينَ فِي التَّرَفِ وَالِدَّعَةِ ، الْبُعْدَاءُ عَنْ عَصَبِيَّةِ الْمُلْكِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى الْحَامِيَّةِ ، وَصَارَ اغْتِبَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ أَجْلِ قِيَامِهَا بِالْمِلَّةِ وَأَخْذِهَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، لِمَا أَنَّهُمْ الْحَامِلُونَ لِلْأَحْكَامِ الْمُقْتَدُونَ بِهَا . وَلَمْ يَكُنْ إِيشَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِكْرَامًا لِدَوَانِهِمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا يَتَلَمَّحُ مِنَ التَّجَمُّلِ بِمَكَانِهِمْ فِي مَجَالِسِ الْمُلْكِ لِتَعْظِيمِ الرُّتَبِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ شَيْءٌ ، وَإِنْ حَضَرُوهُ فَحُضُورٌ رَسْمِيٌّ لَا حَقِيقَةً وَرَاءَهُ ، إِذْ حَقِيقَةُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ إِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ

فَمَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلَا حُلَّ لَهُ وَلَا عَقْدَ لَدَيْهِ . اللَّهُمَّ إِلَّا أَخَذَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ عَنْهُمْ ، وَتَلَقَّى الْفِتَاوَى مِنْهُمْ فَتَنَهُمُ وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ . وَرُبَّمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ وَأَنَّ فِعْلَ الْمُلُوكِ فِيمَا فَعَلُوهُ مِنْ إِخْرَاجِ الْفُقَهَاءِ وَالْقُضَاةِ مِنَ الشُّورَى مَرْجُوحٌ وَقَدْ قَالَ ﷺ « الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » فَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ ^(١) وَحُكْمُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمَرَاءِ وَإِلَّا كَانَ يَبْعِدُ عَنِ السِّيَاسَةِ . فَطَبِيعَةُ الْعُمَرَاءِ فِي هَؤُلَاءِ لَا تَقْضِي لَهُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ الشُّورَى وَالْحُلَّ وَالْعَقْدَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ عَصِيَّةٍ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى حُلٍّ أَوْ عَقْدٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ . وَأَمَّا مَنْ لَا عَصِيَّةَ لَهُ وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئاً وَلَا مِنْ حِمَايَتِهَا وَإِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ فَأَيُّ مَدْخَلٍ لَهُ فِي الشُّورَى أَوْ أَيُّ مَعْنَى يَدْعُو إِلَى اعْتِبَارِهِ فِيهَا ؟ اللَّهُمَّ إِلَّا شُورَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَمَوْجُودَةٌ فِي الْإِسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً . وَأَمَّا شُورَاهُ فِي السِّيَاسَةِ فَهُوَ يَبْعِدُ عَنْهَا لِفَقْدَانِهِ الْعَصِيَّةَ وَالْقِيَامَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا وَأَحْكَامِهَا وَإِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ الشَّاهِدَةِ لَهُمْ بِحَمِيلِ الْإِعْتِقَادِ فِي الدِّينِ وَتَعْظِيمِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِأَيِّ جِهَةٍ انْتَسَبَ وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ « الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » فَأَعْلَمُ أَنَّ الْفُقَهَاءَ فِي الْأَغْلَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمَا اخْتَفَ بِهِ إِنَّمَا حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ أَقْوَالاً فِي كَيْفِيَّةِ الْأَعْمَالِ فِي الْعِبَادَاتِ وَكَيْفِيَّةِ الْقَضَاءِ فِي الْمَعَامَلَاتِ يَنْصُونَهَا عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا هَذِهِ غَايَةُ أَكْبَارِهِمْ وَلَا يَتَصِفُونَ إِلَّا بِالْأَقْلِ مِنْهَا وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَالسَّلَفُ رُضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَاهْلُ الدِّينِ وَالْوَرَعِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ اتِّصَافاً بِهَا وَتَحَقُّقاً بِمَذَاهِبِهَا . فَمَنْ حَمَلَهَا اتِّصَافاً وَتَحَقُّقاً دُونَ نَقْلِ فَهُوَ مِنَ الْوَارِثِينَ مِثْلَ أَهْلِ رِسَالَةِ التَّفْسِيرِيِّ وَمَنْ اجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْرَانِ فَهُوَ الْعَالِمُ وَهُوَ الْوَارِثُ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِثْلَ فُقَهَاءِ التَّابِعِينَ وَالسَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ اقْتَفَى طَرِيقَهُمْ وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِمْ وَإِذَا انْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَالْعَابِدُ أَحَقُّ بِالْوَرَاثَةِ مِنَ الْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لِأَنَّ الْعَابِدَ وَرِثَ بَصِيفَةِ وَالْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لَمْ يَرِثْ

(١) الضمير يعود إلى الناس أو العامة .

شَيْئاً إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ أَقْوَالٍ يَنْصُهَا عَلَيْنَا فِي كَيْفِيَّاتِ الْعَمَلِ وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ فَقَهَاءُ عَصَرْنَا « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » ..

العدالة : وَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِلْقَضَاءِ وَمِنْ مَوَادِّ تَضْرِيْفِهِ وَحَقِيقَةُ هَذِهِ الْوِظِيفَةِ الْقِيَامُ عَنْ إِذْنِ الْقَاضِي بِالشَّهَادَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ تَحْمُلًا عِنْدَ الْإِشْهَادِ وَأَدَاءً عِنْدَ التَّنَازُعِ وَكُتِبَ فِي السَّجَلَاتِ تَحْفَظُ بِهِ حُقُوقُ النَّاسِ وَأَمْلَاكُهُمْ وَذِيُونُهُمْ وَسَائِرُ مَعَامَلَاتِهِمْ وَشَرَطُ هَذِهِ الْوِظِيفَةِ الْإِتِّصَافُ بِالْعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الْجَرْحِ ثُمَّ الْقِيَامُ بِكُتْبِ السَّجَلَاتِ وَالْعُقُودِ مِنْ جِهَةِ عِبَارَاتِهَا وَانْتِظَامِ فُصُولِهَا وَمِنْ جِهَةِ إِحْكَامِ شُرُوطِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَعَقُودِهَا فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ الْفِقْهِ وَلِأَجْلِ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِرَانِ^(١) عَلَى ذَلِكَ وَالْمَعَارِضَةِ لَهُ اخْتَصُصَ ذَلِكَ بِبَعْضِ الْعُدُولِ وَصَارَ الصَّنْفُ الْقَائِمُونَ بِهِ كَأَنَّهُمْ مُخْتَصَّوْنَ بِالْعَدَالَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا الْعَدَالَةُ مِنْ شُرُوطِ اخْتِصَاصِهِمْ بِالْوِظِيفَةِ وَيَجِبُ عَلَى الْقَاضِي تَضَفُّعُ أَحْوَالِهِمْ وَالْكَشْفُ عَنْ سَيْرِهِمْ رِعَايَةً لَشَرِطِ الْعَدَالَةِ فِيهِمْ وَأَنْ لَا يَهْمِلَ ذَلِكَ لَمَّا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ مِنْ حِفْظِ حُقُوقِ النَّاسِ فَالْعَهْدَةُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَهُوَ ضَامِنٌ ذَرَكُهُ وَإِذَا تَعَيَّنَ هَؤُلَاءُ لِهَذِهِ الْوِظِيفَةِ عُمَّتِ الْفَائِدَةُ فِي تَعْيِينِ مَنْ تَخْفَى عِدَالَتُهُ عَلَى الْقَضَاةِ بِسَبَبِ اتِّسَاعِ الْأُمُصَارِ وَاشْتِبَاهِ الْأَحْوَالِ وَاضْطِرَارِ الْقَضَاةِ إِلَى الْفَضْلِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ بِالْبَيِّنَاتِ الْمُوثُوقَةِ فَيَعْمَلُونَ غَالِبًا فِي الْوُثُوقِ بِهَا عَلَى هَذَا الصَّنْفِ وَلَهُمْ فِي سَائِرِ الْأُمُصَارِ ذَكَائِكُنَ وَمَضَاطِبُ يَخْتَصُّونَ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهَا فَيَتَعَاهَدُهُمْ أَصْحَابُ الْمُعَامَلَاتِ لِلْإِشْهَادِ وَتَقْيِيدِهِ بِالْكِتَابِ وَصَارَ مَذْلُولُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ مُشْتَرَكًا بَيْنَ هَذِهِ الْوِظِيفَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ مَذْلُولُهَا وَبَيْنَ الْعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ أُخْتُ الْجَرْحِ وَقَدْ يَتَوَارَدَانِ وَيَفْتَرِقَانِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الحسبة والسكة

إِنَّمَا الْحِسْبَةُ فَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ

(١) الران بكسر الليم الثمرن والاعتیاد على الشيء ١٠ هـ .

الَّذِي هُوَ فَرَضَ عَلَى الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ يُعَيِّنُ لِدَلِك مَنْ يَرَاهُ أَهْلًا لَهُ فَيَتَقَيَّنُ
فَرَضَهُ عَلَيْهِ وَيَتَخَذُ الْأَعْوَانَ عَلَى ذَلِكَ وَيَبْحَثُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَيَعَزِّرُ وَيُؤَدِّبُ عَلَى
قَدَرِهَا وَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ فِي الْمَدِينَةِ مِثْلَ الْمَنَعِ مِنَ الْمَضَايِقَةِ فِي
الطَّرِيقَاتِ وَمَنْعِ الْحَمَالِينَ وَأَهْلِ السُّفُنِ مِنَ الْإِكْثَارِ فِي الْحَمْلِ وَالْحُكْمِ عَلَى أَهْلِ
الْمَبَانِي الْمَتَدَاعِيَةِ لِلْسُّقُوطِ بِهَدْمِهَا وَإِزَالَةِ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْ ضَرَرِهَا عَلَى السَّابِلَةِ
وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الْمُعْلَمِينَ فِي الْمَكَاتِبِ وَغَيْرِهَا فِي الْإِبْلَاحِ فِي ضَرْبِهِمُ لِلصُّبْيَانِ
الْمُتَعَلِّمِينَ وَلَا يَتَوَقَّفُ حُكْمُهُ عَلَى تَنَازُعٍ أَوْ اسْتِعْدَاءٍ بَلْ لَهُ النُّظَرُ وَالْحُكْمُ فِيمَا يَصِلُ
إِلَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَيَرْفَعُ إِلَيْهِ وَلَيْسَ لَهُ إِمْضَاءُ الْحُكْمِ فِي الدَّعَاوِي مُطْلَقًا بَلْ فِيمَا
يَتَعَلَّقُ بِالْعِشِّ وَالتَّدْلِيلِ فِي الْمَعَايِشِ وَغَيْرِهَا فِي الْمَكَائِلِ وَالْمَوَازِينِ وَلَهُ أَيْضًا
حَمْلُ الْمُطَاطِلِينَ عَلَى الْإِنْصَافِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ سَمَاعٌ بَيِّنَةٌ وَلَا إِنْفَادُ حُكْمٍ
وَكَأَنَّهَا أَحْكَامٌ يَنْزُهُ الْقَاضِي عَنْهَا لِعُمُومِهَا وَسَهُولَةِ اغْتِرَاضِهَا فَتُدْفَعُ إِلَى صَاحِبِ هَذِهِ
الْوُظَيْفَةِ لِيَقُومَ بِهَا فَوْضَعُهَا عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ خَازِمَةً لِمَنْصِبِ الْقَضَاءِ وَقَدْ كَانَتْ فِي
كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِثْلَ الْعَبِيدِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَمُويِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ
دَاخِلَةً فِي عُمُومِ وَلَايَةِ الْقَاضِي يُؤَلَّى فِيهَا بِاخْتِيَارِهِ ثُمَّ لَمَّا انْفَرَدَتْ وَظَيْفَةُ السُّلْطَانِ
عَنِ الْخِلَافَةِ وَصَارَ نَظَرُهُ غَامًّا فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ انْدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ وَأَفْرَدَتْ
بِالْوَلَايَةِ .

وَأَمَّا السَّكَّةُ فَهِيَ النُّظَرُ فِي النُّقُودِ الْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ وَحِفْظُهَا مِمَّا
يَدْخُلُهَا مِنَ الْغِشِّ أَوْ النِّقْصِ إِنْ كَانَ يُتَعَامَلُ بِهَا عَدْدًا أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَيُوصَلُ
إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْإِعْتِبَارَاتِ ثُمَّ فِي وَضْعِ عَلَامَةِ السُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ النُّقُودِ بِالِاسْتِجَادَةِ
وَالْخُلُوصِ بِرَسْمِ تِلْكَ الْعَلَامَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمِ حَدِيدٍ أُتِخَذَ لِذَلِكَ وَنُقِشَ فِيهِ نُقُوشٌ
خَاصَّةٌ بِهِ فَيُوضَعُ عَلَى الدِّينَارِ بَعْدَ أَنْ يَقْدَرَ وَيُضْرَبَ عَلَيْهِ بِالْمِطْرَقَةِ حَتَّى تُرْسَمَ
فِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ وَتَكُونَ عَلَامَةً عَلَى جُودَتِهِ بِحَسَبِ الْغَايَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا السُّبْكُ
وَالْتَخْلِيصُ فِي مُتَعَارِفِ أَهْلِ الْقَطْرِ وَمَذَاهِبِ الدُّوَلَةِ الْحَاكِمَةِ فَإِنَّ السُّبْكُ وَالتَّخْلِيصَ

فِي النُّقُودِ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتُهُ إِلَى الْاجْتِهَادِ فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أَفْقٍ أَوْ قَطْرٍ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّخْلِيصِ وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَوْهَا إِمَامًا وَعِيَارًا يَعْتَبِرُونَ بِهِ تَقْوَدُهُمْ وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمِمَّا ثَلَّثَتْهُ فَإِنْ نَقَصَ عَنْ ذَلِكَ كَانَ زَيْفًا وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ وَهِيَ دِينِيَّةٌ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ وَلَايَةِ الْقَاضِي ثُمَّ أَفْرَدَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَبْشَةِ .

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْوُظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ وَبَقِيَتْ مِنْهَا وَظَائِفٌ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ مَا يُنْظَرُ فِيهِ وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً فَوُظَيْفَةُ الْإِمَارَةِ وَالْوِزَارَةِ وَالْحَرْبِ وَالْخِرَاجِ صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِينِهَا بَعْدَ وَظَيْفَةِ الْجِهَادِ وَوُظَيْفَةِ الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبُطْلَانِهِ إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يَمَارِسُونَهُ وَيُدْرِجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِي السُّلْطَانِيَّاتِ وَكَذَا تَقَابَةُ الْأَنْسَابِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْخِلَافَةِ أَوْ الْحَقِّ فِي بَيْتِ الْمَالِ قَدْ بَطَلَتْ لِذَوْرِ الْخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا وَبِالْجُمْلَةِ قَدْ أُنْذِرْجَتْ رُسُومُ الْخِلَافَةِ وَوُظَائِفُهَا فِي رُسُومِ الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ .

الفصل الثاني والثلاثون

فِي اللَّقَبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَانْه مِنْ سِمَاتِ الْخِلَافَةِ وَهُوَ مُحَدَّثٌ مِنْذُ عَهْدِ الْخُلَفَاءِ

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَسَائِرُ الْمُسْلِمِينَ يُسَمُّونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ فَلَمَّا بُويعَ لِعَمَرَ بَعْدَهُ إِلَيْهِ كَانُوا يَدْعُونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْهُمْ اسْتَقْلَالُوا هَذَا اللَّقَبَ بِكَثْرَتِهِ وَطَوَّلِ إِصَافَتِهِ وَأَنَّهُ يَتَرَايِدُ فِيمَا بَعْدَ دَائِمًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْهَجْنَةِ وَيَذْهَبُ مِنْهُ التَّمْيِيزُ بِتَعَدُّدِ الْإِصَافَاتِ وَكَثْرَتِهَا فَلَا يَعْرِفُ فَكَانُوا يَعْدِلُونَ عَنْ هَذَا اللَّقَبِ إِلَى مَا سِوَاهُ مِمَّا يُنَاسِبُهُ وَيُدْعَى بِهِ مِثْلَهُ

وَكَانُوا يُسَمُّونَ قَوَادِ الْبُعُوثِ بِاسْمِ الْأَمِيرِ وَهُوَ فَعِيلٌ مِنَ الْإِمَارَةِ وَقَدْ كَانَ الْجَاهِلِيَّةُ يَدْعُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَمِيرَ مَكَّةَ وَأَمِيرَ الْحِجَازِ وَكَانَ الصُّحَابَةُ أَيْضاً يَدْعُونَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِإِمَارَتِهِ عَلَى جَيْشِ الْقَادِسِيَّةِ وَهُمْ مَغْظَمُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ وَاتَّفَقَ أَنْ دَعَا بَعْضُ الصُّحَابَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَحْسَنَهُ النَّاسُ وَاسْتَضَوُّوهُ وَدَعَوْهُ بِهِ .

يُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ دَعَاهُ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَقِيلَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِي وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَقِيلَ بَرِيدٌ جَاءَ بِالْفَتْحِ مِنْ بَعْضِ الْبُعُوثِ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ عُمَرَ وَيَقُولُ أَيْنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَسَمِعَهَا أَصْحَابُهُ فَاسْتَحْسَنُوهُ وَقَالُوا أَصَبْتَ وَاللَّهِ اسْمُهُ إِنَّهُ وَاللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا فَدَعَوْهُ بِذَلِكَ وَذَهَبَ لِقَبَائِلِهِ فِي النَّاسِ وَتَوَارَثَهُ الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ سِمَةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ سِوَاهُمْ إِلَّا سَائِرُ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ ثُمَّ إِنَّ الشَّيْعَةَ خَصُّوا عَلِيًّا بِاسْمِ الْإِمَامِ نَعْتاً لَهُ بِالْإِمَامَةِ الَّتِي هِيَ اخْتِ الْخِلَافَةِ وَتَغْرِيزُ بِمَذْهَبِهِمْ فِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِإِمَامَةِ الصَّلَاةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ لِمَا هُوَ مَذْهَبُهُمْ وَيَدْعَتُهُمْ فَخَصُّوه بِهَذَا اللَّقَبِ وَلَمَنْ يَسُوقُونَ إِلَيْهِ مَنْصِبَ الْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانُوا كُلُّهُمْ يُسَمُّونَ بِالْإِمَامِ مَا دَامُوا يَدْعُونَ لَهُمْ فِي الْخُلَفَاءِ حَتَّى إِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّوْلَةِ يُحَوِّلُونَ ^(١) اللَّقَبَ فِيمَا بَعْدَهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا فَعَلَهُ شَيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَيْمَنَهُمْ بِالْإِمَامِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ الَّذِي جَهَرُوا بِالدَّعَاءِ لَهُ وَعَقَدُوا الرِّايَاتِ لِلْحَرْبِ عَلَى أَمْرِهِ فَلَمَّا هَلَكَ دُعِيَ أَخُوهُ السَّفَاحُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَكَذَا الرَّافِضَةُ بِأَفْرَيقِيَا فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَيْمَنَهُمْ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بِالْإِمَامِ حَتَّى انْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَكَانُوا أَيْضاً يَدْعُونَهُ بِالْإِمَامِ وَلَا بِنِي أَبِي الْقَاسِمِ مِنْ بَعْدِهِ فَلَمَّا اسْتَوْثِقَ لَهُمُ الْأَمْرُ دَعَوْا مِنْ بَعْدِهِمَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَذَا الْأَدَارِسَةُ بِالْمَغْرِبِ كَانُوا يَلْقَبُونَ إِدْرِيسَ بِالْإِمَامِ وَابْنَهُ إِدْرِيسَ الْأَصْغَرَ كَذَلِكَ وَهَكَذَا شَأْنُهُمْ وَتَوَارَثَ الْخُلَفَاءُ هَذَا اللَّقَبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعَلُوهُ سِمَةً لِمَنْ يَمْلِكُ

(١) الْأَصَحُّ أَنْ يَقُولَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوْلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ حَوْلُوا اللَّقَبَ .

الْحِجَازَ وَالشَّامَ وَالْعِرَاقَ وَالْمَوَاطِنَ الَّتِي هِيَ دِيَارُ الْعَرَبِ وَمَرَائِزُ الدَّوْلَةِ وَأَهْلُ الْمِلَّةِ
وَالْفَتْحِ وَازْدَادَ لِدَلِكِ فِي غَنَقُوانِ الدَّوْلَةِ وَبَذَخَهَا لَقَبَ آخِرِ الْخُلَفَاءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ بَعْضُهُمْ
عَنْ بَعْضٍ لَمَّا فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِشْتِرَاكِ بَيْنَهُمْ فَاسْتَحْدَثَ لِدَلِكِ بَنُو الْعَبَّاسِ
حِجَاباً لِأَسْمَائِهِمُ الْأَعْلَامَ عَنْ امْتِنَانِهَا فِي أَلْسِنَةِ السُّوقَةِ وَصَوْناً لَهَا عَنْ الْإِئْتِذَالِ
فَتَلَقَّبُوا بِالسُّفَاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَالْهَادِي وَالرُّشِيدِ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ
فِي ذَلِكَ الْعَبِيدِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَمِصْرَ وَتَجَافَى بَنُو أُمَيَّةَ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَشْرِقِ قَبْلَهُمْ مَعَ
الْقَضَايَةِ وَالسُّدَاجَةِ لِأَنَّ الْعُرُوبِيَّةَ وَمَنَازِعَهَا لَمْ تَفَارِقْهُمْ حِينَئِذٍ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْهُمْ
شِعَارُ الْبِدَاوَةِ إِلَى شِعَارِ الْحَضَارَةِ وَأَمَّا بِالْأَنْدَلُسِ فَتَلَقَّبُوا كَسَلَفِهِمْ مَعَ مَا عَمِلُوهُ مِنْ
أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْقُصُورِ عَنْ ذَلِكَ بِالْقُصُورِ عَنْ مُلْكِ الْحِجَازِ أَصْلِ الْعَرَبِ وَالْمِلَّةِ وَالْبُعْدِ
عَنْ دَارِ الْخِلَافَةِ الَّتِي هِيَ مَرْكَزُ الْعَصِيَّةِ وَأَنْهُمْ إِنَّمَا مَنَعُوا بِإِمَارَةِ الْقَاصِيَةِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ
مَهَالِكِ بَنِي الْعَبَّاسِ حَتَّى إِذَا جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاحِلُ الْآخِرُ مِنْهُمْ وَهُوَ النَّاصِرُ بْنُ
مُحَمَّدٍ بْنِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ لِأَوَّلِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ
وَأَشْتَهَرَ مَا نَالَ الْخِلَافَةَ بِالْمَشْرِقِ مِنَ الْحَجَرِ وَاسْتِبْدَادِ الْمَوَالِي وَغَيْشِهِمْ فِي الْخُلَفَاءِ
بِالْعَزْلِ وَالْإِسْتِبْدَالِ وَالْقَتْلِ وَالسُّمْلِ ذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ هَذَا إِلَى مِثْلِ مَذَاهِبِ الْخُلَفَاءِ
بِالْمَشْرِقِ وَأَفْرِيقِيَّةٍ وَتَسَمَّى بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَلَقَّبَ بِالنَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ ، وَأَخَذَتْ
مِنْ بَعْدِهِ عَادَةً وَمَذْهَبَ لَقْنٍ عَنْهُ وَلَمْ يَكُنْ لِأَبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ ، وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى
ذَلِكَ إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ عَصِيَّةُ الْعَرَبِ أَجْمَعٍ وَذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَ الْمَوَالِي مِنْ
الْعَجَمِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ وَالصُّنَائِعِ عَلَى الْعَبِيدِيِّينَ بِالْقَاهِرَةِ وَصَنَاهَا عَلَى أَمْرَاءِ
أَفْرِيقِيَّةٍ وَزَنَاتَةٍ عَلَى الْمَغْرِبِ وَمُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى أَمْرِ بَنِي أُمَيَّةَ
وَاقْتَسَمُوهُ وَافْتَرَقَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ فَاخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُ الْمُلُوكِ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ فِي
الِاخْتِصَاصِ بِالْأَلْقَابِ بَعْدَ أَنْ تَسَمَّوْا جَمِيعاً بِاسْمِ السُّلْطَانِ .

فَأَمَّا مُلُوكُ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعَجَمِ فَكَانَ الْخُلَفَاءُ يَخُصُّونَهُمْ بِالْقَابِ تَشْرِيفِيَّةٍ حَتَّى
يُسْتَشْفَرَ مِنْهَا انْقِيَادُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ وَحُسْنُ وَلَايَتِهِمْ مِثْلَ شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَعِصْدِ الدَّوْلَةِ

وَرَكْنِ الدَّوْلَةِ وَمِعْزِ الدَّوْلَةِ وَنَصِيرِ الدَّوْلَةِ وَنِظَامِ الْمُلْكِ وَبَهَاءِ الدَّوْلَةِ وَذَخِيرَةِ الْمُلْكِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ وَكَانَ الْعَبِيدُ يُونُ أَيْضاً يَخْصُونَ بِهَا أَمْرَاءَ صَنْهَاجَةٍ فَلَمَّا اسْتَبَدُّوا عَلَى الْخِلَافَةِ قَبِعُوا بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ وَتَجَافَوْا عَنْ الْأَقَابِ الْخِلَافَةِ أَدْباً مَعَهَا وَعَدُولاً عَنْ سِمَاتِهَا الْمُخْتَصَّةِ بِهَا شَأْنِ الْمُتَغَلِّبِينَ الْمُسْتَبَدِّينَ كَمَا قُلْنَا وَنَزَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ أَعَاجِمَ الْمَشْرِقِ حِينَ قَوِيَ اسْتِبْدَادُهُمْ عَلَى الْمُلْكِ وَعَلَا كَعْبُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ وَتَلَاسَتْ عَصَبِيَّةُ الْخِلَافَةِ وَاضْمَحَلَّتْ بِالْجُمْلَةِ إِلَى انْتِحَالِ الْأَقَابِ الْخَاصَّةِ بِالْمُلْكِ مِثْلِ النَّاصِرِ وَالْمَنْصُورِ وَزِيَادَةِ عَلَى الْأَقَابِ يَخْتَصُّونَ بِهَا قَبْلَ هَذَا الْإِنْتِحَالِ مُشْعِرَةً بِالْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الْوَلَاءِ وَالِاضْطِنَاعِ بِمَا أَضَافُوهَا إِلَى الدِّينِ فَقَطُّ فَيَقُولُونَ صَلَاحُ الدِّينِ أَسَدُ الدِّينِ نُورُ الدِّينِ . وَأَمَّا مُلُوكُ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ فَاقْتَسَمُوا الْأَقَابَ الْخِلَافَةَ وَتَوَزَّعُوا لِقُوَّةِ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا مِنْ قَبِيلِهَا وَعَصَبِيَّتِهَا فَتَلَقَّبُوا بِالنَّاصِرِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمُعْتَمِدِ وَالْمُظَفَّرِ وَأَمْثَالِهَا كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي شَرْفٍ ^(١) يَنْغِي عَلَيْهِمْ :

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسِ أَسْمَاءُ مُعْتَمِدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
 الْأَقَابُ مَمْلُوكَةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحاً صُورَةَ الْأَسَدِ
 وَأَمَّا صَنْهَاجَةٌ فَاقْتَصَرُوا عَنِ الْأَقَابِ الَّتِي كَانَ الْخُلَفَاءُ الْعَبِيدُ يُونُ يُلْقِبُونَ بِهَا لِلتَّنْوِيهِ مِثْلَ نَصِيرِ الدَّوْلَةِ وَمِعْزِ الدَّوْلَةِ وَاتَّصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا أَدَالُوا مِنْ دَعْوَةِ الْعَبِيدِيِّينَ بِدَعْوَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ ثُمَّ بَعْدَتْ الشُّقَّةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخِلَافَةِ وَنَسُوا عَهْدَهَا فَنَسُوا هَذِهِ الْأَقَابَ وَاقْتَصَرُوا عَلَى اسْمِ السُّلْطَانِ وَكَذَا شَأْنُ مُلُوكِ مَغْرَاوَةِ بِالْمَغْرِبِ لَمْ يَنْتَحِلُوا شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْأَقَابِ إِلَّا اسْمَ السُّلْطَانِ جَزِئاً عَلَى مَذَاهِبِ الْبِدَاوَةِ وَالْفَضَاضَةِ . وَلَمَّا مَجِيَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَعَطَّلَ دَسْتُهَا ^(٢) وَقَامَ بِالْمَغْرِبِ مِنْ قَبَائِلِ الْبَزْبَرِ يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينٍ مَلِكٌ لِمَتُونَةٍ فَمَلَكَ الْعُدَوْتَيْنِ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْإِقْتِدَاءِ نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتُهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي طَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَكْمِيلاً لِمَرَاسِمِ دِينِهِ

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ وَاسْمُهُ ابْنُ شَرْفٍ .

(٢) الدِّسْتُ كَلِمَةُ أَعْجَمِيَّةٌ لَمْ تَرِدْ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَمَعْنَاهَا صَدْرُ الْبَيْتِ أَوْ الْمَجْلِسِ وَالدِّسْتُ مِنَ الشَّيَابِ

مَا يَكْفِي حَاجَةَ الْإِنْسَانِ (النَّجْد) وَقَدْ اسْتَعْمَلَهَا ابْنُ خَلْدُونِ بِمَعْنَى الْمَرَاسِمِ .

فَخَاطَبَ الْمُسْتَظْهَرَ الْعَبَّاسِيَّ وَأَوْفَدَ عَلَيْهِ بَيْعَتَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنَهُ الْقَاضِي
أَبَا بَكْرٍ مِنْ مَشِيخَةِ إِسْبِيلِيَّةَ يَطْلُبَانِ تَوَلِيَّتَهُ إِيَّاهَا عَلَى الْمَغْرِبِ وَتَقْلِيدَهُ ذَلِكَ
فَانْقَلَبُوا إِلَيْهِ ^(١) يَعْهَدُ الْخِلَافَةَ لَهُ عَلَى الْمَغْرِبِ وَاسْتِشْعَارَ زِيَهُمْ فِي لُبُوسِهِ ^(٢) وَرُتْبَتِهِ
وَخَاطَبَتْهُ فِيهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَشْرِيفاً وَاخْتِصَاصاً فَاتَّخَذَهَا لِقَباً وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ
دُعِيَ لَهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلِ أَدْبَا مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ
الْمُرَاطِبُونَ مِنْ انْتِحَالِ الدِّينِ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَجَاءَ الْمَهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ دَاعِياً إِلَى الْحَقِّ
أَخِذاً بِمَذَاهِبِ الْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِياً عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ عُدُولَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ السُّلَفِ فِي
تَرْكِ التَّأْوِيلِ لِمَطَاوِيرِ الشَّرِيعَةِ وَمَا يُؤُولُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنَ التَّجْسِيمِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي
مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَسُمِّيَ اتِّبَاعُهُ الْمُوَحِّدِينَ تَغْرِيفاً بِذَلِكَ النُّكْرِ وَكَانَ يَرَى رَأْيَ
أَهْلِ الْبَيْتِ فِي الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ يُحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامُ
هَذَا الْعَالَمِ فَسُمِّيَ بِالْإِمَامِ لِمَا قُلْنَا أَوَّلاً مِنْ مَذْهَبِ الشَّيْعَةِ فِي الْقَابِ خُلَفَائِهِمْ وَأَزْدَفَ
بِالْمَعْصُومِ إِشَارَةً إِلَى مَذْهَبِهِ فِي عِصْمَةِ الْإِمَامِ وَتَنَزَّهَهُ عِنْدَ اتِّبَاعِهِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
أَخِذاً بِمَذَاهِبِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الشَّيْعَةِ وَلَمَّا فِيهَا مِنْ مُشَارَكَةِ الْأَغْمَارِ وَالْوِلْدَانِ مِنْ
أَعْقَابِ أَهْلِ الْخِلَافَةِ يَوْمَئِذٍ بِالْمَشْرِقِ .

ثُمَّ انْتَحَلَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَلِيُّ عَهْدِهِ اللَّقَبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ
خُلَفَاءُ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَالْأَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتِثْنَاءً بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُمْ لِمَا دَعَا
إِلَيْهِ شَيْخُهُمُ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْأَمْرِ وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ دُونَ كُلِّ
أَحَدٍ لِانْتِفَاءِ عَصْبِيَّةِ قُرَيْشٍ وَتَلَاشِيهَا فَكَانَ ذَلِكَ دَأْبَهُمْ . وَلَمَّا انْتَقَضَ الْأَمْرُ
بِالْمَغْرِبِ وَانْتَزَعَتْ زَنَاتُهُ ذَهَبَ أَوَّلُهُمْ مَذَاهِبُ الْبِدَاوَةِ وَالسَّدَاجَةِ وَاتِّبَاعَ لِمَتُونَةٍ فِي
انْتِحَالِ اللَّقَبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ^(٣) أَدْبَا مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا لِبَنِي

(١) الْأَصَحُّ أَنْ يَقُولَ : فَانْقَلَبُوا إِلَيْهِ .

(٢) اللَّبُوسُ - الثِّيَابُ وَالسَّلَاحُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ » قَالُوا : هِيَ الدَّرْعُ تَلْبَسُ فِي

الْحُرُوبِ (لِسَانُ الْعَرَبِ) -

(٣) يَتَضَحُّ مِنْ سِيَاقِ الْجُمْلَةِ وَمَا يَلِيهَا أَنَّ الْأَصَحَّ أَنْ يَقُولَ : فِي عَدَمِ انْتِحَالِ اللَّقَبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

عِنْدَ الْمُؤْمِنِ أَوَّلًا وَلِبَنِي أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ نَزَعَ الْمَخَارُونَ مِنْهُمْ إِلَى اللَّقِبِ
بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَانْتَحَلُوهُ لِهَذَا الْعَهْدِ السَّيْلَاعَا فِي مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَتَثْمِيمَا لِمَذَاهِبِهِ
وَسَمَائِهِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند
اليهود

إِغْلَمْ أَنَّ الْمِلَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَائِمٍ عِنْدَ غَيْبَةِ النَّبِيِّ يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَحْكَامِهَا
وَشَرَائِعِهَا وَيَكُونُ كَالْخَلِيفَةِ فِيهِمْ لِلنَّبِيِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالنُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ
أَيْضًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ضَرُورَةِ السِّيَاسَةِ فِيهِمْ لِلِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَخْصٍ
يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَزَعُهُمْ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ بِالْقَهْرِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْمُلْكِ وَالْمِلَّةُ
الْإِسْلَامِيَّةُ لَمَّا كَانَ الْجِهَادُ فِيهَا مَشْرُوعًا لِعُمُومِ الدَّعْوَةِ وَحَمْلِ الْكَافَّةِ عَلَى دِينِ
الْإِسْلَامِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا اتَّخَذَتْ فِيهَا الْخِلَافَةُ وَالْمُلْكُ لِتَوَجُّهِ الشُّوْكَةِ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا
إِلَيْهَا مَعًا . وَأَمَّا مَا سِوَى الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُمْ عَامَّةً وَلَا الْجِهَادُ عِنْدَهُمْ
مَشْرُوعًا إِلَّا فِي الْمُدَافَعَةِ فَقَطْ فَصَارَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الدِّينِ فِيهَا لَا يَغْنِيهِ شَيْءٌ مِنْ سِيَاسَةِ
الْمُلْكِ وَإِنَّمَا وَقَعَ الْمُلْكُ لِمَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بِالْعَرَضِ وَلِأَمْرِ غَيْرِ دِينِيٍّ وَهُوَ مَا اقْتَضَتْهُ
لَهُمُ الْعَصِيَّةُ لِمَا فِيهَا مِنَ الطَّلَبِ لِلْمُلْكِ بِالطَّبِيعِ لِمَا قَدَّمَاهُ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَالِفِينَ
بِالتَّغْلِبِ عَلَى الْأُمَمِ كَمَا فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَإِنَّمَا هُمْ مَطْلُوبُونَ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فِي
خَاصَّتِهِمْ .

وَلِذَلِكَ بَقِيَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَيُوشَعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا نَحْوُ
أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ لَا يَغْتَنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُمْ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فَقَطْ وَكَانَ
الْقَائِمُ بِهِ يَنْسَبُ إِلَيْهِ كَالْخَلِيفَةِ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ

الصَّلَاةَ وَالْقُرْبَانَ وَيَشْتَرِطُونَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرِّيَةِ هَارُونَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِأَنَّ
مُوسَى لَمْ يُعَقَّبْ ثُمَّ اخْتَارُوا لِإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ الَّتِي هِيَ لِلْبَشَرِ بِالطَّبِيعِ سَبْعِينَ شَيْخًا
كَانُوا يَتْلُونَ أَحْكَامَهُمُ الْعَامَّةَ وَالْكُوهَنُ أَعْظَمُ مِنْهُمْ رُتْبَةً فِي الدِّينِ وَأَبْعَدُ عَنْ شُعْبِ
الْأَحْكَامِ وَاتَّصَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ إِلَى أَنْ اسْتَحْكَمَتْ طَبِيعَةُ الْعَصِيَّةِ وَتَمَحَّضَتِ الشُّوْكَةُ
لِلْمُلْكِ فَغَلَبُوا الْكَنْعَانِيِّينَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَوْرَثَهُمُ اللَّهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَمَا جَاوَرَهَا
كَمَا بَيَّنَّ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَحَارَبَتْهُمْ أُمَمُ الْفِلِسْطِينِ
وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْأَرَمَنَ وَأَزْدَنَ وَعَمَّانَ وَمَارِبَ وَرِئَاسَتَهُمْ فِي ذَلِكَ رَاجِعَةً إِلَى شِيُوخِهِمْ
وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ صَوْلَةُ الْمَلِكِ وَضَجَرُ بَنُو
إِسْرَائِيلَ مِنْ مُطَالَبَةِ الْأُمَمِ ، فَطَلَبُوا عَلَى لِسَانِ شَمُوِيلَ ^(١) مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ
لَهُمْ فِي تَمْلِيكِ رَجُلٍ عَلَيْهِمْ فَوَلَّى عَلَيْهِمْ طَالُوتَ وَغَلِبَ الْأُمَمُ وَقَتِلَ جَالُوتُ مَلِكُ
الْفِلِسْطِينِ . ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ دَاوُدُ ثُمَّ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَاسْتَفْخَلَ مُلْكُهُ
وَامْتَدَّ إِلَى الْحِجَازِ ثُمَّ أَطْرَافَ الْيَمَنِ ثُمَّ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِ الرُّومِ ثُمَّ افْتَرَقَ الْأَسْبَاطُ مِنْ
بَعْدِ سُلَيْمَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ فِي الدُّوَلِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِلَى دَوْلَتَيْنِ
كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ لِلْأَسْبَاطِ الْعَشْرَةِ وَالْآخَرَى بِالْقُدْسِ وَالشَّامِ
لِبَنِي يَهُودَا وَبَنِيَامِينَ .

ثُمَّ غَلَبَهُمْ بَخْتُ نَصْرٍ مَلِكِ بَابِلَ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَلِكِ أَوَّلًا
الْأَسْبَاطِ الْعَشْرَةِ ثُمَّ ثَانِيًا بَنِي يَهُودَا وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ بَعْدَ اتِّصَالِ مُلْكِهِمْ نَحْوَ أَلْفِ
سَنَةٍ وَخَرَّبَ مَسْجِدَهُمْ وَأَحْرَقَ تَوْرَاتَهُمْ وَأَمَاتَ دِينَهُمْ وَنَقَلَهُمْ إِلَى أَصْبَهَانَ وَبِلَادِ
الْعِرَاقِ إِلَى أَنْ رَدَّهُمْ بَعْضُ مُلُوكِ الْكِيَانِيَّةِ مِنَ الْفُرْسِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ بَعْدِ
سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ خُرُوجِهِمْ فَبَنَوْا الْمَسْجِدَ وَأَقَامُوا أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى الرُّسْمِ الْأَوَّلِ لِلْكَهَنَةِ
فَقَطَّ وَالْمَلِكُ لِلْفُرْسِ ثُمَّ غَلَبَ الْإِسْكَندَرُ وَبَنُو يُونَانَ عَلَى الْفُرْسِ وَصَارَ الْيَهُودُ فِي
مُلْكِهِمْ ثُمَّ فَشِلَ أَمْرُ الْيُونَانِيِّينَ فَاعْتَزَّ الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ بِالْعَصِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ وَدَفَعُوهُمْ عَنِ

(١) هو صموئيل كما في التوراة

الْإِسْتِيلَاءَ عَلَيْهِمْ وَقَامَ بِمُلْكِهِمُ الْكَهَنَةُ الَّذِينَ كَانُوا فِيهِمْ مِنْ بَنِي حَشْمَنَايَ وَقَاتَلُوا
يُونَانَ حَتَّى انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَغَلَبَهُمُ الرُّومُ فَصَارُوا تَحْتَ أَمْرِهِمْ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بَيْتِ
الْمَقْدِسِ وَفِيهَا بَنُو هِيرُودُسَ أَصْهَارُ بَنِي حَشْمَنَايَ وَبَقِيَتْ دَوْلَتُهُمْ فَحَاصَرُوهُمْ مُدَّةً
ثُمَّ افْتَتَحُوهَا غَنَوَةً وَأَفْحَشُوا فِي الْقَتْلِ وَالْهَدْمِ وَالتَّخْرِيقِ وَخَرَبُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ
وَأَجْلَوْهُمْ عَنْهَا إِلَى رُومَةٍ وَمَا وَرَاءَهَا وَهُوَ الْخَرَابُ الثَّانِي لِلْمَسْجِدِ وَيُسَمِّيهِ الْيَهُودُ
بِالْجَلُوءِ ^(١) الْكُبْرَى فَلَمْ يَقُمْ لَهُمْ بَعْدَهَا مَلِكٌ لِفَقْدَانِ الْعَصْبَةِ مِنْهُمْ وَبَقُوا بَعْدَ ذَلِكَ
فِي مَلَكَةِ الرُّومِ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمُ الرَّئِيسُ عَلَيْهِمُ الْمُسَمَّى بِالْكُوهِنِ

ثُمَّ جَاءَ الْمَسِيحُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ وَالنَّسْخِ
لِبَعْضِ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ وَظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ الْعَجِيبَةُ مِنْ إِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ
وَالْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَأَمَنُوا بِهِ وَكَثُرَهُمُ
الْخَوَارِيُّونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ وَبَعَثَ مِنْهُمْ رَسُولًا إِلَى الْآفَاقِ دَاعِيًا إِلَى
مِلَّتِهِ وَذَلِكَ أَيَّامَ أَوْغُسْطُسَ أَوَّلِ مُلُوكِ الْقِيَاصِرَةِ وَفِي مُدَّةِ هِيرُودُسَ مَلِكِ الْيَهُودِ الَّذِي
انْتَزَعَ الْمُلْكَ مِنْ بَنِي حَشْمَنَايَ أَصْهَارِهِ فَحَسَدَهُ الْيَهُودُ وَكَذَّبُوهُ ^(٢) وَكَاتَبَ هِيرُودُسُ
مَلِكَهُمْ مَلِكَ الْقِيَاصِرَةِ أَوْغُسْطُسَ يُغْرِيهِ بِهِ فَأَذِنَ لَهُمْ فِي قَتْلِهِ وَوَقَعَ مَا تَلَاهُ الْقُرْآنُ
مِنْ أَمْرِهِ وَافْتَرَقَ الْخَوَارِيُّونَ شَيْعًا وَدَخَلَ أَكْثَرُهُمْ بِلَادَ الرُّومِ دَاعِيًا إِلَى دِينِ
النَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَ بَطْرُسُ كَبِيرَهُمْ فَنَزَلَ بِرُومَةٍ دَارَ مَلِكِ الْقِيَاصِرَةِ ثُمَّ كَتَبُوا الْإِنْجِيلَ
الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي نُسْخِ أَرْبَعٍ عَلَى اخْتِلَافٍ رَوَايَاتِهِمْ فَكَتَبَ
مَتَّى إِنْجِيلَهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَنَقَلَهُ يُوْحَنَّا بْنُ زَبِيْدٍ مِنْهُمْ إِلَى اللِّسَانِ
اللَّاتِينِيِّ وَكَتَبَ لُوقَا مِنْهُمْ إِنْجِيلَهُ بِاللَّاتِينِيِّ إِلَى بَعْضِ أَكْبَابِ الرُّومِ وَكَتَبَ
يُوْحَنَّا بْنُ زَبِيْدٍ مِنْهُمْ إِنْجِيلَهُ بِرُومَةٍ وَكَتَبَ بَطْرُسُ إِنْجِيلَهُ بِاللَّاتِينِيِّ وَنَسَبَهُ إِلَى
مَرْقَاصٍ ^(٣) تَلْمِيْذِهِ وَاخْتَلَفَتْ هَذِهِ النُّسَخُ الْأَرْبَعُ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كُلُّهَا

(١) الجَلُوءُ : زفاف العروس وليس لها معنى هنا والأصح أن يقول الجلاء أو الجلو من جلا .

(٢) أي حسدوا المسيح وكذبوه .

(٣) وهو مرقص الرسول .

وَحَيًّا صِرْفًا بَلْ مَشُوبَةً بِكَلَامِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِكَلَامِ الْحَوَارِيِّينَ وَكُلُّهَا مَوَاعِظُ وَقِصَصٌ وَالْأَحْكَامُ فِيهَا قَلِيلَةٌ جَدًّا وَاجْتَمَعَ الْحَوَارِيُّونَ الرُّسُلُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ بِرُومَةِ وَوَضَعُوا قَوَانِينَ الْمِلَّةِ النُّصْرَانِيَّةِ وَصَيَّرُوهَا بِيَدِ أَقْلِيمَنْطُسَ تَلْمِيزَ بِطَرُسَ وَكَتَبُوا فِيهَا عَدَدَ الْكُتُبِ الَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا .

فَمِنْ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ الْقَدِيمَةِ التَّوْرَةُ وَهِيَ خَمْسَةُ أَسْفَارٍ وَكِتَابُ يُوشَعَ وَكِتَابُ الْقَضَاةِ وَكِتَابُ رَاعُوثَ وَكِتَابُ يَهُوذَا وَأَسْفَارُ الْمُلُوكِ أَرْبَعَةٌ وَسِفْرُ بَنِيَامِينَ وَكُتُبُ الْمُقَابِيئِينَ لَا بَنِي كَرْيُونَ ثَلَاثَةٌ ^(١) وَكِتَابُ عَزْرَا الْإِمَامِ وَكِتَابُ أَوْشِير ^(٢) وَقِصَّةُ هَامَانَ وَكِتَابُ أَيُّوبَ الصَّدِيقِ وَمَزَامِيرُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكُتُبُ ابْنِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسَةٌ وَنُبُوءَاتُ الْأَنْبِيَاءِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ سِتَّةٌ عَشَرَ وَكِتَابُ يَشُوعَ بْنِ شَارَخَ ^(٣) وَزَيْرِ سُلَيْمَانَ . وَمِنْ شَرِيعَةِ عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُتَلَقَّاءُ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ نُسُخُ الْإِنْجِيلِ الْأَرْبَعِ وَكُتُبُ الْقِتَالِيْقُونَ سَنَعُ رَسَائِلَ وَثَامِنُهَا الْإِبْرِيْكْسِيْسُ فِي قِصَصِ الرُّسُلِ وَكِتَابُ بُولُسَ أَرْبَعُ عَشْرَةَ رِسَالَةً وَكِتَابُ أَقْلِيمَنْطُسَ وَفِيهِ الْأَحْكَامُ وَكِتَابُ أَبُوغَالْمِيسَ وَفِيهِ رُؤْيَا يُوْحَنَّا بْنِ زَبْدِي . وَاخْتَلَفَ شَأْنُ الْقِيَاصِرَةِ فِي الْأَخْذِ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ تَارَةً وَتَغْظِيمِ أَهْلِهَا ثُمَّ تَرْكُهَا أُخْرَى وَالتَّسْلُطِ عَلَيْهِمْ بِالْقَتْلِ وَالبَغْيِ إِلَى أَنْ جَاءَ قِسْطَنْطِينُ وَأَخَذَ بِهَا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا . وَكَانَ صَاحِبُ هَذَا الدِّينِ وَالْمَقِيمُ لِمَرَّاسِيْمِهِ يُسَمُّونَهُ الْبَطْرِكَ وَهُوَ رَئِيسُ الْمِلَّةِ عِنْدَهُمْ وَخَلِيفَةُ الْمَسِيحِ فِيهِمْ يَنْبَغُ نُوَابُهُ وَخُلَفَاءُهُ إِلَى مَا بَعْدَ عَنْهُ مِنْ أَمَمِ النُّصْرَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ الْأَسْقَفَ أَيْ نَائِبَ الْبَطْرِكَ وَيُسَمُّونَ الْإِمَامَ الَّذِي يَقِيْمُ الصَّلَوَاتِ وَيُفْتِيهِمْ فِي الدِّينِ بِالْقِسْيسِ وَيُسَمُّونَ الْمُتَقَطِّعَ الَّذِي حَبَسَ نَفْسَهُ فِي الْخُلُوةِ لِلْعِبَادَةِ بِالرَّاهِبِ .

وَأَكْثَرُ خُلُوتِهِمْ فِي الصَّوَامِعِ وَكَانَ بِطَرُسُ الرُّسُولُ رَأْسَ الْحَوَارِيِّينَ وَكَبِيرُ

(١) وفي التوراة : سفر المكابيين (بتشديد الميم والكاف) الأول والثاني وليس هناك ثالث . ولم يرد ذكر

ابن كاريون وربما تكون محرفة عن اسم الرجل الذي اختصر اسفار المكابيين واسمه (يس الكريوني) نسبة إلى كريان وهي الاسم القديم لمقاطعة برقة في ليبيا .

(٢) هو سفر استير (التوراة) .

(٣) هو يشوع بن سيراخ (التوراة) .

التلاميذ برومة يُقيم بها دين النصارى إلى أن قتلَ نيرُونُ خامسُ القياصرة فيمن قتل من البطارق والأساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس^(١) وكان مرقاس الإنجيلي بالإسكندرية ومصر والمغرب داعياً سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطارقة فيها وجعل معه اثني عشر قساً على أنه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحداً مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطارقة إلى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا ببيقية أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين واتفق ثلاثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين فكتبوه وسموه الإمام وصيروه أصلاً يرجعون إليه وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتihad الأسفة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وأبطلوا ذلك الرأي وإنما يقدم عن بلاء واختبار^(٢) من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقي الأمر كذلك .

ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقي الأمر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطارقة وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضاً تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بالإسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه حتى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقده في المسيح

(١) كذا بالأصل وهو خطأ . لأن اريوس قسيس . ولم يتول مطلقاً كرسي البابوية ولا ما يقرب

منها . وله مذهب خاص يقول بنفي الطبيعة اللاهوتية للمسيح . ولذلك حكم مجمع نيقية بتجريد من ألفاه الكهنوتية سنة ٣٢٥ م .

(٢) وفي بعض النسخ ملأه واختبار .

وَصَارُوا طَوَائِفَ وَفَرَقًا وَاسْتَظْهَرُوا بِمُلُوكِ النُّصْرَانِيَّةِ كُلَّ عَلَى صَاحِبِهِ فَاخْتَلَفَ
الْحَالُ فِي الْمُصَوِّرِ فِي ظُهُورِ فِرْقَةٍ دُونَ فِرْقَةٍ إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّتْ لَهُمْ ثَلَاثُ طَوَائِفَ هِيَ
فِرْقَتُهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى غَيْرِهَا وَهُمْ الْمُلْكِيَّةُ وَالْيَقُوتِيَّةُ وَالنَّسْطُورِيَّةُ ثُمَّ اخْتَصَّتْ كُلُّ
فِرْقَةٍ مِنْهُمْ بِبَطْرِكٍ فَبَطْرِكُ رُومَةَ الْيَوْمِ الْمُسَمَّى بِالْبَابَا عَلَى رَأْيِ الْمُلْكِيَّةِ وَرُومَةَ
لِلإِفْرَنْجَةِ وَمَلِكُهُمْ قَائِمٌ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ وَبَطْرِكُ الْمُعَاهِدِينَ بِمِصْرَ عَلَى رَأْيِ
الْيَقُوتِيَّةِ وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَالْحَبْشَةَ يَدِينُونَ بِدِينِهِمْ وَلِبَطْرِكِ مِصْرَ فِيهِمْ
أَسَاقِفَةٌ يَنْوَبُونَ عَنْهُ فِي إِقَامَةِ دِينِهِمْ هُنَالِكَ .

وَاخْتَصَّ اسْمُ الْبَابَا بِبَطْرِكِ رُومَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا تَسْمَى الْيَقَاقِبَةُ بِطْرِكُهُمْ بِهَذَا
الِاسْمِ وَضَبَطَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ بِنَاءً بَيْنَ مُوَحَّدَتَيْنِ مِنْ أَسْفَلِ وَالنُّطْقِ بِهَا مُفْخَمَةٌ وَالثَّانِيَّةُ
مُشَدَّدَةٌ وَمِنْ مَذَاهِبِ الْبَابَا عِنْدَ الْإِفْرَنْجَةِ أَنَّهُ يَخْضَعُ عَلَى الْإِتْقِيَادِ لِمَلِكٍ وَاحِدٍ
يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي اخْتِلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ تَخْرُجًا مِنْ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ وَيَتَخَرَّى بِهِ
الْعَصِيَّةُ الَّتِي لَا فَوْقَهَا مِنْهُمْ لِتَكُونَ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَى جَمِيعِهِمْ وَيُسَمُّونَهُ الْإِنْبَرْدُورُ^(١)
وَحَرْفُهُ الْوَسْطُ بَيْنَ الذَّالِ وَالظَّاءِ الْمُعْجَمَتَيْنِ وَمُبَاشِرُهُ يَضَعُ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ لِلتَّبَرُّكِ
فَيُسَمَّى الْمَتَّوَجُّ^(٢) ، وَلَعَلَّهُ مَعْنَى لَفْظَةِ الْإِنْبَرْدُورِ وَهَذَا مُلَخَّصُ مَا أوردناه مِنْ شَرْحِ
هَذَيْنِ الْإِسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا الْبَابَا وَالْكُوهَنُ وَاللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ .

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان والقابا

إِغْلَمَ أَنَّ السُّلْطَانَ فِي نَفْسِهِ ضَعِيفٌ يُحْمَلُ أَمْرًا ثَقِيلًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ

(١) للشهور قديماً إمبراطور بالطاء المهملة والفرنسيس تقول (أمبرور) ومعناها عندهم ملك الملوك .

(٢) أي أن البابا يضع التاج على رأس الإمبراطور ثم يباركه .

بِأَنْبَاءِ جَنْسِهِ وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي ضَرُورَةِ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَهْنِهِ ^(١) فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ نَوْعِهِ وَمَنْ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَهُوَ مُخْتَاجٌ إِلَى حِمَايَةِ الْكَافَّةِ مِنْ عَدُوِّهِمْ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَإِلَى كَفِّ عَدُوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي أَنْفُسِهِمْ بِإِمْنَاءِ الْأَحْكَامِ الْوَازِعَةِ فِيهِمْ وَكَفِّ الْعَدُوَانِ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ بِإِصْلَاحِ سَائِلَتِهِمْ ^(٢) وَإِلَى حَمَلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَا تَعْمَهُمْ بِهِ الْبُلُوْى فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَامَلَاتِهِمْ مِنْ تَقْقِدِ الْمَعَايِشِ وَالْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ حَذَرًا مِنَ التَّطْفِيفِ وَإِلَى النَّظَرِ فِي السَّكَّةِ بِحِفْظِ النُّقُودِ الَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ الْفِشِّ وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الْإِنْقِيَادِ لَهُ وَالرَّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ وَانْفِرَادِهِ بِالْمَجْدِ دُونَهُمْ فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ الْغَايَةِ مِنْ مُعَانَاةِ الْقُلُوبِ قَالَ بَعْضُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْحُكَمَاءِ : « لِمُعَانَاةِ نَقْلِ الْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِنِهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ الرِّجَالِ » ثُمَّ إِنَّ الْإِسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأَوْلَى الْقُرْبَى مِنْ أَهْلِ النَّسَبِ أَوْ التَّرْبِيَةِ أَوْ الْإِصْطِنَاعِ الْقَدِيمِ لِلدَّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ لِمَا يَقَعُ فِي ذَلِكَ مِنْ مُجَانَسَةِ خَلْقِهِمْ لِخَلْقِهِ فَتَتِمُّ الْمَشَاكَلَةُ فِي الْإِسْتِعَانَةِ قَالَ تَعَالَى « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي » ^(٣) وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينُ فِي ذَلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ أَوْ بِحُجَابِهِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يَزْدَحُمُوا عَلَيْهِ فَيَشْغَلُوهُ عَنِ النَّظَرِ فِي مَهْمَاتِهِمْ ^(٤) أَوْ يَدْفَعِ النَّظَرَ فِي الْمُلْكِ كُلِّهِ ^(٥) وَيُعَوَّلُ عَلَى كِفَايَتِهِ فِي ذَلِكَ وَاضْطِلَاعِهِ فَلِذَلِكَ قَدْ تَوَجَّدَ فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ وَقَدْ تَفَتَّرَقَ فِي أَشْخَاصٍ وَقَدْ يَتَفَرَّغُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ كَالْقَلَمِ يَتَفَرَّغُ إِلَى قَلَمِ الرِّسَائِلِ وَالْمُخَاطَبَاتِ وَقَلَمِ الصُّكُوكِ وَالْإِقْطَاعَاتِ وَإِلَى قَلَمِ الْمُحَاسَبَاتِ وَهُوَ صَاحِبُ الْجَبَايَةِ وَالْعَطَاءِ وَدِيْوَانِ الْجَيْشِ وَكَالِسَيْفِ يَتَفَرَّغُ إِلَى صَاحِبِ الْحَرْبِ وَصَاحِبِ الشُّرْطَةِ

(١) المهنة الخدمة وجمعها مهن بكسر الميم .

(٢) أبناء السبيل .

(٣) سورة طه (الآية ٢٩ - ٣٢) .

(٤) معنى الجملة : ان الملك يستعين بسيف هذا في شؤون الحرب وقلم ذاك في شؤون الكتابة . ورأي

آخر في شؤون السياسة .

(٥) الأصح أن يقول « يدفع النظر إليه في الملك كله »

وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ وَوَلَايَةِ الثُّغُورِ ثُمَّ اَعْلَمَ أَنَّ الْوُظَائِفَ السُّلْطَانِيَّةَ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُنْدرَجَةٌ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِاحْتِمَالِ مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ عَلَى الدِّينِ وَالْدُّنْيَا كَمَا قَدْ مَنَاهُ فَالْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِجَمِيعِهَا وَمَوْجُودَةٌ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فِي سَائِرِ وُجُوهِهَا لِعُمُومِ تَعَلُّقِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ بِجَمِيعِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَالْفَقِيهَ يَنْظُرُ فِي مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَشُرُوطِ تَقْلِيدِهَا اسْتِنبَادًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَهُوَ مَعْنَى السُّلْطَانِ أَوْ تَفْوِضًا مِنْهَا وَهُوَ مَعْنَى الْوِزَارَةِ عِنْدَهُمْ كَمَا يَأْتِي وَفِي نَظَرِهِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأُمُورِ وَسَائِرِ السِّيَاسَاتِ مُطْلَقًا أَوْ مُقَيَّدًا وَفِي مُوجِبَاتِ الْعَزْلِ إِنْ عَرَضَتْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَكَذَا فِي سَائِرِ الْوُظَائِفِ الَّتِي تَحْتَ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ مِنْ وَزَارَةٍ أَوْ جَبَايَةِ أَوْ وَلَايَةٍ لَا بُدَّ لِلْفَقِيهِ مِنْ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ كَمَا قَدْ مَنَاهُ مِنْ انْسِحَابِ حُكْمِ الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى رُتْبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِلَّا أَنْ كَلَامَنَا فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَرُتْبَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِمُقْتَضَى طَبِيعَةِ الْعُمَرَاءِ وَوُجُودِ الْبَشَرِ لَا يَمَّا يَخْصُهَا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ مِثْلِ كِتَابِ الْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ الْمَاوَرْدِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْلَامِ الْفُقَهَاءِ فَإِنْ أَرَدْتَ اسْتِيفَاءَهَا فَعَلَيْكَ بِمُطَالَعَتِهَا هُنَاكَ وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي الْوُظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ وَأَفْرَدْنَاهَا لِنُمَيِّزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُظَائِفِ السُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ لَا لِتَحْقِيقِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي ذَلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمَرَاءِ فِي الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ وَاللَّهِ الْمَوْفُوقُ .

الوزارة : وَهِيَ أُمُّ الْخَطِّ السُّلْطَانِيَّةِ وَالرُّتْبِ الْمُلُوكِيَّةِ لِأَنَّ اسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الْإِعَانَةِ فَإِنَّ الْوِزَارَةَ مَأْخُودَةٌ إِمَّا مِنَ الْمَوَازَرَةِ وَهِيَ الْمَعَاوَنَةُ أَوْ مِنَ الْوِزْرِ وَهُوَ الثَّقُلُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعَ مَفَاعِلِهِ أَوْزَارَهُ وَأَثْقَالَهُ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمَعَاوَنَةِ الْمُطْلَقَةِ وَقَدْ كُنَّا قَدْ مَنَّا فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ السُّلْطَانِ وَتَضَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةً لِأَنَّهَا إِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ الْكَافَّةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجِدِّ وَالسَّلَاحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ

الْحِمَايَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الْوَزِيرُ الْمُتَعَارِفُ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ بِالْمَشْرِقِ
وَلِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ مُخَاطَبَاتِهِ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُ فِي أُمُورِ جَبَايَةِ
الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ وَضَنْطُ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ وَجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضَبَطَةٍ وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ
صَاحِبُ الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَزِيرِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ
فِي مَدَافَعَةِ النَّاسِ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزْدَجِمُوا عَلَيْهِ فَيُسْغَلُوا عَنْ فَهْمِهِ وَهَذَا
رَاجِعٌ لِصَاحِبِ الْبَابِ الَّذِي يَخْجُبُهُ . فَلَا تَعْدُوا أحوَالَهُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ بِوَجْهِهِ . وَكُلُّ
خِطْبَةٍ أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رُتَبِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ فَلِئِذَا تَرَجَّعَ . إِلَّا أَنْ الْأَرْفَعُ مِنْهَا مَا كَانَتْ
الْإِعَانَةُ فِيهِ عَامَّةً فِيمَا تَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ مِنْ ذَلِكَ الصَّنِفِ إِذْ هُوَ يَقْتَضِي مُبَاشَرَةَ
السُّلْطَانِ دَائِمًا وَمُشَارَكَتَهُ فِي كُلِّ صَنْفٍ مِنْ أحوَالِ مُلْكِهِ وَأَمَّا مَا كَانَ خَاصًا بِبَعْضِ
النَّاسِ أَوْ بِبَعْضِ الْجِهَاتِ فَيَكُونُ دُونَ الرُّتْبَةِ الْأُخْرَى كَقِيَادَةِ ثَغَرٍ أَوْ لَوَايَةِ جَبَايَةِ
خَاصَةٍ أَوْ النَّظَرِ فِي أَمْرِ خَاصٍ كَحِسْبَةِ الطَّعَامِ أَوْ النَّظَرِ فِي السَّكَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا نَظَرٌ
فِي أحوَالٍ خَاصَةٍ فَيَكُونُ صَاحِبُهَا تَبَعًا لِأَهْلِ النَّظَرِ الْعَامِّ وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرْوُوسَةً
لِأُولَئِكَ . وَمَا زَالَ الْأَمْرُ فِي الدُّوَلِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ هَكَذَا حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ وَصَارَ الْأَمْرُ
خِلَافَةً فَذَهَبَتْ تِلْكَ الْخِطَطُ كُلُّهَا بِذَهَابِ رَسْمِ الْمَلِكِ إِلَى مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ مِنْ
الْمُعَاوَنَةِ بِالرَّأْيِ وَالْمُفَاوَضَةِ فِيهِ فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ
فَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ وَيُفَاوِضُهُمْ فِي مُهِمَّاتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَةِ وَيَخْصُصُ مَعَ
ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ بِخُصُوصِيَّاتٍ أُخْرَى حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ الَّذِينَ عَرَفُوا الدُّوَلِ وَأحوَالَهَا
فِي كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِي يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزِيرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَفْظُ الْوَزِيرِ يُعْرَفُ
بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِذَهَابِ رُتْبَةِ الْمَلِكِ بِسَدَاجَةِ الْإِسْلَامِ وَكَذَا عُمَرُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٌّ
وَعُثْمَانُ مَعَ عُمَرَ وَأَمَّا حَالُ الْجَبَايَةِ وَالْإِنْفَاقِ وَالْحِسْبَانِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بِرُتْبَةٍ لِأَنَّ
الْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أَمِيِينَ لَا يُحْسِنُونَ الْكِتَابَ ^(١) وَالْحِسَابَ فَكَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ فِي
الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ ^(٢) أَوْ أَفْرَادًا مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ مِمَّنْ يُجِيدُهُ وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ

(١) أي الكتابة .

(٢) أهل الكتاب ، أي النصارى واليهود .

وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُجِيدُونَهُ لَأَنَّ الْأُمِيَّةَ كَانَتْ صِفَتَهُمُ الَّتِي امْتَارُوا بِهَا وَكَذَا
حَالُ الْمُخَاطَبَاتِ وَتَنْفِيدِ الْأُمُورِ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ رُتْبَةً خَاصَّةً لِلْأُمِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ
وَالْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ فِي كَيْتَمَانِ الْقَوْلِ وَتَأْدِيتِهِ وَلَمْ تَخْرُجِ السِّيَاسَةُ إِلَى اخْتِيَارِهِ لَأَنَّ الْخِلَافَةَ
إِنَّمَا هِيَ دِينَ لَيْسَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ الْمَلِكِيَّةِ فِي شَيْءٍ وَأَيْضاً فَلَمْ تَكُنِ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً
فَيُسْتَجَادُ لِخَلِيفَةٍ أَحْسَنَهَا لَأَنَّ الْكُلَّ كَانُوا يُعْبِرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ بِأَبْلَغِ الْعِبَارَاتِ
وَلَمْ يَنْبِقْ إِلَّا الْخَطُّ فَكَانَ الْخَلِيفَةُ يَسْتَنِيبُ فِي كِتَابَتِهِ مَتَى عَنْ لَهُ مَنْ يُحْسِنُهُ وَأَمَّا
مُدَافَعَةُ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْ أُبْوَابِهِمْ فَكَانَ مَخْظُوراً بِالشَّرِيعَةِ فَلَمْ يَفْعَلُوهُ فَلَمَّا
انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمَلِكِ وَجَاءَتْ رُسُومُ السُّلْطَانِ وَالْقَابِئَةُ كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ بِيَدَيْهِ
فِي الدَّوْلَةِ شَأْنُ الْبَابِ وَسَدُّهُ دُونَ الْجُمْهُورِ بِمَا كَانُوا يَخْشَوْنَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ اغْتِيَالِ
الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ كَمَا وَقَعَ بِعُمَرَ وَعَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَعُمَرَ بْنِ الْعَاصِي وَغَيْرِهِمْ مَعَ
مَا فِي فَتْحِهِ مِنْ اِزْدِحَامِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشُغْلِهِمْ بِهِمْ عَنِ الْمِهْمَاتِ فَاتَّخَذُوا مَنْ يَقُومُ لَهُمْ
بِذَلِكَ وَسَمَّوْهُ الْحَاجِبَ وَقَدْ جَاءَ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمَّا وَلِيَ حَاجِبَهُ قَالَ لَهُ « قَدْ وَلَّيْتُكَ
حِجَابَةً بَابِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةِ الْمُؤَذِّنِ لِلصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعِي اللَّهِ وَصَاحِبُ الْبَرِيدِ فَأَمَرُ
مَا جَاءَ بِهِ وَصَاحِبِ الطَّعَامِ لِئَلَّا يَفْسُدَ » ثُمَّ اسْتَفْحَلَ الْمَلِكُ بَعْدَ ذَلِكَ فَظَهَرَ
الْمُشَاوِرُ وَالْمُعِينُ فِي أُمُورِ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَاسْتِثْلَافِهِمْ وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْوَزِيرِ
وَبَقِيَ أَمْرُ الْحِسْبَانِ فِي الْمَوَالِي وَالذَّمِّيِّينَ وَاتَّخَذَ لِلْسَّجَلَاتِ كَاتِبَ مَخْصُوصَ حَوْطَةٍ
عَلَى أَسْرَارِ السُّلْطَانِ أَنْ تَشْتَهَرَ فَتَفْسُدَ سِيَاسَتُهُ مَعَ قَوْمِهِ وَلَمْ يَكُنْ بِمَثَابَةِ الْوَزِيرِ لِأَنَّهُ
إِنَّمَا اخْتِيجَ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْخَطُّ وَالْكِتَابُ لَا مِنْ حَيْثُ اللِّسَانُ الَّذِي هُوَ الْكَلَامُ إِذْ
اللِّسَانُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَفْسُدْ فَكَانَتِ الْوِزَارَةُ لِذَلِكَ أَرْفَعَ رُتْبَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ فِي
سَائِرِ دَوْلَةِ بَنِي أُمِيَّةٍ فَكَانَ النَّظَرُ لِلْوَزِيرِ عَامِماً فِي أَحْوَالِ التَّدْبِيرِ وَالْمُفَاوَضَاتِ وَسَائِرِ
أُمُورِ الْحِمَايَاتِ وَالْمُطَالَبَاتِ وَمَا يَتَّبَعُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي دِيْوَانِ الْجُنْدِ وَفَرْضِ الْعَطَاءِ
بِالْأَهْلِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ وَاسْتَفْحَلَ الْمَلِكُ وَعَظُمَتْ
مَرَاتِبُهُ وَارْتَفَعَتْ وَعَظُمَ شَأْنُ الْوَزِيرِ وَصَارَتْ إِلَيْهِ النِّيَابَةُ فِي إِنْفَادِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ

تَعَيَّنَتْ مَرْتَبَتُهُ فِي الدَّوْلَةِ وَعَنْتَ لَهَا الْوُجُوهَ وَخَصَّصَتْ لَهَا الرِّقَابَ وَجُعِلَ لَهَا النَّظَرُ فِي دِيَوَانِ الْحِسْبَانِ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ خِطَّتُهُ مِنْ قِسْمِ الْأَعْطِيَّاتِ فِي الْجُنْدِ فَاحْتَاجَ إِلَى النَّظَرِ فِي جَمِيعِهِ وَتَفْرِيقِهِ وَأُضِيفَ إِلَيْهِ النَّظَرُ فِيهِ ثُمَّ جُعِلَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْقَلَمِ وَالتَّرْسِيلِ لِيَصُونَ أَسْرَارَ السُّلْطَانِ وَلِيَحْفَظَ الْبَلَاغَةَ لِمَا كَانَ اللِّسَانُ قَدْ فَسَدَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَجُعِلَ الْخَاتَمُ لِسِجَلَاتِ السُّلْطَانِ لِيَحْفَظَهَا مِنَ الذِّيَاعِ وَالشِّيَاعِ^(١) وَدَفَعَ إِلَيْهِ فَصَارَ اسْمُ الْوَزِيرِ جَامِعاً لِخِطَّتَيْ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ وَسَائِرِ مَعَانِي الْوِزَارَةِ وَالْمُعَاوَنَةِ حَتَّى لَقَدْ دُعِيَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ الرُّشِيدِ إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ نَظَرِهِ وَقِيَامِهِ بِالدَّوْلَةِ وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ مِنَ الرُّتَبِ السُّلْطَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا الْحِجَابَةُ الَّتِي هِيَ الْقِيَامُ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ لِاسْتِنكَافِهِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ ثُمَّ جَاءَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ شَأْنُ الْإِسْتِئْذَادِ عَلَى السُّلْطَانِ^(٢) وَتَعَاوَرَ فِيهَا اسْتِئْذَادُ الْوِزَارَةِ مَرَّةً وَالسُّلْطَانِ أُخْرَى وَصَارَ الْوَزِيرُ إِذَا اسْتَبَدَّ مُحْتَاجاً إِلَى اسْتِئْذَانِ الْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ لِذَلِكَ لِيَتَّصِحَّ الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ وَتَجِيءَ عَلَى حَالِهَا كَمَا تَقَدَّمَ فَانْقَسَمَتِ الْوِزَارَةُ حِينَئِذٍ إِلَى وَزَارَةِ تَنْفِيزٍ وَهِيَ خَالٌ مَا يَكُونُ السُّلْطَانُ قَائِماً عَلَى نَفْسِهِ وَإِلَى وَزَارَةِ تَفْوِيزٍ وَهِيَ خَالٌ مَا يَكُونُ الْوَزِيرُ مُسْتَبِداً عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَمَرَّ الْإِسْتِئْذَادُ وَصَارَ الْأَمْرُ لِمُلُوكِ الْعَجَمِ وَتَعَطَّلَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَوْلِيكَ الْمُتَعَلِّبِينَ أَنْ يَنْتَحِلُوا الْقَابَ الْخِلَافَةِ وَاسْتَنَكَفُوا مِنْ مُشَارَكَةِ الْوُزَرَاءِ فِي اللَّقْبِ لِأَنَّهُمْ خَوْلٌ لَهُمْ فَتَسَمَّوْا بِالْإِمَارَةِ وَالسُّلْطَانِ وَكَانَ الْمُسْتَبِدُّ عَلَى الدَّوْلَةِ يُسَمَّى أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ أَوْ بِالسُّلْطَانِ إِلَى مَا يُحْلِيهِ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْقَابِ كَمَا تَرَاهُ فِي الْقَابِ بِهِمْ وَتَرَكَوْا اسْمَ الْوِزَارَةِ إِلَى مَنْ يَتَوَلَّاهَا لِلْخَلِيفَةِ فِي خَاصَّتِهِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّأْنُ عِنْدَهُمْ إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ وَفَسَدَ اللِّسَانُ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَصَارَتْ صِنَاعَةٌ يَنْتَحِلُهَا بَعْضُ النَّاسِ فَاثْمَنَتْ وَتَرَفَّعَ الْوُزَرَاءُ عَنْهَا لِذَلِكَ وَلَأنَّهُمْ عَجَمٌ وَلَيْسَتْ تِلْكَ الْبَلَاغَةُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْ لِسَانِهِمْ فَتَخَيَّرَ لَهَا مِنْ سَائِرِ الطَّبَقَاتِ وَاخْتَصَّتْ بِهِ وَصَارَتْ خَادِمَةً لِلْوَزِيرِ وَاخْتَصَّ اسْمُ الْأَمِيرِ بِصَاحِبِ الْحُرُوبِ وَالْجُنْدِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَدُهُ مَعَ ذَلِكَ عَالِيَةً

(١) الذِّيَاعُ وَالشِّيَاعُ ، ليسا من مصادر ذاع وشاع والاصح أن يقول ، الذبوع والشبوع .

(٢) أي الخليفة كما يتضح من العبارة اللاحقة .

على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبداداً واستمر الأمر على هذا ثم
جاءت دولة الترك آخراً بمصر فראوا أن الوزارة قد ابتدلت بترفع أولئك عنها
ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير
فصارت مرؤوسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة
وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي
اسم الحاجب في مذكوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجبائية . وأما دولة
بنى أمية بالاندلس فأنفوا اسم الوزير في مذكوله أول الدولة ثم قسموا خطته أضافاً
وأفردوا لكل صنف وزيراً فجعلوا لحسان المال وزيراً وللترسيل وزيراً وللنظر في
خوائج المتظلمين وزيراً وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت
يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينقدون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له
وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل
وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا إلى
آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك
الطوائف ينتحلون لقبها فأكثروهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت
دولة الشيعة بأفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر
هذه الخطط أولاً وتنقيح أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم . ولما جاءت دولة
الموحدين من بعد ذاك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ثم صارت إلى انتحال الأسماء
والألقاب وكان اسم الوزير في مذكوله ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذهب
السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يخجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود
والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في
الكون بين يديه ورفعوا خطة الجبائية عنه ما شاءوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا
العهد وأما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود
الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار

وَيُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ اسْتِثْبَاعَ كَاتِبِ السَّرِّ وَأَصْحَابِ الْبَرِيدِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي حَاجَاتِ
السُّلْطَانِ بِالْقَاصِيَةِ وَبِالْحَاضِرَةِ وَحَالَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ مُوَلِّي الْأُمُورِ لِمَنْ
يَشَاءُ .

(الحجابة) : قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا اللَّقَبَ كَانَ مَخْصُوصاً فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
وَالْعَبَّاسِيَّةِ بِمَنْ يَخْجُبُ السُّلْطَانُ عَنِ الْعَامَّةِ وَيُعْلِقُ بَابَهُ دُونَهُمْ أَوْ يَفْتَحُهُ لَهُمْ عَلَى
قَدَرِهِ فِي مَوَاقِيْتِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ مُنْزَلَةً يَوْمًا عَنِ الْخِطِطِ مَرْوُوسَةً لَهَا إِذَا الْوَزِيرُ مُتَصَرِّفٌ
فِيهَا بِمَا يَرَاهُ وَهَكَذَا كَانَتْ سَائِرُ أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ بِمَضَرِ
مَرْوُوسَةٍ لِصَاحِبِ الْخِطَّةِ الْعُلْيَا الْمُسَمَّى بِالنَّائِبِ . وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ الْحِجَابَةُ لِمَنْ يَخْجُبُ السُّلْطَانُ عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَيَكُونُ
وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُزَرَاءِ فَمَنْ دُونَهُمْ فَكَانَتْ فِي دَوْلَتِهِمْ رَفِيعَةً غَايَةً كَمَا تَرَاهُ فِي
أَخْبَارِهِمْ كَأَبْنِ حَدِيدٍ وَغَيْرِهِ مِنْ حُجَّابِهِمْ ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْإِسْتِبدَادُ عَلَى الدَّوْلَةِ اخْتَصَصَ
الْمُسْتَبْدُ بِاسْمِ الْحِجَابَةِ لِشَرْفِهَا فَكَانَ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ وَأَبْنَاؤُهُ كَذَلِكَ وَلَمَّا
بَدَا فِي مَظَاهِرِ الْمُلْكِ وَأَطْوَارِهِ جَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ فَلَمْ يَتْرُكُوا
لِقَبِهَا وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ شَرَفًا لَهُمْ وَكَانَ أَعْظَمُهُمْ مُلْكًا بَعْدَ انْتِحَالِ الْقَابِ الْمَلِكِ
وَأَسْمَائِهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذِكْرِ الْحَاجِبِ وَذِي الْوِزَارَتَيْنِ يَفْعَلُونَ بِهِ السِّيفَ وَالْقَلَمَ
وَيَبْدُلُونَ بِالْحِجَابَةِ عَلَى حِجَابَةِ السُّلْطَانِ عَنِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَيَذِي الْوِزَارَتَيْنِ عَنْ
جَمِيعِهِ لِخِطَّتِي السِّيفِ وَالْقَلَمِ . ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي دَوْلِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ ذِكْرٌ لِهَذَا الْإِسْمِ
لِلْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَرُبَّمَا يُوْجَدُ فِي دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ بِمَضَرٍ عِنْدَ اسْتِعْظَامِهَا
وَحَضَارَتِهَا إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ . وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لَمْ تَسْتَمْكِنْ فِيهَا الْحَضَارَةُ
الدَّاعِيَةُ إِلَى انْتِحَالِ الْأَلْقَابِ وَتَمْيِيزِ الْخِطِطِ وَتَعْيِينِهَا بِالْأَسْمَاءِ إِلَّا آخِرًا فَلَمْ يَكُنْ
عِنْدَهُمْ مِنَ الرُّتَبِ إِلَّا الْوَزِيرُ فَكَانُوا أَوَّلًا يَخْصُونَ بِهَذَا الْإِسْمِ الْكَاتِبَ الْمُتَصَرِّفَ
الْمُشَارِكَ لِلْسُّلْطَانِ فِي خَاصِّ أَمْرِهِ كَأَبْنِ عَطِيَّةٍ وَعَبْدِ السَّلَامِ الْكُومِيَّ وَكَانَ لَهُ مَعَ
ذَلِكَ النَّظَرُ فِي الْحِسَابِ وَالْأَشْغَالِ الْمَالِيَّةِ ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْمُ الْوَزِيرِ لِأَهْلِ نَسَبِ

الدَّوْلَةُ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ كَانِبِ جَامِعٍ وَغَيْرِهِ وَلَمْ يَكُنْ اسْمُ الْحَاجِبِ مَعْرُوفًا فِي دَوْلَتِهِمْ
يَوْمَئِذٍ . وَأَمَّا بَنُو أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِيقِيَّةٍ فَكَانَتِ الرَّئَاسَةُ فِي دَوْلَتِهِمْ أَوَّلًا وَالتَّقْدُمُ
لِوزِيرِهِ وَالرَّأْيُ وَالْمَشُورَةُ وَكَانَ يُخَصُّ بِاسْمِ شَيْخِ الْمُؤَحِّدِينَ وَكَانَ لَهُ النَّظَرُ فِي
الْوَلَايَاتِ وَالْعَزَلِ وَقُودِ الْعَسَاكِرِ وَالْحُرُوبِ وَاخْتَصَّ الْحُسْبَانُ وَالْدِّيَوَانُ بِرُتْبَةِ أُخْرَى
وَيُسَمَّى مُتَوَلِّيَهَا بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ يَنْظُرُ فِيهَا النَّظَرَ الْمُطْلَقَ فِي الدُّخْلِ وَالْخُرْجِ
وَيَحَاسِبُ وَيَسْتَخْلِصُ الْأَمْوَالَ وَيُعَاقِبُ عَلَى التَّفْرِيطِ وَكَانَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ
الْمُؤَحِّدِينَ وَاخْتَصَّ عَنْدهُمْ الْقَلَمُ أَيْضًا بِمَنْ يُجِيدُ التَّرْسِيلَ وَيُؤْتَمَنُ عَلَى الْأَسْرَارِ
لَأَنَّ الْكِتَابَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مُتَحَلِّ الْقَوْمِ وَلَا التَّرْسِيلُ يَلْسَانِهِمْ فَلَمْ يُشْتَرَطْ فِيهِ النَّسَبُ
وَإِحْتِاجُ السُّلْطَانِ لِاتِّسَاعِ مُلْكِهِ وَكَثْرَةِ الْمُتَرَقِّقِينَ بِدَارِهِ إِلَى قَهْرْمَانٍ خَاصٍ بِدَارِهِ فِي
أَحْوَالِهِ يُخْرِجُهَا عَلَى قَدَرِهَا وَتَرْتِيبِهَا مِنْ رِزْقٍ وَعَطَايَا وَكُسُوفَةٍ وَنَفَقَةٍ فِي الْمَطَايِجِ
وَالِإِضْطِبَالَاتِ وَغَيْرِهِمَا وَخَصَّرَ الذَّخِيرَةَ وَتَنْفِيزَ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ
الْجَبَايَةِ فَخَصَّوهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ وَرُبَّمَا أَضَافُوا إِلَيْهِ كِتَابَةَ الْعَلَامَةِ عَلَى السَّجَلَاتِ إِذَا
اتَّفَقَ أَنَّهُ يُحْسِنُ صِنَاعَةَ الْكِتَابَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوهُ لغيرِهِ وَاسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ وَحَجَبَ
السُّلْطَانُ نَفْسَهُ عَنِ النَّاسِ فَصَارَ هَذَا الْحَاجِبُ وَاسِطَةً بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ أَهْلِ الرُّتَبِ
كُلِّهِمْ ثُمَّ جُمِعَ لَهُ آخِرُ الدَّوْلَةِ السَّيْفُ وَالْحَرْبُ ثُمَّ الرَّأْيُ وَالْمَشُورَةُ فَصَارَتِ الْخِطَّةُ
أَرْفَعَ الرُّتَبِ وَأَوْعَبَهَا^(١) لِلْخِطِّطِ ثُمَّ جَاءَ الْإِسْتِبْدَادُ وَالْخَجَرُ مُدَّةً مِنْ بَعْدِ السُّلْطَانِ
الثَّانِي عَشَرَ مِنْهُمْ ثُمَّ اسْتَبَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ حَفِيدُهُ السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَذْهَبَ
آخَارُ الْخَجَرِ وَالْإِسْتِبْدَادِ بِإِذْهَابِ خِطَّةِ الْجَبَايَةِ الَّتِي كَانَتْ سُلْمًا إِلَيْهِ وَبَاشَرَ أُمُورَهُ
كُلَّهَا بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِي مُرَيْنَ فَلَا أَثَرَ لِاسْمِ الْحَاجِبِ
عِنْدَهُمْ وَأَمَّا رِئَاسَةُ الْحَرْبِ وَالْعَسَاكِرِ فَهِيَ لِلْوَزِيرِ وَرُتْبَةُ الْقَلَمِ فِي الْحُسْبَانِ وَالرَّسَائِلِ
رَاجِعَةٌ إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَإِنْ اخْتَصَّتْ بِبَعْضِ الْبُيُوتِ الْمُصْطَفِيَيْنِ فِي

(١) بمعنى استيعابها للخطوط .

دَوْلَتِهِمْ وَقَدْ تَجَمَّعَ عِنْدَهُمْ وَقَدْ تَفَرَّقَ وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحُجْبُهُ عَنِ الْعَامَّةِ فَهِيَ رُتْبَةٌ عِنْدَهُمْ فَيَسْمَى صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِالْمَرْوَارِ وَمَعْنَاهُ الْمُقَدَّمُ عَلَى الْجَنَادَةِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ السُّلْطَانِ فِي تَنْفِيزِ أَوَامِرِهِ وَتَضْرِيفِ عُقُوبَاتِهِ وَإِنْزَالِ سَطَوَاتِهِ وَحِفْظِ الْمُعْتَقَلِينَ فِي سُجُونِهِ وَالْعَرِيفُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ قَالِبَابُ لَهُ وَأَخَذَ النَّاسُ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي دَارِ الْعَامَّةِ رَاجِعٌ إِلَيْهِ فَكَانَتْهَا وَزَارَةٌ صُغْرَى . وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِّ فَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ وَلَا تَمَيِّزَ الْخِطَطِ لِبِدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا وَإِنَّمَا يَخْصُونَ بِاسْمِ الْحَاجِبِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ مُنْفَذَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَقَدْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْحِسْبَانَ وَالسَّجَلُ كَمَا كَانَ فِيهَا حَمَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي تَبِعَتِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ .

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَالْمَخْصُوصُ عِنْدَهُمْ بِالْحِسْبَانِ وَتَنْفِيزِ حَالِ السُّلْطَانِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمَالِيَةِ يُسَمُّونَهُ بِالْوَكِيلِ وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يَجْمَعُ لَهُ التَّرْسِيلُ وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خَطُّهُ عَلَى السَّجَلَاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خِطَّةُ الْعَلَامَةِ كَمَا لِيغْيَرَهُمْ مِنَ الدَّوَلِ . وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمَضَرَ فَاسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضُوعٌ لِحَاكِمٍ مِنْ أَهْلِ الشُّوْكَةِ وَهُمْ التُّرْكُ يُنْفِذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهَذِهِ الْوُظَيْفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظِيفَةِ النِّيَابَةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي الْعَامَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلِلنَّائِبِ التَّوْلِيَةُ وَالْعَزْلُ فِي بَعْضِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْأَخْيَانِ وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَيَبْسُتُهَا وَتَنْفِذُ أَوَامِرَهُ كَمَا تَنْفِذُ الْمَرَاسِمُ السُّلْطَانِيَّةُ وَكَانَ لَهُ النِّيَابَةُ الْمُطْلَقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ وَلِلْحُجَابِ الْحُكْمُ فَقَطُّ فِي طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ وَالْجُنْدِ عِنْدَ التَّرَافِعِ إِلَيْهِمْ وَإِجْبَارِ مَنْ أَبَى الْإِتْقِيَادَ لِلْحُكْمِ وَطَوْرُهُمْ تَحْتَ طَوْرِ النِّيَابَةِ وَالْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جِزْيَةٍ ثُمَّ فِي تَضْرِيفِهَا فِي الْإِنْفَاقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ الْجِرَايَاتِ الْمُقَدَّرَةِ وَلَهُ مَعَ ذَلِكَ التَّوْلِيَةُ وَالْعَزْلُ فِي سَائِرِ الْعُمَالِ الْمُبَاشِرِينَ لِهَذِهِ

الجبائية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أوضاعهم ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجبائية لاختصاصهم بذلك في مضر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الأخيان لأهل الشوكة من رجال الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الأمور ومصرفها بحكمته لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين

ديوان الأعمال والجبائيات

إعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبائيات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير ارزاقهم وصرف أعطياتهم في إبانائهم والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومه تلك الأعمال وقهارمة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبنية على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها . ويقال إن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال ديوانه أي مجانين بلغه الفرس فسمي موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقل ديوان ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات وقيل إنه اسم للشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شد وتفرق ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسه بباب السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرّد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال وقد يفرّد كل صنف منها بناظر كما يفرّد في بعض الدول النظر في العساكر واقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم أو غير ذلك على حسب مضطاج الدولة وما

قَرَرَهُ أَوَّلُهَا . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ إِنَّمَا تَحْدُثُ فِي الدُّوَلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ الْغَلَبِ
وَالِاسْتِيْلَاءِ وَالنَّظَرِ فِي أَغْطَافِ الْمُلْكِ وَفُنُونِ التَّمْهِيدِ . وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الدِّيَوَانَ فِي
الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقَالُ لِسَبَبِ مَالٍ أَتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَاسْتَكْثَرُوهُ وَتَبِعُوا فِي قَسْمِهِ فَسَمَوْا إِلَى إِخْصَاءِ الْأَمْوَالِ وَضَبْطِ
الْعَطَاءِ وَالْحَقُوقِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِالدِّيَوَانِ وَقَالَ : « رَأَيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ
يُدَوِّنُونَ » فَقَبِلَ مِنْهُ عُمَرُ وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ الْهَرَمَزَانُ لَمَّا رَأَاهُ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ
بِغَيْرِ دِيَوَانٍ فَقِيلَ لَهُ وَمَنْ يَعْلَمُ بَغْيِيَّةَ مَنْ يَغِيبُ مِنْهُمْ فَإِنَّ مَنْ تَخَلَّفَ أَخْلَ بِمَكَانِهِ
وَإِنَّمَا يَضْبُطُ ذَلِكَ الْكِتَابُ فَأَثْبَتَ لَهُمْ دِيَوَانًا وَسَأَلَ عُمَرُ عَنْ اسْمِ الدِّيَوَانِ فَقَبِّرَ لَهُ
وَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمْرُ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمَخْرَمَةَ بْنِ نُوْفَلٍ وَجُبَيْرِ بْنِ مَطْعَمٍ
وَكَانُوا مِنْ كُتَّابِ قُرَيْشٍ فَكَتَبُوا دِيَوَانَ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى تَرْتِيبِ الْأَنْسَابِ
مُبْتَدَأً مِنْ قَرَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَا بَعْدَهَا الْأَقْرَبُ فَلِأَقْرَبِ هَكَذَا كَانَ ابْتِدَاءُ
دِيَوَانِ الْجَيْشِ وَرَوَى الزُّهْرِيُّ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةَ
عِشْرِينَ وَأَمَّا دِيَوَانُ الْخَرَاجِ وَالْجَبَايَا فَبَقِيَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ
قَبْلِ دِيَوَانِ الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ وَدِيَوَانِ الشَّامِ بِالرُّومِيَّةِ وَكُتَّابُ الدَّوَاوِينِ مِنْ أَهْلِ
الْعَهْدِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاسْتَحَالَ الْأَمْرُ مُلْكًا وَانْتَقَلَ
الْقَوْمُ مِنْ غَضَاضَةِ الْبِدَاوَةِ إِلَى رَوْنَقِ الْحَضَارَةِ وَمِنْ سَدَاجَةِ الْأُمِّيَّةِ إِلَى حَذَقِ الْكِتَابَةِ
وَوَظَهَرَ فِي الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهَرَةٌ فِي الْكُتَّابِ وَالْحِسْبَانِ فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ
سَعْدٍ وَالْيَاقَانَ الْأَزْدِيَّ لِعَهْدِهِ أَنْ يَنْقُلَ دِيَوَانَ الشَّامِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةِ مِنْ يَوْمِ
ابْتِدَائِهِ وَوَقَّفَ عَلَيْهِ سَرْحُونَ كَاتِبٌ عَبْدُ الْمَلِكِ فَقَالَ لِكُتَّابِ الرُّومِ : « اظْلُبُوا
الْعَيْنِشَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَقَدْ قَطَعَهَا اللَّهُ عَنْكُمْ » . وَأَمَّا دِيَوَانُ الْعِرَاقِ فَأَمَرَ
الْحَجَّاجُ كَاتِبَهُ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ وَلَقِّنَ ذَلِكَ
عَنْ زَادَانَ فَرُوخَ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ قَبْلَهُ وَلَمَّا قُتِلَ زَادَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
الْأَشْعَثِ اسْتَخْلَفَ الْحَجَّاجُ صَالِحًا هَذَا مَكَانَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْقُلَ الدِّيَوَانَ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ

إلى العَرَبِيَّةِ ففَعَلَ وَرَغِمَ لِدَلِكْ كُتَابُ الْفَرَسِ وَكَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَقُولُ لِلَّهِ
دُرُصَالِحٌ مَا أَعْظَمَ مِنتَهُ عَلَى الْكُتَابِ ثُمَّ جَعَلَتْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي سَهْلٍ بْنُ
نُوبَخْتٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ وَزَرَاءِ الدَّوْلَةِ . وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ الْوُظَيْفَةُ مِنَ الْأَحْكَامِ
الشَّرْعِيَّةِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْجَيْشِ أَوْ يَنْتَبِثُ الْمَالُ فِي الدُّخْلِ وَالْخَرْجِ وَتَمْيِيزِ النَّوَاحِي
بِالصَّلَاحِ وَالْعُنُوةِ وَفِي تَقْلِيدِ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ لِمَنْ يَكُونُ وَشُرُوطِ النَّظَرِ فِيهَا وَالْكَاتِبِ
وَقَوَانِينِ الْحِسَابَاتِ فَأَمْرٌ رَاجِعٌ إِلَى كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَهِيَ مَسْطُورَةٌ هُنَاكَ
وَلَيْسَتْ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِيهَا مِنْ حَيْثُ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الَّذِي نَحْنُ
بِصَدِّ الْكَلَامِ فِيهِ وَهَذِهِ الْوُظَيْفَةُ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمَلِكِ بَلْ هِيَ ثَالِثَةٌ أَرْكَانُهُ لِأَنَّ
الْمَلِكَ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْجَنْدِ وَالْمَالِ وَالْمُخَاطَبَةِ لِمَنْ غَابَ عَنْهُ فَاحْتَاجَ صَاحِبُ الْمَلِكِ
إِلَى الْأَعْوَانِ فِي أَمْرِ السَّيْفِ وَأَمْرِ الْقَلَمِ وَأَمْرِ الْمَالِ فَيَتَفَرَّدُ صَاحِبُهَا لِذَلِكَ بِجُزْءٍ مِنْ
رِئَاسَةِ الْمَلِكِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِفِ بَعْدَهُمْ
وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ فَكَانَ صَاحِبُهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَسْتَقِلُّ بِالنَّظَرِ
فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَضَبْطِهَا وَتَعَقُّبِ نَظَرِ الْوَلَاةِ وَالْعُمَالِ فِيهَا ثُمَّ تَنْفِيزُهَا
عَلَى قَدَرِهَا وَفِي مَوَاقِيتِهَا وَكَانَ يُعْرَفُ بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ وَكَانَ رُبَّمَا يَلِيهَا فِي
الْجِهَاتِ غَيْرُ الْمُوَحِّدِينَ مِمَّنْ يُحْسِنُهَا . وَلَمَّا اسْتَبَدَّ بَنُو أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَكَانَ
شَأْنُ الْجَالِيَّةِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْبُيُوتَاتِ وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ ذَلِكَ
فِي الْأَنْدَلُسِ مِثْلُ بَنِي سَعِيدٍ أَصْحَابِ الْقَلْعَةِ جَوَارِ غَرْنَاطَةَ الْمَعْرُوفِينَ بِبَنِي أَبِي
الْحَسَنِ فَاسْتَكْفَوْا بِهِمْ فِي ذَلِكَ وَجَعَلُوا لَهُمُ النَّظَرَ فِي الْأَشْغَالِ كَمَا كَانَ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ
وَدَالُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُوَحِّدِينَ ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِهَا أَهْلُ الْحِسَابِ وَالْكَتَابِ وَخَرَجَتْ
عَنِ الْمُوَحِّدِينَ ثُمَّ لَمَّا اسْتَغْلَظَ أَمْرُ الْحَاجِبِ وَنَفَذَ أَمْرُهُ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِ الدَّوْلَةِ
تَعَطَّلَ هَذَا الرُّسْمُ وَصَارَ صَاحِبُهُ مَرْؤُوساً لِلْحَاجِبِ وَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الْجَبَاةِ وَذَهَبَتْ
بِلْكَ الرِّئَاسَةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُ فِي الدَّوْلَةِ . وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي مُرَيْنٍ لِهَذَا الْعَهْدِ فَحِسْبَانُ

الْعَطَاءُ وَالْخَرَجُ مَجْمُوعٌ لِوَاحِدٍ وَصَاحِبُ هَذِهِ الرُّتْبَةِ هُوَ الَّذِي يُصَحَّحُ الْحِسَابَاتِ كُلُّهَا وَيَرْجَعُ إِلَى دِيَوَانِهِ وَنَظَرُهُ مُعَقَّبٌ بِنَظَرِ السُّلْطَانِ أَوْ الْوَزِيرِ وَخَطُهُ مُعْتَبَرٌ فِي صِحَّةِ الْحِسَابِ فِي الْخَارِجِ وَالْعَطَاءِ هَذِهِ أَصُولُ الرُّتَبِ وَالْخَطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ وَهِيَ الرُّتَبُ الْعَالِيَّةُ الَّتِي هِيَ عَامَّةُ النَّظَرِ وَمُبَاشَرَةُ لِلْسُّلْطَانِ . وَأَمَّا هَذِهِ الرُّتَبَةُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ فَمُتَنَوِّعَةٌ وَصَاحِبُ دِيَوَانِ الْعَطَاءِ يُعَرَفُ بِنَظَرِ الْجَيْشِ وَصَاحِبُ الْمَالِ مَخْصُوصٌ بِاسْمِ الْوَزِيرِ وَهُوَ النَّاطِرُ فِي دِيَوَانِ الْجَبَايَةِ الْعَامَّةِ لِلدَّوْلَةِ وَهُوَ أَعْلَى رُتَبِ النَّاطِرِينَ فِي الْأَمْوَالِ لِأَنَّ النَّظَرَ فِي الْأَمْوَالِ عِنْدَهُمْ يَتَنَوَّعُ إِلَى رُتَبٍ كَثِيرَةٍ لِإِنْفِسَاحِ دَوْلَتِهِمْ وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِمْ وَاتِّسَاعِ الْأَمْوَالِ وَالْجَبَايَاتِ عَنْ أَنْ يَسْتَقِيلَ بِضَبْطِهَا الْوَاحِدُ مِنَ الرِّجَالِ وَلَوْ بَلَغَ فِي الْكِفَايَةِ مَبَالِغَهُ فَتَعَيَّنَ لِلنَّظَرِ الْعَامِ مِنْهَا هَذَا الْمَخْصُوصُ بِاسْمِ الْوَزِيرِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَدِيفٌ لِمَوْلَى مِنْ مَوَالِي السُّلْطَانِ وَأَهْلٍ عَصَبِيَّتِهِ وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ فِي الدَّوْلَةِ يَرْجَعُ نَظَرُ الْوَزِيرِ إِلَى نَظَرِهِ وَيَجْتَهِدُ جَهْدَهُ فِي مُتَابَعَتِهِ وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ أَسْتَاذُ الدَّوْلَةِ وَهُوَ أَحَدُ الْأَمْرَاءِ الْأَكَابِرِ فِي الدَّوْلَةِ مِنَ الْجُنْدِ وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَيَتَّبِعُ هَذِهِ الْخِطَّةَ خِطَطُ عِنْدَهُمْ أُخْرَى كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى الْأَمْوَالِ وَالْحِسَابِ مَقْصُورَةٌ النَّظَرِ إِلَى أُمُورٍ خَاصَّةٍ مِثْلِ نَاطِرِ الْخَاصِّ وَهُوَ الْمُبَاشِيرُ لِلْأَمْوَالِ السُّلْطَانِ الْخَاصَّةِ بِهِ مِنْ إِقْطَاعَاتِهِ أَوْ سَهْمَانِهِ مِنْ أَمْوَالِ الْخَرَجِ وَبِلَادِ الْجَبَايَةِ مِمَّا لَيْسَ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّةِ وَهُوَ تَحْتَ يَدِ الْأَمِيرِ أَسْتَاذِ الدَّارِ وَإِنْ كَانَ الْوَزِيرُ مِنَ الْجُنْدِ فَلَا يَكُونُ لِأَسْتَاذِ الدَّارِ نَظَرٌ عَلَيْهِ وَنَظَرُ الْخَاصِّ تَحْتَ يَدِ الْخَازِنِ لِلْأَمْوَالِ السُّلْطَانِ مِنَ مَمَالِكِهِ الْمُسَمَّى خَازِنَ الدَّارِ لِاخْتِصَاصِ وَظِيفَتِهِمَا بِمَالِ السُّلْطَانِ الْخَاصِّ . هَذَا بَيَانُ هَذِهِ الْخِطَّةِ بِدَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ بَعْدَ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَمْرِهَا بِالْمَغْرِبِ وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ لَا رَبَّ غَيْرُهُ .

ديوان الرسائل والكتابة

هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ فِي الْمُلْكِ لِاسْتِغْنَاءِ كَثِيرٍ مِنَ الدَّوْلِ عَنْهَا رَأْسًا كَمَا

فِي الدُّوَلِ الْعَرِيقَةِ فِي الْبِدَاوَةِ الَّتِي لَمْ يَأْخُذْهَا تَهْذِيبُ الْحَضَارَةِ وَلَا اسْتِحْكَامُ الصَّنَائِعِ
 وَإِنَّمَا أَكَّدَ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فِي الدُّوَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ شَأْنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَالْبَلَاغَةِ فِي الْعِبَارَةِ
 عَنْ الْمَقَاصِدِ فَصَارَ الْكِتَابُ يُؤَدِّي كُنْهَ الْحَاجَةِ بِأَبْلَغٍ مِنَ الْعِبَارَةِ اللَّسَانِيَّةِ فِي الْأَكْثَرِ
 وَكَانَ الْكَاتِبُ لِلْأَمِيرِ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِ وَمِنْ عِظَمَاءِ قَبِيلِهِ كَمَا كَانَ لِلْخُلَفَاءِ
 وَأَمْرَاءِ الصَّحَابَةِ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ لِعِظَمِ أَمَانَتِهِمْ وَخُلُوصِ أَسْرَارِهِمْ فَلَمَّا فَسَدَ اللِّسَانُ
 وَصَارَ صِنَاعَةُ اخْتِصَاصٍ بِيَمَنِ يُحْسِنُهُ وَكَانَتْ عِنْدَ بَنِي الْعَبَّاسِ رَفِيعَةً وَكَانَ الْكَاتِبُ
 يُضَدِّرُ السَّجَلَاتِ مُطْلَقَةً وَيَكْتُبُ فِي آخِرِهَا اسْمَهُ وَيَخْتُمُ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ السُّلْطَانِ وَهُوَ
 طَائِعٌ مَنْقُوشٌ فِيهِ اسْمُ السُّلْطَانِ أَوْ شَارَتُهُ يُغَمَّسُ فِي طِينٍ أَحْمَرَ مُذَابٍ بِالنِّمَاءِ
 وَيُسَمَّى طِينُ الْخَتْمِ وَيُطْبَعُ بِهِ عَلَى طَرَفَيْ السَّجَلِ عِنْدَ طَبِيعِهِ وَالصَّاقِ ثُمَّ صَارَتْ
 السَّجَلَاتُ مِنْ بَعْدِهِمْ تُصَدَّرُ بِاسْمِ السُّلْطَانِ وَيَضَعُ الْكَاتِبُ فِيهَا عَلَامَتَهُ أَوَّلًا أَوْ آخِرًا
 عَلَى حَسَبِ الْإِخْتِيَارِ فِي مَحَلِّهَا وَفِي لَفْظِهَا ثُمَّ قَدْ تَنَزَّلَ هَذِهِ الْخِطَّةُ بِارْتِفَاعِ الْمَكَانِ
 عِنْدَ السُّلْطَانِ لِغَيْرِ صَاحِبِهَا مِنْ أَهْلِ الْمَرَاتِبِ فِي الدُّوَلَةِ أَوْ اسْتِئْذَادِ وَزِيرٍ عَلَيْهِ قُتَصِيرُ
 عَلَامَةٍ هَذَا الْكِتَابِ مُلْغَاةُ الْحُكْمِ بِعَلَامَةِ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ يَسْتَدِلُّ بِهَا فَيَكْتُبُ صُورَةَ
 عَلَامَتِهِ الْمَعْهُودَةِ وَالْحُكْمَ لِعَلَامَةِ ذَلِكَ الرَّئِيسِ كَمَا وَقَعَ آخِرَ الدُّوَلَةِ الْخَفْصِيَّةِ لَمَّا
 ارْتَفَعَ شَأْنُ الْحِجَابَةِ وَصَارَ أَمْرُهَا إِلَى التَّفْوِيزِ ثُمَّ الْإِسْتِئْذَادِ صَارَ حُكْمُ الْعَلَامَةِ الَّتِي
 لِلْكَاتِبِ مُلْغَى وَصُورَتُهَا ثَابِتَةٌ إِنْتَبَاعًا لِمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرِهَا فَصَارَ الْحَاجِبُ يَرْسِمُ
 لِلْكَاتِبِ إِمضَاءَ كِتَابِهِ ذَلِكَ بِخَطِّ يَصْنَعُهُ وَيَتَخَيَّرُ لَهُ مِنْ صَنِيعِ الْإِنْفَادِ مَا شَاءَ فَيَتَأَمَّرُ
 الْكَاتِبُ لَهُ وَيَضَعُ الْعَلَامَةَ الْمُعْتَادَةَ وَقَدْ يُخْتَصُّ السُّلْطَانُ لِنَفْسِهِ بِوَضْعِ ذَلِكَ إِذَا كَانَ
 مُسْتَبْدًا بِأَمْرِهِ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ فَيَرْسِمُ الْأَمْرَ لِلْكَاتِبِ لِيَضَعَ عَلَامَتَهُ وَمِنْ خِطَطِ
 الْكِتَابَةِ التَّوْقِيعِ وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ فِي مَجَالِسِ حُكْمِهِ
 وَفَضْلِهِ وَيُوقَّعُ عَلَى الْقِصَصِ الْمَرْفُوعَةِ إِلَيْهِ أَحْكَامُهَا وَالْفَضْلُ فِيهَا مُتْلَقَةٌ مِنَ السُّلْطَانِ
 بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَبْلَغِهِ فَإِنَّمَا أَنْ تُصَدَّرَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ يَخْذُوا الْكَاتِبَ عَلَى مِثَالِهَا فِي سِجَلٍ
 يَكُونُ بِيَدِ صَاحِبِ الْقِصَّةِ وَيَخْتِاجُ الْمَوْقِعَ إِلَى غَارِضَةٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ يَسْتَقِيمُ بِهَا

تَوْقِيعُهُ وَقَدْ كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى يُوقِّعُ فِي الْقِصَصِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ وَيَرْمِي
بِالْقِصَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا فَكَانَتْ تَوْقِيعَاتُهُ يَتَنَافَسُ الْبُلَغَاءُ فِي تَخْصِيلِهَا لِلْوُقُوفِ فِيهَا عَلَى
أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ وَفُتُونِهَا حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تَبَاعُ كُلُّ قِصَّةٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ وَهَكَذَا
كَانَ شَأْنُ الدُّوَلِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْخِطَّةِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْفَعَ طَبَقَاتِ
النَّاسِ وَأَهْلِ الْمُرُوءَةِ وَالْحِشْمَةِ مِنْهُمْ وَزِيَادَةَ الْعِلْمِ وَعَارِضَةَ الْبَلَاغَةِ فَإِنَّهُ مُعْرَضٌ لِلنَّظَرِ
فِي أَصُولِ الْعِلْمِ لِمَا يُعْرَضُ فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمَقَاصِدِ أَحْكَامِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ
مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَشْرَةُ الْمُلُوكِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْأَدَابِ وَالتَّخَلُّقِ بِالْفَضَائِلِ مَعَ مَا يُضْطَرُّ
إِلَيْهِ فِي التَّرْسِيلِ وَتَطْبِيقِ مَقَاصِدِ الْكَلَامِ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَأَسْرَارِهَا وَقَدْ تَكُونُ الرُّتْبَةُ فِي
بَعْضِ الدُّوَلِ مُسْتِنْدَةً إِلَى أَرْبَابِ السُّيُوفِ لِمَا يَقْتَضِيهِ طَبْعُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْبُعْدِ عَنْ
مُعَانَاةِ الْعُلُومِ لِأَجْلِ سَدَاجَةِ الْعَصِيَّةِ فَيَخْتَصُّ السُّلْطَانُ أَهْلَ عَصِيَّتِهِ بِخَطِّ دَوْلَتِهِ
وَسَائِرِ رُتْبَتِهِ فَيَقْلُدُ الْمَالُ وَالسِّنْفُ وَالْكِتَابَةُ مِنْهُمْ فَأَمَّا رُتْبَةُ السِّنْفِ فَتُسْتَفْنِي عَنْ
مُعَانَاةِ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْمَالُ وَالْكِتَابَةُ فَيُضْطَرُّ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَاغَةُ فِي هَذِهِ وَالْحِسْبَانُ فِي
الْآخَرَى فَيَخْتَارُونَ لَهَا مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ وَيَقْلُدُونَهُ إِلَّا أَنَّهُ
لَا تَكُونُ يَدُ آخَرٍ مِنَ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ غَالِبَةً عَلَى يَدِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ مُنْصَرِفًا عَنْ نَظَرِهِ
كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ فَإِنَّ الْكِتَابَةَ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ لِصَاحِبِ
الْإِنْشَاءِ إِلَّا أَنَّهُ تَحْتَ يَدِ أَمِيرٍ مِنْ أَهْلِ عَصِيَّةِ السُّلْطَانِ يُعْرِفُ بِالدَّوِيدَارِ وَتَغْوِيلِ
السُّلْطَانِ وَوُثُوقِهِ بِهِ وَاسْتِنَامَتِهِ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِ إِلَيْهِ وَتَغْوِيلُهُ عَلَى الْآخِرِ فِي أَحْوَالِ
الْبَلَاغَةِ وَتَطْبِيقِ الْمَقَاصِدِ وَكُتْمَانِ الْأَسْرَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِهَا . وَأَمَّا الشُّرُوطُ
الْمُعْتَبَرَةُ فِي صَاحِبِ هَذِهِ الرُّتْبَةِ الَّتِي يُلَاحِظُهَا السُّلْطَانُ فِي اخْتِيَارِهِ وَاتِّبَاعِهِ مِنْ
أَصْنَافِ النَّاسِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَأَحْسَنُ مَنْ اسْتَوْعَبَهَا عَبْدُ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى
الْكَتَّابِ وَهِيَ : « أَمَّا بَعْدَ حَفِظِكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ وَحَاطَكُمُ وَوَفَّقَكُمُ
وَأَرْشَدَكُمُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمُكْرَمِينَ أَصْنَافًا وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ

سَوَاءٌ وَصَرَفَهُمْ فِي صُنُوفِ الصَّنَاعَاتِ وَضُرُوبِ الْمَحَاوَلَاتِ إِلَى أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ وَأَنْبَوَاءِ
أَزْرَاقِهِمْ فَجَعَلَكُمْ مَعَشَرَ الْكِتَابِ فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ أَهْلُ الْأَدَبِ وَالْمَرْوَاتِ وَالْعِلْمِ
وَالرِّزَانَةِ بِكُمْ يَنْتَظِمُ لِلْخِلَافَةِ مَحَاسِنُهَا وَتُسْتَقِيمُ أُمُورُهَا وَيَنْصَحَائِكُمْ يُضْلِحُ اللَّهُ
لِلْخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ وَتَعْمُرُ بُلْدَانَهُمْ لَا يَسْتَفْنِي الْمَلِكُ عَنْكُمْ وَلَا يَوْجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ
فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمُ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ وَأَبْصَارِهِمُ الَّتِي بِهَا
يُبْصِرُونَ وَالسِّنِّيَّةُ الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي بِهَا يَنْطَشُونَ فَأَمْتَعَكُمْ اللَّهُ
بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ وَلَا نَزَعَ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعَةِ عَلَيْكُمْ وَلَيْسَ
أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إِلَى اجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمَخْمُودَةِ وَخِصَالِ
الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْكِتَابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ
مِنْ صِفَتِكُمْ فَإِنَّ الْكِتَابَ يَخْتِاجُ فِي نَفْسِهِ وَيَخْتِاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَثِقُ بِهِ فِي
مُهْمَاتِ أُمُورِهِ أَنْ يَكُونَ خَلِيبًا فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ فَهَيْمًا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ مِقْدَامًا فِي
مَوْضِعِ الْإِفْدَامِ مُخِجًا فِي مَوْضِعِ الْإِخْجَامِ مُؤَثِّرًا لِلْعَفَافِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ كَتُومًا
لِلْأَسْرَارِ وَفِيًّا عِنْدَ الشَّدَائِدِ عَالِمًا بِمَا يَأْتِي مِنَ النُّوَازِلِ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا
وَالطُّوَارِقَ فِي أَمَاكِينِهَا قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ فَأَحْكَمَهُ وَإِنْ لَمْ يُحْكِمْهُ أَخَذَ
مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا يَكْتَفِي بِهِ يَعْرِفُ بِغَرِيزَةِ عَقْلِهِ وَحُسْنِ أَدَبِهِ وَفَضْلِ تَجَرُّبَتِهِ مَا يَرُدُّ
عَلَيْهِ قَبْلَ وُرُودِهِ وَعَاقِبَتُهُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ فَيَعُدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عِدَّتَهُ وَعَتَادَهُ
وَيَهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ فَتَنَافَسُوا يَا مَعَشَرَ الْكِتَابِ فِي صُنُوفِ الْأَدَابِ
وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَابْتَدَأُوا بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفَرَائِضِ ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا
ثِقَافُ السِّنِّيَّةِ ثُمَّ أُجِيدُوا الْخَطَّ فَإِنَّهُ جَلِيَّةُ كُتُبِكُمْ وَارْوُوا الْأَشْعَارَ وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا
وَمَعَانِيَهَا وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ مُعَيَّنٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو
إِلَيْهِ هِمَمُكُمْ وَلَا تَضْيَعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ فَإِنَّهُ قِوَامُ كِتَابِ الْخَرَاجِ وَارْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ
عَنِ الْمَطَامِعِ سَنِيَّهَا وَدَنِيَّهَا وَمَفْسَافِ الْأُمُورِ وَمَخَافِرِهَا فَإِنَّهَا مَذَلَّةٌ لِلرَّقَابِ مُفْسِدَةٌ
لِلْكِتَابِ وَنَزْهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدَّنَاءَةِ وَارْبَاؤُا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالنِّمِيمَةِ وَمَا

فِيهِ أَهْلُ الْجَهْلَاتِ وَإِيَّاكُمْ وَالْكِبَرِ وَالسُّخْفَ وَالْعَظَمَةَ فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ
إِخْنَةٍ وَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ الْيَقُ لَأَهْلِ
الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنُّبْلِ مِنْ سَلَفِكُمْ وَإِنْ نَبَا الزَّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَاعْظُمُوا عَلَيْهِ وَأَسُوهُ
حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالَهُ وَيَثُوبَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمْ الْكِبَرُ عَنْ مَكْسَبِهِ
وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ فُزُورُوهُ وَعَظُمُوهُ وَشَاوِرُوهُ وَاسْتَظْهَرُوا بِفَضْلِ تَجَرُّبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ
وَلْيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ اضْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ لَيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحَاطَ مِنْهُ عَلَى
وَلَدِهِ وَأَخِيهِ فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَحْمِدَةٌ فَلَا يَصِفُهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهِ وَإِنْ عَرَضَتْ
مَذْمُومَةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ وَلْيَخْذِرِ السَّقَطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَلَلَ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْحَالِ فَإِنْ
الْغَيْبُ إِلَيْكُمْ مَعَشَرَ الْكِتَابِ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى الْقُرَاءِ وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ لَهُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ
الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَبْذُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَحِبُّ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ فَوَاجِبٌ
عَلَيْهِ أَنْ يَفْتَقِدَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ وَشُكْرِهِ وَاحْتِمَالِهِ وَخَيْرِهِ وَنَصِيحَتِهِ وَكِتْمَانِ سِرِّهِ وَتَذْيِيرِ
أَمْرِهِ مَا هُوَ جَزَاءٌ لِحَقِّهِ وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ بِفَعَالِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالِاضْطِرَّارِ إِلَى
مَا لَدَيْهِ فَاسْتَشْعَرُوا ذَلِكَ وَفَقَّكُمْ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الرِّخَاءِ وَالشَّدَةِ وَالْجُزْمَانِ
وَالْمُؤَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ وَالسَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ فَنِعِمَّتِ السَّيْمَةُ هَذِهِ مَنْ وَسِمَ بِهَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ
الصَّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَإِذَا وَلَّى الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَوْ صِيرَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ أَمْرٌ
فَلْيُرَاقِبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيُوَثِّرْ طَاعَتَهُ وَلْيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقًا وَلِلْمَظْلُومِ مُنْصِفًا
« فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَرْفَقَهُمْ بِعِيَالِهِ » ثُمَّ لْيَكُنِ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا
وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرِمًا وَلِلْفُقَرَاءِ مُؤَفِّرًا وَلِلْبِلَادِ عَامِرًا وَلِلرَّعِيَةِ مَتَأَلِّفًا وَعَنْ أَذَاهُمْ مُتَخَلِّفًا
وَلْيَكُنْ فِي مَجْلِسِهِ مُتَوَاضِعًا حَلِيمًا وَفِي سِيحَلَاتِ خَرَاجِهِ وَاسْتِقْضَاءِ حُقُوقِهِ رَفِيقًا وَإِذَا
صَحِبَ أَحَدَكُمْ رَجُلًا فَلْيَخْتَبِرْ خَلَائِقَهُ فَإِذَا عَرَفَ حُسْنَهَا وَقُبْحَهَا أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ
مِنْ الْحُسْنِ وَاجْتَنَالَ عَلَى صَرْفِهِ عَمَّا يَنْهَوَاهُ مِنَ الْقُبْحِ بِالطَّفِ حِيلَةً وَأَجْمَلَ وَسِيلَةً وَقَدْ
عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ إِذَا كَانَ بِصِيرًا بِسِيَاسَتِهَا التَّمَسَّ مَعْرِفَةً أَخْلَاقَهَا فَإِنْ كَانَتْ
رَمُوحًا^(١) لَمْ يَهْجَهَا إِذَا رَكِبَهَا وَإِنْ كَانَتْ شُبُوبًا^(٢) اتَّقَاهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَإِنْ خَافَ

(١) كثيرة الرفس .

(٢) كثيرة رفع اليدين .

مِنْهَا شُرُوداً تَوَقَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا وَإِنْ كَانَتْ حَرُوناً قَمَعَ بِرَفْقٍ هَوَاهَا فِي طَرَقِهَا ^(١)
 فَإِنْ اسْتَمَرَّتْ عَطَفَهَا يَسِيرًا فَيَسْلُسُ لَهُ قِيَادَهَا وَفِي هَذَا الْوَصْفِ مِنَ السِّيَاسَةِ دَلَالٌ
 لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَامَلَهُمْ وَجَرَّبَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ وَالْكَاتِبُ يَفْضِلُ أَدَبَهُ وَشَرِيفَ صَنْعَتِهِ
 وَلَطِيفَ حِيلَتِهِ وَمَعَامَلَتِهِ لِمَنْ يَخَاوِرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُنَاطِرُهُ وَيَفْهَمُ عَنْهُ أَوْ يَخَافُ
 سَطْوَتَهُ أَوْ يَرْفُقُ لِصَاحِبِهِ وَمَدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمُ أَوْدِهِ مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي
 لَا تُجِيرُ جَوَابًا وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا وَلَا تَفْهَمُ خَطَابًا إِلَّا بِقَدَرِ مَا يُصِيرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا
 الرَّائِبُ عَلَيْهَا أَلَا فَارْقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فِي النَّظَرِ وَاعْمَلُوا مَا أَمَكْنَكُمْ فِيهِ مِنَ الرُّوْيَةِ
 وَالْفِكْرِ تَأْمِنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ صَحْبَتُمُوهُ النَّبُوَّةَ وَالْإِسْتِثْقَالَ وَالْجَفْوَةَ وَيَصِيرُ مِنْكُمْ إِلَى
 الْمَوَافَقَةِ وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمَوَاحَاةِ وَالشَّفَقَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَلَا يُجَاوِزُنَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ
 فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَبَنَائِهِ وَخَدْمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
 فُنُونِ أَمْرِهِ قَدَرَ حَقِّهِ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفٍ صَنْعَتِكُمْ خَدْمَةً
 لَا تُحْمَلُونَ فِي خَدْمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ وَحَفْظَةٍ لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ التَّضْيِيعِ
 وَالتَّبَذِيرِ وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَايَكُم بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ
 وَاحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرَفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ وَيُذْلَانِ الرِّقَابَ
 وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا وَسِيئَا الْكِتَابِ وَأَرْبَابِ الْأَدَابِ وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهُ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى
 بَعْضٍ فَاسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفٍ ^(٢) أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرِبَتِكُمْ ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ
 مَسَالِكِ التَّذْيِيرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةٌ وَأَصْدَقَهَا حُجَّةٌ وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةٌ وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّذْيِيرِ
 آفَةً مُتَلَفَةً وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ عَنْ إِنْقَادِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ
 فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافِي مِنْ مَنْطِقِهِ وَلْيُوجِزْ فِي ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ
 حُجَجِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِفِعْلِهِ وَمَدْفَعَةٌ لِلتَّشَاغُلِ عَنْ إِكْثَارِهِ وَلِيَضْرَعَ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ
 تَوْفِيْقِهِ وَإِمَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةً وَقُوعِهِ فِي الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِبَدَنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ فَإِنَّهُ إِنْ
 ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا أَوْ قَالَ قَائِلًا إِنَّ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ

(١) بمعنى الضرب .

(٢) الجديد الذي لم تسبق فيه تجربة .

بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَذْيِيرِهِ فَقَدْ تَعَرَّضَ بَطْنُهُ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ وَلَا يَقِلُّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ وَأَحْمَلَ لِعِبَاءِ التَّذْيِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ فَإِنَّ أَغْفَلَ الرُّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَبْيَابِ مَنْ رَمَى بِالْعَجَبِ وَرَأَى ظَهْرَهُ وَرَأَى أَنْ أَصْحَابَهُ أَغْفَلَ مِنْهُ وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ وَلَا يَكَاثُرُ^(١) عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُّعِ لِعَظَمَتِهِ وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ مَنْ تَلَزَّمَهُ النَّصِيحَةُ يَلْزَمُهُ الْعَمَلُ وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغَرَّةُ كَلَامِهِ بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَمْتُهُ بِهِ تَوَلَّانا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِزْشَادِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(الشرطة) : وَيُسَمَّى صَاحِبَهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَفْرِيقِيَّةِ الْحَاكِمِ وَفِي دَوْلَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ صَاحِبَ الْمَدِينَةِ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ الْوَالِي . وَهِيَ وَظِيفَةٌ مَرْفُوسَةٌ لِصَاحِبِ السَّيْفِ فِي الدَّوْلَةِ وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ وَكَانَ أَصْلُ وَضْعِهَا فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يَقِيمُ أَحْكَامَ الْجَرَائِمِ فِي حَالِ اسْتِبْدَادِهَا أَوَّلًا ثُمَّ الْحُدُودَ بَعْدَ اسْتِيفَائِهَا فَإِنَّ التُّهَمَ الَّتِي تَعَرَّضُ فِي الْجَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا وَلِلسِّيَاسَةِ النَّظَرُ فِي اسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِإِقْرَارِ يُكْرَهُهُ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا اخْتَفَتْ بِهِ الْقَرَائِنُ لِمَا تَوَجَّبَهُ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي ذَلِكَ فَكَانَ الَّذِي يَقُومُ بِهِذَا الْإِسْتِبْدَادَ وَبِاسْتِيفَاءِ الْحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّهَ عَنْهُ الْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ الشَّرْطَةِ وَرَبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي الْحُدُودِ وَالْدَّمَاءِ بِإِطْلَاقٍ . وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي وَنَزَّهُوا هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ وَقَلَّدُوهَا كِبَارَ الْقَوَادِ وَعَظَمَاءَ الْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ وَلَمْ تَكُنْ غَاةَ التَّنْفِيزِ فِي

(١) يتعاطم أو يفاخر .

طَبَقَاتِ النَّاسِ إِنَّمَا كَانَ حُكْمُهُمْ عَلَى الدُّهْمَاءِ وَأَهْلِ الرِّئَبِ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الرُّعَاعِ وَالْفَجَرَةِ . ثُمَّ عَظُمَتْ نَبَاهَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَنُوعَتْ إِلَى شَرْطِيَّةِ كُبْرَى وَشَرْطِيَّةِ صُغْرَى وَجُعِلَ حُكْمُ الْكُبْرَى عَلَى الْخَاصَّةِ وَالْدُّهْمَاءِ وَجُعِلَ لَهُ الْحُكْمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الظَّلَامَاتِ وَعَلَى أَيْدِي أَقَارِبِهِمْ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِ وَجُعِلَ صَاحِبُ الصُّغْرَى مَخْصُوصاً بِالْعَامَّةِ وَنُصِبَ لِصَاحِبِ الْكُبْرَى كُرْسِيٌّ بِيَابِ دَارِ السُّلْطَانِ وَرِجَالٌ يَتَبَوَّوْنَ الْمَقَاعِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَنْزَحُونَ عَنْهَا إِلَّا فِي تَضَرُّفِهِ وَكَانَتْ وَلَا يَتَّهَى لِلْكَأِبرِ مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ حَتَّى كَانَتْ تَرْشِيحاً لِلْوِزَارَةِ وَالْحِجَابَةِ .

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ بِالْمَغْرِبِ فَكَانَ لَهَا حَظٌّ مِنَ التَّنْوِيهِ وَإِنْ لَمْ يَجْعَلُوهَا عَامَّةً وَكَانَ لَا يَلِيهَا إِلَّا رِجَالُ الدَّوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ وَكَبَرَاؤُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ التَّحَكُّمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ ثُمَّ فَسَدَ الْيَوْمَ مَنْصِبُهَا وَخَرَجَتْ عَنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ وَصَارَتْ وَلَا يَتَّهَى لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ الْمُضْطَنِّينَ . وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مُرَيْنَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ فَوَلَّيْتُهَا فِي بُيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ اضْطِنَاعِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فِي رِجَالِ التُّرْكِ أَوْ أَغْقَابِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ التُّرْكِ يَتَخَيَّرُونَ لَهَا فِي النَّظَرِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْمَصَافَةِ فِي الْأَحْكَامِ لِقَطْعِ مَوَادِّ الْفَسَادِ وَحَسْمِ أَبْوَابِ الدُّعَارَةِ وَتَخْرِيبِ مَوَاطِنِ الْفُسُوقِ وَتَفْرِيقِ مَجَامِعِهِ مَعَ إِقَامَةِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ رِعَايَةُ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي الْمَدِينَةِ وَاللَّهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(قِيَادَةُ الْأَسَاطِيلِ) : وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ وَخَطِطِهَا فِي مَلِكِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ وَمَرْؤَسَةِ لِصَاحِبِ السِّيفِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا فِي عَرَفِهِمُ الْبَلْمَنْدُ يَتَفَخِّيمُ اللَّامَ مَنَقُولاً مِنْ لُغَةِ الْإِفْرَنْجَةِ فَإِنَّهُ اسْمُهَا فِي اضْطِلَاحِ لُغَتِهِمْ وَإِنَّمَا اخْتَصَّتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ بِمَلِكِ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّهَا جَمِيعاً عَلَى ضِيقِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ وَعَلَى عُدُوتِهِ الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادِ الْبَرْبَرِ كُلِّهِمْ

مِنْ سَبْتَةِ إِلَى الشَّامِ وَعَلَى عُدُوتِهِ الشَّمَالِيَّةِ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ وَالْإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالرُّومِ إِلَى
 بِلَادِ الشَّامِ أَيْضاً وَيُسَمَّى الْبَحْرُ الرُّومِيُّ وَالْبَحْرُ الشَّامِيُّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عُدُوتِهِ
 وَالسَّاكِنُونَ بِسَيْفِ هَذَا الْبَحْرِ وَسَوَاحِلِهِ مِنْ عُدُوتَيْهِ يُعَانُونَ مِنْ أَحْوَالِهِ مَالاً تُغَانِيهِ
 أُمَّةٌ مِنَ أُمَّةِ الْبَحَارِ فَقَدْ كَانَتْ الرُّومُ وَالْإِفْرَنْجَةُ وَالْقُوطُ بِالْعُدْوَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا
 الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَكَانَتْ أَكْثَرُ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِي السُّفُنِ فَكَانُوا مَهْرَةً فِي رُكُوبِهِ
 وَالْحَرْبِ فِي أَسَاطِيلِهِ وَلَمَّا أَسَفُ ^(١) مِنْ أَسَفٍ مِنْهُمْ إِلَى مُلْكِ الْعُدْوَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِثْلَ
 الرُّومِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةٍ وَالْقُوطِ إِلَى الْمَغْرِبِ أَجَازُوا ^(٢) فِي الْأَسَاطِيلِ وَمَلَكَوْهَا وَتَغَلَّبُوا عَلَى
 الْبَرْبَرِ بِهَا وَانْتَزَعُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا وَكَانَ لَهَا بِهَا الْمُدُنُ الْخَافِلَةُ مِثْلَ قَرْطَاجَنَةَ
 وَسَبِيطَلَةَ وَجَلُولَاءَ وَمَرْنَاقَ وَشِرْشَالَ وَطَنْجَةَ وَكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجَنَةَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ وَيَنْبَغِثُ الْأَسَاطِيلَ لِحَرْبِهِ مَشْحُونَةً بِالْعَسَاكِرِ وَالْعَدِيدِ فَكَانَتْ
 هَذِهِ عَادَةً لِأَهْلِ هَذَا الْبَحْرِ السَّاكِنِينَ خَفَافِيهِ مَعْرُوفَةٌ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ وَلَمَّا مَلَكَ
 الْمُسْلِمُونَ مِصْرَ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى عُمَرُو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا « أَنْ
 صِفْ لِي الْبَحْرَ » فَكَتَبَ إِلَيْهِ « إِنَّ الْبَحْرَ خَلَقَ عَظِيمٌ يَرْكَبُهُ خَلْقٌ ضَعِيفٌ دَوْدٌ عَلَى
 عُودٍ » فَأَوْعَزَ حِينَئِذٍ بِمَنْعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رُكُوبِهِ وَلَمْ يَرْكَبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا مَنْ
 افْتَنَاتَ عَلَى عُمَرَ فِي رُكُوبِهِ وَنَالَ مِنْ عِقَابِهِ كَمَا فَعَلَ بِعَرْفَجَةَ بْنِ هُرَيْثَةَ الْأَزْدِيِّ سَيِّدِ
 بَجِيلَةٍ لَمَّا أَغْزَاهُ عُمَانُ فَبَلَّغَهُ غَزْوُهُ فِي الْبَحْرِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَنْفَهُ أَنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ لِلْغَزْوِ
 وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ أَدْنَى لِلْمُسْلِمِينَ فِي رُكُوبِهِ وَالْجِهَادِ
 عَلَى أَعْوَادِهِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لِبِدَاوَتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مَهْرَةً فِي ثِقَافَتِهِ وَرُكُوبِهِ
 وَالرُّومُ وَالْإِفْرَنْجَةُ لِمُمَارَسَتِهِمْ أَحْوَالَهُ وَمَرْبَاهُمْ فِي التَّقَلُّبِ عَلَى أَعْوَادِهِ مَرَبُّوا عَلَيْهِ
 وَأَحْكَمُوا الدَّرَازِيَةَ بِثِقَافَتِهِ فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ لِلْعَرَبِ وَشَمَخَ سُلْطَانُهُمْ وَصَارَتْ أُمَّةُ
 الْعَجَمِ خَوْلًا لَهُمْ وَتَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِي صَنْعَةٍ إِلَيْهِمْ بِمَبْلَغِ صِنَاعَتِهِ
 وَاسْتَخْدَمُوا مِنَ النَّوَاتِيَةِ فِي حَاجَاتِهِمُ الْبَحْرِيَّةِ أَمْماً وَتَكَثَّرَتْ مُمَارَسَتُهُمُ لِلْبَحْرِ

(١) دنا .

(٢) قطعوا .

وَتَقَاتِبَتْهُ وَاسْتَحْدَثُوا بُصْرَاءَ بِهَا فَشَرُّهُوا إِلَى الْجِهَادِ فِيهِ وَأَنْشَأُوا السُّفْنَ فِيهِ وَالشُّوَانِي
وَشَحَنُوا الْأَسَاطِيلَ بِالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ وَأَمَطَوْهَا الْعَسَاكِرَ وَالْمَقَاتِلَةَ لِمَنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ
مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرِ وَاخْتَصُّوا بِذَلِكَ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَتَغَوَّرَهُمْ مَا كَانَ أَقْرَبَ لِهَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى
خَافَتِهِ مِثْلَ الشَّامِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَأَوْعَزَ الْخَلِيفَةُ عَبْدَ الْمَلِكِ إِلَى
حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ عَامِلِ أَفْرِيقِيَّةَ بِاتِّخَاذِ دَارِ صِنَاعَةِ بَتُونَسَ لِإِنْشَاءِ الْآلَاتِ
الْبَحْرِيَّةِ حِرْصاً عَلَى مَرَاسِمِ الْجِهَادِ وَمِنْهَا كَانَ فَتْحُ صِقِلِيَّةَ أَيَّامَ زِيَادَةَ اللَّهِ الْأَوَّلِ ابْنِ
إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَغْلَبِ عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ شَيْخِ الْفَتْحِ وَفَتْحُ قَوْصَرَةَ أَيْضاً فِي
أَيَّامِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُعَاوِيَّةُ بْنُ حَدِيحٍ أَغْرَى صِقِلِيَّةَ أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ
فَلَمْ يَفْتَحِ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ وَفُتِحَتْ عَلَى يَدِ ابْنِ الْأَغْلَبِ وَقَائِدِهِ أَسَدُ بْنُ الْفُرَاتِ
وَكَانَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَسَاطِيلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسِ فِي دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ
تَتَعاقَبُ إِلَى بِلَادِهِمَا فِي سَبِيلِ الْفِتْنَةِ فَتَجُوسُ خِلَالَ السُّوَاخِلِ بِالْإِفْسَادِ وَالتَّخْرِيبِ .
وَانْتَهَى أَسْطُولُ الْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ إِلَى مَائَتَيْ مَرْكَبٍ أَوْ نَحْوِهَا
وَأَسْطُولُ أَفْرِيقِيَّةَ كَذَلِكَ مِثْلُهُ أَوْ قَرِيباً مِنْهُ وَكَانَ قَائِدُ الْأَسَاطِيلِ بِالْأَنْدَلُسِ ابْنُ
دُمَاحَسَ وَمَرْفَأُهَا لِلْحَطِّ وَالْإِقْلَاعِ بِجَايَةِ وَالْمِرْيَةِ وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهَا مُجْتَمِعَةً مِنْ
سَائِرِ الْمَمَالِكِ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ تَتَّخِذُ فِيهِ السُّفْنُ أَسْطُولَ يَرْجِعُ نَظَرُهُ إِلَى قَائِدٍ مِنْ
النُّوَابِيَّةِ يُدَبِّرُ أَمْرَ حَرْبِهِ وَسِلَاحِهِ وَمَقَاتِلَتِهِ وَرَيْسَ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَزِيرَتِهِ بِالرَّيْحِ أَوْ
بِالْمَجَادِيفِ وَأَمْرَ إِرْسَائِهِ فِي مَرْفَأِهِ فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَسَاطِيلُ لِعَزْمِ مُخْتَفِلٍ أَوْ غَرَضٍ
سُلْطَانِيٍّ مِنْهُمْ عَشَكْرَتْ بِمَرْفَأِهَا الْمَعْلُومِ وَشَحَنَهَا السُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادِ عَسَاكِرِهِ
وَمَوَالِيهِ وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ
ثُمَّ يُسَرِّحُهُمْ لَوُجْهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ إِيَابَهُمْ بِالْفَتْحِ وَالْغَنِيمَةِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِعَهْدَةِ الدَّوْلَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ وَعَظُمَتْ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ
فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلْأُمَمِ النُّصْرَانِيَّةِ قَبْلَ بِأَسَاطِيلِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ جَوَانِبِهِ وَامْتَطَوْا ظَهْرَهُ
لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ فَكَانَتْ لَهُمُ الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالْغَنَائِمِ وَمَلَكُوا سَائِرَ

الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة وياسة وسردانية وصقلية
وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرس وسائر ممالك الروم والإفرنج وكان أبو القاسم
الشيعة وأبناءؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتقلب بالظفر
والغنيمة وافتتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية
في أساطيله سنة خمس وأربعين وأربعين وأربعين وأربعين وأربعين وأربعين
كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وصارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة
والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها
من العدو الشمالية فتوقع بملوك الأفرنج وتخن في ممالكهم كما وقع في أيام بني
الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين وانحازت أمم النصرانية
بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنج والصقالبة
وجزائر الرومانية لا يغدونها وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد
على فريسيته وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عذة وعددا واختلفت في طرقه
سلما وحربا فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية
الفسل والوهن وطرقها الإغتيال مد النصراني أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل
صقلية وأقريطش ومالطة فملكوها ثم ألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة
وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام
وغلّبوا على نينب المقدس وبنوا عليه كنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم وغلّبوا بني
خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا
المهدية مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين بن زيري وكانت لهم في
المائة الخامسة الكثرة بهذا البحر وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن
انقطع ولم يغتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية
عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك
وبقيت بأفريقية والمغرب فصارت مختصة بها وكان الجانب الغربي من هذا

الْبَحْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ مَوْفُورَ الْأَسَاطِيلِ ثَابِتَ الْقُوَّةَ لَمْ يَتَخَيَّفْهُ عَدُوٌّ وَلَا كَانَتْ لَهُمْ بِهِ
 كَرَّةٌ فَكَانَ قَائِدَ الْأَسْطُولِ بِهِ لِعَهْدِ لِمَتُونَةَ بَنِي مَيْمُونِ رُؤْسَاءَ جَزِيرَةِ قَادِسَ وَمِنْ
 أَيْدِيهِمْ أَخَذَهَا عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِتَسْلِيمِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَانْتَهَى عَدَدُ أَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْمِائَةِ مِنْ
 بِلَادِ الْعُدُوتَيْنِ جَمِيعاً . وَلَمَّا اسْتَفْحَلَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ فِي الْمِائَةِ السَّادِسَةِ وَمَلَكَوْا
 الْعُدُوتَيْنِ أَقَامُوا خِطَّةَ هَذَا الْأَسْطُولِ عَلَى أُنْتُمْ مَا عُرِفَ وَأَعْظَمَ مَا عَهْدَ وَكَانَ قَائِدُ
 أَسْطُولِهِمْ أَحْمَدُ الصَّقِيلِيُّ أَصْلُهُ مِنْ صَدِّ غِيَارِ الْمُوْطِنِينَ بِجَزِيرَةِ جَزْبة مِنْ سَرْوِيكِشِ
 أَسْرَةَ النَّصَارَى مِنْ سَوَاحِلِهَا وَرَبِّي عَنْدَهُمْ وَاسْتَخْلَصَهُ صَاحِبُ صِقْلِيَّةَ وَاسْتَكْفَاهُ ثُمَّ
 هَلَكَ ، وَوَلَّى ابْنُهُ فَأَسْخَطَهُ بِبَعْضِ النَّزَعَاتِ وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَلِحَقِّ بَنُونِ وَنَزَلَ
 عَلَى السَّيِّدِ بِهَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَأَجَازَ مَرَاحِشَ فَتَلَقَّاهُ الْخَلِيفَةُ يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ
 الْمُؤْمِنِ بِالْمَبْرَةِ وَالْكَرَامَةِ وَأَجَزَلَ الصَّلَةَ وَقَلَّدَهُ أَمْرَ أَسَاطِيلِهِ فَجَلَّى فِي جِهَادِ أُمَمِ
 النَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَتْ لَهُ آثَارٌ وَأَخْبَارٌ وَمَقَامَاتٌ مَذْكُورَةٌ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ . وَانْتَهَتْ
 أَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي الْكَثْرَةِ وَالِاسْتِجَادَةِ إِلَى مَا لَمْ تَبْلُغْهُ مِنْ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ
 فِيمَا عَهْدَنَاهُ وَلَمَّا قَامَ صَلَاحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ مَلِكُ مِصْرَ وَالشَّامِ لِعَهْدِهِ
 بِاسْتِزْجَاعِ ثُغُورِ الشَّامِ مِنْ يَدِ أُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ وَتَطْهِيرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تَتَابَعَتْ
 أَسَاطِيلُهُمْ بِالْمَدَدِ لِبَيْتِ الشُّغُورِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَّةٍ قَرِيبَةٍ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ الَّذِي كَانُوا قَدْ
 اسْتَوْلُوا عَلَيْهِ فَأَمَدَوْهُمْ بِالْعَدَدِ وَالْأَقْوَاتِ وَلَمْ تُقَاوِمَهُمْ أَسَاطِيلُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ لِاسْتِغْزَارِ
 الْغَلْبِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْبَحْرِيَّةِ وَتَعَدَّدَ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِ وَضَعِفَ
 الْمُسْلِمِينَ مِنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ عَنْ مُمَانَعَتِهِمْ هُنَاكَ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ قَبْلُ فَأَوْفَدَ صَلَاحُ
 الدِّينِ عَلَى أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ سُلْطَانَ الْمَغْرِبِ لِعَهْدِهِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ رَسُولَهُ عَبْدَ
 الْكَرِيمِ بْنَ مُنْقِذٍ مِنْ بَيْتِ بَنِي مُنْقِذٍ مُلُوكِ شِيزَرِ ، وَكَانَ مَلِكُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَابْقَى
 عَلَيْهِمْ فِي دَوْلَتِهِ فَبَعَثَ عَبْدَ الْكَرِيمِ مِنْهُمْ هَذَا إِلَى مَلِكِ الْمَغْرِبِ طَالِباً مَدَدَ الْأَسَاطِيلِ
 لِتَحُولِ فِي الْبَحْرِ بَيْنَ أَسَاطِيلِ الْأَجَانِبِ وَبَيْنَ مَرَامِهِمْ مِنْ أَمْدَادِ النَّصْرَانِيَّةِ بِشُغُورِ
 الشَّامِ وَأَضْحَبَهُ كِتَابُهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ إِنْشَاءِ الْفَاضِلِ الْيَسَانِيِّ يَقُولُ فِي افْتِتَاحِهِ

« فَتَحَ اللَّهُ لِسَيِّدِنَا أَبْوَابَ الْمَنَاحِجِ وَالْمَيَامِينَ » حَسْبَمَا نَقَلَهُ الْعِمَادُ الْأَضْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ الْفَتْحِ الْقَيْسِيِّ فَتَقِمَ عَلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ تَجَافِيَهُمْ عَنْ خِطَابِهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَنَاجِجِ الْبِرِّ وَالْكَرَامَةِ وَرَدَّهُمْ إِلَى مُرْسِلِهِمْ وَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ بِالْأَسَاطِيلِ وَمَا حَصَلَ لِلنُّصْرَانِيَّةِ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْإِسْطِطَالَةِ وَعَدَمِ عِنَايَةِ الدُّوَلِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَمَا بَعْدَهُ لِشَأْنِ الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ وَالِاسْتِعْذَادِ مِنْهَا لِلدُّوَلَةِ وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ وَاعْتَلَّتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ وَاسْتَوْلَتْ أُمَمُ الْجَلَالَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْجَاوِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ وَمَلَكُوا الْجَزَائِرَ الَّتِي بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ قَوِيَتْ رِيحُهُمْ فِي بَسِيطِ هَذَا الْبَحْرِ وَاشْتَدَّتْ شَوْكَتُهُمْ وَكَثُرَتْ فِيهِ أَسَاطِيلُهُمْ وَتَرَاجَعَتْ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ إِلَى الْمَسَاوَةِ مَعَهُمْ كَمَا وَقَعَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ مَلِكِ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ فَإِنَّ أَسَاطِيلَهُ كَانَتْ عِنْدَ مَرَامِهِ الْجِهَادِ مِثْلَ عُدَّةِ النُّصْرَانِيَّةِ وَعَدِيدُهُمْ ثُمَّ تَرَاجَعَتْ عَنْ ذَلِكَ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَسَاطِيلِ لِضَعْفِ الدُّوَلَةِ وَنِسْيَانِ عَوَائِدِ الْبَحْرِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْبَدَوِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَانْقِطَاعِ الْعَوَائِدِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَرَجَعَ النُّضَارَى فِيهِ إِلَى دِينِهِمُ الْمَعْرُوفِ مِنَ الدُّرِّيَّةِ فِيهِ وَالْمِرَانِ عَلَيْهِ وَالبَصْرِ بِأَحْوَالِهِ وَغَلِبَ الْأَمَمُ فِي لُجْبِهِ عَلَى أَغْوَادِهِ وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ كَالْأَجَانِبِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ لَهُمُ الْمِرَانُ عَلَيْهِ لَوْ وَجَدُوا كَثْرَةً مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْأَغْوَانِ أَوْ قَلَّةً مِنَ الدُّوَلَةِ تَسْتَجِيشُ لَهُمْ أَغْوَانًا وَتَوْضُحُ لَهُمْ فِي هَذَا الْغَرَضِ مَسْلَكًا وَبَقِيَّتِ الرُّتْبَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الدُّوَلَةِ الْغَرْبِيَّةِ مَحْفُوظَةٌ وَالرَّسْمُ فِي مُعَانَاةِ الْأَسَاطِيلِ بِالْإِنْشَاءِ وَالرُّكُوبِ مَعْفُودًا لِمَا عَسَاءَ أَنْ تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ الْأَغْرَاضِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْمُسْلِمُونَ يَسْتَهْبُونَ الرِّيحَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ فَمِنْ الْمُشْتَهَرِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ عَنْ كُتُبِ الْحَدَّثَانِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكُرَّةِ عَلَى النُّصْرَانِيَّةِ وَافْتِتَاحِ مَا وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ بِلَادِ الْإِفْرَنْجَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْأَسَاطِيلِ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

إِغْلَمْ أَنَّ السِّيفَ وَالْقَلَمَ كِلَاهُمَا آلَةٌ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّ الْحَاجَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ إِلَى السِّيفِ مَا دَامَ أَهْلُهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ أَشَدَّ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْقَلَمِ لِأَنَّ الْقَلَمَ فِي تِلْكَ الْحَالِ خَادِمٌ فَقَطْ مُنْفَذٌ لِلْحُكْمِ السُّلْطَانِيِّ وَالسِّيفُ شَرِيكَ فِي الْمَعُونَةِ وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ حَيْثُ تَضَعُفُ عَصِيَّتُهُمَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيَقِلُّ أَهْلُهَا بِمَا يَنَالُهُمْ مِنَ النَّهَمِ الَّذِي قَدُمْنَاهُ فَتَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ بِأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَيَتَقَوَّى الْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ فِي حِمَايَةِ الدَّوْلَةِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهَا كَمَا كَانَ الشَّأْنُ أَوَّلَ الْأَمْرِ فِي تَمْهِيدِهَا فَيَكُونُ لِلسِّيفِ مَرْيَّةٌ عَلَى الْقَلَمِ فِي الْحَالَتَيْنِ وَيَكُونُ أَرْبَابُ السِّيفِ حِينَئِذٍ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَكْثَرَ نِعْمَةً وَأَسْنَى إِقْطَاعًا وَأَمَّا فِي وَسْطِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَعِينُ صَاحِبُهَا بِغَضِّ الشَّيْءِ عَنِ السِّيفِ لِأَنَّهُ قَدْ تَمَهَّدَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَبْقَ هُمٌّ إِلَّا فِي تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْجَبَايَةِ وَالضُّبُطِ وَمُبَاهَاةِ الدُّوَلِ وَتَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ وَالْقَلَمُ هُوَ الْمُعِينُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَتَعْظُمُ الْحَاجَةُ إِلَى تَضْرِيغِهِ وَتَكُونُ السُّيُوفُ مُهْمَلَةً فِي مَضَاجِعِ أَعْمَادِهَا إِلَّا إِذَا أَنَابَتْ نَائِبَةٌ أَوْ دُعِيَتْ إِلَى سَدِّ فُرْجَةٍ ^(١) وَمِمَّا سِوَى ذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهَا فَتَكُونُ أَرْبَابُ الْأَقْلَامِ فِي هَذِهِ الْحَاجَةِ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَعْلَى رُتْبَةً وَأَعْظَمَ نِعْمَةً وَثَرْوَةً وَأَقْرَبَ مِنَ السُّلْطَانِ مَجْلِسًا وَأَكْثَرَ إِلَيْهِ تَرَدُّدًا وَفِي خُلُوتِهِ نَجِيًّا لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ آتَاهُ الَّتِي بِهَا يَسْتَظْهَرُ عَلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ مُلْكِهِ وَالنَّظَرِ إِلَى أَعْطَافِهِ وَتَثْقِيفِ أَطْرَافِهِ وَالْمُبَاهَاةِ بِأَحْوَالِهِ وَيَكُونُ الْوُزَرَاءُ حِينَئِذٍ وَأَهْلُ السُّيُوفِ مُسْتَعْنَى عَنْهُمْ مُبْعَدِينَ عَنْ بَاطِنِ السُّلْطَانِ خَذِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَوَادِرِهِ . وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو مُسْلِمٍ لِلْمَنْصُورِ حِينَ أَمَرَهُ بِالْقُدُومِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مِمَّا حَفِظْنَاهُ مِنْ وَصَايَا الْفَرَسِ أَخَوْفُ مَا يَكُونُ الْوُزَرَاءُ إِذَا سَكَنَتِ الدُّهُمَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) الفُرْجَةُ ، ج فَرْج ، كل منفرج بين شيئين وهنا بمعنى خلل .

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إِغْلَمْ أَنَّ لِلْسُلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَحْوَالًا تَقْتَضِيهَا الْأَبْهَةُ وَالْبَذْخُ فَيَخْتَصُّ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ بِإِنْتِحَالِهَا عَنِ الرُّعْيَةِ وَالْبَطَانَةِ وَسَائِرِ الرُّؤَسَاءِ فِي دَوْلَتِهِ فَلَنَذْكُرَ مَا هُوَ مُشْتَهَرٌ مِنْهَا بِمَبْلَغِ الْمَعْرِفَةِ « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ » .

الآلة : فَمِنْ شَارَاتِ الْمَلِكِ اتِّخَاذُ الْآلَةِ مِنْ نَشْرِ الْأَلْوِيَةِ وَالرَّايَاتِ وَقَرَعِ الطُّبُولِ وَالنَّفْخِ فِي الْأَنْبَاقِ وَالْقُرُونِ وَقَدْ ذَكَرَ أَرْسَطُو فِي الْكِتَابِ الْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ فِي السِّيَاسَةِ أَنَّ السَّرَّ فِي ذَلِكَ إِزْهَابُ الْعَدُوِّ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ الْهَائِلَةَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي النُّفُوسِ بِالرُّوعَةِ وَلَعَمْرِي إِنَّهُ أَمَرَ وَجْدَانِي فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَهَذَا السَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرْسَطُو إِنْ كَانَ ذَكَرَهُ فَهُوَ صَحِيحٌ يَبْغِضُ الْإِعْتِبَارَاتِ . وَأَمَّا الْحَقُّ فِي ذَلِكَ فَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ عِنْدَ سَمَاعِ النِّغَمِ وَالْأَصْوَاتِ يُذَكِّرُهَا الْفَرْخَ وَالطَّرَبَ بِلَا شَكٍّ فَيُصِيبُ مِزَاجَ الرُّوحِ نَشْوَةً يَسْتَشْهِلُ بِهَا الضَّعْبُ وَيَسْتَمِيتُ فِي ذَلِكَ الْوَجْهَ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ حَتَّى فِي الْحَيَوَانَاتِ الْعَجَمِ بِأَنْفِعَالِ الْإِبِلِ بِالْحِذَاءِ وَالْخَيْلِ بِالضَّفِيرِ وَالصَّرِيحِ كَمَا عَلِمْتَ وَيَزِيدُ ذَلِكَ تَأْثِيرًا إِذَا كَانَتِ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً كَمَا فِي الْغِنَاءِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَخْدُثُ لِسَامِعِهِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى لِأَجْلِ ذَلِكَ تَتَّخِذُ الْعَجَمُ فِي مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمُ الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةَ^(١) لَا طَبْلًا وَلَا بُوقًا فَيَحْدِقُ الْمُغَنُّونَ بِالسُّلْطَانِ فِي مَوَاقِبِهِمُ بِالْآلَتِهِمْ وَيَغْنُونُ فَيُحَرِّكُونَ نَفُوسَ الشُّجْعَانِ بِضَرْبِهِمْ إِلَى الْإِسْتِمَاتَةِ وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي حُرُوبِ الْعَرَبِ مَنْ يَتَغَنَّى أَمَامَ الْمُوَكِّبِ بِالشَّعْرِ وَيُطْرَبُ فَتُحْيِشُ هَمَّهُ الْأَبْطَالُ بِمَا فِيهَا وَيَسَارِعُونَ إِلَى مَجَالِ الْحَرْبِ وَيَنْبَغِثُ كُلُّ قَرْنٍ إِلَى قَرْنِهِ وَكَذَلِكَ زِنَانَةٌ مِنْ أُمَمِ الْمَغْرِبِ يَتَقَدَّمُ الشَّاعِرُ عِنْدَهُمْ أَمَامَ الصُّفُوفِ وَيَتَغَنَّى فَيُحَرِّكُ بِغِنَائِهِ الْجِبَالَ الرُّوَاسِي وَيَبْغِثُ عَلَى

(١) قَوْلُهُ مَوْسِيقِيَّةٌ فِي نَسْخَةِ الْمَوْسِيقَارِيَّةِ وَهِيَ صَحِيحَةٌ لِأَنَّ الْمَوْسِيقَى بِكَسْرِ الْقَافِ بَيْنَ التَّحْتِيَّتَيْنِ اسْمٌ لِلنِّغَمِ وَالْأَلْحَانِ وَتَوَقُّعِهَا وَيُقَالُ فِيهَا مَوْسِيقِيٌّ وَيُقَالُ لِضَارِبِ الْآلَةِ مَوْسِيقَارٌ أَنْظَرَ أَوَّلَ سَفِينَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ شَهَابٍ .

الِاسْتِمَاتَةِ مَنْ لَا يَظُنُّ بِهَا وَيُسْمُونَ ذَلِكَ الْغِنَاءَ تَأْصُو كَايْتُ وَأَصْلُهُ كُلُّهُ فَرَحٌ
يَحْدُثُ فِي النَّفْسِ فَتَتَّبِعُ عَنْهُ الشَّجَاعَةُ كَمَا تَتَّبِعُ عَنْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ بِمَا حَدَثَ
عَنْهَا مِنَ الْفَرَحِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَمَّا تَكْثِيرُ الرَّاياتِ وَتَلْوِينُهَا وَإِطْلَاقُهَا فَالْقَصْدُ بِهِ
التَّهْوِيلُ لَا أَكْثَرُ وَرُبَّمَا تَحْدُثُ فِي النَّفُوسِ مِنَ التَّهْوِيلِ زِيَادَةٌ فِي الْإِقْدَامِ وَأَحْوَالِ
النَّفُوسِ وَتَلْوِينَاتِهَا غَرِيبَةٌ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . ثُمَّ إِنَّ الْمُلُوكَ وَالْدُّوْلَ يَخْتَلِفُونَ فِي
اتِّخَاذِ هَذِهِ الشَّارَاتِ فَمِنْهُمْ مَكْثَرٌ وَمِنْهُمْ مَقَلٌّ بِحَسَبِ اتِّسَاعِ الدُّوْلَةِ وَعَظَمِهَا فَأَمَّا
الرَّاياتُ فَإِنَّهَا شِعَارُ الْحُرُوبِ مِنْ عَهْدِ الْخَلِيفَةِ وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَمُ تَعْقِدُهَا فِي مَوَاطِنِ
الْحُرُوبِ وَالْفُرُوقِ لِعَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ . وَأَمَّا قِرْعُ الطُّبُولِ
وَالنَّفْخُ فِي الْأَنْوَاقِ فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ الْمِلَّةِ مُتَحَافِينَ عَنْهُ تَنْزَعًا عَنْ غِلْظَةِ الْمَلِكِ
وَرَفْضًا لِأَحْوَالِهِ وَاحْتِقَارًا لِأَبْهَتِهِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنَ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ حَتَّى إِذَا انْقَلَبَتْ
الْخِلَافَةُ مُلْكًا وَتَبَجَّحُوا بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا وَلَا يَسَهُمُ الْمَوَالِي مِنَ الْفَرَسِ وَالرُّومِ
أَهْلُ الدُّوْلِ السَّالِفَةِ وَأَرَوْهُمْ مَا كَانَ أَوْلَكِ يَنْتَحِلُونَهُ مِنْ مَذَاهِبِ الْبَذْخِ وَالتَّرَفِ
فَكَانَ مِمَّا اسْتَحْسَنُوهُ اتِّخَاذُ الْآلَةِ فَأَحْذَوْهَا وَأَذْنَوْا لِعَمَالِهِمْ فِي اتِّخَاذِهَا تَنْوِيهَا بِالْمَلِكِ
وَأَهْلِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَ الْعَامِلُ صَاحِبُ الثَّغْرِ أَوْ قَائِدُ الْجَيْشِ يَقْعِدُ لَهُ الْخَلِيفَةُ مِنْ
الْعَبَّاسِيِّينَ أَوْ الْعَبِيدِيِّينَ لَوَاءَهُ وَيَخْرُجُ إِلَى بَغْيِهِ أَوْ عَمَلِهِ مِنْ دَارِ الْخَلِيفَةِ أَوْ دَارِهِ فِي
مَوْكِبٍ مِنْ أَصْحَابِ الرَّاياتِ وَالْآلَاتِ فَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ مَوْكِبِ الْعَامِلِ وَالْخَلِيفَةِ إِلَّا
بِكَثْرَةِ الْأَلْوِيَةِ وَقِلَّتِهَا أَوْ بِمَا اخْتَصَّ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْأَلْوَانِ لِرَايَتِهِ كَالسَّوَادِ فِي
رَاياتِ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّ رَايَاتِهِمْ كَانَتْ سُودًا حُزْنًا عَلَى شُهَدَائِهِمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ
وَنَعِيًا عَلَى بَنِي أُمَيَّةٍ فِي قُلُوبِهِمْ وَلِذَلِكَ سَمُّوا الْمُسَوَّدَةَ . وَلَمَّا افْتَرَقَ أَمْرُ الْهَاشِمِيِّينَ
وَخَرَجَ الطَّالِبِيُّونَ عَلَى الْعَبَّاسِيِّينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَعَصَرُ دَهَبُوا إِلَى مُخَالَفَتِهِمْ فِي ذَلِكَ
فَاتَّخَذُوا الرَّاياتَ بَيْضًا وَسَمُّوا الْمُبَيَّضَةَ لِذَلِكَ سَائِرَ أَيَّامِ الْعَبِيدِيِّينَ وَمَنْ خَرَجَ مِنَ
الطَّالِبِيِّينَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ كَالدَّاعِي بِطَبْرِسْتَانَ وَدَاعِي صَعْدَةَ أَوْ مَنْ دَعَا
إِلَى بَذْعَةِ الرَّافِضَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْقَرَامِطَةِ . وَلَمَّا نَزَعَ الْمَأْمُونُ عَنْ لُبْسِ السَّوَادِ

وَشِعَارِهِ فِي دَوْلَتِهِ عَدَلَ إِلَى لَوْنِ الْخَضِرَةِ فَجَعَلَ رَايَتَهُ خَضِرَاءَ . وَأَمَّا الْإِسْتِكْثَارُ مِنْهَا فَلَا يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ وَقَدْ كَانَتْ آلَةُ الْعُبَيْدِيِّينَ لَمَّا خَرَجَ الْغَزِيزُ إِلَى فَتْحِ الشَّامِ خَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْبُنُودِ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْأَبْوَاقِ . وَأَمَّا مُلُوكُ الْبِزْرِ بِالْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةٍ وَغَيْرِهَا فَلَمْ يُخْتَصُوا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ بَلْ وَشَوْهَا بِالذَّهَبِ وَاتَّخَذُوهَا مِنَ الْحَرِيرِ الْخَالِصِ مُلُونَةً وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الْإِذْنِ فِيهَا لِعَمَالِهِمْ حَتَّى إِذَا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ زَنَاتَةٍ قَصَرُوا آلَاةَ مِنَ الطُّبُولِ وَالْبُنُودِ عَلَى السُّلْطَانِ وَخَطَرُوهَا عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِنْ عَمَالِهِ وَجَعَلُوا لَهَا مَوْكِبًا خَاصًّا يَتَّبِعُ أَثَرُ السُّلْطَانِ فِي مَسِيرِهِ يُسَمَّى السَّاقَةَ وَهُمْ فِيهِ بَيْنَ مُكْثَرٍ وَمَقْلٍ بِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِ الدُّوَلِ فِي ذَلِكَ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنَ الْعَدَدِ تَبْرُكًا بِالسَّبْعَةِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ وَبَنِي الْأَخْمَرِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَشْرَةَ وَالْعِشْرِينَ كَمَا هُوَ عِنْدَ زَنَاتَةٍ وَقَدْ بَلَّغَتْ فِي أَيَّامِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ فِيمَا أَدْرَكَنَاهُ مِائَةً مِنَ الطُّبُولِ وَمِائَةً مِنَ الْبُنُودِ مُلُونَةً بِالْحَرِيرِ مَنْسُوجَةً بِالذَّهَبِ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَيَأْذَنُونَ لِلْوَلَاةِ وَالْعُمَالِ وَالْقَوَادِ فِي اتِّخَاذِ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الْكُتَاتِ بَيْضَاءَ وَطَبْلٍ صَغِيرٍ أَيَّامَ الْحَرْبِ لَا يَتَجَاوَزُونَ ذَلِكَ وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُونَ رَايَةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً وَفِي رَاسِهَا خِصْلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الشَّعْرِ يُسَمُّونَهَا الشَّالِشَ وَالْجِثْرَ وَهِيَ شِعَارُ السُّلْطَانِ عِنْدَهُمْ ثُمَّ تَتَعَدَّدُ الرَّاياتُ وَيُسَمُّونَهَا السَّنَاقِقَ وَاحِدُهَا سَنَجَقٌ وَهِيَ الرَّايةُ بِلسَانِهِمْ . وَأَمَّا الطُّبُولُ فَيُبَيِّلُغُونَ فِي الْإِسْتِكْثَارِ مِنْهَا وَيُسَمُّونَهَا الْكُوسَاتِ وَيُبَيِّحُونَ لِكُلِّ أَمِيرٍ أَوْ قَائِدٍ عَسْكَرٍ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ إِلَّا الْجِثْرَ فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِالسُّلْطَانِ . وَأَمَّا الْجَلَالِقَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أُمَّمِ الْإِفْرَنْجَةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَأَكْثَرُ شَأْنِهِمْ اتِّخَاذُ الْأَلْوَانِ الْقَلِيلَةِ ذَاهِبَةً فِي الْجَوْ صُعْدًا وَمَعَهَا قِرْعُ الْأَوْتَارِ مِنَ الطَّنَابِيرِ وَتَفْخُ الْغَيْطَاتِ يَذْهَبُونَ فِيهَا مَذْهَبَ الْغِنَاءِ وَطَرِيقَهُ فِي مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمْ هَكَذَا يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ وَعَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّتِّكَمِ وَالْوَانِكَمِ « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ » .

(السريـر) : وأما السريـرُ والمِنبرُ والتختُ والكُرسيُّ فهـي أَعْوَادٌ مَنْصُوبَةٌ أَوْ أَرَائِكُ مَنْصُودَةٌ لِحُلُوسِ السُّلْطَانِ عَلَيْهَا مَرْتَفِعًا عَنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ أَنْ يُسَاوِيَهُمْ فِي الصُّعِيدِ وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ مِنْ سُنَنِ الْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَفِي دَوْلِ الْعَجَمِ وَقَدْ كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى أَسِرَّةِ الذَّهَبِ وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ كُرْسِيٌّ وَسَرِيرٌ مِنْ عَاجٍ مَغْشَى بِالذَّهَبِ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَأْخُذُ بِهِ الدُّوْلُ إِلَّا بَعْدَ الْإِسْتِفْحَالِ وَالتَّرَفِّ شَأْنِ الْأُبْهَةِ كُلِّهَا كَمَا قُلْنَا . وَأَمَّا فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الْبِدَاوَةِ فَلَا يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهِ . وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهُ فِي الْإِسْلَامِ مُعَاوِيَةُ وَاسْتَأْذَنَ النَّاسَ فِيهِ وَقَالَ لَهُمْ إِنِّي قَدْ بَدَنْتُ^(١) فَأَذِنُوا لَهُ فَاتَّخَذَهُ وَاتَّبَعَهُ الْمُلُوكُ الْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ الْأُبْهَةِ وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِي يَمُصِّرُ يَجْلِسُ فِي قُصْرِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ الْعَرَبِ وَيَأْتِيهِ الْمُفَوَّقُسُ إِلَى قُصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ مَحْمُولًا عَلَى الْأَيْدِي لِحُلُوسِهِ شَأْنِ الْمُلُوكِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامُهُ وَلَا يَغْيِرُونَ عَلَيْهِ^(٢) وَفَاءً لَهُ بِمَا عَقَدَ مَعَهُمْ مِنَ الذِّمَّةِ وَاطْرَاحًا لِأُبْهَةِ الْمَلِكِ . ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبِيدِيِّينَ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ شَرْقًا وَغَرْبًا مِنَ الْأَسِرَّةِ وَالْمَنَابِرِ وَالتَّخَوِّتِ مَا عَفَا عَنِ الْأَكَاسِرَةِ وَالْقِيَاصِرَةِ وَاللَّهِ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

(السكـة) : وَهِيَ الْخَتَمُ عَلَى الدَّنَانِيرِ وَالذَّرَاهِمِ الْمُتَعَامِلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ بِطَائِعِ حَدِيدٍ يُنْقَشُ فِيهِ صُورٌ أَوْ كَلِمَاتٌ مَقْلُوبَةٌ وَيُضْرَبُ بِهَا عَلَى الدِّينَارِ أَوْ الذَّرْهِمِ فَتَخْرُجُ رُسُومُ تِلْكَ النُّقُوشِ عَلَيْهَا ظَاهِرَةً مُسْتَقِيمَةً بَعْدَ أَنْ يُعْتَبَرَ عِيَارُ النُّقْدِ مِنْ ذَلِكَ الْيَجْنَسِ فِي خُلُوصِهِ بِالسَّبْكِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَبَعْدَ تَقْدِيرِ أَشْخَاصِ الذَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ بِوِزْنٍ مُعَيَّنٍ صَحِيحٍ يُضْطَلَحُ عَلَيْهِ فَيَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا عَدَدًا وَإِنْ لَمْ تُقَدَّرْ أَشْخَاصُهَا يَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا وَزْنًا وَلَفْظُ السَّكَّةِ كَانَ اسْمًا لِلطَّائِعِ وَهِيَ الْحَدِيدَةُ الْمُتَّخَذَةُ لِذَلِكَ ثُمَّ نُقِلَ إِلَى أُثْرَها وَهِيَ النُّقُوشُ الْمَائِلَةُ عَلَى الدَّنَانِيرِ وَالذَّرَاهِمِ ثُمَّ نُقِلَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى ذَلِكَ وَالنَّظَرِ فِي اسْتِيفَاءِ حَاجَاتِهِ وَشُرُوطِهِ وَهِيَ الْوُظَيْفَةُ فَصَارَ عِلْمًا

(١) أي سمنت والبدن ، عظم بدنه بكثرة لحمه . أضحج جسيما (قاموس)

(٢) أي يهجمون على القوقس .

عَلَيْهَا فِي عَزْفِ الدُّوَلِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمَلِكِ إِذْ بِهَا يَتَمَيَّزُ الْخَالِصُ مِنَ الْمَغْشُوشِ بَيْنَ النَّاسِ فِي النُّقُودِ عِنْدَ الْمَعَامَلَاتِ وَيَتَّقُونَ فِي سَلَامَتِهَا الْغِشَّ بِخَتَمِ السُّلْطَانِ عَلَيْهَا بِتِلْكَ النُّقُوشِ الْمَعْرُوفَةِ وَكَانَ مَلُوكُ الْعَجَمِ يَتَّخِذُونَهَا وَيَنْقُشُونَ فِيهَا تَمَائِيلَ تَكُونُ مَخْصُوصَةً بِهَا مِثْلُ تِمْنَالِ السُّلْطَانِ لِعَهْدِهَا أَوْ تُمَثِيلِ حُضْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ مَصْنُوعٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّأْنُ عِنْدَ الْعَجَمِ إِلَى آخِرِ أَمْرِهِمْ . وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَغْفَلَ ذَلِكَ لِسَدَاجَةِ الدِّينِ وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ وَكَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَزَنَّا وَكَانَتْ دَنَانِيرُ الْفُرْسِ وَدَرَاهِمُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَرُدُّونَهَا فِي مَعَامَلَتِهِمْ إِلَى الْوَزْنِ وَيَتَصَارَفُونَ بِهَا بَيْنَهُمْ إِلَى أَنْ تَفَاحَشَ الْغِشُّ فِي الدَّنَانِيرِ وَالذَّرَاهِمِ لِعَفْلَةِ الدُّوَلَةِ عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْحَجَّاجُ عَلَى مَا نَقَلَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ وَأَبُو الزِّنَادِ بِضَرْبِ الذَّرَاهِمِ وَتَمْيِيزِ الْمَغْشُوشِ مِنَ الْخَالِصِ وَذَلِكَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَقَالَ الْمَدَائِنِيُّ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ ثُمَّ أَمَرَ بِصَرْفِهَا فِي سَائِرِ النُّوَاحِي سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَكُتِبَ عَلَيْهَا « اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ » ثُمَّ وَلَّى ابْنُ هُبَيْرَةَ الْعِرَاقَ أَيَّامَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَجَوَّدَ السَّكَّةَ ^(١) ثُمَّ بَالَعَ خَالِدُ الْقُسْرِيُّ فِي تَجْوِيدِهَا ثُمَّ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ بَعْدَهُ وَقِيلَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّنَانِيرَ وَالذَّرَاهِمَ مُضَعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ بِالْعِرَاقِ سَنَةَ سَبْعِينَ بِأَمْرِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا وَلَّى الْحِجَازَ وَكُتِبَ عَلَيْهَا فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ « بَرَكَهَ اللَّهُ » وَفِي الْآخَرِ « اسْمُ اللَّهِ » ثُمَّ غَيَّرَهَا الْحَجَّاجُ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَةِ وَكُتِبَ عَلَيْهَا اسْمُ الْحَجَّاجِ وَقَدَّرَ وَزْنَهَا عَلَى مَا كَانَتْ اسْتَقَرَّتْ أَيَّامَ عُمَرَ وَذَلِكَ أَنَّ الذَّرْهَمَ كَانَ وَزْنُهُ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ سِتَّةَ دَوَانِقَ وَالْمِثْقَالُ وَزْنُهُ دِرْهَمٌ وَثَلَاثَةُ أَسْبَاعٍ دِرْهَمٌ فَتَكُونُ عَشْرَةُ ذَرَاهِمَ بِسَبْعَةِ مِثْقَالٍ وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَوْزَانَ الذَّرْهَمِ أَيَّامَ الْفُرْسِ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَزْنِ الْمِثْقَالِ عَشْرُونَ قِيرَاطًا وَمِنْهَا اثْنَا عَشَرَ وَمِنْهَا عَشْرَةُ فَلَمَّا اخْتَبِجَ إِلَى تَقْدِيرِهِ فِي الزَّكَاةِ أَخَذَ الْوَسْطَ وَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ قِيرَاطًا فَكَانَ الْمِثْقَالُ دِرْهَمًا وَثَلَاثَةُ أَسْبَاعٍ دِرْهَمٌ وَقِيلَ كَانَ مِنْهَا الْبَغْلِيُّ بِشْمَانِيَّةِ دَوَانِقَ وَالطَّبْرِيُّ أَرْبَعَةَ دَوَانِقَ وَالْمَغْرِبِيُّ ثَمَانِيَّةَ دَوَانِقَ وَالْيَمَنِيُّ سِتَّةَ دَوَانِقَ فَأَمَرَ عُمَرَ أَنْ يُنْظَرَ الْأَغْلَبُ فِي

(١) وَكَانَتِ الدَّنَانِيرُ تَسْمَى بِالْهَبِيرِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى ابْنِ هَبِيرَةَ . وَاسْتَهْرَتْ بِجَوْدَتِهَا .

التَّعَامُلِ فَكَانَ الْبَغْلِيُّ وَالطَّبْرِيُّ اثْنَيْ عَشَرَ دَانِقًا وَكَانَ الدَّرْهَمُ سِتَّةَ دَوَانِقَ وَإِنْ زِدْتَ ثَلَاثَةَ أَسْبَاعِهِ كَانَ مِثْقَالًا وَإِذَا انْقَصَتْ ثَلَاثَةُ أَعْشَارِ الْمِثْقَالِ كَانَ دِرْهَمًا فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ الْمَلِكِ اتِّخَاذَ السَّكَّةِ لِصَيَانَةِ النِّقْدَيْنِ الْجَارِيَيْنِ فِي مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْغِشِّ عَيْنَ مِقْدَارِهَا عَلَى هَذَا الَّذِي اسْتَقَرَّ لِعَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَاتَّخَذَ فِيهِ كَلِمَاتَ لَا صُورًا ، لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَ الْكَلَامُ وَالْبَلَاغَةُ أَقْرَبَ مَنَاجِيهِمْ وَأَظْهَرَهَا مَعَ أَنَّ الشَّرْعَ يَنْهَى عَنِ الصُّورِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ اسْتَمَرَّ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَيَّامِ الْمِلَّةِ كُلِّهَا وَكَانَ الدِّينَارُ وَالذَّرْهَمُ عَلَى شَكْلَيْنِ مَدُورَيْنِ وَالْكِتَابَةُ عَلَيْهِمَا فِي دَوَائِرٍ مُتَوَازِيَةٍ يَكْتُبُ فِيهَا مِنْ أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَهْلِيلًا وَتَحْمِيدًا وَصَلَاةٌ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ . وَفِي الْوَجْهِ الثَّانِي التَّارِيخُ وَاسْمُ الْخَلِيفَةِ وَهَكَذَا أَيَّامُ الْعَبَّاسِيِّينَ وَالْعَبِيدِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ وَأَمَّا صَنْجَاةُ فَلَمْ يَتَّخِذُوا سَكَّةً إِلَّا آخِرَ الْأَمْرِ اتَّخَذَهَا مَنْصُورٌ صَاحِبُ بِنَايَةِ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ حَمَادٍ فِي تَارِيخِهِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ كَانَ مِمَّا سَنَّ لَهُمُ الْمَهْدِيُّ اتِّخَاذَ سَكَّةِ الدَّرْهَمِ مُرَبَّعَ الشَّكْلِ وَأَنْ يُرَسَّمَ فِي دَائِرَةِ الدِّينَارِ شَكْلُ مُرَبَّعٍ فِي وَسْطِهِ وَيُمْلَأُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ تَهْلِيلًا وَتَحْمِيدًا وَمِنْ الْجَانِبِ الْآخِرِ كُتِبَ فِي السُّطُورِ بِاسْمِهِ وَاسْمُ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ ذَلِكَ الْمُوَحِّدُونَ وَكَانَتْ سَكَّتُهُمْ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَقَدْ كَانَ الْمَهْدِيُّ فِيمَا يَنْقَلُ يَنْعَتُ قَبْلَ ظَهُورِهِ بِصَاحِبِ الدَّرْهَمِ الْمُرَبَّعِ نَعْتَهُ بِذَلِكَ الْمُتَكَلِّمُونَ بِالْحَدَّثَانِ مِنْ قَبْلِهِ الْمُخْبِرُونَ فِي مَلَاحِمِهِمْ عَنْ دَوْلَتِهِ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَشْرِقِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَسَكَّتُهُمْ غَيْرَ مُقَدَّرَةٍ وَإِنَّمَا يَتَّعَامَلُونَ بِالدَّنَانِيرِ وَالذَّرَاهِمِ وَزِنًا بِالصَّنَجَاتِ الْمُقَدَّرَةِ بَعْدَهُ مِنْهَا وَلَا يَطْبَعُونَ عَلَيْهَا بِالسَّكَّةِ نَقُوشَ الْكَلِمَاتِ بِالتَّهْلِيلِ وَالصَّلَاةِ وَاسْمِ السُّلْطَانِ كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ « ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

وَلَنُخْتِمَ الْكَلَامَ فِي السَّكَّةِ بِذِكْرِ حَقِيقَةِ الدَّرْهَمِ وَالذِّينَارِ الشَّرْعِيَّيْنِ وَبَيَانِ حَقِيقَةِ مِقْدَارِهِمَا .

مقدار الدرهم والدينار الشرعيين

وَذَلِكَ أَنَّ الدِّينَارَ وَالذَّرْهَمَ مُخْتَلِفَا السَّكَّةِ فِي الْمِقْدَارِ وَالْمَوَازِينِ بِالْأَفَاقِ

وَالْأَمْصَارَ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالشَّرْعَ قَدْ تَعَرَّضَ لِذِكْرِهِمَا وَعَلَّقَ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ بِهِمَا فِي الزَّكَاةِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا فَلَا بُدَّ لَهُمَا عِنْدَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ وَمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ فِي تَقْدِيرِ تَجْرِي عَلَيْهِمَا أَحْكَامُهُ دُونَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّ مِنْهُمَا فَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ مُنْعَقِدٌ مُنْذُ صَدَرَ الْإِسْلَامَ وَعَهْدِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ الدَّرْهَمَ الشَّرْعِيَّ هُوَ الَّذِي تَرُنُّ الْعَشْرَةُ مِنْهُ سَبْعَةُ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَوْقِيَّةُ مِنْهُ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا وَهُوَ عَلَى هَذَا سَبْعَةُ أَغْشَارِ الدِّينَارِ وَوَزْنُ الْمِثْقَالِ مِنَ الذَّهَبِ اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ فَالدَّرْهَمُ الَّذِي هُوَ سَبْعَةُ أَغْشَارِهِ خُمْسُونَ حَبَّةً وَخُمْسًا حَبَّةً وَهَذِهِ الْمَقَادِيرُ كُلُّهَا ثَابِتَةٌ بِالْإِجْمَاعِ فَإِنَّ الدَّرْهَمَ الْجَاهِلِيَّ كَانَ يَبْتَنُّ عَلَى أَنْوَاعِ أَجُودَها الطَّبْرِيُّ وَهُوَ أَرْبَعَةُ دَوَانِقَ وَالبَغْلِيُّ وَهُوَ ثَمَانِيَّةُ دَوَانِقَ فَجَعَلُوا الشَّرْعِيَّ بَيْنَهُمَا وَهُوَ سِتَّةُ دَوَانِقَ فَكَانُوا يُوجِبُونَ الزَّكَاةَ فِي مِائَةِ دِرْهَمٍ بَغْلِيَّةً وَمِائَةِ طَبْرِيَّةٍ خُمُسَةَ دِرْهَمٍ وَسَطًا وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ وَضْعِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ إِجْمَاعِ النَّاسِ بَعْدَ عَلَيْهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . ذَكَرَ ذَلِكَ الْخِطَابُ فِي كِتَابِ مَعَالِمِ السُّنَنِ وَالْمَاوَرِدِي فِي الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَنْكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِمَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الدِّينَارُ وَالدَّرْهَمُ الشَّرْعِيَّانِ مَجْهُولَيْنِ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مَعَ تَعَلُّقِ الْحَقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ بِهِمَا فِي الزَّكَاةِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَالْحَقُّ أَنَّهُمَا كَانَا مَعْلُومَي الْمِقْدَارِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ لِجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ يَوْمَئِذٍ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا مِنَ الْحَقُوقِ وَكَانَ مِقْدَارُهُمَا غَيْرَ مُسْتَخْصٍ فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا كَانَ مُتَعَارَفًا بَيْنَهُمْ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ عَلَى الْمِقْدَارِ فِي مِقْدَارِهِمَا وَزِنْتِهِمَا حَتَّى اسْتَفْحَلَ الْإِسْلَامَ وَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ وَدَعَتِ الْحَالُ إِلَى تَشْخِصِهِمَا فِي الْمِقْدَارِ وَالْوِزْنِ كَمَا هُوَ عِنْدَ الشَّرْعِ لِيَسْتَرِيحُوا مِنْ كِلْفَةِ التَّقْدِيرِ وَقَارَنَ ذَلِكَ أَيَّامَ عَبْدِ الْمَلِكِ ^(١) فَشَخَّصَ مِقْدَارَهُمَا وَعَيْنَهُمَا فِي الْخَارِجِ كَمَا هُوَ فِي الذَّهْنِ وَنَقَشَ عَلَيْهِمَا السَّكَّةَ بِاسْمِهِ وَتَأْرِيخِهِ أَثَرُ الشَّهَادَتَيْنِ الْإِيمَانِيَّتَيْنِ وَطَرَحَ النُّقُودَ الْجَاهِلِيَّةَ رَأْسًا حَتَّى خَلَصَتْ وَنَقَشَ عَلَيْهَا سِكَّةً وَتَلَاشَى وَجُودَهَا فَهَذَا هُوَ

(١) مقتضى السياق « وقارن ذلك عبد الملك . . . » .

الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَعَ اخْتِيَارُ أَهْلِ السَّكَّةِ فِي الدُّوَلِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْمِقْدَارِ الشَّرْعِيِّ فِي الدِّينَارِ وَالذَّرْهَمِ وَاخْتَلَفَتْ فِي كُلِّ الْأَقْطَارِ وَالْأَفَاقِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى تَصَوُّرِ مَقَادِيرِهِمَا الشَّرْعِيَّةِ ذَهْنًا كَمَا كَانَ فِي الصُّدْرِ الْأَوَّلِ وَصَارَ أَهْلُ كُلِّ أَفْقٍ يَسْتَخْرِجُونَ الْحُقُوقَ الشَّرْعِيَّةَ مِنْ سِكَّتِهِمْ بِمَعْرِفَةِ النِّسْبَةِ الَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَقَادِيرِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَأَمَّا وَزْنُ الدِّينَارِ بِاثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ الْوَسْطِ فَهُوَ الَّذِي نَقَلَهُ الْمُحَقِّقُونَ وَعَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ إِلَّا ابْنُ حَزْمٍ خَالَفَ ذَلِكَ وَزَعَمَ أَنَّ وَزْنَهُ أَرْبَعٌ وَثَمَانُونَ حَبَّةً . نَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْحَقِّ وَرَدَّهُ الْمُحَقِّقُونَ وَعَدَّوْهُ وَهْمًا وَعَلَطًا وَهُوَ الصَّحِيحُ وَاللَّهُ يُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَكَذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْأَوْقِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْمُتَعَارِفَةُ بَيْنَ النَّاسِ لِأَنَّ الْمُتَعَارِفَةَ مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلَافِ الْأَقْطَارِ وَالشَّرْعِيَّةَ مُتَّحِدَةً ذَهْنًا لَا اخْتِلَافَ فِيهَا وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا .

(الخاتم) وَأَمَّا الْخَاتَمُ فَهُوَ مِنَ الْخَطِّ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْوِظَائِفِ الْمُلُوكِيَّةِ وَالْخَتَمُ عَلَى الرِّسَالِ وَالصُّكُوكِ مَعْرُوفٌ لِلْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَيْصَرَ فُقَيْلَ لَهُ إِنْ الْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ وَنُقِشَ فِيهِ « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » قَالَ الْبُخَارِيُّ جَعَلَ الثَّلَاثَ الْكَلِمَاتِ ثَلَاثَةَ أَشْطَرٍ وَخَتَمَ بِهِ وَقَالَ لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ مِثْلَهُ قَالَ وَتَخَتَمَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بَيْتِ أُرَيْسَ وَكَانَتْ قَلِيلَةَ الْمَاءِ فَلَمْ يَذَرِكْ قَعْرُهَا بَعْدَ وَاعْتَمَ عُثْمَانُ وَتَطَيَّرَ مِنْهُ وَصَنَعَ آخَرَ عَلَى مِثْلِهِ وَفِي كَيْفِيَّةِ نَقْشِ الْخَاتَمِ وَالْخَتَمِ بِهِ وَجُوهٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ يُطْلَقُ عَلَى الْآلَةِ الَّتِي تُجْعَلُ فِي الْإِصْبَعِ وَمِنْهُ تَخْتَمُ إِذَا لَبَسَهُ وَيُطْلَقُ عَلَى النَّهَائِيَّةِ وَالْتِمَامِ وَمِنْهُ خَتَمْتُ الْأَمْرَ إِذَا بَلَغْتُ آخِرَهُ وَخَتَمْتُ الْقُرْآنَ كَذَلِكَ وَمِنْهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَخَاتَمُ الْأُمَرَاءِ وَيُطْلَقُ عَلَى السُّدَادِ الَّذِي يُسَدُّ بِهِ الْأَوَانِي وَالْذَّنَانِ وَيُقَالُ فِيهِ خِتَامٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى « خِتَامُهُ مِنْكَ » وَقَدْ غَلِطَ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالنِّهَائِيَّةِ وَالْتِمَامِ قَالَ لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ فِي شَرَابِهِمْ رِيحَ الْمِسْكِ وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْخِتَامِ هُوَ السُّدَادُ لِأَنَّ الْخَمْرَ

يُجْعَلُ لَهَا فِي الدَّنِّ سَدَادُ الطِّينِ أَوْ الْقَارِ يَحْفَظُهَا وَيُطَيِّبُ عَرْفَهَا وَذَوْقَهَا فَبَوْلُغٍ فِي وَصْفِ خَمْرِ الْجَنَّةِ بِأَنْ سَدَادَهَا مِنَ الْمِسْكِ وَهُوَ أَطْيَبُ عَرْفًا وَذَوْقًا مِنَ الْقَارِ وَالطِّينِ الْمَعْمُودَيْنِ فِي الدُّنْيَا فَإِذَا صَحَّ إِطْلَاقُ الْخَاتَمِ عَلَى هَذِهِ كُلِّهَا صَحَّ إِطْلَاقُهُ عَلَى أَثَرِهَا النَّاسِ عَنْهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ إِذَا نَقِشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ ثُمَّ غُمِسَ فِي مَدَافِ الطِّينِ أَوْ مِدَادٍ وَوُضِعَ عَلَى صَفْحِ الْقِرْطَاسِ بَقِيَ أَكْثَرُ الْكَلِمَاتِ فِي ذَلِكَ الصَّفْحِ وَكَذَلِكَ إِذَا طُبِعَ بِهِ عَلَى جِسْمٍ لَبِنٍ كَالشَّمْعِ فَإِنَّهُ يَبْقَى نَقْشُ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ مُرْتَسِمًا فِيهِ وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَاتٌ وَازْتَسَمَتْ فَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ مِنَ الْيَمْنَى وَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيَمْنَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى لِأَنَّ الْخَتَمَ يَقْلِبُ جِهَةَ الْخَطِّ فِي الصَّفْحِ عَمَّا كَانَ فِي النَّقْشِ مِنْ يَمِينٍ أَوْ يَسَارٍ فَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْخَتَمُ بِهَذَا الْخَاتَمِ بِغَمْسِهِ فِي الْمِدَادِ أَوْ الطِّينِ وَوَضْعِهِ فِي الصَّفْحِ فَتَنْتَقِشُ الْكَلِمَاتُ فِيهِ وَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَعْنَى النِّهَايَةِ وَالتَّمَامِ بِمَعْنَى صِحَّةِ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ وَنَفُوذِهِ كَأَنَّ الْكِتَابَ إِنَّمَا يَتِمُّ الْعَمَلُ بِهِ بِهَذِهِ الْعَلَامَاتِ وَهُوَ مِنْ دُونِهَا مُلْفًى لَيْسَ بِتَمَامٍ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْخَتَمُ بِالْخَطِّ آخِرَ الْكِتَابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ تَسْبِيحٍ أَوْ بِاسْمِ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ الْكِتَابِ مَنْ كَانَ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نَعْوَتِهِ يَكُونُ ذَلِكَ الْخَطُّ عَلَامَةً عَلَى صِحَّةِ الْكِتَابِ وَنَفُوذِهِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ فِي الْمُتَعَارِفِ عَلَامَةً ، وَيُسَمَّى خَتْمًا تَشْبِيهًا لَهُ بِأَثَرِ الْخَاتَمِ الْأَصْفِيِّ ^(١) فِي النَّقْشِ وَمِنْ هَذَا خَاتَمُ الْقَاضِي الَّذِي يَنْعَثُ بِهِ لِلْخُصُومِ أَيُّ عِلَامَتُهُ وَخَطُّهُ الَّذِي يُنْفَذُ بِهِمَا أَحْكَامُهُ وَمِنْهُ خَاتَمُ السُّلْطَانِ أَوْ الْخَلِيفَةِ أَيُّ عِلَامَتُهُ . قَالَ الرَّشِيدُ لِيُحْيَى بْنُ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَوِزَرَ جَعْفَرًا وَيَسْتَبْدِلَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ أَخِيهِ فَقَالَ لِأَبِيهِمَا يَحْيَى : « يَا أَبَتِ إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَحْوَلَ الْخَاتَمَ مِنْ يَمِينِي إِلَى شِمَالِي » فَكُنِيَ لَهُ بِالْخَاتَمِ عَنِ الْوِزَارَةِ لِمَا كَانَتْ الْعِلَامَةُ عَلَى الرِّسَالِ وَالصُّكُوكِ مِنْ وَطَائِفِ الْوِزَارَةِ لِعَهْدِهِمْ وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَذَا الْإِطْلَاقِ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى

(١) نسبة إلى أصف . كاتب النبي سليمان عليه السلام .

الْحَسَنَ عِنْدَ مُرَاوَدَتِهِ إِيَّاهُ فِي الصُّلْحِ صَحِيفَةً بَيِّنَاءَ خَتَمَ عَلَى أَسْفَلِهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ
 اشْتَرَطَ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي خَتَمْتُ أَسْفَلَهَا مَا شِئْتُ فَهُوَ لَكَ وَمَعْنَى الْخَتَمِ هُنَا
 عَلَامَةٌ فِي آخِرِ الصَّحِيفَةِ يَخْطُهَا أَوْ غَيْرُهُ وَيُخْتَمَلُ أَنْ يُخْتَمَ بِهِ فِي جِسْمِ لَيْنٍ فَتَنْتَشِشُ
 فِيهِ حُرُوفُهُ وَيُجْعَلُ عَلَى مَوْضِعِ الْحَزْمِ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُزِمَ وَعَلَى الْمَوْدُوعَاتِ وَهُوَ مِنَ
 السَّدَادِ كَمَا مَرَّ وَهُوَ فِي الْوَجْهَيْنِ أَثَارُ الْخَاتَمِ فَيُطْلَقُ عَلَيْهِ خَاتَمٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَطْلَقَ الْخَتَمَ
 عَلَى الْكِتَابِ أَيْ الْعَلَامَةَ مُعَاوِيَةُ لِأَنَّهُ أَمَرَ لَعْمَرَ بْنَ الزُّبَيْرِ عِنْدَ زِيَادٍ بِالْكُوفَةِ بِمِائَةِ
 أَلْفٍ فَفَتَحَ الْكِتَابَ وَصَيَّرَ الْمِائَةَ مِائَتَيْنِ وَرَفَعَ زِيَادَ حِسَابَهُ فَأَنْكَرَهَا مُعَاوِيَةُ وَطَلَبَ
 بِهَا عُمَرَ وَحَبَسَهُ حَتَّى قَضَاهَا عَنْهُ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ وَاتَّخَذَ مُعَاوِيَةُ عِنْدَ ذَلِكَ دِيْوَانَ
 الْخَاتَمِ . ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَقَالَ آخَرُونَ وَحَزَمَ الْكُتُبَ وَلَمْ تَكُنْ تُحَزَّمُ أَيْ جَعَلَ لَهَا
 السَّدَادَ وَدِيْوَانَ الْخَتَمِ عِبَارَةً عَنِ الْكُتُبِ الْقَائِمِينَ عَلَى إِنْفَادِ كُتُبِ السُّلْطَانِ وَالْخَتَمِ
 عَلَيْهَا إِمَّا بِالْعَلَامَةِ أَوْ بِالْحَزْمِ وَقَدْ يُطْلَقُ الدِّيْوَانُ عَلَى مَكَانِ جُلُوسِ هَؤُلَاءِ الْكُتُبِ
 كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي دِيْوَانِ الْأَعْمَالِ وَالْحَزْمُ لِلْكِتَابِ يَكُونُ إِمَّا بِدَسِّ الْوَرَقِ كَمَا فِي عَرَفِ
 كُتَابِ الْمَغْرِبِ وَإِمَّا بِالصَّاقِ رَأْسِ الصَّحِيفَةِ عَلَى مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ كَمَا فِي
 عَرَفِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَقَدْ يُجْعَلُ عَلَى مَكَانِ الدَّسِّ أَوْ الْإِلْصَاقِ عَلَامَةٌ يُؤْمَنُ مَعَهَا مِنْ
 فَتْحِهِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا فِيهِ فَأَهْلُ الْمَغْرِبِ يَجْعَلُونَ عَلَى مَكَانِ الدَّسِّ قِطْعَةً مِنَ
 الشَّمْعِ وَيَخْتَمُونَ عَلَيْهَا بِخَاتَمٍ تُقَشَّتْ فِيهِ عَلَامَةٌ لِذَلِكَ فَيُرْتَسِمُ النَّقْشُ فِي الشَّمْعِ
 وَكَانَ فِي الْمَشْرِقِ فِي الدَّوَلِ الْقَدِيمَةِ يُخْتَمُ عَلَى مَكَانِ اللَّصْقِ بِخَاتَمٍ مَنقُوشٍ أَيْضًا قَدْ
 غُمِسَ فِي مَدَافٍ مِنَ الطِّينِ مَعْدٌ لِذَلِكَ صِبْغُهُ أَحْمَرُ فَيُرْتَسِمُ ذَلِكَ النَّقْشُ عَلَيْهِ وَكَانَ
 هَذَا الطِّينُ فِي الدَّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ يُعْرَفُ بِطِينِ الْخَتَمِ وَكَانَ يُجْلَبُ مِنْ سِيرَافٍ فَيُظْهِرُ
 أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِهَا فَهَذَا الْخَاتَمُ الَّذِي هُوَ الْعَلَامَةُ الْمَكْتُوبَةُ أَوْ النَّقْشُ لِلْسَّدَادِ وَالْحَزْمِ
 لِلْكِتَابِ خَاصٌّ بِدِيْوَانِ الرِّسَائِلِ وَكَانَ ذَلِكَ لِلزُّبَيْرِ فِي الدَّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ثُمَّ اخْتَلَفَ
 الْعَرَفُ وَصَارَ لِمَنْ إِلَيْهِ التَّرْسِيلُ وَدِيْوَانِ الْكِتَابِ فِي الدَّوَلَةِ ثُمَّ صَارُوا فِي دَوْلِ الْمَغْرِبِ
 يَعْدُونَ مِنْ غَلَامَاتِ الْمُلْكِ وَشَارَاتِهِ الْخَاتَمَ لِلْإِصْبَعِ فَيَسْتَجِيدُونَ صَوْغَهُ مِنَ الذَّهَبِ

وَيَرْصَعُونَهُ بِالْفُصُوصِ مِنَ الْيَاقُوتِ وَالْفَيْرُوزِ وَالزُّمَرْدِ وَيَلْبَسُهُ السُّلْطَانُ شَارَةً فِي
عُرْفِهِمْ كَمَا كَانَتْ الْبُرْدَةُ وَالْقَضِيبُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْمِظْلَةُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبْسِيَّةِ
وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ بِحُكْمِهِ .

(الطراز) : مِنْ أَهْبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَمَذَاهِبِ الدُّوَلِ أَنْ تُرْسَمَ أَسْمَاؤُهُمْ أَوْ
عَلَامَاتُ تَخْتَصُّ بِهِمْ فِي طِرَازِ أَثْوَابِهِمُ الْمُعَدَّةِ لِلْبَاسِيهِمْ مِنَ الْخَرِيرِ أَوْ الدِّيَبَاجِ أَوْ
الْإِبْرِيسِمِ تُعْتَبَرُ كِتَابَةً خَطُّهَا فِي نَسْجِ الثَّوْبِ الْحَامِأً وَإِسْدَاءً بِخِطِّ الذَّهَبِ أَوْ
مَا يُخَالِفُ لَوْنِ الثَّوْبِ مِنَ الْخُيُوطِ الْمُلوَّنةِ مِنْ غَيْرِ الذَّهَبِ عَلَى مَا يُحْكِمُهُ الصَّنَاعُ
فِي تَقْدِيرِ ذَلِكَ وَوَضْعِهِ فِي صِنَاعَةِ نَسْجِهِمْ فَتَصِيرُ الثِّيَابُ الْمُلُوكِيَّةُ مُعَلَّمةً بِذَلِكَ
الطَّرَازِ قَصْدُ التَّنْوِيهِ بِإِلَاسِهَا مِنَ السُّلْطَانِ فَمَنْ دُونَهُ أَوْ التَّنْوِيهِ بِمَنْ يَخْتَصُّهُ
السُّلْطَانُ بِمَلْبُوسِهِ إِذَا قَصَدَ تَشْرِيفَهُ بِذَلِكَ أَوْ لِأَيَّةِ لَوْظِيْفَةٍ مِنْ وَظَائِفِ دَوْلَتِهِ
وَكَانَ مُلُوكُ الْعَجَمِ مِنْ قَبْلِ الْإِسْلَامِ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ الطَّرَازَ بِصُورِ الْمُلُوكِ وَأَشْكَالِهِمْ
أَوْ أَشْكَالِ وَصُورِ مُعَيَّنَةٍ لِذَلِكَ ثُمَّ اغْتَنَاضَ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ بِكُتُبِ أَسْمَائِهِمْ مَعَ
كَلِمَاتٍ أُخْرَى تَجْرِي مَجْرَى الْقَالِ أَوْ السَّجَلَاتِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَتَيْنِ مِنْ أَهْبَةِ
الْأُمُورِ وَأَفْخَمِ الْأَحْوَالِ وَكَانَتْ الدُّورُ الْمُعَدَّةُ لِنَسْجِ أَثْوَابِهِمْ فِي قُصُورِهِمْ تُسَمَّى دُورَ
الطَّرَازِ لِذَلِكَ وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَى النِّظَرِ فِيهَا يُسَمَّى صَاحِبَ الطَّرَازِ . يَنْظُرُ فِي أُمُورِ
الصَّبَاغِ وَالْأَلَةِ وَالْحَاكَةِ فِيهَا وَإِجْرَاءِ أَرْزَاقِهِمْ وَتَسْهِيلِ آلَتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ أَعْمَالِهِمْ وَكَانُوا
يَقْلُدُونَ ذَلِكَ لِخَوَاصِّ دَوْلَتِهِمْ وَثِقَاتِ مَوَالِيهِمْ وَكَذَلِكَ كَانَ الْحَالُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ
بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِفِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ الْعَبْسِيِّينَ بِمِصْرَ وَمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ
مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالشَّرْقِ ثُمَّ لَمَّا ضَاقَ نِطَاقُ الدُّوَلِ عَنْ التَّرَفِ وَالتَّفَنُّ فِيهِ لَضِيقِ
نِطَاقِهَا فِي الْإِسْتِيلَاءِ وَتَعَدَّدَتِ الدُّوَلُ تَعَطَّلَتْ هَذِهِ الْوُظُفَةُ وَالْوَلَايَةُ عَلَيْهَا مِنْ أَكْثَرِ
الدُّوَلِ بِالْجُمْلَةِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ بِالْمَغْرِبِ بَعْدَ بَنِي أُمَيَّةٍ أَوَّلِ الْمِائَةِ
السَّادِسَةِ لَمْ يَأْخُذُوا بِذَلِكَ أَوَّلَ دَوْلَتِهِمْ لَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِعِ الدِّيَانَةِ وَالسَّذَاجَةِ
الَّتِي لَقْنُوهَا عَنْ إِمَامِهِمْ مُحَمَّدِ بْنِ تَوَمَرْتِ الْمَهْدِيِّ وَكَانُوا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ لِبَاسِ

الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ فَسَقَطَتْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ مِنْ دَوْلَتِهِمْ وَاسْتَذَرَكَ مِنْهَا أَعْقَابُهُمْ آخِرَ الدَّوْلَةِ طَرَفًا لَمْ يَكُنْ يَتْلِكَ النَّبَاهَةِ وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ ، فَأَذْرَكْنَا بِالْمَغْرِبِ فِي الدَّوْلَةِ الْمَرْيُوتِيَّةِ لِعَنْفَوَانِهَا وَشُمُوحِهَا رَسْمًا جَلِيلًا لِقُنُوهُ مِنْ دَوْلَةِ ابْنِ الْأَحْمَرِ مُعَاصِرَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ وَاتَّبَعَ هُوَ فِي ذَلِكَ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ فَأَتَى مِنْهُ بِلْمَحَةٍ شَاهِدَةٌ بِالْأَثَرِ . وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمَضَرٍ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَفِيهَا مِنَ الطَّرَازِ تَخْرِيرٌ آخَرُ عَلَى مِقْدَارِ مُلْكِهِمْ وَعُمَرَانِ بِلَادِهِمْ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُضْنَعُ فِي دَوْرِهِمْ وَقُصُورِهِمْ وَلَيْسَتْ مِنْ وَطَائِفِ دَوْلَتِهِمْ وَإِنَّمَا يَنْسُجُ مَا تَطْلُبُهُ الدَّوْلَةُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ صُنَاعِهِ مِنَ الْحَرِيرِ وَمِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ وَيُسَمُّونَهُ الْمُرْزُكَشَ لِقَطْعَةِ أَعْجَمِيَّةٍ وَيُرْسَمُ اسْمُ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ عَلَيْهِ وَيُعَدُّهُ الصَّنَاعُ لَهُمْ فِيمَا يَعُدُّونَهُ لِلدَّوْلَةِ مِنْ طَرَفِ الصَّنَاعَةِ اللَّائِقَةِ بِهَا « وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ » .

الفساطيط والسياج

إِغْلَمْ أَنَّ مِنْ شَارَاتِ الْمُلْكِ وَتَرْفِهِ اتِّخَاذُ الْأَخْيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ وَالْفَارَاتِ ^(١) مِنْ ثِيَابِ الْكُتَّانِ وَالصُّوفِ وَالْقَطَنِ فَيَبَاهِي بِهَا فِي الْأَسْفَارِ وَتَتَنَوَّعُ مِنْهَا الْأَلْوَانُ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ فِي الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ فِي بُيُوتِهِمُ الَّتِي جَرَتْ عَادَتُهُمْ بِاتِّخَاذِهَا قَبْلَ الْمُلْكِ وَكَانَ الْعَرَبُ لِعَهْدِ الْخُلَفَاءِ الْأَوَّلِينَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِنَّمَا يَسْكُنُونَ بُيُوتَهُمُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ خِيَامًا مِنَ الْوَبَرِ وَالصُّوفِ وَلَمْ تَزَلِ الْعَرَبُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ بَادِينَ ^(٢) إِلَّا الْأَقْلَ مِنْهُمْ فَكَانَتْ أَسْفَارُهُمْ لِعَزَوَاتِهِمْ وَخُرُوبُهُمْ بِظُعُونِهِمْ وَسَائِرِ جَلَلِهِمْ وَأَخْيَائِهِمْ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَكَانَتْ عَسَاكِرُهُمْ لِذَلِكَ كَثِيرَةً الْجِلَلِ بَعِيدَةً مَا بَيْنَ الْمَنَازِلِ مُتَفَرِّقَةً الْأَخْيَاءُ يَغِيبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَنْ نَظَرِ صَاحِبِهِ مِنَ الْأُخْرَى كَشَأْنِ الْعَرَبِ وَلِذَلِكَ مَا كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ يَحْتَاجُ إِلَى سَاقَةِ تَحْشُدِ النَّاسِ عَلَى أَثَرِهِ وَأَنْ يَقِيمُوا إِذَا ظَعَنَ .

(١) مظلة بعامودين .

(٢) من البداوة .

وَنَقَلَ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ فِي ذَلِكَ الْحَجَّاجَ حِينَ أَشَارَ بِهِ رُوحُ بْنُ زَيْبَاعَ وَقَضَتْهُمَا فِي إِخْرَاقِ
فَسَاطِيطِ رُوحٍ وَخِيَامِهِ لِأَوَّلِ وَلَايَتِهِ حِينَ وَجَدَهُمْ مُقِيمِينَ فِي يَوْمِ رَحِيلِ عَبْدِ الْمَلِكِ
قِصَّةٌ مَشْهُورَةٌ . وَمِنْ هَذِهِ الْوَلَايَةِ تُعْرَفُ رُتْبَةُ الْحَجَّاجِ بَيْنَ الْعَرَبِ فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى
إِرَادَتَهُمْ عَلَى الظُّعْنِ إِلَّا مَنْ يَأْمَنُ بَوَادِرِ السُّفَهَاءِ مِنْ أَحْيَائِهِمْ بِمَا لَهُ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ
الْحَائِلَةِ دُونَ ذَلِكَ وَلِذَلِكَ اخْتَصَّهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بِهَذِهِ الرُّتْبَةِ ثِقَةً بِغِنَائِهِ فِيهَا بِعَصَبِيَّتِهِ
وَصَرَامَتِهِ فَلَمَّا تَفَنَّنَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي مَذَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَالْبَذَخِ وَنَزَلُوا الْمُدُنَ
وَالْأَمْصَارَ وَانْتَقَلُوا مِنْ سُكْنَى الْخِيَامِ إِلَى سُكْنَى الْقُصُورِ وَمِنْ ظَهَرِ الْخُفِّ إِلَى ظَهَرِ
الْحَافِرِ اتَّخَذُوا لِلْسُّكْنَى فِي أَسْفَارِهِمْ ثِيَابَ الْكُتَّانِ يَسْتَعْمِلُونَ مِنْهَا بُيُوتًا مُخْتَلِفَةً
الْأَشْكَالِ مَقْدَرَةَ الْأُمَثَالِ مِنَ الْقُورَاءِ ^(١) وَالْمُسْتَطِيلَةِ وَالْمُرَبَّعَةِ وَيَخْتَفِلُونَ فِيهَا بِأَبْلَغِ
مَذَاهِبِ الْإِحْتِفَالِ وَالزَّيْنَةِ وَيُدِيرُ الْأَمِيرُ وَالْقَائِدُ لِلْعَسَاكِرِ عَلَى فَسَاطِيطِهِ وَفَارَاتِهِ مِنْ
بَيْنِهِمْ سِيَّاحًا مِنَ الْكُتَّانِ يُسَمَّى فِي الْمَغْرِبِ بِلِسَانِ الْبَرْبَرِ الَّذِي هُوَ لِسَانُ أَهْلِهِ
أَفْرَاكٌ بِالْكَافِ وَالْقَافِ وَيَخْتَصُّ بِهِ السُّلْطَانُ بِذَلِكَ الْقَطْرِ لَا يَكُونُ لغيرِهِ . وَأَمَّا
فِي الْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُهُ كُلُّ أَمِيرٍ وَإِنْ كَانَ دُونَ السُّلْطَانِ ثُمَّ جَنَحَتِ الدَّعَةُ بِالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ إِلَى الْمَقَامِ بِقُصُورِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ فَخَفَّ لِذَلِكَ ظَهْرُهُمْ وَتَقَارَبَتِ السِّيَّاحُ بَيْنَ
مَنَازِلِ الْعَسْكَرِ وَاجْتَمَعَ الْجَيْشُ وَالسُّلْطَانُ فِي مَعْسَكِرٍ وَاحِدٍ يَخْضَرُهُ الْبَصْرُ فِي
بَسِيطَةٍ زَهْوًا أُنِيقًا لِاخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَذَاهِبِ الدَّوَلِ فِي
بَذَخِهَا وَتَرْفِهَا . وَكَذَا كَانَتْ دَوْلَةُ الْمُؤَحِّدِينَ وَزِنَاتُهُ الَّتِي أَظَلَّتْنَا كَانَ سَفَرُهُمْ أَوَّلُ
أَمْرِهِمْ فِي بُيُوتِ سُكْنَاهُمْ قَبْلَ الْمَلِكِ مِنَ الْخِيَامِ وَالْقِيَاطِينَ ^(٢) حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ
الدَّوْلَةُ فِي مَذَاهِبِ التَّرَفِ وَسُكْنَى الْقُصُورِ وَعَادُوا إِلَى سُكْنَى الْأَخْبِيَّةِ وَالْفَسَاطِيطِ
بَلَّغُوا مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا أَرَادُوهُ وَهُوَ مِنَ التَّرَفِ بِمَكَانٍ إِلَّا أَنَّ الْعَسَاكِرَ بِهِ تَصِيرُ
عُرْضَةً لِلْبَيَّاتِ لِاجْتِمَاعِهِمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ تَشْمَلُهُمْ فِيهِ الصَّيْحَةُ وَلِخَفَّتِهِمْ مِنَ الْأَهْلِ

(١) القوراء ، الواسعة .

(٢) القياطين ، المخادع .

وَالْوَلَدِ الَّذِينَ تَكُونُ الْإِسْتِمَاتَةُ دُونَهُمْ فَيَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى تَحْفِظِ آخِرِ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ .

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وَهُمَا مِنَ الْأُمُورِ الْخِلَافِيَّةِ وَمِنْ شَارَاتِ الْمُلْكِ الْإِسْلَامِيِّ وَلَمْ يُعْرِفْ فِي غَيْرِ دَوْلِ
الْإِسْلَامِ . فَأَمَّا الْبَيْتُ الْمَقْصُورَةُ مِنَ الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ السُّلْطَانِ فَيَتَّخِذُ سِيَجَاً عَلَى
الْمِخْرَابِ فَيُحَوِّزُهُ وَمَا يَلِيهِ فَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ حِينَ طَعَنَهُ
الْخَارِجِيُّ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَقِيلَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا مَرْوَانَ بْنُ الْحَكَمِ حِينَ طَعَنَهُ
الْيَمَانِيُّ ثُمَّ اتَّخَذَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِمَا وَصَارَتْ سُنَّةً فِي تَمْيِيزِ السُّلْطَانِ عَنِ النَّاسِ
فِي الصَّلَاةِ وَهِيَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ حُضُورِ التَّرَفِّ فِي الدَّوْلِ وَالِاسْتِفْحَالِ شَأْنِ أَحْوَالِ
الْأُتْبَةِ كُلِّهَا وَمَا زَالَ الشَّأْنُ ذَلِكَ فِي الدَّوْلِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا وَعِنْدَ افْتِرَاقِ الدَّوْلَةِ
الْعَبَّاسِيَّةِ وَتَعَدُّدِ الدَّوْلِ بِالْمَشْرِقِ وَكَذَا بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ انْفِرَاضِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَتَعَدُّدِ
مُلُوكِ الطَّوَائِفِ وَأَمَّا الْمَغْرِبُ فَكَانَ بَنُو الْأَغْلَبِ يَتَّخِذُونَهَا بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ الْخُلَفَاءُ
الْعَبْسِيُّونَ ثُمَّ وَلَاحَتْهُمْ عَلَى الْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةَ بَنُو بَادِيسَ بِفَاسَ وَبَنُو حَمَادٍ
بِالْقُلْعَةِ ثُمَّ مَلِكُ الْمُوَحِّدِينَ سَائِرِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَمَحَا ذَلِكَ الرَّسْمَ عَلَى طَرِيقَةِ
الْبَدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ شِعَارَهُمْ وَلَمَّا اسْتَفْحَلَتِ الدَّوْلَةُ وَأَخَذَتْ يَحْظُهَا مِنَ التَّرَفِّ وَجَاءَ
أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ ثَالِثُ مُلُوكِهِمْ فَاتَّخَذَ هَذِهِ الْمَقْصُورَةَ وَبَقِيَتْ مِنْ بَعْدِهِ سُنَّةً
لِمُلُوكِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَهَكَذَا كَانَ الشَّأْنُ فِي سَائِرِ الدَّوْلِ سُنَّةً لِلَّهِ فِي عِبَادِهِ .
وَأَمَّا الدُّعَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ فِي الْخِطْبَةِ فَكَانَ الشَّأْنُ أَوَّلًا عِنْدَ الْخُلَفَاءِ وَلَايَةِ الصَّلَاةِ
بِأَنْفُسِهِمْ فَكَانُوا يَدْعُونَ لِذَلِكَ بَعْدَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالرَّضَى عَنْ أَصْحَابِهِ
وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لَمَّا بَنَى جَامِعَهُ بِمِصْرَ وَأَوَّلُ مَنْ دَعَا لِلْخَلِيفَةِ
عَلَى الْمِنْبَرِ ابْنُ عَبَّاسٍ دَعَا لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي خِطْبَتِهِ وَهُوَ بِالْبَصْرَةِ غَامِلٌ لَهُ
عَلَيْهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ أَنْصُرْ عَلِيًّا عَلَى الْحَقِّ وَاتَّصِلْ الْعَمَلَ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا بَعْدَ وَبَعْدَ أَخِذْ

عَمَرُو بْنِ الْعَاصِ الْمَنْبَرِ بَلَغَ عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ اتَّخَذْتَ مِنْبَرًا تَرْقَى بِهِ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مَا يَكْفِيكَ
أَنْ تَكُونَ قَائِمًا وَالْمُسْلِمُونَ تَحْتَ عَقِيكَ فَعَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا كَسَرْتَهُ فَلَمَّا حَدَّثْتُ
الْأُبَهَّةَ وَحَدَّثْتُ فِي الْخُلَفَاءِ الْمَنَاعَ مِنَ الْخُطْبَةِ وَالصَّلَاةِ اسْتَنَابُوا فِيهِمَا فَكَانَ الْخُطِيبُ
يُشِيدُ بِذِكْرِ الْخَلِيفَةِ عَلَى الْمَنْبَرِ تَنْوِيهَا بِاسْمِهِ وَدَعَاءُ لَهُ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مَصْلَحَةَ الْعَالَمِ
فِيهِ وَلَأَنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ مَظْنَّةٌ لِلْإِجَابَةِ وَلَمَّا ثَبَتَ عَنِ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِمْ مَنْ كَانَتْ لَهُ
دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ فَلْيَضْمَعْهَا فِي السُّلْطَانِ وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يُفَرِّدُ بِذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَ الْحَجَرُ
وَالِاسْتِبْدَادُ صَارَ الْمُتَغَلَّبُونَ عَلَى الدُّوَلِ كَثِيرًا مَا يُشَارِكُونَ الْخَلِيفَةَ فِي ذَلِكَ وَيُشَادُّ
بِاسْمِهِمْ عَقِبَ اسْمِهِ وَذَهَبَ ذَلِكَ يَذْهَابُ تِلْكَ الدُّوَلِ وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى اخْتِصَاصِ
السُّلْطَانِ بِالْدُّعَاءِ لَهُ عَلَى الْمَنْبَرِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ وَحُظِرَ أَنْ يُشَارِكَهُ فِيهِ أَحَدٌ أَوْ يَسْمُو
إِلَيْهِ وَكَثِيرًا مَا يُغْفَلُ الْمُعَاهِدُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ هَذَا الرَّسْمَ عِنْدَمَا تَكُونُ الدُّوَلَةُ فِي
أَسْلُوبِ الْغَضَاضَةِ وَمَنَاجِي الْبِدَاوَةِ فِي التَّغَافُلِ وَالْخُشُوعَةِ وَيَقْنَعُونَ بِالْدُّعَاءِ عَلَى
الْإِنْبَهَامِ وَالْإِجْمَالِ لِمَنْ وَلِيَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ وَيُسْمُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ إِذَا كَانَتْ
عَلَى هَذَا الْمَنْحَى عَبَّاسِيَّةً يَغْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الدُّعَاءَ عَلَى الْإِجْمَالِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْعَبَّاسِيُّ

تَقْلِيدًا فِي ذَلِكَ لِمَا سَلَفَ مِنَ الْأَمْرِ وَلَا يَخْفَلُونَ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ تَغْيِينِهِ وَالتَّضْرِيحِ
بِاسْمِهِ يُحْكِي أَنَّ يَغْمَرَسِينَ بْنَ زِيَّانَ عَاهَدَ دَوْلَةَ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ لَمَّا غَلَبَهُ الْأَمِيرُ
أَبُو زَكْرِيَاءَ يَحْيَى بْنُ أَبِي حَفْصٍ عَلَى تَلْمُزَانٍ ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ عَلَى
شُرُوطِ شَرْطِهَا كَانَ فِيهَا ذِكْرُ اسْمِهِ عَلَى مَنَابِرِ عَمَلِهِ فَقَالَ يَغْمَرَسِينَ تِلْكَ أَعْوَادُهُمْ
يَذْكُرُونَ عَلَيْهَا مَنْ شَاءُوا وَكَذَلِكَ يَغْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ عَاهَدَ دَوْلَةَ بَنِي مُرِينَ
حَضْرَةَ رَسُولِ الْمُتَنَصِّرِ الْخَلِيفَةِ بِتُونِسَ مِنْ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَثَالِثُ مُلُوكِهِمْ وَتَخَلَّفَ
بَعْضُ أَيَّامِهِ عَنْ شُهُودِ الْجُمُعَةِ فَقِيلَ لَهُ لَمْ يَخْضَرْ هَذَا الرَّسُولُ كَرَاهِيَةً لِحُلُوِ الْخُطْبَةِ
مِنْ ذِكْرِ سُلْطَانِيهِ فَأَذِنَ فِي الدُّعَاءِ لَهُ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِأَخْذِهِمْ بِدَعْوَتِهِ وَهَكَذَا شَأْنُ
الدُّوَلِ فِي بَدَايَتِهَا وَتَمَكُّنِهَا فِي الْغَضَاضَةِ وَالْبِدَاوَةِ فَإِذَا انْتَبَهَتْ عَيُونُ سِيَاسَتِهِمْ

وَنَظَرُوا فِي أَعْطَافِ مُلْكِهِمْ وَاسْتَمْتَمُوا شِيَاتٍ ^(١) الْحَضَارَةَ وَمَقَانِي الْبَذْخِ وَالْأَبْهَةِ
 أَنْتَحَلُوا جَمِيعَ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ وَتَفَتَّنُوا فِيهَا وَتَجَارَوْا إِلَى غَايَتِهَا وَأَنْفَوْا مِنَ الْمُشَارَكَةِ
 فِيهَا وَجَزَعُوا مِنَ اقْتِنَادِهَا وَخَلَوْ دَوْلَتِهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَالْعَالَمُ بُسْتَانٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ رَقِيبٌ .

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الأمم وترتيبها

إِغْلَمْ أَنَّ الْحُرُوبَ وَأَنْوَاعَ الْمُقَاتِلَةِ لَمْ تَزَلْ وَاقِعَةً فِي الْخَلِيقَةِ مُنْذُ بَرَأَهَا اللَّهُ
 وَأَصْلُهَا إِرَادَةُ انْتِقَامِ بَعْضِ الْبَشَرِ مِنْ بَعْضٍ وَيَتَغَضَّبُ لِكُلِّ مِنْهَا أَهْلٌ غَضَبِيَّتُهُ فَإِذَا
 تَذَامَرُوا لِذَلِكَ وَتَوَافَقَتِ الطَّائِفَتَانِ إِحْدَاهُمَا تَطَلَّبُ الْإِنْتِقَامِ وَالْأُخْرَى تُدَافِعُ كَانَتْ
 الْحَرْبُ وَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ لَا تَخْلُو عَنْهُ أُمَّةٌ وَلَا جِيلٌ وَسَبَبُ هَذَا الْإِنْتِقَامِ فِي
 الْأَكْثَرِ إِمَّا غَيْرَةً وَمُنَافَسَةً . وَإِمَّا عُدْوَانَ وَإِمَّا غَضَبَ اللَّهِ وَلِدِينِهِ وَإِمَّا غَضَبَ لِلْمُلْكِ
 وَسَعَى فِي تَمْهِيدِهِ فَالأَوَّلُ أَكْثَرُ مَا يَجْرِي بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْمُتَجَاوِزَةِ وَالْقَشَائِرِ
 الْمُتَنَازِلَةِ وَالثَّانِي وَهُوَ الْعُدْوَانُ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأُمَمِ الْوَحْشِيَّةِ السَّاكِنِينَ بِالْقَفْرِ
 كَالْعَرَبِ وَالتُّرْكِ وَالتُّرْكَمَانِ وَالْأَكْرَادِ وَأَشْبَاهِهِمْ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا أَرْزَاقَهُمْ فِي رِمَاحِهِمْ
 وَمَعَاشَهُمْ فِيمَا بَأْيَدِي غَيْرِهِمْ وَمَنْ دَافَعَهُمْ عَنْ مَتَاعِهِ آذَنُوهُ بِالْحَرْبِ وَلَا بُغْيَةَ لَهُمْ
 فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ رُتْبَةٍ وَلَا مُلْكٍ وَإِنَّمَا هُمُومُهُمْ وَنُصْبُ أَعْيُنِهِمْ غَلَبَ النَّاسِ عَلَى مَا فِي
 أَيْدِيهِمْ وَالثَّلَاثُ هُوَ الْمُسَمَّى فِي الشَّرِيعَةِ بِالْجِهَادِ وَالرَّابِعُ هُوَ حُرُوبُ الدُّوَلِ مَعَ
 الْخَارِجِينَ عَلَيْهَا وَالْمَانِعِينَ لِبَطَاعَتِهَا فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ مِنَ الْحُرُوبِ الصَّنَفَانِ
 الْأَوَّلَانِ مِنْهَا حُرُوبُ بَغْيٍ وَقَتْنَةٍ وَالصَّنَفَانِ الْآخِرَانِ حُرُوبُ جِهَادٍ وَعَدْلٍ وَصِفَةُ
 الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ مُنْذُ أَوَّلِ وُجُودِهِمْ عَلَى نَوْعَيْنِ نَوْعٌ بِالزُّخْفِ

(١) ألوان الحضارة .

صُفُوفاً وَنَوْعٍ بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ أَمَّا الَّذِي بِالرَّخْفِ فَهُوَ قِتَالُ الْعَجَمِ كُلِّهِمْ عَلَى تَعَاقُبِ
أَجْيَالِهِمْ وَأَمَّا الَّذِي بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ فَهُوَ قِتَالُ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَقِتَالُ
الرَّخْفِ أَوْثَقُ وَأَشَدُّ مِنْ قِتَالِ الْكَرِّ وَالْفَرِّ وَذَلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ الرَّخْفِ تَرْتَبُ فِيهِ الصُّفُوفُ
وَتُسَوَّى كَمَا تُسَوَّى الْقِدَاحُ أَوْ صُفُوفُ الصَّلَاةِ وَيَمَشُونَ بِصُفُوفِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ قُدَمَا ،
فَلِذَلِكَ تَكُونُ أَثْبَتَ عِنْدَ الْمَصَارِعِ وَأَصْدَقَ فِي الْقِتَالِ وَأَزْهَبَ لِلْعَدُوِّ . لِأَنَّهُ كَالْحَائِطِ
الْمُقْتَدِّ وَالْقَضِرِ الْمَشِيدِ لَا يَطْمَعُ فِي إِزَالَتِهِ وَفِي التَّنْزِيلِ « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » أَيِ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالثَّبَاتِ وَفِي
الْحَدِيثِ الْكَرِيمِ « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ
لَكَ حِكْمَةُ إِنْجَابِ الثَّبَاتِ وَتَحْرِيمِ التَّوَلَّى فِي الرَّخْفِ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الصَّفِّ فِي
الْقِتَالِ حِفْظَ النَّظَامِ كَمَا قُلْنَا هُنا فَمَنْ وَلَّى الْعَدُوَّ ظَهْرَهُ فَقَدْ أَخْلَى بِالْمَصَافِ وَبَاءَ بِإِثْمِ
الْهَزِيمَةِ إِنْ وَقَعَتْ وَصَارَ كَأَنَّهُ جَرَّهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَمَكْنَ مِنْهُمْ عَدُوَّهُمْ فَعَظُمَ
الذَّنْبُ لِعُمُومِ الْمَفْسَدَةِ وَتَعَدَّيْهَا إِلَى الدِّينِ بِخَرْقِ سِيَاحِهِ فَعُدَّ مِنَ الْكِبَائِرِ وَيَظْهَرُ
مِنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ أَنَّ قِتَالَ الرَّخْفِ أَشَدُّ عِنْدَ الشَّارِعِ وَأَمَّا قِتَالُ الْكَرِّ وَالْفَرِّ فَلَيْسَ فِيهِ مِنَ
الشَّدَةِ وَالْأَمْنِ مِنَ الْهَزِيمَةِ مَا فِي قِتَالِ الرَّخْفِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ يَتَّخِذُونَ وَرَاءَهُمْ فِي الْقِتَالِ
مَصَافًا ثَابِتًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَرِّ وَالْفَرِّ وَيَقُومُ لَهُمْ مَقَامَ قِتَالِ الرَّخْفِ كَمَا نَذَكُرُهُ
بَعْدَ . ثُمَّ إِنَّ الدُّوْلَ الْقَدِيمَةَ الْكَثِيرَةَ الْجُنُودِ الْمُتَسِعَةَ الْمَمَالِكِ كَانُوا يَقْسِمُونَ
الْجُيُوشَ وَالْعَسَاكِرَ أَقْسَامًا يُسَمُّونَهَا كِرَادِيْسَ وَيُسَوُّونَ فِي كُلِّ كِرْدُوسٍ صُفُوفَهُ
وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ جُنُودُهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ وَحَشِدُوا مِنْ قَاصِيَةِ النُّوَاحِي
اسْتَدْعَى ذَلِكَ أَنْ يَجْهَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا اخْتَلَطُوا فِي مَجَالِ الْحَرْبِ وَاعْتَوَرُوا مَعَ
عَدُوِّهِمُ الطُّغْنُ وَالضَّرْبُ فَيُخْشَى مِنْ تَدَافُعِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَجْلِ النُّكَرَاءِ ^(١) وَجَهْلِ
بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فَلِذَلِكَ كَانُوا يَقْسِمُونَ الْعَسَاكِرَ جُمُوعًا وَيَتَضَمُّونَ الْمُتَعَارِفِينَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ وَيَرْتَبُونَهَا قَرِيبًا مِنَ التَّرْتِيبِ الطَّبِيعِيِّ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ وَرِئِيسُ الْعَسَاكِرِ

(١) نَكَرَاءُ الدَّهْرِ ، شَتْنُهُ ، النُّكَرُ بَفَتْحِ النُّونِ وَضَمِّهَا ، الدَّهَاءُ وَالْفُطْنَةُ . (النُّجْد) .

كُلُّهَا مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ قَائِدٍ فِي الْقَلْبِ وَيُسَمُّونَ هَذَا التَّرْتِيبَ التَّغْيِثَةَ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي
أَخْبَارِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَالذُّوْلَتَيْنِ وَصَدَرَ الْإِسْلَامُ فَيَجْعَلُونَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ عَسْكَراً
مُنْفَرِداً بِصُفُوفِهِ مُتَمِيزاً بِقَائِدِهِ وَرَايَتِهِ وَشِعَارِهِ وَيُسَمُّونَهُ الْمُقَدِّمَةَ ثُمَّ عَسْكَراً آخَرَ
نَاحِيَةَ الْيَمِينِ عَنْ مَوْقِفِ الْمَلِكِ وَعَلَى سَمْتِهِ يُسَمُّونَهُ الْيَمِينَةَ ثُمَّ عَسْكَراً آخَرَ مِنْ
نَاحِيَةِ الشِّمَالِ كَذَلِكَ يُسَمُّونَهُ الْمَيْسِرَةَ ثُمَّ عَسْكَراً آخَرَ مِنْ وَرَاءِ الْعَسْكَرِ يُسَمُّونَهُ
السَّافَةَ وَيَقِفُ الْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ فِي الْوَسْطِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَعِ وَيُسَمُّونَ مَوْقِفَهُ الْقَلْبَ
فَإِذَا تَمَّ لَهُمْ هَذَا التَّرْتِيبُ الْمُحَكَّمُ إِمَّا فِي مَدَى وَاحِدٍ لِلْبَصَرِ أَوْ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ
أَكْثَرُهَا الْيَوْمُ وَالْيَوْمَانِ بَيْنَ كُلِّ عَسْكَرَيْنِ مِنْهَا أَوْ كَيْفَما أَعْطَاهُ حَالُ الْعَسَاكِرِ فِي
الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ الرَّخْفُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ التَّغْيِثَةِ وَانْظُرْ ذَلِكَ فِي أَخْبَارِ
الْمُقْتُوخَاتِ وَأَخْبَارِ الذُّوْلَتَيْنِ بِالْمَشْرِقِ وَكَيْفَ كَانَتْ الْعَسَاكِرُ لِعَبْدِ الْعَلِيِّ الْمَلِكِ
تَتَخَلَّفُ عَنْ رَحِيلِهِ لِبَعْدِ الْمَدَى فِي التَّغْيِثَةِ فَاحْتِيجَ لِمَنْ يَسُوقُهَا مِنْ خَلْفِهِ وَعَيْنَ
لِذَلِكَ الْحِجَاجِ بَنَ يُوسُفَ كَمَا أَسْرَضْنَا إِلَيْهِ وَكَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِ وَكَانَ فِي
الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ أَيْضاً كَثِيرٌ مِنْهُ وَهُوَ مَجْهُولٌ فِيمَا لَدَيْنَا لِأَنَّا إِنَّمَا أَدْرَكْنَا
دَوْلَةً قَلِيلَةً الْعَسَاكِرِ لَا تَنْتَهِي فِي مَجَالِ الْحَرْبِ إِلَى التَّنَاكُرِ بَلْ أَكْثَرُ الْجُيُوشِ مِنْ
الطَّائِفَتَيْنِ مَعَايِجَمُهُنَّ لَدَيْنَا حَلَّةٌ^(١) أَوْ مَدِينَةٌ وَيَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَرْنَهُ وَيُنَادِيهِ
فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ بِاسْمِهِ وَلَقَبِهِ فَاسْتَعْنَى عَنْ تِلْكَ التَّغْيِثَةِ .

وَمِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ فِي الْحُرُوبِ ضَرْبُ الْمَصَافِ وَرَاءَ عَسْكَرِهِمْ مِنْ
الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ الْمُجَمِّعِ فَيَتَّخِذُونَهَا مَلْجَأً لِلْخِيَالَةِ فِي كَرِّهِمْ وَفَرِّهِمْ يَطْلُبُونَ بِهِ
ثَبَاتَ الْمُقَاتِلَةِ لِيَكُونَ أَدْوَمَ لِلْحَرْبِ وَأَقْرَبَ إِلَى الْغَلَبِ وَقَدْ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الرَّخْفِ أَيْضاً
لِيَزِيدَهُمْ ثَبَاتاً وَشِدَّةً فَقَدْ كَانَ الْفَرَسُ وَهُمْ أَهْلُ الرَّخْفِ يَتَّخِذُونَ الْفِيلَةَ فِي الْحُرُوبِ
وَيَحْمَلُونَ عَلَيْهَا أَبْرَاجاً مِنَ الْخَشَبِ أَمْثَالِ الصُّرُوحِ مَشْحُونَةً بِالْمُقَاتِلَةِ وَالسَّلَاحِ
وَالرَّايَاتِ وَيَصُفُّونَهَا وَرَاءَهُمْ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ كَأَنَّهَا حُصُونٌ فَتَقْوَى بِذَلِكَ نَفُوسُهُمْ

(١) الخلة ، ج خلل و خلل ، كل ثوب جديد أو عموماً الثوب السائر لجميع البدن والخلة ، الزنبيل

الكبير من القصب . والجللة من الشيء جهته (المنجد) .

وَيَزِدَادُ وَثُوقَهُمْ وَانْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْقَادِيسِيَّةِ وَإِنْ فَارِسَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ
 اشْتَدُّوا بِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى اشْتَدَّتْ رَجَالَاتُ مِنَ الْعَرَبِ فَخَالَطُوهُمْ وَبَعَجَوْهَا
 بِالسُّيُوفِ عَلَى خَرَاطِيمِهَا فَنفَرَتْ وَنَكَصَتْ ^(١) عَلَى أَغْفَابِهَا إِلَى مَرَابِطِهَا بِالْمَدَائِنِ
 فَجَفَا مُعْسَكَرُ فَارِسَ لِذَلِكَ وَانْهَزَمُوا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ . وَأَمَّا الرُّومُ وَمُلُوكُ الْقُوطِ
 بِالْأَنْدَلُسِ وَأَكْثَرُ الْعَجَمِ فَكَانُوا يَتَّخِذُونَ لِذَلِكَ الْأَسِيرَةَ يَنْصِبُونَ لِلْمَلِكِ سَرِيرَهُ فِي
 حُومَةِ الْحَرْبِ وَيَحْفُ بِهِ مِنْ خَدَمِهِ وَخَاشِيَتِهِ وَجُنُودِهِ مَنْ هُوَ زَعِيمٌ بِالِاسْتِمَاتَةِ دُونَهُ
 وَتَرْفَعُ الرَّايَاتُ فِي أَرْكَانِ السَّرِيرِ وَيُخَدِّقُ بِهِ سِيَاجَ آخَرٍ مِنَ الرَّمَاةِ وَالرَّجَالَةِ فَيُعْظَمُ
 هَيْكَلُ السَّرِيرِ وَيَصِيرُ فِتْنَةً لِلْمُقَاتِلَةِ وَمَلْجَأً لِلْكَرِّ وَالْفَرِّ وَجَعَلَ ذَلِكَ الْفَرَسُ أَيَّامَ
 الْقَادِيسِيَّةِ وَكَانَ رُسْتَمُ ^(٢) جَالِسًا عَلَى سَرِيرِ نَصْبِهِ لِحُلُوسِهِ حَتَّى اخْتَلَفَتْ صُفُوفُ
 فَارِسَ وَخَالَطَهُ الْعَرَبُ فِي سَرِيرِهِ ذَلِكَ فَتَحَوَّلَ عَنْهُ إِلَى الْفَرَاتِ وَقُتِلَ . وَأَمَّا أَهْلُ الْكَرِّ
 وَالْفَرِّ مِنَ الْعَرَبِ وَأَكْثَرُ الْأَمَمِ الْبَدَوِيَّةِ الرَّحَالَةِ فَيَصُفُّونَ لِذَلِكَ إِبِلَهُمْ وَالظَّهْرَ الَّذِي
 يَحْمِلُ طَعَائِنَهُمْ فَيَكُونُ فِتْنَةً لَهُمْ وَيُسْمَوْنَهَا الْمَجْبُودَةَ وَلَيْسَ أُمَّةٌ مِنَ الْأَمَمِ إِلَّا وَهِيَ
 تَفْعَلُ فِي حُرُوبِهَا وَتَرَاهُ أَوْثَقَ فِي الْجَوْلَةِ وَأَمَنَ مِنَ الْغِرَةِ وَالْهَزِيمَةِ وَهُوَ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ وَقَدْ
 أَغْفَلَتْهُ الدُّوَلُ لِعَهْدِنَا بِالْجُمْلَةِ وَاعْتَاضُوا عَنْهُ بِالظَّهْرِ الْحَامِلِ لِلْأَثْقَالِ وَالْفَسَاطِيطِ
 يَجْعَلُونَهَا سَاقَةً مِنْ خَلْفِهِمْ وَلَا تَغْنِي غِنَاءَ الْفِيلَةِ وَالْإِبِلِ فَصَارَتِ الْعَسَاكِرُ بِذَلِكَ
 عَرَضَةً لِلْهَزَائِمِ وَمُسْتَشْعِرَةً لِلْفِرَارِ فِي الْمَوَاقِفِ . وَكَانَ الْحَرْبُ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ كُلَّهُ زَخْفًا
 وَكَانَ الْعَرَبُ إِنَّمَا يَعْرِفُونَ الْكَرَّ وَالْفَرَّ لَكِنْ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ أَمْرَانِ
 أَحَدُهُمَا أَنَّ أَغْدَاءَهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ زَخْفًا فَيُضْطَرُّونَ إِلَى مُقَاتَلَتِهِمْ بِمِثْلِ قِتَالِهِمْ .
 وَالثَّانِي أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَمِيتِينَ فِي جِهَادِهِمْ لِمَا رَغِبُوا فِيهِ مِنَ الصَّبْرِ ، وَلَمَّا رَسَخَ فِيهِمْ
 مِنَ الْإِيمَانِ وَالزَّخْفِ إِلَى الْاسْتِمَاتَةِ أَقْرَبَ . وَأَوَّلُ مَنْ أَبْطَلَ الصَّفَّ فِي الْحُرُوبِ
 وَصَارَ إِلَى التَّغْيَةِ كَرَادِيسَ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فِي قِتَالِ الصُّحَاكِ الْخَارِجِيِّ وَالْجُبَيْرِيِّ
 بَعْدَهُ قَالَ الطَّبْرِيُّ لَمَّا ذَكَرَ قِتَالَ الْجُبَيْرِيِّ « فَوَلَّى الْخَوَارِجُ عَلَيْهِمْ شَيْبَانَ بْنَ عَبْدِ

(١) أَحْجَمَتْ .

(٢) هُوَ قَائِدُ الْجِيُوشِ الْفَارِسِيَّةِ فِي مَعْرَكَةِ الْقَادِيسِيَّةِ .

العزير الشكري ويلقب أبا الذلفاء قاتلهم مزوان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ « انتهى . فتنوسى قتال الزحف بإبطال الصف ثم تنوسى الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم فى الأخياء فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقرى نسوا لذلك عند الإبل والطعائن وصعب عليهم اتخاذها فخلفوا النساء فى الأسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية فاقترضوا على الظهر الحامل للأنقال^(١) والأبنية وكان ذلك صفتهم فى الحرب ولا يغنى كل الغناء لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهينات^(٢) وتخرم صفوفهم . ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكيده فى قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج فى جندهم واختصوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر والسلطان يتأكد فى حقه ضرب المصاف ليكون رداء للمقاتلة أمامه فلا بد من أن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات فى الزحف ولا أجفلوا على طريقة أهل الكر والفر فانهزم السلطان والعساكر بإجفالهم فاقتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جنداً من هذه الأمة المتعوده الثبات فى الزحف وهم الإفرنج ويرتبون مصافهم المصدق بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر . وإنهم استخفوا ذلك للضرورة التى أريناكمها من تخوف الإخفال على مصاف السلطان والإفرنج لا يعرفون غير الثبات فى ذلك لأن عادتهم فى القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك فى المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة وأما فى الجهاد فلا يستعينون بهم خذراً من ممالأتهم على المسلمين هذا هو

(١) قوله للأنقال والأبنية مراده بالأبنية الخيام كما يدل عليه قوله فى فصل الخندق الآتى قريباً إذا نزلوا

وضربوا أبنيتهم ١ هـ .

(٢) الأصوات المخيفة .

الواقع لهذا العهد وقد أبدينا سببه والله بكل شيء عليم . وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهام وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفًا وراء صف ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون جلوساً وكل صف ردة للذي أمامه أن يكبسهم العدو إلى أن يتسبأ النصر لإحدى الطائفتين على الأخرى وهي تعبئة محكمة غريبة . وكان من مذاهب الأول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف خذراً من معرفة البيات والهجوم على المعسكر بالليل لما في ظلمته ووخشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجذ النفوس في الظلمة سترًا من عاره فإذا تساوا في ذلك أزعج المعسكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يختفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم^(١) ويدبرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا . وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدي عليه في كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلة نسي هذا الشأن جملة كأنه لم يكن والله

خير القادرين . وانظر وصية علي رضي الله عنه وتخریضه لأصحابه يوم صفين تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه قال في كلام له : « فسؤوا صفوفكم كالبنیان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام والتوا على أطراف الرماح فإنه أضون للأسنة وعضوا الأنصار فإنه أربط للجاش وأسكن للقلوب واخفوا الأصوات فإنه أطردهم للفشل وأولى بالوقار وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم واستعينوا بالصديق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر » وقال الأشر يومئذ يخرض الأزد : « عضوا على النواجذ من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا

(١) خيامهم

شِدَّة قَوْمٍ مُؤْتَوِرِينَ يَثَارُونَ بِآبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ وَقَدْ وَطَنُوا عَلَى
 الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ لِئَلَّا يُسَبِّقُوا بِوُثْرٍ وَلَا يُلْحَقَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَارٌ » وَقَدْ أَشَارَ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ
 ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّيرَفِيُّ شَاعِرُ لِمَتُونَةَ وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي كَلِمَةٍ يَمْدَحُ بِهَا
 تَاشِفِينَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ يُونُسَ وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَرْبٍ شَهِدَهَا وَيَذْكُرُهُ بِأُمُورِ الْحَرْبِ
 فِي وَصَايَا تَحْذِيرَاتٍ تُنَبِّهُكَ عَلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنْ سِيَاسَةِ الْحَرْبِ يَقُولُ فِيهَا.

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الَّذِي يَتَقَنَّعُ	مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْهَمَامُ الْأَرْوَعُ
وَمَنْ الَّذِي عَذَرَ الْعَدُوَّ بِهِ دَجَى	فَانْفَضَّ كُلُّ وَهْوٍ لَا يَتَرَعَّزُ
تَمْضِي الْقَوَارِسُ وَالطَّعَانُ يَصُدُّهَا	عَنْهُ وَيَذِمُّهَا الْوَفَاءُ فَتَرْجَعُ
وَاللَّيْلُ مِنْ وَضَحِ التَّرَائِكِ إِنَّهُ	صَنَعَ عَلَى هَامِ الْجِيُوشِ يَلْمَعُ
أَنْتَى فَرَعْتُمْ يَا بَنِي صَنْهَاجَةَ	وَالْيَكُمُ فِي الرُّوْعِ كَانَ الْمَفْزَعُ
إِنْ سَانَ عَيْنٍ لَمْ يُصَيِّهَا مِنْكُمْ	حُضْنَ وَقَلْبَ أَسْلَمَتِهِ الْأَضْلَعُ
وَصَدَدْتُمْ عَنْ تَاشِفِينَ وَإِنَّهُ	لِعَقَابِهِ لَوْ شَاءَ فِيكُمْ مَوْضِعُ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا أَسْوَدُ خَفِيَّةِ	كُلِّ لِكُلِّ كَرِيهَةٍ مُسْتَطْلَعُ
يَا تَاشِفِينَ أَقِمْ لِحَيْشِكَ عُدْرَةَ	بِاللَّيْلِ وَالْعُدُوِّ الَّذِي لَا يُدْفَعُ

وَمِنْهَا فِي سِيَاسَةِ الْحَرْبِ

أَهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ	كَانَتْ مُلُوكُ الْفُرْسِ قَبْلَكَ تُؤْلَعُ
لَا إِنِّي أَذْرِي بِهَا لَكِنَّهَا	ذَكَرَى تَحُضُّ الْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَالْبَسَ مِنَ الْحَلْقِي الْمَضَافَةِ الَّتِي	وَصَّى بِهَا صَنَعَ الصَّنَائِعِ تَبْعُ
وَالْهِنْدَوَانِي الرُّقِيقُ فَإِنَّهُ	أَمْضَى عَلَى حَدِّ الدَّلَاصِ وَأَقْطَعُ
وَارَكَبَ مِنَ الْخَيْلِ السَّوَابِقِ عِدَّةٌ	حُضْنَا حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مِدْفَعُ
خَنْدِيقُ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَحَلَّةَ	سَيَّانٍ تَتَّبِعُ ظَافِرًا أَوْ تَتَّبِعُ
وَالسَّوَادِ لَا تَعْبُرُهُ وَانْزِلْ عِنْدَهُ	بَيْنَ الْعَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يَقْطَعُ

وَاجْعَلْ مُنَاجَزَةَ الْجِيُوشِ عَشِيَّةً وَوَرَاءَكَ الصَّدْقُ الَّذِي هُوَ أَمْنٌ
وَإِذَا تَضَايَقَتِ الْجِيُوشُ بِمَعْرِكَ ضَنْكَ فَأَطْرَافُ الرَّمَاكِ تَوْسَعُ
وَاضْطَمَهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرُثُ شَيْئاً فَاظْهَارُ النُّكُولِ يُضْغَعُ
وَاجْعَلْ مِنَ الطَّلَاعِ أَهْلَ شَهَامَةٍ لِلصَّدَقِ فِيهِمْ شِيْمَةٌ لَا تَخْدَعُ
لَا تَسْمَعَ الْكَذَابَ جَاءَكَ مُرْجِفاً لَا رَأْيَ لِلْكَذَابِ فِيمَا يَضْنَعُ

قَوْلُهُ وَاضْطَمَهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرُثُ الْبَيِّنَةُ مُخَالَفَ لِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ فَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي عُبَيْدٍ بَنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ لَمَّا وَلَّاهُ حَرْبَ فَارِسَ وَالْعِرَاقِ فَقَالَ لَهُ اسْمَعْ وَأَطِعْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَشْرِكْهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَا تُجِيبَنَّ مُسْرِعاً حَتَّى تَتَبَيَّنَ فَإِنَّهَا الْحَرْبُ وَلَا يَصْلُحُ لَهَا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ ^(١) الَّذِي يَغْرِفُ الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى : « إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُوْمَرَ سَلِيْطاً إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي الْحَرْبِ وَفِي التَّسْرُعِ فِي الْحَرْبِ إِلَّا عَنْ بَيَانٍ ضَيَاعٍ وَاللَّهِ لَوْلَا ذَلِكَ لَأَمَرْتُهُ لَكِنَّ الْحَرْبَ لَا يَصْلُحُهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ » هَذَا كَلَامُ عُمَرَ وَهُوَ شَاهِدٌ بِأَنَّ الشَّاكِلَ فِي الْحَرْبِ أَوَّلَى مِنَ الْخُفُوفِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَالُ تِلْكَ الْحَرْبِ وَذَلِكَ عَكْسُ مَا قَالَهُ الصَّيْرَفِيُّ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّ الصَّدْمَ بَعْدَ الْبَيَانِ ^(٢) فَلَهُ وَجْهٌ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . وَلَا وَثُوقٌ فِي الْحَرْبِ بِالظَّفَرِ وَإِنْ حَصَلَتْ أَسْبَابُهُ مِنَ الْعِدَّةِ وَالْعَدِيدِ وَإِنَّمَا الظَّفَرُ فِيهَا وَالْغَلْبُ مِنْ قَبِيلِ الْبَحْثِ وَالِاتِّفَاقِ وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ أَسْبَابَ الْغَلْبِ فِي الْأَكْثَرِ مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أُمُورٍ ظَاهِرَةٍ وَهِيَ الْجِيُوشُ وَوُفُورُهَا وَكَمَالُ الْأَسْلِحَةِ وَاسْتِجَادَتُهَا وَكَثْرَةُ الشُّجْعَانِ وَتَرْتِيبُ الْمَصَافِ وَمِنْهُ صِدْقُ الْقِتَالِ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ وَمِنْ أُمُورٍ خَفِيَّةٍ وَهِيَ إِثْمَانُ مِنْ خِدَاعِ الْبَشَرِ وَحِيلِهِمْ فِي الْإِزْجَافِ وَالتَّشَانِيعِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا التَّخْذِيلُ وَفِي التَّقَدُّمِ إِلَى الْأَمَاكِينِ الْمُرْتَفِعَةِ لِيَكُونَ الْحَرْبُ مِنْ أَعْلَى فَيَتَوَهَّمُ الْمُنْخَفِضُ لِلذِّكِّ وَفِي الْكُمُومِ فِي الْغِيَاضِ وَمُطْمَئِنِّ الْأَرْضِ وَالتَّوَارِي بِالْكَدَى ^(٣) حَوْلَ الْعَدُوِّ حَتَّى يَتَدَاوِلَهُمُ الْعَسْكَرُ

(١) المكيث : الرزين للتاني (المنجد) .

(٢) كلمة البيان ليس لها معنى في هذه الجملة ولعلها محرفة من كلمة بيات كما يقتضيه سياق المعنى .

(٣) يقال : الحافر . بلغ الكدية فلا يمكنه أن يحفر . حفر فاكدي أي بلغ الصلب والكدي الأرض

الصلبة . (المنجد) .

دَفْعَةً وَقَدْ تَوَرَّطُوا فَيَتَلَفَتُونَ إِلَى النِّجَاةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَسْبَابُ الْخَفِيَّةُ أُمُورًا سَمَاوِيَّةً لَا قُدْرَةَ لِلْبَشَرِ عَلَى اكْتِسَابِهَا تُلْقَى فِي الْقُلُوبِ فَيَسْتَوْلِي الرُّهْبَ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِهَا فَتَحْتَطُّ مَرَاكِزُهُمْ فَتَقَعُ الْهَزِيمَةُ وَأَكْثَرُ مَا تَقَعُ الْهَزَائِمُ عَنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ لِكَثْرَةِ مَا يُعْتَمَلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِيهَا حِرْصًا عَلَى الْغَلَبِ فَلَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِ التَّأْثِيرِ فِي ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا ضَرُورَةٌ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ « الْحَرْبُ خُدْعَةٌ » وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ « رَبُّ حِيلَةٍ أَنْفَعُ مِنْ قَبِيلَةٍ » فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وَقُوعَ الْغَلَبِ فِي الْحُرُوبِ غَالِبًا عَنْ أَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ غَيْرِ ظَاهِرَةٍ وَوُقُوعِ الْأَشْيَاءِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ هُوَ مَعْنَى الْبَحْثِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ فَاعْتَبِرْهُ وَتَفَهَّمْ مِنْ وَقُوعِ الْغَلَبِ عَنِ الْأُمُورِ السَّمَاوِيَّةِ كَمَا شَرَحْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » وَمَا وَقَعَ مِنْ غَلَبِهِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي حَيَاتِهِ بِالْعَدَدِ الْقَلِيلِ وَغَلَبِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ فِي الْفُتُوحَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَكْفُلُ لِنَبِيِّهِ بِالْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَيَنْهَزِمُوا مُعْجِزَةً لِرَسُولِهِ ﷺ فَكَانَ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ سَبَبًا لِلْهَزَائِمِ فِي الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا أَنَّهُ خَفِيَ عَنِ الْعُيُونِ . وَقَدْ ذَكَرَ الطَّرْطُوشِيُّ ، أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْغَلَبِ فِي الْحَرْبِ أَنْ تَفْضَلَ عِدَّةُ الْفُرْسَانِ الْمَشَاهِيرِ مِنَ الشُّجْعَانِ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى عِدَّتِهِمْ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الْجَانِبَيْنِ فِيهِ عَشْرَةٌ أَوْ عَشْرُونَ مِنَ الشُّجْعَانِ الْمَشَاهِيرِ وَفِي الْجَانِبِ الْآخَرِ ثَمَانِيَّةٌ أَوْ سِتَّةٌ عَشَرَ فَالْجَانِبُ الزَّائِدُ وَلَوْ بِوَاحِدٍ يَكُونُ لَهُ الْغَلَبُ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَى وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي قَدَّمْنَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ . وَإِنَّمَا الصَّحِيحُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْغَلَبِ حَالُ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّهِمْ وَفِي الْجَانِبِ الْآخَرِ عَصَائِبُ مُتَعَدِّدَةٌ لِأَنَّ الْعَصَائِبَ إِذَا كَانَتْ مُتَعَدِّدَةً يَقَعُ بَيْنَهَا مِنَ التَّخَاذُلِ مَا يَقَعُ فِي الْوَحْدَانِ الْمُتَفَرِّقِينَ الْفَاقِدِينَ لِلْعَصَبِيَّةِ تَنْزُلُ كُلُّ عَصَايَةٍ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً الْوَاحِدِ وَيَكُونُ الْجَانِبُ الَّذِي عَصَابَتُهُ مُتَعَدِّدَةٌ لَا يَقَاوِمُ الْجَانِبَ الَّذِي عَصَبَتُهُ وَاحِدَةٌ لِأَجْلِ ذَلِكَ فَتَقْهَمُهُ وَاعْلَمْ أَنَّهُ أَصَحُّ فِي الْإِعْتِبَارِ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ الطَّرْطُوشِيُّ وَلَمْ

يَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا نِسْيَانُ شَأْنِ الْعَصِيَّةِ فِي حُلَّةِ وَبَلَدَةِ وَأَنْتَهُمْ إِنَّمَا يَرَوْنَ ذَلِكَ الدَّفَاعَ
وَالْحِمَايَةَ وَالْمُطَالَبَةَ إِلَى الْوُحْدَانِ وَالْجَمَاعَةِ النَّاشِئَةِ عَنْهُمْ لَا يُعْتَبِرُونَ فِي ذَلِكَ
عَصِيَّةً وَلَا نَسْبًا وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ أَوَّلَ الْكِتَابِ مَعَ أَنَّ هَذَا وَأَمْثَالَهُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ
إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ مِثْلُ اتِّفَاقِ الْجَيْشِ فِي الْعِدَّةِ وَصِدْقِ الْقِتَالِ وَكَثْرَةِ
الْأَسْلِحَةِ وَمَا أَشَبَّهَا فَكَيْفَ يُجْعَلُ ذَلِكَ كَفِيلًا بِالْغَلَبِ وَنَحْنُ قَدْ قَرَرْنَا لَكَ الْآنَ أَنَّ
شَيْئًا مِنْهَا لَا يَعَارِضُ الْأَسْبَابَ الْخَفِيَّةَ مِنَ الْحِيلِ وَالْخِدَاعِ وَلَا الْأُمُورَ السَّمَاوِيَّةَ مِنَ
الرُّعْبِ وَالْخِذْلَانِ الْإِلَهِيِّ فَافْهَمْهُ وَتَفَهَّمْ أَحْوَالَ الْكَوْنِ « وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » .
وَيُلْحَقُ بِمَعْنَى الْغَلَبِ فِي الْحُرُوبِ وَأَنَّ أَسْبَابَهُ خَفِيَّةٌ وَغَيْرُ طَبِيعِيَّةٍ حَالُ الشُّهْرَةِ
وَالصِّيتِ فَقُلْ أَنَّ تَصَادِفَ مَوْضِعِهَا فِي أَحَدٍ مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَالْمُنْتَجِلِينَ لِلْفَضَائِلِ عَلَى الْعُمُومِ وَكَثِيرٍ مِنْ أَشْهَرِ بِالشَّرِّ وَهُوَ يَخْلَافُهُ
وَكَثِيرٍ مِنْ تَجَاوَزَتْ عَنْهُ الشُّهْرَةُ وَهُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا وَقَدْ تَصَادَفَ مَوْضِعُهَا وَتَكُونُ
طَبَقًا عَلَى صَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الشُّهْرَةَ وَالصِّيتَ إِنَّمَا هُمَا بِالْإِخْبَارِ وَالْإِخْبَارُ
يَدْخُلُهَا الذُّهُولُ عَنِ الْمَقَاصِدِ عِنْدَ التَّنَاقُلِ وَيَدْخُلُهَا التَّعَصُّبُ وَالتَّشْيِيعُ وَيَدْخُلُهَا
الْأَوْهَامُ وَيَدْخُلُهَا الْجَهْلُ بِمُطَابَقَةِ الْحِكَايَاتِ لِلْأَحْوَالِ لِخِفَائِهَا بِالتَّلْبِيسِ وَالتَّصْنُوعِ
أَوْ لِجَهْلِ النَّاقِلِ وَيَدْخُلُهَا التَّقَرُّبُ لِأَصْحَابِ التَّجَلَّةِ وَالْمَرَاتِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِالثَّنَاءِ
وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ وَالنَّفُوسُ مُولَعَةٌ بِحُبِّ الثَّنَاءِ وَالنَّاسُ
مُتَطَاوِلُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابُهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرَوَةٍ وَلَيْسُوا مِنَ الْأَكْثَرِ بِرَاضِعِينَ فِي
الْفَضَائِلِ وَلَا مُنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا وَأَيْنَ مُطَابَقَةُ الْحَقِّ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا فَتَخْتَلُ الشُّهْرَةُ عَنْ
أَسْبَابِ خَفِيَّةٍ مِنْ هَذِهِ وَتَكُونُ غَيْرَ مُطَابِقَةٍ وَكُلُّ مَا حَصَلَ بِسَبَبِ خَفِيٍّ فَهُوَ الَّذِي
يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْبَخْتِ كَمَا تَقَرَّرَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

إِغْلَمْ أَنَّ الْجَبَايَةَ أَوَّلُ الدُّوَلَةِ تَكُونُ قَلِيلَةً الْوَزَائِعُ كَثِيرَةً الْجُمْلَةِ وَآخِرُ الدُّوَلَةِ تَكُونُ كَثِيرَةً الْوَزَائِعُ قَلِيلَةً الْجُمْلَةِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدُّوَلَةَ إِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ الدِّينِ فَلَيْسَتْ تَقْتَضِي إِلَّا الْمَغَارِمَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْخَرَاجِ وَالْجَزْيَةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ الْوَزَائِعِ لِأَنَّ مِقْدَارَ الزَّكَاةِ مِنَ الْمَالِ قَلِيلٌ كَمَا عَلِمْتَ وَكَذَا زَكَاةُ الْحُبُوبِ وَالْمَاشِيَةِ وَكَذَا الْجَزْيَةُ وَالْخَرَاجُ وَجَمِيعُ الْمَغَارِمِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ حُدُودٌ لَا تَتَعَدَّى وَإِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ التَّغْلِبِ وَالْعَصَبِيَّةِ فَلَا بُدَّ مِنَ الْبِدَاوَةِ فِي أَوَّلِهَا كَمَا تَقَدَّمَ وَالْبِدَاوَةُ تَقْتَضِي الْمَسَامَحَةَ وَالْمَكَارِمَةَ وَخَفَضَ الْجَنَاحَ وَالتَّجَافِيَّ عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالْعَفْلَةَ عَنْ تَحْصِيلِ ذَلِكَ إِلَّا فِي النَّادِرِ فَيَقِلُّ لِدَلِكِ مِقْدَارُ الْوُظَيْفَةِ الْوَاحِدَةِ وَالْوَزِيْعَةُ الَّتِي تَجْمَعُ الْأَمْوَالُ مِنْ مَجْمُوعِهَا وَإِذَا قَلَّتِ الْوَزَائِعُ وَالْوُظَائِفُ عَلَى الرُّعَايَا نَشِطُوا لِلْعَمَلِ وَرَغَبُوا فِيهِ فَيَكْثُرُ الْإِعْتِمَارُ وَيَتَزَايَدُ لِحُصُولِ الْإِغْتِنَابِ بِقِلَّةِ الْمَغْرَمِ وَإِذَا كَثُرَ الْإِعْتِمَارُ كَثُرَتْ أَعْدَادُ تِلْكَ الْوُظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ فَكَثُرَتْ الْجَبَايَةُ الَّتِي هِيَ جُمْلَتُهَا فَإِذَا اسْتَمَرَّتِ الدُّوَلَةُ وَاتَّصَلَتْ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَاتَّصَفُوا بِالْكَيسِ وَذَهَبَ سِرُّ^(١) الْبِدَاوَةِ وَالسَّدَاجَةِ وَخُلِقَ مِنْ الْإِغْضَاءِ وَالتَّجَافِيَّ وَجَاءَ الْمُلْكُ الْقَضُوضُ^(٢) وَالْحَضَارَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْكَيسِ وَتَخَلَّقَ أَهْلُ الدُّوَلَةِ حِينَئِذٍ بِخُلُقِ التَّحَذُّلِ وَتَكَثَّرَتْ عَوَائِدُهُمْ وَحَوَائِجُهُمْ بِسَبَبِ مَا انْفَعَسُوا فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَالتَّرَفِ فَيَكْثُرُونَ الْوُظَائِفَ وَالْوَزَائِعَ حِينَئِذٍ عَلَى الرُّعَايَا وَالْأَكْرَةِ^(٣) وَالْفَلَاحِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ

(١) وفي نسخة أخرى شَرٌّ ولعلها محرفة من كلمة أُنْزِرَ كما يقتضي معنى السياق .

(٢) ج العَضُ ، الشديد القوي (للنجد) .

(٣) الأكرة ج أكار وأكارون ، الحراث (للنجد) .

المَغَارِمَ وَيَزِيدُونَ فِي كُلِّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيعَةٍ مِقْدَاراً عَظِيماً لِتَكْثُرَ لَهُمُ الْجَبَايَةُ وَيَضَعُونَ الْمَكُوسَ عَلَى الْمُبَايَعَاتِ وَفِي الْأَبْوَابِ كَمَا نَذَكُرُ بَعْدَئِذَا تَتَدَرَّجُ الزِّيَادَاتُ فِيهَا بِمِقْدَارِهِ بَعْدَ مِقْدَارِهِ لِتَدَرَّجَ عَوَائِدُ الدَّوْلَةِ فِي التَّرَفِّ وَكَثْرَةِ الْحَاجَاتِ وَالْإِنْفَاقِ بِسَبَبِهِ حَتَّى تَثْقُلَ الْمَغَارِمُ عَلَى الرِّعَايَا وَتَهْضِمَهُمْ وَتَصِيرَ عَادَةً مَفْرُوضَةً لَأَنَّ تِلْكَ الزِّيَادَةَ تَدْرَجَتْ قَلِيلاً قَلِيلاً وَلَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ بِمَنْ زَادَهَا عَلَى التَّعْيِينِ وَلَا مَنْ هُوَ وَاضِعُهَا إِنَّمَا ثَبَّتَ عَلَى الرِّعَايَا فِي الْإِعْتِمَارِ لِيَذْهَبَ الْأَمَلُ مِنْ نَفُوسِهِمْ بِقِلَّةِ النِّفْعِ إِذَا قَابَلَ بَيْنَ نَفْعِهِ وَمَغَارِمِهِ وَبَيْنَ ثَمَرَتِهِ وَفَائِدَتِهِ فَتَنْقَبِضُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْدِي عَنْ الْإِعْتِمَارِ جُمْلَةً فَتَنْقُصُ جُمْلَةُ الْجَبَايَةِ حِينَئِذٍ بِنَقْصَانِ تِلْكَ الْوَزَائِعِ مِنْهَا وَزُبْئاً يَزِيدُونَ فِي مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ النِّقْصَ فِي الْجَبَايَةِ وَيَحْسِبُونَهُ جَبْراً لِمَا نَقَصَ حَتَّى تَنْتَهِيَ كُلُّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيعَةٍ إِلَى غَايَةِ لَيْسَ وَرَاءَهَا نَفْعٌ وَلَا فَائِدَةٌ لِكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ حِينَئِذٍ فِي الْإِعْتِمَارِ وَكَثْرَةِ الْمَغَارِمِ وَعَدَمِ وِفَاءِ الْفَائِدَةِ الْمَرْجُوءَةِ بِهِ فَلَا تَزَالُ الْجُمْلَةُ فِي نَقْصٍ وَمِقْدَارُ الْوَزَائِعِ وَالْوُظَائِفِ فِي زِيَادَةٍ لِمَا يَغْتَفِدُونَهُ مِنْ جَبْرِ الْجُمْلَةِ بِهَا إِلَى أَنْ يَنْتَقِصَ الْعُمَرَانُ بِذَهَابِ الْأَمَالِ مِنَ الْإِعْتِمَارِ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ لِأَنَّ فَائِدَةَ الْإِعْتِمَارِ عَائِدَةٌ إِلَيْهَا وَإِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ أَنَّ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي الْإِعْتِمَارِ تَقْصِيرُ مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْمُعْتَمِرِينَ مَا أَمَكَّنَ فَبِذَلِكَ تَنْبَسِطُ النُّفُوسُ إِلَيْهِ لِيَقْتَنِبَهَا بِإِذْرَاكِ الْمَنْفَعَةِ فِيهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى « مَا لِكَ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَبِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » ^(١)

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس أواخر الدولة

إِغْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَكُونُ فِي أَوَّلِهَا بَدْوِيَّةً كَمَا قُلْنَا فَتَكُونُ لِذَلِكَ قَلِيلَةَ الْحَاجَاتِ لِعَدَمِ التَّرَفِّ وَعَوَائِدِهِ فَيَكُونُ خَرْجُهَا وَإِنْفَاقُهَا قَلِيلاً فَيَكُونُ فِي الْجَبَايَةِ حِينَئِذٍ وِفَاءً

(١) سورة يس من الآية الأخيرة.

بِأَزِيدٍ مِنْهَا كَثِيرٌ عَنْ حَاجَاتِهِمْ ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَأْخُذَ يَدَيْنِ الْخَصَاصَةِ فِي التَّرَفِ وَعَوَائِدِهَا وَتَجْرِي عَلَى نَهْجِ الدُّوَلِ السَّابِقَةِ قَبْلَهَا فَيَكْثُرُ لَذَلِكَ خَرَاجُ أَهْلِ الدُّوَلَةِ وَيَكْثُرُ خَرَاجُ السُّلْطَانِ خُصُوصاً كَثْرَةُ بَالِغَةِ بِنْفَقَتِهِ فِي خَاصَّتِهِ وَكَثْرَةُ عَطَائِهِ وَلَا تَفِي بِذَلِكَ الْجَبَايَةُ فَتَحْتَاجُ الدُّوَلَةُ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي الْجَبَايَةِ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْحَامِيَةُ مِنَ الْعَطَاءِ وَالسُّلْطَانُ مِنَ النَّفَقَةِ فَيَزِيدُ فِي مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ أَوَّلًا كَمَا قُلْنَا ثُمَّ يَزِيدُ الْخَرَاجَ وَالْحَاجَاتِ وَالتَّذْرِيجَ فِي عَوَائِدِ التَّرَفِ وَفِي الْعَطَاءِ لِلْحَامِيَةِ وَيَذْرُكُ الدُّوَلَةُ الْهَرَمَ وَتَضَعُفُ عَصَابَتُهَا عَنْ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْقَاصِيَةِ فَتَقْلُ الْجَبَايَةُ وَتَكْثُرُ الْعَوَائِدُ وَيَكْثُرُ بِكَثْرَتِهَا أَرْزَاقُ الْجُنْدِ وَعَطَاؤُهُمْ فَيَسْتَحْدِثُ صَاحِبُ الدُّوَلَةِ أَنْوَاعاً مِنَ الْجَبَايَةِ يَضْرِبُهَا عَلَى الْبِيَاعَاتِ وَيَفْرِضُ لَهَا قَدْرًا مَعْلُومًا عَلَى الْأَثْمَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَعَلَى أَغْيَانِ السَّلْعِ فِي أَمْوَالِ الْمَدِينَةِ. وَهُوَ مَعَ هَذَا مُضْطَرٌّ لِذَلِكَ بِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ طَرُقُ النَّاسِ مِنْ كَثْرَةِ الْعَطَاءِ مِنْ زِيَادَةِ الْجُيُوشِ وَالْحَامِيَةِ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ الدُّوَلَةِ زِيَادَةً بَالِغَةً فَتَكْسَدُ الْأَسْوَاقُ لِفَسَادِ الْأَمْوَالِ وَيُؤْذَنُ ذَلِكَ بِاخْتِلَالِ الْعُمَرَاءِ وَيَعُودُ عَلَى الدُّوَلَةِ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَرَايَدُ إِلَى أَنْ تَضْمَحَلَّ. وَقَدْ كَانَ وَقَعَ مِنْهُ بِأَمْصَارِ الْمَشْرِقِ فِي أَخْرِيَاتِ الدُّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْعَبِيدِيَّةِ كَثِيرٌ وَفُرِصَتِ الْمَغَارِمُ حَتَّى عَلَى الْحَاجِّ فِي الْمَوْسِمِ وَأَسْقَطَ صِلَاحُ الدِّينِ أَيُّوبُ تِلْكَ الرُّسُومَ جَمْلَةً وَأَعَاضَهَا بِأَثَارِ الْخَيْرِ وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ لِعَهْدِ الطُّوَائِفِ حَتَّى مَحَى رَسْمَهُ يُونُسُ بْنُ تَاشَفِينَ أَمِيرُ الْمُرَاطِينِ وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ لِهَذَا الْعَهْدِ حِينَ اسْتَبَدَّ بِهَا رُؤَسَاؤُهَا وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الفصل الأربعون

في أن التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا ومفسدة للجباية
إِغْلَمَ أَنَّ الدُّوَلَةَ إِذَا ضَاقَتْ جَبَايَتُهَا بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ التَّرَفِ وَكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ

وَالنَّفَقَاتِ وَقَصَرَ الْحَاصِلُ مِنْ جَبَائِثِهَا عَلَى الْوَفَاءِ بِحَاجَاتِهَا وَنَفَقَاتِهَا وَاجْتَانَتْ إِلَى مَزِيدِ الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ فَتَارَةً تُوَضَعُ الْمَكُوسُ عَلَى بَيَاعَاتِ الرِّعَايَا وَأَسْوَاقِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي الْفَضْلِ قَبْلَهُ وَتَارَةً بِالزِّيَادَةِ فِي أَلْقَابِ الْمَكُوسِ إِنْ كَانَ قَدْ اسْتَحْدِثَ مِنْ قَبْلُ وَتَارَةً بِمُقَاسَمَةِ الْعُمَالِ وَالْجَبَايَةِ وَامْتِكَاكِ^(١) عِظَامِهِمْ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ قَدْ خَصَلُوا عَلَى شَيْءٍ طَائِلٍ مِنْ أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ لَا يُظْهِرُهُ الْحِسْبَانُ وَتَارَةً بِاسْتِحْدَاثِ التَّجَارَةِ وَالْفَلَاحَةِ لِلسُّلْطَانِ عَلَى تَسْمِيَةِ الْجَبَايَةِ لِمَا يَرَوْنَ التَّجَارَ وَالْفَلَاحِينَ يَخْصُلُونَ عَلَى الْفَوَائِدِ وَالْغَلَّاتِ مَعَ يَسَارَةٍ^(٢) أَمْوَالِهِمْ وَأَنَّ الْأَرْبَاحَ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ فَيَأْخُذُونَ فِي اكْتِسَابِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ لِاسْتِغْلَالِهِ فِي شِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَالتَّعَرُّضِ بِهَا لِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَيَحْسِبُونَ ذَلِكَ مِنْ إِذْرَارِ الْجَبَايَةِ وَتَكْثِيرِ الْفَوَائِدِ وَهُوَ غَلَطٌ عَظِيمٌ وَإِذْخَالُ الضَّرَرِ عَلَى الرِّعَايَا مِنْ وَجْهِهِ مُتَعَدِّدَةٌ فَأَوَّلُا مُضَايَقَةُ الْفَلَاحِينَ وَالتَّجَارِ فِي شِرَاءِ الْحَيَوَانِ وَالْبَضَائِعِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِ ذَلِكَ فَإِنَّ الرِّعَايَا مُتَكَافِئُونَ فِي الْيَسَارِ مُتَقَارِبُونَ وَمُزَاحِمَةٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا تَنْتَهِي إِلَى غَايَةِ مَوْجُودِهِمْ أَوْ تَقَرُّبُ وَإِذَا رَافَقَهُمُ السُّلْطَانُ فِي ذَلِكَ وَمَالُهُ أَعْظَمُ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَخْصُلُ عَلَى غَرَضِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ حَاجَاتِهِ وَيَدْخُلُ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ ذَلِكَ غَمٌّ وَنَكْدٌ ثُمَّ إِنْ السُّلْطَانُ قَدْ يَنْتَرِعُ الْكَثِيرَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَعَرَّضَ لَهُ غَضًا أَوْ بِأَيْسَرِ ثَمَنٍ أَوْ لَا يَجِدُ مَنْ يُنَاقِشُهُ فِي شِرَائِهِ فَيَبْخُسُ ثَمَنَهُ عَلَى بَائِعِهِ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ فَوَائِدُ الْفَلَاحَةِ وَمُغْلَاهَا كُلُّهُ مِنْ زَرْعٍ أَوْ حَرِيرٍ أَوْ عَسَلٍ أَوْ يَسْكِرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْغَلَّاتِ وَحَصَلَتْ بَضَائِعُ التَّجَارَةِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ فَلَا يَنْتَظِرُونَ بِهِ حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ وَلَا نِفَاقَ الْبَيَاعَاتِ لِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ تَكَالِيفُ الدَّوْلَةِ فَيَكْلِفُونَ أَهْلَ تِلْكَ الْأَصْنَافِ مِنْ تَاجِرٍ أَوْ فَلَاحٍ بِشِرَاءِ تِلْكَ الْبَضَائِعِ وَلَا يَرْضَوْنَ فِي أَثْمَانِهَا إِلَّا الْقِيمَ وَأَزِيدَ فَيَسْتَوْعِبُونَ فِي ذَلِكَ نَاضَ^(٣) أَمْوَالِهِمْ وَتَبْقَى تِلْكَ الْبَضَائِعُ بِأَيْدِيهِمْ عَرُوضًا جَامِدَةً وَيَمْكُثُونَ عَطْلًا مِنَ الْإِدَارَةِ

(١) متك الشيء خطمه وكسره والمعنى هنا مجاز.

(٢) قلة.

(٣) ناض : الدرهم والدينار ويقال استخلصه منه نضاً أي نقداً (المنجد).

الَّتِي فِيهَا كَسْبُهُمْ وَمَعَاشُهُمْ وَرُبَّمَا تَدْعُوهُمْ الضَّرُورَةُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ فَيَبِيعُونَ تِلْكَ
السِّلْعَ عَلَى كَسَادٍ مِنَ الْأَسْوَاقِ بِأَبْخَسِ ثَمَنٍ . وَرُبَّمَا يَتَكَرَّرُ ذَلِكَ عَلَى التَّاجِرِ
وَالْفَلَّاحِ مِنْهُمْ بِمَا يُذْهَبُ رَأْسَ مَالِهِ فَيَقْعُدُ عَنْ سَوْقِهِ وَيَتَعَدَّدُ ذَلِكَ وَيَتَكَرَّرُ وَيَدْخُلُ
بِهِ عَلَى الرُّعَايَا مِنَ الْعَنَتِ وَالْمُضَايِقَةِ وَفَسَادِ الْأَرْبَاحِ مَا يَقْبِضُ أَمَالَهُمْ عَنِ السَّعْيِ
فِي ذَلِكَ جُمْلَةً وَيُؤَدِّي إِلَى فَسَادِ الْجَبَايَةِ فَإِنَّ مُعْظَمَ الْجَبَايَةِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْفَلَاحِينَ
وَالتَّجَارِ وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ وَضْعِ الْمَكُوسِ وَنُمُو الْجَبَايَةِ بِهَا فَإِذَا انْقَبَضَ الْفَلَاحُونَ عَنِ
الْفِلَاحَةِ وَقَعَدَ التَّجَارُ عَنِ التَّجَارَةِ ذَهَبَتِ الْجَبَايَةُ جُمْلَةً أَوْ دَخَلَهَا النِّقْصُ الْمُتَفَاحِشُ
وَإِذَا قَاسَسَ السُّلْطَانُ بَيْنَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْجَبَايَةِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَاحِ الْقَلِيلَةِ
وَجَدَهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَبَايَةِ أَقْلَ مِنَ الْقَلِيلِ ثُمَّ إِنَّهُ وَلَوْ كَانَ مُفِيداً فَيَذْهَبُ لَهُ بِحَظِّ
عَظِيمٍ مِنَ الْجَبَايَةِ فِيمَا يَغْنِيهِ مِنْ شِرَاءٍ أَوْ بَيْعٍ فَإِنَّهُ مِنَ التَّعْيِيدِ أَنْ يَوْجَدَ فِيهِ مِنَ
الْمَكْسَرِ وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ فِي تِلْكَ الصَّفَقَاتِ لَكَانَ تَكْسِبُهَا كُلُّهَا حَاصِلاً مِنْ جِهَةِ
الْجَبَايَةِ ثُمَّ فِيهِ التَّعَرُّضُ لِأَهْلِ عَمْرَانِهِ وَاجْتِلَالُ الدَّوْلَةِ بِفَسَادِهِمْ وَنَقْصِهِمْ فَإِنَّ الرُّعَايَا
إِذَا قَعَدُوا عَنْ تَثْمِيرِ أَمْوَالِهِمْ بِالْفِلَاحَةِ وَالتَّجَارَةِ نَقَصَتْ وَتَلَاشَتْ بِالنِّقْصَاتِ وَكَانَ
فِيهَا تَلَافٌ أَخْوَالِهِمْ . فَافْتَهَمَ ذَلِكَ ^(١) وَكَانَ الْفَرَسُ لَا يَمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ أَهْلِ
بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ ثُمَّ يَخْتَارُونَهُ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالذِّينِ وَالْأَدَبِ وَالسَّخَاءِ وَالشَّجَاعَةِ
وَالْكَرَمِ ثُمَّ يَشْتَرِطُونَ عَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ الْعَدْلَ وَأَنْ لَا يَتَّخِذَ صَنْعَةً فَيُضِرَّ بِجِيرَانِهِ وَلَا
يَتَاجَرَ فَيُحِبُّ غَلَاءَ الْأَسْعَارِ فِي الْبُضَائِعِ وَأَنْ لَا يَسْتَعِيدَ التَّعْيِيدَ فَإِنَّهُمْ لَا يُشِيرُونَ
بِخَيْرٍ وَلَا مَضْلَحَةٍ . وَاعْلَمْ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا يُنْبِئُ مَالَهُ وَلَا يُدْرُ مَوْجُودُهُ إِلَّا الْجَبَايَةُ
وَإِذْرَارُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَدْلِ فِي أَهْلِ الْأَمْوَالِ وَالنَّظَرِ لَهُمْ بِذَلِكَ فَتَنْبَسِطُ
أَمَالُهُمْ وَتَنْشَرُ صُدُورُهُمْ لِلْأَخْذِ فِي تَثْمِيرِ الْأَمْوَالِ وَتَتَمَيِّتُهَا فَتُعْظَمُ مِنْهَا جَبَايَةُ

(١) علق الدكتور علي عبد الواحد وافي على ذلك في نسخة لجنة البيان العربي فيقول :

(يتفق ما يراه ابن خلدون في صدد الأضرار للترتبة على دخول الحكومة مشترية في السوق وعلى اشتغالها
بالتجارة أو احتكارها لبعض الأصناف واعتبار ذلك ضرائب غير مباشرة على المستهلكين . . . يتفق ذلك مع ما يراه
كثير من المحدثين من علماء الاقتصاد السياسي . انظر كتابنا في « الاقتصاد السياسي » فصل « المناصفة الحرة » . ص
١٩٤ - ٢٠٠ في الطبعة الخامسة) .

السُّلْطَانِ وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ قُلُوحٍ فَإِنَّمَا هُوَ مَضْرُوعَةٌ عَاجِلَةٌ لِلرَّعَايَا وَفَسَادٌ لِلْجَبَايَةِ وَنَقْصٌ لِلْعِمَارَةِ وَقَدْ يَنْتَهِي الْحَالُ بِهَؤُلَاءِ الْمُنْسَلِخِينَ لِلتِّجَارَةِ وَالْفَلَاحَةِ مِنَ الْأَمْزَاءِ وَالْمُتَغَلِّبِينَ فِي الْبُلْدَانِ أَنَّهُمْ يَتَعَرَّضُونَ لِشِرَاءِ الْغَلَّاتِ وَالسَّلْعِ مِنْ أَرْبَابِهَا الْوَارِدِينَ عَلَى بِلَدِهِمْ وَيَفْرَضُونَ لِذَلِكَ مِنَ الثَّمَنِ مَا يَشَاءُونَ وَيَبِيعُونَهَا فِي وَقْتِهَا لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الرَّعَايَا بِمَا يَفْرَضُونَ مِنَ الثَّمَنِ وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى وَأَقْرَبُ إِلَى فُسَادِ الرِّعْيَةِ وَاخْتِلَالِ أَحْوَالِهِمْ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ يَدْخُلُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَغْنَى التُّجَّارِ وَالْفَلَاحِينَ لِمَا هِيَ صِنَاعَتُهُ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا فَيَحْمِلُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ وَيَضْرِبُ مَعَهُ بِسَهْمٍ لِنَفْسِهِ لِيَحْصُلَ عَلَى غَرْضِهِ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ سَرِيعاً وَلَا سِيِّمًا مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ التِّجَارَةِ بِلَا مَغْرَمٍ وَلَا مَكْسٍ فَإِنَّمَا أَجْدَرُ بِنُمُوِّ الْأَمْوَالِ وَأَسْرَعُ فِي تَشْمِيرِهِ وَلَا يَفْهَمُ مَا يَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ مِنَ الضَّرَرِ بِنَقْصِ جَبَايَتِهِ فَيَنْبَغِي لِلْسُّلْطَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَيَعْرِضَ عَنْ سِعَايَتِهِمُ الْمَضْرُوعَةَ بِجَبَايَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَاللَّهُ يُلْهِمُنَا رُشْدَ أَنْفُسِنَا وَيَنْفَعُنَا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الحادي والأربعون

في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْجَبَايَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ تَتَوَزَّعُ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلِ وَالْعَصِيَّةِ بِمِقْدَارِ غَنَائِهِمْ وَعَصَبِيَّتِهِمْ وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ فَرَأَيْتُهُمْ فِي ذَلِكَ مُتَجَافٍ لَهُمْ عَمَّا يَسْمُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْتِزَادِ عَلَيْهِمْ فَلَهُ عَلَيْهِمْ عِزَّةٌ وَلَهُ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ فَلَا يُطَيَّرُ^(١) فِي سَهْمَانِهِ مِنَ الْجَبَايَةِ إِلَّا الْأَقْلُ مِنْ حَاجَتِهِ فَتَجِدُ حَاشِيَتَهُ لِذَلِكَ وَأَذْيَالَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكَتَّابِ وَالْمَوَالِي مُتَمَلِّقِينَ فِي الْغَالِبِ وَجَاهَهُمْ مُتَقَلِّصٌ لِأَنَّهُ مِنْ جَاهِ مَخْدُومِهِمْ وَنِطَاقِهِ قَدْ ضَاقَ بِمَنْ يُزَاحِمُهُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ

(١) طيِّير واطار للمال ، قسمه .

فَإِذَا اسْتَفْحَلَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَحَصَلَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ الْإِسْتِبدَادُ عَلَى قَوْمِهِ قَبْضُ
أَيْدِيهِمْ عَنِ الْجَبَايَاتِ إِلَّا مَا يَطِيرُ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي سَهْمَانِهِمْ وَتَقِلُّ حُطُوطُهُمْ إِذَا
ذَاكَ لِقْلَةً غِنَائِهِمْ فِي الدَّوْلَةِ بِمَا انْكَبَحَ مِنْ أَعْنَتِهِمْ وَصَارَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعُ مُسَاهِمِينَ
لَهُمْ فِي الْقِيَامِ بِالدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ الْأَمْرِ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِالْجَبَايَةِ أَوْ
مُعْظَمِهَا وَيَخْتَوِي عَلَى الْأَمْوَالِ وَيَخْتَجِنُهَا لِلنَّفَقَاتِ فِي مِهْمَاتِ الْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ ثُرُوتُهُ
وَتَمْتَلِئُ خَزَائِنُهُ وَيَتَسَّعُ نِطَاقُ جَاهِهِ وَيَغْتَزُّ عَلَى سَائِرِ قَوْمِهِ فَيُعْظِمُ حَالَ حَاشِيَتِهِ
وَدُوبِهِ مِنْ وَزِيرٍ وَكَاتِبٍ وَحَاجِبٍ وَمَوْلَى وَشُرْطِيٍّ وَيَتَسَّعُ جَاهُهُمْ وَيَقْتَنُونَ الْأَمْوَالِ
وَيَتَأَثَّلُونَهَا^(١) . ثُمَّ إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي الْهَرَمِ بِتَلَاشِي الْعَصَبِيَّةِ وَفَنَاءِ الْقَلِيلِ
الْمُعَاهِدِينَ لِلدَّوْلَةِ اخْتِاجَ صَاحِبِ الْأَمْرِ حِينَئِذٍ إِلَى الْأَعْوَانِ وَالْأَنْصَارِ لِكَثْرَةِ الْخَوَارِجِ
وَالْمُنَازِعِينَ وَالثُّوَارِ وَتَوَهُمِ الْإِنْتِقَاضِ فَصَارَ خَرَاجُهُ لِبَطْنِهِ وَأَعْوَانِهِ وَهُمْ أَرْبَابُ
السُّيُوفِ وَأَهْلُ الْعَصَبِيَّاتِ وَأَنْفَقَ خَزَائِنُهُ وَحَاصِلُهُ فِي مِهْمَاتِ الدَّوْلَةِ وَقَلَّتْ مَعَ ذَلِكَ
الْجَبَايَةُ لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْعَطَاءِ وَالْإِنْفَاقِ فَيَقِلُّ الْخَرَاجُ وَتَشْتَدُّ حَاجَةُ الدَّوْلَةِ إِلَى
الْمَالِ فَيَتَقَلَّصُ ظِلُّ النِّعْمَةِ وَالتَّرَفِ عَنِ الْخَوَاصِّ وَالْحُجَابِ وَالْكَتَابِ بِتَقَلُّصِ الْجَاهِ
عَنْهُمْ وَضِيقِ نِطَاقِهِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ تَشْتَدُّ حَاجَةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ إِلَى الْمَالِ
وَتَنْفَقُ أَبْنَاءُ الْبَطَانَةِ وَالْحَاشِيَةِ مَا تَأْتِلُهُ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ فِي غَيْرِ سَبِيلِهَا مِنْ إِعَانَةٍ
صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَيُقْبَلُونَ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وَسَلَفُهُمْ مِنَ الْمُنَاصَحَةِ وَيَرَى
صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ أَحَقُّ بِتِلْكَ الْأَمْوَالِ الَّتِي اكْتَسَبَتْ فِي دَوْلَةِ سَلَفِهِ وَبِجَاهِهِمْ
فَيَضْطَلِمُهَا وَيَنْتَزِعُهَا مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَوَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى نِسْبَةِ رَتَبِهِمْ
وَتَنْكُرُ الدَّوْلَةُ لَهُمْ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِفَنَاءِ حَاشِيَتِهَا وَرِجَالِهَا وَأَهْلِ
الثَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةِ مِنْ بَطَانَتِهَا وَيَتَقَوَّضُ بِذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ مَبَانِي الْمَجْدِ بَعْدَ أَنْ يَدْعُمَهُ
أَهْلُهُ وَيَرْفَعُوهُ . وَانْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ لَوُزَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي بَنِي قُحْطَبَةَ
وَبَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي سَهْلٍ وَبَنِي طَاهِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ ثُمَّ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ

(١) تَأْتِلُ الْمَالُ ، اكْتَسَبَهُ وَثَرَهُ .

أَنْجَلَالِهَا أَيَّامَ الطَّوَائِفِ فِي بَنِي شَهِيدٍ وَبَنِي أَبِي عُبْدَةَ وَبَنِي حُدَيْرٍ وَبَنِي بُرْدٍ
وَأَمْثَالِهِمْ وَكَذَا فِي الدَّوْلَةِ الَّتِي أَدْرَكْنَاهَا لِعَهْدِنَا سَنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ .

فصل : وَلَمَّا يَتَوَقَّعُ أَهْلُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَعَاطِبِ صَارَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ
يَنْزِعُونَ إِلَى الْفِرَارِ عَنِ الرُّتَبِ وَالتَّخْلِصِ مِنْ رِبْقَةِ السُّلْطَانِ بِمَا حَصَلَ فِي أَيْدِيهِمْ
مِنْ مَالِ الدَّوْلَةِ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ وَيَرَوْنَ أَنَّهُ أَهْنًا لَهُمْ وَأَسْلَمٌ فِي إِنْفَاقِهِ وَحُصُولِ ثَمَرَتِهِ وَهُوَ
مِنْ الْأَغْلَاطِ الْفَاحِشَةِ وَالْأَوْهَامِ الْمُفْسِدَةِ لِأَحْوَالِهِمْ وَذُنْيَاهُمْ وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلَاصَ مِنْ
ذَلِكَ بَعْدَ الْحُصُولِ فِيهِ عَسِيرٌ مُمْتَنِعٌ فَإِنْ صَاحِبُ هَذَا الْغَرَضِ إِذَا كَانَ هُوَ الْمَلِكُ
نَفْسَهُ فَلَا تُمْكِنُهُ الرُّعْيَةُ مِنْ ذَلِكَ طَرَفَةٌ غَيْرُ وَلَا أَهْلُ الْعَصِيَّةِ الْمُزَاحِمُونَ لَهُ بَلْ فِي
ظُهُورِ ذَلِكَ مِنْهُ هَذَمٌ لِمُلْكِهِ وَإِتْلَافٌ لِنَفْسِهِ بِمَجَارِي الْعَادَةِ بِذَلِكَ لِأَنَّ رِبْقَةَ الْمَلِكِ
يَعْسُرُ الْخَلَاصَ مِنْهَا وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ اسْتِفْخَالِ الدَّوْلَةِ وَضِيقِ نِطَاقِهَا وَمَا يَغْرُضُ فِيهَا
مِنْ الْبُعْدِ عَنِ الْمَجْدِ وَالْخِلَالِ وَالتَّخَلُّقِ بِالشَّرِّ وَأَمَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْغَرَضِ مِنْ
بَطَانَةِ السُّلْطَانِ وَخَاشِيَتِهِ وَأَهْلِ الرُّتَبِ فِي دَوْلَتِهِ فَقُلْ أَنْ يُخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ .
أَمَّا أَوَّلًا فَلَمَّا يَرَاهُ الْمُلُوكُ أَنَّ ذَوِيهِمْ وَخَاشِيَتَهُمْ بَلْ وَسَائِرَ رَعَايَاهُمْ مَمَالِيكُ لَهُمْ
مُطْلِعُونَ عَلَى ذَاتِ صُدُورِهِمْ فَلَا يَسْمَحُونَ بِحُلِّ رِبْقَتِهِ مِنْ الْخِدْمَةِ ضِنًا بِأَسْرَارِهِمْ
وَأَحْوَالِهِمْ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهَا أَحَدٌ ، وَغَيْرُهُ مِنْ خِدْمَتِهِ لِسَوَاهُمْ وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ
بِالْأَنْدَلُسِ يَمْنَعُونَ أَهْلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ السَّفَرِ لِفَرِيضَةِ الْحَجِّ لِمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ وَقُوعِهِمْ
بِأَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ فَلَمْ يَحْجْ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِمْ وَمَا أُبَيِّحَ الْحَجُّ
لَأَهْلِ الدَّوَلِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ شَأْنِ الْأُمُورِ وَرُجُوعِهَا إِلَى الطَّوَائِفِ وَأَمَّا
ثَانِيًا فَلَأَنَّهُمْ وَإِنْ سَمَحُوا بِحُلِّ رِبْقَتِهِ فَلَا يَسْمَحُونَ بِالتَّجَافِي عَنْ ذَلِكَ الْمَالِ لِمَا
يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ دَوْلَتِهِمْ إِذْ لَمْ يَكْتَسِبْ إِلَّا بِهَا وَفِي
ظِلِّ جَاهِهَا ، فَتَحُومُ نَفُوسُهُمْ عَلَى انْتِزَاعِ ذَلِكَ الْمَالِ وَالْيَقَامِهِ كَمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ الدَّوْلَةِ
يَنْتَفِعُونَ بِهِ ثُمَّ إِذَا تَوَهَّمْنَا أَنَّهُ خُلِّصَ بِذَلِكَ الْمَالِ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ وَهُوَ فِي النَّادِرِ الْأَقْلُ
فَتَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْمُلُوكِ بِذَلِكَ الْقُطْرِ وَيَنْتَزِعُونَهُ بِالْإِرْهَابِ وَالتَّخْوِيفِ تَعْرِيضًا أَوْ

بِالْقَهْرِ ظَاهِرًا لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ مَالُ الْجَبَايَةِ وَالِدُّوْلِ وَأَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِلْإِنْفَاقِ فِي الْمَصَالِحِ
وَلِذَا كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ تَمْتَدُّ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ الْمُتَكَسِّبِينَ مِنْ وَجْهِ الْمَعَاشِ
فَأُخْرَى بِهَا أَنْ تَمْتَدُّ إِلَى أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ وَالِدُّوْلِ الَّتِي تَجِدُ السَّبِيلَ إِلَيْهِ بِالشَّرْعِ
وَالْعَادَةِ وَلَقَدْ حَاوَلَ السُّلْطَانُ أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَّا بْنُ أَحْمَدَ اللَّحْيَانِيُّ تَأْسَعُ أَوْ عَاشِرُ
مُلُوكِ الْخَفَصِيِّينَ بِأَفْرِيقَةِ الْخُرُوجِ عَنْ عَهْدَةِ الْمَلِكِ وَاللَّحَاقِ بِمِضَرِّ فِرَارًا مِنْ طَلَبِ
صَاحِبِ الثُّغُورِ الْقَرْبِيَّةِ لَمَّا اسْتَجْمَعَ لِعِزْرَتُونِسَ فَاسْتَعْمَلَ اللَّحْيَانِيُّ الرَّخْلَةَ إِلَى ثَغْرِ
طَرَابُلُسَ يُورِي بِتَمْهِيدِهِ وَرَكِبَ السَّفِينِ مِنْ هُنَالِكَ وَخَلَصَ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بَعْدَ
أَنْ حَمَلَ جَمِيعَ مَا وَجَدَهُ بَيْنَ الْمَالِ مِنَ الصَّامِتِ ^(١) وَالذَّخِيرَةِ وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ
بِخَزَائِنِهِمْ مِنَ الْمَتَاعِ وَالْعَقَارِ وَالْجَوْهَرِ حَتَّى الْكَتَبِ وَاحْتَمَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى مِضَرِّ
وَنَزَلَ عَلَى الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُنَ سَنَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ مِنَ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ فَأَكْرَمَ
نَزْلَهُ وَرَفَعَ مَجْلِسَهُ وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَخْلِصُ ذَخِيرَتَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِالتَّعْرِيزِ إِلَى أَنْ حَصَلَ
عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ مَعَاشُ ابْنِ اللَّحْيَانِيِّ إِلَّا فِي جِرَائِتِهِ الَّتِي فُرِضَتْ لَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ
ثَمَانٍ وَعَشْرِينَ حَسْبَمَا نَذَكُرُهُ فِي أَخْبَارِهِ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ جُمْلَةِ الْوَسْوَاسِ الَّذِي
يَغْتَرِي أَهْلَ الدُّوْلِ لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ مُلُوكِهِمْ مِنَ الْمَعَاطِبِ وَإِنَّمَا يَخْلُصُونَ إِنْ اتَّفَقَ
لَهُمُ الْخَلَاصُ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنَ الْحَاجَةِ فَعَلَطَ وَوَهَمَ وَالَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنَ
الشُّهْرَةِ بِخِدْمَةِ الدُّوْلِ كَافٍ فِي وَجْدَانِ الْمَعَاشِ لَهُمْ بِالْجَرَائِاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ بِالْبَجَاهِ
فِي انْتِحَالِ طُرُقِ الْكَسْبِ مِنَ التَّجَارَةِ وَالْفِلَاحَةِ وَالِدُّوْلِ أَنْسَابٌ لَكِنْ ،

النَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تَرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الرِّزَاقُ وَهُوَ الْمُوَفِّقُ بِمَنْهٍ وَفَضْلِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الثاني والأربعون

في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالسُّلْطَانَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ لِلْعَالَمِ وَمِنْهُ مَادَّةُ
الْعُمَرَانِ فَإِذَا اخْتَجَنَ السُّلْطَانُ الْأَمْوَالَ أَوْ الْجَبَايَا أَوْ فَقِدَتْ فَلَمْ يَصْرِفْهَا فِي
مَصَارِفِهَا قَلَّ حِينِيذُ مَا بِأَيْدِي الْحَاشِيَةِ وَالْحَامِيَةِ وَانْقَطَعَ أَيْضًا مَا كَانَ يَصِلُ مِنْهُمْ
لِحَاشِيَتِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَقَلَّتْ نَفَقَاتُهُمْ جُمْلَةً وَهُمْ مُعْظَمُ السُّوَادِ وَنَفَقَاتُهُمْ أَكْثَرُ مَادَّةٍ
لِلْأَسْوَاقِ مِنْ سِوَاهُمْ فَيَقَعُ الْكَسَادُ حِينِيذُ فِي الْأَسْوَاقِ وَتَضَعُفُ الْأَرْبَاحُ فِي الْمَتَاجِرِ
فَيَقِلُّ الْخَرَجُ لِذَلِكَ لِأَنَّ الْخَرَجَ وَالْجَبَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْإِعْتِمَارِ وَالْمُعَامَلَاتِ
وَنَفَاقِ الْأَسْوَاقِ وَطَلَبِ النَّاسِ لِلْفَوَائِدِ وَالْأَرْبَاحِ وَوَبَالَ ذَلِكَ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ
بِالنَّقْصِ لِقِلَّةِ أَمْوَالِ السُّلْطَانِ حِينِيذُ بِقِلَّةِ الْخَرَجِ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ كَمَا قُلْنَا هِيَ السُّوقُ
الْأَعْظَمُ أَمْ الْأَسْوَاقِ كُلِّهَا وَأَصْلُهَا وَمَادَّتُهَا فِي الدُّخْلِ وَالْخَرْجِ فَإِنْ كَسَدَتْ وَقَلَّتْ
مَصَارِفُهَا فَأَجْدَرُ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَسْوَاقِ أَنْ يُلْحَقَهَا مِثْلُ ذَلِكَ وَأَشَدُّ مِنْهُ وَأَيْضًا
فَالْمَالُ إِنَّمَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الرِّعْيَةِ وَالسُّلْطَانِ مِنْهُمْ إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا حَبَسَهُ
السُّلْطَانُ عِنْدَهُ فَقَدَتْهُ الرِّعْيَةُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ .

الفصل الثالث والأربعون

في أن الظلم مؤذن بخراب العمران

إِغْلَمَ أَنَّ الْعُدُونَ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ ذَاهِبٌ بِأَمْوَالِهِمْ فِي تَخْصِيلِهَا وَاكْتِسَابِهَا

لَمَّا يَرَوْنَهُ حِينَئِذٍ مِنْ أَنْ غَايَتَهَا وَمَصِيرَهَا انْتَهَاهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَإِذَا ذَهَبَتْ آمَالُهُمْ فِي
اِكْتِسَابِهَا وَتَحْصِيلِهَا انْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ السَّعْيِ فِي ذَلِكَ وَعَلَى قَدَرِ الْإِعْتِدَاءِ وَنَسْبَتِهِ
يَكُونُ انْقِبَاضُ الرُّعَايَا عَنِ السَّعْيِ فِي الْاِكْتِسَابِ فَإِذَا كَانَ الْإِعْتِدَاءُ كَثِيرًا عَامًّا فِي
جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ كَانَ الْقَعُودُ عَنِ الْكَسْبِ كَذَلِكَ لِذَهَابِهِ بِالْأَمَالِ جُمْلَةً
بِذُخُولِهِ مِنْ جَمِيعِ أَبْوَابِهَا وَإِنْ كَانَ الْإِعْتِدَاءُ يَسِيرًا كَانَ الْانْقِبَاضُ عَنِ الْكَسْبِ عَلَى
نَسْبَتِهِ وَالْعُمُرَانُ وَوُقُورُهُ وَنَفَاقُ أَسْوَاقِهِ إِنَّمَا هُوَ بِالْأَعْمَالِ وَسَعْيِ النَّاسِ فِي الْمَصَالِحِ
وَالْمَكَاسِبِ ذَاهِبِينَ وَجَائِئِينَ فَإِذَا قَعَدَ النَّاسُ عَنِ الْمَعَاشِ وَانْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ
الْمَكَاسِبِ كَسَدَتْ أَسْوَاقُ الْعُمُرَانِ وَانْتَفَضَتِ الْأَحْوَالُ وَابْذَعُرُ^(١) النَّاسِ فِي الْأَفَاقِ مِنْ
غَيْرِ تِلْكَ الْإِيَالَةِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ فِيمَا خَرَجَ عَنْ نِطَاقِهَا فَخَفَ سَاكِنُ الْقَطْرِ وَخَلَّتْ
ذِيَارُهُ وَخَرَجَتْ أَمْصَارُهُ وَاخْتَلَّ بِاخْتِلَالِهِ حَالُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ لَمَّا أَنَّهَا صُورَةٌ
لِلْعُمُرَانِ تَفْسُدُ بِفَسَادِ مَا ذَاتَهَا صُرُورَةٌ وَانْظُرْ فِي ذَلِكَ مَا حَكَاهُ الْمُسْعُودِيُّ فِي أَخْبَارِ
الْفُرسِ عَنِ الْمُؤَبَّذَانِ صَاحِبِ الدِّينِ عِنْدَهُمْ أَيَّامَ بَهْرَامَ بْنِ بَهْرَامَ وَمَا عَرَضَ بِهِ
لِلْمَلِكِ فِي إِنْكَارِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْغَفْلَةِ عَنْ عَائِدَتِهِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِضَرْبِ
الْمِثَالِ فِي ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ الْبُيُومِ حِينَ سَمِعَ الْمَلِكُ أَصْوَاتَهَا وَسَأَلَهُ عَنْ فَمِهِمْ كَلَامُهَا فَقَالَ
لَهُ : « إِنَّ بُيُومًا ذَكَرُوا يَرُومُ نِكَاحَ بَوْمٍ أَتَتْهُ وَإِنَّمَا شَرِطَتْ عَلَيْهِ عِشْرِينَ قَرْيَةً مِنْ
الْخَرَابِ فِي أَيَّامِ بَهْرَامَ فَقَبِلَ شَرْطَهَا ، وَقَالَ لَهَا ، إِنَّ دَامَتْ أَيَّامُ الْمَلِكِ أَقْطَعْتُكَ
أَلْفَ قَرْيَةٍ وَهَذَا أَسْهَلُ مَرَامٍ » . فَتَنَّبَهُ الْمَلِكُ مِنْ غَفْلَتِهِ وَخَلَا بِالْمُؤَبَّذَانِ وَسَأَلَهُ عَنْ
مُرَادِهِ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْمَلِكَ لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا بِالشَّرِيعَةِ وَالْقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ
وَالْتَصَرُّفِ تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِوَامَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْمَلِكِ وَلَا عِزَّ لِلْمَلِكِ إِلَّا
بِالرَّجَالِ وَلَا قِوَامَ لِلرَّجَالِ إِلَّا بِالْمَالِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْمَالِ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ
لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْعَدْلُ الْمِيزَانُ الْمَنْصُوبُ بَيْنَ الْخَلِيقَةِ نَضْبَهُ الرَّبِّ وَجَعَلَ لَهُ
قِيَمًا وَهُوَ الْمَلِكُ وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ عَمَدَتُ إِلَى الصِّيَاغِ فَانْتَرَعَتْهَا مِنْ أَرْبَابِهَا

(١) بمعنى تفرق .

وَعُمَارِهَا وَهُمْ أَرْبَابُ الْخَرَاجِ وَمَنْ تَوَخَّذَ مِنْهُمْ الْأَمْوَالَ وَأَقْطَعَتْهَا الْحَاشِيَةُ وَالْخَدَمُ
وَأَهْلُ الْبَطَالَةِ فَتَرَكَوا الْعِمَارَةَ وَالنَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ وَمَا يَصْلُحُ الضِّيَاعِ وَسُومَحُوا فِي
الْخَرَاجِ لِقُرْبِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَوَقَعَ الْحَيْفُ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ أَرْبَابِ الْخَرَاجِ وَعُمَارِ
الضِّيَاعِ فَانْجَلَوْا عَنْ ضِيَاعِهِمْ وَخَلَوْا دِيَارَهُمْ وَأَوَّوْا إِلَى مَا تَعَذَّرَ مِنَ الضِّيَاعِ فَسَكَنُوهَا
فَقَلَّتِ الْعِمَارَةُ وَخَرِبَتِ الضِّيَاعُ وَقَلَّتِ الْأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الْجُنُودُ وَالرُّعْيَةُ وَطَمِعَ فِي
مُلْكِ فَارِسَ مَنْ جَاوَرَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ لِعِلْمِهِمْ بِانْقِطَاعِ الْمَوَادِّ الَّتِي لَا تَسْتَقِيمُ دَعَائِمُ
الْمُلْكِ إِلَّا بِهَا . فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى النَّظَرِ فِي مُلْكِهِ وَانْتَرَعَتِ الضِّيَاعُ مِنْ
أَيْدِي الْخَاصَةِ وَرُدَّتْ عَلَى أَرْبَابِهَا وَحُمِلُوا عَلَى رُسُومِهِمْ السَّالِفَةِ وَأَخَذُوا فِي الْعِمَارَةِ

وَقَوِيَ مَنْ ضَعُفَ مِنْهُمْ فَعَمَرَتِ الْأَرْضُ وَأَخْضَبَتِ الْبِلَادُ وَكَثُرَتِ الْأَمْوَالُ عِنْدَ جَبَاةِ
الْخَرَاجِ وَقَوِيَتِ الْجُنُودُ وَقُطِعَتِ مَوَادُّ الْأَعْدَاءِ وَشَجِنَتِ الثُّغُورُ وَأَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى
مُبَاشَرَةِ أُمُورِهِ بِنَفْسِهِ فَحَسُنَتْ أَيَّامُهُ وَانْتَضَمَ مُلْكُهُ فَتَفَهَّمُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّ الظُّلْمَ
مُخَرَّبٌ لِلْعُمَرَاءِ وَأَنَّ عَائِدَةَ الْخَرَابِ فِي الْعُمَرَاءِ عَلَى الدُّوَلَةِ بِالْفَسَادِ وَالِانْتِقَاصِ . وَلَا
تَنْظُرُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْإِغْتِدَاءَ قَدْ يَوْجَدُ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الدُّوَلِ الَّتِي بِهَا وَلَمْ
يَقَعْ فِيهَا خَرَابٌ وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْإِغْتِدَاءِ وَأَحْوَالِ
أَهْلِ الْمِصْرِ فَلَمَّا كَانَ الْمِصْرُ كَبِيرًا وَعُمَرَانُهُ كَثِيرًا وَأَحْوَالُهُ مُتَّسِعَةً بِمَالٍ يَنْخَصِرُ
كَانَ وَقُوعُ النِّقْصِ فِيهِ بِالْإِغْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ يَسِيرًا لِأَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَقَعُ بِالتَّذْرِيجِ فَإِذَا
خَفِيَ بِكَثْرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتَّسَاعِ الْأَعْمَالِ فِي الْمِصْرِ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُهُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ وَقَدْ
تَذَهَبَ تِلْكَ الدُّوَلَةُ الْمُعْتَدِيَّةُ مِنْ أَصْلِهَا قَبْلَ خَرَابِ وَتَجِيءُ الدُّوَلَةُ الْآخَرَى فَتَرْفَعُهُ
يَجِدُهَا وَتَجِبُرُ النِّقْصَ الَّذِي كَانَ خَفِيًّا فِيهِ فَلَا يَكَادُ يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَقْلِ
النَّادِرِ وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ حُصُولَ النِّقْصِ فِي الْعُمَرَاءِ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ أَمْرٌ وَقَعَ
لَا بُدَّ مِنْهُ لِمَا قَدَّمَناه وَوَبَّالَهُ عَائِدَةُ عَلَى الدُّوَلِ . وَلَا تَحْسَبَنَّ الظُّلْمَ إِنَّمَا هُوَ أَخْذُ الْمَالِ
أَوْ الْمُلْكِ مِنْ يَدِ مَالِكِهِ مِنْ غَيْرِ عَوَضٍ وَلَا سَبَبٍ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ بِلِ الظُّلْمِ أَعْمٌ مِنْ
ذَلِكَ وَكُلُّ مَنْ أَخَذَ مُلْكًا أَحَدًا أَوْ غَضَبَهُ فِي عَمَلِهِ أَوْ طَالَتْهُ بِغَيْرِ حَقٍّ أَوْ فَرَضَ عَلَيْهِ

حَقًّا لَمْ يَفْرُضْهُ الشَّرْعُ فَقَدْ ظَلَمَهُ فَجَبَاةُ الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظَلَمَةٌ وَالْمُعْتَدُونَ عَلَيْهَا
 ظَلَمَةٌ وَالْمُنْتَهَبُونَ لَهَا ظَلَمَةٌ وَالْمَانِعُونَ لِحَقُوقِ النَّاسِ ظَلَمَةٌ وَخُصَابُ الْأَمْلاكِ عَلَى
 الْعُمُومِ ظَلَمَةٌ وَوَبَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ بِخَرَابِ الْعُمْرَانِ الَّذِي هُوَ مَادَّتُهَا
 لِإِذْهَابِهِ الْأَمْوَالُ مِنْ أَهْلِهِ وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ الْمَقْصُودَةُ لِلشَّارِعِ فِي تَخْرِيمِ
 الظُّلْمِ وَهُوَ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ فَسَادِ الْعُمْرَانِ وَخَرَابِهِ وَذَلِكَ مُؤَدَّنٌ بِانْقِطَاعِ النَّوْعِ
 الْبَشَرِيِّ وَهِيَ الْحِكْمَةُ الْعَامَّةُ الْمُرَاعِيَةُ لِلشَّرْعِ فِي جَمِيعِ مَقَاصِدِهِ الضَّرُورِيَّةِ الْخَمْسَةِ
 مِنْ حِفْظِ الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالنَّسْلِ وَالْمَالِ . فَلَمَّا كَانَ الظُّلْمُ كَمَا رَأَيْتَ مُؤَدِّنًا
 بِانْقِطَاعِ النَّوْعِ لِمَا أَدَّى إِلَيْهِ مِنْ تَخْرِيبِ الْعُمْرَانِ ، كَانَتْ حِكْمَةُ الْخَطَرِ فِيهِ
 مَوْجُودَةً ، فَكَانَ تَخْرِيمُهُ مَهْمًا ، وَأَدْلَتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ كَثِيرَةٌ ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ
 يَأْخُذَهَا قَانُونُ الضُّبْطِ وَالْحَضَرِ . وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ قَادِرًا عَلَى الظُّلْمِ لَوَضَعَ بِإِزَائِهِ
 مِنَ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةِ مَا وَضَعَ بِإِزَاءِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُفْسِدَاتِ لِلنَّوْعِ الَّتِي يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ
 عَلَى اقْتِرَافِهَا مِنَ الزُّنَا وَالْقَتْلِ وَالسُّكْرِ إِلَّا أَنَّ الظُّلْمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ
 لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقَعُ مِنْ أَهْلِ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ فَبُلُوغُ فِي ذِمَّتِهِ وَتَكَرُّرُ التَّوْعِيدِ فِيهِ عَسَى أَنْ
 يَكُونَ الْوَازِعُ فِيهِ لِلْقَادِرِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ
 الْعُقُوبَةَ قَدْ وَضِعَتْ بِإِزَاءِ الْجَرَائِيَةِ فِي الشَّرْعِ وَهِيَ مِنْ ظُلْمِ الْقَادِرِ لِأَنَّ الْمُحَارِبَ زَمَنَ
 جَرَائِيَتِهِ قَادِرٌ فَإِنَّ فِي الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ طَرِيقَيْنِ . أَحَدُهُمَا أَنْ تَقُولَ الْعُقُوبَةُ عَلَى
 مَا يَقْتَرِفُهُ مِنَ الْجِنَايَاتِ فِي نَفْسِ أَمْوَالٍ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ
 بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالْمُطَالَبَةِ بِجِنَايَتِهِ وَأَمَّا نَفْسُ الْجَرَائِيَةِ فَهِيَ خُلُوٌّ مِنَ الْعُقُوبَةِ .
 الطَّرِيقُ الثَّانِي أَنْ تَقُولَ ، الْمُحَارِبُ لَا يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ لِأَنَّا إِنَّمَا نَعْنِي بِقُدْرَةِ
 الظَّالِمِ الْيَدَ الْمَبْسُوطَةَ الَّتِي لَا تَعَارِضُهَا قُدْرَةٌ فَهِيَ الْمُؤَدِّنَةُ بِالْخَرَابِ وَأَمَّا قُدْرَةُ
 الْمُحَارِبِ فَإِنَّمَا هِيَ إِخَافَةٌ يَجْعَلُهَا ذَرِيعَةً لِأَخْذِ الْأَمْوَالِ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْهَا بِيَدِ الْكُلِّ
 مَوْجُودَةٌ شَرْعًا وَسِيَاسَةً فَلَيْسَتْ مِنَ الْقَدْرِ الْمُؤَدِّنِ بِالْخَرَابِ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى
 مَا يَشَاءُ .

فصل : ومن أشدّ الظلمات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال
 وتسخير الرعايا بغير حقّ وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في
 باب الرزق لأن الرزق والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران . فإذا مساعيتهم
 وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فإن الرعية
 المعتملين في العماره إنما معاشهم ومكاسيتهم من اغتمالهم ذلك فإذا كلّفوا العمل في
 غير شأنهم واتخذوا سُخْرِيًا في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو
 متمولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم
 بالجملة وإن تكرّر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العماره وقعدوا عن السعي فيها جملة
 فأدى ذلك إلى انتفاض العمران وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الاحتكار : وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على
 أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع
 الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع وربما تفرض عليهم تلك
 الأثمان على التواحي والتعجيل^(١) فيتعلّلون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما
 تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحواله الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم
 بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان ، وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤوس
 أموالهم . وقد يعم ذلك أصناف التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في
 البضائع وسائر السوق وأهل الدكاكين في المأكّل والفواكه وأهل الصنائع فيما
 يتخذ من الآلات والمواعين فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطبقات وتتوالى على
 الساعات وتجيّف برؤوس الأموال ولا يجدون عنها وليجة إلا القعود عن الأسواق
 لذهاب رؤوس الأموال في جبرها بالأرباح ويتثاقل الواردون من الآفاق لشراء
 البضائع وبيعها من أجل ذلك فتكسّد الأسواق ويبطل معاش الرعايا لأن عائته
 من البيع والشراء وإذا كانت الأسواق عطلاً منها بطل معاشهم وتنقص جباية

(١) وفي بعض النسخ ، التراخي والتأجيل .

السُّلْطَانِ أَوْ تَفْسُدَ لِأَن مَّعْظَمَهَا مِنْ أَوْسَطِ الدَّوْلَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْمَكُوسِ عَلَى الْبَيَاعَاتِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَيَتَوَلَّى ذَلِكَ إِلَى تَلَاشِي الدَّوْلَةِ وَفَسَادِ عُمَرَانِ الْمَدِينَةِ وَيَتَطَرَّقُ هَذَا الْخَلَلُ عَلَى التَّدْرِيجِ وَلَا يُشْعِرُ بِهِ . هَذَا مَا كَانَ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الذَّرَائِعِ وَالْأَسْبَابِ إِلَى أَخْذِ الْأَمْوَالِ وَأَمَّا أَخْذُهَا مَجَانًا وَالْعُدْوَانُ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحُرْمَتِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ فَهُوَ يَقْضِي إِلَى الْخَلَلِ وَالْفَسَادِ دَفْعَةً وَتَنْتِيقُصُ الدَّوْلَةُ سَرِيعًا بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرَجِ الْمُفْضِي إِلَى الْإِنْتِقَاضِ وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ حَظَرَ الشَّرْعُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَشَرَعَ الْمَكَائِسَةَ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَحَظَرَ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ سَدًّا لِلْأَبْوَابِ الْمَفَاسِدِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى انْتِقَاضِ الْعُمَرَانِ بِالْهَرَجِ أَوْ بَطْلَانِ الْمَعَاشِ وَاعْلَمْ أَنَّ الدَّاعِيَ لِذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ حَاجَةُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ إِلَى الْإِكْتِسَارِ مِنَ الْمَالِ بِمَا يَغْرِضُ لَهُمْ مِنَ التَّرَفِ فِي الْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ نَفَقَاتُهُمْ وَيَغْظُمُ الْخَرْجُ وَلَا يَفِي بِهِ الدُّخْلُ عَلَى الْقَوَانِينِ الْمُفْتَادَةِ يَسْتَحْدِثُونَ الْقَابَا وَوُجُوهَا يُوسَّعُونَ بِهَا الْجَبَايَةَ لِيَفِي لَهُمُ الدُّخْلُ بِالْخَرْجِ ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّرَفُ يَزِيدُ وَالْخَرْجُ بِسَبَبِهِ يَكْثُرُ وَالْحَاجَةُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ تَشْتَدُّ وَنِطاقُ الدَّوْلَةِ بِذَلِكَ يَزِيدُ إِلَى أَنْ تَمُجِيَ دَائِرَتُهَا وَيَذْهَبَ بِرِسْمِهَا وَيَغْلِبَهَا طَالِبُهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الرابع والأربعون

في أن الحجاب كيف يقع في الدول وفي أنه يعظم عند الهرم
إِغْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَكُونُ بَعِيدَةً عَنْ مَنَازِعِ الْمُلْكِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ أَمْرُهَا وَيَخْصُلُ اسْتِيْلَاؤُهَا وَالْبِدَاوَةُ هِيَ شِعَارُ الْعَصِيَّةِ وَالدَّوْلَةُ إِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِالذِّينِ فَإِنَّهُ يَبْعِدُ عَنْ مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَإِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِعِزِّ الْغَلْبِ فَقَطُّ فَالْبِدَاوَةُ الَّتِي بِهَا يَخْصُلُ الْغَلْبُ بَعِيدَةٌ أَيْضًا عَنْ مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَمَذَاهِبِهِ فَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا بَدَوِيَّةً كَانَ صَاحِبُهَا عَلَى خَالِ الْغَضَاضَةِ وَالْبِدَاوَةِ وَالْقُرْبِ مِنَ النَّاسِ وَسَهُولَةِ الْإِذْنِ فَإِذَا رَسَخَ عِزُّهُ وَصَارَ إِلَى الْإِنْفِرَادِ

بِنَفْسِهِ عَنِ النَّاسِ لِلْحَدِيثِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ فِي خَوَاصِّ شُؤْنِهِ لِمَا يَكْثُرُ حِينَئِذٍ بِخَاشِيَتِهِ
فَيَطْلُبُ الْإِنْفِرَادَ مِنَ الْعَامَّةِ مَا اسْتَطَاعَ وَيَتَّخِذُ الْإِذْنَ بِبَيَّاهِهِ عَلَى مَنْ لَا يَأْمَنُهُ مِنْ
أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ دَوْلَتِهِ وَيَتَّخِذُ حَاجِبًا لَهُ عَنِ النَّاسِ يَقِيمُهُ بِبَيَّاهِهِ لِهَذِهِ الْوُظَيْفَةِ ثُمَّ إِذَا
اسْتَفْحَلَ الْمُلْكُ وَجَاءَتْ مَذَاهِبُهُ وَمَنَازِعُهُ اسْتَحَالَتْ أَخْلَاقُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ إِلَى أَخْلَاقِ
الْمَلِكِ وَهِيَ أَخْلَاقُ غَرِيبَةٍ مَخْصُوصَةٍ يَخْتَاجُ مُبَاشَرَهَا إِلَى مُدَارَاتِهَا وَمُعَامَلَتِهَا بِمَا
يَحِبُّ لَهَا وَرُبَّمَا جَهْلُ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ مِنْهُمْ بَغْضُ مَنْ يُبَاشِرُهُمْ فَوْقَ فِيمَا
لَا يُرْضِيهِمْ فَسَخَطُوا وَصَارُوا إِلَى حَالَةِ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ فَانْفَرَدَ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأَدَابِ
الْخَوَاصِّ مِنَ أَوْلِيَائِهِمْ وَحَجَبُوا غَيْرَ أَوْلِيكَ الْخَاصَّةِ عَنْ لِقَائِهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ حِفْظًا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُعَايِنَةِ مَا يُسَخِطُهُمْ عَلَى النَّاسِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِعِقَابِهِمْ فَصَارَ حِجَابٌ آخَرُ
أَخْصُ مِنَ الْحِجَابِ الْأَوَّلِ يُفْضِي إِلَيْهِمْ مِنْهُ خَوَاصُّهُمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مِنْ
سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ . وَالْحِجَابُ الثَّانِي يُفْضِي إِلَى مَجَالِسِ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مِنْ
سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ ^(١) . وَالْحِجَابُ الْأَوَّلُ يَكُونُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ كَمَا ذَكَّرْنَا كَمَا حَدَّثَ
لَأَيَّامِ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدُ الْمَلِكِ وَخُلَفَاءُ بَنِي أُمَيَّةٍ وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَى ذَلِكَ الْحِجَابِ يُسَمَّى
عِنْدَهُمُ الْحَاجِبَ جَزِيًّا عَلَى مَذْهَبِ الْإِسْتِقَاقِ الصَّحِيحِ . ثُمَّ لَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي
الْعَبَّاسِ وَجَدَتِ الدَّوْلَةَ مِنَ التَّرَفِّ وَالْعِزِّ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَكَمَلَتْ خُلُقُ الْمَلِكِ عَلَى
مَا يَحِبُّ فِيهَا فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْحِجَابِ الثَّانِي وَصَارَ اسْمُ الْحَاجِبِ أَخْصُ بِهِ وَصَارَ
بِبَابِ الْخُلَفَاءِ دَارَانِ لِلْعَبَّاسِيَّةِ : دَارُ الْخَاصَّةِ وَدَارُ الْعَامَّةِ كَمَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي
أَخْبَارِهِمْ . ثُمَّ حَدَّثَ فِي الدَّوَلِ حِجَابٌ ثَالِثٌ أَخْصُ مِنَ الْأَوَّلَيْنِ وَهُوَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ
الْحَجَرِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الدَّوْلَةِ وَخَوَاصَّ الْمَلِكِ إِذَا نَصَبُوا الْأَبْنَاءَ مِنَ

(١) علق الدكتور علي عبد الواحد وافي على هذه العبارة في نسخة لجنة البيان العربي « فقال ، (هكذا وردت العبارة في جميع النسخ ولا بد أن يكون قد حدث فيها حذف وتكرار والوضع الصحيح للعبارة هو ما يلي « فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول يفضي إليهم منه خواصهم من الأولياء . ويحجب دونه من سواهم من الخاصة والعامة . بينما كان الحجاب الأول يفضي إليهم منه الخاصة ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا . . . ») وقد سَهَّلَ هذا السقط وهذه الزيادة وجود كلمة « سواهم » في الجملتين .

الأعقاب وَحَاوَلُوا الْإِسْتِبْدَادَ عَلَيْهِمْ فَأُولَ مَا يَبْدَأُ بِهِ ذَلِكَ الْمُسْتَبَدُّ أَنْ يَحْجُبَ عَنْهُ
 بِطَانَةُ ابْنِهِ وَخَوَاصُّ أَوْلِيَائِهِ يُوْهَمُهُ أَنْ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ إِثَاءَ خَرْقِ حِجَابِ الْهَيْبَةِ وَفَسَادِ
 قَانُونِ الْأَدَبِ لِيَقْطَعَ بِذَلِكَ لِقَاءَ الْغَيْرِ وَيَعُوْدَهُ مَلَابَسَةُ اخْلَاقِهِ هُوَ حَتَّى لَا يَتَبَدَّلَ
 بِهِ سِوَاهُ إِلَى أَنْ يَسْتَحْكِمَ الْإِسْتِيلَاءَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ هَذَا الْحِجَابُ مِنْ دَوَائِعِهِ وَهَذَا
 الْحِجَابُ لَا يَقَعُ فِي الْغَالِبِ إِلَّا أَوَاخِرَ الدَّوْلَةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي الْحَجَرِ وَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى
 هَرَمِ الدَّوْلَةِ وَنَفَادِ قُوَّتِهَا وَهُوَ مِمَّا يَخْشَاهُ أَهْلُ الدَّوْلِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّ الْقَائِمِينَ
 بِالدَّوْلَةِ يُحَاوِلُونَ عَلَى ذَلِكَ يَطْبِيعُهُمْ عِنْدَ هَرَمِ الدَّوْلَةِ وَذَهَابِ الْإِسْتِبْدَادِ مِنْ أَعْقَابِ
 مُلُوكِهِمْ لِمَا رُكِبَ فِي النُّفُوسِ مِنْ مَحَبَّةِ الْإِسْتِبْدَادِ بِالْمُلْكِ وَخُصُوصًا مَعَ التَّرْشِيحِ
 لِذَلِكَ وَخُصُولِ دَوَائِعِهِ وَمَبَادِيهِ .

الفصل الخامس والأربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

إِغْلَمْ أَنْ أَوَّلَ مَا يَقَعُ مِنْ آثَارِ الْهَرَمِ فِي الدَّوْلَةِ انْقِسَامُهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ عِنْدَمَا
 يَسْتَفْجِلُ وَيَبْلُغُ مِنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ إِلَى غَايَتِهَا وَيَسْتَبِدُّ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ
 بِالْمَجْدِ وَيَتَفَرَّدُ بِهِ وَيَأْتِفُ حِينَئِذٍ عَنِ الْمُشَارَكَةِ يَصِيرُ إِلَى قَطْعِ أَسْبَابِهَا مَا اسْتَطَاعَ
 بِإِهْلَاكِ مَنْ اسْتَرَابَ بِهِ مِنْ ذَوِي قِرَائَتِهِ الْمُرْشِحِينَ لِمَنْصِبِهِ فَرُبَّمَا ارْتَابَ
 الْمُسَاهِمُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَنَزَعُوا إِلَى الْقَاصِيَةِ إِلَيْهِمْ مَنْ يُلْحَقُ بِهِمْ مِثْلَ خَالِهِمْ
 مِنَ الْإِعْتِزَارِ وَالِاسْتِرَايَةِ وَيَكُونُ نِطَاقُ الدَّوْلَةِ قَدْ أَخَذَ فِي التَّضَايِقِ وَرَجَعَ عَنِ
 الْقَاصِيَةِ فَيَسْتَبِدُّ ذَلِكَ النَّازِعُ مِنَ الْقِرَايَةِ فِيهَا وَلَا يَزَالُ أَمْرُهُ يَغْطُمُ بِتَرَاجُعِ نِطَاقِ
 الدَّوْلَةِ حَتَّى يَقَاسِمَ الدَّوْلَةَ أَوْ يَكَادُ وَانْظُرْ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ حِينَ
 كَانَ أَمْرُهَا حَرِيرًا مُجْتَمِعًا وَنِطَاقًا مُمْتَدًّا فِي الْإِتْسَاعِ وَعَصِيَّةً بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَاحِدَةً
 غَالِيَةً عَلَى سَائِرِ مُضَرٍّ يَنْبُضُ عِرْقُ مِنَ الْخِلَافَةِ سَائِرِ أَيَّامِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بَدْعَةِ
 الْخَوَارِجِ الْمُسْتَمِيتِينَ فِي شَأْنِ بَدْعَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِنِزْعَةِ مُلْكِ وَلَا رِئَاسَةِ وَلَمْ يَتِمَّ

أَمْرُهُمْ لِمَزَاحِمَتِهِمُ الْعَصِيَّةَ الْقَوِيَّةَ ثُمَّ لَمَّا خَرَجَ الْأَمْرُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَاسْتَقَلَّ بَنُو الْعَبَّاسِ بِالْأَمْرِ . وَكَانَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ بَلَغَتْ الْغَايَةَ مِنَ الْغَلَبِ وَالتَّرَفِ وَأَذْنَتْ بِالتَّقْلُصِ عَنِ الْقَاصِيَةِ نَزَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاحِلُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ قَاصِيَةَ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ فَاسْتَحْدَثَ بِهَا مُلْكًا وَاقْتَطَعَهَا عَنْ دَوْلَتِهِمْ وَصَيَّرَ الدَّوْلَةَ دَوْلَتَيْنِ ثُمَّ نَزَعَ إِدْرِيسُ إِلَى الْمَغْرِبِ وَخَرَجَ بِهِ وَقَامَ بِأَمْرِهِ وَأَمَرَ ابْنَهُ مِنْ بَعْدِهِ الْبَرَابِرَةَ مِنْ أَوْرُبَةَ وَمُغِيلَةَ وَزَنَاتَةَ وَاسْتَوَلَى عَلَى نَاحِيَةِ الْمَغْرِبَيْنِ ثُمَّ أَزْدَادَتِ الدَّوْلَةُ تَقْلُصًا فَاضْطَرَبَ الْأَغَالِبَةُ فِي الْإِمْتِنَاعِ عَلَيْهِمْ ثُمَّ خَرَجَ الشَّيْعَةُ وَقَامَ بِأَمْرِهِمْ كُتَامَةُ وَصَنَاهَاةٌ وَاسْتَوَلَوْا عَلَى أَفْرِيْقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ ثُمَّ مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ وَغَلَبُوا عَلَى الْأَدَارِسَةِ وَقَسَمُوا الدَّوْلَةَ دَوْلَتَيْنِ أُخْرَيْنِ وَصَارَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ ثَلَاثَ دَوْلٍ ، دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ مَرْكَزُ الْعَرَبِ وَأَصْلُهُمْ وَمَادَنُهُمُ الْإِسْلَامُ ، وَدَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ الْمُجَدِّدِينَ بِالْأَنْدَلُسِ مُلْكُهُمُ الْقَدِيمُ وَخِلَافَتُهُمُ بِالْمَشْرِقِ ، وَدَوْلَةُ الْعُبَيْدِيِّينَ بِأَفْرِيْقِيَّةَ وَمِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ إِلَى أَنْ أَصْبَحَ انْقِرَاضُهَا مُتَقَارِبًا أَوْ جَمِيعًا وَكَذَلِكَ انْقَسَمَتِ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ بِدَوْلٍ أُخْرَى وَكَانَ بِالْقَاصِيَةِ بَنُو سَاسَانَ فِيمَا وَرَاءَ النُّهْرِ وَخُرَاسَانَ وَالْعُلُوِيَّةَ فِي الدَّيْلَمِ وَطَبَرِسْتَانَ وَآلَ ذَلِكَ إِلَى اسْتِيلَاءِ الدَّيْلَمِ عَلَى الْعِرَاقَيْنِ وَعَلَى بَغْدَادَ وَالْخُلَفَاءُ ثُمَّ جَاءَ السُّلْجُوقِيَّةُ فَمَلَكُوا جَمِيعَ ذَلِكَ ثُمَّ انْقَسَمَتِ دَوْلَتُهُمْ أَيْضًا بَعْدَ الْاسْتِفْحَالِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَكَذَلِكَ اعْتَبَرَهُ فِي دَوْلَةِ صَنَاهَاةٍ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيْقِيَّةَ لَمَّا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا أَيَّامَ بَادِيَسَ بْنِ الْمَنْصُورِ ، خَرَجَ عَلَيْهِ عَمُهُ حَمَادٌ وَاقْتَطَعَ مَمَالِكَ الْعَرَبِ لِنَفْسِهِ مَا بَيْنَ جَبَلِ أَوْرَاسَ إِلَى تَلْمُسَانَ وَمَلُوكِيَّةَ وَاخْتَطَطَ الْقَلْعَةُ بِجَبَلِ كُتَامَةَ حِيَالَ الْمَسِيلَةِ وَنَزَلَهَا وَاسْتَوَلَى عَلَى مَرْكَزِهِمْ أَشِيرَ بِجَبَلِ تَيْطَرِي وَاسْتَحْدَثَ مُلْكًا آخَرَ قَسِيمًا لِمُلْكِ آلِ بَادِيَسَ وَبَقِيَ آلُ بَادِيَسَ بِالْقَيْرَوَانِ وَمَا إِلَيْهَا وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ انْقَرَضَ أَمْرُهُمَا جَمِيعًا . وَكَذَلِكَ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ ، لَمَّا تَقْلَصَ ظِلُّهَا نَارَ بِأَفْرِيْقِيَّةَ بَنُو أَبِي حَفْصٍ فَاسْتَقَلُّوا بِهَا وَاسْتَحْدَثُوا مُلْكًا لِأَغْقَابِهِمْ بَنَوَاحِيهَا ثُمَّ لَمَّا اسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ وَاسْتَوَلَى عَلَى الْغَايَةِ خَرَجَ عَلَى الْمَمَالِكِ الْغَرِبِيَّةِ مِنْ

أَغْقَابِهِمُ الْأَمِيرُ أَبُو زَكْرِيَاءَ يَحْيَى ابْنُ السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَقَ إِبْرَاهِيمَ رَابِعَ خُلَفَائِهِمْ
وَأَسْتَحْدَثَ مُلْكًا بِجَبَايَةِ وَقَسَنطِينَةَ وَمَا إِلَيْهَا ، أَوْرَثَهُ بَنِيهِ وَقَسَمُوا بِهِ الدَّوْلَةَ قِسْمَيْنِ
ثُمَّ اسْتَوْلُوا عَلَى كُرْسِيِّ الْحَضَرَةِ بِتُونِسَ ثُمَّ انْقَسَمَ مَا بَيْنَ أَغْقَابِهِمْ ثُمَّ عَادَ الْإِسْتِيلَاءُ
فِيهِمْ وَقَدْ يَنْتَهِي الْإِنْقِسَامُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ دَوْلَتَيْنِ وَثَلَاثَ وَفِي غَيْرِ أَغْيَاصِ الْمُلْكِ مِنْ
قَوْمِهِ كَمَا وَقَعَ فِي مُلُوكِ الطَّوَاتِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ وَفِي مُلْكِ
صَنْهَاجَةَ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ فَقَدْ كَانَ لِأَخِرِ دَوْلَتِهِمْ فِي كُلِّ حَضَنٍ مِنْ حَضُونِ أَفْرِيْقِيَّةٍ ثَائِرٌ
مُسْتَقِلٌّ بِأَمْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَكَذَا حَالُ الْجَرِيدِ وَالزَّابِ مِنْ أَفْرِيْقِيَّةٍ قُبَيْلَ هَذَا
الْعَهْدِ كَمَا نَذَكْرُهُ وَهَكَذَا شَأْنُ كُلِّ دَوْلَةٍ لِإِنْدَ وَأَنْ يَغْرَضَ فِيهَا عَوَارِضُ الْهَرَمِ
بِالتَّرَفِ وَالِدَّعَةِ وَتَقْلُصُ ظِلُّ الْغُلْبِ فَيَنْقَسِمُ أَغْيَاصُهَا أَوْ مِنْ يَغْلِبُ مِنْ رِجَالِ دَوْلَتِهَا
الْأَمْرَ وَيَتَعَدَّدُ فِيهَا الدُّوَلُ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

الفصل السادس والأربعون

في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

قَدْ قَدَّمْنَا ذَكَرَ الْعَوَارِضِ الْمُؤَذِّنَةِ بِالْهَرَمِ وَأَسْبَابَهُ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَبَيَّنَّا أَنَّهَا
تَخْدُثُ لِلدَّوْلَةِ بِالطَّبِيعِ وَأَنَّهَا كُلُّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ لَهَا وَإِذَا كَانَ الْهَرَمُ طَبِيعِيًّا فِي الدَّوْلَةِ
كَانَ حُدُوثُهُ بِمِثَالَةِ حَدُوثِ الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ كَمَا يَخْدُثُ الْهَرَمُ فِي الْمِزَاجِ الْحَيَوَانِيِّ
وَالْهَرَمُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُزْمِنَةِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ دَوَائُهَا وَلَا ارْتِفَاعُهَا لِمَا أَنَّهُ طَبِيعِيٌّ
وَالْأُمُورُ الطَّبِيعِيَّةُ لَا تَتَبَدَّلُ وَقَدْ يَتَنَبَّهُ كَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الدُّوَلِ بِمَنْ لَهُ يَقْطَعُ فِي
السِّيَاسَةِ فَيَرَى مَا نَزَلَ بِدَوْلَتِهِمْ مِنْ عَوَارِضِ الْهَرَمِ وَيَظُنُّ أَنَّهُ مُمَكِّنُ الْإِرْتِفَاعِ فَيَأْخُذُ
نَفْسَهُ بِتَلَاْفِي الدَّوْلَةِ وَإِصْلَاحِ مِزَاجِهَا عَنْ ذَلِكَ الْهَرَمِ وَيَحْسِبُهُ أَنَّهُ لِحَقِّهَا بِتَقْصِيرٍ مِنْ
قَبْلِهِ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَعَقْلِيَّتِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلدَّوْلَةِ وَالْعَوَائِدُ هِيَ
الْمَانِعَةُ لَهُ مِنْ تَلَاْفِيهَا وَالْعَوَائِدُ مَنْزِلَةٌ طَبِيعِيَّةٌ أُخْرَى فَإِنْ مَنْ أَدْرَكَ مَثَلًا أَبَاهُ وَأَكْثَرَ

أَهْلُ بَيْتِهِ يَلْبَسُونَ الْخَرِيرَ وَالذِّيبَاجَ وَيَتَجَلَّلُونَ بِالذَّهَبِ فِي السَّلَاحِ وَالْمَرَاقِبِ وَيَخْتَجِبُونَ عَنِ النَّاسِ فِي الْمَجَالِسِ وَالصَّلَوَاتِ فَلَا يُمْكِنُهُ مَخَالَفَةُ سَلَفِهِ فِي ذَلِكَ إِلَى الْخُشُونَةِ فِي اللَّبَاسِ وَالزِّيِّ وَالْإِخْتِلَاطِ بِالنَّاسِ إِذَ الْعَوَائِدِ حِينَئِذٍ تَمْنَعُهُ وَتَقْبَحُ عَلَيْهِ مُرْتَكِبُهُ وَلَوْ فَعَلَهُ لَرُمِيَ بِالْجُنُونِ وَالْوَسْوَاسِ فِي الْخُرُوجِ عَنِ الْعَوَائِدِ دَفْعَةً ، وَخُشْيَ عَلَيْهِ غَائِدَةُ ذَلِكَ وَعَاقِبَتُهُ فِي سُلْطَانِهِ وَانْظُرْ شَأْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي إِنْكَارِ الْعَوَائِدِ وَمُخَالَفَتِهَا لَوْلَا التَّايِيدُ الْإِلَهِيُّ وَالنَّصْرُ السَّمَاوِيُّ وَرُبَّمَا تَكُونُ الْعَصِيَّةُ قَدْ ذَهَبَتْ فَتَكُونُ الْأَبْهَةُ تَعَوُّضٌ عَنْ مَوْقِعِهَا مِنَ النُّفُوسِ فَإِذَا أُرِيْلَتْ تِلْكَ الْأَبْهَةُ مَعَ ضَعْفِ الْعَصِيَّةِ تَجَاسَرَتْ الرُّعَايَا عَلَى الدُّوْلَةِ يَذْهَابُ أَوْهَامُ الْأَبْهَةِ فَتَتَدَرَّعُ الدُّوْلَةُ بِتِلْكَ الْأَبْهَةِ مَا أُمَكَّنَهَا حَتَّى يَنْقُضِي الْأَمْرُ وَرُبَّمَا يَخْدُثُ عِنْدَ آخِرِ الدُّوْلَةِ قُوَّةٌ تُؤْهِمُ أَنَّ الْهَرَمَ قَدْ ارْتَفَعَ عَنْهَا وَيُؤْمِضُ ذُبَالُهَا إِيْمَاضَةَ الْخُمُودِ كَمَا يَقَعُ فِي الذُّبَالِ الْمُشْتَمِلِ فَإِنَّهُ عِنْدَ مُقَارَنَةِ انْطِفَائِهِ يُؤْمِضُ إِيْمَاضَةً تُؤْهِمُ أَنَّهَا اشْتَعَالٌ وَهِيَ انْطِفَاءٌ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَلَا تُفْعَلْ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمَتُهُ فِي أَطْرَادِ وَجُودِهِ عَلَى مَا قَدَّرَ فِيهِ « وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » .

الفصل السابع والأربعون

في كيفية طرق الخلل للدولة

إِغْلَمْ أَنَّ مَبْنَى الْمُلْكِ عَلَى أُسَاسَيْنِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا فَالْأَوَّلُ الشُّوْكَةُ وَالْعَصِيَّةُ وَهُوَ الْمُعْبَرُ عَنْهُ بِالْجُنْدِ وَالثَّانِي الْمَالُ الَّذِي هُوَ قَوَامُ أَوْلِيكَ الْجُنْدِ وَإِقَامَةُ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلْكِ مِنَ الْأَخْوَالِ . وَالْخُلُلُ إِذَا طَرَقَ الدُّوْلَةُ طَرَقَهَا فِي هَذَيْنِ الْأَسَاسَيْنِ فَلَنَذْكُرَ أَوَّلًا طُرُوقَ الْخُلُلِ فِي الشُّوْكَةِ وَالْعَصِيَّةِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى طُرُوقِهِ فِي الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ تَمَهِيدَ الدُّوْلَةِ وَتَأْسِيسَهَا كَمَا قُلْنَا إِنَّهَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ عَصِيَّةٍ كُبْرَى جَامِعَةٍ لِلْعَصَائِبِ مُسْتَتَبِعَةٌ لَهَا وَهِيَ عَصِيَّةُ صَاحِبِ الدُّوْلَةِ الْخَاصَّةِ مِنْ عَشِيرَةٍ وَقَبِيلَةٍ فَإِذَا جَاءَتِ الدُّوْلَةُ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ مِنَ التَّرَفِ وَجَذَعَ أَتُوفِ أَهْلِ

الْعَصِيَّةُ كَانَ ^(١) أَوَّلُ مَا يُجْدَعُ أَنْوَافُ عَشِيرَتِهِ وَذَوِي قُرْبَاهُ الْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي اسْمِ
 الْمَلِكِ فَيَسْتَبْدُ فِي جَدْعِ أَنْوَافِهِمْ بِمَا بَلَغَ مِنْ سَوَادِهِمْ لِمَكَانِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَالْعِزِّ
 وَالْغَلْبِ فَيَحِيطُ بِهِمْ هَادِمَانِ وَهُمَا التَّرَفُ وَالْقَهْرُ ثُمَّ يَصِيرُ الْقَهْرُ آخِرًا إِلَى الْقَتْلِ لِمَا
 يَخْصُلُ مِنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ رُسُوحِ الْمَلِكِ لِصَاحِبِ الْأَمْرِ فَيَقْلِبُ غَيْرَتَهُ مِنْهُمْ إِلَى
 الْخَوْفِ عَلَى مُلْكِهِ فَيَأْخُذُهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْإِهَانَةِ وَسُلْبِ النِّعْمَةِ وَالتَّرَفِ الَّذِي تَعَوَّدُوا
 الْكَثِيرَ مِنْهُ فَيَهْلِكُونَ وَيَقْلُونَ وَتَفْسُدُ عَصِيَّةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ مِنْهُمْ وَهِيَ الْعَصِيَّةُ
 الْكُبْرَى الَّتِي كَانَتْ تَجْمَعُ بِهَا الْعَصَائِبُ وَتَسْتَبْعُهَا فَتَنْحَلُ عَزْوَتَهَا وَتَضَعُفُ
 شَكِيمَتَهَا وَتُسْتَبْدَلُ عَنْهَا بِالْبَطَانَةِ مِنْ مَوَالِي النِّعْمَةِ وَصَنَائِعِ الْإِحْسَانِ وَتَتَّخِذُ مِنْهُمْ
 عَصِيَّةً إِلَّا أَنَّهُمَا لَيْسَتْ مِثْلُ تِلْكَ الشَّدَةِ الشَّكِيمَةِ لِفَقْدَانِ الرَّحْمِ وَالْقَرَاةِ مِنْهَا وَقَدْ
 كُنَّا قَدْ مَنَّا أَنْ شَأْنَ الْعَصِيَّةِ وَقُوَّتَهَا إِنَّمَا هِيَ بِالْقَرَاةِ وَالرَّحْمِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ
 فَيَنْفَرُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَنِ الْعَشِيرِ وَالْأَنْصَارِ الطَّبِيعِيِّينَ وَيَحْسُ بِذَلِكَ أَهْلُ الْعَصَائِبِ
 الْآخَرَى فَيَتَجَاسَرُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى بَطَانَتِهِ تَجَاسَرُ طَبِيعِيًّا فَيَهْلِكُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ
 وَيَتَّبِعُهُمْ بِالْقَتْلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَيَقْلُدُ الْآخَرِ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ فِي ذَلِكَ ، الْأَوَّلِ مَعَ
 مَا يَكُونُ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ مُهْلِكَةِ التَّرَفِ الَّذِي قَدْ مَنَّا فَيَسْتَوْلِي عَلَيْهِمُ الْهَلَاكُ
 بِالتَّرَفِ وَالْقَتْلِ حَتَّى يَخْرُجُوا عَنْ صِنْفَةِ تِلْكَ الْعَصِيَّةِ وَيَفْشُوا بِعِزَّتِهَا وَثَوَرَتِهَا
 وَيَصِيرُوا أَوْجَزَ عَلَى الْحِمَايَةِ وَيَقْلُونَ لِذَلِكَ فَتَقُلُ الْحِمَايَةُ الَّتِي تَنْزِلُ بِالْأَطْرَافِ
 وَالثُّغُورِ فَتَتَجَاسَرُ الرُّعَايَا عَلَى بَعْضِ الدُّعْوَةِ فِي الْأَطْرَافِ وَيَبَادِرُ الْخَوَارِجُ عَلَى الدَّوْلَةِ
 مِنَ الْأَعْيَاصِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى تِلْكَ الْأَطْرَافِ لِمَا يَرْجُونَ جَيْنِيزَ مِنْ حُصُولِ غَرَضِهِمْ
 بِمُبَايَعَةِ أَهْلِ الْقَاصِيَةِ لَهُمْ وَأَمْنِهِمْ مِنْ وَصُولِ الْحَامِيَةِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَدَرَّجُ
 وَنِطَاقُ الدَّوْلَةِ يَتَضَاقُ حَتَّى تَصِيرَ الْخَوَارِجُ فِي أَقْرَبِ الْأَمَاكِنِ إِلَى مَرْكَزِ الدَّوْلَةِ
 وَرُبَّمَا انْقَسَمَتِ الدَّوْلَةُ عِنْدَ ذَلِكَ بِدَوْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ عَلَى قَدَرِ قُوَّتِهَا فِي الْأَصْلِ كَمَا
 قُلْنَا وَيَقُومُ بِأَمْرِهَا غَيْرُ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهَا لَكِنْ إِذْغَانَا لِأَهْلِ عَصَبِيَّتِهَا وَلِغَلْبِهِمُ الْمَغْهُودِ
 وَاعْتَبَرْ هَذَا فِي دَوْلَةِ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ كَيْفَ انْتَهَتْ أَوَّلًا إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ

(١) أي صاحب الدولة .

وَكَانَ أَمْرُ بَنِي أُمَيَّةَ نَافِذًا فِي جَمِيعِ الْعَرَبِ بِعَصِيَّةِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَتَّى لَقَدْ أَمَرَ
سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِدِمَشْقَ يَقْتُلَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ بِقَرْطَبَةَ
فَقُتِلَ وَلَمْ يَرُدَّ أَمْرُهُ . ثُمَّ تَلَا شَتْ عَصِيَّةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ التَّرَفِ
فَانْقَرَضُوا . وَجَاءَ بَنُو الْعَبَّاسِ فَغَضُّوا مِنْ أَعْنَةِ بَنِي هَاشِمٍ وَقَتَلُوا الطَّالِبِيْنَ وَشَرَّدُوهُمْ
فَانْحَلَّتْ عَصِيَّةُ عَبْدِ مَنَافٍ وَتَلَا شَتْ وَتَجَاسَرَ الْعَرَبُ عَلَيْهِمْ فَاسْتَبَدَّ عَلَيْهِمْ أَهْلُ
الْقَاصِيَةِ مِثْلَ بَنِي الْأُغْلَبِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهِمْ وَانْقَسَمَتِ الدَّوْلَةُ ثُمَّ
خَرَجَ بَنُو إِدْرِيسَ بِالْمَغْرِبِ وَقَامَ الْبَرْبَرُ بِأَمْرِهِمْ إِذْغَانًا لِلْعَصِيَّةِ الَّتِي لَهُمْ وَأَمَّنَا أَنْ
تَصِلَهُمْ مُقَاتِلَةٌ أَوْ حَامِيَّةٌ لِلدَّوْلَةِ . فَإِذَا خَرَجَ الدُّعَاةُ آخِرًا فَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْأَطْرَافِ
وَالْقَاصِيَةِ وَتَخْصُلُ لَهُمْ هُنَاكَ دَعْوَةٌ وَمَلِكٌ تَنْقَسِمُ بِهِ الدَّوْلَةُ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ مَتَى
زَادَتِ الدَّوْلَةُ تَقْلُصًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَرْكَزِ وَتَضْعُفُ الْبَطَانَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا أَخَذَ
مِنْهَا التَّرَفُ فَتَهْلِكُ وَتَضْمَحِلُ وَتَضْعُفُ الدَّوْلَةُ الْمُتَنَقِّسِمَةُ كُلُّهَا وَرُبَّمَا طَالَ أَمَدُهَا بَعْدَ
ذَلِكَ فَتُسْتَغْنِي عَنِ الْعَصِيَّةِ بِمَا حَصَلَ لَهَا مِنَ الصُّبْغَةِ فِي نَفُوسِ أَهْلِ إِيَالَتِهَا وَهِيَ
صِبْغَةُ الْإِنْتِقَادِ وَالتَّسْلِيمِ مُنْذُ السَّنِينَ الطَّوِيلَةِ الَّتِي لَا يَغْفُلُ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ مَبْدَأَهَا
وَلَا أَوَّلِيَّتَهَا فَلَا يَغْفِلُونَ إِلَّا التَّسْلِيمَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَغْنِي بِذَلِكَ عَنْ قُوَّةِ
الْعَصَائِبِ وَيَكْفِي صَاحِبَهَا بِمَا حَصَلَ لَهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهَا الْإِجْرَاءَ عَلَى الْحَامِيَةِ مِنْ
جُنْدِيٍّ وَمُرْتَزِقٍ وَيَغْضَدُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي النُّفُوسِ غَامَةٌ مِنَ التَّسْلِيمِ فَلَا يَكَاذُ أَحَدٌ
يَتَصَوَّرُ عُضِيَانًا أَوْ خُرُوجًا إِلَّا وَالْجُمْهُورُ مُنْكَرُونَ عَلَيْهِ مُخَالِفُونَ لَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى
التَّصَدِّي لِذَلِكَ وَلَوْ جَهْدَ جُهْدِهِ وَرُبَّمَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ فِي هَذَا الْحَالِ أَسْلَمَ مِنَ الْخَوَارِجِ
وَالْمُنَارَعَةِ لِاسْتِحْكَامِ صِبْغَةِ التَّسْلِيمِ وَالْإِنْتِقَادِ لَهُمْ فَلَا تَكَاذُ النُّفُوسُ تُحَدِّثُ سِرَّهَا
بِمُخَالَفَةٍ وَلَا يَخْتَلِجُ فِي ضَمِيرِهَا انْحِرَافٌ عَنِ الطَّاعَةِ فَيَكُونُ أَسْلَمَ مِنَ الْهَرَجِ
وَالْإِنْتِقَاضِ الَّذِي يَحْدُثُ مِنَ الْعَصَائِبِ وَالْعَشَائِرِ ثُمَّ لَا يَزَالُ أَمْرُ الدَّوْلَةِ كَذَلِكَ وَهِيَ
تَتَلَاشَى فِي ذَاتِهَا شَأْنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ فِي الْبَدَنِ الْعَادِمِ لِلْغِذَاءِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى
وَقْتِهَا الْمَقْدُورِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ وَلِكُلِّ دَوْلَةٍ أَمَدٌ وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَهُوَ

الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . وَأَمَّا الْخَلَلُ الَّذِي يَتَطَرَّقُ مِنْ حَيْثُ الْمَالِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِهَا
 تَكُونُ بَدْوِيَّةً كَمَا مَرَّ فَيَكُونُ خُلُقُ الرَّفِيقِ بِالرَّعَايَا وَالْقَصْدُ فِي النِّفَقَاتِ وَالتَّعَفُّفُ عَنِ
 الْأَمْوَالِ فَتَتَجَافَى عَنِ الْإِمْتِنَانِ فِي الْجَبَايَةِ وَالتَّحَذُّلِ وَالْكَيْسِ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ
 وَحُسْبَانِ الْعُمَالِ وَلَا دَاعِيَةَ حِينَئِذٍ إِلَى الْإِسْرَافِ فِي النِّفَقَةِ فَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى كَثْرَةِ
 الْمَالِ ثُمَّ يَخْضُلُ الْإِسْتِيلَاءُ وَيَعْظُمُ وَيَسْتَفْجِلُ الْمُلْكُ فَيَدْعُو إِلَى التَّرَفِ وَيَكْثُرُ
 الْإِنْفَاقُ بِسَبَبِهِ فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْعُمُومِ بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى
 أَهْلِ الْمَضَرِّ وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي أُعْطِيَّاتِ الْجُنْدِ وَأَرْزَاقِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ يَعْظُمُ
 التَّرَفُ فَيَكْثُرُ الْإِسْرَافُ فِي النِّفَقَاتِ وَيَنْتَشِرُ ذَلِكَ فِي الرِّعِيَّةِ لِأَنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ
 مُلُوكِهَا وَعَوَائِدِهَا وَيَحْتَاجُ السُّلْطَانُ إِلَى ضَرْبِ الْمَكُوسِ عَلَى أَثْمَانِ الْبِيعَاتِ فِي
 الْأَسْوَاقِ لِإِذْرَارِ الْجَبَايَةِ لِمَا يَرَاهُ مِنْ تَرْفِ الْمَدِينَةِ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ بِالرَّفِّهِ وَلِمَا
 يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ نَفَقَاتِ سُلْطَانِهِ وَأَرْزَاقِ جُنْدِهِ ثُمَّ تَزِيدُ عَوَائِدُ التَّرَفِ فَلَا تَقْبِي بِهَا
 الْمَكُوسُ وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ قَدْ اسْتَفْحَلَتْ فِي الْإِسْطِطَالَةِ وَالْقَهْرِ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهَا مِنْ
 الرَّعَايَا فَتَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ مِنْ أَمْوَالِ الرَّعَايَا مِنْ مَكْسٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ نَقْدٍ
 فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بِشَبَهَةٍ أَوْ بِغَيْرِ شَبَهَةٍ وَيَكُونُ الْجُنْدُ فِي ذَلِكَ الطُّورِ قَدْ تَجَاسَرَ عَلَى
 الدَّوْلَةِ بِمَا لَحِقَهَا مِنَ الْفَشْلِ وَالْهَرَمِ فِي الْعَصِيَّةِ فَتَتَوَقَّعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَتَدَاوَى بِسَكِينَةٍ
 الْعَطَايَا وَكَثْرَةُ الْإِنْفَاقِ فِيهِمْ وَلَا تَجِدُ عَنْ ذَلِكَ وَلِجَّةً وَتَكُونُ جُبَاةَ الْأَمْوَالِ فِي
 الدَّوْلَةِ قَدْ عَظُمَتْ ثُرُوتُهُمْ فِي هَذَا الطُّورِ بِكَثْرَةِ الْجَبَايَةِ وَكَوْنِهَا بِأَيْدِيهِمْ وَبِمَا اتَّسَعَ
 لِذَلِكَ مِنْ جَاهِهِمْ فَيَتَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ بِاخْتِجَانِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْجَبَايَةِ وَتَفْشُو السَّعَايَةُ
 فِيهِمْ . بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ لِلْمُنَافَسَةِ وَالْجَحْدِ فَتَعْمُومُ النُّكْبَاتُ وَالْمُضَادَرَاتُ وَاحِدًا
 وَاحِدًا إِلَى أَنْ تَذْهَبَ ثُرُوتُهُمْ وَتَتَلَاشَى أَحْوَالُهُمْ وَيَفْقَدُ مَا كَانَ لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْأُيَّةِ
 وَالْجَمَالِ بِهِمْ وَإِذَا اصْطَلَمَتْ نِعْمَتُهُمْ تَجَاوَزَتْهُمْ الدَّوْلَةُ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ مِنَ الرَّعَايَا
 سِوَاهُمْ وَيَكُونُ الْوَهْنُ فِي هَذَا الطُّورِ قَدْ لَحِقَ الشُّوْكَ وَضَعُفَتْ عَنِ الْإِسْطِطَالَةِ وَالْقَهْرِ
 فَتَنْصَرِفُ سِيَاسَةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى مَدَارَةِ الْأُمُورِ بِتَذَلِّ الْمَالِ وَيَرَاهُ أَرْفَعُ مِنْ

السِّيفِ لِقَلَّةِ غِنَائِهِ فَتَعَظُمُ حَاجَتُهُ إِلَى الْأَمْوَالِ زِيَادَةً عَلَى النِّفَقَاتِ وَأَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَلَا يَغْنَى فِيمَا يُرِيدُ وَيَعَظُمُ الْهَرَمُ بِالدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ النُّوَاحِي وَالدَّوْلَةُ تَنْحَلُّ عَرَاهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هَذِهِ إِلَى أَنْ تَقْضِيَ إِلَى الْهَلَاكِ وَتَتَعَوَّضَ مِنَ الْإِسْتِيلَاءِ الْكُلَّلِ فَإِنْ قَصَدَهَا طَالِبٌ انْتَزَعَهَا مِنْ أَيْدِي الْقَائِمِينَ بِهَا وَلَا بَقِيَتْ وَهِيَ تَتَلَاشى إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ كَالذُّبَالِ فِي السَّرَاجِ إِذَا فَنِيَ زَيْتُهُ وَطَفِئَ وَاللَّهُ مَالِكُ الْأُمُورِ وَمُدَبِّرُ الْأَكْوَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

الفصل الثامن والأربعين

فصل في اتساع الدولة

أولا إلى نهايته ثم تضايقه طورا بعد طور إلى فناء الدولة واضمحلالها^(١)

قَدْ كَانَ تَقَدَّمَ لَنَا فِي فَضْلِ الْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ ، وَهُوَ الثَّالِثُ مِنْ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ أَنْ كُلَّ دَوْلَةٍ لَهَا حِصَّةٌ مِنَ الْمَمَالِكِ وَالْعِمَالَاتِ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا . وَاعْتَبَرْ ذَلِكَ بِتَوَزُّعِ عِصَايَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى حِمَايَةِ أَقْطَارِهَا وَجِهَاتِهَا . فَحَيْثُ نَفَذَ عَدَدُهُمْ فَالْطَّرْفُ الَّذِي انْتَهَى عِنْدَهُ هُوَ الشُّغْرُ ، وَيُحِيطُ بِالدَّوْلَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا كَالنِّطَاقِ . وَقَدْ تَكُونُ النِّهَايَةُ هِيَ نِطَاقُ الدَّوْلَةِ الْأُولَى . وَقَدْ تَكُونُ أَوْسَعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ عَدَدُ الْعِصَايَةِ أَوْفَرَ مِنَ الدَّوْلَةِ قَبْلُهَا . وَهَذَا كُلُّهُ عِنْدَمَا تَكُونُ الدَّوْلَةُ فِي شِعَارِ الْبِدَاوَةِ وَخُشُونَةِ الْبَاسِ . فَإِذَا اسْتَفْحَلَ الْعِزُّ وَالْغَلْبُ وَتَوَفَّرَتِ النِّعَمُ وَالْأَرْزَاقُ بِدُرُورِ الْجَبَايَاتِ ، وَزَخَرَ بَحْرُ التَّرَفِ وَالْحَضَارَةِ وَنَشَاتِ الْأَجْيَالِ عَلَى اعْتِبَارِ ذَلِكَ لَطْفَتْ أَخْلَاقُ الْحَامِيَةِ وَرَقَّتْ

(١) تَمَّ نَقْلُ هَذَا الْفَصْلِ عَنْ نَسْخَةِ (لَجْنَةِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ) وَقَدْ عُلِقَ الدُّكْتُورُ عَلِيُّ عَبْدِ الْوَاحِدِ وَافِي عَلَى هَذَا الْفَصْلِ بِقَوْلِهِ : « هَذَا الْفَصْلُ هُوَ أَحَدُ الْفُصُولِ الَّتِي تَزِيدُ بِهَا طَبْعَةُ بَارِيسَ عَنِ الطَّبْعَاتِ الْمُنَادِلَةِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ . وَقَدْ وَضَعَ هَذَا الْفَصْلَ فِي طَبْعَةِ بَارِيسَ بَعْدَ الْفَصْلِ السَّابِعِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ هَذَا الْبَابِ » وَقَدْ تَقَلَّنَا هَذَا الْفَصْلَ حِرْصًا عَلَى أَنْ لَا نَتْرَكَ مِنَ الْمَقْدَمَةِ فَصْلًا لَمْ يَذْكُرْ بِرِمَتِهِ . فَيَحْرَمُ قَرَاؤَنَا مِنْ فَائِدَتِهِ .

حواشيهم ، وعادَ من ذلك إلى نفوسهم هينأت الجبن والكسل ، بما يعانونه من ضنث الحضارة المؤدي إلى الإنسلاخ من شعار البأس والرُجوليّة بمفارقة البداوة وخشونيتها ، وبأخذهم العز بالتطاؤل إلى الرياسة والتنازع عليها ، فيفضي إلى قتل بعضهم ببعض ، ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يؤدي إلى قتل أكابرهم وإهلاك رؤسائهم ، فتفقّد الأمراء والكبراء ، وتكثر التايع والمرووس ، فيمل ذلك من حد الدولة ، ويكسر من شوكتها . ويقع الخلل الأول في الدولة ، وهو الذي من جهة الجند والحامية كما تقدّم . ويساق ذلك السرف في النفقات بما يعثريهم من أبهة العز ، وتجاوز الحدود بالبذخ . بالمناغة في المطاعم والملابس وتشييد القصور واستجادة السلاح وارتباط الخيول ، فيقصر دخل الدولة حينئذ عن خرجها ويطرُق الخلل .

الثاني في الدولة وهو الذي من جهة المال والجباية . ويحصل العجز والإنقاص بوجود الخللين . ورُبما تنافس رؤساؤهم فتنازعوا وعجزوا عن مغالبة المجاورين والمنازعين ومدافعتهم . ورُبما اغترأ أهل الثغور والأطراف بما يخسبون من ضعف الدولة وراءهم ، فيصيرون إلى الاستغلال والاستبداد بما في أيديهم من العمالات ، ويعجز صاحب الدولة عن حملهم على الجادة فيضيق نطاق الدولة عما كانت انتهت إليه في أولها ، وترجع العناية في تدبيرها بنطاق دونه ، إلى أن يحدث في النطاق الثاني ما حدث في الأول بعينه من العجز والكسل في العصاية وقلة الأموال والجباية . فيذهب القائم بالدولة إلى تغيير القوانين التي كانت عليها سياسة الدولة من قبل الجند والمال والولايات ، ليجري حالها على استقامة بتكافؤ الدخل والخرج والحامية والعمالات وتوزيع الجباية على الأرزاق ، ومقايسة ذلك بأول الدولة في سائر الأحوال .

والمفاسد مع ذلك متوقعة من كل جهة . فيحدث في هذا الطور من بعد ما حدث في الأول من قبل . ويعتبر صاحب الدولة ما اعتبره الأول ، ويقايس

بِالْوِزَانِ^(١) الْأَوَّلِ أَحْوَالَهَا الثَّانِيَّةِ ، يَرُومُ دَفْعَ مَفَاسِدِ الْخَلَلِ الَّذِي يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ طَوْرِه
وَيَأْخُذُ مِنْ كُلِّ طَرَفٍ حَتَّى يَضِيقَ نِطَاقُهَا الْآخَرَ إِلَى نِطَاقِ دُونِهِ كَذَلِكَ ، وَيَقَعُ فِيهِ
مَا وَقَعَ فِي الْأَوَّلِ . فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُغَيِّرِينَ لِلْقَوَانِينِ قَبْلَهُمْ كَانَتْهُمْ مُنْشِئُونَ
دَوْلَةً أُخْرَى ، وَمُجَدِّدُونَ مُلْكًا . حَتَّى تَنْقَرِضَ الدَّوْلَةُ ، وَتَتَطَاوَلَ الْأُمَمُ حَوْلَهَا إِلَى
التَّغْلِبِ عَلَيْهَا وَإِنْشَاءِ دَوْلَةٍ أُخْرَى لَهُمْ ، فَيَقَعُ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدَّرَ اللَّهُ وَقُوعَهُ .

واعتبر ذلك في الدولة الإسلامية كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والتغلب على
الأمم ، ثم تزايدت الحامية وتكاثر عددهم مما تخولوه من النعم والأرزاق ، إلى أن
انقرض أمر بني أمية وغلب بنو العباس . ثم تزايد الترف ، ونشأت الحضارة
وطرق الخلل ، فصاق النطاق من الأندلس والمغرب يحدث الدولة الأموية
المروانية والعلوية ، واقتطعوا ذنبك الثغرين عن نطاقها ، إلى أن وقع الخلاف بين
بني الرشيد ، وظهر دعاة العلوية من كل جانب ، وتمهدت لهم دول ، ثم قتل
المتوكل ، واستبد الأحرار على الخلفاء وحجروهم ، واستقل الولاة بالعمال في
الأطراف . وانقطع الخراج منها ، وتزايد الترف . وجاء المعتضد فغير قوانين
الدولة إلى قانون آخر من السياسة أقطع فيه ولاة الأطراف ما غلبوا عليه ، مثل
بني سامان وراء النهر وبني طاهر العراق وخراسان ، وبني الصفار السند
وفارس ، وبني طولون مصر ، وبني الأغلب أفريقية ، إلى أن افترق أمر العرب
وغلب العجم ، واستبد بنو بويه والديلم بدولة الإسلام وحجروا الخلافة ، وبقي
بنو سامان في استبدادهم وراء النهر ، وتطاول الفاطميون من المغرب إلى مصر
والشام فملكوه . ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك فاستولوا على ممالك الإسلام
وأبقوا الخلفاء في حجرهم ، إلى أن تلاثت دولهم . واستبد الخلفاء منذ عهد الناصر
في نطاق أضيق من هالة القمر وهو عراق العرب إلى أصبهان وفارس والبحرين .
واقامت الدولة كذلك بعض الشيء إلى أن انقرض أمر الخلفاء على يد هولاكو بن

(١) قايى بين الأمرين ، قَدَّرَ ، وَاَزَنَهُ ، عَادِلُهُ وَقَابِلُهُ (قاموس)

طولي بن دوشي خان ملك التتر والمغل حين غلبوا السلجوقية وملكوا ما كان
بأيديهم من ممالك الإسلام . وهكذا يتضائق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها
الأول . ولا يزال طورا بعد طور إلى أن تنقرض الدولة . واعتبر ذلك في كل دولة
عظمت أو صغرت . فهكذا سنة الله في الدول إلى أن يأتي ما قدر الله من الغناء
على خلقه . و « كل شيء هالك إلا وجهه ^(١) » .

(١) من آية ٨٨ من سورة القصص .

الفصل التاسع والأربعون

في حدوث الدولة وتجدها كيف يقع

إِغْلَمَ أَنَّ نَشْأَةَ الدَّوْلِ وَبِدَائِعَهَا إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ فِي الْهَرَمِ وَالْإِنْتِقَاصِ تَكُونُ عَلَى نَوْعَيْنِ إِمَّا بِأَنْ يَسْتَبْدُ وِلَاةُ الْأَعْمَالِ فِي الدَّوْلَةِ بِالْقَاصِيَةِ عِنْدَمَا يَتَقَلَّصُ ظِلُّهَا عَنْهُمْ فَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دَوْلَةٌ يَسْتَجِدُّهَا لِقَوْمِهِ وَمَا يَسْتَقِرُّ فِي نِصَابِهِ يُرْتَبُ عَنْهُ أُنْبَاؤُهُ أَوْ مَوَالِيهِ وَيَسْتَفْجِلُ لَهُمُ الْمُلْكُ بِالتَّدْرِيجِ وَرُبَّمَا يَزْدَحُمُونَ عَلَى ذَلِكَ الْمُلْكِ وَيَتَنَازَعُونَ عَلَيْهِ وَيَتَنَازَعُونَ فِي الْإِسْتِثَارِ بِهِ وَيَغْلُبُ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ فَضْلٌ قُوَّةً عَلَى صَاحِبِهِ وَيَنْتَرِعُ مَا فِي يَدِهِ كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ حِينَ أَخَذَتْ دَوْلَتُهُمْ فِي الْهَرَمِ وَتَقَلَّصَ ظِلُّهَا عَنِ الْقَاصِيَةِ وَاسْتَبْدُ بَنُو سَاسَانَ بِمَا وَرَاءَ النُّهْرِ وَبَنُو حَمْدَانَ بِالْمَوْصِلِ وَالشَّامِ وَبَنُو طُولُونَ بِمِصْرَ وَكَمَا وَقَعَ بِالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَافْتَرَقَ مُلْكُهَا فِي الطَّوَائِفِ الَّذِينَ كَانُوا وَلَاتَهَا فِي الْأَعْمَالِ وَانْقَسَمَتِ دَوْلًا وَمُلُوكًا أَوْزَنُوهَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ قَرَاتِيهِمْ أَوْ مَوَالِيهِمْ وَهَذَا النُّوعُ لَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ حَرْبًا لِأَنَّهُمْ مُسْتَقِرُّونَ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَلَا يَطْمَعُونَ فِي الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ بِخَرْبٍ وَإِنَّمَا الدَّوْلَةُ أَذْرَكَهَا الْهَرَمُ وَتَقَلَّصَ ظِلُّهَا عَنِ الْقَاصِيَةِ وَعَجَزَتْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا وَالنُّوعُ الثَّانِي بِأَنْ يَخْرُجَ عَلَى الدَّوْلَةِ خَارِجٌ مِمَّنْ يُجَاوِرُهَا مِنَ الْأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ إِمَّا بِدَعْوَةٍ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهَا كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ أَوْ يَكُونُ صَاحِبُ شَوْكَةٍ وَعَصَبِيَّةٍ كَبِيرَةٍ فِي قَوْمِهِ قَدْ اسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ فَيَسْمُو بِهِمْ إِلَى الْمُلْكِ وَقَدْ حَدَّثُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِعْتِزَالِ عَلَى الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ وَمَا نَزَلَ بِهَا مِنَ الْهَرَمِ فَيَتَعَيَّنُ لَهُ وَلِقَوْمِهِ الْإِسْتِيلَاءُ عَلَيْهَا وَيَمَارِسُونَهَا بِالْمُطَالَبَةِ إِلَى أَنْ يَظْفَرُوا بِهَا وَيَزْنُونَ^(١) كَمَا تَبَيَّنَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) قوله ويزنون وفي نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء ١٠ هـ

الفصل الخمسون

في ان الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاوله
لا بالمناجزة

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الدُّوْلَ الحَادِثَةَ الْمُتَجَدِّدَةَ نَوْعَانِ نَوْعٌ مِنْ وِلَايَةِ الْأَطْرَافِ إِذَا تَقَلَّصَ ظِلُّ الدُّوْلَةِ عَنْهُمْ وَانْحَسَرَ تَيَّارُهَا وَهَؤُلَاءِ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ مُطَالَبَةٌ لِلدُّوْلَةِ فِي الْأَكْثَرِ كَمَا قَدْ مَنَّاهُ لِأَنَّ قُصَارَاهُمْ الْقُنُوعُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَهُوَ نِهَايَةُ قُوَّتِهِمْ وَالنَّوْعُ الثَّانِي نَوْعُ الدُّعَاةِ وَالْخَوَارِجِ عَلَى الدُّوْلَةِ وَهَؤُلَاءِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْمُطَالَبَةِ لِأَنَّ قُوَّتَهُمْ وَافِقَةٌ بِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي نِصَابٍ يَكُونُ لَهُ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالْإِعْتِرَازِ مَا هُوَ كِفَاءٌ^(١) ذَلِكَ وَوَافٍ بِهِ فَيَقَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدُّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ حُرُوبٌ سَجَالٌ تَتَكَوَّرُ وَتَتَّصِلُ إِلَى أَنْ يَقَعَ لَهُمُ الْإِسْتِيلَاءُ وَالظُّفْرُ بِالْمَطْلُوبِ وَلَا يَخْصُلُ لَهُمْ فِي الْغَالِبِ ظَفْرٌ بِالْمُنَاجَزَةِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الظُّفْرَ فِي الْحُرُوبِ إِنَّمَا يَقَعُ كَمَا قَدْ مَنَّاهُ بِأُمُورِ نَفْسَانِيَّةٍ وَهَمِيَّةٍ وَإِنْ كَانَ الْعَدَدُ وَالسَّلَاحُ وَصِدْقُ الْقِتَالِ كَفِيلًا بِهِ لَكِنَّهُ قَاصِرٌ مَعَ تِلْكَ الْأُمُورِ الْوَهْمِيَّةِ كَمَا مَرَّ وَلِذَلِكَ كَانَ الْخِدَاعُ مِنْ أَرْفَعِ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْحَرْبِ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ الظُّفْرُ بِهِ وَفِي الْحَدِيثِ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ وَالدُّوْلَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ قَدْ صِيرَتْ الْعَوَائِدَ الْمَأْلُوفَةَ طَاعَتَهَا ضَرُورِيَّةً وَاجِبَةً كَمَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَتَكْثُرُ بِذَلِكَ الْعَوَائِقُ لِصَاحِبِ الدُّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ وَيَكْثُرُ مِنْ هَمِّ أَتْبَاعِهِ وَأَهْلِ شَوْكَيْتِهِ وَإِنْ كَانَ الْأَقْرَبُونَ

(١) الأصح كفاء أو كفو وقد ورد في لسان العرب « وتقول ، الكفاء له ، بالكسر . وهو في الأصل مصدر ، أي لا نظير له . »

مِنْ بَطَانَتِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ فِي طَاعَتِهِ وَمُؤَاوَزَتِهِ إِلَّا أَنْ الْآخَرِينَ أَكْثَرُ وَقَدْ دَاخَلَهُمُ الْفَشَلُ
 يَتَلَكَّ الْعَقَائِدُ فِي التَّسْلِيمِ لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ فَيَحْصُلُ بَعْضُ الْفُتُورِ مِنْهُمْ وَلَا يَكَادُ
 صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ يَرْجِعُ إِلَى الصَّبْرِ وَالْمُطَاوَلَةِ حَتَّى يَتَضَحَّ هَرَمُ الدَّوْلَةِ
 الْمُسْتَقِرَّةِ فَتَضْمَحِلَّ عَقَائِدُ التَّسْلِيمِ لَهَا مِنْ قَوْمِهِ وَتَنْبَعِثُ مِنْهُمْ الْهَمَمُ لِصَدِّقِ الْمُطَالِبَةِ
 مَعَهُ فَيَقْعُ الظُّفْرُ وَالِاسْتِيْلَاءُ وَأَيْضاً فَالدَّوْلَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ كَثِيرَةُ الرِّزْقِ ^(١) بِمَا اسْتَحْكَمَ
 لَهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَتَوَسَّعَ مِنَ النِّعَمِ وَاللَّذَاتِ وَاخْتَصُّوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ
 فَيَكْثُرُ عِنْدَهُمْ اِرْتِبَاطُ الْخِيُولِ وَاسْتِجَادَةُ الْأَسْلِحَةِ وَتَعْظُمُ فِيهِمُ الْأَبْنَةُ الْمُلْكِيَّةُ
 وَيَفِيضُ الْعَطَاءُ بَيْنَهُمْ مِنْ مُلُوكِهِمْ اخْتِياراً وَاضْطِرَّاراً فَيَرْهَبُونَ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَدُوَّهُمْ
 وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ بِمَعْزُولٍ عَنْ ذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَأُخْوَالِ الْفَقْرِ
 وَالْخِصَاصَةِ ^(٢) فَيَسْبِقُ إِلَى قُلُوبِهِمْ أَوْهَامُ الرُّغْبِ بِمَا يَنْلَقُهُمْ مِنْ أُخْوَالِ الدَّوْلَةِ
 الْمُسْتَقِرَّةِ وَيُخْرَمُونَ عَنْ قِتَالِهِمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فَيَصِيرُ أَمْرُهُمْ إِلَى الْمُطَاوَلَةِ حَتَّى تَأْخُذَ
 الْمُسْتَقِرَّةُ مَا خَذَهَا مِنَ الْهَرَمِ وَيَسْتَحْكِمَ الْخَلَلَ فِيهَا فِي الْعَصِيَّةِ وَالْجَبَايَةِ فَيَنْتَهِرُ
 حِينَئِذٍ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ فُرْصَتَهُ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهَا بَعْدَ حِينَ مُنْذُ الْمُطَالِبَةِ
 سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَأَيْضاً فَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ كُلُّهُمْ مَبَايِنُونَ لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ
 بِأَنْسَائِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَفِي سَائِرِ مَنَاجِيهِمْ ثُمَّ هُمْ مُفَاخِرُونَ لَهُمْ وَمُنَابِذُونَ بِمَا وَقَعَ مِنْ
 هَذِهِ الْمُطَالِبَةِ وَيَطْمَعِيهِمْ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهِ فَتَتِمَّكُنُ الْمُبَاعَدَةُ بَيْنَ أَهْلِ الدَّوْلَتَيْنِ سِرّاً
 وَجَهراً وَلَا يَصِلُ إِلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ يُصِيبُونَ
 مِنْهُ غَرَّةً ^(٣) بَاطِناً وَظَاهِراً لِانْقِطَاعِ الْمُدَاخَلَةِ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ فَيَقِيمُونَ عَلَى الْمُطَالِبَةِ
 وَهُمْ فِي إِحْجَامٍ وَيَنْكَلُونَ ^(٤) عَنِ الْمُنَاجَزَةِ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ بِزَوَالِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ
 وَفَنَاءِ عُمْرِهَا وَوُقُورِ الْخَلَلِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا وَاتَّضَحَّ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ
 مَا كَانَ يَخْفَى مِنْهُمْ مِنْ هَرَمِهَا وَتَلَاشِيهَا وَقَدْ عَظُمَتْ قُوَّتُهُمْ بِمَا اقْتَطَعُوهُ مِنْ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ « كَثِيرَةُ التَّرَفِ » .

(٢) الْفَقْرُ وَسُوءُ الْحَالِ

(٣) قَوْلُهُ غَرَّةٌ بِكسر الغين أَي غَفْلَةٌ .

(٤) يَجْبِنُونَ .

أَعْمَالَهَا وَتَقْصُوهُ مِنْ أَطْرَافِهَا فَتَنْبِعُ هِمَمُهُمْ يَدًا وَاحِدَةً لِلْمَنَاجَزَةِ وَيَذْهَبُ مَا كَانَ
بُثٌّ فِي غَزَائِمِهِمْ مِنَ التَّوَهُّمَاتِ وَتَنْتَهِي الْمَطَاوِلَةُ إِلَى حَدِّهَا وَيَقَعُ الْإِسْتِيلَاءُ آخِرًا
بِالْمُعَاجَلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ حِينَ ظَهَرَهَا حِينَ قَامَ الشَّيْعَةُ
بِخُرَاسَانَ بَعْدَ انْعِقَادِ الدَّعْوَةِ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْمَطَالِبَةِ عَشْرَ سِنِينَ أَوْ تَزِيدُ وَحِينَئِذٍ
ثُمَّ لَهُمُ الظُّفَرُ وَاسْتَوْلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَكَذَا الْعُلُوِيَّةِ بِطَبْرِسْتَانَ عِنْدَ ظَهْرِ
دَعْوَتِهِمْ فِي الدَّيْلَمِ كَيْفَ كَانَتْ مَطَاوِلَتُهُمْ حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ ثُمَّ لَمَّا
انْقَضَى أَمْرُ الْعُلُوِيَّةِ وَسَمَّا الدَّيْلَمِ إِلَى مُلْكِ فَارِسَ وَالْعِرَاقَيْنِ فَمَكَّثُوا سِنِينَ كَثِيرَةً
يُطَاوِلُونَ حَتَّى اقْتَطَعُوا أَصْبَهَانَ ثُمَّ اسْتَوْلُوا عَلَى الْخَلِيفَةِ بِبَغْدَادَ . وَكَذَا الْعُبَيْدِيُّونَ
أَقَامَ دَاعِيَتَهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيُّ بَيْنِي كُتَامَةَ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ عَشْرَ
سِنِينَ وَيَزِيدُ تَطَاوُلُ بَنِي الْأَغْلَبِ بِأَفْرِيقَةَ حَتَّى ظَفِرَ بِهِمْ وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْمَغْرِبِ
كُلِّهِ وَسَمَوْا إِلَى مُلْكِ مِصْرَ فَمَكَّثُوا ثَلَاثِينَ ^(١) سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا فِي طَلَبِهَا يُجَهِّزُونَ إِلَيْهَا
الْعَسَاكِرَ وَالْأَسَاطِيلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجِيءُ الْمَدَدُ لِمُدَافَعَتِهِمْ بَرًّا وَبَحْرًا مِنْ بَغْدَادَ
وَالشَّامِ وَمَلَكُوا الإسْكَندَرِيَّةَ وَالْفَيْيُومَ وَالضَّعِيدَ وَتَخَطَّتْ دَعْوَتُهُمْ مِنْ هُنَالِكَ إِلَى
الْحِجَازِ وَأَقِيمَتْ بِالْحَرَمَيْنِ ثُمَّ نَازَلَ قَائِدُهُمْ جَوْهَرُ الْكَاتِبِ بِعَسَاكِرِهِ مَدِينَةَ مِصْرَ
وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَاقْتَلَعَ دَوْلَةَ بَنِي طُغْجٍ مِنْ أَصُولِهَا وَاخْتَطَّ الْقَاهِرَةَ فَجَاءَ الْخَلِيفَةُ بَعْدَ
الْمُعْزِلِ دِينَ اللَّهِ فَتَزَلَّهَا لِسْتَيْنِ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا مِنْذُ اسْتِيلَائِهِمْ عَلَى الإسْكَندَرِيَّةِ وَكَذَا
السُّلْجُوقِيَّةُ مُلُوكُ التُّرْكِ لَمَّا اسْتَوْلُوا عَلَى بَنِي سَاسَانَ وَأَجَازُوا مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ مَكَّثُوا
نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُطَاوِلُونَ بَنِي سُبُكْتِكِينَ بِخُرَاسَانَ حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى دَوْلَتِهِ .
ثُمَّ زَحَفُوا إِلَى بَغْدَادَ فَاسْتَوْلُوا عَلَيْهَا وَعَلَى الْخَلِيفَةِ بِهَا بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ الدَّهْرِ . وَكَذَا
التَّتَرُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَرَجُوا مِنَ الْمَفَازَةِ عَامَ سَبْعَةِ عَشَرَ وَسِتِّمِائَةٍ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُمُ الْإِسْتِيلَاءُ
إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً . وَكَذَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ خَرَجَ بِهِ الْمَرَّاطُونَ مِنْ لِمْتُونَةَ عَلَى
مُلُوكِهِ مِنْ مِغْرَاوَةَ فَطَاوَلُوهُمْ سِنِينَ ثُمَّ اسْتَوْلُوا عَلَيْهِ . ثُمَّ خَرَجَ الْمُوَحِّدُونَ بِدَعْوَتِهِمْ

(١) كذا في الأصل والواضح من المراجع التاريخية ومنها تاريخ ابن خلدون نفسه أن الدة هي ستون سنة

وإن ثلاثين خطأ .

على لِمَتُونَةٍ فَمَكَّثُوا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُحَارِبُونَهُمْ حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَآكِشَ وَكَذَا بَنُو مَرْزِينَ مِنْ زَنَاتِهِ خَرَجُوا عَلَى الْمُوَحِّدِينَ فَمَكَّثُوا يُطَاوِلُونَهُمْ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَاسْتَوْلُوا عَلَى فَارَسَ وَاقْتَطَعُوهَا وَأَعْمَالَهَا مِنْ مُلُوكِهِمْ ثُمَّ أَقَامُوا فِي مُحَارَبَتِهِمْ ثَلَاثِينَ أُخْرَى حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَآكِشَ حَسْبَمَا نَذَكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي تَوَارِيخِ هَذِهِ الدَّوَلِ فَهَكَذَا حَالُ الدَّوَلِ الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ الْمُسْتَقَرَّةِ فِي الْمَطَالِبَةِ وَالْمُطَاوَلَةِ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَكَيْفَ كَانَ اسْتِيلَاؤُهُمْ عَلَى فَارَسَ وَالرُّومِ لِثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ مِنْ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ . وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ مُعْجَزَةً مِنْ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا سِرُّهَا اسْتِمَاتَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ اسْتِبْعَادًا بِالْإِيمَانِ وَمَا أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ مِنَ الرُّغْبِ وَالتَّخَاذُلِ فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ خَارِقًا لِلْعَادَةِ الْمَقْرَرَةِ فِي مُطَاوَلَةِ الدَّوَلِ الْمُسْتَجِدَّةِ لِلْمُسْتَقَرَّةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ خَارِقًا فَهُوَ مِنْ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُتَعَارِفِ ظُهُورُهَا فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْمُعْجَزَاتُ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا الْأُمُورُ الْعَادِيَّةُ وَلَا يُعْتَرَضُ بِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل الحادي والخمسون

في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

إِغْلَمَ أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الرِّفْقِ فِي مَلَكَتِهَا ^(١) وَالْإِعْتِدَالِ فِي إِيَالَتِهَا إِمَّا مِنَ الدِّينِ إِنْ كَانَتْ الدَّعْوَةُ دِينِيَّةً أَوْ مِنَ الْمَكَارِمَةِ وَالْمُحَاسِنَةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الْبِدَاوَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلدَّوَلِ وَإِذَا كَانَتْ الْمَلَكَةُ رَفِيقَةً مُحْسِنَةً انْبَسَطَتْ آمَالُ الرُّعَايَا وَانْتَشَطُوا لِلْعُمَرَانِ وَأَسْبَابِهِ فَتَوَفَّرَ وَيَكْثُرُ التَّنَاسُلُ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالتَّذْرِيجِ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ فِي الْأَقْلِ وَفِي

(١) بمعنى ملكها .

انقضاء الجيلين تُشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والنماء ولا تقولن إنه قد مر لك أن أواخر الدولة يكون فيها الإجحاف بالرعايا وسوء الملكة فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لأن الإجحاف وإن حدث حينئذ وقلت الجبايات فإنما يظهر أثره في تناقص العمران بعد حين من أجل التدرج في الأمور الطبيعية ثم إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه ، إما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلج في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخواارج لهرم الدولة فيقل اختكار الزرع غالباً وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر والزرع والثمار والضرع على نسبيته إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاختكار فإذا فقد الاختكار عظم توقع الناس للمجاعات فعلا الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة ^(١) فهلكوا وكان بغض السنوات الاختكار مفقوداً فشمّل الناس الجوع وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملا بسؤه دائماً فيسري الفساد إلى مزاجه فإن كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران وفوفوره آخر الدولة لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلة المفرم وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والفقير بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يخلص في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات

(١) الفقر وسوء الحال (النجدة).

وَيَأْتِي بِالنَّهْءِ الصَّحِيحِ وَلِهَذَا أَيْضاً فَإِنَّ الْمَوْتَانَ يَكُونُ فِي الْمَدَنِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمَرَانِ أَكْثَرَهُنَّ غَيْرَهَا بِكَثِيرٍ كِمِصْرَ بِالْمَشْرِقِ وَقَاسَ بِالْمَغْرِبِ وَاللَّهُ يَقْدَرُ مَا يَشَاءُ^(١)

الفصل الثاني والخمسون

في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره

إِغْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْإِجْتِمَاعَ لِلْبَشَرِ ضَرْوِيٌّ وَهُوَ مَعْنَى الْعُمَرَانِ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ فِي الْإِجْتِمَاعِ مِنْ وَازِعٍ حَاكِمٍ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَحُكْمُهُ فِيهِمْ تَارَةً يَكُونُ مُسْتَنِيْدًا إِلَى شَرْعٍ مُنْزَلٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُوجِبُ انْقِيَادَهُمْ إِلَيْهِ إِيْمَانُهُمْ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَيْهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبْلَغُهُ وَتَارَةً إِلَى سِيَاسَةٍ عَقْلِيَّةٍ يُوجِبُ انْقِيَادَهُمْ إِلَيْهَا مَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ ثَوَابٍ ذَلِكَ الْحَاكِمُ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِمَصَالِحِهِمْ . فَالْأَوَّلَى يَخْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِلْمِ الشَّارِعِ بِالْمَصَالِحِ فِي الْعَاقِبَةِ وَلِمُرَاعَاةِ نَجَاةِ الْعِبَادِ فِي الْآخِرَةِ وَالثَّانِيَةُ إِنَّمَا يَخْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا فَقَطْ وَمَا تَسْمَعُهُ مِنَ السِّيَاسَةِ الْمَدْنِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ أَهْلِ ذَلِكَ الْمُجْتَمَعِ فِي نَفْسِهِ وَخُلُقِهِ حَتَّى يَسْتَفْنُوا عَنْ الْحُكَامِ رَأْسًا وَيُسَمُّونَ الْمُجْتَمَعُ الَّذِي يَخْصُلُ فِيهِ مَا يُسَمَّى مِنْ ذَلِكَ « بِالْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ » ، وَالْقَوَانِينِ الْمُرَاعَاةَ فِي ذَلِكَ « بِالسِّيَاسَةِ الْمَدْنِيَّةِ » وَلَيْسَ مُرَادُهُمُ السِّيَاسَةُ الَّتِي يَخْمَلُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْإِجْتِمَاعِ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ غَيْرُ تِلْكَ وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ الْفَاضِلَةُ عِنْدَهُمْ نَادِرَةٌ أَوْ بَعِيدَةٌ الْوُقُوعِ وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ عَلَيْهَا عَلَى جِهَةِ الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ ثُمَّ إِنَّ السِّيَاسَةَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي قَدْ مَنَاهَا تَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا يُرَاعَى

(١) بعد الدراسات الحديثة المتعلقة بحياة الإنسان في المدينة والريف . حيث أن متوسط عمر الإنسان في

الريف يزيد عن مثله في المدينة كثيراً . وهذا يؤكد نظرية ابن خلدون من هذه الناحية . لان مناخ المدينة المشيع بدخان المصانع والعمال والسيارات وغيرها غير مناخ الريف النظيف النقي .

فِيهَا الْمَصَالِحُ عَلَى الْعُمُومِ وَمَصَالِحُ السُّلْطَانِ فِي اسْتِقَامَةِ مُلْكِهِ عَلَى الْخُصُوصِ وَهَذِهِ كَانَتْ سِيَاسَةَ الْفُزْزِ وَهِيَ عَلَى جِهَةِ الْحِكْمَةِ . وَقَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا فِي الْعَمَلَةِ وَلَقَدْ خَلَفَ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ مُغْنِيَةً عَنْهَا فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ وَالْخَاصَةِ وَأَحْكَامُ الْمُلْكِ مُنْدرَجَةٌ فِيهَا . الْوَجْهُ الثَّانِي أَنْ يُرَاعَى فِيهَا مَصْلَحَةُ السُّلْطَانِ وَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ لَهُ الْمُلْكُ مَعَ الْقَهْرِ وَالْإِسْطِطَالَةِ وَتَكُونُ الْمَصَالِحُ الْعَامَةُ فِي هَذِهِ تَبَعًا وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ الَّتِي يَخْمَلُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْاجْتِمَاعِ الَّتِي لِسَائِرِ الْمُلُوكِ فِي الْعَالَمِ مِنْ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ إِلَّا أَنَّ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ يَجْرُونَ مِنْهَا عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِحَسَبِ جُهْدِهِمْ فَقَوَائِمُهَا إِذَا مُجْتَمَعَةٌ مِنْ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ وَأَدَابٍ خُلُقِيَّةٍ وَقَوَائِمٍ فِي الْاجْتِمَاعِ طَبِيعِيَّةٍ ، وَأَشْيَاءٌ مِنْ مَرَاغَةِ الشُّوْكَ وَالْعَصِيَّةِ ضَرْوَرِيَّةٍ وَالْإِقْتِدَاءِ فِيهَا بِالشَّرْعِ أَوَّلًا ثُمَّ الْحُكْمَاءِ فِي آدَابِهِمُ وَالْمُلُوكِ فِي سَيْرِهِمْ وَمِنْ أَحْسَنِ مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ وَأَوْدَعَ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ لَمَّا وَلَّاهُ الْمَأْمُونُ الرَّقَّةَ وَمَضَرَ وَمَا بَيْنَهُمَا فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُوهُ طَاهِرٌ كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ عَهْدَ إِلَيْهِ فِيهِ وَوَصَاةٌ بِجَمِيعِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ فِي دَوْلَتِهِ وَسُلْطَانِهِ مِنَ الْآدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ وَالسِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْمُلُوكِيَّةِ ، وَحَثُّهُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَخَاسِنِ الشَّيْءِ بِمَا لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ مِلْكٌ وَلَا سَوْقَةٌ . وَنَصُّ الْكِتَابِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أَمَّا بَعْدُ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَخَذِهِ لَاشْرِيكَ لَهُ وَخَشْيَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُزَايَلَةَ ^(١) سَخَطِهِ وَاحْفَظْ رِعْيَتَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالزَّمْ مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْقُوفٌ عَلَيْهِ وَمَسْئُولٌ عَنْهُ ، وَالْعَمَلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنَجِّيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ الرَّأْفَةَ عَلَيْكَ بِمَنْ اسْتَرْعَاكَ أَمْرَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ وَالزَّمَكَ الْعَدْلَ فِيهِمْ وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَخُدُودِهِ عَلَيْهِمْ وَالذَّبَّ عَنْهُمْ وَالِدْفَعَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ وَالْحَقْنَ لِدِمَائِهِمْ وَالْأَمْنِ لِسِرِّيهِمْ وَإِذْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ وَمُواخِذَكَ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكَ وَمَوْقِفَكَ عَلَيْهِ وَسَائِلَكَ عَنْهُ وَمُثِيبَكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ فَفَرَّغْ لِدَلِيلِكَ فَهَمَكَ

(١) مزايلة : بمعنى الابتعاد عن .

وَعَقْلَكَ وَبَصْرَكَ وَلَا يُشْغِلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ ، وَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ وَمَلَاكَ^(١) شَانِكَ وَأَوَّلُ مَا يُوقِفُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَيَكُنْ أَوَّلُ مَا تُلْزَمُ بِهِ نَفْسُكَ وَتَنْسَبُ إِلَيْهِ فِعْلُكَ الْمَوَاطَبَةِ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ قَبْلَكَ وَتَوَاطُعِهَا عَلَى سُنَنِهَا مِنْ إِسْبَاحِ الْوُضُوءِ لَهَا وَافْتِتَاحِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَرَتْلٍ فِي قِرَاءَتِكَ وَتَمَكُّنٍ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشْهُدِكَ وَلِتَضَرِّفَ فِيهِ رَأْيَكَ وَنَيْتَكَ وَاحْضُضْ عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِمَّنْ مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ وَإِذَا بَ عَلَيْهِمَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ثُمَّ اتَّبِعْ ذَلِكَ بِالْأَخْذِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُتَابَعَةِ عَلَى خِلَافِهِ وَاقْتِفَاءِ أَثَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ وَبِلُزُومِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَائْتِمَامِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَمِيلَنَّ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أُخْبِتَ أَوْ كُرِهَتْ لِقَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ لِبَعِيدٍ وَآثِرِ الْفَقْهَ وَأَهْلَهُ وَالَّذِينَ وَحَمَلْتَهُ وَكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَامِلِينَ بِهِ^(٢) فَإِنْ أَفْضَلَ مَا يَتَزَيُّنُ بِهِ الْمَرْءُ الْفَقْهَ فِي الدِّينِ وَالطَّلَبُ لَهُ وَالْحَثُّ عَلَيْهِ وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ وَالْقَائِدُ إِلَيْهِ وَالْأَمْرُ وَالنَّاهِي عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمَوْبِقَاتِ كُلِّهَا وَمَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَزِدَاكَ الْمَرْءَ مَعْرِفَةً وَاجْتِلَالًا لَهُ وَدَرَكَ^(٣) لِلدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْفِيرِ لِأَمْرِكَ وَالْهَيْبَةِ لِسُلْطَانِكَ وَالْأَنَسَةِ بِكَ وَالثِّقَةِ بِعَدْلِكَ وَعَلَيْكَ بِالْإِقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا فَلَيْسَ شَيْءٌ أَتَيْنَ نَفْعًا وَلَا أَخْصَ أَمْنًا وَلَا أَجْمَعَ فَضْلًا مِنْهُ . وَالْقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرُّشْدِ وَالرُّشْدُ دَلِيلٌ عَلَى التَّوْفِيقِ وَالتَّوْفِيقُ قَائِدٌ إِلَى السَّعَادَةِ وَقَوَامُ الدِّينِ وَالسُّنَنِ الْهَادِيَةِ بِالْإِقْتِصَادِ وَكَذًا فِي دُنْيَاكَ كُلِّهَا . وَلَا تَقْصُرْ فِي طَلَبِ

(١) ملاك ، ملاك الأمر ، قوامه (النجد) .

(٢) صحيح العبارة ومقتضى سياق الجملة ، « وآثر الفقه وأهله ، والدين والعاملين به ، وكتاب الله عز

وجل وحملته » .

(٣) وصولاً .

الْآخِرَةَ وَالْأَجْرَ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالسُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ وَمَعَالِمِ الرُّشْدِ وَالْإِعَانَةِ
وَالِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْبَرِّ وَالسَّعْيِ لَهُ إِذَا كَانَ يُطْلَبُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَرْضَاتُهُ وَمُرَافَقَةُ
أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَصْدَ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا يُورِثُ الْعِزَّ وَيُمَخِّصُ مِنَ
الدُّنُوبِ وَأَنَّكَ لَنْ تَحُوطَ نَفْسَكَ مِنْ قَائِلٍ وَلَا تَنْصِلِحَ أُمُورَكَ بِأَفْضَلِ مِنْهُ فَإِنَّهُ وَاهْتَدِ
بِهِ تَتِمَّ أُمُورُكَ وَتَزِدَ مَقْدِرَتُكَ وَتَصْلِحَ عَامَّتُكَ وَخَاصَّتُكَ وَأَحْسِنَ ظَنُّكَ بِاللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ تَسْتَقِمْ لَكَ رَعِيَّتُكَ وَالتَّمَسُّرُ الْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا تَسْتَدِيمُ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ
وَلَا تِيْهَمَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا تَوَلَّيَهُ مِنْ عَمَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ أَمْرَهُ فَإِنْ إِيْقَاعُ
الشُّمِّ بِالْبُرَاءِ وَالظُّنُونِ السَّيِّئَةِ بِهِمْ أَثَمٌ إِشْمٌ . فَاجْعَلْ مِنْ شَأْنِكَ حُسْنَ الظَّنِّ
بِأَصْحَابِكَ وَاطْرُدْ عَنْكَ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ . وَارْقُضْ فِيهِمْ يُعْنِكَ ذَلِكَ عَلَى اسْتِطَاعَتِهِمْ
وَرِيَاضَتِهِمْ . وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الشَّيْطَانَ فِي أَمْرِكَ مَغْمَرًا^(١) فَإِنَّهُ يَكْتَفِي بِالْقَلِيلِ
مِنْ وَهْنِكَ وَيُدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْغَمِّ بِسُوءِ الظَّنِّ بِهِمْ مَا يُنْقِصُ لَذَاذَةَ عَيْشِكَ . وَاعْلَمْ
أَنَّكَ تَجِدُ بِحُسْنِ الظَّنِّ قُوَّةَ وَرَاحَةٍ . وَتَكْتَفِي بِهِ مَا أَخْبَيْتَ كِفَايَتَهُ مِنْ أُمُورِكَ
وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا وَلَا يَمْنَعُكَ حُسْنُ الظَّنِّ
بِأَصْحَابِكَ وَالرَّافَةُ بِرَعِيَّتِكَ أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْمَسْأَلَةَ وَالْبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ
لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ وَحِيَاظَةِ الرُّعْيَةِ وَالنُّظَرِ فِي حَوَائِجِهِمْ وَحَمَلِ مَوْوَئَاتِهِمْ أَيْسَرُ عِنْدَكَ
مِمَّا سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ أَقْوَمُ لِلدِّينِ وَأَخْيَا لِلْسُّنَةِ . وَأَخْلَصُ نِيَّتِكَ فِي جَمِيعِ هَذَا وَتَفَرَّدَ
بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ تَفَرَّدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا صَنَعَ وَمَجْزِيٌّ بِمَا أَحْسَنَ وَمُواخِذٌ بِمَا
أَسَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا وَرَفَعَ مَنْ اتَّبَعَهُ وَعَزَّزَهُ وَأَسْلَكَ بِمَنْ
تَسُوَّسُهُ وَتَرَعَاهُ نَهْجَ الدِّينِ وَطَرِيقَةَ الْهُدَى^(٢) . وَأَقِمْ حُدُودَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَصْحَابِ
الْجَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ وَمَا اسْتَحَقُّوه وَلَا تُعْطِلْ ذَلِكَ وَلَا تَتَهَاوَنَ بِهِ وَلَا تُؤَخِّرْ
عُقُوبَةَ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ فَإِنَّ فِي تَفْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حُسْنَ ظَنِّكَ وَاعْتَزِمْ
عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ وَجَانِبِ الْبِدْعِ وَالشُّبُهَاتِ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ وَتَقُمْ

(١) وفي بعض النسخ وردت هذه العبارة : « ولا تتخزن عدو الله الشيطان في أمرك مغمدا » .

(٢) وفي بعض النسخ طريقة الأهدى .

لَكَ مُرُوتُكَ . وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا فَأَوْفِ بِهِ وَإِذَا وَعَدْتَ خَيْرًا فَأَنْجِزْهُ وَأَقْبِلِ الْحَسَنَةَ
وَادْفَعْ بِهَا ، وَاعْبُضْ عَنْ عَيْبِ كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَاشْدُدْ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلِ
الْكَذِبِ وَالزُّورِ ، وَأَنْفِضْ أَهْلَ النِّمِيمَةِ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أُمُورِكَ فِي عَاجِلِهَا وَأَجَلِهَا ،
تَقْرِيبُ الْكَذُوبِ ، وَالْجِرَاءَةُ عَلَى الْكَذِبِ ، لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَأْثِمِ ، وَالزُّورَ
وَالنِّمِيمَةَ خَاتِمَتُهَا ، لِأَنَّ النِّمِيمَةَ لَا يَسْلَمُ صَاحِبُهَا وَقَائِلُهَا ، لَا يَسْلَمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا
يَسْتَقِيمُ لَهُ أَمْرٌ . وَأَخْبِ أَهْلَ الصَّلَاحِ وَالصَّدَقِ ، وَاعِزَّ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ ، وَأَسْرِ^(١)
الضُّعْفَاءَ ، وَصِلِ الرَّحِمَ ، وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَاعِزَّازِ أَمْرِهِ ، وَالتَّمِسْ فِيهِ
ثَوَابَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ . وَاجْتَنِبْ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجَوَرِ ، وَاصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ ، وَأَظْهِرْ
بِرَاءَتَكَ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ وَأَنْعِمِ بِالْعَدْلِ فِي سِيَاسَتِهِمْ^(٢) وَقُمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ ،
وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى . وَأَمْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَاتَّبِعْ
الْحِلْمَ وَالْوَقَارَ ، وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيْشَ وَالْفُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ
أَنَا مُسَلِّطٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ إِلَى نَقْصِ الرَّأْيِ وَقَلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ^(٣) عَزَّ
وَجَلَّ وَأَخْلِصْ لِلَّهِ وَحْدَهُ النِّيَّةَ فِيهِ وَالْيَقِينَ بِهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ . وَلَنْ تَجِدَ تَغْيِيرَ النِّعْمَةِ وَحُلُولَ النِّقْمَةِ عَلَى أَحَدٍ
أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى حِمْلَةٍ^(٤) النِّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ وَالْمَنْسُوطِ لَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ إِذَا
كَفَرُوا نِعَمَ اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ وَاسْتَطَالُوا بِمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ . وَدَعْ عَنْكَ
شَرَّ نَفْسِكَ وَلِتَكُنْ دَخَائِرُكَ وَكُنُوزُكَ الَّتِي تَذْخَرُ وَتَكُنْزُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاسْتِصْلَاحَ
الرُّعْيَةِ وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمْ وَالتَّفَقُّدَ لَأُمُورِهِمْ وَالْحِفْظَ لِدِمَائِهِمْ وَالْإِعَاثَةَ لِمَلَهُوْفِهِمْ . وَاعْلَمْ
أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا اكْتَنَزَتْ وَادْخَرَتْ فِي الْخَزَائِنِ لَا تَنْمُو وَإِذَا كَانَتْ فِي صَلَاحِ الرُّعْيَةِ
وَالْإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفَّ الْأَذْيَةَ عَنْهُمْ نَمَتْ وَزَكَتْ وَصَلَحَتْ بِهَا الْعَامَّةُ وَتَرْتَبَتْ بِهَا
الْوِلَايَةُ وَطَابَ بِهَا الزَّمَانُ وَاعْتَقِدَ فِيهَا الْعِزُّ وَالْمَنْفَعَةُ . فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقُ

(١) وفي بعض النسخ واعن الضعفاء .

(٢) وفي بعض النسخ وانعم بالعدل سياستهم .

(٣) وفي بعض النسخ وقلة اليقين لله .

(٤) وفي بعض النسخ جهلة النعمة .

الْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ . وَوَفَّرَ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكَ حُقُوقَهُمْ وَأَوْفَى مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ وَتَعَهَّدَ مَا يُضْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّبْتَ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ ^(١) وَاسْتَوْجَبْتَ الْمَزِيدَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جِبَايَةِ خَرَاجِكَ وَجَمَعَ أَمْوَالَ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ ^(٢) وَكَانَ الْجَمِيعُ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ غَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لِبَطَاعَتِكَ وَأَطِيبَ أَنْفُسًا بِكُلِّ مَا أَرَدْتَ ^(٣) وَأَجْهَدَ نَفْسَكَ فِيمَا حَدَّثْتَ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ وَلِيُعْظُمَ حَقُّكَ فِيهِ وَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ مَا أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ حَقَّهُمْ وَلِإِنْبِهِمْ عَلَيْهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تُنْسِيكَ الدُّنْيَا وَغُرُورَهَا هَوْلَ الْآخِرَةِ فَتَتَهَاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ فَإِنَّ التَّهَافُونَ يُورِثُ التَّقْرِيبَ وَالتَّقْرِيبُ يُورِثُ الْبُؤَارَ . وَلَيْكُنْ عَمَلُكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَارْجُ الثَّوَابَ فِيهِ ^(٤) فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ فَضْلَهُ . وَاعْتَصِمِ بِالشُّكْرِ وَعَلَيْهِ فَاعْتَمِدْ يَزِدْكَ اللَّهُ خَيْرًا وَإِحْسَانًا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ وَإِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ . وَلَا تَحْقِرَنَّ ذَنْبًا وَلَا تَمَالِكُنَّ حَاسِدًا وَلَا تَرْحَمَنَّ فَاجِرًا وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا وَلَا تُدَاهِنَنَّ عَدُوًّا وَلَا تُصَدِّقَنَّ نَمَامًا وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا وَلَا تَوَالِيَنَّ فَاسِقًا وَلَا تَتَّبِعَنَّ غَاوِيًا وَلَا تَحْمَدَنَّ مَرَائِيًا وَلَا تَحْقِرَنَّ إِنْسَانًا وَلَا تَزُدَنَّ سَائِلًا فَقِيرًا وَلَا تَحْسِنَنَّ بِاطِلًا وَلَا تَلَاخِظَنَّ مُضْحِكًا وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا وَلَا تَزْهَوَنَّ فَخْرًا وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَبًا وَلَا تَبَايِنَنَّ رَجَاءً وَلَا تَمْشِيَنَّ مَرَحًا وَلَا تَفْرُطَنَّ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَلَا تَرْفَعَنَّ ^(٥) لِلنَّمَامِ عَيْنًا وَلَا تُغْمِضَنَّ عَنْ ظَالِمٍ رَهْبَةً مِنْهُ أَوْ مُحَابَاةً وَلَا تُطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا . وَأَكْثِرْ مُشَاوَرَةَ الْفُقَهَاءِ وَاسْتِعْمِلْ نَفْسَكَ بِالْجِلْمِ وَخُذْ عَنْ أَهْلِ التَّجَارِبِ وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ . وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الرِّفَةِ وَالْبُخْلِ وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِمْ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ فَسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلْتَ فِيهِ أَمْرَ رَعِيَّتِكَ مِنَ الشَّيْءِ . وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ

(١) وفي بعض النسخ قوت النعمة بك .

(٢) وفي نسخة أخرى ، وكنت بذلك على جباية أموال رعييتك وخراجك أقدر .

(٣) وفي نسخة أخرى ، وطب نفساً بكل ما أردت .

(٤) وفي نسخة أخرى منه .

(٥) وفي نسخة أخرى ترفض .

كَثِيرَ الْأَخْذِ قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ ^(١) إِلَّا قَلِيلًا فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَعْقُدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِالْكَفِّ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ الْجَوْرِ عَلَيْهِمْ . وَابْتَدَى ^(٢) مَنْ صَافَاكَ مِنْ أَوْلِيَائِكَ بِالْإِفْصَالِ عَلَيْهِمْ وَحُسْنِ الْعَطِيَّةِ لَهُمْ . وَاجْتَنِبِ الشُّحَّ وَاعْلَمْ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى الْإِنْسَانُ بِهِ رَبَّهُ وَإِنَّ الْعَاصِيَ بِمَنْزِلَةِ خِزْيٍ ^(٣) وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ « وَمَنْ يُوَقْ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ^(٤) فَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ بِالْحَقِّ وَاجْعَلْ لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ فَيْتِكَ ^(٥) حَظًّا وَنَصِيبًا وَاتَّقِ أَنْ الْجُودَ أَفْضَلُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَأَعِذْهُ لِنَفْسِكَ خُلُقًا وَارْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا . وَتَفَقَّدِ الْجَنَدَ فِي دَوَائِبِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ ^(٦) وَأِدِرْ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ يُذْهِبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ فَاقْتَهُمْ فَيَقْوَى لَكَ أَمْرُهُمْ وَتَزِيدَ قُلُوبُهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرُكَ خُلُوصًا وَانْشِرَاحًا . وَحَسِبْ ذِي السُّلْطَانِ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَكُونَ عَلَى جُنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ ذَا رَحْمَةٍ فِي عَذْلِهِ وَحَيْطِيَّتِهِ ^(٧) وَإِنْصَافِهِ وَعَنَافِيَّتِهِ وَشَفَقَتِهِ وَبِرِّهِ وَتَوْسِيعَتِهِ فَرَائِلُ مَكْرُوهٍ أَحَدِ الْبَائِسِينَ بِاسْتِشْعَارِ فَضِيلَةٍ ^(٨) الْبَابُ الْآخِرُ وَلِزُومِ الْعَمَلِ بِهِ تَلَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى نَجَاحًا وَصَلَاحًا وَفَلَاحًا . وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَكَانِ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ لِأَنَّهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي تُعَدَّلُ عَلَيْهِ أَحْوَالُ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ . وَبِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْلُحُ أَحْوَالُ الرُّعْيَةِ وَتَأْمَنُ السُّبُلُ وَيَنْتَصِفُ الْمَظْلُومُ وَتَأْخُذُ النَّاسُ حَقُوقَهُمْ وَتَحْسُنُ الْمَعِيشَةُ وَيُؤَدَّى حَقُّ الطَّاعَةِ وَيَرْزُقُ اللَّهُ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ وَيُقِيمُ الدِّينَ وَيُجْرِي السُّنَنَ وَالشَّرَائِعَ فِي مَجَارِيهَا . وَاشْتَدَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ

(١) وفي نسخة أخرى لم يستقم أمرك .

(٢) وفي نسخة أخرى ووال .

(٣) وفي نسخة أخرى الخزي .

(٤) آخر آية ١٦ من سورة التغابن .

(٥) وفي نسخة أخرى « في فَيْتِكَ » .

(٦) وفي نسخة أخرى مكاتبهم .

(٧) وفي نسخة أخرى وعطيته .

(٨) وفي نسخة أخرى فضل .

وَجَلَّ وَتَوَرَّعَ عَنِ النَّطْفِ (١) وَأَمَضَ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ . وَأَقْلَّ (٢) الْعَجَلَةَ وَابْعَدَ عَنِ
الضَّجَرِ وَالْقَلَقِ وَأَقْنَعَ بِالْقَسَمِ وَأَتَّقَعَ بِتَجَرِّيَّتِكَ وَأَنْتَبَهَ فِي صَمْتِكَ وَأَسَدَدَ فِي مَنْطِقِكَ
وَأَنْصَفَ الْخَصْمَ وَقَفَ عِنْدَ الشُّبْهَةِ وَأَبْلَغَ فِي الْحُجَّةِ وَلَا يَأْخُذُكَ فِي أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ
مُحَابَاةً وَلَا مُجَامَلَةً وَلَا لَوْمَةً لِأَيِّمْ وَتَثَبَّتْ وَتَأَنَّنَ وَرَاقِبْ وَانْظُرْ وَتَنَكَّرْ وَتَدَبَّرْ وَاعْتَزِرْ
وَتَوَاضَعْ لِرَبِّكَ وَارْفُقْ بِجَمِيعِ الرُّعْيَةِ وَسَلِّطِ الْحَقَّ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى سَفْكِ
دَمٍ ، فَإِنَّ الدَّمَاءَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ أَنْتَهَا كَأَلْهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا . وَانْظُرْ هَذَا
الْخَرَجَ الَّذِي اسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ الرُّعْيَةُ وَجَعَلَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَرَفْعَةً وَلَأَهْلِهِ تَوْسِيعَةً
وَمِنْعَةً وَلِعُدْوِهِمْ (٣) كِبْتًا وَغَيْظًا وَلَأَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ مُعَادِيهِمْ ذُلًّا وَصَغَارًا فَوزَعَهُ
بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالْعُمُومِ وَلَا تَذْفَعَنَّ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ شَرِيفٍ
لِشَرَفِهِ وَلَا عَنْ غَنِيِّ لِعِفَاةٍ وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لَكَ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ وَلَا حَاشِيَّتِكَ
وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ فَوْقَ الْإِحْتِمَالِ لَهُ . وَلَا تُكَلِّفْ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ . وَاحْمِلِ النَّاسَ كُلَّهُمْ
عَلَى أَمْرِ الْحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لَأَنْفُسِهِمْ (٤) وَالزَّمْ لِرِضَاءِ الْعَامَّةِ . وَاعْلَمْ أَنَّكَ جَعَلْتَ
بِوَلَايَتِكَ خَازِنًا وَخَافِظًا وَرَاعِيًا وَإِنَّمَا سَمَّيَ أَهْلَ عَمَلِكَ رَعِيَّتَكَ لِأَنَّكَ رَاعَيْهِمْ
وَقَيَّمَهُمْ . فَخُذْ مِنْهُمْ مَا أُعْطَوْكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَنَفْذِهِ فِي قِيَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ وَتَقْوِيمِ
أَوْدِهِمْ . وَاسْتَعْمِلْ عَلَيْهِمْ أَوْلَى الرَّأْيِ وَالتَّذْيِيرِ وَالتَّجَرِّيَةِ وَالْخَيْرَةِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ (٥)
بِالسياسة والعفاف . وَوَسَّعْ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ الْإِزْمَةِ لَكَ فِيمَا
تَقْلَدْتَ وَأَسْنَدَ إِلَيْكَ فَلَا يُشْغِلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يُصْرِفُكَ عَنْهُ صَارِفٌ فَإِنَّكَ مَتَى
أَثَرْتَهُ وَقَمْتَ فِيهِ بِالْوَاجِبِ اسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ النِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحَسَنَ الْأَخْذِ وَثِيَّةً فِي
عَمَلِكَ وَاجْتَرَرْتَ بِهِ الْمَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعْنَتْ عَلَى الصَّلَاحِ فَدَرَّتِ الْخَيْرَاتُ
بِبَلَدِكَ وَفَشَتِ الْعِمَارَةُ بِنَاحِيَّتِكَ وَظَهَرَ الْخُصْبُ فِي كُورِكَ وَكَثُرَ خَرَابُجُكَ وَتَوَفَّرَتْ

(١) النطف ، التلطف بالعيب .

(٢) وفي نسخة أخرى « وأقلل » .

(٣) في بعض النسخ لم ترد هذه الكلمة .

(٤) في بعض النسخ « لألفتهم » .

(٥) في بعض النسخ « والعدل » .

أَمْوَالُكَ وَقَوِيَتْ بِذَلِكَ عَلَى ارْتِيَاظِ جُنْدِكَ وَإِرْضَاءِ الْعَامَّةِ بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ وَكُنْتَ مَحْمُودَ السِّيَاسَةِ مَرْضِيَّ الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ وَكُنْتَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَآلَةٍ وَقُوَّةٍ وَعُدَّةٍ . فَتَنَافَسَ ^(١) فِي ذَلِكَ وَلَا تَقْدَمُ عَلَيْهِ شَيْئاً تُحْمَدُ عَاقِبَةُ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كُوْزَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِيناً يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ ^(٢) عَمَلِكَ وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِيرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ مُعَايِنٌ لِأُمُورِهِ كُلِّهَا . فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِأَمْرٍ فَانْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَافِيَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ حُسْنَ الدَّفَاعِ وَالصُّنْعَ فَأَمْضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ بِهِ ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرِهِ وَقُدْرَهُ وَأَتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى ^(٣) فَأَغْوَاهُ ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ فَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ وَنَقَصَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ . فَاسْتَغْمِلِ الْحَزَمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ وَبَاشِرُهُ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُوَّةِ . وَأكْثِرْ مِنْ اسْتِخَارَةِ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ . وَافْرَغْ مِنْ يَوْمِكَ وَلَا تُؤَخِّرْهُ لِعَدِكَ وَأكْثِرْ مَبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ لِلْعَدِّ ^(٤) أُمُوراً وَحَوَادِثَ تُلْهِيكُ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ الَّذِي أَخَّرْتَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا فِيهِ وَإِذَا أَخَّرْتَ عَمَلَهُ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ فَيَثْقُلُكَ ^(٥) ذَلِكَ حَتَّى تَمْرُضَ مِنْهُ . وَإِذَا أَمْضَيْتَ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أَرَحْتَ بَدَنَكَ وَنَفْسَكَ وَجَمَعْتَ أَمْرَ سُلْطَانِكَ وَانْظُرْ أَحْرَارَ النَّاسِ وَذَوِي الْفَضْلِ مِنْهُمْ مِمَّنْ بَلَوْتَ صَفَاءَ طَوْبِيَّتِهِمْ وَشَهِدْتَ مَوَدَّتَهُمْ لَكَ وَمُظَاهَرَتَهُمْ بِالنُّصْحِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَمْرِكَ فَاسْتَخْلِصْهُمْ وَأَحْسِنْ إِلَيْهِمْ وَتَعَاهَدْ أَهْلَ الْبَيْوتَاتِ مِمَّنْ قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةُ وَاحْتَمَلَ مَوُونَتَهُمْ وَأَصْلَحَ حَالَهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا لِخِلَّتِهِمْ مَساً ^(٦) وَأَفْرُدْ نَفْسَكَ لِلنَّظَرِ ^(٧) فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَنْ لَا يَقَارُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ « فَتَنَافَسَ » .

(٢) فِي بَعْضِ النُّسخِ « خَيْرَ » .

(٣) فِي بَعْضِ النُّسخِ « وَقُدْرَهُ وَأَتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى » .

(٤) فِي بَعْضِ النُّسخِ « الْغَيْرِ » .

(٥) فِي بَعْضِ النُّسخِ « فَيَثْقُلُكَ » .

(٦) فِي بَعْضِ النُّسخِ « مَنَافِراً » بِمَعْنَى مَفَاخِرَ .

(٧) فِي بَعْضِ النُّسخِ « بِالنَّظَرِ » .

وَالْمُخْتَفَرُ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ فَسَلَّ عَنْهُ أَحْفَى مَسْأَلَةٍ وَوَكَّلَ بِأَمثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَمُرْهُمْ بِرَفْعِ حَوَائِجِهِمْ وَحَالَاتِهِمْ^(١) إِلَيْكَ لِتَنْظُرَ فِيمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ وَتَعَاهِدَ ذَوِي الْبِئْسَاءِ وَأَيْتَامَهُمْ^(٢) وَأَرَامِلَهُمْ وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقاً مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصَّلَةِ لَهُمْ لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَيْشَهُمْ وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَهَ وَزِيَادَةً . وَأَجِرْ لِلْأَصْرَاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَقَدِّمْ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ وَالْحَافِظِينَ لِأَكْثَرِهِ فِي الْجَرَايَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَأَنْصِبْ لِمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ دُوراً تَأْوِيهِمْ وَقَوَاماً يَرْفِقُونَ بِهِمْ وَأَطِبَّاءَ يُعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ وَأَسْعِفُهُمْ بِشَهَوَاتِهِمْ مَا لَمْ يُؤَدِّ ذَلِكَ إِلَى إِسْرَافٍ^(٣) فِي بَيْتِ الْمَالِ . وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا أُعْطُوا حَقُوقَهُمْ وَأَفْضَلَ أَمَانِيهِمْ لَمْ يُرْضِهِمْ ذَلِكَ وَلَمْ تَطِبْ أَنْفُسُهُمْ دُونَ رَفْعِ حَوَائِجِهِمْ إِلَى وَلَائِهِمْ طَمَعاً فِي نَيْلِ الزِّيَادَةِ وَفَضْلِ الرِّفْقِ مِنْهُمْ^(٤) . وَرُبَّمَا تَبَرَّمَ الْمُتَصَفِّحُ لِأُمُورِ النَّاسِ لِكَثْرَةِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ وَيُشْغِلُ فِكْرَهُ وَذَهْنَهُ فِيهَا^(٥) مَا يَنَالُهُ بِهِ مِنْ مُؤُونَةٍ وَمَشَقَّةٍ . وَلَيْسَ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْعَدْلِ وَيَعْرِفُ مَخَاسِنَ أُمُورِهِ فِي الْعَاجِلِ وَفَضْلَ ثَوَابِ الْآجِلِ كَالَّذِي يَسْتَقْبِلُ مَا يَقْرُبُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيَلْتَمِسُ رَحْمَتَهُ^(٦) وَأَكْثَرَ الْإِذْنِ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ وَأَبْرَزْلَهُمْ^(٧) وَجَهَكَ وَسَكَنَ لَهُمْ حَوَاسِكَ وَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ وَأَظْهِرْ لَهُمْ بِشْرَكَ وَلَنْ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالنُّطْقِ وَاعْطِيفَ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ . وَإِذَا أُعْطِيَتْ فَأَعْطِ بِسَمَاحَةٍ وَطِيبِ نَفْسٍ وَالتَّمَّاسِ لِلصَّنِيعَةِ وَالْأَجْرِ مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرٍ وَلَا امْتِنَانٍ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ تِجَارَةٌ مُرَبِّحَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمَنْ مَضَى قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ وَالرَّئَاسَةِ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأَمَمِ

(١) في بعض النسخ « وخالاهم » .

(٢) في بعض النسخ « ويتماهم » .

(٣) في بعض النسخ « مسرف » .

(٤) في بعض النسخ « بهم » .

(٥) في بعض النسخ « ويشغل ذكره وفكره منها » .

(٦) في بعض النسخ « يستقل ما يقربه من الله تعالى . وتلتمس به رحمته .

(٧) في بعض النسخ « وأرهم » .

الْبَائِدَةُ . ثُمَّ اغْتَصِمَ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَحَبَّتِهِ
وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ وَبِإِقَامَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَاجْتَنِبَ مَا فَارَقَ ذَلِكَ وَخَالَفَهُ وَدَعَا
إِلَى سُخْطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَاعْرِفْ مَا يَجْمَعُ عُمَالِكَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَا يُنْفِقُونَ مِنْهَا وَلَا
تَجْمَعُ حَرَاماً وَلَا تُنْفِقُ إِسْرَافاً . وَأَكْثِرْ مُجَالَسَةَ الْعُلَمَاءِ وَمُشَاوَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَتَهُمْ
وَلْيَكُنْ هَوَاكَ اتِّبَاعَ السُّنَنِ وَإِقَامَتَهَا وَإِثَارَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا وَلْيَكُنْ أَكْرَمُ
دُخْلَاتِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى غَيْباً فَبِكَ لَمْ تَمْنَعْهُ هَيْبَتِكَ عَنْ إِنْهَاءِ ذَلِكَ
إِلَيْكَ فِي سِرِّكَ وَإِعْلَانِكَ^(١) . بِمَا فِيهِ مِنَ النِّقْصِ فَإِنَّ أَوْلِيكَ أَنْصَحُ أَوْلِيَائِكَ
وَمُظَاهِرُونَ لَكَ^(٢) . وَانْظُرْ عُمَالِكَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ وَكِتَابِكَ فَوْقَ لِكُلِّ رَجُلٍ
مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتاً يَدْخُلُ فِيهِ عَلَيْكَ بِكِتَابِهِ وَمُؤَامَرَاتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ خَوَائِجِ
عُمَالِكَ وَأُمُورِ الدَّوْلَةِ وَرَعِيَّتِكَ ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُورَدُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ
وَفَهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَكَرِّرِ النَّظَرَ فِيهِ وَالتَّدَبُّرَ لَهُ فَمَا كَانَ مُوَافِقاً لِلْحَقِّ وَالْحَزْمِ فَأَمْضِهِ
وَاسْتَخِرِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ وَمَا كَانَ مُخَالَفاً لِذَلِكَ فَاصْرِفْهُ إِلَى الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ وَالتَّثْبُتِ
مِنْهُ وَلَا تَمْنَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفِ تَوْثِيهِ إِلَيْهِمْ . وَلَا تَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا
الْوَفَاءَ وَالِاسْتِقَامَةَ وَالْعَوْنَ فِي أُمُورِ أَمِيرِ^(٣) الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَضَعَنَّ الْمَعْرُوفَ إِلَّا عَلَى
ذَلِكَ . وَتَقَهَّمْ كِتَابِي إِلَيْكَ وَأَنْعِمِ النَّظَرَ فِيهِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَاسْتَعِمْ بِاللهِ عَلَى جَمِيعِ
أُمُورِكَ وَاسْتَخِرْهُ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الصَّلَاحِ وَأَهْلِهِ وَلْيَكُنْ أَعْظَمُ سِيرَتِكَ وَأَفْضَلُ
رَغَبَتِكَ مَا كَانَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَضَى وَلِدَيْهِ نِظَاماً وَلَأَهْلِهِ عِزّاً وَتَمْكِيناً وَلِلْمِلَّةِ
وَالذِّمَّةِ^(٤) عِزّاً وَصَلَاحاً وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُحْسِنَ عَوْنَكَ وَتَوْفِيقَكَ وَرُشْدَكَ وَكِلَاءَتَكَ
وَالسَّلَامَ . وَحَدَّثَ الْإِخْبَارِيُّونَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَمَّا ظَهَرَ وَشَاعَ أَمْرُهُ أَفْجَبَ بِهِ النَّاسَ
وَاتَّصَلَ بِالْمَأْمُومِينَ فَلَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ قَالَ مَا أَبْقَى أَبُو الطَّيِّبِ يَغْنِي طَاهِراً شَيْئاً مِنْ
أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ وَالتَّذْيِيرِ وَالرَّأْيِ وَالسِّيَاسَةِ وَصَلَاحِ الْمُلْكِ وَالرَّعِيَّةِ وَحَفِظَ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخ « فِي سِرِّ . وَإِعْلَامِكَ » . . .

(٢) فِي بَعْضِ النُّسخ « وَمُظَاهِرِيكَ » .

(٣) لَمْ تَرِدْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي بَعْضِ النُّسخ .

(٤) الْمِلَّةُ ، الْإِسْلَامُ . وَأَهْلُ الذِّمَّةِ ، أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَى وَقَدْ دَخَلُوا فِي ذِمَّةِ الْإِسْلَامِ وَحَمَايَتِهِمْ .

السُّلْطَانِ وَطَاعَةِ الْخُلَفَاءِ وَتَقْوِيمِ الْخِلَافَةِ إِلَّا وَقَدْ أَحْكَمَهُ وَأَوْصَى بِهِ ثُمَّ أَمَرَ الْمَأْمُونُ فَكُتِبَ بِهِ إِلَى جَمِيعِ الْعُمَّالِ فِي النَّوَاحِي لِيَقْتَدُوا بِهِ وَيَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ هَذَا أَحْسَنُ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الثالث والخمسون

في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

إِذْ عَلِمَ أَنَّ فِي الْمَشْهُورِ بَيْنَ الْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى مَمَرِ الْأَعْيَانِ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ ظَهْوَرِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يُؤَيِّدُ الدِّينَ وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ وَيَتَّبِعُهُ الْمُسْلِمُونَ وَيَسْتَوِلِي عَلَى الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَيُسَمَّى بِالْمَهْدِيِّ وَيَكُونُ خُرُوجُ الدُّجَالِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَشْرَاطٍ ^(١) السَّاعَةِ الثَّابِتَةِ فِي الصَّحِيحِ عَلَى أَثَرِهِ وَأَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ مِنْ بَعْدِهِ فَيَقْتُلُ الدُّجَالَ أَوْ يَنْزِلُ مَعَهُ فَيُسَاعِدُهُ عَلَى قَتْلِهِ وَيَأْتِي بِالْمَهْدِيِّ فِي صَلَاتِهِ وَيَخْتَجُونَ فِي الشَّأْنِ بِأَحَادِيثَ خَرَجَهَا الْأَئِمَّةُ وَتَكَلَّمَ فِيهَا الْمُنْكَرُونَ لِذَلِكَ وَرُبَّمَا عَارَضُوهَا بِبَعْضِ الْأَخْبَارِ وَلِلْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي أَمْرِ هَذَا الْفَاطِمِيِّ طَرِيقَةٌ أُخْرَى وَنَوْعٌ مِنَ الْاِسْتِدْلَالِ وَرُبَّمَا يَغْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى الْكَشْفِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ طَرَائِقِهِمْ . وَنَحْنُ الْآنَ نَذْكُرُ هُنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا الشَّأْنِ وَمَا لِلْمُنْكَرِينَ فِيهَا مِنَ الْمَطَاعِنِ وَمَا لَهُمْ فِي انْكَارِهِمْ مِنَ الْمُسْتَنَادِ ثُمَّ نَتَّبِعُهُ بِذِكْرِ كَلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَذَائِهِمْ لِيَتَبَيَّنَ لَكَ الصَّحِيحُ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فَنَقُولُ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْأَئِمَّةِ خَرَجُوا أَحَادِيثَ الْمَهْدِيِّ مِنْهُمْ التُّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمُ وَالطَّبْرَانِيُّ وَأَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ وَأُسْنَدُوهَا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِثْلَ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عَمَرَ وَطَلْحَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنْسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأُمِّ حُبَيْبَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَثَوْبَانَ وَقُرَّةَ بِنِ إِيَّاسَ وَعَلِيَّ الْهَلَالِيَّ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ

(١) علامات .

جزء بأسانيد رُبَمَا يُعَرِّضُ لَهَا الْمُنْكَرُونَ كَمَا نَذَكْرُهُ إِلَّا أَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ أَهْلِ
الْحَدِيثِ أَنَّ الْجَرْحَ مُقَدَّمٌ عَلَى التَّعْدِيلِ فَإِذَا وَجَدْنَا طَعْنًا فِي بَعْضِ رِجَالِ الْأَسَانِيدِ
بِغَفْلَةٍ أَوْ بِسُوءِ حِفْظٍ أَوْ ضَعْفٍ أَوْ سُوءِ رَأْيٍ تَطَرَّقَ ذَلِكَ إِلَى صَحَّةِ الْحَدِيثِ وَأَوْهَنَ
مِنْهَا وَلَا تَقُولَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ رُبَّمَا يَتَطَرَّقُ إِلَى رِجَالِ الصَّحِيحِينَ فَإِنَّ الْإِجْمَاعَ قَدْ اتَّصَلَ
فِي الْأُمَّةِ عَلَى تَلْقِيهِمَا بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِمَا وَفِي الْإِجْمَاعِ أَكْثَرُ حِمَايَةٍ وَأَحْسَنُ
دَفْعًا وَلَيْسَ غَيْرُ الصَّحِيحِينَ بِمِثْلَيْتِهِمَا فِي ذَلِكَ فَقَدْ تَجَدَّدَ مَجَالًا لِلْكَلامِ فِي أُسَانِيدِهَا
بِمَا نُقِلَ عَنْ أُيُمَةِ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ .

وَلَقَدْ تَوَعَّلَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ عَلَى مَا نُقِلَ السُّهَيْلِيُّ عَنْهُ فِي جَمْعِهِ
لِلْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْمَهْدِيِّ فَقَالَ وَمِنْ أَغْرِبِهَا إِسْنَادًا مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْكَافُ
فِي قَوَائِدِ الْأَخْبَارِ مُسْتَنِدًا إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ كَذَبَ بِالْمَهْدِيِّ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ كَذَبَ بِالذَّجَالِ فَقَدْ
كَذَبَ ^(١) وَقَالَ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا مِثْلَ ذَلِكَ فِيمَا أَحْسِبُ وَحَسْبُكَ هَذَا
غُلُؤًا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصَحَّةِ طَرِيقِهِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْإِسْكَافُ
عِنْدَهُمْ مُتَّهَمٌ وَضَاعٌ .

وَأَمَّا التُّرْمِذِيُّ فَخَرَجَ هُوَ وَأَبُو دَاوُدَ بِسَنَدَيْهِمَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ
عَاصِمِ بْنِ أَبِي النُّجُودِ أَحَدِ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ إِلَى زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَوْلَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى
يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِ رَجُلًا مَنِيَّ أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَأَسْمُ أَبِيهِ اسْمُ
أَبِي . هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي رِسَالَتِهِ الْمَشْهُورَةِ إِنَّ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ
فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَلَفْظُ التُّرْمِذِيِّ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبُ رَجُلًا مِنْ
أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَفِي لَفْظٍ آخَرَ حَتَّى يَلِيَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي
وَكِلَاهُمَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقٍ مُوقُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخ « فَقَدْ كَفَرَ » .

الْحَاكِمُ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَزَائِدَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ عَاصِمٍ قَالَ :
وَطَرِقَ عَاصِمٌ عَنْ زُرَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ كُلِّهَا صَحِيحَةً عَلَى مَا أَصْلَتْهُ مِنَ الْإِخْتِجَاجِ بِأَخْبَارِ
عَاصِمٍ إِذْ هُوَ إِمَامٌ مِنَ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ (انْتَهَى) إِلَّا أَنَّ عَاصِمًا قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ
حَنْبَلٍ : كَانَ رَجُلًا صَالِحًا قَارِئًا لِلْقُرْآنِ خَيْرًا ثِقَةً وَالْأَعْمَشُ أَحْفَظُ مِنْهُ وَكَانَ شُعْبَةُ
يَخْتَارُ الْأَعْمَشَ عَلَيْهِ فِي تَثْبِيَتِ الْحَدِيثِ وَقَالَ الْعَجَلِيُّ كَانَ يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ فِي زُرَّ
وَأَبِي وَائِلٍ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى ضَعْفِ رَوَايَتِهِ عَنْهُمَا وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ كَانَ ثِقَةً إِلَّا
أَنَّهُ كَثِيرُ الْخَطَا فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سَفْيَانَ فِي حَدِيثِهِ اضْطِرَابٌ وَقَالَ عَبْدُ
الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ قُلْتُ لِأَبِي إِبْنِ أَبِي زُرَّعَةَ يَقُولُ عَاصِمٌ ثِقَةً فَقَالَ لَيْسَ مَحَلُّهُ
هَذَا وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ ابْنُ عُثَيْمٍ فَقَالَ كُلُّ مَنْ اسْمُهُ عَاصِمٌ سَيِّءُ الْحِفْظِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ
مَحَلُّهُ عِنْدِي مَحَلُّ الصَّدِّيقِ صَالِحِ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ الْحَافِظُ وَاخْتَلَفَ فِيهِ
قَوْلُ النَّسَائِيِّ وَقَالَ ابْنُ حُرَّاشٍ فِي حَدِيثِهِ نَكِرَةٌ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْعَقِيلِيُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ
إِلَّا سُوءُ الْحِفْظِ وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ فِي حِفْظِهِ شَيْءٌ وَقَالَ يَحْيَى الْقَطَّانُ مَا وَجَدْتُ
رَجُلًا اسْمُهُ عَاصِمٌ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَدِيءَ الْحِفْظِ وَقَالَ أَيْضًا سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُولُ حَدَّثَنَا
عَاصِمٌ بْنُ أَبِي النُّجُودِ فِي النَّاسِ مَا فِيهَا وَقَالَ الذَّهَبِيُّ ثَبَتَ فِي الْقِرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ
الْحَدِيثِ . وَإِنْ اخْتَجَّ أَحَدٌ بِأَنَّ الشَّيْخَيْنِ أَخْرَجَا لَهُ فَتَقُولُ أَخْرَجَا لَهُ مَقْرُونًا بغيره .
لَا أَضِلُّ وَاللَّهِ أَعْلَمُ .

وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي الْبَابِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رَوَايَةِ قُطْنِ بْنِ خَلِيفَةَ
عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي مُرَّةَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ عَلِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَوْ لَمْ
يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَأُهَا عَذْلًا كَمَا مِلْتُ
جَوْرًا » وَقُطْنُ ^(١) بْنُ خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثَقَهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَى بْنُ الْقَطَّانِ وَابْنُ مَعِينٍ
وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ إِلَّا أَنَّ الْعَجَلِيَّ قَالَ : حَسَنُ الْحَدِيثِ وَفِيهِ تَشْيِيعٌ قَلِيلٌ . وَقَالَ ابْنُ
مَعِينٍ مَرَّةً : ثِقَةٌ شَيْعِيٌّ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ يُونُسَ : كُنَّا نَمُرُّ عَلَى قُطْنٍ
وَهُوَ مَطْرُوحٌ لَا نَكْتُبُ عَنْهُ . وَقَالَ مَرَّةً : كُنْتُ أَمُرُّ بِهِ وَأَدْعُهُ مِثْلَ الْكَلْبِ . وَقَالَ

(١) وفي نسخ نسخة أخرى فطر بن خليفة .

الدَّارِقُطْنِي ، لَا يُحْتَجُّ بِهِ . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ : مَا تَرَكْتُ الرِّوَايَةَ عَنْهُ إِلَّا لِسُوءِ مَذْهَبِهِ . وَقَالَ الْجَرَّجَانِيُّ : زَائِعٌ غَيْرُ ثِقَةٍ انْتَهَى . وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً بِسَنَدِهِ إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ التَّسْفِيَّ قَالَ : قَالَ عَلِيٌّ وَنَظَرَ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِاسْمِ نَبِيِّكُمْ يُشَبِّهُهُ فِي الْخُلُقِ وَلَا يُشَبِّهُهُ فِي الْخُلُقِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقَالَ هَارُونُ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ هِلَالِ بْنِ عُمَرَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ يُقَالُ لَهُ الْخَارِثُ عَلَى مَقْدَمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنْصُورٌ يُوطِئُ أَوْ يُمَكِّنُ لَالِ مُحَمَّدٍ كَمَا مَكَّنْتُ قُرَيْشَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَبَّ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرُهُ أَوْ قَالَ إِبْجَابَتُهُ » سَكَتَ أَبُو دَاوُدَ عَلَيْهِ . وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي هَارُونَ ، هُوَ مِنْ وَلَدِ الشَّيْعَةِ . وَقَالَ السُّلَيْمَانِيُّ : فِيهِ نَظَرٌ . وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ ، لَا بَأْسَ فِي حَدِيثِهِ خَطَأً . وَقَالَ الدَّهْمِيُّ : صَدَقَ لَهُ أَوْهَامٌ . وَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْعِيُّ وَإِنْ خَرَجَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِينَ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ اخْتَلَطَ آخِرَ عُمُرِهِ بِرَوَايَتِهِ عَنْ عَلِيٍّ مُنْقَطِعَةً ، وَكَذَلِكَ رَوَايَةُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ هَارُونَ بْنِ الْمُغِيرَةِ . وَأَمَّا السُّنَدُ الثَّانِي فَأَبُو الْحَسَنِ فِيهِ وَهْلٌ لِبْنِ عُمَرَ مَجْهُولَانِ وَلَمْ يُعْرِفْ أَبُو الْحَسَنِ إِلَّا مِنْ رَوَايَةِ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْهُ انْتَهَى . وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ ^(١) مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ نَفِيلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « الْمَهْدِيُّ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ » وَلَفْظُ الْحَاكِمِ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الْمَهْدِيَّ فَقَالَ : « نَعَمْ هُوَ حَقٌّ وَهُوَ مِنْ بَنِي فَاطِمَةَ » وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهِ بِالصَّحِيحِ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ ضَعَّفَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْعَقِيلِيُّ وَقَالَ ، لَا يَتَّبِعُ عَلِيُّ بْنُ نَفِيلٍ عَلَيْهِ وَلَا يُعْرِفُ إِلَّا بِهِ . وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ مِنْ رَوَايَةِ صَالِحِ

(١) وردت هذه الجملة في نسخة أخرى كما يلي : « وخرج أبو داود أيضا عن أم سلمة وكذا ابن ماجه

والحاكم في المستدرک . . . »

أَبِي الْخَلِيلِ ^(١) عَنْ صَاحِبٍ لَهُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : يَكُونُ اخْتِلَافٌ عِنْدَ مَوْتِ خَلِيفَةٍ
فَيُخْرِجُ رَجُلٌ مِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَارِباً إِلَى مَكَّةَ فَيَأْتِيهِ نَاسٌ مِنَ أَهْلِ مَكَّةَ فَيُخْرِجُونَهُ
وَهُوَ كَارِهٌ فَيَبْئَايَعُونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ مِنَ الشَّامِ فَيُخَسِّفُ بِهِمْ
بِالْبَيْدَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَتَاهُ أُنْدَالُ ^(٢) أَهْلُ الشَّامِ وَعَصَائِبُ
أَهْلِ الْعِرَاقِ فَيَبْئَايَعُونَهُ ثُمَّ يَنْشَأُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحْوَالَهُ كُلِّبُ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِمْ بَعْثاً
فَيُظْهِرُونَ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ بَعْثٌ كُلِّبُ وَالْخَبِئَةُ لَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ غَنِيمَةَ كُلِّبٍ فَيُقَسِّمُ الْمَالَ
وَيَعْمَلُ فِي النَّاسِ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ وَيُلْقِي الْإِسْلَامَ بِحِرَانِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَيَلْبَثُ
سَبْعَ سِنِينَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ تِسْعَ سِنِينَ ثُمَّ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ الْمُبْهَمُ فِي الْإِسْنَادِ الْأَوَّلِ وَرَجَالُهُ رَجَالُ
الصُّحُوحِ لَا مَطْعَنَ فِيهِمْ وَلَا مَغْمَزَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْخَلِيلِ
وَقَتَادَةُ مُدْلَسٌ وَقَدْ غَنَعَنَهُ وَالْمُدْلَسُ لَا يَقْبَلُ مِنْ حَدِيثِهِ إِلَّا مَا صُرِّحَ فِيهِ بِالسَّمَاعِ .
مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ نَعَمْ ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي أَبْوَابِهِ .
وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً وَتَابِعَهُ الْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمَهْدِيُّ مِنْي أَجْلَى الْجَبْهَةِ أَقْنَى ^(٣) الْأَنْفِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ
قِسْطاً وَعَدْلاً كَمَا مِلْتُ ظُلْماً وَجَوْراً يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ » هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ
عَلَيْهِ وَلَفْظُ الْحَاكِمِ : « الْمَهْدِيُّ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَشْمُ الْأَنْفِ أَقْنَى أَجْلَى يَمْلَأُ الْأَرْضَ
قِسْطاً وَعَدْلاً كَمَا مِلْتُ جَوْراً وَظُلْماً يَعْيشُ هَكَذَا وَيَبْسُطُ يَسَارَهُ وَإِضْبَعَيْنِ مِنْ
يَمِينِهِ السَّبَّابَةِ وَالْإِبْهَامَ وَعَقْدَ ثَلَاثٍ ^(٤) » قَالَ الْحَاكِمُ : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى
شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ . هـ . وَعَمْرَانُ الْقُطَّانُ مُخْتَلِفٌ فِي الْإِحْتِجَاجِ بِهِ إِنَّمَا
أَخْرَجَ لَهُ الْبُخَارِيُّ اسْتِشْهَاداً لَا أَصْلاً وَكَانَ يَحْيَى الْقُطَّانُ لَا يُحَدِّثُ عَنْهُ وَقَالَ
يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ : لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَقَالَ مَرَّةً : لَيْسَ بِشَيْءٍ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ

(١) وفي نسخة أخرى صالح بن الخليل .

(٢) الأبدال ، الأولياء .

(٣) أجلي الجبهة ، واسع الجبهة . اقنى الأنف : مرتفع أعلاه . محذوب في الوسط .

(٤) وفي نسخة أخرى : « وعقد ثلاثة » .

أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَالِحَ الْحَدِيثِ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ كَانَ حَرُورِيًّا^(١) وَكَانَ يَرَى
السِّيفَ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلَةِ وَقَالَ النَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْآجِرِيُّ : سَأَلْتُ أَبَا
دَاوُدَ عَنْهُ ، فَقَالَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ وَمَا سَمِعْتُ إِلَّا خَيْرًا . وَسَمِعْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى
ذَكَرَهُ فَقَالَ : ضَعِيفٌ أَقْبَى فِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنٍ يَفْتَوِي شَدِيدَةً فِيهَا
سَفْكُ الدَّمَاءِ . وَخَرَجَ التُّرْمُذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مِنْ
طَرِيقِ زَيْدِ الْعَمِيِّ عَنْ أَبِي صَدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : خَشِينَا أَنْ
يَكُونَ بَعْضُ شَيْءٍ حَدَّثَ فَسَأَلْنَا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّ فِي أَمْتِي الْمَهْدِيِّ
يَخْرُجُ وَيَعِيشُ خُمْسًا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا » زَيْدُ الشَّائِكُ قَالَ قُلْنَا : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ
سَيْنٌ ، قَالَ : « فَيَجِيءُ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَيَقُولُ : يَا مَهْدِيْ أَعْطِنِي » قَالَ : « فَيَخْشَوْهُ
فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ » لَفْظُ التُّرْمُذِيِّ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَقَدْ رَوَى
مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَفْظُ ابْنِ مَاجَةَ وَالْحَاكِمِ : « يَكُونُ
فِي أَمْتِي الْمَهْدِيِّ إِنْ قَصُرَ فَسَنَعَ وَإِلَّا فَتَسَنَعَ أَمْتِي فِيهِ نِعْمَةٌ لَمْ يَسْمَعُوا بِمِثْلِهَا
قَطُّ تَوْتَى الْأَرْضِ أَكَلَهَا وَلَا يُدْخَرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَالْمَالُ يَوْمِئِذٍ كُدُوسٌ فَيَقُومُ الرَّجُلُ
فَيَقُولُ : يَا مَهْدِيْ أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ . » إِنْتَهَى . وَزَيْدُ الْعَمِيِّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ
الدَّارِقُطْنِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مُعِينٍ إِنَّهُ صَالِحٌ وَزَادَ أَحْمَدُ إِنَّهُ فَوْقَ
يَزِيدِ الرَّقَاشِيِّ وَفَضْلُ بْنُ عِيسَى إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ : ضَعِيفٌ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ
وَلَا يَخْتَجُّ بِهِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : لَا شَيْءَ . وَقَالَ مَرَّةً
يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ . وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ : مُتَمَسِّكٌ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ :
بِقَوِيٍّ وَاهِي الْحَدِيثِ ضَعِيفًا وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِذَاكَ وَقَدْ حَدَّثَ عَنْهُ شُعْبَةُ .
وَقَالَ النَّسَائِيُّ : ضَعِيفٌ وَقَالَ ابْنُ عَدِي : عَامَّةٌ مَا يَرْوِيهِ وَمَنْ يُرْوَى عَنْهُمْ ضَعْفَاءُ
عَلَى أَنْ شُعْبَةُ قَدْ رَوَى عَنْهُ وَلَعَلَّ شُعْبَةَ لَمْ يَرْوِ عَنْ أَضْعَفٍ مِنْهُ .

وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ حَدِيثَ التُّرْمُذِيِّ وَقَعَ تَفْسِيرًا لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ

(١) نسبة إلى حروراء بلدة قرب الكوفة والحروورية فرقة من الخوارج .

حَدِيثُ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَخْشُو
 الْمَالَ حَشْوًا لَا يَعُدُّهُ عَدًّا » وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : « مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ
 يَخْشُو الْمَالَ حَشْوًا » وَمِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْهُمَا قَالَ : « يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةٌ
 يَقْسِمُ الْمَالَ وَلَا يَعُدُّهُ » انْتَهَى . وَأَحَادِيثُ مُسْلِمٍ لَمْ يَفَعْ فِيهَا ذِكْرَ الْمَهْدِيِّ وَلَا دَلِيلَ
 يَقُومُ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ مِنْهَا . وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ عَوْفِ الْأَغْرَابِيِّ عَنْ أَبِي
 الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَقُومُ
 السَّاعَةُ حَتَّى تُمْلَأَ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا وَعُدْوَانًا ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي رَجُلٌ
 يَمْلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأْتُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا » وَقَالَ فِيهِ الْحَاكِمُ : هَذَا صَحِيحٌ عَلَى
 شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ . وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا عَنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ
 أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ :
 « يَخْرُجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ يَسْقِيهِ اللَّهُ الْغَيْثَ وَتَخْرُجُ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا وَيُعْطَى
 الْمَالَ صِحَاحًا وَتَكْثُرُ الْمَاشِيَةُ وَتَعْظُمُ الْأُمَّةُ يَعْيشُ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا » يَغْنِي حُجْجًا
 وَقَالَ فِيهِ حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ . مَعَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عُبَيْدٍ لَمْ يُخَرِّجْ
 لَهُ أَحَدٌ مِنَ السُّنَنِ لَكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي الثَّقَاتِ وَلَمْ يَرُدَّ أَنَّ أَحَدًا تَكَلَّمَ فِيهِ ثُمَّ رَوَاهُ
 الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَسَدِ بْنِ مُوسَى عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ مَطَرِ الْوَرَّاقِ
 وَأَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ قَالَ : « تُمْلَأُ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي فَيَمْلَأُ
 سَبْعًا أَوْ تِسْعًا فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَأْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا » وَقَالَ الْحَاكِمُ
 فِيهِ : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ لِأَنَّهُ أَخْرَجَ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ وَعَنْ
 شَيْخِهِ مَطَرِ الْوَرَّاقِ . وَأَمَّا شَيْخُهُ الْآخَرُ وَهُوَ أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ فَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ . وَهُوَ
 ضَعِيفٌ جَدًّا مُتَّهَمٌ بِالْكَذِبِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى بَسْطِ أَقْوَالِ الْأَيْمَةِ فِي تَضْعِيفِهِ . وَأَمَّا
 الرَّاوي لَهُ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ فَهُوَ أَسَدُ بْنُ مُوسَى يُلَقَّبُ أَسَدُ السُّنَةِ وَإِنْ قَالَ
 الْبُخَارِيُّ : مَشْهُورُ الْحَدِيثِ وَاسْتَشْهَدَ بِهِ فِي صَحِيحِهِ . وَاخْتَجَّ بِهِ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ

إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً أُخْرَى : ثِقَّةٌ لَوْ لَمْ يَصْنَفْ كَانَ خَيْرًا لَهُ . وَقَالَ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَزْمٍ :
 مُنْكَرُ الْحَدِيثِ . وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْوَاصِلِ عَبْدِ
 الْحَمِيدِ بْنِ وَاصِلٍ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّاجِي عَنْ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ السَّعْدِيِّ أَحَدِ
 بَنِي بَهْدَلَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « يَخْرُجُ
 رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يَقُولُ بِسُنَّتِي يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْقَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ وَتُخْرَجُ
 الْأَرْضُ بِرَكَتِهَا وَتَمْلَأُ الْأَرْضُ مِنْهُ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مِلْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا يَفْعَلُ عَلَى
 هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعَ سِنِينَ وَيُنْزَلُ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ » وَقَالَ الطَّبْرَانِيُّ : فِيهِ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ
 عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ وَلَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي سَعِيدٍ أَحَدًا إِلَّا أَبَا الْوَاصِلِ
 فَإِنَّهُ رَوَاهُ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ انْتَهَى . وَهَذَا الْحَسَنُ بْنُ يَزِيدَ
 ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَلَمْ يَعْرِفْهُ بِأَكْثَرٍ مِمَّا فِي هَذَا الْإِسْنَادِ مِنْ رِوَايَتِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ
 وَرِوَايَةِ أَبِي الصَّدِّيقِ عَنْهُ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ : إِنَّهُ مَجْهُولٌ . لَكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ
 حَبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ وَأَمَّا أَبُو الْوَاصِلِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ فَلَمْ يُخْرَجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ
 السُّنَّةِ . وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ وَقَالَ فِيهِ : يُرْوَى عَنْ أَنَسٍ
 رَوَى عَنْهُ شُعْبَةُ وَعَتَابُ بْنُ بُشَيْرٍ وَخُرَجَ ابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 مَسْعُودٍ مِنْ طَرِيقِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ
 بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَمَّا رَأَاهُمْ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ قَالَ فَقُلْتُ مَا نَزَالُ نَرَى فِي وَجْهِكَ شَيْئًا
 نَكْرَهُهُ فَقَالَ : « إِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا وَإِنَّ أَهْلَ بَيْتِي
 سَيَلْقَوْنَ بَعْدِي بَلَاءً وَتَشْرِيدًا وَتَطْرِيدًا حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ
 رَايَاتٌ سَوْدٌ فَيَسْأَلُونَ الْخَبَرَ فَلَا يُعْطَوْنَهُ فَيَقَاتِلُونَ وَيُنْصَرُونَ فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا فَلَا
 يَقْبَلُونَهُ حَتَّى يَذْفَعُوهَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلَأُهَا قِسْطًا كَمَا مَلَأُوهَا جَوْرًا
 فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَأْتِيَهُمْ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ » انْتَهَى .

وَهَذَا الْحَدِيثُ يُعْرَفُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ بِحَدِيثِ الرَّاياتِ . وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي

زِيَادُ رَاوِيهِ قَالَ فِيهِ شُعْبَةٌ : كَانَ رَفَاعاً يَغْنِي يَرْفَعُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي لَا تُعْرَفُ مَرْفُوعَةً . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضِيلِ : مِنْ كِبَارِ أَيْمَةِ الشَّيْعَةِ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : لَمْ يَكُنْ بِالْحَافِظِ وَقَالَ مَرَّةً : حَدِيثُهُ لَيْسَ بِذَلِكَ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ : ضَعِيفٌ . وَقَالَ الْعَجَلِيُّ : جَائِزُ الْحَدِيثِ ، وَكَانَ بِآخِرِهِ يَلْقَنُ . وَقَالَ أَبُو زَرْعَةَ : لَيْنٌ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ . وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ : لَيْسَ بِالْقَوِي . وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ : سَمِعْتُهُمْ يُضَعِّفُونَ حَدِيثَهُ . وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ : لَا أَعْلَمُ أَحَدًا تَرَكَ حَدِيثَهُ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ . وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ هُوَ مِنْ شَيْعَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَمَعَ ضَعْفِهِ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ . وَرَوَى لَهُ مُسْلِمٌ لَكِنْ مَقْرُونًا بِغَيْرِهِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَلَا كَثْرُونَ عَلَى ضَعْفِهِ . وَقَدْ صَرَّحَ الْأَيْمَةُ بِتَضْعِيفِ هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ حَدِيثُ الرَّايَاتِ . وَقَالَ وَكِيعٌ بْنُ الْجَرَّاحِ فِيهِ : لَيْسَ بِشَيْءٍ . وَكَذَلِكَ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ أَبُو قَدَامَةَ سَمِعْتُ أَبَا أَسَامَةَ يَقُولُ فِي حَدِيثِ يَزِيدَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي الرَّايَاتِ لَوْ خَلَفَ عِنْدِي خَمْسِينَ يَمِينًا أَسَامَةَ^(١) مَا صَدَّقْتُهُ أَهَذَا مَذْهَبُ إِبْرَاهِيمَ ؟ أَهَذَا مَذْهَبُ عَلْقَمَةَ ؟ أَهَذَا مَذْهَبُ عَبْدِ اللَّهِ ؟ وَأُورِدَ الْعَجَلِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ فِي الضُّعْفَاءِ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ لَيْسَ بِصَحِيحٍ . وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ يَاسِينَ الْعَجَلِيِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمَهْدِيُّ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ فِي لَيْلَةٍ » .

وَيَاسِينَ الْعَجَلِيُّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ ابْنُ مُعِينٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ فِيهِ نَظَرٌ . وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ مِنْ اضْطِلَاحِهِ قَوِيَّةٌ فِي التَّضْعِيفِ جِدًّا . وَأُورِدَ لَهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي الْكَامِلِ وَالذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِنْكَارِ لَهُ وَقَالَ هُوَ مَعْرُوفٌ بِهِ . وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : « أَمِنَا الْمَهْدِيُّ أَمْ مِنْ غَيْرِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ » فَقَالَ : « بَلْ مِنْ بَنِي يَحْتَمِ اللَّهُ كَمَا بَنِي فَتَحَ وَبَنِي يُسْتَنْقَدُونَ مِنَ الشَّرِّ وَبَنِي يُؤَلَّفُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ

(١) فِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ، قِسَامَةٌ .

عَدَاوَةٌ بَيِّنَةٌ كَمَا بَنَا أَلَفٌ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عَدَاوَةِ الشِّرْكِ . « قَالَ عَلِيٌّ : « أُمُومَنُونَ أَمْ كَافِرُونَ ؟ » قَالَ : « مَفْتُونَ وَكَافِرٌ » . انْتَهَى . وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُثَيْمَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ مَعْرُوفُ الْحَالِ . وَفِيهِ عُمَرُ بْنُ جَابِرٍ الْحَضْرَمِيُّ وَهُوَ أَوْعَفُّ مِنْهُ . قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : رَوَى عَنْ جَابِرٍ مَنَاكِيرُ وَبَلَّغَنِي أَنَّهُ كَانَ يَكْذِبُ وَقَالَ النَّسَائِيُّ : لَيْسَ بِثِقَةٍ وَقَالَ كَانَ ابْنُ لُثَيْمَةَ شَيْخًا أَحْمَقَ ضَعِيفَ الْعَقْلِ وَكَانَ يَقُولُ : « عَلِيٌّ فِي السُّحَابِ » وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَنَا فَيُنْصِرُ سَحَابَةً فَيَقُولُ : « هَذَا عَلِيٌّ قَدْ مَرَّ فِي السُّحَابِ » وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فِتْنَةٌ يَخْصُلُ النَّاسُ فِيهَا كَمَا يَخْصُلُ الذَّهَبُ فِي الْمَعْدِنِ فَلَا تَسْبُوا أَهْلَ الشَّامِ وَلَكِنْ سُبُوا أَشْرَارَهُمْ فَإِنْ فِيهِمْ الْإِبْدَالُ ^(١) يُوشِكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ صَيْبٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيُفَرِّقُ جَمَاعَتَهُمْ حَتَّى لَوْ قَاتَلْتَهُمُ الثَّعَالِبُ غَلَبَتْهُمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ خَارِجٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي ثَلَاثِ رَايَاتٍ الْمَكْثَرُ يَقُولُ بِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا وَالْمَقِلُّ يَقُولُ بِهِمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا وَأَمَارَتُهُمْ « أَمَتِ أَمَتِ » ^(٢) يُلْقُونَ سَنَعَ رَايَاتٍ تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ مِنْهَا رَجُلٌ يَطْلُبُ الْمَلِكَ فَيَقْتُلُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا وَيَرْدُّ اللَّهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ إِلْفَتَهُمْ وَنِعْمَتَهُمْ وَقَاصِيَتَهُمْ وَرَأَيْتُهُمْ ^(٣) » هـ .

وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُثَيْمَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ مَعْرُوفُ الْحَالِ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَقَالَ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ فِي رِوَايَتِهِ ثُمَّ يَظْهَرُ الْهَاشِمِيُّ فَيَرْدُّ اللَّهُ النَّاسَ إِلَى إِلْفَتِهِمْ الْخَ وَلَيْسَ فِي طَرِيقِهِ ابْنُ لُثَيْمَةَ وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ كَمَا ذَكَرَ . وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ قَالَ : « كُنَّا عِنْدَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْمُهْدِيِّ فَقَالَ لَهُ : هِيَ هَاتِ ثُمَّ عَقَدَ بِيَدِهِ سَبْعًا فَقَالَ ذَلِكَ يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ اللَّهُ اللَّهُ قَتَلَ وَيَجْمَعُ اللَّهُ لَهُ قَوْمًا قَرَعًا ^(٤) كَقَرَعِ السُّحَابِ يُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَلَا

(١) الأولياء .

(٢) هذه الكلمة كانت كلمة السر بين أفراد المسلمين في غزوة بدر .

(٣) في نسخة أخرى : « رايتهم » .

(٤) أي أفواجاً .

يَسْتَوْحِشُونَ إِلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْرَحُونَ بِأَحَدٍ دَخَلَ فِيهِمْ عِدَّتُهُمْ عَلَى عِدَّةِ أَهْلِ بَذْرَلَمْ
يَسْبِقُهُمُ الْأَوَّلُونَ وَلَا يَنْدُرُكُهُمُ الْآخِرُونَ وَعَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا
مَعَهُ النَّهْرَ . قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ قَالَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ : أَتْرِيدُهُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : فَإِنَّهُ
يُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ هَذَيْنِ الْأَخْشَيْنِ ^(١) قُلْتُ لَا جَرَمَ وَاللَّهِ وَلَا أَدْعُهَا حَتَّى أَمُوتَ «
وَمَاتَ بِهَا يَغْنِي مَكَّةَ قَالَ الْحَاكِمُ : « هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ » .
وَأَمَّا هُوَ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ فَقَطُّ فَإِنَّ فِيهِ عَمَارًا الذَّهَبِيَّ ^(٢) وَيُونُسَ بْنَ أَبِي إِسْحَاقَ
وَلَمْ يُخْرِجْ لَهُمَا الْبُخَارِيُّ وَفِيهِ عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَبْقَرِيُّ وَلَمْ يُخْرِجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ
اِخْتِجَاجًا بَلِ امْتِشَادًا مَعَ مَا يَنْصُمُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَشْيِيعِ عَمَارِ الذَّهَبِيِّ وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ
أَحْمَدُ وَابْنُ مَعِينٍ وَأَبُو حَاتِمٍ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ فَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ ^(٣) عَنْ
سَفْيَانَ أَنَّ بُشَيْرَ بْنَ مَرْوَانَ قَطَعَ عَرْقُوبِيْنَهُ قُلْتُ فِي أَيِّ شَيْءٍ ؟ قَالَ : فِي التَّشْيِيعِ .
وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي رِوَايَةِ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ
الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زِيَادِ الْيَمَامِيِّ عَنْ عِكْرَمَةَ بْنِ عَمَارٍ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « نَحْنُ وَلَدُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
سَادَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَا وَحَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَجَعْفَرُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالْمُهَدِي » . انْتَهَى .
وَعِكْرَمَةُ بْنُ عَمَارٍ وَإِنْ أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَإِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ مُتَابِعَةٌ . وَقَدْ ضَعَفَهُ
بَعْضُ وَوَثَّقَهُ آخَرُونَ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ : هُوَ مُدَلِّسٌ فَلَا يَقْبَلُ إِلَى أَنْ يُصَرِّحَ
بِالسَّمَاعِ عَلِيُّ بْنُ زِيَادٍ . قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ : لَا نَدْرِي مَنْ هُوَ ، ثُمَّ قَالَ
الصُّوَابُ فِيهِ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ وَسَعْدُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَإِنْ وَثَّقَهُ يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي
شَيْبَةَ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ الثُّورِيُّ قَالُوا لِأَنَّهُ رَأَاهُ
يُفْتِي فِي مَسَائِلَ وَيُخْطِئُ فِيهَا . وَقَالَ ابْنُ حَبَّانَ : كَانَ مِنْ فَحَشِ عَطَاؤِهِ فَلَا
يُخْتِجُ فِيهِ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : سَعِيدٌ ^(٤) بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ يَدَّعِي أَنَّهُ سَمِعَ عَرَضَ

(١) « الجبلان المطيفان بمكة وهما ، أبو قبيس والأحمر . وهو جبل مشرف وجهه على قيعقان » .

(٢) وفي نسخة أخرى « عماراً الذهني » .

(٣) وفي نسخة أخرى « علي بن المديني » .

(٤) وفي نسخة أخرى « سعد بن عبد الحميد » .

كُتِبَ مَالِكٍ وَالنَّاسُ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَهُوَ هَهُنَا يَبْغِذَادَ لَمْ يُحْتَجَّ (١) فَكَيْفَ سَمِعَهَا ؟ وَجَعَلَهُ الذَّهَبِيُّ مِمَّنْ لَمْ يَقْدَحْ فِيهِ كَلَامٌ مَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفاً عَلَيْهِ قَالَ مُجَاهِدٌ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ : لَوْ لَمْ أَسْمَعْ أَنَّكَ مِثْلُ أَهْلِ النَّبِيتِ مَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ فَقَالَ مُجَاهِدٌ : فَإِنَّهُ فِي سِتْرٍ لَا أَذْكُرُهُ لِمَنْ يَكْرَهُ قَالَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « مِنْ أَهْلِ النَّبِيتِ أَرْبَعَةٌ مِنَ السَّفَاحِ وَمِنَّا الْمُنْذِرُ وَمِنَّا الْمَنْصُورُ وَمِنَّا الْمَهْدِيُّ » قَالَ فَقَالَ مُجَاهِدٌ : بَيِّنْ لِي هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةَ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « أَمَّا السَّفَاحُ فَرُبَّمَا قَتَلَ أَنْصَارَهُ وَعَفَا عَنْ عَدُوِّهِ ، وَأَمَّا الْمُنْذِرُ أَرَاهُ قَالَ فَإِنَّهُ يُعْطِي الْمَالَ الْكَثِيرَ وَلَا يَتَعَاطَمُ فِي نَفْسِهِ وَيُمْسِكُ الْقَلِيلَ مِنْ حَقِّهِ وَأَمَّا الْمَنْصُورُ فَإِنَّهُ يُعْطَى النُّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِ الشُّطْرَ مِمَّا كَانَ يُعْطِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرَيْنِ وَالْمَنْصُورُ يَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ وَأَمَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَذْلًا كَمَا مَلَأَتْ جَوْرًا وَتَأْمَنُ النَّبَهَائِمُ السَّبَاعَ وَتَلْقَى الْأَرْضُ أَفْلَادَ كَيْدِهَا » . قَالَ : « قُلْتُ وَمَا أَفْلَادُ كَيْدِهَا ؟ » قَالَ : « أَمْثَالُ الْأَسْطَوَانَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ » . وَقَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ وَهُوَ مِنْ رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ عَنْ أَبِيهِ وَإِسْمَاعِيلُ ضَعِيفٌ وَإِبْرَاهِيمُ أَبُوهُ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى تَضْعِيفِهِ . وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَيْبَرِكُمْ (٢) ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَطْلُعُ الرِّيَاضُ السُّودُ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا لَمْ يَقْتُلْهُ قَوْمٌ » ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ قَالَ : « فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايَعُوهُ وَلَوْ خَبَوُا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ » . ١ هـ .

وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِينَ إِلَّا أَنَّ فِيهِ أَبَا قِلَابَةَ الْجَزْمِيِّ وَذَكَرَ الذَّهَبِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ مُدْلَسٌ وَفِيهِ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ وَهُوَ مَشْهُورٌ بِالتَّدْلِيسِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَنَنَ وَلَمْ يُصْرَخْ بِالسَّمَاعِ فَلَا يَقْبَلُ وَفِيهِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ هَمَامٍ وَكَانَ مَشْهُورًا بِالتَّشْيِيعِ وَعَمِي

(١) وفي نسخة أخرى « لم يحج » .

(٢) وفي نسخة أخرى « كنزكم » .

فِي آخِرِ وَقْتِهِ فَخَلَطَ قَالَ ابْنُ عَدِي : « حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ فِي الْفَضَائِلِ لَمْ يُوَافِقْهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ » وَنَسَبُوهُ إِلَى التَّشْيِيعِ . إِنْتَهَى . وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءِ الزِّيْدِيِّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ لَهْيَعَةَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ جَابِرِ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَخْرُجُ نَاسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ فَيُوطِنُونَ لِلْمَهْدِيِّ » . يَعْنِي سُلْطَانَهُ . قَالَ الطَّبْرَانِيُّ : تَقَرَّدَ بِهِ ابْنُ لَهْيَعَةَ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي حَدِيثٍ عَلَيَّ الَّذِي خَرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ أَنَّ ابْنَ لَهْيَعَةَ ضَعِيفٌ وَأَنَّ شَيْخَهُ عُمَرَ بْنَ جَابِرٍ أضعفُ مِنْهُ وَخَرَجَ الْبَزَّازُ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ وَاللَّفْظُ لِلطَّبْرَانِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصُرَ فَسَنَعَ وَإِلَّا فَمَثَانٌ وَإِلَّا فَتَسَنَعَ تَنَعَمَ فِيهَا أُمَّتِي نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا بِمِثْلِهَا تَرْسِلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَلَا تَدْخِرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنَ الثَّبَاتِ وَالْمَالُ كُدُوسٌ يَقُومُ الرَّجُلُ يَقُولُ يَا مَهْدِي اعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ » . قَالَ الطَّبْرَانِيُّ وَالْبَزَّازُ تَقَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ الْعَجَلِيُّ زَادَ الْبَزَّازُ ، وَلَا نَعْلَمُ أَنَّهُ تَابِعُهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ حَبَّانٍ أَيْضًا بِمَا ذَكَرَهُ فِي الثَّقَاتِ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ صَالِحٌ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ ، لَيْسَ عِنْدِي بِذَلِكَ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ حَنْبَلٍ ، رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ الْعَجَلِيَّ حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ وَأَنَا شَاهِدٌ لَمْ نَكْتُبْهَا تَرَكْتُهَا عَلَى عَمِدٍ وَكُتِبَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْهُ كَأَنَّهُ ضَعْفُهُ . وَخَرَجَهُ أَبُو يُعْلَى الْمُوصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ : « حَدَّثَنِي خَلِيلِي أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ قَالَ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَضْرِبُهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ قَالَ قُلْتُ ، وَكَمْ يَمْلِكُ ؟ قَالَ : خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ قُلْتُ وَمَا خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ لَا أَدْرِي » . وَهَذَا السَّنَدُ غَيْرُ مُخْتَجٍّ بِهِ وَإِنْ قَالَ فِيهِ بَشِيرُ بْنُ نَهْيَكٍ وَقَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ لَا يُخْتَجُّ بِهِ فَقَدْ اخْتَجَّ بِهِ الشَّيْخَانِ وَوَثَّقَهُ النَّاسُ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى قَوْلِ أَبِي حَاتِمٍ لَا يُخْتَجُّ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ رَجَاءٌ ^(١) ابْنُ أَبِي رَجَاءٍ الْيَشْكُرِيُّ وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ قَالَ

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : « إِلَّا أَن فِيهِ رَجَاءٌ » .

أَبُو زُرْعَةَ ثَقَّةٌ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ ، ضَعِيفٌ . وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ ، ضَعِيفٌ . وَقَالَ
 مَرَّةً ، صَالِحٌ . وَغُلِقَ لَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ حَدِيثًا وَاحِدًا . وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ
 فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ عَنْ قُرَّةَ بِنِ إِيَّاسَ قَالَ قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ : « لَتَمْلَأَنَّ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَإِذَا مَلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا بَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا
 مِنْ أُمَّتِي اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلِئَتْ جَوْرًا
 وَظُلْمًا فَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ مِنْ قَطْرِهَا شَيْئًا وَلَا تَذْخُرُ الْأَرْضُ مِنْ نَبَاتِهَا يَلْبِثُ فِيكُمْ
 سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا أَوْ تِسْعًا » . يَعْنِي سِنِينَ . ١ هـ . وَفِيهِ دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبِّ بْنِ
 الْمُحَرَّمِ ^(١) عَنْ أَبِيهِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ جِدًّا . وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنِ
 ابْنِ عُمَرَ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
 وَعَلَيْ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ يَسَارِهِ وَالْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ إِذْ تَلَاخَى الْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ
 الْأَنْصَارِ فَأَغْلَظَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِ الْعَبَّاسِ وَبِيَدِ عَلِيٍّ »
 وَقَالَ : « سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبٍ هَذَا فَتَيِّ يَمْلَأُ الْأَرْضَ جَوْرًا وَظُلْمًا وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبٍ
 هَذَا فَتَيِّ يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِالْفَتَى التِّمِيمِيِّ فَإِنَّهُ
 يُقْبَلُ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ وَهُوَ صَاحِبُ رَايَةِ الْمَهْدِيِّ » . انْتَهَى . وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
 عُمَرَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُهِيعَةَ وَهُمَا ضَعِيفَانِ . ١ هـ .

وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ
 النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « سَتَكُونُ فِتْنَةٌ لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرَ جَانِبٌ حَتَّى
 يُنَادِيَ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ أَمِيرَكُمْ فَلَانٌ . ١ هـ . وَفِيهِ الْمُثَنَّى بْنُ الصَّبَّاحِ وَهُوَ
 ضَعِيفٌ جِدًّا . وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ تَضْرِيحٌ يَذْكُرُ الْمَهْدِيَّ وَإِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي أَنْبَاءِهِ
 وَتَرْجَمَتِهِ اسْتِثْنَاءً . فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي خَرَجَهَا الْأَيْمَةُ فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ
 وَخُرُوجِهِ آخِرَ الزَّمَانِ . وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ لَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا مِنَ النَّقْدِ إِلَّا الْقَلِيلُ وَالْأَقْلُ
 مِنْهُ . وَرُبَّمَا تَمَسَّكَ الْمُتَكَبِّرُونَ لِشَأْنِهِ بِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ الْجَنْدِيُّ عَنْ
 أَبَانِ بْنِ صَالِحٍ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ

(١) وفي نسخة أخرى ، داود بن الجبير بن قحطم .

النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَا مَهْدِي إِلَّا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ » وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ فِي مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدِ الْجَنْدِيِّ : إِنَّهُ ثَقَّةٌ . وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ : تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ . وَقَالَ الْحَاكِمُ فِيهِ : إِنَّهُ رَجُلٌ مَجْهُولٌ وَاخْتَلَفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ فَمَرَّةٌ يَرْوُونَهُ ^(١) كَمَا تَقَدَّمَ وَيُنْسَبُ ذَلِكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَمَرَّةٌ يَرْوُونَهُ ^(٢) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبَانَ عَنِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلًا . قَالَ الْبَيْهَقِيُّ : فَرَجَعَ إِلَى رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ مَجْهُولٌ عَنْ أَبَانَ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ وَهُوَ مَتْرُوكٌ عَنْ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ مُضْطَرِبٌ . وَقَدْ قِيلَ « أَنْ لَا مَهْدِي إِلَّا عِيسَى » أَيْ لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عِيسَى يُحَاوِلُونَ بِهَذَا التَّأْوِيلِ رَدَّ الْإِخْتِجَاجِ بِهِ أَوْ الْجَمْعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ مَذْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيحٍ وَمِثْلِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَلَمْ يَكُنِ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَخُوضُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَلَئِنْ كَانَ كَلَامُهُمْ فِي الْمُجَاهَدَةِ بِالْأَعْمَالِ وَمَا يَحْصُلُ عَنْهَا مِنْ نَتَائِجِ الْمَوَاجِدِ وَالْأَحْوَالِ وَكَانَ كَلَامُ الْإِمَامِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ مِنَ الشَّيْعَةِ فِي تَفْصِيلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ وَأَدْعَاءِ الْوَصِيَّةِ لَهُ بِذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالتَّبَرُّءِ مِنَ الشَّيْخَيْنِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي مَذَاهِبِهِمْ ثُمَّ حَدَّثَ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَوْلُ بِالْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَكَثُرَتِ التَّالِيفُ فِي مَذَاهِبِهِمْ . وَجَاءَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنْهُمْ يَدْعُونَ الْوَهْيَةَ الْإِمَامَ بِنَوْعٍ مِنَ الْحُلُولِ وَآخَرُونَ يَدْعُونَ رَجْعَةً مِنْ مَاتَ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِنَوْعِ التَّنَاسُخِ ، وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ مَجِيءَ مَنْ يَفْطَعُ بِمَوْتِهِ مِنْهُمْ وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ عَوْدَ الْأَمْرِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ مُسْتَدْلِينَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَاهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي الْمَهْدِيِّ وَغَيْرِهَا . ثُمَّ حَدَّثَ أَيْضًا عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الْكَلَامُ فِي الْكُشْفِ وَفِيمَا وَرَاءَ الْحِسِّ وَظَهَرَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْقَوْلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ فَشَارَكُوا فِيهَا الْإِمَامِيَّةَ وَالرَّافِضَةَ لِقَوْلِهِمْ بِالْوَهْيَةِ الْأَئِمَّةِ وَحُلُولِ الْإِلَهِ فِيهِمْ .

وظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضًا الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَالْإِبْدَالِ وَكَأَنَّهُ يُحَاكِي مَذْهَبَ الرَّافِضَةِ فِي

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : يَرَوِي .

الإمام والتُّقْبَاء . وَأَشْرَبُوا أَقْوَالَ الشَّيْعَةِ وَتَوَعَّلُوا فِي الدِّيَانَةِ بِمَذَاهِبِهِمْ ، حَتَّى جَعَلُوا مُسْتَنَدَ طَرِيقِهِمْ فِي لُبْسِ الْخُرْقَةِ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَلْبَسَهَا الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ بِالتَّزَامِ الطَّرِيقَةِ . وَاتَّصَلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِالْجُنَيْدِ مِنْ شُيُوخِهِمْ . وَلَا يُعْلَمُ هَذَا عَنْ عَلِيٍّ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ . وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ خَاصَّةً بِعَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ بَلِ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ أَسْوَةٌ فِي طَرِيقِ الْهُدَى وَفِي تَخْصِيصِ هَذَا بِعَلِيٍّ دُونَهُمْ رَاحَةً مِنْ التَّشْيِيعِ قَوِيَّةٍ يُفْهَمُ مِنْهَا وَمِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْقَوْمِ دَخَلُهَا ^(١) فِي التَّشْيِيعِ وَانْخِرَاطِهِمْ فِي سَبِيلِهِ . وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضاً الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَامْتَلَأَتْ كُتُبُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ مِنَ الرَّافِضَةِ وَكُتُبُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الْفَاطِمِيِّ الْمُتَنْظَرِ وَكَانَ بَعْضُهُمْ يُمْلِيهِ عَلَى بَعْضٍ وَيَلْقَنُهُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَكَانَهُ مَبْنِيٍّ عَلَى أَصُولٍ وَاهِيَةٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَرُبَّمَا يَسْتَدِلُّ بَعْضُهُمْ بِكَلَامِ الْمُنْجِمِينَ فِي الْفَرَائِضِ وَهُوَ مِنْ نَوْعِ الْكَلَامِ فِي الْمَلَا حِمٍ وَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي الْبَابِ الَّذِي يَلِي هَذَا . وَكَثُرَ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي شَأْنِ الْفَاطِمِيِّ ، ابْنُ الْعَرَبِيِّ ، الْحَاثِمِيُّ فِي كِتَابِ (عَقَاء مُغْرِب) وَابْنُ قَسِيٍّ فِي كِتَابِ (خَلْعِ النَّعْلَيْنِ) وَعَبْدُ الْحَقِّ بْنُ سَعِيدٍ وَابْنُ أَبِي وَاصِلٍ ^(٢) تَلْمِيزُهُ فِي شَرْحِهِ لِكِتَابِ (خَلْعِ النَّعْلَيْنِ) . وَكَثُرَ كَلِمَاتِهِمْ فِي شَأْنِهِ الْغَارِ وَأَمْثَالُ وَرُبَّمَا يُصْرِّحُونَ فِي الْأَقْلَ أَوْ يُصْرِّحُ مَفْسُورَ كَلَامِهِمْ . وَخَاصِلُ مَذْهَبِهِمْ فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ أَنَّ النُّبُوَّةَ بِهَا ظَهَرَ الْحَقُّ وَالْهُدَى بَعْدَ الضَّلَالِ وَالْعَمَى وَأَنَّهَا تَعْقُبُهَا الْخِلَافَةُ ثُمَّ يَنْقُبُ الْخِلَافَةُ الْمُلْكَ ثُمَّ يَعُودُ تَجْبُرُ وَتَكْبُرُ وَبَاطِلًا . قَالُوا ، وَلَمَّا كَانَ فِي الْمَعْهُودِ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ رُجُوعُ الْأُمُورِ إِلَى مَا كَانَتْ وَجَبَ أَنْ يَخْبَأَ أَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْحَقُّ بِالْوِلَايَةِ ثُمَّ يَخْلَافَتَهَا ثُمَّ يَنْقُبُهَا الدُّجْلُ مَكَانَ الْمُلْكِ وَالتَّسْلُطِ ثُمَّ يَعُودُ الْكُفْرُ بِحَالِهِ . يُشِيرُونَ بِهَذَا لِمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ بَعْدَهَا وَالْمُلْكَ بَعْدَ الْخِلَافَةِ . هَذِهِ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ . وَكَذَلِكَ الْوِلَايَةُ الَّتِي هِيَ لِهَذَا الْفَاطِمِيِّ وَالدُّجْلُ بَعْدَهَا كِنَايَةٌ عَنْ خُرُوجِ الدُّجَالِ عَلَى أَثَرِهِ وَالْكُفْرُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ . فَهِيَ ثَلَاثُ

(١) وفي نسخة أخرى ، يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم .

(٢) وفي نسخة أخرى ، ابن أبي واطيل .

مَرَاتِبَ عَلَى نِسْبَةِ الثَّلَاثِ الْمَرَاتِبِ الْأُولَى . قَالُوا ، وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ لِقُرَيْشٍ حُكْمًا شَرْعِيًّا بِالإِجْمَاعِ الَّذِي لَا يُوْهِنُهُ إِنْكَارُ مَنْ يُزَاوِلُ عِلْمَهُ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ الإِمَامَةُ فِيمَنْ هُوَ أَحْصُ مِنْ قُرَيْشٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، إِمَّا ظَاهِرًا كَبْنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَإِمَّا بَاطِنًا مِمَّنْ كَانَ مِنْ حَقِيقَةِ الْآلِ ، وَالْآلُ مَنْ إِذَا حَضَرَ لَمْ يُلْقَبْ ^(١) مَنْ هُوَ آلُهُ .

وَابْنُ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيُّ سَمَاهُ فِي كِتَابِهِ « غَنْقَاءُ مُغْرِبٍ » مِنْ تَأْلِيْفِهِ ، خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ وَكُنِيَ عَنْهُ بِلُبْنَةِ الْفِضَّةِ إِشَارَةً إِلَى حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ فِي بَابِ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ قَالَ ﷺ : « مَثَلِي فِيمَنْ قَبْلِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بَيْتًا وَأَكْمَلَهُ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعُ لُبْنَةٍ فَأَنَا بِلُبنَةِ الْفِضَّةِ » فَيُفْسَرُونَ خَاتِمَ النَّبِيِّينَ بِالْبُنَّةِ حَتَّى أَكْمَلْتُ الْبُنْيَانَ وَمَعْنَاهُ النَّبِيُّ الَّذِي حَصَلَتْ لَهُ النُّبُوَّةُ الْكَامِلَةُ . وَيُمَثِّلُونَ الْوِلَايَةَ فِي تَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا بِالنُّبُوَّةِ وَيَجْعَلُونَ صَاحِبَ الْكَمَالِ فِيهَا خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ أَيْ حَائِزَ الرُّتْبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ الْوِلَايَةِ كَمَا كَانَ خَاتِمَ الْأَنْبِيَاءِ حَائِزًا لِلْمَرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ النُّبُوَّةِ . فَكُنِيَ الشَّارِحُ ^(٢) عَنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الْخَاتِمَةِ بِلُبْنَةِ الْبَيْتِ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ .

وَهُمَا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِيهِمَا . فَهِيَ لُبْنَةٌ وَاحِدَةٌ فِي التَّمْثِيلِ . فَفِي النُّبُوَّةِ لُبْنَةٌ ذَهَبٌ وَفِي الْوِلَايَةِ لُبْنَةٌ فِضَّةٌ لِلتَّفَاوُتِ بَيْنَ الرُّتَبَتَيْنِ كَمَا بَيَّنَّ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ . فَيَجْعَلُونَ لُبْنَةَ الذَّهَبِ كِنَايَةً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلُبْنَةَ الْفِضَّةِ كِنَايَةً عَنْ هَذَا الْوَلِيِّ الْفَاطِمِيِّ الْمُنتَظَرِ وَذَلِكَ خَاتِمَ الْأَنْبِيَاءِ وَهَذَا خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ . وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِيمَا نَقَلَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ عَنْهُ وَهَذَا الإِمَامُ الْمُنتَظَرُ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ وَظُهُورُهُ يَكُونُ مِنْ بَعْدِ مُضِيِّ (خ ف ج) مِنَ الْهَجْرَةِ وَرَسَمَ حُرُوفًا ثَلَاثَةً يُرِيدُ عَدْدَهَا بِحِسَابِ الْجُمْلِ وَهُوَ الْخَاءُ الْمُعْجَمَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ فَوْقِ سِتِّمَائَةٍ وَالْفَاءُ أُخْتُ الْقَافِ بِشَمَانَيْنِ وَالْجِيمُ الْمُعْجَمَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ أَسْفَلِ ثَلَاثَةٍ وَذَلِكَ سِتِّمَائَةٌ وَثَلَاثُ وَثَمَانُونَ سَنَةً وَهِيَ آخِرُ الْقَرْنِ السَّابِعِ وَلَمَّا انْصَرَمَ هَذَا الْعَصْرُ وَلَمْ يَظْهَرْ حَمَلُ ذَلِكَ

(١) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ، لَمْ يَغِبْ .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ، الشَّارِعُ .

بَعْضُ الْمُقْلِدِينَ لَهُمْ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْمُدَّةِ مَوْلَدُهُ وَعَبَّرَ بِظُهُورِهِ عَنْ مَوْلَدِهِ وَأَنَّ خُرُوجَهُ يَكُونُ بَعْدَ الْعَشْرِ السَّبْعِمِائَةِ فَإِنَّهُ الْإِمَامُ النَّاجِمُ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ . قَالَ : « وَإِذَا كَانَ مَوْلَدُهُ كَمَا زَعَمَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ فَيَكُونُ عُمْرُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ سِتًّا وَعَشْرِينَ سَنَةً » قَالَ وَزَعَمُوا أَنَّ خُرُوجَ الدَّجَالِ يَكُونُ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مِنَ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ وَابْتِدَاءُ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ عِنْدَهُمْ مِنْ يَوْمِ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى تَمَامِ أَلْفِ سَنَةٍ » قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ فِي شَرْحِهِ كِتَابَ (خَلْعِ النُّعْلَيْنِ) الْوَلِيُّ الْمُنْتَظَرُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِمُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ وَخَاتِمِ الْأَوْلِيَاءِ وَلَيْسَ هُوَ بِنَبِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ وَلِيُّ ابْتِغَاةِ رُوحِهِ وَحَبِيبُهُ . قَالَ ﷺ : « الْعَالَمُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ » . وَقَالَ : « عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَزَلِ الْبُشْرَى تَتَابِعُ بِهِ مِنْ أَوَّلِ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ إِلَى قُبُلِ الْخُمْسِمِائَةِ نِصْفِ الْيَوْمِ وَتَأْكُذُّ وَتَضَاعَفَتْ بِتَبَاشِيرِ الْمَشَايِخِ بِتَقْرِيبِ وَقْتِهِ وَازْدِلَافِ زَمَانِهِ مُنْذُ انْقَضَتْ إِلَى هَلُمِّ جَرًّا » قَالَ وَذَكَرَ الْكِنْدِيُّ : « أَنَّ هَذَا الْوَلِيَّ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي بِالنَّاسِ صَلَاةَ الظُّهْرِ وَيَجِدُّدُ الْإِسْلَامَ وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ وَيَفْتَحُ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ وَيَصِلُ إِلَى رُومِيَةٍ فَيَفْتَحُهَا وَيَسِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَيَفْتَحُهَا وَيَفْتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَيَصِيرُ لَهُ مُلْكُ الْأَرْضِ فَيَتَّقَوِي الْمُسْلِمُونَ وَيَعْلُو الْإِسْلَامُ وَيُظْهِرُ دِينَ الْخَنِيفَةِ فَإِنَّ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ وَقْتُ صَلَاةٍ » قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « مَا بَيْنَ هَذَيْنِ وَقْتُ » وَقَالَ الْكِنْدِيُّ أَيْضًا : « الْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ غَيْرُ الْمُعْجَمَةِ يَعْنِي الْمَفْتَتَحَ بِهَا سُورَةُ الْقُرْآنِ جُمْلَةً عَدَدُهَا سَبْعِمِائَةٍ وَثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ وَسَبْعٌ دَجَالِيَّةٌ ^(١) ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَيُصْلِحُ الدُّنْيَا وَتَمُشِي الشَّاةُ مَعَ الذَّنْبِ ثُمَّ مَبْلَغُ ^(٢) مُلْكِ الْعَجَمِ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ مَعَ عِيسَى مِائَةٌ وَسِتُّونَ عَامًا عَدَدَ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ وَهِيَ (ق ي ن) دَوْلَةُ الْعَدْلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ عَامًا قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ وَمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ لَا مَهْدِي إِلَّا عِيسَى فَمَعْنَاهُ لَا مَهْدِي تُسَاوِي هَذَايْتَهُ وَلَا يَتَهُ وَقِيلَ لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عِيسَى وَهَذَا

(١) نسبة إلى دجال .

(٢) وفي نسخة أخرى : ثم يبقى .

مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيحٍ وَغَيْرِهِ . وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً يَغْنِي قَرَشِيًّا » .

وَقَدْ أُعْطِيَ الْوُجُودُ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَمِنْهُمْ مَنْ سَيَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَقَالَ : « الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ أَوْ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ أَوْ سِتُّ وَثَلَاثُونَ وَانْقِضَاؤُهَا فِي خِلَافَةِ الْحَسَنِ وَأَوَّلِ أَمْرِ مُعَاوِيَةَ فَيَكُونُ أَوَّلُ أَمْرِ مُعَاوِيَةَ خِلَافَةً أَخْذًا بِأَوَائِلِ الْأَسْمَاءِ فَهُوَ سَادِسُ الْخُلَفَاءِ وَأَمَّا سَابِعُ الْخُلَفَاءِ فَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ . وَالْبَاقُونَ خَمْسَةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ ذُرِّيَةِ عَلِيٍّ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ : « إِنَّكَ لَنَدْوِ قَرْنَيْهَا » يُرِيدُ الْأُمَّةَ أَيْ إِنَّكَ لَخَلِيفَةٌ فِي أَوَّلِهَا وَذُرِّيَّتِكَ فِي آخِرِهَا . وَرُبَّمَا اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْقَائِلُونَ بِالرَّجْعَةِ . فَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ عَنْدهُمْ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا . وَقَدْ قَالَ ﷺ إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرُ بَعْدَهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَنْفَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كُنُوزَ كِسْرَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِي يُهْلِكُ قَيْصَرَ وَيَنْفَقُ كُنُوزُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ هَذَا الْمُنتَظَرُ حِينَ يَفْتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ : فَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ .

كَذَا قَالَ ﷺ : « وَمُدَّةُ حُكْمِهِ بِضْعٌ » وَالْبُضْعُ مِنْ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ وَقِيلَ إِلَى عَشْرٍ وَجَاءَ ذِكْرُ أَرْبَعِينَ وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ سَبْعِينَ . وَأَمَّا الْأَرْبَعُونَ فَإِنَّهَا مُدَّتُهُ وَمُدَّةُ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ الْبَاقِينَ مِنْ أَهْلِهِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى جَمِيعِهِمُ السَّلَامُ قَالَ وَذَكَرَ أَصْحَابُ النُّجُومِ وَالْقِرَانَاتِ أَنَّ مُدَّةَ بَقَاءِ أَمْرِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ عَامًا فَيَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا جَارِيًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَالْعَدْلِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ ثُمَّ تَخْتَلِفُ الْأَحْوَالُ فَتَكُونُ مُلْكًا « انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ أَبِي وَاصِلٍ . وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : « تَزُولُ عِيسَى يَكُونُ فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ مِنَ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ حِينَ تَمْضِي ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِهِ » قَالَ وَذَكَرَ الْكِنْدِيُّ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ الْجَفْرِ الَّذِي

ذَكَرَ فِيهِ الْقِرَانَاتِ : « أَنَّهُ إِذَا وَصَلَ الْقُرْآنُ إِلَى الثُّورِ عَلَى رَأْسِ ضَحٍّ بِحَرْفَيْنِ الضَّادِ ^(١) الْمُعْجَمَةِ وَالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ » يُرِيدُ ثَمَانِيَةَ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةَ مِنَ الْهَجَرَةِ يَنْزِلُ الْمَسِيحُ فَيَحْكُمُ فِي الْأَرْضِ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَازَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ يَنْزِلُ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ يَغْنِي حُلَّتَيْنِ مُزْعَفَرَتَيْنِ صَفْرَاوَيْنِ مُمَصَّرَتَيْنِ وَأَضِعَا كَفْنِيهِ عَلَى أَجْنَحَةِ الْمَلَائِكِينَ لَهُ لِمَّةٌ كَأَنَّهَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرٌ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّوْلُؤِ كَثِيرٌ خَيْلَانِ الْوَجْهِ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ مَرْبُوعِ الْخَلْقِ وَإِلَى الْبَيَاضِ وَالْحُمْرَةِ . وَفِي آخَرَ : أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ فِي الْغَرْبِ . وَالْغَرْبُ دَلُّو الْبَادِيَةِ يُرِيدُ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ مِنْهَا وَتِلْدُ زَوْجَتَهُ . وَذَكَرَ وَفَاتَهُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ عَامًا . وَجَاءَ أَنَّ عِيسَى يَمُوتُ بِالْمَدِينَةِ وَيُدْفَنُ إِلَى جَانِبِ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ . وَجَاءَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ يُخْشَرَانِ بَيْنَ نَبِيْنِ قَالَ ابْنُ أَبِي وَاطِلٍ : « وَالشَّيْعَةُ تَقُولُ إِنَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ مَسِيحُ الْمَسَائِيحِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ قُلْتُ وَعَلَيْهِ حَمَلٌ بَعْضُ الْمُتَصَوِّفَةِ حَدِيثَ لَا مَهْدِي إِلَّا عِيسَى أَيْ لَا يَكُونُ مَهْدِي إِلَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي نَسَبَتْهُ إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ نَسَبَةً عِيسَى إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُؤَسَّسِيَّةِ فِي الْإِتْبَاعِ وَعَدَمِ النَّسْخِ إِلَى كَلَامٍ مِنْ أَمْثَالِ هَذَا يُعَيِّنُونَ فِيهِ الْوَقْتَ وَالرَّجُلَ وَالْمَكَانَ بِأَدْلَةٍ وَاهِيَةٍ وَتَحْكُمَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فَيَنْقَضِي الزَّمَانُ وَلَا أَثَرَ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَيَرْجِعُونَ إِلَى تَجْدِيدِ رَأْيٍ آخَرَ مُنْتَحِلٍ كَمَا تَرَاهُ مِنْ مَفْهُومَاتٍ لَفْظِيَّةٍ وَأَشْيَاءَ تَخْيِيلِيَّةٍ وَأَحْكَامَ نَجُومِيَّةٍ فِي هَذَا انْقَضَتْ أَغْمَارُ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَالْآخِرِ .

وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ الَّذِينَ عَاصَرْنَا هُمْ فَأَكْثَرُهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى ظُهُورِ رَجُلٍ مُجَدِّدٍ لِأَحْكَامِ الْمِلَّةِ وَمَرَاسِمِ الْحَقِّ وَيَتَخَيَّنُونَ ظُهُورَهُ لِمَا قَرُبَ مِنْ عَصْرِنَا فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ وَبَعْضُهُمْ يُطْلِقُ الْقَوْلَ فِيهِ سَمِعْنَاهُ مِنْ جَمَاعَةٍ أَكْثَرُهُمْ أَبُو يَعْقُوبَ الْبَادِيسِيُّ كَبِيرُ الْأَوْلِيَاءِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَأَخْبَرَنِي عَنْهُ خَافِدُهُ صَاحِبُنَا أَبُو يَعْنَى زَكَرِيَاءُ عَنْ أَبِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدَ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ الْوَلِيِّ أَبِي

(١) الضاد عند المغاربة بتسعين والصاد بستين ١٠ هـ . قاله نصر .

يَغُفُّوبُ الْمَذْكُورَ هَذَا آخِرُ مَا أَطْلَعْنَا عَلَيْهِ أَوْ بَلَّغْنَا مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَمَا أَوْزَدَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ مِنْ أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ قَدْ اسْتَوْفَيْنَا جَمِيعَهُ بِمَبْلَغِ طَاقَتِنَا وَالْحَقُّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَقَرَّرَ لَدَيْكَ أَنَّهُ لَا تَتِمُّ دَعْوَةُ مِنَ الدِّينِ وَالْمُلْكِ إِلَّا بِوُجُودِ شَوْكَةِ عَصِيَّةٍ تُظْهِرُهُ وَتُدْفَعُ عَنْهُ مِنْ يَدْفَعُهُ حَتَّى يَتِمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِيهِ . وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ الَّتِي أَرَيْنَاكَ هُنَاكَ وَعَصِيَّةِ الْفَاطِمِيِّينَ بَلْ وَقَرِيشِ أَجْمَعَ قَدْ تَلَّشْتَ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاقِ وَوَجَدَ أَمَمَ آخَرُونَ قَدْ اسْتَعْلَتْ عَصِيَّتُهُمْ عَلَى عَصِيَّةِ قَرِيشٍ إِلَّا مَا بَقِيَ بِالْحِجَازِ فِي مَكَّةَ وَيَنْبَغُ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الطَّالِبِينَ مِنْ بَنِي حَسَنِ وَبَنِي حُسَيْنٍ وَبَنِي جَعْفَرٍ وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَغَالِبُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَصَائِبُ بَدْوِيَّةٍ مُتَفَرِّقُونَ فِي مَوَاطِنِهِمْ وَإِمَارَاتِهِمْ يَنْلُفُونَ آفَاقًا مِنَ الْكَثْرَةِ فَإِنْ صَحَّ ظُهُورُ هَذَا الْمَهْدِيِّ فَلَا وَجْهَ لظُهُورِ دَعْوَتِهِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ وَيُولَّفُ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِ حَتَّى تَتِمَّ لَهُ شَوْكَةُ وَعَصِيَّةٌ وَافِيَةٌ بِإِظْهَارِ كَلِمَتِهِ وَحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ مِثْلُ أَنْ يَدْعُو فَاطِمِيٌّ مِنْهُمْ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ فِي أَفْقٍ مِنَ الْآفَاقِ مِنْ غَيْرِ عَصِيَّةٍ وَلَا شَوْكَةٍ إِلَّا مُجَرَّدَ نِسْبَةٍ فِي أَهْلِ النَّبِيِّ فَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ وَلَا يُمَكِّنُ لِمَا أَسْلَفْنَاهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ . وَأَمَّا مَا تَدْعِيهِ الْعَامَّةُ وَالْأَغْمَارُ مِنَ الدُّهْمَاءِ مِمَّنْ لَا يَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى عَقْلِ يَهْدِيهِ وَلَا عِلْمٍ يُفِيدُهُ فَيُحْيِيُونَ ^(١) ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَفِي غَيْرِ مَكَانٍ ، تَقْلِيدًا لِمَا اشْتَهَرَ مِنْ ظُهُورِ فَاطِمِيٍّ وَلَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ كَمَا بَيَّنَّاهُ وَأَكْثَرَ مَا يُحْيِيُونَ ^(٢) فِي ذَلِكَ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْمَمَالِكِ وَأَطْرَافِ الْعُمُرَانِ مِثْلِ الزَّابِ بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالسُّوسِ مِنَ الْمَغْرِبِ . وَنَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْ ضَعْفَاءِ الْبَصَائِرِ يَقْصِدُونَ رِبَاطًا بِمَاسَةٍ لِمَا كَانَ ذَلِكَ الرِّبَاطُ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْمُتَلَمِّينَ مِنْ كَذَالَةٍ وَاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ أَوْ قَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ زَعْمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ إِلَّا غَرَابَةُ تِلْكَ الْأَمَمِ وَبُعْدُهُمْ عَنْ يَقِينِ الْمَعْرِفَةِ بِأَحْوَالِهَا مِنْ كَثْرَةِ أَوْ قِلَّةِ أَوْ ضَعْفِ أَوْ قُوَّةِ وَلِبُعْدِ الْقَاصِيَةِ عَنْ مَنَالِ الدَّوْلَةِ وَخُرُوجِهَا عَنْ نِطَاقِهَا فَتَقْوَى عِنْدَهُمُ الْأَوْهَامُ فِي ظُهُورِهِ هُنَاكَ بِخُرُوجِهِ عَنْ رِبْقَةِ

(١) وفي نسخة أخرى : ولا علم يقيده . فيتحينون .

(٢) وفي نسخة أخرى : يتحينون .

الدَّوْلَةُ وَمَنَالِ الْأَحْكَامِ وَالْقَهْرِ وَلَا مَحْصُولَ لَدَيْهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا هَذَا . وَقَدْ يَقْصُدُ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ كَثِيرٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ لِلتَّلْبِيسِ بِدَعْوَةِ يَمِيَّةٍ^(١) تَمَامَهَا وَسَوَاسُا وَحُمَقًا ، وَقَتْلَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ . اخْبَرَنِي شَيْخُنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْلِيُّ قَالَ خَرَجَ بِرِبَاطٍ مَاسَةٍ لِأَوَّلِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَعَصَرَ السُّلْطَانِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ رَجُلٌ مِنْ مُنْتَحِلِي التَّصَوُّفِ يُعْرَفُ بِالتَّوَيْزَرِيِّ نِسْبَةً إِلَى تُوَزَّرَ مُصْغَرًا وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ وَاتَّبَعَهُ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ السُّوسِ مِنْ ضَالَّةٍ وَكَزُولَةٍ وَعَظُمَ أَمْرُهُ وَخَافَهُ رُؤَسَاءُ الْمَصَامِدَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ فَدَسَّ عَلَيْهِ السُّكْسُوِيُّ مَنْ قَتَلَهُ بَيَاتًا وَأَنْحَلَ أَمْرُهُ . وَكَذَلِكَ ظَهَرَ فِي غَمَارَةِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَعَشْرِ التَّسْعِينَ مِنْهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ وَاتَّبَعَهُ الذُّهْمَاءُ مِنْ غَمَارَةِ وَدَخَلَ مَدِينَةَ فَاسَ غَنَوَةً وَحَرَقَ أَسْوَاقَهَا وَارْتَحَلَ إِلَى بَلَدِ الْمَرْمَةِ فَقَتَلَ بِهَا غِيلَةً وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا النَّمَطِ . وَاخْبَرَنِي شَيْخُنَا الْمَذْكُورُ بِغَرِيبَةٍ فِي مِثْلِ هَذَا وَهُوَ أَنَّهُ صَحَبَ فِي حُجَّةٍ فِي رِبَاطِ الْعِبَادِ وَهُوَ مَذْفُونُ الشَّيْخِ أَبِي مَذِينٍ فِي جَبَلٍ تَلُمَسَانَ الْمِطْلَ عَلَيْهَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ سُكَّانِ كَرْبَلَاءَ كَانَ مَتَّبِعًا كَثِيرَ التَّلْمِيذِ وَالْخَادِمِ . قَالَ وَكَانَ الرِّجَالُ مِنْ مَوْطِنِهِ يَتَلَقَّوْنَهُ بِالنَّفَقَاتِ فِي أَكْثَرِ الْبُلْدَانِ . قَالَ وَتَأَكَّدَتِ الصُّحْبَةُ بَيْنَنَا فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ فَانْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ وَأَنْتَهُمْ إِنَّمَا جَاءُوا مِنْ مَوْطِنِهِمْ بِكَرْبَلَاءَ لِطَلَبِ هَذَا الْأَمْرِ وَانْتَحَالَ دَعْوَةُ الْفَاطِمِيِّ بِالْمَغْرِبِ . فَلَمَّا عَايَنَ دَوْلَةَ بَنِي مُرَيْنَ وَيُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مُنَازِلَ تَلُمَسَانَ قَالَ لِأَصْحَابِيهِ : ارْجِعُوا فَقَدْ أَرَزَى بِنَا الْغُلَطُ وَلَيْسَ هَذَا الْوَقْتُ وَقَتْنَا . وَيَدُلُّ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ الْمُكَافِئَةِ لِأَهْلِ الْوَقْتِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فِي ذَلِكَ الْوَطَنِ وَلَا شَوْكَةَ لَهُ وَأَنَّ عَصِيَّةَ بَنِي مُرَيْنَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ لَا يَقَاوِمُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ اسْتَكَانَ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ وَأَقْصَرَ عَنْ مَطَامِعِهِ . وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ أَنَّ عَصِيَّةَ الْفَوَاطِمِ وَقَرِيشٍ أَجْمَعٍ قَدْ ذَهَبَتْ لَا سِيَّمَا فِي الْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ التَّعَصُّبَ لِشَأْنِهِ لَمْ

(١) كذا في جميع النسخ وهو تحريف ولا معنى لكلمة يمية . ومقتضى السياق أن تكون العبارة :

« بدعوة يكون تمامها وسواساً وحققاً » وفي نسخة لجنة البيان العربي « بدعوة تمنيه النفس تمامها » .

يَتْرُكُهُ لِهَذَا الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَقَدْ كَانَتْ بِالْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْعُصُورِ الْقُرْبِيَّةِ نَزْعَةٌ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى الْحَقِّ وَالْقِيَامِ بِالسُّنَّةِ لَا يَنْتَحِلُونَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَنْزِعُ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ الْوَاحِدِ فَالْوَاحِدِ إِلَى إِقَامَةِ السُّنَّةِ وَتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَيَعْتَنِي بِذَلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ . وَأَكْثَرُ مَا يُغْنُونَ بِإِصْلَاحِ السَّابِلَةِ لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ فَسَادِ الْأَغْرَابِ فِيهَا لِمَا قَدْ مَنَاهُ مِنْ طَبِيعَةِ مَعَاشِهِمْ فَيَأْخُذُونَ فِي تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِمَا اسْتَطَاعُوا إِلَّا أَنَّ الصَّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ فِيهِمْ لَمْ تَسْتَخْكِمِ لِمَا أَنَّ تَوْبَةَ الْعَرَبِ وَرَجُوعَهُمْ إِلَى الدِّينِ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا الْإِقْصَارَ عَنِ الْغَارَةِ وَالنَّهْبِ لَا يَعْقِلُونَ فِي تَوْبَتِهِمْ وَاقْتِبَالِهِمْ إِلَى مَنَاجِي الدِّيَانَةِ غَيْرَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا الْمَعْصِيَةُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ الْمَقْرِيَةِ وَمِنْهَا تَوْبَتُهُمْ ، فَتَجِدُ ذَلِكَ الْمُتَنَحِّلَ لِلدُّعْوَةِ وَالْقَائِمَ بِزَعْمِهِ بِالسُّنَّةِ غَيْرَ مُتَعَمِّقِينَ فِي فُرُوعِ الْاِقْتِدَاءِ وَالْإِتْبَاعِ إِنَّمَا دِينُهُمُ الْإِعْرَاضُ عَنِ النَّهْبِ وَالْبَغْيِ وَإِفْسَادِ السَّابِلَةِ ثُمَّ الْإِقْتِبَالُ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَالْمَعَاشِ بِأَقْصَى جُهْدِهِمْ . وَشَتَّى بَيْنَ طَلَبِ هَذَا الْأَجْرِ مِنْ إِصْلَاحِ الْخَلْقِ وَمِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا فَاتَّفَقَهُمَا مُمْتَنِعٌ لَا تَسْتَخْكِمُ لَهُ صِبْغَةٌ فِي الدِّينِ وَلَا يَكْمُلُ لَهُ نَزْوَعٌ عَنِ الْبَاطِلِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَلَا يَكْثُرُونَ . وَيَخْتَلِفُ حَالُ صَاحِبِ الدُّعْوَةِ مَعَهُمْ فِي اسْتِحْكَامِ دِينِهِ وَوَلَايَتِهِ فِي نَفْسِهِ دُونَ تَابِعِهِ فَإِذَا هَلَكَ انْخَلَّ أَمْرُهُمْ وَتَلَاشَتْ عَصِيَّتُهُمْ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ لِرَجُلٍ مِنْ كُغْبٍ مِنْ سُلَيْمٍ يُسَمَّى قَاسِمَ بْنَ مِرَّةَ بْنِ أَحْمَدَ فِي الْمِائَةِ السَّابِعَةِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لِرَجُلٍ آخَرَ مِنْ بَادِيَةِ رِيَاخٍ مِنْ بَطْنٍ مِنْهُمْ يُعْرِفُونَ بِمُسْلَمٍ وَكَانَ يُسَمَّى سَعَادَةً وَكَانَ أَشَدَّ دِينًا مِنَ الْأَوَّلِ وَأَقْوَمَ طَرِيقَةً فِي نَفْسِهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَتِبْ أَمْرَ تَابِعِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ حَسْبَمَا يَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ ذِكْرِ قَبَائِلِ سُلَيْمٍ وَرِيَاخٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ نَاسٌ بِهَذِهِ الدُّعْوَةِ يَتَشَبَّهُونَ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَيُلَبِّسُونَ فِيهَا وَيَنْتَحِلُونَ اسْمَ السُّنَّةِ وَلَيْسُوا عَلَيْهَا إِلَّا الْأَقْلَ فَلَا يَتِمُّ لَهُمْ وَلَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِمْ . انتهى .

الفصل الرابع والخمسون

في ابتداء الدول والأمم وفي الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى
الجفر

إِغْلَمْ أَنَّ مِنْ خَوَاصِّ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ التَّشَوُّقُ إِلَى عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَعِلْمُهُ
مَا يَخْدُثُ لَهُمْ مِنْ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ سَيِّمًا الْحَوَادِثُ الْعَامَّةُ كَمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ
مِنَ الدُّنْيَا وَمَعْرِفَةِ مَدَدِ الدُّوَلِ أَوْ تَفَاوُتِهَا وَالتَّطَلُّعُ إِلَى هَذَا طَبِيعَةٌ مُجْبُولُونَ عَلَيْهَا
وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ يَتَشَوَّقُونَ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ وَالْأَخْبَارِ مِنْ
الْكُفَّانِ لِمَنْ قَصَدَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالسُّوقَةِ مَعْرُوفَةٌ وَلَقَدْ نَجِدُ فِي الْمَدِينِ
صِنْفًا مِنَ النَّاسِ يَتَنَحَّلُونَ الْمَعَاشَ مِنْ ذَلِكَ لِعِلْمِهِمْ بِحَرَصِ النَّاسِ عَلَيْهِ فَيَنْتَصِبُونَ
لَهُمْ فِي الطَّرِيقَاتِ وَالذِّكَاكِينِ يَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ فَتَغْدُو عَلَيْهِمْ وَتَرْوَحُ نِسْوَانُ
الْمَدِينَةِ وَصَنِيَانُهَا وَكَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ يَسْتَكْشِفُونَ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي الْكُسْبِ
وَالْجَاهِ وَالْمَعَاشِ وَالْمُعَاشَرَةِ وَالْعَدَاوَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مَا بَيْنَ خَطِّ فِي الرُّمْلِ وَيُسَمُّونَهُ
الْمُنْجَمَ وَطَرِيقَ بِالْخَصَى وَالْخُبُوبِ وَيُسَمُّونَهُ الْحَاسِبَ وَنَظَرَ فِي الْمَرَايَا وَالْمِيَاهِ
وَيُسَمُّونَهُ ضَارِبَ الْمَنْدَلِ وَهُوَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ الْفَاشِيَةِ فِي الْأُمُصَارِ لِمَا تَقَرَّرَ فِي
الشَّرِيعَةِ مِنْ ذَمِّ ذَلِكَ وَإِنَّ الْبَشَرَ مُحْجُوبُونَ عَنِ الْغَيْبِ إِلَّا مَنْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ
عِنْدِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ وَلايَةٍ . وَأَكْثَرُ مَا يَغْتَنِي ^(١) بِذَلِكَ وَيَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ الْأَمْرَاءُ وَالْمُلُوكُ فِي
أَمَادِ دَوْلَتِهِمْ وَلِذَلِكَ انْصَرَفَتِ الْعِنَايَةُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ يُوْجَدُ لَهُمْ
كَلَامٌ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُنْجِمٍ أَوْ وَلِيِّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ مُلْكٍ يَرْتَقِبُونَهُ أَوْ دَوْلَةٍ يُحَدِّثُونَ
أَنْفُسَهُمْ بِهَا وَمَا يَخْدُثُ لَهُمْ مِنَ الْحَرْبِ وَالْمَلَاْحِمِ وَمُدَّةِ بَقَاءِ الدَّوْلَةِ وَعَدَدِ الْمُلُوكِ
فِيهَا وَالتَّعَرُّضِ لِأَسْمَائِهِمْ وَيُسَمَّى مِثْلُ ذَلِكَ الْخَدَثَانِ وَكَانَ فِي الْعَرَبِ الْكُفَّانُ

(١) الأصح أن يقول : وأكثر من يعتني .

وَالْعَرَفُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ وَقَدْ أَخْبَرُوا بِمَا سَيَكُونُ لِلْعَرَبِ مِنَ الْمُلْكِ
وَالدَّوْلَةِ كَمَا وَقَعَ لِسُيُوطٍ وَسَطِيحٍ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَيْبَعَةَ بِنِ نَضْرٍ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ
أَخْبَرَهُمْ بِمُلْكِ الْحَبَشَةِ بِلَادَهُمْ ثُمَّ رَجُوعَهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ ظَهَرَ الْمُلْكُ وَالِدَّوْلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَكَذَا تَأْوِيلُ سَطِيحٍ لِرُؤْيَا الْمُؤَبَّدَانِ حَيْثُ بَعَثَ إِلَيْهِ كِسْرَى بِهَا مَعَ عَبْدِ
الْمَسِيحِ وَأَخْبَرَهُمْ بِظُهُورِ دَوْلَةِ الْعَرَبِ . وَكَذَا كَانَ فِي جِيلِ الْبَرْبَرِ كُفَّانٍ مِنْ
أَشْهَرِهِمْ مُوسَى بْنُ صَالِحٍ مِنْ بَنِي يَفْرَنْ وَيُقَالُ مِنْ غَمْرَةٍ لَهُ كَلِمَاتٌ حَدَثَانِيَّةٌ عَلَى
طَرِيقَةِ الشُّعْرِ بِرِطَانِيَّتِهِمْ وَفِيهَا حَدَثَانٌ كَثِيرٌ وَمُعْظَمُهُ فِيمَا يَكُونُ . لِرِثَائَةِ مِنْ
الْمُلْكِ وَالِدَّوْلَةِ بِالْمَغْرِبِ وَهِيَ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الْجِيلِ وَهُمْ يَزْعُمُونَ تَارَةً أَنَّهُ وَلِيُّ
وَتَارَةً أَنَّهُ كَاهِنٌ وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ مَزَاعِمِهِمْ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا لِأَنَّ تَارِيخَهُ عِنْدَهُمْ قَبْلَ
الْهَجْرَةِ بِكَثِيرٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ يَسْتَنِدُ الْجِيلُ إِلَى خَبَرِ الْأَنْبِيَاءِ إِنْ كَانَ لِعَهْدِهِمْ كَمَا
وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ أَنْبِيَاءَهُمُ الْمُتَعَاقِبِينَ فِيهِمْ كَانُوا يُخْبِرُونَهُمْ بِمِثْلِهِ عِنْدَمَا
يَعْنُونَهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنْهُ . وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَوَقَعَ مِنْهُ كَثِيرٌ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى
بَقَاءِ الدُّنْيَا وَمُدَّتِهَا عَلَى الْعُمُومِ وَفِيمَا يَرْجِعُ إِلَى الدَّوْلَةِ وَأَعْمَارِهَا عَلَى الْخُصُوصِ
وَكَانَ الْمُعْتَمِدُ فِي ذَلِكَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ لِأَثَارِ مَنْقُولَةٍ عَنِ الصَّحَابَةِ وَخُصُوصاً مُسْلِمَةً
بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنْبِيهِ وَأَمْثَالِهِمَا وَزُبَمَا اقْتَبَسُوا بَعْضُ
ذَلِكَ مِنْ ظَوَاهِرِ مَأْثُورَةٍ وَتَأْوِيلَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ . وَوَقَعَ لِجَعْفَرٍ وَأَمْثَالِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ
كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ مُسْتَنَدُهُمْ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْكُشْفُ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْوَلَايَةِ وَإِذَا كَانَ
مِثْلُهُ لَا يُنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَوَّلِيَاءِ فِي ذَوِيهِمْ وَأَعْقَابِهِمْ وَقَدْ قَالَ ﷺ « إِنْ
فِيكُمْ مُخَدَّثِينَ » فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الرُّتَبِ الشَّرِيفَةِ وَالْكَرَامَاتِ الْمُوْهُوبَةِ . وَأَمَّا
بَعْدُ صَدْرِ الْمِلَّةِ وَحِينَ عَلِقَ النَّاسُ عَلَى الْعُلُومِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ وَتَرَجَمَتْ كُتُبُ
الْحُكَمَاءِ إِلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . فَأَكْثَرَ مُعْتَمِدِهِمْ فِي ذَلِكَ كَلَامُ الْمُنْجِمِينَ فِي الْمُلْكِ
وَالدُّوَلِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِنَ الْقِرَانَاتِ وَفِي الْمَوَالِيدِ وَالْمَسَائِلِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ
الْخَاصَّةِ مِنَ الطَّوَالِعِ لَهَا وَهِيَ شَكْلُ الْفَلَكَ عِنْدَ حَدُوثِهَا فَلَنَذْكُرَ الْآنَ مَا وَقَعَ لِأَهْلِ

الأثر في ذلك ثم نرجع إلى كلام المنجمين . أما أهل الأثر فلهم في مدة الملل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السهيلي فإنه نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة وتقص ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر لذلك ذليلاً . وسره والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السماوات والأرض وهي سبعة ثم اليوم بألف سنة لقوله : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » وقد ثبت في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى غروب الشمس » وقال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شيء مثليه يكون على التقريب نصف سبع . وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة ويؤيده قوله ﷺ : « لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم » فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أغني الماضي وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة قال السهيلي : « وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه » . فأما قوله : « لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم » فلا يقتضي نفى الزيادة على النصف وأما قوله : « بعثت أنا والساعة كهاتين » فإنما فيه الإشارة إلى القرب وأنه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه ثم رجع السهيلي إلى تعيين أمد الملة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكرر قال وهي أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك (ألم يسطع نص حق كره) فأخذ عددها بحساب الجمل فكان سبعمائة وثلاثة ^(١) أضافه إلى المنتضي من الألف الآخر قبل بعثته فهذه هي مدة

(١) هذا العدد غير مطابق كما أن الترجمة التركي لم يطابق في قوله ٩٣٠ وإنما المطابق للحروف المذكورة

الْمِلَّةَ قَالَ وَلَا يَبْعُدُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَفَوَائِدِهَا قُلْتُ :
 وَكَوْنُهُ لَا يَبْعُدُ لَا يَقْتَضِي ظُهُورَهُ وَلَا التَّغْوِيلَ عَلَيْهِ . وَالَّذِي حَمَلَ السُّهَيْلِيُّ عَلَى
 ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ السَّيْرِ لِابْنِ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِ ابْنِي أَخْطَبَ مِنْ
 أَخْبَارِ الْيَهُودِ وَهُمَا أَبُو يَاسِرَ وَأَخُوهُ حَيٌّ حِينَ سَمِعَا مِنَ الْأَحْرَفِ الْمُقْطَعَةِ (أَلَمْ)
 وَتَأَوَّلَاهَا عَلَى بَيَانِ الْمُدَّةِ بِهَذَا الْحِسَابِ فَبَلَغَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فَاسْتَقْلَا الْمُدَّةَ وَجَاءَ
 حَيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ : هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ ؟ فَقَالَ (الْمَصُّ) ثُمَّ اسْتَرَادَ
 (الرَّثْمَ) ثُمَّ اسْتَرَادَ (الْمُرَّ) فَكَانَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ فَاسْتَطَالَ الْمُدَّةَ وَقَالَ :
 قَدْ لَبَسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى لَا نَذْرِي أَقْلِيلًا أَعْطَيْتَ أَمْ كَثِيرًا ثُمَّ ذَهَبُوا عَنْهُ
 وَقَالَ لَهُمْ أَبُو يَاسِرَ مَا يُدْرِيكُمْ لَعَلَّهُ أَعْطَى عَدَدَهَا كُلَّهَا تِسْعِمَائَةٍ وَأَرْبَعِ سِنِينَ قَالَ
 ابْنُ إِسْحَاقَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ
 مُتَشَابِهَاتٌ » . ١ هـ . وَلَا يَقُومُ مِنَ الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى تَقْدِيرِ الْمِلَّةِ بِهَذَا الْعَدَدِ لِأَنَّ
 دَلَالََةَ هَذِهِ الْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ الْأَعْدَادِ لَيْسَتْ طَبِيعِيَّةً وَلَا عَقْلِيَّةً وَإِنَّمَا هِيَ بِالتَّوَاضُّعِ
 وَالِإِصْطِلَاحِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ الْجَمْلِ نَعَمْ إِنَّهُ قَدِيمٌ مَشْهُورٌ وَقَدْ أَمَّ الْإِصْطِلَاحُ
 لَا يَصِيرُ حُجَّةً وَلَيْسَ أَبُو يَاسِرَ وَأَخُوهُ حَيٌّ مِمَّنْ يُؤْخَذُ رَأْيُهُ فِي ذَلِكَ دَلِيلًا وَلَا مِنْ
 عُلَمَاءِ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَادِيَةً بِالْحِجَازِ غَفْلًا عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ حَتَّى عَنْ عِلْمِ
 شَرِيعَتِهِمْ وَفَقِهِ كِتَابِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَإِنَّمَا يَتَلَقَّفُونَ مِثْلَ هَذَا الْحِسَابِ كَمَا تَتَلَقَّفُهُ الْعَوَامُّ
 فِي كُلِّ مِلَّةٍ فَلَا يَنْهَضُ لِلْسُّهَيْلِيِّ دَلِيلٌ عَلَى مَا ادَّعَاهُ مِنْ ذَلِكَ . وَوَقَعَ فِي الْمِلَّةِ فِي
 حَدَثَانِ ذَوَّلَيْهَا عَلَى الْخُصُوصِ مُسْنَدٌ مِنَ الْأَثَرِ إِجْمَالِيٌّ فِي حَدِيثِ خُرْجَةِ أَبُو دَاوُدَ
 عَنْ حَدِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ مِنْ طَرِيقِ شَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الذَّهَبِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ
 أَبِي مَرْزِيمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ فَرْوَجٍ عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي قَبِيصَةَ بْنِ
 دُوَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ حَدِيفَةُ بْنُ الْيَمَانِ : وَاللَّهِ مَا أَذْرِي أُنْسِي أَصْحَابِي أَمْ
 تَنَاسَوْهُ وَاللَّهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَائِدٍ فِتَّةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الدُّنْيَا لَا يَبْلُغُ
 مِنْ مَعَةِ ثَلَاثِمِائَةٍ فَضَاعِدًا إِلَّا قَدْ سَمَاءَ لَنَا بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَقَبِيلَتِهِ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَبُو

دَاوُدَ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَهَذَا الْحَدِيثُ
 إِذَا كَانَ صَحِيحاً فَهُوَ مُجْمَلٌ وَيَفْتَقِرُ فِي بَيَانِ إِجْمَالِهِ وَتَعْيِينِ مُبْهَمَاتِهِ إِلَى آثَارِ أُخْرَى
 يُجَوِّدُ أَسَانِيدَهَا . وَقَدْ وَقَعَ إِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ كِتَابِ السُّنَنِ عَلَى غَيْرِ هَذَا
 الْوَجْهِ فَوَقَعَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ حَدِيقَةَ أَيْضاً قَالَ ، قَامَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ فِينَا خَطِيباً فَمَا تَرَكَ شَيْئاً يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَاكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا
 حَدَّثَ عَنْهُ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ قَدْ عَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ هَؤُلَاءِ ١٠ هـ . وَلَنُظَرُ
 الْبُخَارِيُّ ، مَا تَرَكَ شَيْئاً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ التَّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ
 أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ صَلَاةِ الْعَصْرِ بِنَهَارِئِهِمْ قَامَ
 خَطِيباً فَلَمْ يَدْعُ شَيْئاً يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ
 مَنْ نَسِيَهُ ١ هـ . وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ
 أَحَادِيثِ الْفَتَنِ وَالْإِشْتِرَاطِ لَا غَيْرَ لِأَنَّهُ الْمَغْمُودُ مِنَ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
 عَلَيْهِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ الَّتِي تَفَرَّدَ بِهَا أَبُو دَاوُدَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ
 شَاذَةٌ مُنْكَرَةٌ مَعَ أَنَّ الْأُئِمَّةَ اخْتَلَفُوا فِي رَجَالِهِ فَقَالَ ابْنُ أَبِي مَرْزُومٍ فِي ابْنِ فَرُوحَ
 أَحَادِيثُهُ مَنَاقِيرُ . وَقَالَ الْبُخَارِيُّ يُعْرِفُ مِنْهُ وَيُنْكِرُ وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ أَحَادِيثُهُ غَيْرُ
 مَحْفُوظَةٍ وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَوَثَّقَهُ ابْنُ مَعِينٍ فَإِنَّمَا خَرَجَ
 لَهُ الْبُخَارِيُّ اسْتِشْهَاداً وَضَعْفَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ ابْنُ خَاتَمٍ
 يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يُخْتَجُّ بِهِ . وَأَبُو قَبِيصَةَ ابْنُ دُؤَيْبٍ مَجْهُولٌ . فَتَضَعُفُ هَذِهِ
 الزِّيَادَةُ الَّتِي وَقَعَتْ لِأَبِي دَاوُدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ مَعَ شَذُوذِهَا كَمَا
 مَرَّ . وَقَدْ يَسْتَبْدُونَ فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ عَلَى الْخُصُوصِ إِلَى كِتَابِ الْجَفْرِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ
 فِيهِ عِلْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ طَرِيقِ الْآثَارِ وَالنُّجُومِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَعْرِفُونَ أَصْلَ
 ذَلِكَ وَلَا مُسْتَنَدِهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ كِتَابَ الْجَفْرِ كَانَ أَصْلُهُ أَنَّ هَارُونَ بْنُ سَعِيدٍ الْعَجَلِيَّ وَهُوَ
 رَأْسُ الزَّيْدِيَّةِ كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَرْوِيهِ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَفِيهِ عِلْمٌ مَا سَيَقَعُ لِأَهْلِ
 الْبَيْتِ عَلَى الْعُمُومِ وَلِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ مِنْهُمْ عَلَى الْخُصُوصِ وَقَعَ ذَلِكَ لِجَعْفَرٍ وَنَظَائِرِهِ

مِنْ رَجَالِهِمْ عَلَى طَرِيقِ الْكِرَامَةِ وَالْكَشْفِ الَّذِي يَقَعُ لِمِثْلِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَكَانَ
 مَكْتُوباً عِنْدَ جَعْفَرٍ فِي جِلْدِ ثَوْبٍ صَغِيرٍ فَرَوَاهُ عَنْهُ هَارُونُ الْعِجْلِيُّ وَكَتَبَهُ وَسَمَّاهُ
 الْجَعْفَرُ بِاسْمِ الْجِلْدِ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ لِأَنَّ الْجَعْفَرَ فِي اللَّفْظِ هُوَ الصَّغِيرُ وَصَارَ هَذَا الْإِسْمُ
 عَلَماً عَلَى هَذَا الْكِتَابِ عِنْدَهُمْ وَكَانَ فِيهِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ غَرَائِبِ
 الْمَعَانِي مَرْوِيَّةٌ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ . وَهَذَا الْكِتَابُ لَمْ تَتَّصِلْ رَوَايَتُهُ وَلَا عُرِفَ عَيْنُهُ
 وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْهُ شَوَادُّ مِنَ الْكَلِمَاتِ لَا يَضَحُّهَا دَلِيلٌ وَلَوْ صَحَّ السُّنْدُ إِلَى جَعْفَرِ
 الصَّادِقِ لَكَانَ فِيهِ نِعَمُ الْمُسْتَنَدِّ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ رَجَالِ قَوْمِهِ فَهُمْ أَهْلُ الْكِرَامَاتِ وَقَدْ
 صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُحَذِّرُ بَعْضَ قِرَائَتِهِ بِوَقَائِعَ تَكُونُ لَهُمْ فَتَصَحُّ كَمَا يَقُولُ وَقَدْ حَذَّرَ
 يَحْيَى ابْنُ عِمَّةٍ زَيْدٌ مِنْ مَضَرَعِهِ وَعَصَاهُ فَخَرَجَ وَقُتِلَ بِالْجُوزْجَانِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .
 وَإِذَا كَانَتِ الْكِرَامَةُ تَقَعُ لغيرِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ عِلْماً وَدِيناً وَأَثَاراً مِنَ النُّبُوَّةِ وَعِنَايَةِ
 مِنَ اللَّهِ بِالْأَصْلِ الْكَرِيمِ تَشْهَدُ لِقُرُوعِهِ الطَّيِّبَةِ وَقَدْ يُنْقَلُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ
 هَذَا الْكَلَامِ غَيْرُ مَنْسُوبٍ إِلَى أَحَدٍ وَفِي أَخْبَارِ دَوْلَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَانْظُرْ
 مَا حَكَاهُ ابْنُ الْبَيْتِ فِي لِقَاءِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ لِعُبَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ مَعَ ابْنِهِ
 مُحَمَّدٍ الْحَبِيبِ وَمَا حَدَّثَاهُ بِهِ وَكَيْفَ بَعَثَاهُ إِلَى ابْنِ حَوْشَبٍ دَاعِيَتِهِمْ بِالْيَمَنِ فَأَمَرَهُ
 بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَبَثَّ الدُّعْوَةَ فِيهِ عَلَى عِلْمِهِ لَقَنَهُ أَنْ دَعْوَتَهُ تَبِمَ هُنَاكَ وَأَنَّ عُبَيْدَ
 اللَّهِ لَمَّا بَنَى الْمَهْدِيَّةَ بَعْدَ اسْتِفْحَالِ دَوْلَتِهِمْ بِأَفْرِيقِيَّةٍ قَالَ : « بَنَيْتُهَا لِيُعْتَصِمَ بِهَا
 الْفَوَاطِمُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » وَأَرَاهُمْ مُوقِفَ صَاحِبِ الْحِمَارِ أَبِي يَزِيدَ بِالْهَدْيَةِ وَكَانَ
 يَسْأَلُ عَنْ مُنْتَهَى مَوْقِفِهِ حَتَّى جَاءَهُ الْخَبَرُ بِبُلُوعِهِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي عَيْنُهُ جَدُّهُ أَبُو
 عُبَيْدِ اللَّهِ فَأَيَقَنَ بِالظُّفَرِ وَبَرَزَ مِنَ الْبَلَدِ فَهَزَمَهُ وَاتَّبَعَهُ إِلَى نَاحِيَةِ الزَّابِ فَظَفَرَ بِهِ
 وَقَتَلَهُ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ كَثِيرَةٌ .

وَأَمَّا الْمُنْجَمُونَ فَيَسْتَنِدُونَ فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ إِلَى الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ أَمَا فِي
 الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِثْلِ الْمُلْكِ وَالْدُّوَلِ فَمِنْ الْقِرَآنَاتِ وَخُصُوصاً بَيْنَ الْعُلُوِّينَ وَذَلِكَ أَنَّ
 الْعُلُوِّينَ زَحَلَ وَالْمُسْتَرِي يَقْتَرِنَانِ فِي كُلِّ عِشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً ثُمَّ يَعُودُ الْقِرَانُ إِلَى

بُرْجٍ آخَرَ فِي تِلْكَ الْمُثْلَةِ مِنَ التَّثْلِيثِ الْأَيْمَنِ ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى آخِرِ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ
 فِي الْمُثْلَةِ الْوَاحِدَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً تَسْتَوِي بُرْجُهُ الثَّلَاثَةُ فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ
 فَيَسْتَوِي بِهَا فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ ثَالِثَةً ثُمَّ رَابِعَةً فَيَسْتَوِي فِي الْمُثْلَةِ بِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ
 مَرَّةً وَأَرْبَعَ عَوْدَاتٍ فِي مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَيَكُونُ انْتِقَالُهُ فِي كُلِّ بُرْجٍ عَلَى التَّثْلِيثِ
 الْأَيْمَنِ وَيَنْتَقِلُ مِنَ الْمُثْلَةِ إِلَى الْمُثْلَةِ الَّتِي تَلِيهَا أَغْنَى الْبُرْجُ الَّذِي يَلِي الْبُرْجَ
 الْأَخِيرَ مِنَ الْقِرَانِ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الْمُثْلَةِ وَهَذَا الْقِرَانُ الَّذِي هُوَ قِرَانُ الْعُلُوَيْنِ يَنْقَسِمُ
 إِلَى كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَوَسْطٍ فَالْكَبِيرُ هُوَ اجْتِمَاعُ الْعُلُوَيْنِ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْفَلَكَ إِلَى
 أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا بَعْدَ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً مَرَّةً وَاحِدَةً وَالْوَسْطُ هُوَ اقْتِرَانُ الْعُلُوَيْنِ فِي
 كُلِّ مُثْلَةٍ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَبَعْدَ مِئَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْتَقِلُ إِلَى مُثْلَةٍ أُخْرَى
 وَالصَّغِيرُ هُوَ اقْتِرَانُ الْعُلُوَيْنِ فِي دَرَجَةٍ بُرْجٍ وَبَعْدَ عَشْرِينَ سَنَةً يَقْتَرِنَانِ فِي بُرْجٍ
 آخَرَ عَلَى تَثْلِيثِهِ الْأَيْمَنِ فِي مِثْلِ دَرَجِهِ أَوْ دَقَائِقِهِ مِثَالُ ذَلِكَ وَقَعَ الْقِرَانُ يَكُونُ أَوَّلُ
 دَقِيقَةٍ مِنَ الْحَمَلِ وَبَعْدَ عَشْرِينَ يَكُونُ فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنَ الْأَسَدِ وَهَذِهِ كُلُّهَا نَارِيَّةٌ
 وَهَذَا كُلُّهُ قِرَانٌ صَغِيرٌ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَوَّلِ الْحَمَلِ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً وَيُسَمَّى دَوْرُ الْقِرَانِ
 وَعَوْدُ الْقِرَانِ وَبَعْدَ مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ يَنْتَقِلُ مِنَ النَّارِيَّةِ إِلَى التَّرَابِيَّةِ لِأَنَّهَا بَعْدُهَا
 وَهَذَا قِرَانٌ وَسْطٌ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْهَوَائِيَّةِ ثُمَّ الْمَائِيَّةِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ الْحَمَلِ فِي
 تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَهُوَ الْكَبِيرُ وَالْقِرَانُ الْكَبِيرُ يَدُلُّ عَلَى عِظَامِ الْأُمُورِ مِثْلَ تَغْيِيرِ
 الْمُلْكِ وَالِدَوْلَةِ وَانْتِقَالِ الْمُلْكِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ وَالْوَسْطُ عَلَى ظُهُورِ الْمُتَغَلِّبِينَ
 وَالطَّالِبِينَ لِلْمُلْكِ وَالصَّغِيرُ عَلَى ظُهُورِ الْخَوَارِجِ وَالِدُّعَاةِ وَخَرَابِ الْمُدُنِ أَوْ عُمْرَانِهَا
 وَيَقَعُ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْقِرَانَاتِ قِرَانُ الْمُحْسِنِينَ فِي بُرْجِ السَّرَطَانِ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ سَنَةً
 مَرَّةً وَيُسَمَّى الرَّابِعَ وَبُرْجُ السَّرَطَانِ هُوَ طَالِعُ الْعَالَمِ وَفِيهِ وَبَالُ زَحَلٍ وَهَبُوطُ
 الْمَرْيَخِ فَتَغْضَمُ دَلَالَةُ هَذَا الْقِرَانِ فِي الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ وَظُهُورِ الْخَوَارِجِ
 وَخَرَكَةِ الْعَسَاكِرِ وَغَضْيَانِ الْجُنْدِ وَالْوَبَاءِ وَالْفَخْطِ وَيَدُومُ ذَلِكَ أَوْ يَنْتَهِي عَلَى قَدَرِ
 السَّعَادَةِ وَالنُّحُوسَةِ فِي وَقْتِ قِرَانِهِمَا عَلَى قَدَرِ تَسْيِيرِ الدَّلِيلِ فِيهِ . قَالَ جِرَاسُ بْنُ

أَحْمَدُ الْحَاسِبُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَلْفَهُ لِنِظَامِ الْمُلْكِ وَرُجُوعِ الْمَرْيَخِ إِلَى الْعَقَرِ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِأَنَّهُ كَانَ دَلِيلَهَا فَالْمَوْلُدُ النَّبَوِيُّ كَانَ عِنْدَ قِرَانِ الْعُلُوَيْنِ يَبْرُجُ الْعَقَرُ فَلَمَّا رَجَعَ هُنَاكَ حَدَثَ التَّشْوِيشُ عَلَى الْخُلَفَاءِ وَكَثُرَ الْمَرَضُ فِي أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْدِّينِ وَنَقَصَتْ أَحْوَالُهُمْ وَرُبَّمَا انْهَدَمَ بَعْضُ بَيُوتِ الْعِبَادَةِ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ عِنْدَ قَتْلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَرْوَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَالْمُتَوَكِّلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِذَا رُوِعِيَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ مَعَ أَحْكَامِ الْقِرَانَاتِ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْإِحْكَامِ وَذَكَرَ شَاذَانُ الْبُلْخِيُّ : أَنَّ الْمِلَّةَ تَنْتَهِي إِلَى ثَلَاثِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ . وَقَدْ ظَهَرَ كَذِبُ هَذَا الْقَوْلِ . وَقَالَ أَبُو مَعْشَرٍ : يَظْهَرُ بَعْدَ الْمِائَةِ وَالْخَمْسِينَ مِنْهَا اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ وَلَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ . وَقَالَ خِرَاشٌ : رَأَيْتُ فِي كُتُبِ الْقَدَمَاءِ أَنَّ الْمُنْجِمِينَ أَخْبَرُوا كِسْرَى عَنْ مُلْكِ الْعَرَبِ وَظُهُورِ النُّبُوَّةِ فِيهِمْ . وَأَنَّ دَلِيلَهُمُ الزُّهْرَةُ وَكَانَتْ فِي شَرْفِهَا فَيَبْقَى الْمُلْكُ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَقَالَ أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِ الْقِرَانَاتِ الْقِسْمَةَ إِذَا انْتَهَتْ إِلَى السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْحَوْتِ فِيهَا شَرْفُ الزُّهْرَةِ وَوَقَعَ الْقِرَانُ مَعَ ذَلِكَ يَبْرُجُ الْعَقَرُ وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ ظَهَرَتْ حِينَئِذٍ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَكَانَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ وَيَكُونُ قُوَّةُ مُلْكِهِ وَمُدَّتُهُ عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ دَرَجَاتِ شَرْفِ الزُّهْرَةِ وَهِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً بِتَقْرِيْبٍ مِنْ بُرْجِ الْحَوْتِ وَمُدَّةُ ذَلِكَ سِتْمِائَةٍ وَعِشْرُ سِنِينَ وَكَانَ ظُهُورُ أَبِي مُسْلِمٍ عِنْدَ انْتِقَالِ الزُّهْرَةِ وَوُقُوعِ الْقِسْمَةِ أَوَّلَ الْحَمَلِ وَصَاحِبُ الْجَدِّ الْمُشْتَرِي . وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيُّ إِنَّ مُدَّةَ الْمِلَّةِ تَنْتَهِي إِلَى سِتْمِائَةٍ وَثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً . قَالَ : لِأَنَّ الزُّهْرَةَ كَانَتْ عِنْدَ قِرَانِ الْمِلَّةِ فِي ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً مِنَ الْحَوْتِ فَالْبَاقِي إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَمَانٍ عَشْرَةَ دَقِيقَةً وَدَقَائِقُهَا سِتُّونَ فَيَكُونُ سِتْمِائَةٍ وَثَلَاثًا وَتِسْعِينَ سَنَةً . قَالَ : وَهَذِهِ مُدَّةُ الْمِلَّةِ بِاتِّفَاقِ الْحُكَمَاءِ وَيَعْضُدُهُ الْحُرُوفُ الْوَاقِعَةُ فِي أَوَّلِ السُّورِ بِحَذْفِ الْمَكْرُورِ وَاعْتِبَارِهِ بِحِسَابِ الْجُمْلِ . قُلْتُ وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ السُّهَيْلِيُّ وَالْغَالِبُ أَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ مُسْتَنَدٌ السُّهَيْلِيُّ فِيمَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ . قَالَ خِرَاشٌ ^(١) :

(١) وفي نسخة أخرى : جراس .

« سَأَلَ هِرْمِزُ إِفْرِيدَ الْحَكِيمَ عَنْ مُدَّةِ أَرْدَشِيرَ وَوَلَدِهِ مُلُوكِ السَّاسَانِيَّةِ » فَقَالَ :
« دَلِيلُ مُلْكِهِ الْمُشْتَرِي » وَكَانَ فِي شَرْفِهِ فَيُعْطَى أَطْوَلُ السِّنِينَ وَأَجْوَدَهَا أَرْبَعُمِائَةٍ
وَسَبْعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً ثُمَّ تَزِيدُ الزُّهْرَةُ وَتَكُونُ فِي شَرْفِهَا وَهِيَ دَلِيلُ الْعَرَبِ فَيَمْلِكُونَ
لَأَنَّ طَالَعَ الْقِرَانِ الْمِيزَانَ وَصَاحِبِهِ الزُّهْرَةَ وَكَانَتْ عِنْدَ الْقِرَانِ فِي شَرْفِهَا فَذَلَّ أَنَّهُمْ
يَمْلِكُونَ أَلْفَ سَنَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً . وَسَأَلَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ وَزِيرَهُ بَزْرَجْمَهَرَ الْحَكِيمَ
عَنْ خُرُوجِ الْمَلِكِ مِنْ فَارِسَ إِلَى الْعَرَبِ فَأَخْبَرَهُ : أَنَّ الْقَائِمَ مِنْهُمْ يُولَدُ لِخَمْسِ
وَأَرْبَعِينَ مِنْ دَوْلَتِهِ وَيَمْلِكُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ وَالْمُشْتَرِي يَغُوصُ إِلَى الزُّهْرَةِ وَيَنْتَقِلُ
الْقِرَانُ مِنَ الْهَوَائِيَّةِ إِلَى الْعَقَرِ وَهُوَ مَائِيٌّ وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ فَهَذِهِ الْأَدِلَّةُ تَقْضِي لِلْمِلَّةِ
بِمُدَّةِ دَوْرِ الزُّهْرَةِ وَهِيَ أَلْفٌ وَسِتُّونَ سَنَةً . وَسَأَلَ كِسْرَى أَبْرُويزَ الْيُوسَ الْحَكِيمَ عَنْ
ذَلِكَ فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِ بَزْرَجْمَهَرَ . وَقَالَ تُوْفِيلُ الرُّومِيُّ الْمُنْجَمُ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةٍ : إِنَّ
مِلَّةَ الْإِسْلَامِ تَبْقَى مُدَّةَ الْقِرَانِ الْكَبِيرِ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً فَإِذَا غَادَ الْقِرَانُ إِلَى بُرْجِ
الْعَقَرِ كَمَا كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْمِلَّةِ وَتَغَيَّرَ وَضْعُ الْكَوَاكِبِ عَنْ هَيْئَتِهَا فِي قِرَانِ الْمِلَّةِ
فَحِينَئِذٍ إِمَّا أَنْ يَفْتَرَّ الْعَمَلُ بِهِ أَوْ يَتَجَدَّدَ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا يُوجِبُ خِلَافَ الظَّنِّ . قَالَ
خِرَاشٌ : وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ خَرَابَ الْعَالَمِ يَكُونُ بِاسْتِيلَاءِ الْمَاءِ وَالنَّارِ حَتَّى تَهْلِكَ سَائِرُ
الْمُكَوِّنَاتِ وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَقْطَعُ قَلْبُ الْأَسَدِ أَرْبَعًا وَعَشْرِينَ دَرَجَةً وَهِيَ حَدُّ
الْمَرْيَخِ . وَذَلِكَ بَعْدَ مُضِيِّ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً . وَذَكَرَ خِرَاشٌ : أَنَّ مَلِكًا
زَابُلِسْتَانِ بَعَثَ إِلَى الْمَأْمُونِ بِحَكِيمِهِ ذُوْبَانَ اتَّخَفَهُ بِهِ فِي هَدِيَّةٍ وَأَنَّهُ تَصَرَّفَ
لِلْمَأْمُونِ فِي الْإِخْتِيَارَاتِ بِحُرُوبِ أَخِيهِ وَبِعَقْدِ اللِّوَاءِ لِطَاهِرٍ وَأَنَّ الْمَأْمُونِ أَعْظَمَ
حُكْمَتَهُ فَسَأَلَهُ عَنْ مُدَّةِ مُلْكِهِمْ فَأَخْبَرَهُ بِانْقِطَاعِ الْمُلْكِ مِنْ عَقْبِهِ وَاتِّصَالِهِ فِي وَلَدِ
أَخِيهِ وَأَنَّ الْعَجَمَ يَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْخِلَافَةِ مِنَ الدَّيْلَمِ فِي دَوْلَةِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَيَكُونُ
مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ ثُمَّ يَسُوءُ حَالُهُمْ ثُمَّ تَظْهَرُ التُّرْكُ مِنْ شَمَالِ الْمَشْرِقِ فَيَمْلِكُونَ إِلَى الشَّامِ
وَالْفَرَاتِ وَسِيحُونَ وَسَيَمْلِكُونَ بِلَادَ الرُّومِ وَيَكُونُ مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ :
مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا ؟ فَقَالَ : مِنْ كُتُبِ الْحُكَمَاءِ وَمِنْ أَحْكَامِ صَصَةَ بْنِ دَاهِرِ الْهِنْدِيِّ

الَّذِي وَضَعَ الشُّطْرَنْجَ . قُلْتُ وَالتَّرْكُ الَّذِينَ أَشَارَ إِلَى ظُهُورِهِمْ بَعْدَ الدَّلِيلِ هُمْ
السُّلْجُوقِيَّةُ وَقَدْ انْتَقَضَتْ دَوْلَتُهُمْ أَوَّلَ الْقَرْنِ السَّائِعِ . قَالَ خِرَاشُ ، وَانْتِقَالَ الْقِرَانِ إِلَى
الْمُثَلَّثَةِ الْمَائِيَّةِ مِنْ بُرْجِ الْحَوِثِ يَكُونُ سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَثَلَاثِينَ وَثَمَانِمِائَةً لِيَزْدَجِرْدَ
وَبَعْدَهَا إِلَى بُرْجِ الْعَقْرَبِ حَيْثُ كَانَ قِرَانُ الْمِلَّةِ سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَخَمْسِينَ . قَالَ ، وَالَّذِي
فِي الْحَوِثِ هُوَ أَوَّلُ الْإِنْتِقَالِ وَالَّذِي فِي الْعَقْرَبِ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ دَلَائِلُ الْمِلَّةِ . قَالَ ،
وَتَحْوِيلُ السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْقِرَانِ الْأَوَّلِ فِي الْمُثَلَّثَاتِ الْمَائِيَّةِ فِي ثَانِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانٍ
وَسِتِّينَ وَثَمَانِمِائَةٍ وَلَمْ يَسْتَوْفِ الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ . وَأَمَّا مُسْتَنَدُ الْمُنْجَمِينَ فِي دَوْلَةٍ عَلَى
الْخُصُوصِ فَمِنْ الْقِرَانِ الْأَوْسَطِ وَهَيْئَةُ الْفَلَكَ عِنْدَ وَقْعِهِ لِأَنَّهُ لَهُ دَلَالَةٌ عِنْدَهُمْ عَلَى
خُدُوثِ الدَّوْلَةِ وَجِهَاتِهَا مِنَ الْعُمَرَاءِ وَالْقَائِمِينَ بِهَا مِنَ الْأُمَمِ وَعَدَدِ مُلُوكِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ
وَأَعْمَارِهِمْ وَنَحْلِهِمْ وَأَذْيَانِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخُرُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرَ أَبُو مَغَشَّرٍ فِي كِتَابِهِ فِي
الْقِرَانَاتِ وَقَدْ تَوَجَّدَ هَذِهِ الدَّلَالَةُ مِنَ الْقِرَانِ الْأَصْغَرِ إِذَا كَانَ الْأَوْسَطُ ذَالًا عَلَيْهِ فَمِنْ
يُوجَدُ الْكَلَامُ فِي الدَّوَلِ وَقَدْ كَانَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيُّ مُنْجَمُ الرَّشِيدِ
وَالْمَأْمُونِ وَضَعَ فِي الْقِرَانَاتِ الْكَائِنَةِ فِي الْمِلَّةِ كِتَابًا سَمَّاهُ الشَّيْعَةَ بِالْجَفْرِ بِاسْمِ
كِتَابِهِمُ الْمَنْسُوبِ إِلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَذَكَرَ فِيهِ فِيمَا يُقَالُ حَدَّثَانِ ، دَوْلَةُ بَنِي
الْعَبَّاسِ وَأَنَّهَا نَهَائَتُهُ وَأَشَارَ إِلَى انْقِرَاضِهَا وَالْحَادِثَةِ عَلَى بَغْدَادَ أَنَّهَا تَقَعُ فِي انْتِصَافِ
الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَأَنَّهُ بِانْقِرَاضِهَا يَكُونُ انْقِرَاضُ الْمِلَّةِ وَلَمْ تَقَفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَبَرِ هَذَا
الْكِتَابِ وَلَا رَأَيْنَا مَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ وَلَعَلَّهُ غَرِقَ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي طَرَحَهَا هَلَكَوْا مِلْكُ
التُّرْكِ فِي دِجْلَةٍ عِنْدَ اسْتِيلَائِهِمْ عَلَى بَغْدَادَ وَقَتْلِ الْمُسْتَعَصِمِ آخِرِ الْخُلَفَاءِ وَقَدْ وَقَعَ
بِالْمَغْرِبِ جُزْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى هَذَا الْكِتَابِ يُسَمُّونَهُ الْجَفْرَ الصَّغِيرَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ وَضَعَ
لِبَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ لِذِكْرِ الْأَوَّلِينَ مِنْ مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ فِيهِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَمُطَابَقَةً
مَنْ تَقَدَّمَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَدَّثَانِهِ وَكَذَّبَ مَا بَعْدَهُ وَكَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ بَعْدِ
الْكِنْدِيِّ مُنْجَمُونَ وَكُتِبَ فِي الْحَدَّثَانِ وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ فِي أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ عَنْ
أَبِي بَدِيلٍ مِنْ أَصْحَابِ صَنَائِعِ الدَّوْلَةِ قَالَ بَعَثَ إِلَيَّ الرَّبِيعُ وَالْحَسَنُ فِي غَزَاتِهِمَا مَعَ

الرَّشِيدَ أَيَّامَ أَبِيهِ فِجَتْهُمَا جَوْفَ اللَّيْلِ فَإِذَا عِنْدَهُمَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ الدَّوْلَةِ يَغْنِي
الْحَدَّثَانِ وَإِذَا مُدَّةُ الْمَهْدِيِّ فِيهِ عَشْرُ سِنِينَ فَقُلْتُ ، هَذَا الْكِتَابُ لَا يَخْفَى عَلَى
الْمَهْدِيِّ وَقَدْ مَضَى مِنْ دَوْلَتِهِ مَا مَضَى فَإِذَا وَقَفَ عَلَيْهِ كُنْتُمْ قَدْ نَعَيْتُمْ إِلَيْهِ نَفْسَهُ .
قَالَا ، فَمَا الْحِيلَةُ فَاسْتَدْعَيْتُ غَنَبَةَ الْوَرَّاقِ مَوْلَى آلِ بَدِيلٍ وَقُلْتُ لَهُ انسخْ هَذِهِ
الْوَرْقَةَ وَاكْتُبْ مَكَانَ عَشْرِ أَرْبَعِينَ فَفَعَلَ فَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ الْعُشْرَةَ فِي تِلْكَ
الْوَرْقَةِ وَالْأَرْبَعِينَ فِي هَذِهِ مَا كُنْتُ أَشْكُ أَنَّهَا هِيَ ثُمَّ كَتَبَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فِي
حَدَّثَانِ الدَّوْلِ مَنْظُومًا وَمَنْثُورًا وَرَجَزًا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ وَيَأْيِدِي النَّاسُ
مُتَّفِرَّةً كَثِيرٌ مِنْهَا وَتُسَمَّى الْمَلَاحِمَ . وَبَعْضُهَا فِي حَدَّثَانِ الْمِلَّةِ عَلَى الْعُمُومِ وَبَعْضُهَا
فِي دَوْلَةٍ عَلَى الْخُصُوصِ وَكُلُّهَا مَنْسُوبَةٌ إِلَى مَشَاهِيرِ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَلَيْسَ مِنْهَا أَصْلٌ
يُعْتَمَدُ عَلَى رِوَايَتِهِ عَنْ وَاضِعِهِ الْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ فَمِنْ هَذِهِ الْمَلَاحِمِ بِالْمَغْرِبِ قَصِيدَةُ
إِبْنِ مِرْنَانَةَ مِنْ بَحْرِ الطُّوِيلِ عَلَى زَوِيِّ الرَّاءِ وَهِيَ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ النَّاسِ وَتَحْسِبُ
الْعَامَّةُ أَنَّهَا مِنَ الْحَدَّثَانِ الْعَامِّ فَيُطْلَقُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا عَلَى الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالَّذِي
سَمِعْنَاهُ مِنْ شَيْوَحْنَا أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِدَوْلَةٍ لِمُتُونَةَ لِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ قُبِيلَ دَوْلَتِهِمْ
وَذَكَرَ فِيهَا اسْتِيلَاءَهُمْ عَلَى سَبْتَةَ مِنْ يَدِ مَوَالِي بَنِي حُمُودٍ وَمَلِكِهِمْ لِعُدْوَةِ الْأَنْدَلُسِ
وَمِنَ الْمَلَاحِمِ بِيَدِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ أَيْضًا قَصِيدَةُ تُسَمَّى التَّبَعِيَّةُ أَوَّلُهَا ،

طَرِبْتُ وَمَا ذَاكَ مِنِّي طَرِبْتُ وَقَدْ يَطْرِبُ الطَّائِرُ الْمُغْتَصِبُ
وَمَا ذَاكَ مِنِّي لِلْهَوَى أَرَاهُ وَلَكِنْ لِيَتَذَكَّرَ بَعْضُ السَّبَبِ
قَرِيبًا مِنْ خَمْسِمِائَةٍ بَيْنَتْ أَوْ أَلْفٍ فِيمَا يُقَالُ ذَكَرَ فِيهَا كَثِيرًا مِنْ دَوْلَةِ
الْمُوَحِّدِينَ وَأَشَارَ فِيهَا إِلَى الْفَاطِمِيِّ وَغَيْرِهِ وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ وَمِنَ الْمَلَاحِمِ
بِالْمَغْرِبِ أَيْضًا مَلْعَبَةٌ مِنَ الشُّعْرِ الرَّجُلِيِّ مَنْسُوبَةٌ لِبَعْضِ الْيَهُودِ ذَكَرَ فِيهَا أَحْكَامَ
الْقِرَانَاتِ لِعَضْرَةِ الْعُلُوِّيِّينَ وَالنَّخَسِينِ وَغَيْرَهُمَا وَذَكَرَ مِيتَتَهُ قَتِيلًا بِفَاسَ وَكَانَ
كَذَلِكَ فِيمَا زَعَمُوهُ وَأَوَّلُهُ ،

فِي صِغِ ذَا الْأَزْرَقِ لَشَرْفِهِ خِيَارًا فَافْهَمُوا يَا قَوْمَ هَذِهِ الْإِشَارَا

نجم زحل اخبر بذى العلاما وبذل الشكلا وهي سلاما
شاشية زرقا بدل العماما وشاش أزرق بدل الغراما

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودي يصلب في بلدة فاس في يوم عيد
حتى يجيه الناس من البوادي وقتله يا قوم على الفرد

وَأَنْبِئَاتُهُ نَحْوُ الْخَمْسِمِائَةِ وَهِيَ فِي الْقِرَائَاتِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى دَوْلَةِ الْمُؤَحِّدِينَ وَمِنْ
مَلَا حِمِ الْمَغْرِبِ أَيْضاً قَصِيدَةً مِنْ عَرُوضِ الْمُتَقَارِبِ عَلَى رَوِيِّ الْبَاءِ فِي حَدَثَانِ دَوْلَةِ
بَنِي أَبِي حَفْصٍ تُونُسَ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ مَنْسُوبَةً لَابْنِ الْأَبَارِ . وَقَالَ لِي قَاضِي
قُسْطَنْطِينِيَّةِ الْخَطِيبُ الْكَبِيرُ أَبُو عَلِيٍّ بَنُ بَادِيسَ وَكَانَ بَصِيراً بِمَا يَقُولُهُ وَلَهُ قَدَمٌ
فِي التَّنْجِيمِ فَقَالَ لِي : إِنَّ هَذَا ابْنُ الْأَبَارِ لَيْسَ هُوَ الْخَافِظُ الْأَنْدَلُسِيُّ الْكَاتِبُ مَقْتُولُ
الْمُسْتَنْصِرِ وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ خِيَّاطٌ مِنْ أَهْلِ تُونُسَ تَوَاطَأَتْ شَهْرَتُهُ مَعَ شَهْرَةِ الْخَافِظِ
وَكَانَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يُنْشِدُ هَذِهِ الْأَنْبِئَاتِ مِنْ هَذِهِ الْمُلْحَمَةِ وَبَقِيَ بَعْضُهَا فِي
حِفْظِي مَطْلَعُهَا :

غَذِيرِي مِنْ زَمَنِ قَلْبٍ يَغُرُّ بِبَارِقِهِ الْأَشْنَبِ

ومنها .

وَيَنْبَغُ مِنْ جَيْشِهِ قَائِداً وَيَبْقَى هُنَاكَ عَلَى مَرْقَبِ
فَتَاتِي إِلَى الشَّيْخِ أَخْبَارُهُ فَيَقْبَلُ كَالْجَمَلِ الْأَجْرَبِ
وَيُظْهِرُ مِنْ عَذْلِهِ سِيرَةً وَتِلْكَ سِيَاسَةُ مُسْتَجَلِبِ

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم .

فَأَمَّا ^(١) رَأَيْتَ الرُّسُومَ امْتَحَتْ وَلَمْ يُزْعَ حَقٌّ لِيذِي مَنْصِبِ

(١) قوله فأما رأيت أصله فان رأيت زبدت ما وادغمت في أن الشرطة المحذوف نونها خطأ وفي نسخة فلما

رأيت والأولى هي الموجودة في النسخة التونسية . ١ هـ . قاله نصر .

فَخُذْ فِي التَّرْحُلِ عَنْ تُونِسَ وَوَدِّعْ مَعَالِمَهَا وَاذْهَبْ
 فَسَوْفَ تَكُونُ بِهَا فِتْنَةً تُضِيفُ الْبَرِيءَ إِلَى الْمُذْنِبِ
 وَوَقَفْتُ بِالْمَغْرِبِ عَلَى مَلْحَمَةٍ أُخْرَى فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ هَؤُلَاءِ بِتُونِسَ
 فِيهَا بَعْدَ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى الشَّيْبِرِ عَاشِرِ مُلُوكِهِمْ ذَكَرَ مُحَمَّدٌ أَخِيهِ مِنْ بَعْدِهِ
 يَقُولُ فِيهَا :

وَبَعْدَ أَبِي عَبْدِ الإِلَهِ شَقِيقُهُ وَيُعْرَفُ بِالْوَثَابِ فِي نُسْخَةِ الْأَصْلِ
 إِلَّا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْهَا بَعْدَ أَخِيهِ وَكَانَ يُمْنِي بِذَلِكَ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ
 وَمِنَ الْمَلَا حِمٍ فِي الْمَغْرِبِ أَيْضاً الْمُلْعَبَةُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَى الْهَوْثَنِ^(١) عَلَى لُغَةِ الْعَامَّةِ فِي
 غَرُوضِ الْبَلَدِ :

دَعْنِي بِدَمْعِي الْهَتَانِ	فَتَرْتِ الْأَمْطَارَ وَلَمْ تَقْتَرِ
وَاسْتَقْتِ كُلَّهَا الْوَيْدَانِ	وَانْسِي تَمْلِي وَتَغْدَرِ
الْبِلَادُ كُلَّهَا تَرْوِي	فَأُولَى مَا مِيلَ مَا تَذْرِي
مَا بَيْنَ الصَّيْفِ وَالشَّتْوِي	وَالْعَامَ وَالرَّبِيعَ تَجْزِي
قَالَ حِينَ صَحَّتِ الدَّغْوَى ،	دَعْنِي نَبْكِي وَمِنْ عُنْدِ
أُنَادِي مِنْ ذِي الْأَزْمَانِ	ذَا الْقَرْنِ اشْتَدَّ وَتَمْرِي

وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَمَحْفُوظَةٌ بَيْنَ عَامَّةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَالْغَالِبِ عَلَيْهَا الْوَضْعُ
 لِأَنَّهُ لَمْ يَصْخُ مِنْهَا قَوْلٌ إِلَّا عَلَى تَأْوِيلٍ تُحَرِّفُهُ الْعَامَّةُ أَوِ الْخَارِفُ فِيهِ مَنْ يَنْتَحِلُهَا مِنْ
 الْخَاصَّةِ وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ عَلَى مَلْحَمَةٍ مَنْسُوبَةٍ لَابْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ فِي كَلَامِ
 طَوِيلٍ شَبَّهِ الْأَلْغَازَ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ لِتَحْلِيلِهِ إِلَى أَوْفَاقٍ عَدِيدَةٍ وَزَمُوزِ مَلْفُوزَةٍ
 وَأَشْكَالِ خَيَوَانَاتٍ تَامَةٍ وَرُؤُوسِ مَقْطَعَةٍ وَتَمَائِيلِ مِنْ حَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ . وَفِي آخِرِهَا
 قَصِيدَةٌ عَلَى رَوِيِّ اللَّامِ وَالْغَالِبِ أَنَّهَا كُلُّهَا غَيْرُ صَحِيحَةٍ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْشَأْ عَنْ أَصْلٍ عِلْمِيٍّ

(١) وفي نسخة أخرى الهوشنى .

مِنْ نِجَامَةٍ وَلَا غَيْرَهَا وَسَمِعْتُ أَيْضاً أَنَّ هُنَاكَ مَلَايِمَ أُخْرَى مَنَسُوبَةٌ لِابْنِ سَيِّئَاءٍ
وَابْنِ عُقَابٍ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى الصَّحَّةِ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْقِرَآنَاتِ
وَوَقِفْتُ بِالْمَشْرِقِ أَيْضاً عَلَى مَلْحَمَةٍ مِنْ حَدَّثَانِ دَوْلَةِ التُّرْكِ مَنَسُوبَةٍ إِلَى رَجُلٍ مِنْ
الصُّوفِيَّةِ يُسَمَّى الْبَاجِرِ بَقِيٍّ وَكُلُّهَا إِنْغَازٌ بِالْحُرُوفِ أُولَاهَا .

إِنْ شِئْتَ تَكْشِفُ سِرَّ الْجَفْرِ يَا سَائِلِي مِنْ عِلْمِ جَفَرٍ وَصِيٍّ وَالِدِ الْحَسَنِ
فَافْهَمْ وَكُنْ وَاعِياً حَرْفاً وَجَمَلْتَهُ وَالْوَصْفَ فَافْهَمْ كِفْعَلِ الْحَادِقِ الْفُطَنِ
أَمَّا الَّذِي قَبْلَ عَضْرِي لَسْتُ أَذْكَرُهُ لَكِنِّي أَذْكَرُ الْآتِي مِنَ الزَّمَنِ
بِشَهْرِ بَيْبُزَسَ يَبْقَى بَعْدَ خَمْسَتَيْهَا بِحَاءٍ مِيمٍ بَطِيشٌ نَامٌ فِي الْكُنَى
شَيْنٌ لَهُ أَثَرٌ مِنْ تَحْتِ سُرَّتِهِ لَهُ الْقَضَاءُ قَضَى أَيُّ ذَلِكَ الْمَنَى
فَمِضْرُ وَالشَّامُ مَعَ أَرْضِ الْعِرَاقِ لَهُ وَأَذَرِبِجَانُ فِي مُلْكٍ إِلَى الْيَمَنِ
ومنها ،

وَأَلْ بَوْرَانُ لَمَّا نَالَ طَاهِرُهُمْ الْفَاتِكُ الْبَاتِكُ الْمَعْنِيُّ بِالسِّمَنِ
لِخَلْعِ سَيْنٍ ضَعِيفِ السِّنِّ سَيْنٌ أَتَى لَا لَوْ فَاقَ وَنَوْتَ ذِي قَرَنِ
قَوْمٌ شَجَاعٌ لَهُ عَقْلٌ وَمَشُورَةٌ يَبْقَى بِحَاءٍ وَأَيْنَ بَعْدَ ذُو سِمَنِ
ومنها ،

مِنْ بَعْدِ بَاءٍ مِنَ الْأَعْوَامِ قَتَلْتَهُ يَلِي الْمَشُورَةَ مِيمُ الْمَلِكِ ذُو اللَّسَنِ
ومنها ،

هَذَا هُوَ الْأَعْرَجُ الْكَلْبِيُّ فَاغْنِ بِهِ فِي عَضْرِهِ فَتَنَ نَاهِيكَ مِنْ فَتَنِ
يَأْتِي مِنَ الشَّرْقِ فِي جِيْشٍ يُقَدِّمُهُمْ عَارِعَ الْقَافِ قَافٌ جَدُّ بِالْفَتَنِ
بِقَتْلِ دَالٍ وَمِثْلُ الشَّامِ أَجْمَعَهَا أَبَدْتَ بِشَجْوَعِ الْأَهْلِينَ وَالْوَطَنِ
إِذَا أَتَى زُلْزَلَتْ يَا وَيْحَ مِضْرٍ مِنَ الزَّلْزَالِ مَا زَالَ حَاءٌ غَيْرُ مَقْتَطِنِ
طَاءَ وَظَاءَ وَعَيْنٌ كُلُّهُمْ حَبَسُوا هَلَكَا وَيَنْفِقُ أَمْوَالاً بِلا ثَمَنِ

يَسِيرُ الْقَافُ قَافًا عِنْدَ جَمِيعِهِمْ هَوْنٌ بِهِ إِنَّ ذَاكَ الْحِضْنَ فِي سَكْنِ
وَيَنْصَبُونَ أَخَاهُ وَهُوَ صَالِحُهُمْ لَا سَلَمَ الْأَلْفَ سَيْنَ لَذَاكَ بُنْيَ
تَمَّتْ وَلَا يَتَهُمُ بِالْحَاءِ لَا أَحَدٌ مِنَ السَّنِينَ يُدَانِي الْمُلْكَ فِي الزَّمَنِ
وَيَقَالُ إِنَّهُ أَشَارَ إِلَى الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَقُدُومِ أَبِيهِ عَلَيْهِ بِمِصْرَ ،

يَأْتِي إِلَيْهِ أَبُوهُ بَعْدَ هُجْرَتِهِ وَطَوِيلِ غَيْبَتِهِ وَالشُّظْفِ وَالزَّرَنِ
وَأَبْنَاتُهَا كَثِيرَةٌ وَالْغَالِبُ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ وَمِثْلُ صِنْعَتِهَا كَانَ فِي الْقَدِيمِ كَثِيرٌ
وَمَعْرُوفٌ الْإِنْتِحَالِ .

حَكَى الْمُؤَرِّخُونَ لِأَخْبَارِ بَغْدَادَ أَنَّهُ كَانَ بِهَا أَيَّامَ الْمُقْتَدِرِ وَرَاقٌ ذَكِيٌّ يُعْرِفُ
بِالدَّانِيَّ (١) يَبْلُ الْأُورَاقَ وَيَكْتُبُ فِيهَا بِخَطِّ عَتِيقٍ يَرْمِزُ فِيهِ بِحُرُوفٍ مِنْ أَسْمَاءِ
أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَيُشِيرُ بِهَا إِلَى مَا يُعْرِفُ مِنْهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الرَّفْعَةِ وَالْجَاهِ كَأَنَّهَا
مَلَاحِمٌ وَيَحْصُلُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَأَنَّهُ وَضَعَ فِي بَعْضِ دَفَاتِرِهِ مِيمًا
مُكَرَّرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَجَاءَ بِهِ إِلَى مُفْلِحٍ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ . فَقَالَ لَهُ : هَذَا كِنَايَةٌ عَنْكَ
وَهُوَ مُفْلِحٌ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ وَذَكَرَ عَنْهُ مَا يَرْضَاهُ وَيَنَالُهُ مِنَ الدَّوْلَةِ وَنَصَبَ لِذَلِكَ
عَلَامَاتٍ يَمُوهُ بِهَا عَلَيْهِ فَبَدَّلَ لَهُ مَا أَغْنَاهُ بِهِ ثُمَّ وَضَعَهُ لِلْوَزِيرِ ابْنِ الْقَاسِمِ بْنِ وَهْبٍ
عَلَى مُفْلِحٍ هَذَا وَكَانَ مَعْرُوفًا فَجَاءَهُ بِأُورَاقٍ مِثْلِهَا وَذَكَرَ اسْمَ الْوَزِيرِ بِمِثْلِ هَذِهِ
الْحُرُوفِ وَبِعَلَامَاتٍ ذَكَرَهَا وَأَنَّهُ يَلِي الْوِزَارَةَ لِلثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَتُسْتَقِيمُ
الْأُمُورُ عَلَى يَدَيْهِ وَيَقْهَرُ الْأَعْدَاءُ وَتَغْنَمُ الدُّنْيَا فِي أَيَّامِهِ وَأَوْقَفَ مُفْلِحًا هَذَا عَلَى
الْأُورَاقِ وَذَكَرَ فِيهَا كَوَائِنَ أُخْرَى وَمَلَاحِمَ مِنْ هَذَا النُّوعِ مِمَّا وَقَعَ وَمِمَّا لَمْ يَقَعْ وَنَسَبَ
جَمِيعَهُ إِلَى دَانِيَالٍ فَأَعْجَبَ بِهِ مُفْلِحٌ . وَوَقَفَ عَلَيْهِ الْمُقْتَدِرُ وَاهْتَدَى مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ
وَالْعَلَامَاتِ إِلَى ابْنِ وَهْبٍ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لَوِزَارَتِهِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِيلَةِ الْعَرِيقَةِ فِي
الْكُذِبِ وَالْجَهْلِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَازِ وَالظَّاهِرِ أَنَّ هَذِهِ الْمَلْحَمَةَ الَّتِي يَنْسِبُونَهَا إِلَى

(١) وفي نسخة أخرى : الدنيالي .

الْبَاجَرِ بَقِيٍّ مِنْ هَذَا النَّوعِ . وَلَقَدْ سَأَلْتُ أَكْمَلَ الدِّينِ ابْنَ شَيْخِ الْحَنْفِيَّةِ مِنَ الْعَجَمِ
بِالدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ عَنْ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ وَعَنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي تُنسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ
وَهُوَ الْبَاجَرِ بَقِيٍّ وَكَانَ عَارِفًا بِطَرَائِقِهِمْ فَقَالَ كَانَ مِنَ الْقَلَنْدَرِيَّةِ الْمُبْتَدِعَةِ فِي خَلْقِ
اللَّحْيَةِ وَكَانَ يَتَحَدَّثُ عَمَّا يَكُونُ بِطَرِيقِ الْكَشْفِ وَيُؤْمِي إِلَى رَجَالٍ مُعَيَّنِينَ عِنْدَهُ
وَيُلْفِزُ عَلَيْهِمْ بِحُرُوفٍ يَعْينُهَا فِي ضَمْنِهَا لِمَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ وَرُبَّمَا يَظْهَرُ نَظْمُ ذَلِكَ فِي
أَبْيَاتٍ قَلِيلَةٍ كَانَ يَتَعَاهَدُهَا فَتَنَوَّقِلْتُ عَنْهُ وَوَلَعَ النَّاسُ بِهَا وَجَعَلُوهَا مَلْحَمَةً مَرْمُوزَةً
وَزَادَ فِيهَا الْخُرَاصُونَ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَشَغِلَ الْعَامَّةُ بِفِكَ يُمَوِّزُهَا وَهُوَ
أَمْرٌ مُمْتَنِعٌ إِذِ الرَّمْزُ إِنَّمَا يَهْدِي إِلَى كَشْفِهِ قَانُونٌ يَعْرِفُ قَبْلَهُ وَيُوضَعُ لَهُ وَأَمَّا مِثْلُ هَذِهِ
الْحُرُوفِ فِدَلَالَتُهَا عَلَى الْمُرَادِ مِنْهَا مَخْصُوصَةٌ بِهَذَا النَّظْمِ لَا يَتَجَاوَزُوهُ فَرَأَيْتُ مِنْ
كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ الْفَاضِلِ شِفَاءً لِمَا كَانَ فِي النَّفْسِ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ « وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الباب الرابع

من الكتاب الأول

في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال

وفيه سوابق ولواحق

الفصل الأول

في أن الدول من المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك
وَيَبَيِّنُهُ أَنَّ الْبِنَاءَ وَاخْتِطَاطَ الْمَنَازِلِ إِنَّمَا مِنْ مَنَازِعِ الْحَضَارَةِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا
التَّرَفُّ وَالذَّعَّةُ كَمَا قَدَّمَاهُ وَذَلِكَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الْبِدَاوَةِ وَمَنَازِعِهَا وَأَيْضًا فَالْمَدُنُ

وَالْأَمْصَارُ ذَاتُ هَيَاكِلَ وَأَجْرَامٍ عَظِيمَةٍ وَبِنَاءٍ كَبِيرٍ وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ لِلْعُمُومِ لَا لِلْخُصُوصِ فَتَحْتَاجُ إِلَى اجْتِمَاعِ الْأَيْدِي وَكَثْرَةِ التَّعَاوُنِ وَلَيْسَتْ مِنَ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ لِلنَّاسِ الَّتِي تَعُمُّ بِهَا الْبَلَوَى حَتَّى يَكُونَ نَزْوَعُهُمْ إِلَيْهَا اضْطِرَّاراً بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِكْرَاهِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَتَسْوِقِهِمْ إِلَيْهِ مُضْطَهَّدِينَ بَعْضُ الْمُلْكِ أَوْ مَرْغَبِينَ فِي الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ الَّذِي لَا يَفِي بِكَثْرَتِهِ إِلَّا الْمُلْكَ وَالْدَوْلَةُ . فَلَا بُدَّ فِي تَمْصِيرِ الْأَمْصَارِ وَاخْتِطَاطِ الْمُدُنِ مِنَ الدَّوْلَةِ وَالْمُلْكِ . ثُمَّ إِذَا بُنِيَتِ الْمَدِينَةُ وَكُمِّلَ تَشْيِيدُهَا بِحَسَبِ نَظَرٍ مِنْ شَيْدِهَا وَبِمَا اقْتَضَتْهُ الْأَحْوَالُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْأَرْضِيَّةُ فِيهَا فَعُمِّرَ الدَّوْلَةُ حِينَئِذٍ عُمُرُ لَهَا فَإِنْ كَانَ عُمُرُ الدَّوْلَةِ قَصِيراً وَقَفَ الْحُلُ فِيهَا عِنْدَ انْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ وَتَرَاجَعَ عُمُرَانِهَا وَخَرِبَتْ وَإِنْ كَانَ أَمَدُ الدَّوْلَةِ طَوِيلاً وَمُدَّتْهَا مُنْفَسِحَةٌ فَلَا تَزَالُ الْمَصَانِعُ فِيهَا تُشَادُّ وَالْمَنَارِلُ الرُّحْبِيَّةُ تَكْثُرُ وَتَتَعَدَّدُ وَنِطَاقُ الْأَسْوَاقِ يَتَّبَاعِدُ وَيَنْفَسِحُ إِلَى أَنْ تَسْغَ الْخِطَّةُ وَتَتَبَعُدَ الْمَسَافَةُ وَيَنْفَسِحَ ذَرْعُ الْمَسَاحَةِ كَمَا وَقَعَ بِبَغْدَادَ وَأَمْثَالِهَا . ذَكَرَ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ الْحُمَامَاتِ بَلَغَ عَدْدُهَا بِبَغْدَادَ لِعَهْدِ الْمَأْمُونِ خَمْسَةَ وَسِتِّينَ أَلْفَ حُمَامٍ وَكَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ مُتَلَاصِقَةٍ وَمَتَقَارِبَةٍ تَجَاوَزُ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ تَكُنْ مَدِينَةً وَخَدَهَا يَجْمَعُهَا سُورٌ وَاحِدٌ لِإِفْرَاطِ الْعُمُرَانِ وَكَذَا حَالُ الْفَيْرَوَانِ وَقَرْطَبَةِ وَالْمَهْدِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَحَالُ مِصْرَ الْقَاهِرَةِ بَعْدَهَا فِيمَا بَلَّغْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا بَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ الْمُشِيدَةِ لِلْمَدِينَةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِضَوَاحِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَمَا قَارَبَهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَسَائِطِ بَادِيَةٌ يُمِدُّهَا الْعُمُرَانُ دَائِماً فَيَكُونُ ذَلِكَ حَافِظاً لَوْجُودِهَا وَيَسْتَمِرُّ عُمُرُهَا بَعْدَ الدَّوْلَةِ كَمَا تَرَاهُ يَفَاسَ وَبِجَايَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَيَعْرِاقُ الْعَجَمِ مِنَ الْمَشْرِقِ الْمَوْجُودُ لَهَا الْعُمُرَانُ مِنَ الْجِبَالِ لِأَنَّ أَهْلَ الْبِدَاوَةِ إِذَا انْتَهَتْ أَحْوَالُهُمْ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الرِّفَةِ وَالْكَسْبِ تَدْعُو إِلَى الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ الَّذِي فِي طَبِيعَةِ الْبَشَرِ فَيَنْزِلُونَ الْمُدُنَ وَالْأَمْصَارَ وَيَتَأَهَّلُونَ وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَتِلْكَ الْمَدِينَةِ الْمَوْسِسَةُ مَادَّةً تَفِيدُهَا الْعُمُرَانُ بِتَرَادُفِ السَّاكِنِ مِنْ بَدْوِهَا فَيَكُونُ انْقِرَاضُ الدَّوْلَةِ خَرْقاً لِسِيَاحِهَا فَيَزُولُ حِفْظُهَا وَيَتَنَاقَصُ عُمُرَانُهَا شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى أَنْ يَبْذَعِرَ^(١)

(١) يَنْفَرِقُ .

سَاكِنُهَا وَتَغْرَبَ كَمَا وَقَعَ بِمِصْرَ وَبَغْدَادَ وَالْكُوفَةَ بِالْمَشْرِقِ وَالْقَيْرَوَانَ وَالْمَهْدِيَّةَ وَقَلْعَةَ بَنِي حَمَادٍ بِالْمَغْرِبِ وَأَمْثَالَهَا فَتَفْهَمُهُ وَرُبَّمَا يَنْزِلُ الْمَدِينَةَ بَعْدَ انْقِرَاضِ مُحْتَطِطِهَا الْأَوَّلِينَ مَلِكٌ آخَرُ وَدَوْلَةٌ ثَانِيَّةٌ يَتَّخِذُهَا قَرَارًا وَكُرْسِيًا يَسْتَفْنِي بِهَا عَنِ اخْتِطَاطِ مَدِينَةٍ يَنْزِلُهَا فَتَحْفَظُ تِلْكَ الدَّوْلَةُ سِيَاجَهَا وَتَتَزَايِدُ مَبَانِيهَا وَمَصَانِعُهَا يَتَزَايِدُ أَحْوَالُ الدَّوْلَةِ الثَّانِيَّةِ وَتَرْفَعُهَا وَتَسْتَجِدُّ بِعُمَرَانِهَا عُمْرًا آخَرَ كَمَا وَقَعَ بِفَاسَ وَالْقَاهِرَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل الثاني

في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وَذَلِكَ أَنَّ الْقَبَائِلَ وَالْعَصَائِبَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمُلْكُ اضْطَرُّوا لِلِاسْتِيلَاءِ عَلَى الْأَمْصَارِ لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْمُلْكُ مِنَ الدُّعَاةِ وَالرَّاحَةِ وَخَطِّ الْأَثْقَالِ وَاسْتِكْمَالِ مَا كَانَ نَاقِصًا مِنْ أُمُورِ الْعُمَرَاءِ فِي الْبَدْوِ وَالثَّانِي دَفْعُ مَا يَتَوَقَّعُ عَلَى الْمُلْكِ مِنْ أَمْرِ الْمُنَازَعِينَ وَالْمُشَاغِبِينَ لِأَنَّ الْمِصْرَ الَّذِي يَكُونُ فِي نَوَاحِيهِمْ رُبَّمَا يَكُونُ مَلْجَأً لِمَنْ يَرُومُ مَنَازَعَتَهُمْ وَالْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ وَانْتِزَاعَ ذَلِكَ الْمُلْكِ الَّذِي سَمَوْا إِلَيْهِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَيَنْتَصِمُ بِذَلِكَ الْمِصْرَ وَيُعَالِلُهُمْ وَمُعَالِبَةُ الْمِصْرِ عَلَى نِهَازَةٍ مِنَ الصُّعُوبَةِ وَالْمَشَقَّةِ وَالْمِصْرُ يَقُومُ مَقَامَ الْعَسَاكِرِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِمْتِنَاعِ وَنِكَايَةِ^(١) الْحَرْبِ مِنْ وَرَاءِ الْجُذُرَانِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كَثِيرٍ عَدَدٍ وَلَا عَظِيمٍ شَوْكَةٍ لِأَنَّ الشَّوْكََةَ وَالْعِصَابَةَ إِنَّمَا اخْتِيجَ إِلَيْهِمَا فِي الْحَرْبِ لِلثَّبَاتِ لِمَا يَقَعُ مِنْ بَعْدِ كُرَّةِ الْقَوْمِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ عِنْدَ الْجَوْلَةِ وَثَبَاتِ هَؤُلَاءِ بِالْجُذُرَانِ فَلَا يَضْطَرُّونَ إِلَى كَثِيرٍ عِصَابَةٍ وَلَا عَدَدٍ فَيَكُونُ حَالُ هَذَا الْحَضِي وَمَنْ يَنْتَصِمُ بِهِ مِنَ الْمُنَازَعِينَ مِمَّا يَفُتُّ فِي عَضْدِ^(٢) الْأُمَّةِ الَّتِي تَرُومُ الْإِسْتِيلَاءَ وَيَخْضُدُ شَوْكََةَ اسْتِيلَاتِهَا فَإِذَا كَانَتْ بَيْنَ

(١) نكيت في العدو ، أي هزمته وغلبته (لسان العرب) .

(٢) فت في عضده ، كسر قوته وفرق عنه اعدائه (قاموس) .

أَجْنَابِهِمْ أَمْصَارَ انْتِظَمُوهَا فِي اسْتِيلَائِهِمْ لِلْأَمْنِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْإِنْخِرَامِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِصْرٌ اسْتَحْدَثُوهُ ضَرُورَةً لِتَكْمِيلِ عُمْرَانِهِمْ أَوْ لَا وَحَطَّ أَثْقَالِهِمْ وَلَيْكُونَ شَجَاً فِي حَلْقِي مَنْ يَرُومُ الْعِزَّةَ وَالْإِمْتِنَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَوَائِفِهِمْ وَعَصَائِبِهِمْ فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمَلِكَ يَدْعُو إِلَى نَزُولِ الْأَمْصَارِ وَالْإِسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل الثالث

في أن المدن العظيمة والهيكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير

قَدْ قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي آثَارِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمَبَانِي وَغَيْرِهَا وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا وَذَلِكَ أَنَّ تَشْيِيدَ الْمَدِينِ إِنَّمَا يَخْصُلُ بِاجْتِمَاعِ الْفَعْلَةِ وَكَثْرَتِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ فَإِذَا كَانَتْ الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً مُتَّسِعَةً الْأَمْوَالِكِ حُشِرَ الْفَعْلَةُ مِنْ أَقْطَارِهَا وَجُمِعَتْ أَيْدِيهِمْ عَلَى عَمَلِهَا وَرُبَّمَا اسْتَعِينُ فِي ذَلِكَ فِي أَكْثَرِ الْأُمُورِ بِالْهِنْدَامِ الَّذِي يُضَاعَفُ الْقَوِيُّ وَالْقُدْرَةُ فِي حَمْلِ أَثْقَالِ الْبِنَاءِ لِعَجْزِ الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ وَضَعْفِهَا عَنْ ذَلِكَ كَالْمَخَالِ^(١) وَغَيْرِهِ وَرُبَّمَا يَتَوَهَّمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا نَظَرَ إِلَى آثَارِ الْأَقْدَمِينَ وَمَصَانِعِهِمُ الْعَظِيمَةِ مِثْلَ إِيوَانِ كِسْرَى وَأَهْرَامِ مِصْرَ وَخَنَازِيرِ الْمُعَلَّقَةِ وَشُرْشَالِ بِالْمَغْرِبِ إِنَّمَا كَانَتْ بِقُدْرِهِمْ مَتَفَرِّقِينَ أَوْ مُجْتَمِعِينَ فَيَتَخَيَّلُ لَهُمْ أَجْسَاماً تُنَاسِبُ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ بِكَثِيرٍ فِي طُولِهَا وَقُدْرِهَا لِتَنَاسُبِ بَيْنِهَا وَبَيْنَ الْقُدْرَةِ الَّتِي صَدَرَتْ تِلْكَ الْمَبَانِي عَنْهَا وَيُفْعَلُ عَنْ شَأْنِ الْهِنْدَامِ وَالْمَخَالِ وَمَا اقْتَضَتْهُ فِي ذَلِكَ الصَّنَاعَةُ الْهِنْدَسِيَّةُ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُتَعَلِّبِينَ فِي الْبِلَادِ يُعَايِنُ فِي شَأْنِ الْبِنَاءِ وَاسْتِعْمَالِ الْحِجَالِ فِي نَقْلِ الْأَجْرَامِ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُعْتَنِينَ بِذَلِكَ مِنَ الْعَجَمِ مَا يَشْهَدُ لَهُ بِمَا قُلْنَا عَيْنَانَا وَأَكْثَرُ آثَارِ الْأَقْدَمِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تُسَمِّيَهَا

(١) لم نعر على هذه الكلمة في القاموس ولا في لسان العرب . والمعروف المخل وهو آلة حديدية تستعمل

لرفع الحجارة .

الْعَامَّةُ عَادِيَّةٌ نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ عَادٍ لِتَوَلَّيْتَهُمْ أَنْ مَبَانِي عَادٍ وَمَصَانِعُهُمْ إِنَّمَا عَظُمَتْ لِعَظَمِ
 أَجْسَامِهِمْ وَتَضَاعَفَ قُدْرُهُمْ . وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَقَدْ نَجَدُ آثَاراً كَثِيرَةً مِنْ آثَارِ الَّذِينَ
 تُعْرِفُ مَقَادِيرَ أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْأَمَمِ وَهِيَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْعَظَمِ أَوْ أَعْظَمَ كَرِيوَانٍ كَسَرَى
 وَمَبَانِي الْعُبَيْدِيِّينَ مِنَ الشَّيْعَةِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَالصُّنْهَاجِيِّينَ وَأَثَرُهُمْ بَادٍ إِلَى الْيَوْمِ فِي
 صَوْمَعَةٍ قَلْعَةٍ بَنَى حَمَادٌ وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الْأَغَالِيَةِ فِي جَامِعِ الْقَيْرَوَانِ وَبِنَاءُ الْمُوَحِّدِينَ
 فِي رِبَاطِ الْفَتْحِ وَرِبَاطِ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ لِعَهْدِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْمَنْصُورَةِ بِإِزَاءِ
 تَلْمُسَانَ وَكَذَلِكَ الْحَنَائِيَا الَّتِي جَلَبَ إِلَيْهَا أَهْلُ قَرْطَاجَنَةَ الْمَاءِ فِي الْقَنَاةِ الرَّكَبِيَّةِ
 عَلَيْهَا مَائِلَةٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَبَانِي وَالْهَيَاكِالِ الَّتِي نَقَلْتُ إِلَيْنَا أَخْبَارَ أَهْلِهَا
 قَرِيباً وَبَعِيداً وَتَيَقَّنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِإِفْرَاطٍ فِي مَقَادِيرِ أَجْسَامِهِمْ وَإِنَّمَا هَذَا رَأْيٌ وَلَعَّ
 بِهِ الْقُصَاصُ عَنْ قَوْمٍ عَادٍ وَتَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ . وَنَجَدُ بَيُوتَ تَمُودَ فِي الْحَجَرِ مَنْحُوتَةً إِلَى
 هَذَا الْعَهْدِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا بَيُوتُهُمْ يَمُرُّ بِهَا الرُّكْبُ الْحِجَازِيُّ
 أَكْثَرَ السَّنِينَ وَيُشَاهِدُونَهَا لَا تَزِيدُ فِي جَوْهَا وَمَسَاحَتِهَا وَسَمَكِهَا عَلَى السُّتَعَاهِدِ وَإِنَّهُمْ
 لَيُبَالِغُونَ فِيهَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَزْعُمُونَ أَنَّ عَوْجَ بَنِ عَنَاقٍ مِنْ جِيلِ
 الْعَمَالِقَةِ كَانَ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ مِنَ الْبَحْرِ طَرِيقاً فَيَشْوِيهِ فِي الشَّمْسِ يَزْعُمُونَ بِذَلِكَ
 أَنَّ الشَّمْسَ حَارَّةٌ فِيمَا قَرُبَ مِنْهَا وَلَا يَغْلَمُونَ أَنَّ الْحَرَّ فِيمَا لَدَيْنَا هُوَ الضُّوءُ
 لِإِنْعِكَاسِ الشَّعَاعِ بِمُقَابَلَةِ سَطْحِ الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ وَأَمَّا الشَّمْسُ فِي نَفْسِهَا فَغَيْرُ حَارَّةٍ
 وَلَا بَارِدَةٌ وَإِنَّمَا هِيَ كَوْكَبٌ مُضِيءٌ لَا مِزَاجَ لَهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فِي الْفَصْلِ
 الثَّانِي حَيْثُ ذَكَرْنَا أَنَّ آثَارَ الدَّوْلَةِ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّتِهَا فِي أَصْلِهَا . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
 وَيُخَيِّكُم مَّا يَرِيدُ .

الفصل الرابع

في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل بينائها الدولة الواحدة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ الْبِنَاءِ إِلَى التَّعَاوُنِ وَمُضَاعَفَةِ الْقَدْرِ الْبَشَرِيَّةِ وَقَدْ تَكُونُ الْمَبَانِي فِي عَظَمِهَا أَكْثَرُ مِنَ الْقَدْرِ مُفْرَدَةً أَوْ مُضَاعَفَةً. بِالْهَذَا كَمَا قُلْنَا فَيُحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قَدَرٍ أُخْرَى مِثْلِهَا فِي أَزْمِنَةٍ مُتَعاقِبَةٍ إِلَى أَنْ تَتِمَّ . فَيَبْتَدِءُ الْأَوَّلُ مِنْهُمْ بِالْبِنَاءِ ، وَيَعْقِبُهُ الثَّانِي وَالثَّالِثُ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ اسْتَكْمَلَ شَأْنَهُ فِي خَشْرِ الْفَعْلَةِ وَجَمْعِ الْأَيْدِي حَتَّى يَتِمَّ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ وَيَكْمُلُ وَيَكُونُ مَائِلاً لِلْعِيَانِ يَظُنُّهُ مَنْ يَرَاهُ مِنَ الْآخَرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ . وَانْظُرْ فِي ذَلِكَ مَا ثَقُلَهُ الْمُؤَرِّخُونَ فِي بِنَاءِ سَدِّ مَارِبَ وَأَنَّ الَّذِي بَنَاهُ سَبَأُ بْنُ يَشْجَبَ وَسَاقَ إِلَيْهِ سَبْعِينَ وَادِياً وَعَاقَهُ الْمَوْتُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَأَتَمَّهُ مُلُوكُ حِمْيَرَ مِنْ بَعْدِهِ وَمِثْلُ هَذَا مَا ثَقُلَ فِي بِنَاءِ قَرْطَاجَنَةَ وَقَنَاتِهَا الرَّاكِبَةِ عَلَى الْحَنَائِيا الْعَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ فِي الْغَالِبِ هَذَا شَأْنُهَا وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةَ لِعَهْدِنَا نَجِدُ الْمَلِكَ الْوَاحِدَ يَشْرَعُ فِي اخْتِطَاطِهَا وَتَأْسِيسِهَا فَإِذَا لَمْ يَتَّبِعْ أَثَرَهُ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْمُلُوكِ فِي إِتْمَامِهَا بَقِيَتْ يَخَالِهَا وَلَمْ يَكْمُلِ الْقَصْدُ فِيهَا . وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَيْضاً أَنَّا نَجِدُ أَثَاراً كَثِيرَةً مِنَ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ تَعِجُزُ الدُّوَلُ عَنْ هَدْمِهَا وَتَخْرِيبِهَا مَعَ أَنَّ الْهَدْمَ أَيْسَرُ مِنَ الْبِنَاءِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّ الْهَدْمَ رُجُوعٌ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ الْعَدَمُ وَالْبِنَاءُ عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ . فَإِذَا وَجَدْنَا بِنَاءً تَضَعُفُ قُوَّتُنَا الْبَشَرِيَّةُ عَنْ هَدْمِهِ مَعَ سَهُولَةِ الْهَدْمِ عَلِمْنَا أَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي أَسَّسَتْهُ مُفْرَطَةُ الْقُوَّةِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ أَثَرُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهَذَا مِثْلُ مَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ فِي إِيْوَانَ كِسْرَى لَمَّا اغْتَرَزَ الرُّشَيْدُ عَلَى هَدْمِهِ وَبَعَثَ إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ فِي مَحْبَسِهِ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ وَاتْرُكْهُ مَائِلاً يَسْتَدِلُّ بِهِ

على عظيم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهَيْكَلِ فَأَتَتْهُمْ فِي النُّصِيحَةِ وَقَالَ أَخَذْتُ النُّعْرَةَ لِلْعَجَمِ وَاللَّهُ لَأُضْرِعَنَّهُ وَشَرَعَ فِي هَدْمِهِ وَجَمَعَ الْأَيْدِي عَلَيْهِ وَأَتَّخَذَ لَهُ الْفُؤُسَ وَحَمَاهُ بِالنَّارِ وَصَبَّ عَلَيْهِ الْخَلَّ حَتَّى إِذَا أَذْرَكَ الْعَجَزُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَخَافَ الْفُضِيحَةَ بَعَثَ إِلَى يَحْيَى يَسْتَشِيرُهُ ثَانِيًا فِي التَّجَافِي عَنِ الْهَدْمِ فَقَالَ لَا تَفْعَلْ وَاسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ لَوْلَا يُقَالُ عَجَزَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَلِكُ الْعَرَبِ عَنْ هَدْمِ مَضْنَعٍ مِنْ مَضَانِعِ الْعَجَمِ فَعَرَفَهَا الرُّشِيدُ وَأَقْصَرَ عَنْ هَدْمِهِ وَكَذَلِكَ اتَّفَقَ لِلْمَأْمُونِ فِي هَدْمِ الْأَهْرَامِ الَّتِي بِمِصْرَ وَجَمَعَ الْفَعْلَةَ لِهَدْمِهَا فَلَمْ يَحُلْ بِطَائِلٍ وَشَرَعُوا فِي نَقْيِهِ فَأَنْتَهَوْا إِلَى جَوْ بَيْنَ الْحَائِطِ وَالظَّاهِرِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْحِيطَانِ وَهُنَالِكَ كَانَ مُنْتَهَى هَدْمِهِمْ وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ فِيمَا يُقَالُ مَنْقَذُ ظَاهِرٍ وَيَزْعُمُ الزَّاعِمُونَ أَنَّهُ وَجَدَ رِكَازًا بَيْنَ تِلْكَ الْحِيطَانِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَكَذَلِكَ حَنَايَا الْمُعَلَّقَةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ تَحْتَاجُ أَهْلَ مَدِينَةِ تُونِسَ إِلَى انْتِخَابِ الْحِجَارَةِ لِبَنَائِهِمْ وَتَسْتَحِيدُ الصُّنَاعُ حِجَارَةَ تِلْكَ الْحَنَايَا فَيُحَاوِلُونَ عَلَى هَدْمِهَا الْأَيَّامَ الْعِدِيدَةَ وَلَا يَسْقُطُ الصَّغِيرُ مِنْ جُذْرَانِهَا إِلَّا بَعْدَ غَضَبِ الرِّيقِ وَتَجْتَمِعُ لَهُ الْمَحَافِلُ الْمَشْهُورَةُ شَهِدَتْ مِنْهَا فِي أَيَّامِ صِبَايَ كَثِيرًا « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ » .

الفصل الخامس

فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المراعاة
إِغْلَمَ أَنَّ الْمُدْنَ قَرَارٌ يَتَّخِذُهُ الْأَمَمُ عِنْدَ حُصُولِ الْغَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ التَّرَفِ وَدَوَاعِيهِ فَتَوَثَّرُ الدُّعَاةُ وَالسُّكُونُ وَتَتَوَجَّهُ إِلَى اتِّخَاذِ الْمَنَازِلِ لِلْقَرَارِ وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْقَرَارُ وَالْمَأْوَى وَجِبَ أَنْ يُزَاعَى فِيهِ دَفْعُ الْمَضَارِّ بِالْحِمَايَةِ مِنْ طَوَارِقِهَا وَجَلْبُ الْمَنَافِعِ وَتَسْهِيلُ الْمَرَافِقِ لَهَا فَأَمَّا الْحِمَايَةُ مِنَ الْمَضَارِّ فَيُزَاعَى لَهَا أَنْ يُدَارَ عَلَى

مَنَازِلَهَا جَمِيعاً سِيَاحَ الْأَسْوَارِ وَأَنْ يَكُونَ وَضَعُ ذَلِكَ فِي مُتَمَنِّعٍ مِنَ الْأَمَكِيَّةِ إِمَّا عَلَى هَضْبَةٍ مُتَوَعَّرَةٍ مِنَ الْجَبَلِ وَإِمَّا بِاسْتِدَارَةِ بَحْرِ أَوْ نَهْرٍ بِهَا حَتَّى لَا يُوَصَلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ الْمُبُورِ عَلَى جِسْرِ أَوْ قَنْطَرَةٍ فَيَضَعُ مَنَازِلَهَا عَلَى الْعَدُوِّ وَيَتَضَاعَفُ امْتِنَاعُهَا وَحُصْنُهَا . وَمِمَّا يَرَاغَى فِي ذَلِكَ لِلْحِمَايَةِ مِنَ الْأَفَاتِ السَّمَاءِيَّةِ طَيْبُ الْهَوَاءِ لِلسَّلَامَةِ مِنَ الْأَمْرَاضِ . فَإِنَّ الْهَوَاءَ إِذَا كَانَ رَاكِداً خَبِيثاً أَوْ مُجَاوِراً لِلْمِيَاهِ الْفَاسِدَةِ أَوْ مُنَافِعاً^(١) مُتَعَفِّئَةً أَوْ مُرَوِّجَ خَبِيثَةٍ أَسْرَعَ إِلَيْهَا الْعَفَنُ مِنْ مُجَاوَرَتِهَا فَاسْرَعَ الْمَرَضُ لِلْخَيَوَانِ الْكَائِنِ فِيهِ لَا مَحَالَةَ وَهَذَا مُشَاهَدٌ . وَالْمُدُنُ الَّتِي لَمْ يَزِرْ فِيهَا طَيْبُ الْهَوَاءِ كَثِيرَةٌ الْأَمْرَاضُ فِي الْغَالِبِ . وَقَدْ اشتهَرَ بِذَلِكَ فِي قَطْرِ الْمَغْرِبِ بَلَدُ قَابَسَ مِنْ بِلَادِ الْجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ فَلَا يَكَادُ سَاكِنُهَا أَوْ طَارِقُهَا يَخْلُصُ مِنْ حُمَى الْعَفَنِ بِوَجْهِهِ . وَلَقَدْ يُقَالُ إِنْ ذَلِكَ حَادَثَ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ وَتَقَلَّ الْبُكْرِيُّ فِي سَبَبِ حَدُوثِهِ أَنَّهُ وَقَعَ فِيهَا خَفَرٌ ظَهَرَ فِيهِ إِنْاءٌ مِنْ نَحَاسٍ مَخْتَوِمْ بِالرُّضَاصِ . فَلَمَّا قُضِيَ خِتَامُهُ صَعِدَ مِنْهُ دُخَانٌ إِلَى الْجَوْ وَانْقَطَعَ . وَكَانَ ذَلِكَ مَبْدَأَ أَمْرَاضِ الْحُمِيَّاتِ فِيهِ وَأَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ الْإِنْاءَ كَانَ مُشْتَمِلاً عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِ الطُّلُسمَاتِ لِوَبَائِهِ وَأَنَّهُ ذَهَبَ سِرُّهُ بِذَهَابِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهَا الْعَفَنُ وَالْوَبَاءُ . وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعَامَةِ وَمَبَاحِثِهِمُ الرُّكِيكَةِ وَالْبُكْرِيُّ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَبَاهَةِ الْعِلْمِ وَاسْتِنَارَةِ الْبَصِيرَةِ بِحَيْثُ يَدْفَعُ مِثْلَ هَذَا أَوْ يَتَبَيَّنُ خَرَفَهُ فَقَلَّه كَمَا سَمِعَهُ . وَالَّذِي يَكْشِفُ لَكَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَهْوِيَّةَ الْعَفَنَةَ أَكْثَرُ مَا يَهَيِّئُهَا لِتَغْفِيَنِ الْأَجْسَامَ وَأَمْرَاضِ الْحُمِيَّاتِ رُكُودُهَا . فَإِذَا تَخَلَّلَتْهَا الرِّيحُ وَتَفَشَّتْ وَذَهَبَتْ بِهَا يَمِيناً وَشَمَالاً خَفَّ شَأْنُ الْعَفَنِ وَالْمَرَضِ الْبَادِي مِنْهَا لِلْخَيَوَانَاتِ . وَالْبَلَدُ إِذَا كَانَ كَثِيرَ السَّاكِينِ وَكَثُرَتْ حَرَكَاتُ أَهْلِهِ فَيَتَمَوَّجُ الْهَوَاءُ ضَرُورَةً وَتَحْدُثُ الرِّيحُ الْمُخَلَّلَةُ لِلْهَوَاءِ الرَّاكِدِ وَيَكُونُ ذَلِكَ مُعِيناً لَهُ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالتَّمَوُّجِ وَإِذَا خَفَّ السَّاكِنُ لَمْ يَجِدِ الْهَوَاءَ مُعِيناً عَلَى حَرَكَتِهِ وَتَمَوُّجِهِ وَبَقِيَ سَاكِناً رَاكِداً وَعَظُمَ عَفَنُهُ وَكَثُرَ ضَرَرُهُ . وَبَلَدُ قَابَسَ هَذِهِ كَانَتْ عِنْدَمَا كَانَتْ أَفْرِيقِيَّةً

(١) جمع منع ، موضع منخفض قليلاً تتجمع فيه المياه فتتحول إلى مستنقع .

مُسْتَجِدَّةُ الْعُمْرَانِ كَثِيرَةَ السَّاكِينِ تَمْوُجُ بِأَهْلِهَا مَوْجاً فَكَانَ ذَلِكَ مُعِيناً عَلَى تَمْوُجِ
الْهَوَاءِ وَاضْطِرَابِهِ وَتَخْفِيفِ الْأَذَى مِنْهُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَثِيرُ عَقْفٍ وَلَا مَرَضٍ وَعِنْدَمَا
خَفَّ سَاكِنُهَا رَكَدَ هَوَاؤُهَا الْمُتَعَفِّقُ بِفَسَادِ مِيَاهِهَا فَكَثُرَ الْعَقْفُ وَالْمَرَضُ . فَهَذَا وَجْهُهُ
لَا غَيْرُ . وَقَدْ رَأَيْنَا عَكْسَ ذَلِكَ فِي بِلَادٍ وَضِعَتْ وَلَمْ يُرَاعَ فِيهَا طِيبُ الْهَوَاءِ وَكَانَتْ
أَوَّلًا قَلِيلَةَ السَّاكِينِ فَكَانَتْ أَمْرَاضُهَا كَثِيرَةً فَلَمَّا كَثُرَ سُكَّانُهَا انْتَقَلَ خَالُهَا عَنْ ذَلِكَ
وَهَذَا مِثْلُ دَارِ الْمَلِكِ بِفَاسٍ لِهَذَا الْعَهْدِ الْمُسَمَّى بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ وَكَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ فِي
الْعَالَمِ فَتَفَهَّمْهُ تَجِدْ مَا قُلْتَهُ لَكَ . وَأَمَّا جَلْبُ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ فَيُرَاعَى فِيهِ أُمُورٌ
مِنْهَا الْمَاءُ بِأَنْ يَكُونَ الْبَلَدُ عَلَى نَهْرٍ أَوْ بِإِزَائِهَا عَيُونٌ غَذَبَةٌ ثَرَّةٌ فَإِنْ وَجُودَ الْمَاءُ
قَرِيباً مِنَ الْبَلَدِ يُسَهِّلُ عَلَى السَّاكِينِ حَاجَةَ الْمَاءِ وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ فَيَكُونُ لَهُمْ فِي وَجُودِهِ
مَرْفَقَةٌ عَظِيمَةٌ عَامَّةٌ . وَمِمَّا يُرَاعَى مِنَ الْمَرَافِقِ فِي الْمَدِينِ طِيبُ الْمَرَاعِي لِسَائِمَتِهِمْ إِذْ
صَاحِبُ كُلِّ قَرَارٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ دَوْجِنِ الْحَيَوَانِ لِلنَّتَاجِ وَالضَّرْعِ وَالرُّكُوبِ وَلَا بُدَّ لَهَا
مِنَ الْمَرَاعَى فَإِذَا كَانَ قَرِيباً طَيِّباً كَانَ ذَلِكَ أَزْفَقَ بِحَالِهِمْ لِمَا يِعَانُونَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي
بُعِيدِهِ وَمِمَّا يُرَاعَى أَيْضاً الْمَزَارِعُ فَإِنَّ الزُّرُوعَ هِيَ الْأَقْوَاتُ . فَإِذَا كَانَتْ مَزَارِعُ الْبَلَدِ
بِالْقُرْبِ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ اسْهَلًا فِي اتِّخَاذِهِ وَأَقْرَبَ فِي تَحْصِيلِهِ وَمِنْ ذَلِكَ الشَّجَرُ
لِلْحَطَبِ وَالْبِنَاءِ فَإِنَّ الْحَطَبَ مِمَّا تَعُمُّ الْبُلُودُ فِي اتِّخَاذِهِ لَوْقُودِ النَّيْرَانِ لِلِاضْطِلَاءِ
وَالطَّبِيخِ . وَالخَشَبُ أَيْضاً ضَرُورِيٌّ لِسَقْفِهِمْ وَكَثِيرٌ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ الْخَشَبُ مِنْ
ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَقَدْ يُرَاعَى أَيْضاً قُرْبُهَا مِنَ الْبَحْرِ لِتَسْهِيلِ الْحَاجَاتِ الْقَاصِيَةِ مِنَ الْبِلَادِ
النَّائِيَةِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَثَالِيَةِ الْأَوَّلِ وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِتَفَاوُتِ الْحَاجَاتِ وَمَا
تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَةُ السَّاكِينِ . وَقَدْ يَكُونُ الْوَاضِعُ غَافِلاً عَنْ حُسْنِ الْإِخْتِيَارِ الطَّبِيعِيِّ أَوْ
إِنَّمَا يُرَاعِي مَا هُوَ أَهْمٌ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ ، وَلَا يَذْكُرُ حَاجَةَ غَيْرِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ الْعَرَبُ
لِأَوَّلِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَدِينِ الَّتِي اخْتَطَبُوهَا بِالْعِرَاقِ وَأَفْرِيقِيَّةَ فَلَنْهَمُ لَمْ يُرَاعُوا فِيهَا إِلَّا
الْأَهْمَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَرَاعِي الْإِنْبِلِ وَمَا يَضْلُحُ لَهَا مِنَ الشَّجَرِ وَالْمَاءِ الْمِلْحِ وَلَمْ يُرَاعُوا
الْمَاءَ وَلَا الْمَزَارِعَ وَلَا الْحَطَبَ وَلَا مَرَاعِي السَّائِمَةِ مِنْ ذَوَاتِ الظَّلْفِ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ

كَالْفَيْرَوَانِ وَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ وَأَمْثَالِهَا وَلِهَذَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْخَرَابِ مَا لَمْ تُرَاعَ فِيهَا
الْأُمُورُ الطَّبِيعِيَّةُ .

وَمِمَّا يُرَاعَى فِي الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي عَلَى الْبَحْرِ أَنْ تَكُونَ فِي جَبَلٍ أَوْ تَكُونَ
بَيْنَ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ مَوْفُورَةً الْعَدَدِ تَكُونَ صَرِيخاً لِلْمَدِينَةِ مَتَى طَرَقَهَا طَارِقٌ مِنْ
الْعَدُوِّ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ وَلَمْ يَكُنْ بِسَاحَتِهَا
عُمَرَانٌ لِلْقَبَائِلِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّاتِ وَلَا مَوْضِعُهَا مُتَوَعَّرٌ مِنَ الْجَبَلِ كَانَتْ فِي غِرَةِ اللَّيِّنَاتِ
وَسَهْلِ طُرُوقِهَا فِي الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ عَلَى عَدُوِّهَا وَتَحِيْفُهُ لَهَا لِمَا يَأْمَنُ مِنْ وَجُودِ
الصَّرِيخِ لَهَا . وَأَنْ الْحَضَرَ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلدَّعَةِ قَدْ صَارُوا عِيَالاً وَخَرَجُوا عَنْ حُكْمِ
الْمُقَاتِلَةِ . وَهَذِهِ كَالِإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَطَرَابُلُسَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَبُونَةَ وَسَلَا .
وَمَتَى كَانَتْ الْقَبَائِلُ وَالْعَصَائِبُ مُوْطِنِينَ بِقُرْبِهَا بِحَيْثُ يَنْلُغُهُمُ الصَّرِيخُ وَالنَّعِيرُ
وَكَانَتْ مُتَوَعَّرَةً الْمَسَالِكِ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا بِاخْتِطَاطِهَا فِي هَضَابِ الْجِبَالِ وَعَلَى
أَسْنِمَتِهَا كَانَ لَهَا بِذَلِكَ مَنَعَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ وَيَتَسَوَّأُ مِنْ طُرُوقِهَا لِمَا يَكَايِدُونَهُ مِنْ
وَعْرِهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ إِجَايَةِ صَرِيخِهَا كَمَا فِي سَبْتَةِ وَبِجَايَةِ وَبَلَدِ الْقِلِّ عَلَى
صِغَرِهَا فَافْهَمْ ذَلِكَ وَاعْتَبِرْهُ فِي اخْتِصَاصِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بِاسْمِ الشَّغْرِ مِنْ لَدُنِ الدَّوْلَةِ
الْعُبَاسِيَّةِ مَعَ أَنَّ الدَّعْوَةَ مِنْ وَرَائِهَا يَبْرُقَةُ وَأَفْرِيقِيَّةُ . وَإِنَّمَا اغْتَبِرَ فِي ذَلِكَ الْمَخَافَةُ
الْمَتَوَقَّعَةُ فِيهَا مِنَ الْبَحْرِ لِسَهُولَةِ وَضْعِهَا وَلِذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ كَانَ طُرُوقُ الْعَدُوِّ
لِلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَطَرَابُلُسَ فِي الْمِلَّةِ مَرَاتٍ مُتَعَدِّدَةً وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إِغْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضْلُ مِنَ الْأَرْضِ بِقَاعاً اخْتَصَّهَا بِتَشْرِيفِهِ وَجَعَلَهَا
مَوَاطِنَ لِعِبَادَتِهِ يُضَاعَفُ فِيهَا الثَّوَابُ وَيَنْمُو بِهَا الْأَجُورُ وَأَخْبَرْنَا بِذَلِكَ عَلَى أَلْسِنِ

رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ لَطْفًا يَبْعَادِهِ وَتَسْهِيلًا لِمَطَرِ السَّعَادَةِ لَهُمْ . وَكَانَتْ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَفْضَلُ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَسَبَمَا ثُبِتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَهِيَ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَبَيْتُ الْمُقَدَّسِ . أَمَّا الْبَيْتُ الْحَرَامُ الَّذِي بِمَكَّةَ فَهُوَ بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ . أَمَرَهُ اللَّهُ بِبَنَائِهِ وَأَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ إِلَيْهِ فَبَنَاهُ هُوَ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ كَمَا نَصَّ الْقُرْآنُ وَقَامَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ فِيهِ وَسَكَنَ إِسْمَاعِيلُ بِهِ مَعَ هَاجِرَ وَمَنْ نَزَلَ مَعَهُمْ مِنْ جُرْهُمَ إِلَى أَنْ قَبِضَهُمَا اللَّهُ وَدَفِنَا بِالْحَجَرِ ^(١) مِنْهُ . وَبَيْتُ الْمُقَدَّسِ بَنَاهُ دَاوُدُ وَسَلِيمَانُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . أَمَرَهُمَا اللَّهُ بِبَنَاءِ مَسْجِدِهِ وَنَضَبِ هَيَاكِلِهِ وَدَفِنِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وَلَدِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوَالِيهِ . وَالْمَدِينَةُ مُهَاجِرُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا وَإِقَامَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ بِهَا فَبَنَى مَسْجِدَهُ الْحَرَامَ بِهَا وَكَانَ مَلْحَدُهُ الشَّرِيفُ فِي تَرْتِيهَا فَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ قُرَّةُ عَيْنِ الْمُسْلِمِينَ وَمَهْوَى أَفْئِدَتِهِمْ وَعَظْمَةُ دِينِهِمْ وَفِي الْأَثَارِ مِنْ فَضْلِهَا وَمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ فِي مُجَاوَرَتِهَا وَالصَّلَاةِ فِيهَا كَثِيرٍ مَعْرُوفٍ فَلْنُشِرْ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ أَوَّلِيَّةِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ وَكَيْفَ تَدْرَجَتْ أَحْوَالُهَا إِلَى أَنْ كَمُلَ ظَهْرُهَا فِي الْعَالَمِ . فَأَمَّا مَكَّةُ فَأَوَّلِيَّتُهَا فِيمَا يُقَالُ أَنَّ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بَنَاهَا قِبَالَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ثُمَّ هَدَمَهَا الطُوفَانُ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ . وَإِنَّمَا اقْتَبَسُوهُ مِنْ مَحْمِلِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ » ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَشَأْنِ زَوْجَتِهِ سَارَةَ وَغَيْرَتِهَا مِنْ هَاجِرَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَ ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ هَاجِرَ بِالْفَلَاةِ فَوَضَعَهُمَا فِي مَكَانِ الْبَيْتِ وَسَارَ عَنْهُمَا وَكَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمَا مِنَ اللَّطْفِ فِي نَبْعِ مَاءٍ زَمَزَمَ وَمُرُورِ الرُّفْقَةِ مِنْ جُرْهُمَ بِهَا حَتَّى اخْتَمَلُوهُمَا وَسَكَنُوا إِلَيْهِمَا وَنَزَلُوا مَعَهُمَا حَوَالِي زَمَزَمَ كَمَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ فَاتَّخَذَ إِسْمَاعِيلُ بِمَوْضِعِ الْكَعْبَةِ بَيْتًا يَأْوِي إِلَيْهِ وَأَذَارَ عَلَيْهِ سَيَاجَا مِنْ الرُّدْمِ وَجَعَلَهُ زَرْبًا ^(٢) لِنَعْمِهِ وَجَاءَ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَرَارًا لِرِيَازَتِهِ مِنَ الشَّامِ

(١) الكعبة . وقال ابن الأثير لمن الحجر هو الحائط المستدير إلى جانب الكعبة الغربي .

(٢) زربية الموالشي .

أَمَرَ فِي آخِرِهَا بِبِنَاءِ الْكُعْبَةِ مَكَانَ ذَلِكَ الرَّبِّ فَبَنَاهُ وَاسْتَعَانَ فِيهِ بِإِبْنِهِ إِسْمَاعِيلَ
وَدَعَا النَّاسَ إِلَى حُجِّهِ وَبَقِيَ إِسْمَاعِيلُ سَاكِنًا بِهِ وَلَمَّا قَبِضَتْ أُمُّهُ هَاجَرُ وَقَامَ بَنُوهُ مِنْ
بَعْدِهِ بِأَمْرِ الْبَيْتِ مَعَ أَخْوَالِهِمْ مِنْ جُرْهُمَ ثُمَّ الْعَمَالِيقُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى
ذَلِكَ وَالنَّاسُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أَفْقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ لَا مِنْ بَنِي
إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَنَا أَوْ نَآى فَقَدْ نُقِلَ أَنَّ التَّبَايَعَةَ كَانَتْ تَحُجُّ الْبَيْتَ
وَتُعَظَّمُهُ وَأَنْ تَبْعًا كَسَاهَا الْمَلَأَ وَالْوَصَائِلُ وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِفْتَاحًا .
وَنُقِلَ أَيْضًا أَنَّ الْفُرْسَ كَانَتْ تَحُجُّهُ وَتَقْرُبُ إِلَيْهِ وَأَنَّ غَزَالِي الذَّهَبِ اللَّذِينَ وَجَدَهُمَا
عِنْدَ الْمُطَلِبِ حِينَ اخْتَفَرَ زَمْزَمَ كَانَا مِنْ قَرَابَتِهِمْ . وَلَمْ يَزَلْ لِحُرْهُمَ الْوَلَايَةُ عَلَيْهِ
مِنْ بَعْدِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قَبْلِ خَوْلَانِهِمْ حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ خَزَاعَةٌ وَأَقَامُوا بِهَا
بَعْدَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ كَثُرَ وَلَدُ إِسْمَاعِيلَ وَانْتَشَرُوا وَتَشَعَّبُوا إِلَى كِنَانَةٍ ثُمَّ كِنَانَةٌ إِلَى
قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَسَاءَتْ وَلَايَةُ خَزَاعَةٍ فَعَلَبَتْهُمْ قُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِهِ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ
الْبَيْتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ قَصِي بْنُ كِلَابٍ فَبَنَى الْبَيْتَ وَسَقَفَهُ بِخَشَبِ الدُّومِ
وَجَرِيدِ النَّخْلِ وَقَالَ الْأَعَشَى :

خَلَفْتُ بِثَوْبِي رَاهِبَ الدُّورِ وَالَّتِي بَنَاهَا قَصِيٌّ وَالْمِضَاضُ بْنُ جُرْهُمِ
ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ وَيُقَالُ حَرِيقٌ وَتَهْدَمُ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا النِّفْقَةَ لِذَلِكَ
مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَانْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جَدَّةَ فَاشْتَرَوْا خَشَبَهَا لِلْسَّقْفِ وَكَانَتْ جُذْرَانُهُ
فَوْقَ الْقَامَةِ فَجَعَلُوهَا ثِمَانِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَكَانَ الْبَابُ لَاصِقًا بِالْأَرْضِ فَجَعَلُوهُ فَوْقَ
الْقَامَةِ لئَلَّا تَدْخُلَهُ السُّيُولُ وَقَصُرَتْ بِهِمُ النِّفْقَةُ عَنْ إِتِمَامِهِ فَقَصُرُوا عَنْ قَوَاعِيدِهِ وَتَرَكُوا
مِنْهُ سِتَّ أَذْرُعٍ وَشِبْرًا أَذَارُوهَا بِجِدَارٍ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ الْحَجَرُ وَبَقِيَ
الْبَيْتُ عَلَى هَذَا الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحْصُنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ وَزَحَفَتْ إِلَيْهِ
جِيُوشُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ مَعَ الْحَصِينِ بْنِ نُمَيْرٍ السَّكُونِيِّ . وَرَمَى الْبَيْتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ
وَسِتِّينَ فَأَصَابَهُ حَرِيقٌ ، يُقَالُ مِنَ النَّفْطِ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ فَتَصَدَّعَتْ
حِيطَانُهُ فَهَدَمَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ بَعْدَ أَنْ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ

الصَّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ . وَاجْتَنَحَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، « لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا » فَهَدَمَهُ وَكَشَفَ عَنْ أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمَعَ الْوُجُوهَ وَالْأَكَابِرَ حَتَّى غَايَنُوهُ وَأَشَارَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالتَّحْرِي فِي حِفْظِ الْقِبْلَةِ عَلَى النَّاسِ فَأَذَارَ عَلَى الْأَسَاسِ الْخَشَبَ وَنَصَبَ مِنْ فَوْقِهَا الْأَشْتَارَ ^(١) حِفْظًا لِلْقِبْلَةِ وَبَعَثَ إِلَى صَنْعَاءَ فِي الْفِصَّةِ ^(٢) وَالْكِلْسَ فَحَمَلَهَا . وَسَأَلَ عَنْ مَقْطِيعِ الْحِجَارَةِ الْأُولِ فَجَمَعَ مِنْهَا مَا اخْتِاجَ إِلَيْهِ ثُمَّ شَرَعَ فِي الْبِنَاءِ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَفَعَ جُذْرَانَهَا سَبْعًا وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا وَجَعَلَ لَهَا بَابَيْنِ لِاصْقَيْنِ بِالْأَرْضِ كَمَا رَوَى فِي حَدِيثِهِ وَجَعَلَ فَرْشَهَا وَازْرَهَا بِالرَّخَامِ وَصَاعَ لَهَا الْمَفَاتِيحَ وَصَفَائِحَ الْأَبْوَابِ مِنَ الذَّهَبِ . ثُمَّ جَاءَ الْحِجَاجُ لِحِصَارِهِ أَيَّامَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَرَمَى عَلَى الْمَسْجِدِ بِالْمَنْجَنِيقَاتِ إِلَى أَنْ تَصَدَّعَتْ حِيطَاتُهَا . ثُمَّ لَمَّا ظَفِرَ بَابِنِ الزُّبَيْرِ شَاوَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ فِيمَا بَنَاهُ وَزَادَهُ فِي الْبَيْتِ فَأَمَرَهُ بِهِدْمِهِ وَرَدَّ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ قُرَيْشٍ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ . وَيُقَالُ ، إِنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذَلِكَ حِينَ عَلِمَ صِحَّةَ رِوَايَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ . وَقَالَ ، « وَدَدْتُ أَنِّي كُنْتُ حَمَلْتُ أَبَا حَبِيبٍ فِي أَمْرِ الْبَيْتِ وَبِنَائِهِ مَا تَحْمَلُ » فَهَدَمَ الْحِجَاجُ مِنْهَا سِتَّ أَذْرُعَ وَشِبْرًا مَكَانَ الْحَجَرِ وَبَنَاهَا عَلَى أَسَاسِ قُرَيْشٍ وَسَدَّ الْبَابَ الْغَرْبِيَّ وَمَا تَخْتُ عَتَبَةَ بَابِهَا الْيَوْمَ مِنَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ . وَتَرَكَ سَائِرَهَا لَمْ يُغَيِّرْ مِنْهُ شَيْئًا فَكُلُّ الْبِنَاءِ الَّذِي فِيهِ الْيَوْمَ بِنَاءُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَبِنَاءُ الْحِجَاجِ فِي الْحَائِطِ صَلَّةَ ظَاهِرَةَ لِلْعِيَانِ لُحْمَةً ظَاهِرَةً بَيْنَ الْبِنَائَيْنِ . وَالْبِنَاءُ مُتَمَيِّزٌ عَنِ الْبِنَاءِ بِمِقْدَارِ إِصْبَعٍ شِبْهُ الصَّدْعِ وَقَدْ لُحِمَ . وَيَعْرِضُ هَهُنَا إِشْكَالٌ قَوِيٌّ لِمُنَافَاتِهِ لِمَا يَقُولُهُ الْفُقَهَاءُ فِي أَمْرِ الطَّوَافِ وَيَحْذَرُ الطَّائِفُ أَنْ يَمِيلَ عَلَى الشَّاذِرَوَانِ الدَّائِرِ عَلَى أَسَاسِ الْجُدُرِ مِنْ أَسْفَلِهَا فَيَقَعُ طَوَافُهُ دَاخِلَ الْبَيْتِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجُدُرَ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَى بَعْضِ الْأَسَاسِ وَتَرَكَ بَعْضُهُ وَهُوَ مَكَانُ الشَّاذِرَوَانِ وَكَذَا قَالُوا فِي تَقْيِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدَ لَا بُدَّ مِنْ رُجُوعِ الطَّائِفِ مِنْ

(١) فِي النسخة الباريسية : السُّتُورُ .

(٢) فِي النسخة الباريسية : القِصَّةُ وَمَعْنَاهَا الْحِصَّةُ وَهُوَ الْأَصَحُّ .

التَّقْبِيلَ حَتَّى يَسْتَوِيَ قَائِمًا لِلْأَمْرِ يَقَعُ بَعْضُ طَوَائِفِهِ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَإِذَا كَانَتِ الْجُدْرَانُ كُلُّهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ إِنَّمَا بُنِيَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا الَّذِي قَالُوهُ وَلَا مَخْلَصَ مِنْ هَذَا إِلَّا بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ الْحِجَابُ هَذِمَ جَمِيعَهُ وَأَعَادَهُ وَقَدْ تَقَلَّ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ إِلَّا أَنْ الْعِيَانُ فِي شَوَاهِدِ الْبِنَاءِ بِالتَّحَامِ مَا بَيَّنَّ الْبِنَاءَيْنِ وَتَمَيِّزَ أَحَدِ الشَّقَيْنِ مِنَ أَعْلَاهُ عَلَى الْآخَرِ فِي الصَّنَاعَةِ يَرُدُّ ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَمْ يَرُدَّ الْبَيْتَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْحَجَرِ فَقَطْ لِيَدْخُلَهُ فِيهِ الْآنَ مَعَ كَوْنِهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَهَذَا يَبْعِدُ وَلَا مَحِيصَ مِنْ هَذَيْنِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . ثُمَّ إِنَّ مَسَاحَةَ الْبَيْتِ وَهُوَ الْمَسْجِدُ كَانَ فُضَاءً لِلطَّائِفِينَ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جُدْرٌ أَيَّامَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ كَثُرَ النَّاسُ فَاشْتَرَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُورًا هَدَمَهَا وَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ وَأَدَارَ عَلَيْهَا جِدَارًا دُونَ الْقَامَةِ وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ عُثْمَانُ ثُمَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبَنَاهُ بِعُمْدِ الرُّخَامِ ثُمَّ زَادَ فِيهِ الْمَنْصُورَ وَابْنَهُ الْمَهْدِيَّ مِنْ بَعْدِهِ وَوَقَفَتِ الزِّيَادَةُ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ لِعَهْدِنَا . وَتَشْرِيفُ اللَّهِ لِهَذَا الْبَيْتِ وَعِنَايَتُهُ بِهِ أَكْثَرُ^(١) مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَكَفَى بِذَلِكَ أَنْ جَعَلَهُ مَهْبِطًا لِلْخَوِيْهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَمَكَانًا لِلْعِبَادَةِ وَفَرَضَ شَرَائِعَ الْحَجِّ وَمَنَاسِكَهِ وَأَوْجَبَ لِحَرَمِهِ مِنْ سَائِرِ نَوَاحِيهِ مِنْ حُقُوقِ التَّعْظِيمِ وَالْحَقِّ مَا لَمْ يُوجِبْهُ لغيرِهِ فَمَنْعَ كُلِّ مَنْ خَالَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ مِنْ دُخُولِ ذَلِكَ الْحَرَمِ وَأَوْجَبَ عَلَى دَاخِلِهِ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنَ الْمَخِيطِ إِلَّا إِزَارًا يَسْتُرُهُ وَحَمَى الْعَائِدُ بِهِ وَالرَّاتِعُ فِي مَسَارِحِهِ مِنْ مَوَاقِعِ الْآفَاتِ فَلَا يَرَامُ فِيهِ خَائِفٌ وَلَا يُضَادُّ لَهُ وَخَشٌ وَلَا يُخْتَطَبُ لَهُ شَجَرٌ . وَحَدُّ الْحَرَمِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِذِهِ الْحَرَمَةِ مِنْ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ إِلَى التَّنِيمِ^(٢) وَمِنْ طَرِيقِ الْعِرَاقِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى الثَّنِيَّةِ مِنْ جَبَلِ الْمُنْقَطِعِ وَمِنْ طَرِيقِ الطَّائِفِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى بَطْنِ نَمْرَةٍ وَمِنْ طَرِيقِ جَدَّةٍ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى مُنْقَطِعِ الْعَشَائِرِ . هَذَا شَأْنُ مَكَّةَ

(١) وفي النسخة الباريسية : أعظم .

(٢) التنعيم : مكان بمكة في الحل . وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة وقيل أربعة . وبه

مساجد حول مسجد عائشة وسقايها على طريق المدينة منه يحرم المكيون بالعمرة (معجم البلدان) .

وَحَبَرَهَا وَتُسَمَّى أُمُّ الْقَرَى وَتُسَمَّى الْكَعْبَةُ لِغُلُوبِهَا مِنْ اسْمِ الْكَعْبِ . وَيُقَالُ لَهَا أَيْضاً
بَكَّةُ قَالَ الْأَضْمِيُّ ، لَأَنَّ النَّاسَ يَبْكُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَيْهَا أَيْ يَدْفَعُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ بَاءَ
بَكَّةُ أَبْدَلُوهَا مِيمًا كَمَا قَالُوا لَا زَبَ وَلَا زِمَ لِقُرْبِ الْمَخْرَجَيْنِ . وَقَالَ النَّخَعِيُّ بِالنَّبَاءِ
وَبِالْمِيمِ الْبَلَدُ وَقَالَ الزُّهْرِيُّ بِالنَّبَاءِ لِلْمَسْجِدِ كُلِّهِ وَبِالْمِيمِ لِلْحَرَمِ وَقَدْ كَانَتْ الْأَمَمُ مِنْذُ
عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ تُعَظَّمُ وَالْمُلُوكُ تَبْعُثُ إِلَيْهِ بِالْأَمْوَالِ وَالذَّخَائِرِ مِثْلَ كِسْرَى وَغَيْرِهِ
وَقِصَّةُ الْأَشْيَافِ وَغَزَالِي الذَّهَبِ اللَّذَيْنِ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ اخْتَفَرَ زَمْزَمَ
مَعْرُوفَةً وَقَدْ وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ مَكَّةَ فِي الْجَبِّ الَّذِي كَانَ فِيهَا
سَبْعِينَ أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ مِمَّا كَانَ الْمُلُوكُ يَهْدُونَ لِلْبَيْتِ فِيهَا أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ
مُكَرَّرَةً مَرَّتَيْنِ بِمَائَتِي قِنْطَارٍ وَزناً وَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،
« يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اسْتَعْنَتْ بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِكَ » فَلَمْ يَفْعَلْ . ثُمَّ ذَكَرَ لِأَبِي
بَكْرٍ فَلَمْ يُحَرِّكْهُ . هَكَذَا قَالَ الْأَنْزَقِيُّ . وَفِي الْبُخَارِيِّ يُسْنِدُهُ إِلَى أَبِي وَائِلٍ قَالَ ،
جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ بِنْتِ عُثْمَانَ وَقَالَ جَلَسَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ ، « هَمَمْتُ أَنْ
لَا أَدْعَ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ » قُلْتُ ، مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ ؟
قَالَ ، وَلِمَ ؟ قُلْتُ ، فَلَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبُكَ فَقَالَ هُمَا اللَّذَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا . وَخَرَجَ أَبُو
دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَأَقَامَ ذَلِكَ الْمَالُ إِلَى أَنْ كَانَتْ فِتْنَةُ الْأَفْطُسِ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ
الْحُسَيْنِ^(١) بَنِي عَلِيٍّ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةً حِينَ غَلَبَ
مَكَّةَ عَمَدٌ إِلَى الْكَعْبَةِ فَأَخَذَ مَا فِي خَزَائِنِهَا وَقَالَ مَا تَصْنَعُ الْكَعْبَةُ بِهَذَا الْمَالِ مَوْضِعاً
فِيهَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى حَرْبِنَا وَأُخْرَجَ وَتَصَرَّفَ فِيهِ
وَبَطَلَتِ الذَّخِيرَةُ مِنَ الْكَعْبَةِ مِنْ يَوْمَئِذٍ . (وَأَمَّا بَيْتُ الْمَقْدِسِ) وَهُوَ الْمَسْجِدُ
الْأَقْصَى فَكَانَ أَوَّلُ أَمْرِهِ أَيَّامَ الصَّابِئَةِ مَوْضِعَ الزُّهْرَةِ وَكَانُوا يَقْرَبُونَ إِلَيْهِ الزَّيْتَ فِيمَا
يَقْرَبُونَهُ يَصُبُّونَهُ عَلَى الصَّخْرَةِ الَّتِي هُنَاكَ ثُمَّ دُبِّرَ ذَلِكَ التَّهْنِ كُلُّ وَاتَّخَذَهَا بَنُو
إِسْرَائِيلَ حِينَ مَلَكُوها قِبْلَةً لصلاتهم . وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لَمَّا خَرَجَ

(١) وفي النسخة الباريسية ، الحسين بن الحسين .

بَنَى إِسْرَائِيلُ مِنْ مِصْرَ لِمُتْلِكِهِمْ^(١) بَيْتَ الْمَقْدِسِ كَمَا وَعَدَ اللَّهُ آبَاهُمْ إِسْرَائِيلَ وَأَبَاهُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِ وَأَقَامُوا بِأَرْضِ التِّيهِ أَمْرَهُ اللَّهُ بِاتِّخَاذِ قُبَّةٍ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ عَيْنَ الْوَحْيِ مَقْدَارُهَا وَصِفَتُهَا وَهَيَاكِلُهَا وَتَمَائِيلُهَا وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا التَّابُوتُ وَمَائِدَةٌ بِصِحَافِهَا وَمَنَارَةٌ يَقْنَادُ بِهَا وَأَنْ يَضَعُ مَذْبَحًا لِلْقُرْبَانِ وَصِفَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي التَّوْرَةِ أَكْمَلَ وَصَفَ فَصَنَعَ الْقُبَّةَ وَوَضَعَ فِيهَا تَابُوتَ الْعَهْدِ وَهُوَ التَّابُوتُ الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاحُ الْمَصْنُوعَةُ عِوَضًا عَنِ الْأَلْوَاحِ الْمُنَزَّلَةِ بِالْكَلِمَاتِ الْعَشْرِ لَمَّا تَكَسَّرَتْ وَوَضَعَ الْمَذْبَحَ عِنْدَهَا . وَعَهَدَ اللَّهُ إِلَى مُوسَى بِأَنْ يَكُونَ هَارُونَ صَاحِبَ الْقُرْبَانِ وَنَصَبُوا تِلْكَ الْقُبَّةَ بَيْنَ خِيَامِهِمْ فِي التِّيهِ يُصَلُّونَ إِلَيْهَا وَيَتَقَرَّبُونَ فِي الْمَذْبَحِ أَمَامَهَا وَيَتَعَرَّضُونَ^(٢) لِلْوَحْيِ عِنْدَهَا .

وَلَمَّا مَلَكَوا أَرْضَ الشَّامِ أَنْزَلُوهَا (بَكْلَكَال) مِنْ بِلَادِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مَا بَيْنَ قَسَمِ بَنِي يَامِينَ وَبَنِي أَفْرَايِمَ . وَبَقِيَتْ هُنَاكَ أَرْبَعُ عَشْرَةَ سَنَةً ، سَبْعًا مَدَّةَ الْخَرْبِ ، وَسَبْعًا بَعْدَ الْفَتْحِ أَيَّامَ قِسْمَةِ الْبِلَادِ . وَلَمَّا تَوَفَّى يَوْشِعُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَقَلُوهَا إِلَى بَلَدِ شِيلُو قَرِيبًا مِنْ كَلْكَالَ ، وَأَذَارُوا عَلَيْهَا الْحِيطَانِ . وَأَقَامَتْ عَلَى ذَلِكَ ثَلَاثُمِائَةِ سَنَةٍ ، حَتَّى مَلَكَهَا بَنُو فِلَسْطِينَ مِنْ أَيْدِيهِمْ كَمَا مَرَّ ، وَتَغْلَبُوا عَلَيْهِمْ . ثُمَّ رَدُّوا عَلَيْهِمُ الْقُبَّةَ وَنَقَلُوهَا بَعْدَ وَفَاةِ غَالِي الْكُوهِنِ إِلَى نُوفَ . ثُمَّ نَقَلَتْ أَيَّامَ طَالُوتَ إِلَى كَنْعَانَ فِي بِلَادِ بَنِي يَامِينَ . وَلَمَّا مَلَكَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَقَلَ الْقُبَّةَ وَالتَّابُوتَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَعَلَ عَلَيْهَا خِبَاءً خَاصًّا وَوَضَعَهَا عَلَى الصُّخْرَةِ . . .

وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْقُبَّةُ قَبْلَتَهُمْ وَوَضَعُوهَا عَلَى الصُّخْرَةِ بَيْنَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَرَادَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَاءَ مَسْجِدِهِ عَلَى الصُّخْرَةِ مَكَانَهَا فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ وَعَهْدَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ سُلَيْمَانَ فَبَنَاهُ لِأَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ وَلِخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ وَفَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَاتَّخَذَ عُمْدَهُ مِنَ الصُّفْرِ وَجَعَلَ بِهِ صَرْخَ الرُّجَاجِ وَعَشَى أَبْوَابَهُ وَحِيطَانَهُ بِالذَّهَبِ

(١) وفي النسخة الباريسية ، لِمَلِكِهِمْ .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، وَيَقْرَبُونَ فِي الْمَذْبَحِ أَمَامَهَا وَيَتَوَجَّهُونَ .

وَصَاعَ هَيَاكِلَهُ وَتَمَائِيلَهُ وَأَوْعِيَتَهُ وَمَنَارَتَهُ وَمِفْتَاحَهُ مِنَ الذَّهَبِ وَجَعَلَ فِي ظَهْرِهِ قَبْرًا لِيَصُغَ^(١) فِيهِ تَابُوتُ الْعَهْدِ وَهُوَ التَّابُوتُ الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاخُ وَجَاءَ بِهِ مِنْ صِهْيُونَ بَلَدَ أَبِيهِ دَاوُدَ نَقْلَهُ إِلَيْهَا أَيَّامَ عَمَارَةِ الْمَسْجِدِ ، فِجِيءَ بِهِ تَحْمِيلُهُ الْأَسْبَاطُ وَالْكَهَنُوتِيُّهَ حَتَّى وَضَعَهُ فِي الْقَبْرِ وَوُضِعَتِ الْقُبَّةُ وَالْأَوْعِيَةُ وَالْمَذْبُحُ كُلُّ وَاحِدٍ حَيْثُ أُعِدَّ لَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ . وَأَقَامَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ خَرَبَهُ بَخْتٌ نَصْرُ بَعْدَ ثَمَانِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ بَنَائِهِ وَأَخْرَقَ التَّوْرَةَ وَالْعَصَا وَصَاعَ الْهَيَاكِلِ وَنَثَرَ الْأَخْجَارَ . ثُمَّ لَمَّا أَعَادَهُمْ مُلُوكُ الْفَرَسِ بَنَاءَ عَزْرِيَزْنِي^(٢) بَنِي إِسْرَائِيلَ لِعَهْدِهِ بِإِغَانَةٍ بِهِمْ مَلِكِ الْفَرَسِ الَّذِي كَانَتْ الْوِلَادَةُ^(٣) لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ مِنْ سَبِي بَخْتٍ نَصْرَ وَحْدَ لَهُمْ فِي بُنْيَانِهِ حُدُوداً دُونَ بَنَاءِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَلَمْ يَتَجَاوَزُوهَا .

وَأَمَّا الْأَوَاوِينَ الَّتِي تَحْتَ الْمَسْجِدِ ، يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضاً ، عُمُودُ الْأَعْلَى مِنْهَا عَلَى قَوْسِ الْأَسْفَلِ فِي طَبَقَتَيْنِ . وَيَتَوَهَّمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا إِضْطَبَلَاتُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَإِنَّمَا بَنَاهَا تَنْزِيهاً لِلْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ عَمَّا يَتَوَهَّمُ مِنَ النَّجَاسَةِ ، لِأَنَّ النَّجَاسَاتِ فِي شَرِيعَتِهِمْ وَإِنْ كَانَتْ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ ، وَكَانَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ ظَاهِرِ الْأَرْضِ مَخْشَوْاً بِالتَّرَابِ ، بِحَيْثُ يَصِلُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الظَّاهِرِ خَطٌ مُسْتَقِيمٌ يَنْجِسُ ذَلِكَ الظَّاهِرَ بِالتَّوَهَّمِ . وَالتَّوَهَّمُ عِنْدَهُمْ كَالْمُحَقِّقِ ، فَبَنُوا هَذِهِ الْأَوَاوِينَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ بِعُمُودِ الْأَوَاوِينَ السُّفْلِيَّةِ تَنْتَهِي إِلَى أَقْوَاسِهَا وَيَنْقَطِعُ خَطُّهُ ، فَلَا تَتَّصِلُ النَّجَاسَةُ بِالْأَعْلَى عَلَى خِطِّ مُسْتَقِيمٍ . وَتَنْزَعُ الْبَيْتَ عَنْ هَذِهِ النَّجَاسَةِ الْمُتَوَهَّمَةِ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي الطَّهَارَةِ وَالتَّقْدِيسِ .

ثُمَّ تَدَاوَنَتْهُمْ مُلُوكُ يُونَانَ وَالْفَرَسِ وَالرُّومِ وَاسْتَفْحَلَ الْمَلِكُ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ ثُمَّ لِبْنِي حَشْمَنَائِي مِنْ كَهَنَتِهِمْ ثُمَّ لَصْهَرَهُمْ هِيرُودُسَ وَلِبْنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ . وَبَنَى هِيرُودُسُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ عَلَى بَنَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَأْتَقُ فِيهِ حَتَّى

(١) وفي النسخة الباريسية : ليودع .

(٢) وفي نسخة أخرى : الولاية .

أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ فَلَمَّا جَاءَ طِيطِشُ مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ وَغَلَبَهُمْ وَمَلَكَ أَمْرَهُمْ خَرِبَ
 بَيْتُ الْمَقْدِسِ وَمَسْجِدُهَا وَأَمَرَ أَنْ يُزْرَعَ مَكَانُهُ ثُمَّ أَخَذَ الرُّومُ بِدِينِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهِ ثُمَّ اخْتَلَفَ حَالُ مُلُوكِ الرُّومِ فِي الْأَخْذِ بِدِينِ النَّصَارَى تَارَةً
 وَتَرْكِهِ أُخْرَى إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ وَتَنَصَّرَتْ أُمُّهُ هِيلَانَةُ وَارْتَحَلَتْ إِلَى الْقُدْسِ فِي
 طَلَبِ الْخَشْيَةِ الَّتِي صَلَبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ بِزَعْمِهِمْ فَأَخْبَرَهَا الْقَسَاوِسَةُ بِأَنَّهُ رَمَى
 بِخَشْيَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَالْقَى عَلَيْهَا الْقَمَامَاتِ وَالْقَاذُورَاتِ فَاسْتَخْرَجَتِ الْخَشْيَةَ وَبَنَتْ
 مَكَانَ تِلْكَ الْقَمَامَاتِ كَنِيسَةَ الْقَمَامَةِ ^(١) كَانَتْهَا عَلَى قَبْرِهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَرَبَتْ مَا وَجَدَتْ
 مِنْ عِمَارَةِ الْبَيْتِ وَأَمَرَتْ بِطَرْحِ الزُّبْلِ وَالْقَمَامَاتِ عَلَى الصُّخْرَةِ حَتَّى عَطَّاهَا وَخَفَى
 مَكَانَهَا جِزَاءً بِزَعْمِهَا لِمَا فَعَلُوهُ بِقَبْرِ الْمَسِيحِ ثُمَّ بَنَوْا بِإِزَاءِ الْقَمَامَةِ بَيْتَ لَحْمٍ وَهُوَ
 الْبَيْتُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ
 وَخَضَرَ عُمَرُ لِفَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَسَأَلَ عَنِ الصُّخْرَةِ فَأَرَى مَكَانَهَا وَقَدْ غَلَّاهَا الزُّبْلُ
 وَالتُّرَابُ فَكَشَفَ عَنْهَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِدًا عَلَى طَرِيقِ الْبِدَاوَةِ وَعَظَّمَهُ مِنْ شَأْنِهِ
 مَا أَذِنَ اللَّهُ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَمَا سَبَقَ مِنْ أَمِّ الْكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبَمَا ثَبَّتَ ثُمَّ اخْتَفَلَ
 الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَلَى سُنَنِ مَسَاجِدِ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ
 الْإِحْتِفَالِ كَمَا فَعَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ وَفِي
 مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَسْمِيهِ بِلَاطِ الْوَلِيدِ وَالزَّمَّ مَلِكِ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ الْفَعْلَةَ
 وَالْمَالَ لِبَنَاءِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ وَأَنْ يُنْمَقُوهَا بِالْفُسَيْفَسَاءِ فَأُطَاعَ لِذَلِكَ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى
 مَا اقْتَرَحَهُ . ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ أَغْوَامَ الْخُمْسِمَائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ فِي آخِرِهَا
 وَكَانَتْ فِي مَلَكََةِ الْعَبِيدِيِّينَ خُلَفَاءَ الْقَاهِرِ مِنَ الشَّيْعَةِ وَاخْتَلَّ أَمْرُهُمْ زَحَفَ الْفَرَنْجَةُ
 إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَمَلَكُوهُ وَمَلَكُوا مَعَهُ عَامَّةُ تُغُورِ الشَّامِ وَبَنَوْا عَلَى الصُّخْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ
 مِنْهُ كَنِيسَةً كَانُوا يَعْظُمُونَهَا وَيَفْتَحِرُونَ بَيْنَائِهَا حَتَّى إِذَا اسْتَقْلَّ صَلَاحُ الدِّينِ بْنِ
 أَيُّوبَ الْكُرْدِيِّ بِمُلْكِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَمَحَا أَثَرَ الْعَبِيدِيِّينَ وَبَدَعَهُمْ زَحَفَ إِلَى الشَّامِ

(١) كذا في جميع النسخ وكذا أوردها ابن الأثير والطبري وتعرف اليوم بكنيسة القيامة .

وَجَاهَدَ مَنْ كَانَ بِهِ مِنَ الْفَرَنْجَةِ حَتَّى غَلِبَهُمْ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَعَلَى مَا كَانُوا
مَلَكُوهُ مِنْ ثُغُورِ الشَّامِ وَذَلِكَ لِنُحُورِ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ وَهَدَمَ تِلْكَ
الْكَنِيسَةَ وَأَظْهَرَ الصُّخْرَةَ وَبَنَى الْمَسْجِدَ عَلَى النُّحُورِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ لِهَذَا الْعَهْدِ .
وَلَا يَغْرُضُ لَكَ الْإِشْكَالُ الْمَعْرُوفُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ
أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ فَقَالَ : « بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ » قِيلَ فَكَمْ بَيْنَهُمَا ؟
قَالَ : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » فَإِنَّ الْمُدَّةَ بَيْنَ بِنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِمِقْدَارِ
مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسَلِيمَانَ لِأَنَّ سُلَيْمَانَ بَانِيَهُ وَهُوَ يُنْفِى عَلَى الْأَلْفِ بِكَثِيرٍ . وَاعْلَمْ
أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَضْعِ فِي الْحَدِيثِ لَيْسَ الْبِنَاءُ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلُ بَيْتٍ عُنِيَ لِلْعِبَادَةِ وَلَا
يَتَعَدُّ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عُنِيَ لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَقَدْ
نُقِلَ أَنَّ الصَّابِئَةَ بَنَوْا عَلَى الصُّخْرَةِ هَيْكَلَ الزُّهْرَةِ فَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مَكَانًا
لِلْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ الْأَصْنَامَ وَالتَّمَائِيلَ حَوْلَ الْكُفْيَةِ وَفِي جُوفِهَا
وَالصَّابِئَةُ الَّذِينَ بَنَوْا هَيْكَلَ الزُّهْرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا تَبْعُدُ
مُدَّةُ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضْعِ مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ
بِنَاءٌ كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَقَرَّبْنَا
فِيهِ حُلَّ هَذَا الْإِشْكَالِ . وَأَمَّا الْمَدِينَةُ وَهِيَ الْمُسَمَّاةُ بِثَرْبِ فَهِيَ مِنْ بِنَاءِ
يَثْرِبَ بْنِ مَهْلَايِيلَ مِنَ الْعَمَالِقَةِ وَمَلَكَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنْ
أَرْضِ الْحِجَازِ ثُمَّ جَاوَرَهُمْ بَنُو قَيْلَةَ مِنْ غَسَّانَ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا وَعَلَى حُصُونِهَا . ثُمَّ أَمَرَ
النَّبِيُّ ﷺ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ بِهَا فَهَاجَرَ إِلَيْهَا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ
وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ وَنَزَلَ بِهَا وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَبَيُوتَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ اللَّهُ قَدْ أَعَدَّهُ
لِلذِّكَ وَشَرَفَهُ فِي سَابِقِ أَرْزِلِهِ وَأَوَاهِ أِبْنَاءِ قَيْلَةَ وَنَصْرُوهُ فَلِذَلِكَ سُمُّوا الْأَنْصَارَ وَتَمَثَّلَتْ
كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى غَلَتْ عَلَى الْكَلِمَاتِ وَغَلَبَ عَلَى قَوْمِهِ وَقَتَحَ مَكَّةَ
وَمَلَكَهَا وَظَنَّ الْأَنْصَارَ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ فَأَهْمَهُمْ ذَلِكَ فَخَاطَبَهُمْ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَوِّلٍ حَتَّى إِذَا قَبِضَ ﷺ كَانَ مُلْحَدُهُ الشَّرِيفُ

بِهَا وَجَاءَ فِي فَضْلِهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ وَوَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ
الْعُلَمَاءِ فِي تَفْضِيلِهَا عَلَى مَكَّةَ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ لِمَا ثَبَتَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ
النُّصِّ الصَّرِيحِ عَنْ رَفِيعِ بْنِ مُخْدَجٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ الْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ
نَقَلَ ذَلِكَ أَبُو الْوَهَّابِ فِي الْمَعُونَةِ إِلَى أَحَادِيثٍ أُخْرَى تَدُلُّ بِظَاهِرِهَا عَلَى ذَلِكَ
وَخَالَفَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ . وَأُضْهِتْ عَلَى كُلِّ خَالٍ ثَانِيَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَجُنِحَ
إِلَيْهَا الْأَمَمُ بِأَفْئِدَتِهِمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ فَانْظُرْ كَيْفَ تَدْرَجَتِ الْفَضِيلَةُ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ
الْمُعَظَّمَةِ لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ لَهَا وَتَفَهَّمْ سِرَّ اللَّهِ فِي الْكُؤْنِ وَتَدْرِجِهِ عَلَى تَرْتِيبٍ
مُحْكَمٍ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا . وَأَمَّا غَيْرُ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ فَلَا نَعْلَمُهُ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَأْنِ مَسْجِدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَرَنْدِيبَ مِنْ جَزَائِرِ الْهِنْدِ لَكِنَّهُ لَمْ
يُثَبِّتْ فِيهِ شَيْءٌ يُعُولُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَتْ لِلْأَمَمِ فِي الْقَدِيمِ مَسَاجِدُ يُعَظَّمُونَهَا عَلَى جِهَةِ
الدِّيَانَةِ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا بُيُوتُ النَّارِ لِلْفُرْسِ وَهَيَاكِلُ يُونَانَ وَبُيُوتُ الْعَرَبِ بِالْحِجَازِ
الَّتِي أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذْمِهَا فِي غَزَوَاتِهِ وَقَدْ ذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ مِنْهَا بُيُوتًا لَسْنَا مِنْ
ذِكْرِهَا فِي شَيْءٍ إِذْ هِيَ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ وَلَا هِيَ عَلَى طَرِيقِ دِينِي وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا وَلَا
إِلَى الْخَبَرِ عَنْهَا وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي التَّوَارِيخِ فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ الْأَخْبَارِ فَعَلَيْهِ
بِهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ .

الفصل السابع

في أن المدن والأمصار بأفريقية والمغرب قليلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَقْطَارَ كَانَتْ لِلْبَرْبَرِ مِنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ قَبْلَ
الْإِسْلَامِ وَكَانَ عُمْرَانُهَا كُلُّهُ بَدْوِيًّا وَلَمْ تَسْتَمِرَّ فِيهِمُ الْحَضَارَةُ حَتَّى تُسْتَكْمَلَ أَحْوَالُهَا
وَالدُّوَلُ الَّتِي مَلَكَتْهُمْ مِنَ الْإِفْرَنْجَةِ وَالْعَرَبِ لَمْ يَطُلْ أَمَدُ مُلْكِهِمْ فِيهِمْ حَتَّى تَرْسَخَ
الْحَضَارَةُ مِنْهَا فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ الْبِدَاوَةِ وَشُؤُونُهَا فَكَانُوا إِلَيْهَا أَقْرَبَ فَلَمْ تَكْثُرْ مَبَانِيهِمْ
وَأَيْضًا فَالضَّنَائِعُ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَرْبَرِ لِأَنَّهُمْ أَعْرَقُوا فِي الْبَدْوِ وَالضَّنَائِعُ مِنْ تَوَائِعِ الْحَضَارَةِ
وَأِنَّمَا تَبَيَّنَ الْمَبَانِي بِهَا فَلَا بُدَّ مِنَ الْحَدَقِ فِي تَعْلُمِهَا فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْبَرْبَرِ انْتِحَالُ لَهَا
لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَشَوُّقٌ ^(١) إِلَى الْمَبَانِي فَضَلُّوا عَنِ الْمُدُنِ . وَأَيْضًا فَهُمْ أَهْلُ عَصَبِيَّاتٍ
وَأَنْسَابٍ لَا يَخْلُو عَنْ ذَلِكَ جَمْعُ مِنْهُمْ وَالْأَنْسَابُ وَالْعَصَبِيَّةُ أَجْنَحُ إِلَى الْبَدْوِ وَإِنَّمَا
يَدْعُو إِلَى الْمُدُنِ الدُّعَا وَالسُّكُونُ وَيَصِيرُ سَاكِنُهَا عِيَالًا عَلَى حَامِيَّتِهَا فَتَجِدُ أَهْلَ الْبَدْوِ
لِذَلِكَ يَسْتَنْكِفُونَ عَنْ سُكْنَى الْمَدِينَةِ أَوْ الْإِقَامَةِ بِهَا فَلَا يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ إِلَّا التَّرَفُّ
وَالْغِنَى وَقَلِيلٌ مَا هُوَ فِي النَّاسِ فَلِذَلِكَ كَانَ عُمْرَانُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ
بَدْوِيًّا أَهْلُ خِيَامٍ وَظَوَاعِنَ وَقِيَاظِنَ وَكُنَنَ فِي الْجِبَالِ وَكَانَ عُمْرَانُ بِلَادِ الْعَجَمِ كُلُّهُ أَوْ
أَكْثَرُهُ قُرَى وَأَمْصَارًا وَرَسَاتِيقَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَعِرَاقِ الْعَجَمِ وَأَمْثَالِهَا
لَأَنَّ الْعَجَمَ لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَّبِعُونَهَا فِي صَرَاحَتِهَا وَالتَّحَامِيهَا
إِلَّا فِي الْأَقْلَ وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ سُكْنَى الْبَدْوِ لِأَهْلِ الْأَنْسَابِ لِأَنَّ لُحْمَةَ النَّسَبِ أَقْرَبُ
وَأَشَدُّ فَتَكُونُ عَصَبِيَّتُهُ كَذَلِكَ وَتَنْزِعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى سُكْنَى الْبَدْوِ وَالتَّجَافِي عَنِ الْمِصْرِ
الَّذِي يَذْهَبُ بِالنَّسَالَةِ وَيَصِيرُهُ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فَافْهَمَهُ وَقَسَّ عَلَيْهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

(١) وفي نسخة أخرى تشوف . وتشوف إلى الشيء . تطلع إليه .

الفصل الثامن

في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها
وإلى من كان قبلها من الدول

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي التَّبْرِيرِ بَعَيْنِهِ إِذِ الْعَرَبُ أَيْضاً أَغْرَقُوا فِي الْبُذُورِ
وَأَبْعَدُوا عَنِ الصَّنَائِعِ وَأَيْضاً فَكَانُوا أَجَانِبَ مِنَ الْمَمَالِكِ الَّتِي اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا قَبْلَ
الْإِسْلَامِ وَلَمَّا تَمَلَّكُوهَا لَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رُسُومَ الْخِصَارَةِ مَعَ أَنَّهُمْ
اسْتَعْنَوْا بِمَا وَجَدُوا مِنْ مَبَانِي غَيْرِهِمْ وَأَيْضاً فَكَانَ الَّذِينَ أَوَّلُ الْأُمْرِ مَانِعاً مِنَ
الْمُغَالَاةِ أَوْ الْبُنْيَانِ وَالْإِسْرَافِ فِيهِ فِي غَيْرِ الْقَضْدِ كَمَا عَهْدَ لَهُمْ عُمَرُ حِينَ اسْتَأْذَنُوهُ فِي
بِنَاءِ الْكُوفَةِ بِالْحِجَارَةِ وَقَدْ وَقَعَ الْحَرِيقُ فِي الْقَصَبِ الَّذِي كَانُوا بَنَوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ
فَقَالَ أَفْعَلُوا وَلَا يَزِيدُنْ أَحَدٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أُنْيَابٍ وَلَا تَبْطَأُوا فِي الْبُنْيَانِ وَالزَّمُوا السُّنَّةَ
تَلَزَمَكُمْ الدَّوْلَةُ وَعَهْدٌ إِلَى الْوَفْدِ وَتَقَدَّمْ إِلَى النَّاسِ أَنْ لَا يَزِفَعُوا بُنْيَاناً فَوْقَ الْقَدْرِ
قَالُوا ، وَمَا الْقَدْرُ ؟ قَالَ : « لَا يُقَرَّبُكُمْ مِنَ السَّرْفِ وَلَا يُخْرِجُكُمْ عَنِ الْقَضْدِ » .
فَلَمَّا بَعْدَ الْعَهْدِ بِالَّذِينَ وَالتَّخَرُّجِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ وَغَلَبَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ
وَالْتَرَفِ وَاسْتُخْدِمَ الْعَرَبُ أُمَّةُ الْفُرْسِ وَأَخَذُوا عَنْهُمْ الصَّنَائِعَ وَالْمَبَانِي وَدَعَتْهُمْ إِلَيْهَا
أَحْوَالُ الدُّعَاةِ وَالتَّرَفِ فَجِئِنِّيذَ شَيْدُوا الْمَبَانِي وَالْمَصَانِعَ وَكَانَ عَهْدُ ذَلِكَ قَرِيباً
بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَلَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ لِكثَرَةِ الْبِنَاءِ وَاخْتِطَاطِ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ إِلَّا قَلِيلاً
وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فَالْفُرْسُ طَالَتْ مُدَّتُهُمْ آفَافاً مِنَ السِّنِينَ وَكَذَلِكَ الْقَبْطُ
وَالنَّبْطُ وَالرُّومُ وَكَذَلِكَ الْعَرَبُ الْأُولَى مِنْ عَايِدِ وَتُمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ وَالتَّبَاعِيَةَ طَالَتْ
أَمَادُهُمْ وَرَسَخَتِ الصَّنَائِعُ فِيهِمْ فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وَهَيَاكِلُهُمْ أَكْثَرَ عَدَداً وَأَبْقَى عَلَى
الْأَيَّامِ أَثْراً وَاسْتَبْصَرَ فِي هَذَا تَجْدُهُ كَمَا قُلْتُ وَاللَّهِ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

الفصل التاسع

في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ الْبِدَاوَةِ وَالْبُعْدُ عَنِ الصَّنَائِعِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَا تَكُونُ الْمَبَانِي وَثِيقَةً فِي تَشْيِيدِهَا وَلَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَجْهَ آخِرٍ وَهُوَ أَمْسُ بِهِ وَذَلِكَ قِلَّةُ مَرَاعَاتِهِمْ لِحَسَنِ الْإِخْتِيَارِ فِي اخْتِطَاطِ الْمُدُنِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي الْمَكَانِ وَطِيبِ الْهَوَاءِ وَالْمِيَاهِ وَالْمَزَارِعِ وَالْمَرَاعِي فَإِنَّهُ بِالتَّفَاوُتِ فِي هَذَا تَتَفَاوَتُ جُودَةُ الْمِصْرِ وَرَدَائَتُهُ مِنْ حَيْثُ الْعُمُرَانُ الطَّبِيعِيُّ وَالْعَرَبُ بِمَعْزُولٍ عَنْ هَذَا وَإِنَّمَا يِرَاعُونَ مَرَاعِي إِبْلِهِمْ خَاصَّةً لَا يُبَالُونَ بِالْمَاءِ طَابَ أَوْ خَبَثَ وَلَا قِلَّ أَوْ كَثُرَ وَلَا يَسْأَلُونَ عَنْ زَكَاةِ الْمَزَارِعِ وَالْمَنَابِتِ وَالْأَهْوِيَةِ لِإِنْتِقَالِهِمْ فِي الْأَرْضِ وَتَقْلِيلِهِمُ الْخُبُوبَ مِنَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ وَأَمَّا الرِّيَاحُ فَالْقَفَرُ مُخْتَلِفٌ لِلْمَهَابِ كُلِّهَا وَالظُّغْنُ كَفِيلٌ لَهُمْ بِطَبِيعِهَا لِأَنَّ الرِّيَاحَ إِنَّمَا تَخْبَثُ مَعَ الْقَرَارِ وَالسُّكْنَى وَكَثْرَةُ الْفَضَلَاتِ وَانْظُرْ لَمَّا اخْتَطَطُوا الْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ وَالْقَيْرَوَانَ كَيْفَ لَمْ يِرَاعُوا فِي اخْتِطَاطِهَا إِلَّا مَرَاعِي إِبْلِهِمْ وَمَا يَقْرُبُ مِنَ الْقَفَرِ وَمَسَالِكِ الظُّغْنِ فَكَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْوَضْعِ الطَّبِيعِيِّ لِلْمُدُنِ وَلَمْ تَكُنْ لَهَا مَادَّةُ تِمْدُ عُمُرَانِهَا مِنْ بَعْدِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا أَنَّهُ يُخْتِاجُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرَانِ فَقَدْ كَانَتْ مَوَاطِنُهَا غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ لِلْقَرَارِ وَلَمْ تَكُنْ فِي وَسْطِ الْأَمَمِ فَيَعْمُرُهَا النَّاسُ فَلَاوِلَ وَهَلَاةٍ مِنْ انْجِلَالِ أَمْرِهِمْ وَذَهَابِ عَصَبِيَّتِهِمُ الَّتِي كَانَتْ سَبَاجًا لَهَا أَتَى عَلَيْهَا الْخَرَابُ وَالْانْجِلَالُ كَانَ لَمْ تَكُنْ . « وَاللَّهُ يَخْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ » .

الفصل العاشر

في مبادي الخراب في الأمصار

إِغْلَمْ أَنَّ الْأَمْصَارَ إِذَا اخْتَطَّتْ أَوْ لَا تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَسَاكِينِ وَقَلِيلَةَ آلَاتِ الْبِنَاءِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْجِيرِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يُعَالَى عَلَى الْحِيطَانِ عِنْدَ التَّائِقِ كَالزُّلْجِ ^(١) وَالرُّخَامِ وَالرُّبِجِ ^(٢) وَالزُّجَاجِ وَالْفَسْفِسَاءِ وَالصَّدْفِ فَيَكُونُ بِنَاؤُهَا يَوْمَئِذٍ بَدْوِيًّا وَالْأَتْنِهَا فَاسِدَةً فَإِذَا عَظُمَ عُمُرَانُ الْمَدِينَةِ وَكَثُرَ سَاكِنُهَا كَثُرَتِ الْآلَاتُ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ حِينَئِذٍ وَكَثُرَتِ الصَّنَاعُ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْ ذَلِكَ كَمَا سَبَقَ بِشَأْنِهَا فَإِذَا تَرَاجَعَ عُمُرَانِهَا وَخَفَّ سَاكِنُهَا قَلَّتِ الصَّنَائِعُ لِأَجْلِ ذَلِكَ وَفَقِدَتِ الْإِجَادَةُ فِي الْبِنَاءِ وَالْإِحْكَامِ وَالْمَعَالَاةِ عَلَيْهِ بِالتَّنْمِيقِ ثُمَّ تَقِلُّ الْأَعْمَالُ لِعَدَمِ السَّاكِينِ فَيَقِلُّ جَلْبُ الْآلَاتِ مِنَ الْحَجَرِ وَالرُّخَامِ وَغَيْرِهِمَا فَتَفْقَدُ وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَشْيِيدُهُمْ مِنَ الْآلَاتِ الَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ فَيَنْقَلِبُونَ مِنْ مَصْنَعٍ إِلَى مَصْنَعٍ لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ الْمَصَانِعِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ بِقِلَّةِ الْعُمُرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوَّلًا ثُمَّ لَا تَزَالُ تُنْقَلُ مِنْ قُصْرٍ إِلَى قُصْرٍ وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ إِلَى أَنْ يُفْقَدَ الْكَثِيرُ مِنْهَا جُمْلَةً فَيَعُودُونَ إِلَى الْبِدَاوَةِ فِي الْبِنَاءِ وَاتِّخَاذِ الطُّوبِ عَوَضًا عَنِ الْجِبَارَةِ وَالْقُصُورِ عَنِ التَّنْمِيقِ بِالْكُلِّيَّةِ فَيَعُودُ بِنَاءُ الْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ وَتُظْهَرُ عَلَيْهَا سِيمَاءُ الْبِدَاوَةِ ثُمَّ تَمُرُّ فِي التَّنَاقُصِ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الْخَرَابِ إِنْ قَدَرَ لَهَا بِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

(١) الزلج ، الصخور الملس (لسان العرب) .

(٢) الربج ، الدرهم الصغير (لسان العرب) وفي النسخة الباريية السج ، الخرز الأسود (لسان

الفصل الحادي عشر

في ان تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرزق لأهلها ونفاق الأسواق
إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُرِفَ وَثُبِتَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنَ الْبَشَرِ غَيْرُ مُسْتَقِيلٍ بِتَخْصِيلِ
حَاجَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ وَأَنَّهُمْ مُتَعَاوِنُونَ جَمِيعاً فِي عُمُرَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَالْحَاجَةُ الَّتِي
تَحْصُلُ بِتَعَاوُنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَشْتَدُّ ضَرُورَةُ الْأَكْثَرِ مِنْ عَدَدِهِمْ أَضْعَافاً . فَالْقُوَّةُ مِنَ
الْجَنَظَةِ مِثْلاً لَا يَسْتَقِيلُ الْوَاحِدُ بِتَخْصِيلِ حِصَّتِهِ مِنْهُ . وَإِذَا انْتَدَبَ لِتَخْصِيلِهِ السَّنَةُ
أَوْ الْعَشْرَةُ مِنْ حَدَادٍ وَنَجَارٍ لِلآلَاتِ وَقَائِمٍ عَلَى الْبَقَرِ وَإِثَارَةِ الْأَرْضِ وَحَصَادِ السُّنْبُلِ
وَسَائِرِ مَوْنِ الْفُلُجِ وَتَوَزَّعُوا عَلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ أَوْ اجْتَمَعُوا وَحَصَلَ بِعَمَلِهِمْ ذَلِكَ مِقْدَارُ
مِنَ الْقُوَّةِ فَإِنَّهُ جِينَتْ قُوَّةٌ لِأَضْعَافِهِمْ مَرَّاتٍ . فَالْأَعْمَالُ بَعْدَ الْجَمَاعِ زَائِدَةٌ عَلَى
حَاجَاتِ الْعَامِلِينَ وَضُرُورَاتِهِمْ . فَأَهْلُ مَدِينَةٍ أَوْ مِصْرٍ إِذَا وَزَّعَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلَّهَا عَلَى
مِقْدَارِ ضَرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ اكْتَفَى فِيهَا بِالْأَقَلِّ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَبَقِيَّتِ الْأَعْمَالُ
كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورَاتِ فَتُضَرَفُ فِي خَالَاتِ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَمَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ
غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَيَسْتَخْلِبُونَهُ مِنْهُمْ بِأَعْوَاضِهِ وَقِيَمِهِ فَيَكُونُ لَهُمْ بِذَلِكَ خَظٌّ
مِنَ الْغِنَى وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ فِي الْفَضْلِ الْخَامِسِ فِي بَابِ الْكَسْبِ وَالرِّزْقِ أَنَّ الْمَكَاسِبَ
إِنَّمَا هِيَ قِيَمُ الْأَعْمَالِ فَإِذَا كَثُرَتِ الْأَعْمَالُ كَثُرَتْ قِيَمُهَا بَيْنَهُمْ فَكَثُرَتْ مَكَاسِبُهُمْ
ضَرُورَةٌ وَدَعَتْهُمْ أَحْوَالُ الرِّفَةِ وَالْغِنَى إِلَى التَّرَفِ وَحَاجَاتِهِ مِنَ التَّائِقِ فِي الْمَسَاكِينِ
وَالْمَلَاسِ وَاسْتِجَادَةِ الْإِنِيَّةِ وَالْمَاعُونِ وَاتِّخَاذِ الْخَدَمِ وَالْمَرَائِبِ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ
تُسْتَدْعَى بِقِيَمِهَا وَيُخْتَارُ الْمَهْرَةُ فِي صِنَاعَتِهَا وَالْقِيَامُ عَلَيْهَا فَتَنْفُقُ أَسْوَاقُ الْأَعْمَالِ
وَالصَّنَائِعِ وَيَكْثُرُ دَخْلُ الْمِصْرِ وَخُرْجُهُ وَيَحْصُلُ الْيَسَارُ لِمُنْتَحِلِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ
أَعْمَالِهِمْ . وَمَتَى زَادَ الْعُمُرَانُ زَادَتِ الْأَعْمَالُ ثَانِيَةً ثُمَّ زَادَ التَّرَفُ تَابِعاً لِلْكَسْبِ

وَزَادَتْ عَوَائِدُهُ وَحَاجَاتُهُ . وَاسْتَنْبَطَتِ الصَّنَائِعُ لِتَخْصِيلِهَا فَزَادَتْ قِيمُهَا وَتَضَاعَفَ
الْكَسْبُ فِي الْمَدِينَةِ لِذَلِكَ ثَانِيَةً وَتَفَقَّتْ سُوقُ الْأَعْمَالِ بِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِ . وَكَذَا فِي
الزِّيَادَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الزَّائِدَةَ كُلَّهَا تَخْتَصُّ بِالتَّرْفِ وَالْغِنَى بِخِلَافِ
الْأَعْمَالِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالْمَعَاشِ . فَالْمِصْرُ إِذَا فَضَلَ بِعُمَرَانِ وَاحِدٍ فَفَضْلُهُ
بِزِيَادَةِ كَسْبٍ وَرَفِهِ بِعَوَائِدِ مِنَ التَّرْفِ لَا تُوْجَدُ فِي الْآخِرِ فَمَا كَانَ عُمَرَانُهُ مِنْ
الْأَمْصَارِ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ كَانَ حَالُ أَهْلِهِ فِي التَّرْفِ أَتْلَعُ مِنْ حَالِ الْمِصْرِ الَّذِي دُونَهُ عَلَى
وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْأَصْنَافِ . الْقَاضِي مَعَ الْقَاضِي وَالتَّاجِرُ مَعَ التَّاجِرِ وَالصَّانِعُ مَعَ
الصَّانِعِ وَالسُّوقِيُّ مَعَ السُّوقِيِّ وَالْأَمِيرُ مَعَ الْأَمِيرِ وَالشَّرْطِيُّ مَعَ الشَّرْطِيِّ . وَاعْتَبَرَ
ذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ مَثَلًا بِحَالِ فَاسَ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِهِ مِثْلَ بَجَايَةِ وَتَلْمَسَانَ وَسَبْتَةَ
تَجِدُ بَيْنَهُمَا بَوْنًا كَثِيرًا عَلَى الْجُمْلَةِ . ثُمَّ عَلَى الْخُصُوصِيَّاتِ فَحَالُ الْقَاضِي بِفَاسَ
أَوْسَعُ مِنْ حَالِ الْقَاضِي بِتَلْمَسَانَ وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفِ أَهْلِهِ . وَكَذَا أَيْضًا حَالُ
تَلْمَسَانَ مَعَ وَهْرَانَ أَوْ الْجَزَائِرِ وَحَالُ وَهْرَانَ وَالْجَزَائِرِ مَعَ مَا دُونَهُمَا إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى
الْمَدَرِ^(١) الَّذِينَ اعْتَمَلَهُمْ فِي ضَرُورِيَّاتِ^(٢) مَعَاشِهِمْ فَقَطُّ وَيَقْصُرُونَ عَنْهَا . وَمَا ذَلِكَ
إِلَّا لِتَفَاوُتِ الْأَعْمَالِ فِيهَا فَكَأَنَّهَا كُلُّهَا أَسْوَاقٌ لِلْأَعْمَالِ . وَالْخُرُجُ فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَى
نِسْبَتِهِ فَالْقَاضِي بِفَاسَ دَخْلُهُ كِفَاءُ خُرْجِهِ وَكَذَا الْقَاضِي بِتَلْمَسَانَ وَحَيْثُ الدُّخْلُ
وَالْخُرُجُ أَكْثَرُ تَكُونُ الْأَحْوَالُ أَعْظَمَ وَهُمَا بِفَاسَ أَكْثَرُ لِنِفَاقِ سُوقِ^(٣) الْأَعْمَالِ بِمَا
يَدْعُو إِلَيْهِ التَّرْفُ فَالْأَحْوَالُ أَضْحَمَ . ثُمَّ هَكَذَا حَالُ وَهْرَانَ وَقُسْنطينِيَّةَ وَالْجَزَائِرِ
وَبِسْكَرَةَ حَتَّى تَنْتَهِيَ كَمَا قُلْنَا إِلَى الْأَمْصَارِ الَّتِي لَا تُؤْفَى^(٤) أَعْمَالُهَا بِضَرُورَاتِهَا
وَلَا تَعُدُّ فِي الْأَمْصَارِ إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ . فَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ هَذِهِ الْأَمْصَارِ
الصَّغِيرَةِ ضَعْفَاءَ الْأَحْوَالِ مُتَقَارِبِينَ فِي الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ لِمَا أَنَّ أَعْمَالَهُمْ لَا تَفِي

(١) وفي النسخة الباريسية : الدائر

(١١) وفي النسخة الباريسية : ضرورات .

(٢) وفي النسخة الباريسية : سائر الأعمال .

(٤) وفي النسخة الباريسية : تفي .

بِضُرُورَاتِهِمْ وَلَا يَفْضَلُ مَا يَتَأَكَّلُونَهُ كَسْبًا فَلَا تَنْمُو مَكَاسِبُهُمْ . وَهُمْ لِذَلِكَ مَسَاكِينُ
مَحَاوِيَجُ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ حَتَّى فِي أَحْوَالِ الْفُقَرَاءِ وَالسُّؤَالِ فَإِنَّ
السَّائِلَ يَفَاسُ أَحْسَنَ خَالًا مِنَ السَّائِلِ يَتَلَمَّسَانِ أَوْ وَهَرَانِ . وَلَقَدْ شَاهَدْتُ يَفَاسَ
السُّؤَالِ يَسْأَلُونَ أَيَّامَ الْأَضَاحِيِّ أَثْمَانَ ضَحَايَاهُمْ وَرَأَيْتُهُمْ يَسْأَلُونَ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ
التَّرَفِ وَاقْتِرَاجِ الْمَاكِلِ مِثْلَ سُؤَالِ اللَّحْمِ وَالسَّمَنِ وَعِلَاجِ الطَّبِيخِ وَالْمَلَأِيسِ وَالْمَاعُونِ
كَالْفِرْيَالِ وَالْأَنِيبَةِ . وَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ مِثْلَ هَذَا يَتَلَمَّسَانِ أَوْ وَهَرَانِ لَأَسْتَكْبَرُ وَعَنْفُ
وَزَجَرُ . وَيَبْلُغُنَا لِهَذَا الْقَهْدِ عَنْ أَحْوَالِ الْقَاهِرَةِ وَمِضْرَ مِنَ التَّرَفِ وَالْفَنَى فِي عَوَائِدِهِمْ
مَا يَقْضَى ^(١) مِنْهُ الْعَجَبُ حَتَّى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَرَاءِ بِالْمَغْرِبِ يَنْزِعُونَ مِنَ الثَّقَلَةِ إِلَى
مِضْرَ لِذَلِكَ وَلَمَّا يَبْلُغُهُمْ مِنْ شَأْنِ الرَّفَةِ بِمِضْرَ أَغْظَمَ مِنْ غَيْرِهَا . وَيَعْتَقِدُ الْعَامَّةُ مِنَ
النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ لِرِيزَاةٍ إِيَّارٍ فِي أَهْلِ تِلْكَ الْأَفَاقِ عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ أَمْوَالٍ مُخْتَزَنَةٍ
لَدِينِهِمْ ^(٢) . وَأَنَّهُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةٍ وَإِيَّارًا مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هُوَ
لَمَّا تَعَرَّفَهُ مِنْ أَنَّ عُمَرَانَ مِضْرَ وَالْقَاهِرَةَ أَكْثَرُ مِنْ عُمَرَانِ هَذِهِ الْأَمْصَارِ الَّتِي لَدَيْكَ
فَعَظُمَتْ لِذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ . وَأَمَّا حَالُ الدُّخْلِ وَالْخَرْجِ فَمُتَكَافِيَةٌ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ
وَمَتَى عَظُمَ الدُّخْلُ عَظُمَ الْخَرْجُ وَبِالْعَكْسِ وَمَتَى عَظُمَ الدُّخْلُ وَالْخَرْجُ اتَّسَعَتْ
أَحْوَالُ السَّاكِنِ وَوَسَّعَ الْمِضْرُ . كُلُّ شَيْءٍ يَبْلُغُكَ مِنْ مِثْلِ هَذَا فَلَا تُنْكِرُهُ وَاعْتَبِرْهُ
بِكَثْرَةِ الْعُمَرَانِ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ الْمَكَاسِبَةِ الَّتِي يَسْهَلُ بِسَبَبِهَا الْبَدَلُ
وَالْإِيَّارُ عَلَى مُبْتَغِيهِ وَمِثْلُهُ بِشَأْنِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجِيجِ مَعَ بَيُوتِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ
وَكَيْفَ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهَا فِي هَجْرَانِهَا أَوْ غَشْيَانِهَا فَإِنَّ بَيُوتَ أَهْلِ النِّعَمِ وَالشَّرْوَةِ
وَالْمَوَائِدِ الْخَصِيَّةِ ^(٣) مِنْهَا تَكْثُرُ بِسَاحَتِهَا وَأَقْنِيَّتِهَا يَنْشُرُ الْخُبُوبُ وَسَوَاقِطُ الْفُتَاتِ
فَيَزِدُّهُمْ عَلَيْهَا غَوَاشِي النَّمْلِ وَالْخَشَاشِ وَيَلْحَقُ فَوْقَهَا عَصَائِبُ الطُّيُورِ حَتَّى تَرُوحَ
بِطَانًا وَتَمْتَلِئَ شَيْعًا وَرِيًّا وَبَيُوتُ أَهْلِ الْخِصَاصَةِ وَالْفُقَرَاءِ الْكَاسِدَةِ أَرْزَاقُهُمْ

(١) وفي نسخة أخرى : ما تقضى .

(٢) وفي النسخة الباريسية : لطموا الأموال في تلك الأفاق . وإن الأموال مختزنة لديهم .

(٣) وفي النسخة الباريسية : الخصيبة .

لَا يَسْرِي بِسَاحَتِهَا دَيْبٌ وَلَا يَحْلُقُ بِجَوِّهَا طَائِرٌ وَلَا تَأْوِي إِلَى زَوَايَا بُيُوتِهِمْ فَارَةٌ
وَلَا هِرَّةٌ^(١) كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ .

تَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ تَلْتَقِطُ الْحَبَّ وَتَغْشَى مَنَازِلَ الْكُرَمَاءِ^(٢)

فَتَأْمُلُ سِرَّ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ وَاعْتَبِرْ غَاشِيَةَ الْإِنْسَانِ بِغَاشِيَةِ الْعَجَمِ مِنَ
الْحَيَوَانَاتِ وَقَاتِ الْمَوَائِدِ بِفَضْلَاتِ الرِّزْقِ وَالتَّرَفِ وَسَهُولَتِهَا عَلَى مَنْ يَبْذُلُهَا
لِاسْتِفْنَائِهِمْ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ لَوْجُودِ أَمْثَالِهَا لَدَيْنِهِمْ وَاعْلَمْ أَنَّ اتِّسَاعَ الْأَحْوَالِ وَكَثْرَةَ
النَّعَمِ فِي الْعُمُرَانِ تَابِعٌ لِكَثْرَتِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

الفصل الثاني عشر

في أسعار المدن

إِغْلَمْ أَنَّ الْأَسْوَاقَ كُلَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى حَاجَاتِ النَّاسِ فَمِنْهَا الضَّرُورِيُّ وَهِيَ
الْأَقْوَاتُ مِنَ الْحِنْطَةِ وَمَا مَعْنَاهَا كَالْبَاقِلَاءِ وَالْبَصْلِ وَالثُّومِ وَأَشْبَاهِهِ وَمِنْهَا الْحَاجِيُّ
وَالْكُمَالِيُّ مِثْلُ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَاعُونِ وَالْمَرَكَبِ وَسَائِرِ الْمَصَانِعِ
وَالْمَبَانِي فَإِذَا اسْتَبَحَرَ الْمِضْرُ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ رَخِصَتْ أَسْعَارُ الضَّرُورِيِّ مِنَ الْقَوْتِ وَمَا
فِي مَعْنَاهُ وَغَلَّتْ أَسْعَارُ الْكُمَالِيِّ مِنَ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا يَتَّبِعُهَا وَإِذَا قَلَّ سَاكِنُ الْمِضْرِ
وَضَعُفَ عُمُرَانُهُ كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْحُبُوبَ مِنَ
ضَرُورَاتِ الْقَوْتِ فَتَتَوَقَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى اتِّخَاذِهَا إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يَهْمِلُ قُوْتَ نَفْسِهِ وَلَا
قُوْتَ مَنْزِلِهِ لِشَهْرِهِ أَوْ سَنَتِهِ فَيَعْمُ اتِّخَاذُهَا أَهْلُ الْمِضْرِ أَجْمَعُ أَوْ الْأَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ
الْمِضْرِ أَوْ فِيمَا قَرَبَ مِنْهُ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ . وَكُلُّ مُتَخِدٍ لِقَوْتِهِ فَتَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ
بَيْتِهِ فَضْلَةً كَبِيرَةً تُسَدُّ خَلَّةَ كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمِضْرِ فَتَفْضُلُ الْأَقْوَاتُ عَنْ أَهْلِ

(١) وفي النسخة الباريسية وردت هذه العبارة : « يأوي إلى أسراب بيوتها فارة ولا هر » .

(٢) وفي النسخة الباريسية : يسقط الطير حيث يلتقط الحب ويغشى منازل الكرماء .

المِصْرُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ فَتَرَحُّصُ أَسْعَارِهَا فِي الْغَالِبِ إِلَّا مَا يُصِيبُهَا فِي بَعْضِ السَّنِينَ مِنْ
الْآفَاتِ السَّمَاءِيَّةِ وَلَوْلَا اخْتِكَارُ النَّاسِ لَهَا لِمَا يَتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ لَبَدَّلَتْ دُونَ
ثَمَنِ وَلَا عَوَضَ لِكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ الْعُمَرَانِ . وَأَمَّا سَائِرُ الْمَرَاقِي مِنَ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا
إِلَيْهَا لَا تَعْمُ بِهَا الْبُلُوى وَلَا يَسْتَفْرِقُ اتِّخَاذُهَا أَعْمَالِ أَهْلِ الْمِصْرِ أَجْمَعِينَ وَلَا الْكَثِيرَ
مِنْهُمْ ثُمَّ إِنَّ الْمِصْرَ إِذَا كَانَ مُسْتَبْجِرًا مَوْفُورَ الْعُمَرَانِ كَثِيرَ حَاجَاتِ التَّرَفِ تَوَفَّرَتْ
حِينَئِذٍ الدَّوَاعِي عَلَى طَلَبِ تِلْكَ الْمَرَاقِي وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا كُلِّ بِحَسَبِ خَالِهِ فَيَقْصُرُ
الْمَوْجُودُ مِنْهَا عَلَى الْحَاجَاتِ قُصُورًا بِالْعَا وَيكْثُرُ الْمُسْتَأْمُونَ لَهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي
نَفْسِهَا فَتَرْدِجُمُ أَهْلُ الْأَعْرَاضِ وَيَبْذُلُ أَهْلُ الرَّفْهِ وَالتَّرَفِ أَثْمَانَهَا بِإِسْرَافٍ فِي الْغَلَاءِ
لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَقَعُ فِيهَا الْغَلَاءُ كَمَا تَرَاهُ . وَأَمَّا الصَّنَائِعُ وَالْأَعْمَالُ
أَيْضًا فِي الْأَمْصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمَرَانِ فَسَبَبُ الْغَلَاءِ فِيهَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ ، الْأَوَّلُ كَثْرَةُ
الْحَاجَةِ لِمَكَانِ التَّرَفِ فِي الْمِصْرِ بِكَثْرَةِ عُمَرَانِهِ ، وَالثَّانِي اغْتِرَازُ أَهْلِ الْأَعْمَالِ
لِخِدْمَتِهِمْ ^(١) وَامْتِنَانُ أَنْفُسِهِمْ لِسُهُولَةِ الْمَعَاشِ فِي الْمَدِينَةِ بِكَثْرَةِ أَقْوَاتِهَا ، وَالثَّالِثُ
كَثْرَةُ الْمُتَرَفِينَ وَكَثْرَةُ حَاجَاتِهِمْ إِلَى امْتِنَانِ غَيْرِهِمْ وَإِلَى اسْتِعْمَالِ الصَّنَاعِ فِي مِهْنِهِمْ
فَيَبْذُلُونَ فِي ذَلِكَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِنْ قِيَمَةِ أَعْمَالِهِمْ مَرَاخِمَةً وَمُنَافَسَةً فِي الْإِسْتِثْنَاءِ
بِهَا فَيَغْتَرُ الْعُمَالُ وَالصَّنَاعُ وَأَهْلُ الْحِرَفِ وَتَغْلُو أَعْمَالُهُمْ وَتَكْثُرُ نَفَقَاتُ أَهْلِ الْمِصْرِ فِي
ذَلِكَ . وَأَمَّا الْأَمْصَارُ الصَّغِيرَةُ وَالْقَلِيلَةُ السَّاكِنِ فَأَقْوَاتُهُمْ قَلِيلَةٌ لِقَلَّةِ الْعَمَلِ فِيهَا وَمَا
يَتَوَقَّعُونَهُ لِصِغَرِ مِصْرِهِمْ مِنْ عَدَمِ الْقُوَّةِ فَيَتَمَسَّكُونَ بِمَا يَحْصُلُ مِنْهُ فِي أَيْدِيهِمْ
وَيَخْتَكِرُونَهُ فَيَعِزُّ وَجُودُهُ لَدَيْهِمْ وَيَغْلُو ثَمَنُهُ عَلَى مُسْتَأْمِيهِ . وَأَمَّا مَرَاقِقُهُمْ فَلَا تَدْعُو
إِلَيْهَا أَيْضًا حَاجَةٌ بِقَلَّةِ ^(٢) السَّاكِنِ وَضَعْفِ الْأَحْوَالِ فَلَا تَنْفَقُ لَدَيْهِمْ سَوْفَهُ فَيَخْصُصُ
بِالرُّخْصِ فِي سِعَرِهِ . وَقَدْ يَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ قِيَمَةُ مَا يَغْرُضُ ^(٣) عَلَيْهَا
مِنَ الْمَكُوسِ وَالْمَغَارِمِ لِلْسُلْطَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَبَابِ الْحَفْرِ وَالْحَيَاةِ فِي مَنَافِعِ وَصُولِهَا

(١) وفي نسخة أخرى بخدمتهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : لقلة .

(٣) وفي نسخة أخرى : يفرض .

عَنِ الْبُيُوعَاتِ لِمَا يَمْسُهُمْ^(١) . وَبِذَلِكَ كَانَتْ الْأَسْعَارُ فِي الْأَمْصَارِ أَغْلَى مِنَ الْأَسْعَارِ فِي
الْبَادِيَةِ إِذِ الْمَكُوسُ وَالْمَغَارِمُ وَالْفَرَائِضُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ أَوْ مَعْدُومَةٌ . وَكَثُرَتْهَا^(٢) فِي
الْأَنْصَارِ لَا سِيَّمَا فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ تَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ قِيَمَةُ عِلَاجِهَا فِي
الْفَلَحِ وَيَحَافِظُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَسْعَارِهَا كَمَا وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا
الْجَاهُ النَّصَارَى إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ وَبِلَادِهِ الْمُتَوَعَّرَةِ الْخَبِيثَةِ الزَّارِعَةِ النُّكِدَةَ النَّبَاتِ
وَمَلَكُوا عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ الزَّاكِيَةَ وَالْبَلَدَ الطَّيِّبَ فَاحْتَاجُوا إِلَى عِلَاجِ الْمَزَارِعِ وَالْقُدُنِ
لِإِصْلَاحِ نَبَاتِهَا وَقَلَحِهَا وَكَانَ ذَلِكَ الْعِلَاجُ بِأَعْمَالِ ذَاتِ قِيَمٍ وَمَوَادِّ مِنَ الزُّبْلِ وَغَيْرِهِ
لَهَا مَوْئَةٌ وَصَارَتْ فِي فَلَاحِهِمْ نَقَقَاتٌ لَهَا خَطَرٌ فَاعْتَبَرُوهَا فِي سِعْرِهَا . وَاخْتَصَّ قَطْرُ
الْأَنْدَلُسِ بِالْغَلَاءِ مُنْذُ اضْطَرَّهُمُ النَّصَارَى إِلَى هَذَا الْمَغْمُورِ بِالْإِسْلَامِ مَعَ سَوَاجِلِهَا
لِأَجْلِ ذَلِكَ . وَيَحْسِبُ النَّاسُ إِذَا سَمِعُوا بِغَلَاءِ الْأَسْعَارِ فِي قَطْرِهَا أَنَّهَا لِقِلَّةِ الْأَقْوَاتِ
وَالْحُبُوبِ فِي أَرْضِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَهْمُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْمَغْمُورِ فَلِحَا فِيمَا عَلِمْنَاهُ وَأَقْوَمُهُمْ
عَلَيْهِ وَقُلْ أَنْ يَخْلَوْ مِنْهُمْ سُلْطَانٌ أَوْ سَوْقَةٌ عَنْ قَدَانٍ أَوْ مَزْرَعَةٍ أَوْ فَلَاحٍ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ
أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ وَالْمِهَنِ أَوْ الطَّرَاءِ عَلَى الْوَطَنِ مِنَ الْغُرَاةِ الْمُجَاهِدِينَ . وَلِهَذَا
يَخْتَصُّهُمْ السُّلْطَانُ فِي عَطَائِهِمْ بِالْعَوْلَةِ وَهِيَ أَقْوَاتُهُمْ وَعُلُوفَاتُهُمْ مِنَ الزَّرْعِ . وَإِنَّمَا
السَّبَبُ فِي غَلَاءِ سِعْرِ الْحُبُوبِ عِنْدَهُمْ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَلَمَّا كَانَتْ بِلَادُ الْبَرْبَرِ بِالْعَكْسِ
مِنْ ذَلِكَ فِي زَكَاةِ مَنَائِيهِمْ وَطَيِّبِ أَرْضِهِمْ ارْتَفَعَتْ عَنْهُمْ الْمُؤُونُ جُمْلَةً فِي الْفَلَاحِ مَعَ
كَثْرَتِهِ وَعُمُومَتِهِ^(٣) فَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرُخْصِ الْأَقْوَاتِ بِبِلَادِهِمْ « وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا رَبَّ سِوَاهُ » .

(١) وفي نسخة أخرى : وأبواب أخرى : وأبواب مصر وللجباة في منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : وبالعكس كثيرة .

(٣) وفي نسخة أخرى : عمومه .

الفصل الثالث عشر

في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمِصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمَرَانِ يَكْثُرُ تَرْفُهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَتَكْثُرُ حَاجَاتُ سَاكِنِهِ مِنْ أَجْلِ التَّرَفِ . وَتُعْتَادُ تِلْكَ الْحَاجَاتُ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهَا فَتَنْقَلِبُ ضُرُورَاتٍ وَتَصِيرُ فِيهِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا مَعَ ذَلِكَ عَزِيزَةً وَالْمَرَافِقُ غَالِيَةً بِازْدِحَامِ الْأَعْرَاضِ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ التَّرَفِ وَبِالْمَعَارِمِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَى الْأَسْوَاقِ وَالْبَيْعَاتِ وَتُعْتَبَرُ فِي قِيَمِ الْمِصْبَعَاتِ وَيَعْظُمُ فِيهَا الْغَلَاءُ فِي الْمَرَافِقِ وَالْأَوْقَاتِ ^(١) وَالْأَعْمَالِ فَتَكْثُرُ لَذَلِكَ نَفَقَاتُ سَاكِنِهِ كَثْرَةً بَالِغَةً عَلَى نِسْبَةِ عُمُرَانِهِ . وَيَعْظُمُ خَرْجُهُ فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى الْمَالِ الْكَثِيرِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضُرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وَسَائِرِ مَوْثِقَتِهِمْ ^(٢) . وَالْبَدْوِيُّ لَمْ يَكُنْ دَخْلُهُ كَثِيراً سَاكِناً بِمَكَانٍ كَاسِدِ الْأَسْوَاقِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْكَسْبِ فَلَمْ يَتَأَثَّلْ كَسْباً وَلَا مَالاً فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سُكْنَى الْمِصْرِ الْكَبِيرِ لِغَلَاءِ مَرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ . وَهُوَ فِي بَدْوِهِ يَسُدُّ خَلْتَهُ بِأَقْلِ الْأَعْمَالِ لِأَنَّهُ قَلِيلٌ عَوَائِدُ التَّرَفِ فِي مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَوْثِقَتِهِ ^(٣) فَلَا يَضْطَرُّ إِلَى الْمَالِ وَكُلُّ مَنْ يَتَشَوَّفُ إِلَى الْمِصْرِ وَسُكْنَاهُ مِنَ الْبَادِيَةِ ^(٤) فَسَرِيعاً مَا يَظْهَرُ عِزُّهُ وَيَفْتَضِحُ فِي اسْتِيطَانِهِ إِلَّا مَنْ يَقْدَمُ ^(٥) مِنْهُمْ تَأَثَّلَ الْمَالِ وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ الْحَاجَةِ وَيَجْرِي إِلَى الْغَايَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ الْعُمَرَانِ مِنَ الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ إِلَى الْمِصْرِ وَيَنْتَظِمُ حَالَهُ مَعَ أَحْوَالِ أَهْلِهِ فِي عَوَائِدِهِمْ وَتَرْفِهِمْ . وَهَكَذَا شَأْنُ بَدَاةِ عُمَرَانِ الْأَمْصَارِ . وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ .

(١) وفي نسخة أخرى ، الأقوات .

(٢) وفي نسخة أخرى ، مؤنهم .

(٣) وفي نسخة أخرى ، من أهل البادية .

(٤) وفي نسخة أخرى ، تقدم .

الفصل الرابع عشر

في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقير مثل الأمصار

إِغْلَمْ أَنَّ مَا تَوَفَّرَ عُمْرَانُهُ مِنَ الْأَقْطَارِ وَتَعَدَّدَتْ الْأُمَمُ فِي جِهَاتِهِ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهِ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَمْصَارُهُمْ وَعَظُمَتْ دَوْلَتُهُمْ وَمَمَالِكُهُمْ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْأَعْمَالِ وَمَا سَيَّأَتِي ذِكْرُهُ مِنْ أَنَّهَا سَبَبٌ لِلثَّرْوَةِ بِمَا يَفْضُلُ عَنْهَا بَعْدَ الْوَفَاءِ بِالضَّرُورِيَّاتِ فِي حَاجَاتِ السَّاكِنِ مِنَ الْفَضْلَةِ الْبَالِغَةِ عَلَى مِقْدَارِ الْعُمْرَانِ وَكَثَرَتِهِ فَيَعُودُ عَلَى النَّاسِ كَسْبًا يَتَأَلَّلُونَهُ حَسَبًا نَذَكُرُ ذَلِكَ فِي فَضْلِ الْمَعَاشِ وَبَيَانِ الرِّزْقِ وَالْكَسْبِ فَيَتَزَيَّدُ الرِّفْقُ لِذَلِكَ وَتَتَسَّعُ الْأَحْوَالُ وَيَجِيءُ التَّرَفُّ وَالْغِنَى وَتَكْثُرُ الْجَبَانِيَّةُ لِلدَّوْلَةِ يَنْفَاقِ الْأَسْوَاقِ فَيَكْثُرُ مَالُهَا وَيَشْمُخُ سُلْطَانُهَا وَتَتَفَنَّنُ فِي اتِّخَاذِ الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ وَاخْتِطَاطِ الْمُدُنِ وَتَشْيِيدِ الْأَمْصَارِ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَقْطَارِ الْمَشْرِقِ مِثْلَ مِصْرَ وَالشَّامِ وَعِرَاقِ الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَنَاحِيَةِ الشَّمَالِ كُلِّهَا وَأَقْطَارِهَا وَرَاءَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا كَيْفَ كَثُرَ الْمَالُ فِيهِمْ وَعَظُمَتْ دَوْلَتُهُمْ ^(١) وَتَعَدَّدَتْ مُدُنُهُمْ وَخَوَاضِرُهُمْ وَعَظُمَتْ مَتَاجِرُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ . فَالَّذِي نَشَاهِدُهُ لِهَذَا الْعَبْدِ مِنْ أَحْوَالِ تِجَارِ الْأُمَمِ النُّصْرَانِيَّةِ الْوَارِدِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْمَغْرِبِ فِي رَفْهِهِمْ وَاتِّسَاعِ أَحْوَالِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ الْوُصْفُ . وَكَذَا تِجَارُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَمَا يَبْلُغُنَا عَنْ أَحْوَالِهِمْ وَأَبْلَغُ مِنْهَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ الْأَقْصَى مِنْ عِرَاقِ الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ فَإِنَّهُ يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ فِي بَابِ الْغِنَى وَالرِّفْقِ غَرَائِبُ تَسِيرِ الرُّكْبَانِ بِحَدِيثِهَا وَرَبِّمَا تُتَلَقَّى بِالْإِنْكَارِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ . وَيَحْسِبُ مَنْ يَسْمَعُهَا مِنَ الْعَامَّةِ أَنَّ ذَلِكَ لِرِيَادَةِ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ لِأَنَّ الْمَعَادِنَ الذَّهَبِيَّةَ وَالْفِضِّيَّةَ أَكْثَرَ بِأَرْضِهِمْ أَوْ لِأَنَّ ذَهَبَ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْأُمَمِ اسْتَأَثَرُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَمَعْدِنُ الذَّهَبِ

(١) وفي بعض النسخ : دولهم .

الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي هَذِهِ الْأَفْطَارِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بِلَادِ^(١) السُّودَانِ وَهِيَ إِلَى الْمَغْرِبِ أَقْرَبُ .
وَجَمِيعُ مَا فِي أَرْضِهِمْ مِنَ الْبِضَاعَةِ فَإِنَّمَا يَجْلِبُونَهُ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ لِلتَّجَارَةِ . فَلَوْ كَانَ
الْمَالُ عَتِيداً مَوْفُوراً لَدَيْهِمْ لَمَا جَلَبُوا بِضَائِعَهُمْ إِلَى سِوَاهُمْ يَسْتَعُونُ بِهَا الْأَمْوَالَ وَلَا
اسْتَفْتَنُوا^(٢) عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْحُمْلَةِ . وَلَقَدْ ذَهَبَ الْمُتَجَمُّونَ لَمَّا رَأَوْا مِثْلَ ذَلِكَ
وَاسْتَفْرَبُوا مَا فِي الْمَشْرِقِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتَّسَاعِهَا وَوَفُورِ أَمْوَالِهَا فَقَالُوا يَا
عَطَايَا الْكُوكَبِ وَالسَّهَامِ فِي مَوَالِيدِ الْمَشْرِقِ أَكْثَرُ مِنْهَا حِصْصاً فِي مَوَالِيدِ أَهْلِ
الْمَغْرِبِ وَذَلِكَ صَحِيحٌ مِنْ جِهَةِ الْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ
الْأَرْضِيَّةِ كَمَا قُلْنَا هُمْ إِنَّمَا أَعْطَوْا فِي ذَلِكَ السَّبَبِ النُّجُومِيَّ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْطُوا
السَّبَبَ الْأَرْضِيَّ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْعُمَرَانِ وَاخْتِصَاصِهِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ
وَأَفْطَارِهِ وَكَثْرَةِ الْعُمَرَانِ تَفِيدُ كَثْرَةَ الْكَسْبِ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُهُ فَلِذَلِكَ
اخْتَصَّ الْمَشْرِقُ بِالرِّفَةِ مِنْ بَيْنِ الْأَفَاقِ لَا إِنْ ذَلِكَ لِمَجْرَدِ الْأَثَرِ النُّجُومِيِّ . فَقَدْ
فَهِمْتُ مِمَّا أَشْرْنَا لَكَ أَوَّلًا أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ بِذَلِكَ وَأَنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ حُكْمِهِ وَعُمَرَانِ
الْأَرْضِ وَطَبِيعَتِهَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ . وَاعْتَبِرْ خَالَ هَذَا الرِّفَةِ مِنَ الْعُمَرَانِ فِي قَطْرِ
أَفْرِيقِيَّةٍ وَبَرَقَةٍ لَمَّا خَفَّ سَكْنُهَا^(٣) وَتَنَاقَصَ عُمَرَانُهَا كَيْفَ تَلَاَشَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهَا
وَانْتَهَوْا إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ . وَضَعُفَتْ جَبَايَاتُهَا فَقَلَّتْ أَمْوَالُ دَوْلِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ
دَوْلُ الشَّيْعَةِ وَصْنَهَا جَةً بِهَا عَلَى مَا بَلَغَكَ مِنَ الرِّفَةِ وَكَثْرَةِ الْجَبَايَاتِ وَاتَّسَاعِ
الْأَحْوَالِ فِي نَفَقَاتِهِمْ وَأَعْطِيَاتِهِمْ . حَتَّى لَقَدْ كَانَتْ الْأَمْوَالُ تَرْفَعُ مِنَ الْفَقِيرِ إِلَى
صَاحِبِ مِضْرٍ لِحَاجَاتِهِ وَمَهْمَاتِهِ وَكَانَتْ أَمْوَالُ الدَّوْلَةِ بِحَيْثُ حَمَلَ جَوْهَرُ الْكَاتِبِ فِي
سَفَرِهِ إِلَى فَتْحِ مِضْرٍ أَلْفَ حِمْلٍ مِنَ الْمَالِ يَسْتَعِدُّ بِهَا لِأَرْزَاقِ الْجُنُودِ وَأَعْطِيَاتِهِمْ
وَنَفَقَاتِ الْغَزَاةِ . وَقَطَرُ الْمَغْرِبِ وَإِنْ كَانَ فِي الْقَدِيمِ دُونَ أَفْرِيقِيَّةٍ فَلَمْ يَكُنْ بِالْقَلِيلِ
فِي ذَلِكَ وَكَانَتْ أَحْوَالُهُ فِي دَوْلِ الْمُوَحِّدِينَ مُتَّسِعَةً وَجَبَايَاتُهُ مَوْفُورَةً وَهُوَ لِهَذَا الْعَهْدِ

(١) وفي بعض النسخ : بِلَادِ .

(٢) وفي بعض النسخ : وَاسْتَفْتَنُوا .

(٣) وفي بعض النسخ : سَاكِنُهَا .

قَدْ أَقْصَرَ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِ الْعُمَرَانِ فِيهِ وَتَنَاقُصِهِ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمَرَانِ الْبَرْبَرِ فِيهِ أَكْثَرُهُ وَنَقَصَ عَنْ مَعْرُودِهِ نَقْصاً ظَاهِراً مَخْشُوساً ، وَكَادَ أَنْ يُلْخَقَ فِي أَحْوَالِهِ بِمِثْلِ أَحْوَالِ أَفْرِيْقِيَّةٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ عُمَرَانُهُ مُتَّصِلاً مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ فِي طُولِ مَا بَيْنَ السُّوسِ الْأَقْصَى وَبَرْقَةِ . وَهِيَ الْيَوْمَ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا قِفَارٌ وَخَلَاءٌ وَصَحَارَى إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ مِنَ التَّلَوْلِ وَاللَّهِ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الخامس عشر

فِي تَأَثُّلِ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ فِي الْأَمْصَارِ وَحَالِ فَوَائِدِهَا وَمُسْتَغْلَاتِهَا
إِذْ عَلِمَ أَنَّ تَأَثُّلَ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ الْكَثِيرَةِ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً وَاحِدَةً وَلَا فِي عَصْرِ وَاحِدٍ إِذْ لَيْسَ يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ الثَّرْوَةِ مَا يَمْلِكُ بِهِ الْأَمْلاكَ الَّتِي تَخْرُجُ قِيمَتُهَا عَنِ الْحَدِّ وَلَوْ بَلَغَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي الرَّفْعِ مَا عَسَى أَنْ تَبْلُغَ . وَإِنَّمَا يَكُونُ مُلْكُهُمْ وَتَأَثُّلُهُمْ لَهَا تَدْرِيجاً إِمَّا بِالْوَرَاثَةِ مِنْ آبَائِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ حَتَّى تَتَأَدَّى أَمْلاكَ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِلَى الْوَاحِدِ وَأَكْثَرُ لِدَلِكِ ^(١) أَوْ أَنْ يَكُونَ بِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّ الْعَقَارَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَأَوَّلِ الْأُخْرَى عِنْدَ فَنَاءِ الْحَامِيَةِ وَخَرْقِ السِّيَاحِ وَتَدَاعِي الْمِضْرِ إِلَى الْخَرَابِ تَقِلُّ الْغِبْطَةُ بِهِ لِقِلَّةِ الْمُنْفَعَةِ فِيهَا بِتَلَاشِي الْأَحْوَالِ فَتَرْخُصُ قِيمَتُهَا وَتَتَمَلَّكَ بِالْأَثْمَانِ الْيَسِيرَةِ وَتَتَخَطَّى بِالْمِيرَاثِ إِلَى مُلْكٍ آخَرَ وَقَدْ اسْتَجَدَّ الْمِضْرُ شَبَابَهُ بِاسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَانْتَضَمَتْ لَهُ أَحْوَالٌ رَائِقَةٌ حَسَنَةٌ تَحْصُلُ مَعَهَا الْغِبْطَةُ فِي الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا حِينَئِذٍ فَتَغْطِي قِيمَتُهَا وَيَكُونُ لَهَا خَطَرٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَوَّلِ . وَهَذَا مَعْنَى الْحَوَالَةِ فِيهَا وَيُضَيِّحُ مَا لِكَبْهَا مِنْ أَغْنَى أَهْلِ الْمِضْرِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِسَعْيِهِ وَاكْتِسَابِهِ إِذْ قُدْرَتُهُ تَعْجِزُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ . وَأَمَّا فَوَائِدُ

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : كَذَلِكَ .

العقار والضياح فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه إذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه وإنما هي في الغالب لسد الخلّة وضرورة المعاش . والذي سمعناه من مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياح إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء^(١) ليكون مرباهم به ورزقه فيه ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم ورُبما يكون من الولد من يعجز عن التكسب ليضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار قواماً لحاله . هذا قصد المشرفين في اقتنائه . وأما التمولُّ منه وإجراء أحوال المشرفين فلا . وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة الأسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالى^(٢) في جنسه وقيمته في المضمر إلا أن ذلك إذا حصل ربّما امتدّت إليه أغنيُ الأمراء والولاة واغتصبوه في الغالب أو أرادوه على ينيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب والله غالب على أمره وهو ربّ العرش العظيم .

الفصل السادس عشر

في حاجات المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمباقة

وذلك أن الحضري إذا عظم تمؤله وكثر للعقار والضياح تأثله وأصبح أغنى أهل المضمر ورمقته العيون بذلك وانفسحت أحواله في الترف والعوائد زاحم عليها الأمراء والملوك وغصوا به . ولما في طباع البشر من العدوان تمتد أغنيهم إلى تملك ما بيده وينافسونه فيه ويتحيلون على ذلك بكل ممكّن حتى يحصلوه^(٣) في رتبة حكم سلطانني وسبب من المؤاخذه ظاهر ينتزع به ماله وأكثر الأحكام

(١) وفي النسخة البارسية ، الضفاف .

(٢) وفي النسخة البارسية ، والتفالي . وفي نسخة أخرى المغالي .

(٣) وفي النسخة البارسية ، حتى بحصوله وفي بعض النسخ ، حتى يحصلونها - وحتى محصوله والريقة ،

المرودة في الحبل .

السُّلْطَانِيَّةُ جَائِزَةٌ فِي الْغَالِبِ إِذِ الْعَدْلُ الْمَحْضُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةٌ اللَّبِثُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مُلْكًا عَضُوضًا » . فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ لِصَاحِبِ الْمَالِ وَالثَّرْوَةِ الشَّهِيرَةِ فِي الْعُمْرَانِ مِنْ حَامِيَةٍ تَدُودُ عَنْهُ وَجَاهٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِي قَرَايَةِ لِلْمُلْكِ أَوْ خَالِصَةٍ لَهُ أَوْ عَصِيَّةٍ يَتَحَامَاهَا السُّلْطَانُ فَيَسْتَظِلُّ هُوَ بِظِلِّهَا وَيَزْتَعُ فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ التَّمْذِي . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ أَصْبَحَ نَهْجًا يُوْجُوهُ التَّخِيلَاتُ وَأَسْبَابُ الْحُكَامِ ^(١) . وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ .

الفصل السابع عشر

في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْحَضَارَةَ هِيَ أَحْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمْرَانِ زِيَادَةً تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الرِّفَةِ وَتَفَاوُتِ الْأَمَمِ ^(٢) فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثَرَةِ تَفَاوُتًا غَيْرَ مُنْخَصِرٍ وَتَقَعُ فِيهَا عِنْدَ كَثَرَةِ التَّفَنُّنِ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَائِعِ وَيَخْتِاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى الْقُوَّةِ عَلَيْهِ وَالْمَهَرَةِ فِيهِ وَيَقْدَرُ مَا يَتَزَيَّدُ مِنْ أَصْنَافِهَا تَتَزَيَّدُ أَهْلُ صِنَاعَتِهَا وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ الْحَيْلُ بِهَا وَمَتَى اتَّصَلَتِ الْأَيَّامُ وَتَعَاقَبَتِ تِلْكَ الصَّنَاعَاتُ ^(٣) حَذَقَ أَوْلِيَاكَ الصَّنَاعِ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا وَالْأَعْيَارُ بِطَوْلِهَا وَانْفَسَاحَ أَمْدِهَا وَتَكَرُّرِ أَمْثَالِهَا تَزِيدُهَا اسْتِحْكَامًا وَرُسُوخًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ لِاسْتِجَارِ الْعُمْرَانِ وَكَثَرَةِ الرِّفَةِ فِي أَهْلِهَا . وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ تَجْمَعُ أَمْوَالَ الرُّعْيَةِ وَتُنْفِقُهَا فِي بَطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا وَتَتَسَّعُ أَحْوَالُهُمْ بِالْجَاهِ أَكْثَرُ مِنْ اتِّسَاعِهَا بِالْمَالِ فَيَكُونُ دَخْلُ تِلْكَ الْأَمْوَالِ مِنَ الرُّعَايَا وَخَرْجُهَا فِي

(١) وفي النسخة الباريسية : الحكم .

(٢) وفي النسخة الباريسية : تفاوت الأمر .

(٣) وفي النسخة الباريسية : الصفات .

أَهْلِي الدَّوْلَةِ ثُمَّ فِي مَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ وَهُمْ الْأَكْثَرُ فَتَنْظُمُ لَذَلِكَ ثَرَوَتُهُمْ
وَيَكْثُرُ غِنَاهُمْ وَتَتَزَيَّدُ عَوَائِدُ التَّرْفِ وَمَذَاهِبُهُ وَتَسْتَحْكِمُ لَدَيْهِمُ الصَّنَائِعُ فِي سَائِرِ
فُنُونِهِ وَهَذِهِ هِيَ الْحَضَارَةُ . وَلِهَذَا تَجِدُ الْأَمْنَارَ الَّتِي فِي الْقَاصِيَةِ وَلَوْ كَانَتْ مَوْفُورَةً
الْعُمُرَانِ تَغْلِبُ عَلَيْهَا أحوَالُ الْبِدَاوَةِ وَتَبْعُدُ عَنِ الْحَضَارَةِ فِي جَمِيعِ مَذَاهِبِهَا بِخِلَافِ
الْمَدِينِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِي الْأَقْطَارِ الَّتِي هِيَ مَرْكَزُ الدَّوْلَةِ وَمَقَرُّهَا وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَجَاوَزَةِ
السُّلْطَانِ لَهُمْ وَفَيْضِ أَمْوَالِهِ فِيهِمْ كَالْمَاءِ يَتَخَصَّرُ مَا قَرُبَ مِنْهُ فَمَا قَرُبَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى
أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْجُفُوفِ عَلَى الْبُعْدِ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ السُّلْطَانَ وَالدَّوْلَةَ شَوْقٌ لِلْعَالَمِ .
فَالْبَضَائِعُ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي السُّوقِ وَمَا قَرُبَ مِنْهُ وَإِذَا أُنْعِمَتْ عَنِ السُّوقِ أَقْتَضَتْ
الْبَضَائِعُ جُمْلَةً ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا اتَّصَلَتْ بِتِلْكَ الدَّوْلَةِ وَتَعَاقَبَ مَلُوكُهَا فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ وَاحِدًا
بَعْدَ وَاحِدٍ اسْتَحْكَمَتِ الْحَضَارَةُ فِيهِمْ وَزَادَتْ رُسُوحًا وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ فِي الْيَهُودِ لَمَّا طَالَ
مُلْكُهُمْ بِالشَّامِ نَحْوًا مِنْ أَلْفٍ وَارْبَعِينَ سَنَةً رَسَخَتْ حَضَارَتُهُمْ وَحَذَقُوا فِي أحوَالِ
الْمَعَاشِ وَعَوَائِدِهِ وَالتَّغْنِي فِي صِنَاعَاتِهِ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَسَائِرِ أحوَالِ الْمَنْزِلِ
حَتَّى إِنَّهَا لَتُؤَخَذُ عَنْهُمْ فِي الْغَالِبِ إِلَى الْيَوْمِ . وَرَسَخَتِ الْحَضَارَةُ أَيْضًا وَعَوَائِدُهَا فِي
الشَّامِ مِنْهُمْ وَمِنْ دَوْلَةِ الرُّومِ بَعْدَهُمْ سِتْمِائَةِ سَنَةٍ فَكَانُوا فِي غَايَةِ الْحَضَارَةِ . وَكَذَلِكَ
أَيْضًا الْقَبْطُ دَامَ مُلْكُهُمْ فِي الْخَلِيقَةِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ فَرَسَخَتْ عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ
فِي بَلَدِهِمْ مِصْرَ وَأَعْقَبَهُمْ بِهَا مُلْكُ الْيُونَانِ وَالرُّومِ ثُمَّ مُلْكُ الْإِسْلَامِ النَّاسِخُ لِلْكَلِّ . فَلَمْ
تَزَلْ عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ بِهَا مُتَّصِلَةً وَكَذَلِكَ أَيْضًا رَسَخَتْ عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ بِالْيَمَنِ
لِاتِّصَالِ دَوْلَةِ الْعَرَبِ بِهَا مِنْذُ عَهْدِ الْعَمَالِقَةِ وَالتَّبَايَعَةِ آلَافًا مِنَ السِّنِينَ وَأَعْقَبَهُمْ مُلْكُ
مِصْرَ . وَكَذَلِكَ الْحَضَارَةُ بِالْعِرَاقِ لِاتِّصَالِ دَوْلَةِ النَّبْطِ وَالْفُرسِ بِهَا مِنْ لَدُنِ
الْكَلْدَانِيِّينَ وَالْكَيْبَانِيَّةِ ^(١) وَالْكِسْرَوِيَّةِ وَالْعَرَبِ بَعْدَهُمْ آلَافًا مِنَ السِّنِينَ فَلَمْ يَكُنْ عَلَى

(١) وفي نسخة أخرى : الكينية .

وَجِهِ الْأَرْضِ لِهَذَا الْعَهْدِ أَخْضَرَ^(١) مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ . وَكَذَا أَيْضاً رَسَخَتْ
عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ بِالْأَنْدَلُسِ لِاتِّصَالِ الدَّوْلَةِ الْعَظِيمَةِ فِيهَا لِلْقَوِطِ ثُمَّ
مَا أَغْقَبَهَا مِنْ مُلْكِ بَنِي أُمَيَّةَ الْأَفَا مِنْ السِّنِينَ وَكَلَّتَا الدَّوْلَتَيْنِ عَظِيمَةً فَاتَّصَلَتْ فِيهَا
عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ . وَأَمَّا أَفْرِيْقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ فَلَمْ يَكُنْ بِهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ
مُلْكٌ ضَخْمٌ إِنَّمَا قَطَعَ الْإِفْرَنْجَةُ إِلَى أَفْرِيْقِيَّةِ الْبَحْرِ وَمَلَكُوا السَّاحِلَ وَكَانَتْ طَاعَةُ
الْبَرْبَرِ أَهْلِ الضَّاحِيَةِ لَهُمْ طَاعَةٌ غَيْرَ مُسْتَحْكَمَةٍ فَكَانُوا عَلَى قَلْعَةٍ وَأَوْفَارٍ^(٢) وَأَهْلُ
الْمَغْرِبِ لَمْ تَجَاوِزْهُمْ دَوْلَةٌ وَإِنَّمَا كَانُوا يَبْعَثُونَ بِطَاعَتِهِمْ إِلَى الْقَوِطِ مِنْ وَرَاءِ الْبَحْرِ
وَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَمُلْكُ الْعَرَبِ أَفْرِيْقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ لَمْ يَلْبَثْ فِيهِمْ مُلْكُ الْعَرَبِ
إِلَّا قَلِيلاً أَوَّلَ الْإِسْلَامِ وَكَانُوا لِدَلِكِ الْعَهْدِ فِي طَوْرِ الْبِدَاوَةِ وَمَنْ اسْتَقَرَّ مِنْهُمْ بِأَفْرِيْقِيَّةِ
وَالْمَغْرِبِ لَمْ يَجِدْ بِهِمَا مِنَ الْحَضَارَةِ مَا يُقَلَّدُ فِيهِ مَنْ سَلَفَهُ إِذْ كَانُوا بَرَابِرَ مُنْغَمِسِينَ
فِي الْبِدَاوَةِ ثُمَّ انْتَقَضَ بَرَابِرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى لِأَقْرَبِ الْعُهُودِ عَلَى مَيْسَرَةِ الْمُطْفِرِي
أَيَّامِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَلَمْ يُرَاجِعُوا أَمْرَ الْعَرَبِ بَعْدَ وَاسْتَقْلَالِهَا بِأَمْرِ أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ
بَايَعُوا لِإِدْرِيسَ فَلَا تَعُدُّ دَوْلَتُهُ فِيهِمْ عَرَبِيَّةً لِأَنَّ الْبَرَابِرَ هُمْ الَّذِينَ تَوَلَّوْهَا وَلَمْ يَكُنْ
مِنَ الْعَرَبِ فِيهَا كَثِيرٌ عَدَدٌ وَبَقِيَتْ أَفْرِيْقِيَّةُ لِلْأَغَالِيَةِ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَرَبِ فَكَانَ لَهُمْ
مِنَ الْحَضَارَةِ بَعْضُ الشَّيْءِ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ تَرْفِ الْمُلْكِ وَنِعَمِيهِ وَكَثْرَةِ عُمَرَانِ
الْقَيْرَوَانِ وَوَرِثَ ذَلِكَ عَنْهُمْ كِتَامَةٌ ثُمَّ صَنَاجِدٌ مِنْ بَعْدِهِمْ وَذَلِكَ كُلُّهُ قَلِيلٌ لَمْ يَبْلُغْ
أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ وَانْصَرَمَتْ دَوْلَتُهُمْ وَاسْتَحَالَتْ صِبْغَةُ الْحَضَارَةِ بِمَا كَانَتْ غَيْرَ
مُسْتَحْكَمَةٍ وَتَغَلَّبَ بَذُو الْعَرَبِ الْهَلَالِيِّينَ عَلَيْهَا وَخَرَّبُوهَا وَبَقِيَ أَثَرُ خَفِيِّ مِنْ
حَضَارَةِ الْعُمَرَانِ فِيهَا وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ يُونُسُ فِيمَنْ سَلَفَ لَهُ بِالْقَلْعَةِ أَوْ الْقَيْرَوَانِ أَوْ
الْمَهْدِيَّةِ سَلَفٌ فَتَجِدُ لَهُ مِنَ الْحَضَارَةِ فِي شُؤْنِ مَنْزِلِهِ وَعَوَائِدِ أَخْوَالِهِ آثَاراً مُلْتَبَسَةً
يَغْيِرُهَا يُمَيِّزُهَا الْحَضَرِيُّ الْبَصِيرُ بِهَا وَكَذَا فِي أَكْثَرِ أَمْصَارِ أَفْرِيْقِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فِي

(١) الأصح أن يقول ، أكثر حضارة .

(٢) في النسخة الباريسية : وأوفاز . وفي نسخة أخرى : قلعة وافان وفي نسخة غيرها : قلعة واوفار . وفازج

فازة : بناء من خرق وغيرها تبنى في المساكن .

الْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ لِرِسُوخِ الدَّوْلَةِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ أَكْثَرَ أَمْدًا مِنْذُ عَهْدِ الْأَغَالِيَةِ وَالشَّيْعَةِ
 وَصَنْهَاجَةٍ وَأَمَّا الْمَغْرِبُ فَانْتَقَلَ إِلَيْهِ مِنْذُ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ حَظٌ كَبِيرٌ
 مِنَ الْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ بِهِ عَوَائِدُهَا بِمَا كَانَ لِدَوْلَتِهِمْ مِنَ الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى بِلَادِ
 الْأَنْدَلُسِ وَانْتَقَلَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِهَا إِلَيْهِمْ طَوْعًا وَكَرْهًا وَكَانَتْ مِنْ اتِّسَاعِ النُّطَاقِ
 مَا عَلِمْتَ فَكَانَ فِيهَا حَظٌ صَالِحٌ مِنَ الْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْهَا وَمُعْظَمُهَا مِنْ أَهْلِ
 الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ انْتَقَلَ أَهْلُ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ جَالِيَّةِ النَّصَارَى إِلَى أَفْرِيقِيَّةٍ فَأَبْقَوْا فِيهَا
 وَبِأَمْصَارِهَا مِنَ الْحَضَارَةِ آثَارًا وَمُعْظَمُهَا بِتُونِسَ امْتَزَجَتْ بِحَضَارَةِ مِصْرَ وَمَا يَنْقُلُهُ
 الْمُسَافِرُونَ مِنْ عَوَائِدِهَا فَكَانَ بِذَلِكَ لِلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةٍ حَظٌ صَالِحٌ مِنَ الْحَضَارَةِ
 غَفِيٍّ عَلَيْهِ الْخَلَاءُ وَرَجَعَ إِلَى أَغْقَابِهِ وَعَادَ التَّرَبُّرُ بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَذْيَانِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ
 وَالْخُشُونَةِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَآثَارُ الْحَضَارَةِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ أَكْثَرُ مِنْهَا بِالْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ لِمَا
 تَدَاوَلَ فِيهَا مِنَ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ أَكْثَرَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَلَقَرِبَ عَوَائِدُهُمْ مِنْ عَوَائِدِ أَهْلِ مِصْرَ
 بِكَثْرَةِ الْمُتَرَدِّدِينَ بَيْنَهُمْ . فَتَقَطَّنَ لِهَذَا السَّرْفَانَةِ خَفِيُّ عَنِ النَّاسِ . وَاعْلَمْ أَنَّهَا أُمُورٌ
 مُتَنَاسِبَةٌ وَهِيَ حَالُ الدَّوْلَةِ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ وَكَثْرَةِ الْأُمَةِ أَوِ الْجِيلِ وَعَظَمِ الْمَدِينَةِ أَوْ
 الْمِصْرِ وَكَثْرَةِ النِّعْمَةِ وَالْيَسَارِ وَذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ صُورَةُ الْخَلِيقَةِ وَالْعُمَرَاءُ
 وَكُلُّهَا مَادَّةٌ لَهَا مِنَ الرُّعَايَا وَالْأَمْصَارِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَأَمْوَالِ الْجَبَايَةِ غَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ
 وَيَسَارُهُمْ فِي الْغَالِبِ مِنْ أَشْوَاقِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ وَإِذَا أَفَاضَ السُّلْطَانُ عَطَاءَهُ وَأَمْوَالَهُ فِي
 أَهْلِهَا انْبَثَتْ فِيهِمْ وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ ثُمَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ فِيهِ دَاهِبَةٌ عَنْهُمْ فِي الْجَبَايَةِ وَالْخَرَاجِ
 غَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي الْعَطَاءِ فَعَلَى نِسْبَةِ حَالِ الدَّوْلَةِ يَكُونُ يَسَارُ الرُّعَايَا وَعَلَى يَسَارِ
 الرُّعَايَا وَكَثْرَتِهِمْ يَكُونُ مَالُ الدَّوْلَةِ وَأَصْلُهُ كُلُّهُ الْعُمَرَاءُ وَكَثْرَتُهُ فَاغْتَبَرَهُ وَتَأَمَّلَهُ فِي
 الدُّوَلِ تَجِدُهُ وَاللَّهُ يَحْكُمُ وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ .

الفصل الثامن عشر

في أن الحضارة غاية العمران ونهاية عمره وانها مؤذنة بفساده

قَدْ بَيَّنَّا لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الْمُلْكَ وَالذُّوْلَةَ غَايَةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّ الْحَضَارَةَ غَايَةٌ لِلْبِدَاوَةِ وَأَنَّ الْعُمُرَانَ كُلَّهُ مِنْ بِدَاوَةٍ وَحَضَارَةٍ وَمُلْكَ وَسُوقَةٍ ^(١) لَهُ عُمُرٌ مَخْسُوسٌ كَمَا أَنَّ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ مِنْ أَشْخَاصِ الْمَكُونَاتِ عُمُرًا مَخْسُوسًا وَتَبَيَّنَ فِي الْمَقْذُولِ وَالْمَنْقُولِ أَنَّ الْأَرْيَعِينَ لِلْإِنْسَانِ غَايَةٌ فِي تَزَايُدِ قُوَّاهُ وَنُمُوِّهَا وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ سِنَّ الْأَرْيَعِينَ وَقَفَّتِ الطَّبِيعَةُ عَنْ أَثَرِ النُّشُوءِ وَالنُّمُوِّ بَرْهَةً ثُمَّ تَأْخُذُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْإِنْحِطَاطِ . فَلْتَعْلَمْ أَنَّ الْحَضَارَةَ فِي الْعُمُرَانِ أَيْضًا كَذَلِكَ لِأَنَّ غَايَةَ لَا مَزِيدَ وَرَاءَهَا وَذَلِكَ أَنَّ التَّرَفَ وَالنِّعْمَةَ إِذَا حَصَلَ لِأَهْلِ الْعُمُرَانِ دَعَاهُمْ بِطَبِيعِهِ إِلَى مَذَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَالتَّخَلُّقِ بِعَوَائِدِهَا وَالْحَضَارَةُ كَمَا عَلِمْتَ هِيَ التَّفَنُّنُ فِي التَّرَفِ وَاسْتِجَادَةُ أَحْوَالِهِ وَالْكَلْفُ بِالصَّنَائِعِ الَّتِي تُؤْتَقُ مِنْ أَصْنَافِهِ وَسَائِرِ فَنُونِهِ مِنَ الصَّنَائِعِ الْمُهِينَةِ لِلْمَطَايِخِ أَوْ الْمَلَابِسِ أَوْ الْمَبَانِي أَوْ الْفُرُشِ أَوْ الْآيِنَةِ وَلِسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَنْزِلِ . وَلِلتَّائِقِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ صَنَائِعٌ كَثِيرَةٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهَا عِنْدَ الْبِدَاوَةِ وَعَدَمُ التَّائِقِ فِيهَا . وَإِذَا بَلَغَ التَّائِقُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمَنْزِلِيَّةِ الْغَايَةَ تَبِعَهُ طَاعَةُ الشَّهَوَاتِ فَتَتَلَوَّنُ النَّفْسُ مِنْ تِلْكَ الْعَوَائِدِ بِالْوَانِ كَثِيرَةٍ لَا يَسْتَقِيمُ حَالُهَا مَعَهَا فِي دِينِهَا وَلَا دُنْيَاهَا أَمَّا دِينُهَا فَلَا سِتِّخْكَامَ صِبْغَةِ الْعَوَائِدِ الَّتِي يَغْسُرُ نَزْعُهَا وَأَمَّا دُنْيَاهَا فَلِكثْرَةُ الْحَاجَاتِ وَالْمُونَاتِ الَّتِي تُطَالِبُ بِهَا الْعَوَائِدُ وَيُعْجِزُ وَيُنْكَبُ ^(٢) عَنِ الْوَفَاءِ بِهَا . وَبَيَّانُهُ أَنَّ الْمِصْرَ بِالتَّفَنُّنِ فِي الْحَضَارَةِ تَعَظُمَ نَفَقَاتُ أَهْلِهِ وَالْحَضَارَةُ تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الْعُمُرَانِ فَمَتَى كَانَ الْعُمُرَانُ أَكْثَرَ كَانَتِ الْحَضَارَةُ أَكْمَلَ . وَقَدْ كُنَّا قَدْ مَنَّا أَنَّ الْمِصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمُرَانِ يَخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ فِي أَسْوَاقِهِ وَأَسْعَارِ حَاجَتِهِ . ثُمَّ تَزِيدُهَا الْمَكُوسُ غَلَاءً لِأَنَّ الْحَضَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ انْتِهَاءِ الدُّوْلَةِ فِي اسْتِفْحَالِهَا وَهُوَ زَمَنٌ وَضِعَ الْمَكُوسُ فِي الدُّوْلِ لِكثْرَةِ

(١) الرعية .

(٢) وفي نسخة أخرى : الكسب .

خَرَجَهَا حِينَئِذٍ كَمَا تَقَدَّمَ . وَالْمُكُوسُ تَعُودُ إِلَى الْبَيَاعَاتِ بِالْغَلَاءِ لِأَنَّ السُّوقَةَ وَالتَّجَارَ كُلَّهُمْ يَخْتَسِبُونَ عَلَى سِلْعِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ جَمِيعَ مَا يُنْفِقُونَهُ حَتَّى فِي مُؤْنَةِ أَنْفُسِهِمْ فَيَكُونُ الْمَكْسُ لِدَلِكِ دَاخِلًا فِي قِيَمِ الْمَبِيعَاتِ وَأَثْمَانِهَا . فَتُعْظَمُ نَفَقَاتُ أَهْلِ الْحَضَارَةِ وَتَخْرُجُ عَنِ الْقَصْدِ إِلَى الْإِسْرَافِ . وَلَا يَجِدُونَ وَلِجَّةً عَنْ ذَلِكَ لِمَا مَلَكَهُمْ مِنْ أَثَرِ الْعَوَائِدِ وَطَاعَتِهَا وَتَذَهَبُ مَكَاسِبُهُمْ كُلُّهَا فِي النِّفَقَاتِ وَيَتَنَابَعُونَ^(١) فِي الْإِمْلَاقِ وَالْخَاصَةِ^(٢) وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْفَقْرُ وَيَقِلُّ الْمُسْتَامُونَ لِلْمَبَائِعِ^(٣) فَتَكْسُدُ الْأَسْوَاقُ وَيَفْسُدُ حَالُ الْمَدِينَةِ وَدَاعِيَةُ ذَلِكَ كُلُّهُ إِفْرَاطُ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ . وَهَذِهِ مُفْسِدَاتُ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى الْعُمُومِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْعُمُرَانِ . وَأَمَّا فَسَادُ أَهْلِهَا فِي ذَاتِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا عَلَى الْخُصُوصِ فَمِنْ الْكُذِّ وَالتَّعَبِ فِي حَاجَاتِ الْعَوَائِدِ وَالتَّلَوُّنِ بِاللَّوَانِ الشَّرِّ فِي تَخْصِيلِهَا وَمَا يَعُودُ عَلَى النَّفْسِ مِنَ الضَّرَرِ بَعْدَ تَخْصِيلِهَا بِحُصُولِ لَوْنٍ آخَرَ مِنَ اللَّوَانِهَا . فَلِذَلِكَ يَكْثُرُ مِنْهُمْ الْفِسْقُ وَالشَّرُّ وَالسُّفْسَفَةُ وَالتَّحِيلُ عَلَى تَخْصِيلِ الْمَعَاشِ مِنْ وَجْهِهِ وَمِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ . وَتَنْصَرِفُ النَّفْسُ إِلَى الْفِكْرِ فِي ذَلِكَ وَالْغُوصِ عَلَيْهِ وَاسْتِجْمَاعِ الْحِيلَةِ لَهُ فَتَجِدُهُمْ أَجْرِيَاءَ عَلَى الْكُذِبِ وَالْمَقَامَرَةِ وَالْغِشِّ وَالْخِلَاطَةِ وَالسَّرْقَةِ وَالْفُجُورِ فِي الْإِيمَانِ وَالرَّبَا فِي الْبَيَاعَاتِ ثُمَّ تَجِدُهُمْ لِكثْرَةِ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ النَّاشِئَةِ عَنِ التَّرَفِ أَنْصَرَ بِطَرِيقِ الْفِسْقِ وَمَذَاهِبِهِ وَالْمَجَاهَرَةِ بِهِ وَبِدَاوَعِيهِ وَاطَّرَاحِ الْحِشْمَةِ فِي الْخَوْصِ فِيهِ حَتَّى يَبْنِي الْأَقَارِبَ وَذَوِي الْأَرْحَامِ وَالْمَحَارِمِ الَّذِينَ تَقْتَضِي الْبِدَاوَةُ الْحَيَاءَ مِنْهُمْ فِي الْإِقْدَاعِ بِذَلِكَ . وَتَجِدُهُمْ أَيْضًا أَنْصَرَ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ يَذْفَعُونَ بِذَلِكَ مَا عَسَاهُ أَنْ يَنَالَهُمْ مِنَ الْقَهْرِ وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى تِلْكَ الْقَبَائِحِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ عَادَةً وَخُلُقًا لَأَكْثَرِهِمْ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ . وَيَمُوجُ بِحُرِّ الْمَدِينَةِ بِالسُّفْلَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ وَيَجَارِيهِمْ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ نَاشِئَةِ الدَّوْلَةِ وَوُلْدَانِهِمْ مِنْ أَهْمِلَ عَنِ التَّأْدِيبِ وَأَهْمَلَتِ الدَّوْلَةُ مِنْ عِدَادِهَا وَعَلَبَ عَلَيْهِ خُلُقُ

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى ، وَيَتَنَابَعُونَ .

(٢) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى ، الْخَاصَّةُ .

(٣) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى ، الْبَضَائِعُ .

الِحْوَارِ وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ انْتِسَابٍ وَبُيُوتَاتٍ ^(١) وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ بَشَرٌ مُتَمَاتِلُونَ وَإِنَّمَا تَفَاضَلُوا وَتَمَيَّزُوا بِالْخَلْقِ وَانْتِسَابِ الْفَضَائِلِ وَاجْتِنَابِ الرِّذَائِلِ . فَمَنْ اسْتَحْكَمَتْ فِيهِ صِبْغَةُ الرِّذِيلَةِ بَأَيِّ وَجْهِ كَانَ ، وَفُسِدَ خُلُقُ الْخَيْرِ فِيهِ ، لَمْ يَنْفَعَهُ زَكَاةُ نَسَبِهِ وَلَا طَيْبُ مَنْبَتِهِ . وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنْ أَعْقَابِ الْبُيُوتِ وَدُويِ الْأَحْسَابِ وَالْأَصَالَةِ وَأَهْلِ الدُّوَلِ مُنْطَرِحِينَ فِي الْفُجَارِ ^(٢) مُنْتَحِلِينَ لِلْجَرَفِ الدُّنْيَا فِي مَعَاشِهِمْ بِمَا فُسِدَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَمَا تَلَوَّنُوا بِهِ مِنْ صِبْغَةِ الشَّرِّ وَالسُّفْسَفَةِ وَإِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ الْأُمَّةِ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِخَرَابِهَا وَانْقِرَاضِهَا وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا » ^(٣) . وَوَجْهُهُ حِينَئِذٍ إِنْ مَكَاسِيهِمْ حِينَئِذٍ لَا تَبْقَى بِحَاجَاتِهِمْ لِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ وَمُطَالَبَةِ النَّفْسِ بِهَا فَلَا تَسْتَقِيمُ أحوَالُهُمْ . وَإِذَا فُسِدَتْ أحوَالُ الْأَشْخَاصِ وَاحِدًا وَاحِدًا اخْتَلَّ نِظَامُ الْمَدِينَةِ وَخَرِبَتْ وَهَذَا مَعْنَى مَا يَقُولُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَوَاصِ ^(٤) أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَثُرَ فِيهَا غَرَسُ النَّارَنْجِ تَأَذَّنَتْ بِالْخَرَابِ حَتَّى أَنْ كَثُرَ مِنَ الْعَامَةِ يَتَحَامَى غَرَسُ النَّارَنْجِ بِالدُّورِ تَطِيرًا بِهِ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَلِكَ وَلَا أَنَّهُ خَاصِيَّةٌ ^(٥) فِي النَّارَنْجِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْبَسَاتِينَ وَالْجُرَّاءَ الْمِيَاهِ هُوَ مِنْ تَوَابِعِ الْحَضَارَةِ . ثُمَّ إِنَّ النَّارَنْجَ وَاللِّيَّةَ ^(٦) وَالسَّرَوَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِمَّا لَا طَعْمَ فِيهِ وَلَا مَنَفْعَةَ هُوَ مِنْ غَايَةِ ^(٧) الْحَضَارَةِ إِذْ لَا يُقْصَدُ بِهَا فِي الْبَسَاتِينَ إِلَّا أَشْكَالُهَا فَقَطْ وَلَا تُغْرَسُ إِلَّا بَعْدَ التَّفَنُّنِ فِي مَذَاهِبِ التَّرَفِ . وَهَذَا هُوَ الطُّورُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ هَلَاكُ الْمِصْرِ وَخَرَابُهُ كَمَا قُلْنَا . وَلَقَدْ قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الدُّفْلِ وَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ إِذِ الدُّفْلُ لَا يُقْصَدُ بِهَا إِلَّا تَلَوُّنُ الْبَسَاتِينَ بِنُورِهَا مَا بَيْنَ أَحْمَرَ وَأَبْيَضَ وَهُوَ مِنْ مَذَاهِبِ التَّرَفِ . وَمِنْ مَفَاسِدِ الْحَضَارَةِ الْإِنْهَمَاكُ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْإِسْتِرْسَالُ

(١) وفي النسخة الباريسية : وأبوات .

(٢) جماعة من الناس .

(٣) سورة الإسراء الآية ١٦ .

(٤) وفي نسخة أخرى : أهل الحواضر .

(٥) وفي نسخة أخرى : خاصة . وفي النسخة الباريسية : طيرة .

(٦) وفي نسخة أخرى : غايات .

(٧) وفي نسخة أخرى : الليم .

فِيهَا لِكَثْرَةِ التَّرَفِ فَيَقَعُ التَّفَنُّنُ فِي شَهَوَاتِ الْبَطْنِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَلَاذِّ وَالْمَشَارِبِ وَطَبِيعِهَا . وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ التَّفَنُّنُ فِي شَهَوَاتِ الْفَرْجِ بِأَنْوَاعِ الْمَنَاجِحِ مِنَ الزُّنَا وَاللَّوَاطِ ، فَيُنْفِضِي ذَلِكَ إِلَى فَسَادِ النَّوْعِ . إِمَّا بِوَاسِطَةِ اخْتِلَاطِ الْأَنْسَابِ . كَمَا فِي الزُّنَا ، فَيَجْهَلُ كُلُّ وَاحِدٍ ابْنَهُ ، إِذْ هُوَ لَيْغِرُ رَشْدَهُ ، لِأَنَّ الْمِيَاءَ مُخْتَلِطَةً فِي الْأَرْحَامِ ، فَتَفْقَدُ الشَّفَقَةَ الطَّبِيعِيَّةَ عَلَى الْبَنِينَ وَالْقِيَامَ عَلَيْهِمْ فَيَهْلِكُونَ ، وَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ النَّوْعِ ، أَوْ يَكُونُ فَسَادُ النَّوْعِ بغيرِ وَاسِطَةٍ ، كَمَا فِي اللَّوَاطِ الْمُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ النَّسْلِ رَأْسًا وَهُوَ أَشَدُّ فِي فَسَادِ النَّوْعِ . وَالزُّنَا يُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ مَا يُوجَدُ مِنْهُ . وَلِذَلِكَ كَانَ مَذْهَبُ مَالِكٍ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي اللَّوَاطِ أَظْهَرَ مِنْ مَذْهَبِ غَيْرِهِ ، وَذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ أَبْصَرَ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَاعْتَبَارِهَا لِلْمَصَالِحِ .

فَافْتَهُمَ ذَلِكَ وَاعْتَبَرَ بِهِ أَنَّ غَايَةَ الْعُمُرَانِ هِيَ الْحَضَارَةُ وَالتَّرَفُ وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ انْقَلَبَ إِلَى الْفَسَادِ وَأَخَذَ فِي الْهَرَمِ كَالْأَعْمَارِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْحَيَوَانَاتِ . بَلْ نَقُولُ إِنَّ الْأَخْلَاقَ الْخَاصِلَةَ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ هِيَ عَيْنُ الْفَسَادِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا هُوَ إِنْسَانٌ بِاقْتِدَارِهِ عَلَى جَلْبِ مَنَافِعِهِ وَدَفْعِ مَضَارِهِ وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذَلِكَ . وَالْحَضَرِيُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ حَاجَاتِهِ إِمَّا عَجْزًا لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الدَّعَةِ أَوْ تَرْفَعًا لِمَا حَصَلَ مِنَ الْمَرْبَى فِي النِّعَمِ وَالتَّرَفِ وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ ذَمِيمٌ . وَكَذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الْمَضَارِّ وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذَلِكَ . وَالْحَضَرِيُّ بِمَا قَدْ فَقَدَ مِنْ خُلُقِ الْإِنْسَانِ بِالتَّرَفِ وَالنِّعَمِ ^(١) فِي قَهْرِ التَّأْدِيبِ وَالتَّعَلُّمِ فَهُوَ بِذَلِكَ عِيَالٌ عَلَى الْحَامِيَةِ الَّتِي تُدْفِعُ عَنْهُ . ثُمَّ هُوَ فَاسِدٌ أَيْضًا غَالِبًا بِمَا فَسَدَتْ ^(٢) مِنْهُ الْعَوَائِدُ وَطَاعَتُهَا وَمَا تَلَوَّنَتْ بِهِ النَّفْسُ مِنْ مَكَانَتِهَا ^(٣) كَمَا قُرْزَنَاهُ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ . وَإِذَا فَسَدَ الْإِنْسَانُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى أَخْلَاقِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ فَسَدَتْ إِنْسَانِيَّتُهُ وَصَارَ مَسْخًا عَلَى الْحَقِيقَةِ . وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ كَانَ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ مِنْ جُنْدِ السُّلْطَانِ إِلَى الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ أَنْفَعُ مِنَ الَّذِينَ

(١) وفي نسخة أخرى : بما قد فقد من خلق البأس بالتَّرف والمَرْبَى .

(٢) وفي نسخة أخرى : أفسدت .

(٣) وفي نسخة أخرى : وملكانها .

يَتَرَبُّونَ عَلَى الْحِصَارَةِ وَخُلِقَهَا . مَوْجُودُونَ^(١) فِي كُلِّ دَوْلَةٍ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْحِصَارَةَ هِيَ سِنُ الْوُقُوفِ لِعُمْرِ الْعَالَمِ فِي الْعُمُرَانِ وَالْدَوْلَةِ^(٢) وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ لَا يَشْغُلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ .

الفصل التاسع عشر

فِي أَنَّ الْأَمْصَارَ الَّتِي تَكُونُ كِرَاسِي لِلْمَلِكِ تَخْرُبُ بِخَرَابِ الدَّوْلَةِ
وَانْقِرَاضِهَا

قَدْ اسْتَفَرَيْنَا فِي الْعُمُرَانِ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا اخْتَلَّتْ وَانْتَقَضَتْ فَإِنَّ الْمِصْرَ الَّذِي يَكُونُ كُرْسِيًّا لِسُلْطَانِهَا يَنْتَقِضُ عُمُرَانُهُ وَرُبَّمَا يَنْتَهِي فِي انْتِقَاضِهِ إِلَى الْخَرَابِ وَلَا يَكَادُ ذَلِكَ يَتَخَلَّفُ . وَالسَّبَبُ فِيهِ أُمُورٌ : الْأَوَّلُ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَا بُدَّ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالْبُعْدِ عَنِ التَّحَدُّثِ . وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى تَخْفِيفِ الْحِبَايَةِ وَالْمَغَارِمِ الَّتِي مِنْهَا مَادَّةُ الدَّوْلَةِ فَتَقِلُّ النِّفَقَاتُ وَيَقِلُّ^(٣) التَّرَفُ فَإِذَا صَارَ الْمِصْرُ الَّذِي كَانَ كُرْسِيًّا لِلْمَلِكِ فِي مَلَكَةِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ وَنَقَصَتْ أَحْوَالُ التَّرَفِ فِيهَا نَقَصَ التَّرَفُ فَيَمْنُ تَحْتَ أَيْدِيهَا مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ لِأَنَّ الرِّعَايَا تَتَّبِعُ لِلدَّوْلَةِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى خُلُقِ الدَّوْلَةِ إِمَّا طَوْعًا لِمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنْ تَقْلِيدِ مَتَّبِعِيهِمْ أَوْ كَرْهًا لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ خُلُقُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْإِنْتِبَاضِ عَنِ التَّرَفِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَقِلَّةِ الْفَوَائِدِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْفَوَائِدِ فَتَقْصُرُ لِذَلِكَ حِصَارَةُ الْمِصْرِ وَيَذْهَبُ مِنْهُ كَثِيرٌ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ . وَهُوَ مَعْنَى مَا نَقُولُ فِي خَرَابِ الْمِصْرِ . الْأَمْرُ الثَّانِي أَنَّ الدَّوْلَةَ إِنَّمَا يَخْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ وَالْإِسْتِيلَاءُ بِالْغَلَبِ . وَإِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْعِدَاوَةِ وَالْحُرُوبِ . وَالْعِدَاوَةُ تَقْتَضِي مَنَافَاةً بَيْنَ أَهْلِ الدَّوْلَتَيْنِ . وَتَكْثُرُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فِي الْفَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ . وَغَلَبَ أَحَدُ الْمُتَنَافِسَيْنِ يَذْهَبُ بِالْمَنَافِي الْآخَرَ فَتَكُونُ أَحْوَالُ الدَّوْلَةِ

(١) وفي نسخة أخرى : وهذا موجود .

(٢) وفي نسخة أخرى : من العمران والدول .

(٣) وفي نسخة أخرى : يقصر .

السَّابِقَةُ مُنْكَرَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ وَمُسْتَبْشَعَةٌ وَقَبِيحَةٌ . وَخُصُوصاً أَحْوَالُ
التَّرَفِ فَتَفْقَدُ فِي عَرَفِهِمْ بِنَكِيرِ الدَّوْلَةِ لَهَا حَتَّى تَنْشَأَ لَهُمْ بِالتَّدْرِيجِ عَوَائِدُ أُخْرَى مِنْ
التَّرَفِ فَتَكُونُ عَنْهَا حِصَارَةٌ مُسْتَانِفَةً . وَفِيهَا بَيْنَ ذَلِكَ قُصُورُ الْحِصَارَةِ الْأُولَى
وَنَقْصُهَا وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ الْعُمَرَانِ فِي الْمِضَرِّ . الْأَمْرُ الثَّالِثُ أَنَّ كُلَّ أُمَةٍ لَا بُدَّ لَهُمْ
مِنْ وَطَنٍ وَهُوَ مَنْشَأُهُمْ وَمِنْهُ أَوْلِيَّةٌ مُلْكِيَّتُهُمْ . وَإِذَا مَلَكَوا مُلْكاً آخَرَ صَارَ تَبَعاً لِلأَوَّلِ
وَأَمْصَارُهُ تَابِعَةٌ لِأَمْصَارِ الْأَوَّلِ . وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْمُلْكِ عَلَيْهِمْ . وَلَا بُدَّ مِنْ تَوْسِطِ
الْكُرْسِيِّ بَيْنَ تَحْوِمِ الْمَمَالِكِ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ لِأَنَّهُ شِبْهُ الْمَرْكَزِ لِلنِّطَاقِ فَيَنْبَغُ مَكَانُهُ عَنْ
مَكَانِ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ . وَتَهْوَى أَفِيدَةُ النَّاسِ مِنْ أَجْلِ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ فَيَنْتَقِلُ إِلَيْهِ
الْعُمَرَانُ وَيَخْفُ مِنْ مِضَرِّ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ . وَالْحِصَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَوْفُرٌ ^(١) الْعُمَرَانِ كَمَا
قَدَّمَاهُ فَتَنْقُصُ حِصَارَتُهُ وَتَمُدُّهُ وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِهِ . وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلسُّلْجُوقِيَّةِ فِي
عُدُولِهِمْ بِكُرْسِيِّهِمْ عَنْ بَغْدَادَ إِلَى أَصْبَهَانَ وَلِلْعَرَبِ قَبْلَهُمْ فِي الْعُدُولِ عَنِ الْمَدَائِنِ إِلَى
الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ . وَلِئِنِّي الْعَبَّاسُ فِي الْعُدُولِ عَنْ دِمَشْقَ إِلَى بَغْدَادَ وَلِئِنِّي مُرِينُ
بِالْمَغْرِبِ فِي الْعُدُولِ عَنْ مَرَاكِشَ إِلَى فَاسَ . وَبِالْجُمْلَةِ فَاتَّخَذَ الدَّوْلَةُ الْكُرْسِيُّ فِي
مِضَرِّ يَخْلُ الْعُمَرَانِ الْكُرْسِيُّ الْأَوَّلِ . الْأَمْرُ الرَّابِعُ أَنَّ الدَّوْلَةَ الثَّانِيَّةَ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ
تَتَبُعِ ^(٢) أَهْلِ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ وَأَشْيَاعَهَا بِتَحْوِيلِهِمْ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ يُؤْمَنُ فِيهِ غَائِلَتُهُمْ عَلَى
الدَّوْلَةِ وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْمِضَرِّ الْكُرْسِيُّ أَشْيَاعُ الدَّوْلَةِ . إِمَّا مِنَ الْحَامِيَةِ الَّذِينَ نَزَلُوا بِهِ
أَوَّلَ الدَّوْلَةِ أَوْ أَغْيَانِ الْمِضَرِّ لِأَنَّ لَهُمْ فِي الْغَالِبِ مَخَالَطَةَ لِلدَّوْلَةِ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ وَتَنْوُوعِ
أَصْنَافِهِمْ . بَلْ أَكْثَرُهُمْ نَاشِئٌ فِي الدَّوْلَةِ فَهُمْ شَبِيحَةٌ لَهَا . وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا بِالشُّوْكَةِ
وَالْعَصْبِيَّةِ فَهُمْ بِالْمَيْلِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْعَقِيدَةِ . وَطَبِيعَةُ الدَّوْلَةِ الْمُتَّحِدَةِ مَخَوَاتَارُ الدَّوْلَةِ
السَّابِقَةِ فَيَنْتَقِلُ مِنْ مِضَرِّ الْكُرْسِيِّ إِلَى وَطَنِهَا الْمُتَمَكِّنِ فِي مَلِكِيَّتِهَا . فَبَعْضُهُمْ عَلَى
نَوْعِ التَّغْرِيبِ وَالْحَبْسِ وَبَعْضُهُمْ عَلَى نَوْعِ الْكَرَامَةِ وَالتَّلَطُّفِ بِحَيْثُ لَا يُؤَدِّي إِلَى
النَّفَرَةِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي مِضَرِّ الْكُرْسِيِّ إِلَّا الْبَاعَةُ وَالْهَمَلُ مِنْ أَهْلِ الْفَلَحِ وَالْعِيَارَةِ

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : بِوُفُورِ .

(٢) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : تَتَبُعِ .

وَسَوَادِ الْعَامَةِ وَيَنْزِلُ مَكَانَهُمْ حَامِيَتُهَا وَأَشْيَاعُهَا مَنْ يَشْتَدُّ بِهِ الْمِصْرُ وَإِذَا ذَهَبَ مِنَ الْمِصْرِ أَغْيَانُهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ نَقَصَ سَاكِنُهُ وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ عُمُرَانِهِ . ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَحْدِثَ عُمُرَانٌ آخَرُ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ وَتَحْصُلَ فِيهِ حِصَارَةٌ أُخْرَى عَلَى قَدَرِ الدَّوْلَةِ . وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمِثَالِيَّةٍ (١) مِنْ لَهٍ بَيَّنَّتْ عَلَى أَوْصَافٍ مَخْصُوصَةٍ فَأُظْهِرَ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى تَغْيِيرِ تِلْكَ الْأَوْصَافِ (٢) وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا عَلَى مَا يَخْتَارُهُ وَيَقْتَرِحُهُ فَيُخَرَّبُ ذَلِكَ الْبَيْتَ ثُمَّ يُعِيدُ بِنَاءَهُ ثَانِيًا . وَقَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْأُمُصَارِ الَّتِي هِيَ كُرَاسِيُ الْمُلْكِ وَشَاهِدُنَا وَعِلْمُنَا « وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » . وَالسَّبَبُ الطَّبِيعِيُّ الْأَوَّلُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ لِلْعُمُرَانِ بِمِثَالِيَّةِ الصُّورَةِ لِلْمَادَّةِ وَهُوَ الشَّكْلُ الْخَافِظُ بِنَوْعِهِ لَوْجُودِهَا . وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عُلُومِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ انْفِكَاكُ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ . فَالدَّوْلَةُ دُونَ الْعُمُرَانِ لَا تَتَصَوَّرُ وَالْعُمُرَانُ دُونَ الدَّوْلَةِ وَالْمُلْكِ مُتَعَذِّرٌ لِمَا فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعُدُونِ (٣) الدَّاعِي إِلَى الْوَارِثِ فَتَتَعَيَّنُ السِّيَاسَةُ لِذَلِكَ إِمَّا الشَّرْعِيَّةَ أَوِ الْمُلْكِيَّةَ وَهُوَ مَعْنَى الدَّوْلَةِ وَإِذَا كَانَا لَا يَنْفَكَا فَاخْتِلَالُ أَحَدِهِمَا مُؤَثِّرٌ فِي اخْتِلَالِ الْآخَرِ كَمَا أَنَّ عَدَمَهُ مُؤَثِّرٌ فِي عَدَمِهِ وَالْخَلَلُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خَلَلِ الدَّوْلَةِ الْكُلِّيَّةِ مِثْلَ دَوْلَةِ الرُّومِ أَوِ الْفَرَسِ أَوِ الْعَرَبِ عَلَى الْعُمُومِ أَوْ بَنِي أُمَيَّةٍ أَوْ بَنِي الْعَبَّاسِ كَذَلِكَ . وَأَمَّا الدَّوْلَةُ الشَّخْصِيَّةُ مِثْلَ دَوْلَةِ أُنُوشِروَانَ أَوْ هِرَقْلَ أَوْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَوِ الرَّشِيدِ فَأَشْخَاصُهَا مُتَعَاقِبَةٌ عَلَى الْعُمُرَانِ حَافِظَةٌ لَوْجُودِهِ وَبَقَائِهِ وَقَرِيبَةُ الشَّبهِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَلَا تُؤَثِّرُ كَثِيرَ اخْتِلَالٍ لَأَنَّ الدَّوْلَةَ بِالْحَقِيقَةِ الْفَاعِلَةُ فِي مَادَّةِ الْعُمُرَانِ إِنَّمَا هِيَ الْعَصْبِيَّةُ وَالشُّوْكَةُ وَهِيَ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى أَشْخَاصِ الدَّوْلَةِ فَإِذَا ذَهَبَتْ تِلْكَ الْعَصْبِيَّةُ وَدَفَعَتْهَا عَصْبِيَّةٌ أُخْرَى مُؤَثَّرَةٌ فِي الْعُمُرَانِ ذَهَبَتْ أَهْلُ الشُّوْكَةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَعَظُمَ الْخَلَلُ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا « وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ » (٣)

(١) وفي نسخة أخرى وردت الجملة كما يلي : « من يملك بيتاً داخله البلى . والكثير من أوضاعه في بيوته ومرافقه لا توافقه مَقْتَرَحُهُ وَلَهُ قُدْرَةٌ عَلَى أَوْصَافٍ مَخْصُوصَةٍ عَلَى تَغْيِيرِ تِلْكَ الْأَوْضَاعِ » .

(٢) وفي النسخة الباريسية (من التعاون)

(٣) وفي نسخة أخرى : « والله قادر على ما يشاء . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض

وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ الْمِصْرِ يَسْتَدْعِي بَعْضُهَا بَعْضًا لِمَا فِي طَبِيعَةِ الْعُمَرَاءِ مِنَ التَّعَاوُنِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنَ الْأَعْمَالِ يَخْتَصُّ بِبَعْضِ أَهْلِ الْمِصْرِ فَيَقُومُونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَبْصِرُونَ فِي صِنَاعَتِهِ وَيَخْتَصُّونَ بِوُظَيْفَتِهِ وَيَجْعَلُونَ مَعَاشَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَهُمْ مِنْهُ لِعُمُومِ الْبَلَدِ بِهِ فِي الْمِصْرِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِ . وَمَا لَا تَسْتَدْعِي فِي الْمِصْرِ يَكُونُ غَفْلًا إِذْ لَا فَائِدَةَ لِمُسْتَحْلِهِ فِي الْإِحْتِرَافِ بِهِ . وَمَا يَسْتَدْعِي مِنْ ذَلِكَ لِضُرُورَةِ الْمَعَاشِ فَيُوجَدُ فِي كُلِّ مِصْرٍ كَالْخِيَّاطِ وَالْحَدَّادِ وَالنَّجَّارِ وَأَمْثَالِهَا وَمَا يَسْتَدْعِي لِعَوَائِدِ التَّرَفِّ وَأَحْوَالِهِ فَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي الْمَدِينِ الْمُسْتَبْحِرَةِ فِي الْعِمَارَةِ الْآخِذَةِ فِي عَوَائِدِ التَّرَفِّ وَالْحَضَارَةِ مِثْلَ الزَّجَاجِ وَالصَّائِغِ وَالذَّهَّانِ وَالطَّبَّاحِ وَالصُّفَّارِ وَالسُّفَّاجِ وَالْفُرَّاشِ وَالذَّبَّاجِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ . وَبِقَدْرِ مَا تَزِيدُ الْحَضَارَةُ وَتَسْتَدْعِي أَحْوَالَ التَّرَفِّ تَحْدُثُ صِنَائِعُ لِذَلِكَ النَّوعِ فَتُوجَدُ بِذَلِكَ الْمِصْرِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْحَمَامَاتُ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ فِي الْأَمْصَارِ الْمُسْتَحْضِرَةِ الْمُسْتَبْحِرَةِ الْعُمَرَاءِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ التَّرَفُّ وَالْغِنَى مِنَ التَّنْعَمِ وَلِذَلِكَ لَا تَكُونُ فِي الْمَدِينِ الْمَتَوَسِّطَةِ . وَإِنْ نَزَعَ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ إِلَيْهَا فَيَخْتَطُّهَا وَيَجْرِي أَحْوَالُهَا . إِلَّا أَنَّهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهَا دَاعِيَةٌ مِنْ كَافَّةِ النَّاسِ فَسَرْعَانَ مَا تَهْجُرُ وَتَخْرُبُ وَتَفِرُّ عَنْهَا الْقَوْمَةُ لِقِلَّةِ فَائِدَتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ مِنْهَا . وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَنْسِطُ .

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض

مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ الْإِلْتِحَامَ وَالْإِتِّصَالَ مَوْجُودٌ فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ إِلَّا أَنَّهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أضعفُ مِمَّا يَكُونُ بِالنَّسَبِ وَأَنَّهُ تَحْصُلُ بِهِ الْعَصْبِيَّةُ

بَعْضاً مِمَّا تَحْصُلُ بِالنَّسَبِ . وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مُلْتَحِمُونَ بِالصُّهْرِ يَجْذُبُ
بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَى أَنْ يَكُونُوا لَحْماً لَحْماً وَقَرَابَةً قَرَابَةً وَتَجِدُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ
وَالضَّدَاقَةِ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ مِثْلَهُ فَيَفْتَرِقُونَ شَيْعاً^(١) وَعَصَائِبَ فَإِذَا
نَزَلَ الْهَرَمُ بِالدَّوْلَةِ وَتَقَلَّصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ^(٢) عَنِ الْقَاصِيَةِ اخْتَجَّ أَهْلُ أَمْصَارِهَا إِلَى
الْقِيَامِ عَلَى أَمْرِهِمُ وَالنَّظَرِ فِي حِمَايَةِ بِلَدِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَى الشُّوَرَى وَتَمَيَّزَ الْعِلْيَةُ عَنِ
السُّفْلَةِ وَالنُّفُوسُ يَطْبَعُهَا مُتَطَاوِلَةٌ إِلَى الْغَلَبِ وَالرَّئَاسَةِ فَتَطْمَحُ الْمَشِيخَةُ لِخَلَاءِ الْجَوِّ
مِنَ السُّلْطَانِ وَالدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ إِلَى الْإِسْتِبْدَادِ وَيُنَازِعُ كُلُّ صَاحِبَةٍ وَيَسْتَوْصِلُونَ
بِالْإِتْبَاعِ مِنَ الْمَوَالِي وَالشَّيْعِ وَالْأَخْلَافِ وَيَبْذُلُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ لِلْأَوْغَادِ وَالْأَوْشَابِ
فَيَعْضُوصِبُ كُلُّ لِسَاحِيهِ وَيَتَعَيَّنُ الْغَلَبُ لِبَعْضِهِمْ فَيَغْطِفُ عَلَى أَكْفَائِهِ لِيَقْصُ مِنْ
أَعْيُنِهِمْ وَيَتَتَبَعَهُمُ بِالْقَتْلِ أَوْ التَّغْرِيبِ حَتَّى يَخْضُدَ مِنْهُمْ الشُّوَكَاةَ النَّافِذَةَ وَيَقْلَمُ
الْأُظْفَارَ الْخَادِشَةَ وَيَسْتَبْدُ بِمِصْرِهِ أَجْمَعَ وَيَرَى أَنَّهُ قَدْ اسْتَحْدَثَ مُلْكَاً يُورِثُهُ عَقِبَهُ
فَيَحْدُثُ فِي ذَلِكَ الْمُلْكِ الْأَضْعَفِ مَا يَحْدُثُ فِي الْمُلْكِ الْأَعْظَمِ مِنْ عَوَارِضِ الْجِدَّةِ
وَالْهَرَمِ وَرُبَّمَا يَسْمُو بَعْضُ هَؤُلَاءِ إِلَى مَنَازِعِ الْمُلُوكِ الْأَعَاطِمِ أَصْحَابِ الْقَبَائِلِ
وَالْعَشَائِرِ وَالْعَصَبِيَّاتِ وَالزُّخُوفِ وَالْخُرُوبِ وَالْأَقْطَارِ وَالْمَمَالِكِ فَيَنْتَحِلُونَ بِهَا مِنْ
الْجُلُوسِ عَلَى السَّرِيرِ وَاتِّخَاذِ الْآلَةِ وَإِعْدَادِ الْمَوَاقِبِ لِلسَّيْرِ فِي أَقْطَارِ الْبِلَدِ وَالتَّخْتُمِ
وَالْتَّحِيَّةِ وَالْخُطَابِ بِالتَّهْوِيلِ مَا يَسْخَرُ مِنْهُ مَنْ يُشَاهِدُ أحوَالَهُمْ لِمَا انْتَحَلُوهُ مِنْ
شَارَاتِ الْمُلْكِ الَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ . إِنَّمَا دَفَعَهُمْ إِلَى ذَلِكَ تَقَلُّصُ الدَّوْلَةِ وَالتَّحَامُّ
بَعْضِ الْقَرَابَاتِ حَتَّى صَارَتْ عَصِيَّةً . وَقَدْ يَتَنَزَّهُ بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَجْرِي عَلَى
مَذْهَبِ^(٣) السَّدَاجَةِ فِرَاراً مِنَ التَّغْرِيبِ بِنَفْسِهِ لِلْخُرَيْبَةِ وَالْعَبَثِ . وَقَدْ وَقَعَ هَذَا
بِأَفْرِيقِيَّةٍ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الْخَفْصِيَّةِ لِأَهْلِ بِلَادِ الْجَرِيدِ مِنْ طَرَابُلُسَ
وَقَاسِ وَتَوُزَّرَ وَنَفْطَةَ وَنَفْصَةَ وَبِسْكَرَةَ وَالزَّابِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ . سَمَوْا إِلَى مِثْلِهَا عِنْدَ

(١) وفي النسخة الباريسية : شعباً .

(٢) وفي النسخة الباريسية : وتقلص الملك عن القاصية .

(٣) وفي نسخة أخرى : مذاهب .

تَقْلَصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ عَنْهُمْ مِنْذُ عَقُودٍ مِنَ السِّنِينَ فَاسْتَغْلَبُوا عَلَى أَمْصَارِهِمْ وَاسْتَبَدُّوا بِأَمْرِهَا عَلَى الدَّوْلَةِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْجَبَايَةِ . وَأَعْطَوْا طَاعَةً مَعْرُوفَةً وَصَفَقَةً مَمْرُضَةً وَأَقْطَعُوهَا جَانِبًا مِنَ الْمَلَايِنَةِ وَالْمَلَاطِفَةِ وَالْإِنْقِيَادِ وَهُمْ بِمَغْرَلٍ عَنْهُ . وَأَوْرَثُوا ذَلِكَ أَغْقَابَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَحَدَّثَ فِي خَلْفِهِمْ^(١) مِنَ الْغِلْظَةِ وَالتَّجْبُرِ مَا يَحْدُثُ لِأَغْقَابِ الْمُلُوكِ وَخَلْفِهِمْ وَنَظَّمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي عِزَادِ السَّلَاطِينِ عَلَى قُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالسُّوقَةِ حَتَّى مَحَا ذَلِكَ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو الْعَبَّاسِ وَانْتَزَعَ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا نَذَكُرُهُ فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ . وَقَدْ كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ وَقَعَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الصُّنْهَاجِيَّةِ وَاسْتَقَلَّ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ أَهْلُهَا وَاسْتَبَدُّوا عَلَى الدَّوْلَةِ حَتَّى انْتَزَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَيْخُ الْمُوَحِّدِينَ وَمَلِكُهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ عَلِيٍّ وَتَقَلَّصَ مِنْ إِمَارَاتِهِمْ بِهَا إِلَى الْمَغْرِبِ وَمَحَا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ آثَارَهُمْ كَمَا نَذَكُرُ فِي أَخْبَارِهِ . وَكَذَا وَقَعَ بِسَبْتَةِ لآخر دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ . وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ غَالِبًا فِي أَهْلِ السَّرَوَاتِ وَالْبُيُوتَاتِ الْمُرْشِحِينَ لِلْمَشِيخَةِ وَالرَّئَاسَةِ فِي الْمِصْرِ ، وَقَدْ يَحْدُثُ التَّغْلِبُ لِبَغْضِ السُّفْلَةِ مِنَ الْغَوْغَاءِ وَالذُّهْمَاءِ . وَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ وَالْإِلْتِحَامُ بِالْأَوْغَادِ لِأَسْبَابٍ يَجْرُهَا لَهُ الْمِقْدَارُ فَيَتَغْلَبُ عَلَى الْمَشِيخَةِ وَالْعَلِيَّةِ إِذَا كَانُوا فَاقِدِينَ لِلْعِصَايَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

الفصل الثاني والعشرون

في لغات أهل الأمصار

إِغْلَمْ أَنَّ لُغَاتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِنَّمَا تَكُونُ بِلِسَانِ الْأُمَّةِ أَوِ الْجِيلِ الْغَالِبِينَ عَلَيْهَا أَوِ الْمُخْتَطِّينَ لَهَا وَلِذَلِكَ كَانَتْ لُغَاتُ الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا بِالشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ عَرَبِيَّةً وَإِنْ كَانَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمُصْرِيُّ قَدْ فَسَدَتْ مَلَكَتُهُ وَتَغَيَّرَ إِعْرَابُهُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ لِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْغَلَبِ عَلَى الْأَمَمِ وَالْدِّينِ وَالْمِلَّةِ صُورَةً

(١) وفي نسخة أخرى : خَلْفِهِمْ .

لِلْوُجُودِ وَلِلْمَلِكِ . وَكُلُّهَا مَوَادُّ لَهُ وَالصُّورَةُ مُقَدَّمَةٌ عَلَى الْمَادَّةِ وَالَّذِينَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَهِيَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ لِمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَرَبِيٌّ فَوَجَبَ هَجْرُ مَا سِوَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْأَلْسُنِ فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي نَهْيِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ بَطَانَةِ^(١) الْأَعَاجِمِ وَقَالَ إِنَّهَا خَبٌّ . أَيْ مَكْرٌ وَخَدِيعَةٌ . فَلَمَّا هَجَرَ الَّذِينَ اللَّغَاتِ الْأَعْجَمِيَّةَ وَكَانَ لِسَانُ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَرَبِيًّا هَجَرَتْ كُلُّهَا فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا لِأَنَّ النَّاسَ تَتَبَعَ لِلسُّلْطَانِ وَعَلَى دِينِهِ فَصَارَ اسْتِعْمَالُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مِنْ شُعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَطَاعَةِ الْعَرَبِ . وَهَجَرَ الْأَمَمُ لُغَاتِهِمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَالْمَمَالِكِ . وَصَارَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ لِسَانَهُمْ حَتَّى رَسَخَ ذَلِكَ لُغَةً فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ وَصَارَتِ الْأَلْسِنَةُ الْعَجَمِيَّةُ دَخِيلَةً فِيهَا وَغَرِيبَةً . ثُمَّ فَسَدَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ بِمُخَالَطَتِهَا فِي بَعْضِ أَحْكَامِهِ وَتَغْيِيرِ أَوَاخِرِهِ وَإِنْ كَانَ بَقِيَ فِي الدَّلَالَاتِ عَلَى أَصْلِهِ وَسُمِّيَ لِسَانًا حَضَرِيًّا فِي جَمِيعِ أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ . وَأَيْضًا فَأَكْثَرَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ فِي الْمِلَّةِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَغْقَابِ الْعَرَبِ الْمَالِكِينَ لَهَا ، الْهَالِكِينَ فِي تَرْفِهَا بِمَا كَثُرُوا الْعَجَمُ الَّذِينَ كَانُوا بِهَا وَوَرِثُوا أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ . وَاللَّغَاتُ مُتَوَارِثَةٌ فَبَقِيَتْ لُغَةُ الْأَغْقَابِ عَلَى حِيَالِ لُغَةِ الْأَبَاءِ وَإِنْ فَسَدَتْ أَحْكَامُهَا بِمُخَالَطَةِ الْأَعْجَامِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَسُمِّيَتْ لُغَتُهُمْ حَضَرِيَّةً مُنْسُوبَةً إِلَى أَهْلِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ بِخِلَافِ لُغَةِ الْبَدُوِّ مِنَ الْعَرَبِ فَإِنَّهَا كَانَتْ أَغْرَقَ فِي الْعُرُوبِيَّةِ وَلَمَّا تَمَلَّكَ الْعَجَمُ مِنَ الدَّيْلَمِ وَالسُّلْجُوقِيَّةِ بَعْدَهُمْ بِالْمَشْرِقِ ، وَزَنَاتَةَ وَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ ، وَصَارَ لَهُمُ الْمُلْكُ وَالِاسْتِطْلَاءُ عَلَى جَمِيعِ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَسَدَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ لِذَلِكَ وَكَادَ يَذْهَبُ لَوْلَا مَا حَفِظَهُ مِنْ عِنَايَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اللَّذَيْنِ يَنْهَمَا حَفِظَ الَّذِينَ وَسَارَ ذَلِكَ مَرْجُحًا لِبَقَاءِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُضَرِّيَّةِ مِنَ الشُّعْرِ وَالْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا بِالْأَمْصَارِ فَلَمَّا مَلَكَ التَّتَرُ وَالْمُغُولُ بِالْمَشْرِقِ وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ذَهَبَ ذَلِكَ الْمَرْجُحُ وَفَسَدَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ .

(١) وفي نسخة أخرى : رطانة (وهي الأصح مع مقتضى سياق الجملة) .

وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ الْهِنْدِ وَالسِّنْدِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الشَّامِ وَبِلَادِ الرُّومِ وَدَهَبَتْ
 أَسَالِيبُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الشَّعْرِ وَالْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا يَقَعُ تَعْلِيمُهُ صِنَاعِيًّا بِالْقَوَانِينِ
 الْمُتَدَارِسَةِ مِنْ كَلَامٍ ^(١) الْعَرَبِ وَحَفِظَ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِذَلِكَ . وَرُبَّمَا
 بَقِيَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُضَرِّيَّةُ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ وَبِالْمَغْرِبِ لِبَقَاءِ الدِّينِ طَلِبًا
 لَهَا فَأَنْحَفَظْتُ بِبَغْضِ الشَّيْءِ وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ الْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا
 عَيْنٌ حَتَّى إِنْ كُتِبَ الْعُلُومُ صَارَتْ تُكْتَبُ بِاللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ وَكَذَا تَدْرِيصُهُ فِي
 الْمَجَالِسِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ . وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا
 مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا دَائِمًا أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ .

الباب الخامس

من الكتاب الأول

في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله

من الأحوال وفيه مسائل

الفصل الأول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وإن الكسب هو قيمة الأعمال
 البشرية

إِغْلَمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ بِالطَّبِيعِ إِلَى مَا يَقْوَتُهُ وَيَمُونُهُ فِي خَالَاتِهِ وَأَطْوَارِهِ مِنْ
 لَدُنْ نَشْؤِهِ إِلَى أَشَدِّهِ إِلَى كِبَرِهِ « وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ » وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ
 جَمِيعَ مَا فِي الْعَالَمِ لِلْإِنْسَانِ وَأَمْتَنَ بِهِ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ : « خَلَقَ

(١) وفي نسخة : علوم .

لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ «^(١) وَسَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الْفَلَكَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ . وَكَثِيرٌ مِنْ شَوَاهِدِهِ . وَيَدُ الْإِنْسَانِ مَبْسُوطَةٌ عَلَى الْعَالَمِ
وَمَا فِيهِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْإِسْتِخْلَافِ . وَأَيْدِي الْبَشَرِ مُنتَشِرَةٌ فِيهِ مُشْتَرَكَةٌ فِي
ذَلِكَ . وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ يَدُ هَذَا امْتَنَعَ عَنِ الْآخِرِ إِلَّا بِعَمُوسٍ . فَالْإِنْسَانُ مَتَى اقْتَدَرَ
عَلَى نَفْسِهِ وَتَجَاوَزَ طُورَ الضَّعْفِ سَعَى فِي اقْتِنَاءِ الْمَكَايِبِ لِيُنْفِقَ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْهَا فِي
تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ وَضُرُورَاتِهِ بِدَفْعِ الْأَعْوَاضِ عَنْهَا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « فَاثْبَتُوا عِنْدَ
اللَّهِ الرِّزْقَ » وَقَدْ يَخْضُلُ لَهُ ذَلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ كَالْمَطَرِ الْمُضْلِحِ لِلزَّرَاعَةِ وَأَمْثَالِهِ . إِلَّا
أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ مُعِينَةً وَلَا بُدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ الْمَكَايِبُ
مَعَاشاً إِنْ كَانَتْ بِمِقْدَارِ الضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ وَرِيَاشاً وَمَتَمَوَلاً إِنْ زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ . ثُمَّ
إِنْ ذَلِكَ الْحَاصِلُ أَوْ الْمُقْتَنَى إِنْ عَادَتْ مَنْفَعَتُهُ عَلَى الْعَبْدِ وَحَصَلَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ
إِنْفَاقِهِ فِي مَصَالِحِهِ وَحَاجَاتِهِ سُمِّيَ ذَلِكَ رِزْقاً . قَالَ ﷺ : « إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ
مَا أَكَلْتَ فَأَنْفَيْتَ أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي
شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَالِكِ رِزْقاً وَالْمُتَمَلِّكُ مِنْهُ
حِينَئِذٍ بِسَعْيِ الْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْباً . وَهَذَا مِثْلُ التَّرَاثِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ
إِلَى الْهَالِكِ كَسْباً وَلَا يُسَمَّى رِزْقاً إِذْ لَمْ يَخْضُلْ بِهِ مُنْتَفِعٌ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَارِثِينَ مَتَى
انْتَفَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقاً . هَذَا حَقِيقَةُ مُسَمَّى الرِّزْقِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَدْ اشْتَرَطَ
الْمُعْتَزِلُ فِي تَسْمِيَّتِهِ رِزْقاً أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يَصْحُ تَمَلُّكُهُ وَمَا لَا يَتَمَلَّكُ عَنْدهُمْ
لَا يُسَمَّى رِزْقاً وَأَخْرَجُوا الْغُصُوبَاتِ^(٢) وَالْحَرَامَ كُلَّهُ عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقاً
وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ الْغَاصِبَ وَالظَّالِمَ وَالْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ بِرَحْمَتِهِ وَهَدَايَتِهِ مَنْ يَشَاءُ .
وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ حُجَجٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعٌ بَسْطِهَا . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْكَسْبَ إِنَّمَا يَكُونُ
بِالسَّعْيِ فِي الْإِقْتِنَاءِ وَالْقَصْدِ إِلَى التَّحْصِيلِ فَلَا بُدَّ فِي الرِّزْقِ مِنْ سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَلَوْ فِي

(١) من الآية ١٣ من سورة الجاثية .

(٢) في النسخة الباريسية ، الغصوبات . ولم ترد بلسان العرب الغصوبات . لذلك من الأصح أن يقول

للفصوبة .

تَنَاوَلِهِ وَابْتِغَائِهِ مِنْ وَجْهِهِ . قَالَ تَعَالَى : « فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ » وَالسَّعْيُ إِلَيْهِ
إِنَّمَا يَكُونُ بِأَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْهَامِهِ ، فَالْكُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . فَلَا بُدَّ مِنَ الْأَعْمَالِ
الْإِنْسَانِيَّةِ فِي كُلِّ مَكْسُوبٍ وَمُتَمَوِّلٍ . لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَمَلًا بِنَفْسِهِ مِثْلَ الصَّنَائِعِ فَظَاهِرٌ
وَأِنْ كَانَ مُقْتَنًى مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعْدِنِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَمَا
تَرَاهُ وَلَا لَمْ يَحْصُلْ وَلَمْ يَقَعْ بِهِ انْتِفَاعٌ . ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْحَجَرَيْنِ الْمَعْدِنَيْنِ
مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ قِيَمَةً لِكُلِّ مُتَمَوِّلٍ ، وَهُمَا الذَّخِيرَةُ وَالْقِنْيَةُ لِأَهْلِ الْعَالَمِ فِي
الْغَالِبِ . وَإِنْ افْتَنَى سِوَاهُمَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فَإِنَّمَا هُوَ لِقَصْدِ تَخْصِيلِهِمَا بِمَا يَقَعُ
فِي غَيْرِهِمَا مِنْ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ الَّتِي هُمَا عَنْهَا بِمَغْزَلٍ فَهُمَا أَصْلُ الْمَكَاسِبِ وَالْقِنْيَةِ
وَالذَّخِيرَةِ . وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا كُلُّهُ فَاعْلَمْ أَنَّ مَا يُفِيدُهُ الْإِنْسَانُ وَيَقْتْنِيهِ مِنَ الْمُتَمَوَّلَاتِ
إِنْ كَانَ مِنَ الصَّنَائِعِ فَالْمَقَادُ الْمُقْتَنَى مِنْهُ قِيَمَةٌ عَمَلِهِ وَهُوَ الْقَصْدُ بِالْقِنْيَةِ إِذْ لَيْسَ
هُنَاكَ إِلَّا الْعَمَلُ وَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ بِنَفْسِهِ لِلْقِنْيَةِ . وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الصَّنَائِعِ فِي بَعْضِهَا
غَيْرُهَا مِثْلَ التَّجَارَةِ وَالْحَيَاكَةِ مَعَهُمَا الْخَشَبُ وَالْفِزْلُ إِلَّا أَنَّ الْعَمَلَ فِيهِمَا أَكْثَرُ فَقِيَمَتُهُ
أَكْثَرُ وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الصَّنَائِعِ فَلَا بُدَّ مِنْ قِيَمَةِ ذَلِكَ الْمَقَادِ وَالْقِنْيَةِ مِنْ دُخُولِ قِيَمَةِ
الْعَمَلِ الَّذِي حَصَلَتْ بِهِ إِذْ لَوْلَا الْعَمَلُ لَمْ تَحْصُلْ قِنْيَتُهَا . وَقَدْ تَكُونُ مَلَاخِظَةُ الْعَمَلِ
ظَاهِرَةً فِي الْكَثِيرِ مِنْهَا فَتَجْعَلُ لَهُ حِصَّةً مِنَ الْقِيَمَةِ عَظُمَتْ أَوْ صَغُرَتْ . وَقَدْ تَخْفَى
مَلَاخِظَةُ الْعَمَلِ كَمَا فِي أَسْغَارِ الْأَقْوَاتِ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ اُعْتَبِرَ الْأَعْمَالِ وَالنَّفَقَاتِ فِيهَا
مَلَاخِظٌ فِي أَسْغَارِ الْحُبُوبِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ لَكِنَّهُ خَفِيَ فِي الْأَقْطَارِ الَّتِي عِلَاجُ الْفُلُجِ فِيهَا
وَمَوْنَتُهُ يَسِيرَةٌ فَلَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْ أَهْلِ الْفُلُجِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْمَقَادَاتِ
وَالْمَكْتَسَبَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا إِنَّمَا هِيَ قِيَمُ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَبَيَّنَ مَسْمَى الرِّزْقِ
وَأَنَّهُ الْمُنتَفَعُ بِهِ . فَقَدْ بَانَ مَعْنَى الْكَسْبِ وَالرِّزْقِ وَشَرَحَ مَسْمَاهُمَا . وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا
فُقِدَتِ الْأَعْمَالُ أَوْ قَلَّتْ بِانْتِقَاصِ الْعُمَرَانِ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِرَفْعِ الْكَسْبِ أَوْ تَرَى أَلَا
الْأَمْصَارَ الْقَلِيلَةَ السَّاكِنِينَ كَيْفَ يَقِلُّ الرِّزْقُ وَالْكَسْبُ فِيهَا أَوْ يُفْقَدُ لِقَلَّةِ الْأَعْمَالِ
الْإِنْسَانِيَّةِ وَكَذَلِكَ الْأَمْصَارُ الَّتِي يَكُونُ عُمُرَانَهَا ^(١) أَكْثَرُ يَكُونُ أَهْلُهَا أَوْسَعَ أَحْوَالًا

(١) وفي النسخة الباريسية : تكون اعمالها .

وَأَشَدُّ رَفَاهِيَةً كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَبْلُ وَمِنْ هَذَا الْيَابِ تَقُولُ الْعَامَّةُ فِي الْبِلَادِ إِذَا تَنَاقَصَ عُمَرَانِهَا إِنَّهَا قَدْ ذَهَبَ رِزْقُهَا حَتَّى أَنْ الْأَنْهَارَ وَالْعُمُومَ يَنْقَطِعُ جَرِيهَا فِي الْفَقْرِ لَمَّا أَنْ فَوَرَ الْعُمُومِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِنْبَاطِ وَالْإِمْتِرَاءِ الَّذِي هُوَ بِالْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَالْحَالِ فِي ضُرُوعِ الْأَنْعَامِ فَمَا لَمْ يَكُنْ إِنْبَاطٌ وَلَا إِمْتِرَاءٌ نَضَبَتْ وَغَارَتْ بِالْجُمْلَةِ كَمَا يَحِفُّ الضَّرْعُ إِذَا تَرَكَ امْتِرَاؤُهُ . وَانْظُرْهُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي تُعْهَدُ فِيهَا الْعُمُومُ لِأَيَّامِ عُمَرَانِهَا ثُمَّ يَأْتِي عَلَيْهَا الْخَرَابُ كَيْفَ تَغُورُ مِيَاهُهَا جُمْلَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ « وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » .

الفصل الثاني

في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

إِغْلَمْ أَنَّ الْمَعَاشَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ ائْتِمَاعِ الرِّزْقِ وَالسَّغْيِ فِي تَخْصِيلِهِ وَهُوَ مَغْفَلٌ مِنَ الْعَيْشِ . كَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعَيْشُ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِهَذِهِ جُعِلَتْ مَوْضِعاً لَهُ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ ثُمَّ إِنَّ تَخْصِيلَ الرِّزْقِ وَكَسْبَهُ ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِأَخْذِهِ مِنْ يَدِ الْغَيْرِ وَانْتِزَاعِهِ بِالْإِقْتِدَارِ عَلَيْهِ عَلَى قَانُونٍ مُتَعَارِفٍ وَيُسَمَّى مَغْرَماً وَجَبَايَةً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانِ الْوَحْشِيِّ بِإِفْتِرَاسِهِ^(١) وَأَخْذِهِ بِرَمِيهِ مِنَ الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ وَيُسَمَّى اضْطِغَاداً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ بِاسْتِخْرَاجِ فَضُولِهِ الْمُنْصَرَفَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَنَافِعِهِمْ كَاللَّبَنِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْخَرِيرِ مِنْ دَوْدِهِ وَالْعَسَلِ مِنْ نَحْلِهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ النَّبَاتِ فِي الرُّزْعِ وَالشَّجَرِ بِالْقِيَامِ عَلَيْهِ وَإِعْدَادِهِ لِاسْتِخْرَاجِ ثَمَرَتِهِ وَيُسَمَّى هَذَا كُلُّهُ فَلْحاً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِمَّا فِي مَوَادِّ مُعَيَّنَةٍ وَتُسَمَّى الصَّنَائِعُ مِنْ كِتَابِيَّةٍ وَتِجَارَةٍ وَخِيَاطِيَّةٍ وَحَيَاكِيَّةٍ وَفَرُوسِيَّةٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ أَوْ فِي مَوَادِّ غَيْرِ مُعَيَّنَةٍ وَهِيَ جَمِيعُ الْإِمْتِهَانَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْبَضَائِعِ

(١) وفي نسخة أخرى : باقتناصه .

وَإِعْزَازِهَا لِلْأَعْوَاضِ إِمَّا بِالتَّغْلِبِ بِهَا فِي الْبِلَادِ وَاحْتِكَارِهَا وَازْتِقَابِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فِيهَا . وَيُسَمَّى هَذَا تِجَارَةً . فَهَذِهِ وَجُوهُ الْمَعَاشِ وَأَصْنَافُهُ وَهِيَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ كَالْحَرِيرِيِّ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : « الْمَعَاشُ إِمَارَةٌ وَتِجَارَةٌ وَفِلَاحَةٌ وَصِنَاعَةٌ » . فَأَمَّا الْإِمَارَةُ فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ طَبِيعِيٍّ لِلْمَعَاشِ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْجَبَايَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي . وَأَمَّا الْفِلَاحَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتَّجَارَةُ فَهِيَ وَجُوهٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَعَاشِ أَمَّا الْفِلَاحَةُ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالذَّاتِ إِذْ هِيَ بَسِيطَةٌ وَطَبِيعِيَّةٌ فَطَرِيَّةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَلِهَذَا تُنْسَبُ فِي الْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ وَأَنَّهُ مُعَلِّمُهَا وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا أَوَّلُ وَجُوهِ الْمَعَاشِ وَأَنَّهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ . وَأَمَّا الصَّنَاعَةُ فَهِيَ ثَانِيَتُهَا وَمُتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُصَرَّفُ فِيهَا الْأَفْكَارُ وَالْأَنْظَارُ وَلِهَذَا لَا يُوْجَدُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَهْلِ الْحَضَرِ الَّذِي هُوَ مُتَأَخَّرٌ عَنِ الْبَدْوِ وَثَانٍ عَنْهُ . وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى نُسِبَتْ إِلَى إِدْرِيسَ الْأَبِ الثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَنْبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْبَشَرِ بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . وَأَمَّا التَّجَارَةُ وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعَةً فِي الْكَسْبِ فَلَا أَكْثَرَ مِنْ طَرَقِهَا وَمَذَاهِبِهَا إِنَّمَا هِيَ تَحِيلَاتٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى مَا بَيْنَ الْقِيَمَتَيْنِ فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ لِتَحْصُلَ فَائِدَةُ الْكَسْبِ مِنْ تِلْكَ الْفَضْلَةِ . وَلِذَلِكَ أَبَاحَ الشَّرْعُ فِيهِ الْمُكَاسَبَةَ ^(١) لِمَا أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْمُقَامَرَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ أَخْذُ الْمَالِ الْغَيْرِ مَجَانًا فَلِهَذَا اخْتَصُصَ بِالْمَشْرُوعِيَّةِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الثالث

في أن الخدمة ليست من الطبيعي

إِعْلَمُ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ اتِّخَاذِ الْخِدْمَةِ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ الْإِمَارَةِ وَالْمُلْكِ الَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْجُنْدِيِّ وَالشَّرْطِيِّ وَالْكَاتِبِ . وَيَسْتَكْفِي فِي كُلِّ بَابٍ يَمْنُ

(١) وفي النسخة الباريسية : المكاسب .

الْمُضَيِّعَ وَلَوْ كَانَ مَأْمُونًا فَضَرَرَهُ بِالتَّضْيِيعِ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ . فَأَعْلَمَ ذَلِكَ وَاتَّخَذَهُ قَانُونًا فِي الْإِسْتِكْفَاءِ بِالْخِدْمَةِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

الفصل الرابع

في ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي

إِعْلَمَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ ضُعْفَاءِ الْقُؤُولِ فِي الْأَمْصَارِ يَخْرُصُونَ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ وَيَبْتَغُونَ الْكَسْبَ مِنْ ذَلِكَ . وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْوَالَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مُخْتَزَنَةٌ كُلُّهَا تَحْتَ الْأَرْضِ مَخْتُومٌ عَلَيْهَا كُلُّهَا بِطَلَاسِمِ سِحْرِيَّةٍ ، لَا يَفُضُّ خِتَامُهَا ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَثَرَ عَلَى عِلْمِهِ وَاسْتَحْضَرَ مَا يَحُلُّهُ مِنَ الْبُخُورِ وَالِدُعَاءِ وَالْقُرْبَانِ . فَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ يَرَوْنَ أَنَّ الْإِفْرَنْجَةَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بَهَا دَفَنُوا أَمْوَالَهُمْ كَذَلِكَ وَأَوْدَعُوهَا فِي الصُّخْرِ بِالْكِتَابِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا السَّبِيلَ إِلَى اسْتِخْرَاجِهَا . وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِالْمَشْرِقِ يَرَوْنَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي أَمَمِ الْقِبْطِ وَالرُّومِ وَالْفَرَسِ . وَيَتَنَاقَلُونَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثَ تُشَبِّهُ حَدِيثَ خُرَافَةٍ مِنْ انْتِهَاءِ بَغْضِ الطَّالِبِينَ لِذَلِكَ إِلَى حَفْرِ مَوْضِعِ الْمَالِ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ طِلْسَمَهُ وَلَا خَبَرَهُ فَيَجِدُونَهُ خَالِيًا أَوْ مَغْمُورًا بِالْذِّيدَانِ . أَوْ يُشَاهِدُ الْأَمْوَالَ وَالْجَوَاهِرَ مَوْضُوعَةً وَالْحَرَسَ دُونَهَا مُنْتَضِينَ سَيُوفَهُمْ . أَوْ تَمِيدُ بِهِ الْأَرْضُ حَتَّى يَظُنُّهُ خَسْفًا أَوْ مِثْلَ ذَلِكَ مِنَ الْهَذَرِ . وَنَجِدُ كَثِيرًا مِنْ طَلَبَةِ الْبَرِّ بِالْمَغْرِبِ الْعَاجِزِينَ عَنِ الْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِالْأَوْرَاقِ الْمَتَخَرِّمَةِ^(١) الْحَوَاشِي إِثْمًا يَخْطُوطُ عَجَمِيَّةٌ أَوْ بِمَا تُرْجَمُ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا مِنْ خُطُوطِ أَهْلِ الدَّفَائِنِ بِإِعْطَاءِ الْأَمَارَاتِ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ الرِّزْقَ مِنْهُمْ بِمَا يَبْتَغُونَهُ عَلَى الْحَفْرِ وَالطَّلَبِ وَيَمُوهُونَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى الْإِسْتِغَاثَةِ بِهِمْ طَلَبُ النِّجَاحِ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ مَنَالِ الْحُكَامِ وَالْعُقُوبَاتِ . وَرَبَّمَا تَكُونُ عِنْدَ

(١) وفي النسخة الباريسية : المختزمة .

يَعْلَمُ غَنَاءَهُ فِيهِ وَيَتَكَلَّلُ بِأَزْرَاقِهِمْ مِنْ بَيْتِ مَالِهِ . وَهَذَا كُلُّهُ مُنْدَرِجٌ فِي الْإِمَارَةِ وَمَعَاشِهَا إِذْ كُلُّهُمْ يَنْسَحِبُ^(١) عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْإِمَارَةِ وَالْمَلِكُ الْأَعْظَمُ هُوَ يَنْبُوعُ جَدَائِلِهِمْ . وَأَمَّا مَا دُونَ ذَلِكَ مِنَ الْخِدْمَةِ فَسَبَبُهَا أَنْ أَكْثَرَ الْمُتَرْفِعِينَ يَتَرَفَّعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ حَاجَاتِهِ أَوْ يَكُونُ عَاجِزًا عَنْهَا لِمَا رَبَّيَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُقِ التَّنْعُمِ وَالتَّرَفِّ فَيَتَّخِذُ مَنْ يَتَوَلَّى ذَلِكَ لَهُ وَيَقْطَعُهُ عَلَيْهِ أَجْرًا مِنْ مَالِهِ . وَهَذِهِ الْحَالَةُ غَيْرُ مَخْمُودَةٍ بِحَسَبِ الرُّجُولِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ إِذِ الثَّقَةُ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجْزٌ ، وَلِأَنَّهَا تَزِيدُ فِي الْوُظَائِفِ وَالْخُرُجِ وَتَدُلُّ عَلَى الْعَجْزِ وَالْخَنَثِ الَّذِي يَنْبَغِي فِي مَذَاهِبِ الرُّجُولِيَّةِ التَّنَزُّعُ عَنْهُمَا . إِلَّا أَنَّ الْعَوَائِدَ تَقْلِبُ طِبَاعَ الْإِنْسَانِ إِلَى مَالُوفٍ فَهُوَ ابْنُ عَوَائِدِهِ لَا ابْنُ نَسَبِهِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَالْخَدِيمُ الَّذِي يُسْتَكْفَى بِهِ وَيُوثَقُ بِغِنَائِهِ كَالْمَفْقُودِ إِذَا الْخَدِيمُ الْقَائِمُ بِذَلِكَ لَا يَغْدُو أَرْجَحَ خَالَاتٍ : إِمَّا مُضْطَلَعٌ بِأَمْرِهِ وَلَا مُوْثُوقٌ فِيمَا يَحْصُلُ بِيَدِهِ وَإِمَّا بِالْعَكْسِ فِيهَا ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُضْطَلَعٍ بِأَمْرِهِ وَلَا مُوْثُوقٌ فِيمَا يَحْصُلُ بِيَدِهِ وَإِمَّا بِالْعَكْسِ فِي إِحْدَاهُمَا فَقَطْ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ مُضْطَلَعًا غَيْرَ مُوْثُوقٍ أَوْ مُوْثُوقًا غَيْرَ مُضْطَلَعٍ . فَأَمَّا الْأَوَّلُ وَهُوَ الْمُضْطَلَعُ الْمُوْثُوقُ فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا اسْتِعْمَالَهُ بِوَجْهِهِ إِذْ هُوَ بِاضْطِلَاعِهِ وَثِقَتِهِ غَنِيٌّ عَنْ أَهْلِ الرُّتَبِ الدُّنْيَا وَمُخْتَقِرٌ لِمِثَالِ الْأَجْرِ مِنَ الْخِدْمَةِ لِاقْتِدَارِهِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا الْأَمْرَاءُ أَهْلُ الْجَاهِ الْعَرِيزِ لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَى الْجَاهِ . وَأَمَّا الصَّنْفُ الثَّانِي وَهُوَ مِمَّنْ لَيْسَ بِمُضْطَلَعٍ وَلَا مُوْثُوقٍ فَلَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ اسْتِعْمَالَهُ لِأَنَّهُ يُخْجَفُ بِمَخْدُومِهِ فِي الْأَمْرَيْنِ مَعَاضٍ عَلَيْهِ لِقَدَمِ الْإِضْطِنَاعِ تَارَةً وَيَذْهَبُ مَالُهُ بِالْخِيَانَةِ أُخْرَى فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ . فَهَذَانِ الصَّنِفَانِ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي اسْتِعْمَالِهِمَا . وَلَمْ يَتَّقِ إِلَّا اسْتِعْمَالُ الصَّنِفَيْنِ الْآخَرَيْنِ : مُوْثُوقٍ غَيْرَ مُضْطَلَعٍ وَمُضْطَلَعٍ غَيْرَ مُوْثُوقٍ وَلِلنَّاسِ فِي التَّرْجِيحِ بَيْنَهُمَا مَذْهَبَانِ . وَلِكُلِّ مِنَ التَّرْجِيحَيْنِ وَجْهٌ . إِلَّا أَنَّ الْمُضْطَلَعِ وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُوْثُوقٍ أَرْجَحُ لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ مِنْ تَضْيِيعِهِ وَيَحَاوُلُ عَلَى التَّحَرُّزِ مِنْ خِيَانَتِهِ جُهْدَ الْإِسْطَاعَةِ وَأَمَّا

(١) بَلْغَنَى يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ اسْتَعْمَلْتُ عَلَى الْمَجَازِ .

بَعْضِهِمْ نَادِرَةٌ أَوْ غَرِيبَةٌ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّخَرِيَّةِ يُمَوِّهُ بِهَا عَلَى تَضَدِّيقِ مَا بَقِيَ مِنْ دَعْوَاهُ وَهُوَ بِمَغْزَلٍ عَنِ السَّخَرِ وَطَرِّقِهِ فَتَوَلَّعَ كَثِيرٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ بِجَمْعِ الْأَيْدِي عَلَى الْإِخْتِفَارِ وَالتَّسْتَرْفِيهِ بِظُلُمَاتِ اللَّيْلِ مَخَافَةَ الرُّقْبَاءِ وَعُيُونِ أَهْلِ الدُّوَلِ ، فَإِذَا لَمْ يَغْشَوْا عَلَى شَيْءٍ رَدُّوا ذَلِكَ إِلَى الْجَهْلِ بِالطَّلَسِ الَّذِي خَتَمَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَالِ يُخَادِعُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَنْ إِخْفَاقِ مَطَامِعِهِمْ . وَالَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْغَالِبِ زِيَادَةُ عَلَى ضَعْفِ الْعَقْلِ إِنَّمَا هُوَ الْعَجْزُ عَنْ طَلَبِ الْمَعَاشِ بِالْوُجُوهِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَسْبِ مِنَ التَّجَارَةِ وَالْفَلْحِ وَالصَّنَاعَةِ فَيَطْلُبُونَهُ بِالْوُجُوهِ الْمُنْحَرِفَةِ وَعَلَى غَيْرِ الْمَجْرَى ^(١) الطَّبِيعِيِّ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ عَجْزاً عَنِ السَّغِيرِ فِي الْمَكَاسِبِ وَرُكُوناً إِلَى تَنَاوُلِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ فِي تَحْصِيلِهِ وَاكْتِسَابِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَوْقِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِيتْيَاءِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ فِي نَصَبٍ وَمَتَاعِبٍ وَجُهْدٍ شَدِيدٍ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ وَيَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لِمَنَاكِحِ الْعُقُوبَاتِ . وَرُبَّمَا يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْأَكْثَرِ زِيَادَةُ التَّرَفِ وَعَوَائِدُهُ وَخُرُوجُهَا عَنْ حُدِّ النَّهَائِيَةِ حَتَّى تَقْصُرَ عَنْهَا وَجُوهُ الْكَسْبِ وَمَذَاهِبُهُ وَلَا تَبْقَى بِمَطَالِبِهَا . فَإِذَا عَجِزَ عَنِ الْكَسْبِ بِالْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ لَمْ يَحِذْ وَلِجَّةً فِي نَفْسِهِ إِلَّا التَّمَنَّى لَوْجُودِ الْمَالِ الْعَظِيمِ دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كَلْفَةٍ لِيَفِي لَهُ ذَلِكَ بِالْعَوَائِدِ الَّتِي حَصَلَ فِي أَسْرَافِهَا فَيُخَرِّصُ عَلَى ائْتِيَاءِ ذَلِكَ وَيَسْعَى فِيهِ جُهْدَهُ وَلِهَذَا فَأَكْثَرُ مَنْ تَرَاهُمْ يَخْرُصُونَ عَلَى ذَلِكَ هُمْ الْمُتَرْفُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلَةِ وَمِنْ سُكَّانِ الْأَمْصَارِ الْكَثِيرَةِ التَّرَفِ الْمُتَسَعِّةِ الْأَحْوَالِ مِثْلَ مِصْرَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا فَتَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُغْرَمِينَ بِإِيتْيَاءِ ذَلِكَ وَتَحْصِيلِهِ وَمُسَاءَلَةِ الرُّكْبَانِ عَنْ شَوَافِدِهِ كَمَا يَخْرُصُونَ عَلَى الْكِيمِيَاءِ . هَكَذَا بَلَّغْنِي ^(٢) عَنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي مُفَاوَضَةٍ مَنْ يَلْقَوْنَهُ مِنْ طَلَبَةِ الْمَغَارِيَةِ لَعَلَّهُمْ يَغْشَوْنَ مِنْهُ عَلَى دَفِينٍ أَوْ كَنْزٍ وَيَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ الْبَحْثَ عَنْ تَغْوِيرِ الْمِيَاهِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّ غَالِبَ هَذِهِ الْأَمْوَالِ الدَّفِينَةِ كُلِّهَا فِي مَجَارِي النِّيلِ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ مَا يَسْتَرْدِفِينَا أَوْ مُخْتَرِنَا فِي تِلْكَ الْأَفَاقِ وَيُمَوِّهُ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ تِلْكَ الدَّفَاتِرِ الْمُفْتَعِلَةِ

(١) وفي النسخة البأريسية : الوجه .

(٢) وفي نسخة أخرى : يبلغنا .

في الإغْتِدَارِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِجَزِيَةِ النَّيْلِ تَسْتُرُ بِذَلِكَ مِنَ الْكَذِبِ حَتَّى يَخْضَلَ
عَلَى مَعَاشِهِ فَيَخْرُصُ سَامِعٌ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَلَى نُضُوبِ الْمَاءِ بِالْأَعْمَالِ السَّخَرِيَّةِ لِتَخْصِيلِ
مُبْتَغَاةٍ مِنْ هَذِهِ كَلَفًا بِشَأْنِ السَّخَرِ مَتَوَارِثًا فِي ذَلِكَ الْقَطْرِ عَنْ أُولِيهِ فَعَلُومُهُمُ
السَّخَرِيَّةُ وَأَثَارُهَا بَاقِيَةٌ بِأَرْضِهِمْ فِي الْبَرَارِيِّ (١) وَغَيْرِهَا . وَقِصَّةُ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ
شَاهِدَةٌ بِاخْتِصَاصِهِمْ بِذَلِكَ وَقَدْ تَنَاقَلَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ قِصِيدَةً يَنْسِبُونَهَا إِلَى حُكَمَاءِ
الْمَشْرِقِ تُعْطَى فِيهَا كَيْفِيَّةُ الْعَمَلِ بِالتَّغْوِيرِ بِصِنَاعَةِ سِخَرِيَّةٍ حَسَبَمَا تَرَاهُ فِيهَا وَهِيَ
هَذِهِ :

إِسْمَعْ كَلَامَ الصَّدِّقِ مِنْ خَيْرِ
مِنْ قَوْلِ بُهْتَانٍ وَلَفْظِ غُرُورِ
إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ لَا يَرَى بِالزُّورِ
حَارَتْ لَهَا الْأَوْهَامُ فِي التَّدْبِيرِ
وَالرَّأْسُ رَأْسُ الشُّبْلِ فِي التَّقْوِيرِ
فِي الدَّلْوِ يُنْشَلُ مِنْ قَرَارِ الْبِيرِ
عَدَدُ الطَّلَاقِ اخْذَرْ مِنَ التَّكْرِيرِ
مَشَى اللَّيْسُ الْكَيْسُ النُّخْرِيرِ
تَرْبِيعُهُ أَوَّلَى مِنَ التَّكْوِيرِ
وَأَقْصِدُهُ عَقَبُ (٢) الذَّنْبِ بِالتَّبْخِيرِ
وَالْقِسْطِ وَالْبَسَةِ بِثُوبِ خَرِيرِ
لَا أَخْضَرُ فِيهِ وَلَا تَكْدِيرِ
أَوْ أَخْمَرُ مِنْ خَالِصِ التَّخْمِيرِ

يَا طَالِبَا لِلْسَّرِّ فِي التَّغْوِيرِ
دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ صَنَّفُوا فِي كُتُبِهِمْ
وَأَسْمَعْ لِصَدِّقِ مَقَالَتِي وَنَصِيحَتِي
فَإِذَا أَرَدْتَ تَعَوُّزَ الْبُشْرِ الَّتِي
صَوَّرَ كُصُورَتِكَ الَّتِي أَوْفَقَتْهَا
وَيْدَاهُ مَاسِكَتَانِ لِلْحَبْلِ الَّذِي
وَبَصْرُهُ هَاءُ كَمَا غَايَنْتَهَا
وَيَطَا عَلَى الطَّاءَاتِ غَيْرَ مَلَامِسِ
وَيَكُونُ حَوْلَ الْكُلِّ (٣) خُطَّ دَائِرِ
وَأَذْبَحْ عَلَيْهِ الطَّيْرَ وَالطَّخْخُ بِهِ
بِالسَّنْدَرُوسِ وَبِاللَّبَانِ وَمَنْعَةٍ
مِنْ أَخْمَرٍ أَوْ أَصْفَرٍ لَا (٤) أَرْزُقِ
وَيَشْدُهُ خِيطَانُ صُوفٍ أَيْضُ

(١) وفي النسخة الباريسية : البرابي .

(٢) ونسخة أخرى : والشكل .

(٣) وفي النسخة الباريسية : واقصد عقب .

(٤) وفي النسخة الباريسية : أصفر أو .

وَالطَّالِعُ الْأَسَدُ الَّذِي قَدْ بَيَّنُّوا وَيَكُونُ بَدْءُ^(١) الشَّهْرِ غَيْرَ مُنِيرٍ
وَالْبَدْرُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ عَطَارِدٍ فِي يَوْمٍ سَبَّحَتْ سَاعَةُ التَّنْذِيرِ
يَعْنِي أَنْ تَكُونَ الطَّاءَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا وَعِنْدِي أَنْ هَذِهِ
الْقَصِيدَةُ مِنْ تَمْوِيهَاتِ الْمُتَخَرِّفِينَ^(٢) فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ وَاضْطِلَاحَاتٌ
عَجِيبَةٌ وَتَنْتَهِي التَّخْرِفَةُ^(٣) وَالْكَذِبُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا الْمَنَازِلَ الْمَشْهُورَةَ وَالْدُّورَ
الْمَعْرُوفَةَ لِمِثْلِ هَذِهِ وَيَحْتَفِرُونَ الْحَفَرَ وَيَضْعُونَ الْمَطَابِقَ فِيهَا وَالشَّوَاهِدَ الَّتِي
يَكْتُبُونَهَا فِي صَحَائِفٍ كَذِبِهِمْ ثُمَّ يَقْصِدُونَ ضَعْفَاءَ الْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الصَّحَائِفِ
(وَيَعْمَلُونَ عَلَى كُبْرَاءِ)^(٤) ذَلِكَ الْمَنْزِلِ وَسُكْنَاهُ وَيُوْهَمُونَ أَنَّ بِهِ دَفِينًا مِنَ الْمَالِ
لَا يُعْبَرُ عَنْ كَثْرَتِهِ وَيَطْلُبُونَ بِالْمَالِ لِاشْتِرَاءِ الْعَقَائِيرِ وَالْبُخُورَاتِ لِحَلِّ الطَّلَاسِمِ
وَيَعِدُونَهُ بِظُهُورِ الشَّوَاهِدِ الَّتِي قَدْ أَعْدَوْهَا هُنَالِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ فِعْلِهِمْ فَيَنْبَغِثُ لِمَا
يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ وَيَبْنِيهِمْ فِي ذَلِكَ
اضْطِلَاحٌ فِي كَلَامِهِمْ يَلْبَسُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيَخْفَى عِنْدَ مُحَاوَرَتِهِمْ فِيمَا يَتْلُونَهُ^(٥) مِنْ
حَفَرٍ وَبُخُورٍ وَذَبِجٍ حَيَوَانٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ فَلَا أَصْلَ
لَهُ فِي عِلْمٍ وَلَا خَبَرٍ وَاعْلَمْ أَنَّ الْكُنُوزَ وَإِنْ كَانَتْ تَوْجَدُ لَكِنَّهَا فِي حُكْمِ النَّادِرِ وَعَلَى
وَجْهِ الْإِتْفَاقِ لَا عَلَى وَجْهِ الْقَضْدِ إِلَيْهَا . وَلَيْسَ ذَلِكَ بِأَمْرٍ تَعْمُ بِهِ الْبَلَوَى حَتَّى
يُدْخِرَ النَّاسُ أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَخْتُمُونَ عَلَيْهَا بِالطَّلَاسِمِ لَا فِي الْقَدِيمِ وَلَا فِي
الْحَدِيثِ . وَالرَّكَازُ الَّذِي وَدَّ فِي الْحَدِيثِ وَفَرَضَهُ الْفُقَهَاءُ وَهُوَ دَفِينُ الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا
يُؤْخَذُ بِالْعُثُورِ وَالْإِتْفَاقِ لَا بِالْقَضْدِ وَالطَّلَبِ وَأَيْضًا فَمَنْ اخْتَزَنَ مَالَهُ وَخَتَمَ عَلَيْهِ
بِالْأَعْمَالِ السَّخَرِيَّةِ فَقَدْ بَالِغٌ فِي إِخْفَائِهِ فَكَيْفَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ الْأَدْلَةَ وَالْأَمَارَاتِ لِمَنْ
يَنْتَبِغِيهِ . وَيَكْتُبُ ذَلِكَ فِي الصَّحَائِفِ حَتَّى يَطْلُعَ عَلَى دَخِيرَتِهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ

(١) وفي النسخة الباريسية ، بدر .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، المخرفين .

(٣) وفي النسخة الباريسية ، المخرفة .

(٤) وفي نسخة أخرى ، ويعيشونه على اكتراء .

(٥) وفي نسخة أخرى ، يتناولونه .

وَالْآفَاقِ ؟ هَذَا يُنَاقِضُ قَصْدَ الْإِخْفَاءِ . وَأَيْضاً فَأَفْعَالُ الْعُقْلَاءِ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ
لِغَرَضٍ مَقْصُودٍ فِي الْإِنْتِفَاعِ . وَمَنْ اخْتَرَنَ الْمَالَ فَإِنَّهُ يَخْتَرِنُهُ لَوْلِيهِ أَوْ قَرِيبِهِ أَوْ مَنْ
يُؤَثِّرُهُ . وَأَمَّا أَنْ يُقْصَدَ إِخْفَاءُهُ بِالْكُلِّيَّةِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ وَإِنَّمَا هُوَ لِلْبَلَاءِ وَالْهَلَاكِ أَوْ لِمَنْ
لَا يَعْرِفُهُ بِالْكُلِّيَّةِ مِمَّنْ سَيَاتِي مِنَ الْأَمَمِ فَهَذَا لَيْسَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعُقْلَاءِ بِوَجْهِ . وَأَمَّا
قَوْلُهُمْ : أَيْنَ أَمْوَالُ الْأَمَمِ مِنْ قَبْلِنَا وَمَا عَلِمَ فِيهَا مِنَ الْكُثْرَةِ وَالْوُفُورِ ؟ فَأَعْلَمُ أَنَّ
الْأَمْوَالَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَمْتَعَةِ إِنَّمَا هِيَ مَعَادِنُ وَمَكَاسِبُ مِثْلُ
الْحَدِيدِ وَالنَّحَاسِ وَالرُّصَاصِ وَسَائِرِ الْعَقَارَاتِ وَالْمَعَادِنِ . وَالْعُمَرَانُ يُظْهِرُهَا
بِالْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيَزِيدُ فِيهَا أَوْ يُنْقِصُهَا وَمَا يُوْجَدُ مِنْهَا بِأَيْدِي النَّاسِ فَهُوَ
مُتَنَاقِلٌ مُتَوَارِثٌ وَرَبِّمًا انْتَقَلَ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ وَمِنْ دَوْلَةٍ إِلَى أُخْرَى بِحَسَبِ
أَغْرَاضِهِ ^(١) . وَالْعُمَرَانُ الَّذِي يَسْتَدْعِي لَهُ فَإِنْ نَقَصَ الْمَالُ فِي الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ فَلَمْ
يَنْقُصْ بِلِلَادِ الصَّقَالِبَةِ وَالْإِفْرَنْجِ وَإِنْ نَقَصَ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ فَلَمْ يَنْقُصْ فِي الْهِنْدِ
وَالصِّينِ . وَإِنَّمَا هِيَ الْآلَاتُ وَالْمَكَاسِبُ وَالْعُمَرَانُ يُؤَفِّرُهَا أَوْ يُنْقِصُهَا ، مَعَ أَنَّ
الْمَعَادِنَ يَذَرُكُهَا الْبَلَاءُ كَمَا يَذَرُكَ سَائِرُ الْمَوْجُودَاتِ وَيُسْرِعُ إِلَى اللُّوْلُو وَالْجَوَاهِرِ
أَعْظَمَ مِمَّا يُسْرِعُ إِلَى غَيْرِهِ . وَكَذَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالنَّحَاسُ وَالْحَدِيدُ وَالرُّصَاصُ
وَالْقَصْدِيرُ يَنَالُهَا مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفَنَاءِ مَا يَذْهَبُ بِأَعْيَانِهَا لِأَقْرَبِ وَقْتٍ . وَأَمَّا مَا وَقَعَ
فِي مِصْرَ مِنْ أَمْرِ الْمَطَالِبِ وَالْكُنُوزِ فَسَبَبُهُ أَنَّ مِصْرَ فِي مَلَكَةِ الْقُبْطِ مِنْذُ آلَافٍ ^(٢) أَوْ
يَزِيدُ مِنَ السِّنِينَ وَكَانَ مَوْتَاهُمْ يَذْفَنُونَ بِمَوْجُودِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ
وَاللَّالِيَةِ عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ تَقَدُّمٍ مِنْ أَهْلِ الدَّوَلِ فَلَمَّا انْقَضَتْ دَوْلَةُ الْقُبْطِ وَمَلَكَ الْفَرَسُ
بِلَادَهُمْ نَقَرُوا عَلَى ذَلِكَ فِي قُبُورِهِمْ فَكَشَفُوا عَنْهُ فَأَخَذُوا مِنْ قُبُورِهِمْ مَا لَا يُوصَفُ ،
كَالْأَهْرَامِ مِنْ قُبُورِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهَا . وَكَذَا فَعَلَ الْيُونَانِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَصَارَتْ
قُبُورُهُمْ مَظَنَّةً لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَمِيدِ . وَيَعْتَرِ عَلَى الدِّفْنِ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ الْأَوْقَاتِ . أَمَّا
مَا يَذْفَنُونَهُ مِنَ أَمْوَالِهِمْ أَوْ مَا يَكْرُمُونَ بِهِ مَوْتَاهُمْ فِي الدِّفْنِ مِنْ أَوْعِيَةٍ وَتَوَاطَيْتِ مِنْ

(١) وفي النسخة الباريسية : أعواضه .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، منذ ألفين اثنين وفي نسخة أخرى منذ ألف .

الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مَعْدَةٌ لِذَلِكَ فَصَارَتْ قُبُورُ الْقَبْطِ مِنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ مَطْنَةً لَوْجُودِ ذَلِكَ فِيهَا . فَلِذَلِكَ غَنِيَ أَهْلُ مِصْرَ بِالْبَحْثِ عَنِ الْمَطَالِبِ لَوْجُودِ ذَلِكَ فِيهَا وَاسْتِخْرَاجِهَا . حَتَّى إِنَّهُمْ حِينَ ضُرِبَتْ الْمَكُوسُ عَلَى الْأَصْنَافِ آخِرِ الدَّوْلَةِ ضُرِبَتْ عَلَى أَهْلِ الْمَطَالِبِ . وَصَدَرَتْ ضَرْبِيَّةٌ عَلَى مَنْ يَشْتَغِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْحَقْمَى وَالْمُهَوسِينَ فَوَجَدَ بِذَلِكَ الْمُتَعَاطُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَطْمَاعِ الذَّرِيعَةَ إِلَى الْكَشْفِ عَنْهُ وَالذَّرْعَ^(١) بِاسْتِخْرَاجِهِ وَمَا حَصَلُوا إِلَّا عَلَى الْخِيَةِ فِي جَمِيعِ مَسَاعِيهِمْ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُسْرَانِ فَيَحْتَاجُ مَنْ وَقَعَ لَهُ شَيْءٌ^(٢) مِنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ وَابْتَلَى بِهِ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ فِي طَلَبِ مَعَاشِهِ كَمَا تَعَوَّذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ وَيَنْصَرِفَ عَنْ طُرُقِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَاسِهِ وَلَا يَشْغُلَ بِالْمَحَالَاتِ وَالْمَكَاذِبِ مِنَ الْحِكَايَاتِ « وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

الفصل الخامس

في أن الجاه مفيد للمال

وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ صَاحِبَ الْمَالِ وَالْحُطُوءِ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَعَاشِ أَكْثَرَ يَسَاراً وَثَرَوَةً مِنْ فَاقِدِ الْجَاهِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْجَاهِ مَخْدُومٌ بِالْأَعْمَالِ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ فِي سَبِيلِ التَّزَلُّفِ وَالْحَاجَةِ إِلَى جَاهِهِ فَالنَّاسُ مُعِينُونَ لَهُ بِأَعْمَالِهِمْ فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهِ مِنْ ضَرُورِيٍّ أَوْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَالِيٍّ فَتَحْصُلُ قِيمُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا مِنْ كَسْبِهِ وَجَمِيعِ مَعَاشَاتِهِ أَنْ تُبَدَلَ فِيهِ الْأَعْوَاضُ مِنَ الْعَمَلِ يَسْتَعْمِلُ فِيهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ عَوَضٍ فَتَتَوَفَّرُ قِيمُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ عَلَيْهِ . فَهُوَ بَيْنَ قِيمِ الْأَعْمَالِ يَكْتَسِبُهَا وَقِيمِ أُخْرَى تَدْعُوهُ الضَّرُورَةُ إِلَى إِخْرَاجِهَا فَتَتَوَفَّرُ عَلَيْهِ . وَالْأَعْمَالُ لِصَاحِبِ الْجَاهِ كَثِيرَةٌ فَتَفِيدُ الْغِنَى لِأَقْرَبِ وَقْتٍ وَتَزِيدُ مَعَ الْأَيَّامِ يَسَاراً وَثَرَوَةً . وَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَتْ الْإِمَارَةُ أَحَدَ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ كَمَا قَدْ مَنَّا وَفَاقَدُ الْجَاهِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَوْ كَانَ صَاحِبَ مَالٍ فَلَا

(١) وفي النسخة الباريسية : والزعيم .

(٢) وفي النسخة الباريسية : من دفع إلى شيء .

يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَالِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ سَعْيِهِ وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَكْثَرُ التُّجَّارِ . وَلِهَذَا تَجِدُ أَهْلَ الْجَاهِ مِنْهُمْ يَكُونُونَ أَيْسَرَ بِكَثِيرٍ . وَمِمَّا يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ إِذَا اشْتَهَرُوا حَسَنَ الظَّنِّ بِهِمْ وَاعْتَقَدَ الْجَمْهُورُ مُعَامَلَةَ اللَّهِ فِي إِزْفَادِهِمْ فَأَخْلَصَ النَّاسُ فِي إِعَانَتِهِمْ عَلَى أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَالِاعْتِمَالِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِمُ الثَّرْوَةُ وَأَصْبَحُوا مَيَاسِيرَ مِنْ غَيْرِ مَالٍ مُقْتَنَى إِلَّا مَا يَخْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِيمِ الْأَعْمَالِ الَّتِي وَقَعَتِ الْمَعُونَةُ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَهُمْ . رَأَيْنَا مِنْ ذَلِكَ أَعْدَادًا فِي الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ . وَفِي الْبَنَدِ يَسْعَى لَهُمُ النَّاسُ فِي الْفَلَحِ وَالتَّجَرِّ وَكُلُّهُ هُوَ قَاعِدٌ يَمْنَزِلُهُ لَا يَبْرَحُ مِنْ مَكَانِهِ فَيَنْمُو مَالُهُ وَيَعْظُمُ كَسْبُهُ وَيَتَأَثَّلُ الْغِنَى مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ . وَيَغْجَبُ مَنْ لَا يَفْطِنُ لِهَذَا السَّرِّ فِي حَالِ ثَرْوَتِهِ وَأَسْبَابِ غِنَاهُ وَيَسَارِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

الفصل السادس

في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق

وان هذا الخلق من أسباب السعادة

قَدْ سَلَفَ لَنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْكَسْبَ الَّذِي يَسْتَفِيدُهُ الْبَشَرُ إِنَّمَا هُوَ قِيمُ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ قَدَّرَ أَحَدٌ عَطْلَ^(١) عَنِ الْعَمَلِ جُمْلَةً لَكَانَ فَاقِدَ الْكَسْبِ بِالْكُلِّيَّةِ . وَعَلَى قَدَرِ عَمَلِهِ وَشَرْفِهِ بَيْنَ الْأَعْمَالِ وَحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ يَكُونُ قَدَرُ قِيَمَتِهِ . وَعَلَى نِسْبَةِ ذَلِكَ نُمُو كَسْبِهِ أَوْ نَقْصَانُهُ . وَقَدْ بَيَّنَّا آنِفًا أَنَّ الْجَاهَ يُفِيدُ الْمَالَ لِمَا يَخْصُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ تَقَرُّبِ النَّاسِ إِلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَفْعِ الْمَضَارِّ وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ . وَكَانَ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ أَوْ مَالٍ عَوَضًا عَمَّا يَخْصُلُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ الْجَاهِ مِنَ الْأَغْرَاضِ^(٢) فِي صَلَاحِ أَوْ طَالِحِ . وَتَصِيرُ تِلْكَ الْأَعْمَالُ فِي كَسْبِهِ وَقِيَمَتِهَا أَمْوَالٌ وَثَرْوَةٌ لَهُ فَيَسْتَفِيدُ الْغِنَى وَالْيَسَارَ لِأَقْرَبِ وَقْتٍ . ثُمَّ إِنَّ الْجَاهَ مُتَوَزِّعٌ فِي النَّاسِ وَمُتَرَتَّبٌ فِيهِمْ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ

(١) وفي النسخة الباريسية : عاقل .

(٢) وفي النسخة الباريسية : من كثير الاعراض .

يَنْتَهِي فِي الْعُلُوِّ إِلَى الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَيْسَ فَوْقَهُمْ يَدٌ عَالِيَةٌ^(١) وَفِي السُّفْلِ إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا بَيْنَ أُنْبَاءِ جَنْسِهِ وَبَيْنَ ذَلِكَ طَبَقَاتٌ مُتَعَدَّةٌ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ يَمَا يَنْتَظِمُ مَعَاشُهُمْ وَتَتَيَسَّرُ مَصَالِحُهُمْ وَيَتِمُّ بَقَاؤُهُمْ لِأَنَّ النُّوعَ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَتِمُّ وَجُودُهُ وَبَقَاؤُهُ إِلَّا بِالتَّعَاوُنِ بَيْنَ أُنْبَائِهِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَا يَتِمُّ وَجُودُهُ وَإِنَّ نَدَرَ ذَلِكَ فِي صُورَةٍ مَفْرُوضَةٍ لَا يَصُحُّ بَقَاؤُهُ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا التَّعَاوُنَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ لِجَهْلِهِمْ فِي الْأَكْثَرِ بِمَصَالِحِ النُّوعِ وَلَمَّا جُعِلَ لَهُمْ مِنَ الْإِخْتِيَارِ وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ إِنَّمَا تَصُدَّرُ بِالْفِكْرِ وَالرُّؤْيَةِ لَا بِالطَّنْعِ . وَقَدْ يُمْتَنِعُ مِنَ الْمَعَاوَنَةِ فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَيْهَا فَلَا بُدَّ مِنْ حَامِلٍ يُكْرَهُ أُنْبَاءُ النُّوعِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ لِتَتِمَّ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي بَقَاءِ هَذَا النُّوعِ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى « وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْجَاهَ هُوَ الْقُدْرَةُ الْحَامِلَةُ لِلْبَشَرِ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أُنْبَاءِ جَنْسِهِمْ بِالْإِذْنِ وَالْمَنْعِ وَالتَّسْلُطِ بِالْقَهْرِ وَالْعَلْيَةِ لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى دَفْعِ مَضَارِهِمْ وَجَلْبِ مَنَافِعِهِمْ فِي الْعَدْلِ بِأَحْكَامِ الشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَعَلَى أَغْرَاضِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ مَقْصُودٌ فِي الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بِالذَّاتِ وَالثَّانِي دَاخِلٌ فِيهَا بِالْعَرَضِ كَسَائِرِ الشُّرُورِ الدَّاخِلَةِ فِي الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ ، لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَتِمُّ وَجُودُ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ إِلَّا بِوُجُودِ شَرٍّ يَسِيرُ مِنْ أَجْلِ الْمَوَادِّ فَلَا يَفُوتُ الْخَيْرُ بِذَلِكَ بَلْ يَقَعُ عَلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ الْيَسِيرِ . وَهَذَا مَعْنَى وَقْعِ الظُّلْمِ فِي الْخَلِيقَةِ فَتَفْهَمُ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَاقٍ^(٢) أَهْلِ الْعُمْرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى مَنْ دُونَهَا مِنَ الطَّبَاقِ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى يَسْتَمِدُّ بِذِي الْجَاهِ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي فَوْقَهُ وَيَزْدَادُ كَسْبُهُ تَصَرُّفًا فِيمَنْ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدَرٍ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَالْجَاهُ عَلَى ذَلِكَ دَاخِلٌ عَلَى النَّاسِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ وَيَتَسَّعُ وَيَضِيقُ بِحَسَبِ الطَّبَقَةِ وَالطُّورِ

(١) وفي النسخة الباريسية : غالبة .

(٢) ورد في لسان العرب : « السماوات طباق بعضها على بعض . وكل واحد من الطباق طبقة . والطبق

والطبقة : الفقرة حيث كانت . قيل : هي ما بين الفقرتين وجمعها طباق .

الَّذِي فِيهِ صَاحِبُهُ . فَإِنْ كَانَ الْجَاهُ مُتَّسِعاً كَانَ الْكَسْبُ النَّاشِئُ عَنْهُ كَذَلِكَ وَإِنْ
كَانَ ضَيِّقاً قَلِيلاً فَمِثْلُهُ . وَفَاقِدُ الْجَاهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمَقْدَارِ
عَمَلِهِ أَوْ مَالِهِ وَنَسْبَةِ سَعْيِهِ ذَاهِباً وَآيِباً فِي تَنَمِّيَّتِهِ كَأَكْثَرِ التُّجَّارِ وَأَهْلِ الْفِلَاحَةِ فِي
الْغَالِبِ وَأَهْلِ الصَّنَائِعِ كَذَلِكَ إِذَا فَقَدُوا الْجَاهَ وَاقْتَصَرُوا عَلَى فَوَائِدِ صَنَائِعِهِمْ فَإِنَّهُمْ
يَصِيرُونَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ فِي الْأَكْثَرِ وَلَا تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ ثَرْوَةٌ وَإِنَّمَا يُرْمَقُونَ الْغَيْشَ
تَرَمِيقاً وَيُدَافِعُونَ^(١) ضَرُورَةَ الْفَقْرِ مَدَافَعَةً . وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ وَأَنَّ الْجَاهَ مُتَفَرِّغٌ^(٢) وَأَنَّ
السَّعَادَةَ وَالْخَيْرَ مُقْتَرِنَانِ بِحُصُولِهِ عَلِمْتَ أَنَّ بَذْلَهُ وَإِفَادَتَهُ مِنْ أَكْثَرِ النِّعَمِ وَأَجْلَهَا
وَأَنَّ بَذْلَهُ مِنْ أَجْلِ الْمُنْعِمِينَ وَإِنَّمَا يَبْذُلُهُ لِمَنْ تَحْتَ يَدَيْهِ فَيَكُونُ بَذْلُهُ بَيِّدَ غَالِيَةٍ
وَعِزَّةٍ فَيَحْتَاجُ طَالِبُهُ وَمُبْتَغِيهِ إِلَى خُضُوعٍ وَتَمَلُّقٍ كَمَا يَسْأَلُ أَهْلُ الْعِزِّ وَالْمُلُوكُ وَالْأَ
فِيَتَعَذَّرُ حُصُولُهُ . فَلِذَلِكَ قُلْنَا إِنَّ الْخُضُوعَ وَالتَّمَلُّقَ مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ هَذَا الْجَاهِ
الْمُحْصِلِ لِلْسَّعَادَةِ وَالْكَسْبِ وَإِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالسَّعَادَةِ بِهَذَا التَّمَلُّقِ وَلِهَذَا نَجِدُ
الْكَثِيرَ مِمَّنْ يَتَخَلَّقُ بِالتَّرْفُعِ وَالشَّمَمِ لَا يَخْصُلُ لَهُمْ غَرَضُ الْجَاهِ فَيَقْتَصِرُونَ فِي
التَّكْسِبِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكِبَرَ وَالتَّرْفُعَ
مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ إِنَّمَا يَخْصُلُ مِنْ تَوْهَمِ الْكَمَالِ وَأَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى
بِضَاعَتِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ كَالْعَالِمِ الْمُتَبَحِّرِ فِي عِلْمِهِ وَالْكَاتِبِ الْمُجِيدِ فِي كِتَابَتِهِ أَوْ
الشَّاعِرِ الْبَلِيعِ فِي شِعْرِهِ وَكُلِّ مُحْسِنٍ فِي صِنَاعَتِهِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ لِمَا بِيَدِهِ
فَيَتَخَذُ لَهُ تَرْفُعَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَكَذَا يَتَوَهَّمُ أَهْلُ الْأَنْسَابِ مِمَّنْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ أَوْ
عَالِمٌ مَشْهُورٌ أَوْ كَامِلٌ فِي طَوَرٍ يَعْبُرُونَ^(٣) بِهِ بِمَا رَأَوْهُ أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ رِجَالِ آبَائِهِمْ فِي
الْمَدِينَةِ وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا مِثْلَ ذَلِكَ بِقَرَاتِهِمْ إِلَيْهِمْ وَوَرَائَتِهِمْ عَنْهُمْ . فَهُمْ
مَتَمَسِّكُونَ فِي الْحَاضِرِ بِالْأَمْرِ الْمَغْدُومِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْحِيلَةِ وَالْبَصَرِ وَالتُّجَّارِ
بِالْأُمُورِ^(٤) قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ كَمَالاً فِي نَفْسِهِ بِذَلِكَ وَاحْتِيَاجاً إِلَيْهِ . وَتَجِدُ هَؤُلَاءِ

(١) وفي نسخة أخرى ، يَدْفَعُونَ . (٢) وفي النسخة الباريية ، متوزع .

(٣) وفي النسخة الباريية ، يَفْتَرُونَ . وفي نسخة أخرى يَشْرُونَ

(٤) وفي النسخة الباريية ، أهل الحنكة والتجارب والبصر بالأمور .

الأصناف كُلُّهُمْ مُتَرَفِّعِينَ لَا يَخْضَعُونَ لِصَاحِبِ الْجَاهِ وَلَا يَتَمَلَّقُونَ لِمَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُمْ وَيَسْتَضِعُّونَ مَنْ سِوَاهُمْ لِاعْتِقَادِهِمُ الْفَضْلَ عَلَى النَّاسِ فَيَسْتَنْكِفُ أَحَدُهُمْ عَنِ الْخُضُوعِ وَلَوْ كَانَ لِلْمَلِكِ وَيَعُدُّهُ مَذَلَّةً وَهَوَانًا وَسَفَهًا . وَيَحَاسِبُ النَّاسَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ بِمِقْدَارِ مَا يَتَوَهَّمُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْقِدُ عَلَى مَنْ قَصَرَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَوَهَّمُهُ مِنْ ذَلِكَ . وَرُبَّمَا يَدْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ الْهُمُومُ وَالْأَحْزَانُ مِنْ تَقْصِيرِهِمْ فِيهِ وَيَسْتَمِرُّ فِي عَنَاءٍ عَظِيمٍ مِنْ إِيْجَابِ الْحَقِّ لِنَفْسِهِ أَوْ إِبَائِيَةِ النَّاسِ لَهُ مِنْ ذَلِكَ . وَيَخْصُلُ لَهُ الْمَقْتُ مِنَ النَّاسِ لِمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ التَّأَلُّهِ . وَقُلُّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَحَدٍ فِي الْكَمَالِ وَالتَّرَفُّعِ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِنَوْعٍ مِنَ الْقَهْرِ وَالْعُلْبَةِ وَالِاسْتِطَالَةِ . وَهَذَا كُلُّهُ فِي ضَمَنِ الْجَاهِ . فَإِذَا فَقَدَ صَاحِبُ هَذَا الْخُلُقِ الْجَاهَ وَهُوَ مَقْفُودٌ لَهُ كَمَا تَبَيَّنَ لَكَ مَقْتَهُ النَّاسُ بِهَذَا التَّرَفُّعِ وَلَمْ يَخْصُلْ لَهُ حَظٌّ مِنْ إِحْسَانِهِمْ وَفَقِدَ الْجَاهَ لِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى مِنْهُ لِأَجْلِ الْمَقْتِ وَمَا يَخْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ مِنَ الْقُعُودِ عَنْ تَعَاهِدِهِمْ وَعَشْيَانِ^(١) مَنَازِلِهِمْ فَفَسَدَ مَعَاشُهُ وَبَقِيَ فِي خِصَاصَةٍ وَقَفَرُ أَوْ فُوقَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ . وَأَمَّا الثَّرْوَةُ فَلَا تَخْصُلُ لَهُ أَضَلًا . وَمِنْ هَذَا اشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْكَامِلَ فِي الْمَعْرِفَةِ مَخْرُومٌ مِنَ الْحَظِّ وَأَنَّهُ قَدْ حُوسِبَ بِمَا رَزَقَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَاقْتِطِعَ لَهُ ذَلِكَ مِنَ الْحَظِّ وَهَذَا مَعْنَاهُ . وَمَنْ خُلِقَ لِشَيْءٍ يُسَرُّ لَهُ . وَاللَّهُ الْمُقَدِّرُ لَا رَبَّ سِوَاهُ . وَلَقَدْ يَقَعُ فِي الدُّوَلِ أَضْرَابٌ فِي الْمَرَاتِبِ مِنْ أَهْلِ^(٢) الْخُلُقِ وَيَرْتَفِعُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ السُّفَلَةِ وَيَنْزِلُ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلْيَةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَذَلِكَ أَنَّ الدُّوَلِ إِذَا بَلَغَتْ نَهَائَتَهَا^(٣) مِنَ التَّغْلِبِ وَالِاسْتِيْلَاءِ انْفَرَدَ مِنْهَا مَنْبَتُ الْمُلْكِ بِمُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَيُسَّسُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا صَارُوا فِي مَرَاتِبِ دُونَ مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَتَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ وَكَأَنَّهُمْ خَوْلٌ لَهُ . فَإِذَا اسْتَمَرَّتِ الدُّوَلَةُ وَشَمَخَ الْمَلِكُ تَسَاوَى حِينِيذٍ فِي الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ السُّلْطَانِ كُلُّ مَنْ انْتَمَى إِلَى خِدْمَتِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِنَصِيحَةٍ وَاضْطَنْعَ السُّلْطَانُ لِغَنَائِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مِهْمَاتِهِ .

(١) غشى المكان ، أَنَاهُ .

(٢) وفي النسخة الباريسية : مَنْ أَجَلَ .

(٣) وفي النسخة الباريسية : غَايَتَهَا .

فَتَجِدُ كَثِيرًا مِنَ السُّوْقَةِ يَسْعَى فِي التَّقَرُّبِ مِنَ السُّلْطَانِ بِحَدِّهِ وَنُضْجِهِ وَيَتَزَلَّفُ إِلَيْهِ
بُوجُوهَ خِدْمَتِهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِعَظِيمٍ مِنَ الْخُضُوعِ وَالتَّمَلُّقِ لَهُ وَلِحَاشِيَّتِهِ وَأَهْلِ
نَسَبِهِ ، حَتَّى يَرْسُخَ قَدَمَهُ مَعَهُمْ وَيُنْظِمَهُ السُّلْطَانُ فِي جُمْلَتِهِ فَيَحْصُلَ لَهُ بِذَلِكَ حَظٌّ
عَظِيمٌ مِنَ السَّعَادَةِ وَيَنْتَظِمُ فِي عَدَدِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَنَاشِئَةِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنْ أُنْبَاءِ قَوْمِهَا
الَّذِينَ ذَلَّلُوا أَضْفَانَهُمْ^(١) وَمَهَّدُوا أَكْنَافَهُمْ مُفْتَرِينَ بِمَا كَانَ لَا بَائِسِهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ
لَمْ تَسْمَحْ^(٢) بِهِ نَفْسُهُمْ عَلَى السُّلْطَانِ وَيَعْتَدُونَ بِآثَارِهِ وَيَجْرُونَ فِي مِضْمَارِ الدَّوْلَةِ
بَسْبِيهِ فَيَمُقَّتُهُمُ السُّلْطَانُ لِذَلِكَ وَيَبَاعِدُهُمْ . وَيَمِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُضْطَنِّعِينَ الَّذِينَ
لَا يَعْتَدُونَ بِقَدِيرِهِمْ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى دَالَّةٍ وَلَا تَرْفَعُ . إِنَّمَا دَأْبُهُمُ الْخُضُوعُ لَهُ وَالتَّمَلُّقُ
وَالِإِعْتِمَالُ فِي غَرَضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ فَيَتَسَّعَ جَاهُهُمْ وَتَعْلُو مَنَارِلُهُمْ وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمُ
الْوُجُوهُ وَالْخَوَاطِرُ^(٣) بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ^(٤) السُّلْطَانِ وَالْمَكَانَةِ عِنْدَهُ وَيَبْقَى
نَاشِئَةُ الدَّوْلَةِ^(٥) فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّرَفُّعِ وَالِإِعْتِدَادِ بِالْقَدِيرِ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بُعْدًا
مِنَ السُّلْطَانِ وَمَقْتًا وَإِثَارًا لَهُؤُلَاءِ الْمُضْطَنِّعِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الدَّوْلَةُ . وَهَذَا
أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الدَّوْلَةِ وَمِنْهُ جَاءَ شَأْنُ الْمُضْطَنِّعِينَ فِي الْغَالِبِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
أَعْلَمُ بِهِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل السابع

في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة
والخطابة والاذان

ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

وَالسَّبَبُ لِذَلِكَ أَنَّ الْكَسْبَ كَمَا قَدْ مَنَاهُ قِيَمَةُ الْأَعْمَالِ وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ
إِلَيْهَا . فَإِذَا كَانَتْ الْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعُمْرَانِ عَامَّةً الْبُلُوْى بِهِ كَانَتْ قِيَمَتُهَا أَعْظَمَ

(١) وفي نسخة أخرى : صعا بها .

(٢) وفي نسخة أخرى : الخواص .

(٣) وفي نسخة أخرى : من ميل .

(٤) وفي نسخة أخرى : ناشئة السلطان .

وَكَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ . وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَائِعِ الدِّينِيَّةِ لَا تَضْطَرُّ إِلَيْهِمْ عَامَّةُ الْخَلْقِ
وَلِنَّمَا يَخْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ الْخَوَاصُّ مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَى دِينِهِ . وَإِنْ اخْتِيجَ إِلَى الْفُتْيَا
وَالْقَضَاءِ فِي الْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْاضْطِرَارِ وَالْعُمُومِ فَيَقَعُ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْ هَؤُلَاءِ
فِي الْأَكْثَرِ . وَلِنَّمَا يَهْتَمُّ بِإِقَامَةِ مَرَاسِمِهِمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِمَا نَالَهُ ^(١) مِنَ النَّظَرِ فِي
الْمَصَالِحِ فَيَقْسِمُ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي
قَرَّرْنَاهُ . لَا يُسَاوِيهِمْ بِأَهْلِ الشُّوْكَةِ وَلَا بِأَهْلِ الصَّنَائِعِ مِنْ حَيْثُ الدِّينُ وَالْمَرَامُ
الشَّرْعِيَّةُ لَكِنَّهُ يَقْسِمُ بِحَسَبِ عُمُومِ الْحَاجَةِ وَضُرُورَةِ أَهْلِ الْعُمَرَانِ فَلَا يَصُحُّ فِي
قِسْمِهِمْ ^(٢) إِلَّا الْقَلِيلُ . وَهُمْ أَيْضًا لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ أَعَزَّةٌ عَلَى الْخَلْقِ وَعِنْدَ نَفْسِهِمْ فَلَا
يَخْضَعُونَ لِأَهْلِ الْجَاهِ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حَظًّا يَسْتَدْرُونَ بِهِ الرِّزْقَ بَلْ وَلَا تَفْرُغُ
أَوْقَاتُهُمْ لِذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّغْلِ بِهَذِهِ الْبَضَائِعِ ^(٣) الشَّرِيفَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى إِعْمَالِ
الْفِكْرِ وَالْبَدَنِ ^(٤) . بَلْ وَلَا يَسْعَهُمْ اتِّدَالُ أَنْفُسِهِمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ فَهُمْ
بِمَعْرِزٍ عَنْ ذَلِكَ ، فَلِذَلِكَ لَا تَعْظُمُ ثُرُوتُهُمْ فِي الْغَالِبِ . وَلَقَدْ بَاخَتْهُ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ
فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَوَقَعَ بِيَدِي أَوْزَاقٌ مُخْرَقَةٌ مِنْ حِسَابَاتِ ^(٥) الدَّوَالِينِ يَذَارِ الْمَأْمُونِ
تَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الدُّخْلِ وَالْخَرْجِ وَكَانَ فِيهَا طَالَعَتْ فِيهِ أَرْزَاقُ الْقَضَاةِ وَالْأَيْمَةِ
وَالْمُؤَدِّينِ فَوَقَفْتُهُ عَلَيْهِ وَعَلِمَ مِنْهُ صِحَّةُ مَا قُلْتُهُ وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَضَيْنَا الْعَجَبَ مِنْ أَسْرَارِ
اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَحُكْمَتِهِ فِي عَوَالِمِهِ وَاللَّهُ الْخَالِقُ الْقَادِرُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل الثامن

في أن الفلاحة من معاش المتضعين وأهل العافية من البدو
وذلك لأنه أصيل ^(٦) في الطبيعة وبسيط في منخاه ولذلك لا تجده ينتحلُه أحد

(١) وفي نسخة أخرى : بما له .

(٢) وفي نسخة أخرى : قسمتهم .

(٣) وفي نسخة أخرى : الصنائع .

(٤) وفي نسخة أخرى : التدبير .

(٥) وفي النسخة الباريسية : خبائبات . (٦) وفي النسخة الباريسية : أصل .

مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ فِي الْغَالِبِ وَلَا مِنْ الْمُتَرَفِينَ . وَيَخْتَصُّ مُنْتَحِلُهُ بِالْمَذَلَّةِ
 قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَقَدْ رَأَى السُّكَّةَ يَبْغُضُ دُورَ الْأَنْصَارِ ، « مَا دَخَلْتُ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا
 دَخَلَهُ الدُّلُ » وَحَمَلَهُ الْبُخَارِيُّ عَلَى الْإِسْتِكْثَارِ مِنْهُ . وَتَرَجَّمَ عَلَيْهِ بَابُ مَا يُحْذَرُ مِنْ
 عَوَاقِبِ الْإِسْتِغْثَالِ بِآلَةِ الزَّرْعِ أَوْ تَجَاوُزِ الْحَدِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ . وَالسَّبَبُ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 مَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الْمَغْرَمِ الْمُفْضِي إِلَى التَّحْكُمِ وَالْيَدِ الْعَالِيَةِ ^(١) فَيَكُونُ الْغَارِمُ ذَلِيلًا بَائِسًا
 بِمَا تَتَنَاوَلُهُ أَيْدِي الْقَهْرِ وَالْإِسْطِطَالَةِ . قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ
 الرِّكَاءَةُ مَغْرَمًا » إِشَارَةً إِلَى الْمَلِكِ الْعُضُوضِ الْقَاهِرِ لِلنَّاسِ الَّذِي مَعَهُ التَّسَلُّطُ وَالْجُورُ
 وَنِسْيَانُ حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَتَمَوَّلَاتِ وَاعْتِبَارُ الْحُقُوقِ كُلِّهَا مَغْرَمٌ لِلْمَلُوكِ
 وَالْدُّوَلِ . وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ .

· الفصل التاسع ·

في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها

إِعْلَمُ أَنَّ التَّجَارَةَ مُحَاوَلَةُ الْكَسْبِ بِتَنْمِيَةِ الْمَالِ بِشِرَاءِ السَّلْعِ بِالرُّخْصِ وَبِنَيْعِهَا
 بِالْغَلَاءِ أَيَّامَ كَانَتْ السَّلْعَةُ مِنْ دَقِيقٍ أَوْ زَرْعٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ قَمَاشٍ . وَذَلِكَ الْقَدْرُ
 النَّبَاطِيُّ يُسَمَّى رِبْحًا . فَالْمُحَاوِلُ لِذَلِكَ الرَّبْحِ إِمَّا أَنْ يَخْتَزِنَ السَّلْعَةَ وَيَتَخَيَّنَ بِهَا
 حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ مِنَ الرُّخْصِ إِلَى الْغَلَاءِ فَيُعْظِمُ رِبْحَهُ وَإِمَّا بِأَنْ يَنْقُلَهُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ
 تَنَفَّقُ فِيهِ تِلْكَ السَّلْعَةُ أَكْثَرَ مِنْ بَلَدِهِ الَّذِي اشْتَرَاهَا فِيهِ فَيُعْظِمُ رِبْحَهُ . وَلِذَلِكَ قَالَ
 بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ التُّجَّارِ لَطَلَبُ الْكُشْفِ عَنْ حَقِيقَةِ التَّجَارَةِ أَنَا أَعْلَمُهَا لَكَ فِي
 كَلِمَتَيْنِ : اشْتِرَاءُ الرُّخِصِ وَبَيْعُ الْغَالِي . فَقَدْ حَصَلَتِ التَّجَارَةُ إِشَارَةً مِنْهُ بِذَلِكَ إِلَى
 الْمَعْنَى الَّتِي قَرَّرْنَاهُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

(١) وفي النسخة الباريسية : الغالية .

الفصل العاشر

في أي أصناف الناس يحترف بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب
حرفها

قَدْ قَدَّمْنَا^(١) أَنَّ مَعْنَى التَّجَارَةِ تَنْمِيَةُ الْمَالِ بِشِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَمُحَاوَلَةِ بَيْعِهَا بِأَعْلَى مِنْ ثَمَنِ الشِّرَاءِ إِمَّا بِإِنْتِظَارِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ أَوْ نَقْلِهَا إِلَى بَلَدٍ هِيَ فِيهِ أَنْفَقَ وَأَعْلَى أَوْ بَيْعِهَا بِالْغَلَاءِ عَلَى الْأَجَالِ . وَهَذَا الرِّبْحُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَصْلِ الْمَالِ يَسِيرُ إِلَّا أَنَّ الْمَالَ إِذَا كَانَ كَثِيراً عَظُمَ الرِّبْحُ لِأَنَّ الْقَلِيلَ فِي الْكَثِيرِ كَثِيرٌ . ثُمَّ لَا بُدَّ فِي مُحَاوَلَةِ هَذِهِ التَّنْمِيَةِ الَّذِي هُوَ الرِّبْحُ مِنْ حُصُولِ هَذَا الْمَالِ بِأَيْدِي الْبَاعَةِ فِي شِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَبَيْعِهَا ، وَمُعَامَلَتِهِمْ فِي تَقَاضِي أَثْمَانِهَا . وَأَهْلُ النِّصْفَةِ قَلِيلٌ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْغِشِّ وَالتَّطْفِيفِ الْمُجْحِفِ بِالْبَضَائِعِ وَمِنَ الْمَطْلِ فِي الْأَثْمَانِ الْمُجْحِفِ بِالرِّبْحِ . كَتَعْطِيلِ الْمُحَاوَلَةِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ وَبِهَا نَمَاؤُهُ . وَمِنَ الْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ الْمُسْحِطِ لِرَأْسِ الْمَالِ إِنْ لَمْ يَتَّقَيْدُ بِالْكِتَابِ وَالشَّهَادَةِ ، وَغَنَى الْحُكَّامِ فِي ذَلِكَ قَلِيلٌ لِأَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الظَّاهِرِ ، فَيُعَانِي التَّاجِرُ مِنْ ذَلِكَ أَخَوَالاً صَغْبَةً . وَلَا يَكَادُ يَحْصُلُ عَلَى ذَلِكَ التَّافِهِ مِنَ الرِّبْحِ إِلَّا بِعَظَمِ الْعَنَاءِ وَالْمَشَقَّةِ ، أَوْ لَا يَحْصُلُ أَوْ يَتَلَاشَى رَأْسَ مَالِهِ . فَإِنْ كَانَ جَرِيئاً عَلَى الْخُصُومَةِ بَصِيراً بِالْحِسْبَانِ شَدِيدِ الْمُمَاحَكَةِ مِقْدَاماً عَلَى الْحُكَّامِ كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ لَهُ إِلَى النِّصْفَةِ بِجَرَاءَتِهِ مِنْهُمْ وَمُمَاحَكَتِهِ وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ جَاهٍ يَدْرُعُ بِهِ ، يُوقِعُ لَهُ الْهَيْبَةَ عِنْدَ الْبَاعَةِ وَيُخِمِّلُ الْحُكَّامَ عَلَى إِنْصَافِهِ مِنْ مُعَامِلَتِهِ^(٢) فَيَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ النِّصْفَةُ فِي مَالِهِ طَوْعاً^(٣) فِي الْأَوَّلِ وَكَرْهاً فِي الثَّانِي وَأَمَّا مَنْ كَانَ فَاقِداً لِلْجَرَاءَةِ وَالْإِقْدَامِ مِنْ نَفْسِهِ فَاقْدَ الْجَاهِ مِنَ الْحُكَّامِ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْتَنِبَ الْإِخْتِرَافَ بِالتَّجَارَةِ لِأَنَّهُ يُعَرِّضُ مَالَهُ لِلضَّيَاعِ وَالذَّهَابِ وَيَصِيرُ مَأْكَلَةً لِلْبَاعَةِ وَلَا يَكَادُ يَنْتَصِفُ مِنْهُمْ (لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي النَّاسِ

(١) وفي نسخة أخرى ، قد تقدم لنا .

(٢) وفي نسخة أخرى ، غرماثه .

(٣) وفي نسخة أخرى ، واستخلاص ماله منهم طَوْعاً .

وَحُصُوصاً الرُّعَاةَ وَالْبَاعَةَ شَرَهُونَ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ سِوَاهُمْ مُتَوَثِّبُونَ عَلَيْهِ .
وَلَوْلَا وَازِعُ الْأَحْكَامِ لَأَضْبَحَتْ أَمْوَالُ النَّاسِ نَهَباً ^(١) « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » .

الفصل الحادي عشر

في أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك

وَذَلِكَ أَنَّ التُّجَّارَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا يُعَانُونَ الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ
الْمُكَايَسَةِ ضَرُورَةً فَإِنْ اقْتَصَرَ عَلَيْهَا اقْتَصَرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا وَهِيَ أَغْنَى خُلُقُ
الْمُكَايَسَةِ بَعِيدَةً عَنِ الْمُرُوءَةِ الَّتِي تَتَخَلَّقُ بِهَا الْمُلُوكُ وَالْأَشْرَافُ . وَأَمَّا إِنْ اسْتَرْذَلَ
خُلُقُهُ بِمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنْهُمْ مِنَ الْمُمَاحَكَةِ وَالْغِشِّ وَالْخِلَائَةِ
وَتَعَاهِدِ الْإِيمَانِ الْكَاذِبَةِ عَلَى الْأَثْمَانِ رِذَاً وَقَبُولاً فَأَجْدِرُ بِذَلِكَ الْخُلُقِ أَنْ يَكُونَ فِي
غَايَةِ الْمَذَلَّةِ لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ الرِّئَاسَةِ يَتَحَامَوْنَ الْإِحْتِرَافَ بِهَذِهِ
الْحِرْزَةِ لِأَجْلِ مَا يُكَسِّبُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ . وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ
وَيَتَحَامَاهُ لِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ جَلَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي النَّادِرِ بَيْنَ الْوُجُودِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَهُوَ رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ .

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

التَّاجِرُ الْبَصِيرُ بِالتَّجَارَةِ لَا يَنْقُلُ مِنَ السِّلْعِ إِلَّا مَا تَعْمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ الْغَنِيِّ
وَالْفَقِيرِ وَالسُّلْطَانِ وَالسُّوقَةِ إِذْ فِي ذَلِكَ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ . وَأَمَّا إِذَا اخْتَصَّ نَقْلَهُ بِمَا يَخْتَاجُ

(١) وفي النسخة الباريسية : « لَأَن النَّاسَ فِي الْغَالِبِ مُتَطَلِعُونَ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ . وَلَوْلَا وَازِعُ أَحْكَامِ
مَا سَلِمَ لِأَحَدٍ شَيْءٌ مِمَّا فِي يَدِهِ . خُصُوصاً الْبَاعَةَ وَسَفَلَةَ النَّاسِ وَرِعَاعَهُمْ » .

إِلَيْهِ الْبَعْضُ فَقَطْ فَقَدْ يَتَعَدَّرُ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ حِينَئِذٍ بِإِعْوَازِ الشَّرَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْبَعْضِ
لِعَارِضٍ مِنَ الْعَوَارِضِ فَتَكْسُدُ سَوْقُهُ وَتَقْسُدُ أَرْبَاحُهُ . وَكَذَلِكَ إِذَا نَقَلَ السِّلْعَةَ
الْمُخْتِاجَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا يَنْقُلُ الْوَسْطُ مِنْ صِنْفِهَا فَإِنَّ الْعَالِيَّ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ السِّلْعِ
إِنَّمَا يُخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ الثَّرْوَةِ وَخَاشِيَةُ الدَّوْلَةِ وَهُمْ الْأَقْلُ . وَإِنَّمَا يَكُونُ النَّاسُ أَشْوَى فِي
الْحَاجَةِ إِلَى الْوَسْطِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ فَلْيَتَحَرَّ ذَلِكَ جُهْدُهُ فِيهِ نَفَاقُ سِلْعَةٍ ^(١) أَوْ كَسَادُهَا
وَكَذَلِكَ نَقَلَ السِّلْعَ مِنَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ الْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ الْخَطَرِ فِي الطَّرِيقَاتِ يَكُونُ
أَكْثَرُ فَائِدَةٍ لِلتُّجَّارِ وَأَعْظَمُ أَرْبَاحاً وَأَكْفَلَ بِخَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ لِأَنَّ السِّلْعَةَ الْمُنْقُولَةَ
حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مَعُوزَةً لِبُعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ الْفَرَرِ فِي طَرِيقِهَا فَيَقِلُّ حَامِلُوهَا
وَيَعِزُّ وجودُهَا وَإِذَا قَلَّتْ وَعَزَّتْ غَلَّتْ أُمَمَانَهَا . وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْبَلَدُ قَرِيبَ الْمَسَافَةِ
وَالطَّرِيقُ سَابِلاً بِالْأَمْنِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا فَتَكْثُرُ وَتَرْخُصُ أُمَمَانَهَا وَلِهَذَا
تَجِدُ التُّجَّارَ الَّذِينَ يُوَلِّعُونَ بِالدُّخُولِ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ أَرْفَهُ النَّاسَ وَأَكْثَرَهُمْ أَمْوَالاً
لِبُعْدِ طَرِيقِهِمْ وَمَشَقَّتِهِ وَاعْتِرَاضِ الْمَفَازَةِ الضَّعِيفَةِ الْمُخْطَرَةِ بِالْخَوْفِ وَالْعَطَشِ .
لَا يُوْجَدُ فِيهَا الْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَاكِنَ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي إِلَيْهَا أَدْلَاءُ الرُّكْبَانِ فَلَا يَزْتَكِبُ
خَطَرَ هَذَا الطَّرِيقِ وَبُعْدُهُ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ النَّاسِ فَتَجِدُ سِلْعَ بِلَادِ السُّودَانِ قَلِيلَةً لَدَيْنَا
فَتَخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ وَكَذَلِكَ سِلْعُنَا لَدَيْهِمْ . فَتَعْظُمُ بَضَائِعُ التُّجَّارِ مِنْ تَنَاقُلِهَا وَيُسْرَعُ
إِلَيْهِمُ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ الْمُسَافِرُونَ مِنْ بِلَادِنَا إِلَى الْمَشْرِقِ لِبُعْدِ
الشُّقَّةِ أَيْضاً . وَأَمَّا الْمُرَدَّدُونَ فِي أَفْقٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ وَبُلْدَانِهِ فَفَائِدَتُهُمْ قَلِيلَةٌ
وَأَرْبَاحُهُمْ تَافِيَةٌ لِكثَرَةِ السِّلْعِ وَكَثَرَةِ نَاقِلِيهَا « وَاللَّهُ هُوَ الرُّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ »

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

وَمِمَّا اشْتَهَرَ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَرِ وَالتَّجَرِبَةِ فِي الْأَمْصَارِ أَنَّ اخْتِكَارَ الزَّرْعِ لَتَحْنِ
أَوْقَاتِ الْغَلَاءِ مَشُومٌ . وَأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى فَائِدَتِهِ بِالتَّلْفِ وَالْخُسْرَانِ . وَسَبَبُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

(١) وفي نسخة أخرى : سلعة .

أَنَّ النَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى الْأَقْوَاتِ مُضْطَرُّونَ إِلَى مَا يَنْذِلُونَ فِيهَا مِنَ الْمَالِ اضْطِرَّاراً
فَتَبْقَى النَّفُوسُ مُتَعَلِّقَةً بِهِ وَفِي تَعَلُّقِ النَّفُوسِ بِمَا لَهَا سِرٌّ^(١) كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى مَنْ
يَأْخُذُهُ مَجَاناً وَلَعَلَّهُ الَّذِي اغْتَبَرَهُ الشَّارِعُ فِي اخْتِذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ
يَكُنْ مَجَاناً فَالنَّفُوسُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِإِعْطَائِهِ ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ سَعَةٍ فِي الْعَذْرِ فَهُوَ
كَالْمُكْرَهِ وَمَا عَدَا الْأَقْوَاتِ وَالْمَأْكُولَاتِ مِنَ الْمَبِيعَاتِ لَا اضْطِرَّارَ لِلنَّاسِ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا
يَنْعَشُهُمْ عَلَيْهَا التَّنَفُّسُ فِي الشَّهَوَاتِ فَلَا يَنْذِلُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِاخْتِيَارٍ وَحَرَصَ . وَلَا
يَبْقَى لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِمَا أُعْطَوْهُ فَلِهَذَا يَكُونُ مَنْ عَرَفَ بِالِاخْتِكَارِ تَجْتَمِعُ الْقَوَى
النَّفْسَانِيَّةُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَفْسُدُ رُبْعُهُ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .
وَسَمِعْتُ فِيمَا يُنَاسِبُ هَذَا حِكَايَةَ ظَرِيفَةٍ عَنْ بَعْضِ مَشَيْخَةِ الْمَغْرِبِ . أَخْبَرَنِي
شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَبْلِيُّ قَالَ : حَضَرْتُ عِنْدَ الْقَاضِي بِقَاسٍ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي
سَعِيدٍ وَهُوَ الْفَقِيهَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَلِيبِيُّ وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضَ الْأَلْقَابِ
الْمَخْزِيَّةِ لِجِرَائِيَّتِهِ قَالَ فَأَطْرَقَ مَلِيّاً ثُمَّ قَالَ : مِنْ مَكْسِرِ الْخَمْرِ . فَاسْتَضْحَكَ
الْحَاضِرُونَ مِنْ أَضْحَايِهِ وَعَجِبُوا وَسَلَّوْهُ عَنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ . فَقَالَ : إِذَا كَانَتْ
الْجَبَايَاتُ كُلُّهَا حَرَاماً فَأَخْتَارَ مِنْهَا مَا لَا تَتَابَعُهُ نَفْسُ مُعْطِيهِ وَالْخَمْرُ قُلْ أَنْ يَنْذَلَ
فِيهَا أَحَدٌ مَالَهُ إِلَّا وَهُوَ طَرِبَ مُشْرُورٌ بِوُجُودَاتِهِ غَيْرُ أَسِفٍ عَلَيْهِ وَلَا مُتَعَلِّقٌ بِهِ نَفْسُهُ
وَهَذِهِ مُلَاحَظَةٌ غَرِيبَةٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا تَكُنُّ الصُّدُورُ .

الفصل الرابع عشر

في أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخص

وَذَلِكَ أَنَّ الْكَسْبَ وَالْمَعَاشَ كَمَا قَدْ مَنَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِالصَّنَائِعِ أَوْ التَّجَارَةِ .
وَالتَّجَارَةُ هِيَ شِرَاءُ الْبَضَائِعِ وَالسَّلْعِ وَادِّخَارُهَا . يُتَحَيَّنُ بِهَا حَوَالَةُ الْأَسْوَاقِ بِالزِّيَادَةِ

(١) وفي النسخة الباريسية : شر .

فِي أَثْمَانِهَا وَيُسَمَّى رِبْحًا . وَيَخْصُلُ مِنْهُ الْكَسْبُ وَالْمَعَاشُ لِلْمُخْتَرِفِينَ بِالتَّجَارَةِ
دَائِمًا فَإِذَا اسْتَدِيمَ الرَّخْصُ فِي سِلْعَةٍ أَوْ عَرَضٍ مِنْ مَأْكُولٍ أَوْ مَلْبُوسٍ أَوْ مَتَمَوْلٍ عَلَى
الْجُمْلَةِ وَلَمْ يَخْصُلْ لِلتَّاجِرِ حَوَالَةُ الْأَسْوَاقِ فَسَدَ الرِّيحُ وَالنَّمَاءُ بِطَوِيلِ تِلْكَ الْمُدَّةِ
وَكَسَدَتْ سَوْقُ ذَلِكَ الصَّنْفِ وَلَمْ يَخْصُلْ التَّاجِرُ إِلَّا عَلَى الْعَنَاءِ فَقَعَدَ التُّجَّارُ عَنِ
السَّعْيِ فِيهَا وَفَسَدَتْ رُؤُوسُ أَمْوَالِهِمْ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ أَوَّلًا بِالزَّرْعِ فَإِنَّهُ إِذَا اسْتَدِيمَ
رُخْصُهُ يَفْسُدُ بِهِ حَالُ الْمُخْتَرِفِينَ ^(١) بِسَائِرِ أَطْوَارِهِ مِنَ الْفَلْحِ وَالزَّرَاعَةِ لِقِلَّةِ الرِّيحِ
فِيهِ وَنَذَارَتِهِ ^(٢) أَوْ فَقْدِهِ . فَيَفْقِدُونَ النَّمَاءَ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ يَجِدُونَهُ عَلَى قِلَّةٍ وَيَعُودُونَ
بِالْإِنْفَاقِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ .
وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ فَسَادُ حَالِ الْمُخْتَرِفِينَ أَيْضًا بِالطَّحْنِ وَالْخَبْرِ وَسَائِرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّرَاعَةِ
مِنَ الْحَرْثِ إِلَى صَيُورَتِهِ مَأْكُولًا . وَكَذَا يَفْسُدُ حَالُ الْجُنْدِ إِذَا كَانَتْ أَرْزَاقُهُمْ مِنَ
السُّلْطَانِ عَلَى ^(٣) أَهْلِ الْفَلْحِ زَرْعًا فَإِنَّهَا تَقِلُّ جَبَايَتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَيَعْجِزُونَ عَنْ إِقَامَةِ
الْجُنْدِيَّةِ الَّتِي (هِيَ بِسَبَبِهَا وَمَطْلَبُهَا) وَمُنْقَطِعُونَ لَهَا ^(٤) فَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ
وَكَذَا إِذَا اسْتَدِيمَ الرَّخْصُ فِي السُّكْرِ أَوْ الْعَسَلِ فَسَدَ جَمِيعُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَقَعَدَ
الْمُخْتَرِفُونَ عَنِ التَّجَارَةِ فِيهِ وَكَذَا حَالُ الْمَلْبُوسَاتِ إِذَا اسْتَدِيمَ فِيهَا الرَّخْصُ أَيْضًا
فَإِذَا الرَّخْصُ الْمُفْرَطُ يُجْحِفُ بِمَعَاشِ الْمُخْتَرِفِينَ بِذَلِكَ الصَّنْفِ الرُّخِيسِ وَكَذَا
الْغَلَاءُ الْمُفْرَطُ أَيْضًا . وَإِنَّمَا مَعَاشُ النَّاسِ وَكَسْبُهُمْ فِي التَّوَسُّطِ مِنْ ذَلِكَ وَسُرْعَةُ حَوَالَةِ
الْأَسْوَاقِ وَعِلْمُ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الْعَوَائِدِ الْمُتَقَرَّرَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ . وَإِنَّمَا يُخَمِّدُ
الرُّخْصُ فِي الزَّرْعِ مِنْ بَيْنِ الْمَبِيعَاتِ لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَاضْطِرَارِ النَّاسِ إِلَى الْأَقْوَاتِ
مِنْ بَيْنِ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ . وَالْعَالَةُ مِنَ الْخَلْقِ هُمْ الْأَكْثَرُ فِي الْعُمَرَانِ فَيَعْمُ الرِّفْقُ بِذَلِكَ
وَيَرْجِعُ جَانِبُ الْقَوِي عَلَى جَانِبِ التَّجَارَةِ فِي هَذَا الصَّنْفِ الْخَاصِّ « وَاللَّهُ الرَّزَّاقُ ذُو
الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

(١) وفي نسخة أخرى ، فإذا استديم رخصه كيف تفسر أحوال المخترفين به .

(٢) وفي نسخة أخرى ، ونزارته . (٣) وفي نسخة أخرى ، عند .

(٤) وفي نسخة أخرى ، هم بسببها ويرتزقون من السلطان عليها ويقطع عنهم الرزق .

الفصل الخامس عشر

في أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ التَّاجِرَ مَذْفُوعٌ إِلَى مُعَانَاةِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَجَلِبِ
الْفَوَائِدِ وَالْأَرْبَاحَ وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَكَايَسَةِ وَالْمَمَاحِكَةِ وَالتَّحَذُّلِ وَمُمَارَسَةِ
الْخُصُومَاتِ وَاللَّجَاجِ وَهِيَ غَوَارِضُ هَذِهِ الْحَرْفَةِ . وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ نَقَصُ ^(١) مِنَ الذِّكَاءِ
وَالْمُرُوءَةِ وَتَجَرُّحُ ^(٢) فِيهَا لِأَنَّ الْأَفْعَالَ لَا بُدَّ مِنْ عَوْدِ آثَارِهَا عَلَى النَّفْسِ . فَأَفْعَالُ
الْخَيْرِ تَعُودُ بِآثَارِ الْخَيْرِ وَالذِّكَاءِ وَأَفْعَالُ الشَّرِّ وَالسُّفْسَفَةِ تَعُودُ بِضَدِّ ذَلِكَ فَتَتِمَّكَنُ
وَتَرَسَّخُ إِنْ سَبَقَتْ وَتَكْرَّرَتْ وَتَنْقُصُ خِلَالَ الْخَيْرِ إِنْ تَأَخَّرَتْ عَنْهَا بِمَا يَنْطَبِعُ مِنْ
آثَارِهَا الْمَذْمُومَةِ فِي النَّفْسِ شَأْنَ الْمَلَكَاتِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْأَفْعَالِ . وَتَتَفَاوَتْ هَذِهِ الْآثَارُ
بِتَفَاوُتِ أَصْنَافِ التُّجَّارِ فِي أَطْوَارِهِمْ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ سَافِلِ الطُّورِ مُخَالِفًا لِأَشْرَارِ
الْبَاغَةِ أَهْلِ الْغِيْشِ وَالْخَلَايَةِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْفُجُورِ فِي الْأَثْمَانِ ^(٣) إِقْرَارًا وَإِنْكَارًا ، كَانَتْ
رَدَاءَةٌ تِلْكَ الْخُلُقِ عَنْهُ أَشَدَّ وَعَلَبَتْ عَلَيْهِ السُّفْسَفَةُ وَبَعُدَ عَنِ الْمُرُوءَةِ وَانْخَسَبَتْ بِهَا
بِالْجُمْلَةِ . وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَأْثِيرِ الْمَكَايَسَةِ وَالْمَمَاحِكَةِ فِي مُرُوءَتِهِ . وَفَقْدَانِ ذَلِكَ
مِنْهُمْ فِي الْجُمْلَةِ . وَوُجُودِ الصَّنِفِ الثَّانِي مِنْهُمْ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّهُمْ
يَتَدَرَّعُونَ بِالْجَاهِ وَيَعْوِضُ لَهُمْ مِنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ ، فَهُمْ ^(٤) نَادِرٌ وَأَقْلُ مِنَ النَّادِرِ .
وَذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ الْمَالُ قَدْ يُوْجَدُ ^(٥) عِنْدَهُ دَفْعَةً بِنَوْعٍ غَرِيبٍ أَوْ وَرَثَةً عَنْ أَحَدٍ مِنْ
أَهْلِ بَيْتِهِ فَحَصَلَتْ لَهُ ثَرَوَةٌ تُعِينُهُ عَلَى الْإِتِّصَالِ بِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَتُكْسِبُهُ ظُهُورًا وَشُهْرَةً
يَبْنِي أَهْلُ عَصْرِهِ فَيَرْتَفِعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَيَدْفَعُهُ إِلَى مَنْ يَقُومُ لَهُ بِهِ مِنْ
وَكَلَائِهِ وَحَشَمِهِ . وَيَسْهَلُ لَهُ الْحُكَامُ النُّصْفَةَ فِي حُقُوقِهِمْ بِمَا يُؤْنِسُونَهُ مِنْ بَرِّهِ

(١) وفي نسخة أخرى ، تفض .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الإيمان .

(٣) وفي نسخة أخرى ، الإيثار .

(٤) وفي نسخة أخرى ، فيهم .

(٥) وفي نسخة أخرى ، توفر .

وَاتَّخِافِهِ فَيُبْعِدُونَهُ عَنْ تِلْكَ الْخُلُقِ بِالْبُعْدِ عَنْ مَعَانَاةِ الْأَفْعَالِ الْمُفْتَضِيَةِ لَهَا كَمَا مَرَّ .
فَتَكُونُ مَرُوءَتُهُمْ أَرْسَخَ وَأَبْعَدَ عَنْ تِلْكَ الْمَحَاجَاةِ ^(١) إِلَّا مَا يَسْرِي مِنْ أَثَارِ تِلْكَ
الْأَفْعَالِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ فَإِنَّهُمْ يُضْطَرُّونَ إِلَى مُشَارَفَةِ أَحْوَالِ أَوْلِيكَ الْوُكَلَاءِ
وَرِفَاقِهِمْ أَوْ خِلَافِهِمْ فِيمَا يَأْتُونَ أَوْ يَذْرُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ وَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ أَثَرُهُ
« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

الفصل السادس عشر

في أن الصنائع لا بد لها من العلم ^(٢)

إِغْلَمَ أَنَّ الصَّنَاعَةَ هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَمْرِ عَمَلِيٍّ فِكْرِيٍّ وَبِكُونِهِ عَمَلِيًّا هُوَ جِسْمَانِيٌّ
مَخْسُوسٌ . وَالْأَحْوَالُ الْجِسْمَانِيَّةُ الْمَخْسُوسَةُ فَتَقْلِبُهَا بِالْمُبَاشَرَةِ أَوْ عِبْ لَهَا وَأَكْمَلُ .
لَأَنَّ الْمُبَاشَرَةَ فِي الْأَحْوَالِ الْجِسْمَانِيَّةِ الْمَخْسُوسَةِ أَتَمُّ فَائِدَةٌ وَالْمَلَكَةُ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ
تَخْصُلُ عَنِ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ الْفِعْلِ وَتَكَرُّرِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَرَسَخَ صُورَتُهُ . وَعَلَى
نِسْبَةِ الْأَصْلِ تَكُونُ الْمَلَكَةُ . وَتَقْلُ الْمُعَايِنَةُ أَوْ عِبْ وَأَتَمُّ مِنْ نَقْلِ الْخَبَرِ وَالْعِلْمِ .
فَالْمَلَكَةُ الْخَاصِلَةُ عَنِ الْخَبَرِ . وَعَلَى قَدَرِ جُودَةِ التَّعْلِيمِ وَمَلَكَةِ الْمُعَلِّمِ يَكُونُ حَدُّ
الْمُعَلِّمِ فِي الصَّنَاعَةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ . ثُمَّ إِنَّ الصَّنَائِعَ مِنْهَا الْبَسِيطُ وَمِنْهَا الْمُرَكَّبُ .
وَالْبَسِيطُ هُوَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالضَّرُورِيَّاتِ وَالْمُرَكَّبُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لِلْكَمَالِيَّاتِ .
وَالْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي التَّعْلِيمِ هُوَ الْبَسِيطُ لِبَسَاطَتِهِ أَوَّلًا ، وَلِأَنَّهُ مُخْتَصٌّ بِالضَّرُورِيِّ الَّذِي
تَتَوَقَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ فَيَكُونُ سَابِقًا فِي التَّعْلِيمِ وَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ لِنِزَالِهِ نَاقِصًا . وَلَا
يَزَالُ الْفِكْرُ يُخْرِجُ أَضْغَاثَهَا وَمُرَكَّبَاتِهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ بِالِاسْتِنْبَاطِ شَيْئًا فَشَيْئًا
عَلَى التَّنْذِيرِ حَتَّى تَكْمُلَ . وَلَا يَخْصُلُ ذَلِكَ دَفْعَةً وَإِنَّمَا يَخْصُلُ فِي زَمَانٍ وَأَجْيَالٍ إِذْ
خُرُوجُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً لَا سِيَّمَا فِي الْأُمُورِ الصَّنَاعِيَّةِ فَلَا
بُدَّ لَهُ إِذَنْ مِنْ زَمَانٍ . وَلِهَذَا تَجِدُ الصَّنَائِعَ فِي الْأُمُصَارِ الصَّغِيرَةِ نَاقِصَةً وَلَا يُوْجَدُ مِنْهَا

(١) وفي نسخة أخرى ، المخرجات .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، المعلم .

إِلَّا الْبَسِيطُ فَإِذَا تَرَايَدَتْ حِصَارَتُهَا وَدَعَتْ أُمُورَ التَّرَفِ فِيهَا إِلَى اسْتِعْمَالِ الصَّنَائِعِ خَرَجَتْ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ . وَتَنْقَسِمُ الصَّنَائِعُ أَيْضاً إِلَى مَا يَخْتَصُّ بِأَمْرِ الْمَعَاشِ ضَرْوياً كَانَ أَوْ غَيْرَ ضَرْوِيٍّ وَإِلَى مَا يَخْتَصُّ بِالْأَفْكَارِ الَّتِي هِيَ خَاصِيَةُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ . وَمِنَ الْأَوَّلِ الْحَيَاكَةُ وَالْجِرَارَةُ وَالنَّجَارَةُ وَالْحِدَادَةُ وَأَمْثَالُهَا . وَمِنَ الثَّانِي الْوَرَاقَةُ وَهِيَ مُعَانَاةُ الْكُتُبِ بِالْإِنْتِسَاحِ وَالتَّجْلِيدِ وَالْغِنَاءُ وَالشُّعْرُ وَتَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَمِنَ الثَّالِثِ الْجُنْدِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل السابع عشر

في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ الْعُمَرَانُ الْحَضْرِيَّ وَتَتِمَّدُنِ الْمَدِينَةُ إِنَّمَا هُمُومُهُمْ فِي الضَّرُورِيِّ مِنَ الْمَعَاشِ وَهُوَ تَخْصِيلُ الْأَقْوَاتِ مِنَ الْجَنْطَةِ وَغَيْرِهَا . فَإِذَا تَمَدَّنَتِ الْمَدِينَةُ وَتَرَايَدَتْ فِيهَا الْأَعْمَالُ وَوَقْتُ الضَّرُورِيِّ وَزَادَتْ عَلَيْهِ صُرْفُ الزَّائِدِ حِينَئِذٍ إِلَى الْكَمَالَاتِ مِنَ الْمَعَاشِ . ثُمَّ إِنَّ الصَّنَائِعَ وَالْعُلُومَ إِنَّمَا هِيَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ فِكْرُهُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْقَوْتُ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْحَيَوَانِيَّةُ وَالْغِذَائِيَّةُ فَهُوَ مُقَدَّمٌ لِضَرُورِيَّتِهِ عَلَى الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَهِيَ مُتَأَخَّرَةٌ عَنِ الضَّرُورِيِّ . وَعَلَى مِقْدَارِ عُمَرَانِ الْبَلَدِ تَكُونُ جُودَةُ الصَّنَائِعِ لِلتَّائِقِ فِيهَا حِينَئِذٍ وَاسْتِجَادَةُ مَا يُطْلَبُ مِنْهَا بِحَيْثُ تَتَوَفَّرُ دَوَاعِي التَّرَفِ وَالثَّرْوَةِ . وَأَمَّا الْعُمَرَانُ الْبَدَوِيُّ أَوْ الْقَلِيلُ فَلَا يَخْتَاجُ مِنَ الصَّنَائِعِ إِلَّا الْبَسِيطَ خَاصَّةً الْمُسْتَعْمَلُ فِي الضَّرُورِيَّاتِ مِنْ نَجَارِهِ أَوْ حِدَادٍ أَوْ خِيَاطٍ أَوْ حَائِكٍ أَوْ جَزَّارٍ . وَإِذَا وَجَدَتْ هَذِهِ بَعْدَ فَلَا تَوْجَدُ فِيهِ كَامِلَةً وَلَا مُسْتَجَادَةً وَإِنَّمَا يُوجَدُ مِنْهَا بِمِقْدَارِ الضَّرُورَةِ إِذْ هِيَ كُلُّهَا وَسَائِلُ إِلَى غَيْرِهَا وَلَيْسَتْ مَقْصُودَةٌ لِدَاتِهَا . وَإِذَا زَخَرَ بَخْرُ الْعُمَرَانِ وَطَلِبَتْ فِيهِ الْكَمَالَاتُ كَانَ مِنْ جُمْلَتِهَا التَّائِقُ فِي الصَّنَائِعِ وَاسْتِجَادَتِهَا فَكَمَلَتْ يَجْمَعُ مَتَمَمَاتِهَا وَتَرَايَدَتْ صَنَائِعُ

أُخْرَى مَعَهَا مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ التَّرَفِ وَأَحْوَالُهُ مِنْ جَزَارٍ وَدَبَاغٍ وَخَرَارٍ وَصَائِغٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ تَنْتَهَى هَذِهِ الْأَصْنَافُ إِذَا اسْتَبَحَرَ الْعُمَرَانُ إِلَى أَنْ يُوجَدَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْكَمَالَاتِ وَالتَّائِقُ فِيهَا فِي الْغَايَةِ وَتَكُونُ مِنْ وَجْهِ الْمَعَاشِ فِي الْمِضَرِّ لِمُنْتَحِلِهَا . بَلْ تَكُونُ فَائِدَتُهَا مِنْ أَعْظَمِ فَوَائِدِ الْأَعْمَالِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ التَّرَفُ فِي الْمَدِينَةِ مِثْلَ الدَّهَانِ وَالْصُّفَارِ وَالْحَمَامِيِّ وَالطَّبَاخِ وَالشَّمَاعِ^(١) وَالْهَرَّاسِ وَمُعَلِّمِ الْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ وَقِرْعِ الطُّبُولِ عَلَى التَّوْقِيعِ . وَمِثْلَ الْوَرَّاقِينَ الَّذِينَ يُعَانُونَ صِنَاعَةَ انْتِسَاخِ الْكُتُبِ وَتَجْلِيدِهَا وَتَضَحِيحِهَا فَإِنَّ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَيْهَا التَّرَفُ فِي الْمَدِينَةِ مِنَ الْإِسْتِغَالِ بِالْأُمُورِ الْفِكْرِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ تَخْرُجُ عَنِ الْحَدِّ إِذَا كَانَ الْعُمَرَانُ خَارِجًا عَنِ الْحَدِّ كَمَا بَلَّغْنَا عَنْ أَهْلِ مِضَرَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يُعَلِّمُ الطُّيُورَ الْعُجَمَ وَالْحُمْرَ الْإِنْسِيَّةَ وَيَتَخَيَّلُ أَشْيَاءَ مِنَ الْعَجَائِبِ بِإِيْنَاهُمْ قُلُوبَ الْأَغْيَانِ وَتُعَلِّمُ الْجَدَاءَ وَالرَّقْصَ وَالْمَشْيَ عَلَى الْخُيُوطِ فِي الْهَوَاءِ وَرَفَعَ الْأَثْقَالَ مِنَ الْخَيَوَانِ وَالْحِجَارَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ الَّتِي لَا تَوْجَدُ عِنْدَنَا بِالْمَغْرِبِ . لَأَنَّ عُمَرََانَ أَمْصَارَهُ لَمْ يَبْلُغْ عُمَرََانَ مِضَرَ وَالْقَاهِرَةَ . أَدَامَ اللَّهُ عُمَرَانَهَا بِالْمُسْلِمِينَ . وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

الفصل الثامن عشر

في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول
أمده

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا عَوَائِدُ لِلْعُمَرَانِ وَالْأَوَانِ^(٢) . وَالْعَوَائِدُ إِنَّمَا تَرْسُخُ بِكَثْرَةِ التَّكْرَارِ وَطُولِ الْأَمَدِ فَتَسْتَحْكِمُ صِبْغَةَ ذَلِكَ وَتَرْسُخُ فِي الْأَجْيَالِ . وَإِذَا اسْتَحْكَمَتِ الصَّبْغَةُ عَسِرَ نَزْعُهَا . وَلِهَذَا نَجِدُ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي كَانَتْ اسْتَبَحَرَتْ فِي الْحَضَارَةِ لَمَّا تَرَاوَجَ عُمَرَانُهَا وَتَنَاقَصَ بَقِيَّتُهَا فِيهَا أَثَارٌ مِنْ هَذِهِ الصَّنَائِعِ لَيْسَتْ فِي

(١) وفي نسخة أخرى : السِّفَاجُ .

(٢) وفي نسخة أخرى : الوَامُ أَيِ الْبَيْتِ الدَّافِيءِ .

غَيْرَهَا مِنَ الْأَمْصَارِ الْمُسْتَحْدَثَةِ الْعُمَرَانِ وَلَوْ بَلَغَتْ مَبَالِغَهَا فِي الْوُفُورِ وَالْكَثْرَةِ وَمَا
 ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ أَحْوَالَ تِلْكَ الْقَدِيمَةِ الْعُمَرَانِ مُسْتَحْكِمَةٌ رَاسِخَةٌ يَطُولُ الْأَحْقَابُ
 وَتَدَاوُلُ الْأَحْوَالُ وَتَكَرَّرُهَا وَهَذِهِ لَمْ تَبْلُغِ الْغَايَةَ بَعْدَ . وَهَذَا كَالْحَالِ فِي الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا
 الْعَهْدِ فَإِنَّا نَجِدُ فِيهَا رُسُومَ الصَّنَائِعِ قَائِمَةً وَأَحْوَالَهَا مُسْتَحْكِمَةً رَاسِخَةً فِي جَمِيعِ
 مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ أَمْصَارِهَا كَالْمَبَانِي وَالطَّبِيخِ وَأَصْنَافِ الْغِنَاءِ وَاللَّهْوِ مِنَ الْآلَاتِ
 وَالْأَوْتَارِ وَالرَّقْصِ وَتَنْصِيدِ الْفُرْشِ فِي الْقُصُورِ ، وَحُسْنِ التَّرْتِيبِ وَالْأَوْضَاعِ فِي الْبِنَاءِ
 وَصَوْنِ الْإِنِّيَّةِ مِنَ الْمَعَادِنِ وَالْخَرْفِ وَجَمِيعِ الْمَوَاعِينِ وَإِقَامَةِ الْوَلَائِمِ وَالْأَغْرَاسِ وَسَائِرِ
 الصَّنَائِعِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا التَّرَفُ وَعَوَائِدُهُ . فَنَجِدُهُمْ أَقْوَمَ عَلَيْهَا وَأَبْصَرَ بِهَا . وَنَجِدُ
 صَنَائِعَهَا مُسْتَحْكِمَةً لَدَيْهِمْ فَهُمْ عَلَى حِصَّةٍ مَوْفُورَةٍ مِنْ ذَلِكَ وَحَظٌّ مُتَمَيِّزٌ بَيْنَ جَمِيعِ
 الْأَمْصَارِ . وَإِنْ كَانَ عُمَرَانُهَا قَدْ تَنَاقَصَ . وَالْكَثِيرُ مِنْهُ لَا يُسَاوِي عُمَرَانَ غَيْرِهَا مِنْ
 بِلَادِ الْعُدُوَّةِ . وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ رُسُوحِ الْحَضَارَةِ فِيهِمْ بِرُسُوحِ الدُّوَلَةِ
 الْأُمُويَّةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ دَوْلَةِ الْقُوطِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ دَوْلَةِ الطَّوَائِفِ وَهَلُمَّ جَرًّا . فَبَلَغَتْ
 الْحَضَارَةُ فِيهَا مَبْلَغًا لَمْ تَبْلُغْهُ فِي قَطْرِهَا إِلَّا مَا يُنْقَلُ عَنِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ أَيْضًا
 لِيَطُولَ أَمَادُ الدُّوَلِ فِيهَا فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا الصَّنَائِعُ وَكَمُلَتْ جَمِيعُ أَصْنَافِهَا عَلَى
 الْإِسْتِجَادَةِ وَالتَّنْمِيقِ . وَبَقِيَتْ صَنِيعَتُهَا ثَابِتَةً فِي ذَلِكَ الْعُمَرَانِ لَا تَفَارِقُهُ إِلَى أَنْ
 يَنْتَقِضَ بِالْكُلِّيَّةِ حَالُ الصَّنِيعِ إِذَا رَسَخَ فِي الثُّوبِ . وَكَذَا أَيْضًا حَالُ تُونِسَ فِيمَا حَصَلَ
 فِيهَا بِالْحَضَارَةِ مِنَ الدُّوَلِ الصَّنَهَاجِيَّةِ وَالْمُوَحَّدِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اسْتَكْمَلَ لَهَا فِي
 ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ دُونَ الْأَنْدَلُسِ . إِلَّا أَنَّهُ مُتَضَاعِفٌ
 بِرُسُومِ مِنْهَا تُنْقَلُ إِلَيْهَا مِنْ مِصْرَ لِقُرْبِ الْمَسَافَةِ بَيْنَهُمَا وَتَرُدُّدِ الْمُسَافِرِينَ مِنْ
 قَطْرِهَا إِلَى قَطْرِ مِصْرَ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَرُبَّمَا سَكَنَ أَهْلُهَا هُنَاكَ عُصُورًا فَيَنْقَلُونَ مِنْ عَوَائِدِ
 تَرَفِهِمْ وَمُخَكِّمِ صَنَائِعِهِمْ مَا يَقَعُ لَدَيْهِمْ مَوْقِعَ الْإِسْتِخْسَانِ . فَصَارَتْ أَحْوَالُهَا فِي ذَلِكَ
 مُتَشَابِهَةً مِنْ أَحْوَالِ مِصْرَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ أَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ سَاكِنِيهَا مِنْ
 شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ حِينَ الْجَلَاءِ لِعَهْدِ الْمَائَةِ السَّابِعَةِ . وَرَسَخَ فِيهَا مِنْ ذَلِكَ أَحْوَالٌ وَإِنْ

كَانَ عُمْرَانَهَا لَيْسَ يَمُنَاسِبُ لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ . إِلَّا أَنَّ الصَّنِغَةَ إِذَا اسْتَحْكَمَتْ فَقَلِيلًا مَا تَحُولُ إِلَّا بِزَوَالِ مَحَلِّهَا . وَكَذَا نَجِدُ بِالْقَيْرَوَانِ وَمَرَكَشَ وَقَلَمَةَ ابْنِ خَمَادٍ أَثَرًا بَاقِيًا مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ كُلُّهَا الْيَوْمَ خَرَابًا أَوْ فِي حُكْمِ الْخَرَابِ . وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهَا إِلَّا الْبَصِيرُ مِنَ النَّاسِ فَيَجِدُ مِنْ هَذِهِ الصَّنَائِعِ أَثَرًا تَذَلُّهُ عَلَى مَا كَانَ بِهَا كَأَثَرِ الْخَطِّ الْمَمْحُوقِ فِي الْكِتَابِ « وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » .

الفصل التاسع عشر

في أن الصنائع إنما تستجد وتكثر إذا كثر طالبها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْمَحُ بِعَمَلِهِ أَنْ يَقَعَ مَجَانًا لِأَنَّهُ كَسْبُهُ وَمِنْهُ مَعَاشُهُ . إِذْ لَا فَايْدَةَ لَهُ فِي جَمِيعِ عُمْرِهِ فِي شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ فَلَا يَصْرِفُهُ إِلَّا فِيمَا لَهُ قِيَمَةٌ فِي مِضْرِهِ لِيَعُودَ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ . وَإِنْ كَانَتْ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً وَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا النِّفَاقُ كَانَتْ حِينِيذُ الصَّنَاعَةِ بِمَثَابَةِ السَّلْعَةِ الَّتِي تَنْفَقُ سَوْقَهَا وَتُجْلَبُ لِلْبَيْعِ ، فَتَجْتَهِدُ النَّاسُ فِي الْمَدِينَةِ لِتَعْلَمَ تِلْكَ الصَّنَاعَةُ لِيَكُونَ مِنْهَا مَعَاشُهُمْ . وَإِذَا لَمْ تَكُنِ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً لَمْ تَنْفَقْ سَوْقَهَا وَلَا يُوجَّهَ قَصْدٌ إِلَى تَعْلَمِهَا ، فَاخْتَصَّتْ بِالتَّرَكِ وَفَقِدَتْ لِلْإِهْمَالِ . وَلِهَذَا يُقَالُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، « قِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ » بِمَعْنَى أَنَّ صِنَاعَتَهُ هِيَ قِيَمَتُهُ أَيْ قِيَمَةُ عَمَلِهِ الَّذِي هُوَ مَعَاشُهُ . وَأَيْضًا فَهَذَا سِرٌّ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَإِجَادَتَهَا إِنَّمَا تَطْلُبُهَا الدَّوْلَةُ فِيهِ الَّتِي تَنْفَقُ سَوْقَهَا وَتَوَجَّهَ الطَّالِبَاتُ إِلَيْهَا . وَمَا لَمْ تَطْلُبْهُ الدَّوْلَةُ وَإِنَّمَا يَطْلُبُهَا غَيْرُهَا مِنْ أَهْلِ الْمِضْرِ فَلَيْسَ عَلَى نِسْبَتِهَا لِأَنَّ الدَّوْلَةَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ وَفِيهَا نَفَاقُ كُلِّ شَيْءٍ وَالْقَلِيلُ وَالْكَثِيرُ فِيهَا عَلَى نِسْبَةِ وَاحِدَةٍ . فَمَا نَفَقَ مِنْهَا كَانَ أَكْثَرِيًا ضَرُورَةً . وَالسُّوقَةُ وَإِنْ طَلَبُوا الصَّنَاعَةَ فَلَيْسَ طَلِبُهُمْ بِعَامٍّ وَلَا سَوْقُهُمْ بِنَاقِيَةٍ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ .

الفصل العشرون

في أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقضت منها المصنائع

وذلك لما بيننا أن الصنائع إنما تستجد إذا احتيج إليها وكثر طلبها . وإذا ضعفت أحوال المضر وأخذ في الهرم بانتقاض عمرانه وقلة ساكنيه تناقص فيه الترف ورجعوا إلى الإقتصار على الضروري من أحوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توايع الترف لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر إلى غيرها ، أو يموت ولا يكون خلف منه ، فيذهب رسم تلك الصنائع جملة ، كما يذهب النقاشون والصواغ^(١) والكتاب والنساج وأمثالهم من الصنائع^(٢) لحاجات الترف . ولا تزال الصناعات في التناقص إلى أن تضمحل . والله الخلاق العليم وسبحانه وتعالى .

الفصل الحادي والعشرون

في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع

والسبب في ذلك أنهم أغرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري ، وما يدعوا إليه من الصنائع وغيرها . والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية غدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها ، لأنهم أغرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه . حتى إن الإبل التي أعانت العرب على التوحش في القفر ، والإغراق في البدو ، مفقودة لديهم بالجملة ، ومفقودة مراعيها ، والرمال المهينة لنتاجها . ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة ، حتى تجلب إليه من قطر آخر . وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم

(١) وفي نسخة الصواغون .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الصناعات .

النُصْرَانِيَّةُ ، كَيْفَ اسْتَكْثَرَتْ فِيهِمُ الصَّنَائِعُ وَاسْتَجْلَبَهَا الْأَمَمُ مِنْ عِنْدِهِمْ . وَعَجَمَ الْمَغْرِبَ مِنَ الْبَرْبَرِ مِثْلَ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ لِرُسُوحِهِمْ فِي الْبِدَاوَةِ مُنْذُ أَحْقَابٍ مِنَ السِّنِينَ . وَيَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ قَلَّةُ الْأَمْصَارِ بِقَطْرِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . فَالصَّنَائِعُ بِالْمَغْرِبِ لِذَلِكَ قَلِيلَةٌ وَغَيْرُ مُسْتَحْكِمَةِ الْأَمَاكِنِ ^(١) مِنْ صِنَاعَةِ الصُّوفِ مِنْ نَسِجِهِ ، وَالْجِلْدِ فِي خَزَرِهِ وَذَبِغِهِ . فَإِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَحْضَرُوا بَلَّغُوا فِيهَا الْمَبَالِغَ لِمُعْومِ الْبَلَوَى بِهَا وَكَوْنِ هَذَيْنِ أَغْلَبَ السَّلْعَ فِي قَطْرِهِمْ ، لَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حَالِ الْبِدَاوَةِ . وَأَمَّا الْمَشْرِقُ فَقَدْ رَسَخَتْ الصَّنَائِعُ فِيهِ مُنْذُ مُلْكِ الْأَمَمِ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْفُرْسِ وَالنَّبِطِ وَالْقَبِطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَيُونَانَ وَالرُّومِ أَحْقَاباً مُتَطَاوِلَةً ، فَرَسَخَتْ فِيهِمْ أَحْوَالُ الْحَضَارَةِ ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا الصَّنَائِعُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ، فَلَمْ يُمْحَ رَسْمُهَا . وَأَمَّا التِّيمَنُ وَالْبَحْرَيْنِ وَعُمَانُ وَالْجَزِيرَةُ وَإِنْ مَلَكَ الْعَرَبُ إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَاوَلُوا مُلْكَهُ آلَافاً مِنَ السِّنِينَ فِي أَمَرٍ كَثِيرِينَ ^(٢) مِنْهُمْ . وَاخْتَلَطُوا أَمْصَارَهُ وَمُدَنَهُ وَبَلَّغُوا الْغَايَةَ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ مِثْلَ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ وَحَمِيرَ مِنْ بَعْدِهِمْ . وَالتَّبَايَعَةُ وَالْأَذْوَاءُ فَطَالَ أَمَدُ الْمُلْكِ وَالْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهَا وَتَوَفَّرَتْ الصَّنَائِعُ وَرَسَخَتْ ، فَلَمْ تَبَلْ يَبْلَى الدَّوْلَةُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . فَبَقِيَتْ مُسْتَحْدَّةٌ حَتَّى الْآنَ . وَاخْتَصَّتْ بِذَلِكَ لِلْوَطَنِ ، كَصِنَاعَةِ الْوَشْيِ وَالْعَصَبِ وَمَا يُسْتَجَادُ مِنْ حَوْكِ الثِّيَابِ وَالْخَرِيرِ فِيهَا وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الثاني والعشرون

فِيمَنْ حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَهٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقُلْ أَنْ يَجِيْدَ بَعْدَ فِي مَلَكَهٍ أُخْرَى

وَمِثَالُ ذَلِكَ الْخِيَاطُ إِذَا أَجَادَ مَلَكَهَ الْخِيَاطَةِ وَأَحْكَمَهَا وَرَسَخَتْ فِي نَفْسِهِ فَلَا يَجِيْدُ مِنْ بَعْدِهَا مَلَكَهَ النَّجَارَةِ أَوْ الْبِنَاءِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْأَوَّلَى لَمْ تَسْتَخْكَمْ بَعْدُ وَلَمْ تَرَسَخْ صِبْغَتُهَا . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَكَاتِ صِفَاتٌ لِلنَّفْسِ وَالْوَأْنُ فَلَا تَزْدَحِمُ

(١) وفي نسخة أخرى ، في أُمَمٍ كَثِيرَةٍ .

(٢) وفي نسخة أخرى ، إِلَّا مَا كَانَ .

دَفْعَةً . وَمَنْ كَانَ عَلَى الْفِطْرَةِ كَانَ أَهْلًا لِقَبُولِ الْمَلَكَاتِ وَأَحْسَنَ اسْتِعْدَادًا لِحُصُولِهَا . فَإِذَا تَلَوْنَتِ النَّفْسُ بِالْمَلَكَاتِ الْأُخْرَى وَخَرَجَتْ عَنِ الْفِطْرَةِ ضَعُفَ فِيهَا الْاسْتِعْدَادُ بِاللُّوْنِ الْحَاصِلِ مِنْ هَذِهِ الْمَلَكَاتِ فَكَانَ قَبُولُهَا لِلْمَلَكَاتِ الْأُخْرَى أضعف . وَهَذَا بَيِّنٌ يَشْهَدُ لَهُ الْوُجُودُ . فَقُلْ أَنْ تَجِدَ صَاحِبَ صِنَاعَةٍ يُحْكِمُهَا ثُمَّ يُحْكِمُ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرَى وَيَكُونُ فِيهِمَا مَعًا عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْإِجَادَةِ . حَتَّى أَنْ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذِينَ مَلَكَتْهُمْ فِكْرِيَّةٌ فَهُمْ بِهَذِهِ الْمَثَالَةِ . وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلَكَاتٍ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَأَجَادَهَا فِي الْغَايَةِ فَقُلْ أَنْ يُجِيدُ مَلَكَاتٌ عِلْمٍ آخَرَ عَلَى نِسْبَتِهِ بَلْ يَكُونُ مُقْصِرًا فِيهِ إِنْ طَلَبَهُ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَمَبْنِيٌّ سَبَبُهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْاسْتِعْدَادِ وَتَلَوْنِهِ بِلَوْنِ الْمَلَكَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي النَّفْسِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل الثالث والعشرون

في الإشارة إلى أمهات الصنائع

إِغْلَمْ أَنَّ الصَّنَائِعَ فِي النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ كَثِيرَةٌ لِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الْمُتَدَاوِلَةِ فِي الْعُمْرَانِ . فَهِيَ بِحَيْثُ تَشْدُ عَنْ الْحَضَرِ وَلَا يَأْخُذُهَا الْعَدُ . إِلَّا أَنْ مِنْهَا مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ فِي الْعُمْرَانِ أَوْ شَرِيفٌ بِالْمَوْضِعِ ^(١) فَتَخْصُصُهَا بِالذِّكْرِ وَنَتْرُكُ مَا سِوَاهَا . فَأَمَّا الضَّرُورِيُّ فَالْفَلَاخَةُ وَالْبِنَاءُ وَالْخِيطَاةُ وَالنَّجَارَةُ وَالْحَيَاكَةُ . وَأَمَّا الشَّرِيفَةُ بِالْمَوْضِعِ ^(٢) فَكَالتَّوْلِيدِ وَالْكِتَابَةِ وَالْوَرَاةَ وَالْغِنَاءَ وَالطَّبَّ . فَأَمَّا التَّوْلِيدُ فَلِإِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ فِي الْعُمْرَانِ وَعَامَّةُ الْبُلُوَى إِذْ بِهَا تَحْصُلُ حَيَاةُ الْمَوْلُودِ وَتَبْتِمُ غَالِبًا . وَمَوْضُوعُهَا مَعَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُونَ وَأُمَمَاتُهُمْ . وَأَمَّا الطَّبُّ فَهُوَ حِفْظُ الصَّحَّةِ لِلْإِنْسَانِ وَدَفْعُ الْمَرَضِ عَنْهُ وَتَتَفَرُّعٌ عَنْ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ . وَمَوْضُوعُهُ مَعَ ذَلِكَ بَدَنُ الْإِنْسَانِ . وَأَمَّا الْكِتَابَةُ وَمَا يَتَّبَعُهَا مِنَ الْوَرَاةِ فَهِيَ حَافِظَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ حَاجَتَهُ وَمَقْبِدَةٌ لَهَا

(١) وفي نسخة أخرى : الموضوع .

عَنِ النَّسْيَانِ وَمَبْلَغَةِ ضَمَائِرِ النَّفْسِ إِلَى الْبَعِيدِ الْغَائِبِ وَمُخَلَّدَةِ نَتَائِجِ الْأَفْكَارِ وَالْعُلُومِ فِي الصُّحُفِ وَرَافِعَةِ رُتَبِ الوجودِ لِلْمَعَانِي . وَأَمَّا الْغِنَاءُ فَهُوَ نِسْبُ الْأَصْوَاتِ وَمَظْهَرُ جَمَالِهَا لِلْأَسْمَاعِ . وَكُلُّ هَذِهِ الصَّنَائِعِ الثَّلَاثُ دَاعٍ إِلَى مُخَالَطَةِ الْمُلُوكِ الْأَعَاطِمِ فِي خُلُوتِهِمْ وَمَجَالِسِ أَنْسِبِهِمْ فَلَهَا بِذَلِكَ شَرَفٌ لَيْسَ لِغَيْرِهَا . وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ قَتَابَعَةٌ وَمُمْتَنَنَةٌ فِي الْغَالِبِ . وَقَدْ يَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأَغْرَاضِ وَالِدَوَاعِي ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

الفصل الرابع والعشرون في صناعة الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ ثَمَرَتُهَا اتِّخَاذُ الْأَقْوَاتِ وَالْحُبُوبِ بِالْقِيَامِ عَلَى إِثَارَةِ الْأَرْضِ لَهَا ازْدِرَاعُهَا وَعِلَاجُ نَبَاتِهَا وَتَعْقِيدُهَا بِالسَّقْيِ وَالتَّنْمِيَةِ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهِ ثُمَّ حِصَادِ سُنْبِلِهِ وَاسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ مِنْ غِلَافِهِ وَإِحْكَامِ الْأَعْمَالِ لِذَلِكَ ، وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ . وَهِيَ أَقْدَمُ الصَّنَائِعِ لِمَا أَنَّهَا مُحَصَّلَةٌ لِلْقُوَّةِ الْمَكْمَلِ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ غَالِباً إِذْ يُمَكِّنُ وَجُودَهُ مِنْ دُونِ الْقُوَّةِ . وَلِهَذَا اخْتَصَّتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ بِالْبَدْوِ . إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ أَقْدَمُ مِنَ الْحَضَرِ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ فَكَانَتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ لِذَلِكَ بَدْوِيَّةً لَا يَقُومُ عَلَيْهَا الْحَضَرُ وَلَا يَعْرِفُونَهَا لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ كُلَّهَا ثَانِيَّةٌ عَلَى الْبِدَاوَةِ فَصَنَائِعُهُمْ ثَانِيَّةٌ عَنْ صَنَائِعِهَا وَتَابِعَةٌ لَهَا . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُقِيمُ الْعِبَادِ فِيمَا أَرَادَ .

الفصل الخامس والعشرون في صناعة البناء

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ أَوَّلُ صَنَائِعِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ وَأَقْدَمُهَا وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْعَمَلِ فِي اتِّخَاذِ الْبُيُوتِ وَالْمَنَازِلِ لِلْكَفَنِ^(١) وَالْمَأْوَى لِلْأَبْدَانِ فِي الْمَدْنِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لِمَا

(١) وفي النسخة الباريية ، للسكن .

جَبَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ أَحْوَالِهِ . لَا بُدَّ أَنْ يُفَكِّرَ فِيمَا يَدْفَعُ عَنْهُ الْأَذَى مِنَ
الْحَرِّ وَالْبَرْدِ كَاتِخَاذِ الْبُيُوتِ الْمُكَتَنَةِ بِالسَّقْفِ وَالْحِيطَانِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا^(١)
وَالْبَشَرُ مُخْتَلِفٌ فِي هَذِهِ الْجِبَلَةِ الْفِكْرِيَّةِ فَمِنْهُمْ الْمُعْتَدِلُونَ فِيهَا فَيَتَخَذُونَ ذَلِكَ
بِاعْتِدَالِ أَهَالِي^(٢) الثَّانِي وَالثَّالِثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ وَالسَّادِسِ وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ
فَيَبْتَغِدُونَ عَنْ اتِّخَاذِ ذَلِكَ لِقُصُورِ أَفْكَارِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ الصَّنَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ فَيَبْنِدِرُونَ
لِلْغَيْرَانِ وَالْكُهُوفِ الْمُعَدَّةِ مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ^(٣) . ثُمَّ الْمُعْتَدِلُونَ وَالْمُتَخَذُونَ الْبُيُوتِ
لِلْمَأْوَى قَدْ يَتَكَثَّرُونَ فِي الْبَسِيطِ الْوَاحِدِ بِحَيْثُ يَتَنَازَرُونَ وَلَا يَتَعَارَفُونَ فَيَخْشَوْنَ
طَرُقَ^(٤) بَعْضِهِمْ بَعْضًا نِيَاتًا فَيَحْتَاجُونَ إِلَى حِفْظِ مُجْتَمَعِهِمْ بِإِدَارَةِ مَاءٍ أَوْ أَسْوَارِ
تَحُوطِهِمْ^(٥) وَيَصِيرُ جَمِيعًا مَدِينَةً وَاحِدَةً وَمَضْرًا وَاحِدًا وَيَحُوطُهُمُ الْحَكْمُ مِنْ دَاخِلِ
يَدْفَعُ^(٦) بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَقَدْ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْإِنْتِصَافِ^(٧) وَيَتَخَذُونَ الْمَقَاقِلِ
وَالْحُصُونِ لَهُمْ وَلِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ الْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَغْنَاهُمْ مِنَ الْأَمْرَاءِ
وَكِبَارِ الْقَبَائِلِ . ثُمَّ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُ الْبِنَاءِ فِي الْمُدُنِ كُلِّ مَدِينَةٍ عَلَى مَا يَتَعَارَفُونَ
وَيَضْطَلِحُونَ عَلَيْهِ وَيُنَاسِبُ مِزَاجَ هَوَائِهِمْ وَاخْتِلَافَ أَحْوَالِهِمْ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَكَذَا
حَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّخِذُ الْقُصُورَ وَالْمَصَانِعَ الْعَظِيمَةَ السَّاحَةِ
الْمُسْتَمْلَةَ عَلَى عِدَّةِ الدُّورِ وَالْبُيُوتِ وَالْغُرَفِ الْكَبِيرَةِ لِكَثْرَةِ وَلَدِهِ وَحَشَمِهِ وَعِيَالِهِ
وَتَأْيِيعِهِ وَيُؤَسِّسُ جُذُرَانَهَا بِالْحِجَارَةِ وَيَلْحَمُ بَيْنَهَا بِالْكَلْسِ وَيُعَالِي عَلَيْهَا بِالْأَصْبَغَةِ
وَالْحِصْنِ وَيَبَالِغُ فِي كُلِّ ذَلِكَ بِالتَّنْجِيدِ وَالتَّنْمِيقِ إِظْهَارًا لِلْبَسْطَةِ بِالْعِنَايَةِ فِي شَأْنِ

(١) وفي النسخة الباريسية : « لا بد له أن يفكر في موانع اذابة الحر والبرد عنه باتخاذ البيوت ذوات

الحيطان والسقف المائلة دونه من جهاتها » .

(٢) وفي نسخة أخرى : « والبشر مختلفون في هذه الجبلية الفكرية التي هي معنى الإنسانية . فالمتقيدون

فيها . ولو على التفاوت . يتخذون ذلك باعتدال كأهل الإقليم . . . » .

(٣) وفي النسخة الباريسية : « وأما أهل الأول والسابع فيبعدون عن اتخاذ ذلك لانحرافهم وقصور أفكارهم

عن كيفية العمل في الصنائع الإنسانية . فيأوون إلى الغيران والكهوف . كما يتناولون الأغذية من غير علاج ولا
نضج » .

(٤) وفي نسخة أخرى : ويخشى من طروق . (٥) وفي نسخة أخرى : بإدارة مياه الأسوار التي تحيطهم .

(٦) وفي نسخة أخرى : يحوطهم فيها الحكام بدفاع . . .

(٧) وفي نسخة أخرى : إلى الاعتصام من العدو . . .

الْمَأْوَى . وَيَبْنِيءُ مَعَ ذَلِكَ الْأَسْرَابَ وَالْمَطَامِيرَ لِلَاخْتِرَانِ لِأَقْوَاتِهِ وَالْإِسْطِبْلَاتِ
لِرَبْطِ مُقَرَّبَاتِهِ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجُنُودِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ وَالْحَاشِيَةِ^(١) كَالْأَمْرَاءِ وَمَنْ فِي
مَغْنَاهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْنِي الدُّوَيْرَةَ وَالْبُيُوتَ^(٢) لِنَفْسِهِ وَسَكْنِهِ وَوَلَدِهِ لَا يَنْتَفِعِي
مَا وَرَاءَ ذَلِكَ لِقُصُورِ خَالِهِ عَنْهُ وَاقْتِصَارِهِ عَلَى الْكِنِ^(٣) الطَّبِيعِيِّ لِلْبَشَرِ وَبَيْنَ ذَلِكَ
مَرَاتِبُ غَيْرُ مَنْحَصِرَةٍ وَقَدْ يُخْتَاَجُ لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَيْضاً عِنْدَ تَأْسِيسِ الْمُلُوكِ وَأَهْلِ
الدُّوَلِ الْمُدُنِ الْعَظِيمَةِ وَالنَّهْيَاكِلِ الْمُرْتَفِعَةِ وَيَبَالِغُونَ فِي إِتْقَانِ الْأَوْضَاعِ وَعُلُوِّ الْأَجْزَامِ
مَعَ الْإِحْكَامِ يَتَبَلَّغُ الصَّنَاعَةُ مَبَالِغَهَا . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ هِيَ الَّتِي تُحْصَلُ الدَّوَاعِي
لِذَلِكَ كُلِّهِ وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ مِنَ الرَّابِعِ وَمَا حَوْلَالِيهِ
إِذْ الْأَقَالِيمُ الْمُنْحَرِفَةُ لَا بِنَاءَ فِيهَا . وَإِنَّمَا يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ حِطَابِرَ مِنَ الْقَصَبِ
وَالطِّينِ أَوْ يَأْوُونَ إِلَى الْكُهُوفِ وَالْغَيْرَانِ . وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْقَائِمُونَ عَلَيْهَا
مُتَفَاوِتُونَ ، فَمِنْهُمْ الْبَصِيرُ الْمَاهِرُ وَمِنْهُمْ الْقَاصِرُ . ثُمَّ هِيَ تَتَنَوَّعُ أَنْوَاعاً كَثِيرَةً فَمِنْهَا
الْبِنَاءُ بِالْحِجَارَةِ الْمُنْجَدَةِ أَوْ بِالْأَجْرِ يُقَامُ بِهَا الْجُدْرَانُ مُلَصَقاً بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ
بِالطِّينِ وَالْكِلْسِ الَّذِي يُفْقَدُ مَعَهَا وَيَلْتَحِمُ كَأَنَّهَا جِسْمٌ وَاحِدٌ وَمِنْهَا الْبِنَاءُ بِالتُّرَابِ
خَاصَّةً تُقَامُ مِنْهُ حِيطَانٌ يُتَّخَذُ لَهَا لَوْحَانِ مِنَ الْخَشَبِ مُقَدَّرَانِ طَوَلاً وَعَرْضاً
بِاخْتِلَافِ الْعَادَاتِ فِي التَّقْدِيرِ . وَأَوْسَطُهُ أَرْبَعُ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعَيْنِ فَيُنْصَبَانِ عَلَى أَسَاسٍ
وَقَدْ يُوعَدُ مَا بَيْنَهُمَا بِمَا يَرَاهُ صَاحِبُ الْبِنَاءِ فِي عَرْضِ الْأَسَاسِ وَيُوصَلُ بَيْنَهُمَا
بِأَذْرُعٍ مِنَ الْخَشَبِ يُرَبِّطُ عَلَيْهَا بِالْحَبَالِ وَالْجُدْرِ^(٤) . وَيَسُدُّ الْجِهَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ مِنْ
ذَلِكَ الْخَلَاءِ بَيْنَهُمَا بِلَوْحَيْنِ آخَرَيْنِ صَغِيرَيْنِ ثُمَّ يُوضَعُ فِيهِ التُّرَابُ مُخْلَطاً^(٥)
بِالْكِلْسِ وَيُرَكَّزُ بِالْمَرَائِزِ الْمُعَدَّةِ حَتَّى يَنْعَمَ رَكْزُهُ وَيَخْتَلِطُ أَجْزَاؤُهُ بِالْكِلْسِ ثُمَّ

(١) وفي النسخة الباريسية ، والغاشية .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، والبويت .

(٣) الكِنِ ، وقاء كل شيء وستره .

(٤) وفي نسخة أخرى ، الجدل .

(٥) وفي نسخة أخرى ، مختلطاً .

يُرَادُّ التُّرَابُ ثَانِياً وَثَالِثاً إِلَى أَنْ يَمْتَلِيءَ ذَلِكَ الْخَلَاءُ بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ وَقَدْ تَدَاخَلَتْ
أَجْزَاءُ الْكِلْسِ وَالتُّرَابِ وَصَارَتْ جِسْماً وَاحِداً . ثُمَّ يَعَادُ نَضْبُ اللَّوْحَيْنِ عَلَى صُورَةٍ ^(١)
وَيَرْكُزُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَيُنْظَمَ الْأَلْوَا حُ كُلُّهَا سَطِراً مِنْ فَوْقِ سَطْرِ إِلَى أَنْ يَنْتَظِمَ
الْحَائِطُ كُلُّهُ مُلْتَحِماً كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى الطَّابِئَةُ وَصَانِعُهُ الطُّوَابُ . وَمِنْ
صَنَائِعِ الْبِنَاءِ أَيْضاً أَنْ تُجَلَّلَ الْحَيْطَانُ بِالْكِلْسِ بَعْدَ أَنْ يُحْلَ بِالمَاءِ وَيُخْمَرُ أَسْبُوعاً
أَوْ أَسْبُوعَيْنِ عَلَى قَدَرٍ مَا يَغْتَدِلُ مِرَاجُهُ عَنْ إِفْرَاطِ النَّارِئَةِ الْمُفْسِدَةِ لِلْإِلْحَامِ . فَإِذَا تَمَّ
لَهُ مَا يَرْضَاهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَاهُ ^(٢) مِنْ فَوْقِ الْحَائِطِ وَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَحِمَ . وَمِنْ صَنَائِعِ
الْبِنَاءِ عَمَلُ السَّقْفِ بِأَنْ يَمُدَّ الخَشَبُ الْمُحْكَمَةُ النَّجَارَةُ أَوْ السَّادِجَةُ عَلَى خَائِطِي
الْبَيْتِ وَمِنْ فَوْقِهَا الْأَلْوَا حُ كَذَلِكَ مَوْصُولَةٌ بِالدِّسَائِرِ وَيُصَّبُ عَلَيْهَا التُّرَابُ وَالْكِلْسُ
وَيُسَطُّ ^(٣) بِالمَرَازِكِ حَتَّى تَتَدَاخَلَ أَجْزَاؤُهَا وَتَلْتَحِمَ وَيُعَالَى عَلَيْهَا الْكِلْسُ كَمَا
يُعَالَى عَلَى الْحَائِطِ . وَمِنْ صِنَاعَةِ الْبِنَاءِ مَا يَرْجَعُ إِلَى التَّنْمِيقِ وَالتَّزْيِينِ كَمَا يُضْنَعُ
مِنْ فَوْقِ الْحَيْطَانِ الْأَشْكَالَ الْمُجَسِّمَةَ مِنَ الْحِصِّ يُخْمَرُ بِالمَاءِ ثُمَّ يَرْجَعُ جَسداً ^(٤)
وَفِيهِ بَقِيَّةُ الْبَلَلِ ، فَيَشْكُلُ عَلَى التَّنَاسُبِ تَخْرِيماً بِمَثَاقِبِ الْحَدِيدِ إِلَى أَنْ يَبْقَى لَهُ
رَوْنُقٌ وَرَوَاءٌ . وَرُبَّمَا عُولِي عَلَى الْحَيْطَانِ أَيْضاً يَقْطَعُ الرُّخَامُ أَوْ الْأَجْرُ أَوْ الْخَزْفُ أَوْ
بِالصُّدْفِ أَوْ السَّبِجِ يُفْصَلُ أَجْزَاءُ مُتَجَانِسَةً أَوْ مُخْتَلِفَةً وَتَوْضَعُ فِي الْكِلْسِ عَلَى نِسْبِ
وَأَوَاضَاعٍ مُقَدَّرَةٍ عِنْدَهُمْ يَبْدُو بِهِ الْحَائِطُ لِلْعِيَانِ ، كَأَنَّهُ قِطْعُ الرِّيَاضِ الْمُتَمَنِّمَةِ . إِلَى
غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بِنَاءِ الْأَجْنَابِ وَالصُّهَارِيحِ لِسَفْحِ ^(٥) الْمَاءِ بَعْدَ أَنْ تُعَدَّ فِي الْبُيُوتِ قِصَاعُ
الرُّخَامِ الْقَوَرَاءِ الْمُحْكَمَةُ الْخَرِطُ بِالْفُوهَاتِ فِي وَسْطِهَا لِنَبْعِ الْمَاءِ الْجَارِي إِلَى
الصُّهْرِيجِ يُجْلَبُ إِلَيْهِ مِنْ خَارِجِ الْقَنَوَاتِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْبُيُوتِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ
الْبِنَاءِ . وَتَخْتَلِفُ الصَّنَائِعُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْحَذْقِ وَالْبَصْرِ وَيَعْظُمُ عُمْرَانُ

(١) وفي نسخة أخرى : على الصورة الأولى .

(٢) وفي نسخة أخرى : علاه .

(٣) وفي نسخة أخرى : ويبلط .

(٤) وفي النسخة البارسية : ثم يرفع مجسداً .

(٥) وفي نسخة أخرى : لسج .

الْمَدِينَةِ وَيَتَسَعُّ فَيَكْثُرُونَ . وَرُبَّمَا يَرْجِعُ الْحُكَّامُ إِلَى نَظَرِهِ هَؤُلَاءِ فِيمَا هُمْ أَنْبَصَرُ بِهِ مِنْ أَحْوَالِ الْبِنَاءِ . وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ فِي الْمَدِينِ لِكَثْرَةٍ ^(١) الْإِزْدَحَامِ وَالْعُمْرَانِ يَتَشَاخُونَ حَتَّى فِي الْفَضَاءِ وَالْهَوَاءِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ وَمِنْ الْإِنْتِفَاعِ بِظَاهِرِ الْبِنَاءِ مِمَّا يَتَوَقَّعُ مَعَهُ حُصُولُ الضَّرَرِ فِي الْحَيْطَانِ . فَيَمْنَعُ جَارَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ . وَيَخْتَلِفُونَ أَيْضاً فِي اسْتِحْقَاقِ الطَّرِيقِ وَالْمَنَافِدِ لِلْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ وَالْفَضَلَاتِ الْمُسَرِّيَةِ فِي الْقَنَوَاتِ وَرُبَّمَا يَدَّعِي بَعْضُهُمْ حَقَّ بَعْضٍ فِي حَائِطِهِ أَوْ عُلُوِّهِ أَوْ قَنَاتِهِ لِتَضَائِقِ الْجَوَارِ أَوْ يَدَّعِي بَعْضُهُمْ عَلَى جَارِهِ اخْتِلَالَ ^(٢) حَائِطِهِ خَشْيَةَ سُقُوطِهِ وَيَخْتَاجُ إِلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِهِدْمِهِ وَدَفْعِ ضَرَرِهِ عَنْ جَارِهِ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَخْتَاجُ إِلَى قِسْمَةِ دَارِهِ أَوْ عَرْضِهِ بَيْنَ شَرِيكَيْنِ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ مَعَهَا فَسَادٌ فِي الدَّارِ وَلَا إِهْمَالٌ لِمَنْفَعَتِهَا . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَيَخْفَى جَمِيعُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْبَصَرِ الْعَارِفِينَ بِالْبِنَاءِ وَأَحْوَالِهِ الْمُسْتَدِلِّينَ عَلَيْهَا بِالْمَعَايِدِ وَالْقَمَطِ وَمَرَائِزِ الْخَشَبِ وَمِثْلِ الْحَيْطَانِ وَاعْتِدَالِهَا وَقِسَمِ الْمَسَاكِينِ عَلَى نِسْبَةِ أَوْضَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا وَتَسْرِيْبِ الْمِيَاهِ فِي الْقَنَوَاتِ مَجْلُوبَةٍ وَمَرْفُوعَةٍ بِحَيْثُ لَا تُضِرُّ بِمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُيُوتِ وَالْحَيْطَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَلَهُمْ بِهَذَا كُلِّهِ الْبَصَرُ وَالْخُبْرَةُ الَّتِي لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ . وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُونَ بِالْجُودَةِ وَالْقُصُورِ فِي الْأَجْيَالِ بِاعْتِبَارِ الدُّوَلِ وَقُوَّتِهَا . فَإِنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ وَكَمَالَهَا ، إِنَّمَا هُوَ بِكَمَالِ الْحِصَارَةِ وَكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ الطَّالِبِ لَهَا . فَلِذَلِكَ عِنْدَمَا تَكُونُ الدُّوْلَةُ بَدَوِيَّةً فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَفْتَقِرُ فِي أَمْرِ الْبِنَاءِ إِلَى غَيْرِ قُطْرِهَا . كَمَا وَقَعَ لِلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ أَجْمَعَ عَلَى بِنَاءِ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ وَالْقُدْسِ وَمَسْجِدِهِ بِالشَّامِ . فَبَعَثَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي الْفَعْلَةِ الْمَهْرَةِ فِي الْبِنَاءِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مَنْ حَصَلَ ^(٣) لَهُ غَرَضُهُ مِنْ تِلْكَ الْمَسَاجِدِ وَقَدْ يَعْرِفُ صَاحِبُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَشْيَاءَ مِنَ الْهَنْدَسَةِ مِثْلَ تَسْوِيَةِ الْحَيْطَانِ بِالْوِزْنِ وَإِجْرَاءِ الْمِيَاهِ بِأَخْذِ الِارْتِفَاعِ

(١) وفي نسخة أخرى ، الكثيرة .

(٢) وفي نسخة أخرى ، اعتلال .

(٣) وفي النسخة الباريسية : بمن كمل له غرضه .

وَأَمْثَالِ ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ إِلَى الْبَصَرِ بِشَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ . وَكَذَلِكَ فِي جَرِّ الْأَثْقَالِ بِالْهِنْدَامِ فَإِنَّ الْأَجْرَامَ الْعَظِيمَةَ إِذَا شِيدَتْ بِالْحِجَارَةِ الْكَبِيرَةِ يَعْجِزُ قُدْرُ الْفَعْلَةِ عَنْ رَفْعِهَا إِلَى مَكَانِهَا مِنَ الْحَائِطِ فَيَتَحَيَّلُ لِذَلِكَ بِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْحَبْلِ بِإِذْخَالِهِ فِي الْمَعَالِقِ مِنْ أَثْقَابِ مُقَدَّرَةٍ عَلَى نِسْبِ هَنْدَسِيَّةٍ تُصَيِّرُ الثَّقِيلَ عِنْدَ مُعَانَاةِ الرُّفْعِ خَفِيفًا فَيَتِمُّ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ بِغَيْرِ كِلْفَةٍ وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ بِأُصُولِ هَنْدَسِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ مُتَدَاوِلَةٍ بَيْنَ الْبَشَرِ وَبِمِثْلِهَا كَانَ بِنَاءُ الْهَيْكَلِ الْمَائِلَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّتِي يُحَسَّبُ أَنَّهَا مِنْ بِنَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَأَنْ أَبْدَانَهُمْ كَانَتْ عَلَى نِسْبَتِهَا فِي الْعِظَمِ الْجِسْمَانِيِّ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ بِالْحِيلِ الْهَنْدَسِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . فَتَفْهَمُ ذَلِكَ . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ .

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْعُمَرَانِ وَمَادَّتُهَا الْخَشَبُ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ لِلْآدَمِيِّ فِي كُلِّ مُكُونٍ مِنَ الْمَكُونَاتِ مَنَافِعَ تَكْمُلُ بِهَا ضَرُورَاتُهُ وَكَانَ مِنْهَا الشَّجَرُ فَإِنَّ لَهُ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ مَا لَا يَنْحَصِرُ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ لِكُلِّ أَحَدٍ . وَمِنْ مَنَافِعِهَا اتِّخَاذُهَا خَشْبًا إِذَا يَبَسَتْ وَأَوَّلُ مَنَافِعِهِ أَنْ يَكُونَ وَقُودًا لِلنَّيِّرَانِ فِي مَعَاشِهِمْ وَعَصِيًّا لِلِاتِّكَاءِ وَالذُّودِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَدَعَائِمِ لِمَا يُخْشَى مِثْلُهُ مِنْ أَثْقَالِهِمْ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَافِعُ أُخْرَى لِأَهْلِ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ فَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَيَتَّخِذُونَ مِنْهَا الْعِمْدَ وَالْأَوْتَادَ لِخِيَامِهِمْ وَالْحُدُوجَ لِظَعَائِنِهِمْ وَالرِّمَاحَ وَالْقِسِيَّ وَالسَّهَامَ لِسِلَاحِهِمْ وَأَمَّا أَهْلُ الْحَضَرِ فَالْسَّقْفَ لِبَيْوتِهِمْ وَالْأَغْلَاقَ لِأَبْوَابِهِمْ وَالْكَرَاسِيَّ لِجُلُوسِهِمْ . وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ فَالْخَشَبَةُ مَادَّةٌ لَهَا وَلَا تُصَيِّرُ إِلَى الصُّورَةِ الْخَاصَةِ بِهَا إِلَّا بِالصَّنَاعَةِ . وَالصَّنَاعَةُ الْمُتَكَفِّلَةُ بِذَلِكَ الْمُحْصَلَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ صُورِهَا هِيَ النَّجَارَةُ عَلَى اخْتِلَافِ رَتَبِهَا . فَيَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى تَفْصِيلِ الْخَشَبِ أَوَّلًا : إِمَّا بِخَشَبٍ أَصْفَرٍ أَوْ أَلَوَاجٍ .

ثُمَّ تَرْكَبُ تِلْكَ الْفَضَائِلُ بِحَسَبِ الصُّورِ الْمَطْلُوبَةِ . وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ يُحَاوِلُ
بِصُنْعَتِهِ إِعْدَادَ تِلْكَ الْفَضَائِلِ بِالِانْتِظَامِ إِلَى أَنْ تَصِيرَ أَعْضَاءُ لِدَلِكِ الشَّكْلِ
الْمَخْصُوصِ . وَالْقَائِمُ عَلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ هُوَ النَّجَّارُ وَهُوَ ضَرْبٌ فِي الْعَمَرَانِ . ثُمَّ إِذَا
عَظُمَتِ الْحَضَارَةُ وَجَاءَ التَّرَفُّ وَتَأَنَّقَ النَّاسُ فِيمَا يَتَّخِذُونَهُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ سَقْفٍ
أَوْ بَابٍ أَوْ كُرْسِيٍّ أَوْ مَاعُونٍ ، حَدَثَ التَّائِقُ فِي صِنَاعَةِ ذَلِكَ وَاسْتِجَادَتِهِ بِغَرَائِبٍ مِنْ
الصَّنَاعَةِ كَمَا لِيَّةٌ لَيْسَتْ مِنَ الضَّرُورِيِّ فِي شَيْءٍ مِثْلِ التَّخْطِيطِ فِي الْأَبْوَابِ وَالْكَرَاسِيِّ
وَمِثْلِ تَنْهِيَةِ الْقِطْعِ مِنَ الْخَشَبِ بِصِنَاعَةِ الْخَرْطِ يُحْكَمُ بَزِيَّهَا وَتَشْكِيلُهَا ثُمَّ تُؤَلَّفُ
عَلَى نِسَبٍ مُقَدَّرَةٍ وَتُلَحَمُ بِالْدَّسَائِرِ فَتَبْدُو لِرَأْيِ^(١) الْعَيْنِ مُلْتَحِمَةً وَقَدْ أَخَذَ مِنْهَا
اخْتِلَافُ الْأَشْكَالِ عَلَى تَنَاسُبٍ . يُصْنَعُ هَذَا فِي كُلِّ شَيْءٍ يَتَّخَذُ مِنَ الْخَشَبِ فَيُجِيءُ أَتَقَ
مَا يَكُونُ . وَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ مَا يُخْتِاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْآلَاتِ الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الْخَشَبِ مِنْ
أَيِّ نَوْعٍ كَانَ . وَكَذَلِكَ قَدْ يُخْتِاجُ إِلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي إِنْشَاءِ الْمَرَائِكِ الْبَحْرِيَّةِ ذَاتِ
الْأَلْوَجِ وَالْدُّسْرِ وَهِيَ أَجْرَامٌ هَنْدَسِيَّةٌ صُنِعَتْ عَلَى قَالِبِ الْحَوْتِ وَاعْتِبَارِ سَبْحِهِ فِي
الْمَاءِ بِقَوَادِمِهِ وَكُلِّكَلِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ الشَّكْلُ أَغْوَى لَهَا فِي مُضَادَمَةِ الْمَاءِ وَجَعَلَ لَهَا
عَوَضَ الْحَرَكَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي لِلْسَّمَكِ تَحْرِيكَ الرِّيَّاحِ . وَرُبَّمَا أَعِينَتْ بِحَرَكَةِ
الْمَقَادِيفِ كَمَا فِي الْأَسَاطِيلِ . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ أَصْلِهَا مُخْتِاجَةٌ إِلَى أَصْلٍ^(٢) كَبِيرٍ
مِنَ الْهَنْدَسَةِ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِهَا لِأَنَّ إِخْرَاجَ الصُّورِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ عَلَى وَجْهِ
الْإِحْكَامِ مُخْتِاجٌ إِلَى مَعْرِفَةِ التَّنَاسُبِ فِي الْمَقَادِيرِ إِمَّا عُمُومًا أَوْ خُصُوصًا وَتَنَاسُبُ
الْمَقَادِيرِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى الْمُهَنْدِسِ . وَلِهَذَا كَانَتْ أَيْمَةُ الْهَنْدَسَةِ الْيُونَانِيُّونَ
كُلُّهُمْ أَيْمَةً فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَكَانَ أَوْقْلِيدُوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْأُصُولِ فِي الْهَنْدَسَةِ
نَجَّارًا وَبِهَا كَانَ يُعْرَفُ . وَكَذَلِكَ أَبُلُونِيوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْمَخْرُوطَاتِ وَمِيلَاوُسُ
وغيرَهُمْ . وَفِيمَا يُقَالُ ، أَنَّ مُعَلِّمَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي الْخَلِيقَةِ هُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِهَا
أُنْشِئَتْ سَفِينَةُ النُّجَاةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا مُعْجِزَتُهُ عِنْدَ الطُّوفَانِ . وَهَذَا الْخَبَرُ وَإِنْ كَانَ

(١) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ، بِالْدَّسَائِرِ فَتَبْدُو لِمَرَأَى . .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ، جِزء .

مُمْكِنًا أَغْنِي كَوْنَهُ نَجَارًا إِلَّا أَنْ كَوْنَهُ أَوَّلَ مَنْ عَلَّمَهَا أَوْ تَعَلَّمَهَا لَا يَقُومُ دَلِيلٌ مِنَ النَّقْلِ عَلَيْهِ لِتَبَعِدِ الْأَمَادِ . وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْإِشَارَةَ إِلَى قَدَمِ النَّجَارَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَصُحَّ حِكَايَةُ عَنْهَا قَبْلَ خَبَرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجَعَلَ كَأَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ تَعَلَّمَهَا . فَتَفَهَّمْ أَسْرَارَ الصَّنَائِعِ فِي الْخَلِيقَةِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل السابع والعشرون

في صناعة الحياكة والخياطة

إِغْلَمْ أَنَّ الْمُعْتَدِلِينَ مِنَ الْبَشَرِ فِي مَعْنَى الْإِنْسَانِيَّةِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْفِكْرِ فِي الدَّفْءِ كَالْفِكْرِ فِي الْكِنِّ . وَيَخْصُلُ الدَّفْءُ بِاشْتِمَالِ الْمَنْسُوجِ لِلْوَقَايَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ . وَلَا بُدَّ لِذَلِكَ مِنَ الْإِحَامِ الْغَزْلِ حَتَّى يَصِيرَ ثَوْبًا وَاحِدًا ، وَهُوَ النَّسِجُ وَالْحَيَاكَةُ . فَإِنْ كَانُوا بِإِدْيَةٍ اقْتَصَرُوا عَلَيْهِ ، وَإِنْ قَالُوا إِلَى الْحَضَارَةِ فَصَلُّوا تِلْكَ الْمَنْسُوجَةَ قِطْعًا يَقْدِرُونَ مِنْهَا ثَوْبًا عَلَى الْبَدَنِ بِشَكْلِهِ وَتَعَدُّدِ أَعْضَائِهِ وَاخْتِلَافِ نَوَاجِيهَا . ثُمَّ يَلَاثِمُونَ بَيْنَ تِلْكَ الْقِطْعِ بِالْوَصَائِلِ حَتَّى تَصِيرَ ثَوْبًا وَاحِدًا عَلَى الْبَدَنِ وَيَلْبَسُونَهَا . وَالصَّنَاعَةُ الْمُحْصَلَةُ لِهَذِهِ الْمَلَأَمَةِ هِيَ الْخِيَاطَةُ .

هَاتَانِ الصَّنَاعَتَانِ ضَرُورَتَانِ فِي الْعُمَرَانِ لِمَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ الرَّفْعِ^(١) فَالْأَوَّلَى لِنَسِجِ الْغَزْلِ مِنَ الصُّوفِ وَالْكَتَّانِ وَالْقُطْنِ إِسْدَاءً فِي الطُّوْلِ وَالْحَامًا فِي الْقُرْصِ وَإِحْكَامًا لِذَلِكَ النَّسِجِ بِالِالْتِحَامِ الشَّدِيدِ ، فَيَتِمُّ مِنْهَا قِطْعٌ مُقَدَّرَةٌ ، فَمِنْهَا الْأَكْسِيَّةُ مِنَ الصُّوفِ لِلِاشْتِمَالِ ، وَمِنْهَا الثِّيَابُ مِنَ الْقُطْنِ وَالْكَتَّانِ لِلْبَاسِ . وَالصَّنَاعَةُ الثَّانِيَّةُ لِتَقْدِيرِ الْمَنْسُوجَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَشْكَالِ وَالْعَوَائِدِ ، تَفْصُلُ بِالْمِقْرَاضِ قِطْعًا مُنَاسِبَةً لِلْأَعْضَاءِ الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ تُلْحَمُ تِلْكَ الْقِطْعُ بِالْخِيَاطَةِ الْمُحْكَمَةِ وَضَلًا أَوْ تَنْبِيئًا أَوْ تَفْسُحًا^(٢) عَلَى حَسَبِ نَوْعِ الصَّنَاعَةِ . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مُخْتَصَّةٌ

(١) وفي النسخة الباريسية ، من الدَّفْءِ .

(٢) وفي نسخة أخرى ، أَوْ تَفْتِيحًا .

بِالْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ لِمَا أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ يَسْتَعْتُونَ عَنْهَا وَإِنَّمَا يَشْتَمِلُونَ الْأَثْوَابَ
 اشْتِمَالًا . وَإِنَّمَا تَفْصِيلُ الثِّيَابِ وَتَقْدِيرُهَا وَالْحَامِيَّةُ بِالْخِيَاطَةِ لِلْبَاسِ مِنْ مَذَاهِبِ
 الْحِضَارَةِ وَفُنُونِهَا . وَتَفْهَمُ هَذِهِ فِي سِرِّ تَحْرِيمِ الْمَخِيطِ فِي الْحَجِّ لِمَا أَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْحَجِّ
 مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَبَذِ الْعَلَائِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ كُلِّهَا وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى « كَمَا خَلَقْنَا أَوَّلَ
 مَرَّةٍ ، حَتَّى لَا يَعْلُقَ الْعَبْدُ قَلْبَهُ بِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِ تَرْفِهِ ، لَا طَبِيبًا وَلَا نِسَاءً وَلَا
 مَخِيطًا وَلَا خُفًا ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِصَيْدٍ وَلَا لِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِهِ الَّتِي تَلَوَّنَتْ ^(١) بِهَا نَفْسُهُ
 وَخُلِقَ . مَعَ أَنَّهُ يُفْقِدُهَا بِالْمَوْتِ ضَرُورَةً . وَإِنَّمَا يَجِيءُ كَأَنَّهُ وَارِدٌ إِلَى الْمَحْشَرِ
 ضَارِعًا بِقَلْبِهِ مُخْلِصًا لِرَبِّهِ . وَكَانَ جَزَاؤُهُ إِنْ تَمَّ لَهُ إِخْلَاصُهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ
 ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ . سُبْحَانَكَ مَا أَزْفَقَكَ بِعِبَادِكَ وَأَرْحَمَكَ بِهِمْ فِي طَلَبِ
 هَذَايَتِيهِمْ إِلَيْكَ . وَهَاتَانِ الصَّنَعَتَانِ قَدِيمَتَانِ فِي الْخَلِيقَةِ لِمَا أَنَّ الدَّفْعَ ضَرُورِيَّ
 لِلْبَشَرِ فِي الْعُمَرَانِ الْمُعْتَدِلِ . وَأَمَّا الْمُنْحَرَفُ إِلَى الْحَرِّ فَلَا يَخْتَاجُ أَهْلُهُ إِلَى دِفْعٍ .
 وَلِهَذَا يَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنَ السُّودَانِ أَنَّهُمْ عَرَاءَةٌ فِي الْغَالِبِ . وَلَقَدْ قَدَّمَ هَذِهِ
 الصَّنَائِعَ يَنْسِبُهَا الْعَامَّةُ إِلَى إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ أَقْدَمُ الْأَنْبِيَاءِ . وَرُبَّمَا يَنْسِبُونَهَا
 إِلَى هِرْمِسَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هِرْمِسَ هُوَ إِدْرِيسُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْخَلَّاقُ
 الْعَلِيمُ .

الفصل الثامن والعشرون

في صناعة التوليد

وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُعْرِفُ بِهَا الْعَمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَوْلُودِ الْآدَمِيِّ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ مِنْ
 الرُّفْقِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ رَحِمِهَا وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ ذَلِكَ . ثُمَّ مَا يُضْلِحُهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ عَلَى
 مَا نَذَكُرُ . وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالنِّسَاءِ فِي غَالِبِ الْأُمُورِ لِمَا أَنَّهُنَّ الظَّاهِرَاتُ بَعْضُهُنَّ عَلَى
 عَوَارِثِ بَعْضٍ . وَتُسَمَّى الْقَائِمَةُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُنَّ الْقَابِلَةُ . اسْتَعِيرَ فِيهَا مَعْنَى الْإِعْطَاءِ

(١) وفي نسخة أخرى : تكونت .

وَالْقَبُولِ كَانَ النَّفْسَاءُ تُعْطِيهَا الْجَنِينَ وَكَانَتْهَا تَقْبَلُهُ . وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنِينَ إِذَا اسْتَكْمَلَ خَلْقَهُ فِي الرَّحِمِ وَأَطْوَارَهُ وَبَلَغَ إِلَى غَايَتِهِ وَالْمُدَّةُ الَّتِي قَدَّرَهَا اللَّهُ لِمَكْنَتِهِ هِيَ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ فِي الْغَالِبِ فَيَطْلُبُ الْخُرُوجَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي الْمَوْلُودِ مِنَ الزُّرُوعِ لِذَلِكَ وَيَضِيقُ عَلَيْهِ الْمَنَفَذُ فَيَعْسُرُ . وَرُبَّمَا مَزَقَ بَعْضَ جَوَانِبِ الْفَرْجِ بِالضُّغْطِ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ بَعْضُ مَا كَانَ مِنَ الْأَغْشِيَةِ مِنَ الْإِلْتِصَاقِ وَالْإِلْتِحَامِ بِالرَّحِمِ . وَهَذِهِ كُلُّهَا آلَاءٌ يَشْتَدُّ لَهَا الْوَجَعُ وَهُوَ مَعْنَى الطَّلَقِ فَتَكُونُ الْقَابِلَةُ مُعَيَّنَةً فِي ذَلِكَ بُعْضُ الشَّيْءِ بِغَمَزِ الظَّهْرِ وَالْوَرَكَيْنِ وَمَا يُخَاذِي الرَّحِمَ مِنَ الْأَسَافِلِ تُسَاقُ بِذَلِكَ فِعْلُ الدَّافِعَةِ فِي إِخْرَاجِ الْجَنِينَ وَتَسْهِيلِ مَا يَضَعُوبُ مِنْهُ بِمَا يُمَكِّنُهَا وَعَلَى مَا تَهْتَدِي إِلَى مَعْرِفَةِ عُسْرَةِ . ثُمَّ إِنْ أُخْرِجَ الْجَنِينَ بَقِيَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّحِمِ الْوَصْلَةُ حَيْثُ كَانَ يَتَغَذَّى مِنْهَا مُتَّصِلَةً مِنْ سُرَّتِهِ بِمَعَاةٍ . وَتِلْكَ الْوَصْلَةُ عَضْوٌ فَضِلِّي لِتَغْذِيَةِ الْمَوْلُودِ خَاصَّةً فَتَقْطَعُهَا الْقَابِلَةُ مِنْ حَيْثُ لَا تَتَعَدَّى مَكَانَ الْفَضْلَةِ وَلَا تُضِرُّ بِمَعَاةٍ وَلَا يَرْحِمُ أُمُّهُ ثُمَّ تَذْمِلُ مَكَانَ الْجِرَاحَةِ مِنْهُ بِالْكَيْ أَوْ بِمَا تَرَاهُ مِنْ وَجْهِهِ الْإِنْدِمَالِ . ثُمَّ إِنْ الْجَنِينَ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَنَفَذِ الضِّيقِ وَهُوَ رَطْبُ الْعِظَامِ سَهْلُ الْإِنْعِطَافِ وَالْإِنْشَاءِ فَرُبَّمَا تَتَغَيَّرُ أَشْكَالُ أَعْضَائِهِ وَأَوْضَاعُهَا لِقُرْبِ التَّكْوِينِ وَرُطُوبِيَةِ الْمَوَادِّ فَتَتَنَاوَلُهُ الْقَابِلَةُ بِالْغَمَزِ وَالْإِضْلَاحِ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَضْوٍ إِلَى شَكْلِهِ الطَّبِيعِيِّ وَوَضْعِهِ الْمُقَدَّرَ لَهُ وَيَرْتَدُّ خَلْقُهُ سَوِيًّا . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُرَاجِعُ النَّفْسَاءُ وَتُخَاذِيهَا بِالْغَمَزِ وَالْمَلَايِنَةِ لِخُرُوجِ أَغْشِيَةِ الْجَنِينَ لِأَنَّهَا رُبَّمَا تَتَأَخَّرُ عَنْ خُرُوجِهِ قَلِيلًا . وَيُخْشَى عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْمَاسِكَ حَالَهَا الطَّبِيعِيَّةَ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ خُرُوجِ الْأَغْشِيَةِ وَهِيَ فَضَلَاتٌ فَتَتَغَفَّنُ وَيَسْرِي عَفْنُهَا إِلَى الرَّحِمِ فَيَقَعُ الْهَلَاكُ فَتُخَاذِرُ الْقَابِلَةُ هَذَا وَتُحَاوِلُ فِي إِعَانَةِ الدَّفْعِ إِلَى أَنْ تَخْرُجَ تِلْكَ الْأَغْشِيَةُ الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَأَخَّرَتْ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى الْمَوْلُودِ فَتَمْرُجُ^(١) أَعْضَاءَهُ بِالْأَذْهَانِ وَالذَّرُورَاتِ^(٢) الْقَابِضَةِ لِتَشْدِهِ وَتَجَفَّفَ رُطُوبَاتِ الرَّحِمِ وَتَحْنُكُهُ لِرَفْعِ لَهَاتِهِ وَتُسْعِطُهُ لِاسْتِفْرَاجِ نُطُوفِ دِمَاجِهِ وَتَغْرِغْرُهُ بِاللَّمْعُوقِ لِدَفْعِ السُّدِّ مِنْ مَعَاةٍ وَتَجْوِيفِهَا عَنْ

(١) تَمْرُجُ : تَدَهْنُ (قَامُوس) .

(٢) الذَّرُورَاتُ : جِاذِرَةٌ وَهُوَ مَا يَنْزِلُ فِي الْعَيْنِ أَوْ الْجِرْحِ مِنْ دَوَاءٍ .

الْإِلْتِصَاقِ . ثُمَّ تُدَاوِي النَّفْسَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَهَنِ الَّذِي أَصَابَهَا بِالطَّلَقِ وَمَا لِحَقِّ
 رَحِمِهَا مِنْ أَلَمِ الْإِنْفِصَالِ . إِذَ الْمَوْلُودُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عُضْوًا طَبِيعِيًّا فَحَالَةُ التَّكْوِينِ فِي
 الرَّحِمِ صَيْرَتُهُ بِالْإِلْتِحَامِ كَالْعُضْوِ الْمُتَّصِلِ فَلِذَلِكَ كَانَ فِي انْفِصَالِهِ أَلَمٌ يَقْرُبُ مِنْ أَلَمِ
 الْقَطْعِ . وَتُدَاوِي مَعَ ذَلِكَ مَا يَلْحَقُ الْفَرْجَ مِنَ أَلَمٍ مِنْ جِرَاحَةِ التَّمْزِيقِ عِنْدَ الضَّغْطِ
 فِي الْخُرُوجِ . وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدْوَاءُ نَجِدُ هَؤُلَاءِ الْقَوَائِلَ أَبْصَرَ بِدَوَائِهَا . وَكَذَلِكَ
 مَا يَغْرِضُ لِلْمَوْلُودِ مَدَّةَ الرُّضَاعِ مِنْ أَدْوَاءَ فِي بَدَنِهِ إِلَى حِينِ الْفِصَالِ نَجِدُهُنَّ أَبْصَرَ
 بِهَا مِنَ الطَّبِيبِ الْمَاهِرِ . وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِنَّمَا هُوَ بَدَنُ
 إِنْسَانِيٍّ بِالْقُوَّةِ فَقَطْ . فَإِذَا جَاوَزَ الْفِصَالِ صَارَ بَدَنًا إِنْسَانِيًّا بِالْفِعْلِ فَكَانَتْ حَاجَتُهُ
 حِينَئِذٍ إِلَى الطَّبِيبِ أَشَدَّ . فَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ كَمَا تَرَاهُ ضَرُورِيَّةٌ فِي الْعُمَرَانِ لِلنُّوعِ
 الْإِنْسَانِيِّ ، لَا يَتِمُّ كَوْنُ أَشْخَاصِهِ فِي الْغَالِبِ دُونَهَا . وَقَدْ يَغْرِضُ لِبَعْضِ أَشْخَاصِ
 النَّوْعِ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، إِمَّا بِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ لَهُمْ مَعْجَزَةً وَخَرَقًا لِلْعَادَةِ
 كَمَا فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَوْ بِالْإِلَهَامِ وَهَدَايَةِ يُلْهِمُ لَهَا الْمَوْلُودُ
 وَيُفْطِرُ عَلَيْهَا فَيَتِمُّ وَجُودُهُمْ مِنْ دُونِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . فَأَمَّا شَأْنُ الْمَعْجَزَةِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ
 وَقَعَ كَثِيرًا . وَمِنْهُ مَا رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَلِدَ مُسْرُورًا مَخْتُونًا وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى
 الْأَرْضِ شَاخِصًا يَبْصُرُهُ إِلَى السَّمَاءِ . وَكَذَلِكَ شَأْنُ عِيسَى فِي الْمَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَأَمَّا
 شَأْنُ الْإِلَهَامِ فَلَا يُنْكَرُ . وَإِذَا كَانَتْ الْحَيَوَانَاتُ الْعُجْمُ تُخْتَصُّ بِغَرَائِبِ الْإِلَهَامَاتِ
 كَالنَّحْلِ وَغَيْرِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِالْإِنْسَانِ الْمُفْضَلِ عَلَيْهَا . وَخُصُوصًا بِمَنِ اخْتَصَّ
 بِكَرَامَةِ اللَّهِ . ثُمَّ الْإِلَهَامُ الْعَامُّ لِلْمَوْلُودِينَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى الثُّدِيِّ أَوْضَحُ شَاهِدٍ عَلَى
 وَجُودِ الْإِلَهَامِ الْعَامِّ لَهُمْ . فَشَأْنُ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَخَاطَبَ بِهِ . وَمِنْ هُنَا
 يَفْهَمُ بَطْلَانُ رَأْيِ الْفَرَايِبِيِّ وَحُكْمَاءِ الْأَنْدَلُسِ فِيمَا اخْتَجَّجُوا بِهِ لِعَدَمِ انْقِرَاضِ الْأَنْوَاعِ
 وَاسْتِحَالَةِ انْقِطَاعِ الْمَكُونَاتِ . وَخُصُوصًا فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَقَالُوا : لَوْ انْقَطَعَتْ
 أَشْخَاصُهُ لَاسْتَحَالَ وَجُودُهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِتَوَقُّفِهِ عَلَى وَجُودِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي لَا يَتِمُّ
 كَوْنُ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِهَا . إِذْ لَوْ قَدَرْنَا مَوْلُودًا دُونَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكَفَّالَتِهَا إِلَى حِينِ

الفَصَالُ (١) لَمْ يَتِمَّ بَقَاؤُهُ أَضْلاً . وَوُجُودُ الصَّنَائِعِ دُونَ الْفِكْرِ مُمْتَنِعٌ لِأَنَّهَا تَمَرَّتُهُ وَتَابِعَةٌ لَهُ . وَتَكَلَّفَ ابْنُ سِينَا فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ لِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُ وَذَهَابِهِ إِلَى إِمْكَانِ انْقِطَاعِ الْأَنْوَاعِ وَخَرَابِ عَالَمِ التَّكْوِينِ ثُمَّ عَوَّدَهُ ثَانِياً لِاقْتِضَاءِاتِ فَلَكِيَّتِهِ وَأَوْضَاعِ غَرِيبَةٍ تَنْذُرُ فِي الْأَحْقَابِ بِزَعْمِهِ فَتَقْتَضِي تَخْمِيرَ طِينَةٍ مُنَاسِبَةٍ لِمَزَاجِهِ بِحَرَارَةٍ مُنَاسِبَةٍ فَيَتِمُّ كَوْنُهُ إِنْسَاناً ثُمَّ يَقْبِضُ لَهُ حَيَوَانٌ يُخْلَقُ فِيهِ إِلَهَاماً لِتَرْبِيَّتِهِ وَالْحَنُوءَ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَجُودُهُ وَفَضَالُهُ . وَأُطْنَبَ فِي بَيَانِ ذَلِكَ فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي سَمَّاهَا رِسَالَةً حَيٍّ بَنِي يَقْظَانِ . وَهَذَا الْإِسْتِدْلَالُ غَيْرُ صَحِيحٍ وَإِنْ كُنَّا نُوَافِقُهُ عَلَى انْقِطَاعِ الْأَنْوَاعِ لَكِنْ مِنْ غَيْرِ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ . فَإِنَّ دَلِيلَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى إِسْنَادِ الْأَفْعَالِ إِلَى الْعِلَّةِ الْمُوجِبَةِ . وَدَلِيلُ الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ يَرُدُّ عَلَيْهِ وَلَا وَاسِطَةَ عَلَى الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ بَيْنَ الْأَفْعَالِ وَالْقُدْرَةِ الْقَدِيمَةِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا التَّكَلُّفِ . ثُمَّ لَوْ سَلَّمْنَاهُ جَدَلاً فَقَايَةً مَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ اطِّرَادُ وُجُودِ هَذَا الشَّخْصِ بِخُلُقِ الْإِلَهَامِ لِتَرْبِيَّتِهِ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ . وَمَا الصُّرُورَةُ الدَّاعِيَةُ لِذَلِكَ ؟ وَإِذَا كَانَ الْإِلَهَامُ يُخْلَقُ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ فَمَا الْمَنَاعُ مِنْ خَلْقِهِ لِلْمَوْلُودِ نَفْسِهِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا . وَخُلُقِ الْإِلَهَامِ فِي شَخْصٍ لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ أَقْرَبُ مِنْ خَلْقِهِ فِيهِ لِمَصَالِحِ غَيْرِهِ فَكِلَا الْمَذْهَبَيْنِ شَاهِدَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِالْبُطْلَانِ فِي مَنَاجِحِهِمَا لِمَا قَرَّرْتَهُ لَكَ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وانها محتاج إليها في الخواضر
والأمصار دون البادية

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ ضَرُورِيَّةٌ فِي الْمَدَنِ وَالْأَمْصَارِ لِمَا عُرِفَ مِنْ فَائِدَتِهَا فَإِنْ تَمَرَّتْهَا حِفْظُ الصَّحَّةِ لِلْأَصِحَّاءِ وَدَفْعُ الْمَرَضِ عَنِ الْمَرْضَى بِالْمُدَاوَاةِ حَتَّى يَخْصُلَ لَهُمُ الْبَرَاءُ مِنْ أَمْرَاضِهِمْ . وَاعْلَمْ أَنَّ أَضْلَ الْأَمْرَاضِ كُلِّهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَغْذِيَةِ كَمَا قَالَ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْجَامِعِ لِلطَّبِّ وَهُوَ قَوْلُهُ : « الْمَعْدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ وَالْجَفْمَةُ

(١) وفي النسخة الباريسية ، الانفصال .

رَأْسُ الدَّوَاءِ وَأَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرْدَةُ « فَأَمَّا قَوْلُهُ الْمِعْدَةُ بَيَّنَّتِ الدَّاءَ فَهُوَ ظَاهِرٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ الْحِمِيَّةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ فَالْحِمِيَّةُ الْجُوعُ وَهُوَ الْإِحْتِمَاءُ مِنَ الطَّعَامِ . وَالْمَعْنَى أَنَّ الْجُوعَ هُوَ الدَّوَاءُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْأَدْوِيَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُ أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرْدَةُ ^(١) » فَمَعْنَى الْبَرْدَةُ إِدْخَالُ الطَّعَامِ عَلَى الطَّعَامِ فِي الْمِعْدَةِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ هَضْمُ الْأَوَّلِ . وَشَرَحَ هَذَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَحَفِظَ حَيَاتَهُ بِالْغِذَاءِ يَسْتَعْمِلُهُ بِالْأَكْلِ وَيُنْفِذُ فِيهِ الْقُوَى الْهَاضِمَةَ وَالْعَازِيَةَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ دَمًا مُلَائِمًا لِأَجْزَاءِ الْبَدَنِ مِنَ اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ . ثُمَّ تَأْخُذُهُ النَّامِيَّةُ فَيَنْقَلِبُ لَحْمًا وَعَظْمًا . وَمَعْنَى الْهَضْمِ طَبْخُ الْغِذَاءِ بِالْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ حَتَّى يَصِيرَ جُزْءًا بِالْفِعْلِ مِنَ الْبَدَنِ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ الْغِذَاءَ إِذَا حَصَلَ فِي الْفَمِ وَلَاكْتُهُ الْأَشْدَاقُ أَثَرَتْ فِيهِ حَرَارَةُ الْفَمِ طَبْخًا يَسِيرًا وَقَلَبَتْ مِزَاجَهُ بَغْضَ الشَّيْءِ . كَمَا تَرَاهُ فِي اللَّقْمَةِ إِذَا تَنَاوَلْتَهَا طَعَامًا ثُمَّ أَجَدْتَهَا مَضْغًا فَتَرَى مِزَاجَهَا غَيْرَ مِزَاجِ الطَّعَامِ ثُمَّ يَخْصُلُ فِي الْمِعْدَةِ فَتَطْبُخُهُ حَرَارَةُ الْمِعْدَةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ كَيْمُوسًا وَهُوَ صَفْوُ ذَلِكَ الْمَطْبُوخِ وَتُرْسَلُهُ إِلَى الْكَبِدِ وَتُرْسَلُ مَا رَسَبَ مِنْهُ فِي الْمِعَى ثَقُلًا يَنْفِذُ إِلَى الْمَخْرَجَيْنِ . ثُمَّ تَطْبُخُ حَرَارَةُ الْكَبِدِ ذَلِكَ الْكَيْمُوسَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ دَمًا غَبِيطًا ^(٢) وَتَطْفُو عَلَيْهِ رَغْوَةٌ مِنَ الطَّبْخِ هِيَ الصَّفَرَاءُ . وَتُرْسَبُ مِنْهُ أَجْزَاءٌ يَابِسَةٌ هِيَ السُّودَاءُ وَيَقْصُرُ الْحَارُّ الْغَرِيزِيُّ بَغْضَ الشَّيْءِ عَنْ طَبْخِ الْغَلِيظِ مِنْهُ فَهُوَ الْبَلْغَمُ . ثُمَّ تُرْسَلُهَا الْكَبِدُ كُلُّهَا فِي الْعُرُوقِ وَالْجَدَاوِلِ . وَيَأْخُذُهَا طَبْخُ الْحَالِ ^(٣) الْغَرِيزِيُّ هُنَاكَ فَيَكُونُ عَنِ الدَّمِ الْخَالِصِ بُخَارَ حَارٍّ رَطْبٌ يُمِدُّ الرُّوحَ الْحَيَوَانِيَّ وَتَأْخُذُ النَّامِيَّةُ مَا خُذَهَا فِي الدَّمِ فَيَكُونُ لَحْمًا ثُمَّ غَلِيظُهُ عَظْمًا . ثُمَّ يُرْسَلُ الْبَدَنُ مَا يَفْضَلُ عَنْ حَاجَاتِهِ مِنْ ذَلِكَ فَصَلَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الْعَرَقِ وَاللَّعَابِ وَالْمَخَاطِ وَالِدَّمْعِ . هَذِهِ صُورَةُ الْغِذَاءِ وَخُرُوجِهِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ لَحْمًا . ثُمَّ إِنَّ أَصْلَ الْأَمْرَاضِ وَمُعْظَمَهَا هِيَ الْحُمَيَاتُ . وَسَبَبُهَا أَنَّ الْحَارَّ الْغَرِيزِيَّ قَدْ يَضَعُفُ عَنْ تَمَامِ ^(٤) النَّضِجِ فِي طَبْخِهِ فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ

(٢) الخالص الطري (قاموس) .

(١) التخمّة .

(٣) وفي نسخة أخرى : الحار .

(٤) وفي نسخة أخرى : إتمام .

هذه ، فَيَبْقَى ذَلِكَ الْغِذَاءُ دُونَ نُضِجٍ ، وَسَبَبُهُ غَالِبًا كَثْرَةُ الْغِذَاءِ فِي الْمِعْدَةِ حَتَّى يَكُونَ أَغْلَبَ عَلَى الْحَارِّ الْغَرِيزِيِّ أَوْ إِذْخَالَ الطَّعَامُ إِلَى الْمِعْدَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْفِيَ طَبْنُخَ الْأَوَّلِ فَيَسْتَقِلُّ^(١) بِهِ الْحَارُّ الْغَرِيزِيُّ وَيَتْرَكَ الْأَوَّلَ بِحَالِهِ أَوْ يَتَوَزَّعُ عَلَيْهِمَا فَيَقْصُرُ عَنْ تَمَامِ الطَّبْنُخِ وَالنُّضِجِ . وَتُرْسِلُهُ الْمِعْدَةُ كَذَلِكَ إِلَى الْكَبِدِ فَلَا تَقْوَى حَرَارَةُ الْكَبِدِ أَيْضًا عَلَى إِنْضَاجِهِ . وَرُبَّمَا بَقِيَ فِي الْكَبِدِ مِنَ الْغِذَاءِ الْأَوَّلِ فَضْلَةٌ غَيْرُ نَاضِجَةٍ . وَتُرْسِلُ الْكَبِدُ جَمِيعَ ذَلِكَ إِلَى الْعُرُوقِ غَيْرِ نَاضِجٍ كَمَا هُوَ . فَإِذَا أَخَذَ الْبَدَنُ حَاجَتَهُ الْمَلَأِمَةَ أَرْسَلَهُ مَعَ الْفَضْلَاتِ الْأُخْرَى مِنَ الْعَرَقِ وَالذَّمَعِ وَاللَّعَابِ إِنْ اقْتَدَرَ عَلَى ذَلِكَ . وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ الْكَثِيرِ مِنْهُ فَيَبْقَى فِي الْعُرُوقِ وَالْكَبِدِ وَالْمِعْدَةِ وَتَتَرَايِدُ مَعَ الْأَيَّامِ . وَكُلُّ ذِي رَطَوِيَّةٍ مِنَ الْمُفْتَرِجَاتِ إِذَا لَمْ يَأْخُذْهُ الطَّبْنُخُ وَالنُّضِجُ يَعْفَنُ فَيَتَعَفَّنُ ذَلِكَ الْغِذَاءُ غَيْرُ النَّاضِجِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْخِلْطِ . وَكُلُّ مُتَعَفِّنٍ فِيهِ حَرَارَةٌ غَرِيبَةٌ وَتِلْكَ هِيَ الْمُسَمَّاءُ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ بِالْحُمَى . وَاخْتَبَرَ^(٢) ذَلِكَ بِالطَّعَامِ إِذَا تَرَكَ حَتَّى يَتَعَفَّنَ وَفِي الزُّبْلِ إِذَا تَعَفَّنَ أَيْضًا ، كَيْفَ تَنْبَعِثُ فِيهِ الْحَرَارَةُ وَتَأْخُذُ مَأْخُذَهَا . فَهَذَا مَعْنَى الْحُمِيَّاتِ فِي الْأَبْدَانِ وَهِيَ رَأْسُ الْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهَا كَمَا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ . وَهَذِهِ الْحُمِيَّاتُ عِلَاجُهَا^(٣) يَقْطَعُ الْغِذَاءَ عَنِ الْمَرِيضِ أَسَابِيعَ مَعْلُومَةٍ ثُمَّ يَتَنَاوَلُ^(٤) الْأَغْذِيَّةَ الْمَلَأِمَةَ حَتَّى يَتِمَّ بُرْؤُهُ . وَذَلِكَ فِي خَالِ الصَّحَّةِ لَهُ عِلَاجٌ فِي التَّحْفِظِ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ وَغَيْرِهِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْعَفْنُ فِي عُضْوٍ مُخْصُوصٍ ، فَيَتَوَلَّدُ عَنْهُ مَرَضٌ فِي ذَلِكَ الْعُضْوِ وَيَخْذُثُ جِرَاحَاتٌ فِي الْبَدَنِ ، إِمَّا فِي الْأَعْضَاءِ الرَّئِيسِيَّةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا . وَقَدْ يَمْرُضُ الْعُضْوُ وَيَخْذُثُ عَنْهُ مَرَضُ الْقَوَى الْمَوْجُودَةِ لَهُ . هَذِهِ كُلُّهَا جُمَاعُ الْأَمْرَاضِ ، وَأَصْلُهَا فِي الْغَالِبِ مِنَ الْأَغْذِيَّةِ وَهَذَا كُلُّهُ مَرْفُوعٌ إِلَى الطَّبِيبِ . وَوَقُوعُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ فِي أَهْلِ الْحَضَرِ وَالْأَمْصَارِ أَكْثَرُ ، لِخَضْبِ عَيْشِهِمْ وَكَثْرَةِ مَا كَلِمِهِمْ وَقِلَّةِ اقْتِصَارِهِمْ عَلَى نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَغْذِيَّةِ وَعَدَمِ تَوْقِيتِهِمْ

(٢) وفي نسخة أخرى : واعتبر .

(١) وفي نسخة أخرى : فيشتغل .

(٣) وفي نسخة أخرى : علاجات .

(٤) وفي نسخة أخرى : ثم تناوله .

لِتَنَالُوهَا . وَكَثِيرًا مَا يَخْلِطُونَ بِالْأَغْذِيَةِ مِنَ التَّوَابِلِ وَالْبُقُولِ وَالْفَوَاكِهِ ، رَطْبًا
وَيَابِسًا فِي سَبِيلِ الْعِلَاجِ بِالطَّبِيخِ وَلَا يَقْتَصِرُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى نَوْعٍ أَوْ أَنْوَاعٍ . فَرُبَّمَا
عَدَدْنَا فِي الْيَوْمِ ^(١) الْوَاحِدِ مِنَ الْأَوَانِ الطَّبِيخِ أَرْبَعِينَ نَوْعًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ فَيَصِيرُ
لِلْغِذَاءِ مِزَاجٌ غَرِيبٌ . وَرُبَّمَا يَكُونُ غَرِيبًا ^(٢) عَنْ مَلَأَمَةِ الْبَدَنِ وَأَجْزَائِهِ . ثُمَّ إِنَّ
الْأَهْوِيَّةَ فِي الْأَمْصَارِ تَفْسُدُ بِمُخَالَطَةِ الْأَنْبَحِرَةِ الْعَفْنَةِ مِنْ كَثَرَةِ الْفَضَلَاتِ . وَالْأَهْوِيَّةُ
مُنْشَطَةٌ لِلْأَرْوَاحِ وَمَقْوِيَّةٌ بِنَشَاطِهَا الْأَثَرِ الْحَارِّ الْغَرِيزِيِّ فِي الْهَضْمِ . ثُمَّ الرِّيَاضَةُ
مَفْقُودَةٌ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذْ هُمْ فِي الْغَالِبِ وَادْعُونَ سَاكِنُونَ لَا تَأْخُذُ مِنْهُمْ الرِّيَاضَةُ
شَيْئًا وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِمْ أَثَرًا ، فَكَانَ وَقُوعُ الْأَمْرَاضِ كَثِيرًا فِي الْمَدَنِ وَالْأَمْصَارِ وَعَلَى قَدَرِ
وَقُوعِهِ كَانَتْ حَاجَتُهُمْ إِلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَمَا كَوَّلُهُمْ قَلِيلٌ فِي الْغَالِبِ
وَالْجُوعُ أَغْلَبُ عَلَيْهِمْ لِقَلَّةِ الْحُبُوبِ حَتَّى صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ عَادَةً . وَرُبَّمَا يُظَنُّ أَنَّهَا جَبِلَةٌ
لِاسْتِمْرَارِهَا . ثُمَّ الْأَدَمُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ أَوْ مَفْقُودَةٌ بِالْجُمْلَةِ . وَعِلَاجُ الطَّبِيخِ بِالتَّوَابِلِ
وَالْفَوَاكِهِ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَى تَرْفِ الْحَضَارَةِ الَّذِينَ هُمْ بِمَغْرَلٍ عَنْهُ فَيَتَنَالَوْنَ أَغْذِيَتَهُمْ
بَسِيطَةً بَعِيدَةً عَمَّا يُخَالِطُهَا وَيُقَرِّبُ مِزَاجَهَا مِنْ مَلَأَمَةِ الْبَدَنِ . وَأَمَّا أَهْوِيَتُهُمْ
فَقَلِيلَةٌ الْعَفْنِ لِقَلَّةِ الرُّطُوبَاتِ وَالْعَفُونَاتِ إِنْ كَانُوا أَهْلِينَ ، أَوْ لِاخْتِلَافِ الْأَهْوِيَّةِ إِنْ
كَانُوا ظَوَاعِنَ . ثُمَّ إِنَّ الرِّيَاضَةَ مَوْجُودَةً فِيهِمْ لِكَثَرَةِ الْحَرَكَةِ فِي رَكْضِ الْخَيْلِ أَوْ
الصَّيْدِ أَوْ طَلَبِ الْحَاجَاتِ لِمَهْنَةِ أَنْفُسِهِمْ فِي حَاجَاتِهِمْ فَيَحْسَنُ بِذَلِكَ كُلَّهُ الْهَضْمُ
وَيَجُودُ وَيُنْفَقُ إِذْ خَالَ الطَّعَامُ عَلَى الطَّعَامِ فَتَكُونُ أَمْرَجَتُهُمْ أَصْلَحَ وَأَبْعَدَ مِنَ
الْأَمْرَاضِ فَتَقِلُّ حَاجَتُهُمْ إِلَى الطَّبِّ . وَلِهَذَا لَا يُوْجَدُ الطَّبِيبُ فِي الْبَادِيَةِ بِوَجْهِهِ . وَمَا
ذَلِكَ إِلَّا لِلاِسْتِغْنَاءِ عَنْهُ إِذْ لَوْ اِخْتِيجَ إِلَيْهِ لَوُجِدَ ، لِأَنَّهُ يَكُونُ لَهُ بِذَلِكَ فِي الْبَدْوِ مَعَاشٌ
يَدْعُوهُ إِلَى سُكْنَاهُ « سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .

(١) وفي نسخة أخرى ، اللوث .

(٢) وفي نسخة أخرى ، بعيداً .

الفصل الثلاثون

في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وَهُوَ رُسُومٌ وَأَشْكَالٌ حَرْفِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الْكَلِمَاتِ الْمَسْمُوعَةِ الدَّالَّةِ عَلَى مَا فِي
النَّفْسِ . فَهُوَ ثَانِي رُتْبَةٍ مِنَ الدَّلَالَةِ اللَّغَوِيَّةِ وَهُوَ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ إِذْ الْكِتَابَةُ مِنَ
خَوَاصِّ الْإِنْسَانِ الَّتِي يُمَيِّزُ بِهَا عَنِ الْحَيَوَانِ . وَأَيْضاً فِيهَا تُطْلَعُ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ
وَتَتَأَدَّى بِهَا الْأَغْرَاضُ إِلَى الْبِلَادِ ^(١) الْبَعِيدَةِ فَتَقْضِي الْحَاجَاتِ وَقَدْ دَفَعَتْ مَوْئِنَهُ
الْمُبَاشَرَةَ لَهَا وَيُطْلَعُ بِهَا عَلَى الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَصُحُفِ الْأَوَّلِينَ وَمَا كَتَبُوهُ مِنْ
عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ فِيهَا شَرِيفَةٌ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ وَالْمَنَافِعِ . وَخُرُوجُهَا فِي الْإِنْسَانِ مِنَ
الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّعْلِيمِ وَعَلَى قَدَرِ الْإِجْتِمَاعِ وَالْعُمُرَانِ وَالتَّنَاقُغِيِّ فِي
الْكَمَالَاتِ وَالطَّلِبِ لِذَلِكَ تَكُونُ جُودَةُ الْخَطِّ فِي الْمَدِينَةِ إِذْ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ .
وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا شَأْنُهَا وَأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِلْعُمُرَانِ وَلِهَذَا نَجِدُ أَكْثَرَ الْبَنُو أُمِّيِّينَ
لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يَقْرَأُونَ وَمَنْ قَرَأَ مِنْهُمْ أَوْ كَتَبَ فَيَكُونُ خَطُّهُ قَاصِراً أَوْ قِرَاءَتُهُ غَيْرَ
نَافِذَةٍ . وَنَجِدُ تَعْلِيمَ الْخَطِّ فِي الْأَمْصَارِ الْخَارِجِ عُمُرَانُهَا عَنِ الْحَدِّ أُبْلَغَ وَأَحْسَنَ وَأَسْهَلَ
طَرِيقاً لِاسْتِحْكَامِ الصَّنْعَةِ فِيهَا . كَمَا يُخَكِّي لَنَا عَنْ مِصْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَنَّ بِهَا
مُعَلِّمِينَ مُنْتَصِبِينَ لِتَعْلِيمِ الْخَطِّ يُلْقُونَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ قَوَانِينَ وَأَحْكَاماً فِي وَضْعِ كُلِّ
حَرْفٍ وَيَزِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمُبَاشَرَةَ بِتَعْلِيمِ وَضْعِهِ فَتَعْتَصِدُ لَدَيْهِ رُتْبَةُ الْعِلْمِ وَالْحُسْنِ
فِي التَّعْلِيمِ وَتَأْتِي مَلَكَتُهُ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ . وَإِنَّمَا أَتَى هَذَا مِنْ كَمَالِ الصَّنَائِعِ وَوُفُورِهَا
بِكثَرَةِ الْعُمُرَانِ وَانْفِسَاحِ الْأَعْمَالِ وَقَدْ كَانَ الْخَطُّ الْعَرَبِيُّ بِالْغَا مَبَالِغَةً مِنَ الْإِحْكَامِ
وَالِإِثْقَانِ وَالْجُودَةِ فِي دَوْلَةِ التَّبَايَعَةِ لِمَا بَلَغَتْ مِنَ الْحِصَارَةِ وَالتَّرَفِ وَهُوَ الْمُسَمَّى
بِالْخَطِّ الْحِمِّيَرِيِّ . وَانْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْحِيرَةِ لِمَا كَانَ بِهَا مِنْ دَوْلَةِ آلِ الْمُنْذِرِ نُسْبَاءً
التَّبَايَعَةِ فِي الْعَصِيَّةِ وَالْمُجَدِّدِينَ لِمُلْكِ الْعَرَبِ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ . وَلَمْ يَكُنِ الْخَطُّ

(١) وفي نسخة أخرى ، البلد .

عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِجَادَةِ كَمَا كَانَ عِنْدَ التَّبَايَعَةِ لِقُصُورِ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ . وَكَانَتْ
الْحَضَارَةُ وَتَوَابُعُهَا مِنَ الصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا قَاصِرَةً عَنْ ذَلِكَ . وَمِنَ الْحِيَرَةِ لِقُنَّةِ أَهْلِ
الطَّائِفِ وَقَرِيْشٍ فِيمَا ذَكَرَ . وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ مِنَ الْحِيَرَةِ هُوَ سَفِيَانُ بْنُ
أُمَيَّةَ وَيُقَالُ حَرْبُ بْنُ أُمَيَّةَ وَأَخَذَهَا مِنْ أَسْلَمَ بْنِ سُدْرَةَ . وَهُوَ قَوْلٌ مُمَكِّنٌ وَأَقْرَبُ
مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوهَا مِنْ إِيَادِ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِقَوْلِ شَاعِرِهِمْ :

قَوْمٌ لَهُمْ سَاحَةُ الْعِرَاقِ إِذَا سَارُوا جَمِيعاً وَالْخَطُّ وَالْقَلَمُ

وَهُوَ قَوْلٌ يَعْنِدُ لَأَنَّ إِيَاداً وَإِنْ نَزَلُوا سَاحَةَ الْعِرَاقِ فَلَمْ يَزَالُوا عَلَى شَأْنِهِمْ مِنَ
الْبَدَاوَةِ . وَالْخَطُّ مِنَ الصَّنَائِعِ الْحَضَرِيَّةِ . وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْلِ الشَّاعِرِ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى
الْخَطِّ وَالْقَلَمِ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ لِقُرْبِهِمْ مِنْ سَاحَةِ الْأَنْصَارِ وَضَوَاحِيهَا فَالْقَوْلُ
بِأَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ إِنَّمَا لَقَّنُوها مِنَ الْحِيَرَةِ وَلَقَّنَهَا أَهْلُ الْحِيَرَةِ مِنَ التَّبَايَعَةِ وَحَمِيرٌ هُوَ
الْأَلْيَقُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَرَأَيْتُ فِي كِتَابِ التَّكْمِلَةِ لِابْنِ الْأَبَّارِ عِنْدَ التَّغْرِيفِ بِابْنِ فَرُوحَ
الْفَيْرَوَانِيِّ الْقَاسِي الْأَنْدَلُسِيِّ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
فَرُوحَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زِيَادِ بْنِ أَنْعَمَ . عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَبَّاسٍ : يَا مَعْشَرَ قَرِيْشٍ ، خَبَرُونِي عَنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ ، هَلْ كُنْتُمْ تَكْتَبُونَهُ
قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ تَجْمَعُونَ مِنْهُ مَا اجْتَمَعَ وَتَفْرُقُونَ مِنْهُ مَا افْتَرَقَ
مِثْلَ الْأَلِفِ وَاللَّامِ وَالْمِيمِ وَالنُّونِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قُلْتُ : وَمِمَّنْ أَخَذَ تَمَوْه ؟ قَالَ : مِنْ
حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ . قُلْتُ : وَمِمَّنْ أَخَذَهُ حَرْبُ ؟ قَالَ : مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ .
قُلْتُ : وَمِمَّنْ أَخَذَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدْعَانَ ؟ قَالَ : مِنْ أَهْلِ الْأَنْبَارِ . قُلْتُ : وَمِمَّنْ
أَخَذَهُ أَهْلُ الْأَنْبَارِ ؟ قَالَ : مِنْ طَارِيءٍ طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ . قُلْتُ : وَمِمَّنْ أَخَذَهُ
ذَلِكَ لَطَارِيءُ ؟ قَالَ : مِنَ الْخِلْجَانِ بْنِ الْقَسَمِ كَاتِبِ الْوَحْيِ لِيَهُودِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ
السَّلَامُ . وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

أَفِي كُلِّ عَامٍ سَنَةً تُحْدِثُونَهَا وَرَأَيْ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ يُعْبَرُ
وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةِ تَسْبُنَا بِهَا جَزَهُمْ فِيمَنْ يُسَبُّ وَحَمِيرُ

انتهى ما نقله ابن الأبار في كتاب التكملة . وزاد في آخره ، حدثني بذلك
أبو بكر بن أبي حمير في كتابه عن أبي بحر بن العاص عن أبي الوليد
الوقشي عن أبي عمر الطلعني بن أبي عبد الله بن مفرج . ومن خطه نقلته
عن أبي سعيد بن يونس عن محمد بن موسى بن النعمان عن يحيى بن
محمد بن حشيش بن عمر بن أيوب المغافري التونسي عن بهلول بن عبدة
الحمي عن عبد الله بن فروخ . انتهى .

وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمتنعون من تعلمها
إلا بإذنهم . ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين
لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان
والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الأكثر . وكانت
كتابة العرب بدوية مثل كتاباتهم أو قريبا من كتاباتهم لهذا العهد أو نقول إن
كتاباتهم لهذا العهد أحسن صناعة لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار
والدول . وأما مضر فكانوا أغرق في البدو وأبعد عن الحضرة من أهل اليمن وأهل
العراق وأهل الشام ومضر فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من
الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش
وبعدهم عن الصنائع ، وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه
الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رؤسهم
ما اقتضته أقيسة رسوم صناعة الخط عند أهلها . ثم اقتفى التابعون من السلف
رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب الرسول ﷺ وخير الخلق من بعده
المتلقون لوخيه من كتاب الله وكلامه . كما يقتفى لهذا العهد خط ولي أو عالم
تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صوابا . وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فأتبع
ذلك وأثبت رسما ونسب العلماء بالرسم على مواضعه . ولا تلتفتن في ذلك إلى
ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل

مِنْ مُخَالَفَةِ خُطُوطِهِمْ لِأُصُولِ الرَّسْمِ لَيْسَ كَمَا يَتَخَيَّلُ بَلْ لِكُلِّهَا وَجْهٌ . يَقُولُونَ فِي
مِثْلِ زِيَادَةِ الْأَلْفِ فِي لَا أَذْبَحُهُ ، إِنَّهُ تَنْبِيْهُ عَلَى أَنْ الذَّبْحَ لَمْ يَقَعْ وَفِي زِيَادَةِ الْيَاءِ فِي
بَأْيِدِ إِنَّهُ تَنْبِيْهُ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ الرُّبَانِيَّةِ وَأَمثالِ ذَلِكَ مِمَّا لَا أَضِلُّ لَهُ إِلَّا التَّحْكُمُ
الْمَحْضُ . وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَنْزِيْهًا لِلصَّحَابَةِ عَنْ تَوْهَمِ
النَّقْصِ فِي قِلَّةِ إِجَادَةِ الْخَطِّ . وَحَسِبُوا أَنَّ الْخَطَّ كَمَالٌ فَتَزَهُوهُمْ عَنْ نَقْصِهِ وَنَسَبُوا
إِلَيْهِمُ الْكَمَالَ بِإِجَادَتِهِ وَطَلَبُوا تَغْلِيلَ مَا خَالَفَ الْإِجَادَةَ مِنْ رَسْمِهِ وَذَلِكَ لَيْسَ
بِصَحِيحٍ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَّ لَيْسَ بِكَمَالٍ فِي حَقِّهِمْ إِذْ الْخَطُّ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَدْنِيَّةِ
الْمَعَاشِيَّةِ كَمَا رَأَيْتَهُ فِيمَا مَرَّ . وَالْكَمَالُ فِي الصَّنَائِعِ إِضَافِيٌّ وَلَيْسَ بِكَمَالٍ مُطْلَقٍ إِذْ
لَا يَمُودُ نَقْصُهُ عَلَى الذَّاتِ فِي الدِّينِ وَلَا فِي الْخِلَالِ وَإِنَّمَا يَمُودُ عَلَى أَسْبَابِ الْمَعَاشِ
وَبِحَسَبِ الْعُمُرَانِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ لِأَجْلِ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا فِي النُّفُوسِ . وَقَدْ
كَانَ ﷺ أُمِّيًّا وَكَانَ ذَلِكَ كَمَالًا فِي حَقِّهِ وَبِالنَّسْبَةِ إِلَى مَقَامِهِ لِشَرَفِهِ وَتَنْزُّهِهِ عَنْ
الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ الْمَعَاشِ وَالْعُمُرَانِ كُلُّهَا . وَلَيْسَتْ الْأُمِّيَّةُ كَمَالًا فِي
حَقِّهَا نَحْنُ إِذْ هُوَ مُنْقَطِعٌ إِلَى رَبِّهِ وَنَحْنُ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شَأْنَ الصَّنَائِعِ
كُلِّهَا حَتَّى الْعُلُومِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ فَإِنَّ الْكَمَالَ فِي حَقِّهِ هُوَ تَنْزُّهُهُ عَنْهَا جُمْلَةً بِخِلَافِنَا .

ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْمَلِكُ لِلْعَرَبِ وَفَتَحُوا الْأَمْصَارَ وَمَلَكَوا الْمَمَالِكَ وَنَزَلُوا الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ
وَاجْتَابَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى الْكِتَابَةِ اسْتَعْمَلُوا الْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعَلَّمُوهُ وَتَدَاوَلُوهُ
فَتَرَقَّتِ الْإِجَادَةُ فِيهِ وَاسْتَحْكَمَ وَبَلَغَ فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ رُتْبَةً مِنَ الْإِثْقَانِ إِلَّا أَنَّهَا
كَانَتْ دُونَ الْغَايَةِ . وَالْخَطُّ الْكُوفِيُّ مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ . ثُمَّ انْتَشَرَ الْعَرَبُ فِي
الْأَقْطَارِ وَالْمَمَالِكِ وَافْتَتَحُوا أَفْرِيقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسَ وَاخْتَطَّ بَنُو الْعَبَّاسِ بَغْدَادَ وَتَرَقَّتْ
الْخُطُوطُ فِيهَا إِلَى الْغَايَةِ لَمَّا اسْتَبَحَرَتْ فِي الْعُمُرَانِ وَكَانَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ وَمَرْكَزَ
الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَخَالَفَتْ أَوْضَاعَ الْخَطِّ بِبَغْدَادَ أَوْضَاعُهُ بِالْكُوفَةِ ، فِي الْمِيلِ إِلَى إِجَادَةِ
الرُّسُومِ وَجَمَالِ الرُّوْنَقِ وَحُسْنِ الرِّوَاءِ . وَاسْتَحْكَمَتْ هَذِهِ الْمُخَالَفَةُ فِي الْأَمْصَارِ إِلَى أَنْ
رَفَعَ رَأْيُهَا بِبَغْدَادَ عَلِيُّ بْنُ مُقَلَّةٍ الْوَزِيرِ . ثُمَّ تَلَاهُ فِي ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ هِلَالٍ ، الْكَاتِبُ

الشهير بإبني البواب . وَوَقَفَ سَنَدُ تَعْلِيمِهَا عَلَيْهِ فِي الْمَايَةِ الثَّالِثَةِ وَمَا بَعْدَهَا . وَبَعْدَتْ رُسُومُ الْخَطِّ الْبَغْدَادِيِّ وَأَوْضَاعُهُ عَنِ الْكُوفَةِ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَبَايِنَةِ . ثُمَّ ازْدَادَتْ الْمُخَالَفَةُ بَعْدَ تِلْكَ الْقُصُورِ بِتَفْنُنِ الْجَهَابَةِ فِي إِحْكَامِ رُسُومِهِ وَأَوْضَاعِهِ ، حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى الْمُتَأَخِّرِينَ مِثْلَ يَاقُوتَ وَالْوَلِيِّ عَلِيِّ الْعَجَمِيِّ . وَوَقَفَ سَنَدُ تَعْلِيمِ الْخَطِّ عَلَيْهِمْ وَانْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى مِصْرَ ، وَخَالَفَتْ طَرِيقَةُ الْعِرَاقِ بَعْضَ الشَّيْءِ وَلَقِّنَهَا الْعَجَمُ هُنَالِكَ ، وَظَهَرَتْ مُخَالَفَةُ لِخَطِّ أَهْلِ مِصْرَ أَوْ مَبَايِنَةٍ .

وَكَانَ الْخَطُّ الْبَغْدَادِيُّ مَعْرُوفَ الرَّسْمِ وَتَبِعَهُ الْأَفْرِيقِيُّ الْمَعْرُوفُ رَسْمُهُ الْقَدِيمُ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَيَقْرُبُ مِنْ أَوْضَاعِ الْخَطِّ الْمَشْرِقِيِّ وَتَحْيِزٍ ^(١) مُلْكُ الْأَنْدَلُسِ بِالْأَمْوِيِّينَ فَتَمَيَّزُوا بِأَحْوَالِهِمْ مِنَ الْحِصَارَةِ وَالصَّنَائِعِ وَالْخُطُوطِ فَتَمَيَّزَ صِنْفُ خَطِّهِمُ الْأَنْدَلُسِيُّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَطَمَأَ بَحْرُ الْعُمَرَانِ وَالْحِصَارَةِ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي كُلِّ قَطْرِ . وَعَظَّمَ الْمُلْكُ وَنَفَقَتْ أَسْوَاقُ الْعُلُومِ وَانْتَسَخَتْ الْكُتُبُ وَأَجِيدَ كُتُبُهَا وَتَجَلِيدُهَا ^(٢) وَمِلَّتْ بِهَا الْقُصُورُ وَالْخَزَائِنُ الْمُلُوكِيَّةُ بِمَا لَا كِفَاءَ لَهُ وَتَنَافَسَ أَهْلُ الْأَقْطَارِ فِي ذَلِكَ وَتَنَافَعُوا فِيهِ . ثُمَّ لَمَّا انْحَلَّ نِظَامُ الدُّوَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَنَاقَصَ ذَلِكَ أَجْمَعُ وَدَرَسَتْ مَعَالِمُ بَغْدَادَ بِدُرُوسِ الْخِلَافَةِ فَانْتَقَلَ شَأْنُهَا مِنَ الْخَطِّ وَالْكِتَابَةِ بَلْ وَالْعِلْمِ إِلَى مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ فَلَمْ تَزَلْ أَسْوَاقُهَا بِهَا نَافِقَةً لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَهُ ^(٣) بِهَا مَعْلَمُونَ يَرْسُمُونَ لِتَعْلِيمِ ^(٤) الْحُرُوفِ بِقَوَانِينِ فِي وَضْعِهَا وَأَشْكَالِهَا مُتَعَارِفَةً بَيْنَهُمْ فَلَا يَلْبَثُ الْمُتَعَلِّمُ أَنْ يُخَكِّمَ أَشْكَالَ تِلْكَ الْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ الْأَوْضَاعِ وَقَدْ لُقِّنَهَا حَسَنًا وَحَذَقَ فِيهَا دُرْبَةً وَكِتَابًا وَأَخَذَهَا قَوَانِينَ عِلْمِيَّةً ^(٥) فَتَجَيَّأُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ . وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَافْتَرَقُوا فِي الْأَقْطَارِ عِنْدَ تَلَاشِي مُلْكِ الْعَرَبِ بِهَا وَمَنْ خَلَفَهُمْ مِنَ الْبَرْبَرِ ، وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ أُمَّةُ النُّصْرَانِيَّةِ فَانْتَشَرُوا فِي عُدُوَّةِ الْمَغْرِبِ

(٢) وفي النسخة الباريسية ، تخليدها .

(١) وفي نسخة أخرى ، وتميز .

(٣) وفي نسخة أخرى ، للخط .

(٤) وفي نسخة أخرى ، للمتعلم .

(٥) وفي نسخة أخرى ، عملية .

وَأَفْرِيقِيَّةٌ مِنْ لَدُنِ الدَّوْلَةِ اللَّمْتُونِيَّةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ . وَشَارَكُوا أَهْلَ الْعُمُرَانِ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الصَّنَائِعِ وَتَعَلَّقُوا بِأَذْيَالِ الدَّوْلَةِ فَغَلَبَ خَطُّهُمْ عَلَى الْخَطِّ الْأَفْرِيقِيِّ وَعَفَى عَلَيْهِ وَنُسِيَ خَطُّ الْقَيْرَوَانِ وَالْمَهْدِيَّةِ بِنِسْيَانِ عَوَائِدِهِمَا وَصَنَائِعِهِمَا . وَصَارَتْ خُطُوطُ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةٍ كُلِّهَا عَلَى الرِّسْمِ الْأَنْدَلُسِيِّ بِتُونِسَ وَمَا إِلَيْهَا لِتَوْفُرِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ بِهَا عِنْدَ الْحَالِيَةِ مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ . وَبَقِيَ مِنْهُ رِسْمُ بِلَادِ الْجَرِيدِ الَّذِينَ لَمْ يَخَالِطُوا كُتَابَ الْأَنْدَلُسِ وَلَا تَمَرَّسُوا بِحَوَارِهِمْ . إِنَّمَا كَانُوا يَغْدُونَ عَلَى دَارِ الْمَلِكِ بِتُونِسَ فَصَارَ خَطُّ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةٍ مِنْ أَحْسَنِ خُطُوطِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ حَتَّى إِذَا تَقَلَّصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ الْمُوَحَّدِيَّةِ بَغَضَ الشَّيْءُ وَتَرَاجَعَ أَمْرُ الْحِصَارَةِ وَالتَّرَفُّ بِتَرَاجُعِ الْعُمُرَانِ نَقَصَ حِينَئِذٍ حَالُ الْخَطِّ وَفَسَدَتْ رُسُومُهُ وَجُهِلَ فِيهِ وَجْهُ التَّعْلِيمِ بِفَسَادِ الْحِصَارَةِ وَتَنَاقُصِ الْعُمُرَانِ . وَبَقِيَتْ فِيهِ أَثَارُ الْخَطِّ الْأَنْدَلُسِيِّ تَشْهَدُ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الصَّنَائِعَ إِذَا رَسَخَتْ بِالْحِصَارَةِ فَيَغْشَى مَخُودَهَا وَحَصَلَ فِي دَوْلَةِ بَنِي مُرِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى لَوْنٌ مِنَ الْخَطِّ الْأَنْدَلُسِيِّ لِقُرْبِ جِرَارِهِمْ وَسُقُوطِ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ إِلَى فَاسَ قَرِيباً وَاسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهُمْ سَائِرَ الدَّوْلَةِ . وَنُسِيَ عَهْدُ الْخَطِّ فِيمَا بَعْدَ عَنْ سُوءِ الْمُلِكِ وَدَارِهِ . كَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ . فَصَارَتْ الْخُطُوطُ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَالْمَغْرِبِيِّينَ مَائِلَةً إِلَى الرَّدَاءَةِ بَعِيدَةً عَنِ الْجُودَةِ وَصَارَتْ الْكُتُبُ إِذَا انْتَسَخَتْ فَلَا فَائِدَةَ تَحْصُلُ لِمُتَصَفِّحِهَا مِنْهَا إِلَّا الْعَنَاءُ وَالْمَشَقَّةُ لِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ الْفَسَادِ وَالتَّضْجِيفِ وَتَغْيِيرِ الْأَشْكَالِ الْخَطِّيَّةِ عَنِ الْجُودَةِ حَتَّى لَا تَكَادُ تُقْرَأُ إِلَّا بَعْدَ عُسْرِ وَوَقَعُ فِيهِ مَا وَقَعَ فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ بِنَقْصِ الْحِصَارَةِ وَفَسَادِ الدَّوْلِ وَاللَّهِ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ .

وَلِلْأَسْتَاذِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ هِلَالِ الْكَاتِبِ الْبَغْدَادِيِّ الشَّهِيرِ بِابْنِ الْبَوَابِ قَصِيدَةٌ مِنْ بَحْرِ الْبَسِيطِ^(١) عَلَى رَوِيِّ الرَّاءِ يَذْكُرُ فِيهَا صِنَاعَةَ الْخَطِّ وَقَوَائِدَهَا مِنْ أَحْسَنِ مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ . رَأَيْتُ إِثْبَاتَهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ هَذَا الْبَابِ لِيَنْتَفِعَ بِهَا مَنْ يُرِيدُ تَعَلُّمَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . وَأَوَّلُهَا :

(١) هذه القصيدة من بحر الكامل وليس من بحر البسيط .

يَا مَنْ يُرِيدُ إِجَادَةَ التَّخْرِيرِ
 إِنْ كَانَ عَزَمَكَ فِي الْكِتَابَةِ صَادِقًا
 أَغْدِدْ مِنَ الْأَقْلَامِ كُلِّ مُتَقَفٍ
 وَإِذَا عَمَدَتْ لِبَرِيَّةٍ فَتَوَخَّهْ
 أَنْظِرْ إِلَى طَرْفِيهِ فَاجْعَلْ بَرِيَّةً
 وَاجْعَلْ لِحُفَّتَيْهِ قَوَامًا عَادِلًا

وَالشَّقَّ وَسَطِهِ لِيَبْقَى بِرِيَّةً
 حَتَّى إِذَا أُتِفِنَتْ ذَلِكَ كُلُّهُ
 لَا تَطْمَعَنَّ فِي أَنْ أَبُوحَ بِسِرِّهِ
 لَكِنَّ جُمْلَةً مَا أَقُولُ بِأَنَّهُ
 وَاللَّيْ دَوَاتِكَ بِالْذُّخَانِ مُدَبَّرًا
 وَأَضِيفَ إِلَيْهِ قَفْرَةٌ قَدْ صُوِّلَتْ
 حَتَّى إِذَا مَا خُمِرَتْ فَاعْمِدْ إِلَى
 فَاسْكِسِيهِ بَعْدَ الْقَطْعِ بِالْمِغْضَارِ كُنْ
 ثُمَّ اجْعَلِ التَّمْثِيلَ دَا بَكَ صَابِرًا
 إِبْدَاءً بِهِ فِي اللَّوْحِ مُنْتَفِيًا لَهُ
 لَا تَخْجَلَنَّ مِنَ الرَّدَى تَخْتَطُّهُ
 فَالْأَمْرُ يَضَعُ ثُمَّ يَرْجِعُ هِينًا
 حَتَّى إِذَا أَدْرَكْتَ مَا أَمَلْتَهُ
 فَاشْكُرْ آلِهَكَ وَاتَّبِعْ رِضْوَانَهُ
 وَارْغَبْ لِكَلْفِكَ أَنْ تَخْطُ بَنَانَهَا
 فَجَمِيعُ فِعْلٍ الْمَرْءُ يَلْقَاهُ غَدًا

مِنْ جَانِبَيْهِ مُشَاكِلَ التَّقْدِيرِ
 فَالْقِطْ فِيهِ جُمْلَةً التَّذْيِيرِ
 إِنِّي أَضِنُ بِسِرِّهِ الْمَشْتُورِ
 مَا بَيْنَ تَخْرِيفٍ إِلَى تَذْوِيرِ
 بِالْخَلِّ أَوْ بِالْحِضْمِ الْمَغْضُورِ
 مَعَ أَصْغَرِ الزَّرْنِیْخِ وَالْكَافُورِ
 الْوَرَقِ النَّقِيِّ النَّاعِمِ الْمَخْبُورِ
 يَنْأَى عَنِ التَّشْمِيعِ وَالْتَفْهِيرِ
 مَا أَدْرَكَ الْمَأْمُولُ مِثْلَ صَبُورِ
 غَرَمًا تُجَرِّدُهُ عَنِ التَّشْمِيرِ
 فِي أَوَّلِ التَّمْثِيلِ وَالشَّطِيرِ
 وَلَرُبَّ سَهْلٍ جَاءَ بَعْدَ عَسِيرِ
 أَضْحَيْتَ رَبَّ مَسْرَّةٍ وَحُبُورِ
 إِنْ الْإِلَهَ يُجِيبُ كُلَّ شُكُورِ
 خَيْرًا يُخَلِّفُهُ بِدَارِ غُرُورِ
 عِنْدَ الشَّقَاءِ كِتَابَةُ الْمُنْشُورِ

وَأَعْلَمُ بِأَنَّ الْخَطَّ بَيَانٌ عَنِ الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ ، كَمَا أَنَّ الْقَوْلَ وَالْكَلَامَ بَيَانٌ عَمَّا فِي

النفس والضمير من المعاني ، فلا بُدَّ لكلِّ منهما أن يكون واضح الدلالة .
قال الله تعالى : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » ^(١) وَهُوَ يَشْتَمِلُ بَيَانَ الْأَدْلَةِ
كُلِّهَا . فَالْخَطُّ الْمَجُودُ كَمَالُهُ أَنْ تَكُونَ دَلَالَتُهُ وَاضِحَةً ، بِإِبَانَةِ حُرُوفِهِ الْمُتَوَاضِعَةِ
وِإِجَادَةِ وَضْعِهَا وَرَسْمِهَا كُلِّ وَاحِدٍ عَلَى حِدَةٍ مُتَمِّيزَةٍ عَنِ الْآخَرِ . إِلَّا مَا اضْطَلَحَ عَلَيْهِ
الْكِتَابُ مِنْ إِنْصَالِ حَرْفِ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ . سِوَى حُرُوفِ اضْطَلَحُوا
عَلَى قَطْعِهَا ، مِثْلُ الْأَلِفِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الْكَلِمَةِ ، وَكَذَا الرَّاءُ وَالزَّيَّ وَالْدَالُ وَالذَّالُ
وغيرها ، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَتْ مُتَأَخِّرَةً ، وَهَكَذَا إِلَى آخِرِهَا . ثُمَّ إِنَّ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ
الْكِتَابِ اضْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِ كَلِمَاتٍ ، بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَحَذْفِ حُرُوفٍ مَعْرُوفَةٍ
عِنْدَهُمْ ، لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا أَهْلُ مِصْطَلَحِهِمْ فَتُسْتَعْجَمُ عَلَى غَيْرِهِمْ وَهَؤُلَاءِ كُتَابُ دَوَاوِينِ
السُّلْطَانِ وَسِجَلَاتِ الْقَضَا ، كَانَتْهُمْ أَنْفَرَدُوا بِهَذَا الْإِضْطِلَاحِ عَنْ غَيْرِهِمْ ، لِكثَرَةِ
مَوَارِدِ الْكِتَابَةِ عَلَيْهِمْ ، وَشَهْرَةِ كِتَابَتِهِمْ وَحَاطَةِ كَثِيرٍ مِنْ دُونِهِمْ بِمِصْطَلَحِهِمْ فَإِنْ
كَتَبُوا ذَلِكَ لِمَنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ بِمِصْطَلَحِهِمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَغْدِلُوا عَنْ ذَلِكَ إِلَى الْبَيَانِ
مَا اسْتَطَاعُوهُ ، وَإِلَّا كَانَ بِمَثَانِيَةِ الْخَطِّ الْأَعْجَمِيِّ ، لِأَنَّهُمَا بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ مِنْ عَدَمِ
التَّوَاضُّعِ عَلَيْهِ . وَلَيْسَ بِعُذْرٍ فِي هَذَا الْقَدْرِ ، إِلَّا كِتَابُ الْأَعْمَالِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْجُيُوشِ ، لِأَنَّهُمْ مَطْلُوبُونَ بِكِتْمَانِ ذَلِكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهُ مِنَ الْأَسْرَارِ السُّلْطَانِيَّةِ
الَّتِي يَحِبُّ إِخْفَاؤَهَا ، فَيُبَالِغُونَ فِي رَسْمِ اضْطِلَاحٍ خَاصٍ بِهِمْ ، وَيَصِيرُ بِمَثَانِيَةِ
الْمَعْمَى . وَهُوَ الْإِضْطِلَاحُ عَلَى الْعِبَارَةِ عَنِ الْحُرُوفِ بِكَلِمَاتٍ مِنْ أَسْمَاءِ الطِّيبِ
وَالْفَوَاكِهِ وَالطُّيُورِ وَالْأَزَاهِيرِ ، وَوَضْعُ أَشْكَالٍ أُخْرَى غَيْرِ أَشْكَالِ الْحُرُوفِ الْمُتَعَارَفَةِ
يَضْطَلِحُ عَلَيْهَا الْمُتَخَاطِبُونَ لِتَأْدِيَةِ مَا فِي صَمَائِرِهِمْ بِالْكِتَابَةِ . وَرُبَّمَا وَضَعَ الْكِتَابُ
لِلْعُثُورِ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ لَمْ يَضَعُوهُ أَوَّلًا ، قَوَانِينَ بِمَقَائِيسَ اسْتَخْرَجُوهَا لِذَلِكَ
بِمَدَارِكِهِمْ يَسْمُونَهَا فَكُّ الْمَعْمَى . وَلِلنَّاسِ فِي ذَلِكَ دَوَاوِينٌ مَشْهُورَةٌ . وَاللَّهُ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ .

(١) آية ٣ و ٤ من سورة الرحمن .

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كَانَتْ عِنَايَةُ قَدِيمَا بِالدَّوَاوِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَالسَّجَلَاتِ فِي نَسْخِهَا وَتَجْلِيدِهَا وَتَضَحِيحِهَا بِالرَّوَايَةِ وَالضَّبْطِ . وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ مِنْ ضَخَامَةِ الدَّوْلَةِ وَتَوَايِعِ الْحَضَارَةِ . وَقَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِذَهَابِ الدَّوْلَةِ وَتَنَاقُصِ الْعُمَرَانِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْهُ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَحْرٌ زَاخِرٌ بِالْعِرَاقِ وَالْأَنْدَلُسِ إِذْ هُوَ كُلُّهُ مِنْ تَوَايِعِ الْعُمَرَانِ وَاتِّسَاعِ نِطَاقِ الدَّوْلَةِ وَتَفَاقٍ أَسْوَاقِ ذَلِكَ لَدَيْهِمَا . فَكَثُرَتِ التَّالِيفُ الْعِلْمِيَّةُ وَالدَّوَاوِينُ وَحَرَصَ النَّاسُ عَلَى تَنَاقُلِهَا فِي الْآفَاقِ وَالْأَغْصَارِ فَانْتَسَخَتْ وَجُلِدَتْ . وَجَاءَتْ صِنَاعَةُ الْوَرَّاقِينَ الْمَعَانِينَ لِلانْتِسَاخِ وَالتَّضَحِيحِ وَالتَّجْلِيدِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْكُتُبِيَّةِ وَالدَّوَاوِينِ وَاخْتَصَّتْ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ الْعُمَرَانِ . وَكَانَتْ السَّجَلَاتُ أَوَّلًا ، لِانْتِسَاخِ الْعُلُومِ وَكُتُبِ الرِّسَائِلِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْإِقْطَاعَاتِ ، وَالصُّكُوكِ فِي الرُّقُوقِ الْمُهَيَّأَةِ بِالصَّنَاعَةِ مِنَ الْجِلْدِ لِكَثْرَةِ الرِّفَةِ وَقِلَّةِ التَّالِيفِ صَدَرَ الْمِلَّةِ كَمَا نَذَكُرُهُ ، وَقِلَّةِ الرِّسَائِلِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالصُّكُوكِ مَعَ ذَلِكَ فَاتَّقَصَرُوا عَلَى الْكِتَابِ فِي الرِّقِّ تَشْرِيفًا لِلْمَكْتُوبَاتِ وَمِثْلًا بِهَا إِلَى الصَّحَّةِ وَالْإِتْقَانِ . ثُمَّ طَمَأَ بِحَرْ التَّالِيفِ وَالتَّدْوِينِ وَكَثُرَ تَرْسِيلُ السُّلْطَانِ وَصُكُوكُهُ وَضَاقَ الرِّقُّ عَنْ ذَلِكَ . فَأَشَارَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى بِصِنَاعَةِ الْكَاعِدِ وَصَنَعَهُ وَكُتِبَ فِيهِ رَسَائِلُ السُّلْطَانِ وَصُكُوكُهُ . وَاتَّخَذَهُ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ صُحُفًا لِمَكْتُوبَاتِهِمُ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ . وَبَلَغَتْ الْإِجَادَةُ فِي صِنَاعَتِهِ مَا شَاءَتْ . ثُمَّ وَقَفَتْ عِنَايَةُ أَهْلِ الْعُلُومِ وَهُمْ أَهْلُ الدَّوَلِ عَلَى ضَبْطِ الدَّوَاوِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَتَضَحِيحِهَا بِالرَّوَايَةِ الْمُسْنَدَةِ إِلَى مُؤَلِّفِهَا وَوَاضِعِهَا لِأَنَّهُ الشَّأْنُ الْأَهَمُّ مِنَ التَّضَحِيحِ وَالضَّبْطِ . فَبِذَلِكَ تُسَنَدُ الْأَقْوَالُ إِلَى قَائِلِهَا وَالْفَتَايَا إِلَى الْحَاكِمِ بِهَا الْمُجْتَهِدِ فِي طَرِيقِ اسْتِنْبَاطِهَا . وَمَا لَمْ يَكُنْ تَضَحِيحُ الْمُتُونِ بِإِسْنَادِهَا إِلَى مَدُونِهَا فَلَا يَصِحُّ إِسْنَادُ قَوْلِ لَهُمْ وَلَا فِتْيَا . وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَحَمَلَتِهِ فِي الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ وَالْآفَاقِ .

حَتَّى لَقَدْ قُصِرَتْ فَائِدَةُ الصَّنَاعَةِ الْحَدِيثِيَّةِ فِي الرِّوَايَةِ عَلَى هَذِهِ فَقَطْ إِذْ ثَمَرَتُهَا
الْكُبْرَى مِنْ مَعْرِفَةِ صَحِيحِ الْأَحَادِيثِ وَحُسْنِهَا وَمُسْنَدِهَا وَمُرْسِلِهَا وَمَقْطُوعِهَا
وَمَوْقُوفِهَا مِنْ مَوْضُوعِهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَتَمَخَّضَتْ زُبْدَةٌ فِي ذَلِكَ ^(١) الْأُمَهَاتُ الْمُتَلَقَّاةُ
بِالْقَبُولِ عِنْدَ الْأُمَّةِ . وَصَارَ الْقَصْدُ إِلَى ذَلِكَ لَعَوًا مِنَ الْعَمَلِ . وَلَمْ يَبْقَ ثَمَرَةُ الرِّوَايَةِ
وَالِاشْتِغَالِ بِهَا إِلَّا فِي تَضْحِيحِ تِلْكَ الْأُمَهَاتِ الْحَدِيثِيَّةِ وَسِوَاهَا مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ
لِلْفُتَيَا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّوَاوِينِ وَالتَّأْلِيفِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَاتَّصَلَ سِنْدُهَا بِمُؤَلِّفِهَا لِيَصْحَ
النَّقْلُ عَنْهُمْ ، وَالْإِسْنَادُ إِلَيْهِمْ . وَكَانَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ بِالمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ مُعْبَدَةً
الطَّرِيقِ وَاضِحَةً الْمَسَالِكِ . وَلِهَذَا نَجِدُ الدَّوَاوِينَ الْمُنْتَسَخَةَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي أَقْطَارِهَا
عَلَى غَايَةِ مِنَ الْإِتْقَانِ وَالْإِحْكَامِ وَالصَّحَّةِ . وَمِنْهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَيْدِي النَّاسِ فِي الْعَالَمِ
أَصُولٌ عَتِيقَةٌ تَشْهَدُ بِبُلُوغِ الْغَايَةِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ . وَأَهْلُ الْآفَاقِ يَتَنَاقَلُونَهَا إِلَى الْآنَ
وَيَشْدُونَ عَلَيْهَا يَدَ الضَّانَةِ وَلَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ لِهَذَا الْعَهْدِ جُمْلَةً بِالمَغْرِبِ
وَأَهْلِهِ لِانْقِطَاعِ صِنَاعَةِ الْخَطِّ وَالضَّبْطِ وَالرِّوَايَةِ مِنْهُ بِانْتِقَاصِ عُمْرَانِهِ وَبِدَاوَةِ أَهْلِهِ
وَصَارَتْ الْأُمَهَاتُ وَالدَّوَاوِينُ تُنْسَخُ بِالْخُطُوطِ الْيَدَوِيَّةِ تُنْسَخُهَا طَلَبَةُ الْبَرَبْرِ
صَحَائِفُ مُسْتَعْجَمَةٍ بِرَدَاءَةِ الْخَطِّ وَكَثْرَةِ الْفَسَادِ وَالتَّضْحِيكِ فَتُسْتَفْلِقُ عَلَى مُتَصَفِّحِهَا
وَلَا يَخْصُلُ مِنْهَا فَائِدَةٌ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ . وَأَيْضًا فَقَدْ دَخَلَ الْخَلَلُ مِنْ ذَلِكَ فِي
الْفُتَيَا فَإِنَّ غَالِبَ الْأَقْوَالِ الْمَغْرُوءَةِ غَيْرُ مَرْوِيَّةٍ عَنْ أُيُمَةِ الْمَذْهَبِ وَإِنَّمَا تُتَلَقَّى مِنْ تِلْكَ
الدَّوَاوِينِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ . وَتَبَعَ ذَلِكَ أَيْضًا مَا يَتَصَدَّى إِلَيْهِ بَعْضُ أُيُمَتِهِمْ مِنْ
التَّأْلِيفِ لِقَلَّةِ بَصَرِهِمْ بِصِنَاعَتِهِ وَغَدَمِ الصَّنَائِعِ الْوَافِيَةِ بِمَقَاصِدِهِ . وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا
الرَّسْمِ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَّا إِثَارَةٌ خَفِيَّةٌ بِالْإِمْحَاءِ ^(٢) وَهِيَ الْإِضْمِخْلَالُ فَقَدْ كَادَ الْعِلْمُ
يَنْقَطِعُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْمَغْرِبِ . وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . وَبَيْنَلْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ أَنَّ صِنَاعَةَ
الرِّوَايَةِ قَائِمَةٌ بِالمَشْرِقِ وَتَضْحِيحُ الدَّوَاوِينِ لِمَنْ يَرُومُهُ بِذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى مُبْتَدِئِهِ
لِنَفَاقِ أَسْوَاقِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ كَمَا نَذَكُرُهُ بَعْدَ . إِلَّا أَنَّ الْخَطَّ الَّذِي بَقِيَ مِنَ الْإِجَادَةِ

(١) وفي نسخة أخرى : تلك .

(٢) وفي نسخة أخرى : الانحاء .

فِي الْإِتْسَاحِ هُنَالِكَ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَجَمِ وَفِي خُطُوبِهِمْ . وَأَمَّا النُّسْخُ بِمِصْرَ فَفَسَدَ كَمَا
فَسَدَ بِالْمَغْرِبِ وَأَشَدُّ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل الثاني والثلاثون

فِي صِنَاعَةِ الْغِنَاءِ

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ هِيَ تَلْحِينُ الْأَشْعَارِ الْمُوزُونَةِ بِتَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ عَلَى نِسَبٍ
مُنْتَظِمَةٍ مَعْرُوفَةٍ يُوقَعُ كُلُّ صَوْتٍ مِنْهَا تَوْقِيعًا عِنْدَ قَطْعِهِ فَيَكُونُ نَغْمَةً . ثُمَّ تُؤَلَّفُ
تِلْكَ النُّغْمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى نِسَبٍ مُتَعَارِفَةٍ فَيَلْتَدُ سَمَاعُهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ التَّنَاسُبِ
وَمَا يَخْدُثُ عَنْهُ مِنَ الْكَيْفِيَّةِ فِي تِلْكَ الْأَصْوَاتِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ الْمَوْسِيقِيِّ أَنَّ
الْأَصْوَاتَ تَتَنَاسَبُ ، فَيَكُونُ صَوْتُ نِصْفِ صَوْتٍ وَرَبْعَ آخَرَ وَخُمْسَ آخَرَ وَجُزْءَ مِنْ
أَحَدِ عَشَرَ مِنْ آخَرَ وَاخْتِلَافُ هَذِهِ النِّسَبِ عِنْدَ تَادِيَتِهَا إِلَى السَّمْعِ بِخُرُوجِهَا ^(١) مِنْ
الْبَسَاطَةِ إِلَى التَّرْكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ تَرْكِيبٍ مِنْهَا مَلْدُودًا عِنْدَ السَّمْعِ بَلْ لِلْمَلْدُودِ
تَرَائِيبٌ خَاصَّةٌ وَهِيَ الَّتِي حَصَرَهَا أَهْلُ عِلْمِ الْمَوْسِيقِيِّ وَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا كَمَا هُوَ
مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ وَقَدْ يُسَاقُ ذَلِكَ التَّلْحِينُ فِي النُّغَمَاتِ الْغِنَائِيَّةِ بِتَقْطِيعِ أَصْوَاتٍ
أُخْرَى مِنَ الْجَمَادَاتِ إِمَّا بِالْقَرْعِ أَوْ بِالنَّفْخِ فِي الْآلَاتِ تُتَّخَذُ لِذَلِكَ فِتْرَى لَهَا ^(٢) لَذَّةٌ
عِنْدَ السَّمْعِ . فَمِنْهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ أَصْنَافٌ مِنْهَا الْمِزْمَارُ وَيُسَمُّونَهُ الشُّبَابَةَ
وَهِيَ قَصَبَةٌ جَوْفَاءُ بِأَبْخَاشٍ فِي جَوَانِبِهَا مَعْدُودَةٌ يُنْفَخُ فِيهَا فَيَخْرُجُ
الصَّوْتُ مِنْ جَوْفِهَا عَلَى سِدَادِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَبْخَاشِ وَيَقْطَعُ الصَّوْتُ بِوَضْعِ الْأَصَابِعِ
مِنَ الْيَدَيْنِ جَمِيعًا عَلَى تِلْكَ الْأَبْخَاشِ وَضَعًا مُتَعَارِفًا حَتَّى تَخْدُثَ النِّسَبُ بَيْنَ
الْأَصْوَاتِ فِيهِ وَتَتَّصِلَ كَذَلِكَ مُتَنَاسِبَةً فَيَلْتَدُ السَّمْعُ بِإِدْرَاكِهَا لِلتَّنَاسُبِ الَّذِي

(١) فِي نَسْخَةِ أُخْرَى : يَخْرُجُهَا .

(٢) فِي نَسْخَةِ أُخْرَى : فِتْرِيدُهَا .

ذَكَرْنَاهُ . وَمِنْ جِنْسِ هَذِهِ الآلَةِ الْمِزْمَارُ الَّذِي يُسَمَّى الزَّلَامِيُّ وَهُوَ شَكْلُ الْقَصَبَةِ
مَنْحُوَّةِ الْجَانِبَيْنِ مِنَ الْخَشَبِ جَوْفَاءً مِنْ غَيْرِ تَدْوِيرٍ لِأَجْلِ ائْتِلَافِهَا مِنْ قِطْعَتَيْنِ
مُنْفَرَدَتَيْنِ^(١) كَذَلِكَ بِأَبْخَاشٍ مَعْدُودَةٍ يُنْفَخُ فِيهَا بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُوَصَّلُ فَيَنْفِذُ النِّفْخَ
بِوَاسِطَتِهَا إِلَيْهَا وَتُصَوِّتُ بِنَغْمَةٍ حَادَّةٍ يُجْرَى فِيهَا مِنْ تَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ مِنْ تِلْكَ
الْأَبْخَاشِ بِالأَصَابِعِ مِثْلَ مَا يَجْرَى فِي الشَّبَابَةِ . وَمِنْ أَحْسَنِ آلَاتِ الزَّمْرِ لِهَذَا الْعَهْدِ
الْبُوقُ وَهُوَ بُوقٌ مِنْ نَحَاسٍ أَجْوَفٌ فِي مِقْدَارِ الذَّرَاعِ يَتَسَعُ إِلَى أَنْ يَكُونَ انْفِرَاجُ
مَخْرَجِهِ فِي مِقْدَارِ دُونَ الْكَفِّ فِي شَكْلِ بَرِي الْقَلَمِ . وَيُنْفَخُ فِيهِ بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُؤَدِّي
الرِّيحُ مِنَ الْقَمِّ إِلَيْهِ فَيَخْرُجُ الصَّوْتُ ثَخِينًا دَوِيًّا وَفِيهِ أَبْخَاشٌ أَيْضًا مَعْدُودَةٌ . وَتَقْطَعُ
نَغْمَةً مِنْهَا كَذَلِكَ بِالأَصَابِعِ عَلَى التَّنَاسُبِ فَيَكُونُ مَلْدُودًا . وَمِنْهَا آلَاتُ الْأُوتَارِ وَهِيَ
جَوْفَاءُ كُلُّهَا إِمَّا عَلَى شَكْلِ قِطْعَةٍ مِنَ الْكُرَةِ مِثْلِ الْمِزْبِطِ^(٢) وَالرَّبَابِ أَوْ عَلَى شَكْلِ
مَرْتَبِعٍ كَالْقَانُونِ تُوَضَعُ الْأُوتَارُ عَلَى بَسَائِطِهَا مَشْدُودَةٌ فِي رَأْسِهَا إِلَى دُسْرِ جَائِلَةٍ لِيَأْتِيَ
شَدُّ الْأُوتَارِ وَرَخْوُهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ بِإِدَارَتِهَا . ثُمَّ تَقْرَعُ الْأُوتَارُ إِمَّا بِعُودٍ آخَرَ أَوْ
بِوَتَرٍ مَشْدُودٍ بَيْنَ طَرَفَيْ قَوْسٍ يَمُرُّ عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ يُطْلَى بِالشَّمْعِ وَالْكَنْدَرِ . وَيَقْطَعُ
الصَّوْتُ فِيهِ بِتَخْفِيفِ الْيَدِ فِي إِمْرَارِهِ أَوْ نَقْلِهِ مِنْ وَتَرٍ إِلَى وَتَرٍ . وَالْيَدُ الْيُسْرَى مَعَ ذَلِكَ
فِي جَمِيعِ آلَاتِ الْأُوتَارِ تَوْقِعُ بِأَصَابِعِهَا عَلَى أَطْرَافِ الْأُوتَارِ فِيمَا يُقْرَعُ أَوْ يُحَكُّ
بِالْوَتَرِ فَتَخْدُثُ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً مَلْدُودَةٌ . وَقَدْ يَكُونُ الْقِرْعُ فِي الطُّسُوتِ
بِالْقَضْبَانِ أَوْ فِي الْأَعْوَادِ بَعْضُهَا يَبْغُضُ عَلَى تَوْقِيعِ مُنَاسِبٍ يَخْدُثُ عَنْهُ التِّدَادُ
بِالْمُسْمُوعِ . وَلَنُبَيِّنَ لَكَ السَّبَبَ فِي اللَّذَّةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْغِنَاءِ . وَذَلِكَ أَنَّ اللَّذَّةَ كَمَا
تَقَرَّرُ فِي مَوْضِعِهِ هِيَ إِدْرَاكُ الْمَلَائِمِ وَالْمَخْسُوسِ إِنَّمَا تَذَرُكَ مِنْهُ كَيْفِيَّةٌ . فَإِذَا كَانَتْ
مُنَاسِبَةً لِلْمَذَرِكِ وَمَلَائِمَةً كَانَتْ مَلْدُودَةً . وَإِذَا كَانَتْ مُنَافِيَةً لَهُ مُنَافِرَةً كَانَتْ
مُؤَلِّمَةً . فَالْمَلَائِمُ مِنَ الطُّعُومِ مَا نَاسَبَتْ كَيْفِيَّتَهُ حَاسَةً الذَّوْقِ فِي مِرَاجِحِهَا وَكَذَا
الْمَلَائِمُ مِنَ الْمَلْمُوسَاتِ وَفِي الرُّوَائِحِ مَا نَاسَبَ مِرَاجَ الرُّوحِ الْقَلْبِيِّ الْبَخَارِيِّ لِأَنَّهُ

(١) وفي نسخة أخرى ، منفردتين .

(٢) وفي نسخة أخرى ، البربط .

الْمُدْرِكُ وَإِلَيْهِ تُؤَدِّيهِ الْخَاسَةُ . وَلِهَذَا كَانَتْ الرِّيَاحِينَ وَالْأَزْهَارُ الْعِطْرِيَّاتُ أَحْسَنَ
 رَاحِيحَةً وَأَشَدَّ مَلَأَمَةً لِلرُّوحِ لِعَلَبَةِ الْحَرَارَةِ فِيهَا الَّتِي هِيَ مِزَاجُ الرُّوحِ الْقَلْبِيِّ . وَأَمَّا
 الْمَرْئِيَّاتُ وَالْمَسْمُوعَاتُ فَالْمَلَأَمَةُ فِيهَا تَنَاسُبُ الْأَوْضَاعِ فِي أَشْكَالِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا فَهُوَ
 أَنْسَبُ عِنْدَ النَّفْسِ وَأَشَدُّ مَلَأَمَةً لَهَا . فَإِذَا كَانَ الْمَرْئِيُّ مُتَنَاسِبًا فِي أَشْكَالِهِ
 وَتَخَاطِيطِهِ الَّتِي لَهُ بِحَسَبِ مَادَّتِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ عَمَّا تَقْتَضِيهِ مَادَّتُهُ الْخَاصَّةُ مِنْ
 كَمَالِ الْمُنَاسَبَةِ وَالْوَضْعِ وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِي كُلِّ مُدْرِكٍ ، كَانَ ذَلِكَ
 حِينَئِذٍ مُنَاسِبًا لِلنَّفْسِ الْمُدْرِكَةِ فَتَلْتَنِدُ بِإِدْرَاكِ مَلَأَمَتِهَا ، وَلِهَذَا تَجِدُ الْعَاشِقِينَ
 الْمُسْتَهْزِئِينَ ^(١) فِي الْمَحَبَّةِ يَعْجَبُونَ عَنْ غَايَةِ مَحَبَّتِهِمْ وَعَشْقِهِمْ بِامْتِزَاجِ أَرْوَاحِهِمْ
 بِرُوحِ الْمُخْبُوبِ . وَفِي هَذَا سِرٌّ تَفْهَمُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَهُوَ اتِّحَادُ الْمَبْدَأِ وَإِنْ كَانَ
 مَا سِوَاكَ إِذَا نَظَرْتَهُ وَتَأَمَّلْتَهُ رَأَيْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ اتِّحَادًا فِي الْبِدَاءَةِ . يَشْهَدُ لَكَ بِهِ
 اتِّحَادُ كَمَا فِي الْكَوْنِ وَمَعْنَاهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ أَنَّ الْوُجُودَ يُشْرِكُ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ كَمَا
 تَقُولُهُ الْحُكَمَاءُ . فَتَوَدُّ أَنْ يَمْتَزَجَ بِمُشَاهَدَاتِ ^(٢) فِيهِ الْكَمَالُ لَتَتَّحِدَ بِهِ ، بَلْ تَرُومُ
 النَّفْسُ حِينَئِذٍ الْخُرُوجَ عَنِ الْوَهْمِ إِلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ اتِّحَادُ الْمَبْدَأِ وَالْكَوْنِ . وَلَمَّا
 كَانَ أَنْسَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَأَقْرَبُهَا إِلَى أَنْ يُدْرِكَ ^(٣) الْكَمَالُ فِي تَنَاسُبِ
 مَوْضُوعِهَا هُوَ شَكْلُهُ الْإِنْسَانِيُّ فَكَانَ إِدْرَاكُهُ لِلْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِي تَخَاطِيطِهِ وَأَصْوَاتِهِ
 مِنَ الْمَدَارِكِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى فِطْرَتِهِ ، فَيَلْمُحُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِالْحُسْنِ مِنَ الْمَرْئِيِّ أَوْ
 الْمَسْمُوعِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ . وَالْحُسْنُ فِي الْمَسْمُوعِ أَنْ تَكُونَ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً
 لَا مُتَنَافِرَةً . وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْوَاتَ لَهَا كَيْفِيَّاتٌ مِنَ الْهَمْسِ وَالْجَهْرِ وَالرَّخَاوَةِ وَالشَّدَّةِ
 وَالْقَلْقَلَةِ وَالضَّغْطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَالتَّنَاسُبُ فِيهَا هُوَ الَّذِي يُوجِبُ لَهَا الْحُسْنَ .
 فَأَوَّلًا ، أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى مَدَّةٍ دَفْعَةً بَلْ يَتَدَرِجُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ كَذَلِكَ ،
 وَهَكَذَا إِلَى الْمِثْلِ ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَوْسِطِ الْمَغَايِرِ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ . وَتَأْمُلْ هَذَا مِنْ

(١) وفي نسخة أخرى ، المستهزين .

(٢) وفي نسخة أخرى ، بما شاهدت .

(٣) وفي نسخة أخرى ، مدرك .

اِفْتِتَاح^(١) أَهْلُ اللِّسَانِ التَّرَاكِيْبَ مِنَ الحُرُوفِ الْمُتَنَافِرَةِ أَوْ الْمُتَقَارِبَةِ الْمَخَارِجِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ . وَثَانِيًا : تُنَاسَبُهَا فِي الْأَجْزَاءِ كَمَا مَرَّ أَوَّلُ الْبَابِ فَيَخْرُجُ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى نِصْفِهِ أَوْ ثُلَاثِهِ أَوْ جُزْءٍ مِنْ كَذَا مِنْهُ ، عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ التَّنْقُلُ مُتَنَاسِبًا عَلَى مَا حَصَرَهُ أَهْلُ الصَّنَاعَةِ^(٢) . فَإِذَا كَانَتِ الْأَصْوَاتُ عَلَى تَنَاسُبٍ فِي الْكَيْفِيَّاتِ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ كَانَتْ مُلَائِمَةً مَلْدُودَةً . وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَكُونُ بَسِيطًا وَيَكُونُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ مَطْبُوعًا عَلَيْهِ لَا يَخْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى تَغْلِيمٍ وَلَا صِنَاعَةٍ كَمَا نَجِدُ الْمَطْبُوعِينَ عَلَى الْمَوَازِينِ الشَّعْرِيَّةِ وَتَوْقِيعِ الرُّقَصِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَتُسَمَّى الْعَامَّةُ هَذِهِ الْقَابِلِيَّةُ بِالْمِضْمَارِ . وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ فَيُجَيِّدُونَ فِي تَلَاَحِيٍّ أَصْوَاتِهِمْ كَأَنَّهَا الْمَزَامِيرُ فَيُطَرَّبُونَ بِحُسْنِ مَسَاقِيمِهِمْ وَتَنَاسُبِ نَغَمَاتِهِمْ . وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَخْدُثُ بِالتَّرْكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ يَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ وَلَا كُلُّ الطَّبَاعِ^(٣) تَوَافِقُ صَاحِبَهَا فِي الْعَمَلِ بِهِ إِذَا عَلِمَ . وَهَذَا هُوَ التَّلْحِينُ الَّذِي يَتَكَفَّلُ بِهِ عِلْمُ الْمَوْسِيقَى كَمَا نَشْرَحُهُ بَعْدَ ذِكْرِ الْعُلُومِ . وَقَدْ أَنْكَرَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْقِرَاءَةَ بِالتَّلْحِينِ وَأَجَازَهَا الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ تَلْحِينَ الْمَوْسِيقَى الصَّنَاعِيَّ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْتَلَفَ فِي حَظِّهِ إِذْ صِنَاعَةُ الْغِنَاءِ مُبَايِنَةٌ لِلْقُرْآنِ بِكُلِّ وَجْهِ لَأَنَّ الْقِرَاءَةَ وَالْأَدَاءَ تَحْتَاجُ إِلَى مِقْدَارٍ مِنَ الصَّوْتِ لِتَعْيِينِ أَدَاءِ الحُرُوفِ لَا مِنْ حَيْثُ اتَّبَاعُ الْحَرَكَاتِ فِي مَوَاضِعِهَا وَمِقْدَارِ الْمَدِّ عِنْدَ مَنْ يُطْلِقُهُ أَوْ يَقْصُرُهُ ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَالتَّلْحِينُ أَيْضًا يَتَعَيَّنُ لَهُ مِقْدَارٌ مِنَ الصَّوْتِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ مِنْ أَجْلِ التَّنَاسُبِ الَّذِي قُلْنَا فِي حَقِيقَةِ التَّلْحِينِ . وَاعْتِبَارُ أَحَدِهِمَا قَدْ يُخِلُّ بِالْآخَرِ إِذَا تَعَارَضَا . وَتَقْدِيمُ الرِّوَايَةِ^(٤) مُتَعَيَّنٌ فَرَارًا مِنْ تَغْيِيرِ الرِّوَايَةِ الْمَنْقُولَةِ فِي الْقُرْآنِ ، فَلَا يُمْكِنُ اجْتِمَاعُ التَّلْحِينِ وَالْأَدَاءِ الْمُعْتَبَرِ فِي الْقُرْآنِ

(١) وفي نسخة أخرى : استقباح .

(٢) أي أهل صناعة الموسيقى .

(٣) وفي نسخة أخرى : الطبايع .

(٤) وفي نسخة أخرى : التلاوة .

بُوجِهٍ وَإِنَّمَا مَرَادُهُمُ التَّلْحِينَ البَسِيطَ الَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ صَاحِبُ الْمَضْمَارِ بِطَبِيعِهِ
كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَيَرَدُّ أَصَوَاتُهُ تَرْدِيداً عَلَى نِسْبِ يَذْرُكُهَا الْعَالِمُ بِالْغِنَاءِ وَغَيْرُهُ وَلَا
يَنْبَغِي ذَلِكَ بُوجِهٍ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْ اخْتِلَافِهِمُ التَّلْحِينَ البَسِيطَ الَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ
صَاحِبُ الْمَضْمَارِ بِطَبِيعِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ، فَيَرَدُّ أَصَوَاتُهُ تَرْدِيداً عَلَى نِسْبِ يَذْرُكُهَا
الْعَالِمُ بِالْغِنَاءِ وَغَيْرُهُ ، وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ بُوجِهٍ كَمَا قَالَه مَالِكٌ . هَذَا هُوَ مَحَلُّ
الْخِلَافِ . وَالظَّاهِرُ تَنْزِيهِ الْقُرْآنِ عَنْ هَذَا كُلِّهِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى
لَأَنَّ الْقُرْآنَ مَحَلُّ خُشُوعٍ يَذْكُرُ الْمَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ وَلَيْسَ مَقَامُ التَّذَاذِ بِإِذْرَاكَ الْحَسَنِ
مِنَ الْأَصْوَاتِ . وَهَكَذَا كَانَتْ قِرَاءَةُ الصَّحَايَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَمَا فِي أَخْبَارِهِمْ . وَأَمَّا
قَوْلُهُ ﷺ : « لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَاراً مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ التَّرْدِيدُ
وَالْتَّلْحِينُ إِنَّمَا مَعْنَاهُ حُسْنُ الصَّوْتِ وَأَدَاءُ الْقِرَاءَةِ وَالْإِبَانَةُ فِي مَخَارِجِ الْحُرُوفِ
وَالنُّطْقِ بِهَا . وَإِذْ قَدْ ذَكَّرْنَا مَعْنَى الْغِنَاءِ فَاغْلَمْ أَنَّهُ يَخْدُثُ فِي الْعُمَرَانِ إِذَا تَوَقَّرَ
وَتَجَاوَزَ حَدَّ الضَّرُورِيِّ إِلَى الْحَاجِيِّ ، ثُمَّ إِلَى الْكَمَالِيِّ ، وَتَفَنَّنُوا فِيهِ ، فَتَخَدَّثُ هَذِهِ
الصَّنَاعَةُ ، لِأَنَّهُ لَا يَسْتَدْعِيهَا إِلَّا مَنْ فَرَعَ مِنْ جَمِيعِ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْمُهْمَةِ مِنْ
الْمَعَاشِ وَالْمَنْزِلِ وَغَيْرِهِ فَلَا يَطْلُبُهَا إِلَّا الْفَارِعُونَ عَنْ سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ تَفَنَّنُوا فِي مَذَاهِبِ
الْمَلَذُودَاتِ . وَكَانَ فِي سُلْطَانِ الْعَجَمِ قَبْلَ الْمِلَّةِ مِنْهَا بَحْرٌ زَاخِرٌ فِي أَمْصَارِهِمْ
وَمَذَنِبِهِمْ . وَكَانَ مُلُوكُهُمْ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ وَيُولَعُونَ بِهِ ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ لِمُلُوكِ الْفُرسِ
اهْتِمَامٌ بِأَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَلَهُمْ مَكَانٌ فِي دَوْلَتِهِمْ ، وَكَانُوا يَحْضُرُونَ مَشَاهِدَهُمْ
وَمَجَامِعَهُمْ وَيُعْنُونَ فِيهَا . وَهَذَا شَأْنُ الْعَجَمِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي كُلِّ أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِهِمْ ،
وَمَمْلَكَةٍ مِنْ مَمَالِكِهِمْ . وَأَمَّا الْعَرَبُ فَكَانَ لَهُمْ أَوَّلًا فَنُ الشَّعْرِ يُؤَلَّفُونَ فِيهِ الْكَلَامُ
أَجْزَاءً مُتَسَاوِيَةً عَلَى تَنَاسُبِ بَيْنِهَا فِي عِدَّةِ حُرُوفِهَا الْمُتَحَرِّكَِةِ وَالسَّاكِنَةِ . وَيُفْضَلُونَ
الْكَلَامُ فِي تِلْكَ الْأَجْزَاءِ تَفْصِيلاً يَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مُسْتَقِلاً بِالْإِفَادَةِ ، لَا يَنْعِطُفُ
عَلَى الْآخِرِ . وَيُسَمُّونَهُ الْبَيْتَ . فَتَلَاثُ الطَّنْعِ بِالتَّجْرِئَةِ أَوَّلًا ، ثُمَّ يَتَنَاسَبُ الْأَجْزَاءُ فِي
الْمَقَاطِعِ وَالْمَبَادِي ، ثُمَّ يَتَأَدَّى الْمَعْنَى الْمَقْصُودُ وَتَطْبِيقُ الْكَلَامِ عَلَيْهَا . فَلَهَجُوا

بِهِ فَاِمْتَنَازَ مِنْ بَيْنِ كَلَامِهِمْ يَخْطُ مِنَ الشَّرَفِ لَيْسَ لِغَيْرِهِ لِأَجْلِ اخْتِصَاصِهِ . بِهَذَا
 التَّنَاسُبِ . وَجَعَلُوهُ دِيَوَانًا لِأَخْبَارِهِمْ وَحُكْمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَمَحْكَأً لِقَرَائِهِمْ فِي إِصَابَةِ
 الْمَعَانِي وَإِجَادَةِ الْأَسَالِيبِ . وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ . وَهَذَا التَّنَاسُبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِ
 الْأَجْزَاءِ وَالْمُتَحَرِّكِ وَالسَّاكِنِ مِنَ الْحُرُوفِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ مِنْ تَنَاسُبِ الْأَصْوَاتِ كَمَا
 هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ الْمَوْسِيقَى . إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا بِمَا سِوَاهُ لِأَنَّهُمْ جِينَتْهُمْ لَمْ
 يَنْتَحِلُوا عِلْمًا وَلَا عَرَفُوا صِنَاعَةً . وَكَانَتْ الْبِدَاوَةُ أَغْلَبَ نَحْلِهِمْ . ثُمَّ تَغَيَّرَ الْخُدَاةُ
 مِنْهُمْ فِي حِدَاءِ إِيْلِهِمْ وَالْفَتْيَانِ فِي فُضَاءِ خُلُوتِهِمْ فَرَجَعُوا الْأَصْوَاتِ وَتَرَنُّمُوا . وَكَانُوا
 يُسْمُونَ التَّرْنُمَ إِذَا كَانَ بِالشَّعْرِ غِنَاءً وَإِذَا كَانَ بِالتَّهْلِيلِ أَوْ نَوْعِ الْقِرَاءَةِ تَغْيِيرًا بِالْغَيْنِ
 الْمُعْجَمَةِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ . وَعَلَّلَهَا أَبُو إِسْحَاقَ الرَّجَاجُ بِأَنَّهَا تُذَكِّرُ بِالْغَايِرِ وَهُوَ
 الْبَاقِي أَيْ بِأَحْوَالِ الْآخِرَةِ . وَرُبَّمَا نَاسَبُوا فِي غِنَائِهِمْ بَيْنَ النِّعَمَاتِ مُنَاسَبَةً بَسِيطَةً
 كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيقٍ آخَرَ كِتَابِ الْعُمْدَةِ وَغَيْرُهُ . وَكَانُوا يُسْمُونَهُ السَّنَادَ . وَكَانَ
 أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي الْخَفِيفِ الَّذِي يُرْقِصُ عَلَيْهِ وَيُمَشَّى بِالْذِّفِّ وَالْمِزْمَارِ
 فَيَضْطَرِبُ وَيَسْتَحْفُفُ الْحُلُومَ . وَكَانُوا يُسْمُونَ هَذَا التَّهْرَجَ وَهَذَا الْبَسِيطَ كُلَّهُ مِنْ
 التَّلَاحِينِ هُوَ مِنْ أَوَائِلِهَا وَلَا يَنْبَغُ أَنْ تَتَفَقَّنَ لَهُ الطَّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمِ شَأْنِ الْبَسَائِطِ
 كُلِّهَا مِنَ الصَّنَائِعِ . وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنُ الْعَرَبِ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ . فَلَمَّا جَاءَ
 الْإِسْلَامُ وَاسْتَوْلُوا عَلَى مَمَالِكِ الدُّنْيَا وَحَازُوا سُلْطَانَ الْعَجَمِ وَعَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَكَانُوا مِنْ
 الْبِدَاوَةِ وَالْفَضَاضَةِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي عَرَفَتْ لَهُمْ مَعَ غَضَارَةِ الدِّينِ وَشِدَّتِهِ فِي تَرْكِ
 أَحْوَالِ الْفَرَاغِ وَمَا لَيْسَ بِنَافِعٍ فِي دِينٍ وَلَا مَعَاشٍ فَهَجَرُوا ذَلِكَ شَيْئًا مَا . وَلَمْ يَكُنْ
 الْمَلْدُودُ عِنْدَهُمْ إِلَّا تَرْجِيعُ الْقِرَاءَةِ^(١) وَالتَّرْنُمَ بِالشَّعْرِ الَّذِي هُوَ دَيْدُنُهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ .
 فَلَمَّا جَاءَهُمُ التَّرَفُ وَعَلَبَ عَلَيْهِمُ الرِّفَّةُ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غِنَائِهِ الْأَمَمِ صَارُوا إِلَى
 نَضَارَةِ الْعَيْشِ وَرَقَّةِ الْحَاشِيَةِ وَاسْتِخْلَاءِ الْفَرَاغِ . وَافْتَرَقَ الْمُغَنُّونَ مِنَ الْفَرَسِ وَالرُّومِ
 فَوَقَعُوا إِلَى الْحِجَازِ وَصَارُوا مَوَالِي لِلْعَرَبِ وَغَنُّوا جَمِيعًا بِالْعِيدَانِ وَالطَّنَائِيرِ

(١) وفي نسخة أخرى : ترجيع القرآن .

وَالْمَعَارِفِ وَالْمَرَامِيرِ وَسَمِعَ الْعَرَبُ تَلْحِينَهُمْ لِلْأَصْوَاتِ فَلَحْنُوا عَلَيْهَا أَشْعَارَهُمْ . وَظَهَرَ
 بِالْمَدِينَةِ نَشِيطُ الْفَارِسِيِّ وَطُوَيْسٌ وَسَائِبٌ^(١) بْنُ جَابِرٍ^(٢) مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ
 فَسَمِعُوا شِعْرَ الْعَرَبِ وَلَحْنَهُ وَأَجَادُوا فِيهِ وَطَارَ لَهُمْ ذِكْرٌ . ثُمَّ أَخَذَ عَنْهُمْ مَعْبَدٌ وَطَبَقَتْهُ
 وَابْنُ شَرِيحٍ^(٣) . وَأَنْظَارُهُ . وَمَا زَالَتْ صِنَاعَةُ الْغِنَاءِ تَنْتَدِرُ إِلَى أَنْ كَمَلْتُ أَيَّامَ بَنِي
 الْعُبَّاسِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ الْمُوَصِّلِيِّ^(٤) وَابْنِهِ إِسْحَاقَ وَابْنِهِ حَمَادٍ .
 وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي دَوْلَتِهِمْ يَبْتَغِدَادُ مَا تَبِعَهُ الْحَدِيثُ بَعْدَهُ بِهِ وَبِمَجَالِسِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ
 وَأَمْعَنُوا فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَاتَّخَذَتْ آلُ الرُّقَصِ فِي الْمَلِيسِ وَالْقَضْبَانِ وَالْأَشْعَارِ الَّتِي
 يَتَرَنَّمُ بِهَا عَلَيْهِ . وَجُعِلَ صِنْفًا وَحْدَهُ وَاتَّخَذَتْ آلُ أُخْرَى لِلرُّقَصِ تُسَمَّى
 بِالْكُرْجِ^(٥) وَهِيَ تَمَائِيلُ خَيْلٍ مُسَرَّجَةٍ مِنَ الْخَشَبِ مُعَلَّقَةٌ بِأَطْرَافِ أَقْبِيَةٍ يَلْبَسُهَا
 النِّسْوَانُ وَيُحَاكِينَ بِهَا امْتِطَاءَ الْخَيْلِ فَيَكْرُونَ وَيَفْرُونَ وَيَتَشَاقِفُونَ^(٦) وَأَمثالُ ذَلِكَ
 مِنَ اللَّعِبِ الْمُعَدُّ لِلْوَلَائِمِ وَالْأَغْرَاسِ وَأَيَّامِ الْأَعْيَادِ وَمَجَالِسِ الْفَرَاغِ وَاللَّهْوِ . وَكَثُرَ
 ذَلِكَ يَبْتَغِدَادُ وَأَمْصَارُ الْعِرَاقِ وَانْتَشَرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا . وَكَانَ لِلْمَوْصِلِيِّينَ غَلَامٌ اسْمُهُ
 زُرْيَابٌ أَخَذَ عَنْهُمْ الْغِنَاءَ فَأَجَادَ فَصَرَفُوهُ إِلَى الْمَغْرِبِ غَيْرَةً مِنْهُ فَلَحِقَ بِالْحَكَمِ بْنِ
 هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاحِلِ أَمِيرِ الْأَنْدَلُسِ . فَبَالَعَ فِي تَكْرِمَتِهِ وَرَكِبَ لِلِقَائِهِ
 وَأَسْنَى لَهُ الْجَوَائِزَ وَالْإِقْطَاعَاتِ وَالْجَرَائِاتِ وَأَحْلَهُ مِنْ دَوْلَتِهِ وَنُدُمَائِهِ بِمَكَانٍ .
 فَأَوْرَثَ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ صِنَاعَةِ الْغِنَاءِ مَا تَنَاقَلُوهُ إِلَى أَزْمَانِ الطَّوَائِفِ . وَطَمَأَ مِنْهَا
 بِأَشْبِيلِيَّةٍ بَخْرَ زَاخِرٍ وَتَنَاقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهَابِ غَضَارَتِهَا إِلَى بِلَادِ الْعُدُوَّةِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ
 وَالْمَغْرِبِ . وَانْقَسَمَ عَلَى أَمْصَارِهَا وَبِهَا الْآنَ مِنْهَا صُبَابَةٌ عَلَى تَرَاجُعِ عُمْرَانِهَا وَتَنَاقُصِ
 دَوْلَتِهَا . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ آخِرُ مَا يَخْصُلُ فِي الْعُمْرَانِ مِنَ الصَّنَائِعِ لِأَنَّهَا كَمَالِيَّةٌ فِي غَيْرِ
 وَظِيفَةٍ مِنَ الْوُظَائِفِ إِلَّا وَظِيفَةُ الْفَرَاغِ وَالْفَرَحِ . وَهُوَ أَيْضًا أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنَ
 الْعُمْرَانِ عِنْدَ اخْتِلَالِهِ وَتَرَاجُعِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(١) وفي نسخة أخرى : سائب وحائر . وفي النسخة الباريسية خائر مولى عبد الله بن جعفر .

(٢) وفي نسخة أخرى : ابن سريح .

(٤) أي يلعبون بالسلاح .

(٣) وفي نسخة أخرى : الكرج .

الفصل الثالث والثلاثون

في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب
قَدْ ذَكَّرْنَا فِي الْكِتَابِ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ لِلْإِنْسَانِ إِنَّمَا تَوْجَدُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ . وَأَنَّ
خُرُوجَهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِنَّمَا هُوَ بِتَجَدُّدِ الْعُلُومِ وَالْإِذْرَاكَاتِ عَنِ الْمَحْسُوسَاتِ
أَوَّلًا . ثُمَّ مَا يُكْتَسَبُ بَعْدَهَا بِالْقُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ إِذْرَاكًا بِالْفِعْلِ وَعَقْلًا
مَخْصًى فَتَكُونُ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً وَيَسْتَكْمِلُ حِينَئِذٍ وُجُودَهَا . فَوَجَبَ لِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ
كُلُّ نَوْعٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ يُفِيدُهَا عَقْلًا فَرِيدًا ^(١) وَالصَّنَائِعُ أَبَدًا يَحْصُلُ عَنْهَا وَعَنْ
مَلَكَتِهَا قَانُونٌ عِلْمِيٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ . فَلِهَذَا كَانَتِ الْحُنُكَةُ فِي التَّجَرِبَةِ تُفِيدُ
عَقْلًا وَالْحَضَارَةُ الْكَامِلَةُ تُفِيدُ عَقْلًا لِأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ صَنَائِعٍ فِي شَأْنِ تَذْيِيرِ الْمَنْزِلِ
وَمُعَاشَرَةِ أَهْلِهَا وَتَخْصِيلِ الْأَدَابِ فِي مَخَالِطِهِمْ ثُمَّ الْقِيَامِ بِأُمُورِ الدِّينِ
وَاغْتِبَارِ آدَابِهَا وَشَرَائِطِهَا . وَهَذِهِ كُلُّهَا قَوَانِينُ تَنْتَظِمُ عُلُومًا فَيَحْصُلُ مِنْهَا زِيَادَةُ
عَقْلٍ . وَالْكِتَابَةُ مِنْ بَيْنِ الصَّنَائِعِ أَكْثَرُ إِفَادَةً لِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى الْعُلُومِ
وَالْأَنْظَارِ بِخِلَافِ الصَّنَائِعِ . وَبَيَانُهُ أَنَّ فِي الْكِتَابَةِ انْتِقَالَ مِنَ الْحُرُوفِ الْخَطِيئَةِ إِلَى
الْكَلِمَاتِ اللَّفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ وَمِنَ الْكَلِمَاتِ اللَّفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ إِلَى الْمَعَانِي الَّتِي فِي
النَّفْسِ فَهِيَ تَنْتَقِلُ أَبَدًا مِنْ دَلِيلٍ إِلَى دَلِيلٍ ، مَا دَامَ مَلْتَبِسًا بِالْكِتَابَةِ وَتَتَعَوَّدُ النَّفْسُ
ذَلِكَ دَائِمًا . فَيَحْصُلُ لَهَا مَلَكَةُ الْإِنْتِقَالِ مِنَ الْأَدَلَةِ إِلَى الْمَذْلُولَاتِ وَهُوَ مَعْنَى النَّظَرِ
الْعَقْلِيِّ الَّذِي يُكْسَبُ ^(٢) الْعُلُومَ الْمَجْهُولَةَ فَيُكْسَبُ بِذَلِكَ مَلَكَةٌ مِنَ التَّعَقُّلِ تَكُونُ
زِيَادَةً عَقْلٍ وَيَحْصُلُ بِهِ قُوَّةٌ ^(٣) فِطْنِيَّةٌ وَكَيْسٌ فِي الْأُمُورِ لِمَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ ذَلِكَ
الْإِنْتِقَالِ . وَلِذَلِكَ قَالَ كِسْرَى فِي كِتَابِهِ لِمَا رَأَاهُمْ يَتَلَكَّ الْفِطْنَةَ وَالْكَيْسَ فَقَالَ :
« دِيَوَانُهُ أَيْ شَيَاطِينُ وَجُنُونٌ . قَالُوا : وَذَلِكَ أَصْلُ اشْتِقَاقِ الدِّيَوَانِ لِأَهْلِ الْكِتَابَةِ »

(١) وفي النسخة الباريسية : عقلاً مزيداً .

(٢) وفي نسخة أخرى : يكتب به .

(٣) وفي نسخة أخرى : مزيد .

وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ الْحُسَابُ فَإِنَّ فِي صِنَاعَةِ الْحُسَابِ نَوْعَ تَصَرُّفٍ فِي الْعَدَدِ بِالضَّمِّ
وَالْتَفْرِيقِ يُخْتِاجُ فِيهِ إِلَى اسْتِدْلَالٍ كَثِيرٍ فَيَبْقَى مُتَعَوِّدًا لِلِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ وَهُوَ مَعْنَى
الْعَقْلِ . وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ .

الباب السادس

من الكتاب الأول

في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك
كله

من الأحوال وفيه مقدمة ولواحق

فَالْمُقَدِّمَةُ فِي الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ ، الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ الْبَشَرُ عَنِ الْخَيَوَانَاتِ وَاهْتَدَى بِهِ
لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَالنَّظَرُ فِي مَقْبُودِهِ ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ
الرُّسُلُ مِنْ عِنْدِهِ ، فَصَارَ جَمِيعُ الْخَيَوَانَاتِ فِي طَاعَتِهِ وَمُلْكٍ قُدْرَتِهِ وَفَضْلِهِ بِهِ عَلَى
كَثِيرِ خَلْقِهِ .

الفصل الأول

في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَهُ جَمِيعُ الْخَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنْ الْحِسِّ
وَالْحَرَكَةِ وَالْغِذَاءِ وَالْكَيْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَإِنَّمَا تَمَيَّزَ عَنْهَا بِالْفِكْرِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ
لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَالْاجْتِمَاعِ الْمُهَيَّءِ لِذَلِكَ التَّعَاوُنِ

وَقَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْعَمَلِ بِهِ وَاتِّبَاعِ صَلَاحِ أَخْرَاهُ . فَهُوَ مُنْكَرٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ دَائِمًا لَا يَفْتَرُ عَنِ الْفِكْرِ فِيهِ طَرَفَةً عَيْنٍ بَلِ اخْتِلَاجُ الْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ . وَعَنْ هَذَا الْفِكْرِ تَنْشَأُ الْعُلُومُ وَمَا قَدْ مَنَّا مِنْ الصَّنَائِعِ . ثُمَّ لِأَجْلِ هَذَا الْفِكْرِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ بَلِ الْخَيَّوَانُ مِنْ تَخْصِيلِ مَا تَشْتَدِّعِيهِ الطَّبَاعُ فَيَكُونُ الْفِكْرُ رَاجِعًا فِي تَخْصِيلِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الْإِذْرَاكَاتِ فَيَرْجِعُ إِلَى مَنْ سَبَقَهُ بِعِلْمٍ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَةٍ أَوْ إِذْرَاكِ أَوْ أَخَذَهُ مِنْ تَقْدِمِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَهُ لِمَنْ تَلَقَّاهُ فَيُلْقِنُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيَخْرُصُ عَلَى أَخْذِهِ وَعِلْمِهِ . ثُمَّ إِنَّ فِكْرَهُ وَنَظَرَهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْحَقَائِقِ وَيَنْظُرُ مَا يَغْرُضُ لَهُ لِذَاتِهِ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ وَيَتَمَرَّنُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَصِيرَ الْحَاقُّ الْعَوَارِضِ بِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ مَلَكَةً لَهُ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ عِلْمُهُ بِمَا يَغْرُضُ لِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ عِلْمًا مَخْصُوصًا . وَتَشَوُّفُ نَفُوسِ أَهْلِ الْجِيلِ النَّاشِئِ إِلَى تَخْصِيلِ ذَلِكَ فَيَفْرَعُونَ إِلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ وَيَجِيءُ التَّعْلِيمُ مِنْ هَذَا . فَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الثاني

في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع

وَذَلِكَ أَنَّ الْحَدَقَ فِي الْعِلْمِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ وَالِاسْتِيْلَاءَ عَلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ مَلَكَةِ فِي الْإِحَاطَةِ بِمَبَادِيهِ وَقَوَاعِيدِهِ وَالْوُقُوفَ عَلَى مَسَائِلِهِ وَاسْتِنْبَاطَ فُرُوعِهِ مِنْ أَصُولِهِ . وَمَا لَمْ تَحْصُلْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لَمْ يَكُنِ الْحَدَقُ فِي ذَلِكَ الْفَنِّ الْمُتَنَاوِلِ حَاصِلًا . وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ هِيَ فِي غَيْرِ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ . لِأَنَّا نَجِدُ فَهْمَ الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْفَنِّ الْوَاحِدِ وَوَعْيَهَا مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَنْ شَدَا فِي ذَلِكَ الْفَنِّ وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مُبْتَدِئٌ فِيهِ وَبَيْنَ الْعَامِّيِّ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ^(١) عِلْمًا وَبَيْنَ الْعَالِمِ النَّخْرِيرِ . وَالْمَلَكَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْعَالِمِ أَوِ الشَّادِي فِي الْفُنُونِ دُونَ مَنْ سِوَاهُمَا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَلَكَةَ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ . وَالْمَلَكَاتُ

(١) وفي نسخة أخرى : يُخْضَلُ .

كُلُّهَا جِسْمَانِيَّةٌ سِوَاءَ كَانَتْ فِي الْبَدَنِ أَوْ فِي الدِّمَاغِ مِنَ الْفِكْرِ وَغَيْرِهِ كَالْحِسَابِ .
وَالْجِسْمَانِيَّاتُ كُلُّهَا مَحْسُوسَةٌ فَتَقْتَرِفُ إِلَى التَّعْلِيمِ . وَلِهَذَا كَانَ السُّنْدُ فِي التَّعْلِيمِ فِي كُلِّ
عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ يَفْتَقِرُ إِلَى مَشَاهِيرِ الْمُعَلِّمِينَ فِيهَا مُعْتَبَرًا عِنْدَ كُلِّ أَهْلِ أَفْقٍ وَجِيلٍ .
وَيَذُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ صِنَاعَةٌ اخْتِلَافِ الْإِصْطِلَاحَاتِ فِيهِ . فَلِكُلِّ إِمَامٍ مِنَ
الْأَئِمَّةِ الْمَشَاهِيرِ اصْطِلَاحٌ فِي التَّعْلِيمِ يَخْتَصُّ بِهِ شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَذَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ
الِاصْطِلَاحَ لَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ ، وَإِذْ لَوْ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ لَكَانَ وَاحِدًا عِنْدَ جَمِيعِهِمْ . أَلَا
تَرَى إِلَى عِلْمِ الْكَلَامِ كَيْفَ تَخَالَفَ فِي تَعْلِيمِهِ اصْطِلَاحُ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَكَذَا
أَصُولُ الْفِقْهِ وَكَذَا الْعَرَبِيَّةُ وَكَذَا كُلُّ عِلْمٍ يُتَوَجَّهُ ^(١) إِلَى مَطَالَعَتِهِ تَجِدُ الْإِصْطِلَاحَاتِ
فِي تَعْلِيمِهِ مُتَخَالِفَةً فَذَلَّ عَلَى أَنَّهَا صِنَاعَاتٌ فِي التَّعْلِيمِ . وَالْعِلْمُ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ . وَإِذَا
تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ سُنْدَ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ كَادَ يَنْقَطِعُ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ
بِاخْتِلَالِ عُمُرَانِهِ وَتَنَاقُصِ الدُّوَلِ فِيهِ . وَمَا يَخْدُثُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الصَّنَائِعِ
وَفَقْدَانِهَا كَمَا مَرَّ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقَيْرَوَانَ وَقُرْطُبَةَ كَانَتَا حَاضِرَتَيْ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ
وَاسْتَبَحَرَ عُمُرَانُهُمَا وَكَانَ فِيهِمَا لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ أَسْوَاقٌ نَافِقَةٌ وَبُحُورٌ زَاخِرَةٌ . وَرَسَخَ
فِيهِمَا التَّعْلِيمُ لِامْتِدَادِ عَصُورِهِمَا وَمَا كَانَ فِيهِمَا مِنَ الْحَضَارَةِ . فَلَمَّا خَرِبَتَا انْقَطَعَ
التَّعْلِيمُ مِنَ ^(٢) الْمَغْرِبِ إِلَّا قَلِيلًا كَانَ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ بِمَرَاكِشَ مُسْتَفَادًا مِنْهَا .
وَلَمْ تَرْسَخِ الْحَضَارَةُ بِمَرَاكِشَ لِبِدَاوَةِ الدَّوْلَةِ الْمُوَحِّدِيَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَقُرْبِ عَهْدِ انْقِرَاضِهَا
بِمَبْدئِهَا فَلَمْ تَتَّصِلْ أَحْوَالُ الْحَضَارَةِ فِيهَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ . وَبَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ
بِمَرَاكِشَ ارْتَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ مِنْ أَفْرِيقِيَّةِ الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ زَيْتُونٍ لِعَهْدِ
أَوَاسِطِ الْمِائَةِ السَّابِقَةِ فَأَذَرَكَ تَلْمِيزَ الْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ فَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلَقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ .
وَحَذَقَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَالنَّقْلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ يَعْلَمُ كَثِيرًا وَتَعْلِيمُهُ حَسَنٌ . وَجَاءَ عَلَى
أَثَرِهِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبٍ الدَّكَّالِيُّ . كَانَ ارْتَحَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَغْرِبِ
فَأَخَذَ عَنْ مَشِيخَةِ مِصْرَ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ وَاسْتَقَرَّ بِهَا وَكَانَ تَعْلِيمُهُ مَفِيدًا فَأَخَذَ عَنْهُمْمَا

(١) وفي النسخة الباريية : يحتاج .

(٢) وفي النسخة الباريية : عن المغرب .

أهل تونس . وَاتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِمَا فِي تَلَامِيذِهِمَا جَيْلًا بَعْدَ جَيْلٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ ، شَارِحِ بْنِ الْحَاجِبِ وَتَلْمِيذِهِ وَانْتَقَلَ مِنْ تُونِسَ إِلَى تَلْمَسَانَ فِي ابْنِ الْإِمَامِ وَتَلْمِيذِهِ . فَإِنَّهُ قَرَأَ مَعَ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ عَلَى مَشِيخَةٍ وَاحِدَةٍ فِي مَجَالِسَ بِأَغْيَانِهَا وَتَلْمِيذِ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ بِتُونِسَ وَابْنِ الْإِمَامِ بِتَلْمَسَانَ لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنَ الْقِلَّةِ بِحَيْثُ يُخْشَى انْقِطَاعُ سَنَدِهِمْ . ثُمَّ ارْتَحَلَ مِنْ زَوَاوَةِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ الْمَشْدَالِيِّ وَأَذَرَكَ تَلْمِيذَ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْحَاجِبِ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلَقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ . وَقَرَأَ مَعَ شِهَابِ الدِّينِ الْقِرَافِيِّ فِي مَجَالِسَ وَاحِدَةٍ وَحَذَقَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَالنَّقْلِيَّاتِ . وَرَجَعَ إِلَى الْمَغْرِبِ بِعِلْمٍ كَثِيرٍ وَتَعْلِيمٍ مُفِيدٍ . وَنَزَلَ بِبِجَايَةِ وَاتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِ فِي طَلَبَتِهَا . وَرَبَّمَا انْتَقَلَ إِلَى تَلْمَسَانَ عُمَرَانُ الْمَشْدَالِيُّ ^(١) مِنْ تَلْمِيذِهِ وَأَوْطَنَهَا وَبَثَّ طَرِيقَتَهُ فِيهَا . وَتَلْمِيذُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ بِبِجَايَةِ وَتَلْمَسَانَ قَلِيلٌ أَوْ أَكْثَرٌ مِنَ الْقَلِيلِ . وَبَقِيَتْ فَاسٌ وَسَائِرُ أَقْطَارِ الْمَغْرِبِ خُلُوعًا مِنْ حُسْنِ التَّعْلِيمِ مِنْ لَدُنْ انْقِرَاضِ تَعْلِيمِ قَرْطُبَةٍ وَالْقَيْرَوَانِ وَلَمْ يَتَّصِلْ سَنَدُ التَّعْلِيمِ فِيهِمْ فَعَسَرَ عَلَيْهِمْ حُصُولُ الْمَلَكََةِ وَالْحَذَقُ فِي الْعُلُومِ . وَأَيَسَّرَ طَرِيقَ هَذِهِ الْمَلَكََةِ فَتَقَى ^(٢) اللِّسَانَ بِالْمُخَاوَرَةِ وَالْمُنَاطَرَةِ فِي الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ فَهُوَ الَّذِي يَقْرُبُ شَأْنَهَا وَيُحْصِلُ مَرَامَهَا . فَتَجِدُ طَالِبَ الْعِلْمِ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ الْكَثِيرِ مِنْ أَغْمَارِهِمْ فِي مُلَازِمَةِ الْمَجَالِسِ الْعِلْمِيَّةِ سَكُوتًا لَا يَنْطَقُونَ وَلَا يُفَاوِضُونَ وَعِنَايَتُهُمْ بِالْحِفْظِ أَكْثَرُ مِنَ الْحَاجَةِ . فَلَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِلٍ مِنَ مَلَكََةِ التَّصَرُّفِ فِي الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ ، ثُمَّ بَعْدَ تَخْصِيلِ مَنْ يَرَى مِنْهُمْ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ تَجِدُ مَلَكَتَهُ قَاصِرَةً فِي عِلْمِهِ إِنْ فَاوَضَ أَوْ نَاطَرَ أَوْ عَلَّمَ وَمَا أَتَاهُمْ الْقُصُورُ إِلَّا مِنْ قَبْلِ التَّعْلِيمِ وَانْقِطَاعِ سَنَدِهِ . وَإِلَّا فَحِفْظُهُمْ أُبْلَغُ مِنْ حِفْظِ سِوَاهُمْ لِشِدَّةِ عِنَايَتِهِمْ بِهِ . وَظَنُّهُمْ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ مِنَ الْمَلَكََةِ الْعِلْمِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَمِمَّا يَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ أَنَّ الْمُدَّةَ الْمُعَيَّنَةَ لِسُكْنَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ بِالْمَدَارِسِ عِنْدَهُمْ سِتُّ عَشْرَةَ سَنَةً وَهِيَ بِتُونِسَ خَمْسُ سِنِينَ . وَهَذِهِ الْمُدَّةُ بِالْمَدَارِسِ عَلَى الْمُتَعَارِفِ

(١) وفي نسخة أخرى : المَشْدُ إِلَى وهو تحريف والمشد إلى نسبة إلى مشدالة من قبائل زوارة في المغرب .

(٢) وفي نسخة أخرى : قُوَّة .

هِيَ أَقْلُ مَا يَتَأْتِي فِيهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ حُصُولُ مُبْتَغَاةٍ مِنَ الْمَلَكََةِ الْعِلْمِيَّةِ أَوْ الْيَاسِ مِنْ تَخْصِيلِهَا فَطَالَ أَمَدُهَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْمُدَّةِ لِأَجْلِ عُسْرِهَا مِنْ قِلَّةِ الْجُودَةِ فِي التَّعْلِيمِ خَاصَّةً لَا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ . وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَذَهَبَ رَسْمُ التَّعْلِيمِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَذَهَبَتْ عَنَانِيَّتُهُم بِالْعُلُومِ لِتَنَاقُصِ عُمُرَانِ الْمُسْلِمِينَ بِهَا مُنْذُ مِائِينَ مِنَ السِّنِينَ . وَلَمْ يَبْقَ مِنْ رَسْمِ الْعِلْمِ فِيهِمْ إِلَّا قُنُ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ . اقْتَصَرُوا عَلَيْهِ وَانْحَفَظَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِ بَيْنَهُمْ فَانْحَفَظَ بِحِفْظِهِ . وَأَمَّا الْفِقْهُ بَيْنَهُمْ فَرَسَمَ خُلُوهُ وَاتَّرَ بَعْدَ عَيْنٍ . وَأَمَّا الْعَقَلِيَّاتُ فَلَا أَثَرَ وَلَا عَيْنَ . وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِانْقِطَاعِ سَنَدِ التَّعْلِيمِ فِيهَا بِتَنَاقُصِ الْعُمُرَانِ وَتَغَلُّبِ الْعَدُوِّ عَلَى غَامِتِهَا إِلَّا قَلِيلًا بِسَيْفِ الْبَحْرِ شَغْلُهُمْ بِمَعَايِشِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ شُغْلِهِمْ بِمَا بَعْدَهَا . وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . وَأَمَّا الْمَشْرِقُ فَلَمْ يَنْقُطْ سَنَدُ التَّعْلِيمِ فِيهِ بَلْ أَسْوَاقُهُ نَافِقَةٌ وَبُحُورُهُ زَاجِرَةٌ لِاتِّصَالِ الْعُمُرَانِ الْمُؤَفَّرِ وَاتِّصَالِ السَّنَدِ فِيهِ . وَإِنْ كَانَتْ الْأَمْصَارُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ مَعَادِنَ الْعِلْمِ قَدْ خَرِبَتْ مِثْلَ بَغْدَادَ وَالْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَذَالَ مِنْهَا بِأَمْصَارِ أَعْظَمَ مِنْ تِلْكَ . وَانْتَقَلَ الْعِلْمُ مِنْهَا إِلَى عِرَاقِ الْعَجَمِ بِخُرَاسَانَ ، وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، ثُمَّ إِلَى الْقَاهِرَةِ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَلَمْ تَزَلْ مُؤَفَّرَةٌ وَعُمُرَانُهَا مُتَّصِلًا وَسَنَدُ التَّعْلِيمِ بِهَا قَائِمًا . فَأَهْلُ الْمَشْرِقِ عَلَى الْجُمْلَةِ أَرْسَخُوا فِي صِنَاعَةِ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ بَلْ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ . حَتَّى إِنَّهُ لَيُظَنُّ كَثِيرٌ مِنْ رَحَالَةٍ أَهْلِ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَنَّ عُقُولَهُمْ^(١) عَلَى الْجُمْلَةِ أَكْمَلُ مِنْ عُقُولِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَنَّهِمْ أَشَدُّ نَبَاهَةً وَأَعْظَمَ كَيْسًا يَفْطَرْتُهُمُ الْأُولَى . وَأَنَّ نَفُوسَهُمُ النَّاطِقَةُ أَكْمَلُ يَفْطَرْتُهَا مِنْ نَفُوسِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ . وَيَعْتَقِدُونَ التَّفَاوُتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيَتَشَبَّهُونَ لِذَلِكَ وَيُولَعُونَ بِهِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ كَيْسِهِمْ فِي الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَلَيْسَ بَيْنَ قَطْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ تَفَاوُتٌ بِهَذَا الْمِقْدَارِ الَّذِي هُوَ تَفَاوُتٌ فِي الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ اللَّهُمَّ إِلَّا الْأَقَالِيمَ الْمُنْحَرِفَةَ مِثْلَ الْأَوَّلِ وَالسَّائِعِ فَإِنَّ الْأَمْزِجَةَ فِيهَا مُنْحَرِفَةٌ وَالنَّفُوسَ عَلَى نِسْبَتِهَا كَمَا مَرَّ وَإِنَّمَا الَّذِي فَضَّلَ بِهِ أَهْلُ

(١) أي عقول أهل المشرق .

الْمَشْرِقِ أَهْلَ الْمَغْرِبِ هُوَ مَا يَخْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ أَثَارِ الْحَضَارَةِ مِنَ الْعَقْلِ الْمَزِيدِ
 كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّنَائِعِ ، وَنَزِيدُهُ الْآنَ شَرْحاً وَتَحْقِيقاً . وَذَلِكَ أَنَّ الْحَضَرَ لَهُمْ آدَابٌ فِي
 أَحْوَالِهِمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَسْكَنِ وَالْبِنَاءِ وَأُمُورِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَكَذَا سَائِرُ أَعْمَالِهِمْ
 وَعَادَاتِهِمْ وَمَعَامَلَاتِهِمْ وَجَمِيعُ تَصَرُّفَاتِهِمْ . فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ آدَابٌ يُوقِفُ عِنْدَهَا فِي
 جَمِيعِ مَا يَتَنَاولُونَهُ وَيَتَلَبَّسُونَ^(١) بِهِ مِنْ أَخْذٍ وَتَرْكِ حَتَّى كَأَنَّهَا حُدُودٌ لَا تُتَعَدَّى .
 وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ صَنَائِعٌ يَتَلَقَّاهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ . وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ مُرْتَبِيةٍ
 يَرْجِعُ مِنْهَا إِلَى النَّفْسِ أَثَرٌ يُكْسِبُهَا عَقْلاً جَدِيداً تُسْتَعِدُّ بِهِ لِقَبُولِ صِنَاعَةٍ أُخْرَى
 وَيَتَهَيَّأُ بِهَا الْعَقْلُ بِسُرْعَةٍ الْإِذْرَاكِ لِلْمَعَارِفِ . وَلَقَدْ بَلَّغْنَا فِي تَعْلِيمِ الصَّنَائِعِ عَنْ أَهْلِ
 مِصْرَ غَايَاتٍ لَا تُدْرِكُ مِثْلُ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَضَرَ الْإِنْسِيَّةَ وَالْحَيَوَانَاتِ الْعُجَمَ مِنْ
 الْمَاشِيِّ وَالطَّائِرِ مُفْرَدَاتٍ مِنَ الْكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ يُسْتَفْرَبُ نَدْوَرُهَا وَيَفْجَزُ أَهْلُ
 الْمَغْرِبِ عَنْ فَهْمِهَا فَضْلاً عَنْ تَعْلِيمِهَا وَحُسْنِ الْمَلَكَاتِ فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ
 الْأَحْوَالِ الْعَادِيَّةِ يَزِيدُ الْإِنْسَانُ ذِكَاءً فِي عَقْلِهِ وَإِضَاءَةً فِي فِكْرِهِ بِكَثْرَةِ الْمَلَكَاتِ
 الْحَاصِلَةِ لِلنَّفْسِ . إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَنْشَأُ بِالْإِذْرَاكَاتِ . وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مِنْ
 الْمَلَكَاتِ فَيَزْدَادُونَ بِذَلِكَ كَيْساً لِمَا يَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ مِنَ الْأَثَارِ الْعِلْمِيَّةِ فَيُظَنُّهُ
 الْعَامِيُّ تَقَاوُتاً فِي الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . أَلَا تَرَى إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مَعَ أَهْلِ
 الْبَدْوِ كَيْفَ تَجِدُ الْحَضَرِيَّ مُتَحَلِّياً بِالذِّكَاءِ مُمْتَلِئاً مِنَ الْكَيْسِ حَتَّى إِنَّ الْبَدْوِيَّ
 لَيُظَنُّهُ أَنَّهُ قَدْ فَاتَهُ فِي حَقِيقَةِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِجَادَتِهِ فِي
 مَلَكَاتِ الصَّنَائِعِ وَالْآدَابِ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ الْحَضَرِيَّةِ مَا لَا يَعْرِفُهُ الْبَدْوِيَّ . فَلَمَّا
 امْتَلَأَ الْحَضَرِيُّ مِنَ الصَّنَائِعِ وَمَلَكَاتِهَا وَحُسْنِ تَعْلِيمِهَا ظَنَّ كُلُّ مَنْ قَصَرَ عَنْ تِلْكَ
 الْمَلَكَاتِ أَنَّهَا لِكَمَالٍ فِي عَقْلِهِ وَأَنَّ نَفْسَ أَهْلِ الْبَدْوِ قَاصِرَةٌ يَفْطُرُهَا وَجِبِلَّتُهَا عَنْ
 فِطْرَتِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ مَنْ هُوَ فِي أَعْلَى رُتْبَةٍ مِنَ الْفَهْمِ
 وَالْكَمَالِ فِي عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ إِنَّمَا الَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ ذَلِكَ هُوَ رَوْنَقُ

(١) وفي نسخة أخرى يتكسبون .

الصَّنَائِعِ وَالتَّعْلِيمِ فَإِنَّ لَهُمَا أَثَاراً تَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . وَكَذَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ لَمَّا كَانُوا فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ أَرْسَخَ رَتْبُهُ وَأَعْلَى قَدَمًا وَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ أَقْرَبَ إِلَى الْبِدَاوَةِ لَمَّا قَدَّمْنَاهُ فِي الْفَضْلِ قَبْلَ هَذَا ظَنُّ الْمُغْفَلُونَ فِي بَادِي الرَّأْيِ أَنَّهُ لِكَمَالٍ فِي حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ اخْتَصُوا بِهِ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ فَتَفَهَّمَهُ وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ وَهُوَ إِلَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

الفصل الثالث

في ان العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظيم الحضارة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ . وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَكْثُرُ فِي الْأَمْصَارِ . وَعَلَى نِسْبَةِ عُمُرَانِهَا فِي الْكَثَرَةِ وَالْقِلَةِ وَالْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ تَكُونُ نِسْبَةُ الصَّنَائِعِ فِي الْجُودَةِ وَالْكَثَرَةِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الْمَعَاشِ . فَمَتَى فَضَلَتْ أَعْمَالُ أَهْلِ الْعُمُرَانِ عَنْ مَعَاشِهِمْ انصَرَفَتْ إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَعَاشِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي خَاصِيَةِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ . وَمَنْ تَشَوَّفَ بِفِطْرَتِهِ إِلَى الْعِلْمِ مِمَّنْ نَشَأَ فِي الْقَرْىِ وَالْأَمْصَارِ غَيْرِ الْمُتَمَدِّنَةِ فَلَا يَجِدُ فِيهَا التَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ صِنَاعِيٌّ لِفَقْدَانِ الصَّنَائِعِ فِي أَهْلِ الْبَدْوِ . كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الرِّخْلَةِ فِي طَلَبِهِ إِلَى الْأَمْصَارِ الْمُسْتَبْحِرَةِ شَأْنَ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا . وَاعْتَبِرْ مَا قَرَّرْنَاهُ بِحَالِ بَغْدَادَ وَقَرْطَبَةَ وَالْقَيْرَوَانَ وَالْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ لَمَّا كَثُرَ عُمُرَانُهَا صَدَرَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَوَتْ فِيهَا الْحَضَارَةُ ، كَيْفَ زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارِ الْعِلْمِ وَتَفَنَّنُوا فِي اصْطِلَاحَاتِ التَّعْلِيمِ وَأَصْنَافِ الْعُلُومِ وَاسْتِنْبَاطِ الْمَسَائِلِ وَالْفُنُونِ حَتَّى أَرَبَوْا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ وَفَاتَوُا الْمُتَأَخِّرِينَ . وَلَمَّا تَنَاقَصَ عُمُرَانُهَا وَابْدَعَرُ سُكَّانُهَا انطوى ذَلِكَ الْبَسَاطُ بِمَا عَلَيْهِ جُمْلَةٌ ، وَقَفِدَ الْعِلْمُ بِهَا وَالتَّعْلِيمُ ، وَانْتَقَلَ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ . وَنَحْنُ لِهَذَا الْعَهْدِ نَرَى أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ إِنَّمَا هُوَ بِالْقَاهِرَةِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ لَمَّا أَنَّ عُمُرَانَهَا مُسْتَبْحِرٌ وَحَضَارَتُهَا مُسْتَحْكِمَةٌ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ ، فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا الصَّنَائِعُ وَتَفَنَّنَتْ وَمِنْ جُمْلَتِهَا

تَعْلِيمِ الْعِلْمِ . وَأَكَّدَ ذَلِكَ فِيهَا وَحَفِظَهُ مَا وَقَعَ لِهَذِهِ الْعُصُورِ بِهَا مِنْذُ مَائَتَيْنِ مِنَ
السِّنِينَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ مِنْ أَيَّامِ صَلَاحِ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ وَهَلُمَّ جَرًّا . وَذَلِكَ أَنَّ أُمَرَاءَ
التُّرْكِ فِي دَوْلَتِهِمْ يَخْشَوْنَ عَادِيَةَ سُلْطَانِهِمْ عَلَى مَنْ يَتَخَلَّفُونَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ لِمَا لَهُ
عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّقِّ أَوْ الْوَلَاءِ وَلَمَّا يُخْشَى مِنْ مَعَاطِبِ الْمَلِكِ وَنَكَبَاتِهِ . فَاسْتَكْثَرُوا مِنْ
بِنَاءِ الْمَدَارِسِ وَالزَّوَايَا وَالرُّبُطِ ^(١) وَوَقَفُوا عَلَيْهَا الْأَوْقَافَ الْمُغَلَّةَ يَجْعَلُونَ فِيهَا
شِرْكَاءَ ^(٢) لِيُولِدَهُمْ يَنْظُرَ عَلَيْهَا أَوْ يُصِيبَ مِنْهَا مَعَ مَا فِيهِمْ غَالِبًا مِنَ الْجُنُوحِ إِلَى الْخَيْرِ
وَالْتِمَاسِ الْأَجُورِ فِي الْمَقَاصِدِ وَالْأَفْعَالِ . فَكَثُرَتْ الْأَوْقَافُ لِذَلِكَ وَعَظُمَتِ الْغَلَاتُ
وَالْفَوَائِدُ وَكَثُرَ طَالِبُ الْعِلْمِ وَمُعَلِّمُهُ بِكَثْرَةِ جَرَايَتِهِمْ مِنْهَا وَازْتَحَلَ إِلَيْهَا النَّاسُ فِي
طَلَبِ الْعِلْمِ مِنَ الْعِرَاقِ وَالْمَغْرِبِ وَنَفَقَتْ بِهَا أَسْوَاقُ الْعُلُومِ وَزَخَرَتْ بِخَارِهَا . وَاللَّهُ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل الرابع

في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

إِغْلَمَ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِي يَخُوضُ فِيهَا الْبَشَرُ وَيَتَدَاوُلُونَهَا فِي الْأَمْصَارِ تَخْصِيلاً
وَتَعْلِيماً هِيَ عَلَى صِنْفَيْنِ : صِنْفٍ طَبِيعِيٍّ لِلْإِنْسَانِ يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِفِكْرِهِ ، وَصِنْفٍ
نَقْلِيٍّ يَأْخُذُهُ عَمَّنْ وَضَعَهُ . وَالْأَوَّلُ هِيَ الْعُلُومُ الْحِكْمِيَّةُ الْفَلَسَفِيَّةُ وَهِيَ الَّتِي يُمْكِنُ
أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ بِطَبِيعَةِ فِكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضُوعَاتِهَا
وَمَسَائِلِهَا وَأَنْحَاءِ بَرَاهِينِهَا وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا حَتَّى يَقِفَهُ ^(٣) نَظَرُهُ وَيَحْتَهُ ^(٤) عَلَى
الصُّوَابِ مِنَ الْخَطِإِ فِيهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ذُو فِكْرٍ . وَالثَّانِي هِيَ الْعُلُومُ النَّقْلِيَّةُ
الْوَضْعِيَّةُ وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَنَدَةٌ إِلَى الْخَبَرِ عَنِ الْوَاضِعِ الشَّرْعِيِّ . وَلَا مَجَالَ فِيهَا لِلْعَقْلِ

(١) جمع رباط ، الحصن أو المكان الذي يربط فيه الجيش ، والأنسب كلمة رباطات وهي المعاهد المبنية

والموقوفة للفقراء .

(٢) الشرك ، الحصة .

(٣) قوله ، حتى يقفه نظره ، يستعمل وقف متعدياً فتقول ، وقفته على كذا أي اطلعته عليه . قاله نصر .

(٤) وفي نسخة أخرى : بحثه .

إِلَّا فِي إِلْحَاقِ الْفُرُوعِ مِنْ مَسَائِلِهَا بِالْأَصُولِ لِأَنَّ الْجُزْئِيَّاتِ الْجَادِثَةَ الْمُتَعَابَةَ لَا تَنْدَرُجُ تَحْتَ النُّقْلِ الْكُلِّيِّ بِمَجْرَدِ وَضْعِهِ فَتَحْتَاجُ إِلَى الْإِلْحَاقِ بِوَجْهِ قِيَاسِيٍّ . إِلَّا أَنَّ هَذَا الْقِيَاسَ يَتَفَرَّغُ عَنِ الْخَبَرِ بِثُبُوتِ الْحُكْمِ فِي الْأَصْلِ وَهُوَ نَقْلِيٌّ فَرَجَعَ هَذَا الْقِيَاسُ إِلَى النُّقْلِ لِتَفَرُّعِهِ عَنْهُ . وَأَصْلُ هَذِهِ الْعُلُومِ النُّقْلِيَّةِ كُلُّهَا هِيَ الشَّرْعِيَّاتُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الَّتِي هِيَ مَشْرُوعَةٌ لَنَا مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي تَهَيِّئُوهَا لِلْإِفَادَةِ . ثُمَّ يَسْتَتَبِعُ ذَلِكَ عُلُومُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي هُوَ لِسَانُ الْمِلَّةِ وَبِهِ نَزَلَ الْقُرْآنُ . وَأَصْنَافُ هَذِهِ الْعُلُومِ النُّقْلِيَّةِ كَثِيرَةٌ لِأَنَّ الْمُكَلَّفَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَوْلَادِهِ جَنْسِهِ وَهِيَ مَاخُودَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِالنَّصِّ أَوْ بِالِاجْتِمَاعِ أَوْ بِالِإِلْحَاقِ فَلَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ بِالْكِتَابِ بَيِّنَاتِ الْفَاطَةِ أَوَّلًا وَهَذَا هُوَ عِلْمُ التَّفْسِيرِ ثُمَّ بِإِسْنَادِ نَقْلِهِ وَرِوَايَتِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاخْتِلَافِ رِوَايَاتِ الْقُرَاءِ فِي قِرَاءَتِهِ وَهَذَا هُوَ عِلْمُ الْقِرَاءَاتِ ثُمَّ بِإِسْنَادِ السُّنَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا وَالْكَلَامِ فِي الرِّوَاةِ النَّاقِلِينَ لَهَا وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ وَعَدَالَتِهِمْ لِيَقَعَ الْوُثُوقُ بِأَخْبَارِهِمْ يَعْلَمُ^(١) مَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذِهِ هِيَ عُلُومُ الْحَدِيثِ . ثُمَّ لَا بُدَّ فِي اسْتِنْبَاطِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ مِنْ أَصُولِهَا مِنْ وَجْهِ قَانُونِيٍّ يَفِيدُ الْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ هَذَا الْاسْتِنْبَاطِ وَهَذَا هُوَ أَصُولُ الْفَقْهِ . وَبَعْدَ هَذَا تَحْصُلُ الثَّمَرَةُ بِمَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ وَهَذَا هُوَ الْفَقْهُ . ثُمَّ إِنَّ التَّكَالِيفَ مِنْهَا بَدَنِيٍّ ، وَمِنْهَا قَلْبِيٍّ ، وَهُوَ الْمُخْتَصُّ بِالْإِيمَانِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ مِنْهَا لَا يُعْتَقَدُ . وَهَذِهِ هِيَ الْعَقَائِدُ الْإِيمَانِيَّةُ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَأُمُورِ الْحَشْرِ وَالنَّعِيمِ وَالْعَذَابِ وَالْقَدَرِ . وَالْحِجَاجُ عَنْ هَذِهِ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ هُوَ عِلْمُ الْكَلَامِ . ثُمَّ النَّظَرُ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ لَا بُدَّ أَنْ تَتَقَدَّمَ الْعُلُومُ اللَّسَانِيَّةُ لِأَنَّهُ مُتَوَقَّفٌ عَلَيْهَا وَهِيَ أَصْنَافُ . فَمِنْهَا عِلْمُ اللُّغَةِ وَعِلْمُ النُّحُوِّ وَعِلْمُ الْبَيَانِ وَعِلْمُ الْأَدَابِ حَسْبَمَا نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا . وَهَذِهِ الْعُلُومُ النُّقْلِيَّةُ كُلُّهَا مُخْتَصَّةٌ بِالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَهْلِهَا وَإِنْ كَانَتْ كُلُّ مِلَّةٍ عَلَى الْجُمْلَةِ لَا بُدَّ

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : وَيَعْمَلُ .

فِيهَا مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَهِيَ مُشَارَكَةٌ لَهَا فِي الْجِنْسِ التَّعْيِيدِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ ^(٢) الْمُنَزَّلَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ الْمُبْلَغِ لَهَا . وَأَمَّا عَلَى الْخُصُوصِ فَمَبَايِنَةٌ لِجَمِيعِ الْمِلَالِ لِأَنَّهَا نَاسِخَةٌ لَهَا . وَكُلُّ مَا قَبْلَهَا مِنْ عُلُومِ الْمِلَالِ فَمَهْجُورَةٌ وَالنَّظَرُ فِيهَا مَحْظُورٌ . فَقَدْ نَهَى الشَّرْعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ غَيْرِ الْقُرْآنِ . قَالَ ﷺ : « لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوا بِهِمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَذَا وَاحِدٌ » وَرَأَى النَّبِيُّ ﷺ فِي يَدِ عَمْرِو بْنِ رَضِي اللَّهِ عَنْهُ وَرَقَةً مِنَ التَّوْرَةِ فَغَضِبَ حَتَّى تَبَيَّنَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ : « أَلَمْ آتِكُمْ بِهَا بَيَضَاءً نَقِيَّةً ؟ وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَتْبَاعِي . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ قَدْ نَفَقَتْ أَسْوَاقُهَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَانْتَهَتْ فِيهَا مَدَارِكُ النَّاطِرِينَ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي لَا شَيْءَ فَوْقَهَا وَهَذَبَتْ الْإِضْطِلَاحَاتُ وَرُبَّتِ الْفُنُونُ فَجَاءَتْ مِنْ وَرَاءِ الْغَايَةِ فِي الْحُسْنِ وَالتَّنْمِيقِ . وَكَانَ لِكُلِّ فَنٍّ رَجَالٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ فِيهِ وَأَوْضَاعٌ يُسْتَفَادُ مِنْهَا التَّغْلِيمُ . وَاخْتَصَّ الْمَشْرِقُ مِنْ ذَلِكَ وَالْمَغْرِبُ بِمَا هُوَ مَشْهُورٌ مِنْهَا حَسَبًا نَذَرَهُ الْآنَ عِنْدَ تَعْدِيدِ هَذِهِ الْفُنُونِ . وَقَدْ كَسَدَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَسْوَاقُ الْعِلْمِ بِالْمَغْرِبِ لِتَنَاقُصِ الْعُمَرَانِ فِيهِ وَانْقِطَاعِ سِنْدِ الْعِلْمِ وَالتَّغْلِيمِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ فِي الْفَضْلِ قَبْلَهُ . وَمَا أَذْرِي مَا فَعَلَ اللَّهُ بِالْمَشْرِقِ وَالظَّنُّ بِهِ نَفَاقُ الْعِلْمِ فِيهِ وَاتِّصَالَ التَّغْلِيمِ فِي الْعُلُومِ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْكَمَالِيَّةِ لِكَثْرَةِ عُمُرَانِهِ وَالْخَضَارَةِ وَوُجُودِ الْإِعَانَةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِالْجِرَايَةِ مِنَ الْأَوْقَافِ الَّتِي اتَّسَعَتْ بِهَا أَرْزَاقُهُمْ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ وَيَبِيدُهُ التَّوْفِيقُ وَالْإِعَانَةُ .

الفصل الخامس

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

الْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمَكْتُوبُ بَيْنَ دَفْتَيْ الْمُضْحَفِ . وَهُوَ مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَوَوْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى طَرِيقٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي

(٢) وفي نسخة أخرى : علوم الشريعة .

بَعْضُ الْفَاطِيهِ وَكَيْفِيَّاتِ الْحُرُوفِ فِي أَدَائِهَا . وَتَنَوَّلَ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّتْ مِنْهَا سَبْعُ طُرُقٍ مُعَيَّنَةٌ تَوَاتَرَتْ نَقْلُهَا أَيْضًا بِأَدَائِهَا وَاخْتَصَّتْ بِالِانْتِسَابِ إِلَى مَنْ اشْتَهَرَ بِرِوَايَتِهَا مِنَ الْجَمْعِ الْغَفِيرِ فَصَارَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ أَصُولًا لِلْقِرَاءَةِ . وَرُبَّمَا زِيدَ بَعْدَ ذَلِكَ قِرَاءَاتٌ أُخَرُ لِحَقِّقِ السَّبْعَ إِلَّا أَنَّهَا عِنْدَ أَئِمَّةِ الْقِرَاءَةِ لَا تَقْوَى قُوَّتُهَا فِي النَّقْلِ . وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِهَا . وَقَدْ خَالَفَ بَعْضُ النَّاسِ فِي تَوَاتُرِ طُرُقِهَا لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَيْفِيَّاتٌ لِلْأَدَاءِ وَهُوَ غَيْرُ مُنْضَبِطٍ . وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِقَادِحٍ فِي تَوَاتُرِ الْقُرْآنِ . وَأَبَاهُ الْأَكْثَرُ وَقَالُوا بِتَوَاتُرِهَا وَقَالَ آخَرُونَ بِتَوَاتُرِ غَيْرِ الْأَدَاءِ مِنْهَا كَالْمَدِّ وَالتَّسْهِيلِ ^(١) لِعَدَمِ الْوُفُوفِ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ بِالسَّمْعِ وَهُوَ الصَّحِيحُ . وَلَمْ يَزَلِ الْقُرَّاءُ يَتَدَاوَلُونَ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ وَرِوَايَتِهَا إِلَى أَنْ كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدُونَتْ فَكُتِبَتْ فِيهَا كُتُبٌ مِنَ الْعُلُومِ وَصَارَتْ صِنَاعَةً مَخْصُوصَةً وَعِلْمًا مُنْفَرِدًا وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ فِي جِيلٍ بَعْدَ جِيلٍ . إِلَى أَنْ مَلَكَ بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ مُجَاهِدٌ مِنْ مَوَالِي الْعَامِرِيِّينَ وَكَانَ مُعْتَنِيًا بِهَذَا الْفَنِّ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْقُرْآنِ لَمَّا أَخَذَهُ بِهِ مَوْلَاهُ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي الْعَامِرِ وَاجْتَهَدَ فِي تَعْلِيمِهِ وَعَرْضِهِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ الْقُرَّاءِ بِحَضْرَتِهِ فَكَانَ سَهْمُهُ فِي ذَلِكَ وَافِرًا . وَاخْتَصَّ مُجَاهِدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِمَارَةِ دَائِنَةِ وَالْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ فَتَنَفَّقَتْ بِهَا سُوقُ الْقِرَاءَةِ لَمَّا كَانَ هُوَ مِنْ أَئِمَّتِهَا وَبِمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِسَائِرِ الْعُلُومِ عُمُومًا وَبِالْقِرَاءَاتِ خُصُوصًا . فَظَهَرَ لِعَهْدِهِ أَبُو عَمْرٍو الدَّائِنِيُّ وَبَلَغَ الْغَايَةَ فِيهَا وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا . وَانْتَهَتْ إِلَى رِوَايَتِهِ أَسَانِيدُهَا وَتَعَدَّدَتْ تَأْلِيفُهُ فِيهَا . وَعَوَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَعَدَّلُوا عَنْ غَيْرِهَا وَاعْتَمَدُوا مِنْ بَيْنِهَا كِتَابَ التَّيْسِيرِ لَهُ . ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِيهَا يَلِيهِ مِنَ الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ فَيْرَةٍ ^(٢) مِنْ أَهْلِ شَاطِبَةِ فَعَمِدَ إِلَى تَهْذِيبِ مَا دُونَهُ أَبُو عَمْرٍو وَتَلْخِصِهِ فَنَظَّمَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي قَصِيدَةٍ لَغَزٍ فِيهَا أَسْمَاءُ الْقُرَّاءِ بِحُرُوفِ (ا ب ج د) تَرْتِيبًا أَحْكَمَهُ لِيَتَيَسَّرَ

(١) وفي نسخة أخرى ، والتسهيل .

(٢) ورد ذكره في كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي وهو القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعييني أبو

محمد الشاطبي إمام القراء وكان ضريراً .

عَلَيْهِ مَا قَصَدَهُ مِنَ الْإِخْتِصَارِ وَلِيَكُونَ أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ نَظْمِهَا . فَاسْتَوْعَبَ فِيهَا
الْفَنَّ اسْتِيعَاباً حَسَنًا وَعَيْنِي النَّاسُ بِحِفْظِهَا وَتَلْقِينِهَا لِلْوِلْدَانِ^(١) الْمُتَعَلِّمِينَ وَجَرَى
الْعَمَلُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ . وَرُبَّمَا أُضِيفَ إِلَى فَنِّ الْقِرَاءَاتِ فَنُّ
الرُّسْمِ أَيْضاً وَهِيَ أَوْضَاعُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ فِي الْمُصْحَفِ وَرُسُومُهُ الْخَطِيئةُ لِأَنَّ فِيهِ
حُرُوفاً كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى غَيْرِ الْمَعْرُوفِ مِنْ قِيَاسِ الْخَطِّ كَزِيَادَةِ الْيَاءِ فِي بَابِيدَ
وَزِيَادَةِ الْأَلِفِ فِي لَا أَذْبَحْنَهُ وَلَا أَوْضَعُوا وَالْوَاوِ فِي جَزَاؤَ الظَّالِمِينَ وَحَذْفِ الْأَلِفَاتِ
فِي مَوَاضِعَ دُونَ أُخْرَى وَمَا رُسِمَ فِيهِ مِنَ التَّاءَاتِ مَمْدُوداً ، وَالْأَضْلُ فِيهِ مَرْبُوطٌ عَلَى
شَكْلِ الْهَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ هَذَا الرُّسْمِ الْمُصْحَفِيِّ عِنْدَ الْكَلَامِ فِي الْخَطِّ .
فَلَمَّا جَاءَتْ هَذِهِ الْمُخَالَفَةُ لِأَوْضَاعِ الْخَطِّ وَقَانُونِهِ اخْتِيجَ إِلَى حَضَرِهَا ، فَكُتِبَ النَّاسُ
فِيهَا أَيْضاً عِنْدَ كُتُبِهِمْ فِي الْعُلُومِ . وَانْتَهَتْ بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَبِي عَمْرِو الدَّانِي الْمَذْكُورِ
فَكَتَبَ فِيهَا كُتُباً مِنْ أَشْهَرِهَا ، كِتَابُ الْمُقْنِعِ وَأَخَذَ بِهِ النَّاسُ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ . وَنَظَّمَهُ
أَبُو الْقَاسِمِ الشَّاطِئِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ عَلَى رَوِيِّ الرَّاءِ وَوَلَعَ النَّاسُ بِحِفْظِهَا . ثُمَّ
كَثُرَ الْخِلَافُ فِي الرُّسْمِ فِي كَلِمَاتٍ وَحُرُوفٍ أُخْرَى ، ذَكَرَهَا أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بْنُ
نَجَاحٍ مِنْ مَوَالِي مُجَاهِدٍ فِي كُتُبِهِ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ^(٢) أَبِي عَمْرِو الدَّانِي وَالْمُشْتَهَرِ
بِحَمْلِ عُلُومِهِ وَرِوَايَةِ كُتُبِهِ ثُمَّ نَقَلَ بَعْدَهُ خِلَافَ آخَرٍ فَنَظَّمَ الْخِرَازُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ
بِالْمَغْرِبِ أَرْجُوزَةً أُخْرَى زَادَ فِيهَا عَلَى الْمُقْنِعِ خِلَافاً كَثِيراً ، وَعَزَاهُ لِنَاقِلِهِ ،
وَاشْتَهَرَتْ بِالْمَغْرِبِ ، وَاقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى حِفْظِهَا . وَهَجَرُوا بِهَا كُتُبَ أَبِي دَاوُدَ
وَأَبِي عَمْرِو الشَّاطِئِيِّ فِي الرُّسْمِ .

(وأما التفسير) . فَأَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَعَلَى أَسَالِيبَ بَلَاغَتِهِمْ
فَكَانُوا كُلُّهُمْ يَفْهَمُونَهُ وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ فِي مُفْرَدَاتِهِ وَتَرَائِكِيهِ . وَكَانَ يَنْزَلُ جُمَلًا
جُمَلًا وَآيَاتٍ آيَاتٍ لِبَيَانِ التَّوْحِيدِ وَالْفُرُوضِ الدِّينِيَّةِ بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ

(١) وفي النسخة الباريسية : للولد .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، وهو تلميذ .

فِي الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي أَحْكَامِ الْجَوَارِحِ ، وَمِنْهَا مَا يَتَقَدَّمُ وَمِنْهَا
 مَا يَتَأَخَّرُ وَيَكُونُ نَاسِخًا لَهُ . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْمُبَيِّنُ لَذَلِكَ كَمَا قَالَ
 تَعَالَى : « لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » ^(١) فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُبَيِّنُ الْمُجْمَلُ وَيُمَيِّزُ
 النَّاسِخَ مِنَ الْمُنْسُوخِ وَيَعْرِفُهُ أَصْحَابُهُ فَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوا سَبَبَ نَزُولِ الْآيَاتِ وَمُقْتَضَى
 الْحَالِ مِنْهَا مَنْقُولًا عَنْهُ . كَمَا عَلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » إِنَّهَا
 نَعْيُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَنَقَلَ ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ
 أَجْمَعِينَ . وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ التَّابِعُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَنَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ . وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَاقِلًا
 بَيْنَ الصُّدُورِ الْأَوَّلِ وَالسَّلَفِ حَتَّى صَارَتِ الْمَعَارِفُ غُلُومًا وَدَوْنَتِ الْكُتُبُ فَكُتِبَ
 الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ وَنُقِلَتِ الْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِيهِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَانْتَهَى ذَلِكَ إِلَى
 الطَّبَرِيِّ وَالْوَاقِدِيِّ وَالثَّعَالِبِيِّ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فَكُتِبُوا فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ
 يَكْتُبُوهُ مِنَ الْآثَارِ . ثُمَّ صَارَتْ غُلُومُ اللِّسَانِ صِنَاعِيَّةً ^(٢) مِنَ الْكَلَامِ فِي مَوْضُوعَاتِ
 اللُّغَةِ وَأَحْكَامِ الْإِعْرَابِ وَالبَلَاغَةِ فِي التَّرَاكِيِبِ فَوَضِعَتِ الدَّوَاوِينُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ
 كَانَتْ مَلَكَاتٍ لِلْعَرَبِ لَا يَرْجِعُ فِيهَا إِلَى نَقْلِ وَلَا كِتَابٍ فَتَنُوسِي ذَلِكَ وَصَارَتْ
 تُتْلَقَى مِنْ كُتُبِ أَهْلِ اللِّسَانِ . فَاحْتِيجَ إِلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ
 وَعَلَى مِنْهَا جَبَلُ بَلَاغَتِهِمْ . وَصَارَ التَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ : تَفْسِيرٍ ثَقَلِيٍّ مُسْنَدٍ إِلَى الْآثَارِ
 الْمُنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمُنْسُوخِ وَأَسْبَابِ النُّزُولِ وَمَقَاصِدِ الْآيِ .
 وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالنَّقْلِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ . وَقَدْ جَمَعَ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي
 ذَلِكَ وَأَوْعَوْا ، إِلَّا أَنَّ كُتُبَهُمْ وَمَنْقُولَاتِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى الْهَثِّ وَالسِّمِينِ وَالْمَقْبُولِ
 وَالْمَرْذُودِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا غَلَبَتْ
 عَلَيْهِمُ الْبِدَاوَةُ وَالْأُمِّيَّةُ . وَإِذَا تَشَوَّقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَشَوَّقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ
 الْبَشَرِيَّةُ ^(٣) فِي أَسْبَابِ الْمَكُونَاتِ وَبَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ الْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ
 أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَهُ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَمَنْ تَبِعَ دِينَهُمْ

(٢) وفي نسخة أخرى : صناعة .

(١) سورة النحل (من الآية ٤٤) .

(٣) وفي النسخة الباريسية : النفوس الإنسانية .

مِنَ النَّصَارَى . وَأَهْلُ التَّوْرَةِ الَّذِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلَهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا تَعْرِفُهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُعَظَّمُهُمْ مِنْ حَمِيرِ الَّذِينَ أَخَذُوا يَدَيِ الْيَهُودِيَّةِ . فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا كَانَ عَنْدهُمْ مِمَّا لَا تَعْلُقُ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَحْتَاطُونَ لَهَا مِثْلَ أَخْبَارِ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى الْإِحْدَثَانِ وَالْمَلَا حِمِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ كَغِبِ الْأَخْبَارِ وَوَهَبِ بْنِ مُنْبِيهِ وَعَبِيدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمْثَالِهِمْ . فَاِمْتَلَأَتْ التَّفَاسِيرُ مِنَ الْمُنْقُولَاتِ عَنْهُمْ^(١) فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَخْبَارٌ مُوقُوفَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى الْأَحْكَامِ فَيَتَحَرَّى فِي الصَّحَّةِ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْعَمَلُ . وَتَسَاهَلُ الْمُفَسِّرُونَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَمَلَأُوا كُتُبَ التَّفْسِيرِ بِهَذِهِ الْمُنْقُولَاتِ . وَأَصْلُهَا كَمَا قُلْنَا عَنْ أَهْلِ التَّوْرَةِ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْبَادِيَّةَ ، وَلَا تَحْقِيقَ عَنْدهُمْ بِمَعْرِفَةِ مَا يَنْقُلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ بَعْدَ صِيَّتِهِمْ وَعَظَمَتِ أَقْدَارُهُمْ ، لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَقَامَاتِ فِي الدِّينِ وَالْمِلَّةِ ، فَتَلَقَّيْتُ بِالْقَبُولِ مِنْ يَوْمَئِذٍ . فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّمَحِيصِ وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ عَطِيَّةٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ فَلَخَّصَ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ كُلَّهَا وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّحَّةِ مِنْهَا وَوَضَعَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُتَدَاوِلٍ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ حَسَنَ الْمُنْحَى . وَتَبِعَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تِلْكَ الطَّرِيقَةِ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فِي كِتَابٍ آخَرَ مَشْهُورٍ بِالْمَشْرِقِ .

وَالصَّنْفُ الْآخَرُ مِنَ التَّفْسِيرِ وَهُوَ مَا يَرْجِعُ إِلَى اللَّسَانِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّغَةِ وَالْإِعْرَابِ وَالبَّلَاغَةِ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى بِحَسَبِ الْمَقَاصِدِ وَالْأَهَالِيِبِ . وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ التَّفْسِيرِ قَلٌّ أَنْ يَنْفَرِدَ عَنِ الْأَوَّلِ إِذِ الْأَوَّلُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ . وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا بَعْدَ أَنْ صَارَ اللَّسَانُ وَعِلْمُهُ صِنَاعَةً^(٢) . نَعَمْ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ غَالِبًا وَمِنْ أَحْسَنِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْفَنُّ مِنَ التَّفَاسِيرِ كِتَابُ الْكُشَافِ لِلزَّمْخَشَرِيِّ^(٣) مِنْ أَهْلِ خَوَارِزْمِ الْعِرَاقِ إِلَّا أَنَّ مُؤَلِّفَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِعْتِرَالِ فِي الْعَقَائِدِ فَيَأْتِي بِالْحِجَاجِ عَلَى

(١) وفي النسخة الباريحة ، من المنقولات عنهم . (٢) وفي نسخة أخرى : صناعات .

(٣) (ورد في معجم البلدان ، خوارزم ليس اسما للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها وورد في كتاب

الأعلام للزركلي ، الزمخشري ولد في زمخشري من قرى خوارزم) .

مَذَاهِبِهِمُ الْفَاسِدَةَ حَيْثُ تَعْرَضُ لَهُ فِي آيِ الْقُرْآنِ مِنْ طَرُقِ الْبَلَاغَةِ . فَصَارَ ذَلِكَ لِلْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ انْحِرَافٌ عَنْهُ وَتَحْذِيرٌ لِلْجُمْهُورِ مِنْ مَكَامِنِهِ مَعَ إِقْرَارِهِمْ بِرُسُوحِ قَدَمِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللِّسَانِ وَالْبَلَاغَةِ وَإِذَا كَانَ النَّاطِرُ فِيهِ وَاقِعًا مَعَ ذَلِكَ عَلَى الْمَذَاهِبِ السُّنِّيَّةِ مُحْسِنًا لِلْجَجَاجِ عَنْهَا فَلَا جَرَمَ إِنَّهُ مَأْمُونٌ مِنْ غَوَائِلِهِ فَلْتَفَتْنَهُمْ مَطَالَعَتُهُ لِرَايَةِ فُنُونِهِ فِي اللِّسَانِ . وَلَقَدْ وَصَلَ إِلَيْنَا فِي هَذِهِ الْعُصُورِ تَأْلِيفٌ لِبَعْضِ الْعِرَاقِيِّينَ وَهُوَ شَرَفُ الدِّينِ الطَّبِيِّ مِنْ أَهْلِ تَوْرِيذٍ مِنْ عِرَاقِ الْعَجَمِ شَرَحَ فِيهِ كِتَابَ الزُّمَخْشَرِيِّ هَذَا وَتَتَبَعَ الْفَاطَةَ وَتَعْرَضَ لِمَذَاهِبِهِ فِي الْإِعْتِزَالِ بِأَدِلَّةٍ تَزَيِّفُهَا ^(١) وَيُبَيِّنُ أَنَّ الْبَلَاغَةَ إِنَّمَا تَقَعُ فِي الْآيَةِ عَلَى مَا يَرَاهُ أَهْلُ السُّنَّةِ لَا عَلَى مَا يَرَاهُ ^(٢) الْمُعْتَزِلَةُ فَأَحْسَنَ فِي ذَلِكَ مَا شَاءَ مَعَ إِمْتِنَاعِهِ فِي سَائِرِ فُنُونِ الْبَلَاغَةِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ .

الفصل السادس

في علوم الحديث

وَأَمَّا عُلُومُ الْحَدِيثِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ لِأَنَّ مِنْهَا مَا يُنْظَرُ فِي نَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ وَذَلِكَ بِمَا ثَبَّتَ فِي شَرِيعَتِنَا مِنْ جَوَازِ النُّسْخِ وَوُقُوعِهِ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَتَخْفِيفًا عَنْهُمْ بِاعْتِبَارِ مَصَالِحِهِمُ الَّتِي تَكْفُلُ اللَّهُ لَهُمْ بِهَا . قَالَ تَعَالَى : « مَا نُنْسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسَخُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا » ^(٣) (وَمَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَإِنْ كَانَ عَاقِبًا لِلْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ إِلَّا أَنَّ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ مِنْهُ إِنْ دَرَجَ فِي تَفَاسِيرِهِ وَبَقِيَ مَا كَانَ خَاصًّا بِالْحَدِيثِ رَاجِعًا إِلَى عُلُومِهِ . فَإِذَا تَعَارَضَ الْخَبْرَانِ بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ وَتَعَدَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا يَبْغِضُ التَّأْوِيلَ وَعَلِمَ تَقَدُّمَ أَحَدِهِمَا تَعَيَّنَ أَنَّ الْمُتَأَخَّرَ نَاسِخٌ) . وَمَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ مِنْ أَهَمِّ عُلُومِ الْحَدِيثِ وَأَصْعَبِهَا . قَالَ الزُّهْرِيُّ : « أَغْنَى

(١) وفي النسخة الباريية : وأدلته يزيها .

(٢) وفي النسخة الباريية : لا على مذهب المعتزلة .

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٦

الْفُقَهَاءَ وَأَعْجَزَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسَخَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَنْسُوخِهِ .
وَكَانَ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهِ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ . (وَمِنْ عُلُومِ الْأَحَادِيثِ ^(١)) النَّظَرُ فِي
الْأَسَانِيدِ وَمَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِوُقُوعِهِ عَلَى السَّنَدِ الْكَامِلِ
الشَّرْطِ لِأَنَّ الْعَمَلَ إِنَّمَا وَجِبَ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ مِنْ أَخْبَارِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ فَيُجْتَهَدُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تُحْصَلُ ذَلِكَ الظَّنُّ وَهُوَ بِمَعْرِفَةِ رِوَاةِ الْحَدِيثِ
بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ . وَإِنَّمَا يَثْبُتُ ذَلِكَ بِالنَّقْلِ عَنْ أَغْلَامِ الدِّينِ لِيَتَعَدَّيْلَهُمْ وَبَرَاءَتِهِمْ
مِنَ الْجَرَحِ وَالْعَفْلَةِ وَيَكُونَ لَنَا ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْقَبُولِ أَوْ التَّرْكِ . وَكَذَلِكَ مَرَاتِبُ
هَؤُلَاءِ النُّقْلَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفَاوُتُهُمْ فِي ذَلِكَ وَتَمَيُّزُهُمْ فِيهِ وَاحِدًا وَاحِدًا .
وَكَذَلِكَ الْأَسَانِيدُ تَتَفَاوَتُ بِاتِّصَالِهَا وَانْقِطَاعِهَا بِأَنْ يَكُونَ الرَّاوي لَمْ يَلْقَ الرَّاوي
الَّذِي نَقَلَ عَنْهُ وَبِسَلَامَتِهَا مِنَ الْعِلَلِ الْمُوهِنَةِ لَهَا وَتَنْتَهِيَ بِالتَّفَاوُتِ إِلَى طَرَفَيْنِ
فَحَكِيمٌ ^(٢) يَقْبُولُ الْأَعْلَى وَرَدَّ الْأَسْفَلَ . وَيُخْتَلَفُ فِي الْمَوَسُطِ بِحَسَبِ الْمَنْقُولِ عَنْ
أَيِّمَةِ الشَّانِ . وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَلْفَاظُ اضْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِهَا لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْمُرْتَبَةِ . مِثْلُ
الصَّحِيحِ وَالْحَسَنِ وَالضَّعِيفِ وَالْمُرْسَلِ وَالْمَنْقُطِعِ وَالْمُعْضِلِ وَالشَّاذَّ وَالْغَرِيبَ ، وَغَيْرِ
ذَلِكَ مِنْ أَلْفَايِهِ الْمَتَدَوِّلَةِ بَيْنَهُمْ . وَبَوُوبُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَنَقَلُوا مَا فِيهِ مِنْ
الْخِلَافِ لِأَيِّمَةِ اللِّسَانِ أَوْ الْوَفَاقِ . ثُمَّ النَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ اخْتِذِ الرِّوَايَةِ ^(٣) بَعْضُهُمْ عَنْ
بَعْضٍ بِقِرَاءَةٍ أَوْ كِتَابَةٍ أَوْ مُنَاوَلَةٍ أَوْ إِجَازَةٍ وَتَفَاوُتِ رَتْبِهَا وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنْ
الْخِلَافِ بِالْقَبُولِ وَالرَّدِّ . ثُمَّ اتَّبَعُوا ذَلِكَ بِكَلَامٍ فِي أَلْفَاظِ تَقَعُ فِي مَتُونِ الْحَدِيثِ مِنْ
غَرِيبٍ أَوْ مُشْكِلٍ أَوْ تَضْحِيفٍ أَوْ مُفْتَرَقٍ مِنْهَا أَوْ مُخْتَلَفٍ وَمَا يَنْاسِبُ ذَلِكَ . هَذَا
مُعْظَمُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَغَالِبُهُ وَكَانَتْ أَحْوَالُ ثِقَلَةِ الْحَدِيثِ فِي عَصُورِ
السُّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَعْرُوفَةً عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ فَمِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَمِنْهُمْ
بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ مِنَ الْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ بِالشَّامِ وَمِصْرَ وَالْجَمِيعِ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ فِي

(١) وفي نسخة أخرى ، الحديث .

(٢) وفي النسخة الباريية ، إلى طريقتين يحكم .

(٣) وفي نسخة أخرى ، الرواة .

أَعْصَارِهِمْ وَكَانَتْ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ فِي أَغْصَارِهِمْ فِي الْأَسَانِيدِ أَعْلَى مِمَّنْ سِوَاهُمْ وَأَمْتَنَ فِي الصَّحَّةِ لِاسْتِبْدَادِهِمْ^(١) فِي شُرُوطِ النَّقْلِ مِنَ الْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَتَجَافِيهِمْ عَنْ قَبُولِ الْمَجْهُولِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ^(٢) وَسَنَدُ^(٣) الطَّرِيقَةِ الْحِجَازِيَّةِ بَعْدَ السَّلَفِ الْإِمَامِ مَالِكٍ عَالِمِ الْمَدِينَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ثُمَّ أَصْحَابُهُ مِثْلُ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، وَابْنُ وَهْبٍ وَابْنُ بَكِيرٍ وَالْقُضَنِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ وَمِنْ بَعْدِهِمُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَفِي آخَرِينَ مِنْ أَمْثَالِهِمْ . وَكَانَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ فِي مَبْدَأِ هَذَا الْأَمْرِ نَقْلًا صَرَفًا شَمَرَتْ لَهَا السَّلَفُ وَتَحَرَّوْا الصَّحِيحَ حَتَّى أَكْمَلُوهَا . وَكَتَبَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَ الْمُوطَأِ أَوْدَعَهُ أَصُولُ الْأَحْكَامِ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَرَتَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ الْفِقْهِ . ثُمَّ عُنِيَ الْحَافِظُ بِمَعْرِفَةِ طُرُقِ الْأَحَادِيثِ

(١) وفي نسخة أخرى ، لاستبدادهم .

(٢) إن المحصور بين () ورد في النسخة الباريسية على شكلين ، ورد في الشرح كما في نسختنا هذه . وورد في المتن على الوجه التالي ، ومن علوم الحديث معرفة القوانين التي وضعها أئمة المحدثين لمعرفة الأسانيد والرواة وأسائهم وكيفية أخذ بعضهم عن بعض وأحوالهم وطبقاتهم واختلاف اصطلاحاتهم . وتحصيل ذلك ان الاجماع واقع على وجود العمل بالخير الثابت عن رسول الله ﷺ وذلك بشرط أن يغلب على الظن صدقه . فيجب على المجتهد تحقيق الطرق التي تحصل ذلك الظن . وذلك بالنظر في أسانيد الحديث بمعرفة رواته بالعدالة والضبط والانتان والبراءة من السهو والغفلة . بوصف عدول الأمة لهم بذلك . ثم تفاوت مراتبهم فيه . ثم كيفية رواية بعضهم عن بعض . بسماع الراوي من الشيخ أو قراءته عليه أو سماعه يقرأ عليه . وكتابة الشيخ له أو مناولته أو اجازته في الصحة والقبول منقول عنهم . وأعلى مراتب القبول عندهم الصحيح ثم الحسن . وأدون مراتبها الضعيف . ويشتمل على المرسل والمنقطع والفصل والعلل والشاذ والغريب والمنكر ، فمنها ما اختلفوا في رده ومنها ما اجتمعوا عليه . وذلك شأنهم في الصحيح ، فمنه ما اجتمعوا على قبوله وصحته . ومنه ما اختلفوا فيه . وبينهم في تفسير هذه الالفاظ اختلاف كثير ثم اتبعوا ذلك بالكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق . ووضعوا لهذه الفصول كلها قانوناً كفيلاً ببيان تلك المراتب والألقاب وسلامة الطرق عن دخول النقص فيها . وأول من وضع في هذا القانون من فحول أئمة الحديث أبو عبد الله الحاكم وهو الذي هذب وأظهر محاسنه . وتوالمفه فيه مشهورة . ثم كتب أئمتهم فيه من بعده . واشتهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمر بن الصلاح . كان في أوائل المائة السابعة وتلاه محي الدين النووي بمثل ذلك . والفن شريف في مغزاه لأنه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة حتى يتعين قبولها أو ردها . واعلم أن رواية السنة من الصحابة والتابعين معروفون في أوصار الإسلام . منهم بالحجاز وبالكوفة والبصرة ثم بالشام ومصر . والجميع معروفون ومشهورون في أعصارهم . وكانت طريقة أهل الحجاز في الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة . لاستدحامهم في شروط النقل من العدالة والضبط . بتجافيتهم عن قبول المستورين المجهولة أحوالهم .

(٣) وفي نسخة أخرى ، وسيد .

وَأَسَانِيدُهَا الْمُخْتَلِفَةُ . وَرُبَّمَا يَقَعُ إِسْنَادُ الْحَدِيثِ مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنْ رِوَاةٍ مُخْتَلِفِينَ وَقَدْ يَقَعُ الْحَدِيثُ أَيْضًا فِي أَبْوَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِاخْتِلَافِ الْمَعَانِي الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا . وَجَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ إِمَامُ الْمُحَدِّثِينَ فِي عَصْرِهِ فَخَرَّجَ أَحَادِيثَ السُّنَّةِ عَلَى أَبْوَابِهَا فِي مُسْنَدِهِ الصَّحِيحِ بِجَمِيعِ الطَّرِيقِ الَّتِي لِلْجَازِئِينَ وَالْعِرَاقِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ . وَاعْتَمَدَ مِنْهَا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ دُونَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَكَرَّرَ الْأَحَادِيثَ يَسُوقُهَا فِي كُلِّ بَابٍ بِمَعْنَى ذَلِكَ الْبَابِ الَّذِي تَضُمُّنُهُ الْحَدِيثُ فَتَكَرَّرَتْ لِذَلِكَ أَحَادِيثُهُ حَتَّى يُقَالَ : إِنَّهُ اشْتَمَلَ عَلَى تِسْعَةِ ^(١) أَلْفِ حَدِيثٍ وَمِائَتَيْنِ ، مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَلْفٍ مُتَكَرِّرَةٌ وَفَرَقَ الطَّرِيقَ وَالْأَسَانِيدَ عَلَيْهَا مُخْتَلِفَةً فِي كُلِّ بَابٍ . ثُمَّ جَاءَ الْإِمَامُ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَأَلَّفَ مُسْنَدَهُ الصَّحِيحَ . خَذَا فِيهِ خَذَوَ الْبُخَارِيُّ فِي نَقْلِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهِ وَحَذَفَ الْمُتَكَرِّرَ مِنْهَا وَجَمَعَ الطَّرِيقَ وَالْأَسَانِيدَ وَبَوَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ الْفِقْهِ وَتَرَاوَجِهِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَوْعِبَا الصَّحِيحَ كُلَّهُ . وَقَدْ اسْتَدْرَكَ النَّاسُ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ . ثُمَّ كَتَبَ أَبُو دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيُّ وَأَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ فِي السُّنَنِ بِأَوْسَعٍ مِنَ الصَّحِيحِ وَقَصَدُوا مَا تَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ الْعَمَلِ إِمَّا مِنَ الرُّتْبَةِ الْعَالِيَةِ فِي الْأَسَانِيدِ وَهُوَ الصَّحِيحُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِمَّا مِنَ الَّذِي دُونَهُ مِنَ الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ إِمَامًا لِلْسُّنَّةِ وَالْعَمَلِ . وَهَذِهِ هِيَ الْمَسَانِيدُ الْمَشْهُورَةُ فِي الْمِلَّةِ وَهِيَ أَمَهَاتُ كُتُبِ الْحَدِيثِ فِي السُّنَّةِ فَإِنَّهَا وَإِنْ تَعَدَّدَتْ تَرْجَعُ إِلَى هَذِهِ فِي الْأَغْلَبِ . وَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَالِإِصْطِلَاحَاتِ كُلِّهَا هِيَ عِلْمُ الْحَدِيثِ وَرُبَّمَا يُفْرَدُ عَنْهَا النَّاسُخُ وَالْمَنْسُوخُ فَيُجْعَلُ فَنًّا بِرَأْسِهِ وَكَذَا الْغَرِيبُ . وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَأْلِيفٌ مَشْهُورَةٌ ثُمَّ الْمُؤْتَلَفُ وَالْمُخْتَلَفُ . وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِي عُلُومِ الْحَدِيثِ وَأَكْثَرُوا . وَمِنْ فُحُولِ عُلَمَائِهِ وَأَمَمَتِهِمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ وَتَأْلِيفُهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ وَهُوَ الَّذِي هَذَّبَهُ وَأَظْهَرَ مَحَاسِنَهُ . وَأَشْهَرُ كِتَابٍ لِلْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الصَّلَاحِ كَانَ لِعَهْدِ أَوَائِلِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَتَلَاَهُ

(١) قوله تسعة الذي في النووي على مسلم انها سبعة بتقديم السين فحررة نصر .

مُخَيِّبِ الدِّينِ النَّوَوِيِّ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَالْفَنُّ شَرِيفٌ فِي مَغْرَاهُ لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ مَا يُحْفَظُ بِهِ
السُّنَنُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ . وَقَدْ انْقَطَعَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَخْرِيجُ شَيْءٍ مِنَ
الْأَحَادِيثِ وَاسْتِذْرَاكِهَا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ إِذِ الْعَادَةُ تَشْهَدُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأُئِمَّةَ عَلَى
تَعَدُّدِهِمْ وَتَلَاخُقِ عَصُورِهِمْ وَكِفَايَتِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ لَمْ يَكُونُوا لِيُعْغِلُوا شَيْئاً مِنَ السُّنَّةِ أَوْ
يَتْرَكُوهُ حَتَّى يَغْشَى عَلَيْهِ الْمَتَأَخَّرُ ، هَذَا يَعِيدُ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا تَنْصَرِفُ الْعِنَايَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ
إِلَى تَضْحِيحِ الْأُمَمَاتِ الْمَكْتُوبَةِ وَضَبْطِهَا بِالرَّوَايَةِ عَنْ مُصَنِّفِهَا وَالنَّظَرِ فِي أَسَانِيدِهَا
إِلَى مُؤَلِّفِهَا وَعَرْضِ ذَلِكَ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ مِنَ الشُّرُوطِ وَالْأَحْكَامِ لِتَتَّصِلَ
الْأَسَانِيدُ مُحْكَمَةً إِلَى مُنْتَهَاهَا . وَلَمْ يَزِيدُوا فِي ذَلِكَ عَلَى الْعِنَايَةِ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذِهِ
الْأُمَمَاتِ الْخَمْسِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ . فَأَمَّا الْبُخَارِيُّ وَهُوَ أَغْلَاهَا رُبَّةً فَاسْتَضَعَبَ النَّاسُ
شَرْحَهُ وَاسْتَفْلَقُوا مَنَاحَهُ مِنْ أَجْلِ مَا يُخْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ الْمُتَعَدِّدَةِ
وَرِجَالِهَا مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ وَاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهِمْ .
وَلِذَلِكَ يُخْتَاجُ إِلَى إِنْعَانِ النَّظَرِ فِي التَّفْقِهِ فِي تَرَاجُمِهِ لِأَنَّهُ يَتَرَجَّمُ التَّرْجَمَةُ وَيُورَدُ
فِيهَا الْحَدِيثُ بِسَنَدٍ أَوْ طَرِيقٍ ثُمَّ يَتَرَجَّمُ أُخْرَى وَيُورَدُ فِيهَا ذَلِكَ الْحَدِيثُ بِعَيْنِهِ
لِمَا تَضُمُّنُهُ مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي تَرَجَّمَ بِهِ الْبَابُ . وَكَذَلِكَ فِي تَرْجَمَةِ وَتَرْجَمَةِ إِلَى أَنْ
يَتَكَرَّرَ الْحَدِيثُ فِي أَبْوَابٍ كَثِيرَةٍ بِحَسَبِ مَعَانِيهِ وَاخْتِلَافِهَا وَمِنْ شَرْحِهِ وَلَمْ
يَسْتَوْفِ هَذَا فِيهِ فَلَمْ يَوْفِ حَقَّ الشَّرْحِ كَابْنُ بَطَّالٍ وَابْنُ الْمُهَلَّبِ وَابْنُ التَّيْنِ
وَنَحْوُهُمْ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ كَثِيراً مِنْ شُيُوخِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقُولُونَ : شَرْحُ كِتَابِ
الْبُخَارِيِّ دَيْنٌ عَلَى الْأُمَّةِ يَغْنُونُ أَنْ أَحَدًا مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ لَمْ يَوْفِ مَا يَحِبُّ لَهُ مِنْ
الشَّرْحِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ . وَأَمَّا صَحِيحُ مُسْلِمٍ فَكَثُرَتْ عِنَايَةُ عُلَمَاءِ الْمَغْرِبِ بِهِ وَأَكْبُوا
عَلَيْهِ وَأَجْمَعُوا عَلَى تَفْصِيلِهِ عَلَى كِتَابِ الْبُخَارِيِّ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ عَلَى
شَرْطِهِ وَأَكْثَرَ مَا وَقَعَ لَهُ فِي التَّرَاجِمِ . وَأَمَّا الْإِمَامُ الْمَارِزِيُّ مِنْ فَقْهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ عَلَيْهِ
شَرْحٌ وَسَمَاءُ (الْمُعَلِّمُ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ) اشْتَمَلَ عَلَى عَيُونٍ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ وَقُنُونٍ مِنْ
الْفِقْهِ ثُمَّ أَكْمَلَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ مِنْ بَعْدِهِ وَتَمَّمَهُ وَسَمَاءُ إِكْمَالَ الْمُعَلِّمِ وَتَلَاهُمَا مُخَيِّبِ

الَّذِينَ التَّوَوُّي بِشَرْحِ اسْتَوْفَى مَا فِي الْكِتَابَيْنِ وَزَادَ عَلَيْهِمَا فَجَاءَ شَرْحاً وَافِياً . وَأَمَّا
كُتِبَ السُّنَنِ الْأُخْرَى وَفِيهَا مُعْظَمُ مَا اخَذَ الْفُقَهَاءُ فَأَكْثَرُ شَرْحِهَا فِي كُتُبِ الْفِقْهِ إِلَّا
مَا يُخْتَصُّ بِعِلْمِ الْحَدِيثِ فَكُتِبَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَاسْتَوْفَوْا مِنْ ذَلِكَ مَا يُخْتِاجُ إِلَيْهِ مِنْ
عِلْمِ الْحَدِيثِ وَمَوْضُوعَاتِهَا وَالْأَسَانِيدِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمَعْمُولِ بِهَا مِنْ
السُّنَّةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَحَادِيثَ قَدْ تَمَيَّزَتْ مَرَاتِبَهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بَيْنَ صَحِيحٍ وَحَسَنٍ
وَضَعِيفٍ وَمَعْلُولٍ وَغَيْرِهَا تَنْزَلُهَا أَيْمَةُ الْحَدِيثِ وَجَهَا بِذَنْهُ وَعَرَفُوهَا . وَلَمْ يَبْقَ
طَرِيقٌ فِي تَضْحِيحِ مَا يَصُحُّ مِنْ قَبْلُ . وَلَقَدْ كَانَ الْأَيْمَةُ فِي الْحَدِيثِ يُعْرِفُونَ
الْأَحَادِيثَ بِطَرَقِهَا وَأَسَانِيدِهَا بِحَيْثُ لَوْ رُويَ حَدِيثٌ بِغَيْرِ سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ
يَفْطَنُونَ إِلَى أَنَّهُ قَلْبٌ عَنْ وَضْعِهِ وَلَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ
الْبُخَارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ وَقَصَدَ الْمُحَدِّثُونَ امْتِحَانَهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قَبِلُوا
أَسَانِيدَهَا فَقَالَ : « لَا أَعْرِفُ هَذِهِ وَلَكِنْ حَدَّثَنِي فَلَانٌ » . ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ
الْأَحَادِيثِ عَلَى الْوَضْعِ الصَّحِيحِ وَرَدَّ كُلَّ مَثَرٍ إِلَى سَنَدِهِ وَأَقْرَأُوا لَهُ بِالْإِمَامَةِ . وَاعْلَمْ
أَيْضاً أَنَّ الْأَيْمَةَ الْمُجْتَهِدِينَ تَفَاوَتُوا فِي الْإِكْثَارِ مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَالْإِقْلَالِ فَأَبُو
حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يُقَالُ بَلَغَتْ رِوَايَتُهُ إِلَى سَبْعَةِ عَشَرَ حَدِيثاً أَوْ نَحْوَهَا
وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّمَا صَحَّ عَنْهُ مَا فِي كِتَابِ الْمَوْطِئِ^(١) وَغَايَتُهَا ثَلَاثُمِائَةِ حَدِيثٍ أَوْ
نَحْوَهَا . وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُسْنَدِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَدِيثٍ وَلِكُلِّ
مَا أَذَاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ فِي ذَلِكَ . وَقَدْ تَقَوَّلَ بَعْضُ الْمُبْغِضِينَ الْمُتَعَسِّفِينَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ
مَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ فِي الْحَدِيثِ فَلِهَذَا قُلْتُ رِوَايَتُهُ . وَلَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا الْمُعْتَقِدِ فِي
كِبَارِ الْأَيْمَةِ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ إِنَّمَا تَوْخَذُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَمَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ
مِنَ الْحَدِيثِ فَيَتَعَمَّنُ عَلَيْهِ طَلَبُهُ وَرِوَايَتُهُ وَالْجِدُّ وَالشَّمِيرُ فِي ذَلِكَ لِيَأْخُذَ الدِّينَ عَنْ
أُصُولِ صَحِيحَةٍ وَيَتَلَقَّى الْأَحْكَامَ عَنْ صَاحِبِهَا الْمُبْلِغِ لَهَا . وَإِنَّمَا قَلَّلَ مِنْهُمْ مَنْ قَلَّلَ

(١) الَّذِي فِي شَرْحِ الزَّرْقَانِيِّ عَلَى الْمَوْطِئِ حِكَايَةُ أَقْوَالِ خَمْسَةِ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثِهِ أَوَّلُهَا ٥٠٠ ثَانِيهَا ٧٠٠ ثَالِثُهَا أَلْفٌ

وَنِيفُ رَابِعُهَا ١٧٢٠ خَامِسُهَا ٦٦٦ وَلَيْسَ فِيهِ قَوْلٌ بِمَا فِي هَذِهِ النُّسخَةِ قَالَهُ نَصْرُ الْهَوَرَنِيِّ .

الرَّوَايَةُ لِأَجْلِ الْمَطَاعِنِ الَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيهَا وَالْعِلَلِ الَّتِي تَعْرِضُ فِي طَرَقِهَا سَيِّمًا
وَالْجَرْحَ مُقَدَّمٌ عِنْدَ الْأَكْثَرِ فَيُؤَدِّيهِ الْاجْتِهَادُ إِلَى تَرْكِ الْأَخْذِ بِمَا يَغْرِضُ مِثْلَ ذَلِكَ
فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَطَرِيقِ الْأَسَانِيدِ وَيَكْثُرُ ذَلِكَ فَقَلَّ رِوَايَتُهُ لِضَعْفِ الطَّرِيقِ .
هَذَا مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ أَكْثَرُ رِوَايَةَ لِلْحَدِيثِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِأَنَّ الْمَدِينَةَ دَارُ
الْهَجْرَةِ وَمَأْوَى الصَّحَابَةِ وَمِنْ أَنْتَقَلَ مِنْهُمْ إِلَى الْعِرَاقِ كَانَ شُغْلُهُمْ بِالْجِهَادِ أَكْثَرَ .
وَالْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ إِنَّمَا قَلَّتْ رِوَايَتُهُ لِمَا شَدَّدَ فِي شُرُوطِ الرِّوَايَةِ وَالتَّحْمِيلِ وَضَعْفِ
رِوَايَةِ الْحَدِيثِ الْيَقِينِيِّ إِذَا عَارَضَهَا الْفِعْلُ النَّفْسِيُّ . وَقَلَّتْ مِنْ أَجْلِهَا رِوَايَةُ فَقُلَّ
حَدِيثُهُ . لِأَنَّهُ تَرَكَ رِوَايَةَ الْحَدِيثِ مُتَعَمِّدًا فَحَاشَاةً مِنْ ذَلِكَ . وَيَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ
كِبَارِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ اعْتِمَادُ مَذْهَبِهِ بَيْنَهُمْ وَالتَّغْوِيلُ عَلَيْهِ وَاعْتِبَارُهُ رَدًّا
وَقَبُولًا . وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَهُمْ الْجُمْهُورُ فَتَوَسَّعُوا فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَ حَدِيثُهُمْ
وَالْكُلُّ عَنِ اجْتِهَادٍ وَقَدْ تَوَسَّعَ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَتْ رِوَايَتُهُمْ .
وَرَوَى الطُّخْطَاوِيُّ ^(١) فَأَكْثَرَ وَكَتَبَ مُسْنَدَهُ وَهُوَ جَلِيلُ الْقَدْرِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْدُلُ
الصَّحِيحِينَ لِأَنَّ الشُّرُوطَ الَّتِي اعْتَمَدَهَا الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابَيْهِمَا مُجْمَعٌ عَلَيْهَا
بَيْنَ الْأُمَّةِ كَمَا قَالُوهُ . وَشُرُوطُ الطُّخْطَاوِيِّ غَيْرُ مُتَّفِقٍ عَلَيْهَا كَالرِّوَايَةِ عَنِ الْمُسْتَوْرِ
الْحَالِ وَغَيْرِهِ فَلِهَذَا قُدِّمَ الصَّحِيحَانِ بَلْ وَكُتِبَ السُّنَنِ الْمَعْرُوفَةُ عَلَيْهِ لِتَأْخُرَ شُرُوطُهُ
عَنْ شُرُوطِهِمْ . وَمِنْ أَجْلِ هَذَا قِيلَ فِي الصَّحِيحَيْنِ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى قَبُولِهِمَا مِنْ جِهَةِ
الْإِجْمَاعِ عَلَى صِحَّةِ مَا فِيهِمَا مِنَ الشُّرُوطِ الْمُتَّفِقِ عَلَيْهَا . فَلَا تَأْخُذُكَ رَيْبَةٌ فِي ذَلِكَ
فَالْقَوْمُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالظَّنِّ الْجَمِيلِ بِهِمْ وَالتَّيَمُّنِ الْمَخَارِجِ الصَّحِيحَةِ لَهُمْ . وَاللَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا فِي حَقَائِقِ الْأُمُورِ .

(١) وفي نسخة أخرى : الطحاوي .

الفصل السابع

في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلّفين بالوجوب والحذر^(١) والنّدب والكرهية والإباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصّب الشارع لمعرفتها من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه . وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم . ولا بد من وقوعه ضرورة . فإن الأدلة غالبها من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها وخصوصاً الأحكام الشرعية اختلاف بينهم معروف . وأيضاً فالسنة مختلفة الطرقي في الثبوت وتعارض في الأكثر أحكامها فتحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضاً . فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها وأيضاً فالوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص . وما كان منها غير ظاهر في المنصوص^(٢) فيحمل على المنصوص لمشابهة بينهم وهذه كلها إشارات^(٣) للخلاف ضرورة الوقوع . ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم . ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم . وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبي ﷺ أو ممن سمعه منهم ومن علمتهم . وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرأون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية . فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرائبه يومئذ . وبقي الأمر كذلك صدر الأمة . ثم عظمتم أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط

(١) وفي نسخة أخرى : والحظر .

(٢) وفي نسخة أخرى : النصوص .

(٣) وفي نسخة أخرى : مشارا .

وَكَمَلَ الْفِقْهُ وَأَصْبَحَ صِنَاعَةً وَعِلْماً فَبَدَّلُوا بِاسْمِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ مِنَ الْقُرَّاءِ . وَانْقَسَمَ الْفِقْهُ فِيهِمْ إِلَى طَرِيقَتَيْنِ : طَرِيقَةَ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ وَهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَطَرِيقَةَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَهُمْ أَهْلُ الْحِجَازِ . وَكَانَ الْحَدِيثُ قَلِيلاً فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ لِمَا قَدَّمَاهُ فَاسْتَكْثَرُوا مِنَ الْقِيَاسِ وَمَهَرُوا فِيهِ فَلِذَلِكَ قِيلَ أَهْلُ الرَّأْيِ . وَمُقَدَّمُ جَمَاعَتِهِمُ الَّذِي اسْتَقَرَّ الْمَذْهَبُ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ أَبُو حَنِيفَةَ وَإِمَامُ أَهْلِ الْحِجَازِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ . وَالشَّافِعِيُّ مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ أَتَكَرَّ الْقِيَاسُ طَائِفَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَبْطَلُوا الْعَمَلَ بِهِ وَهُمْ الظَّاهِرِيُّ . وَجَعَلُوا الْمَدَارِكَ^(١) كُلَّهَا مُنْخَصِرَةً فِي النُّصُوصِ وَالْإِجْمَاعِ وَرَدُّوا الْقِيَاسَ الْجَلِيَّ وَالْعِلَّةَ الْمَنْصُوصَةَ إِلَى النَّصِّ . لِأَنَّ النَّصَّ عَلَى الْعِلَّةِ نَصٌّ عَلَى الْحُكْمِ فِي جَمِيعِ مَحَالِّهَا . وَكَانَ إِمَامُ هَذَا الْمَذْهَبِ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ وَابْنُهُ وَأَصْحَابُهُمَا . وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الثَّلَاثَةُ هِيَ مَذَاهِبُ الْجُمْهُورِ الْمُشْتَهَرَةِ بَيْنَ الْأُمَّةِ . وَشَذُّ أَهْلِ الْبَيْتِ بِمَذَاهِبِ ابْتَدَعُوهَا وَفَقَّهَ انْفَرَدُوا بِهَا وَبَنَوْهُ عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي تَنَاوُلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ بِالْقُدْحِ . وَعَلَى قَوْلِهِمْ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ وَرَفَعَ الْخِلَافَ عَنْ أَقْوَالِهِمْ وَهِيَ كُلُّهَا أَصُولٌ وَاهِيَةٌ وَشَذُّ يُمَثِّلُ ذَلِكَ الْخَوَارِجُ وَلَمْ يَخْتَفِلْ^(٢) الْجُمْهُورُ بِمَذَاهِبِهِمْ بَلْ أَوْسَعُوهَا جَانِبَ الْإِنْكَارِ وَالْقُدْحِ . فَلَا نَعْرِفُ شَيْئاً مِنْ مَذَاهِبِهِمْ وَلَا نَرْوِي كُتُبَهُمْ وَلَا أَثَرُ لَشَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا فِي مَوَاطِنِهِمْ . فَكُتِبَ الشَّيْعَةُ فِي بِلَادِهِمْ وَحَيْثُ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ^(٣) قَائِمَةٌ فِي الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَالْيَمَنِ وَالْخَوَارِجُ كَذَلِكَ . وَلِكُلِّ مِنْهُمْ كُتُبٌ وَتَأْلِيفٌ وَآرَاءٌ فِي الْفِقْهِ غَرِيبَةٌ . ثُمَّ دُرِسَ مَذْهَبُ أَهْلِ الظَّاهِرِ الْيَوْمَ بِدُرُوسِ أَيْمَتِهِ وَإِنْكَارِ الْجُمْهُورِ عَلَى مُنْتَجَلِهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فِي الْكُتُبِ الْمَجْلَدَةِ^(٤) وَرَبَّيْنَا يَعْكِفُ كَثِيرٌ مِنَ الطَّالِبِينَ مِنْهُمْ تَكَلُّفٌ بِاتِّحَالِ مَذْهَبِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ يَرُومُ أَخْذَ فِقْهِهِمْ مِنْهَا وَمَذْهَبِهِمْ فَلَا يَخْلُو بِطَائِلٍ وَيَصِيرُ إِلَى مُخَالَفَةِ الْجُمْهُورِ وَإِنْكَارِهِمْ عَلَيْهِ وَرَبَّيْنَا عَدَّ بِهِذِهِ النُّخْلَةَ مِنْ أَهْلِ

(١) وفي نسخة أخرى : مدارك للشرع .

(٢) وفي نسخة أخرى : ولم يحفل .

(٣) وفي نسخة أخرى : دولهم .

(٤) وفي النسخة الباريسية : في الكتب المجلدة .

الْبِدْعَ بِتَقْلِهِ ^(١) الْعِلْمَ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ غَيْرِ مِفْتَاحِ الْمُعَلِّمِينَ . وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ابْنُ حَزْمٍ
بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى غُلُورُتَيْهِ فِي حِفْظِ الْحَدِيثِ وَصَارَ إِلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الظَّاهِرِ وَمَهَرَفِهِ
بِاجْتِهَادِ زَعَمِهِ فِي أَقْوَالِهِمْ . وَخَالَفَ إِمَامَهُمْ دَاوُدَ وَتَعَرَّضَ لِلْكَثِيرِ مِنَ الْأُئِمَّةِ
الْمُسْلِمِينَ فَنَقِمَ النَّاسُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَأَوْسَعُوا مَذْهَبَهُ اسْتِهْجَانًا وَإِنْكَارًا . وَتَلَقَّوْا كُتُبَهُ
بِالْإِغْفَالِ وَالتُّرْكِ حَتَّى إِنَّهَا لِيُخَصَّرُ بَيْنَهَا بِالْأَسْوَاقِ وَرُبَّمَا تَمَزَّقَ فِي بَعْضِ
الْأَحْيَانِ . وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَذْهَبُ أَهْلِ الرَّأْيِ مِنَ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ مِنَ الْحِجَازِ .
فَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ فَأِِمَامُهُمُ الَّذِي اسْتَقَرَّتْ عِنْدَهُ مَذَاهِبُهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ بْنُ
ثَابِتٍ وَمَقَامُهُ فِي الْفِقْهِ لَا يُلْحَقُ شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ أَهْلُ جَلْدَتِهِ وَخُصُوصًا مَالِكٌ
وَالشَّافِعِيُّ . وَأَمَّا أَهْلُ الْحِجَازِ فَكَانَ إِمَامُهُمْ مَالِكُ ابْنِ أَنَسٍ الْأَصْبَحِيُّ إِمَامَ دَارِ
الْبُحَيْرَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاخْتَصَّ بِزِيَادَةِ مُدْرِكِ آخِرِ لِلْأَحْكَامِ غَيْرِ الْمُدْرِكِ
الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَ غَيْرِهِ وَهُوَ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّهُمْ فِيمَا يَنْفُسُونَ ^(٢) عَلَيْهِ مِنْ
فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ مُتَابِعُونَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ ضُرُورَةٌ لِدِينِهِمْ وَاقْتِدَائِهِمْ . وَهَكَذَا إِلَى الْجَبَلِ
الْمُبَاشِرِينَ لِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ الْآخِذِينَ ذَلِكَ عَنْهُ . وَصَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مِنْ أَصُولِ
الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ . وَظَنَّ كَثِيرٌ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ فَأَنْكَرَهُ لِأَنَّ دَلِيلَ الْإِجْمَاعِ
لَا يَخُصُّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنْ سِوَاهُمْ بَلْ هُوَ شَامِلٌ لِلْأُمَّةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ إِنَّمَا هُوَ
الِاتِّفَاقُ عَلَى الْأَمْرِ الدِّينِيِّ عَنِ اجْتِهَادٍ . وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَعْتَبِرْ عَمَلُ أَهْلِ
الْمَدِينَةِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى وَإِنَّمَا اغْتَسَبَرَهُ مِنْ حَيْثُ
اتَّبَاعُ الْجَبَلِ بِالْمُشَاهَدَةِ لِلْجَبَلِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .
وَضُرُورَةُ اقْتِدَائِهِمْ بِعَيْنِ ذَلِكَ يَعُمُّ الْمَلَّةَ ^(٣) ذُكِرَتْ فِي بَابِ الْإِجْمَاعِ وَالْأَنْبَوَاءِ بِهَا
مِنْ حَيْثُ مَا فِيهَا مِنَ الْإِتِّفَاقِ الْجَامِعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِجْمَاعِ . إِلَّا أَنَّ اتِّفَاقَ أَهْلِ

(١) وفي نسخة أخرى : بتقليه .

(٢) وفي نسخة أخرى : يتفقون .

(٣) وفي النسخة الباريسية : (تعين ذلك نعم المسئلة) وهو تحريف .

الإجماع عن نظر واجتهاد في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى
مُشاهدة من قبلهم . ولَوْ ذُكِرَتِ الْمَسْأَلَةُ فِي بَابِ فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَقْرِيرِهِ أَوْ مَعَ
الْأَدِلَّةِ الْمُخْتَلَفِ فِيهَا مِثْلَ مَذْهَبِ الصَّحَابِيِّ وَشَرَعَ مِنْ قَبْلُنَا وَالِاسْتِصْحَابِ لَكَانَ
الَّتِيقَ بِهَا ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِ مَالِكٍ . بَنِي أَنَسٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الْمُطَّلِبِيُّ الشَّافِعِيُّ
رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى . رَحَلَ إِلَى الْعِرَاقِ مِنْ بَعْدِ مَالِكٍ وَلَقِيَ أَصْحَابَ الْإِمَامِ أَبِي
حَنِيفَةَ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَمَزَجَ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْحِجَازِ بِطَرِيقَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَاخْتَصَّ
بِمَذْهَبِهِ ، وَخَالَفَ مَالِكاً رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنْ مَذْهَبِهِ . وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمَا
أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَكَانَ مِنْ عِلْيَةِ الْمُحَدِّثِينَ وَقَرَأَ أَصْحَابُهُ عَلَى أَصْحَابِ
الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ مَعَ وَفُورٍ بِضَاعَتِهِمْ مِنَ الْحَدِيثِ فَاخْتَصُّوا بِمَذْهَبِ آخَرٍ . وَوَقَفَ
التَّقْلِيدُ فِي الْأَمْصَارِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَدَرَسَ الْمُقْلِدُونَ لِمَنْ سِوَاهُمْ . وَسَدَّ النَّاسُ
بَابَ الْخِلَافِ وَطَرَقَهُ لَمَّا كَثُرَ تَشَعُّبُ الْإِضْطِلَاحَاتِ فِي الْعُلُومِ . وَلَمَّا عَاقَ عَنِ
الْوُصُولِ إِلَى رُتْبَةِ الْاجْتِهَادِ وَلَمَّا خَشِيَ مِنْ إِسْنَادِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ وَمَنْ لَا يُوثِقُ
بِرَأْيِهِ وَلَا يَدِينُهُ فَصَرَّحُوا بِالْعَجْزِ وَالْإِعْوَارِ وَرَدُّوا النَّاسَ إِلَى تَقْلِيدِ هَؤُلَاءِ كُلِّ مَنْ
اخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْمُقْلِدِينَ . وَخَظَرُوا أَنْ يُتَدَاوَلَ تَقْلِيدُهُمْ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّلَاعِبِ وَلَمْ
يَبْقَ إِلَّا نَقْلُ مَذَاهِبِهِمْ . وَعَمِلَ كُلُّ مُقْلِدٍ بِمَذْهَبٍ مِنْ قَلْدَةٍ مِنْهُمْ بَعْدَ تَضَحِيحِ
الْأُصُولِ وَاتِّصَالِ سَنَدِهَا بِالرِّوَايَةِ لَا مَخْصُولَ الْيَوْمِ لِلْفَقْهِ غَيْرُ هَذَا . وَمُدَّعَى
الْاجْتِهَادِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ مَهْجُورٌ تَقْلِيدُهُ وَقَدْ صَارَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ الْيَوْمَ عَلَى
تَقْلِيدِ هَؤُلَاءِ الْأُئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ . فَأَمَّا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فَمُقْلَدُهُ قَلِيلٌ لِبُعْدِ مَذْهَبِهِ عَنِ
الْاجْتِهَادِ وَأَصَالَتِهِ فِي مُعَاظِدَةِ الرِّوَايَةِ وَلِلْأَخْبَارِ بَعْضُهَا يَبْغُضُ . وَأَكْثَرُهُمْ بِالشَّامِ
وَالْعِرَاقِ مِنْ بَغْدَادَ وَنَوَاحِيهَا وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حِفْظاً لِلْسُنَّةِ وَرِوَايَةِ الْحَدِيثِ وَمِثْلاً
بِالِاسْتِنْبَاطِ إِلَيْهِ عَنِ الْقِيَاسِ مَا أَمَكُنْ . وَكَانَ لَهُمْ بَبَغْدَادَ صَوْلَةٌ وَكَثْرَةٌ حَتَّى كَانُوا
يَتَوَاقَعُونَ مَعَ الشَّيْعَةِ فِي نَوَاحِيهَا . وَعَظُمَتِ الْفِتْنَةُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ثُمَّ انْقَطَعَ ذَلِكَ عِنْدَ
اسْتِيلَاءِ التُّتَرِ عَلَيْهَا . وَلَمْ يَرَجَعْ وَصَارَتْ كَثَرَتُهُمْ بِالشَّامِ . وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَمُقْلَدُهُ

الْيَوْمَ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَمُسْلِمَةَ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الْعَجَمِ كُلِّهَا . وَلَمَّا
 كَانَ مَذْهَبُهُ أَخَصَّ بِالْعِرَاقِ وَدَارِ السَّلَامِ وَكَانَ تَلْمِيزُهُ صَحَابَةَ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي
 الْعَبَّاسِ فَكَثُرَتْ تَالِيفُهُمْ وَمُنَاطَرَاتُهُمْ مَعَ الشَّافِعِيَّةِ وَحَسُنَتْ مَبَاحِثُهُمْ فِي الْخِلَافِيَّاتِ ،
 وَجَاءُوا مِنْهَا بِعِلْمٍ مُسْتَظَرَفٍ وَأَنْظَارٍ غَرِيبَةٍ وَهِيَ تَبِينُ أَيْدِي النَّاسِ . وَبِالْمَغْرِبِ
 مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ نَقَلَهُ إِلَيْهِ الْقَاضِي بْنُ الْعَرَبِيِّ وَأَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي فِي رِخْلَتِهِمَا .
 وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ فَمَقْلَدُوهُ بِمِصْرَ أَكْثَرُ مِمَّا سِوَاهَا وَقَدْ كَانَ انْتَشَرَ مَذْهَبُهُ بِالْعِرَاقِ
 وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَقَاسَمُوا الْحَنْفِيَّةَ فِي الْفُتُوى وَالتَّدْرِيسِ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ .
 وَعَظُمَتْ مَجَالِسُ الْمُنَاطَرَاتِ بَيْنَهُمْ وَشُجِنَتْ كُتُبُ الْخِلَافِيَّاتِ بِأَنْوَاعِ
 اسْتِدْلَالَاتِهِمْ . ثُمَّ دُرِسَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدُرُوسِ الْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ . وَكَانَ الْإِمَامُ
 مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا نَزَلَ عَلَى بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ بِمِصْرَ أَخَذَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ
 مِنْهُمْ . وَكَانَ مِنْ تَلْمِيزِهِ بِهَا ، الْبُؤَيْطِيُّ وَالْمَزْنِيُّ وَغَيْرُهُمْ ، وَكَانَ بِهَا مِنَ الْمَالِكِيَّةِ
 جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ وَأَشْهَبُ وَابْنُ الْقَاسِمِ وَابْنُ الْمَوَازِ وَغَيْرُهُمْ ثُمَّ
 الْحَارِسُ بْنُ مِسْكِينَ وَبَنُوهُ ثُمَّ الْقَاضِي أَبُو إِسْحَقَ بْنُ شُعْبَانَ وَأَوْلَادِهِ . ثُمَّ انْقَرَضَ
 فِقْهُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ مِصْرَ بِظُهُورِ دَوْلَةِ الرَّافِضَةِ وَتَدَاوُلِ بِهَا فِقْهُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَتَلَاشَى
 مِنْ سِوَاهُمْ ^(١) وَارْتَحَلَ إِلَيْهَا الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ مِنْ بَغْدَادَ ، آخِرَ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ عَلَى
 مَا أَعْلَمُ ، مِنَ الْحَاجَةِ وَالتَّقْلِيلِ فِي الْمَعَاشِ . فَتَأَذَّنَ خُلَفَاءُ الْعَبِيدِيِّينَ بِإِكْرَامِهِ ،
 وَأَظْهَرُوا فَضْلَهُ نَعِيًا عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ فِي إِطْرَاحِ مِثْلِ هَذَا الْإِمَامِ ، وَالِإِعْتِبَاطِ بِهِ .
 فَتَفَقَّتْ سُوقُ الْمَالِكِيَّةِ بِمِصْرَ قَلِيلًا ، إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ دَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ مِنَ الرَّافِضَةِ عَلَى
 يَدِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ فَذَهَبَ مِنْهَا فِقْهُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَعَادَ فِقْهُ الْجَمَاعَةِ
 إِلَى الظُّهُورِ بَيْنَهُمْ وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فِقْهُ الشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ فَعَادَ
 إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ وَتَفَقَّتْ سُوقُهُ وَاشْتَهَرَ مِنْهُمْ مُخَيِّي الدِّينِ النَّوَوِيُّ مِنَ الْحَلَبَةِ الَّتِي
 رَبَّيَتْ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ بِالشَّامِ وَعَزَّ الدِّينُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ أَيْضًا . ثُمَّ ابْنُ

(١) وفي نسخة أخرى ، وكاد من سواهم يتلاشوا ويذهبوا .

الرُّفْعَةُ بِمِصْرَ وَتَقِيُّ الدِّينِ بْنِ دَقِيقٍ الْعِيدُ ثُمَّ تَقِيُّ الدِّينِ السَّبْكَيُّ بَعْدَهُمَا إِلَى أَنْ
 انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ بِمِصْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ سِرَاجُ الدِّينِ الْبَلْقِينِيُّ فَهُوَ الْيَوْمَ
 أَكْبَرُ الشَّافِعِيَّةِ بِمِصْرَ كَبِيرُ الْعُلَمَاءِ بَلْ أَكْبَرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ^(١). وَأَمَّا مَالِكُ
 رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَاخْتَصَّ بِمَذْهَبِهِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ. وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي
 غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَقْلُدُوا غَيْرَهُ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ لِمَا أَنَّ رَحْلَتَهُمْ كَانَتْ غَالِبًا إِلَى الْحِجَازِ
 وَهُوَ مُنْتَهَى سَفَرِهِمْ. وَالْمَدِينَةُ يَوْمَئِذٍ دَارُ الْعِلْمِ وَمِنْهَا خَرَجَ إِلَى الْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنْ
 الْعِرَاقُ فِي طَرِيقِهِمْ فَأَقْتَصَرُوا عَنِ الْأَخْذِ عَنْ عُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ. وَشَيْخُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَإِمَامُهُمْ
 مَالِكُ وَشُيُوخُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَتَلْمِيزُهُ مِنْ بَعْدِهِ. فَرَجَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ
 وَقَلَّدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ. وَأَيْضًا فَالْبِدَاوَةُ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى
 أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُونُوا يُعَانُونَ الْحِضَارَةَ الَّتِي لِأَهْلِ الْعِرَاقِ فَكَانُوا إِلَى
 أَهْلِ الْحِجَازِ أَمِيلٌ لِمُنَاسَبَةِ الْبِدَاوَةِ. وَلِهَذَا لَمْ يَزَلِ الْمَذْهَبُ الْمَالِكِيُّ غَضًا عِنْدَهُمْ.
 وَلَمْ يَأْخُذْهُ تَنْقِيحُ الْحِضَارَةِ وَتَهْذِيبُهَا كَمَا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ. وَلَمَّا صَارَ
 مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ عِلْمًا مَخْصُوصًا عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى الْاجْتِهَادِ
 وَالْقِيَاسِ فَاحْتَاجُوا إِلَى تَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ فِي الْأَحْقَاقِ وَتَفْرِيقِهَا عِنْدَ الْإِشْتِبَاهِ بَعْدَ
 الْإِسْتِنَادِ إِلَى الْأَصُولِ الْمُقَرَّرَةِ مِنْ مَذَاهِبِ إِمَامِهِمْ. وَصَارَ ذَلِكَ كُلُّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَلَكَةٍ
 رَاسِخَةٍ يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّنْظِيرِ أَوْ التَّفْرِيقِ وَاتَّبَعَ مَذْهَبُ إِمَامِهِمْ فِيهِمَا
 مَا اسْتَطَاعُوا. وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ هِيَ عِلْمُ الْفِقْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ. وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ جَمِيعًا
 مُقَلِّدُونَ لِمَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَدْ كَانَ تَلَامِيذُهُ افْتَرَقُوا بِمِصْرَ وَالْعِرَاقِ، فَكَانَ
 بِالْعِرَاقِ مِنْهُمْ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَطَبَقَتُهُ مِثْلُ ابْنِ خُوَيْرِزٍ مَنذَادَ وَابْنِ اللَّبَّانِ^(٢)
 وَالْقَاضِي وَأَبِي بَكْرٍ الْأَنْبَهَرِيُّ وَالْقَاضِي أَبِي حُسَيْنٍ^(٣) بَنِي الْقَصَّارِ وَالْقَاضِي عَبْدُ
 الْوَهَّابِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ. وَكَانَ بِمِصْرَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَأَشْهَبُ وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ

(١) وفي نسخة أخرى: فهو اليوم كبير الشافعية بمصر. لا بل كبير العلماء من أهل العصر.

(٢) وفي النسخة الباريسية: ابن اللطاب.

(٣) وفي النسخة الباريسية: أبو الحسن.

وَالْحَارِثُ بْنُ مِسْكِينَ وَطَبَقْتُهُمْ وَرَحَلَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى اللَّيْثِيُّ ، وَلَقِيَ مَالِكاً . وَرَوَى عَنْهُ كِتَابُ الْمُوطَأِ ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ أَصْحَابِهِ . وَرَحَلَ بَعْدَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ حَبِيبٍ فَأَخَذَ عَنِ ابْنِ الْقَاسِمِ وَطَبَقْتِهِ وَبَثَّ مَذْهَبَ مَالِكٍ فِي الْأَنْدَلُسِ وَدَوَّنَ فِيهِ كِتَابَ الْوَاضِحَةِ . ثُمَّ دَوَّنَ الْعَتَبِيُّ مِنْ تَلَامِيذِهِ كِتَابَ الْعَتَبِيَّةِ . وَرَحَلَ مِنْ أَفْرِيقِيَّةِ أَسَدُ بْنُ الْفَرَاتِ فَكَتَبَ عَنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ أَوَّلًا ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ . وَكَتَبَ عَلَى ابْنِ الْقَاسِمِ ^(١) فِي سَائِرِ أَبْوَابِ الْفِقْهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَيْرَوَانِ بِكِتَابَيْهِ وَسُمِّيَ الْأَسَدِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى أَسَدِ بْنِ الْفَرَاتِ ، فَقَرَأَ بِهَا سُخْنُونَ عَلَى أَسَدٍ ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ وَلَقِيَ ابْنَ الْقَاسِمِ وَأَخَذَ عَنْهُ وَعَارَضَهُ بِمَسَائِلِ الْأَسَدِيَّةِ فَرَجَعَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا . وَكَتَبَ سُخْنُونَ مَسَائِلَهَا وَدَوَّنَهَا وَاثْبَتَ مَا رَجَعَ عَنْهُ مِنْهَا وَكَتَبَ لِأَسَدٍ ^(٢) وَأَنْ يَأْخُذَ بِكِتَابِ سُخْنُونَ فَأَنْفَ مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكَ النَّاسُ كِتَابَهُ وَاتَّبَعُوا مُدَوَّنَةَ سُخْنُونَ عَلَى مَا كَانَ فِيهَا مِنْ اخْتِلَافِ الْمَسَائِلِ فِي الْأَبْوَابِ فَكَانَتْ تُسَمَّى الْمُدَوَّنَةُ وَالْمُخْتَلِطَةُ . وَعَكَّفَ أَهْلُ الْقَيْرَوَانِ عَلَى هَذِهِ الْمُدَوَّنَةِ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَلَى الْوَاضِحَةِ وَالْعَتَبِيَّةِ . ثُمَّ اخْتَصَرَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ الْمُدَوَّنَةَ وَالْمُخْتَلِطَةَ فِي كِتَابَيْهِ الْمُسَمَّيَيْنِ بِالْمُخْتَصَرِ وَلِخَصَّةٍ أَيْضًا أَبُو سَعِيدٍ الْبَرَادِيُّ مِنْ فَقْهَاءِ الْقَيْرَوَانِ فِي كِتَابَيْهِ الْمُسَمَّيَيْنِ بِالتَّهْذِيبِ وَاعْتَمَدَهُ الْمَشَيْخَةُ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةٍ وَأَخَذُوا بِهِ وَتَرَكَوْا مَا سِوَاهُ . وَكَذَلِكَ اعْتَمَدَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ كِتَابَ الْعَتَبِيَّةِ وَهَجَرُوا الْوَاضِحَةَ وَمَا سِوَاهَا . وَلَمْ تَزَلْ عُلَمَاءُ الْمَذْهَبِ يَتَعَاهَدُونَ هَذِهِ الْأَمْهَاتِ بِالشَّرْحِ وَالْإِيضَاحِ وَالْجَمْعِ فَكَتَبَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةِ عَلَى الْمُدَوَّنَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ ابْنِ يُونُسَ وَاللَّخْمِيِّ وَابْنِ مُحَرَّرِ التُّونِسِيِّ وَابْنِ بَشِيرٍ وَأَمْثَالِهِمْ . وَكَتَبَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَلَى الْعَتَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ ابْنِ رُشْدٍ وَأَمْثَالِهِ . وَجَمَعَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ جَمِيعَ مَا فِي الْأَمْهَاتِ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالْخِلَافِ وَالْأَقْوَالِ فِي كِتَابِ النُّوَادِرِ فَاشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ أَقْوَالِ الْمَذَاهِبِ وَفَرَعَ الْأَمْهَاتِ كُلَّهَا فِي

(١) وفي النسخة الباريسية ، وكتب عن ابن القاسم .

(٢) وفي نسخة أخرى ، وكتب معه ابن القاسم إلى أهد أن يحو من أسديته ما رجع عنه .

هَذَا الْكِتَابِ وَقَتْلَ ابْنِ يُونُسَ مُعْظَمَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْمُدَوَّنَةِ وَزَخَرَتْ بِحَارِ
الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ فِي الْأَقْفَيْنِ إِلَى انْقِرَاضِ دَوْلَةِ قُرْطُبَةَ وَالْقَيْرَوَانِ . ثُمَّ تَمَسَّكَ بِهِمَا
أَهْلُ الْمَغْرِبِ بَعْدَ ذَلِكَ (إِلَى أَنْ جَاءَ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْحَاجِبِ لَخَصَ فِيهِ
طَرُقَ أَهْلِ الْمَذْهَبِ فِي كُلِّ بَابٍ وَتَعْدِيدَ أَقْوَالِهِمْ فِي كُلِّ مَسْئَلَةٍ فَجَاءَ كَالْبَرْنَامِجِ
لِلْمَذْهَبِ . وَكَانَتِ الطَّرِيقَةُ الْمَالِكِيَّةُ بَقِيَتْ فِي مِصْرَ مِنْ لَدُنِ الْحَارِثِ بْنِ مِسْكِينَ
وَابْنِ الْمُبَشَّرِ وَابْنِ اللَّهْمِثِ وَابْنِ الرُّشَيْقِ وَابْنِ شَاسٍ . وَكَانَتْ بِالإِسْكَندَرِيَّةِ فِي
بَنِي عُوفٍ وَبَنِي سَنَدٍ وَابْنِ عَطَاءِ اللَّهِ . وَلَمْ أَذَرِ عَنْهُ أَبُو عَمْرٍو بْنِ
الْحَاجِبِ لَكِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ انْقِرَاضِ دَوْلَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ وَذَهَابِ فَقِهِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَظُهُورِ
فُقَهَاءِ السُّنَّةِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ كِتَابُهُ إِلَى الْمَغْرِبِ آخَرَ الْمِائَةِ
السَّابِعَةِ ^(١) عَكَفَ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنْ طَلِبَةِ الْمَغْرِبِ وَخُصُوصاً أَهْلُ بَجَايَةِ لَمَّا كَانَ

(١) الموجود بين القوسين ورد في النسخة الباريسية كما يلي :

وتميزت للمذهب المالكي ثلاث طرق ، للقرويين وكبيرهم سحنون الآخذ عن أبي القاسم . وللقرطبيين
وكبيرهم ابن حبيب . الآخذ عن مالك ومطرف وابن الماحشون وأصغ . وللعراقيين وكبيرهم القاضي إسماعيل
وأصحابه . وكانت طريقة المصريين تابعة للعراقيين وان القاضي عبد الوهاب انتقل إليها من بغداد آخر المائة
الرابعة وأخذ أهلها عنه . وكانت للطريقة المالكية بمصر من لدن الحارث بن مسكين وابن ميسر وابن الليث
وابن رشيقي وكانت خافية بسبب ظهور الرافضة وفقه أهل البيت . وأما طريقة العراقيين . فكانت مهجورة عند
أهل القيروان والأندلس لبعدها وخفاء مدرستها وقلة اطلاعهم على ماخذهم فيها . والقوم أهل اجتهد . وان كان
خاصاً . لا يرون التقليد ولا يرضونه طريقاً . وكذلك نجد أهل المغرب والأندلس لا يأخذون برأي العراقيين فيما
لا يجدون فيه رواية عن الإمام أو أحد من أصحابه . ثم امتزجت الطرق بعد ذلك ورحل أبو بكر الطرطوشي من
الأندلس في المائة السادسة . ونزل البيت المقدس وأوطنه . وأخذ عنه أهل مصر والإسكندرية ومزجوا طريقة
الأندلسية بطريقتهم المصرية . وكان من جملة أصحابه الفقيه سند صاحب الطراز وأصحابه . وأخذ عنهم جماعة .
كان منهم بنو عوف وأصحابه . وأخذ عنهم أبو عمر بن الحارث وبعده شهاب الدين القرافي . واتصل ذلك في تلك
الأمصار . وكان فقه الشافعية أيضاً قد انقرض بمصر منذ دولة الفبيديين من أهل البيت . فظهر بعدهم في الفقهاء
الذين جددوه . الرافعي فقيه خراسان منهم . وظهر بالشام محي الدين النووي من تلك الحلية ثم امتزجت طريقة
المغاربة من المالكية أيضاً بطريقة العراقيين . من لدن الشرماسحي . كان بالإسكندرية ظاهراً في الطريقة المغربية
والمصرية . فبنى المستنصر العباسي أبو المعتمد وابن الظاهر مدرسته ببغداد واستدعاه لها من خلفاء العبيديين
الذين كانوا يَوْمِئِذٍ بالقاهرة فأذنوا له في الرحيل إليه . فلما قدم ببغداد ولاه تدريس المستنصرية . وأقام هنالك إلى
أن استولى هولاء على بغداد سنة ست وخمسين من المائة السابعة . وخلص من تيار تلك التركة وخلا سبيله .
فعاش هنالك إلى أن مات في أيام ابنه أحمد ابغا . وتلخصت طرق هؤلاء المصريين بمتزجة بطرق المغاربة كما =

كَبِيرُ مَشِيخَتِهِمْ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ الزَّوَاوِيُّ هُوَ الَّذِي جَلَبَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ . فَإِنَّهُ كَانَ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ بِمِصْرَ وَنَسَخَ مُخْتَصَرَهُ ذَلِكَ فَجَاءَ بِهِ وَانْتَشَرَ بِقَطْرِ بَجَايَةِ فِي تَلْمِيذِهِ ، وَمِنْهُمْ انْتَقَلَ إِلَى سَائِرِ الْأَمْصَارِ الْمَغْرِبِيَّةِ وَطَلَبَتُهُ الْفَقْهُ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ يَتَدَاوَلُونَ قِرَاءَتَهُ وَيَتَدَارِسُونَهُ لِمَا يُؤَثَّرُ عَنِ الشَّيْخِ نَاصِرِ الدِّينِ مِنَ التَّرْغِيبِ فِيهِ . وَقَدْ شَرَحَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ ، كَابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ وَابْنِ رُشْدٍ ^(١) وَابْنِ هَارُونَ وَكُلُّهُمْ مِنْ مَشِيخَةِ أَهْلِ تُونِسَ وَسَابِقُ حَلَّتِيَّتِهِمْ فِي الْإِجَادَةِ فِي ذَلِكَ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَعَاهَدُونَ كِتَابَ التَّهْذِيبِ فِي دُرُوسِهِمْ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

الفصل الثامن

في علم الفرائض

وَهُوَ مَعْرِفَةُ فُرُوضِ الْوَرَاثَةِ وَتَضْحِيحِ سِهَامِ الْفَرِيضَةِ مِمَّا تَصَحُّ بِإِعْتِبَارِ فُرُوضِهَا الْأَصُولُ أَوْ مُنَاسَخَتِهَا . وَذَلِكَ إِذَا هَلَكَ أَحَدُ الْوَرَثَةِ وَانْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى فُرُوضِ وَرَثَتِهِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَخْتَاجُ إِلَى حِسَابِ تَضْحِيحِ ^(٢) الْفَرِيضَةِ الْأُولَى حَتَّى يَصِلَ أَهْلُ الْفُرُوضِ جَمِيعاً فِي الْفَرِيضَتَيْنِ إِلَى فُرُوضِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجْزِئَةٍ . وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْمُنَاسَخَاتُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ وَتَتَعَدَّدُ لِذَلِكَ بَعْدَ أَكْثَرِ . وَبِقَدْرِ مَا تَخْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ فَرِيضَةٌ ذَاتُ وَجْهَيْنِ مِثْلُ أَنْ يَقْرَأَ بَعْضُ الْوَرَثَةِ بِوَارِثٍ وَيُنْكِرُهُ الْآخَرُ فَتُصَحَّحُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ حِينَئِذٍ . وَيُنْظَرُ مَبْلَغُ السَّهَامِ ثُمَّ تُقَسَّمُ التَّرَكَةُ عَلَى نِسْبِ سِهَامِ الْوَرَثَةِ مِنْ أَصْلِ الْفَرِيضَةِ . وَكُلُّ ذَلِكَ يَخْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَانَ

== ذكرناه في مختصر أبي عمر ما يجب . بذكر فقه الباب في مسائل المتفرقة . وبذكر الأقوال في كل مسألة على تعدادها

فجاء كالبرنامج للمذهب . ولما ظهر بالمغرب آخر المائة السابعة .

(١) . وفي النسخة الباريسية ، ابن راشد .

(٢) . وفي نسخة أخرى ، حسابان يصحح .

غَالِباً فِيهِ وَجَمَلُوهُ فَنَّا مُفْرَدًا . وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَأْلِيفٌ كَثِيرَةٌ أَشْهَرُ مَا عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ مِنْ
مُتَأَخَّرِي الْأَنْدَلُسِ كِتَابُ ابْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ الْخَوْفِيِّ ثُمَّ
الْجَعْفَرِيُّ وَمِنْ مُتَأَخَّرِي أَفْرِيقِيَّةِ ابْنُ النِّمِرِ^(١) الطَّرَابُلُسِيُّ وَأَمْثَالُهُمْ . وَأَمَّا الشَّافِعِيَّةُ
وَالْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ فَلَهُمْ فِيهِ تَأْلِيفٌ كَثِيرَةٌ وَأَعْمَالٌ عَظِيمَةٌ صَعْبَةٌ شَاهِدَةٌ لَهُمْ
بِاتِّسَاعِ الْبَاعِ فِي الْفِقْهِ وَالْحِسَابِ وَخُصُوصاً أَبَا الْمَعَالِي رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَمْثَالُهُ
مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ وَهُوَ فَنُّ شَرِيفٌ لَجَمْعِهِ بَيْنَ الْمَقْذُولِ وَالْمَنْقُولِ وَالْوُضُولِ بِهِ إِلَى
الْحَقُوقِ فِي الْوَرَائِثِ بِوُجُوهٍ صَحِيحَةٍ يَقِينِيَّةٍ عِنْدَمَا تَجْهَلُ الْحُظُوظُ وَتَشْكَلُ عَلَى
الْقَاسِمِينَ . وَلِلْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بِهَا عِنَايَةٌ . وَمِنْ الْمُصَنِّفِينَ مَنْ يَحْتَاجُ فِيهَا
إِلَى الْغُلُوفِ فِي الْحِسَابِ وَفَرَضِ الْمَسَائِلِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولَاتِ مِنْ
فُنُونِ الْحِسَابِ كَالْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالتَّصْرُفِ فِي الْجُدُورِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ فَيَمْلَأُونَ بِهَا
تَأْلِيفَهُمْ . وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَدَاوِلًا بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يُفِيدُ فِيمَا يَتَدَاوَلُونَهُ مِنْ وَرَائِهِمْ
لِفَرَائِثِهِ وَقَلَّةٍ وَقُوعِهِ فَهُوَ يُفِيدُ الْمِرَانَ وَتَحْصِيلَ الْمَلَكَةِ فِي الْمُتَدَاوِلِ عَلَى أَكْمَلِ
الْوُجُوهِ . وَقَدْ يَحْتَاجُ الْأَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْفَنِّ عَلَى فَضْلِهِ بِالْحَدِيثِ الْمَنْقُولِ عَنْ
أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْفَرَائِضَ ثَلَاثُ الْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُنْسَى وَفِي رِوَايَةٍ
نِصْفُ الْعِلْمِ خُرْجَةُ أَبُو نَعِيمٍ الْخَافِظُ وَاحْتَجَّ بِهِ أَهْلُ الْفَرَائِضِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ
بِالْفَرَائِضِ فُرُوضُ الْوَرَائِثَةِ . وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ هَذَا الْمَحَلَّ^(٢) يَعِيدُ وَأَنَّ الْمُرَادَ
بِالْفَرَائِضِ إِنَّمَا هِيَ الْفَرَائِضُ التَّكْلِيفِيَّةُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْعَادَاتِ وَالْمَوَارِيثِ وَغَيْرِهَا .
وَبِهَذَا الْمَعْنَى يَصِحُّ فِيهَا النِّصْفِيَّةُ وَالثُّلُثِيَّةُ . وَأَمَّا فُرُوضُ الْوَرَائِثَةِ فَهِيَ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ
كُلُّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِ^(٣) الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا يَعْنِي هَذَا الْمُرَادَ أَنَّ حَمْلَ لَفْظِ الْفَرَائِضِ عَلَى
هَذَا الْفَنِّ الْمَخْصُوصِ أَوْ تَخْصِيصِهِ بِفُرُوضِ الْوَرَائِثَةِ إِنَّمَا هُوَ اضْطِلَاحٌ نَاشِئٌ لِلْفُقَهَاءِ

(١) وفي النسخة الباريسية : ابن النمر .

(٢) وفي نسخة أخرى : المحمل

(٣) وفي نسخة أخرى : علوم .

عِنْدَ حَدُوثِ الْفَنُونِ وَالِإِضْطِلَاحَاتِ . وَلَمْ يَكُنْ صَدَرَ الْإِسْلَامُ يُطْلَقُ عَلَى هَذَا إِلَّا عَلَى عُمُومِهِ مُشْتَقًّا مِنَ الْفَرَضِ الَّذِي هُوَ لُغَةُ التَّقْدِيرِ أَوْ الْقَطْعِ . وَمَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِ فِي إِطْلَاقِهِ إِلَّا جَمِيعَ الْفُرُوضِ كَمَا قُلْنَا وَهِيَ حَقِيقَتُهُ الشَّرْعِيَّةُ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى مَا كَانَ يُحْمَلُ فِي عَصَرِهِمْ فَهُوَ أَلَيَقُ بِمُرَادِهِمْ مِنْهُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل التاسع

في أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

إِغْلَمُ أَنَّ أَصُولَ الْفَقِيهِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَأَجْلَهَا قَدْرًا وَأَكْثَرُهَا فَائِدَةً وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ تُؤْخَذُ مِنْهَا الْأَحْكَامُ وَالتَّالِيفُ ^(١) . وَأَصُولُ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ هِيَ الْكِتَابُ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ ثُمَّ السُّنَّةُ الْمَنْبِيئَةُ لَهُ . فَعَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتِ الْأَحْكَامُ تُتَلَقَّى مِنْهُ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَيُبَيِّنُهُ بِقَوْلِهِ وَفَعَلِهِ بِخَطَابِ شَفَاهِي لَا يَخْتَاجُ إِلَى نَقْلِ وَلَا إِلَى نَظَرٍ وَقِيَّاسٍ . وَمِنْ بَعْدِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ تَعَذَّرَ الْخَطَابُ الشَّفَاهِيُّ وَانْحَفَظَ الْقُرْآنُ بِالتَّوَاتُرِ . وَأَمَّا السُّنَّةُ فَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى وَجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْنَا مِنْهَا قَوْلًا أَوْ فِعْلًا بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ . وَتَعَيَّنَتْ دَلَالَةُ الشَّرْعِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ ثُمَّ يَنْزُلُ الْإِجْمَاعُ مَنْزِلَتَهُمَا لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ عَلَى النُّكْرِ عَلَى مُخَالِفِيهِمْ . وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ مُسْتَنَدٍ لَأَنْ مِثْلَهُمْ لَا يَتَّفِقُونَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ثَابِتٍ مَعَ شَهَادَةِ الْأَدِلَّةِ بِعِصْمَةِ الْجَمَاعَةِ فَصَارَ الْإِجْمَاعُ دَلِيلًا ثَابِتًا فِي الشَّرْعِيَّاتِ . ثُمَّ نَظَرْنَا فِي طُرُقِ اسْتِدْلَالِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِذَا هُمْ يَقِيسُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِنْهُمَا . وَيُنَاطِرُونَ الْأَمْثَالَ بِالْأَمْثَالِ بِإِجْمَاعِ مِنْهُمْ .

(١) وفي نسخة أخرى : التكاليف .

وَتَسْلِيمِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي ذَلِكَ . فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْوَاقِعَاتِ بَعْدَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَمْ تَنْدَرْجْ فِي النُّصُوصِ الثَّابِتَةِ فَقَاسُوهَا بِمَا ثَبَتَ وَالْحَقُّوْهَا بِمَا نَصَّ عَلَيْهِ بِشُرُوطٍ فِي ذَلِكَ الْإِلْحَاقِ ، تَصَحُّحُ تِلْكَ الْمَسَاوَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوْ الْمُثْنَيْنِ . حَتَّى يَغْلِبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمَا وَاحِدٌ وَصَارَ ذَلِكَ دَلِيلًا شَرْعِيًّا بِإِجْمَاعِهِمْ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْقِيَاسُ وَهُوَ رَابِعُ الْأَدِلَّةِ . وَاتَّفَقَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ هِيَ أَصُولُ الْأَدِلَّةِ وَإِنْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فِي الْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ إِلَّا أَنَّهُ شُدُوذٌ . وَالْحَقُّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْأَدِلَّةِ الْأَرْبَعَةِ أَدِلَّةٌ أُخْرَى لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا ، لِضَعْفِ مَذَارِكِهَا وَشُدُوذِ الْقَوْلِ فِيهَا . فَكَانَ مِنْ أَوَّلِ مَبَاحِثِ هَذَا الْفَنِّ النَّظَرُ فِي كَوْنِ هَذِهِ أَدِلَّةً . فَأَمَّا الْكِتَابُ فَدَلِيلُهُ الْمُعْجِزَةُ الْقَاطِعَةُ فِي مَتْنِهِ وَالتَّوَاتُرُ فِي نَقْلِهِ ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ مَجَالٌ لِلِاخْتِمَالِ . وَأَمَّا السُّنَّةُ وَمَا نُقِلَ إِلَيْنَا مِنْهَا فَالْإِجْمَاعُ عَلَى وَجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِحُّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا ، مُعْتَصِدًا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ فِي حَيَاتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْفَازِ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ إِلَى النَّوَاحِي بِالْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ آمِرًا وَنَاهِيًا . وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ فَلِاتِّفَاقِهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى إِنْكَارِ مُخَالَفَتِهِمْ مَعَ الْعِصْمَةِ الثَّابِتَةِ لِلْأَمَّةِ . وَأَمَّا الْقِيَاسُ فَبِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَيْهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . هَذِهِ أَصُولُ الْأَدِلَّةِ . ثُمَّ إِنَّ الْمُنْقُولَ مِنَ السُّنَّةِ مُخْتَاجٌ إِلَى تَصْحِيحِ الْخَبَرِ بِالنَّظَرِ فِي طَرِيقِ الثَّقَلِ وَعَدَالَةِ النَّاقِلِينَ لِتَتَمَيَّزَ الْحَالَةُ الْمُحْصَلَةُ لِلظَّنِّ بِصِدْقِهِ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ وَجُوبِ الْعَمَلِ بِالْخَيْرِ . وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ قَوَاعِدِ الْفَنِّ . وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ عِنْدَ التَّعَارُضِ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ وَطَلَبِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْهُمَا مَعْرِفَةَ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَهِيَ مِنْ فُصُولِهِ أَيْضًا وَأَنْبَوَايِهِ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَعَيَّنُ النَّظَرُ فِي دَلَالَةِ ^(١) الْأَلْفَاظِ وَذَلِكَ أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعَانِي عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ عَلَى الْإِطْلَاقِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ مُفْرَدَةً وَمُرَكَّبَةً . وَالْقَوَانِينُ النَّسَانِيَّةُ فِي ذَلِكَ هِيَ عُلُومُ النُّحُوِّ وَالتَّصْرِيفِ وَالْبَيَانِ . وَحِينَ

(١) وفي نسخة أخرى : دلالات .

كَانَ الْكَلَامُ ^(١) مَلَكَةً لِأَهْلِهِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ غُلُومًا وَلَا قَوَانِينَ وَلَمْ يَكُنِ الْفِقْهُ حِينِيذَ
يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا جِلَّةٌ وَمَلَكَةٌ . فَلَمَّا فَسَدَتْ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ قَيْدَهَا
الْجَهَابُ الْمُتَجَرِّدُونَ لِذَلِكَ يَنْقُلُ صَحِيحٌ وَمَقَابِيسٌ مُسْتَنْبَطَةٌ صَحِيحَةٌ وَصَارَتْ
غُلُومًا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْفَقِيهَ فِي مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى . ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ اسْتِفَادَاتٍ أُخْرَى
خَاصَّةً مِنْ تَرَائِبِ الْكَلَامِ وَهِيَ اسْتِفَادَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الْمَعَانِي مِنْ أَدْلَتِهَا
الْخَاصَّةِ مِنْ تَرَائِبِ الْكَلَامِ وَهُوَ الْفِقْهُ . وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَعْرِفَةُ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ
عَلَى الْأُطْلَاقِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أُمُورٍ أُخْرَى تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تِلْكَ الدَّلَالَاتُ الْخَاصَّةُ
وَبِهَا تُسْتَفَادُ الْأَحْكَامُ بِحَسَبِ مَا أَصَلَ أَهْلُ الشَّرْعِ وَجَّهًا بِدَّةِ الْعِلْمِ مِنْ ذَلِكَ وَجَعَلُوهُ
قَوَانِينَ لِهَذِهِ الْاسْتِفَادَةِ . مِثْلُ أَنَّ اللَّفْظَ لَا تَثْبُتُ قِيَاسًا وَالْمُشْتَرِكُ لَا يُرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ
مَعَ وَالْوَاوُ لَا تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ وَالْعَامُّ إِذَا أُخْرِجَتْ أَفْرَادُ الْخَاصِّ مِنْهُ هَلْ يَبْقَى حُجَّةٌ
فِيمَا عَدَاهَا ؟ وَالْأَمْرُ لِلْوَجُوبِ أَوْ النَّذْبِ وَلِلْفَوْرِ أَوْ التَّرَاخِي وَالنَّهْيُ يَقْتَضِي الْفُسَادَ
أَوْ الصَّحَّةَ وَالْمُطْلَقُ هَلْ يُخْمَلُ عَلَى الْمُقَيَّدِ ؟ وَالنَّصُّ عَلَى الْعِلَّةِ كَافٍ فِي التَّعَدُّدِ أَمْ
لَا ^(٢) ؟ وَأُمَثَالُ هَذِهِ . فَكَانَتْ كُلُّهَا مِنْ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ . وَلِكُونِهَا مِنْ مَبَاحِثِ الدَّلَالَةِ
كَانَتْ لُغَوِيَّةً . ثُمَّ إِنَّ النَّظَرَ فِي الْقِيَاسِ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ لِأَنَّ فِيهِ تَحْقِيقَ
الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ فِيمَا يَقَاسُ وَيُمَثَّلُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَيَنْفَتِحُ ^(٣) الْوُصْفُ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى
الظَّنِّ أَنَّ الْحُكْمَ عَلِقَ بِهِ فِي الْأَصْلِ مَنْ تَبَيَّنَ أَوْصَافُ ذَلِكَ الْمَحَلِّ أَوْ وَجُودُ ذَلِكَ
الْوُصْفِ فِي الْفَرْعِ مِنْ غَيْرِ مُعَارَضٍ يَمْنَعُ مِنْ تَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ فِي مَسَائِلٍ أُخْرَى مِنْ
تَوَابِعِ ذَلِكَ كُلِّهَا قَوَاعِدُ لِهَذَا الْفَنِّ . (وَاعْلَمْ) أَنَّ هَذَا الْفَنِّ مِنَ الْفُنُونِ الْمُسْتَحْدَثَةِ فِي
الْمِلَّةِ وَكَانَ السَّلَفُ فِي غِنْيَةٍ عَنْهُ بِمَا أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعَانِي مِنَ الْأَلْفَاظِ لَا يَحْتَاجُ فِيهَا
إِلَى أَزِيدٍ مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَلَكَةِ اللَّسَانِيَّةِ . وَأَمَّا الْقَوَانِينُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي
اسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ خُصُوصًا فَمِنْهُمْ أَخَذَ مُعْظَمُهَا . وَأَمَّا الْأَسَانِيدُ فَلَمْ يَكُونُوا

(١) وفي النسخة الباريسية : اللسان .

(٢) وفي النسخة الباريسية : في التعدي أولا .

(٣) وفي نسخة أخرى : وتقيق .

يَحْتَاجُونَ إِلَى النَّظَرِ فِيهَا لِقُرْبِ الْعَصْرِ وَمُمَارَسَةِ النَّقْلِ وَخُبْرَتِهِمْ بِهِمْ . فَلَمَّا انْقَرَضَ
السَّلَفُ وَذَهَبَ الصُّدْرُ الْأَوَّلُ وَانْقَلَبَتِ الْعُلُومُ كُلُّهَا صِنَاعَةً كَمَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ قَبْلِ احْتِاجِ
الْفُقَهَاءِ وَالْمُجْتَهِدُونَ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ وَالْقَوَاعِدِ لِاسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ مِنْ
الْأَدِلَّةِ فَكَتَبُوهَا فَنَأْ قَائِمًا بِرَأْسِهِ سَمُوهُ أَصُولُ الْفِقْهِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ فِيهِ
الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ . أَمَلَى فِيهِ رِسَالَتَهُ الْمَشْهُورَةَ تَكَلَّمَ فِيهَا فِي الْأَوَامِرِ
وَالنَّوَاهِي وَالْبَيَانِ وَالْخَبَرِ وَالنَّسْخِ وَحُكْمِ الْعِلَّةِ الْمَنْصُوصَةِ مِنَ الْقِيَاسِ . ثُمَّ كَتَبَ
فُقَهَاءُ الْحَنْفِيَّةِ فِيهِ وَحَقَّقُوا تِلْكَ الْقَوَاعِدَ وَأَوْسَعُوا الْقَوْلَ فِيهَا . وَكَتَبَ الْمُتَكَلِّمُونَ
أَيْضًا كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّ كِتَابَةَ الْفُقَهَاءِ فِيهَا أَمَسُ بِالْفِقْهِ وَأَلْيَقُ بِالْفُرُوعِ لِكَثْرَةِ الْأَمْثِلَةِ
مِنْهَا وَالشَّوَاهِدِ وَبَاءَ الْمَسَائِلِ فِيهَا عَلَى النِّكَتِ الْفِقْهِيَّةِ . وَالْمُتَكَلِّمُونَ يُجَرِّدُونَ
صُورَ تِلْكَ الْمَسَائِلِ عَنِ الْفِقْهِ وَيَمِيلُونَ إِلَى الْإِسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ مَا أُمَكَّنَ لِأَنَّهُ غَالِبُ
فُنُونِهِمْ وَمُقْتَضَى طَرِيقَتِهِمْ فَكَانَ لِفُقَهَاءِ الْحَنْفِيَّةِ فِيهَا الْيَدُ الطَّوْلَى مِنَ الْغُوصِ عَلَى
النِّكَتِ الْفِقْهِيَّةِ وَالتَّقَاطُطِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ مِنْ مَسَائِلِ الْفِقْهِ مَا أُمَكَّنَ . وَجَاءَ أَبُو زَيْدٍ
الدُّبُوسِيُّ مِنْ أَثْمَتِهِمْ فَكَتَبَ فِي الْقِيَاسِ بِأَوْسَعٍ مِنْ جَمِيعِهِمْ وَتَمَّمَ الْأُبْحَاثَ وَالشُّرُوطَ
الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِيهِ وَكَمَلَتْ صِنَاعَةُ أَصُولِ الْفِقْهِ بِكَمَالِهِ وَتَهَذَّبَتْ مَسَائِلُهُ
وَتَمَهَّدَتْ قَوَاعِدُهُ وَعِنَى النَّاسَ بِطَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِيهِ . وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ مَا كَتَبَ
فِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ كِتَابُ الْبُرْهَانِ لِأَمَامِ الْحَرَمَيْنِ وَالْمُسْتَصَفَى لِلْغَزَالِيِّ وَهُمَا مِنْ
الْأَشْعَرِيَّةِ وَكِتَابُ الْعَهْدِ^(١) لِعَبْدِ الْجَبَّارِ وَشَرْحُهُ الْمُعْتَمَدُ لِأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ
وَهُمَا مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ . وَكَانَتِ الْأَرْبَعَةُ قَوَاعِدَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ . ثُمَّ لَخَّصَ هَذِهِ الْكُتُبَ
الْأَرْبَعَةَ فَخَلَّانِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَهُمَا الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ بْنُ الْخَطِيبِ فِي
كِتَابِ الْمَخْصُولِ وَسَيْفُ الدِّينِ الْأَمِيدِيُّ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ . وَاخْتَلَفَتْ طَرَائِقُهُمَا فِي
الْفَنِّ بَيْنَ التَّحْقِيقِ وَالْحِجَاجِ . فَابْنُ الْخَطِيبِ أَمِيلٌ إِلَى الْإِسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَدِلَّةِ
وَالِاجْتِجَاجِ وَالْأَمِيدِيُّ مَوْلَعٌ بِتَحْقِيقِ الْمَذَاهِبِ وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ . وَأَمَّا كِتَابُ

(١) وفي النسخة الباريسية : كتاب العمدة .

الْمَحْصُولُ فَاخْتَصَرَهُ تَلْمِيزُ الْإِمَامِ سِرَاجِ الدِّينِ الْأَزْمَوِيِّ فِي كِتَابِ التَّحْصِيلِ وَتَاجِ الدِّينِ الْأَزْمَوِيِّ فِي كِتَابِ الْحَاصِلِ وَاقْتَطَفَ شِهَابُ الدِّينِ الْقِرَافِيُّ مِنْهُمَا مَقَدِّمَاتٍ وَقَوَاعِدَ فِي كِتَابِ صَغِيرِ سَمَاءِ التَّنْقِيحَاتِ . وَكَذَلِكَ فَعَلَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي كِتَابِ الْمِنْهَاجِ . وَغَنَى الْمُبْتَدِئُونَ بِهِذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ وَشَرَحَهُمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ . وَأَمَّا كِتَابُ الْإِحْكَامِ لِلْإِمْدِيِّ وَهُوَ أَكْثَرُ تَحْقِيقًا فِي الْمَسَائِلِ فَلَخَّصَهُ أَبُو عَمَرَ بْنُ الْحَاجِبِ فِي كِتَابِهِ الْمَعْرُوفِ بِالْمُخْتَصَرِ الْكَبِيرِ . ثُمَّ اخْتَصَرَهُ فِي كِتَابٍ آخَرَ تَدَاوُلُهُ طَلَبَةُ الْعِلْمِ وَغَنَى أَهْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِهِ وَيَمُطَالَعَتُهُ وَشَرَحَهُ وَحَصَلَتْ زُبْدَةُ طَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي هَذَا الْفَنِّ فِي هَذِهِ الْمُخْتَصَرَاتِ . وَأَمَّا طَرِيقَةُ الْحَنْفِيَّةِ فَكُتِبُوا فِيهَا كَثِيرًا وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ كِتَابَةٍ فِيهَا . لِلْمُقَدِّمِينَ تَأْلِيفُ أَبِي زَيْدِ الدَّبُّوسِيِّ وَأَحْسَنُ كِتَابَةٍ الْمَتَأَخِّرِينَ فِيهَا تَأْلِيفُ سَيْفِ الْإِسْلَامِ الْبَزْدَوِيِّ مِنْ أَيْمَتِهِمْ وَهُوَ مُسْتَوْعِبٌ وَجَاءَ ابْنُ السَّعَاتِيِّ مِنْ فَقَهَاءِ الْحَنْفِيَّةِ فَجَمَعَ بَيْنَ كِتَابِ الْإِحْكَامِ وَكِتَابِ الْبَزْدَوِيِّ فِي الطَّرِيقَتَيْنِ وَسَمَّى كِتَابَهُ بِالْبَدَائِعِ فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ الْأَوْضَاعِ وَأَبْدَعِهَا وَائِمَّةُ الْعُلَمَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ يَتَدَاوُلُونَهُ قِرَاءَةً وَبَحْثًا . وَأُولَعَّ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَجَمِ بِشَرَحِهِ . وَالْحَالُ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ . هَذِهِ حَقِيقَةُ هَذَا الْفَنِّ وَتَعْيِينُ مَوْضُوعَاتِهِ وَتَعْدِيدُ التَّأْلِيفِ الْمَشْهُورَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِيهِ . وَاللَّهُ يَنْفَعُنَا بِالْعِلْمِ وَيَجْعَلُنَا مِنْ أَهْلِهِ بِمَنْهِ وَكَرَمِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(وَأَمَّا الْخِلَافَاتُ) . فَاَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْفِقْهَ الْمُسْتَنْبَطَ مِنَ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ كَثُرَ فِيهِ الْخِلَافُ بَيْنَ الْمُجْتَهِدِينَ بِاخْتِلَافِ مَذَارِكِهِمْ وَأَنْظَارِهِمْ خِلَافًا لَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ لِمَا قَدَّمَاهُ . وَاتَّسَعَ ذَلِكَ فِي الْمِلَّةِ اتِّسَاعًا عَظِيمًا وَكَانَ لِلْمُقَلِّدِينَ أَنْ يَقْلُدُوا مَنْ شَاءُوا مِنْهُمْ ثُمَّ لَمَّا انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمُصَارِ وَكَانُوا بِمَكَانٍ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ اقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى تَقْلِيدِهِمْ وَمَنَْعُوا مِنْ تَقْلِيدِ سِوَاهُمْ لِذَهَابِ الْاجْتِهَادِ لِمُضْعَوِيَّتِهِ وَتَشَعُّبِ الْعُلُومِ الَّتِي هِيَ مَوَادُّهُ بِاتِّصَالِ الزَّمَانِ وَافْتِقَادِ مَنْ يَقُومُ عَلَى سِوَى هَذِهِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ . فَأَقِيمَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الْأَرْبَعَةُ أَصُولَ الْمِلَّةِ

وَأَجْرِي الْخِلَافُ بَيْنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا وَالْآخِذِينَ بِأَحْكَامِهَا مَجْرَى الْخِلَافِ فِي
النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأُصُولِ الْفَقْهِيَّةِ . وَجَرَتْ بَيْنَهُمُ الْمُنَاطَرَاتُ فِي تَضْحِيجِ كُلِّ
مِنْهُمْ مَذْهَبِ إِمَامِهِ تَجْرِي عَلَى أُصُولٍ صَحِيحَةٍ وَطَرَائِقَ قَوِيْمَةٍ يَحْتَجُّ بِهَا كُلُّ عَلَى
صِحَّةِ مَذْهَبِهِ الَّذِي قَلَّدَهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ وَأَجْرِيَتْ فِي مَسَائِلِ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَفِي كُلِّ بَابٍ
مِنْ أَبْوَابِ الْفَقْهِ فَتَارَةً يَكُونُ الْخِلَافُ بَيْنَ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَبُو حَنِيفَةَ يُوَافِقُ
أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ
الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَكَانَ فِي هَذِهِ الْمُنَاطَرَاتِ بَيَانُ مَا خِذَ
هَؤُلَاءِ الْأَيْمَةُ وَمَنَارَاتُ اخْتِلَافِهِمْ وَمَوَاقِعُ اجْتِهَادِهِمْ . كَانَ هَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْعِلْمِ
يُسَمَّى بِالْخِلَافِيَّاتِ . وَلَا بُدَّ لِصَاحِبِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى
سِتْنَبَاطِ الْأَحْكَامِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْمُجْتَهِدُ إِلَّا أَنَّ الْمُجْتَهِدَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا
لِلْإِسْتِنْبَاطِ وَصَاحِبُ الْخِلَافِيَّاتِ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِحِفْظِ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْ
أَنْ يَهْدِمَهَا الْمُخَالَفُ بِأَدْلَتِهِ . وَهُوَ لَعَمْرِي عِلْمٌ جَلِيلٌ الْفَائِدَةُ فِي مَعْرِفَةِ مَا خِذَ الْأَيْمَةُ
وَأَدْلَتِهِمْ وَمَرَانٌ ^(١) الْمُطَالَعِينَ لَهُ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ فِيمَا يَرْمُونَ الْإِسْتِدْلَالَ عَلَيْهِ .
وَتَأْلِيفُ الْحَنْفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ تَأْلِيفِ الْمَالِكِيَّةِ لِأَنَّ الْقِيَاسَ عِنْدَ الْحَنْفِيَّةِ
أَصْلٌ لِلْكَثِيرِ مِنْ فُرُوعِ مَذْهَبِهِمْ كَمَا عَرَفَتْ لَهُمْ لِذَلِكَ أَهْلُ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ . وَأَمَّا
الْمَالِكِيَّةُ فَالْأَثَرُ أَكْثَرُ مُعْتَمِدِهِمْ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ نَظَرٍ وَأَيْضاً فَأَكْثَرُهُمْ أَهْلُ الْغَرْبِ وَهُمْ
بَادِيَةٌ غُفْلٌ مِنَ الصَّنَائِعِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ . وَلِلْغَزَالِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ كِتَابُ الْمَاخِذِ
وَلَأَبِي بَكْرٍ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ كِتَابُ التَّلْخِصِ جَلَبَهُ مِنَ الْمَشْرِقِ . وَلَأَبِي زَيْدٍ
الدُّبُوسِيُّ كِتَابُ التَّغْلِيقَةِ وَلَا بِنِ الْقُصَارِ مِنْ شُيُوخِ الْمَالِكِيَّةِ عِيُونَ الْأَدِلَّةِ وَقَدْ جَمَعَ
ابْنُ السَّاعَاتِيِّ فِي مُخْتَصَرِهِ فِي أُصُولِ الْفَقْهِ جَمِيعَ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا مِنَ الْفَقْهِ الْخِلَافِيِّ
مُدْرَجاً فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا مِنَ الْخِلَافِيَّاتِ .

(وأما الجدال) وَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ الْمُنَاطَرَةِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ

(١) وفي النسخة الباريسية : وميزات .

الْفَقِهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ الْمُنَاطَرَةِ فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ مُتَّسِعاً وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ
الْمُتَنَاطِرِينَ فِي الْإِسْتِدْلَالِ وَالْجَوَابِ يُرْسِلُ عَنَانَهُ فِي الْإِخْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ
صَوَاباً وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطأً فَاحْتَاجَ الْأَثْمَةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَاباً وَأَحْكَاماً يَقِفُ
الْمُتَنَاطِرَانِ عِنْدَ حُدُودِهَا فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُسْتَدِلِّ وَالْمُجِيبِ
وَحَيْثُ يَسُوعُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصاً^(١) مُنْقَطِعاً وَمَحَلُّ
اغْتِرَاضِهِ أَوْ مَعَارَضَتِهِ وَأَيْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ السُّكُوتُ وَلِخُصْمِهِ الْكَلَامُ وَالْإِسْتِدْلَالُ .
وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَوَاعِدِ مِنَ الْحُدُودِ وَالْآدَابِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ
بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهْذِهِ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الرَّأْيُ مِنَ الْفَقْهِ أَوْ غَيْرِهِ . وَهِيَ طَرِيقَتَانِ
طَرِيقَةُ الْبَزْدَوِيِّ وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَالْإِسْتِدْلَالِ
وَطَرِيقَةُ الْعَمِيدِيِّ وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ أَيْ عِلْمٍ كَانَ وَأَكْثَرُهُ
إِسْتِدْلَالٌ . وَهُوَ مِنَ الْمَنَاجِمِ الْحَسَنَةِ وَالْمُعَالِطَاتِ فِيهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَثِيرَةٌ . وَإِذَا
اعْتَبَرْنَا النَّظَرَ الْمَنْطِيقِيَّ كَانَ فِي الْغَالِبِ أَشْبَهُ بِالْقِيَاسِ الْمُعَالِطِيِّ وَالسُّوْفَسْطَائِيِّ .
إِلَّا أَنَّ صَوْرَ الْأَدِلَّةِ وَالْأَقْسِيَّةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةً يَتَحَرَّى فِيهَا طَرُقُ الْإِسْتِدْلَالِ كَمَا
يَنْبَغِي . وَهَذَا الْعَمِيدِيُّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ الطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ . وَضَعَ الْكِتَابَ
الْمُسَمَّى بِالْإِرْشَادِ مُخْتَصِراً وَتَبَعَهُ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ كَالنَّسْفِيِّ وَغَيْرِهِ جَاءُوا
عَلَى أَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي الطَّرِيقَةِ التَّالِيفُ . وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْهُجُورَةٌ
لِنَقْصِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الْأُمُصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَمَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ ضَرُورِيَّةٌ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

(١) وفي نسخة أخرى : مخصصاً .

الفصل العاشر

في علم الكلام

هُوَ عِلْمٌ يَتَضَمَّنُ الْحِجَاجَ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرَّدَّ عَلَى الْمُتَّبِدَّةِ الْمُنْحَرِفِينَ فِي الْإِعْتِقَادَاتِ عَنْ مَذَاهِبِ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ . وَسِرُّ هَذِهِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ هُوَ التَّوْحِيدُ . فَلْنَقْدَمْ هُنَا لَطِيفَةً فِي بَرْهَانٍ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ لَنَا عَنِ التَّوْحِيدِ عَلَى أَقْرَبِ الطَّرِيقِ وَالْمَآخِذِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ عِلْمِهِ ^(١) وَفِيمَا يُنْظَرُ وَيُشِيرُ إِلَى خُدُوثِهِ فِي الْمِلَّةِ وَمَا دَعَا إِلَى وَضْعِهِ فَنَقُولُ : إِنْ عَلِمْنَا أَنَّ الْخَوَادِثَ فِي عَالَمِ الْكَائِنَاتِ سِوَاءَ كَانَتْ مِنَ الذَّوَاتِ أَوْ مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَوْ الْحَيَوَانِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَسْبَابٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَيْهَا بِهَا تَقَعُ فِي مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ وَعَنْهَا يَتِمُّ كَوْنُهُ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ حَدِثٌ أَيْضاً فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَسْبَابٍ أُخْرَى وَلَا تَزَالُ تِلْكَ الْأَسْبَابُ مُرْتَبِقَةً حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ وَمُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . وَتِلْكَ الْأَسْبَابُ فِي ارْتِقَائِهَا تَنْفَسُخُ وَتَتَضَاعَفُ ^(٢) طَوْلًا وَعَرْضًا وَيَحَارُ الْعَقْلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا . فَإِذَا لَا يَخْصِرُهَا إِلَّا الْعِلْمُ الْمُحِيطُ سَيِّمًا الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي الشَّاهِدِ الْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَالْقَصْدِ إِلَيْهِ . وَالْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ نَاشِئَةٌ فِي الْغَالِبِ عَنْ تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ يَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَتِلْكَ التَّصَوُّرَاتُ هِيَ أَسْبَابُ قَصْدِ الْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ أَسْبَابُ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ مَجْهُولٌ سَبَبُهُ ، إِذْ لَا يَطْلُعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِيءِ الْأُمُورِ النَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى تَرْتِيبِهَا . إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءٌ يُلْقِيهَا اللَّهُ فِي الْفِكْرِ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَالْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنْ مَعْرِفَةِ مَبَادِيئِهَا وَعَايَاتِهَا . وَإِنَّمَا يُحِيطُ عِلْمًا فِي الْغَالِبِ بِالْإِسْبَابِ الَّتِي هِيَ طَبِيعَةٌ ظَاهِرَةٌ

(١) أي علم الكلام .

(٢) وفي نسخة أخرى : تتضاعف فتتفسخ .

وَيَقَعُ فِي مَدَارِكِهَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ مَخْصُورَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَخْتَطُّ بِطَوْرِهَا .
وَأَمَّا التَّصَوُّرَاتُ فَنِطَاقُهَا أَوْسَعُ مِنَ النَّفْسِ لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ النَّفْسِ فَلَا
تُذَرِّكُ الْكَثِيرَ مِنْهَا فَضْلاً عَنِ الْإِحَاطَةِ . وَتَأْمُلْ مِنْ ذَلِكَ حِكْمَةَ الشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ
النَّظَرِ إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْوُقُوفِ مَعَهَا فَإِنَّهُ وَإِذْ يَهَيِّمُ فِيهِ الْفِكْرُ وَلَا يَخْلُو^(١) مِنْهُ بَطَائِلُ
وَلَا يَظْفَرُ بِحَقِيقَةٍ . قَالَ اللَّهُ : « ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » . وَرُبَّمَا انْقَطَعَ فِي
وُقُوفِهِ عَنِ الْإِرْتِقَاءِ إِلَى مَا فَوْقَهُ فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَأَصْبَحَ مِنَ الضَّالِّينَ الْهَالِكِينَ نَعُودُ بِاللَّهِ
مِنَ الْجِرْمَانِ وَالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ . وَلَا تَحْسِبَنَّ أَنَّ هَذَا الْوُقُوفُ أَوْ الرُّجُوعُ غَنَى فِي
قُدْرَتِكَ وَاخْتِيَارِكَ بَلْ هُوَ لَوْنٌ يَخْصُلُ لِلنَّفْسِ وَصِبْغَةٌ تَسْتَحْكِمُ مِنَ الْخَوْضِ فِي
الْأَسْبَابِ عَلَى نِسْبَةِ لَا نَعْلَمُهَا . إِذْ لَوْ عَلِمْنَاهَا لَتَحَرَّزْنَا مِنْهَا . فَلَنَتَحَرَّزَ مِنْ ذَلِكَ
بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا جُمْلَةً . وَأَيْضاً فَوَجْهُ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ مُسَبِّبَاتِهَا
مَجْهُولٌ لِأَنَّهَا إِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِالْعَادَةِ لِاقْتِرَانِ الشَّاهِدِ بِالْإِسْتِنَادِ إِلَى الظَّاهِرِ .
وَحَقِيقَةُ التَّأْثِيرِ وَكَيْفِيَّتُهُ مَجْهُولَةٌ . « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » . فَلِذَلِكَ أَمَرْنَا
بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا وَالْغَائِبِهَا جُمْلَةً وَالتَّوَجُّهِ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا وَفَاعِلِهَا
وَمُوجِدِهَا لِتَرْسُخِ صِفَةِ التَّوْحِيدِ فِي النَّفْسِ عَلَى مَا عَلَّمَنَا الشَّارِعَ الَّذِي هُوَ أَعْرَفُ
بِمَصَالِحِ دِينِنَا وَطُرُقِ سَعَادَتِنَا لِإِطْلَاعِهِ عَلَى مَا وَرَاءَ الْحِجَسِ . قَالَ ﷺ : « مَنْ
مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » . فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ فَقَدِ
انْقَطَعَ وَحَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْكُفْرِ وَأَنْ سَبَّحَ فِي بَحْرِ النَّظَرِ وَابْتَحَثَ عَنْهَا وَعَنْ أَسْبَابِهَا
وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَنَا الضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَّا بِالْخَبِيَةِ . فَلِذَلِكَ نَهَانَا
الشَّارِعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْأَسْبَابِ وَأَمَرْنَا بِالتَّوْحِيدِ الْمُطْلَقِ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ
الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْأٌ أَحَدٌ »^(٢) وَلَا تَتَّقَنَّ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ الْفِكْرُ مِنْ
أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِالْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا وَالْوُقُوفِ عَلَى تَفْصِيلِ الْوُجُودِ كُلِّهِ

(١) لم يحل ببطائل ، أي لم يظفر ولم يستفد منه (لسان العرب)

(٢) سورة الإخلاص .

وَسَفَهُ رَأْيِهِ فِي ذَلِكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ فِي بَادِيءِ رَأْيِهِ مُنْخَصِرٌ فِي
مَذَارِكِهِ لَا يَغْدُوهَا وَالْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ . أَلَا تَرَى الْأَصَمَّ
كَيْفَ يَنْخَصِرُ الْوُجُودَ عِنْدَهُ فِي الْمَحْسُوسَاتِ الْأَرْبَعِ وَالْمَعْقُولَاتِ وَيَسْقُطُ مِنَ الْوُجُودِ
عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَسْمُوعَاتِ . وَكَذَلِكَ الْأَعْمَى أَيْضاً يَسْقُطُ عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَرْتَبَاتِ وَلَوْلَا
مَا يَرُدُّهُمْ إِلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الْآبَاءِ وَالْمَشِيخَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِمْ وَالْكَافَّةُ لَمَّا أَقْرَأُوا بِهِ
لَكِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكَافَّةَ فِي إِبْتِائَاتِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ لَا بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ وَطَبِيعَةِ
إِدْرَاكِهِمْ وَلَوْ سُئِلَ الْحَيَوَانُ الْأَعْجَمُ وَنَطَقَ لَوَجَدْنَاهُ مُنْكَرًا لِلْمَعْقُولَاتِ وَسَاقِطَةً لَدُنْهِ
بِالْكُلِّيَّةِ فَإِذَا عَلِمْتَ هَذَا فَلَعَلَّ هُنَاكَ ضَرْباً مِنَ الْإِدْرَاكِ غَيْرِ مُدْرَكَاتِنَا لِأَنَّ إِدْرَاكَاتِنَا
مُخْلُوقَةٌ مُخَدَّنَةٌ وَخَلَقَ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ . وَالْحَضَرُ مُجْهُولٌ وَالْوُجُودُ أَوْسَعُ
نِطَاقاً مِنْ ذَلِكَ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ . فَاتَّهَمُوا إِدْرَاكَكَ وَمُدْرَكَاتِكَ فِي الْحَضَرِ وَاتَّبَعُوا
مَا أَمَرَكَ الشَّارِعُ بِهِ مِنْ اعْتِقَادِكَ وَعَمَلِكَ فَهُوَ أُخْرَصُ عَلَى سَعَادَتِكَ وَاعْلَمْ بِمَا
يَنْفَعُكَ لِأَنَّهُ مِنْ طُورٍ فَوْقَ إِدْرَاكِكَ وَمِنْ نِطَاقٍ أَوْسَعُ مِنْ نِطَاقِ عَقْلِكَ وَلَيْسَ ذَلِكَ
بِقَادِحٍ فِي الْعَقْلِ وَمَذَارِكِهِ بَلِ الْعَقْلُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ فَأَحْكَامُهُ يَقِينَةٌ لَا كَذِبَ فِيهَا .
غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَطْمَعُ أَنْ تَرَى بِهِ أُمُورَ التَّوْحِيدِ وَالْآخِرَةِ وَحَقِيقَةَ النُّبُوَّةِ وَحَقَائِقَ
الْصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَكُلُّ مَا وَرَاءَ طُورِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ طَمَعٌ فِي مُحَالٍ . وَمِثَالُ ذَلِكَ مِثَالُ
رَجُلٍ رَأَى الْمِيزَانَ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ الذَّهَبُ فَطَمِعَ أَنْ يَزِنَ بِهِ الْجِبَالَ وَهَذَا
لَا يُدْرِكُ . عَلَى أَنَّ الْمِيزَانَ فِي أَحْكَامِهِ غَيْرُ صَادِقٍ لَكِنَّ الْعَقْلَ قَدْ يَقِفُ عِنْدَهُ وَلَا
يَتَعَدَّى طُورَهُ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَنْ يُحِيطَ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ ذَرَّةٌ مِنْ ذُرَاتِ الْوُجُودِ
الْحَاصِلِ مِنْهُ . وَتَقَطُّنٌ فِي هَذَا الْغَلِطِ وَمَنْ يَقْدُمُ الْعَقْلَ عَلَى السَّمْعِ فِي أُمُثَالِ هَذِهِ
الْقَضَايَا وَقُصُورِ فَهْمِهِ وَاضْمِحْلَالِ رَأْيِهِ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ الْحَقُّ مِنْ ذَلِكَ وَإِذْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ
فَلَعَلَّ الْأَسْبَابَ إِذَا تَجَاوَزْتَ فِي الْارْتِقَاءِ نِطَاقَ إِدْرَاكِكَا وَوُجُودِنَا خَرَجْتَ عَنْ أَنْ
تَكُونَ مُدْرَكَةً فَيُضِلُّ الْعَقْلُ فِي بَيْدَاءِ الْأَوْهَامِ وَيَحَارُ وَيَنْقَطِعُ . فَإِذَا التَّوْحِيدُ هُوَ
الْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَسْبَابِ وَكَيْفِيَّاتِ تَأْثِيرِهَا وَتَفْوِيضُ ذَلِكَ إِلَى خَالِقِهَا الْمُحِيطِ بِهَا

إِذْ لَا فَاعِلَ غَيْرَهُ وَكُلُّهَا تَرْتَقِي إِلَيْهِ وَتَرْجِعُ إِلَى قُدْرَتِهِ وَعِلْمُنَا بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ حَيْثُ
 صُدُورُنَا عَنْهُ لَا غَيْرَ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى مَا نَقَلَ عَنْ بَعْضِ الصَّادِقِينَ : « الْعَجْزُ عَنِ
 الْإِذْرَاكِ إِذْرَاكَ » . ثُمَّ إِنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ لَيْسَ هُوَ الْإِيمَانُ فَقَطْ الَّذِي هُوَ
 تَصْدِيقُ حُكْمِي فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِيهِ حُصُولُ صِفَةٍ مِنْهُ
 تَتَكَيَّفُ بِهَا النَّفْسُ كَمَا أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ أَيْضاً حُصُولُ مَلَكَهٍ
 الطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ وَتَفْرِيعُ الْقَلْبِ عَنْ شَوَاغِلِ مَا سِوَى الْمَعْبُودِ حَتَّى يَنْقَلِبَ الْمُرِيدُ
 السَّالِكَ رِبَانِيّاً . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحَالِ وَالْعِلْمِ فِي الْعَقَائِدِ فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْقَوْلِ
 وَالْإِتِّصَافِ . وَشَرْحُهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّ رَحْمَةَ الْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى
 اللَّهِ تَعَالَى مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا وَيَقُولُ بِذَلِكَ وَيَعْتَرِفُ بِهِ وَيَذْكُرُ مَاخُذَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَهُوَ
 لَوْ رَأَى يَتِيمًا أَوْ مَسْكِينًا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ لَفَرَّ عَنْهُ وَاسْتَنَكَفَ أَنْ يُبَاشِرَهُ فَضْلاً
 عَنِ التَّمَسُّحِ عَلَيْهِ لِلرَّحْمَةِ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَطْفِ وَالْخُنُوفِ وَالصَّدَقَةِ . فَهَذَا
 إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ رَحْمَةِ الْيَتِيمِ مَقَامَ الْعِلْمِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ مَقَامُ الْحَالِ وَالْإِتِّصَافِ .
 وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْصُلُ لَهُ مَعَ مَقَامِ الْعِلْمِ وَالْإِعْتِرَافِ بِأَنَّ رَحْمَةَ الْمَسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى
 اللَّهِ تَعَالَى مَقَامٌ آخَرُ أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْإِتِّصَافُ بِالرَّحْمَةِ وَحُصُولُ مَلَكَتِهَا . فَمَتَى
 رَأَى يَتِيمًا أَوْ مَسْكِينًا بَادَرَ إِلَيْهِ وَمَسَحَ عَلَيْهِ وَالتَّمَسَّ الثَّوَابَ فِي الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ لَا يَكْأَدُ
 يَصْبِرُ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ دَفَعَ عَنْهُ . ثُمَّ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ ذَاتِ يَدِهِ وَكَذَا عِلْمُكَ
 بِالتَّوْحِيدِ مَعَ اتِّصَافِكَ بِهِ وَالْعِلْمُ حَاصِلٌ عَنِ الْإِتِّصَافِ ضَرُورَةً وَهُوَ أَوْثَقُ مَبْنًى مِنْ
 الْعِلْمِ الْحَاصِلِ قَبْلَ الْإِتِّصَافِ . وَلَيْسَ الْإِتِّصَافُ بِحَاصِلٍ عَنْ مُجَرَّدِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقَعَ
 الْعَمَلُ وَيَتَكَرَّرَ مِرَاراً غَيْرَ مُنْخَصِرَةً فَتَرْسُخَ الْمَلَكَهَ وَيَحْصُلَ الْإِتِّصَافُ وَالتَّحْقِيقُ
 وَيَجِيءُ الْعِلْمُ الثَّانِي النَّافِعُ فِي الْآخِرَةِ . فَإِنَّ الْعِلْمَ الْأَوَّلَ الْمُجَرَّدَ عَنِ الْإِتِّصَافِ قَلِيلٌ
 الْجَدْوَى وَالنَّفْعُ وَهَذَا عِلْمٌ أَكْثَرُ النَّظَارِ وَالْمَطْلُوبُ إِنَّمَا هُوَ الْعِلْمُ الْحَالِي النَّاشِءُ عَنِ
 الْعَادَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْكَمَالَ عِنْدَ الشَّارِعِ فِي كُلِّ مَا كَلَّفَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا فَمَا طَلِبَ
 اعْتِقَادَهُ فَالْكَمَالُ فِيهِ فِي الْعِلْمِ الثَّانِي الْحَاصِلِ عَنِ الْإِتِّصَافِ وَمَا طَلِبَ عَمَلَهُ مِنْ

الْعِبَادَاتِ فَالْكَمَالُ فِيهَا فِي حُصُولِ الْإِتِّصَافِ وَالتَّحَقُّقِ بِهَا . ثُمَّ إِنَّ الْإِقْبَالَ عَلَى الْعِبَادَاتِ وَالْمُوَاطَّئَةِ عَلَيْهَا هُوَ الْمُحَصَّلُ لِهَذِهِ الثَّمَرَةِ الشَّرِيفَةِ . قَالَ ﷺ : « فِي رَأْسِ الْعِبَادَاتِ جَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » فَإِنَّ الصَّلَاةَ صَارَتْ لَهُ صِفَةً وَحَالًا يَجِدُ فِيهَا مُنْتَهَى لَذَاتِهِ وَقُرَّةَ عَيْنِهِ وَأَيُّنَ هَذَا مِنْ صَلَاةِ النَّاسِ وَمَنْ لَهُمْ بِهَا ؟ « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » ^(١) اللَّهُمَّ وَفَّقْنَا « وَاهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » ^(٢) فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ أَنَّ الْمَطْلُوبَ فِي التَّكَالُيفِ كُلِّهَا حُصُولُ مَلَكَتِهِ رَاسِخَةً فِي النَّفْسِ يَخْصُلُ ^(٣) عَنْهَا عِلْمُ اضْطِرَارِيٍّ لِلنَّفْسِ هُوَ التَّوْحِيدُ وَهُوَ الْعَقِيدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ وَهُوَ الَّذِي تُحْصَلُ بِهِ السَّعَادَةُ وَأَنَّ ذَلِكَ سَوَاءٌ فِي التَّكَالُيفِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ . وَيَتَفَهَّمُ مِنْهُ أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ أَصْلُ التَّكَالُيفِ وَيَنْبُوعُهَا هُوَ بِهِذِهِ الْمَثَابَةِ دُوَ مَرَاتِبَ . أَوَّلُهَا التَّصَدِيقُ الْقَلْبِيُّ الْمُوَافِقُ لِلْسَّانِ وَأَعْلَاهَا حُصُولُ كَيْفِيَّةٍ مِنْ ذَلِكَ الْإِعْتِقَادِ الْقَلْبِيِّ وَمَا يَتَّبَعُهُ مِنَ الْعَمَلِ مُسْتَوَلِيَّةٍ عَلَى الْقَلْبِ فَيَسْتَتِيعُ الْجَوَارِحَ . وَتَنْدَرُجُ فِي طَاعَتِهَا جَمِيعُ التَّصَرُّفَاتِ حَتَّى تَنْخَرِطَ الْأَفْعَالُ كُلُّهَا فِي طَاعَةِ ذَلِكَ التَّصَدِيقِ الْإِيمَانِيِّ . وَهَذَا أَرْفَعُ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يَقَارِفُ الْمُؤْمِنُ مَعَهُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِذْ حُصُولُ الْمَلَكَتِ وَرُسُوخُهَا مَانِعٌ مِنَ الْإِنْحِرَافِ عَنْ مَنَاجِيهِ طَرَفَةً عَيْنٍ قَالَ ﷺ : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » وَفِي حَدِيثٍ هَرَقَلَ لَمَّا سَأَلَ أَبَا سَفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَحْوَالِهِ فَقَالَ فِي أَصْحَابِهِ : « هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سُخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ » قَالَ : لَا ! قَالَ : وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تَخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ . وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَلَكَتَهُ الْإِيمَانِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ عَسَرَ عَلَى النَّفْسِ مَخَالَفَتَهَا شَأْنَ الْمَلَكَاتِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ فَإِنَّهَا تَحْصُلُ بِمَثَابَةِ الْحَبْلَةِ وَالْفِطْرَةِ وَهَذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الْعَالِيَّةُ مِنَ الْإِيمَانِ وَهِيَ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعِصْمَةِ .

(١) سورة الماعون ، الآية ٤ و ٥ .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٥ و ٦ .

(٣) وفي نسخة أخرى : ينشأ .

لأن العِصْمَةَ واجبةً للأنبياء وجوباً سابقاً وهذه حاصلة للمؤمنين حصولاً تابعاً لأعمالهم وتصديقهم . وبهذه الملكة ورُسُوحها يقع التفاوت في الإيمان كالذي يتلى عليك من أقاويل السلف . وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الإيمان كثير منه . مثل أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص وأن الصلاة والصيام من الإيمان وأن تطوع رمضان من الإيمان والحياء من الإيمان . والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذي أشرنا إليه وإلى ملكته وهو فعلي . وأما التصديق الذي هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه . فمن اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الإيمان الكامل ظهر له التفاوت . وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق إذ التصديق موجود في جميع رتبته لأنه أقل ما يطلق عليه اسم الإيمان وهو المخلص من عهدة الكفر والفيصل^(١) بين الكافر والمسلم فلا يجري أقل منه . وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وإنما التفاوت في الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه فافهم . واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في المرتبة الأولى الذي هو تصديق وعين أموراً مخصوصة كلّفنا التصديق بها بقولنا واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بها بالسنتنا وهي العقائد التي تقرر في الدين . قال ﷺ حين سئل عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام . ولنشر إليها مجمل لتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه فنقول . اعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي رد الأفعال كلها إليه وأفرده به كما قدمناه وعرفنا أن في هذا الإيمان نجاتنا عند الموت إذا حضرنا لم نعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود وهو إذ ذاك متمتر على إدراكنا ومن فوق طورنا . فكلفنا أولاً : اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة

(١) وفي النسخة الباريية : الفاصل .

الْمَخْلُوقِينَ وَالْأَلَمَا صَحَّ أَنَّهُ خَالِقٌ لَهُمْ لِعَدَمِ الْفَارِقِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ثُمَّ تَنْزِيهِهِ عَنْ صِفَاتِ النُّقْصِ وَالْأَلَمَا شَبَهَ الْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ تَوْحِيدِهِ بِالْإِتِّحَادِ وَالْأَلَمَا لَمْ يَتِمَّ الْخَلْقُ لِلتَّمَانَعِ ثُمَّ اعْتِقَادُ أَنَّهُ عَالَمٌ قَادِرٌ فَبِذَلِكَ تَتِمُّ الْأَفْعَالُ شَاهِدَ قَضِيَّتِهِ لِكَمَالِ الْإِتِّحَادِ ^(١) وَالْخَلْقِ وَمُرِيدٌ وَالْأَلَمَا لَمْ يَخْصُصْ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَمُقَدَّرٌ لِكُلِّ كَائِنٍ وَالْأَلَمَا لِإِرَادَةِ حَادِثَةٍ . وَأَنَّهُ يُعِيدُنَا بَعْدَ الْمَوْتِ تَكْمِيلًا لِعِنَايَتِهِ بِالْإِبْجَادِ وَلَوْ كَانَ لِأَمْرِ فَإِنْ ^(٢) كَانَ عَبَثًا فَهُوَ لِلْبَقَاءِ السُّرْمَدِيِّ بَعْدَ الْمَوْتِ . ثُمَّ اعْتِقَادُ بَعْثَةِ الرُّسُلِ لِلنَّجَاةِ مِنْ شَقَاءِ هَذَا الْمَعَادِ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ بِالشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِنَا بِذَلِكَ وَتَمَامِ لُطْفِهِ بِنَا فِي الْإِيْتَاءِ ^(٣) . بِذَلِكَ وَبَيَانِ الطَّرِيقَيْنِ . وَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلنَّعِيمِ وَجَهَنَّمَ لِلْعَذَابِ . هَذِهِ أَمَهَاتُ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ مُعَلَّلَةٌ بِأَدْلَتِهَا الْعَقْلِيَّةِ وَأَدْلَتِهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرَةٌ . وَعَنْ تِلْكَ الْأَدْلَةِ أَخَذَهَا السَّلَفُ وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ وَحَقَّقَهَا الْأُئِمَّةُ إِلَّا أَنَّهُ عَرَضَ بَعْدَ ذَلِكَ خِلَافٌ فِي تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْعَقَائِدِ أَكْثَرُ مَثَارِهَا مِنَ الْإِي الْمَتَشَابِهَةِ فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْخِصَامِ وَالتَّنَاطُرِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالْعَقْلِ وَزِيَادَةِ إِلَى النُّقْلِ . فَحَدَّثَ بِذَلِكَ عِلْمُ الْكَلَامِ . وَلَنُبَيِّنَ لَكَ تَفْصِيلَ هَذَا الْمُجْمَلِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَرَدَ فِيهِ وَصْفُ الْمَعْبُودِ بِالتَّنْزِيهِ الْمَطْلُوقِ الظَّاهِرِ الدَّلَالَةِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ وَهِيَ سُلُوبٌ ^(٤) كُلُّهَا وَصَرِيحَةٌ فِي بَابِهَا فَوَجَبَ الْإِيْمَانُ بِهَا . وَوَقَعَ فِي كَلَامِ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تَفْسِيرُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا . ثُمَّ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ آيٌ أُخْرَى قَلِيلَةٌ تُوهِمُ التَّشْبِيهَ مَرَّةً فِي الذَّاتِ وَأُخْرَى فِي الصِّفَاتِ . فَأَمَّا السَّلَفُ فَغَلَبُوا أَدْلَةَ التَّنْزِيهِ لِكَثَرَتِهَا وَوُضُوحِ دَلَالَتِهَا . وَعَلِمُوا اسْتِحَالَةَ التَّشْبِيهِ . وَقَضُوا بِأَنَّ الْآيَاتِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ فَأَمَنُوا بِهَا وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِمَعْنَاهَا بِخَبْثٍ وَلَا تَأْوِيلٍ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ

(١) وفي نسخة أخرى : الإيجاد .

(٢) وفي نسخة أخرى : ولو كان للغناء الصرف .

(٣) وفي نسخة أخرى : الإنبياء .

(٤) السلوب من النوق : التي لقت ولدها لغير تمام . وظيفه سلوب وسأب أي سلبت ولدها (لسان

العرب) وهذا بمعنى ينقص التأويل .

الكثير منهم ، إقرأوها كما جاءت أي آمنوا بأنها من عند الله . ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسرها لجواز أن تكون ائتلاء ، فيجب الوقف والإذعان له . وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوها ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه . ففريق أشبهوا^(١) في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملاً بطواهر وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة أي التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة لأن معقوليّة الجسم تقتضي النقص والافتقار . وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلّق بطواهر هذه التي لنا عنها غنية وجمع بين الدليلين بتأويلها ثم يفرّون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام . وليس ذلك بدافع عنهم لأنه قول متناقض وجمع بين نفي وإثبات إن كانا بالمعقوليّة واحدة من الجسم . وإن خالفوا بينهما ونفوا المعقوليّة المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسماً من أسمائه . ويتوقف مثله على الأدن . وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك . وآل قولهم إلى التجسيم فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم صوت لا كالأصوات جهة لا كالجّهات نزول لا كالنزول يغنون من الأجسام . واندفع ذلك بما اندفع به الأول . ولم يبق في هذه الطواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي لئلا يكر^(٢) النفي على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن . ولهذا تنظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له وفي كتاب الحافظ ابن عبد البر وغيرهم فإنهم يحومون على هذا المعنى . ولا تغمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غصون كلامهم . ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء وألف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتبرة في

(١) وفي نسخة أخرى ، شبهوا .

(٢) يعود .

تَعْمِيمُ هَذَا التَّنْزِيهِ فِي آيِ السُّلُوبِ فَقَضُوا بِنَفْيِ صِفَاتِ الْمَعَانِي مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ
وَالْإِرَادَةِ وَالْحَيَاةِ زَائِدَةً عَلَى أَحْكَامِهَا لِمَا يُلْزَمُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَدُّدِ الْقَدِيمِ بِزَعْمِهِمْ
وَهُوَ مَرْدُودٌ بِأَنَّ الصِّفَاتِ لَيْسَتْ عَيْنَ الذَّاتِ وَلَا غَيْرَهَا وَقَضُوا بِنَفْيِ صِفَةِ الْإِرَادَةِ
فَلَزِمَهُمْ نَفْيُ الْقَدْرِ لَأَنَّ مَعْنَاهُ سَبَقَ الْإِرَادَةَ لِلْكَائِنَاتِ وَقَضُوا بِنَفْيِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
لِكَوْنِهِمَا مِنْ عَوَارِضِ الْأَجْسَامِ . وَهُوَ مَرْدُودٌ لِعَدَمِ اشْتِرَاطِ الْبُنْيَةِ فِي مَذْلُولِ هَذَا اللَّفْظِ
وَأَمَّا هُوَ إِذْ رَأَى الْمَسْمُوعَ أَوْ الْمُبْصَرَ . وَقَضُوا بِنَفْيِ الْكَلَامِ لَشَبْهِهِ مَا فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
وَلَمْ يَعْقِلُوا صِفَةَ الْكَلَامِ الَّتِي تَقُومُ بِالنَّفْسِ فَقَضُوا بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَذَلِكَ بِدَعَا
صِرْحِ السُّلْفِ بِخِلَافِهَا . وَعَظَمَ ضَرَرُ هَذِهِ الْبِدْعَةِ وَلَقَنَهَا بَعْضُ الْخُلَفَاءِ عَنْ أَيْمَتِهِمْ
فَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَخَالَفَهُمْ أَئِمَّةُ السُّلْفِ فَاسْتَحَلَّ لِخِلَافِهِمْ إِيْسَارُ^(١) كَثِيرٍ مِنْهُمْ
وَدِمَائِهِمْ . وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِانْتِهَاضِ أَهْلِ السُّنَّةِ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى هَذِهِ الْعَقَائِدِ
دَفْعًا فِي صُدُورِ هَذِهِ الْبِدْعِ وَقَامَ بِذَلِكَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ إِمَامُ الْمُتَكَلِّمِينَ
فَتَوَسَّطَ بَيْنَ الطَّرِيقِ وَنَفَى التَّشْبِيهَ وَأَثَبَتِ الصِّفَاتِ الْمَعْنَوِيَّةَ وَقَصَرَ التَّنْزِيهِ عَلَى
مَا قَصَرَهُ عَلَيْهِ السُّلْفُ . وَشَهِدَتْ لَهُ الْأَدِلَّةُ الْمُخَصَّصَةُ لِعُمُومِهِ فَأَثَبَتِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعُ
الْمَعْنَوِيَّةَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ الْقَائِمَ بِالنَّفْسِ بِطَرِيقِ النُّقْلِ وَالْعَقْلِ . وَرَدَّ عَلَى
الْمُبْتَدِعَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِيمَا مَهْدُوهُ لِهَذِهِ الْبِدْعِ مِنَ الْقَوْلِ بِالصَّلَاحِ
وَالْأَصْلِحِ وَالتَّخْسِينِ وَالتَّقْيِيحِ وَكَمَلَ الْعَقَائِدِ فِي الْبُعْثَةِ وَأَحْوَالِ الْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ
وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ . وَالْحَقُّ بِذَلِكَ الْكَلَامِ فِي الْإِمَامَةِ لِمَا ظَهَرَ حِينَئِذٍ مِنْ بِدْعَةِ
الْإِمَامِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّهَا مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ^(٢) وَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى النَّبِيِّ تَعْيِينُهَا وَالْخُرُوجُ

(١) بِمَعْنَى أَمْوَالٍ وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ابْتِشَارٌ .

(٢) وَفِي كِتَابِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ آلِ كَاشِفِ الْغَطَاءِ النُّجْفِيِّ (أَصْلُ الشَّيْعَةِ وَأَصُولُهَا) مَا يَلِي :

الْإِمَامَةِ ، قَدْ أَبَيَّنَّا أَنَّ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي امْتَازَتْ بِهِ الْإِمَامِيَّةُ وَافْتَرَقَتْ عَنْ سَائِرِ فِرْقِ الْمُسْلِمِينَ . وَهُوَ
فِرْقُ جَوْهَرِيٍّ أَصْلِيٍّ . وَمَا عَدَاهُ مِنَ الْفِرَقِ فِرْقَةٌ عَرْضِيَّةٌ . كَالْفِرَقِ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ أَيْمَةِ الْجَاهِدِ عِنْدَهُمْ كَالْحَنْفِيِّ
وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمَا . وَعَرَفْتُ أَنَّ مَرَادَهُمْ بِالْإِمَامَةِ كَوْنُهَا مَنْصِبًا إِلَهِيًّا يَخْتَارُهُ اللَّهُ بِأَقْبَلِ عِلْمِهِ بِعِبَادِهِ كَمَا يَخْتَارُ
النَّبِيَّ . وَيَأْمُرُ النَّبِيُّ بِأَنْ يَدُلَّ الْأُمَّةُ عَلَيْهِ وَيَأْمُرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ . وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى أَمْرُ نَبِيِّهِ بِأَنْ يَنْصَحَ
عَلَى عِلْمِهِ وَيَنْصِبَهُ عَلَمًا لِلنَّاسِ مِنْ بَعْدِهِ . وَكَانَ النَّبِيُّ يَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَإِلَى الْيَوْمِ لَيْسُوا فِي مَسْتَوًى وَاحِدٍ =

عَنِ الْعَهْدَةِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ هِيَ لَهُ . وَكَذَلِكَ عَلَى الْأُمَّةِ . وَقُصَارَى أَمْرِ الْإِمَامَةِ أَنَّهَا قَضِيَّةٌ
مُضْلِحِيَّةٌ إِجْمَاعِيَّةٌ وَلَا تُلْحَقُ بِالْعَقَائِدِ فَلِذَلِكَ أَلْحَقُوهَا بِمَسَائِلِ هَذَا الْفَنِّ وَسَمَّوْا
مَجْمُوعَهُ عِلْمَ الْكَلَامِ ، إِمَّا لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُنَاطَرَةِ عَلَى الْبِدْعِ وَهِيَ كَلَامٌ صَرَفٌ وَلَيْسَتْ
بِرَاجِعَةٍ إِلَى عَمَلٍ . وَإِمَّا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَالْخَوْضُ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ فِي إِبْتِهَاتِ الْكَلَامِ
النَّفْسِيِّ . وَكَثُرَ أَتْبَاعُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَاقْتَفَى طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تَلْمِيزُهُ
كَابِنٍ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ . وَأَخَذَ عَنْهُمْ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي
طَرِيقَتِهِمْ وَهَذَبَهَا وَوَضَعَ الْمُفَقَّدَاتِ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا الْأَدِلَّةُ وَالْأَنْظَارُ
وَذَلِكَ مِثْلُ إِبْتِهَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْخَلَاءِ . وَأَنَّ الْعَرَضَ لَا يَقُومُ بِالْعَرَضِ وَأَنَّهُ
لَا يَنْقَى زَمَانَيْنِ . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ أَدِلَّتُهُمْ . وَجَعَلَ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ تَبَعاً
لِلْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي وَجُوبِ اعْتِقَادِهَا لِتَوَقُّفِ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ عَلَيْهَا وَأَنَّ بَطْلَانَ الدَّلِيلِ
يُؤْذَنُ بِبَطْلَانِ الْمَذْهُوبِ . وَجُمِلَتْ^(١) هَذِهِ الطَّرِيقَةُ وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ الْفُقُوهِ
النَّظَرِيَّةِ وَالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ صَوْرَ الْأَدِلَّةِ فِيهَا بَعْضُ الْأَخْيَانِ ، عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ
الصَّنَاعِيِّ لِسَدَاجَةِ الْقَوْمِ وَلِأَنَّ صِنَاعَةَ الْمُنْطِقِ الَّتِي تَسِيرُ بِهَا الْأَدِلَّةُ وَتُعْتَبَرُ بِهَا
الْأَقْيَسَةُ وَلَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ ظَاهِرَةً فِي الْمِلَّةِ ، وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا بَعْضُ الشَّيْءِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ
الْمُتَكَلِّمُونَ لِمَلَابَسَتِهَا لِلْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْمُبَايِنَةِ لِلْعَقَائِدِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْجُمْلَةِ فَكَانَتْ
مَهْجُورَةً عِنْدَهُمْ لِذَلِكَ . ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ مِنْ أَيْمَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ
إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَبُو الْمَعَالِي فَأَمْلَى فِي الطَّرِيقَةِ كِتَابَ الشَّامِلِ وَأَوْسَعَ الْقَوْلَ فِيهِ . ثُمَّ
لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ الْإِرْشَادِ وَاتَّخَذَهُ النَّاسُ إِمَاماً لِعَقَائِدِهِمْ . ثُمَّ انْتَشَرَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

= من الإيمان واليقين بنزاهة النبي وعصمته عن الهوى والعرض . ولكن الله سبحانه لم يعذره في ذلك فأوحى إليه ،
« يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالتي » . فلم يبدأ من الامتثال بعد هذا
الانذار الشديد فخطب الناس عند منصرفه من حجة الوداع في غديرهم فنادى وجلهم يسمعون ، « ألسنت أولى
بالمؤمنين من أنفسهم ؟ فقالوا اللهم نعم » فقال ، « من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه » إلى آخر ما قال . ثم أكد ذلك
في مواطن أخرى تلويحاً وتصريحاً . وإشارة ونصحاء حتى أدى الوظيفة وبلغ عند الله المعذرة (ص ١٠٧ - ١٠٨)
(طبعة دار البحار - بيروت) .

(١) وفي نسخة أخرى : كملت .

عُلُومٌ^(١) الْمُنْطِقِي فِي الْمِلَّةِ وَقَرَأَهُ النَّاسُ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ بِأَنَّهُ قَانُونٌ وَمَعْيَارٌ لِلْأَدْلَةِ فَقَطُّ يُسَبَّرُ بِهِ الْأَدْلَةُ مِنْهَا كَمَا يُسَبَّرُ مِنْ سِوَاهَا . ثُمَّ نَظَرُوا فِي تِلْكَ الْقَوَاعِدِ وَالْمُقَدِّمَاتِ فِي فَنِّ الْكَلَامِ لِلْأَقْدَمِينَ فَخَالَفُوا الْكَثِيرَ مِنْهَا بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي أَدْلَتْ إِلَى ذَلِكَ وَرُبَّمَا أَنْ كَثِيرًا مِنْهَا مُقْتَبَسٌ مِنْ كَلَامِ الْفَلَاسِفَةِ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ . فَلَمَّا سَبَرُوهَا بِمَعْيَارِ الْمُنْطِقِ رَدُّهُمْ إِلَى ذَلِكَ فِيهَا وَلَمْ يَغْتَقِدُوا بُطْلَانَ

الْمَذَلُولِ مِنْ بُطْلَانِ دَلِيلِهِ كَمَا صَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي فَصَارَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ فِي مُصْطَلَحِهِمْ مَبَايِنَةً لِلطَّرِيقَةِ الْأُولَى وَتُسَمَّى طَرِيقَةُ الْمُتَأَخِّرِينَ وَرُبَّمَا أَدْخَلُوا فِيهَا الرَّدَّ عَلَى الْفَلَاسِفَةِ فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ مِنَ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ وَجَعَلُوهُمْ مِنْ خُصُومِ الْعَقَائِدِ لِتَنَاسُبِ الْكَثِيرِ مِنْ مَذَاهِبِ الْمُتَبَدِّعَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ . وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي طَرِيقَةِ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا الْمَنْحَى الْعَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَتَبِعَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ وَجَمَاعَةٌ قَفَّوْا أَثَرَهُمْ وَاعْتَمَدُوا تَقْلِيدَهُمْ ثُمَّ تَوَعَّلَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي مُخَالَطَةِ كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ وَالتَّبَسُّسِ عَلَيْهِمْ شَأْنَ الْمَوْضُوعِ فِي الْعِلْمَيْنِ فَحَسَبُوهُ فِيهِمَا وَاحِدًا مِنْ اشْتِبَاهِ الْمَسَائِلِ فِيهِمَا . وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ لَمَّا كَانُوا يَسْتَدِلُّونَ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِمْ بِالْكَائِنَاتِ وَأَحْوَالِهَا عَلَى وُجُودِ الْبَارِيَّ وَصِفَاتِهِ وَهُوَ نَوْعٌ اسْتِدْلَالِيٌّ غَالِبًا . وَالْجِسْمُ الطَّبِيعِيُّ الَّذِي يَنْظَرُ فِيهِ الْفَيْلَسُوفُ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ وَهُوَ بَعْضٌ مِنْ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ . إِلَّا أَنَّ نَظَرَهُ فِيهَا مُخَالَفٌ لِنَظَرِ الْمُتَكَلِّمِ وَهُوَ يَنْظُرُ فِي الْجِسْمِ مِنْ حَيْثُ يَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ وَالْمُتَكَلِّمُ يَنْظُرُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى الْفَاعِلِ . وَكَذَا نَظَرُ الْفَيْلَسُوفِ فِي الْإِلَهِيَّاتِ إِنَّمَا هُوَ نَظَرٌ فِي الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ وَمَا يَقْتَضِيهِ لِدَاتِهِ وَنَظَرُ الْمُتَكَلِّمِ فِي الْوُجُودِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْمَوْجِدِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَمَوْضُوعُ عِلْمِ الْكَلَامِ عِنْدَ أَهْلِهِ إِنَّمَا هُوَ الْعَقَائِدُ الْإِيمَانِيَّةُ بَعْدَ فَرَضِهَا صَحِيحَةً مِنَ الشَّرْعِ مِنْ حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهَا بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ فَتَرْفَعُ الْبِدْعُ وَتَزُولُ الشُّكُوكُ وَالشَّيْبَةُ^(٢) عَنْ تِلْكَ الْعَقَائِدِ وَإِذَا تَأَمَّلْتَ

(١) وفي نسخة أخرى : علم .

(٢) وفي نسخة أخرى : الشبه .

حَالُ الْفَنِّ فِي حُدُوثِهِ وَكَيْفَ تَدْرُجُ كَلَامُ النَّاسِ فِيهِ صَدْرًا بَعْدَ صَدْرٍ وَكُلُّهُمْ يَفْرُضُ
 الْعَقَائِدَ صَحِيحَةً وَيَسْتَنْهَضُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ عِلْمِيَّةً مَا قَرَّرْنَاهُ لَكَ فِي مَوْضُوعِ
 الْفَنِّ وَأَنَّهُ لَا يَغْدُوهُ . وَلَقَدْ اخْتَلَطَتِ الطَّرِيقَتَانِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَالتَّبَسُّتِ
 مَسَائِلُ الْكَلَامِ بِمَسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ بِحَيْثُ لَا يَتَمَيَّزُ أَحَدُ الْفَنَيْنِ مِنَ الْآخَرِ . وَلَا
 يَحْصُلُ عَلَيْهِ طَالِبُهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ الْبَيْضَاوِيُّ فِي الطُّوَالِجِ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ
 عُلَمَاءِ الْعَجَمِ فِي جَمِيعِ تَأْلِيْفِهِمْ . إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ قَدْ يَغْنَى بِهَا بَعْضُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ
 لِلإِطْلَاقِ عَلَى الْمَذَاهِبِ وَالْإِعْرَاقِ فِي مَعْرِفَةِ الْحِجَاجِ لَوْفُورِ ذَلِكَ فِيهَا . وَأَمَّا مُحَاضَرَةُ
 طَرِيقَةِ السَّلَفِ بِعَقَائِدِ عِلْمِ الْكَلَامِ فَإِنَّمَا هُوَ فِي الطَّرِيقَةِ الْقَدِيمَةِ لِلْمُتَكَلِّمِينَ وَأَصْلُهَا
 كِتَابُ الْإِرْشَادِ وَمَا خَذَا حُدُوهُ . وَمَنْ أَرَادَ إِدْخَالَ الرَّدِّ عَلَى الْفَلَسَفَةِ فِي عَقَائِدِهِ فَعَلَيْهِ
 يَكْتُبُ الْغَزَالِيَّ وَالْإِمَامَ ابْنَ الْخَطِيبِ فَإِنَّهَا وَإِنْ وَقَعَ فِيهَا مُخَالَفَةٌ لِلِإِصْطِلَاحِ الْقَدِيمِ
 فَلَيْسَ فِيهَا مِنَ الْإِخْتِلَاطِ فِي الْمَسَائِلِ وَالِاتِّبَاسِ فِي الْمَوْضُوعِ مَا فِي طَرِيقَةِ هَؤُلَاءِ
 الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ الَّذِي هُوَ عِلْمُ
 الْكَلَامِ غَيْرُ ضَرُورِيٍّ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ إِذِ الْمُلْحَدَةُ وَالْمُبْتَدَعَةُ قَدْ انْقَرَضُوا
 وَالْأَيْمَةُ ، مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كَفَوْنَا شَأْنَهُمْ فِيمَا كَتَبُوا وَدَوَّنُوا وَالْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ إِنَّمَا اخْتَجَّجُوا
 إِلَيْهَا حِينَ دَافَعُوا وَنَصَرُوا . وَأَمَّا الْآنَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا كَلَامُ تَنْزَةِ الْبَارِي عَنْ كَثِيرٍ
 إِيَّاهُمَا تَبَهُ وَإِطْلَاقِهِ ^(١) وَلَقَدْ سُئِلَ الْجَنِيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَوْمٍ مَرَّ بِهِمْ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ
 يَفِيضُونَ فِيهِ فَقَالَ : مَا هَؤُلَاءِ ؟ فَقِيلَ : قَوْمٌ يُنْزَهُونَ اللَّهَ بِالْأَدِلَّةِ عَنْ صِفَاتِ
 الْحُدُوثِ وَسِمَاتِ النُّقْصِ . فَقَالَ : « نَفْيُ الْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ غَيْبٌ »
 لَكِنْ فَائِدَتُهُ فِي أَحَادِ النَّاسِ وَطَلَبَةِ الْعِلْمِ فَائِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ إِذْ لَا يَحْسُنُ بِحَامِلِ السُّنَّةِ
 الْجَهْلُ بِالْحُجَجِ النَّظَرِيَّةِ عَلَى عَقَائِدِهَا . وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

الفصل الحادي عشر

في أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر^(١)

إِغْلَمْ أَنَّ عَالَمَ الْكَائِنَاتِ يَشْتَمِلُ عَلَى ذَوَاتٍ مَحْضَةٍ ، كَالْفَنَاصِرِ وَأَثَارِهَا
وَالْمُكُونَاتِ الثَّلَاثَةِ عَنْهَا ، الَّتِي هِيَ الْمَعْدِنُ وَالنَّبَاتُ وَالْحَيَوَانُ . وَهَذِهِ كُلُّهَا
مُتَعَلِّقَاتِ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ وَعَلَى أَفْعَالٍ صَادِرَةٍ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَاقِعَةٍ بِمَقْصُودِهَا ،
مُتَعَلِّقَةٍ بِالْقُدْرَةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَهَا عَلَيْهَا ، فَمِنْهَا مُنْتَظَمٌ مُرْتَّبٌ ، وَهِيَ الْأَفْعَالُ
الْبَشَرِيَّةُ ، وَمِنْهَا غَيْرُ مُنْتَظَمٍ وَلَا مُرْتَّبٍ ، وَهِيَ أَفْعَالُ الْحَيَوَانَاتِ غَيْرِ الْبَشَرِ . وَذَلِكَ
الْفِكْرُ يُدْرِكُ التَّرْتِيبَ بَيْنَ الْحَوَادِثِ بِالطَّبِيعِ أَوْ بِالْوَضْعِ ، فَإِذَا قَصَدَ إِيجَادَ شَيْءٍ مِنْ
الْأَشْيَاءِ ، فَلَأَجْلِ التَّرْتِيبِ بَيْنَ الْحَوَادِثِ لَا بُدَّ مِنَ التَّفَطُّنِ بِسَبَبِهِ أَوْ عَلَيْهِ أَوْ
شَرْطِهِ . وَهِيَ عَلَى الْجُمْلَةِ مَبَادِيهِ ، إِذْ لَا يُوجَدُ إِلَّا ثَانِيًا عَنْهَا وَلَا يُمْكِنُ إِيقَاعُ
الْمُقَدَّمِ مُتَأَخِّرًا وَلَا الْمُتَأَخِّرُ مُتَقَدِّمًا . وَذَلِكَ الْمَبْدَأُ قَدْ يَكُونُ لَهُ مَبْدَأٌ آخَرُ مِنْ تِلْكَ
الْمَبَادِيءِ لَا يُوجَدُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا عَنْهُ ، وَقَدْ يَرْتَقِي ذَلِكَ أَوْ يَنْتَهِي . فَإِذَا انْتَهَى إِلَى
آخِرِ الْمَبَادِيءِ فِي مَرْتَبَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ أَوْ أَزِيدَ ، وَشَرَعَ فِي الْعَمَلِ الَّذِي يُوجَدُ بِهِ ذَلِكَ
الشَّيْءُ بَدَأَ بِالْمَبْدَأِ الْأَخِيرِ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ الْفِكْرُ ، فَكَانَ أَوَّلَ عَمَلِهِ . ثُمَّ تَابَعَ
مَا بَعْدَهُ إِلَى آخِرِ الْمُسَبَّبَاتِ الَّتِي كَانَتْ أَوَّلَ فِكْرَتِهِ . مَثَلًا : لَوْ فَكَّرَ فِي إِيجَادِ سَقْفٍ
يَكُونُهُ انْتَقَلَ بِذَهْنِهِ إِلَى الْحَائِطِ الَّذِي يَدْعُمُهُ ، ثُمَّ إِلَى الْأَسَاسِ الَّذِي يَقِفُ عَلَيْهِ
الْحَائِطُ فَهُوَ آخِرُ الْفِكْرِ . ثُمَّ يَبْدَأُ فِي الْعَمَلِ بِالْأَسَاسِ ، ثُمَّ بِالْحَائِطِ ، ثُمَّ بِالسَّقْفِ ،
وَهُوَ آخِرُ الْعَمَلِ .

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ : (أَوَّلُ الْعَمَلِ آخِرُ الْفِكْرَةِ ، وَأَوَّلُ الْفِكْرَةِ آخِرُ الْعَمَلِ) ،
فَلَا يَتِمُّ فِعْلُ الْإِنْسَانِ فِي الْخَارِجِ إِلَّا بِالْفِكْرِ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَاتِ لِتَوْقُفِ بَعْضِهَا عَلَى

(١) هذا الفصل غير موجود في طبعة "بولاق" وبعض الطبعاث الأخرى . نقلناه عن الطبعة الباريسية
نحقيق وردت بعد : " فصل في الفكر الإنساني " .

بعض. ثُمَّ يَسْرَعُ فِي فِعْلِهَا. وَأَوَّلُ هَذَا الْفِكْرِ هُوَ الْمُسَبَّبُ الْآخِرُ. وَهُوَ آخِرُهَا فِي الْعَمَلِ. وَأَوَّلُهَا فِي الْعَمَلِ هُوَ الْمُسَبَّبُ الْأَوَّلُ وَهُوَ آخِرُهَا فِي الْفِكْرِ. وَلِأَجْلِ الْعُثُورِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ يَحْصُلُ الْإِنْتِظَامُ فِي الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ.

وَأَمَّا الْأَفْعَالُ الْحَيَوَانِيَّةُ لِغَيْرِ الْبَشَرِ فَلَيْسَ فِيهَا انْتِظَامٌ لِعَدَمِ الْفِكْرِ الَّذِي يَغْتَرُ بِهِ الْفَاعِلُ عَلَى التَّرْتِيبِ فِيمَا يَفْعَلُ. إِذْ الْحَيَوَانَاتُ إِنَّمَا تَذَرُكُ بِالْحَوَاسِّ وَمُدْرَكَاتِهَا مُتَفَرِّقَةً خَلِئَةً مِنَ الرُّبُطِ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْفِكْرِ. وَلَمَّا كَانَتِ الْحَوَاسُّ الْمُعْتَبَرَةُ فِي عَالَمِ الْكَائِنَاتِ هِيَ الْمُنتَظِمَةُ، وَغَيْرُ الْمُنتَظِمَةِ إِنَّمَا هِيَ تَبَعٌ لَهَا. أَنْدَرَجَتْ حِينَئِذٍ أَفْعَالُ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا، فَكَانَتِ مُسَخَّرَةً لِلْبَشَرِ. وَاسْتَوْلَتْ أَفْعَالُ الْبَشَرِ عَلَى عَالَمِ الْحَوَادِثِ، بِمَا فِيهِ، فَكَانَ كُلُّهُ فِي طَاعَتِهِ وَتَسْخَرُهُ. وَهَذَا مَعْنَى الْإِسْتِخْلَافِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»^(١) فَهَذَا الْفِكْرُ هُوَ الْخَاصَّةُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي تُمَيِّزُ بِهَا الْبَشَرَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ. وَعَلَى قَدَرِ حُصُولِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ فِي الْفِكْرِ مُرْتَبَةً تَكُونُ إِنْسَانِيَّتُهُ. فَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَتَوَالَى لَهُ السَّبَبِيَّةُ فِي مَرْتَبَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَجَاوَزُهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَهِي إِلَى خَمْسٍ أَوْ سِتٍّ فَتَكُونُ إِنْسَانِيَّتُهُ أَعْلَى. وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِلَاعِبِ الشُّطْرَنْجِ، فَإِنْ فِي اللَّاعِبِينَ مَنْ يَتَصَوَّرُ الثَّلَاثَ حَرَكَاتٍ وَالْخَمْسَ الَّذِي تَرْتِيبُهَا وَضَعِيُّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْصُرُ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِ ذَهْنِهِ. وَإِنْ كَانَ هَذَا الْمِثَالُ غَيْرَ مُطَابِقٍ، لِأَنَّ لَعِبَ الشُّطْرَنْجِ بِالْمَلَكَةِ، وَمَعْرِفَةُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ بِالطَّبِيعِ، لَكِنَّهُ مِثَالٌ يَخْتَدِي بِهِ النَّاطِرُ فِي تَعَقُّلِ مَا يُورَدُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوَاعِدِ. وَاللَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَفَضَّلَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا.

(١) من آية (٣٠) من سورة البقرة.

الفصل الثاني عشر

في العقل التجريبي وكيفية حدوثه^(١)

إِنَّكَ تَسْمَعُ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ قَوْلَهُمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ مَدْنِيٌّ الطَّبِيعَ ، يَذْكُرُونَهُ فِي إِثْبَاتِ النُّبُوتِ وَغَيْرِهَا . وَالنِّسْبَةُ فِيهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَهِيَ عِنْدَهُمْ كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ . وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ ، أَنَّهُ لَا تُمْكُنُ حَيَاةُ الْمُنْفَرِدِ مِنَ الْبَشَرِ ، وَلَا يَتِمُّ وُجُودُهُ إِلَّا مَعَ أَتْبَاعٍ جَنْسِهِ . وَذَلِكَ لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ اسْتِكْمَالِ وُجُودِهِ وَحَيَاتِهِ ، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَعَاوَنَةِ فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهِ أَبَدًا بِطَبِيعِهِ . وَتِلْكَ الْمَعَاوَنَةُ لَا بُدَّ فِيهَا مِنَ الْمَفَاوِضَةِ أَوَّلًا ، ثُمَّ الْمُشَارَكَةِ وَمَا بَعْدَهَا . وَرَبُّمَا تُقْضَى الْمُعَامَلَةُ عِنْدَ اتِّخَادِ الْأَعْرَاضِ إِلَى الْمُنَازَعَةِ وَالْمُشَاجَرَةِ فَتَنْشَأُ الْمُنَافَرَةُ وَالْمُؤَالَفَةُ ، وَالصَّدَاقَةُ وَالْعَدَاوَةُ . وَيُؤَوَّلُ إِلَى الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى أَيْ وَجْهِ اتَّفَقَ ، كَمَا بَيْنَ الْهَمَلِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، بَلْ لِلْبَشَرِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مِنْ انْتِظَامِ الْأَفْعَالِ وَتَرْتِيبِهَا بِالْفِكْرِ ، كَمَا تَقْدَمُ . جَعَلَ مُنْتَظِمًا فِيهِمْ ، وَيَسِّرَهُمْ لِإِقْبَاعِهِ عَلَى وُجُوهٍ سِيَاسِيَّةٍ وَقَوَانِينٍ حَكَمِيَّةٍ . يُنْكَبُونَ فِيهَا عَنِ الْمَفَاسِدِ إِلَى الْمَصَالِحِ ، وَعَنِ الْحَسَنِ إِلَى الْقَبِيحِ . بَعْدَ أَنْ يُمَيِّزُوا الْقَبَائِحَ وَالْمُفْسَدَةَ ، بِمَا يَنْشَأُ عَنِ الْفِعْلِ مِنْ ذَلِكَ عَنِ تَجْرِبَةٍ صَحِيحَةٍ ، وَعَوَائِدَ مَعْرُوفَةٍ بَيْنَهُمْ ، فَيُفَارِقُونَ الْهَمَلَ مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَتُظْهَرُ عَلَيْهِمْ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ فِي انْتِظَامِ الْأَفْعَالِ وَبُعْدَهَا عَنِ الْمَفَاسِدِ .

هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا ذَلِكَ لَا تَبْعُدُ عَنِ الْحِسِّ كُلِّ الْبُعْدِ وَلَا يَتَعَمَّقُ فِيهَا النَّظَرُ ، بَلْ كُلُّهَا تُدْرِكُ بِالتَّجْرِبَةِ وَبِهَا يُسْتَفَادُ ، لِأَنَّهَا مَعَانٍ جَزْئِيَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْمَحْسُوسَاتِ وَصِدْقِهَا وَكَذِبِهَا . يَظْهَرُ قَرِيبًا فِي الْوَاقِعِ ، فَيُسْتَفِيدُ طَالِبُهَا حُصُولَ الْعِلْمِ بِهَا مِنْ ذَلِكَ . وَيُسْتَفِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَشَرِ الْقَدْرَ الَّذِي يَسَّرَ لَهُ مِنْهَا مُقْتَنَصًا لَهُ بِالتَّجْرِبَةِ بَيْنَ الْوَاقِعِ فِي مُعَامَلَةِ أَتْبَاعِ جَنْسِهِ ، حَتَّى يَتَّعِينَ لَهُ مَا يَجِبُ

(١) نقل هذا الفصل أيضا عن الطبعة الباريسية .

وَيَنْبَغِي ، فِعْلاً وَتَرْكاً . وَتَحْصُلُ فِي مَلَابَسَةِ الْمَلَكَةِ فِي مُعَامَلَةِ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ . وَمَنْ تَتَّبِعَ ذَلِكَ سَائِرَ عُمْرِهِ حَصَلَ لَهُ الْعُثُورُ عَلَى كُلِّ قَضِيَّةٍ . وَلَا بُدَّ بِمَا تَسَعُهُ التَّجَرُّبَةُ مِنَ الزَّمَنِ . وَقَدْ يُسَهِّلُ اللَّهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْبَشَرِ تَحْصِيلَ ذَلِكَ فِي أَقْرَبِ زَمَنِ التَّجَرُّبَةِ . إِذْ قُلْدَ فِيهَا الْآبَاءُ وَالْمَشِيخَةُ وَالْأَكَابِرُ . وَلَقَنَّ عَنْهُمْ وَوَعَى تَعْلِيمَهُمْ ؛ فَيَسْتَنْفِي عَنْ طُولِ الْمَعَانَاتِ فِي تَتْبِيعِ الْوَقَائِعِ وَاقْتِنَاصِ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ بَيْنِهَا . وَمَنْ فَقَدَ الْعِلْمَ فِي ذَلِكَ وَالتَّقْلِيدَ فِيهِ أَوْ أَعْرَضَ عَنْ حُسْنِ اسْتِمَاعِهِ وَاتِّبَاعِهِ ، طَالَ عَنَاؤُهُ فِي التَّأْدِيبِ بِذَلِكَ ؛ فَيَجْرِي فِي غَيْرِ مَالُوفٍ وَيُذْرِكُهَا عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ ؛ فَتُوجَدُ آدَابُهُ وَمُعَامَلَاتُهُ سَيِّئَةً الْأَوْضَاعِ بَادِيَةِ الْخَلَلِ . وَيَفْسُدُ حَالُهُ فِي مَعَاشِهِ بَيْنَ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ . وَهَذَا مَعْنَى الْقَوْلِ الْمَشْهُورِ ؛ « مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ وَالِدُهُ أَدَّبَهُ الزَّمَانُ » . أَيُّ مَنْ لَمْ يُلَقِّنِ الْآدَابَ فِي مُعَامَلَةِ الْبَشَرِ مِنَ الْوَالِدِيَّةِ - وَفِي مَعْنَاهُمَا الْمَشِيخَةُ وَالْأَكَابِرُ - . وَيَتَعَلَّمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ . رَجَعَ إِلَى تَعْلِيمِهِ بِالطَّبِيعِ مِنَ الْوَاقِعَاتِ عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ ؛ فَيَكُونُ الزَّمَانُ مُعَلِّمَهُ وَمُؤَدِّبَهُ لِضُرُورَةِ ذَلِكَ بِضُرُورَةِ الْمُعَاوَنَةِ الَّتِي فِي طَبِيعِهِ .

وَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ التَّجْرِبِيُّ ، وَهُوَ يَخْصُلُ بَعْدَ الْعَقْلِ التَّمْيِيزِيِّ الَّذِي تَقَعُ بِهِ الْأَفْعَالُ كَمَا بَيَّنَّاهُ . وَبَعْدَ هَذَيْنِ مَرْتَبَةِ الْعَقْلِ النَّظَرِيِّ الَّذِي تَكْفُلُ بِتَفْسِيرِهِ أَهْلُ الْعُلُومِ ؛ فَلَا يُحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرِهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ .

الفصل الثالث عشر

في علوم البشر وعلوم الملائكة

إِنَّا نَشْهَدُ فِي أَنْفُسِنَا بِالْوُجُودَانِ الصَّحِيحِ وَجُودَ ثَلَاثَةِ عَوَالِمَ ؛ أَوَّلُهَا ؛ عَالَمُ الْحِسِّ ، وَنَعْتَبِرُهُ بِمَذَارِكِ الْحِسِّ الَّذِي شَارَكْنَا فِيهِ الْحَيَوَانَاتُ بِالْإِذْرَاكِ . ثُمَّ نَعْتَبِرُ الْفِكْرَ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ الْبَشَرُ فَنَعْلَمُ مِنْهُ وَجُودَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ عِلْماً ضَرْوَرِيّاً بِمَا بَيْنَ جَنْبَيْنَا مِنْ مَذَارِكِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي هِيَ فَوْقَ مَذَارِكِ الْحِسِّ ؛ فَتَرَاهُ عَالِماً آخَرَ فَوْقَ

عَالَمِ الْحِسِّ . ثُمَّ نَسْتَدِلُّ عَلَى عَالَمِ ثَالِثٍ فَوْقَنَا بِمَا نَجِدُ فِيْنَا مِنْ آثَارِهِ الَّتِي تُتْلَقَى فِي أَفْعِدَتِنَا كَالْإِرَادَاتِ وَالْوَجْهَاتِ ، نَحْوَ الْحَرَكَاتِ الْفِعْلِيَّةِ ، فَتَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ فَاعِلًا يَبْعَثُنَا عَلَيْهَا مِنْ عَالَمٍ فَوْقَ عَالَمِنَا وَهُوَ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ وَالْمَلَائِكَةِ . وَفِيهِ ذَوَاتٌ مُدْرَكَةٌ لَوْجُودِ آثَارِهَا فِيْنَا مَعَ مَا بَيْنُنَا وَبَيْنَهَا مِنَ الْمُغَايِرَةِ . وَرُبَّمَا يَسْتَدِلُّ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ وَذَوَاتِهِ بِالرُّؤْيَا وَمَا نَجِدُ فِي النَّوْمِ ، وَيُلْقَى إِلَيْنَا فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا فِي الْيَقَظَةِ ، وَتُطَابِقُ الْوَاقِعَ فِي الصَّحِيحَةِ مِنْهَا ، فَتَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ وَمِنْ عَالَمِ الْحَقِّ . وَأَمَّا أَصْغَاتُ الْأَخْلَامِ فَصُورٌ خَيَالِيَّةٌ يَخْزِنُهَا الْإِذْرَاكُ فِي الْبَاطِنِ وَيَجُولُ فِيهَا الْفِكْرُ بَعْدَ الْعَيْنِيَّةِ عَنِ الْحِسِّ . وَلَا نَجِدُ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ الرُّوحَانِيِّ بُرْهَانًا أَوْضَحُ مِنْ هَذَا ، فَتَعْلَمُهُ كَذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ وَلَا نَذْرُكَ لَهُ تَفْصِيلًا .

وَمَا يَزْعُمُهُ الْحُكَمَاءُ الْإِلَهِيُّونَ فِي تَفْصِيلِ ذَوَاتِهِ وَتَرْتِيبِهَا ، الْمُسَمَّاةِ عِنْدَهُمْ بِالْعُقُولِ ، فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بَيِّقِيْنِي لِاخْتِلَالِ شَرْطِ الْبُرْهَانِ النَّظَرِيِّ فِيهِ ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كَلَامِهِمْ فِي الْمَنْطِقِ . لِأَنَّ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ تَكُونَ قَضَايَاهُ أَوَّلِيَّةً ذَاتِيَّةً . وَهَذِهِ الذَوَاتُ الرُّوحَانِيَّةُ مَجْهُولَةُ الذَّائِيَّاتِ ، فَلَا سَبِيلَ لِلْبُرْهَانِ فِيهَا . وَلَا يَبْقَى لَنَا مُدْرَكٌ فِي تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْعَوَالِمِ إِلَّا مَا نَقْتَسِبُهُ مِنَ الشَّرْعِيَّاتِ الَّتِي يُوضِّحُهَا الْإِيمَانُ وَيُحْكِمُهَا . وَأَعْقَدُ هَذِهِ الْعَوَالِمِ فِي مُدْرَكِنَا عَالَمُ الْبَشَرِ ، لِأَنَّهُ وَجَدَانِيٌّ مُشْهُودٌ فِي مَدَارِكِنَا الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ . وَيَشْتَرِكُ فِي عَالَمِ الْحِسِّ مَعَ الْحَيَوَانَاتِ وَفِي عَالَمِ الْعَقْلِ وَالْأَرْوَاحِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ ذَوَاتُهُمْ مِنْ جِنْسِ ذَوَاتِهِ ، وَهِيَ ذَوَاتٌ مُجَرَّدَةٌ عَنِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالْمَادَّةِ ، وَعَقْلٌ صَرَفٌ يَتَّحِدُ فِيهِ الْعَقْلُ وَالْعَاقِلُ وَالْمَعْقُولُ ، وَكَأَنَّهُ ذَاتٌ حَقِيقَتُهَا الْإِذْرَاكُ وَالْعَقْلُ ، فَعُلُومُهُمْ حَاصِلَةٌ دَائِمًا مُطَابَقَةٌ بِالطَّبْعِ لِمَعْلُومَاتِهِمْ لَا يَقَعُ فِيهَا خَلَلٌ لَلْبَتَّةِ .

وَعِلْمُ الْبَشَرِ هُوَ حُصُولُ صُورَةِ الْمَعْلُومِ فِي ذَوَاتِهِمْ بَعْدَ أَنْ لَا تَكُونَ حَاصِلَةً . فَهُوَ كُلُّهُ مُكْتَسَبٌ ، وَالذَّاتُ الَّتِي يَحْصُلُ فِيهَا صُورُ الْمَعْلُومَاتِ وَهِيَ النَّفْسُ مَادَّةٌ هَيُولَانِيَّةٌ تَلْبَسُ صُورَ الْوُجُودِ بِصُورِ الْمَعْلُومَاتِ الْخَاصِلَةِ فِيهَا شَيْئًا شَيْئًا ، حَتَّى

تُسْتَكْمَلُ ، وَيَصِحُّ وُجُودُهَا بِالْمَوْتِ فِي مَادَّتِهَا وَصُورَتِهَا . فَالْمَطْلُوبَاتُ فِيهَا مُتَرَدِّدَةٌ
بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإثْبَاتِ دَائِمًا ، يَطْلُبُ أَحَدُهُمَا بِالْوَسْطِ الرَّابِطِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ . فَإِذَا
خَصَلَ وَصَارَ مَعْلُومًا افْتَقَرَ إِلَى تَيَانِ الْمَطَابَقَةِ ، وَرُبَّمَا أَوْضَحَهَا الْبُرْهَانُ الصَّنَاعِيُّ ،
لَكِنَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ . وَلَيْسَ كَالْمُعَايِنَةِ الَّتِي فِي عُلُومِ الْمَلَائِكَةِ . وَقَدْ يَنْكَشِفُ
ذَلِكَ الْحِجَابُ فَيَصِيرُ إِلَى الْمَطَابَقَةِ بِالْعَيَانِ الْإِذْرَاكِيِّ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْبَشَرَ جَاهِلٌ
بِالطَّيْعِ لِلتَّرَدُّدِ فِي عِلْمِهِ ، وَعَالِمٌ بِالْكَسْبِ وَالصَّنَاعَةِ لِتَخْصِيلِهِ الْمَطْلُوبَ بِفِكْرَةِ
الشُّرُوطِ الصَّنَاعِيَّةِ . وَكُشِفَ الْحِجَابُ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِالرِّيَاضَةِ بِالِإِذْكَارِ
الَّتِي أَفْضَلُهَا صَلَاةٌ تَنْتَهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَبِالتَّنَزُّهِ عَنِ الْمُتَنَاوَلَاتِ الْمُهْمَةِ
وَرَأْسُهَا الصَّوْمُ ، وَبِالْوُجْهِةِ إِلَى اللَّهِ بِجَمِيعِ قَوَاهُ . وَاللَّهُ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

الفصل الرابع عشر

في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إِنَّا نَجِدُ هَذَا الصِّنْفَ مِنَ الْبَشَرِ تَعْتَرِيهِمْ حَالَةٌ إِلَهِيَّةٌ خَارِجَةٌ عَنْ مَنَازِعِ الْبَشَرِ
وَأَحْوَالِهِمْ فَتَغْلِبُ الْوُجْهَةُ الرِّبَانِيَّةُ فِيهِمْ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ فِي الْقَوَى الْإِذْرَاكِيَّةِ وَالنُّزُوعِيَّةِ
مِنَ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الْبَدَنِيَّةِ ، فَتَجِدُهُمْ مُتَنَزِّهِينَ عَنِ الْأَحْوَالِ
الرِّبَانِيَّةِ ، مِنْ الْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ لِلَّهِ بِمَا يَقْتَضِي مَعْرِفَتُهُمْ بِهِ ، مُخْبِرِينَ عَنْهُ بِمَا
يُوحَى إِلَيْهِمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ ، مِنْ هِدَايَةِ الْأُمَّةِ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَسُنَنِ مَعْهُودٍ مِنْهُمْ
لَا يَتَبَدَّلُ فِيهِمْ كَأَنَّهُ جِبِلَّةٌ فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا الْكَلَامُ فِي الْوُحْيِ أَوَّلُ
الْكِتَابِ فِي فَضْلِ الْمُدْرِكِينَ لِلْغَيْبِ . وَبَيَّنَّا هُنَاكَ أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ فِي عَوَالِمِهِ
الْبَسِيطَةِ وَالْمُرَكَّبَةِ عَلَى تَرْكِيبٍ طَبِيعِيِّ مِنْ أَغْلَاهَا وَأَسْفَلِهَا مُتَّصِلَةٌ كُلُّهَا اتِّصَالًا
لَا يَنْخَرِمُ . وَأَنَّ الذَّوَاتِ الَّتِي فِي آخِرِ كُلِّ أَقْفٍ مِنَ الْعَوَالِمِ مُسْتَعِدَّةٌ لَأَن تَنْقَلِبَ إِلَى
الذَّاتِ الَّتِي تَجَاوَزُهَا مِنَ الْأَسْفَلِ وَالْأَعْلَى ، اسْتِعْدَادًا طَبِيعِيًّا ، كَمَا فِي الْفَنَاصِرِ

الْجِسْمَانِيَّةِ الْبَسِيطَةِ ، وَكَمَا فِي النَّخْلِ وَالْكَرْمِ مِنْ آخِرِ أَفْقِ النَّبَاتِ مَعَ الْحَزُونِ
وَالصَّدْفِ مِنْ أَفْقِ الْحَيَوَانِ وَكَمَا فِي الْقِرْدَةِ الَّتِي اسْتَجْمَعَ فِيهَا الْكَيْسُ وَالْإِذْرَاكُ مَعَ
الْإِنْسَانِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالرَّوْيَةِ . وَهَذَا الْإِسْتِعْدَادُ الَّذِي فِي جَانِبَيْ كُلِّ أَفْقٍ مِنَ
الْعَوَالِمِ هُوَ مَعْنَى الْإِتِّصَالِ فِيهَا .

وَفَوْقَ الْعَالَمِ الْبَشَرِيِّ عَالَمُ رُوحَانِيٍّ ، شَهِدَتْ لَنَا بِهِ الْأَثَارُ الَّتِي فِيْنَا مِنْهُ ، بِمَا
يُعْطِينَا مِنْ قُوَى الْإِذْرَاكِ وَالْإِرَادَةِ فَذَوَاتُ الْعِلْمِ الْعَالَمِ إِذْرَاكٌ صِرْفٌ وَتَعَقُّلٌ مَخْصُ ،
وَهُوَ عَالَمُ الْمَلَائِكَةِ ؛ فَوَجِبَ مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ اسْتِعْدَادٌ
لِلْإِنْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ، لِتَصِيرَ بِالْفِعْلِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَقْتاً مِنَ
الْأَوْقَاتِ ، وَفِي لَمْحَةٍ مِنَ اللَّمَحَاتِ . ثُمَّ تَرَاجَعُ بَشَرِيَّتَهَا وَقَدْ تَلَقَّتْ فِي عَالَمِ الْمَلَائِكَةِ
مَا كَلَّفَتْ بِتَبْلِيغِهِ إِلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهَا مِنَ الْبَشَرِ . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْوَحْيِ وَخُطَابِ
الْمَلَائِكَةِ . وَالْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ مَفْطُورُونَ عَلَيْهِ ، كَأَنَّهُ جِبِلَّةٌ لَهُمْ وَيَعَالِجُونَ فِي ذَلِكَ
الْإِنْسِلَاخَ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْغَطِيطِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُمْ . وَعُلُومُهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ عِلْمُ
شَهَادَةِ وَعَيَانٍ ، لَا يُلْحَقُهُ الْخَطَأُ وَالزَّلَلُ ، وَلَا يَقَعُ فِيهِ الْغَلْطُ وَالْوَهْمُ ، بَلِ الْمُطَابَقَةُ
فِيهِ ذَاتِيَّةٌ لِرُزْوَالِ حِجَابِ الْغَيْبِ وَخُصُولِ الشَّهَادَةِ الْوَاضِحَةِ ، عِنْدَ مُفَارَقَةِ هَذِهِ الْحَالَةِ
إِلَى الْبَشَرِيَّةِ ، لَا يَفَارِقُ عِلْمُهُمُ الْوُضُوحَ ، اسْتِصْحَاباً لَهُ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ الْأُولَى ، وَلَمَّا
هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الذِّكَاءِ الْمُقْضَى بِهِمْ إِلَيْهَا ، يَتَرَدَّدُ ذَلِكَ فِيهِمْ دَائِماً إِلَى أَنْ تَكْمَلَ هَذَانِ
الْأَمَّةِ الَّتِي يُعْثُوا لَهَا ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ، « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ » . فَافْتَهَمَ ذَلِكَ وَرَاجِعٌ مَا قَدَّمَناهُ لَكَ
أَوَّلَ الْكِتَابِ ، فِي أَصْنَافِ الْمُذْرِكِينَ لِلْغَيْبِ ، يَتَّضِحُ لَكَ شَرْحُهُ وَبَيَانُهُ ، فَقَدْ
بَسَطْنَاهُ هُنَاكَ بَسْطاً شَافِئاً . وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ .

الفصل الخامس عشر

في أن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب

قَدْ بَيَّنَّا أَوَّلَ هَذِهِ الْفُصُولِ أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ جِنْسِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَيَّزَهُ عَنْهَا بِالْفِكْرِ الَّذِي جَعَلَ لَهُ ، يُوقَعُ بِهِ أَفْعَالُهُ عَلَى انْتِظَامٍ وَهُوَ الْعَقْلُ التَّمْيِيزِيُّ أَوْ يَقْتَنِصُ بِهِ الْعِلْمَ بِالْأَرَءَاءِ وَالْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ التَّجْرِبِيُّ ، أَوْ يَحْصُلُ بِهِ فِي تَصَوُّرِ الْمَوْجُودَاتِ غَائِباً وَشَاهِداً ، عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ النَّظَرِيُّ . وَهَذَا الْفِكْرُ إِنَّمَا يَحْصُلُ لَهُ بَعْدَ كَمَالِ الْحَيَوَانِيَّةِ فِيهِ ، وَيَبْدَأُ مِنَ التَّمْيِيزِ ، فَهُوَ قَبْلَ التَّمْيِيزِ خُلُوٌّ مِنَ الْعِلْمِ بِالْجُمْلَةِ ، مَعْدُودٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، لِأَجْلِ بَمَبْدِئِهِ فِي التَّكْوِينِ ، مِنَ النُّطْفَةِ وَالْعَلَقَةِ وَالْمُضْغَةِ . وَمَا حَصَلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ مَذَارِكِ الْحِسِّ وَالْأَفْيِدَةِ الَّتِي هِيَ الْفِكْرُ . قَالَ تَعَالَى فِي الْإِمْتِنَانِ عَلَيْنَا : « وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْيِدَةَ » فَهُوَ فِي الْحَالَةِ الْأُولَى قَبْلَ التَّمْيِيزِ هَيُولاً فَقَطْ ، لِجَهْلِهِ بِجَمِيعِ الْمَعَارِفِ . ثُمَّ تَسْتَكْمِلُ صُورَتَهُ بِالْعِلْمِ الَّذِي يَكْتَسِبُهُ بِآلَاتِهِ ، فَكَمَلُ ذَاتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي وُجُودِهَا . وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى مَبْدَأُ الْوَحْيِ عَلَى نَبِيِّهِ « إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » أَيْ أَكْسَبَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَكُنْ حَاصِلاً لَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَقَةً وَمُضْغَةً فَقَدْ كَشَفَتْ لَنَا طَبِيعَتَهُ وَذَاتَهُ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ الذَّاتِيِّ وَالْعِلْمِ الْكُسْبِيِّ وَأَشَارَتْ إِلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَقَرُّرُ فِيهِ الْإِمْتِنَانُ عَلَيْهِ بِأَوَّلِ مَرَاتِبِ وُجُودِهِ ، وَهِيَ الْإِنْسَانِيَّةُ . وَحَالَتَاهُ الْفِطْرِيَّةُ وَالْكَسْبِيَّةُ فِي أَوَّلِ التَّنْزِيلِ وَمَبْدَأُ الْوَحْيِ . وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً .

الفصل السادس عشر

في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة

وما حدث لأجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقادات

إِغْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ إِلَيْنَا نَبِيًّا مُحَمَّدًا ﷺ يَدْعُونَا إِلَى النِّجَاةِ وَالْفَوْزِ
بِالنَّعِيمِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ الْكَرِيمَ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ ، يُخَاطِبُنَا فِيهِ
بِالتَّكْلِيفِ الْمُفْضِيَةِ بِنَا إِلَى ذَلِكَ . وَكَانَ فِي خِلَالِ هَذَا الْخُطَابِ ، وَمِنْ ضَرُورَاتِهِ ،
ذِكْرُ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَأَسْمَائِهِ ، لِيُعَرِّفَنَا بِذَاتِهِ ، وَذِكْرُ الرُّوحِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِنَا ، وَذِكْرُ
الْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ ، الْوَسَائِطِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُسُلِهِ إِلَيْنَا . وَذَكَرْنَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَإِنْذَارَاتِهِ
وَلَمْ يُعَيِّنْ لَنَا الْوَقْتَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ . وَثَبَّتَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حُرُوفًا مِنَ الْهَجَاءِ
مُقَطَّعَةً فِي أَوَائِلِ بَعْضِ سُورِهِ ، لَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى فَهْمِ الْمُرَادِ بِهَا . وَسَمَى هَذِهِ الْأَنْوَاعَ
كُلَّهَا مِنَ الْكِتَابِ مُتَشَابِهًا . وَذَمَّ عَلَى اتِّبَاعِهَا فَقَالَ تَعَالَى : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ
الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا
اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
الْأَلْبَابِ ^(١) » وَحَمَلَ الْعُلَمَاءُ مِنْ سَلَفِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ
الْمُحْكَمَاتِ هِيَ الْمُبَيِّنَاتُ الثَّابِتَةُ الْأَحْكَامِ . وَلِذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ :
الْمُحْكَمُ الْمُتَضَحُّ الْمَعْنَى . وَأَمَّا الْمُتَشَابِهَاتُ فَلَهُمْ فِيهَا عِبَارَاتٌ . فَقِيلَ هِيَ الَّتِي
تَفْتَقِرُ إِلَى نَظَرٍ وَتَفْسِيرٍ يُصَحِّحُ مَعْنَاهَا ، لِتَعَارُضِهَا مَعَ آيَةٍ أُخْرَى أَوْ مَعَ الْعَقْلِ ،
فَتَخْفَى دَلَالَتُهَا وَتَشْتَبِهَ . وَعَلَى هَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « الْمُتَشَابِهَةُ يُؤْمَنُ بِهِ وَلَا يَعْمَلُ
بِهِ » وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ : « كُلَّمَا سَوَى آيَاتِ الْأَحْكَامِ وَالْقَصَصِ مُتَشَابِهَةً »

(١) الآية من سورة آل عمران .

وَعَلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ وَإِمَامُ الْحَرَمَيْنِ . وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ : « الْمُتَشَابِهُ ، مَا لَمْ يَكُنْ سَبِيلَ إِلَى عِلْمِهِ ، كَشُرُوطِ السَّاعَةِ وَأَوْقَاتِ الْإِنْذَارَاتِ وَحُرُوفِ الْهَجَاءِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ ، وَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ « هَذِهِ أُمُّ الْكِتَابِ » أَيْ مَعْظَمُهُ وَغَالِبُهُ وَالْمُتَشَابِهُ أَقْلُهُ ، وَقَدْ يَرُدُّ إِلَى الْمُحْكَمِ . ثُمَّ ذَمُّ الْمُتَّبِعِينَ لِلْمُتَشَابِهِ بِالتَّأْوِيلِ أَوْ بِحَمْلِهَا عَلَى مَعَانٍ لَا تَفْهَمُ مِنْهَا فِي لِسَانِ الْعَرَبِ الَّذِي خُوِطِبْنَا بِهِ . وَسَمَّاهُمْ أَهْلَ زَيْغٍ ، أَيْ مِثْلَ عَنِ الْحَقِّ مِنَ الْكُفَّارِ وَالزَّانِقَةِ وَجَهْلَةِ أَهْلِ الْبِدْعِ . وَأَنَّ فَعْلَهُمْ ذَلِكَ قَضَدُ الْفِتْنَةِ الَّتِي هِيَ الشُّرْكُ أَوْ اللَّبْسُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَوْ قَضَدًا لِتَأْوِيلِهَا بِمَا يَشْتَهَوْنَهُ فَيَقْتَدُونَ بِهِ فِي بَدْعَتِهِمْ .

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ اسْتَأْثَرَ بِتَأْوِيلِهَا وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ فَقَالَ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . ثُمَّ أَثْنَى عَلَى الْعُلَمَاءِ بِالْإِيمَانِ بِهَا فَقَطَّ . فَقَالَ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ . وَلِهَذَا جُعِلَ السَّلَفُ وَالرَّاسِخُونَ مُسْتَأْنَفًا ، وَرَجَحُوهُ عَلَى الْعُطْفِ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْغَيْبِ أَبْلَغُ فِي الشَّئِ وَمَعَ عُطْفِهِ إِنَّمَا يَكُونُ إِيمَانًا بِالشَّاهِدِ ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ حِينَئِذٍ فَلَا يَكُونُ غَيْبًا . وَيَعْضُدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : « كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا » وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّأْوِيلَ فِيهَا غَيْرُ مَعْلُومٍ لِلْبَشَرِ . إِنَّ الْأَلْفَاظَ اللَّغَوِيَّةَ إِنَّمَا يَفْهَمُ . مِنْهَا الْمَعَانِي الَّتِي وَضَعَهَا الْعَرَبُ لَهَا ، فَإِذَا اسْتَحَالَ إِسْنَادُ الْخَبَرِ إِلَى مُخْبِرٍ غَنَى جَهْلُنَا مَذَلُولِ الْكَلَامِ حِينَئِذٍ ، وَإِنْ جَاءَنَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَوْضًا عِلْمُهُ إِلَيْهِ وَلَا نَشْغَلُ أَنْفُسَنَا بِمَذَلُولِ نَلْتَمِسُهُ ، فَلَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى ذَلِكَ . وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، « إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي الْقُرْآنِ ، فَهُمْ الَّذِينَ عَنِ اللَّهِ » ، فَاحْذَرُوهُمْ . هَذَا مَذْهَبُ السَّلَفِ فِي الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ . وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ الْأَفَاطُ مِثْلُ ذَلِكَ مُحْمَلًا عَنْدهُمْ مُحْمَلِ الْآيَاتِ لِأَنَّ الْمَنْعَ وَاحِدٌ .

وَإِذَا تَقَرَّرَتْ أَصْنَافُ الْمُتَشَابِهَاتِ عَلَى مَا قُلْنَا ، فَلَنَرْجِعَ إِلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهَا . فَأَمَّا مَا يَرْجِعُ مِنْهَا عَلَى مَا ذَكَرُوهُ إِلَى السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا وَأَوْقَاتِ الْإِنْذَارَاتِ وَعَدَدِ الزَّبَانِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ ، فَلَيْسَ هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرُدِّ فِيهِ

لَفْظٌ مُجْمَلٌ وَلَا غَيْرُهُ وَإِنَّمَا هِيَ أَزِمَةٌ لِحَادِثَاتٍ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهَا بِنَصِّهِ ^(١) فِي
كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ . وَقَالَ : « إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ » . وَالْعَجَبُ مِمَّنْ عُدَّهَا مِنَ
الْمُتَشَابِهِ . وَأَمَّا الْحُرُوفُ الْمَقْطُوعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّورِ فَحَقِيقَتُهَا حُرُوفُ الْهَجَاءِ وَلَيْسَ
بِیَعِيدُ أَنْ تَكُونَ مُرَادَّةً . وَقَدْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى بُعْدِ الْغَايَةِ فِي
الْإِعْجَازِ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ مُؤَلَّفٌ مِنْهَا ، وَالْبَشْرُ فِيهَا سَوَاءٌ ، وَالتَّفَاوُتُ مُوجُودٌ فِي
دَلَالَتِهَا بَعْدَ التَّأْلِيفِ . وَإِنْ عُدَلَ عَنْ هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الدَّلَالَهَ عَلَى الْحَقِيقَةِ
فَإِنَّمَا يَكُونُ يَنْقُلُ صَحِيحٌ ، كَقَوْلِهِمْ فِي طِه ، إِنَّهُ نِدَاءٌ مِنْ طَاهِرٍ وَهَادِي وَأَمْثَالُ
ذَلِكَ . وَالنَّقْلُ الصَّحِيحُ مُتَعَدِّرٌ ، فَيُجِىءُ الْمُتَشَابِهَ فِيهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ . وَأَمَّا الْوَحْيُ
وَالْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ وَالْجِنُّ ، فَاشْتِبَاهُهَا مِنْ حَاءِ دَلَالَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ لِأَنَّهَا غَيْرُ مُتَعَارِفَةٍ ،
فَجَاءَ التَّشَابُهَ فِيهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . وَقَدْ أَلْحَقَ بَعْضُ النَّاسِ بِهَا كُلَّ مَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ
أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالْدُّجَالِ وَالْفِتَنِ وَالشُّرُوطِ ، وَمَا هُوَ بِخِلَافِ الْعَوَائِدِ
الْمَالُوفَةِ ، وَهُوَ غَيْرُ یَعِيدُ ، إِلَّا أَنَّ الْجُمْهُورَ لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَيْهِ . وَسَيِّمُوا الْمُتَكَلِّمُونَ
فَقَدْ عَيْنُوا مُحَامِلَهَا عَلَى مَا تَرَاهُ فِي كُتُبِهِمْ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ إِلَّا الصِّفَاتُ الَّتِي
وَصَفَّ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ، مِمَّا يُوْهِمُ ظَاهِرُهُ نَقْصًا أَوْ تَعْجِيزًا .
وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الظُّوَاهِرِ مِنْ بَعْدِ السَّلَفِ الَّذِينَ قَرَرْنَا مَذَاهِبَهُمْ . وَتَنَازَعُوا
وَتَطَرَّقَتِ الْبِدْعُ إِلَى الْعَقَائِدِ . فَلَنُشِرْ إِلَى بَيَانِ مَذَاهِبِهِمْ وَإِثَارِ الصَّحِيحِ مِنْهُ عَلَى
الْفَاسِدِ فَنَقُولُ ، « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ » : إَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَصَفَ نَفْسَهُ فِي
كِتَابِهِ بِأَنَّهُ عَالِمٌ ، قَادِرٌ ، مُرِيدٌ ، حَيٌّ ، سَمِيعٌ ، بَصِيرٌ ، مُتَكَلِّمٌ ، جَلِيلٌ ، كَرِيمٌ ،
جَوَادٌ ، مُنِيعٌ ، عَزِيزٌ ، عَظِيمٌ . وَكَذَا أُثْبِتَ لِنَفْسِهِ الْيَدَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالْوَجْهَ وَالْقَدَمَ
وَاللِّسَانَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ : فَمِنْهَا مَا يَقْتَضِي صِحَّةَ الْوُحْدَةِ ، مِثْلُ الْعِلْمِ
وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ ، ثُمَّ الْحَيَاةُ الَّتِي هِيَ شَرْطُ جَمِيعِهَا ، وَمِنْهَا مَا هِيَ صِفَةُ كَمَالٍ ،
كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ ، وَمِنْهَا مَا يُوْهِمُ النِّقْصَ كَالِاسْتِثْوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْمَجِيءِ .

(١) كذا . وفي نسخة . بنعته .

وَكَاوُجِهَ وَالْيَدَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ الَّتِي هِيَ صِفَاتُ الْمُحَدَّثَاتِ . ثُمَّ أَخْبَرَ الشَّارِعَ أَنَّا نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ . لَا نَضَامُ فِي رُؤْيَتِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ . فَأَمَّا السَّلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَأَثْبَتُوا لَهُ صِفَاتِ الْأُلُوهِيَّةِ وَالْكَمَالِ وَفَوَّضُوا إِلَيْهِ مَا يُوْهِمُ النِّقْصَ سَاكِتِينَ عَنْ مَذْلُولِهِ . ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِمْ . وَجَاءَ الْمُعْتَزِلَةُ فَأَثْبَتُوا هَذِهِ الصِّفَاتِ أَحْكَاماً ذَهْنِيَّةً مُجَرَّدَةً ؛ وَلَمْ يَثْبُتُوا صِفَةً تَقُومُ بِذَاتِهِ ، وَسَمُّوا ذَلِكَ تَوْحِيداً ، وَجَعَلُوا الْإِنْسَانَ خَالِقاً لِأَفْعَالِهِ ، وَلَا تَتَعَلَّقُ بِهَا قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى ، سَيِّمًا الشَّرَّورَ وَالْمَعَاصِيَ مِنْهَا ؛ إِذْ يَمْتَنِعُ عَلَى الْحَكِيمِ فِعْلُهَا . وَجَعَلُوا مَرَاغَةَ الْأَصْلَحِ لِلْعِبَادِ وَاجِبَةً عَلَيْهِ . وَسَمُّوا ذَلِكَ عَدْلًا ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَوَّلًا يَقُولُونَ بِنَفْيِ الْقَدْرِ ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ مُسْتَأْنَفٌ يَعْلَمُ حَادِثَ وَقُدْرَةَ وَإِرَادَةَ كَذَلِكَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ . وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو تَبَرَّأَ مِنْ مَعْبِدِ الْجَهَنِّيِّ وَأَصْحَابِهِ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ . وَانْتَهَى نَفْيُ الْقَدْرِ إِلَى وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ الْغَزَالِيِّ ، مِنْهُمْ ، تَلْمِيزُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ . ثُمَّ أَخْرَأَ إِلَى مُعَمَّرِ السُّلَمِيِّ ، وَرَجَعُوا عَنْ الْقَوْلِ بِهِ . وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو الْهَذِيلِ الْعَلَّافُ ، وَهُوَ شَيْخُ الْمُعْتَزِلَةِ . أَخَذَ الطَّرِيقَةَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ خَالِدِ الطَّوِيلِ عَنْ وَاصِلٍ . وَكَانَ مِنْ نَفَاتِ الْقَدْرِ ، وَاتَّبَعَ رَأْيَ الْفَلَسَافَةِ فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ الْوُجُودِيَّةِ لِظُهُورِ مَذَاهِبِهِمْ يَوْمئِذٍ .

ثُمَّ جَاءَ إِبْرَاهِيمُ النَّظَّامُ ، وَقَالَ بِالْقَدْرِ ، وَاتَّبَعُوهُ . وَطَالَعَ كُتُبَ الْفَلَسَافَةِ وَشَدَّدَ فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ وَقَرَّرَ قَوَاعِدَ الْإِعْتِزَالِ . ثُمَّ جَاءَ الْجَاحِظُ وَالْكَعْبِيُّ وَالْجُبَّائِيُّ ، وَكَانَتْ طَرِيقَتُهُمْ تُسَمَّى عِلْمَ الْكَلَامِ ؛ إِثْمًا لِمَا فِيهَا مِنَ الْحِجَاجِ وَالْجِدَالِ ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى كَلَاماً ؛ وَإِثْمًا أَنَّ أَصْلَ طَرِيقَتِهِمْ نَفْيُ صِفَةِ الْكَلَامِ . فَلِهَذَا كَانَ الشَّافِعِيُّ يَقُولُ ؛ حَقُّهُمْ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَيُطَافَ بِهِمْ . وَقَرَّرَ هَؤُلَاءِ طَرِيقَتَهُمْ وَأَثْبَتُوا مِنْهَا وَرَدُّوا ، إِلَى أَنْ ظَهَرَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ وَنَاطَرَ بَعْضَ مَشِخَّتِهِمْ فِي مَسَائِلِ الصَّلَاحِ وَالْأَصْلَحِ ؛ فَرَفَضَ طَرِيقَتَهُمْ ، وَكَانَ عَلَى رَأْيِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كِلَابٍ وَأَبِي الْعَبَّاسِ الْقَلَانِسِيِّ وَالْحَرِثِ ابْنِ أَسَدِ الْمُحَاسِنِيِّ مِنْ أَتْبَاعِ

السلف وعلى طريقة السنة . فأيد مقالاتهم بالحجج الكلامية وأثبت الصفات
لئلا يمتنع بدات الله تعالى . من العلم والقدرة والإرادة التي يتم بها دليل التمانع
وتصح المعجزات للأنبياء . وكان من مذهبهم إثبات الكلام والسمع والبصر لأنها
وإن أوهم ظاهراً النقص بالصوت والحرف الجسمانيين ، فقد وجد للكلام عند
العرب مدلول آخر غير الحروف والصوت . وهو ما يدور في الخلد . والكلام حقيقة
فيه دون الأول ، فثبتوها لله تعالى وانتفى إيهام النقص . وأثبتوا هذه الصفة قديمة
عامة تتعلق بشأن الصفات الأخرى . وصار القرآن اسماً مشتركاً بين القديم بدات
الله تعالى . وهو الكلام النفسي والمحدث الذي هو الحروف المؤلفة المقرؤة
بالأصوات . فإذا قيل قديم . فالمراد الأول ، وإذا قيل مقرؤة . مسموع . فللدلالة
القراءة والكتابية عليه . وتورع الإمام أحمد بن حنبل من إطلاق لفظ الحدوث
عليه . لأنه لم يسمع من السلف قبله . لا أنه يقول أن المصاحف المكتوبة
قديمة ، ولا أن القراءة الجارية على السنة قديمة . وهو شاهد لها محدثة . وإنما
منعه من ذلك الورع الذي كان عليه . وأما غير ذلك فإنكاراً للضروريات . وحاشاه
منه . وأما السمع والبصر . وإن كان يؤهم إدراك الجارية . فهو يدل أيضاً لغة على
إدراك المسموع والمبصر . وينتفي إيهام النقص حينئذ لأنه حقيقة لغوية فيهما .
وأما لفظ الاستواء والمجيء والنزول والوجه واليدين والعينين وأمثال ذلك ،
فعدلوا عن حقائقها اللغوية لما فيها من إيهام النقص بالتشبيه إلى مجازاتها . على
طريقة العرب . حيث تتعدى حقائق الألفاظ . فيرجعون إلى المجاز . كما في قوله
تعالى : « يريد أن ينقض » وأمثاله . طريقة معروفة لهم غير منكورة ولا مبتدعة .
وحملهم على هذا التأويل . وإن كان مخالفاً لمذهب السلف في التقييض أن جماعة
من أتباع السلف وهم المحدثون والمتأخرون من الحنابلة ارتكبوا^(١) في محمل هذه
الصفات فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى . مجهولة الكيفية . فيقولون في

(١) كذا . ومقتضى سياق العبارة . ارتكبوا .

« استوى على العرش » تثبت له استواء ، بحيث مدلول اللفظة ، فراراً من تعطيله . ولا نقول بكنيفيته فراراً من القول بالتشبيه الذي تنفيه آيات السلوب ، من قوله « ليس كمثله شيء » ، سبحانه الله عما يصفون ، تعالى الله عما يقول الظالمون ، لم يلد ولم يولد » ولا يعلمون مع ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم بإثبات استواء ، والاستواء عند أهل اللغة إنما موضوعه الاستقرار والتمكن ، وهو جسماني . وأما تعطيل الذي يشنعون بالزامه ، وهو تعطيل اللفظ ، فلا محذور فيه . وإنما المحذور في تعطيل الآلة . وكذلك يشنعون بالزام التكليف بما لا يطاق ، وهو تمويه . لأن التشابه لم يقع في التكليف . ثم يدعون أن هذا مذهب السلف ، وحاشا لله من ذلك . وإنما مذهب السلف ما قررناه أولاً من تفويض المراد بها إلى الله ، والسكوت عن فهمها . وقد يحتجون لإثبات الاستواء لله بقول مالك : « إن الاستواء معلوم الثبوت لله » وحاشاه من ذلك ، لأنه يعلم مدلول الاستواء . وإنما أراد أن الاستواء معلوم من اللغة ، وهو الجسماني ، وكنيفيته أي حقيقته . لأن حقائق الصفات كلها كنيفيات ، وهي مجهولة الثبوت لله . وكذلك يحتجون على إثبات المكان بحديث السوداء ، وأنها لما قال لها النبي ﷺ : أين الله ؟ وقالت في السماء ، فقال أعنتها فإنها مؤمنة . والنبي ﷺ لم يثبت لها الإيمان بإثباتها المكان لله ، بل لأنها آمنت بما جاء به من ظواهر ، أن الله في السماء ، فدخلت في جملة الراسخين الذين يؤمنون بالمتشابه من غير كشف عن معناه . والقطع بنفي المكان حاصل من دليل العقل النافي للإفتقار . ومن أدلة السلوب المؤذنة بالتنزيه مثل « ليس كمثله شيء » وأشباهه . ومن قوله : « وهو الله في السموات وفي الأرض » ، إذ الوجود لا يكون في مكانين ، فليست في هذا للمكان قطعاً ، والمراد غيره . ثم طردوا ذلك المحمل الذي ابتدعوه في ظواهر الوجه والعينين واليدين ، والنزول والكلام بالحرف والصوت يجعلون لها مدلولات أعظم من الجسمانية وينزهونه عن مدلول الجسماني

مِنْهَا . وَهَذَا شَيْءٌ لَا يُعْرَفُ فِي اللَّغَةِ . وَقَدْ دَرَجَ عَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ مِنْهُمْ
وَنَافَرَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْأَشْعَرِيَّةَ وَالْحَنْفِيَّةَ . وَرَفَضُوا عَقَائِدَهُمْ فِي ذَلِكَ ،
وَوَقَعَ بَيْنَ مُتَكَلِّمِي الْحَنْفِيَّةِ بِبُخَارَى وَبَيْنَ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ
مَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَأَمَّا الْمَجَسَّمَةُ فَفَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ فِي اثْبَاتِ الْجِسْمِيَّةِ ، وَأَنَّهَا
لَا كَالْأَجْسَامِ . وَلَفِظَ الْجِسْمَ لَهُ يَثْبُتُ فِي مَنْقُولِ الشَّرْعِيَّاتِ . وَإِنَّمَا جَرَّاهُمْ عَلَيْهِ
إِثْبَاتُ هَذِهِ الظُّوَاهِرِ ؛ فَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَيْهِ ؛ بَلْ تَوَعَّلَّوْا وَأَثْبَتُوا الْجِسْمِيَّةَ ، يَزْعُمُونَ
فِيهَا مِثْلَ ذَلِكَ وَيُنْزَهُونَهُ بِقَوْلٍ مُتَنَاقِضٍ سَفْسَافٍ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ ؛ « جِسْمٌ
لَا كَالْأَجْسَامِ » . وَالْجِسْمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ هُوَ الْعَمِيقُ الْمَحْدُودُ وَغَيْرُ هَذَا التَّفْسِيرِ مِنْ
أَنَّهُ الْقَائِمُ بِالذَّاتِ أَوْ الْمُرَكَّبُ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَاصْطِلَاحَاتٌ لِلْمُتَكَلِّمِينَ
يُرِيدُونَ بِهَا غَيْرَ الْمَذْلُولِ اللَّغَوِيِّ . فَلِهَذَا كَانَ الْمَجَسَّمَةُ أَوْغَلَ فِي الْبِدْعَةِ بَلْ
وَالْكُفْرِ . حَيْثُ أَثْبَتُوا لِلَّهِ وَضْعًا مُوَهَّمًا يُوهَمُ النِّقْصَ لَمْ يَرِدْ فِي كَلَامِهِ ، وَلَا كَلَامِ
نَبِيِّهِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ الْفَرْقُ بَيْنَ مَذَاهِبِ السَّلَفِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ السُّنِّيَّةِ وَالْمُحَدِّثِينَ
وَالْمُبْتَدِعَةِ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَالْمَجَسَّمَةِ بِمَا أَطْلَعْنَاكَ عَلَيْهِ . وَفِي الْمُحَدِّثِينَ غُلَاةٌ يَسْمُونَ
الْمُشَبَّهَ لِتَضْرِيحِهِمْ بِالتَّشْبِيهِ ، حَتَّى إِنَّهُ يُحْكَى عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ ؛ اغْفُونِي مِنَ
اللَّحْيَةِ وَالْفَرْجِ وَسَلُّوْا عَمَّا بَدَأَ لَكُمْ مِنْ سِوَاهِمَا . وَإِنْ لَمْ يَتَأَوَّلْ ذَلِكَ لَهُمْ ، بِأَنَّهُمْ
يُرِيدُونَ خَصْرًا مَا وَرَدَ مِنْ هَذِهِ الظُّوَاهِرِ الْمُوَهَّمَةِ ، وَحَمَلَهَا عَلَى ذَلِكَ الْمُحْمَلِ الَّذِي
لَأَثْمَتِهِمْ ؛ وَإِلَّا فَهُوَ كُفْرٌ صَرِيحٌ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ . وَكُتِبَ أَهْلُ السُّنَّةِ مَشْحُونَةً بِالْحِجَابِ
عَلَى هَذِهِ الْبِدْعِ ، وَبَسِطَ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ بِالْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ . وَإِنَّمَا أَوْمَأْنَا إِلَى ذَلِكَ إِيمَاءً
يَتَمَيَّزُ بِهِ فُصُولُ الْمَقَالَاتِ وَجُمْلَتُهَا . « وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ
لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » .

وَأَمَّا الظُّوَاهِرُ الْخَفِيَّةُ الْأَدِلَّةُ وَالذَّلَالَةُ ، كَالْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ وَالْجَنِّ
وَالْبَرْزَخِ وَأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَالذُّجَالِ وَالْفِتَنِ وَالشُّرُوطِ ، وَسَائِرُ مَا هُوَ مُعْتَدَّرٌ عَلَى الْفَهْمِ
أَوْ مُخَالِفٌ لِلْعَادَاتِ ؛ فَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْأَشْعَرِيَّةُ فِي تَفَاصِيلِهِ ، وَهُمْ

أَهْلُ السُّنَّةِ ، فَلَا تُشَابِهَ ، وَإِنْ قُلْنَا فِيهِ بِالتَّشَابِهِ ، فَلَنُوضِحَ الْقَوْلَ فِيهِ بِكُشْفِ
الْجَبَابِ عَنْهُ فَقُولُ : إِنْ عَلِمْنَا أَنَّ الْعَالَمَ الْبَشَرِيَّ أَشْرَفَ الْعَوَالِمِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ ،
وَأَرْفَعَهَا . وَهُوَ وَإِنْ اتَّحَدَتْ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ فَلَهُ أَطْوَارٌ يُخَالِفُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا
الْآخَرَ بِأَحْوَالٍ تَخْتَصُّ بِهِ حَتَّى كَأَنَّ الْحَقَائِقَ فِيهَا مُخْتَلِفَةً .

فَالطُّورُ الْأَوَّلُ : عَالَمُهُ الْجِسْمَانِيُّ بِحِسِّهِ الظَّاهِرِ وَفِكْرِهِ الْمَعَاشِيِّ وَسَائِرِ
تَصَرُّفَاتِهِ الَّتِي أُعْطَاهُ إِيَّاهَا وَجُودُهُ الْحَاضِرُ .

الطُّورُ الثَّانِي : عَالَمُ النَّوْمِ ، وَهُوَ تَصَوُّرُ الْخَيَالِ بِإِنْفَادِ تَصَوُّرَاتِهِ جَائِلَةً فِي بَاطِنِهِ
فَيُذَكِّرُ مِنْهَا بِحَوَاسِّهِ الظَّاهِرَةِ مُجَرَّدَةً عَنِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمَكِنَةِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ
الْجِسْمَانِيَّةِ ، وَيُشَاهِدُهَا فِي إِمْكَانٍ لَيْسَ هُوَ فِيهِ . وَيَخْدُثُ لِلصَّالِحِ مِنْهَا الْبُشْرَى بِمَا
يَتَرَقَّبُ مِنْ مَسَرَّاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ ، كَمَا وَعَدَ بِهِ الصَّادِقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .
وَهَذَانِ الطُّورَانِ عَامَّانِ فِي جَمِيعِ أَشْخَاصِ الْبَشَرِ ، وَهُمَا مُخْتَلِفَانِ فِي الْمَدَارِكِ كَمَا
تَرَاهُ .

الطُّورُ الثَّلَاثُ ، طُّورُ النُّبُوَّةِ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِإِشْرَافِ صُنْفِ الْبَشَرِ بِمَا خَصَّهُمُ اللَّهُ
بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَتَنْزَلِ مَلَائِكَتِهِ عَلَيْهِمْ بِوَحْيِهِ ، وَتَكْلِيفِهِمْ بِإِصْلَاحِ الْبَشَرِ
فِي أَحْوَالِ كُلِّهَا مُغَايِرَةً لِلْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ الظَّاهِرَةِ .

الطُّورُ الرَّابِعُ ، طُّورُ الْمَوْتِ الَّذِي تُفَارِقُ أَشْخَاصُ الْبَشَرِ فِيهِ حَيَاتَهُمُ الظَّاهِرَةَ
إِلَى وَجُودِ قَبْلِ الْقِيَامَةِ يُسَمَّى الْبَرْزَخَ يَتَنَعَّمُونَ فِيهِ وَيَعَذَّبُونَ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ ثُمَّ
يُنْفَضُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى ، وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ نَعِيمًا وَعَذَابًا فِي الْجَنَّةِ أَوْ
فِي النَّارِ .

وَالطُّورَانِ الْأَوَّلَانِ شَاهِدُهُمَا وَجَدَانِيٌّ ، وَالطُّورُ الثَّلَاثُ النَّبَوِيُّ شَاهِدُهُ
الْمُعْجِزَةُ وَالْأَحْوَالُ الْمُخْتَصَّةُ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَالطُّورُ الرَّابِعُ شَاهِدُهُ مَا تَنْزَلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ
مِنْ وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَعَادِ وَأَحْوَالِ الْبَرْزَخِ وَالْقِيَامَةِ ، مَعَ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي بِهِ ،

كَمَا نَبَّهَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ ، فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ الْبُعْثَةِ . وَمِنْ أَوْضَحِ الدَّلَالَةِ عَلَى صِحَّتِهَا أَنَّ أَشْخَاصَ الْإِنْسَانِ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَجُودٌ آخَرُ بَعْدَ الْمَوْتِ غَيْرُ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ يَتَلَقَّى فِيهِ أَحْوَالًا تَلِيقُ بِهِ ، لَكَانَ إِيجَادُهُ الْأَوَّلُ عَبَثًا . إِذَا الْمَوْتُ إِذَا كَانَ عَدَمًا كَانَ مَالُ الشَّخْصِ إِلَى الْعَدَمِ ، فَلَا يَكُونُ لَوْجُودِهِ الْأَوَّلِ حِكْمَةً . وَالْعَبَثُ عَلَى الْحَكِيمِ مُحَالٌ . وَإِذَا تَقَرَّرَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ الْأَرْبَعَةُ ، فَلِنَأْخُذْ فِي بَيَانِ مَدَارِكِ الْإِنْسَانِ فِيهَا كَيْفَ تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا بَيِّنًا يَكْشِفُ لَكَ غَوْرَ الْمَشَاهِدِ . فَأَمَّا مَدَارِكُهُ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ فَوَاضِحَةٌ جَلِيلَةٌ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ، « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ^(١) » . فَهَذِهِ الْمَدَارِكُ يَسْتَوِلِي عَلَى مَلَكَاتِ الْمَعَارِفِ وَيَسْتَكْمِلُ حَقِيقَةَ إِنْسَانِيَّةٍ وَيُوفِي حَقَّ الْعِبَادَةِ الْمُفْضِيَّةِ بِهِ إِلَى النَّجَاةِ .

وَأَمَّا مَدَارِكُهُ فِي الطُّورِ الثَّانِي ، وَهُوَ طُورُ النَّوْمِ ، فَهِيَ الْمَدَارِكُ الَّتِي فِي الْحِسِّ الظَّاهِرِ بَعَيْنِهَا . لَكِنْ لَيْسَتْ فِي الْجَوَارِحِ كَمَا هِيَ فِي الْبَقِطَةِ . لَكِنَّ الرَّاْيَ يَتَيَقَّنُ كُلَّ شَيْءٍ أَذْرَكَهُ فِي نَوْمِهِ لَا يَشْكُ فِيهِ وَلَا يَرْتَابُ ، مَعَ خُلُوعِ الْجَوَارِحِ عَنِ الْإِسْتِعْمَالِ الْعَادِيِّ لَهَا . وَالنَّاسُ فِي حَقِيقَةِ هَذِهِ الْخَالِ فَرِيقَانِ : الْحُكَمَاءُ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الصُّورَ الْخَيَالِيَّةَ يَذْفَعُهَا الْخَيَالُ بِحَرَكَةِ الْفِكْرِ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ الَّذِي هُوَ الْفَضْلُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْحِسِّ الظَّاهِرِ وَالْحِسِّ الْبَاطِنِ ، فَتَصَوَّرُ مَحْسُوسَةً بِالظَّاهِرِ فِي الْخَوَاسِ كُلِّهَا . وَيُشْكَلُ عَلَيْهِمْ هَذَا بِأَنَّ الْمَرَائِيَّ الصَّادِقَةَ الَّتِي هِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ مِنَ الْمَلِكِ اثْبَتَتْ وَأَرْسَخَتْ فِي الْإِذْرَاكِ مِنَ الْمَرَائِيَّ الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، مَعَ أَنَّ الْخَيَالَ فِيهَا عَلَى مَا قَرَّرُوهُ وَاحِدٌ .

الْفَرِيقُ الثَّانِي : الْمُتَكَلِّمُونَ ، أَجْمَلُوا فِيهَا الْقَوْلَ ، وَقَالُوا : هُوَ إِذْرَاكِ يَخْلُقُهُ اللَّهُ فِي الْحَاسَةِ فَيَقَعُ كَمَا يَقَعُ فِي الْبَقِطَةِ ، وَهَذَا الْيَقُ . وَإِنْ كُنَّا لَا نَتَصَوَّرُ كَيْفِيَّتِهِ .

(١) آية ٧٨ من سورة النحل .

وَهَذَا الْإِذْرَاكُ النَّوْمِيُّ أَوْضَحُ شَاهِدٍ عَلَى مَا يَقَعُ بَعْدَهُ مِنَ الْمَذَارِكِ الْحِسِّيَّةِ فِي الْأَطْوَارِ .

وَأَمَّا الطُّورُ الثَّالِثُ . وَهُوَ طُورُ الْأَنْبِيَاءِ . فَالْمَذَارِكُ الْحِسِّيَّةُ فِيهَا مَجْهُولَةٌ الْكَيْفِيَّةُ عِنْدَ وَجْدَانِيَّتِهِ عِنْدَهُمْ بِأَوْضَحٍ مِنَ الْيَقِينِ . فَيَرَى النَّبِيُّ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةَ . وَيَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ مِنْهُ أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . وَيَرَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ . وَالْعَرْشَ وَالْكُرْسِيَّ . وَيَخْتَرِقُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ فِي إِسْرَائِهِ وَيَرْكُبُ الْبَرَقَ فِيهَا . وَيَلْقَى النَّبِيِّينَ هُنَالِكَ . وَيُصَلِّي بِهِمْ . وَيَذَرِكُ أَنْوَاعَ الْمَذَارِكِ الْحِسِّيَّةِ . كَمَا يَذَرِكُ فِي طَوْرِهِ الْجِسْمَانِيَّ وَالنَّوْمِيَّ . يَعْلَمُ ضَرُورِيَّ يَخْلُقُهُ اللَّهُ لَهُ . لَا بِالْإِذْرَاكِ الْعَادِيَّ لِلْبَشَرِ فِي الْجَوَارِحِ . وَلَا يَلْتَفِتُ فِي ذَلِكَ إِلَى مَا يَقُولُهُ ابْنُ سِينَا مِنْ تَنْزِيلِهِ أَمْرَ النُّبُوَّةِ عَلَى أَمْرِ النَّوْمِ فِي دَفْعِ الْخَيَالِ صُورَةً إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ . فَإِنَّ الْكَلَامَ عَلَيْهِمْ هُنَا أَشَدُّ مِنَ الْكَلَامِ فِي النَّوْمِ . لَأَنَّ هَذَا التَّنْزِيلَ طَبِيعَةٌ وَاحِدَةٌ كَمَا قَرَّرْنَاهُ . فَيَكُونُ عَلَى هَذَا حَقِيقَةُ الْوَحْيِ وَالرُّؤْيَا مِنَ النَّبِيِّ وَاحِدَةٌ فِي يَقِينِهَا وَحَقِيقَتِهَا . وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ عَلَى مَا عَلِمْتَ مِنْ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْوَحْيِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَأَنَّهَا كَانَتْ بِمُدَّةِ الْوَحْيِ وَمُقَدِّمَتِهِ . وَيَشْعُرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ رُؤْيَاً^(١) فِي الْحَقِيقَةِ . وَكَذَلِكَ حَالُ الْوَحْيِ فِي نَفْسِهِ فَقَدْ كَانَ يَضَعُبُ عَلَيْهِ وَيُقَاسِي مِنْهُ شِدَّةً كَمَا هِيَ فِي الصَّحِيحِ . حَتَّى كَانَ الْقُرْآنُ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ آيَاتٍ مُقْطَعَاتٍ . وَبَعْدَ ذَلِكَ نَزَلَ عَلَيْهِ (بَرَاءة)^(٢) فِي غَزْوَةِ (تَبُوك) جُمْلَةً وَاحِدَةً . وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى نَاقَتِهِ . فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ تَنَزُّلِ الْفِكْرِ إِلَى الْخَيَالِ فَقَطْ . وَمِنَ الْخَيَالِ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ . لَمْ يَكُنْ بَيْنَ هَذِهِ الْحَالَاتِ فَرْقٌ . وَأَمَّا الطُّورُ الرَّابِعُ . وَهُوَ طُورُ الْأَمْوَاتِ فِي بَرْزَخِهِمُ الَّذِي أَوَّلُهُ الْقَبْرِ . وَهُمْ مُجَرَّدُونَ عَنِ الْبَدَنِ . أَوْ فِي بَعْثَتِهِمْ عِنْدَمَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْأَجْسَامِ . فَمَذَارِكُهُمُ الْحِسِّيَّةُ مُوجُودَةٌ . فَيَرَى الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ الْمَلَكَانِ يَسْأَلَانِهِ . وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ .

(١) كَذَا . وَفِي نَسْخَةٍ : دُونَهُ .

(٢) هِيَ السُّورَةُ التَّاسِعَةُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . وَهِيَ سُورَةُ (التَّوْبَةِ) .

وَيَرَى شُهُودَ الْجَنَازَةِ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَخَفَقَ نِغَالَهُمْ فِي الْإِنْصِرَافِ عَنْهُ ، وَيَسْمَعُ مَا يَذْكُرُونَهُ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ أَوْ مِنَ تَقْرِيرِ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ عَلَى قَلْبِ بَدْرٍ^(١) ، وَفِيهِ قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَنَادَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَتُكَلِّمُ هَؤُلَاءِ الْجَنَفِ ؟ فَقَالَ ﷺ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ لِمَا أَقُولُ . ثُمَّ فِي الْبُعْثَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَايِنُونَ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ - كَمَا كَانُوا يُعَايِنُونَ فِي الْحَيَاةِ - مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ عَلَى مَرَاتِبِهِ وَعَذَابِ النَّارِ عَلَى مَرَاتِبِهِ ، وَيَرُونَ الْمَلَائِكَةَ وَيَرُونَ رَبَّهُمْ ، كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ : إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ . وَهَذِهِ الْمَدَارِكُ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهِيَ حِسِيَّةٌ مِثْلُهَا ، وَتَقَعُ فِي الْجَوَارِحِ بِالْعِلْمِ الصُّرُورِيِّ الَّذِي يَخْلُقُهُ اللَّهُ كَمَا قُلْنَا . وَسِرُّ هَذَا أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ هِيَ تَنْشَأُ بِالْبَدَنِ وَبِمَدَارِكِهِ ، فَإِذَا فَارَقَتْ الْبَدَنَ يَنْوُمُ أَوْ يَمُوتُ أَوْ صَارَ النَّبِيُّ حَالَةَ الْوَحْيِ مِنَ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ الْمَلَكِيَّةِ ، فَقَدْ اسْتَضَبَحَتْ مَا كَانَ مَعَهَا مِنَ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مُجَرَّدَةً عَنِ الْجَوَارِحِ ، فَيُذْرِكُ بِهَا فِي ذَلِكَ الطُّورِ أَيْ إِذْرَاكِ شَاءَتْ مِنْهَا ، أَرْفَعَ مِنْ إِذْرَاكِهَا ، وَهِيَ فِي الْجَسَدِ . قَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَزَادَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ صُورَةٌ تَبْقَى لَهَا ، بَعْدَ الْمَفَارَقَةِ فِيهَا الْعَيْنَانِ وَالْأَذْنَانِ وَسَائِرِ الْجَوَارِحِ الْمُدْرَكَةِ أَمْثَالًا لَهَا ، كَانَ فِي الْبَدَنِ وَصُورًا .

وَأَنَا أَقُولُ : إِنَّمَا يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى الْمَلَكَاتِ الْخَاصِلَةِ مِنْ تَضَرُّفِ هَذِهِ الْجَوَارِحِ فِي بَدَنِهَا زِيَادَةً عَلَى الْإِذْرَاكِ . فَإِذَا تَفَطَّنَتْ لِهَذَا كُلِّهِ عَلِمَتْ أَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِكَ مَوْجُودَةٌ فِي الْأَطْوَارِ الْأَرْبَعَةِ ، لَكِنْ لَيْسَ عَلَى مَا كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا هِيَ تَخْتَلِفُ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ بِحَسَبِ مَا يُعْرَضُ لَهَا مِنَ الْأَحْوَالِ . وَيُشِيرُ الْمُتَكَلِّمُونَ إِلَى ذَلِكَ إِشَارَةً مُجَمَّلَةً بِأَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ فِيهَا عِلْمًا ضَرُورِيًّا بِتِلْكَ الْمَدَارِكِ ، أَيْ

(١) كان ذلك أثر انتهاء وقعة بدر الكبرى التي أظهر الله بها دين الإسلام على المشركين . انظر ابن

خلدون ط دار الكتاب اللبناني - بيروت م ٢ ص ٧٤٤ - ٧٤٦ .

مَدْرِكُ كَانَ ، وَيَعْنُونَ بِهِ هَذَا الْقَدَرُ الَّذِي أَوْضَحْنَاهُ . وَهَذِهِ نُبْدَةٌ أَوْمَانَا بِهَا إِلَى مَا يُوضَحُ الْقَوْلُ فِي الْمَتَشَابِهِ . وَلَوْ أَوْسَعْنَا الْكَلَامَ فِيهِ لَقَصَرَتْ الْمَدَارِكُ عَنْهُ . فَلَنَفْرَعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الْهِدَايَةِ وَالْفَهْمِ عَنْ أَنْبِيَائِهِ وَكِتَابِهِ ، بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الْحَقُّ فِي تَوْحِيدِنَا ، وَالظَّفَرُ بِنَجَاتِنَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

الفصل السابع عشر

في علم التصوف

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الْحَادِثَةِ فِي الْمِلَّةِ وَأَصْلُهُ أَنَّ طَرِيقَةَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَكِبَارِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ طَرِيقَةً الْحَقِّ وَالْهِدَايَةِ وَأَصْلُهَا الْعُكُوفُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِعْرَاضُ عَنْ زُخْرِفِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ، وَالزُّهْدُ فِيمَا يُقْبَلُ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ لَذَّةٍ وَمَالٍ وَجَاهٍ وَالْإِنْفِرَادُ عَنِ الْخَلْقِ فِي الْخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ وَكَانَ ذَلِكَ عَامًا فِي الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ . فَلَمَّا فَشَا الْإِقْبَالُ عَلَى الدُّنْيَا فِي الْقَرْنِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ وَجَنَحَ النَّاسُ إِلَى مُخَالَطَةِ الدُّنْيَا اخْتَصَّ الْمُقْبِلُونَ عَلَى الْعِبَادَةِ بِاسْمِ الصُّوفِيَّةِ وَالْمُتَّصِفَةِ . وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَلَا يَشْهَدُ لِهَذَا الْإِسْمِ اشْتِقَاقٌ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَا قِيَاسٌ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَقَبٌ . وَمِنْ قَالَ اشْتِقَاقَهُ مِنَ الصَّفَاءِ أَوْ مِنَ الصِّفَةِ فَبَعِيدٌ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ اللَّغَوِيِّ ، قَالَ : وَكَذَلِكَ مِنَ الصُّوفِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَصُّوا بِلُبْسِهِ . قُلْتُ : وَالْأَظْهَرُ إِنْ قِيلَ بِالِاشْتِقَاقِ أَنَّهُ مِنَ الصُّوفِ وَهُمْ فِي الْغَالِبِ مُخْتَصُّونَ بِلُبْسِهِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّاسِ فِي لُبْسِ فَآخِرِ الثِّيَابِ إِلَى لُبْسِ الصُّوفِ فَلَمَّا اخْتَصَّ هَؤُلَاءِ بِمَذْهَبِ الزُّهْدِ وَالْإِنْفِرَادِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ اخْتَصُّوا بِمَا خَذَ مَدْرَكُهُ لَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ الْخَيَوانِ بِالْإِذْرَاقِ وَالْإِذْرَاقُ نَوْعَانِ : إِذْرَاقٌ لِلْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مِنَ الْيَقِينِ وَالظَّنِّ وَالشَّكِّ وَاللَّوْهَمِ وَإِذْرَاقٌ لِلْأَحْوَالِ الْقَائِمَةِ مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُزَنِ وَالْقَبْضِ

وَالْبَسِطُ وَالرَّضَى وَالْغَضَبُ وَالضَّبْرُ وَالشُّكْرُ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . فَالرَّوْحُ الْعَاقِلُ
وَالْمُتَصَرِّفُ فِي الْبَدَنِ تَنْشَأُ^(١) مِنْ إِذْرَاكَاتٍ وَإِرَادَاتٍ وَأَحْوَالٍ وَهِيَ الَّتِي يُمَيِّزُ بِهَا
الْإِنْسَانُ . وَبَعْضُهَا يَنْشَأُ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يَنْشَأُ الْعِلْمُ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَالْفَرْحُ وَالْحُزْنُ عَنْ
إِذْرَاكِ الْمَوْلِمِ أَوْ الْمُتَلَذِّذِ بِهِ وَالنَّشَاطُ عَنِ الْحَمَامِ وَالْكَسَلُ عَنِ الْإِعْيَاءِ . وَكَذَلِكَ
الْمُرِيدُ فِي مُجَاهَدَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَنْشَأَ لَهُ عَنْ كُلِّ مُجَاهَدَةٍ حَالٌ نَتِيجَةٌ تِلْكَ
الْمُجَاهَدَةِ . وَتِلْكَ الْحَالُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ نَوْعَ عِبَادَةٍ فَتَرْسُخُ وَتَصِيرُ مَقَامًا لِلْمُرِيدِ وَإِمَّا
أَنْ لَا تَكُونَ عِبَادَةً وَإِنَّمَا تَكُونَ صِفَةً حَاصِلَةً لِلنَّفْسِ مِنْ حُزْنٍ أَوْ سُرُورٍ أَوْ نَشَاطٍ أَوْ
كَسَلٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَامَاتِ . وَلَا يَزَالُ الْمُرِيدُ يَتَرَقَّى مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ إِلَى أَنْ
يَنْتَهِيَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي هِيَ الْغَايَةُ الْمَطْلُوبَةُ لِلْسَّعَادَةِ . قَالَ ﷺ
« مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » فَالْمُرِيدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ التَّرَقِّيِّ فِي
هَذِهِ الْأَطْوَارِ وَأَصْلُهَا كُلُّهَا الطَّاعَةُ وَالْإِخْلَاصُ وَيَتَقَدَّمُهَا الْإِيمَانُ وَيُصَاحِبُهَا ، وَتَنْشَأُ
عَنْهَا الْأَحْوَالُ وَالصِّفَاتُ نَتَائِجٌ وَثَمَرَاتٌ . ثُمَّ تَنْشَأُ عَنْهَا أُخْرَى وَأُخْرَى إِلَى مَقَامِ
التَّوْحِيدِ وَالْعِزِّ . وَإِذَا وَقَعَ تَقْصِيرٌ فِي النِّتِيجَةِ أَوْ خَلَلَ فَنَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَتَى مِنْ قَبْلِ
التَّقْصِيرِ فِي الَّذِي قَبْلَهُ . وَكَذَلِكَ فِي الْخَوَاطِرِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْوَارِدَاتِ الْقَلْبِيَّةِ . فَلِهَذَا
يَحْتَاجُ الْمُرِيدُ إِلَى مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ فِي سَائِرِ أَعْمَالِهِ وَيَنْظُرُ فِي حَقَائِقِهَا لِأَنَّ حُصُولَ
النَّتَائِجِ عَنِ الْأَعْمَالِ ضَرُورِيٌّ وَقُصُورُهَا مِنَ الْخَلَلِ فِيهَا كَذَلِكَ . وَالْمُرِيدُ يَجِدُ ذَلِكَ
بِذَوْقِهِ وَيَحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى أَسْبَابِهِ . وَلَا يُشَارِكُهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ لِأَنَّ
الْغَفْلَةَ عَنْ هَذَا كَانَتْهَا شَامِلَةً . وَغَايَةُ أَهْلِ الْعِبَادَاتِ إِذَا لَمْ يَنْتَهُوا إِلَى هَذَا النُّوعِ أَنَّهُمْ
يَأْتُونَ بِالطَّاعَاتِ مُخْلِصَةً مِنْ نَظَرِ الْفَقِيهِ فِي الْأَجْزَاءِ وَالْإِمْتِثَالِ . وَهَؤُلَاءِ يَنْحَثُونَ
عَنْ نَتَائِجِهَا بِالْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ لِيُطْلِعُوا عَلَى أَنَّهَا خَالِصَةٌ مِنَ التَّقْصِيرِ أَوْ لَا . فَظَهَرَ
أَنَّ أَضْلَ طَرِيقَتِهِمْ كُلُّهَا مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ عَلَى الْأَفْعَالِ وَالتَّرُوكِ وَالْكَلَامِ فِي هَذِهِ
الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ الَّتِي تَحْصُلُ عَنِ الْمُجَاهَدَاتِ ثُمَّ تَسْتَقِرُّ لِلْمُرِيدِ مَقَامًا يَتَرَقَّى مِنْهَا

(١) وفي النسخة الباريسية ، فالمعنى العاقل والمتصرف في البدن ينشأ .

إلى غيرها ثُمَّ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ آدَابٌ مَخْصُوصَةٌ بِهِمْ وَاصْطِلَاحَاتٌ فِي الْفَافِيزِ تَدُورُ بَيْنَهُمْ إِذَا الْأَوْضَاعُ اللَّغَوِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْمَعَانِي الْمُتَعَارِفَةِ . فَإِذَا عَرَضَ مِنَ الْمَعَانِي مَا هُوَ غَيْرُ مُتَعَارِفٍ اصْطَلَحْنَا عَنِ التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِلَفْظٍ يَتَيَسَّرُ فَهْمُهُ مِنْهُ . فَلِهَذَا اخْتَصَّ هَؤُلَاءُ بِهَذَا النُّوعِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي لَيْسَ لِوَاحِدٍ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ الْكَلَامُ فِيهِ . وَصَارَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ عَلَى صِنْفَيْنِ : صِنْفٍ مَخْصُوصٍ بِالْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْفَتَا وَهِيَ الْأَحْكَامُ الْعَامَّةُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْعَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ ، وَصِنْفٍ مَخْصُوصٍ بِالْقَوْمِ فِي الْقِيَامِ بِهِذِهِ الْمُجَاهِدَةِ وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَيْهَا وَالْكَلَامُ فِي الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ الْعَارِضَةِ فِي طَرِيقِهَا وَكَيْفِيَّةِ التَّرْقِي مِنْهَا مِنْ ذَوْقٍ إِلَى ذَوْقٍ وَشَرَحَ الْإِصْطِلَاحَاتِ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ . فَلَمَّا كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدَوْنَتْ وَأَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الْفِقْهِ وَأَصُولِهِ وَالْكَلَامُ وَالتَّفْسِيرُ وَغَيْرَ ذَلِكَ . كَتَبَ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي طَرِيقِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ كَتَبَ فِي الْوَرَعِ وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ فِي الْأَخْذِ وَالتَّرَكِّ كَمَا فَعَلَهُ الْقَشِيرِيُّ فِي كِتَابِ الرِّسَالَةِ وَالسَّهْرُورِيُّ فِي كِتَابِ عَوَارِفِ الْمَعَارِفِ وَأَمْثَالُهُمْ . وَجَمَعَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ فَدَوَّنَ فِيهِ أَحْكَامَ الْوَرَعِ وَالْإِقْتِدَاءِ ثُمَّ بَيَّنَّ آدَابَ الْقَوْمِ وَسُنَنَهُمْ وَشَرَحَ اصْطِلَاحَاتِهِمْ فِي عِبَارَاتِهِمْ وَصَارَ عِلْمُ التَّصَوُّفِ فِي الْمِلَّةِ عِلْمًا مُدَوَّنًا بَعْدَ أَنْ كَانَتِ الطَّرِيقَةُ عِبَادَةً فَقَطْ وَكَانَتْ أَحْكَامُهَا إِنَّمَا تَتَلَقَّى مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ كَمَا وَقَعَ فِي سَائِرِ الْعُلُومِ الَّتِي دَوْنَتْ بِالْكِتَابِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَالْأَصُولِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْمُجَاهِدَةَ وَالْخُلُوعَ وَالذِّكْرَ يَتَّبِعُهَا غَالِبًا كَشْفُ حِجَابِ الْحِسِّ وَالْإِطْلَافُ عَلَى عَوَالِمٍ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ لِصَاحِبِ الْحِسِّ إِذْرَاكَ شَيْءٍ مِنْهَا . وَالرُّوحُ مِنْ تِلْكَ الْعَوَالِمِ . وَسَبَبُ هَذَا الْكَشْفِ أَنَّ الرُّوحَ إِذَا رَجَعَ عَنِ الْحِسِّ الظَّاهِرِ إِلَى الْبَاطِنِ ضَعُفَتْ أَحْوَالُ الْحِسِّ وَقَوِيَتْ أَحْوَالُ الرُّوحِ وَغَلَبَ سُلْطَانُهُ وَتَجَدَّدَ نَشْؤُهُ وَأَعَانَ عَلَى ذَلِكَ الذِّكْرُ فَإِنَّهُ كَالْغِذَاءِ لِتَنْمِيَةِ الرُّوحِ وَلَا يَزَالُ فِي نُمُوٍّ وَتَرْيُدٍ إِلَى أَنْ يَصِيرَ شُهُودًا بَعْدَ أَنْ كَانَ عِلْمًا ، وَيَكْشِفُ حِجَابَ الْحِسِّ . وَيُتِمُّ وُجُودَ النَّفْسِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا ، وَهُوَ عَيْنُ الْإِذْرَاكِ . فَيَتَعَرَّضُ حَنِيدٌ لِلْمَوَاهِبِ

الرَّبَّانِيَّةِ وَالْعُلُومِ اللَّدُنِّيَّةِ وَالْفَتْحِ الْإِلَهِيِّ وَتَقَرَّبَ ذَاتُهُ فِي تَحْقِيقِ حَقِيقَتِهَا مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى أَفْقِ الْمَلَائِكَةِ . وَهَذَا الْكُشْفُ كَثِيراً مَا يَغْرُضُ لِأَهْلِ الْمَجَاهِدَةِ فَيَذَرُكُونَ مِنْ حَقَائِقِ الْوُجُودِ مَا لَا يُدْرِكُ سِوَاهُمْ وَكَذَلِكَ يُذَرُكُونَ كَثِيراً مِنَ الْوَأَقَاعَاتِ قَبْلَ وَقُوعِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ بِهَمِّهِمْ وَقَوَى نَفْسِهِمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ السُّفْلِيَّةِ وَتَصِيرُ طُوعَ إِرَادَتِهِمْ . فَالْعُظْمَاءُ مِنْهُمْ لَا يَغْتَبِرُونَ هَذَا الْكُشْفَ وَلَا يَتَصَرَّفُونَ وَلَا يُخْبِرُونَ عَنْ حَقِيقَةِ شَيْءٍ لَمْ يُؤْمَرُوا بِالتَّكَلُّمِ فِيهِ بَلْ يَعْدُونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِخْنَةً وَيَتَعَوَّدُونَ مِنْهُ إِذَا هَاجَمَهُمْ . وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمَجَاهِدَةِ وَكَانَ حَظُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْكِرَامَاتِ أَوْفَرَ الْخُطُوطِ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَقَعْ لَهُمْ بِهَا عَنَائَةٌ . وَفِي فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْهَا . وَتَبِعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَهْلُ الطَّرِيقَةِ مِمَّنْ اشْتَمَلَتْ رِسَالَةُ الْقَشِيرِيِّ عَلَى ذِكْرِهِمْ وَمَنْ تَبَعَ طَرِيقَتَهُمْ مِنْ بَعِيدِهِمْ . ثُمَّ إِنَّ قَوْماً مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ انْصَرَفَتْ عِنَايَتُهُمْ إِلَى كُشْفِ الْحِجَابِ وَالْكَلامِ فِي الْمَدَارِكِ الَّتِي وَرَاءَهُ وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُ الرِّيَاضَةِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ تَعْلِيمِهِمْ فِي إِمَاتَةِ الْقَوَى الْحِسِّيَّةِ وَتَغْذِيَةِ الرُّوحِ الْعَاقِلِ بِالذِّكْرِ حَتَّى يَخْضَلَ لِلنَّفْسِ إِذَا رَاكَهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا بِتَمَامِ نَشْوَتِهَا وَتَغْذِيَتِهَا فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ زَعَمُوا أَنَّ الْوُجُودَ قَدْ انْخَصَرَ فِي مَدَارِكِهَا حِينَئِذٍ وَأَنْتُمْ كَشَفُوا ذَوَاتِ الْوُجُودِ وَتَصَوَّرُوا حَقَائِقَهَا كُلَّهَا مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الطُّش . هَكَذَا قَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ صُورَةَ الرِّيَاضَةِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْكُشْفَ لَا يَكُونُ صَحِيحاً كَامِلاً عِنْدَهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ نَاشِئاً عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ لِأَنَّ الْكُشْفَ قَدْ يَخْضَلُ لِصَاحِبِ الْجُوعِ وَالْخَلْوَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ اسْتِقَامَةٌ كَالسَّحَرَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُتَرَاضِينَ . وَلَيْسَ مُرَادُنَا إِلَّا الْكُشْفَ النَّاشِئَ عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ وَمِثَالُهُ أَنَّ الْمِرَاةَ الصَّقِيلَةَ إِذَا كَانَتْ مُحَدَّبَةً أَوْ مُقَعَّرَةً وَخُودِي بِهَا جِهَةَ الْمَرْئِيِّ فَإِنَّهُ يَتَشَكَّلُ فِيهِ مُعْوجاً عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِ . وَإِنْ كَانَتْ مُسَطَّحَةً تَشَكَّلَ فِيهَا الْمَرْئِيُّ صَحِيحاً . فَالْإِسْتِقَامَةُ لِلنَّفْسِ كَالْإِنْسَاطِ لِلْمِرَاةِ فِيمَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنَ الْأَخْوَالِ . وَلَمَّا عَنِيَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِهَذَا النُّوعِ مِنَ الْكُشْفِ تَكَلَّمُوا فِي حَقَائِقِ

الْمَوْجُودَاتِ الْعُلُويَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ وَحَقَائِقِ الْمُلْكِ وَالرُّوحِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَصُرَتْ مَدَارِكُ مَنْ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ عَنْ فَهْمِ أَدْوَابِهِمْ وَمَوَاجِدِهِمْ فِي ذَلِكَ . وَأَهْلُ الْفِتْيَا بَيْنَ مُنْكَرٍ عَلَيْهِمْ وَمُسْلِمٍ لَهُمْ . وَلَيْسَ الْبُرْهَانُ وَالذَّلِيلُ يَنْفَعُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ رَدًّا وَقَبُولًا إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْوُجْدَانِيَّاتِ .

تَفْصِيلٌ وَتَحْقِيقٌ : يَقَعُ كَثِيرًا فِي كَلَامِ أَهْلِ الْعَقَائِدِ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُبَايِنٌ لِمَخْلُوقَاتِهِ . وَيَقَعُ لِلْمُتَكَلِّمِينَ أَنَّهُ لَا مُبَايِنَ وَلَا مُتَّصِلَ . وَيَقَعُ لِلْفَلَّاسِفَةِ أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ . وَيَقَعُ لِلْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ أَنَّهُ مُتَّحِدٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ ، إِمَّا بِمَعْنَى الْحُلُولِ فِيهَا ، أَوْ بِمَعْنَى إِنَّهُ هُوَ عَيْنُهَا ، وَلَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُهُ جُمْلَةً وَلَا تَفْصِيلًا . فَلْنَبَيِّنْ تَفْصِيلَ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ وَنُشْرَحَ حَقِيقَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا ، حَتَّى تَتَضَحَّ مَعَانِيهَا فَتَقُولَ ، إِنَّ الْمُبَايِنَةَ تَقَالُ لِمَعْنِيَيْنِ :

أَحَدُهُمَا الْمُبَايِنَةُ فِي الْحِيزِ وَالْجِهَةِ ، وَيُقَالُ لَهُ الْإِتِّصَالُ . وَنَشْعُرُ هَذِهِ الْمُقَابَلَةَ عَلَى هَذِهِ التَّقْيِيدِ بِالْمَكَانِ إِمَّا صَرِيحًا وَهُوَ تَجْسِيمٌ ، أَوْ لَزُومًا وَهُوَ تَشْبِيهُ مِنْ قَبِيلِ الْقَوْلِ بِالْجِهَةِ . وَقَدْ نَقَلَ مِثْلَهُ عَنْ بَعْضِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنَ التَّصْرِيحِ بِهَذِهِ الْمُبَايِنَةِ ، فَيَحْتَمِلُ غَيْرَ هَذَا الْمَعْنَى . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْكَرَ الْمُتَكَلِّمُونَ هَذِهِ الْمُبَايِنَةَ وَقَالُوا ، لَا يُقَالُ فِي الْبَارِيءِ أَنَّهُ مُبَايِنٌ لِمَخْلُوقَاتِهِ ، وَلَا مُتَّصِلٌ بِهَا ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْمُتَحَيِّزَاتِ . وَمَا يُقَالُ مِنْ أَنَّ الْمَحَلَّ لَا يَخْلُو عَنِ الْإِتِّصَافِ بِالْمَعْنَى وَضِدِّهِ ، فَهُوَ مَشْرُوطٌ بِصَحَّةِ الْإِتِّصَافِ أَوَّلًا ، وَأَمَّا مَعَ امْتِنَاعِهِ فَلَا ، بَلْ يَجُوزُ الْخُلُوعُ عَنِ الْمَعْنَى وَضِدِّهِ ، كَمَا يُقَالُ فِي الْجَمَادِ ، لَا عَالَمٌ وَلَا جَاهِلٌ ، وَلَا قَادِرٌ وَلَا عَاجِزٌ وَلَا كَاتِبٌ وَلَا أُمِّيٌّ . وَصَحَّةُ الْإِتِّصَافِ بِهَذِهِ الْمُبَايِنَةِ مَشْرُوطٌ بِالْحُصُولِ فِي الْجِهَةِ عَلَى مَا تَقَرَّرَ مِنْ مَذْلُولِهَا . وَالْبَارِيءُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ . ذَكَرَهُ ابْنُ التَّلْمِسَانِيِّ فِي شَرْحِ اللَّامِعِ لِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ وَقَالَ : « لَا يُقَالُ فِي الْبَارِيءِ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا مُتَّصِلٌ بِهِ ، وَلَا دَاخِلٌ فِيهِ وَلَا خَارِجٌ عَنْهُ . وَهُوَ مَعْنَى مَا يَقُولُهُ الْفَلَّاسِفَةُ أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ ، بِنَاءً عَلَى وُجُودِ الْجَوَاهِرِ غَيْرِ الْمُتَحَيِّزَةِ . وَأَنْكَرَهَا

الْمُتَكَلِّمُونَ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ مُسَاوَاتِهَا لِلْبَارِيءِ فِي أَحْصَ الصِّفَاتِ ، وَهُوَ مَبْسُوطٌ فِي عِلْمِ
الْكَلَامِ .

وَأَمَّا الْمَعْنَى الْآخَرُ لِلْمُبَايَنَةِ ، فَهُوَ الْمُعَايِزَةُ وَالْمُخَالَفَةُ فَيُقَالُ : الْبَارِيءُ مُبَايِنٌ
لِمَخْلُوقَاتِهِ فِي ذَاتِهِ وَهُوِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ . وَيُقَابِلُهُ الْإِتْحَادُ وَالْإِمْتِزَاجُ
وَالْإِخْتِلَاطُ . وَهَذِهِ الْمُبَايَنَةُ هِيَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ كُلِّهِمْ مِنْ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ
الشَّرَائِعِ وَالْمُبْتَكَلِمِينَ وَالْمُتَصَوِّفَةِ الْأَقْدَمِينَ كَأَهْلِ الرِّسَالَةِ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُمْ . وَذَهَبَ
جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ صَيَّرُوا الْمَدَارِكَ الْوُجْدَانِيَّةَ عِلْمِيَّةَ نَظَرِيَّةً ،
إِلَى أَنَّ الْبَارِيءَ تَعَالَى مُتَّحِدٌ بِمَخْلُوقَاتِهِ فِي هُوِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ . وَرُبَّمَا زَعَمُوا أَنَّهُ
مَذْهَبُ الْفَلَاسِفَةِ قَبْلَ أَرِسْطُو ، مِثْلَ أَفْلَاطُونٍ وَسُقْرَاطَ ، وَهُوَ الَّذِي يَقْنِنُهُ
الْمُتَكَلِّمُونَ حَيْثُ يَنْقُلُونَهُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ عَنِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَيَحَاوِلُونَ الرَّدَّ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ
ذَاتَانِ ، تَنْتَفِي إِحْدَاهُمَا ، أَوْ تَنْتَدْرِجُ ائِدْرَاجَ الْجُزْءِ ، فَإِنَّ تِلْكَ مُعَايِزَةً صَرِيحَةً ، وَلَا
يَقُولُونَ بِذَلِكَ . وَهَذَا الْإِتْحَادُ هُوَ الْحُلُولُ الَّذِي تُدْعِيهِ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ عَلَيْهِ
السَّلَامُ ، وَهُوَ أَغْرَبُ لِأَنَّهُ حُلُولٌ قَدِيمٌ فِي مُحَدَّثٍ أَوْ ائْتِحَادُهُ بِهِ . وَهُوَ أَيْضًا عَيْنُ
مَا تَقُولُهُ الْإِمَامِيَّةُ مِنَ الشَّيْعَةِ فِي الْأَئِمَّةِ . وَتَقْرِيرُ هَذَا الْإِتْحَادِ فِي كَلَامِهِمْ عَلَى
طَرِيقَيْنِ :

الْأَوَّلَى ، أَنَّ ذَاتَ الْقَدِيمِ كَائِنَةٌ فِي الْمُحْدِثَاتِ مَحْسُوسِيهَا وَمَعْقُولِيهَا ، مُتَّحِدَةٌ بِهَا
فِي الْمُتَصَوِّرِينَ ، وَهِيَ كُلُّهَا مَظَاهِرُ لَهَ ، وَهُوَ الْقَائِمُ عَلَيْهَا ، أَيْ الْمَقْدَمُ لَوْجُودِهَا ،
بِمَعْنَى لَوْلَاهُ كَانَتْ عَدَمًا وَهُوَ رَأَى أَهْلَ الْحُلُولِ .

الثَّانِيَةُ ، طَرِيقُ أَهْلِ الْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ وَكَأَنَّهُمْ اسْتَشْعَرُوا مِنْ تَقْرِيرِ أَهْلِ
الْحُلُولِ الْغَيْرِيَّةِ الْمُنَافِيَّةِ لِمَعْقُولِ الْإِتْحَادِ ، فَنفَوْهَا بَيْنَ الْقَدِيمِ وَبَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي
الذَّاتِ وَالْوُجُودِ وَالصِّفَاتِ . وَغَالَطُوا فِي غَيْرِيَّةِ الْمَظَاهِرِ الْمُدْرَكَةِ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ
بِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَهِيَ أَوْهَامٌ . وَلَا يُرِيدُونَ الْوَهْمَ الَّذِي هُوَ قَسِيمُ
الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالشَّكِّ ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ أَنَّهَا كُلُّهَا عَدَمٌ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَوُجُودٌ فِي الْمَدْرَكِ

البشري فقط . وَلَا وَجُودَ بِالْحَقِيقَةِ إِلَّا لِلْقَدِيمِ . لَا فِي الظَّاهِرِ وَلَا فِي الْبَاطِنِ كَمَا نَقَرُّهُ بَعْدُ . بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ . وَالتَّعْوِيلُ فِي تَعَقُّلِ ذَلِكَ عَلَى النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ . كَمَا فِي الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ . غَيْرُ مُفِيدٍ . لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُنْقَلُ مِنَ الْمَدَارِكِ الْمَلَكِيَّةِ . وَإِنَّمَا هِيَ حَاصِلَةٌ لِلْأَنْبِيَاءِ بِالْفِطْرَةِ وَمِنْ بَعْدِهِمْ لِلْأَوْلِيَاءِ بِهِدَايَتِهِمْ . وَقَصْدُ مَنْ يَقْصِدُ الْحُصُولَ عَلَيْهَا بِالطَّرِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ ضَلَالٌ . وَرُبَّمَا قَصَدَ بَعْضُ الْمُصَنِّفِينَ ذَلِكَ فِي كَشْفِ الْمَوْجُودَاتِ وَتَرْتِيبِ حَقَائِقِهِ عَلَى طَرِيقِ أَهْلِ الْمَظَاهِرِ فَأَتَى بِالْأَغْمَاضِ فَلَا أَغْمَاضَ .

وَرُبَّمَا قَصَدَ بَعْضُ الْمُصَنِّفِينَ بَيَانَ مَذْهَبِهِمْ فِي كَشْفِ الْوُجُودِ وَتَرْتِيبِ حَقَائِقِهِ فَأَتَى بِالْأَغْمَاضِ فَلَا أَغْمَاضَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ النَّظَرِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ وَالْعُلُومِ كَمَا فَعَلَ الْفَرَّغَانِيُّ شَارِحُ قَصِيدَةِ ابْنِ الْفَارِضِ فِي الدِّيْبَاجَةِ الَّتِي كَتَبَهَا فِي صَدْرِ ذَلِكَ الشَّرْحِ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي صُدُورِ الْوُجُودِ عَنِ الْفَاعِلِ وَتَرْتِيبِهِ أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ صَادِرٌ عَنْ صِفَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَظْهَرُ^(١) الْأَحَدِيَّةِ وَهَمَا مَعَا صَادِرَانِ عَنِ الذَّاتِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ الْوَحْدَةِ لَا غَيْرَ . وَيُسَمُّونَ هَذَا الصُّدُورَ بِالتَّجَلِّيِ . وَأَوَّلَ مَرَاتِبِ التَّجَلِّيَّاتِ عِنْدَهُمْ تَجَلِّيِ الذَّاتِ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْكَمَالَ بِإِفَاضَةِ الْإِنِّجَادِ وَالظُّهُورِ لِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَتَنَاقَلُونَهُ : « كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأُخْبِئْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخُلِقْتُ الْخَلْقُ لِيَعْرِفُونِي » وَهَذَا الْكَمَالُ فِي الْإِنِّجَادِ الْمُتَنَزِّلِ^(٢) فِي الْوُجُودِ وَتَفْصِيلِ الْحَقَائِقِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عَالَمُ الْمَعَانِي وَالْحَضْرَةُ الْكَمَالِيَّةُ^(٣) وَالْحَقِيقَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ وَفِيهَا حَقَائِقُ الصِّفَاتِ وَاللُّوْحِ وَالْقَلَمِ وَحَقَائِقُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ أَجْمَعِينَ وَالْكَمُلِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ . وَهَذَا كُلُّهُ تَفْصِيلُ الْحَقِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ . وَيَصْدُرُ عَنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ حَقَائِقُ أُخْرَى فِي الْحَضْرَةِ الْهَبَائِيَّةِ وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْمِثَالِ ثُمَّ عَنْهَا الْعَرْشُ ثُمَّ الْكُرْسِيُّ ثُمَّ الْأَفْلَاكُ . ثُمَّ عَالَمُ الْعَنَاصِرِ . ثُمَّ عَالَمُ التَّرَكِيبِ . هَذَا فِي عَالَمِ الرُّتْقِ فَإِذَا تَجَلَّتْ فِيهِ

(١) وفي النسخة الباريسية ، مصدر .

(٢) وفي نسخة أخرى ، المشترك .

(٣) وفي نسخة أخرى ، والحضرة العمادية وفي النسخة الباريسية ، والحضرة العمالية .

فِي عَالَمِ الْفَتْحِ . وَيُسَمَّى هَذَا الْمَذْهَبُ مَذْهَبَ أَهْلِ التَّجَلِّي وَالْمُظَاهِرِ وَالْخَصَرَاتِ
 وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَقْتَدِرُ^(١) أَهْلُ النَّظَرِ إِلَى تَحْصِيلِ مُقْتَضَاهُ لِعُمُوضِهِ وَانْغِلَاظِهِ وَبَعْدَ
 مَا بَيَّنَّ كَلَامَ صَاحِبِ الْمَشَاهِدَةِ^(٢) وَالْوَجْدَانِ وَصَاحِبِ الدَّلِيلِ . وَرُبَّمَا أَنْكَرَ
 بِظَاهِرِ الشَّرْعِ . هَذَا التَّرْتِيبُ وَكَذَلِكَ ذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِالْوَحْدَةِ
 الْمُطْلَقَةِ وَهُوَ رَأْيُ أَغْرَبِ مِنَ الْأَوَّلِ فِي تَعْقِلِهِ وَتَفَارِيغِهِ ، يَزْعُمُونَ فِيهِ أَنَّ الْوُجُودَ لَهُ
 قُوَى فِي تَفَاصِيلِهِ بِهَا كَانَتْ حَقَائِقُ الْمَوْجُودَاتِ وَصُورُهَا وَمَوَادِّهَا . وَالْعُنَاصِرُ إِنَّمَا
 كَانَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْقُوَى وَكَذَلِكَ مَادَّتُهَا لَهَا فِي نَفْسِهَا قُوَّةٌ بِهَا كَانَ وَجُودُهَا . ثُمَّ إِنَّ
 الْمُرَكَّبَاتِ فِيهَا تِلْكَ الْقُوَى مُتَضَمِّنَةٌ فِي الْقُوَّةِ الَّتِي كَانَ بِهَا التَّرْكِيبُ ، كَالْقُوَّةِ
 الْمَعْدِنِيَّةِ فِيهَا قُوَى الْعُنَاصِرِ بِهَيُولَاهَا وَزِيَادَةِ الْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ ثُمَّ الْقُوَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ
 تَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْمَعْدِنِيَّةَ وَزِيَادَةَ قُوَّتِهَا فِي نَفْسِهَا وَكَذَا الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَعَ الْحَيَوَانِيَّةِ ثُمَّ
 الْفَلَكَ يَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ وَزِيَادَةَ . وَكَذَا الدَّوَاتُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الْجَامِعَةُ
 لِلْكَلِّ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلِ هِيَ الْقُوَّةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي انْبَثَتْ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّئِ
 وَجُزْئِيَّةً وَجَمَعَتْهَا وَأَحَاطَتْ بِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ ، لَا مِنْ جِهَةٍ الظُّهُورِ وَلَا مِنْ جِهَةٍ
 الْخِفَاءِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْمَادَّةِ فَالْكَلُّ وَاحِدٌ وَهُوَ نَفْسُ الدَّاتِ
 الْإِلَهِيَّةِ وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدَةٌ بَسِيطَةٌ وَالْإِعْتِبَارُ هُوَ الْمُفْصَّلُ لَهَا كَالْإِنْسَانِيَّةِ مَعَ
 الْحَيَوَانِيَّةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهَا مُنْدرَجَةٌ فِيهَا وَكَائِنَةٌ بِكُونِهَا . فَتَارَةٌ يُمَثِّلُونَهَا بِالْجِنْسِ مَعَ
 النَّوعِ ، فِي كُلِّ مَوْجُودٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَتَارَةٌ بِالْكَلِّ مَعَ الْجُزْءِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمِثَالِ . وَهُمْ
 فِي هَذَا كُلِّهِ يَفْرُونَ مِنَ التَّرْكِيبِ وَالْكَثْرَةِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَإِنَّمَا أَوْجَبَهَا عَنْدهُمْ
 الْوُجُوهُ وَالْخِيَالُ . وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْمَذْهَبِ أَنَّ
 حَقِيقَةَ مَا يَقُولُونَهُ فِي الْوَحْدَةِ شَبِيهَةٌ بِمَا تَقُولُهُ الْحُكَمَاءُ فِي الْأَلْوَانِ مِنْ أَنَّ وَجُودَهَا
 مَشْرُوطٌ بِالضَّوِّ فَإِذَا عَدِمَ الضَّوُّ لَمْ تَكُنِ الْأَلْوَانُ مَوْجُودَةً بِوَجْهِهِ . وَكَذَا عَنْدهُمْ
 الْمَوْجُودَاتُ الْمَخْسُوسَةُ كُلُّهَا مَشْرُوطَةٌ بِوُجُودِ الْمَذْرُوكِ الْحِسِّيِّ ، بَلْ وَالْمَوْجُودَاتُ

(١) فِي نَسْخَةٍ أُخْرَى ، يَقْدَرُ .

(٢) فِي النِّسْخَةِ الْبَارِيسِيَّةِ ، صَاحِبِ الْمَشَاهِدِ .

الْمَقُولَةُ وَالْمَتَوَهِّمَةُ أَيْضاً مَشْرُوطَةٌ بِوُجُودِ الْمَذْرُكِ الْعَقْلِيِّ فَإِذَا الْوُجُودُ الْمَفْضَلُ
 كُلُّهُ مَشْرُوطٌ بِوُجُودِ الْمَذْرُكِ الْبَشَرِيِّ . فَلَوْ فَرَضْنَا عَدَمَ الْمَذْرُكِ الْبَشَرِيِّ جُمْلَةً لَمْ
 يَكُنْ هُنَاكَ تَفْصِيلُ الْوُجُودِ بَلْ هُوَ بَسِيطٌ وَاحِدٌ فَالْحَرُّ وَالْبَرْدُ وَالصَّلَابَةُ وَاللِّينُ بَلْ
 وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَالنَّارُ وَالسَّمَاءُ وَالْكَوَاكِبُ ، إِنَّمَا وَجَدَتْ لِوُجُودِ الْحَوَاسِّ الْمَذْرُوكَةِ
 لَهَا لِمَا جُعِلَ فِي الْمَذْرُكِ مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَوْجُودِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْمَذَارِكِ
 فَقَطْ فَإِذَا قُدِّمَتِ الْمَذَارِكُ الْمَفْضَلَةُ فَلَا تَفْصِيلَ إِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكٌ وَاحِدٌ وَهُوَ أَنَا
 لَا غَيْرُهُ . وَيَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ بِحَالِ النَّائِبِ فَإِنَّهُ إِذَا نَامَ وَقَدَّ الْحِسُّ الظَّاهِرَ فَقَدَّ كُلُّ
 مَحْسُوسٍ وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَّا مَا يُفْضَلُهُ لَهُ الْخَيَالُ . قَالُوا ، فَكَذَا يَقْظَانُ إِنَّمَا
 يَعْتَبِرُ تِلْكَ الْمَذْرُكَاتِ كُلَّهَا عَلَى التَّفْصِيلِ بِنَوْعِ مَذْرُوكِهِ الْبَشَرِيِّ وَلَوْ قُدِّرَ فَقَدَّ مَذْرُوكِهِ
 فَقَدَّ التَّفْصِيلَ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمُ الْمَوْهَمُ لَا الْوَهْمُ الَّذِي هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَذَارِكِ
 الْبَشَرِيَّةِ . هَذَا مُلَخَّصُ رَأْيِهِمْ عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ وَهُوَ فِي غَايَةِ
 السَّقُوطِ لِأَنَّا نَقْطَعُ بِوُجُودِ الْبَلَدِ الَّذِي نَحْنُ مُسَافِرُونَ عَنْهُ وَإِلَيْهِ يَقِيناً مَعَ غَيْبِهِ عَنْ
 أَغْيَانِنَا وَبِوُجُودِ السَّمَاءِ الْمُظْلَةِ وَالْكَوَاكِبِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْغَائِبَةِ عَنَّا . وَالْإِنْسَانُ
 قَاطِعٌ بِذَلِكَ وَلَا يُكَابِرُ أَحَدٌ نَفْسَهُ فِي الْيَقِينِ مَعَ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ
 الْمُتَأَخِّرِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الْمُرِيدَ عِنْدَ الْكَشْفِ رَبُّمَا يَعْزُضُ لَهُ تَوْهَمُ هَذِهِ الْوَحْدَةِ
 وَيُسَمَّى ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مَقَامَ الْجَمْعِ ثُمَّ يَتَرَقَّى عَنْهُ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ
 وَيَعْبُرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِمَقَامِ الْفَرْقِ وَهُوَ مَقَامُ الْعَارِفِ الْمُحَقِّقِ وَلَا بُدَّ لِلْمُرِيدِ عِنْدَهُمْ
 مِنْ عَقَبَةِ الْجَمْعِ وَهِيَ عَقَبَةٌ صَعْبَةٌ لِأَنَّهُ يُخْشَى عَلَى الْمُرِيدِ مِنْ وَقُوفِهِ عِنْدَهَا فَتَخَسَّرَ
 صَفَقَتَهُ فَقَدَّ تَبَيَّنَتْ مَرَاتِبُ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ
 الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْكَشْفِ وَفِيمَا وَرَاءَ الْحِسِّ تَوَغَّلُوا فِي ذَلِكَ فَذَهَبَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ إِلَى
 الْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَمَلَأُوا الصُّحُفَ مِنْهُ مِثْلَ الزَّهْرَوِيِّ فِي كِتَابِ
 الْمَقَامَاتِ لَهُ وَغَيْرِهِ . وَتَبِعَهُمُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنُ سَبْعِينَ وَتَلْمِيزُهُمَا ابْنُ الْعَفِيفِ
 وَابْنُ الْفَارِضِ وَالنَّجْمُ الْإِسْرَائِيلِيُّ فِي قِصَائِدِهِمْ . وَكَانَ سَلَفُهُمْ مُحَاظِينَ لِلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ

الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الرَّافِضَةِ الدَّائِنِينَ أَيْضاً بِالْحُلُولِ وَالْهَيْئَةِ الْأَيْمَةِ مَذْهَباً لَمْ يُعْرِفْ
لأُولَئِهِمْ فَأَشْرَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مَذْهَبَ الْآخَرِ . وَاخْتَلَطَ كَلَامُهُمْ وَتَشَابَهَتْ
عَقَائِدُهُمْ . وَظَهَرَ فِي كَلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَمَعْنَاهُ رَأْسُ الْعَارِفِينَ .
يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَاوِيَهُ أَحَدٌ فِي مَقَامِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقْبِضَهُ اللَّهُ . ثُمَّ
يُورِثُ مَقَامَهُ لآخرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ . وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ
الْإِشَارَاتِ فِي فُضُولِ التَّصَوُّفِ مِنْهَا فَقَالَ : « جُلُ جَنَابِ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ شِرْعَةً لِكُلِّ
وَارِدٍ أَوْ يَطْلُعَ عَلَيْهِ إِلَّا الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ » . وَهَذَا كَلَامٌ لَا تَقُومُ عَلَيْهِ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ .
وَلَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَطَايَا وَهُوَ بِعَيْنِهِ مَا تَقُولُهُ الرَّافِضَةُ وَدَانُوا
بِهِ . ثُمَّ قَالُوا بِتَرْتِيبِ وَجُودِ الْإِبْدَالِ بَعْدَ هَذَا الْقُطْبِ كَمَا قَالَهُ الشَّيْعَةُ فِي النُّقْبَاءِ .
حَتَّى إِنَّهُمْ لَمَّا أَسْنَدُوا لِبَاسِ خِرْقَةِ التَّصَوُّفِ لِيَجْعَلُوهُ أَضْلاً لَطَرِيقَتِهِمْ وَنَحْلَتِهِمْ رَفَعُوهُ
إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضاً . وَالْأَفْعَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ
يُخْتَصَّ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ بِتَخْلِيَةٍ وَلَا طَرِيقَةٍ فِي لِبَاسٍ وَلَا حَالٍ . بَلْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ
وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَزْهَدَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَكْثَرَهُمْ عِبَادَةً . وَلَمْ
يُخْتَصَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي الدِّينِ بِشَيْءٍ يُؤَثِّرُ عَنْهُ فِي الْخُصُوصِ بَلْ كَانَ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ
أَسْوَةً فِي الدِّينِ وَالزُّهْدِ وَالْمُجَاهَدَةِ .

تَشْهَدُ بِذَلِكَ سِيرَتُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ . نَعَمْ إِنَّ الشَّيْعَةَ يُخَيِّلُونَ بِمَا يَنْغَلُونَ مِنْ ذَلِكَ
اِخْتِصَاصَ عَلِيٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بِالْفَضَائِلِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ ذَهَاباً مَعَ
عَقَائِدِ الشَّيْعِ الْمَعْرُوفَةِ لَهُمْ . وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الْمُتَصَوِّفَةَ بِالْعِرَاقِ ، لَمَّا ظَهَرَتْ
الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنَ الشَّيْعَةِ ، وَظَهَرَ كَلَامُهُمْ فِي الْإِمَامَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ ،
فَاقْتَبَسُوا مِنْ ذَلِكَ الْمُوزَانَةَ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَجَعَلُوا الْإِمَامَةَ لِسِيَاسَةِ الْخَلْفِ فِي
الْإِنْتِقَادِ إِلَى الشَّرْعِ ، وَأَفْرَدُوهُ بِذَلِكَ أَنْ لَا يَقَعَ اخْتِلَافٌ كَمَا تَقَرَّرَ فِي الشَّرْعِ . ثُمَّ
جَعَلُوا الْقُطْبَ لِتَعْلِيمِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ لِأَنَّهُ رَأْسُ الْعَارِفِينَ ، وَأَفْرَدُوهُ بِذَلِكَ تَشْبِيهاً
بِالْإِمَامِ فِي الظَّاهِرِ وَأَنْ يَكُونَ عَلَى وَزَانِهِ فِي الْبَاطِنِ وَسَمُوهُ قُطْباً لِمَدَارِ الْمَعْرِفَةِ

عَلَيْهِ ، وَجَعَلُوا الْأَبْدَالَ كَالنَّقَبَاءِ مُبَالَغَةً فِي التَّشْبِيهِ فَتَأْمَلْ ذَلِكَ .

يَشْهَدُ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِي أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَمَا شَخَّنُوا كُتُبَهُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ لِسَلَفِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِيهِ كَلَامٌ يَنْفِي أَوْ إِيْبَاتٍ وَإِنَّمَا هُوَ مَأْخُودٌ مِنْ كَلَامِ الشَّيْعَةِ وَالرَّافِضَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ فِي كُتُبِهِمْ . وَاللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .

تَذْيِيلُ : وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَجْلِبَ هُنَا فَضْلًا مِنْ كَلَامِ شَيْخِنَا الْعَارِفِ كَبِيرِ الْأَوْلِيَاءِ بِالْأَنْدَلُسِ ، أَبِي مَهْدِي عِيْسَى بْنِ الزِّيَّاتِ كَانَ يَقَعُ لَهُ أَكْثَرُ الْأَوْقَاتِ عَلَى أَبْيَاتِ الْهَرَوِيِّ الَّتِي وَقَعَتْ لَهُ فِي كِتَابِ الْمَقَامَاتِ تُوهِمُ الْقَوْلَ بِالْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ أَوْ يَكَادُ يُصْرَحُ بِهَا وَهِيَ قَوْلُهُ :

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدُ مِنْ وَاحِدٍ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ
تَوْحِيدُ مَنْ يُنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ تَثْنِيَّةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لِاحِدُ

فَيَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْعُذْرِ عَنْهُ : « اسْتَشْكَلَ النَّاسُ إِطْلَاقَ لَفْظِ الْجُمُودِ عَلَى كُلِّ مَنْ وَحَّدَ الْوَاحِدَ وَلَفْظِ الْإِلْحَادِ عَلَى مَنْ نَعْتَهُ وَوصَفَهُ . وَاسْتَشْشَعُوا هَذِهِ الْأَبْيَاتِ وَحَمَلُوا قَائِلَهَا عَلَى الْكُفْرِ وَاسْتَخَفُّوهُ . وَنَحْنُ نَقُولُ عَلَى رَأْيِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ أَنَّ مَعْنَى التَّوْحِيدِ عِنْدَهُمْ انْتِفَاءُ عَيْنِ الْحُدُوثِ بِثُبُوتِ عَيْنِ الْقِدَمِ وَأَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنِّيَّةٌ وَاحِدَةٌ . وَقَدْ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْجَزَارِيُّ مِنْ كِبَارِ الْقَوْمِ ، الْحَقُّ عَيْنُ مَا ظَهَرَ وَعَيْنُ مَا بَطَنَ . وَيَرَوْنَ أَنَّ وَقُوعَ التَّعَدُّدِ فِي تِلْكَ الْحَقِيقَةِ وَجُودَ الْاِثْنَيْنِيَّةِ . وَهُمْ بِإِعْتِبَارِ خَصَرَاتِ الْحِسِّ بِمَنْزِلَةِ صُورِ الضَّلَالِ وَالصِّدَا وَالْمَرَأَى . وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَى عَيْنِ الْقِدَمِ ، إِذَا اسْتَتَبَعَ فَهُوَ غَدَمٌ . وَهَذَا مَعْنَى : كَانَ اللَّهُ ، وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ كَانَ عِنْدَهُمْ . وَمَعْنَى قَوْلِ كَبِيرِ الَّذِينَ صَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ : « أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ، مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ » . قَالُوا : فَمَنْ وَحَّدَ وَنَعْتُ ، فَقَدْ قَالَ بِمَوْجِدٍ مُخَدَّبٍ ، هُوَ نَفْسُهُ ، وَتَوْحِيدٍ مُخَدَّبٍ هُوَ فِعْلُهُ . مُوجُودٌ قَدِيمٌ ، هُوَ مَعْبُودٌ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى التَّوْحِيدِ انْتِفَاءُ عَيْنِ الْحُدُوثِ ، وَعَيْنُ الْحُدُوثِ ، الْآنَ ثَابِتَةٌ
بَلْ مُتَعَدِّدَةٌ ، وَالتَّوْحِيدُ مَجْهُودٌ وَالدَّعْوَى كَاذِبَةٌ . كَمَنْ يَقُولُ لِغَيْرِهِ ، وَهُمَا مَعًا فِي
بَيْتٍ وَاحِدٍ ، لَيْسَ فِي الْبَيْتِ غَيْرُكَ ، فَيَقُولُ الْآخَرُ بِلِسَانِ حَالِهِ : لَا يَصِحُّ هَذَا إِلَّا
لَوْ عُدِمْتَ أَنْتَ ! وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ فِي قَوْلِهِمْ : « خَلَقَ اللَّهُ الزَّمَانَ » هَذِهِ
الْفَاطَةُ تُنَاقِضُ أَصُولَهَا لِأَنَّ خَلْقَ الزَّمَانِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الزَّمَانِ وَهُوَ فِعْلٌ لَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ
فِي الزَّمَانِ ، وَإِنَّمَا حَمَلَ ذَلِكَ ضَيْقُ الْعِبَارَةِ عَنْ الْحَقَائِقِ وَعَجْزُ اللَّغَاتِ عَنْ تَأْدِيَةِ
الْحَقِّ فِيهَا وَبِهَا . فَإِذَا تَحَقَّقَ أَنَّ الْمَوْحَدَ هُوَ الْمَوْحَدُ ، وَعَدَمَ مَا سِوَاهُ جُمْلَةً ، صَحَّ
التَّوْحِيدُ حَقِيقَةً . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ « لَا يَعْرِفُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهَ » وَلَا حَرَجَ عَلَى مَنْ
وَحَدَّ الْحَقَّ مَعَ بَقَاءِ الرُّسُومِ وَالْآثَارِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ : « حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ
الْمُقَرَّبِينَ » . لِأَنَّ ذَلِكَ لَا زِمَ التَّقْيِيدَ وَالْعُبُودِيَّةَ وَالشَّفَعِيَّةَ . وَمَنْ تَرَقَّى إِلَى مَقَامِ
الْجَمْعِ كَانَ فِي حَقِّهِ نَقْصًا ، مَعَ عِلْمِهِ بِمَرْتَبَتِهِ ، وَأَنَّهُ تَلَيَّسَ تَسْتَلْزِمُهُ الْعُبُودِيَّةُ
وَيَرْمَعُهُ الشُّهُودُ وَيُطَهِّرُ مِنْ دَنَسِ حُدُوثِهِ عَيْنُ الْجَمْعِ . وَأَغْرَقَ الْأَصْنَافُ فِي هَذَا
الزَّعْمِ الْقَائِلُونَ بِالْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ . وَمَدَارُ الْمَعْرِفَةِ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ عَلَى الْإِنْتِهَاءِ إِلَى
الْوَاحِدِ ، وَإِنَّمَا صَدَرَ هَذَا الْقَوْلُ مِنَ النَّاضِظِ عَلَى سَبِيلِ التَّخْرِيطِ وَالتَّنْبِيهِ وَالتَّفْطِيحِ
لِمَقَامٍ أَعْلَى تَرْتَفِعُ فِيهِ الشَّفَعِيَّةُ وَيَحْصُلُ التَّوْحِيدُ الْمُطْلَقُ عَيْنًا لَا خِطَابًا . وَعِبَارَةٌ :
فَمَنْ سَلَّمَ اسْتَرَّاحَ وَمَنْ نَارَعَتْهُ حَقِيقَةُ أَنْسَ يَقُولُهُ : كُنْتُ سَمِعُهُ وَبَصَرُهُ . وَإِذَا عَرَفْتَ
الْمَعَانِي لَا مَشَاحَةَ فِي الْأَلْفَاظِ . وَالَّذِي يُفِيدُهُ هَذَا كُلُّهُ تَحَقُّقُ أَمْرِ فَوْقَ هَذَا الطَّوَرِ ،
لَا نَطَقَ فِيهِ وَلَا خَبَرَ عَنْهُ . وَهَذَا الْمَقْدَارُ مِنَ الْإِشَارَةِ كَافٍ . وَالتَّعَمُّقُ فِي مِثْلِ هَذَا
حِجَابٌ ، وَهُوَ الَّذِي أَوْقَعَ فِي الْمَقَالَاتِ الْمَعْرُوفَةِ . انْتَهَى كَلَامُ الشَّيْخِ أَبِي مَهْدِي
الزِّيَّاتِ ، وَتَقْلُتُهُ مِنْ كِتَابِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْخَطِيبِ الَّذِي أَلْفَهُ فِي الْمَحَبَّةِ ، وَسَمَّاهُ
التَّغْرِيفُ بِالْحُبِّ الشَّرِيفِ . وَقَدْ سَمِعْتُهُ مِنْ شَيْخِنَا أَبِي مَهْدِي مِرَارًا ، إِلَّا أَنِّي
رَأَيْتُ رُسُومَ الْكِتَابِ أَوْعَى لَهُ ، لِطَوْلِ عَهْدِي بِهِ . وَاللَّهُ الْمَوْفُقُ .

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْفَتَا انْتَدَبُوا لِلرَّدِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي هَذِهِ

الْمَقَالَاتِ وَأَمْثَالِهَا وَشَمَلُوا بِالنَّكِيرِ سَائِرَ مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي الطَّرِيقَةِ . وَالْحَقُّ أَنَّ كَلَامَهُمْ
 مَعَهُمْ فِيهِ تَفْصِيلٌ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ ، أَحَدُهَا الْكَلَامُ عَلَى الْمُجَاهَدَاتِ وَمَا
 يَخْصُلُ مِنَ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَى الْأَعْمَالِ لِتَحْصُلِ تِلْكَ الْأَذْوَاقِ
 الَّتِي تَصِيرُ مَقَاماً وَيَتَرَقَّى مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ كَمَا قُلْنَا ، وَثَانِيهَا الْكَلَامُ فِي الْكَشْفِ
 وَالْحَقِيقَةِ الْمَذْرُوكَةِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ مِثْلَ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ
 وَالْمَلَائِكَةِ وَالْوَحْيِ وَالنُّبُوءَةِ وَالرُّوحِ وَحَقَائِقِ كُلِّ مَوْجُودٍ غَائِبٍ أَوْ شَاهِدٍ وَتَرْكِيبِ
 الْأَلْوَانِ فِي صُدُورِهَا عَنْ مَوْجُودِهَا وَتَكُونِهَا كَمَا مَرَّ ، وَثَالِثُهَا التَّصَرُّفَاتُ فِي الْعَوَالِمِ
 وَالْأَكْوَانِ بِأَنْوَاعِ الْكِرَامَاتِ ، وَرَابِعُهَا الْفَافُظُ مُوهَمَةُ الظَّاهِرِ صَدَرَتْ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ
 أَيْمَةِ الْقَوْمِ يُعَبَّرُونَ عَنْهَا فِي اضْطِلَاحِهِمْ بِالشُّطْحَاتِ تُسْتَشْكَلُ ظَوَاهِرُهَا فَمُنْكَرٌ
 وَمُخْسِنٌ وَمُتَأَوِّلٌ . فَأَمَّا الْكَلَامُ فِي الْمُجَاهَدَاتِ وَالْمَقَامَاتِ وَمَا يَخْصُلُ مِنَ الْأَذْوَاقِ
 وَالْمَوَاجِدِ فِي نَتَائِجِهَا وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَى التَّقْصِيرِ فِي أَسْبَابِهَا فَأَمَرٌ لَا مَدْفَعَ فِيهِ
 لِأَحَدٍ وَأَذْوَاقُهُمْ فِيهِ صَحِيحَةٌ وَالتَّحَقُّقُ بِهَا هُوَ عَيْنُ السَّعَادَةِ . وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي كِرَامَاتِ
 الْقَوْمِ وَأَخْبَارِهِمْ بِالْمَغْيِبَاتِ وَتَصَرُّفِهِمْ فِي الْكَائِنَاتِ فَأَمَرٌ صَحِيحٌ غَيْرُ مُنْكَرٍ . وَإِنْ
 مَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى إِنْكَارِهَا فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْحَقِّ . وَمَا اخْتَجَّ بِهِ الْأَسْتَاذُ أَبُو
 إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايْنِيُّ مِنْ أَيْمَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ عَلَى إِنْكَارِهَا لِإِلْتِبَاسِهَا بِالْمُعْجَزَةِ فَقَدْ فَرَّقَ
 الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بَيْنَهُمَا بِالتَّحْدِي وَهُوَ دَعْوَى وَقُوعِ الْمُعْجَزَةِ عَلَى وَفْقِ
 مَا جَاءَ بِهِ . قَالُوا ، ثُمَّ إِنَّ وَقُوعَهَا عَلَى وَفْقِ دَعْوَى الْكَاذِبِ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِأَنَّ دَلَالََةَ
 الْمُعْجَزَةِ عَلَى الصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ فَإِنْ صِفَةً نَفْسِهَا التَّصْدِيقُ . فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ الْكَاذِبِ
 لَتَبَدَّلَتْ صِفَةً نَفْسِهَا وَهُوَ مُحَالٌ . هَذَا مَعَ أَنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِوُقُوعِ الْكَثِيرِ مِنْ هَذِهِ
 الْكِرَامَاتِ وَإِنْكَارُهَا نَوْعٌ مَكَابِرَةٌ . وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ وَأكَابِرِ السَّلَفِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ
 وَهُوَ مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ . وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي الْكَشْفِ وَإِعْطَاءِ حَقَائِقِ الْعُلُويَّاتِ وَتَرْتِيبِ
 صُدُورِ الْكَائِنَاتِ فَأَكْثَرُ كَلَامِهِمْ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ الْمُتَشَابِهِ لِمَا أَنَّهُ وَجَدَانِيٌّ عَنْدهُمْ وَفَاقِدُ
 الْوُجْدَانِ عَنْدهُمْ بِمَعْزُولٍ عَنْ أَذْوَاقِهِمْ فِيهِ . وَاللُّغَاتُ لَا تَعْطَى لَهُ دَلَالََةً عَلَى مُرَادِهِمْ

مِنْهُ لِأَنَّهَا لَمْ تُوضَعْ إِلَّا لِلْمُتَعَارِفِ وَأَكْثَرُهُ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ . فَيَنْبَغِي أَنْ لَا تَتَعَرَّضَ
 لِكَلَامِهِمْ فِي ذَلِكَ وَتَتْرَكُهُ فِيمَا تَرَكْنَاهُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ فَهَمَّ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ
 الْكَلِمَاتِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَوْافِقِ لظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ فَأَكْرَمَ بِهَا سَعَادَةً . وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ
 الْمُؤَهَّمَةُ الَّتِي يُعْبَرُونَ عَنْهَا بِالشُّطْحَاتِ وَيُوَاحِدُهُمْ بِهَا أَهْلُ الشَّرْعِ فَأَعْلَمُ أَنَّ
 الْإِنْصَافَ فِي شَأْنِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ أَهْلُ غَيْبَةٍ عَنِ الْحِسِّ وَالْوَارِدَاتِ تَمْلِكُهُمْ حَتَّى يَنْطَقُوا
 عَنْهَا بِمَا لَا يَقْصِدُونَهُ وَصَاحِبُ الْغَيْبَةِ غَيْرُ مُخَاطَبٍ وَالْمَجْبُورُ مَعْذُورٌ . فَمَنْ عَلِمَ
 مِنْهُمْ فَضْلَهُ وَاقْتِدَاؤُهُ حَمَلَ عَلَى الْقَصْدِ الْجَمِيلِ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ وَأَنَّ الْعِبَارَةَ عَنِ
 الْمَوَاجِدِ صَغْبَةٌ لِفَقْدَانِ الْوُضْعِ لَهَا كَمَا وَقَعَ لِأَبِي يَزِيدَ الْبُسْطَامِيِّ وَأَمْثَالِهِ . وَمَنْ لَمْ
 يَعْلَمْ فَضْلَهُ وَلَا اشْتَهَرَ فَمَوَازِدَ بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا مَا يَحْمِلُنَا
 عَلَى تَأْوِيلِ كَلَامِهِ . وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمِثْلِهَا وَهُوَ حَاضِرٌ فِي حِسِّهِ وَلَمْ يَمْلِكْهُ الْحَالُ
 فَمَوَازِدَ أَيْضًا . وَلِهَذَا أَفْتَى الْفُقَهَاءُ وَكَأَبَرُ الْمُتَصَوِّفَةِ بِقَتْلِ الْجَلَّاحِ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي
 حُضُورِهِ وَهُوَ مَالِكٌ لِحَالِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَسَلَفُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَهْلِ الرِّسَالَةِ أَغْلَامُ الْمِلَّةِ
 الَّذِينَ أَشْرَنَّا إِلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حِرْصٌ عَلَى كَشْفِ الْحِجَابِ وَلَا هَذَا النُّوعُ مِنَ
 الْإِذْرَاكِ إِنَّمَا هُمُ الْإِتِّبَاعُ وَالْإِقْتِدَاءُ مَا اسْتَطَاعُوا . وَمَنْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ
 أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَخْفَلْ بِهِ بَلْ يَفْرُونَ مِنْهُ وَيَرَوْنَ أَنَّهُ مِنَ الْعَوَائِقِ وَالْمَحَنِ وَأَنَّهُ
 إِذْرَاكَ مِنْ إِذْرَاكِ النَّفْسِ مَخْلُوقٍ حَدِيثٌ وَأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا تَنْحَصِرُ فِي مَدَارِكِ
 الْإِنْسَانِ . وَعَلِمَ اللَّهُ أَوْسَعَ وَخَلَقَهُ أَكْبَرَ وَشَرِيعَتُهُ بِالْهِدَايَةِ أَمْلَكَ فَلَا يَنْطَقُونَ بِشَيْءٍ
 مِمَّا يُدْرِكُونَ . بَلْ حَظَرُوا الْخَوْضَ فِي ذَلِكَ وَمَنَعُوا مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْحِجَابَ مِنْ
 أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْخَوْضِ فِيهِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ بَلْ يَلْتَزِمُونَ طَرِيقَتَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي عَالَمِ
 الْحِسِّ قَبْلَ الْكَشْفِ مِنَ الْإِتِّبَاعِ وَالْإِقْتِدَاءِ وَيَأْمُرُونَ أَصْحَابَهُمْ بِالْإِزْمَاكِ . وَهَكَذَا
 يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ الْمُرِيدِ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ .

الفصل الثامن عشر

في علم تعبير الرؤيا

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَهُوَ حَادِثٌ فِي الْمِلَّةِ عِنْدَمَا صَارَتْ الْعُلُومُ صَنَائِعَ وَكَتَبَ النَّاسُ فِيهَا . وَأَمَّا الرُّؤْيَا وَالتَّعْبِيرُ لَهَا فَقَدْ كَانَ مَوْجُودًا فِي السَّلَفِ كَمَا هُوَ فِي الْخَلَفِ . وَرُبَّمَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ ^(١) وَالْأَمَمِ مِنْ قَبْلُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا لِلَاكْتِفَاءِ فِيهِ بِكَلَامِ الْمُعْبَّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ . وَالْأَفْهَمُ الرُّؤْيَا مَوْجُودَةٌ فِي صِنْفِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَا بُدَّ مِنْ تَعْبِيرِهَا . فَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ الصَّدِيقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ . وَكَذَلِكَ ثُبُتَ عَنِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالرُّؤْيَا مُذْرَكٌ مِنْ مَذَارِكِ الْغَيْبِ . وَقَالَ ﷺ : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ » . وَقَالَ : « لَمْ يَتَّقِ مِنَ الْمُسْتَرَاتِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تَرَى لَهُ » . وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا انْقَلَبَ ^(٢) مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : « هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا ؟ يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِيَسْتَبْشِرَ بِمَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ ظُهُورُ الدِّينِ وَإِعْزَازُهُ . وَأَمَّا السَّبَبُ فِي كَوْنِ الرُّؤْيَا مُذْرَكًا لِلْغَيْبِ فَهُوَ أَنَّ الرُّوحَ الْقَلْبِيَّ وَهُوَ الْبُخَارُ اللَّطِيفُ الْمُنْبِعُثُ مِنْ تَجْوِيفِ الْقَلْبِ اللَّحْمِيِّ يَنْتَشِرُ فِي الشَّرَيَانَاتِ وَمَعَ الدَّمِ فِي سَائِرِ الْبَدَنِ وَيَبْهِي تَكْمُلُ أَفْعَالُ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ وَإِحْسَاسُهَا . فَإِذَا أَدْرَكَهُ الْمَلَالُ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ فِي الْإِحْسَاسِ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ وَتَضَرِيفِ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَغَشَى سَطْحَ الْبَدَنِ مَا يَغْشَاهُ مِنْ بَرْدِ اللَّيْلِ انْحَبَسَ الرُّوحُ مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِ الْبَدَنِ إِلَى مَرْكَزِهِ الْقَلْبِيِّ فَيَسْتَجِمُّ بِذَلِكَ لِمَعَاوَدَةِ فِعْلِهِ فَتَعَطَّلَتِ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ كُلُّهَا

(١) وفي النسخة الباريسية ، في الملل والأمم .

(٢) وفي نسخة أخرى ، انتقل .

وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى النَّوْمِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا الرُّوحَ الْقَلْبِيَّ هُوَ مَطِيئَةٌ
لِلرُّوحِ الْعَاقِلِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالرُّوحُ الْعَاقِلُ مُدْرِكٌ لِجَمِيعِ مَا فِي عَالَمِ الْأَمْرِ بِذَاتِهِ إِذْ
حَقِيقَتُهُ وَذَاتُهُ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ . وَإِنَّمَا يُنَمَّعُ مِنْ تَعَلُّقِهِ ^(١) لِلْمُدْرَاكِ الْغَيْبِيَّةِ مَا هُوَ فِيهِ
مِنْ حِجَابِ الْإِشْتِغَالِ بِالْبَدَنِ وَقَوَاهُ وَحَوَاسِهِ . فَلَوْ قَدْ خَلَا مِنْ هَذَا الْحِجَابِ وَتَجَرَّدَ
عَنْهُ لَرَجَعَ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَهُوَ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ فَيَعْقِلُ كُلَّ مُدْرِكٍ . فَإِذَا تَجَرَّدَ عَنْ بَعْضِهَا
خَفَّتْ شَوَاعِلُهُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ إِدْرَاكِ لَمَحَّةٍ مِنْ عَالَمِهِ بِقَدْرِ مَا تَجَرَّدَ لَهُ وَهُوَ فِي هَذِهِ
الْحَالَةِ قَدْ خَفَّتْ شَوَاعِلُ الْحِسِّ الظَّاهِرِ كُلِّهَا وَهِيَ الشَّاعِلُ الْأَعْظَمُ فَاسْتَعَدَّ لِقَبُولِ
مَا هُنَالِكَ مِنَ الْمُدْرَاكِ اللَّائِقَةِ مِنْ عَالَمِهِ . وَإِذَا أَدْرَكَ مَا يُدْرِكُ مِنْ عَوَالِمِهِ رَجَعَ بِهِ
إِلَى بَدَنِهِ . إِذْ هُوَ مَا دَامَ فِي بَدَنِهِ جِسْمَانِيٍّ لَا يُمَكِّنُهُ التَّصَرُّفُ إِلَّا بِالْمُدْرَاكِ
الْجِسْمَانِيَّةِ . وَالْمُدْرَاكِ الْجِسْمَانِيَّةِ لِلْعِلْمِ إِنَّمَا هِيَ الدَّمَاعِيَّةُ وَالْمُتَصَرِّفُ مِنْهَا هُوَ
الْخَيَالُ . فَإِنَّهُ يَنْتَزِعُ مِنَ الصُّورِ الْمُخْسُوسَةِ صُوراً خَيَالِيَّةً ثُمَّ يَدْفَعُهَا إِلَى الْحَافِظَةِ
تَحْفَظُهَا لَهُ إِلَى وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا عِنْدَ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ . وَكَذَلِكَ تَجَرَّدُ النَّفْسُ
مِنْهَا صُوراً أُخْرَى نَفْسَانِيَّةً عَقْلِيَّةً فَيَتَرَقَّى التَّجْرِيدُ مِنَ الْمُخْسُوسِ إِلَى الْمَعْقُولِ
وَالْخَيَالِ وَاسِطَةً بَيْنَهُمَا . وَلِذَلِكَ إِذَا أَدْرَكَتِ النَّفْسُ مِنْ عَالَمِهَا مَا تُدْرِكُهُ أَلْفَتُهُ إِلَى
الْخَيَالِ فَيَصَوِّرُهُ بِالصُّورَةِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُ وَيَدْفَعُهُ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ فَيَرَاهُ النَّائِمُ كَأَنَّهُ
مَخْسُوسٌ فَيَتَنَزَّلُ الْمُدْرِكُ مِنَ الرُّوحِ الْعَقْلِيِّ إِلَى الْحِسِّيِّ . وَالْخَيَالُ أَيْضاً وَاسِطَةٌ .
هَذِهِ حَقِيقَةُ الرُّؤْيَا . وَمِنْ هَذَا التَّقْرِيرِ يَظْهَرُ لَكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ
وَأَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ الْكَاذِبَةِ فَإِنَّهَا كُلُّهَا صُورٌ فِي الْخَيَالِ حَالَةُ النَّوْمِ . وَلَكِنْ إِنْ كَانَتْ
تِلْكَ الصُّورُ مُتَنَزِّلَةً مِنَ الرُّوحِ الْعَقْلِيِّ الْمُدْرِكِ فَهِيَ رُّؤْيَا . وَإِنْ كَانَتْ مَأْخُودَةً مِنَ
الصُّورِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ الَّتِي كَانَ الْخَيَالُ أَوْدَعَهَا إِيَّاهَا مِنْذُ الْيَقِظَةِ فَهِيَ أَضْغَاثُ
أَحْلَامٍ .

وَاعْلَمْ أَنَّ لِلرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ عِلَامَاتٍ تُؤَدِّنُ بِصِدْقِهَا وَتَشْهَدُ بِصِحَّتِهَا فَيَسْتَشْعِرُ

(١) وفي نسخة أخرى : تعقله .

الرَّائِي الْبَشَارَةَ مِنَ اللَّهِ مِمَّا أَلْقَى إِلَيْهِ فِي نَوْمِهِ : فَمِنْهَا سُرْعَةُ انْتِبَاهِ الرَّائِي عِنْدَمَا يُدْرِكُ الرُّؤْيَا . كَأَنَّهُ يُعَاجِلُ الرُّجُوعَ إِلَى الْحِسِّ بِالْيَقِظَةِ وَلَوْ كَانَ مُسْتَغْرِقًا فِي نَوْمِهِ . لِنَقْلِ مَا أَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْإِدْرَاكِ فَيَفِرُّ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَى حَالَةِ الْحِسِّ الَّتِي تَبْقَى النَّفْسُ فِيهَا مُنْعِمَةً بِالْبَدَنِ وَعَوَازِيهِ . وَمِنْهَا ثُبُوتُ ذَلِكَ الْإِدْرَاكِ وَدَوَامِهِ بِانْطِبَاعِ تِلْكَ الرُّؤْيَا بِتَفَاصِيلِهَا فِي حِفْظِهِ . فَلَا يَتَخَلَّلُهَا سَهْوٌ وَلَا نِسْيَانٌ . وَلَا يَخْتَاجُ إِلَى إِحْضَارِهَا بِالْفِكْرِ وَالتَّذْكِيرِ . بَلْ تَبْقَى مُتَيَّسَّةً فِي ذَهْنِهِ إِذَا انْتَبَهَ . وَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْهَا . لَأَنَّ الْإِدْرَاكَ النَّفْسَانِي لَيْسَ بِزَمَانِيٍّ وَلَا يُلْحَقُهُ تَرْتِيبٌ . بَلْ يُدْرِكُهُ دَفْعَةً فِي زَمَنِ فَرْدٍ . وَأَضْعَافُ الْأَحْلَامِ زَمَانِيَّةٌ . لَأَنَّهَا فِي الْقَوَى الدِّمَاغِيَّةِ يَسْتَخْرِجُهَا الْخِيَالُ مِنَ الْحَافِظَةِ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرِكِ كَمَا قُلْنَا . وَأَفْعَالُ الْبَدَنِ كُلِّهَا زَمَانِيَّةٌ فَيُلْحَقُهَا التَّرْتِيبُ فِي الْإِدْرَاكِ وَالْمُتَقَدِّمُ وَالْمَتَأَخِّرُ . وَيَعْرِضُ النَّسْيَانُ الْعَارِضُ لِلْقَوَى الدِّمَاغِيَّةِ . وَلَيْسَ كَذَلِكَ مَذَارِكُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ إِذْ لَيْسَتْ بِزَمَانِيَّةٍ . وَلَا تَرْتِيبُ فِيهَا . وَمَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنَ الْإِدْرَاكَاتِ فَيَنْطَبِعُ دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي أَقْرَبِ مَنْ لَمْحِ الْبَصَرِ . وَقَدْ تَبْقَى الرُّؤْيَا بَعْدَ الْإِنْتِبَاهِ حَاضِرَةً فِي الْحِفْظِ أَيْامًا مِنَ الْعُمْرِ . لَا تَشُدُّ بِالْغَفْلَةِ عَنِ الْفِكْرِ بِوَجْهِ إِذَا كَانَ الْإِدْرَاكَ الْأَوَّلُ قَوِيًّا . وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ الرُّؤْيَا بَعْدَ الْإِنْتِبَاهِ مِنَ النَّوْمِ بِأَعْمَالِ الْفِكْرِ وَالْوُجْهِ إِلَيْهَا . وَيَنْسَى الْكَثِيرَ مِنْ تَفَاصِيلِهَا حَتَّى يَتَذَكَّرَهَا فَلَيْسَتْ الرُّؤْيَا بِصَادِقَةٍ . وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ أَضْعَافِ الْأَحْلَامِ . وَهَذِهِ الْعَلَامَاتُ مِنْ خَوَاصِّ الْوُحْيِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ « لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » وَالرُّؤْيَا لَهَا نِسْبَةٌ مِنَ النُّبُوءَةِ وَالْوُحْيِ كَمَا فِي الصَّحِيحِ . قَالَ ﷺ « الرُّؤْيَا جِزَاءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جِزَاءً مِنَ النُّبُوءَةِ » فَلِخَوَاصِّهَا أَيْضًا نِسْبَةٌ إِلَى خَوَاصِّ النُّبُوءَةِ . بِذَلِكَ الْقَدْرِ . فَلَا تَسْتَعِيدُ ذَلِكَ . فَهَذَا وَجْهُ الْحَقِّ . وَاللَّهُ الْخَالِقُ لِمَا يَشَاءُ .

وَأَمَّا مَعْنَى التَّعْبِيرِ فَاعْلَمْ أَنَّ الرُّوحَ الْعَقْلِيَّ إِذَا أَذْرَكَ مَذْرَكَهُ وَأَلْقَاهُ إِلَى الْخِيَالِ

فَصُورُهُ فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي الصُّورِ الْمُنَاسِبَةِ لِذَلِكَ الْمَعْنَى بَعْضُ الشَّيْءِ كَمَا يُدْرِكُ
 مَعْنَى السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ فَيُصَوِّرُهُ الْخَيَالُ بِصُورَةِ الْبَحْرِ أَوْ يُدْرِكُ الْعِدَاوَةَ فَيُصَوِّرُهَا
 الْخَيَالُ فِي صُورَةِ الْحَيَّةِ . فَإِذَا اسْتَيْقَظَ وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى الْبَحْرَ أَوْ
 الْحَيَّةَ فَيَنْظُرُ الْمُعَبَّرُ بِقُوَّةِ التَّشْبِيهِ بَعْدَ أَنْ يَتَيَقَّنَ أَنَّ الْبَحْرَ صُورَةُ مَخْسُوسَةٍ وَأَنَّ
 الْمُدْرِكَ وَرَاءَهَا وَهُوَ يَهْتَدِي بِقَرَائِنَ أُخْرَى تُعَيِّنُ لَهُ الْمُدْرِكَ فَيَقُولُ مَثَلًا : هُوَ
 السُّلْطَانُ لِأَنَّ الْبَحْرَ خَلَقَ عَظِيمٌ يُنَاسِبُ أَنْ يُشَبَّهَ بِهَا السُّلْطَانُ وَكَذَلِكَ الْحَيَّةُ
 يُنَاسِبُ أَنْ تُشَبَّهَ بِالْعَدُوِّ لِعَظَمِ ضَرَرِهَا وَكَذَا الْأَوَانِي تُشَبَّهَ بِالنِّسَاءِ لِأَنَّهُنَّ أَوْعِيَّةٌ
 وَأُمَثَالُ ذَلِكَ . وَمِنَ الْمَرْثِيِّ مَا يَكُونُ صَرِيحًا لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعْبِيرٍ لَجَلَالِهَا وَوُضُوحِهَا
 أَوْ لِقُرْبِ الشَّبَهِ ^(١) فِيهَا بَيْنَ الْمُدْرِكَ وَشَبْهِهِ . وَلِهَذَا وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ الرَّوْيَا ثَلَاثٌ ،
 رَوْيَا مِنَ اللَّهِ وَرَوْيَا مِنَ الْمَلِكِ وَرَوْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ . فَالرَّوْيَا الَّتِي مِنَ اللَّهِ هِيَ
 الصَّرِيحَةُ الَّتِي لَا تَفْتَقِرُ إِلَى تَأْوِيلٍ وَالَّتِي مِنَ الْمَلِكِ هِيَ الرَّوْيَا الصَّادِقَةُ تَفْتَقِرُ إِلَى
 التَّعْبِيرِ ^(٢) وَالرَّوْيَا الَّتِي مِنَ الشَّيْطَانِ هِيَ الْأَضْغَاثُ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَيَالَ إِذَا أَلْقَى إِلَيْهِ
 الرُّوحَ مُدْرِكُهُ . فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي الْقَوَالِبِ الْمُعْتَادَةِ لِلْحِسِّ وَمَا لَمْ يَكُنِ الْحِسُّ أَدْرَكَهُ
 قَطُّ مِنَ الْقَوَالِبِ فَلَا يُصَوِّرُ فِيهِ شَيْئًا فَلَا يُمْكِنُ مِنْ وَلَدِ أَعْمَى أَنْ يُصَوِّرَ لَهُ السُّلْطَانُ
 بِالْبَحْرِ وَلَا الْعَدُوَّ بِالْحَيَّةِ وَلَا النِّسَاءَ بِالْأَوَانِي لِأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ وَإِنَّمَا
 يُصَوِّرُ لَهُ الْخَيَالُ أُمَثَالَ هَذِهِ فِي شَبْهِهَا وَمُنَاسِبِهَا مِنْ جِنْسِ مَذَارِكِهِ الَّتِي هِيَ
 الْمَشْمُوعَاتُ وَالْمَشْمُومَاتُ . وَلَيَتَحَفَّظُ الْمُعَبَّرُ مِنْ مِثْلِ هَذَا فَرُبَّمَا اخْتَلَطَ بِهِ التَّعْبِيرُ
 وَفَسَدَ قَانُونُهُ . ثُمَّ إِنَّ عِلْمَ التَّعْبِيرِ عِلْمٌ بِقَوَانِينٍ كُلِّيَّةٍ يَبْنِي عَلَيْهَا الْمُعَبَّرُ عِبَارَةً
 مَا يَقْصُ عَلَيْهِ . وَتَأْوِيلُهُ كَمَا يَقُولُونَ : الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ
 يَقُولُونَ : الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى الْغَيْظِ ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ : الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى اللَّهِ
 وَالْأَمْرِ الْفَادِحِ . وَمِثْلُ مَا يَقُولُونَ : الْحَيَّةُ تَدُلُّ عَلَى الْعَدُوِّ ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ

(١) وفي نسخة أخرى ، النسبة .

(٢) وفي النسخة الباريسية : إلى تأويل .

يَقُولُونَ : هِيَ كَاتِبٌ سِرٌّ ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ : تَذُلُّ عَلَى الْحَيَاةِ وَأُمْنَالُ ذَلِكَ .
فَيَحْفَظُ الْمُعَبِّرُ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْكُلِّيَّةَ ، وَيَعْبُرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْقَرَائِنُ الَّتِي
تُعَيِّنُ مِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ مَا هُوَ الَّتِيقُ بِالرُّؤْيَا . وَتِلْكَ الْقَرَائِنُ مِنْهَا فِي الْيَقْظَةِ وَمِنْهَا فِي
النُّومِ وَمِنْهَا مَا يَنْقَدِحُ فِي نَفْسِ الْمُعَبِّرِ بِالْخَاصِّيَّةِ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهِ وَكُلُّ مُبَسِّرٍ لِمَا
خُلِقَ لَهُ . وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الْعِلْمُ مُتَنَاقِلًا بَيْنَ السُّلَفِ . وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ فِيهِ مِنْ
أَشْهَرِ الْعُلَمَاءِ وَكُتِبَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْقَوَانِينِ وَتَنَاقَلَهَا النَّاسُ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَأَلَّفَ
الْكُرْمَانِيُّ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ أَلَّفَ الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُتَأَخَّرُونَ وَأَكْثَرُوا . وَالْمُتَدَاوِلُ بَيْنَ
أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ كُتِبَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ الْفَيْرَوَانِيُّ مِنْ عُلَمَاءِ الْفَيْرَوَانِ مِثْلَ
الْمُمْتَعِ وَغَيْرِهِ وَكِتَابُ الْإِشَارَةِ لِلْسَّالِمِيِّ مِنْ أَنْفَعِ الْكُتُبِ فِيهِ وَأَخْضَرَهَا . وَكَذَلِكَ
كِتَابُ الْمَرْقَبَةِ الْعَلِيَّا لِابْنِ رَاشِدٍ مِنْ مَشِيخَتِنَا بِتُونِسَ . وَهُوَ عِلْمٌ مُضِيٌّ بِنُورِ النُّوَّةِ
لِلْمُنَاسِبَةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا وَلِكُونِهَا كَانَتْ مِنْ مَذَارِكِ الْوَحْيِ كَمَا وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ وَاللَّهِ
عَلَامُ الْغُيُوبِ .

الفصل التاسع عشر

في العلوم العقلية وأصنافها

وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ذُو فِكْرٍ فَهِيَ غَيْرُ
مُخْتَصَّةٍ بِمِلَّةٍ بَلْ يُوْجِدُهَا النَّظَرُ^(١) فِيهَا إِلَى أَهْلِ الْمِلَلِ كُلِّهِمْ وَيَسْتَوُونَ فِي مَذَارِكِهَا
وَمَبَاحِثِهَا . وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مُنْذُ كَانَ عُمْرَانُ الْخَلِيقَةِ . وَتُسَمَّى
هَذِهِ الْعُلُومُ عُلُومَ الْفَلَسَفَةِ وَالْحِكْمَةِ وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومَ : الْأَوَّلُ عِلْمُ
الْمَنْطِقِ وَهُوَ عِلْمٌ يَعْصِمُ الذَّهْنَ عَنِ الْخَطَا فِي اقْتِنَاصِ الْمَطَالِبِ الْمَجْهُولَةِ مِنَ الْأُمُورِ
الْحَاصِلَةِ الْمَعْلُومَةِ وَفَائِدَتُهُ تَمْيِيزُ الْخَطَا مِنَ الصَّوَابِ . فِيمَا يَلْتَمِسُهُ النَّاطِرُ فِي

(١) وفي نسخة أخرى : يوجد النظر .

(الْمَوْجُودَاتِ وَعَوَارِضِهَا)^(١) لِيَقِفَ عَلَى تَحْقِيقِ الْحَقِّ فِي الْكَائِنَاتِ نَفِيًا وَثُبُوتًا بِمُنْتَهَى فِكْرِهِ . ثُمَّ النَّظَرُ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ إِمَّا فِي الْمَحْسُوسَاتِ مِنَ الْأَجْسَامِ الْعُنْصَرِيَّةِ وَالْمَكُونَةِ عَنْهَا مِنَ الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَالْأَجْسَامِ الْفَلَكَيَّةِ وَالْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ . وَالنَّفْسُ الَّتِي تَنْبَعُثُ عَنْهَا الْحَرَكَاتُ وَغَيْرَ ذَلِكَ . وَيُسَمَّى هَذَا الْفَنَ بِالْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ وَهُوَ الْعِلْمُ الثَّانِي مِنْهَا . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ مِنَ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ وَهُوَ الثَّلَاثُ مِنْهَا . وَالْعِلْمُ الرَّابِعُ وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومَ وَتُسَمَّى التَّعَالِيمَ . أَوَّلُهَا : عِلْمُ الْهَنْدَسَةِ وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . إِمَّا الْمُنْفَصِلَةَ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا مَعْدُودَةٌ أَوْ الْمُتَّصِلَةَ وَهِيَ إِمَّا ذُو بُعْدٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْخَطُّ أَوْ ذُو بُعْدَيْنِ وَهُوَ السَّطْحُ ، أَوْ ذُو أَسْبَاطٍ ثَلَاثَةٍ وَهُوَ الْجِسْمُ التَّعْلِيمِيُّ . يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْمَقَادِيرِ وَمَا يَغْرِضُ لَهَا إِمَّا مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا أَوْ مِنْ حَيْثُ نِسْبَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ . وَثَانِيهَا عِلْمُ الْأَرْتِمَاطِيْقِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا يَغْرِضُ لِلْكَمِّ الْمُنْفَصِلِ الَّذِي هُوَ الْعَدَدُ وَيُؤْخَذُ لَهُ مِنَ الْخَوَاصِ وَالْعَوَارِضِ اللَّاحِقَةِ . وَثَالِثُهَا عِلْمُ الْمَوْسِقَى وَهُوَ مَعْرِفَةُ نَسَبِ الْأَصْوَاتِ وَالنَّغَمِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَتَقْدِيرُهَا بِالْعَدَدِ وَثَمَرَتُهُ مَعْرِفَةُ تَلَاْحِيْنِ الْغِنَاءِ . وَرَابِعُهَا عِلْمُ الْهَيْئَةِ وَهُوَ تَغْيِينُ الْأَشْكَالِ لِلْأَفْلَاقِ وَحَضْرُ أَوْضَاعِهَا وَتَعَدُّدُهَا لِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ السَّيَّارَةِ وَالثَّابِتَةِ وَالْقِيَامِ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْحَرَكَاتِ السَّمَاءِيَّةِ الْمُشَاهِدَةِ الْمَوْجُودَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَمِنْ رُجُوعِهَا وَاسْتِقَامَتِهَا وَإِقْبَالِهَا وَإِذْبَارِهَا . فَهَذِهِ أَصُولُ الْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ وَهِيَ سَبْعَةٌ : الْمَنْطِقُ وَهُوَ الْمَقْدَمُ مِنْهَا وَبَعْدَهُ التَّعَالِيمُ فَالْأَرْتِمَاطِيْقِي أَوَّلًا ثُمَّ الْهَنْدَسَةُ ثُمَّ الْهَيْئَةُ ثُمَّ الْمَوْسِقَى ثُمَّ الطَّبِيعِيَّاتُ ثُمَّ الْإِلَهِيَّاتُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فُرُوعٌ تَتَفَرَّعُ عَنْهُ . فَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ الطَّبُّ وَمِنْ فُرُوعِ الْعَدَدِ عِلْمُ الْحِسَابِ وَالْفَرَائِضِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَمِنْ فُرُوعِ الْهَيْئَةِ الْأَرْيَاحُ وَهِيَ قَوَائِينُ لِحِسَابِ^(٢) حَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ وَتَعْدِيلِهَا لِلْوُقُوفِ عَلَى مَوَاضِعِهَا مَتَى قَصِدَ ذَلِكَ (وَمِنْ فُرُوعِهَا النَّظَرُ فِي

(١) وَفِي النِّسْخَةِ الْبَارِسِيَّةِ : فِي التَّصَوُّرَاتِ وَالتَّصْدِيقَاتِ الذَّاتِيَّةِ وَالْعَرْضِيَّةِ .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى : حِسَابَاتِ .

النُّجُوم عَلَى الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ) (١) وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهَا .
وَأَعْلَمُ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ غَنِيَ بِهَا فِي الْأَجْيَالِ الَّذِينَ عَرَفْنَا أَخْبَارَهُمُ الْأَمْتَانِ الْعَظِيمَتَيْنِ فِي
الدَّوْلَةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَهُمَا فَارِسُ وَالرُّومُ فَكَانَتْ أَسْوَاقُ الْعُلُومِ نَافِقَةً لَدَيْهِمْ عَلَى
مَا بَلَّغْنَا لِمَا كَانَ الْعُمَرَانُ مُوقُورًا فِيهِمْ وَالدَّوْلَةُ وَالسُّلْطَانُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَعَصْرُهُ لَهُمْ
فَكَانَ لِهَذِهِ الْعُلُومِ بُحُورٌ زَاخِرَةٌ فِي آفَاقِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ . وَكَانَ لِلْكَلْدَانِيِّينَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ
مِنَ السَّرْيَانِيِّينَ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْقُبْطِ عِنَايَةٌ بِالسَّحْرِ وَالنَّجَامَةِ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ
الطَّلَاسِيمِ (٢) وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُمْ الْأَمَمُ مِنْ فَارِسَ وَيُونَانَ فَاخْتَصَّ بِهَا الْقُبْطُ وَطَمَسَ
بَخْرَهَا فِيهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي الْمَثَلُوفِ مِنْ خَبَرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَشَأْنِ السَّحَرَةِ وَمَا نَقَلَهُ
أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ شَأْنِ الْبَرَابَرِيِّ (٣) بِضَعِيدٍ مِضَرٍ . ثُمَّ تَتَابَعَتِ الْمَلَلُ بِحَظَرِ ذَلِكَ
وَتَخْرِيمِهِ فَدُرِسَتْ عُلُومُهُ وَبَطُلَتْ كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَقَايَا يَتَنَاقَلُهَا مُتَّحِلُو هَذِهِ
الصَّنَائِعِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا . مَعَ أَنَّ سُيُوفَ الشَّرْعِ قَائِمَةٌ عَلَى ظُهُورِهَا مَانِعَةٌ مِنْ
اخْتِبَارِهَا . وَأَمَّا الْفَرَسُ فَكَانَ شَأْنُ هَذِهِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ عِنْدَهُمْ عَظِيمًا وَنَظَاقَهَا مُتَّسِعًا
لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ دَوْلَتُهُمْ مِنَ الضَّخَامَةِ وَاتِّصَالِ الْمُلْكِ . وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ إِنَّمَا
وَصَلَتْ إِلَى يُونَانَ مِنْهُمْ حِينَ قَتَلَ الْإِسْكَندَرُ دَارًا وَغَلَبَ عَلَى مَمْلَكَةِ الْكِينِيَّةِ فَاسْتَوْلَى
عَلَى كُتُبِهِمْ وَعُلُومِهِمْ . إِلَّا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا افْتَتَحُوا بِلَادَ فَارِسَ . وَأَصَابُوا مِنْ كُتُبِهِمْ
وَصَحَائِفِ عُلُومِهِمْ مِمَّا لَا يَأْخُذُهُ الْحَضَرُ وَلَمَّا فُتِحَتْ أَرْضُ فَارِسَ وَوَجَدُوا فِيهَا كُتُبًا
كَثِيرَةً كَتَبَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِيَسْتَأْذِنَهُ فِي شَأْنِهَا . وَتَنْقِيلِهَا
لِلْمُسْلِمِينَ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ أَنْ اطْرَحُوهَا فِي الْمَاءِ . فَإِنْ يَكُنْ مَا فِيهَا هَدًى فَقَدْ
هَدَانَا اللَّهُ بِأَهْدَى مِنْهُ وَإِنْ يَكُنْ ضَلَالًا فَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ . فَطَرَحُوهَا فِي الْمَاءِ أَوْ فِي
النَّارِ وَذَهَبَتْ عُلُومُ الْفَرَسِ فِيهَا عَنْ أَنْ تَصِلَ إِلَيْنَا . وَأَمَّا الرُّومُ فَكَانَتِ الدَّوْلَةُ مِنْهُمْ
لِيُونَانَ أَوَّلًا وَكَانَ لِهَذِهِ الْعُلُومِ بَيْنَهُمْ مَجَالٌ رَحْبٌ وَحَمَلَهَا مَشَاهِيرُ مِنْ رِجَالِهِمْ مِثْلُ

(١) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى : وَمِنْ فُرُوعِ النَّظَرِ فِي النُّجُومِ عِلْمُ الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ .

(٢) وَفِي النُّسخَةِ الْبَارِسِيَّةِ : مِنَ التَّأَثِيرَاتِ وَالطَّلَسَمَاتِ .

(٣) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى : الْبَرَابَرِيِّ .

أَسَاطِينِ الْحِكْمَةِ وَغَيْرِهِمْ . وَاخْتَصَّ فِيهَا الْمَشَاوَنَ مِنْهُمْ أَصْحَابَ الرُّوَاقِ بِطَرِيقَةٍ
 حَسَنَةٍ فِي التَّعْلِيمِ كَانُوا يَقْرَأُونَ فِي رَوَاقٍ يُظِلُّهُمْ مِنَ الشَّمْسِ وَالْبَرْدِ عَلَى مَا زَعَمُوا .
 وَاتَّصَلَ فِيهَا سَنَدُ تَعْلِيمِهِمْ عَلَى مَا يَزْعُمُونَ مِنْ لَدُنْ لَقْمَانَ الْحَكِيمِ فِي تِلْمِيزِهِ بِقَرَّاطِ
 الدَّنِّ ، ثُمَّ إِلَى تِلْمِيزِهِ أَفْلَاطُونُ ثُمَّ إِلَى تِلْمِيزِهِ أَرِسْطُو ثُمَّ إِلَى تِلْمِيزِهِ الإسْكَنْدَرُ
 الْأَفْرُودَسِيُّ ، وَتَامِسْطِيُونُ وَغَيْرِهِمْ . وَكَانَ أَرِسْطُو مُعَلِّمًا لِلْإِسْكَنْدَرِ مَلِكِهِمْ الَّذِي
 غَلَبَ الْفُرسَ عَلَى مَلِكِهِمْ وَانْتَزَعَ الْمُلْكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ . وَكَانَ أَرِسْخَهُمْ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ
 قَدَمًا وَأَبْعَدَهُمْ فِيهِ صَيْتًا وَشُهْرَةً . وَكَانَ يُسَمَّى الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ فَطَارَ لَهُ فِي الْعَالَمِ ذِكْرٌ .
 وَلَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ الْيُونَانِ وَصَارَ الْأَمْرُ لِلْقِيَاصِرَةِ وَأَخَذُوا يَدِينَ النُّصْرَانِيَّةِ هَجَرُوا تِلْكَ
 الْعُلُومَ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْمِلَّةُ وَالشَّرَائِعُ فِيهَا . وَبَقِيََتْ فِي صُحُفِهَا وَدَوَابِئِهَا مُخْلَدَةٌ
 بَاقِيَةً فِي خَزَائِنِهِمْ ثُمَّ مَلَكُوا الشَّامَ وَكُتِبَ هَذِهِ الْعُلُومُ بَاقِيَةً فِيهِمْ . ثُمَّ جَاءَ اللَّهُ
 بِالْإِسْلَامِ وَكَانَ لِأَهْلِيهِ الظُّهُورُ الَّذِي لَا كِفَاءَ لَهُ وَابْتَزَوْا الرُّومَ مُلْكَهُمْ فِيمَا ابْتَزَوْهُ
 لِلْأَمَمِ . وَابْتَدَأَ أَمْرُهُمْ بِالسَّدَاجَةِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ الصَّنَائِعِ حَتَّى إِذَا تَبَخَّجَ^(١) مِنَ
 السُّلْطَانِ وَالذُّوْلَةِ وَأَخَذَ الْحَضَارَةَ^(٢) بِالْحِظِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَغْيِرَهُمْ مِنَ الْأَمَمِ وَتَفَنَّنُوا
 فِي الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ . تَشَوَّفُوا إِلَى الْإِطْلَاعِ عَلَى هَذِهِ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ بِمَا سَمِعُوا مِنْ
 الْأَسَاقِفَةِ وَالْأَقْسِيَّةِ الْمُعَاهِدِينَ بَعْضُ ذِكْرِ مِنْهَا وَبِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ أَفْكَارُ الْإِنْسَانِ فِيهَا .
 فَبَعَثَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِكُتُبِ التَّعَالِيمِ مُتَرَجِمَةً
 فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِكِتَابِ أَوْقَلِيدِسَ وَبَعْضِ كُتُبِ الطَّبِيعِيَّاتِ . فَقَرَأَهَا الْمُسْلِمُونَ وَاطَّلَعُوا
 عَلَى مَا فِيهَا وَازْدَادُوا حِرْصًا عَلَى الظُّفْرِ بِمَا بَقِيَ مِنْهَا . وَجَاءَ الْمَأْمُونُ بَعْدَ ذَلِكَ
 وَكَانَتْ لَهُ فِي الْعِلْمِ رَغْبَةٌ بِمَا كَانَ يَنْتَحِلُهُ فَابْتَعَتْ لِهَذِهِ الْعُلُومِ حِرْصًا وَأَوْفَدَ الرُّسُلَ
 عَلَى مُلُوكِ الرُّومِ فِي اسْتِخْرَاجِ عُلُومِ الْيُونَانِيِّينَ وَانْتِسَاحِهَا بِالْخَطِّ الْعَرَبِيِّ وَبَعَثَ
 الْمُتَرْجِمِينَ لِذَلِكَ فَأَوْعَى مِنْهُ وَاسْتَوْعَبَ . وَعَكَفَ عَلَيْهَا النَّظَارُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ
 وَخَذَقُوا فِي فَنُونِهَا وَانْتَهَتْ إِلَى الْغَايَةِ أَنْظَارُهُمْ فِيهَا . وَخَالَفُوا كَثِيرًا مِنْ آرَاءِ الْمُعَلِّمِ

(١) وفي النسخة الباريسية ، انتجع .

(٢) وفي نسخة أخرى ، وأخذوا من الحضارة .

الأول واختصوه بالرّد والقبول لوقوف الشهرة عنده . ودوّنوا في ذلك الدواوين وأرَبُوا على مَنْ تَقَدَّمَهُمْ في هذه العلوم وكان مِنْ أَكابرِهِمْ في المِلة أَبُو نَصْرٍ الْفَارَابِيُّ وَأَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا بِالْمَشْرِقِ وَالْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ وَالْوَزِيرُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الصَّائِغِ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى آخِرِينَ بَلَّغُوا الْغَايَةَ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ . وَاخْتَصَّ هَؤُلَاءِ بِالشُّهْرَةِ وَالذِّكْرِ وَاقْتَصَرَ كَثِيرُونَ عَلَى انْتِحَالِ التَّعَالِيمِ وَمَا يَنْصَافُ إِلَيْهَا مِنْ عُلُومِ النِّجَامَةِ وَالسَّخْرِ وَالطَّلَسَمَاتِ . وَوَقَفَتِ الشُّهْرَةُ فِي هَذَا الْمُنتَحَلِ عَلَى جَابِرِ بْنِ خِيَّانٍ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَمُسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْمَجْرِيطِيِّ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَتَلْمِيذِهِ . وَدَخَلَ عَلَى الْمِلةِ مِنْ هَذِهِ الْعُلُومِ وَأَهْلِهَا دَاخِلَةٌ وَاسْتَهْوَتْ الْكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ بِمَا جَنَحُوا إِلَيْهَا وَقَلَّدُوا آرَاءَهَا وَالذَّنْبُ فِي ذَلِكَ لِمَنْ ارْتَكَبَهُ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ . ثُمَّ إِنَّ الْمَغْرِبَ وَالْأَنْدَلُسَ لَمَّا رَكَدَتْ رِيحُ الْعُمَرَانِ بِهِمَا وَتَنَاقَصَتِ الْعُلُومُ بِتَنَاقُصِهِ اضْمَحَلَّ ذَلِكَ مِنْهُمَا إِلَّا قَلِيلًا مِنْ رُسُومِهِ تَجَدَّدَتْ فِي تَفَارِقٍ مِنَ النَّاسِ وَتَحْتَ رَقَبَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ . وَيَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ أَنَّ بَضَائِعَ هَذِهِ الْعُلُومِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَهُمْ مُؤَفَّرَةٌ وَخُصُوصًا فِي عِرَاقِ الْعَجَمِ وَمَا بَعْدَهُ فِيمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَأَنَّهُمْ عَلَى بَحْ^(١) مِنَ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ لِتَوَفُّرِ عُمرَانِهِمْ وَاسْتِحْكَامِ الْحَضَارَةِ فِيهِمْ . وَلَقَدْ وَقَفْتُ بِمِصْرَ عَلَى تَأْلِيفِ فِي الْمَعْقُولِ مُتَعَدِّدَةً لِرَجُلٍ مِنْ عَظَمَاءِ هَرَاةٍ مِنْ بِلَادِ خُرَّاسَانَ يُشْتَهَرُ بِسَعِيدِ الدِّينِ التَّفْتَازَانِيِّ مِنْهَا فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ وَالْبَيَانِ تَشْهَدُ بِأَنَّ لَهُ مَلَكَتَهُ رَاسِخَةً فِي هَذِهِ الْعُلُومِ . وَفِي أَثْنَائِهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ أَطْلَاعًا عَلَى الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ وَقَدَمًا عَالِيَةً فِي سَائِرِ الْفُنُونِ الْعَقْلِيَّةِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ . كَذَلِكَ بَلَّغْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ الْفَلَسَفِيَّةَ بِبِلَادِ الْإِفْرَنْجَةِ مِنْ أَرْضِ رُومَةٍ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ الْعُدُوةِ الشَّمَالِيَّةِ نَافِقَةٌ الْأَسْوَاقِ وَأَنَّ رُسُومَهَا هُنَاكَ مُتَجَدِّدَةٌ وَمَجَالِسُ تَعْلِيمِهَا مُتَعَدِّدَةٌ وَدَوَاوِينُهَا جَامِعَةٌ مُتَوَفَّرَةٌ وَطَلَبَتُهَا مُتَكَثِّرَةٌ^(٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا هُنَالِكَ وَهُوَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .

(١) وفي النسخة الباريسية ، على نهج . وفي نسخة أخرى ، على ثبح .

(٢) وفي نسخة أخرى ، ودواوينها جامعة وحملتها متوفرون وطلبته متكثرون .

الفصل العشرون

في العلوم العددية

وَأُولَئِهَا الْأَرْتَمَاطِيْقِيُّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ خَوَاصِّ الْأَعْدَادِ مِنْ حَيْثُ التَّالِيفُ إِمَّا عَلَى التَّوَالِي أَوْ بِالتَّضْعِيفِ مِثْلُ أَنَّ الْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ مَتَفَاضِلَةً بِعَدَدٍ وَاحِدٍ فَإِنَّ جَمْعَ الطَّرَفَيْنِ مِنْهَا مُسَاوٍ لَجَمْعِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرَفَيْنِ بَعْدَ وَاحِدٍ وَمِثْلُ ضَعْفِ الْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتْ عِدَّةُ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فَرْدًا مِثْلُ الْأَفْرَادِ ^(١) عَلَى تَوَالِيهَا وَالْأَزْوَاجِ عَلَى تَوَالِيهَا وَمِثْلُ أَنَّ الْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ يَكُونُ أُولُهَا نِصْفَ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا نِصْفَ ثَالِثِهَا الْخ. أَوْ يَكُونُ أُولُهَا ثُلْثَ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا ثُلْثَ ثَالِثِهَا الْخ. فَإِنَّ ضَرْبَ الطَّرَفَيْنِ أَحَدَهُمَا فِي الْآخَرِ كَضَرْبِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرَفَيْنِ بَعْدَ وَاحِدٍ أَحَدَهُمَا فِي الْآخَرِ. وَمِثْلُ مَرْبِعِ الْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتْ الْعِدَّةُ فَرْدًا وَذَلِكَ مِثْلُ أَعْدَادِ زَوْجِ الزَّوْجِ الْمُتَوَالِيَةِ مِنْ اثْنَيْنِ فَأَرْبَعَةٍ فَثَمَانِيَةٍ فَسِتَّةَ عَشَرَ وَمِثْلُ مَا يَخْدُثُ مِنَ الْخَوَاصِّ الْعَدَدِيَّةِ فِي وَضْعِ الْمُثَلَّثَاتِ الْعَدَدِيَّةِ وَالْمَرْبُعَاتِ وَالْمُخَمَّسَاتِ وَالْمُسَدَّسَاتِ إِذَا وَضِعَتْ مُتَتَالِيَةً فِي سَطُورِهَا بِأَنْ يُجْمَعَ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْعَدَدِ الْآخِرِ فَتَكُونُ مُثَلَّثَةً. وَتَتَوَالَى الْمُثَلَّثَاتُ هَكَذَا فِي سَطْرِ تَحْتَ الْأَضْلَاعِ ثُمَّ تَزِيدُ عَلَى كُلِّ مُثَلَّثٍ ثُلْثَ الضِّلْعِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مَرْبُوعَةً. وَتَزِيدُ عَلَى كُلِّ مَرْبُوعٍ مُثَلَّثٌ ^(٢) الضِّلْعِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُخَمَّسَةً وَهَلُمَّ جَرًّا. وَتَتَوَالَى الْأَشْكَالُ عَلَى تَوَالِي الْأَضْلَاعِ وَيَخْدُثُ جَدْوَلٌ ذُو طُولٍ وَعَرْضٍ. فَبِفِي عَرْضِهِ الْأَعْدَادُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ الْمُثَلَّثَاتُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ الْمَرْبُعَاتُ ثُمَّ الْمُخَمَّسَاتُ الْخ وَفِي طُولِهِ كُلُّ عَدَدٍ وَأَشْكَالُهُ بِالْعَا مَا بَلَغَ وَتَخْدُثُ فِي جَمْعِهَا وَقِسْمَةِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ طَوْلًا وَعَرْضًا خَوَاصُّ غَرِيبَةٍ اسْتَقْرَيْتُ مِنْهَا وَتَقَرَّرَتْ فِي دَوَائِبِهِمْ مَسَائِلُهَا كَذَلِكَ مَا يَخْدُثُ لِلزَّوْجِ وَالْفَرْدِ وَزَوْجِ الزَّوْجِ وَزَوْجِ

(١) وفي نسخة أخرى : الأعداد .

(٢) وفي النسخة الباريسية : مثل الضلع .

الْفَرْدُ وَزَوْجُ الزَّوْجِ وَالْفَرْدُ فَإِنَّ لِكُلِّ مِنْهَا خَوَاصَّ مُخْتَصَّةً بِهِ تَضُمُّنَهَا هَذَا الْفَرْقُ
 وَلَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ . وَهَذَا الْفَرْقُ أَوَّلُ أَجْزَاءِ التَّعْلِيمِ وَاتَّبَتْهَا وَيَدْخُلُ فِي بَرَاهِينِ
 الْحِسَابِ . وَلِلْحُكَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ تَأْلِيفٌ ، وَأَكْثَرُهُمْ يَدْرَجُونَهُ فِي
 التَّعْلِيمِ وَلَا يُفَرِّدُونَهُ بِالتَّأْلِيفِ . فَعَلَّ ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّجَاةِ وَغَيْرِهِ
 مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ . وَأَمَّا الْمُتَأَخِّرُونَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ مَهْجُورٌ إِذْ هُوَ غَيْرُ مُتَدَاوِلٍ وَمَنْفَعَتُهُ فِي
 الْبَرَاهِينِ لَا فِي الْحِسَابِ فَهَجَرُوهُ لِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ اسْتَخْلَصُوا زُبْدَتَهُ فِي الْبَرَاهِينِ
 الْحِسَابِيَّةِ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ الْبَنَاءِ فِي كِتَابِ رَفْعِ الْحِجَابِ وَغَيْرِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 أَعْلَمُ . (وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ الْعَدَدِ صِنَاعَةُ الْحِسَابِ) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي حِسَابِ
 الْأَعْدَادِ بِالصُّمِّ وَالتَّفْرِيقِ . فَالصُّمُّ يَكُونُ فِي الْأَعْدَادِ بِالْأَفْرَادِ وَهُوَ الْجَمْعُ .
 وَبِالتَّضْعِيفِ تَضَاعُفٌ عَدْدًا بِأَحَادٍ عَدَدٍ آخَرَ وَهَذَا هُوَ الضَّرْبُ وَالتَّفْرِيقُ أَيْضًا يَكُونُ
 فِي الْأَعْدَادِ إِمَّا بِالْأَفْرَادِ مِثْلَ إِزَالَةِ عَدَدٍ مِنْ عَدَدٍ وَمَعْرِفَةِ الْبَاقِي وَهُوَ الطَّرْحُ أَوْ تَفْضِيلُ
 عَدَدٍ بِأَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ تَكُونُ عِدَّتُهَا مُحْصَلَةٌ وَهُوَ الْقِسْمَةُ . وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا الصُّمُّ
 وَالتَّفْرِيقُ فِي الصَّحِيحِ مِنَ الْعَدَدِ أَوْ الْكَسْرِ . وَمَعْنَى الْكَسْرِ نِسْبَةُ عَدَدٍ إِلَى عَدَدٍ وَتِلْكَ
 النِّسْبَةُ تَسْمَى كَسْرًا . وَكَذَلِكَ يَكُونُ بِالصُّمِّ وَالتَّفْرِيقِ فِي الْجُذُورِ وَمَعْنَاهَا الْعَدْدُ
 الَّذِي يُضْرَبُ فِي مِثْلِهِ فَيَكُونُ مِنْهُ الْعَدْدُ الْمَرْبُوعُ . فَإِنَّ تِلْكَ الْجُذُورَ أَيْضًا يَدْخُلُهَا
 الصُّمُّ وَالتَّفْرِيقُ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ حَادِثَةٌ اخْتِيجُ إِلَيْهَا لِلْحِسَابِ فِي الْمَعَامَلَاتِ وَأَلَّفَ
 النَّاسُ فِيهَا كَثِيرًا وَتَدَاوَلُوهَا فِي الْأَمْصَارِ بِالتَّعْلِيمِ لِلْوِلْدَانِ . وَمِنْ أَحْسَنِ التَّعْلِيمِ
 عِنْدَهُمْ الْإِبْتِدَاءُ بِهَا لِأَنَّهَا مَعَارِفٌ مُتَضَحَّةٌ وَبَرَاهِينٌ مُنْتَظِمَةٌ فَيَنْشَأُ عَنْهَا فِي الْغَالِبِ
 عَقْلٌ مُضِيءٌ دَرَبٌ عَلَى الصَّوَابِ . وَقَدْ يُقَالُ مَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِتَعْلِيمِ الْحِسَابِ أَوَّلَ أَمْرِهِ
 إِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الصَّدَقُ لِمَا فِي الْحِسَابِ مِنْ صِحَّةِ الْمَبَانِي وَمُنَاقَشَةِ النَّفْسِ فَيَصِيرُ
 ذَلِكَ خُلُقًا وَيَتَعَوَّدُ الصَّدَقُ وَيَلَازِمُهُ مَذْهَبًا . وَمِنْ أَحْسَنِ التَّأْلِيفِ الْمَبْسُوطَةُ فِيهَا
 لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ كِتَابُ الْحِصَارِ الصَّغِيرِ . وَلَا بِنِ الْبَنَاءِ الْمَرَاكِشِيُّ فِيهِ تَلْخِصٌ
 ضَاطِعٌ لِقَوَانِينِ أَعْمَالِهِ مُفِيدٌ ثُمَّ شَرَحَهُ بِكِتَابِ سَمَاءِ رَفْعِ الْحِجَابِ وَهُوَ مُسْتَعْلَقٌ عَلَى

الْمُتَبَدِّي بِمَا فِيهِ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْوَثِيقَةِ الْمَبْنِيَّةِ وَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلٌ الْقَدْرِ أَدْرَكْنَا
 الْمَشِيخَةَ تَعْظُمُهُ وَهُوَ كِتَابٌ جَدِيرٌ بِذَلِكَ . وَسَاوَقَ فِيهِ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَ
 فَقِهِ الْحِسَابِ ، لِابْنِ مُنِيعٍ وَالْكَامِلِ لِلْأَخْذَبِ ، وَلَخَصَ بَرَاهِينَهَا وَغَيْرَهَا عَنْ
 اضْطِلَاحِ الْحُرُوفِ فِيهَا إِلَى عِلَلٍ مَعْنَوِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ ، هِيَ سِرُّ الْإِشَارَةِ بِالْحُرُوفِ
 وَزُبْدَتِهَا . وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَعْلَقَةٌ ، وَإِنَّمَا جَاءَهُ الْإِسْتِفْلَاقُ مِنْ طَرِيقِ الْبَرْهَانِ
 بَيِّنٍ ^(١) عُلُومِ التَّعَالِيمِ لِأَنَّ مَسَائِلَهَا وَأَعْمَالَهَا وَاضِحَةٌ كُلُّهَا . وَإِذَا قُصِدَ شَرْحُهَا فَإِنَّمَا
 هُوَ إِعْطَاءُ الْعِلَلِ فِي تِلْكَ الْأَعْمَالِ . وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْعُسْرِ عَلَى الْفَهْمِ مَا لَا يُوْجَدُ فِي
 أَعْمَالِ الْمَسَائِلِ فَتَأَمَّلْهُ . وَاللَّهُ يَهْدِي بَنُورَهُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ . (وَمِنْ
 فُرُوعِهِ الْجَبَرُ وَالْمُقَابَلَةُ) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُسْتَخْرَجُ بِهَا الْعَدَدُ الْمَجْهُولُ مِنْ قَبْلِ
 الْمَعْلُومِ الْمَفْرُوضِ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ تَقْتَضِي ذَلِكَ . فَاضْطَلَحُوا فِيهَا عَلَى أَنْ
 جَعَلُوا لِلْمَجْهُولَاتِ مَرَاتِبَ مِنْ طَرِيقِ التَّضْعِيفِ بِالضَّرْبِ . أَوَّلُهَا الْعَدَدُ لِأَنَّهُ بِهِ
 يَتَعَيَّنُ الْمَطْلُوبُ الْمَجْهُولُ بِاسْتِخْرَاجِهِ مِنْ نِسْبَةِ الْمَجْهُولِ إِلَيْهِ وَثَانِيهَا الشَّيْءُ لِأَنَّ
 كُلَّ مَجْهُولٍ فَهُوَ مِنْ جِهَةٍ إِنْهَامِهِ شَيْءٌ وَهُوَ أَيْضاً جَذَرٌ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ تَضْعِيفِهِ فِي
 الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ وَثَالِثُهَا أَلْمَالُ وَهُوَ أَمْرٌ مِنْهُمْ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَى نِسْبَةِ الْأَسِّ فِي
 الْمَضْرُوبَيْنِ . ثُمَّ يَقَعُ الْعَمَلُ الْمَفْرُوضُ فِي الْمَسْأَلَةِ فَتَخْرُجُ إِلَى مُعَادَلَةٍ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ
 أَوْ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ فَيَقَابِلُونَ بَعْضُهَا بَعْضاً وَيَجْبُرُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْكُسْرِ
 حَتَّى يَصِيرَ صَحِيحاً . وَيَحْطُونَ الْمَرَاتِبَ إِلَى أَقْلِ الْأَسُوسِ إِنْ أَمَكْنَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى
 الثَّلَاثَةِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْجَبَرِ عِنْدَهُمْ وَهِيَ الْعَدَدُ وَالشَّيْءُ وَالْمَالُ . فَإِنْ كَانَتْ
 الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَوَاحِدٍ تَعَيَّنَ ، فَالْمَالُ وَالْجَذَرُ يَزُولُ إِنْهَامُهُ بِمُعَادَلَةِ الْعَدَدِ وَيَتَعَيَّنُ .
 وَالْمَالُ وَإِنْ غَادَلَ الْجَذُورَ فَيَتَعَيَّنُ بِعَدَّتِهَا . وَإِنْ كَانَتْ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ
 أَخْرَجَهُ الْعَمَلُ الْهِنْدَسِيُّ مِنْ طَرِيقِ تَفْصِيلِ الضَّرْبِ فِي الْإِثْنَيْنِ وَهِيَ مِنْهَمَ فَيُعَيَّنُهَا
 ذَلِكَ الضَّرْبُ الْمُفْضَلُ . وَلَا يُمَكِّنُ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ . وَأَكْثَرُ مَا انْتَهَتْ

(١) وفي نسخة أخرى : شَأْنٌ .

المُعَادَلَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى سِتِّ مَسَائِلَ لِأَنَّ الْمُعَادَلَةَ بَيْنَ عَدَدٍ وَجَذَرٍ وَمَالٍ مُفْرَدَةٍ أَوْ مُرَكَّبَةٍ تَجِيءُ سِتَّةَ . وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي هَذَا الْفَنِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْخَوَازِمِيُّ وَبَعْدَهُ أَبُو كَامِلٍ شُجَاعُ بْنُ أَسْلَمَ . وَجَاءَ النَّاسُ عَلَى أَثَرِهِ فِيهِ . وَكِتَابُهُ فِي مَسَائِلِهِ السَّتُّ مِنْ أَحْسَنِ الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ فِيهِ . وَشَرَحَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فَأَجَادُوا وَمِنْ أَحْسَنِ شُرُوحَاتِهِ كِتَابُ الْقُرَشِيِّ . وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ بَعْضَ أَيْمَةِ التَّعَالِيمِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ أَنْهَى الْمُعَامَلَاتِ ^(١) إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هَذِهِ السَّتِّ الْأَجْنَاسِ . وَبَلَّغَهَا إِلَى فَوْقِ الْعِشْرِينَ وَاسْتَخْرَجَ لَهَا كُلَّهَا أَعْمَالًا وَاتَّبَعَهُ بِبَرَاهِينٍ هِنْدَسِيَّةٍ . وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . (وَمِنْ فُرُوعِهِ أَيْضًا الْمَعَامَلَاتُ) . وَهُوَ تَضْرِيفُ الْحِسَابِ فِي مُعَامَلَاتِ الْمُدْنِ فِي الْبَيَاعَاتِ وَالْمَسَاحَاتِ وَالزُّكُوتِ وَسَائِرِ مَا يَغْرُضُ فِيهِ الْعَدَدُ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ يُصَرَّفُ فِي صِنَاعَتِنَا ذَلِكَ الْحِسَابِ ^(٢) فِي الْمَجْهُولِ وَالْمَعْلُومِ وَالْكَسْرِ وَالصَّحِيحِ وَالْجُذُورِ وَغَيْرِهَا . وَالغَرَضُ مِنْ تَكْثِيرِ الْمَسَائِلِ الْمَقْرُوضَةِ فِيهَا حُصُولُ الْيَمَرَانِ وَالذُّرْيَةِ بِتَكَرُّرِ الْعَمَلِ حَتَّى تَرْسَخَ الْمَلَكَةُ فِي صِنَاعَةِ الْحِسَابِ . وَلَأَهْلِ الصَّنَاعَةِ الْحِسَابِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ تَأَلَّفَ فِيهَا مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ أَشْهَرِهَا مُعَامَلَاتُ الزُّهْرَاوِيِّ وَابْنِ السَّمُجِ وَأَبِي مُسْلِمٍ بْنُ خَلْدُونٍ مِنْ تَلْمِيزِ مُسْلَمَةَ الْمَجْرِيطِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ . (وَمِنْ فُرُوعِهِ أَيْضًا الْفَرَائِضُ) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ فِي تَضْحِيحِ السَّهَامِ لِذَوِي الْفُرُوضِ فِي الْوَرَاثَاتِ إِذَا تَعَدَّدَتْ وَهَلَكَ بَعْضُ الْوَارِثِينَ وَانْكَسَرَتْ سَهَامُهُ عَلَى وَرَثَتِهِ أَوْ زَادَتْ الْفُرُوضُ عِنْدَ اجْتِمَاعِهَا وَتَزَاحَمَ عَلَى الْمَالِ كُلِّهِ أَوْ كَانَ فِي الْفَرِيضَةِ إِقْرَارٌ وَإِنْكَارٌ مِنْ بَعْضِ الْوَرَثَةِ فَتَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى عَمَلٍ يُعَيِّنُ بِهِ سَهَامَ الْفَرِيضَةِ مِنْ كَمْ تَصَحُّ وَسَهَامَ الْوَرَثَةِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مُصَحَّحًا حَتَّى تَكُونَ حُظُوظُ الْوَارِثِينَ مِنَ الْمَالِ عَلَى نِسْبَةِ سَهَامِهِمْ مِنْ جُمْلَةِ سَهَامِ الْفَرِيضَةِ . فَيَدْخُلُهَا مِنْ صِنَاعَةِ الْحِسَابِ جُزْءٌ كَثِيرٌ مِنْ صَحِيحِهِ وَكَسْرِهِ وَجَذَرِهِ ^(٣) وَمَعْلُومِهِ وَمَجْهُولِهِ وَتَرْتَّبُ عَلَى تَرْتِيبِ

(١) وفي نسخة أخرى : المعادلات .

(٢) وفي نسخة أخرى : تصرف في ذلك صناعتنا الحساب .

(٣) وفي نسخة أخرى : كسوره وجذوره .

أَبْوَابِ الْفَرَائِضِ الْفَقْهِيَّةِ وَمَسَائِلِهَا . فَتَشْتَمِلُ حِينَئِذٍ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ عَلَى جُزْءٍ مِنَ الْفَقْهِ وَهُوَ أَحْكَامُ الْوَرَاثَةِ^(١) مِنَ الْفُرُوضِ وَالْعَوْلِ وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ وَالْوَصَايَا وَالتَّذْيِيرُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِهَا وَعَلَى جُزْءٍ مِنَ الْحِسَابِ وَهُوَ تَصْحِيحُ السُّهُمَانِ بِإِغْتِبَارِ الْحُكْمِ الْفَقْهِيِّ وَهِيَ مِنْ أَجْلِ الْعُلُومِ . وَقَدْ يُورَدُ أَهْلُهَا أَحَادِيثُ نَبَوِيَّةٌ تَشْهَدُ بِفَضْلِهَا مِثْلُ الْفَرَائِضِ ثَلَاثُ الْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ الْعُلُومِ وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَعِنْدِي أَنَّ ظَوَاهِرَ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي الْفَرَائِضِ الْعَيْنِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ لَا فَرَائِضِ الْوَرَاثَاتِ فَإِنَّهَا أَقَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ فِي كَمِّيَّتِهَا ثَلَاثُ الْعِلْمِ . وَأَمَّا الْفَرَائِضُ الْعَيْنِيَّةُ فَكَثِيرَةٌ وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْفَنِّ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَأَوْعَبُوا وَمِنْ أَحْسَنِ التَّأْلِيفِ فِيهِ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابُ ابْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ الْخَوْفِيِّ وَكِتَابُ ابْنِ الْمُنَمَّرِ وَالْجَعْدِيِّ وَالصُّرَدِيِّ^(٢) وَغَيْرِهِمْ . لَكِنَّ الْفَضْلَ لِلْخَوْفِيِّ فَكِتَابُهُ مُقَدَّمٌ عَلَى جَمِيعِهَا . وَقَدْ شَرَحَهُ مِنْ شُيُوخِنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الشَّطِّطِيُّ كَبِيرُ مَشِيخَةٍ فَاسٍ فَأَوْضَحَ وَأَوْعَبَ . وَلِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ فِيهَا تَأْلِيفٌ عَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ تَشْهَدُ بِاتِّسَاعِ بَاعِهِ فِي الْعُلُومِ ، وَرُسُوحِ قَدَمِهِ ، وَكَذَا لِلْحَنْفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ . وَمَقَامَاتُ النَّاسِ فِي الْعُلُومِ مُخْتَلِفَةٌ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

(١) وفي نسخة أخرى : الوراثة .

(٢) وفي النسخة الباريية : والضوذي .

الفصل الحادي والعشرون

في العلوم الهندسية

هَذَا الْعِلْمُ هُوَ النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ إِمَّا الْمُتَّصِلَةِ كَالْخَطِّ وَالسُّطْحِ وَالْجِسْمِ وَإِمَّا الْمُنْفَصِلَةِ كَالْأَعْدَادِ وَفِيمَا يَغْرُضُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ الدَّائِيَةِ . مِثْلُ أَنْ كُلُّ مُثَلِّثٍ فَرْوَايَاهُ مِثْلُ قَائِمَتَيْنِ . وَمِثْلُ أَنْ كُلَّ خَطَّيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ لَا يَلْتَقِيَانِ فِي وَجْهِهِ وَلَوْ خَرَجَا إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ . وَمِثْلُ أَنْ كُلَّ خَطَّيْنِ مُتَقَاطِعَيْنِ فَالزَّائِغَانِ الْمُتَقَابِلَتَانِ مِنْهُمَا مُتَسَاوِيَتَانِ . وَمِثْلُ أَنْ الْأَرْبَعَةَ مَقَادِيرَ الْمُتَنَاسِبَةِ ضَرْبُ الْأَوَّلِ مِنْهَا فِي الثَّالِثِ كَضَرْبِ الثَّانِي فِي الرَّابِعِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَالْكِتَابُ الْمُتَرْجَمُ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ كِتَابُ أَوَّقْلِيدِسَ وَيُسَمَّى كِتَابُ الْأُصُولِ وَكِتَابُ الْأَرْكَانِ وَهُوَ أَبْسَطُ مَا وَضَعَ فِيهَا لِلْمُتَعَلِّمِينَ وَأَوَّلُ مَا تُرْجِمَ مِنْ كِتَابِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْمِلَّةِ أَيَّامَ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ وَنُسَخُهُ مُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ الْمُتَرْجِمِينَ . فَمِنْهَا لِخُنَيْنِ بْنِ إِسْحَاقَ وَلِثَابِتِ بْنِ قُرَّةَ وَلِيُوسُفَ بْنِ الْحَجَّاجِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسِ عَشْرَةَ مَقَالَةً ، أَرْبَعٌ فِي السُّطُوحِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْأَقْدَارِ الْمُتَنَاسِبَةِ وَأُخْرَى فِي نِسْبِ السُّطُوحِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَلَاثٌ فِي الْعَدَدِ وَالْعَاشِرَةِ فِي الْمَنْطِقَاتِ وَالْقَوَى عَلَى الْمَنْطِقَاتِ وَمَعْنَاهُ الْجُدُورُ وَخَمْسٌ فِي الْمَجَسَّمَاتِ . وَقَدْ اخْتَصَرَهُ النَّاسُ اخْتِصَارَاتٍ ^(١) كَثِيرَةً كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ سِينَا فِي تَعَالِيمِ الشِّفَاءِ . أَفْرَدَ لَهُ جُزْأً مِنْهَا اخْتَصَصَهُ بِهِ . وَكَذَلِكَ ابْنُ الصَّلْتِ فِي كِتَابِ الْإِقْتِصَارِ وَغَيْرِهِمْ . وَشَرَحَهُ آخَرُونَ شُرُوحاً كَثِيرَةً وَهُوَ مَبْدَأُ الْعُلُومِ الْهَنْدَسِيَّةِ بِإِطْلَاقٍ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْهَنْدَسَةَ تَفِيدُ صَاحِبَهَا إِضَاءَةً فِي عَقْلِهِ وَاسْتِقَامَةً فِي فِكْرِهِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا كُلَّهَا بَيِّنَةُ الْإِنْتِظَامِ جَلِيَّةُ التَّرْتِيبِ لَا يَكَاذُ الْغُلَطُ يَدْخُلُ أَقْسَمَتَهَا لِتَرْتِيبِهَا وَانْتِظَامِهَا فَيَبْغِدُ الْفِكْرُ بِمُمَارَسَتِهَا عَنِ الْخَطِإِ وَيَنْشَأُ لِصَاحِبِهَا عَقْلٌ عَلَى ذَلِكَ الْمَهِيغِ وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مَكْتُوباً عَلَى بَابِ أَفْلَاطُونِ : « مَنْ لَمْ يَكُنْ مُهَنْدِساً

(١) وفي نسخة أخرى ، مختصرات .

فَلَا يَدْخُلْنَ مَنْزِلَنَا » وَكَانَ شَيْوَحُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقُولُونَ : « مُمَارَسَةُ عِلْمِ الْهَنْدَسَةِ لِلْفِكْرِ بِمَثَابَةِ الصَّابُونِ لِلثُّوْبِ الَّذِي يَغْسَلُ مِنْهُ الْأَقْدَارُ وَيُنْقِيهِ مِنَ الْأَوْضَارِ وَالْأَذْرَانِ » . وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ تَرْتِيبِهِ وَاتِّظَامِهِ . (ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية والمخروطات) . أَمَّا الْأَشْكَالُ الْكُرْوِيَّةُ فَفِيهَا كِتَابَانِ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ لِثَاوُدُوسِيُوسَ وَمِيلَاوُشَ فِي سَطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَكِتَابُ ثَاوُدُوسِيُوسَ مُقَدِّمٌ فِي التَّعْلِيمِ عَلَى كِتَابِ مِيلَاوُشَ لِتَوْقُفِ كَثِيرٍ مِنْ بَرَاهِينِهِ عَلَيْهِ . وَلَا بُدَّ مِنْهُمَا لِمَنْ يُرِيدُ الْخَوْصَ فِي عِلْمِ الْهَيْئَةِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيْهِ . فَالْكَلَامُ فِي الْهَيْئَةِ كُلُّهُ كَلَامٌ فِي الْكُرَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَمَا يَغْرَضُ فِيهَا مِنَ الْقُطُوعِ وَالِدَوَائِرِ بِأَسْبَابِ الْحَرَكَاتِ كَمَا نَذَكَّرُهُ فَقَدْ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ الْأَشْكَالِ الْكُرْوِيَّةِ سَطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا . وَأَمَّا الْمَخْرُوطَاتُ فَهِيَ مِنْ فُرُوعِ الْهَنْدَسَةِ أَيْضًا . وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِيَمَا يَقَعُ فِي الْأَجْسَامِ الْمَخْرُوطَةِ مِنَ الْأَشْكَالِ وَالْقُطُوعِ وَيَبْرَهِنُ عَلَى مَا يَغْرَضُ لِذَلِكَ مِنَ الْعَوَارِضِ بِبَرَاهِينِ هَنْدَسِيَّةٍ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ . وَفَائِدَتُهَا تَظْهَرُ فِي الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي مَوَادُّهَا الْأَجْسَامُ مِثْلُ النَّجَارَةِ وَالْبِنَاءِ وَكَيْفَ تُصْنَعُ التَّمَائِيلُ الْغَرِيبَةُ وَالْهَيَاكِلُ النَّادِرَةُ وَكَيْفَ يُتَخَيَّلُ عَلَى جَرِّ الْأَثْقَالِ وَنَقْلِ الْهَيَاكِلِ بِالْهَنْدَامِ وَالْمِخَالِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَقَدْ أَفَرَدَ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ فِي هَذَا الْفَنِّ كِتَابًا فِي الْحِيلِ الْعِلْمِيَّةِ يَتَضَمَّنُ مِنَ الصَّنَاعَاتِ الْغَرِيبَةِ وَالْحِيلِ الْمُسْتَظَرَفَةِ كُلَّ عَجِيبَةٍ . وَرَبَّمَا اسْتَفْلَقَ عَلَى الْفُهُومِ لِصُعُوبَةِ بَرَاهِينِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَهُوَ مُوجُودٌ بِأَيْدِي النَّاسِ يَنْسَبُونَهُ إِلَى بَنِي شَاكِرٍ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . (ومن فروع الهندسة المساحة) وَهُوَ فَنٌّ يُخْتِاجُ إِلَيْهِ فِي مَسْحِ الْأَرْضِ وَمَغْنَاهُ اسْتِخْرَاجُ مِقْدَارِ الْأَرْضِ الْمَعْلُومَةِ بِنِسْبَةِ شِبْرِ أَوْ ذِرَاعٍ أَوْ غَيْرِهِمَا وَنِسْبَةِ أَرْضٍ مِنْ أَرْضٍ إِذْ قُوِيَسَتْ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَيُخْتِاجُ إِلَى ذَلِكَ فِي تَوْظِيفِ الْخَرَاجِ عَلَى الْمَزَارِعِ وَالْقُدُنِ وَبَسَاتِينِ الْغِرَاسَةِ وَفِي قِسْمَةِ الْحَوَائِطِ وَالْأَرَاضِي بَيْنَ الشُّرَكَاءِ أَوْ الْوَرَثَةِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَلِلنَّاسِ فِيهَا مَوْضُوعَاتٌ حَسَنَةٌ وَكَثِيرَةٌ وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنْهِ وَكَرَمِهِ . (المناظرة من فروع الهندسة) وَهُوَ

عِلْمٌ يَتَّبِعُنُ بِهِ أَسْبَابَ الْغَلْطِ فِي الْإِذْرَاكِ الْبَصَرِيِّ بِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ
 إِذْرَاكَ الْبَصَرِ يَكُونُ بِمَخْرُوطِ شُعَاعِي رَأْسُهُ نَقْطَةُ الْبَاصِرِ وَقَاعِدَتُهُ الْمَرْئِيُّ . ثُمَّ يَقَعُ
 الْغَلْطُ كَثِيراً فِي رُؤْيَةِ الْقَرِيبِ كَبِيراً وَالْبَعِيدِ صَغِيراً . وَكَذَا رُؤْيَةُ الْأَشْبَاحِ الصَّغِيرَةِ
 تَحْتَ الْمَاءِ وَوَرَاءَ الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَبِيرَةً وَرُؤْيَةُ النُّقْطَةِ النَّازِلَةِ مِنَ الْمَطَرِ خَطاً
 مُسْتَقِماً وَالسُّلْقَةَ ^(١) دَائِرَةً وَأَمْثَالَ ذَلِكَ . فَيَتَّبِعُنُ فِي هَذَا الْعِلْمِ أَسْبَابَ ذَلِكَ وَكَيْفِيَّاتَهُ
 بِالْبَرَاهِينِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَيَتَّبِعُنُ بِهِ أَيْضاً اخْتِلَافَ الْمَنْظَرِ فِي الْقَمَرِ بِاخْتِلَافِ
 الْمَرُوضِ ^(٢) الَّذِي يَتَّبِعُنِي عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ رُؤْيَةِ الْأَهْلَةِ وَحُصُولِ الْكُسُوفَاتِ وَكَثِيرٍ مِنْ
 أَمْثَالِ هَذَا . وَقَدْ أَلَفَ فِي هَذَا الْفَنِّ كَثِيرٌ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ . وَأَشْهُرُهُمْ مِنْ أَلَفَ فِيهِ مِنَ
 الْإِسْلَامِيِّينَ ابْنُ الْهَيْثَمِ . وَلِغَيْرِهِ أَيْضاً تَأْلِيفٌ وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ وَتَفَارِيعِهَا .

الفصل الثاني والعشرون

في علم الهيئة

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي حَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَالْمُحَرِّكَةِ وَالْمُنْتَحِرَةِ . وَيُسْتَدَلُّ
 بِكَيْفِيَّاتِ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ عَلَى أَشْكَالِ وَأَوْضَاعِ لِلْأَفْلَاقِ لَزِمَتْ عَنْهَا لِهَذِهِ الْحَرَكَاتِ
 الْمَحْسُوسَةِ بِطَرُقِ هَنْدَسِيَّةٍ . كَمَا يُبْزَهُنُ عَلَى أَنَّ مَرْكَزَ الْأَرْضِ مَبَايِنٌ لِمَرْكَزِ فَلَكِ
 الشَّمْسِ بِوُجُودِ حَرَكَةِ الْإِقْبَالِ وَالْإِذْبَارِ وَكَمَا يُسْتَدَلُّ بِالرُّجُوعِ وَالِاسْتِقَامَةِ
 لِلْكَوَاكِبِ عَلَى وُجُودِ أَفْلَاقٍ صَغِيرَةٍ حَامِلَةٍ لَهَا مُتَحَرِّكَةً دَاخِلَ فَلَكِهَا الْأَعْظَمِ وَكَمَا
 يُبْزَهُنُ عَلَى وُجُودِ الْفَلَكَ الثَّامِنِ بِحَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَكَمَا يُبْزَهُنُ عَلَى تَعَدُّدِ
 الْأَفْلَاقِ لِلْكَوَاكِبِ الْوَاحِدِ بِتَعَدُّدِ الْمَيُولِ لَهُ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَإِذْرَاكَ الْمَوْجُودِ مِنَ
 الْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا وَأَجْنَاسِهَا إِنَّمَا هُوَ بِالرُّضْدِ فَإِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ الْإِقْبَالِ

(١) ورد في لسان العرب : « ابن شميل ، السلق القاع المطنن المستوي لا شجر فيه . ولم ترد في لسان

العرب كلمة سلق ولمعها مخرفة عن السلق . وفي النسخة الباريية ، والشعلة .

(٢) هي خطوط العرض بخلاف خطوط الطول .

وَالْإِدْبَارَ بِهِ . وَكَذَا تَرْكِيبُ الْأَفْلَاقِ فِي طَبَقَاتِهَا وَكَذَا الرُّجُوعُ وَالِاسْتِقَامَةُ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَكَانَ الْيُونَانِيُّونَ يَعْثَنُونَ بِالرُّضْدِ كَثِيراً وَيَتَّخِذُونَ لَهُ الْآلَاتِ الَّتِي تَوْضَعُ لِرُّضْدِ بِهَا حَرَكَةُ الْكَوَاكِبِ الْمُعَيَّنِ . وَكَانَتْ تَسْمَى عِنْدَهُمْ ذَاتُ الْحَلْقِي وَصِنَاعَةُ عَمَلِهَا وَالْبَرَاهِينُ عَلَيْهِ فِي مُطَابَقَةِ حَرَكَتِهَا بِحَرَكَةِ الْفَلَكَ مَنَقُولٌ بِأَيْدِي النَّاسِ . وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ تَقَعْ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ . وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ شَيْءٌ مِنْهُ وَصَنَعَ هَذِهِ الْآلَةَ الْمَعْرُوفَةَ لِلرُّضْدِ الْمُسَمَّاةِ ذَاتُ الْحَلْقِي . وَشَرَعَ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَتِمَّ . وَلَمَّا مَاتَ ذَهَبَ رَسْمُهُ وَأُغْفِلَ وَاعْتَمَدَ مَنْ بَعْدَهُ عَلَى الْأَرْصَادِ الْقَدِيمَةِ وَلَيْسَتْ بِمُعْنِيَةٍ لِاخْتِلَافِ الْحَرَكَاتِ بِاتِّصَالِ الْأَخْقَابِ . وَأَنَّ مُطَابَقَةَ حَرَكَةِ الْآلَةِ لِلرُّضْدِ بِحَرَكَةِ الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْرِيبِ . وَهَذِهِ الْهَيْئَةُ صِنَاعَةُ شَرِيفَةٍ وَلَيْسَتْ عَلَى مَا يُفْهَمُ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّهَا تُعْطِي صُورَةَ السَّمَاوَاتِ وَتُرْتِيبُ الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ بِالْحَقِيقَةِ بَلْ إِنَّمَا تُعْطِي أَنَّ هَذِهِ الصُّورَ وَالْهَيْئَاتِ لِلْأَفْلَاقِ لَزِمَتْ عَنْ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ . وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدَ لَازِماً لِمُخْتَلَفَيْنِ وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْحَرَكَاتِ لَازِمَةٌ فَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِاللَّازِمِ عَلَى وَجُودِ الْمَلْزُومِ وَلَا يُعْطِي الْحَقِيقَةَ بِوَجْهِهِ عَلَى أَنَّهُ عِلْمٌ جَلِيلٌ وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ التَّعَالِيمِ . وَمِنْ أَحْسَنِ التَّلَافِيهِ فِيهِ كِتَابُ الْمَجِسْطِي مَنْسُوبٌ لِبَطْلِيمُوسَ . وَلَيْسَ مِنْ مُلُوكِ الْيُونَانِ الَّذِينَ أَسْمَاوُهُمْ بَطْلِيمُوسُ عَلَى مَا حَقَّقَهُ شَرَّاحُ الْكِتَابِ . وَقَدْ اخْتَصَرَهُ الْأَيْمَةُ مِنْ حُكَمَاءِ الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ سِينَا وَأَدْرَجَهُ فِي تَعَالِيمِ الشِّفَاءِ . وَلِخُصَّةِ ابْنِ رُشْدٍ أَيْضاً مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَابْنِ السَّمُحِ وَابْنِ أَبِي الصَّلْتِ فِي كِتَابِ الْإِقْتِبَارِ . وَلَا بِنِ الْفَرَّغَانِيِّ هَيْئَةُ مُلْخَصَّةٌ قَرَّبَهَا وَحَذَفَ بَرَاهِينَهَا الْهِنْدُسِيَّةَ . وَاللَّهُ عِلْمُ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ . سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . (وَمِنْ فُرُوعِهِ عِلْمُ الْإِزْيَاجِ ^(١)) . وَهِيَ صِنَاعَةُ حِسَابِيَّةٍ عَلَى قَوَانِينٍ عَدَدِيَّةٍ فِيمَا يَخْصُ كُلُّ كَوْكَبٍ مِنْ طَرِيقِ حَرَكَتِهِ وَمَا أَدَّى إِلَيْهِ بُرْهَانُ الْهَيْئَةِ فِي وَضْعِهِ مِنْ سُرْعَةٍ وَبَطْءٍ وَاسْتِقَامَةٍ وَرُجُوعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ يُعْرَفُ بِهِ مَوَاضِعُ

(١) وفي النسخة الباريسية : حساب الازياج . وفي نسخة أخرى حساب الزيج .

الْكُؤَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا لِأَيِّ وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قَبْلِ حِسَابِ حَرَكَاتِهَا عَلَى تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ كُتُبِ الْهَيْئَةِ . وَلِهَذِهِ الصَّنَاعَةُ قَوَانِينُ كَالْمَقْدُمَاتِ وَالْأَصُولِ لَهَا فِي مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ وَالتَّوَارِيخِ الْمَاضِيَةِ وَأَصُولٌ مُتَقَرَّرَةٌ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَوْجِ وَالْحَضِيضِ وَالْمَيُولِ وَأَصْنَافِ الْحَرَكَاتِ وَاسْتِخْرَاجِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يَضَعُونَهَا فِي جَدْوَلٍ مُرَتَّبَةٍ تَسْهِيلاً عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ وَتُسَمَّى الْأَرْيَاجَ . وَيُسَمَّى اسْتِخْرَاجُ مَوَاضِعِ الْكُؤَاكِبِ لِلْوَقْتِ الْمَفْرُوضِ لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ تَعْدِيلاً وَتَقْوِيماً . وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَأْلِيفُ كَثِيرَةٌ لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ مِثْلَ الْبِتَانِيِّ ^(١) وَابْنِ الْكَمَادِ . وَقَدْ عَوَّلَ الْمُتَأَخَّرُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ عَلَى زَيْجٍ مَنْسُوبٍ لِابْنِ إِسْحَاقَ مِنْ مُنْجَمِيِّ تُونِسَ فِي أَوَّلِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ عَوَّلَ فِيهِ عَلَى الرُّصْدِ . وَأَنَّ يَهُودِيًّا كَانَ بِصِقْلِيَّةَ مَاهِراً فِي الْهَيْئَةِ وَالتَّعَالِيمِ وَكَانَ قَدْ غَنِيَ بِالرُّصْدِ وَكَانَ يُبْعَثُ إِلَيْهِ بِمَا يَقَعُ فِي ذَلِكَ ^(٢) مِنْ أَحْوَالِ الْكُؤَاكِبِ وَحَرَكَاتِهَا فَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ لِدَلِكِ غَنَوْا بِهِ لَوْثَاقَةً مَبْنَاءً عَلَى مَا يَزْعُمُونَ . وَلَخَصَّ ابْنُ الْبَنَاءِ فِي آخِرِ سَمَاءِ الْمِنْهَاجِ قَوْلَهُ يَه النَّاسُ لِمَا سَهَّلَ مِنَ الْأَعْمَالِ فِيهِ وَإِنَّمَا يُخْتِاجُ إِلَى مَوَاضِعِ الْكُؤَاكِبِ مِنَ الْفَلَكَ لِتَتَبَنَّى عَلَيْهَا الْأَحْكَامُ النُّجُومِيَّةُ وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْأَثَارِ الَّتِي تَخْدُثُ عَنْهَا بِأَوَاضَاعِهَا فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمُلْكِ وَالذُّوْلِ وَالْمَوَالِيدِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْكَوَائِنِ الْحَادِثَةِ كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدَ وَتَوْضُحُ فِيهِ أَدَلَّتْهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ .

(١) قوله البتاني بفتح اللوحدة وتشديد اللثاء كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته قبيل آخر الحمددين .

(٢) وفي النسخة الباريسية : بما يصح له من ذلك . .

الفصل الثالث والعشرون

في علم المنطق

وَهُوَ قَوَانِينُ يُعْرَفُ بِهَا الصَّحِيحُ مِنَ الْفَاسِدِ فِي الْحُدُودِ الْمَعْرُوفَةِ^(١) لِلْمَاهِيَّاتِ
وَالْحُجَجِ الْمُفِيدَةِ لِلتَّصْدِيقَاتِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِذْرَاكِ إِنَّمَا هُوَ الْمَخْسُوسَاتُ
بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ . وَجَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ مُشْتَرِكَةٌ فِي هَذَا الْإِذْرَاكِ مِنَ النَّاطِقِ وَغَيْرِهِ
وَأِنَّمَا يَتَمَيَّزُ الْإِنْسَانُ عَنْهَا بِإِذْرَاكِ الْكُلِّيَّاتِ وَهِيَ مُجَرَّدَةٌ مِنَ الْمَخْسُوسَاتِ . وَذَلِكَ
بِأَنَّ يَحْصُلَ فِي الْخِيَالِ مِنَ الْأَشْخَاصِ الْمُتَّفِقَةِ صُورَةٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ تِلْكَ
الْأَشْخَاصِ الْمَخْسُوسَةِ وَهِيَ الْكُلِّيُّ . ثُمَّ يَنْظُرُ الذَّهْنُ بَيْنَ تِلْكَ الْأَشْخَاصِ الْمُتَّفِقَةِ
وَأَشْخَاصٍ أُخْرَى تَوَافَقَهَا فِي بَعْضٍ فَيَحْصُلُ لَهُ صُورَةٌ تَنْطَبِقُ أَيْضًا عَلَيْهِمَا بِإِغْتِبَارِ
مَا اتَّفَقَا فِيهِ . وَلَا يَزَالُ يَرْتَقِي فِي التَّجْرِيدِ إِلَى الْكُلِّ الَّذِي لَا يَجِدُ كُلِّيًّا آخَرَ مَعَهُ
يُؤَافِقُهُ فَيَكُونُ لِأَجْلِ ذَلِكَ بَسِيطًا . وَهَذَا مِثْلُ مَا يَجْرُدُ مِنْ أَشْخَاصِ الْإِنْسَانِ صُورَةٌ
النُّوعِ الْمُنْطَبِقَةُ عَلَيْهِمَا . ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَوَانِ وَيَجْرُدُ صُورَةُ الْجِنْسِ
الْمُنْطَبِقَةُ عَلَيْهِمَا . ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ النَّبَاتِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْجِنْسِ الْعَالِيِّ
وَهُوَ الْجَوْهَرُ فَلَا يَجِدُ كُلِّيًّا يُوَافِقُهُ فِي شَيْءٍ فَيَقِفُ الْعَقْلُ هُنَالِكَ عَنْ التَّجْرِيدِ . ثُمَّ إِنْ
الْإِنْسَانُ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْفِكْرَ الَّذِي بِهِ يَذْرُكُ الْعُلُومَ وَالصَّنَائِعَ وَكَانَ الْعِلْمُ ، إِمَّا
تَصَوُّرًا لِلْمَاهِيَّاتِ وَيُعْنَى بِهِ إِذْرَاكَ سَادَجٍ مِنْ غَيْرِ حُكْمٍ مَعَهُ وَإِمَّا تَصْدِيقًا أَيْ حُكْمًا
يُثْبِتُ أَمْرًا لِأَمْرٍ فَصَارَ سَعْيُ الْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنَّ تُجْمَعَ تِلْكَ
الْكُلِّيَّاتُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ التَّأْلِيفِ فَتَحْصُلُ صُورَةٌ فِي الذَّهْنِ كُلِّيَّةٌ مُنْطَبِقَةٌ
عَلَى أَفْرَادٍ فِي الْخَارِجِ فَتَكُونُ تِلْكَ الصُّورَةُ الذَّهْنِيَّةُ مُفِيدَةً لِمَعْرِفَةِ مَا هِيَ تِلْكَ
الْأَشْخَاصُ وَإِمَّا بِأَنَّ يُحْكَمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيُثْبِتَ لَهُ وَيَكُونُ ذَلِكَ تَصْدِيقًا . وَغَايَتُهُ
فِي الْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى التَّصَوُّرِ لِأَنَّ فَائِدَةَ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ

(١) وفي نسخة أخرى : المعرفة .

الأشياء التي هي مقتضى العلم الحكيم . وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد فاقترض ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية ليميز الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطقي . وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملاً جملاً ومفترقاً مفترقاً . ولم تهذب طرقه ولم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان أرسطو فهذب مباحثه^(١) . ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم الحكيمية وفاتحتها . ولذلك يسمى بالمعلم الأول وكتابه المخصوص بالمنطقي يسمى النص وهو يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة^(٢) في مادته . وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء . فمِنْهَا ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبيعته ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يفيد وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم أو من الظن . وقد ينظر في القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة إنتاجه خاصة . ويقال للنظر الأول إنه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين أو ظن ويقال للنظر الثاني إنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق فكانت لذلك كتب المنطقي ثمانية : الأول في الأجناس العالية التي ينتهي إليها تجريد المحسوسات وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات . والثاني في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب العبارة . والثالث في القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة . ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية . ويختص بشروط أخرى لإفادة اليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك . وفي هذا الكتاب الكلام في المعارف والحدود إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب

(١) وفي النسخة الباريسية : مناحيه .

(٢) وفي النسخة الباريسية : وخمسة .

المطابقة بين الحد والمحدود لا تحتل غيرهما فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب . والخامس : كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث إفادته لهذا الغرض وهي مذكورة هناك . وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس القضايا . والسادس : كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد آلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا إنما كتب ليُعرف به القياس المغالطي فيحذر منه . والسابع : كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات . والثامن : كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على الشيء أو النفرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية . هذه هي كتب المنطقي الثمانية عند المتقدمين . ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورُبّت رَأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور المطابق للماهيات في الخارج ، أو لأجزائها أو عوارضها وهي الجنس والفضل والنوع والخاص والعرض العام ، فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي الفن فصارت تسعاً وترجمت كلها في الملة الإسلامية . وكتبها وتداولها ^(١) فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس . ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها . ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطقي وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرُسوم نقلوها من كتاب البرهان . وحذفوا كتاب المقولات لأن نظر المنطقي في العرض لا بالذات . وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس ^(٢) . وإن كان من كتاب الجدل في كتب المتقدمين لكنه من

(١) وفي نسخة أخرى : تناولها .

(٢) فن الموضوعات المنطقية .

تَوَارِيعُ الْكَلَامِ فِي الْقَضَايَا يَبْغِضُ الْوُجُوهَ ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِي الْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ إِنْتَاجُهُ
لِلْمَطَالِبِ عَلَى الْعُمُومِ لَا بِحَسَبِ مَادَّةٍ وَحَدِّقُوا النَّظَرَ فِيهِ بِحَسَبِ الْمَادَّةِ وَهِيَ
الْكُتُبُ الْخَمْسَةُ ، الْبَرْهَانُ وَالْجَدَلُ وَالْخُطَابَةُ وَالشَّعْرُ وَالشُّفُطَةُ . وَرُبَّمَا يُلَمُّ
بَعْضُهُمْ بِالْيَسِيرِ مِنْهَا إِلْمَامًا وَأَغْفَلُوهَا كَأَن لَّمْ تَكُنْ هِيَ الْمُهْمُ الْمُعْتَمَدُ فِي الْفَنِّ . ثُمَّ
تَكَلَّمُوا فِيمَا وَضَعُوهُ مِنْ ذَلِكَ كَلَامًا مُسْتَبْجِرًا وَنَظَرُوا فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَنٌّ بِرَأْسِهِ
لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ آلَةٌ لِلْعُلُومِ فَطَالَ الْكَلَامُ فِيهِ وَاتَّسَعَ . وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ الْإِمَامُ فَخْرُ
الدِّينِ بَنُ الْخَطِيبِ وَمِنْ بَعْدِهِ أَفْضَلُ الدِّينِ الْخُونِجِيُّ وَعَلَى كُتُبِهِ مُعْتَمَدُ الْمَشَارِقَةِ
لِهَذَا الْعَهْدِ . وَلَهُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ كِتَابٌ كَشَفَ الْأَسْرَارَ وَهُوَ طَوِيلٌ وَاخْتَصَرَ فِيهَا
مُخْتَصَرَ الْمَوْجِزِ وَهُوَ حَسَنٌ فِي التَّعْلِيمِ ثُمَّ مُخْتَصَرَ الْجَمَلِ فِي قَدَرِ أَرْبَعَةِ أَوْزَاقٍ أَخَذَ
بِمَجَامِيعِ الْفَنِّ وَأَصُولِهِ فَتَدَاوَلَهُ الْمُتَعَلِّمُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ . وَهَجَرَتْ كُتُبُ
الْمُتَقَدِّمِينَ وَطُرِفَهُمْ كَأَن لَّمْ تَكُنْ وَهِيَ مُمْتَلِكَةٌ مِنْ ثَمَرَةِ الْمَنْطِقِ وَفَائِدَتِهِ كَمَا قُلْنَا .
وَاللَّهُ الْهَادِي لِلصَّوَابِ .

إِعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْفَنَّ قَدْ اشْتَدَّ النِّكَيرُ عَلَى انْتِحَالِهِ مِنْ مُتَقَدِّمِي السَّلَفِ
وَالْمُتَكَلِّمِينَ ، وَبَالَغُوا فِي الطَّغْيِ عَلَيْهِ وَالتَّخْذِيرِ مِنْهُ ، وَحَظَرُوا تَعَلُّمَهُ وَتَعْلِيمَهُ .
وَجَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَدُنِ الْغَزَالِيِّ وَالْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ ، فَسَامَحُوا فِي
ذَلِكَ بَعْضُ الشَّيْءِ . وَأَكْبَ النَّاسُ عَلَى انْتِحَالِهِ مِنْ يَوْمِئِذٍ إِلَّا قَلِيلًا ، يَجْنَحُونَ فِيهِ
إِلَى رَأْيِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، فَيَنْفِرُونَ عَنْهُ وَيُبَالِغُونَ فِي إنْكَارِهِ . فَلْنُبَيِّنْ لَكَ نُكْتَةَ الْقَبُولِ
وَالرَّدِّ فِي ذَلِكَ ، لَتَعْلَمَ مَقَاصِدَ الْعُلَمَاءِ فِي مَذَاهِبِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ لَمَّا وَضَعُوا
عِلْمَ الْكَلَامِ لِنَصْرِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ ، كَانَتْ طَرِيقَتُهُمْ فِي ذَلِكَ
بِأَدْلَةٍ خَاصَّةٍ وَذَكَرُوهَا فِي كُتُبِهِمْ كَالدَّلِيلِ عَلَى حَدَثِ الْعَالَمِ بِإثْبَاتِ الْأَعْرَاضِ
وَحُدُوثِهَا ، وَامْتِنَاعِ خُلُوقِ الْأَجْسَامِ عَنْهَا ، وَمَا لَا يَخْلُو عَنْ الْحَوَادِثِ حَدِثٌ .
وَكُثِبَاتِ التَّوْحِيدِ بِدَلِيلِ التَّمَانُعِ ، وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ الْقَدِيمَةِ بِالْجَوَامِيعِ الْأَرْبَعَةِ
إِلْحَاقًا لِلْغَائِبِ بِالشَّاهِدِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُدْلِيَّتِهِ الْمَذْكُورَةِ فِي كُتُبِهِمْ . ثُمَّ مَرَّرُوا تِلْكَ

الأدلة بتمهيد قواعد وأصول هي كالمقدمات لها مثل إثبات الجوهر الفرد والزمن
 الفرد والخلاء بين الأجسام ونفي الطبيعة والتركيب العقلي للماهيات . وأن
 العرض لا يبقى زمنين وإثبات الحال وهي صفة لموجود ، لا موجودة ولا معدومة
 وغير ذلك من قواعدهم التي بنوا عليها أدلتهم الخاصة . ثم ذهب الشيخ أبو
 الحسن ، والقاضي أبو بكر والأستاذ أبو إسحاق إلا أن أدلة العقائد منعكسة
 بمعنى أنها إذا بطلت بطل مدلولها . ولهذا رأى القاضي أبو بكر أنها بمثابة
 العقائد والقَدْخ فيها قَدْخ في العقائد لإتنائها عليها . وإذا تأملت المنطق وجدته
 كله يدور على التركيب العقلي ، وإثبات الكلّي الطبيعي في الخارج لينطبق عليه
 الكلّي الذهني المنقسم إلى الكلّيات الخمس ، التي هي الجنس والنوع والفضل
 والخاصة والعرض العام ، وهذا باطل عند المتكلمين . والكلّي الذاتي عندهم
 إنما اعتباراً ذهني ليس في الخارج ما يطابقه ، أو حال عند من يقول بها فتبطل
 الكلّيات الخمس والتعريف المبني عليها . والمقولات العشر ، وينبطل العرض
 الذاتي ، فتبطل بطلانه القضايا الضرورية الذاتية المشروطة في البرهان وتبطل
 المواضع التي هي لباب كتاب الجدال . وهي التي يؤخذ منها الوسط الجامع بين
 الطرفين في القياس ، ولا يبقى إلا القياس الصوري ، ومن التعريفات المساوية في
 الصادقية على أفراد المحمود ، لا يكون أعم منها ، فيدخل غيرها ، ولا أخص
 فيخرج بعضها ، وهو الذي يعبر عنه النحاة بالجمع والمنع والمتكلمون بالطرّد
 والعكس ، وتنهيد أركان المنطق جملة . وإن أثبتنا هذه كما في علم المنطق
 أبطلنا كثيراً من مقدمات المتكلمين فيؤدي إلى إبطال أدلتهم على العقائد كما
 مر . فلهذا بالغ المتقدمون من المتكلمين في النكير على انتحال المنطق وعدّه
 بدعة أو كفراً على نسبة الدليل الذي ينطل . والمتأخرون من لدن الغزالي لما
 أنكروا انعكاس الأدلة ، ولم يلزم عندهم من بطلان الدليل بطلان مدلوله ، وصح
 عندهم رأي أهل المنطق في التركيب العقلي ووجود الماهيات الطبيعية وكلّياتها

في الخارج ، قَضُوا بِأَنَّ الْمَنْطِقَ غَيْرُ مُنَافٍ لِلْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِياً لِبَعْضِ أُدْلَتِهَا ، بَلْ قَدْ يَسْتَدِلُّونَ عَلَى إِبْطَالِ كَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الْمُقَدَّمَاتِ الْكَلَامِيَّةِ ، كَنَفْيِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْخَلَاءِ وَبَقَاءِ الْأَعْرَاضِ وَغَيْرِهَا ، وَيَسْتَدِلُّونَ مِنْ أُدْلَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ عَلَى الْعَقَائِدِ بِأَدْلَةٍ أُخْرَى يُصَحِّحُونَهَا بِالنَّظَرِ وَالْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ . وَلَمْ يَفْدَخْ ذَلِكَ عَنْدهُمْ فِي الْعَقَائِدِ السُّنِّيَّةِ بَوَاحٍ . وَهَذَا رَأْيُ الْإِمَامِ وَالْغَزَالِيِّ وَتَابِعِيهِمَا لِهَذَا الْعَهْدِ ، فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ وَاعْرِفْ مَذَارِكَ الْعُلَمَاءِ وَمَا خِذِهِمْ فِيمَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ . وَاللَّهُ الْهَادِي وَالْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ .

الفصل الرابع والعشرون

في الطبيعيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ الْجِسْمِ مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ فَيَنْظُرُ فِي الْأَجْسَامِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْغُنْصُرِيَّةِ وَمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهَا مِنْ حَيَوَانٍ وَإِنْسَانٍ وَنَبَاتٍ وَمَعْدِنٍ وَمَا يَتَكَوَّنُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْعُيُونِ وَالزَّلَازِلِ وَفِي الْجَوْ مِنْ السُّحَابِ وَالْبُخَارِ وَالرُّغْدِ وَالْبَرْقِ وَالصَّوَاعِقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَفِي مَبْدَأِ الْحَرَكَةِ لِلْأَجْسَامِ وَهُوَ النَّفْسُ عَلَى تَنَوُّعِهَا فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ . وَكُتِبَ أَرِسْطُو فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ تُرْجِمَتْ مَعَ مَا تُرْجَمُ مِنْ عُلُومِ الْفَلَسَفَةِ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ وَأَلَّفَ النَّاسُ عَلَى خَذْوِهَا مُسْتَشْبِعِينَ لَهَا بِالْبَيَانِ وَالشَّرْحِ وَأَوْعَبَ مَنْ أَلَّفَ فِي ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ جَمَعَ فِيهِ الْعُلُومَ السَّبْعَةَ لِلْفَلَسَفَةِ كَمَا قَدَّمْنَا ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ النَّجَا وَفِي كِتَابِ الْإِشَارَاتِ وَكَأَنَّهُ يُخَالِفُ أَرِسْطُو فِي الْكَثِيرِ مِنْ مَسَائِلِهَا وَيَقُولُ بِرَأْيِهِ فِيهَا . وَأَمَّا ابْنُ رُشْدٍ فَلَخَّصَ كُتُبَ أَرِسْطُو وَشَرَحَهَا مُتَّبِعاً لَهُ غَيْرَ مُخَالِفٍ . وَأَلَّفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ كَثِيراً لَكِنَّ هَذِهِ هِيَ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَالْمُعْتَبَرَةُ فِي الصَّنَاعَةِ . وَلَأَهْلِ الْمَشْرِقِ عِنَايَةٌ بِكِتَابِ الْإِشَارَاتِ لِابْنِ سِينَا وَلِلْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ عَلَيْهِ شَرَحٌ حَسَنٌ وَكَذَا الْإِمْدِيُّ وَشَرَحَهُ

أَيْضاً نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِيَّ الْمَعْرُوفَ بِخَوَاجَه مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ ^(١) وَبَحَثَ مَعَ الْإِمَامِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِهِ فَأَوْفَى عَلَى أَنْظَارِهِ وَبُحُوثِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِمُ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

الفصل الخامس والعشرون

في علم الطب

وَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ صِنَاعَةُ الطَّبِّ وَهِيَ صِنَاعَةٌ تَنْظُرُ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ يَمْرُضُ وَيَصِحُّ فَيَحَاوِلُ صَاحِبُهَا حِفْظَ الصَّحَّةِ وَبَرَاءَ الْمَرَضِ بِالأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ بَعْدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ الْمَرَضُ الَّذِي يَخْصُ كُلُّ غُضْوٍ مِنْ أَغْضَاءِ الْبَدَنِ وَأَسْبَابِ تِلْكَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تُنشَأُ عَنْهَا وَمَا لِكُلِّ مَرَضٍ مِنَ الْأَدْوِيَةِ مُسْتَدَلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِأَمْرِجَةِ الْأَدْوِيَةِ وَقَوَاهَا وَعَلَى الْمَرَضِ بِالْعَلَامَاتِ الْمُؤَدِّنِ بِنُضْجِهِ وَقَبُولِهِ الدَّوَاءَ أَوَّلًا ، فِي السَّجِيَّةِ وَالْفَضْلَاتِ وَالنَّبْضِ مُحَازِينَ لِذَلِكَ قُوَّةَ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّهَا الْمُدَبِّرَةُ فِي خَالَتِهَا الصَّحَّةَ وَالْمَرَضَ . وَإِنَّمَا الطَّبِيبُ يُحَازِيهَا وَيُعِينُهَا بَغَضِ الشَّيْءِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْمَادَّةِ وَالْفَضْلِ وَالسَّنِّ وَيُسَمَّى الْعِلْمُ الْجَامِعُ لِهَذَا كُلِّهِ عِلْمُ الطَّبِّ . وَرُبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضُ الْأَغْضَاءِ بِالْكَلامِ وَجَعَلُوهُ عِلْمًا خَاصًّا ، كَالْعَيْنِ وَعِلْمِهَا وَأُكْخَالِهَا . وَكَذَلِكَ أَلْحَقُوا بِالْفَنِّ مِنْ مَنَافِعِ الْأَغْضَاءِ وَمَعْنَاهَا الْمَنْفَعَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا خُلِقَ كُلُّ غُضْوٍ مِنْ أَغْضَاءِ الْبَدَنِ الْحَيَوَانِيِّ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الطَّبِّ إِلَّا أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاحِقِهِ وَتَوَابِعِهِ . وَإِمَامُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي تُرْجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا مِنَ الْأَقْدَمِينَ جَالِينُوسُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُعَاصِرًا لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ بِصِقْلِيَّةٍ فِي سَبِيلِ تَغْلِبِ ^(٢) وَمُطَاوَعَةِ اغْتِرَابِ . وَتَأْلِيفُهُ فِيهَا هِيَ الْأَمْهَاتُ الَّتِي

(١) وفي النسخة الباريسية ، من أهل العراق . ومقتضى السياق ، المعروف بين أهل العراق بخواجه

والذكور ولد بطوس من أعمال إيران وتوفي في بغداد (كتاب الاعلام لخير الدين الزركلي) ج ١

(٢) وفي النسخة الباريسية ، تغلب .

اقتدى بها جميع الأطباء بعده . وكان في الإسلام في هذه الصناعة أئمة جاءوا من وراء الغاية مثل الرازي والمجوسي وابن سينا ومن أهل الأندلس أيضاً كثير وأشهرهم ابن زهر . وهي لهذا العهد في المدن الإسلامية كأنها تقصت لوقوف العمران وتناقصه وهي من الصنائع التي لا تستدعيها إلا الحضارة والترّف كما نبئناه بعد . وللبادية من أهل العمران طبّ يبتونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحيّ وعجائزه ، وربّما يصحّ منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج . وكان عند العرب من هذا الطبّ كثير وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره . والطبّ المنقول في الشرعيات ^(١) من هذا القبيل وليس من الوحي في شيء وإنما هو أمر كان عادياً للعرب . ووقع في ذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجيلة لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل . فإنه ﷺ إنما بعث ليعلّمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطبّ ولا غيره من العاديات . وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطبّ الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع فليس هناك ما يدلّ عليه اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرّك وصدق العقد الإيمانيّ فيكون له أثر عظيم في النفع . وليس ذلك في الطبّ المزاجي وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية كما وقع في مداواة المبطلون بالفسل ونحوه والله الهادي إلى الصواب لا ربّ سواه .

(٧) وفي النسخة الباريسية : في النبوات .

الفصل السادس والعشرون

في الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَهِيَ النَّظَرُ فِي النَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ تَنْمِيَّتُهُ وَنُشْؤُهُ بِالسَّقْيِ وَالْعِلَاجِ وَتَعْمُدُهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ^(١) وَكَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ بِهَا عِنَايَةً كَثِيرَةً وَكَانَ النَّظَرُ فِيهَا عِنْدَهُمْ عَامًّا فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَنْمِيَّتِهِ وَمِنْ جِهَةِ خَوَاصِّهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ وَمُشَاكَلَتِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ الْكَوَاكِبِ وَالْهَيَاكِلِ الْمُسْتَعْمَلِ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي بَابِ السَّحْرِ فَقَطَّمَتْ عِنَايَتَهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ . وَتُرْجَمُ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ كِتَابُ الْفَلَاحَةِ النَّبْطِيَّةِ مَنْسُوبَةً لِعُلَمَاءِ النَّبْطِ مُشْتَمِلَةً مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ كَبِيرٍ . وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ الْمِلَّةِ فِيهَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ وَكَانَ بَابُ السَّحْرِ مَسْدُودًا وَالنَّظَرُ فِيهِ مَخْظُورًا فَاقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلَى الْكَلَامِ فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَعِلَاجِهِ وَمَا يَغْرُضُ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَذَفُوا الْكَلَامَ فِي الْفَنِّ الْآخَرِ مِنْهُ جُمْلَةً . وَاخْتَصَرَ ابْنُ الْعَوَامِ كِتَابَ الْفَلَاحَةِ النَّبْطِيَّةِ عَلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ وَبَقِيَ الْفَنُّ الْآخَرُ مِنْهُ مُغْفَلًا . نَقَلَ مِنْهُ مُسَلِّمَةٌ فِي كُتُبِهِ السَّحَرِيَّةِ أُمَهَاتٍ مِنْ مَسَائِلِهِ كَمَا نَذَكُرُهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى السَّحْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَكُتِبَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْفَلَاحَةِ كَثِيرَةٌ وَلَا يَعْدُونَ فِيهَا الْكَلَامَ فِي الْغِرَاسِ وَالْعِلَاجِ وَحَفِظَ النَّبَاتِ مِنْ خَوَائِجِهِ وَعَوَائِقِهِ وَمَا يَغْرُضُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ .

(١) وفي نسخة أخرى ، بالسقي والملاج واستجادة النبات وصلاحيه الفصل وتعاذه بما يصلحه ويتمه من

ذلك كله .

الفصل السابع والعشرون

في علم الإلهيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي الوجودِ الْمُطْلَقِ فَأَوَّلًا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ لِلْجِسْمَانِيَّاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ مِنَ الْمَاهِيَّاتِ وَالْوَحْدَةِ وَالْكَثْرَةِ وَالْوُجُوبِ وَالْإِمْكَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ثُمَّ يَنْظُرُ فِي مَبَادِيءِ الْمَوْجُودَاتِ وَأَنَّهَا رُوحَانِيَّاتٌ ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ صُدُورِ الْمَوْجُودَاتِ عَنْهَا وَمَرَاتِبِهَا ^(١) ثُمَّ فِي أَحْوَالِ النَّفْسِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَجْسَامِ وَعَوْدِهَا إِلَى الْمَبْدَأِ . وَهُوَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ شَرِيفٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُوقَفُهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ الوجودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ السَّعَادَةِ فِي زَعْمِهِمْ . وَسَيَأْتِي الرُّدُّ عَلَيْهِمْ بَعْدَ . وَهُوَ تَالٍ لِلطَّبِيعِيَّاتِ فِي تَرْتِيبِهِمْ وَلِذَلِكَ يُسَمُّونَهُ عِلْمَ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ . وَكُتِبَ الْمُعَلِّمُ الْأَوَّلُ فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ . وَلَخَصَهُ ^(٢) ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّجَاةِ وَكَذَلِكَ لَخَصَهُ ^(٣) ابْنُ رُشْدٍ مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ . وَلَمَّا وَضَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ فِي عُلُومِ الْقَوْمِ وَدَوَّنُوا فِيهَا وَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْغَزَالِيُّ مَا رَدَّ مِنْهَا ثُمَّ خَلَطَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ لِشِتْرَاكِهَمَا فِي الْمُبَاحِثِ ، وَتَشَابَهَ مَوْضُوعُ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَوْضُوعِ الْإِلَهِيَّاتِ وَمَسَائِلُهُ بِمَسَائِلِهَا فَصَارَتْ كَأَنَّهَا فَنٌّ وَاحِدٌ ثُمَّ غَيَّرُوا تَرْتِيبَ الْحُكَمَاءِ فِي مَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ وَخَلَطُوهُمَا فَنَّا وَاحِدًا قَدَّمُوا الْكَلَامَ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ثُمَّ اتَّبَعُوهُ بِالْجِسْمَانِيَّاتِ وَتَوَابَعَهَا ثُمَّ بِالرُّوحَانِيَّاتِ وَتَوَابَعَهَا إِلَى آخِرِ الْعِلْمِ كَمَا فَعَلَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي الْمُبَاحِثِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَجَمِيعُ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ . وَصَارَ عِلْمُ الْكَلَامِ مُخْتَلِطًا بِمَسَائِلِ الْجُحْمَةِ وَكُتِبَتْ مَخْشُوءَةٌ بِهَا كَأَنَّ الْفَرَضَ مِنْ مَوْضُوعِيهَا وَمَسَائِلِهَا وَاحِدٌ . وَالتَّبَسُّسُ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ صَوَابٌ لِأَنَّ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ إِنَّمَا هِيَ عَقَائِدُ مُتَلَقَّاةٌ مِنَ الشَّرِيعَةِ كَمَا نَقَلَهَا السُّلَفُ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ فِيهَا إِلَى الْعَقْلِ وَلَا

(١) وفي النسخة الباريية ، وترتيبها .

(٢) وفي النسخة الباريية ، ولخصها (والضمير يعود إلى الكتب) .

(٣) الضمير يعود إلى كتب المعلم الأول .

تَغْوِيلٌ عَلَيْهِ بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِهِ فَإِنَّ الْعَقْلَ مَغْرُورٌ عَنِ الشَّرْعِ وَأَنْظَارُهُ وَمَا تَحَدَّثَ فِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَجِ فَلَيْسَ بَحْثًا عَنِ الْحَقِّ فِيهَا فَالتَّغْلِيلُ^(١) بِالذَّلِيلِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا هُوَ شَأْنُ الْفَلَسَفَةِ بَلْ إِنَّمَا هُوَ التَّمَّاسُ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ تَعُضِدُ عَقَائِدَ الْإِيمَانِ وَمَذَاهِبَ السَّلَفِ فِيهَا وَتَدْفَعُ شُبُهَةَ أَهْلِ الْبِدْعِ عَنْهَا الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ مَذَارِكَهُمْ فِيهَا عَقْلِيَّةٌ . وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَفَرَّضَ صَحِيحَةٌ بِالْأَدْلَةِ النَّقْلِيَّةِ كَمَا تَلَقَّاهَا السَّلَفُ وَاعْتَقَدُوهَا وَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ . وَذَلِكَ أَنَّ مَذَارِكَ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ أَوْسَعُ لَا تَسَاعُ نِطَاقَهَا عَنْ مَذَارِكَ الْأَنْظَارِ الْعَقْلِيَّةِ فَهِيَ فَوْقَهَا وَمُحِيطَةٌ بِهَا لَا سِتْمَدَادَهَا مِنَ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ فَلَا تَدْخُلُ تَحْتَ قَانُونِ النَّظَرِ الضَّعِيفِ وَالْمَذَارِكَ الْمُخَاطَبِ بِهَا . فَإِذَا هَذَا الشَّارِعُ إِلَى مُدْرِكٍ فَيَنْبَغِي أَنْ نُقَدِّمَهُ عَلَى مَذَارِكِنَا وَنَثِقَ بِهِ دُونَهَا وَلَا نَنْظُرَ فِي تَصْحِيحِهِ بِمَذَارِكَ الْعَقْلِ وَلَوْ عَارِضُهُ بَلْ نَعْتَمِدُ مَا أَمَرَنَا بِهِ اعْتِقَادًا وَعِلْمًا وَنَسْكُتُ عَمَّا لَمْ نَفْهَمْ مِنْ ذَلِكَ وَنَفُوضُهُ إِلَى الشَّارِعِ وَنَعْزِلُ الْعَقْلَ عَنْهُ . وَالْمُتَكَلِّمُونَ إِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ كَلَامُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ فِي مُعَارَضَاتِ الْعَقَائِدِ السَّلَفِيَّةِ بِالْبِدْعِ النَّظَرِيَّةِ فَاحْتَاجُوا إِلَى الرَّدِّ عَلَيْهِمْ مِنْ جِنْسِ مُعَارَضَاتِهِمْ وَاسْتَدْعَى ذَلِكَ الْحُجَجَ النَّظَرِيَّةَ وَمُحَادَاةَ الْعَقَائِدِ السَّلَفِيَّةِ بِهَا وَأَمَّا النَّظَرُ فِي مَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ بِالتَّصْحِيحِ وَالْبُطْلَانِ فَلَيْسَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الْكَلَامِ وَلَا مِنْ جِنْسِ أَنْظَارِ الْمُتَكَلِّمِينَ . فَأَعْلَمَ ذَلِكَ لِيَتَمَيَّزَ بِهِ بَيْنَ الْفَنَيْنِ فَإِنَّهُمَا مُخْتَلِفَانِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْوَضْعِ وَالتَّأْلِيفِ وَالْحَقُّ مُغَايِرَةٌ كُلُّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ بِالْمَوْضُوعِ وَالْمَسَائِلِ وَإِنَّمَا جَاءَ الْإِلْتِبَاسُ مِنْ اتِّحَادِ الْمَطَالِبِ عِنْدَ الْإِسْتِدْلَالِ وَصَارَ اخْتِجَاجُ أَهْلِ الْكَلَامِ كَأَنَّهُ إِنْشَاءٌ لِيُطْلَبَ الْإِعْتِدَادُ بِالذَّلِيلِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ إِنَّمَا هُوَ رَدٌّ عَلَى الْمُلْحِدِينَ وَالْمُطْلُوبُ مَفْرُوضُ الصِّدْقِ مَعْلُومُهُ . وَكَذَا جَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ غَلَاةِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ بِالْمَوَاجِدِ أَيْضًا فَخَلَطُوا مَسَائِلَ الْفَنَيْنِ بَيْنَهُمْ وَجَعَلُوا الْكَلَامَ وَاحِدًا فِيهَا كُلُّهَا مِثْلَ كَلَامِهِمْ فِي النُّبُوتِ وَالْإِتِّحَادِ وَالْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَالْمَذَارِكُ فِي هَذِهِ

(١) وفي نسخة أخرى ، ليعلم .

الْفُنُونِ الثَّلَاثَةِ مُتَغَايِرَةً مُخْتَلِفَةً وَأَبْعَدَهَا مِنْ جِنْسِ الْفُنُونِ وَالْعُلُومِ مَدَارِكُ الْمُتَصَوِّفَةِ
لَأَنَّهُمْ يَدْعُونَ فِيهَا الْوُجْدَانَ وَيَفْرُونَ عَنِ الدَّلِيلِ وَالْوُجْدَانَ يَبْعِدُ عَنِ الْمَدَارِكِ
الْعِلْمِيَّةِ وَأَبْحَاثُهَا^(١) وَتَوَاقِعُهَا كَمَا بَيَّنَّاهُ وَبَيَّنَّاهُ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقِ
مُسْتَقِيمٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالضُّوَابِ .

الفصل الثامن والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وَهِيَ عُلُومٌ بِكَيْفِيَّةِ اسْتِعْدَادَاتِ تَقْتَدِرُ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ بِهَا عَلَى التَّأَثِيرَاتِ فِي
عَالَمِ الْعَنَاصِرِ إِمَّا بِغَيْرِ مُعَيَّنٍ أَوْ بِمُعَيَّنٍ مِنَ الْأُمُورِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَوَّلُ هُوَ السَّحَرُ
وَالثَّانِي هُوَ الطَّلَسْمَاتُ وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ مَهْجُورَةً عِنْدَ الشَّرَائِعِ لِمَا فِيهَا مِنْ
الضَّرَرِ وَلَمَّا يُشْتَرَطُ فِيهَا مِنَ الْوَجْهِةِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ مِنْ كُوكَبٍ أَوْ غَيْرِهِ كَانَتْ كُتُبُهَا
كَالْمَفْقُودَةِ بَيْنَ النَّاسِ . إِلَّا مَا وَجَدَ فِي كُتُبِ الْأَمَمِ الْأَقْدَمِينَ فِيمَا قَبْلَ نُبُوءَةِ مُوسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثْلَ النَّبِطِ وَالْكَلدَانِيِّينَ فَإِنْ جَمِيعَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَشْرَعُوا
الشَّرَائِعَ وَلَا جَاءُوا بِالْأَحْكَامِ إِنَّمَا كَانَتْ كُتُبُهُمْ مَوَاعِظَ وَتَوْحِيداً لِلَّهِ وَتَذْكِراً بِالْجَنَّةِ
وَالنَّارِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ فِي أَهْلِ بَابِلَ مِنَ السَّرْيَانِيِّينَ وَالْكَلدَانِيِّينَ وَفِي أَهْلِ مِصْرَ
مِنَ الْقَبْطِ وَغَيْرِهِمْ . وَكَانَ لَهُمْ فِيهَا التَّالِيفُ وَالْآثَارُ وَلَمْ يُتَرْجَمَ لَنَا مِنْ كُتُبِهِمْ فِيهَا
إِلَّا الْقَلِيلُ مِثْلُ الْفِلَاحَةِ النَّبْطِيَّةِ مِنْ أَوْضَاعِ أَهْلِ بَابِلَ فَأَخَذَ النَّاسُ مِنْهَا هَذَا الْعِلْمَ
وَتَفَنَّنُوا فِيهِ وَوَضَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَوْضَاعُ مِثْلَ مَصَاحِفِ الْكُوكَبِ السَّبْعَةِ وَكِتَابِ
طِمْطَمِ الْهِنْدِيِّ فِي صُورِ الدَّرَجِ وَالْكَوكَبِ وَغَيْرِهَا . ثُمَّ ظَهَرَ بِالْمَشْرِقِ جَابِرُ بْنُ
حَيَّانَ كَبِيرُ السَّحَرَةِ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ فَتَصَفَّحَ كُتُبَ الْقَوْمِ وَاسْتَخْرَجَ الصَّنَاعَةَ وَغَاصَ فِي
زُبْدَتِهَا وَاسْتَخْرَجَهَا وَوَضَعَ فِيهَا غَيْرَهَا مِنَ التَّالِيفِ وَأَكْثَرَ الْكَلَامِ فِيهَا وَفِي صِنَاعَةِ

(١) وفي النسخة الباريسية : وأبحاثها

السِّمِيَاء^(١) لَأَنَّهَا مِنْ تَوَابِعِهَا لَأَنَّ إِحَالَةَ الْأَجْسَامِ النَّوْعِيَّةِ مِنْ صُورَةٍ إِلَى أُخْرَى إِنَّمَا يَكُونُ بِالْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ لَا بِالصَّنَاعَةِ الْعَمَلِيَّةِ فَهَوَ مِنْ قَبِيلِ السَّحْرِ كَمَا نَذَكُرُهُ فِي مَوْضِعِهِ . ثُمَّ جَاءَ مُسْلِمَةُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَجْرِيطِيُّ إِمَامُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي التَّعَالِيمِ وَالسَّخَرِيَّاتِ فَلَخَصَ جَمِيعَ تِلْكَ الْكُتُبِ وَهَذَّبَهَا وَجَمَعَ طُرُقَهَا فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ الْحَكِيمِ وَلَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ فِي هَذَا الْعِلْمِ بَعْدَهُ . وَلْتَقَدِّمَ هُنَا مُقَدِّمَةٌ يَتَبَيَّنُ بِهَا حَقِيقَةُ السَّحْرِ وَذَلِكَ أَنَّ النَّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً بِالنُّوعِ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ بِالْخَوَاصِ وَهِيَ أَصْنَافٌ كُلُّ صِنْفٍ مُخْتَصٌّ بِخَاصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ بِالنُّوعِ لَا تَوْجَدُ فِي الصَّنْفِ الْآخَرِ . وَصَارَتْ تِلْكَ الْخَوَاصُ فِطْرَةً وَجِبَلَةً لِصِنْفِهَا فَنَفُوسُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهَا خَاصِيَّةٌ تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْإِنْسِلَاخِ مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الْمَلَكِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ مَلَكًا فِي تِلْكَ اللَّمَحَةِ الَّتِي أَنْسَلَخَتْ فِيهَا ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْوَحْيِ كَمَا مَرَّ فِي مَوْضِعِهِ ، وَهِيَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مُحَصَّلَةٌ لِلْمَعْرِفَةِ الرُّبَانِيَّةِ وَمُخَاطَبَةٌ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا مَرَّ . وَمَا يَتَسَعَّ^(٢) فِي ذَلِكَ مِنَ التَّأثيرِ فِي الْأَكْوَانِ وَنَفُوسِ السَّحَرَةِ لَهَا خَاصَةٌ التَّأثيرِ فِي الْأَكْوَانِ وَاسْتِجْلَابِ رُوحَانِيَّةِ الْكَوَاكِبِ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا وَالتَّأثيرِ بِقُوَّةِ نَفْسَانِيَّةٍ أَوْ شَيْطَانِيَّةٍ . فَأَمَّا تَأثيرُ الْأَنْبِيَاءِ فَمَدَدٌ إِلَهِيٌّ وَخَاصِيَّةٌ رُبَانِيَّةٌ وَنَفُوسُ الْكُهَنَةِ لَهَا خَاصِيَّةُ الْإِطْلَاعِ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ بِقُوَّةِ شَيْطَانِيَّةٍ . وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مُخْتَصٌّ بِخَاصِيَّةٍ لَا تَوْجَدُ فِي الْآخَرِ . وَالنَّفُوسُ السَّاحِرَةُ عَلَى مَرَاتِبِ ثَلَاثٍ يَأْتِي شَرْحُهَا فَأَوَّلُهَا الْمُؤَثَّرَةُ بِالْهَيْمَةِ فَقَطْرٌ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ وَلَا مُعِينٍ وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَسْمِيهِ الْفَلَاسِفَةُ السَّحْرَ وَالثَّانِي بِمُعِينٍ مِنْ مَزَاجِ الْأَفْلَاقِ أَوْ الْعَنَاصِرِ أَوْ خَوَاصِ الْأَعْدَادِ وَيُسَمُّونَهُ الطَّلْشَمَاتِ وَهُوَ أَوْفَعُ رُتْبَةً مِنَ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثُ تَأثيرٌ فِي الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ . يَعْمَدُ صَاحِبُ هَذَا التَّأثيرِ إِلَى الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَاعًا مِنَ الْخَيَالَاتِ

(١) وفي النسخة الباريبية : الكيمياء .

(٢) وفي نسخة أخرى : يتبع .

وَالْمُحَاكَاةَ وَضُوراً مِمَّا يَقْصِدُهُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ يُنْزِلُهَا إِلَى الْحِسِّ مِنَ الرَّائِينَ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ
 الْمُؤَثِّرَةِ فِيهِ فَيَنْظُرُ الرَّأُوْنَ كَأَنَّهَا فِي الْخَارِجِ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . كَمَا
 يُحْكِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يُرَى الْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْقُصُورَ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ
 وَيُسَمَّى هَذَا عِنْدَ الْفَلَسَفَةِ الشَّعْوَدَةَ أَوِ الشَّعْبَدَةَ . هَذَا تَفْصِيلُ مَرَاتِبِهِ ثُمَّ هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ
 تَكُونُ فِي السَّاحِرِ بِالْقُوَّةِ شَأْنُ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا وَإِنَّمَا تَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ بِالرِّيَاضَةِ
 وَرِيَاضَةِ السَّحْرِ كُلِّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْعَوَالِمِ الْعُلَوِيَّةِ
 وَالشَّيَاطِينِ بِأَنْوَاعِ التَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ فَهِيَ لِذَلِكَ وَجْهَةٌ إِلَى غَيْرِ
 اللَّهِ وَسُجُودٌ لَهُ . وَالْوَجْهَةُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ كُفْرٌ فَلِهَذَا كَانَ السَّحَرُ كُفْراً وَالْكَفْرُ مِنْ مَوَادِّهِ
 وَأَسْبَابِهِ كَمَا رَأَيْتَ . وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قَتْلِ السَّاحِرِ هَلْ هُوَ لِكُفْرِهِ السَّابِقِ
 عَلَى فِعْلِهِ أَوْ لِمُتَصَرِّفِهِ بِالْإِفْسَادِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَكْوَانِ وَالْكُلِّ خَاصِلٌ
 مِنْهُ . وَلَمَّا كَانَتِ الْمَرْتَبَتَانِ الْأُولَيَانِ مِنَ السَّحْرِ لَهَا حَقِيقَةُ فِي الْخَارِجِ وَالْمَرْتَبَةُ
 الْآخِرَةُ الثَّالِثَةُ لَا حَقِيقَةَ لَهَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي السَّحْرِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّمَا هُوَ
 تَخْيِيلٌ فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ لَهُ حَقِيقَةٌ نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ
 لَا حَقِيقَةَ لَهُ نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ الْآخِرَةِ . فَلَيْسَ بَيْنَهُمْ اخْتِلَافٌ فِي نَفْسِ
 الْأَمْرِ بَلْ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ اسْتِبْهَاهِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَاعْلَمْ أَنَّ وُجُودَ السَّحْرِ
 لَا مِزِيَّةَ فِيهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَجْلِ التَّأْثِيرِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ . قَالَ
 اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ
 بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
 فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا
 بِإِذْنِ اللَّهِ » ^(١) . وَسَجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُهُ وَجَعَلَ
 سِحْرَهُ فِي مِشْطٍ وَمُشَاقَّةٍ وَجَفِّ طِلْعَةٍ وَدَفْنٍ فِي بَثْرِ ذُرْوَانٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي
 الْمَعْوَدَتَيْنِ : « وَمَنْ بَشَّرَ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ » ^(٢) قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « كَانَ

(١) سورة البقرة من الآية ١٠٢ .

(٢) سورة الفلق الآية الرابعة .

لَا يَقْرَأُ عَلَى عُقْدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْعُقَدِ الَّتِي سُحِرَ فِيهَا إِلَّا انْحَلَّتْ . وَأَمَّا وَجُودُ السَّحْرِ فِي أَهْلِ بَابِلَ وَهُمْ الْكَلْدَانِيُّونَ مِنَ النَّبِطِ وَالسَّرْيَانِيِّينَ فَكَثِيرٌ وَنَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ وَجَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ وَكَانَ لِلْسَّحْرِ فِي بَابِلَ وَمِصْرَ أَزْمَانٌ بَعَثَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْوَاقَ نَافِقَةٍ . وَلِهَذَا كَانَتْ مُعْجَزَةُ مُوسَى مِنْ جِنْسٍ مَا يَدْعُونَ وَيَتَنَافَعُونَ فِيهِ وَبَقِيَ مِنْ آثَارِ ذَلِكَ فِي الْبَرَارِيِّ^(١) بِصَعِيدِ مِصْرَ شَوَاهِدٌ دَالَّةٌ عَلَى ذَلِكَ وَرَأَيْنَا بِالْعِيَانِ مَنْ يُصَوِّرُ صُورَةَ الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ بِخَوَاصِّ أَشْيَاءٍ مُقَابِلَةً لِمَا نَوَاهُ وَحَاوَلَهُ مَوْجُودَةً بِالْمَسْحُورِ وَأَمْثَالُ تِلْكَ الْمَعَانِي مِنْ أَسْمَاءٍ وَصِفَاتٍ فِي التَّأْلِيفِ وَالتَّفْرِيقِ . ثُمَّ يَتَكَلَّمُ عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي أَقَامَهَا مَقَامَ الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ عَيْنًا أَوْ مَعْنَى ثُمَّ يَنْفُثُ مِنْ رِيقِهِ بَعْدَ اخْتِمَاعِهِ فِي فِيهِ بِتَكَرِيرِ مَخَارِجِ تِلْكَ الْحُرُوفِ مِنَ الْكَلَامِ السُّوءِ وَيَعْقُدُ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي سَبَبِ أَعْدَهُ لِذَلِكَ تَفَاوُلًا بِالْعَقْدِ وَاللِّزَامِ وَأَخِذَ الْعَهْدِ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ بِهِ مِنَ الْجِنِّ فِي نَفْسِهِ فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ اسْتِشْعَارًا لِلْعَزِيمَةِ بِالْعَزْمِ . وَلِتِلْكَ الْبُنيةِ وَالْأَسْمَاءِ السَّيِّئَةِ رُوحٌ خَبِيثَةٌ تَخْرُجُ مِنْهُ مَعَ النَّفْخِ مُتَعَلِّقَةٌ بِرِيقِهِ الْخَارِجِ مِنْ فِيهِ بِالنَّفْثِ فَتَنْزِلُ عَنْهَا أَرْوَاحُ خَبِيثَةٍ وَيَقَعُ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَسْحُورِ مَا يُحَاوِلُهُ السَّاحِرُ . وَشَاهِدُنَا أَيْضًا مِنَ الْمُتَحَلِّلِينَ لِلْسَّحْرِ وَعَمَلِهِ مَنْ يُشِيرُ إِلَى كِسَاءٍ أَوْ جِلْدٍ وَيَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ فِي سِرِّهِ فَإِذَا هُوَ مَقْطُوعٌ مَتَخَرِّقٌ . وَيُشِيرُ إِلَى بَطُونِ الْغَنَمِ كَذَلِكَ فِي مَرَاعِيهَا بِالْبَعْجِ فَإِذَا أَمْعَاوَهَا سَاقِطَةٌ مِنْ بَطُونِهَا إِلَى الْأَرْضِ . وَسَمِعْنَا أَنَّ بِأَرْضِ الْهِنْدِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَنْ يُشِيرُ إِلَى إِنْسَانٍ فَيَتَحَتَّتُ^(٢) قَلْبُهُ وَيَقَعُ مَيِّتًا وَيَنْقَلِبُ عَنْ قَلْبِهِ فَلَا يُوجَدُ فِي حَشَاةٍ وَيُشِيرُ إِلَى الرُّمَانَةِ وَتَفْتَحُ فَلَا يُوجَدُ مِنْ حُبُوبِهَا شَيْءٌ . وَكَذَلِكَ سَمِعْنَا أَنَّ بِأَرْضِ السُّودَانِ وَأَرْضِ التُّرْكِ مَنْ يَسْحَرُ السَّحَابَ فَيُمْطِرُ الْأَرْضَ الْمَخْصُوصَةَ . وَكَذَلِكَ رَأَيْنَا مِنْ عَمَلِ الطَّلَسْمَاتِ عَجَائِبَ فِي الْأَعْدَادِ الْمُتَحَايَةِ وَهِيَ رَكَرَكَ رَفَدٌ أَخَذَ الْعَدْدَيْنِ مِائَتَانِ وَعِشْرُونَ وَالْآخِرَ مِائَتَانِ وَأَرْبَعَةً وَثَمَانُونَ وَمَعْنَى الْمُتَحَايَةِ أَنَّ

(١) وفي نسخة أخرى : البراري .

(٢) وفي النسخة الباريسية : فينخب .

أجزاء كُلِّ وَاحِدٍ الَّتِي فِيهِ مِنْ نِصْفٍ وَثُلُثٍ وَرَبْعٍ وَسُدُسٍ وَخُمْسٍ وَأَمْثَالِهَا إِذَا جُمِعَ
كَانَ مُتَسَاوِيًا لِلْعَدَدِ الْآخِرِ صَاحِبِهِ فَتُسَمَّى لِأَجْلِ ذَلِكَ الْمُتَحَابَّةَ . وَنَقَلَ أَصْحَابُ
الطَّلُوسَاتِ أَنَّ لِتِلْكَ الْأَعْدَادِ أَثَرًا فِي الْإِلَافَةِ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينَ وَاجْتِمَاعِيهِمَا إِذَا وَضَعَ
لَهُمَا مِثَالَانِ^(١) أَحَدَهُمَا بِطَالِيعِ الزُّهْرَةِ وَهِيَ فِي بَيْتِهَا أَوْ شَرَفِهَا نَاطِرَةً إِلَى الْقَمَرِ نَظَرَ
مَوَدَّةٍ وَقَبُولٍ وَيَجْعَلُ طَالِعَ الثَّانِي سَابِعَ الْأَوَّلِ وَيَضَعُ عَلَى أَحَدِ التَّمَثَالَيْنِ أَحَدَ
الْعَدَدَيْنِ وَالْآخَرَ عَلَى الْآخَرِ . وَيَقْصُدُ بِالْأَكْثَرِ الَّذِي يَرَادُ ائْتِلَافُهُ أَغْنَى الْمَحْبُوبِ
مَا أَذْرَى الْأَكْثَرَ كَمِيَّةً أَوْ الْأَكْثَرَ أَجْزَاءً فَيَكُونُ لِذَلِكَ مِنَ التَّأْلِيفِ الْعَظِيمِ بَيْنَ
الْمُتَحَابِّينَ مَا لَا يَكَادُ يَنْفَكُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ . قَالَ صَاحِبُ الْغَايَةِ وَغَيْرُهُ مِنْ
أُئِمَّةِ هَذَا الشَّانِ وَشَهِدَتْ لَهُ التَّجَرِبَةُ . وَكَذَا طَابِعُ الْأَسَدِ وَيُسَمَّى أَيْضًا طَابِعُ
الْحَصَى وَهُوَ أَنْ يُرْسَمَ فِي قَالِبِ (هِنْدُ إِضْبَع) صُورَةُ أَسَدٍ شَائِلًا ذَنْبَهُ عَاضًا عَلَى
حَصَاةٍ قَدْ قَسَمَهَا بِنِصْفَيْنِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ صُورَةَ حَيَّةٍ مُنْسَايَةٍ مِنْ رِجْلَيْهِ إِلَى قِبَالَةِ وَجْهِهِ
فَإِغْرَةً فَاهَا فِيهِ وَعَلَى ظَهْرِهِ صُورَةَ عَقْرَبٍ تَدْبُ . وَيَتَحَيَّنُ بِرَسْمِهِ حُلُولُ الشَّمْسِ
بِالْوَجْهِ الْأَوَّلِ أَوْ الثَّالِثِ مِنَ الْأَسَدِ بِشَرْطِ صَلَاحِ النَّيِّرَيْنِ وَسَلَامَتِيهِمَا مِنَ النُّحُوسِ .
فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ وَعَثَرَ عَلَيْهِ طَبِيعٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي مِقْدَارِ الْمُثْقَالِ فَمَا دُونَهُ مِنَ الذَّهَبِ
وَعُمَسَ بَعْدُ فِي الزُّعْفَرَانِ مَخْلُولًا بِمَاءِ الْوَرْدِ وَرَفَعَ فِي خِرْقَةٍ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ فَإِنَّهُمْ
يَزْعُمُونَ أَنَّ لِمُمْسِكِهِ مِنَ الْعِزِّ عَلَى السُّلَاطِينِ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ وَخِدْمَتِهِمْ وَتَسْخِيرِهِمْ لَهُ
مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ . وَكَذَلِكَ لِلْسُّلَاطِينِ فِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعِزِّ عَلَى مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ . ذَكَرَ
ذَلِكَ أَيْضًا أَهْلُ هَذَا الشَّانِ فِي الْغَايَةِ وَغَيْرِهَا وَشَهِدَتْ لَهُ التَّجَرِبَةُ . وَكَذَلِكَ وَفُقَ
الْمُسَدَّسُ الْمُخْتَصُّ بِالشَّمْسِ ذَكَرُوا أَنَّهُ يُوضَعُ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ فِي شَرَفِهَا
وَسَلَامَتِيهَا مِنَ النُّحُوسِ وَسَلَامَةِ الْقَمَرِ بِطَالِيعِ مُلُوكِيٍّ يُعْتَبَرُ فِيهِ نَظَرُ صَاحِبِ الْعَاشِرِ
لِصَاحِبِ الطَّالِيعِ نَظَرَ مَوَدَّةٍ وَقَبُولٍ وَيُصْلَحُ فِيهِ مَا يَكُونُ مِنْ مَوَالِيدِ الْمُلُوكِ مِنْ
الْأَدِلَّةِ الشَّرِيفَةِ وَيُرْفَعُ فِي خِرْقَةٍ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ بَعْدَ أَنْ يُغْمَسَ فِي الطَّيِّبِ . فَرَعَمُوا أَنَّ

(١) وفي نسخة أخرى : تمثالان .

لَهُ أَثَرًا فِي صَحَابَةِ الْمُلُوكِ وَخِدْمَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ . وَكِتَابُ
الْغَايَةِ لِمُسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْمَجْرِيطِيِّ هُوَ مَدُونَةٌ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَفِيهِ اسْتِيفَاؤُهَا
وَكَمَالُ مَسَائِلِهَا وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ الْإِمَامَ الْفَخْرَ بْنَ الْخَطِيبِ وَضَعَ كِتَابًا فِي ذَلِكَ وَسَمَّاهُ
بِالسَّرِّ الْمَكْتُومِ وَأَنَّهُ بِالْمَشْرِقِ يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُهُ وَنَحْنُ لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ . وَالْإِمَامُ لَمْ يَكُنْ
مِنْ أُمَّةٍ هَذَا الشَّانِ فِيمَا نَظُنُّ وَلَعَلَّ الْأَمْرَ يَخْلَافُ ذَلِكَ . وَبِالْمَغْرِبِ صِنْفٌ مِنْ
هَؤُلَاءِ الْمُتَنَحِّلِينَ لِهَذِهِ الْأَعْمَالِ السَّحَرِيَّةِ يُعْرِفُونَ بِالْبَغَّاجِينَ وَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرْتُ
أَوَّلًا أَنَّهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى الْكِسَاءِ أَوِ الْجِلْدِ فَيَتَخَرَّقُ وَيُشِيرُونَ إِلَى بَطُونِ الْغَنَمِ بِالْبَغْجِ
فَتَنْبَعِجُ . وَيُسَمَّى أَحَدُهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ بِاسْمِ الْبَغَّاجِ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا يَنْتَحِلُ مِنَ السَّحْرِ
بَغْجُ الْأَنْعَامِ يَرْهَبُ بِذَلِكَ أَهْلَهَا لِيُعْطَوْهُ مِنْ فَضْلِهَا وَهُمْ مُسْتَتِرُونَ بِذَلِكَ فِي الْغَايَةِ
خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْحُكَّامِ ، لَقِيتُ مِنْهُمْ جَمَاعَةً وَشَاهَدْتُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ هَذِهِ بِذَلِكَ
وَأَخْبَرُونِي أَنَّ لَهُمْ وَجْهَةً وَرِيَاضَةً خَاصَّةً بِدَعْوَاتِ كُفْرِيَّةٍ وَإِشْرَاكِ لِرُوحَانِيَّاتِ الْجِنِّ
وَالْكُوَائِبِ ، سَطَّرَتْ فِيهَا صَحِيفَةً عِنْدَهُمْ تَسْمَى الْخَزِيرِيَّةَ ^(١) يَتَدَارَسُونَهَا وَأَنَّهُمْ
بِهَذِهِ الرِّيَاضَةِ وَالْوَجْهَةِ يَصِلُونَ إِلَى حُصُولِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ لَهُمْ وَأَنَّ التَّأثيرَ الَّذِي لَهُمْ
إِنَّمَا هُوَ فِيمَا سِوَى الْإِنْسَانِ الْحَرِّ ^(٢) مِنَ الْمَتَاعِ وَالْحَيَوَانِ وَالرُّفِيقِ وَيُعْبَرُونَ عَنْ ذَلِكَ
بِقَوْلِهِمْ إِنَّمَا نَفْعُ فِيمَا تَمْشِي فِيهِ الدَّرَاهِمُ أَيْ مَا يُمْلِكُ وَيَبَاعُ وَيُشْتَرَى مِنْ سَائِرِ
الْمُتَمَلِّكَاتِ هَذَا مَا زَعَمُوهُ . وَسَأَلْتُ بَعْضَهُمْ فَأَخْبَرَنِي بِهِ وَأَمَّا أَفْعَالُهُمْ فَظَاهِرَةٌ
مَوْجُودَةٌ وَقَفْنَا عَلَى الْكَثِيرِ مِنْهَا وَعَايَنْتُهَا مِنْ غَيْرِ رَيْبَةٍ فِي ذَلِكَ . هَذَا شَأْنُ السَّحْرِ
وَالطَّلَسْمَاتِ وَأَثَارُهُمَا فِي الْعَالَمِ فَأَمَّا الْفَلَاسِفَةُ فَفَرَّقُوا بَيْنَ السَّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ بَعْدَ
أَنْ أَثْبَتُوا أَنَّهُمَا جَمِيعًا أَثَرٌ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَاسْتَدَلُّوا عَلَى وَجُودِ الْأَثَرِ لِلنَّفْسِ
الْإِنْسَانِيَّةِ بِأَنَّ لَهَا أَثَارًا فِي بَدَنِهَا عَلَى غَيْرِ الْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ الْجِسْمَانِيَّةِ بَلْ
أَثَارٌ غَارِضَةٌ مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْأَرْوَاحِ تَارَةً كَالسُّخُونَةِ الْحَادِثَةِ عَنِ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَمِنْ

(١) وفي النسخة الباريسية : الخزيرية .

(٢) وفي النسخة الباريسية : الانسان والجن .

جَهَةِ التَّصَوُّرَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أُخْرَى كَالَّذِي يَقَعُ مِنْ قِبَلِ التَّوَهُّمِ . فَإِنَّ الْمَاشِيَّ عَلَى حَرْفٍ حَائِطٍ أَوْ حَبْلٍ مُنْتَصِبٍ إِذَا قَوِيَ عِنْدَهُ تَوَهُّمُ السَّقُوطِ سَقَطَ بِلاَ شَكٍّ . وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعُودُونَ أَنْفُسَهُمْ ذَلِكَ بِالدَّرْزَةِ عَلَيْهِ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُمْ هَذَا الْوَهُمُ فَتَجِدُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى حَرْفِ الْحَائِطِ وَالْحَبْلِ الْمُنْتَصِبِ وَلَا يَخَافُونَ السَّقُوطَ . فَثَبَّتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَثَارِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَصَوُّرِهَا لِلْسَّقُوطِ مِنْ أَجْلِ الْوَهُمِ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ أَثَرًا لِلنَّفْسِ فِي بَدَنِهَا مِنْ غَيْرِ الْأَسْبَابِ الْجِسْمَانِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لَهَا مِثْلُ هَذَا الْأَثَرِ فِي غَيْرِ بَدَنِهَا إِذْ نَسَبْتُهَا إِلَى الْأَبْدَانِ فِي ذَلِكَ الشَّوْعِ مِنَ التَّأَثُّرِ وَاحِدَةً لِأَنَّهَا غَيْرُ حَالَةٍ فِي الْبَدَنِ وَلَا مُنْطَبِعَةٍ فِيهِ فَثَبَّتَ أَنَّهَا مُؤَثَّرَةٌ فِي سَائِرِ الْأَجْسَامِ . وَأَمَّا التَّفَرُّقَةُ عَنْهُمْ بَيْنَ السَّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ فَهُوَ أَنَّ السَّحْرَ لَا يَخْتَاجُ السَّاحِرَ فِيهِ إِلَى مُعَيَّنٍ وَصَاحِبِ الطَّلَسْمَاتِ يَسْتَعِينُ بِرُوحَانِيَّاتِ الْكَوَاكِبِ وَأَسْرَارِ الْأَعْدَادِ وَخَوَاصِّ الْمَوْجُودَاتِ وَأَوْضَاعِ الْفَلَكَ الْمُؤَثَّرَةِ فِي عَالَمِ الْعَنَاصِرِ كَمَا يَقُولُهُ الْمُنَجِّمُونَ ، السَّحْرُ اتِّخَاذُ رُوحٍ بِرُوحٍ وَالطَّلَسْمُ اتِّخَاذُ رُوحٍ بِجِسْمٍ وَمَغْنَاهُ عِنْدَهُمْ رَبْطُ الطَّبَائِعِ الْعُلَوِيَّةِ السَّمَاوِيَّةِ بِالطَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ ، وَالطَّبَائِعُ الْعُلَوِيَّةُ هِيَ رُوحَانِيَّاتُ الْكَوَاكِبِ وَلِذَلِكَ يَسْتَعِينُ صَاحِبُهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ بِالنَّجْمَةِ . وَالسَّاحِرُ عِنْدَهُمْ غَيْرُ مُكْتَسِبٍ لِسَحْرِهِ بَلْ هُوَ مَفْطُورٌ عَنْهُمْ عَلَى تِلْكَ الْجِبِلَّةِ الْمُخْتَصَّةِ بِذَلِكَ الشَّوْعِ مِنَ التَّأَثُّرِ . وَالْفَرْقُ عَنْهُمْ بَيْنَ الْمُعْجَزَةِ وَالسَّحْرِ أَنَّ الْمُعْجَزَةَ قُوَّةُ إِلَهِيَّةٍ تَبْعَثُ عَلَى النَّفْسِ ذَلِكَ التَّأَثُّرَ فَهُوَ مُؤَيَّدٌ بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى فِعْلِهِ ذَلِكَ . وَالسَّاحِرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ لَدُنْ نَفْسِهِ وَبِقُوَّتِهِ النَّفْسَانِيَّةِ وَبِإِمْدَادِ الشَّيَاطِينِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فَبَيْنَهُمَا الْفَرْقُ فِي الْمَعْقُولِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالذَّاتِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنَّمَا نَسْتَبْدِلُ نَحْنُ عَلَى التَّفَرُّقَةِ بِالْعَلَامَاتِ الظَّاهِرَةِ وَهِيَ وُجُودُ الْمُعْجَزَةِ لِصَاحِبِ الْخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ الْخَيْرِ وَلِلنُّفُوسِ الْمُتَمَخِّصَةِ ^(١) لِلْخَيْرِ وَالتَّحْدِي بِهَا عَلَى دَعْوَى النُّبُوَّةِ . وَالسَّحْرُ إِنَّمَا يُوْجَدُ لِصَاحِبِ الشَّرِّ وَفِي أَفْعَالِ الشَّرِّ فِي الْغَالِبِ مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَضَرَرِ الْأَعْدَاءِ

(١) وفي النسخة الباريسية : المتمخضة .

وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَلِلنَّفُوسِ الْمُتَمَحِّصَةِ لِلشَّرِّ . هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَ الْحُكَمَاءِ
الْإِلَهِيِّينَ . وَقَدْ يَوْجَدُ لِبَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَأَصْحَابِ الْكِرَامَاتِ تَأْثِيرٌ أَيْضاً فِي أَحْوَالِ
الْعَالَمِ وَلَيْسَ مَعْدُوداً مِنْ جِنْسِ السَّحْرِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالْإِمْدَادِ الْإِلَهِيِّ لِأَنَّ طَرِيقَتَهُمْ
وَنَحْلَتَهُمْ مِنْ أَثَارِ النُّبُوَّةِ وَتَوَابِعِهَا وَلَهُمْ فِي الْمَدَدِ الْإِلَهِيِّ حِفْظٌ عَلَى قَدْرِ حَالِهِمْ
وَأَيْمَانِهِمْ وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ^(١) وَإِذَا اقْتَدَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَفْعَالِ الشَّرِّ لَا يَأْتِيهَا
لأنَّهُ مُتَقَيِّدٌ فِيمَا يَأْتِيهِ يَذَرُهُ لِلأَمْرِ الْإِلَهِيِّ . فَمَا لَا يَقَعُ لَهُمْ فِيهِ الإِذْنُ لَا يَأْتُونَهُ
بِوَجْهِ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَرُبَّمَا سَلَبَ حَالَهُ . وَلَمَّا كَانَتْ
الْمُعْجِزَةُ بِإِمْدَادِ رُوحِ اللَّهِ وَالْقُوَى الْإِلَهِيَّةِ فَلِذَلِكَ لَا يُعَارِضُهَا شَيْءٌ مِنَ السَّحْرِ .
وَانْظُرْ شَأْنَ سَحْرَةِ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى فِي مُعْجِزَةِ الْعَصَا كَيْفَ تَلَقَّفَتْ مَا كَانُوا بِهِ
يَأْفِكُونَ وَذَهَبَ سِحْرُهُمْ وَاضْمَحَلَّ كَأَن لَمْ يَكُنْ . وَكَذَلِكَ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى
النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَعْوَدَتَيْنِ وَمِنْ شَرِّ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ . قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهَا ، « فَكَانَ لَا يَقْرَأُهَا عَلَى عُقْدَةٍ مِنَ الْعُقَدِ الَّتِي سَحَرَ فِيهَا إِلَّا انْحَلَّتْ » .
فَالسَّحَرُ لَا يَثْبُتُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ بِالنِّهْمَةِ الْإِيمَانِيَّةِ وَقَدْ نَقَلَ الْمُؤَرِّجُونَ أَنَّ
زَرْكَشَ ^(٢) كَاوِيَانَ وَهِيَ رَايَةُ كِسْرَى كَانَ فِيهَا الْوُفُقُ الْمِيزَانِيُّ الْعَدْدِيُّ مَنْسُوجاً
بِالذَّهَبِ فِي أَوْضَاعٍ ^(٣) فَلِكَيْفَةِ رُصِدَتْ لِذَلِكَ الْوُفُقِ . وَوُجِدَتْ الرَّايَةُ يَوْمَ قُتِلَ رُسْتَمُ
بِالْقَادِسِيَّةِ وَاقَعَةً عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ انْهِزَامِ أَهْلِ فَارِسَ وَشَتَاتِهِمْ . وَهُوَ فِيمَا تَزْعُمُ أَهْلُ
الطُّلُسَمَاتِ وَالْأَوْفَاقِ مَخْصُوصٌ بِالْغَلَبِ فِي الْحُرُوبِ وَأَنَّ الرَّايَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا أَوْ
مَعَهَا لَا تَنْهَزِمُ أَصلاً . إِلَّا أَنَّ هَذِهِ غَارِضُهَا الْمَدَدُ الْإِلَهِيُّ مِنْ إِيْمَانِ أَصْحَابِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ فَانْحَلَّ مَعَهَا كُلُّ عُقْدٍ سِحْرِيٍّ وَلَمْ يَثْبُتْ وَيَطْلُ
مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . وَأَمَّا الشَّرِيعَةُ فَلَمْ تَفَرُقْ بَيْنَ السَّحْرِ وَالطُّلُسَمَاتِ وَجَعَلَتْهُ كُلَّهُ
بَاباً وَاحِداً مَحْظُوراً . لِأَنَّ الْأَفْعَالَ إِنَّمَا أَبَاحَ لَنَا الشَّارِعُ مِنْهَا مَا يَهْمُنَا فِي دِينِنَا

(١) وفي النسخة الباريية ، بكلمة التوحيد .

(٢) وفي النسخة الباريية ، درفش

(٣) وفي النسخة الباريية ، طوالع .

الَّذِي فِيهِ صَلَاحٌ آخِرْتَنَا أَوْ فِي مَعَاشِنَا الَّذِي فِيهِ صَلَاحٌ دُنْيَانَا وَمَا لَا يَهْمُنَا فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا فَإِنْ كَانَ فِيهِ ضَرَرٌ أَوْ نَوْعٌ ضَرَرَ كَالسَّحْرِ الْخَاصِلِ ضَرَرُهُ بِالْوُقُوعِ وَيُلْحَقُ بِهِ الطَّلَسَمَاتُ لِأَنَّ أَثَرَهُمَا وَاحِدٌ وَكَالنَّجَامَةِ الَّتِي فِيهَا نَوْعٌ ضَرَرَ بِاعْتِقَادِ التَّأْثِيرِ فَتَفْسُدُ الْعَقِيدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ بِرَدِّ الْأُمُورِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ ذَلِكَ الْفِعْلُ مَحْظُورًا عَلَى نِسْبَتِهِ فِي الضَّرَرِ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُهِمًّا عَلَيْنَا وَلَا فِيهِ ضَرَرٌ فَلَا أَقْلٌ مِنْ تَرْكِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ فَإِنْ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ . فَجَعَلَتِ الشَّرِيعَةُ بَابَ السَّحْرِ وَالطَّلَسَمَاتِ وَالشَّعْوَذَةِ بَابًا وَاحِدًا لِمَا فِيهَا مِنَ الضَّرَرِ وَخَصَّتْهُ بِالْحَظَرِ وَالتَّحْرِيمِ . وَأَمَّا الْفَرْقُ عَنْدَهُمْ بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَالسَّحْرِ فَالَّذِي ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى التَّحْدِي وَهُوَ دَعَاوِي وَقُوعَهَا عَلَى وَفْقِ مَا ادَّعَاهُ . قَالُوا : وَالسَّاحِرُ مَضْرُوفٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّحْدِي فَلَا يَقَعُ مِنْهُ . وَوُقُوعُ الْمُعْجِزَةِ عَلَى وَفْقِ دَعَاوِي الْكَاذِبِ غَيْرُ مُقْدُورٍ لِأَنَّ دَلَالََةَ الْمُعْجِزَةِ عَلَى الصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ لِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِهَا التَّصْدِيقُ فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ الْكَذِبِ لَاسْتَحَالَ الصَّادِقُ كَاذِبًا وَهُوَ مُحَالٌ فَإِذَا لَاتَقَعَ الْمُعْجِزَةُ مَعَ الْكَاذِبِ بِإِطْلَاقٍ . وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ فَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عَنْدَهُمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي نِهَائِهِ الطَّرَفَيْنِ . فَالسَّاحِرُ لَا يَصُدِّرُ مِنْهُ الْخَيْرُ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِي أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَصَاحِبُ الْمُعْجِزَةِ لَا يَصُدِّرُ مِنْهُ الشَّرُّ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِي أَسْبَابِ الشَّرِّ وَكَأَنَّهُمَا عَلَى طَرَفَيْ النِّقَاصِ فِي أَصْلِ فِطْرَتِهِمَا . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَمِنْ قَبِيلِ هَذِهِ التَّأْثِيرَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْإِصَابَةُ بِالْعَيْنِ وَهُوَ تَأْثِيرٌ مِنْ نَفْسِ الْمَعْنِيَانِ عِنْدَمَا يَسْتَحْسِنُ بَعِيْنُهُ مَذْرُوعًا مِنَ الدَّوَاتِ أَوْ الْأَحْوَالِ وَيَفْرِطُ فِي اسْتِحْسَانِهِ وَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ الْإِسْتِحْسَانِ حَسَدٌ يَرُومُ مَعَهُ سَلْبَ ذَلِكَ الشَّيْءِ عَنْ مَنْ اتَّصَفَ بِهِ فَيُؤَثِّرُ فَسَادَهُ . وَهُوَ جِلَّةٌ فِطْرِيَّةٌ أَغْنَى هَذِهِ الْإِصَابَةُ بِالْعَيْنِ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ التَّأْثِيرَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أَنَّ صُدُورَهُ فِطْرِيٌّ جِلْبِيٌّ لَا يَتَخَلَّفُ وَلَا يَرْجِعُ اخْتِيَارًا صَاحِبِهِ وَلَا يَكْتَسِبُهُ . وَسَائِرُ التَّأْثِيرَاتِ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مَا لَا يَكْتَسِبُ فَصُدُورُهَا رَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ فَاعِلِهَا وَالْفِطْرِيُّ مِنْهَا قُوَّةُ صُدُورِهَا وَلِهَذَا قَالُوا : الْقَاتِلُ بِالسَّحْرِ أَوْ بِالْكَرَامَةِ

يُقْتَلُ وَالْقَاتِلُ بِالْعَيْنِ لَا يُقْتَلُ . وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُرِيدُهُ وَيَقْصِدُهُ أَوْ
يَتْرُكُهُ وَإِنَّمَا هُوَ مُجْبُورٌ فِي صُدُورِهِ عَنْهُ . وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا فِي الْغُيُوبِ وَمُطْلَعٌ عَلَى مَا فِي
السَّرَائِرِ .

الفصل التاسع والعشرون

علم أسرار الحروف

وَهُوَ الْمُسَمَّى لِهَذَا الْعَهْدِ بِالسِّمْنِيَا . نُقِلَ وَضَعُهُ مِنَ الطَّلَسْمَاتِ إِلَيْهِ فِي
اضْطِلَاجِ أَهْلِ التَّصْرِيفِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ ، فَاسْتَعْمَلَ اسْتِعْمَالَ الْعَامِّ فِي الْخَاصِّ . وَحَدَّثَ
هَذَا الْعِلْمُ فِي الْمِلَّةِ بَعْدَ صَدْرِ مِنْهَا ، وَعِنْدَ ظُهُورِ الْغَلَاةِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَجُنُوحِهِمْ إِلَى
كَشْفِ حِجَابِ الْحِسِّ ، وَظُهُورِ الْخَوَارِقِ عَلَى أَيْدِيهِمْ وَالتَّصَرُّفَاتِ فِي عَالِمِ الْعَنَاصِرِ ،
وَتَدْوِينِ الْكُتُبِ وَالِاضْطِلَاحَاتِ ، وَمَزَاجِهِمْ فِي تَنْزِيلِ الْوُجُودِ عَنِ الْوَاحِدِ وَتَرْتِيبِهِ .
وَزَعَمُوا أَنَّ الْكَمَالَ الْإِسْمَائِيَّ مَظَاهِرُهُ أَرْوَاحُ الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ ، وَأَنَّ طِبَائِعَ
الْحُرُوفِ وَأَسْرَارَهَا سَارِيَّةٌ فِي الْأَسْمَاءِ ، فَهِيَ سَارِيَّةٌ فِي الْأَكْوَانِ عَلَى هَذَا النِّظَامِ .
وَالْأَكْوَانُ مِنْ لَدُنِ الْإِبْدَاعِ الْأَوَّلِ تَتَنَقَّلُ فِي أَطْوَارِهِ وَتُعْرِبُ عَنْ أَسْرَارِهِ ، فَحَدَّثَ
لِذَلِكَ عِلْمَ أَسْرَارِ الْحُرُوفِ ، وَهُوَ مِنْ تَفَارِيعِ عِلْمِ السِّمْنِيَا لَا يُوقَفُ عَلَى مَوْضُوعِهِ وَلَا
تُحَاطَ بِالْعَدَدِ مَسَائِلُهُ . تَعَدَّدَتْ فِيهِ تَأْلِيفُ الْبُونِيِّ وَابْنِ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرُهُمَا مِمَّنْ اتَّبَعَ
آثَارَهُمَا . وَخَاصِلُهُ عِنْدَهُمْ وَتَمَرَّتُهُ تَصْرِفُ النُّفُوسَ الرِّبَانِيَّةَ فِي عَالِمِ الطَّبِيعَةِ
بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالْكَلِمَاتِ الْإِلَهِيَّةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْحُرُوفِ الْمُحِيطَةِ بِالْأَسْرَارِ
السَّارِيَّةِ فِي الْأَكْوَانِ .

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي سِرِّ التَّصْرِيفِ الَّذِي فِي الْحُرُوفِ ^(١) بِمَا هُوَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ

(١) علق الهورينى على هذه العبارة بقوله بترتيب طبائع الحروف عند المغاربة غير ترتيب المشاركة .
ومنهى الغزالي . كما أن الجمل عندهم مخالف في ستة أحرف . فان الصاد عندهم بستين والصاد بتسعين والسين
المهملة بثلاثمائة والظاء بثمانمائة والغين بتسعمائة والشين بألف . هـ .

لِلْمِزَاجِ الَّذِي فِيهِ ، وَقَسَمَ الْحُرُوفَ بِقِسْمَةِ الطَّبَائِعِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ كَمَا لِلْعَنَاصِرِ .
وَاخْتَصَّتْ كُلُّ طَبِيعَةٍ بِصِنْفٍ مِنَ الْحُرُوفِ يَقَعُ التَّصَرُّفُ فِي طَبِيعَتِهَا فِعْلاً وَانْفِعَالاً
بِذَلِكَ الصِّنْفِ ، فَتَنَوَّعَتِ الْحُرُوفُ بِقَانُونٍ صِنَاعِيٍّ يُسَمُّونَهُ التَّكْسِيرَ إِلَى نَارِيَّةٍ
وَهَوَائِيَّةٍ وَمَائِيَّةٍ وَتُرَابِيَّةٍ عَلَى حَسَبِ تَنَوُّعِ الْعَنَاصِرِ ، فَأَلْفٌ لِلنَّارِ وَالْيَاءُ لِلْهَوَاءِ
وَالْجِيمُ لِلْمَاءِ وَالدَّالُ لِلتُّرَابِ . ثُمَّ تَرْجِعُ كَذَلِكَ عَلَى التَّوَالِي مِنَ الْحُرُوفِ وَالْعَنَاصِرِ
إِلَى أَنْ تَنْفُذَ . فَتَعَيَّنَ لِعَنْصَرِ النَّارِ حُرُوفٌ سَبْعَةٌ : الْأَلِفُ وَالْهَاءُ وَالطَّاءُ وَالْمِيمُ وَالْفَاءُ
وَالسِّينُ وَالدَّالُ ، وَتَعَيَّنَ لِعَنْصَرِ الْهَوَاءِ سَبْعَةٌ أَيْضاً : الْبَاءُ وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ وَالنُّونُ وَالضَّادُ
وَالتَّاءُ وَالظَّاءُ ، وَتَعَيَّنَ لِعَنْصَرِ الْمَاءِ أَيْضاً سَبْعَةٌ : الْجِيمُ وَالزَّيَّ وَالْكَافُ وَالضَّادُ
وَالْقَافُ وَالثَّاءُ وَالغَيْنُ ، وَتَعَيَّنَ لِعَنْصَرِ التُّرَابِ أَيْضاً سَبْعَةٌ : الذَّالُ وَالْحَاءُ وَاللَّامُ
وَالغَيْنُ وَالرَّاءُ وَالخَاءُ وَالشَّيْنُ .

وَالْحُرُوفُ النَّارِيَّةُ لِدَفْعِ الْأَمْرَاضِ الْبَارِدَةِ وَلِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْحَرَارَةِ حَيْثُ تُطْلَبُ
مُضَاعَفَتُهَا ، إِمَّا حِسّاً أَوْ حُكْماً ، كَمَا فِي تَضْعِيفِ قُوَى الْمَرِيخِ فِي الْحُرُوبِ وَالْقَتْلِ
وَالْفَتْكِ . وَالْمَائِيَّةُ أَيْضاً لِدَفْعِ الْأَمْرَاضِ الْحَارَةِ مِنْ حُمَيَاتٍ وَغَيْرِهَا ، وَلِتَضْعِيفِ
الْقُوَى الْبَارِدَةِ حَيْثُ تُطْلَبُ مُضَاعَفَتُهَا حِسّاً أَوْ حُكْماً ، كَتَضْعِيفِ قُوَى الْقَمَرِ وَأَمْثَالِ
ذَلِكَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ سِرَّ التَّصَرُّفِ الَّذِي فِي الْحُرُوفِ لِلنِّسْبَةِ الْعَدَدِيَّةِ ، فَإِنَّ حُرُوفَ
أَبْجَدٍ دَالَّةً عَلَى أَعْدَادِهَا الْمُتَعَارِفَةِ وَضِعاً وَطَبْعاً فَبَيَّنَهَا مِنْ أَجْلِ تَنَاسُبِ الْأَعْدَادِ
تَنَاسُبٌ فِي نَفْسِهَا أَيْضاً : كَمَا بَيَّنَّ الْبَاءُ وَالْكَافُ وَالرَّاءُ لِدَلَالَتِهَا كُلِّهَا عَلَى الْإِثْنَيْنِ
كُلٌّ فِي مَرْتَبَتِهِ ، فَالْبَاءُ عَلَى إِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ الْآحَادِ ، وَالْكَافُ عَلَى إِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ
الْعَشْرَاتِ ، وَالرَّاءُ عَلَى إِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ الْمِئَتَيْنِ . وَكَالَّذِي بَيَّنَّهَا وَبَيَّنَ الدَّالُ وَالْمِيمُ
وَالتَّاءُ لِدَلَالَتِهَا عَلَى الْأَرْبَعَةِ ، وَبَيَّنَ الْأَرْبَعَةَ وَالْإِثْنَيْنِ نِسْبَةً الضَّعْفِ . وَخَرَجَ لِلْأَسْمَاءِ
أَوْفَاقٌ كَمَا لِلْأَعْدَادِ يَخْتَصُّ كُلُّ صِنْفٍ مِنَ الْحُرُوفِ بِصِنْفٍ مِنَ الْأَوْفَاقِ الَّذِي
يُنَاسِبُهُ مِنْ حَيْثُ عَدَدُ الشَّكْلِ أَوْ عَدَدُ الْحُرُوفِ ، وَامْتَزَجَ التَّصَرُّفُ مِنَ السِّرِّ الْحَرْفِيِّ

وَالسِّرُّ الْعَدَدِيُّ لِأَجْلِ التَّنَاسُبِ الَّذِي بَيْنَهُمَا . فَأَمَّا سِرُّ التَّنَاسُبِ الَّذِي بَيْنَ هَذِهِ
الْحُرُوفِ وَأَمْرِجَةِ الطَّبَائِعِ ، أَوْ بَيْنَ الْحُرُوفِ وَالْأَعْدَادِ ، فَأَمْرٌ عَسِيرٌ عَلَى الْفَهْمِ . إِذْ
لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْعُلُومِ وَالْقِيَاسَاتِ ، وَإِنَّمَا مُسْتَنَدُهُمْ فِيهِ الذَّوْقُ وَالْكَشْفُ . قَالَ
الْبُونِيُّ : وَلَا تَظُنْ أَنَّ سِرَّ الْحُرُوفِ مِمَّا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ . وَإِنَّمَا هُوَ
بِطَرِيقِ الْمَشَاهِدَةِ وَالتَّوْفِيقِ الْإِلَهِيِّ . وَأَمَّا التَّصَرُّفُ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ
وَالْأَسْمَاءِ الْمُرَكَّبَةِ فِيهَا وَتَأَثُّرُ الْأَكْوَانِ عَنْ ذَلِكَ فَأَمْرٌ لَا يُنْكَرُ لثُبُوتِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ
تَوَاتُرًا . وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ تَصَرُّفَ هَؤُلَاءِ وَتَصَرُّفَ أَصْحَابِ الطَّلَسِمَاتِ وَاحِدٌ ، وَلَيْسَ
كَذَلِكَ ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ الطَّلَسِمِ وَتَأْثِيرَهُ عَلَى مَا حَقَّقَهُ أَهْلُهُ أَنَّهُ قُوَى رُوحَانِيَّةٌ مِنْ جَوْهَرِ
الْقَهْرِ ، تَفْعَلُ فِيمَا لَهُ رُكْبٌ فِعْلٌ غَلْبِيٌّ وَقَهْرٌ . بِأَسْرَارِ فَلَكِيَّةٍ وَنَسَبِ عَدَدِيَّةٍ
وَبُخُورَاتِ جَالِبَاتِ لِرُوحَانِيَّةِ ذَلِكَ الطَّلَسِمِ ، مُشْدُودَةٍ فِيهِ بِالْهَيْمَةِ ، فَائِدَتُهَا رَبْطُ
الطَّبَائِعِ الْعُلُويَّةِ بِالطَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ . وَهُوَ عِنْدَهُمْ كَالْخَمِيرَةِ الْمُرَكَّبَةِ مِنْ هَوَائِيَّةٍ
وَأَرْضِيَّةٍ وَمَائِيَّةٍ وَنَارِيَّةٍ حَاصِلَةٍ فِي جُمْلَتِهَا ، تُحْيَلُ وَتَصَرَّفُ مَا حَصَلَتْ فِيهِ إِلَى ذَاتِهَا
وَتَقْلِبُهُ إِلَى صَوَرَتِهَا . وَكَذَلِكَ الْإِكْسِيرُ لِلْأَجْسَامِ الْمَعْدِنِيَّةِ ، كَالْخَمِيرَةِ تَقْلِبُ الْمَعْدِنَ
الَّذِي تَسْرِي فِيهِ إِلَى نَفْسِهَا بِالْإِحَالَةِ . وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ : مَوْضُوعُ الْكَيْمَاءِ جَسَدٌ فِي
جَسَدٍ لِأَنَّ الْإِكْسِيرَ أَجْزَاؤُهُ كُلُّهَا جَسَدَانِيَّةٌ . وَيَقُولُونَ : مَوْضُوعُ الطَّلَسِمِ رُوحٌ فِي
جَسَدٍ لِأَنَّهُ رَبْطُ الطَّبَائِعِ الْعُلُويَّةِ بِالطَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ . وَالطَّبَائِعُ السُّفْلِيَّةُ جَسَدٌ
وَالطَّبَائِعُ الْعُلُويَّةُ رُوحَانِيَّةٌ . وَتَحْقِيقُ الْفَرْقِ بَيْنَ تَصَرُّفِ أَهْلِ الطَّلَسِمَاتِ وَأَهْلِ
الْأَسْمَاءِ ، بَعْدَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ التَّصَرُّفَ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ
وَالْهَيْمِ الْبَشَرِيَّةِ أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ مُحِيطَةٌ بِالطَّبِيعَةِ وَحَاكِمَةٌ عَلَيْهَا بِالذَّاتِ ، إِلَّا
أَنَّ تَصَرُّفَ أَهْلِ الطَّلَسِمَاتِ إِنَّمَا هُوَ فِي اسْتِنْزَالِ رُوحَانِيَّةِ الْأَفْلَاكِ وَرَبْطِهَا بِالصُّوَرِ أَوْ
بِالنَّسَبِ الْعَدَدِيِّ ، حَتَّى يَحْصَلَ مِنْ ذَلِكَ نَوْعٌ مَزَاجٍ يَفْعَلُ الْإِحَالَةَ وَالْقَلْبَ
بِطَبِيعَتِهِ ، فِعْلُ الْخَمِيرَةِ فِيمَا حَصَلَتْ فِيهِ . وَتَصَرُّفُ أَصْحَابِ الْأَسْمَاءِ إِنَّمَا هُوَ بِمَا
حَصَلَ لَهُمْ بِالْمُجَاهَدَةِ وَالْكَشْفِ مِنَ النُّورِ الْإِلَهِيِّ وَالْإِمْدَادِ الرَّبَّانِيِّ ، فَيَسْخَرُ

الطبيعة لذلك طائفة غير مستغصية ، ولا يحتاج إلى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها ، لأن مدده أعلى منها ..

ويحتاج أهل الطلسمات إلى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية الأفلاك . وأهون بها وجهة ورياضة . بخلاف أهل الأسماء فإن رياضتهم هي الرياضة الكبرى ، وليست لقصد التصرف في الأكوان إذ هو حجاب . وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض ، كرامة من كرامات الله لهم . فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت ، الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف ، واقتصر على مناسبات الأسماء وطبائع الحروف والكلمات ، وتصرف بها من هذه الحيثية وهؤلاء هم أهل السنياء في المشهور - كأن إذا لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات ، بل صاحب الطلسمات أوثق منه لأنه يرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة . وأما صاحب أسرار الأسماء إذا فاتته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بفوات الخلوص في الوجهة ، وليس له في العلوم الإصطلاحية قانون برهاني يعول عليه يكون حاله أضعف رتبة . وقد يفرج صاحب الأسماء قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب ، فيعين لذكر الأسماء الحسنى ، أو ما يرسم من أوقافها ، بل ولسائر الأسماء ، أوقاتا تكون من حفظ الكواكب الذي يناسب ذلك الاسم ، كما فعله البوني في كتابه الذي سماه الأنماط . وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمائية . وهي برزخية الكمال الأسمانى ، وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة . وإثبات هذه المناسبة عندهم إنما هو بحكم المشاهدة . فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك المشاهدة ، وتلقى تلك المناسبة تقليدا ، كأن عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم ، بل هو أوثق منه كما قلناه . وكذلك قد يفرج أيضاً صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدغوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب ، إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب

الْأَسْمَاءِ مِنَ الْإِطْلَاعِ فِي حَالِ الْمَشَاهِدَةِ ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى مَا اقْتَضَتْهُ أَصُولُ طَرِيقَتِهِمْ
السُّخْرِيَّةِ ، مِنْ اقْتِسَامِ الْكَوَاكِبِ لِجَمِيعِ مَا فِي عَالَمِ الْمَكُونَاتِ ، مِنْ جَوَاهِرٍ وَأَعْرَاضٍ
وَدَوَابٍّ وَمَعَانٍ ، وَالْخُرُوفِ وَالْأَسْمَاءِ مِنْ جُمْلَةٍ مَا فِيهِ .

فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْكَوَاكِبِ قِسْمٌ مِنْهَا يَخُصُّهُ ، وَيَبْنُونَ عَلَى ذَلِكَ مَبَانِي غَرِيبَةٍ
مُنْكَرَةٍ مِنْ تَقْسِيمِ سُورِ الْقُرْآنِ وَآيِهِ عَلَى هَذَا النُّحْوِ ، كَمَا فَعَلَتْهُ الْمَجْرِيطِيُّ فِي
الْغَايَةِ . وَالظَّاهِرُ مِنْ حَالِ الْبُتُونِيِّ فِي أَنْمَاطِهِ أَنَّهُ اغْتَبَرَ طَرِيقَتَهُمْ . فَإِنَّ تِلْكَ
الْأَنْمَاطَ إِذَا تَصَفَّحْتُهَا ، وَتَصَفَّحْتَ الدُّعَوَاتِ الَّتِي تَضُمُّنَهَا ، وَتَقْسِمُهَا عَلَى سَاعَاتِ
الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ ، ثُمَّ وَقَفْتَ عَلَى الْغَايَةِ ، وَتَصَفَّحْتَ قِيَامَاتِ الْكَوَاكِبِ الَّتِي فِيهَا ،
وَهِيَ الدُّعَوَاتُ الَّتِي تَخْتَصُّ بِكُلِّ كَوْكَبٍ ، وَيُسَمُّونَهَا قِيَامَاتِ الْكَوَاكِبِ ، أَيْ
الدُّعْوَةَ الَّتِي يُقَامُ لَهُ بِهَا ، شَهِدَ لَهُ ذَلِكَ ، إِثْمًا بِأَنَّهُ مِنْ مَا ذَاتِهَا ، أَوْ بِأَنَّ التَّنَاسُبَ
الَّذِي كَانَ فِي أَصْلِ الْإِبْدَاعِ وَبَرَزِخِ الْعِلْمِ قَضَى بِذَلِكَ كُلَّهُ . « وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ
إِلَّا قَلِيلًا » . وَلَيْسَ كُلُّ مَا حَرَمَهُ الشَّارِعُ مِنَ الْعُلُومِ بِمُنْكَرِ الثُّبُوتِ ، فَقَدْ ثُبَّتْ أَنَّ
السِّخْرَ حَقٌّ مَعَ حَظِّهِ . لَكِنْ حَسْبُنَا مِنَ الْعِلْمِ مَا عَلِمْنَا .

وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ السِّيمَاءِ عِنْدَهُمْ اسْتِخْرَاجُ الْأُجُوبَةِ مِنَ الْأَسْئَلَةِ ،
بِازْتِبَاطَاتٍ شَتَّى بَيْنَ الْكَلِمَاتِ - حَرْفِيَّةٍ ، يُوهَمُونَ أَنَّهَا أَصْلٌ فِي مَعْرِفَةِ
مَا يُحَاوِلُونَ عِلْمَهُ مِنَ الْكَائِنَاتِ الْإِسْتِقْبَالِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ شَبْهُ الْمَعَايَاةِ وَالْمَسَائِلِ
السِّيَالَةِ . وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ كَلَامٌ كَثِيرٌ مِنْ أَدْعِيَةٍ وَأَوْرَادٍ . وَأَعْجَبُهُ زَايِرُجَةُ الْعَالَمِ
لِلْسُّنِيِّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا . وَنُبَيِّنُ هُنَا مَا ذَكَرُوهُ فِي كَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ بِتِلْكَ الزَايِرُجَةِ
بِذَاتِزَتِهَا وَجَدُولِهَا الْمَكْتُوبِ حَوْلِهَا ، ثُمَّ نَكْشِفُ عَنِ الْحَقِّ فِيهَا وَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ
الْغَيْبِ ، وَإِنَّمَا هِيَ مُطَابَقَةٌ بَيْنَ مَسْئَلَةٍ وَجَوَابِهَا فِي الْإِفَادَةِ فَقَطْ . وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَى
ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ . وَلَيْسَ عِنْدَنَا رَوَايَةٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهَا فِي صِحَّةِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ إِلَّا أَنَّنَا
تَحَرُّنَا أَصَحَّ النُّسخِ مِنْهَا فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ . وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ بِمَنِّهِ . وَهِيَ هَذِهِ ،

يَقُولُ سُبِّتِي وَيَحْمَدُ رَبَّهُ
مُحَمَّدُ الْمُبْعُوثُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَا
أَلَا هَذِهِ زَايِرَةُ الْعَالَمِ الَّذِي
فَمَنْ أَحْكَمَ الْوُضْعَ فَيَحْكُمُ جِسْمَهُ
وَمَنْ أَحْكَمَ الرُّبْطَ فَيَدْرِكُ قُوَّةَ
وَمَنْ أَحْكَمَ التَّصْرِيفَ يَحْكُمُ سِرَّهُ
وَفِي عَالِمِ الْأُمْرِ تَرَاهُ مُحَقِّقًا
فَهَذِي سَرَائِرُ عَلَيْكُمْ بِكْتِمِهَا
فَطَاءُ لَهَا عَرْشٌ وَفَيْضٌ نَقُوشُنَا
وَنَسَبُ دَوَائِرِ كُنْسِيَةِ فَلَكِهَا
وَأَخْرَجَ لَأَوْتَارِهَا وَازْسَمَ حُرُوفَهَا
أَقَمَ شَكْلَ زِيَرِهِمْ وَسَوَّيْتُوهُ
وَحَصَلَ عُلُومًا لِلطَّبَاعِ مُهْنِدِسًا
وَسَوَّيْتُ لِمُوسِيقَى وَعَلِمَ حُرُوفِهِمْ
وَسَوَّيْتُ دَوَائِرَهَا وَنَسَبَ حُرُوفَهَا
أَمِيرٌ لَنَا فَهُوَ نَهَايَةُ دَوْلَةِ
وَقَطَرٍ لِأَنْدَلُسِ فَايُنْ لِهَوْدِهِمْ
مُلُوكٌ وَفَرَسَانٌ وَأَهْلٌ لِحِكْمَةِ
وَمَهْدِي تَوْحِيدِ بَتُونِسَ حُكْمُهُمْ
وَأَقْسَمَ عَلَى الْقَطْرِ وَكُنْ مُتَّفَقِدًا
فَقَنْشَ وَبَرَشْنُونَ الرِّاءَ حَرْفُهُمْ
مُلُوكٌ كَنَاوَةٌ ذَلُومًا لِقَافِهِمْ
فَهَنْدُ حَبَاشِيٍّ وَسِنْدُ فَهْرِمَسَ

مُصَلٌّ عَلَى هَادٍ إِلَى النَّاسِ أَرْسِلَا
وَيَرْضَى عَنِ الصُّخْبِ وَمِنْ لَهُمْ تَلَا
تَرَاهُ بِحَيْكُمٍ وَبِالْعَقْلِ قَدْ خَلَا
وَيَدْرِكُ أَحْكَامًا تَدْبِرُهَا الْعِلَا
وَيُدْرِكُ لِلتَّقْوَى وَلِلْكَلِّ حَصْلَا
وَيَعْقِلُ نَفْسَهُ وَصَحَّ لَهُ الْوَلَا
وَهَذَا مَقَامٌ مِنَ الْأَذْكَارِ كَمَلَا
أَقَمَهَا دَوَائِرَ وَلِلْحَاءِ عَدَلَا
بِنَظْمٍ وَنَثَرٍ قَدْ تَرَاهُ مُجْدُولَا
وَازْسَمَ كَوَاكِبًا لِأَدْرَاجِهَا الْعِلَا
وَكُورَ يُمَثِّلُهُ عَلَى حَدٍّ مِنْ خَلَا
وَحَقَّقَ بِهَا مِهْمَ وَنُورَهُمْ جَلَا
وَعَلَّمَ لِمُوسِيقَى وَالْأَزْبَاعِ مَثَلَا
وَعَلَّمَ بِأَلَايَ فَحَقَّقَ وَحَصَلَا
وَعَالَمَهَا أَطْلَقَ وَالْإِقْلِيمَ جَدُولَا
زَنَاتِيَّةَ آبَتْ وَحُكْمُ لَهَا خَلَا
وَجَاءَ بَنُو نَصْرِ وَظَفَرُهُمْ تَلَا
فَإِنْ شِئْتَ نَصْبُهُمْ وَقَطَرُهُمْ خَلَا
مُلُوكٌ وَبِالشَّرْقِ بِالْأَوْفَاقِ نَزَلَا
فَإِنْ شِئْتَ لِلرُّومِ فَبِالْحَرِّ شَكَلَا
وَإِفْرَنْسَهُمْ دَالٌ وَبِالطَّاءِ كَمَلَا
وَإِعْرَابُ قَوْمِنَا بِتَرْقِيقِ أَعْمَلَا
وَفَرَسَ طَطَارِي وَمَا بَعْدَهُمْ طَلَا

فَقَيَّصَرُهُمْ جَاءَ وَيَزْدَجُرْدُهُمْ
وَعَبَّاسُ كُلُّهُمْ شَرِيفٌ مُعْظَمٌ
فَإِنْ شِئْتَ تَدْقِيقَ الْمُلُوكِ وَكُلُّهُمْ
عَلَى حُكْمِ قَانُونِ الْخُرُوفِ وَعِلْمُهَا
فَمَنْ عِلْمُ الْعُلُومِ تَعَلَّمَ عِلْمُنَا
فَيَرْسُخُ عِلْمُهُ وَيَعْرِفُ رَبَّهُ
وَحَيْثُ أَتَى اسْمُ وَالْعَرُوضُ يَشْقُهُ
وَتَأْتِيكَ أَحْرَفُ فَسَوْ لِيضْرِبَهَا
فَمَكْنُ بِتَنْكِيرٍ وَقَابِلُ وَعَوْضُنُ
وَفِي الْعَقْدِ وَالْمَجْزُورِ يَعْرِفُ غَالِبًا
وَاخْتَرِ لِمَطْلَعِ وَسَوِيهِ رُتْبَةً
وَيَدْرِكُهَا الْمَرْءُ فَيَبْلُغُ قَصْدَهُ
إِذَا كَانَ سَعْدٌ وَالْكَوَاكِبُ اسْعَدَتْ
وَأَيْقَاعُ ذَالِهِمْ بِمَرْمُوزٍ ثَمَمَةٍ
وَأَوْتَارُ زِيرِهِمْ فَلِلْحَاءِ بِمِهِمْ
وَأَدْخَلَ بِأَفْلَاكِ وَعَدَلَ بِجَذُولِ
وَجَوَّزَ شُدُودَ النُّوِّ تَجْرِي وَمِثْلُهُ
فَأَصَلَ لِدِينِنَا وَأَصَلَ لِفَقِينَا
فَادْخُلْ لِفِسْطَاطِ عَلَى الْوُفْقِ جَذْرُهُ
فَتَخْرُجْ أُنْيَاتَا وَفِي كُلِّ مَطْلَبِ
وَتَقْنَى بِخَضْرَاهَا كَذَا حُكْمُ عَدْلِهِمْ
فَتَخْرُجْ أُنْيَاتَا وَعَشْرُونَ ضَعْفَتْ
تَرِيكَ صُنَائِعًا مِنَ الضَّرْبِ أَكْمَلْتَ

لِكَافٍ وَقَبْطِيهِمْ بِلَامِهِ طُولًا
وَلَكِنْ تَرْكِي بِذَا الْفِعْلِ عَطْلًا
فَخِثْمٌ بَيُوتًا ثُمَّ نَسَبٌ وَجَذُولًا
وَعِلْمُ طَبَائِعِهَا وَكُلُّهُ مِثْلًا
وَيَعْلَمُ أَسْرَارَ الْوُجُودِ وَأَكْمَلًا
وَعِلْمُ مَلَاجِيرِ بِحَايِمٍ فَضْلًا
فَحُكْمُ الْحَكِيمِ فِيهِ قُطْعًا لِيَقْتَلَا
وَأَحْرَفُ سَيِّوِيهِ تَأْتِيكَ فَيُصَلَا
بِتَرْنِيمِكَ الْغَالِي لِلْأَجْزَاءِ خَلْجًا
وَزِدْ لِمَحْ وَصْفِيهِ فِي الْعَقْلِ فَعْلًا
وَاعْكُسْ بِجَذْرِيهِ وَبِالدُّورِ عَدْلًا ؟
وَتَعْطِي حُرُوفُهَا وَفِي نَظْمِهَا أَنْجَلًا
فَحَسْبُكَ فِي الْمَلِكِ وَنِيلَ اسْمِهِ الْعَلَا
فَنَسَبٌ دَنَادِينَا تَجِدُ فِيهِ مَنَهْلًا
وَمِثْنَاهُمْ الْمُثَلَّثُ بِحِيْمِهِ قَدْ جَلَا
وَأَرْسَمَ أَبَاجَادَ وَبَاقِيَهُ جَمَلًا
أَتَى فِي عَرُوضِ الشُّعْرِ عَنْ جُمْلَةٍ مَلَا
وَعِلْمٌ لِنُحُونَا فَاحْفَظْ وَحَصْلًا
وَسَبَّحْ بِاسْمِهِ وَكَبَّرْ وَهَلَّلَا
بِنَظْمِ طَبِيعِي وَسِرٍّ مِنَ الْعَلَا
فَعِلْمُ الْفَوَاتِيحِ تَرَى فِيهِ مَنَهْلًا
مِنَ الْأَلْفِ طَبِيعِيًّا فَيَا صَاحِ جَذُولًا
فَصَحْ لَكَ الْمُنَى وَصَحْ لَكَ الْعَلَا

وَسَجَّعَ بِزَيْرِهِمْ وَأَثْنِي بِنَقْرَةٍ أَقْمَهَا دَوَائِرَ الزَّيْرِ وَحَصَلَا
 أَقْمَهَا بِأَوْفَاقٍ وَأَصْلًا لِعَدَّهَا مِنْ أَسْرَارٍ أَخْرَفِهِمْ فَعَذَبَهُ سِلْسِلَا
 ٤٣ ك ١ ك و ك ح و ا ه عم له ر ل اسع ك ط ١ ل م ن ح ع ف و ل

الكلام على استخراج نسبة الأوزان وكيفياتها ومقادير المقابل منها
 وقوة الدرجة المتميزة بالنسبة إلى موضع المعلق من امتزاج

طبائع وعلم طب أو صناعة الكيمياء

أَيَا طَالِبًا لِلطَّبِّ مَعَ عِلْمِ جَابِرٍ وَعَالِمٍ مَقْدَارِ الْمَقَادِيرِ بِالْوَلَا
 إِذَا شِئْتَ عِلْمَ الطَّبِّ لَا بُدَّ نِسْبَةٍ لِأَخْكَامِ مِيزَانٍ تُضَادِفُ مِنْهَلَا
 فَيُشْفَى عَلَيْكُمْ وَالْأَكْسِيرُ مُحَكَّمٌ وَأُمَزَاجٌ وَضِعَكُمْ بِتَضْجِيجِ أَنْجَلَا

الطب الروحاني

وَشِئْتَ إِيْلَاوَشَ ٥٦٥ هـ وَدَهْنَهُ بِحَلَا لِبِهْرَامِ بَرَجِيسٍ وَسَبْعَةَ أَكْمَلَا
 لِتَحْلِيلِ أَوْجَاعِ الْبَوَارِدِ صَحَّحُوا كَذَلِكَ وَالتَّرَكِيبِ حَيْثُ تَنْقَلَا
 كد منع مهم ٣٥٥ وهج ٦ صح لهاي و لمح ١١ وهج وى سكره لال ح مهت
 مهم ٤٤ ع مى مزح ح ٢٢٤٢ ل ك عا عر .

مطاريح الشعاعات في مواليد الملوك وبنيتهم

وَعِلْمُ مَطَارِيحِ الشُّعَاعَاتِ مُشْكَلٌ وَضَلَعُ قَسِيهَا بِمَنْطِقَةٍ جَلَا
 وَلَكِنْ فِي حَجِّ مَقَامِ إِيْمَانَا وَيَبْدُو إِذَا عَرَضَ الْكَوَاكِبِ عَدَلَا
 بَدَالُ مَرَاكِزٍ بَيْنَ طَوْلٍ وَعَرْضِهَا فَمَنْ أَذْرَكَ الْمَعْنَى غَلَا ثُمَّ فَوْضَلَا
 مَوَاقِعُ تَرْبِيعٍ وَسَهْ مُسْقِطٌ لِتَسْدِيسِهِمْ تَثْلِيثُ بَيْتِ النَّبِيِّ تَلَا

يزاد لتربيع وَهَذَا قِيَاسُهُ يَقِينَا وَجَذْرُهُ وَبِالْعَيْنِ أَعْمَلَا
وَمِنْ نِسْبَةِ الرَّبْعَيْنِ رَكِبَ شَعَاعُكَ بَصَادُ وَضَعْفُهُ وَتَرْبِيعُهُ أَنْجَلَا

اختص صح ٨ ع ٨ س وي هذا العمل هنا للملوك والقانون مطرد عمله
ولم ير أعجب منه .

مقامات الملوك المقام الأول ه المقام الثاني

ع ع والمقام الرابع للح المقام الخامس لاي المقام السادس بير المقام السابع عره

خط الاتصال والانفصال

خط الاتصال

خط الانفصال

الوتر للجميع وتابع الجرر التام

الاتصال والانفصال

الواجب التام في الاتصالات

إقامة الأنوار

الجزر المجيب في العمل

إقامة السؤال عن الملوك

مقام الأول نورعه ي مقام بها ه حج لا

الانفعال الروحاني والالتقياد الرباني

أَيَا طَالِبَ السِّرِّ لَتَهْلِيلِ رَبِّهِ لَدَى أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى تُصَادِفُ مِنْهَا
تُطِيعُكَ أَخْيَارُ الْأَنَامِ بِقُلُوبِهِمْ كَذَلِكَ رِيَسُهُمْ فِي الشَّمْسِ أَعْمَلَا

ترى عامة الناس إليك تَقِيدُوا
 طريقك هذا السيل والسبل الذي
 إِذَا شِئْتَ تحيا في الوجود مع التقى
 كذي النون والجنيد مع سِرِّ صنعة
 وفي العالم العلوي تكون مُحَدَّثًا
 طريق رسول الله بالحق ساطع
 فبطشك تهليل وقوسك مطلع
 وفي جمعة أيضاً بالأسماء مثله
 وفي طائه سرٌّ في هائه إِذَا
 وساعة سعيد شرطهم في نقوشها
 وتتلو عليها آخر الحشر دعوة
 وَمَا قَلْتُهُ حَقًّا وَفِي الْغَيْرِ أَهْمَلًا
 أَقُولُ سَهْ غَيْرَكُمْ وَنَصْرُكُمْوَا اجْتَلَى
 وَدِينًا مَتِينًا أَوْ تَكُنْ مَتَوَصِّلًا
 وَفِي سِرِّ بَسْطَامِ أَرَاكَ مَسْرَبَلًا
 كَذَا قَالَتْ الْهِنْدُ وَصُوفِيَّةُ الْمَلَا
 وَمَا حَكَمَ صَنَعٌ مِثْلَ جَبْرِيلَ أَنْزَلَا
 وَيَوْمَ الْخَمِيسِ الْبَدَأُ وَالْأَحَدُ انْجَلَى
 وَفِي اثْنَيْنِ لِلْحَسَنِ تَكُونُ مَكْمَلًا
 أَرَاكَ بِهَا مَعَ نِسْبَةِ الْكُلِّ أُعْطَلَا
 وَعُودٌ وَمِصْطَكِي بِخُورٍ تَحْضَلَا
 وَالْإِخْلَاصُ وَالسَّعْيُ الْمِثْلَانِي مَرْتَلَا

(اتصال أنوار الكواكب) بلعاني لاهي ي لا ظ غ لدسع ق صح م ف و ي

وَفِي يَدِكَ الْيُمْنَى حديدَ وَخَاتَمَ
 وَآيَةُ حَشْرِ فَاجْعَلِ الْقَلْبَ وَجْهَهَا
 هِيَ السَّرُّ فِي الْأَكْوَانِ لَا شَيْءَ غَيْرَهَا
 تَكُونُ بِهَا قُطْبًا إِذَا جَدْتَ خِدْمَةً
 سَرِي بِهَا نَاجِي وَمَعْرُوفٌ قَبْلَهُ
 وَكَانَ بِهَا الشُّبْلِيُّ يَدَابُ دَائِمًا
 فَصَفَّ مِنَ الْأَدْنَسِ قَلْبَكَ جَاهِدًا
 فَمَا نَالَ سِرُّ الْقَوْمِ إِلَّا مُحَقَّقًا
 وَكُلَّ بَرَأْسِكَ وَفِي دَعْوَةٍ فَلَا
 وَاتْلُوا إِذَا نَامَ الْأَنْسَامُ وَرَتَلَا
 هِيَ الْآيَةُ الْعُظْمَى فَحَقِّقْ وَحْضَلَا
 وَتَدْرِكُ أَسْرَارًا مِنَ الْعَالَمِ الْعَلَا
 وَبَاخُ بِهَا الْخُلَاجُ جَهْرًا فَأَعْقَلَا ؟
 إِلَى أَنْ رَقَى فَوْقَ الْمُرِيدِينَ وَاعْتَلَى
 وَلَا زِمَ لِذَكَارٍ وَصَمَ وَتَنَقَّلَا
 عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الْعُلُومِ مُحْضَلَا

مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب وتعشق

وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلة وأئمة

الانفعال الطبيعي

لبرجيس في المحبة الوفق صرّفوا	بقزدير أو نحاس الخلط أكملوا
وقيل بفضة صحيحاً رأيته	فجعلك طالعاً خطوطه ماعلا
توخ به زيادة النور للقمر	وجعلك للقبول شمساً أصلا
ويومته والبخور عوداً لهنديهم	ووقت لساعة ودعوتهُ ألا
ودعوتهُ بغاية فهي أعملت	وعن طسيمان دعوة ولها جلا
وقيل بدعوة حروف لوضعها	بحر هواء أو مطالب أهلا
فتنقش أحرفاً بدالٍ ولأمها	وذلك وفق للمرئع حصلا
إذا لم يكن يهوى هواك دلالتها	فدال ليدو واو زينب معطلا
فحسن لبائه وبائهم إذا	هواك وباقيهم قليلة جملا
ونقش مشاكل بشرط لوضعهم	وما زدت أنسبه لفعلك عدلا
ومفتاح مريم ففعلهما سوا	فبوري وبسطامي بسورتها تلا
وجعلك بالقصيد وكن متفكداً	أدلة وحشي لقبضة ميلا
فاعكس بيوتها بألف وثيف	فباطنها سرّ وفي سرّها انجلا

فصل في المقامات للنهاية

لك الغيب صورة من العالم العلّا	وتوجدها دار أو ملبسها الحلا
ويوسف في الحسن وهذا شبيهه	بنشر وترتيل حقيقة أنزلا
وفي يده طول وفي الغيب ناطق	فيحكى إلى عود يجاوب بلبلا
وقد جن بهلول بعشق جمالها	وعند تجليها لبسطام أخذلا

جنيد وبصرى والجسم أهمل
بأسمائه الحسنى بلا نسبة خلا
ويسمهم بالزلفى لذى جيرة العلا
تريك عجائباً بمن كان موئلا
ومنها زيادات لتفسيرها تلا

فهذا قصيدنا وتسعون عده
عجبت لايبات وتسعون عدها
فمن فهم السر فيهم نفسه
حرام وشرعي لاظهار سرنا
فان شئت أهليه فغلظ يمينهم
لعلك أن تنجو وسامع سرهم
فنجل لعباس لسره كاتم
وقام رسول الله في الناس خاطباً
وقد ركب الأرواح أجساد مظهر
إلى العالم العلوي يفنى فناؤنا
فقد تم نظماً وصلى إلها
وصلى إله العرش ذو المجد والعلو
محمد الهادي الشفيع إمامنا

وتعديل الكواكب عند كل تاريخ مطلوب بـ ٤ ل و ١٥ هـ لو طرح الاوتار والكلية

جاد عو عو عو كلمة الزاير جـه

كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زاي رجة العالم بحول الله

منقولاً عن لقيناه من القائمين عليها

السؤال له ثلثمائة وستون جواباً عدة الدرج ، وتختلف الأجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الأسئلة المضافة إلى حروف الأوتار ، وتناسب العمل من استخراج الأخرى من بين القصيد .

(تنبيه) - تركيب حروف الأوتار والجدول على ثلاثة أصول ، حروف عربية تنقل على هيئاتها ، وحروف يرسم القبار . وهذه تبدل ، فمنها ما ينقل على هيئته متى لم تزد الأوتار عن أربعة ، فإن زادت عن أربعة نقلت إلى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات ، وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه ، ومنها حروف يرسم الزمام كذلك ، غير أن رسم الزمام يعطى نسبة ثانية ، فهي بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة ، ولها نسبة من خمسة بالعربي ، فاستحق البيت من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم ، فاختصروا من الجدول ثبوتاً خالية . فمتى كانت أصول الأوتار زائدة على أربعة حسبت في العدد في طول الجدول ، وإن لم تزد على أربعة لم يحسب إلا العامر منها .

والعمل في السؤال يفتقر إلى سبعة أصول ، عدة حروف الأول حساب أوتارها بعد طرحها ، إثني عشر إثني عشر ، وهي ثمانية أحرف في الكامل وستة في الناقص أبداً . ومعرفة درج الطالع وسُلطان البرج ، والدور الأكبر الأصلي ، وهو واحد أبداً . وما يخرج من إضافة الطالع للدور الأصلي ، وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سُلطان البرج . وإضافة سُلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة أوتار مضرورية في أربعة ، تكون إثني عشر دوراً . ونسبة هذه الثلاثة

الأدوار التي هي كل دور من أربعة نشأة ثلاثية ، كل نشأة لها ابتداء . ثم إنها تضرب أدواراً رباعية أيضاً ثلاثية . ثم إنها من ضرب ستة في اثنين ، فكان لها نشأة ، يظهر ذلك في العمل . ويتبع هذه الأدوار الإثنى عشر نتائج ، وهي في الأدوار ، إما أن تكون نتيجة أو أكثر إلى ستة .

فأول ذلك نفرض سؤالاً عن الزايرة ، هل هي علم قديم ، أو مُحدث بطالع أول درجة من القوس أثناء حروف الأوتار ؟ ثم حروف السؤال . فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونظيره من رأس الجوزاء . وثالثه وتر رأس الدلو إلى حد المركز . وأضفنا إليه حروف السؤال ، ونظرنا عدتها وأقل ما تكون ثمانية وثمانين ، وأكثر ما تكون ستة وتسعين ، وهي جملة الدور الصحيح ، فكانت في سؤالنا ثلاثة وتسعين . ويختصر السؤال إن زاد عن ستة وتسعين ، بأن يسقط جميع أدواره الإثنى عشرية ، ويحفظ ما خرج منها وما بقي ، فكانت في سؤالنا سبعة أدوار ، الباقى تسعة ، أثبتنا في الحروف ما لم يبلغ الطالع اثنتي عشرة درجة ، فإن بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور .

ثم تثبت أعدادها أيضاً إن زاد الطالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث ، ثم تثبت الطالع وهو واحد ، وسلطان الطالع وهو أربعة ، والدور الأكبر وهو واحد ، واجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان في هذا السؤال ، واضرب ما خرج منهما في سلطان البرج يبلغ ثمانية ، وأضف السلطان للطالع فيكون خمسة ، فهذه سبعة أصول . فما خرج من ضرب الطالع والدور الأكبر في سلطان القوس ، مما لم يبلغ اثني عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعداً ، وإن زاد على اثني عشر طرح أدواراً ، وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية ، وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع ، يكون الطالع في ضلع السطح المبسوط الأعلى من الجدول ، وتعد متوالياً خمساً أدواراً ، وتحفظها إلى أن يقف العدد على حرف من أربعة ، وهي ألف أو باء أو جيم أو زاي . فوقع العدد في عملنا

على حرف الألف وخلف ثلاثة أدوار. فصرنا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة. وهو عدد الدور الأول. فثبتته واجمع ما بين الضلعين: القائم والمبسوط يكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العائرة بالعدد من الجدول. وإن وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على أحدها. فلا يعتبر وتستمر على أدوارك. وأدخل بعدد ما في الدور الأول. وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتمع فيه. وهي ثمانية. ماراً إلى جهة اليسار. فوقع على حرف لام ألف ولا يخرج منها أبداً حرف مركب. وإنما هو إذن حرف تاء أربعمائة برسم الزمام. فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد. واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلاثة عشر. أدخل بها في حروف الأوتار. وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد. ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في النظم الطبيعي. وذلك أن تجمع حروف الدور الأول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تبلغ ثلاثة عشر. أضعفها بمثلها تكون ستة وعشرين. أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون.

فعلى ذلك يكون نظم الحروف الأول. ثم ثلاثة وعشرون مرتين. ثم إثنان وعشرون مرتين. على حسب هذا الطرح إلى أن ينتهي للواحد من آخر البيت المنظوم. ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولاً. ثم ضع الدور الثاني وأضف حروف الدور الأول إلى ثمانية. الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان تكن سبعة عشر الباقي خمسة. فاضع في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهت في الدور الأول وعلم عليه. وأدخل في صدر الجدول بسبعة عشر. ثم بخمسة. ولا تعد الخالي. والدور عشرون. فوجدنا حرف تاء خمسمائة. وإنما هو نون لأن دورنا في مرتبة العشرات. فكانت الخمسمائة بخمسين لأن دورها سبعة عشر فلو لم تكن سبعة عشر لكانت مئتين. فثبتت نونا ثم أدخل بخمسة أيضاً من أوله. وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحداً. فقهر العدد واحداً يقع على

خَمْسَةِ ، أَضِفْ لَهَا وَاحِدًا لِسَطْحِ تَكُنْ سِتَّةٌ . اثْبِتْ وَاوًا وَعَلِّمْ عَلَيْهَا مِنْ بَيْنِ الْقَصِيدِ
أَرْبَعَةً ، وَأَضِفْهَا لِلثَّمَانِيَةِ الْخَارِجَةِ مِنْ ضَرْبِ الطَّالِعِ مَعَ الدَّوْرِ فِي السُّلْطَانِ تَبْلُغْ إِثْنَيْ
عَشَرَ ، أَضِفْ لَهَا الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ الثَّانِي وَهُوَ خَمْسَةٌ تَبْلُغْ سَبْعَةَ عَشَرَ ، وَهُوَ مَا لِلدَّوْرِ
الثَّانِي . فَدَخَلْنَا بِسَبْعَةِ عَشَرَ فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ ، فَوَقَعَ الْعَدَدُ عَلَى وَاحِدٍ . اثْبِتْ
الْأَلِفَ وَعَلِّمْ عَلَيْهَا مِنْ بَيْنِ الْقَصِيدِ وَأَسْقِطْ مِنْ حُرُوفِ الْأَوْتَارِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ عِدَّةُ
الْخَارِجِ مِنَ الدَّوْرِ الثَّانِي ، وَضَعْ الدَّوْرَ الثَّالِثَ وَأَضِفْ خَمْسَةَ إِلَى ثَمَانِيَةٍ تَكُنْ ثَلَاثَةَ
عَشَرَ ، الْبَاقِي وَاحِدٌ . انْقُلْ الدَّوْرَ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَةٍ بِوَاحِدٍ وَأَدْخِلْ فِي بَيْنِ الْقَصِيدِ
بِثَلَاثَةِ عَشَرَ ، وَخُذْ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ الْعَدَدُ وَهُوَ (ق) وَعَلِّمْ عَلَيْهِ . وَأَدْخِلْ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ
فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ وَاثْبِتْ مَا خَرَجَ ، وَهُوَ سَيْنٌ ، وَعَلِّمْ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِ الْقَصِيدِ ، ثُمَّ
أَدْخِلْ مِمَّا يَلِي السَّيْنَ الْخَارِجَةَ بِالْبَاقِي مِنْ دَوْرٍ ثَلَاثَةَ عَشَرَ وَهُوَ وَاحِدٌ ، فَخُذْ مِمَّا
يَلِي حَرْفَ سَيْنٍ مِنَ الْأَوْتَارِ فَكَانَ (ب) اثْبِتْهَا وَعَلِّمْ عَلَيْهَا مِنْ بَيْنِ الْقَصِيدِ . وَهَذَا
يُقَالُ لَهُ ، الدَّوْرُ الْمَعْطُوفُ ، وَمِيزَانُهُ صَحِيحٌ ، وَهُوَ أَنْ تُضَعَّفَ ثَلَاثَةُ عَشَرَ بِمِثْلِهَا ،
وَتُضَيَّفَ إِلَيْهَا الْوَاحِدُ الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ تَبْلُغْ سَبْعَةَ وَعَشْرِينَ ، وَهُوَ حَرْفُ بَاءٍ
الْمُسْتَخْرَجُ مِنَ الْأَوْتَارِ مِنْ بَيْنِ الْقَصِيدِ . وَأَدْخِلْ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ ،
وَانْظُرْ مَا قَابِلُهُ مِنَ السُّطْحِ وَأَضِعْفُهُ بِمِثْلِهِ ، وَزِدْ عَلَيْهِ الْوَاحِدَ الْبَاقِي مِنْ ثَلَاثَةِ
عَشَرَ ، فَكَانَ حَرْفُ جِيمٍ ، وَكَانَتْ لِلْجُمْلَةِ سَبْعَةٌ ، فَذَلِكَ حَرْفُ زَايٍ فَاثْبِتْنَاهُ وَعَلِّمْنَا
عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِ الْقَصِيدِ . وَمِيزَانُهُ أَنْ تُضَعَّفَ السَّبْعَةُ بِمِثْلِهَا وَزِدْ عَلَيْهَا الْوَاحِدَ الْبَاقِي
مِنْ ثَلَاثَةِ عَشَرَ يَكُنْ خَمْسَةَ عَشَرَ ، وَهُوَ الْخَامِسُ عَشَرَ مِنْ بَيْنِ الْقَصِيدِ وَهَذَا آخِرُ
أَدْوَارِ الثَّلَاثِيَّاتِ ، وَضَعْ الدَّوْرَ الرَّابِعَ وَلَهُ مِنَ الْعَدَدِ تِسْعَةٌ بِإِضَافَةِ الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ
السَّابِقِ ، فَاضْرِبِ الطَّالِعَ مَعَ الدَّوْرِ فِي السُّلْطَانِ ، وَهَذَا الدَّوْرُ آخِرُ الْعَمَلِ فِي الْبَيْتِ
الْأَوَّلِ مِنَ الرُّبَاعِيَّاتِ .

فَاضْرِبْ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ وَاضْعُدْ بِتِسْعَةٍ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَةٍ وَأَدْخِلْ بِتِسْعَةٍ
مِنْ دَوْرِ الْحَرْفِ الَّذِي أَخَذْتَهُ آخِرًا مِنْ بَيْنِ الْقَصِيدِ ، فَالتَّاسِعُ حَرْفُ رَاءٍ ، فَاثْبِتْهُ .

وَعَلَّمَ عَلَيْهِ . وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ تِسْعَةً وَأَنْظَرَ مَا قَابَلَهَا مِنَ السُّطْحِ يَكُونُ (ج) ، فَهَقَرَ الْعَدَدَ وَاحِداً يَكُونُ أَلِفٌ وَهُوَ الثَّانِي مِنْ حَرْفِ الرَّاءِ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ فَأَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ . وَعَدَّ مِمَّا يَلِي الثَّانِي تِسْعَةً يَكُونُ أَلِفٌ أَيْضاً أَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ وَأَضْرَبَ عَلَى حَرْفٍ مِنَ الْأَوْتَارِ ، وَأَضْعَفَ تِسْعَةً يُمَثِّلُهَا تَبْلُغُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ، أَدْخَلَ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقِفَ عَلَى حَرْفِ رَاءٍ ، أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ ثَمَانِيَةَ وَأَرْبَعِينَ . وَأَدْخَلَ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقِفَ عَلَى (س) أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا اثْنَيْنِ ، وَأَضْعَفَ اثْنَيْنِ إِلَى تِسْعَةٍ تَكُونُ أَحَدَ عَشَرَ . أَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ بِأَحَدِ عَشَرَ تَقَابَلَهَا مِنَ السُّطْحِ أَلِفٌ أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا سِتَّةً ، وَضَعُ الدُّورَ الْخَامِسَ وَعَدَدَتُهُ سَبْعَةٌ عَشَرَ الْبَاقِي خَمْسَةٌ . إِضْعَفْ بِخَمْسَةٍ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَةَ وَأَضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ وَأَضْعَفَ خَمْسَةً يُمَثِّلُهَا ، وَأَضْفَهَا إِلَى سَبْعَةٍ عَشَرَ عَدَدَ دُورِهَا الْجُمْلَةَ سَبْعَةً وَعِشْرُونَ ، أَدْخَلَ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقَعُ عَلَى (ب) أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا اثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَأَطْرَحَ مِنْ سَبْعَةٍ عَشَرَ اثْنَيْنِ الَّتِي هِيَ فِي أَسْ اثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ الْبَاقِي خَمْسَةٌ عَشَرَ . أَدْخَلَ فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقِفَ عَلَى (ق) أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا سِتَّةً وَعِشْرِينَ ، وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ بِسِتِّ وَعِشْرِينَ تَقِفَ عَلَى اثْنَيْنِ بِالْغَبَارِ ، وَذَلِكَ حَرْفُ (ب) أَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةً وَخَمْسِينَ ، وَأَضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ وَضَعُ الدُّورَ السَّادِسَ ، وَعَدَدَتُهُ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ ، الْبَاقِي مِنْهُ وَاحِدٌ ، فَتَبَيَّنَ إِذَاكَ أَنَّ دُورَ النِّظْمِ مِنْ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ ، فَإِنَّ الْأَدْوَارَ خَمْسَةً وَعِشْرُونَ وَسَبْعَةً عَشَرَ وَخَمْسَةً وَثَلَاثَةً عَشَرَ وَوَاحِدٌ ، فَأَضْرَبَ خَمْسَةً فِي خَمْسَةِ تَكُنْ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ ، وَهُوَ الدُّورُ فِي نِظْمِ الْبَيْتِ ، فَانْقَلَبَ الدُّورُ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَةَ بِوَاحِدٍ . وَلَكِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ كَمَا قَدَّمَاهُ ، لِأَنَّهُ دُورٌ ثَانٍ مِنْ نَشْأَةِ تَرْكِيبِيَّةٍ ثَانِيَةٍ ، بَلْ أَضْفْنَا الْأَرْبَعَةَ الَّتِي مِنْ أَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ الْخَارِجَةَ عَلَى حُرُوفِ (ب) مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ إِلَى الْوَاحِدِ تَكُونُ خَمْسَةً ، تُضِيفُ خَمْسَةً إِلَى ثَلَاثَةِ عَشَرَ الَّتِي لِلدُّورِ تَبْلُغُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ، أَدْخَلَ بِهَا فِي صَدْرِ الْجَدُولِ وَخَذَ مَا قَابَلَهَا مِنَ السُّطْحِ وَهُوَ أَلِفٌ ، أَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ

بَيَّنَّ الْقَصِيدِ اثْنَيْنِ عَشَرَ وَاضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ . وَمِنْ هَذَا الْجَدْوَلِ تَنْظُرُ
أَحْرَفَ السُّؤَالِ ، فَمَا خَرَجَ مِنْهَا زِدَهُ مَعَ بَيِّنِ الْقَصِيدِ مِنْ آخِرِهِ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ
حُرُوفِ السُّؤَالِ لِيَكُونَ دَاخِلًا فِي الْعَدَدِ فِي بَيِّنِ الْقَصِيدِ ، وَكَذَلِكَ تَقَعُ بِكُلِّ حَرْفٍ
بَعْدَ ذَلِكَ مُنَاسِبًا لِحُرُوفِ السُّؤَالِ ، فَمَا خَرَجَ مِنْهَا زِدَهُ إِلَى بَيِّنِ الْقَصِيدِ مِنْ آخِرِهِ
وَعَلَّمَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَضِفَ إِلَى ثَمَانِيَةِ عَشَرَ مَا عَلَّمْتَهُ عَلَى حَرْفِ الْأَلْفِ مِنَ الْآخَادِ ، فَكَانَ
إِثْنَيْنِ تَبْلُغُ الْجُمْلَةُ عِشْرِينَ . أَدْخَلَ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقِفَ عَلَى حَرْفِ رَاءٍ ،
أَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ بَيِّنِ الْقَصِيدِ ، سِتَّةَ وَتِسْعِينَ وَهُوَ نِهَائَةُ الدَّوْرِ فِي الْحَرْفِ
الْوَتَرِيِّ . فَاضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ وَضَعَ الدَّوْرَ السَّابِعَ ، وَهُوَ ابْتِدَاءُ لِمُخْتَرَعِ
ثَانٍ يَنْشَأُ مِنَ الْإِخْتِرَاعَيْنِ . وَلِهَذَا الدَّوْرُ مِنَ الْعَدَدِ تِسْعَةٌ ، تُضِيفُ لَهَا وَاحِدًا تَكُونُ
عَشْرَةٌ لِلنَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ ، وَهَذَا الْوَاحِدُ تَزِيدُهُ بَعْدَ إِلَى إِثْنَيْنِ عَشَرَ دَوْرًا ، إِذَا كَانَ مِنْ هَذِهِ
النَّسَبَةِ ، أَوْ تَنْقُصُهُ مِنَ الْأَصْلِ تَبْلُغُ الْجُمْلَةُ خَمْسَةَ عَشَرَ . فَاضْعُدْ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَةِ
وَتِسْعِينَ وَأَدْخُلْ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ بِعَشْرَةِ تَقِفَ عَلَى خَمْسِمِائَةٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ خَمْسُونَ ،
نُونٌ مُضَاعَفَةٌ بِمِثْلِهَا ، وَتِلْكَ (ق) أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا مِنْ بَيِّنِ الْقَصِيدِ إِثْنَيْنِ
وَخَمْسِينَ ، وَأَسْقِطْ مِنْ إِثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ إِثْنَيْنِ ، وَأَسْقِطْ تِسْعَةَ الَّتِي لِلدَّوْرِ ، الْبَاقِي
وَاحِدٌ وَأَرْبَعُونَ ، فَأَدْخُلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقِفَ عَلَى وَاحِدٍ أَثْبَتَهُ . وَكَذَلِكَ
أَدْخُلْ بِهَا فِي بَيِّنِ الْقَصِيدِ تَجِدْ وَاحِدًا ، فَهَذَا مِيزَانُ هَذِهِ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ فَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ
بَيِّنِ الْقَصِيدِ عَلَامَتَيْنِ . عَلَامَةٌ عَلَى الْأَلْفِ الْآخِيرِ الْمِيزَانِيِّ ، وَآخَرَى عَلَى الْأَلْفِ
الْأُولَى فَقَطْ ، وَالثَّانِيَةُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَاضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ ، وَضَعَ الدَّوْرَ
الثَّامِنَ وَعَدَدَتَهُ سَبْعَةَ عَشَرَ الْبَاقِي خَمْسَةَ ، أَدْخُلْ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَةِ وَخَمْسِينَ وَأَدْخُلْ فِي
بَيِّنِ الْقَصِيدِ بِخَمْسَةِ تَقَعُ عَلَى عَيْنِ بِسْعِينَ ، أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا . وَأَدْخُلْ فِي
الْجَدْوَلِ بِخَمْسَةِ ، وَخُذْ مَا قَابِلَهَا مِنَ السَّطْحِ ، وَذَلِكَ وَاحِدٌ ، أَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ
الْبَيِّنِ ثَمَانِيَةِ وَأَرْبَعِينَ ، وَأَسْقِطْ وَاحِدًا مِنْ ثَمَانِيَةِ وَأَرْبَعِينَ لِلْأَسْرِ الثَّانِي وَأَضِفْ
إِلَيْهَا خَمْسَةَ ، الدَّوْرَ . الْجُمْلَةُ إِثْنَانِ وَخَمْسُونَ . أَدْخُلْ بِهَا فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ تَقِفَ

على حرف (ب) غبارية وهي مرتبة مبنية لترايد العدد ، فتكون مائتين وهي
حرف راء ، أثبتنا وعلم عليها من القصيد أربعة وعشرين ، فانتقل الأمر من ستة
وتسعين إلى الابتداء وهو أربعة وعشرون ، فأضيف إلى أربعة وعشرين خمسة ،
الدور ، وأسقط واحدا تكون الجملة ثمانية وعشرين . أدخل بالنصف منها في بيت
القصيد تَقِفْ على ثمانية ، أثبت (٢) وعلم عليها وضع الدور التاسع ، وعدده ثلاثة
عشر الباقي واحد ، إضعد في ضلع ثمانية بواحد . وليست نسبة العمل هنا كنسبتها
في الدور السادس لتضاعف العدد ، ولأنه من النشأة الثانية ، ولأنه أول الثلث
الثالث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من المثلثات . فاضرب ثلاثة عشر
التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة ، الجملة إثنان وخمسون ،
أدخل بها في صدر الجدول تَقِفْ على حرف إثنين غبارية ، وإنما هي مبنية
لتجاوزها في العدد عن مرتبتي الآحاد والعشرات ، فأثبت مائتين راء ، وعلم عليها
من بيت القصيد ثمانية وأربعين ، وأضيف إلى ثلاثة عشر ، الدور ، واحد الأس ،
وأدخل بأربعة عشر في بيت القصيد تبلغ ثمانية ، فعلم عليها ثمانية وعشرين ،
واطرخ من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة إضرب على حرفين من الأوتار ، وأدخل
بسبعة تقف على حرف لام ، أثبتنا وعلم عليه من البيت . وضع الدور العاشر وعدده
تسعة ، وهذا ابتداء المثلثة الرابعة ، وأضعد في ضلع ثمانية بتسعة ، تكون خلا ،
فأضعد بتسعة ثانية تصير في السابع من الابتداء . اضرب تسعة في أربعة لصعودنا
بتسعتين ، وإنما كانت تضرب في إثنين ، وأدخل في الجدول ستة وثلاثين تقف
على أربعة زمامية وهي عشرية ، فأخذناها أحادية لقلّة الأوتار ، فأثبت حرف
دال ، وإن أضفت إلى ستة وثلاثين واحد الأس كان هذا من بيت القصيد ، فعلم
عليها ، ولو دخلت بالتسعة لا غير من ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية ،
فاطرخ من ثمانية أربعة الباقي أربعة وهو المقصود . ولو دخلت في صدر الجدول
بثمانية عشر التي هي تسعة في إثنين لوقف على واحد زمامي وهو عشري ، فاطرخ

مِنْهُ اثْنَيْنِ تَكَرَّرَ التَّسْعَةُ ، الْبَاقِي ثَمَانِيَّةٌ نِصْفُهَا الْمَطْلُوبُ . وَلَوْ دَخَلَتْ فِي صَدْرِ
 الْجَدُولِ سَبْعَةٌ وَعَشْرِينَ بِضَرْبِهَا فِي ثَلَاثَةِ لَوْعَتٍ عَلَى عَشْرَةِ زِمَامِيَّةٍ ، وَالْعَمَلُ
 وَاحِدٌ . ثُمَّ أَدْخَلَ بِتِسْعَةٍ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ وَأَثْبَتَ مَا خَرَجَ وَهُوَ أَلْفٌ ، ثُمَّ أَضْرَبَ
 تِسْعَةً فِي ثَلَاثَةِ الْبَيْتِ هِيَ مُرَكَّبُ تِسْعَةِ الْمَاضِيَةِ وَأَسْقَطَ وَاحِدًا وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ
 الْجَدُولِ يَسْتِةَ وَعَشْرِينَ ، وَأَثْبَتَ مَا خَرَجَ وَهُوَ مَائَتَانِ بِحَرْفِ رَاءٍ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ
 بَيْتِ الْقَصِيدِ سِتَّةَ وَتِسْعِينَ . وَأَضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ وَضَعَ الدَّوْرَ الْحَادِي
 عَشَرَ وَلَهُ سَبْعَةُ عَشَرَ الْبَاقِي خَمْسَةٌ ، إِضْعَادٌ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَّةٍ بِخَمْسَةِ وَتَحْسَبُ مَا تَكَرَّرَ
 عَلَيْهِ الْمَشْيُ فِي الدَّوْرِ الْأَوَّلِ ، وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ بِخَمْسَةِ تَقِفُ عَلَى خَالٍ ، فَخَذَ
 مَا قَابِلَهُ مِنَ السُّطْحِ وَهُوَ وَاحِدٌ ، فَأَدْخَلَ بِوَاحِدٍ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ تَكُنْ سِينٌ ، أَثْبَتَهُ
 وَعَلَّمَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةً . وَلَوْ يَكُونُ الْوَقْفُ فِي الْجَدُولِ عَلَى بَيْتِ غَامِرٍ لِأَثْبَتْنَا الْوَاحِدَ
 ثَلَاثَةً . وَأَضْعَفُ سَبْعَةَ عَشَرَ بِمِثْلِهَا وَأَسْقَطَ وَاحِدًا وَأَضْعَفَهَا بِمِثْلِهَا وَزَدَهَا أَرْبَعَةَ تَبْلُغُ
 سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ ، أَدْخَلَ بِهَا فِي الْأَوْتَارِ تَقِفُ عَلَى سِتَّةٍ أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا ، وَأَضْعَفُ
 خَمْسَةً بِمِثْلِهَا . وَأَدْخَلَ فِي الْبَيْتِ تَقِفُ عَلَى لَامٍ أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا عَشْرِينَ ، وَأَضْرَبَ
 عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ . وَضَعَ الدَّوْرَ الثَّانِي عَشَرَ وَلَهُ ثَلَاثَةُ عَشَرَ الْبَاقِي وَاحِدٌ ،
 إِضْعَادٌ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَّةٍ بِوَاحِدٍ ، وَهَذَا الدَّوْرُ آخِرُ الْأَدْوَارِ وَآخِرُ الْإِخْتِرَاعَيْنِ وَآخِرُ
 الْمُرَبَّعَاتِ الثَّلَاثِيَّةِ وَآخِرُ الْمُثَلَّثَاتِ الرَّبَاعِيَّةِ . وَالْوَاحِدُ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ يَقَعُ عَلَى
 ثَمَانِينَ زِمَامِيَّةٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ آخِذُ ثَمَانِيَّةٍ ، وَلَيْسَ مَعْنَا مِنَ الْأَدْوَارِ إِلَّا وَاحِدٌ ، فَلَوْ زَادَ
 عَنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ مُرَبَّعَاتِ إِثْنَيْ عَشَرَ أَوْ ثَلَاثَةً مِنْ مُثَلَّثَاتِ إِثْنَيْ عَشَرَ لَكَانَتْ (ح) ،
 وَإِنَّمَا هِيَ (د) ؛ فَأَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ أَرْبَعَةً وَسَبْعِينَ ، ثُمَّ أَنْظَرُ
 مَا نَاسَبَهَا مِنَ السُّطْحِ تَكُنْ خَمْسَةً ، أَضْعَفَهَا بِمِثْلِهَا لِلَّاسِ تَبْلُغُ عَشْرَةً ، أَثْبَتَ (ي)
 وَعَلَّمَ عَلَيْهَا ، وَأَنْظَرُ فِي أَيِّ الْمَرَاتِبِ وَقَعَتْ وَجَدْنَاهَا فِي الرَّابِعَةِ ، دَخَلْنَا بِسَبْعَةٍ فِي
 حُرُوفِ الْأَوْتَارِ ، وَهَذَا الْمَذْخَلُ يُسَمَّى التَّوْلِيدُ الْحَرْفِيُّ فَكَانَتْ (ف) ، أَثْبَتَهَا
 وَأَضْفَ إِلَى سَبْعَةٍ وَاحِدِ الدَّوْرِ ، الْجُمْلَةُ ثَمَانِيَّةٌ . أَدْخَلَ بِهَا فِي الْأَوْتَارِ تَبْلُغُ (س)

أثبتها وعلم عليها ثمانية ، واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور ، فإنها
آخر مربعات الأذوار بالمثلثات تبلغ أربعة وعشرين ، أدخل بها في بيت القصيد
وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة وتسعون ، وهو نهاية الدور
الثاني في الأذوار الحرفية ، واضرب على حرفين من الأوتار وضع النتيجة الأولى
ولها تسعة ، وهذا العدد يناسب أبدا الباقي من حروف الأوتار بعد طرحها أذواراً
وذلك تسعة ، فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف
الأوتار ، وأضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين ،
فأدخل بها في حروف الأوتار تبلغ ألفاً ، أثبتة وعلم عليه ستة وتسعين ، وإن
ضربت سبعة التي هي أذوار الحروف التسعين في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على
تسعين ، والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كان كذلك ، واضعد في ضلع ثمانية
يتسعة وأدخل في الجدول يتسعة تبلغ اثنين زمامية ، واضرب تسعة فيما ناسب من
السطح ، وذلك ثلاثة ، وأضف لذلك سبعة ، عدد الأوتار الحرفية ، وأطرح واحداً
الباقي من دور اثنين عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين ، أدخل بها في البيت تبلغ خمسة ،
فأثبتها وأضف تسعة بمثلها وأدخل في صدر الجدول بثمانية عشر ، وخذ ما في
السطح وهو واحد ، أدخل به في حروف الأوتار تبلغ (م) أثبتة وعلم عليه ،
واضرب على حرفين من الأوتار ، وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي
خمس ، فاضعد في ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين
تبلغ خمسة عشر ، أضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة ،
وأدخل ستة عشر في بيت القصيد تبلغ (ت) أثبتة وعلم عليه أربعة وستين ،
وأضف إلى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين ، وزد واحداً الباقي من الدور الثاني
عشر يكن تسعة ، أدخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية ، وانظر ما في
السطح تجد واحداً أثبتة وعلم عليه من بيت القصيد وهو التاسع أيضاً من البيت ،
وأدخل يتسعة في صدر الجدول تقف على ثلاثة وهي عشرات ، فأثبت (لام) وعلم

عَلَيْهِ وَضَعَ النَّتِيجَةَ الثَّلَاثَةَ وَعَدَّهَا ثَلَاثَةَ عَشَرَ الْبَاقِي وَاحِدًا . فَأَنْقُلْ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَةِ
بِوَاحِدٍ وَأَضِفْ إِلَى ثَلَاثَةِ عَشَرَ الثَّلَاثَةَ الزَّائِدَةَ عَلَى التَّسْعِينَ ، وَوَاحِدَ الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ
الثَّانِي عَشَرَ تَبْلُغْ سَبْعَةَ عَشَرَ ، وَوَاحِدَ النَّتِيجَةِ تَكُنْ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ، أَدْخُلْ بِهَا فِي
حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَكُنْ لَأَمَّا اثْبَتْنَاهَا فَهَذَا آخِرُ الْعَمَلِ .

وَالْمِثَالُ فِي هَذَا السُّؤَالِ السَّابِقِ : أَرَدْنَا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الزَّائِرَةَ عِلْمٌ مُخَدَّثٌ أَوْ
قَدِيمٌ ، يَطَالِعُ أَوَّلَ دَرَجَةٍ مِنَ الْقَوْسِ ، اثْبَتْنَا حُرُوفَ الْأَوْتَارِ ، ثُمَّ حُرُوفَ السُّؤَالِ ،
ثُمَّ الْأَصُولِ ، وَهِيَ عِدَّةُ الْحُرُوفِ ثَلَاثَةٌ وَتَسْعُونَ أَذْوَارَهَا سَبْعَةُ الْبَاقِي مِنْهَا تِسْعَةٌ ،
الطَّالِعُ وَاحِدٌ ، سُلْطَانُ الْقَوْسِ أَرْبَعَةٌ ، الدَّوْرُ الْأَكْبَرُ وَاحِدٌ ، دَرَجَةُ الطَّالِعِ مَعَ الدَّوْرِ
إِثْنَانِ ، ضَرْبُ الطَّالِعِ مَعَ الدَّوْرِ فِي السُّلْطَانِ ثَمَانِيَةٌ ، إِضَافَةُ السُّلْطَانِ لِلطَّالِعِ خَمْسَةٌ
بَيِّنْتُ الْقَصِيدَ .

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلا

حروف الأوتار : ص ط ه ر ث ك ه م ص ص و ن ب ه س ا ن ل م ن ص ع
ف ص و ر س ك ل م ن ص ع ف ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ ش ط ي ع ح ص ر و
ح ر و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ي .

(حروف السؤال) ا ل ز ا ي ر ج ع ل م م ح د ث ا م ق د ي م الدور الأول
٩ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١ الدور الرابع ٩ الدور الخامس
١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١ الدور السابع ٩ الدور الثامن ١٧ الباقي ٥
الدور التاسع ١٣ الباقي ١ الدور العاشر ١٣ الدور الحادي عشر ١٧ الباقي ٥ الدور
الثاني عشر ١٣ الباقي ١ النتيجة الأولى ٩ النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة الثالثة
١٣ الباقي ١ .

۲۱	ذ	ه	ع	ح	و	۶	۶	ای	۶
۲۲	ن	۱	س
۲۳	غ	۲	و
۲۴	ر	۳	ا
۲۵	ا	۴	ل
۲۶	ی	۵	ع
۲۷	ب	۶	ظ
۲۸	ش	۷	ی
۲۹	ك	۸	م
۳۰	ض	۹	ا
۳۱	ب	۱۰	ل
۳۲	ط	۱۱	خ
۳۳	ه	۱۲	ل
۳۴	ا	۱۳	ق
۳۵	ل	۱۴	ح
۳۶	ج	۱۵	ز
۳۷	د	۱۶	ت
۳۸	م	۱۷	ف
۳۹	ث	۱۸	ص
۴۰	ل	۱۹	ن
۴۱	ا	۲۰	ا

فوزاوسر را اسباب ارقاع ارض حرح لدارس ال دی و سر

ادم ن ال ل

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين إلى أن تنتهي إلى الواحد من آخر البيت وتنقل الحروف جميعاً والله أعلم ن ف روح روح ال و د س ا د ر ر س ر ه ال د ر ي س و ا ن س د ر و ا ب ل ا م ر ب و ا ا ل ع ل ل .

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَجْوِيَةِ مِنْ زَايِرَجَةِ الْعَالَمِ مَنْظُومَةٍ . وَلِلْقَوْمِ طَرَائِقُ أُخْرَى مِنْ غَيْرِ الزَّايِرَجَةِ يَسْتَخْرِجُونَ بِهَا أَجْوِبَةَ الْمَسَائِلِ غَيْرَ مَنْظُومَةٍ . وَعِنْدَهُمْ أَنَّ السِّرَّ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مَنْظُومًا مِنَ الزَّايِرَجَةِ ، إِنَّمَا هُوَ مَزْجُهُمْ بَيْنَ مَالِكِ بْنِ وَهَيْبٍ وَهُوَ : سُؤَالَ عَظِيمِ الْخَلْقِ الْبَيْتِ ، وَلِذَلِكَ يَخْرُجُ الْجَوَابُ عَلَى رَوْيِهِ . وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْأُخْرَى فَيَخْرُجُ الْجَوَابُ غَيْرَ مَنْظُومٍ . فَمِنْ طَرَائِقِهِمْ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَجْوِيَةِ مَا نَنْقُلُهُ عَنْ بَعْضِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ .

٢ - فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية

إِغْلَمَ أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفُ أَصْلُ الْأَسْئَلَةِ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ ، وَإِنَّمَا تَسْتَنْتِجُ الْأَجْوِبَةَ عَلَى تَجَزِئَتِهِ بِالْكَلِمَةِ ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ حَرْفًا كَمَا تَرَى وَاللَّهُ عَلَامُ الْغُيُوبِ أَوَّلُ اعْظَمَ اسْمُ خِي دَل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن غ ش ا ك ي ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن ل ث ا .

وَقَدْ نَظَّمَهَا بَعْضُ الْفُضَلَاءِ فِي بَيْتٍ جَعَلَ فِيهِ كُلَّ حَرْفٍ مُشَدِّدٍ مِنْ حَرْفَيْنِ وَسَمَّاهُ الْقُطْبَ فَقَالَ :

سُؤَالَ عَظِيمِ الْخَلْقِ حَزَتْ فَصَنَ إِذْنِ غَرَائِبِ شَكِّ ضَبْطُهُ الْجَدِّ مِثْلًا

فَإِذَا أَرَدْتَ اسْتِئْتِاجَ الْمَسْئَلَةِ فَاحْذَفْ مَا تَكَرَّرَ مِنْ حُرُوفِهَا وَاثْبِتْ مَا فَضَّلَ مِنْهُ . ثُمَّ اخْذَفْ مِنَ الْأَصْلِ وَهُوَ الْقُطْبُ لِكُلِّ حَرْفٍ فَضْلٌ مِنَ الْمَسْأَلَةِ حَرْفًا يُمَاثِلُهُ ، وَاثْبِتْ مَا فَضَّلَ مِنْهُ . ثُمَّ امْزِجِ الْفَضْلَيْنِ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ تَبْدَأُ بِالْأَوَّلِ مِنْ

فَضْلِهِ ، وَالثَّانِي مِنْ فَضْلِ الْمَسْئَلَةِ . وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَتِمَّ الْفَضْلَانِ أَوْ يَنْفَدَ أَحَدُهُمَا قَبْلَ الْآخَرِ ، فَتَضَعُ الْبَقِيَّةَ عَلَى تَرْتِيبِهَا . فَإِذَا كَانَ عَدَدُ الْحُرُوفِ الْخَارِجَةِ بَعْدَ الْمَزْجِ مُوَافِقًا لِعَدَدِ حُرُوفِ الْأَصْلِ قَبْلَ الْحَذْفِ فَالْعَمَلُ صَحِيحٌ ، فَحِينَئِذٍ تُضِيفُ إِلَيْهَا خَمْسَ نَوَاتٍ لِتَعْدَلَ بِهَا الْمَوَازِينُ الْمُوسِيقِيَّةُ وَتَكْمِلُ الْحُرُوفَ ثَمَانِيَّةً وَأَرْبَعِينَ حَرْفًا ، فَتَعْمُرُ بِهَا جَدْوَلًا مُرَبَّعًا يَكُونُ آخِرُ مَا فِي السَّطْرِ الْأَوَّلِ أَوَّلُ مَا فِي السَّطْرِ الثَّانِي ، وَتَنْقُلُ الْبَقِيَّةَ عَلَى خَالِهَا ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَتِمَّ عِمَارَةُ الْجَدْوَلِ . وَيَعُودُ السَّطْرُ الْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ وَتَتَوَالَى الْحُرُوفُ فِي الْقَطْرِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَرَكَةِ ، ثُمَّ تُخْرَجُ وَتُرَكَّلُ كُلُّ حَرْفٍ بِقِسْمَةِ مُرَبَّعَةٍ عَلَى أَكْثَرِ جُزْءٍ يَوْجَدُ لَهُ ، وَتَضَعُ الْوَتْرَ مُقَابِلًا لِحَرْفِهِ ، ثُمَّ تَسْتَخْرِجُ النِّسْبَ الْعُنْصَرِيَّةَ لِلْحُرُوفِ الْجَدْوَلِيَّةِ ، وَتَعْرِفُ قُوَّتَهَا الطَّبِيعِيَّةَ وَمَوَازِينَهَا الرُّوحَانِيَّةَ وَغَرَائِزَهَا النَّفْسَانِيَّةَ وَأَسُوسَهَا الْأَصْلِيَّةَ مِنَ الْجَدْوَلِ الْمَوْضُوعِ لِذَلِكَ ، وَهَذِهِ صُورَتُهُ :

٤٣٩

١	القوى	الموازين	الفرائز	الاسوس	و
ب	٢٨ هـ	د هـ و	د هـ و	صح ح	
ج	٤١ و ٤٢	د هـ و	٤٠ ٤١	ر ح	
د	٤٣ ح	ر مع	٤٤ ٤٥ ٤٦	ر ٤٦	
هـ	٤٨ ح	لا ٤٦	٤٧ ٤٨ ٤٩	ع مع	
و			ر ٤٧ ح	٥٨	
ز			ك ٤٨ ح	٥٩	

الموازين

القوى

الفرائز

الاسوس

ثُمَّ تَأْخُذُ وَتَرُ كُلَّ حَرْفٍ بَعْدَ ضَرْبِهِ فِي أَسُوسِ أَوْتَادِ الْفَلَكَ الْأَرْبَعَةِ ، وَآخِذَرُ مَا يَلِي الْأَوْتَادَ وَكَذَلِكَ السَّوَاقِطُ لِأَنَّهُ نَسَبَتْهَا مُضْطَرِبَةً . وَهَذَا الْخَارِجُ هُوَ أَوَّلُ رُتَبِ السُّرِّيَانِ . ثُمَّ تَأْخُذُ مَجْمُوعَ الْعُنَاصِرِ وَتَحْطُ مِنْهَا أَسُوسَ الْمُؤَلِّدَاتِ ، يَبْقَى أَسُ عَالَمِ الْخَلْقِ بَعْدَ عَرُوضِهِ لِلْمُدَدِ الْكُونِيَّةِ ، فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْمَجْرَدَاتِ عَنِ الْمَوَادِّ وَهِيَ عُنَاصِرُ الْأُمْدَادِ . يَخْرُجُ أَفْقُ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ ، وَتَطْرَحُ أَوَّلُ رُتَبِ السُّرِّيَانِ مِنْ مَجْمُوعِ الْعُنَاصِرِ يَبْقَى عَالَمُ التَّوَسُّطِ . وَهَذَا مَخْصُوصُ عَوَالِمِ الْأَكْوَانِ الْبَسِيطَةِ لَا الْمُرَكَّبَةِ . ثُمَّ تَضْرِبُ عَالَمَ التَّوَسُّطِ فِي أَفْقِ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ يَخْرُجُ الْأَفْقُ الْأَعْلَى ، فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ أَوَّلُ رُتَبِ السُّرِّيَانِ ، ثُمَّ تَطْرَحُ مِنَ الرَّابِعِ أَوَّلَ عُنَاصِرِ الْأُمْدَادِ الْأَصْلِيِّ يَبْقَى ثَالِثُ رُتَبَةِ السُّرِّيَانِ ، فَتَضْرِبُ مَجْمُوعَ أَجْزَاءِ الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ أَبْدَأُ فِي رَابِعِ مَرْتَبَةِ السُّرِّيَانِ ، يَخْرُجُ أَوَّلُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ ، وَالثَّانِي فِي الثَّانِي يَخْرُجُ ثَانِي عَالَمِ التَّفْصِيلِ ، وَالثَّالِثُ فِي الثَّالِثِ يَخْرُجُ ثَالِثُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ ، وَالرَّابِعُ فِي الرَّابِعِ يَخْرُجُ رَابِعُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ . فَتَجْمَعُ عَوَالِمُ التَّفْصِيلِ وَتَحْطُ مِنْ عَالَمِ الْكُلِّ ، تَبْقَى الْعَوَالِمُ الْمُجْرَدَةُ ، فَتَقْسِمُ عَلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى يَخْرُجُ الْجِزْءُ الْأَوَّلُ ، وَيَقْسَمُ الْمُنْكَسِرُ عَلَى الْأَفْقِ الْأَوْسَطِ يَخْرُجُ الْجِزْءُ الثَّانِي ، وَمَا انْكَسَرَ فَهُوَ الثَّالِثُ ، وَيَتَعَيَّنُ الرَّابِعُ هَذَا فِي الرُّبَاعِيِّ . وَإِنْ شِئْتَ أَكْثَرَ مِنَ الرُّبَاعِيِّ فَتَسْتَكْثِرُ مِنْ عَوَالِمِ التَّفْصِيلِ وَمِنْ رُتَبِ السُّرِّيَانِ وَمِنْ الْأَوْفَاقِ بَعْدَ الْحُرُوفِ . وَاللَّهُ يُرْشِدُنَا وَإِيَّاكَ . وَكَذَلِكَ إِذَا قَسَمَ عَالَمَ التَّجْرِيدِ عَلَى أَوَّلِ رُتَبِ السُّرِّيَانِ خَرَجَ الْجِزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ عَالَمِ التَّرْكِيبِ ، وَكَذَلِكَ إِلَى نِهَايَةِ الرُّتَبَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ عَالَمِ الْكَوْنِ . فَافْهَمْ وَتَدَبَّرْ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ الْمُبِينُ .

وَمِنْ طَرِيقِهِمْ أَيْضاً فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ ، قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ ، إَعْلَمْ أَيُّدُنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ بِرُوحٍ مِنْهُ ، أَنَّ عِلْمَ الْحُرُوفِ جَلِيلٌ يَتَوَصَّلُ الْعَالَمُ بِهِ لِمَا لَا يَتَوَصَّلُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الْمُتَدَاوِلَةِ بَيْنَ الْعَالَمِ ، وَلِلْعَمَلِ بِهِ شَرَائِطُ تَلْتَزِمُ . وَقَدْ يَسْتَخْرِجُ الْعَالَمُ أَسْرَارَ الْخَلِيقَةِ وَسَرَائِرَ الطَّبِيعَةِ ، فَيَطْلُعُ بِذَلِكَ عَلَى نَتِيجَتَيْنِ

الْفَلَسَفَةِ ، أَغْنَى السِّيمْيَا وَأَخْتَهَا ، وَيَرْفَعُ لَهُ حِجَابَ الْمَجْهُولَاتِ وَيَطْلُعُ بِذَلِكَ عَلَى
مَكْنُونِ خَبَايَا الْقُلُوبِ . وَقَدْ شَهِدَتْ جَمَاعَةٌ بِأَرْضِ الْمَغْرِبِ ، مِنْ أَتَّصَلَ بِذَلِكَ ،
فَأُظْهِرَ الْغَرَائِبَ وَخَرَقَ الْعَوَائِدَ وَتَصَرَّفَ فِي الْوُجُودِ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَلَكَ كُلِّ فَضِيلَةٍ الْإِجْتِهَادُ وَحُسْنُ الْمَلَكَهَةِ مَعَ الصَّبْرِ ، مِفْتَاحُ كُلِّ
خَيْرٍ ، كَمَا أَنَّ الْخُرْقَ وَالْعَجَلَةَ رَأْسُ الْحِرْمَانِ ، فَأَقُولُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ قُوَّةَ كُلِّ
حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الْفَايِيطُوسِ أَغْنَى أَنْبَجِدَ إِلَى آخِرِ الْعَدَدِ . وَهَذَا أَوَّلُ مَدْخَلٍ مِنْ عِلْمِ
الْحُرُوفِ ، فَنَنْظُرُ مَا لِذَلِكَ الْحَرْفِ مِنَ الْأَعْدَادِ ، فَبِئْسَ الدَّرَجَةُ الَّتِي هِيَ مُنَاسِبَةٌ
لِلْحَرْفِ هِيَ قُوَّتُهُ فِي الْجِسْمَانِيَّاتِ . ثُمَّ أَضْرِبُ الْعَدَدَ فِي مِثْلِهِ تَخْرُجُ لَكَ قُوَّتُهُ فِي
الرُّوحَانِيَّاتِ وَهِيَ وَتَرَهُ . وَهَذَا فِي الْحُرُوفِ الْمَنْقُوطَةِ لَا يَتِمُّ بَلْ يَتِمُّ لِغَيْرِ
الْمَنْقُوطَةِ ، لِأَنَّ الْمَنْقُوطَةَ مِنْهَا مَرَاتِبٌ لِمَعَانٍ يَأْتِي عَلَيْهَا الْبَيَانُ فِيمَا بَعْدُ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ الْحُرُوفِ شَكْلًا فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ أَغْنَى
الْكُرْسَى ، وَمِنْهَا الْمُتَحَرِّكُ وَالسَّاكِنُ وَالْعُلُويُّ وَالسُّفْلِيُّ كَمَا هُوَ مَرْقُومٌ فِي أَمَاكِنِهِ مِنْ
الْجَدَاوِلِ الْمَوْضُوعَةِ فِي الزِّيَارِجِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ قَوَى الْحُرُوفِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامُ ، الْأَوَّلُ وَهُوَ أَقْلَاهَا قُوَّةُ تَظْهَرُ بَعْدَ
كِتَابَتِهَا ، فَتَكُونُ كِتَابَتُهُ لِعَالَمِ رُوحَانِيٍّ مَخْصُوصٍ بِذَلِكَ الْحَرْفِ الْمَرْسُومِ ، فَمَتَى
خَرَجَ ذَلِكَ الْحَرْفُ بِقُوَّةِ نَفْسَانِيَّةٍ وَجَمَعَ هِمَّةً كَانَتْ قَوَى الْحُرُوفِ مُؤَثِّرَةً فِي عَالَمِ
الْأَجْسَامِ . الثَّانِي قُوَّتُهَا فِي الْهَيْئَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَذَلِكَ مَا يَصْدُرُ عَنْ تَصْرِيفِ
الرُّوحَانِيَّاتِ لَهَا ، فَهِيَ قُوَّةٌ فِي الرُّوحَانِيَّاتِ الْعُلُويَّاتِ ، وَقُوَّةُ شَكْلِيَّةٌ فِي عَالَمِ
الْجِسْمَانِيَّاتِ . الثَّالِثُ وَهُوَ يَجْمَعُ الْبَاطِنُ ، أَغْنَى الْقُوَّةَ النَّفْسَانِيَّةَ عَلَى تَكْوِينِهِ ،
فَتَكُونُ قَبْلَ النُّطْقِ بِهِ صُورَةً فِي النَّفْسِ ، بَعْدَ النُّطْقِ بِهِ صُورَةً فِي الْحُرُوفِ وَقُوَّةٌ فِي
النُّطْقِ .

وَأَمَّا طَبَائِعُهَا فَهِيَ الطَّبِيعِيَّاتُ الْمُنْسُوبَةُ لِلْمَتَوَلِّدَاتِ فِي الْحُرُوفِ وَهِيَ الْحَرَارَةُ

وَالْيَبُوسَةُ ، وَالْحَرَارَةُ وَالرُّطُوبَةُ وَالْبُرُودَةُ وَالْيَبُوسَةُ وَالْبُرُودَةُ وَالرُّطُوبَةُ ؛ فَهَذَا سِرُّ
الْعَدَدِ الْيَمَانِيِّ ، وَالْحَرَارَةُ جَامِعَةٌ لِلْهَوَاءِ وَالنَّارِ وَهُمَا ؛ (ا ه ط م ف ش ذ ج ز ك س
ق ث ظ) ، وَالْبُرُودَةُ جَامِعَةٌ لِلْهَوَاءِ وَالْمَاءِ (ب و ي ن ص ت ض د ح ل ع ر خ غ)
وَالْيَبُوسَةُ جَامِعَةٌ لِلنَّارِ وَالْأَرْضِ (ا ه ط م ف ش ذ ب و ي ن ص ت ض) ^(١) فَهَذِهِ
نِسْبَةُ حُرُوفِ الطَّبَائِعِ وَتَدَاخُلُ أَجْزَاءُ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ . وَتَدَاخُلُ أَجْزَاءُ الْعَالَمِ فِيهَا
عُلُويَّاتٌ وَسُفْلِيَّاتٌ بِأَسْبَابِ الْأُمَهَاتِ الْأُولَى ، أَغْنَى الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعُ الْمُتَفَرِّدَةُ ؛
فَمَتَى أَرَدْتَ اسْتِخْرَاجَ مَجْهُولٍ مِنْ مَسْئَلَةٍ مَا ، فَحَقِّقْ طَالِعَ السَّائِلِ أَوْ طَالِعَ مَسْئَلَتِهِ
وَاسْتَنْطِقْ حُرُوفَ أَوْتَارِهَا الْأَرْبَعَةَ ؛ الْأَوَّلُ وَالرَّابِعُ وَالسَّابِعُ وَالْعَاشِرُ مُسْتَوِيَّةٌ
مُرْتَبَةً ، وَاسْتَخْرِجْ أَعْدَادَ الْقَوَى وَالْأَوْتَارَ كَمَا سَنَبَيِّنُ ، وَاحْمِلْ وَأَنْسُبْ وَاسْتَنْتِجْ
الْجَوَابَ يَخْرُجُ لَكَ الْمَطْلُوبُ ، إِمَّا بِصَرِيحِ اللَّفْظِ أَوْ بِالْمَعْنَى . وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ
مَسْئَلَةٍ تَقَعُ لَكَ . بَيَّانُهُ ؛ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْتَخْرِجَ قَوَى حُرُوفِ الطَّالِعِ ، مَعَ إِسْمِ السَّائِلِ
وَالْحَاجَةِ ، فَاجْمَعْ أَعْدَادَهَا بِالْجُمْلِ الْكَبِيرِ ؛ فَكَانَ الطَّالِعُ الْحَمَلُ رَابِعُهُ السَّرْطَانُ
سَابِعُهُ الْمِيزَانُ عَاشِرُهُ الْجَدِيُّ ، وَهُوَ أَقْوَى هَذِهِ الْأَوْتَادِ ، فَأَسْقِطْ مِنْ كُلِّ بُرْجٍ حَرْفِي
التَّعْرِيفِ ، وَانْظُرْ مَا يَخْصُ كُلُّ بُرْجٍ مِنَ الْأَعْدَادِ الْمُنْطَقَةِ الْمَوْضُوعَةِ فِي دَائِرَتِهَا ،
وَاحْذِفْ أَجْزَاءَ الْكُسْرِ فِي النِّسَبِ الْإِسْتِنْطَاقِيَّةِ كُلِّهَا وَأَثْبِتْ تَحْتَ كُلِّ حَرْفٍ
مَا يَخْصُهُ مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَعْدَادَ حُرُوفِ الْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ وَمَا يَخْصُهَا كَالْأَوَّلِ . وَارْسِمِ
ذَلِكَ كُلَّهُ أَحْرَفًا وَرَتَّبِ الْأَوْتَادَ وَالْقَوَى وَالْقَرَائِنَ سَطْرًا مُمْتَزَجًا . وَكَسِّرْ وَأَضْرِبْ
مَا يُضْرِبُ لاسْتِخْرَاجِ الْمَوَازِينِ ، وَاجْمَعْ وَاسْتَنْتِجِ الْجَوَابَ يَخْرُجُ لَكَ الضَّمِيرُ
وَجَوَابُهُ . مِثَالُهُ إِفْرِضْ أَنَّ الطَّالِعَ الْحَمَلُ كَمَا تَقَدَّمَ ، تُرْسِمِ (ح م ل) ؛ فَلِلْحَاءِ مِنَ
الْعَدَدِ ثَمَانِيَّةٌ لَهَا النِّصْفُ وَالرُّبْعُ وَالثُّمْنُ (د ب ا) الْمِيمُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ أَرْبَعُونَ ، لَهَا
النِّصْفُ وَالرُّبْعُ وَالثُّمْنُ وَالْعَشْرُ وَنِصْفُ الْعَشْرِ إِذَا أَرَدْتَ التَّدْقِيقَ (م ك ي ه د ب)
الْلَامُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ ثَلَاثُونَ ، لَهَا النِّصْفُ وَالثُّلُثَانِ وَالثُّلُثُ وَالْخُمْسُ وَالسُّدُسُ وَالْعَشْرُ

(١) علق البهري هنا بقوله ، لعل هذه عبارة بعض الم شارقة ، لأن هذا ترتيب الم شارقة . لا ترتيب

(ك ي و ه ج) . وَهَكَذَا تَفْعَلُ بِسَائِرِ حُرُوفِ الْمَسْئَلَةِ وَالْإِسْمِ مِنْ كُلِّ لَفْظٍ يَقَعُ لَكَ . وَأَمَّا اسْتِخْرَاجُ الْأَوْتَارِ فَهُوَ أَنْ تَقْسِمَ مَرَّةً كُلَّ حَرْفٍ عَلَى أَكْثَرِ جُزْءٍ يُوْجَدُ لَهُ . مِثَالُهُ : حَرْفُ (د) لَهُ مِنْ الْأَعْدَادِ أَرْبَعَةٌ مَرَبُّعًا سِتَّةٌ عَشَرَ ، إِقْسِمْنَا عَلَى أَكْثَرِ جُزْءٍ يُوْجَدُ لَهَا وَهُوَ اِثْنَانِ يَخْرُجُ وَتَرَأَ لِذَلِكَ ثَمَانِيَةً . ثُمَّ تَضَعُ كُلَّ وَتَرٍ مُقَابِلًا لِحَرْفِهِ . ثُمَّ تَسْتَخْرِجُ النِّسْبَ الْعُنْصُرِيَّةَ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي شَرْحِ الْإِسْتِنْطَاقِ ، وَلَهَا قَاعِدَةٌ تَطْرُدُ فِي اسْتِخْرَاجِهَا مِنْ طَبِيعِ الْحُرُوفِ وَطَبِيعِ الْبَيْتِ الَّذِي يَحِلُّ فِيهِ مِنَ الْجَدُولِ كَمَا ذَكَرَ الشَّيْخُ لِمَنْ عَرَفَ الْإِضْطِلَاحَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية

وَذَلِكَ لَوْ سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ غَلِيلٍ لَمْ يَعْرِفْ مَرَضَهُ مَا عَلَّمَهُ ، وَمَا الْمَوَافِقُ لِبُرْهَانِهِ مِنْهُ ، فَمَرَّ السَّائِلُ أَنْ يُسَمِّيَ مَا شَاءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَى إِسْمِ الْعِلَّةِ الْمَجْهُولَةِ ، لِتَجْعَلَ ذَلِكَ الْإِسْمَ قَاعِدَةً لَكَ . ثُمَّ اسْتَطِيقَ الْإِسْمَ مَعَ إِسْمِ الطَّالِعِ وَالْعُنَاصِرِ وَالسَّائِلِ وَالْيَوْمِ وَالسَّاعَةِ إِنْ أَرَدْتَ التَّحْقِيقَ فِي الْمَسْئَلَةِ ، وَإِلَّا اِفْتَضَرْتَ عَلَى الْإِسْمِ الَّذِي سَمَّاهُ السَّائِلُ ، وَفَعَلْتَ بِهِ كَمَا نَبَّيْنُ . فَأَقُولُ مِثْلًا : سَمَى السَّائِلُ فَرَسًا فَأُثْبِتَ الْحُرُوفَ الثَّلَاثَةَ مَعَ أَعْدَادِهَا الْمُنْطِقَةَ . بَيَانُهُ : أَنَّ لِلْفَاءِ مِنَ الْعَدَدِ ثَمَانِينَ وَلَهَا (م ك ي ح ب) ثُمَّ الرَّاءُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ مِائَتَانِ (ق ن ك ي) ثُمَّ السِّينُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ سِتُونَ وَلَهَا (م ل ك) فَالْوَاوُ عَدَدُ ثَامٍ لَهُ (د ج ب) وَالسِّينُ مِثْلُهُ وَلَهَا (م ل ك) . فَإِذَا بَسَطْتَ حُرُوفَ الْأَسْمَاءِ وَجَدْتَ عُنْصُرَيْنِ مُتَسَاوَيْنَيْنِ ، فَأَحْكُمُ لِأَكْثَرِهِمَا حُرُوفًا بِالْغَلْبَةِ عَلَى الْآخِرِ ، ثُمَّ أَحْمِلْ عَدَدَ حُرُوفِ عُنْصُرِ إِسْمِ الْمَطْلُوبِ وَحُرُوفِهِ دُونَ بَسْطِ . وَكَذَلِكَ إِسْمُ الطَّالِبِ وَأَحْكُمُ لِلْأَكْثَرِ وَالْأَقْوَى بِالْغَلْبَةِ .

وصفة قوى استخراج العناصر^(١)

فَتَكُونُ الْغَلْبَةُ هُنَا لِلتَّرَابِ وَطَبِيعَةُ الْبُرُودَةِ ، وَالْيُيُوسَةُ طَبِيعُ السَّوْدَاءِ ، فَتَحْكُمُ

(١) يياض بالأصل مقدار ثلاثة أسطر .

عَلَى الْمَرِيضِ بِالسُّودَاءِ . فَإِذَا أَلْفَتَ مِنْ حُرُوفِ الْإِسْتِنطَاقِ كَلَامًا عَلَى نِسْبَةِ تَقْرِيْبِيَّةٍ خَرَجَ مَوْضِعُ الْوَجْعِ فِي الْخَلْقِ ، وَيُؤَافِقُهُ مِنَ الْأَدْوِيَةِ حُقْنَةُ ، وَمِنَ الْأَشْرِيَةِ شَرَابُ اللَّيْمُونِ . هَذَا مَا خَرَجَ مِنْ قَوَى أَغْدَادِ حُرُوفِ إِسْمِ فَرَسٍ وَهُوَ مِثَالُ تَقْرِيْبِيٍّ مُخْتَصَرٍ . وَأَمَّا إِسْتِخْرَاجُ قَوَى الْعُنَاصِرِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعِلْمِيَّةِ فَهُوَ أَنْ تُسَمَّى مَثَلًا مُحَمَّدًا ، فَتَرْسِمُ أَحْرَفَهُ مُقْطَعَةً ، ثُمَّ تَضَعُ أَسْمَاءَ الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةَ عَلَى تَرْتِيبِ الْفَلَكِ ، يُخْرَجُ لَكَ مَا فِي كُلِّ غُنْصَرٍ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْعَدَدِ . وَمِثَالُهُ :

ناري	زايي	هواني	ماني
ا ا ا	ب ب ب	ح ح ح ح ح ح ح	د د د د د د د
و و و	ز ز ز ز ز ز ز	ح ح ح ح ح ح ح	
ط ط ط	ي ي ي	ك ك ك ك ك ك ك	ل ل ل ل ل ل ل
م م م	ن ن ن	س س س س س س س	ع ع ع ع ع ع ع
ف ف ف	ض ض ض	ق ق ق ق ق ق ق	ر ر ر ر ر ر ر
س س س	ث ث ث	ث ث ث ث ث ث ث	خ خ خ خ خ خ خ
ذ ذ ذ	ط ط ط	غ غ غ غ غ غ غ	ش ش ش ش ش ش ش

فَتَجِدُ أَقْوَى هَذِهِ الْعُنَاصِرِ مِنْ هَذَا الْإِسْمِ الْمَذْكُورِ غُنْصَرُ الْمَاءِ ، لِأَنَّ عَدَدَ حُرُوفِهِ عَشْرُونَ حَرْفًا ، فَجَعَلْتُ لَهُ الْغَلْبَةَ عَلَى بَقِيَّةِ غُنَاصِرِ الْإِسْمِ الْمَذْكُورِ ، وَهَكَذَا يَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ . حِينَئِذٍ تُضَافُ إِلَى أَوْتَارِهَا ، أَوْ لِلْوَتْرِ الْمَنْسُوبِ لِلطَّالِعِ فِي الزَّائِرَةِ ، أَوْ لِلْوَتْرِ الْبَيْتِ الْمَنْسُوبِ لِمَالِكِ بْنِ وَهَبٍ ، الَّذِي جَعَلَهُ قَاعِدَةً لِمَزَجِ الْأَسْئَلَةِ وَهُوَ هَذَا :

سُؤَالُ عَظِيمِ الْخَلْقِ حَزَتْ فَصْنُ إِذْنِ غَرَائِبِ شَكِّ ضَبْطِهِ الْجَدِّ مِثْلًا وَهُوَ وَتَرٌ مَشْهُورٌ لِإِسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولَاتِ ، وَعَلَيْهِ كَانَ يَقْعَمُ ابْنُ الرِّقَامِ وَأَصْحَابُهُ . وَهُوَ عَمَلٌ تَامَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ فِي الْمِثَالَاتِ الْوَضِيعَةِ . وَصَفَةُ الْعَمَلِ بِهَذَا الْوَتْرِ الْمَذْكُورِ أَنْ تَرْسِمَهُ مُقْطَعًا مُمْتَزَجًا بِالْفَاطِ السُّؤَالِ عَلَى قَانُونِ صَنْعَةِ التَّكْسِيرِ .

وَعِدَّةُ حُرُوفٍ هَذَا الْوَتَرِ أَغْنَى الْبَيْتَ ثَلَاثَةً وَأَرْبَعُونَ حَرْفًا ، لِأَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مُشَدَّدٌ مِنْ حَرْفَيْنِ .

ثُمَّ تَحْدَفُ مَا تَكَرَّرَ عِنْدَ الْمَزَجِ مِنَ الْحُرُوفِ وَمِنَ الْأَصْلِ ، لِكُلِّ حَرْفٍ فَضْلٌ مِنَ الْمَسْئَلَةِ حَرْفٌ يُمَاثِلُهُ ، وَتَثَبَّتِ الْفَضْلَيْنِ سَطْرًا مُمْتَزَجًا بَعْضُهُ بِبَعْضِ الْحُرُوفِ . الْأَوَّلُ مِنْ فَضْلَةِ الْقُطْبِ وَالثَّانِي مِنْ فَضْلَةِ السُّوَالِ ، حَتَّى يَتِمَّ الْفَضْلَتَانِ جَمِيعًا ، فَتَكُونُ ثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ ، فَتُضِيفُ إِلَيْهَا خَمْسَ نَوَاتٍ لِيَكُونَ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ ، لِتَعْدَلَ بِهَا الْمَوَازِينَ الْمَوْسِيقِيَّةِ . ثُمَّ تَضَعُ الْفَضْلَةَ عَلَى تَرْتِيبِهَا فَإِنْ كَانَ عَدَدُ الْحُرُوفِ الْخَارِجَةِ بَعْدَ الْمَزَجِ يُوَافِقُ الْعَدَدَ الْأَصْلِيَّ قَبْلَ الْحَدَفِ فَالْعَمَلُ صَحِيحٌ ، ثُمَّ عَمَّرَ بِمَا مَزَجْتَ جَدُولًا مُرَبَّعًا يَكُونُ آخِرُ مَا فِي السَّطْرِ الْأَوَّلِ أَوَّلُ مَا فِي السَّطْرِ الثَّانِي .

وَعَلَى هَذَا النَّسَقِ حَتَّى يَعُودَ السَّطْرُ الْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ ، وَتَتَوَالَى الْحُرُوفُ فِي الْقَطْرِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَرَكَةِ . ثُمَّ تُخْرَجُ وَتَرَّ كُلُّ حَرْفٍ كَمَا تَقْدَمُ تَضَعُهُ مَقَابِلًا لِحَرْفِهِ ، ثُمَّ تَسْتَخْرِجُ النَّسَبَ الْعُنْصُرِيَّةَ لِلْحُرُوفِ الْجَدُولِيَّةِ ، لِتَعْرِفَ قُوَّتَهَا الطَّبِيعِيَّةَ وَمَوَازِينَهَا الرُّوحَانِيَّةَ وَغَرَائِزَهَا النَّفْسَانِيَّةَ وَأَسُوسَهَا الْأَصْلِيَّةَ مِنَ الْجَدُولِ الْمَوْضُوعِ لِذَلِكَ . وَصِفَةُ اسْتِخْرَاجِ النَّسَبِ الْعُنْصُرِيَّةِ هُوَ أَنْ تَنْظُرَ الْحَرْفَ الْأَوَّلَ مِنَ الْجَدُولِ مَا طَبِيعَتُهُ وَطَبِيعَةُ الْبَيْتِ الَّذِي حَلَّ فِيهِ ، فَإِنْ اتَّفَقَتْ فَحَسَنَ ، وَإِلَّا فَاسْتَخْرِجْ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ نِسْبَةً . وَيَتَسَّعُ هَذَا الْقَانُونُ فِي جَمِيعِ الْحُرُوفِ الْجَدُولِيَّةِ . وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى مَنْ عَرَفَ قَوَائِدهُ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي دَوَائِرِهَا الْمَوْسِيقِيَّةِ . ثُمَّ تَأْخُذُ وَتَرَّ كُلِّ حَرْفٍ بَعْدَ ضَرْبِهِ فِي أُسُوسِ أَوْتَادِ الْفَلَكَ الْأَرْبَعَةِ كَمَا تَقْدَمُ . وَاحْذَرِ مَا يَلِي الْأَوْتَادَ . وَكَذَلِكَ السَّوَاقِطُ لِأَنَّ نِسْبَتَهَا مُضْطَرِبَةٌ . وَهَذَا الَّذِي يَخْرُجُ لَكَ هُوَ أَوَّلُ مَرَاتِبِ السَّرِيَانِ . ثُمَّ تَأْخُذُ مَجْمُوعَ الْعُنَاصِرِ وَتَحْطُ مِنْهَا أُسُوسَ الْمُؤَلَّدَاتِ يَبْقَى أَسْ عَالِمِ الْخَلْقِ بَعْدَ عَرُوضِهِ لِلْمَدَدِ الْكُونِيَّةِ . فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْمُجَرَّدَاتِ عَنِ الْمَوَادِّ وَهِيَ عُنَاصِرُ الْإِمْدَادِ . يَخْرُجُ أَفْقُ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ . وَتَطْرَحُ أَوَّلُ رَتَبِ السَّرِيَانِ مِنْ

مَجْمُوعُ الْعَنَاصِرِ يَبْقَى عَالَمُ التَّوَسُّطِ . وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِعَوَالِمِ الْأَكْوَانِ الْبَسِيطَةِ لَا الْمُرَكَّبَةِ . ثُمَّ تَضْرِبُ عَالِمُ التَّوَسُّطِ فِي أَفْقِ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ يَخْرُجُ الْأَفْقُ الْأَعْلَى . فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ أَوَّلَ رَتَبِ السَّرِّيَانِ ، ثُمَّ تَطْرَحُ مِنَ الرَّابِعِ أَوَّلَ عَنَاصِرِ الْإِنْدَادِ الْأَصْلِيِّ يَبْقَى ثَالِثُ رَتَبَةِ السَّرِّيَانِ . ثُمَّ تَضْرِبُ مَجْمُوعَ أَجْزَاءِ الْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ أَبْدَأُ فِي رَابِعِ رَتَبِ السَّرِّيَانِ يَخْرُجُ أَوَّلُ عَالِمِ التَّفْصِيلِ ، وَالثَّانِي فِي الثَّانِي يَخْرُجُ ثَانِي عَالِمِ التَّفْصِيلِ ، وَكَذَلِكَ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ . فَتَجْمَعُ عَوَالِمُ التَّفْصِيلِ وَتَحُطُّ مِنْ عَالِمِ الْكُلِّ . يَبْقَى الْعَوَالِمُ الْمُجَرَّدَةُ ، فَتَقْسَمُ عَلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى يَخْرُجُ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ . وَمِنْ هُنَا يَطْرُدُ الْعَمَلُ فِي التَّامَةِ . وَلَهُ مَقَامَاتٌ فِي كُتُبِ ابْنِ وَخْشِيَّةَ وَالْبُونِيِّ وَغَيْرِهِمَا . وَهَذَا التَّذْيِيرُ يَجْرِي عَلَى الْقَانُونِ الطَّبِيعِيِّ الْحَكِيمِيِّ فِي هَذَا الْفَنِّ وَغَيْرِهِ مِنْ فُنُونِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَعَلَيْهِ مَدَارُ وَضْعِ الزِّيَارِجِ الْخَرْفِيِّ وَالصَّنْعَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالنِّزَاجَاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ . وَاللَّهُ الْمُلْهُمُ بِهِ الْمُسْتَعَانَ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

الفصل الثلاثون

في علم الكيمياء

وَهُوَ عَلِيمٌ يَنْظُرُ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي يَتِمُّ بِهَا كَوْنُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِالصَّنَاعَةِ وَيَشْرَحُ الْعَمَلَ الَّذِي يُوَصِّلُ إِلَى ذَلِكَ فَيَتَصَفَّحُونَ الْمَكُونَاتِ كُلَّهَا بَعْدَ مَعْرِفَةِ أَمْرَجَتِهَا وَقَوَاهَا لَعَلَّهُمْ يَغْتَرُونَ عَلَى الْمَادَّةِ الْمُسْتَعِدَّةِ لِذَلِكَ حَتَّى مِنَ الْعَضَلَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ كَالْعِظَامِ وَالرِّيشِ وَالْبَيْضِ وَالْعُذْرَاتِ فَضْلًا عَنِ الْمَعَادِنِ . ثُمَّ يَشْرَحُ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَخْرُجُ بِهَا تِلْكَ الْمَادَّةُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ مِثْلَ حَلِّ الْأَجْسَامِ إِلَى أَجْزَائِهَا الطَّبِيعِيَّةِ بِالتَّصْعِيدِ وَالتَّقْطِيرِ وَجَمِدِ الذَّائِبِ مِنْهَا بِالتَّكْلِيسِ وَإِمَاءِ الصُّلْبِ بِالنَّهْرِ وَالصَّلَاةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَفِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِهَذِهِ الصَّنَاعَاتِ كُلُّهَا جِسْمٌ طَبِيعِيٌّ يَسْمُونَهُ الْإِكْسِيرَ . وَأَنَّهُ يُلْقَى مِنْهُ عَلَى الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ الْمُسْتَعِدَّ لِاقْبُولِ صُورَةِ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ

بِالِاسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ مِنَ الْفِعْلِ مِثْلَ الرِّضَاصِ وَالْقَصْدِيرِ وَالنُّحَاسِ بَعْدَ أَنْ يُخْمَى
 بِالنَّارِ فَيَعُودُ دُهَبًا إِبْرِيزًا . وَيَكُونُونَ عَنْ ذَلِكَ الْإِكْسِيرِ إِذَا أَلْفَزُوا فِي اضْطِلَاحَاتِهِمْ
 بِالرُّوحِ وَعَنِ الْجِسْمِ الَّذِي يُلْقَى عَلَيْهِ بِالْجَسَدِ . فَشَرَحَ هَذِهِ الْاضْطِلَاحَاتَ وَصُورَةَ
 هَذَا الْعَمَلِ الصَّنَاعِيِّ الَّذِي يَقْلِبُ هَذِهِ الْأَجْسَادَ الْمُسْتَعِدَّةَ إِلَى صُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
 هُوَ عِلْمُ الْكِيمِيَاءِ . وَمَا زَالَ النَّاسُ يُؤَلَّفُونَ فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا . وَرُبَّمَا يُعْزَى
 الْكَلَامُ فِيهَا إِلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا . وَإِمَامُ الْمُتَوَكِّلِينَ فِيهَا جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ حَتَّى إِنَّهُمْ
 يَخْصُونَهَا بِهِ فَيَسْمُونَهَا عِلْمَ جَابِرٍ وَلَهُ فِيهَا سَبْعُونَ رِسَالَةً كُلُّهَا شَيْبَةً بِالْأَلْفَاظِ .
 وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَا يَفْتَحُ مَقْفَلَهَا إِلَّا مَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ مَا فِيهَا . وَالطُّغْرَاءِيُّ مِنْ
 حُكَمَاءِ الْمَشْرِقِ الْمُتَأَخِّرِينَ لَهُ فِيهَا دَوَاوِينُ وَمُنَاطِرَاتٌ مَعَ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِنْ
 الْحُكَمَاءِ . وَكُتِبَ فِيهَا مُسَلَّمَةُ الْمَجْرِيطِيِّ مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ كِتَابُهُ الَّذِي سَمَّاهُ
 رَتَبَةُ الْحَكِيمِ وَجَعَلَهُ قَرِينًا لِكِتَابِهِ الْآخَرِ فِي السَّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ الَّذِي سَمَّاهُ غَايَةُ
 الْحَكِيمِ . وَزَعَمَ أَنَّ هَاتَيْنِ الصَّنَاعَتَيْنِ هُمَا نَتِيجَتَانِ لِلْحِكْمَةِ وَثَمَرَتَانِ لِلْعُلُومِ وَمَنْ لَمْ
 يَقِفْ عَلَيْهِمَا فَهُوَ فَاقِدٌ ثَمَرَةَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ أَجْمَعَ . وَكَلَامُهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ
 وَكَلَامُهُمْ أَجْمَعٌ فِي تَأْلِيْفِهِمْ هِيَ الْأَفَازُ يَتَعَدَّرُ فَهْمُهَا عَلَى مَنْ لَمْ يَغَانِ اضْطِلَاحَاتِهِمْ فِي
 ذَلِكَ . وَنَحْنُ نَذْكُرُ سَبَبَ عُدُولِهِمْ إِلَى هَذِهِ الرُّمُوزِ وَالْأَلْفَاظِ . وَلَا بِنِ الْمُغْيِرِيِّ مِنْ
 أَيْمَةِ هَذَا الشَّانِ كَلِمَاتٌ شِعْرِيَّةٌ عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ مِنْ أُبْدَعَ مَا يَجِيءُ فِي الشَّعْرِ
 مَلْفُوزَةٌ كُلُّهَا لُغْزُ الْأَحَاجِي وَالْمُعَايَاةُ فَلَا تَكَاذُ تَفْهَمُ . وَقَدْ يَنْسَبُونَ لِلْفَرَايِي رَحْمَةُ
 اللَّهِ بَعْضَ التَّأْلِيفِ فِيهَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ تَكُنْ مَذَارِكُهُ الْعَالِيَّةُ لِتَقِفَ
 عَنْ خَطِئِ مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَنْتَحِلَهُ . وَرُبَّمَا نَسَبُوا بَعْضَ الْمَذَاهِبِ وَالْأَقْوَالِ فِيهَا
 لِخَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ رَيْبِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ الْبَيِّنِ أَنَّ خَالِدًا مِنْ
 الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ وَالْبِدَاوَةِ إِلَيْهِ أَقْرَبُ فَهُوَ يَعِيدُ عَنِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَ لَهُ
 بِصِنَاعَةِ غَرِيبَةِ الْمَنْحَى مَبْنِيَّةٍ عَلَى مَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الْمُرَكَّبَاتِ وَأَمْرَجَتِهَا وَكُتِبَ
 النَّاطِرِينَ فِي ذَلِكَ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالطَّبِّ لَمْ تَظْهَرْ بَعْدَ وَلَمْ تَتَرْجَمَ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ

يَكُونُ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ آخَرَ مِنْ أَهْلِ الْمَدَارِكِ الصَّنَاعِيَّةِ تَشَبُّهُ بِاسْمِهِ فَمُمْكِنٌ . وَأَنَا
أَنْقُلُ لَكَ هُنَا رِسَالَةَ أَبِي بَكْرٍ بَيْنَ بَشْرُونَ لِأَبِي السَّمْحِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكِلَاهُمَا
مِنْ تَلَامِيذِ مَسْلَمَةَ فَيَسْتَدِلُّ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي شَأْنِهَا إِذَا أُعْطِيَتْهُ
حَقُّهُ مِنَ التَّأْمِلِ قَالَ ابْنُ بَشْرُونَ بَعْدَ صَدْرِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ خَارِجَ عَنِ الْغَرَضِ ،
« وَالْمُقَدِّمَاتُ الَّتِي لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْكَرِيمَةِ قَدْ ذَكَرَهَا الْأَوَّلُونَ وَاقْتَصَصَ جَمِيعُهَا أَهْلُ
الْفَلَسَفَةِ مِنْ مَعْرِفَةِ تَكْوِينِ الْمَعَادِنِ وَتَخْلُقِ الْأَحْجَارِ وَالْجَوَاهِرِ وَطَبَايِعِ الْبَقَاعِ
وَالْأَمَاكِينِ فَمِنْعَنَا اشْتِبَاهُهَا مِنْ ذِكْرِهَا وَلَكِنْ أَتَيْنُ لَكَ مِنْ هَذِهِ الصَّنِيعَةِ مَا يُخْتِاجُ
إِلَيْهِ قَتَبُهَا بِمَعْرِفَتِهِ فَقَدْ قَالُوا ، يَنْبَغِي لِطُلَّابِ هَذَا الْعِلْمِ أَنْ يَعْلَمُوا أَوَّلًا ثَلَاثَ
خِصَالٍ ، أَوَّلُهَا هَلْ تَكُونُ ؟ وَالثَّانِيَةُ مِنْ أَيِّ تَكُونُ ؟ وَالثَّالِثَةُ مِنْ أَيِّ كَيْفٍ تَكُونُ ؟
فَإِذَا عَرَفَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ وَأَحْكَمَهَا فَقَدْ ظَفِرَ بِمَطْلُوبِهِ وَبَلَغَ نَهَائَتَهُ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ وَأَمَّا
الْبَحْثُ عَنْ وُجُودِهَا وَالِاسْتِدْلَالُ عَنْ تَكْوِينِهَا فَقَدْ كَفَيْتَاكَ بِمَا بَعْثْنَا بِهِ إِلَيْكَ مِنَ
الْإِكْسِيرِ . وَأَمَّا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ الْبَحْثُ عَنِ الْحَجَرِ الَّذِي
يُمْكِنُهُ الْعَمَلُ وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوْجُودًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِالْقُوَّةِ لِأَنَّهَا مِنَ الطَّبَائِعِ
الْأَرْبَعِ مِنْهَا تَرَكَّبَتْ ابْتِدَاءً وَإِلَيْهَا تَرْجِعُ انْتِهَاءً وَلَكِنْ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يَكُونُ فِيهِ
بِالْقُوَّةِ وَلَا يَكُونُ بِالْفِعْلِ وَذَلِكَ أَنْ مِنْهَا مَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا تَعَالِجَ وَتُدْبَرُ وَهِيَ الَّتِي
تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ وَالَّتِي لَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا لَا تَعَالِجَ وَلَا تُدْبَرُ لِأَنَّهَا فِيهَا
بِالْقُوَّةِ فَقَطْ وَإِنَّمَا لَمْ يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا لِاسْتِغْرَاقِ بَعْضِ طَبَائِعِهَا فِي بَعْضٍ وَفَضْلُ قُوَّةِ
الْكَبِيرِ مِنْهَا عَلَى الصَّغِيرِ . فَيَنْبَغِي لَكَ وَقَفَّكَ اللَّهُ أَنْ تَعْرِفَ أَوْفَقَ الْأَحْجَارِ الْمُنْفَصِلَةِ
الَّتِي يُمْكِنُ فِيهَا الْعَمَلُ وَجَنْسُهُ وَقُوَّتُهُ وَعَمَلُهُ وَمَا يُدْبَرُ مِنَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالتَّنْقِيَةِ
وَالْتَكْلِيسِ وَالتَّنْشِيفِ وَالتَّقْلِيلِ فَإِنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذِهِ الْأَصُولَ الَّتِي هِيَ عِمَادُ هَذِهِ
الصَّنِيعَةِ لَمْ يَنْجَحْ وَلَمْ يَظْفَرْ بِخَيْرٍ أَبَدًا . وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ
يُسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِغَيْرِهِ أَوْ يَكْتَفَى بِهِ وَحْدَهُ وَهَلْ هُوَ وَاحِدٌ فِي الْإِبْتِدَاءِ أَوْ شَارَكَهُ غَيْرُهُ
فَصَارَ فِي التَّذْيِيرِ وَاحِدًا فَسُمِّيَ حَجَرًا . وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ كَيْفِيَّةَ عَمَلِهِ وَكَمِيَّةَ

أَوْزَانِهِ وَأَزْمَانِهِ وَكَيْفَ تَرْكِيبِ الرُّوحِ فِيهِ وَإِذْخَالَ النَّفْسِ عَلَيْهِ ؟ وَهَلْ تَقْدِرُ النَّارُ عَلَى تَفْصِيلِهَا مِنْهُ بَعْدَ تَرْكِيبِهَا ؟ فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَلَايَ عِلَّةٌ وَمَا السَّبَبُ الْمَوْجِبُ لِذَلِكَ ؟ فَإِنْ هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ فَافْهَمْ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْفَلَاسِفَةَ كُلَّهَا مَدَحَتِ النَّفْسَ وَزَعَمَتِ أَنَّهَا الْمُدَبِّرَةُ لِلْجَسَدِ وَالْحَامِلَةُ لَهُ وَالِدَّافِعَةُ عَنْهُ وَالْفَاعِلَةُ فِيهِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْجَسَدَ إِذَا خَرَجَتِ النَّفْسُ مِنْهُ مَاتَ وَبَرَدَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا نُورَ . وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ الْجَسَدَ وَالنَّفْسَ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ شَبِيهَةٌ بِجَسَدِ الْإِنْسَانِ الَّذِي تَرْكِيبُهُ عَلَى الْغِذَاءِ وَالْعِشَاءِ وَقَوَامُهُ وَتَمَامُهُ بِالنَّفْسِ الْحَيَّةِ النُّورَانِيَّةِ الَّتِي يَبْهًا يَفْعَلُ الْعِظَائِمَ وَالْأَشْيَاءَ الْمُتَقَابِلَةَ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهَا بِالْقُوَّةِ الْحَيَّةِ الَّتِي فِيهَا . وَإِنَّمَا انْفَعَلَ الْإِنْسَانُ لِاخْتِلَافِ تَرْكِيبِ طَبَائِعِهِ وَلَوْ اتَّفَقَتْ طَبَائِعُهُ لَسَلِمَتْ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالتَّضَادِّ وَلَمْ تَقْدِرِ النَّفْسُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَدَنِهِ وَلَكَانَ خَالِدًا بَاقِيًا . فَسُبْحَانَ مُدَبِّرِ الْأَشْيَاءِ تَعَالَى . وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّبَائِعَ الَّتِي يَخْدُثُ عَنْهَا هَذَا الْعَمَلُ كَيْفِيَّةٌ دَافِعَةٌ فِي الْإِبْتِدَاءِ فَيُنْضِيَّةٌ مُخْتَاجَةٌ إِلَى الْإِنْتِهَاءِ وَلَيْسَ لَهَا إِذَا صَارَتْ فِي هَذَا الْحَدِّ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى مَا مِنْهُ تَرْكَبَتْ كَمَا قُلْنَا أَنفَاءً فِي الْإِنْسَانِ لِأَنَّ طَبَائِعَ هَذَا الْجَوْهَرِ قَدْ لَزِمَ بَعْضُهَا بَعْضًا وَصَارَتْ شَيْئًا وَاحِدًا شَبِيهَاً بِالنَّفْسِ فِي قُوَّتِهَا وَفِعْلِهَا وَبِالْجَسَدِ فِي تَرْكِيبِهِ وَمَجْسِيَّتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ طَبَائِعَ مُفْرَدَةً بِأَغْيَانِهَا . فَيَا عَجَبًا مِنْ أَفَاعِيلِ الطَّبَائِعِ إِنَّ الْقُوَّةَ لِلضَّعِيفِ الَّذِي يَقْوَى عَلَى تَفْصِيلِ الْأَشْيَاءِ وَتَرْكِيبِهَا وَتَمَامِهَا فَلِذَلِكَ قُلْتُ قَوِيٌّ وَضَعِيفٌ . وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّغْيِيرُ وَالْفَنَاءُ فِي التَّرْكِيبِ الْأَوَّلِ لِلِاخْتِلَافِ وَعَدَمِ ذَلِكَ فِي الثَّانِي لِلِاتِّفَاقِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَوَّلِينَ التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هَذَا الْعَمَلِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ وَالتَّرْكِيبُ مَوْتُ وَفَنَاءٌ . وَهَذَا الْكَلَامُ دَقِيقٌ الْمَعْنَى لِأَنَّ الْحَكِيمَ أَرَادَ بِقَوْلِهِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ خُرُوجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ لِأَنَّهُ مَا دَامَ عَلَى تَرْكِيبِهِ الْأَوَّلِ فَهُوَ قَائِمٌ لَا مُحَالَةً فَإِذَا رُكِبَ التَّرْكِيبُ الثَّانِي عَدِمَ الْفَنَاءُ . وَالتَّرْكِيبُ الثَّانِي لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ التَّفْصِيلِ وَالتَّقْطِيعِ فَإِذَا التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هَذَا الْعَمَلِ خَاصَّةٌ . فَإِذَا بَقِيَ الْجَسَدُ الْمَحْلُولُ انْبَسَطَ فِيهِ لِعَدَمِ الصُّورَةِ لِأَنَّهُ قَدْ صَارَ

فِي الْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ الَّتِي لَا صُورَةَ لَهَا وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا وَزْنَ لَهُ فِيهِ وَسَتَرَى ذَلِكَ إِنْ
 شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اخْتِلَاطَ اللَّطِيفِ بِاللَّطِيفِ أَهْوَنُ مِنْ
 اخْتِلَاطِ الْعَلِيظِ وَإِنَّمَا أَرِيدُ بِذَلِكَ التَّشَاكُلَ فِي الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَتَّصِلُ
 بِأَشْكَالِهَا . وَذَكَرْتُ لَكَ ذَلِكَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْعَمَلَ أَوْفَقُ وَأَيَسَرُ مِنَ الطَّبَائِعِ اللَّطَائِفِ
 الرُّوحَانِيَّةِ مِنْهَا مِنَ الْعَلِيظَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ . وَقَدْ يُتَصَوَّرُ فِي الْعَقْلِ أَنَّ الْأَجْسَادَ أَقْوَى
 وَأَصْبَرَ عَلَى النَّارِ مِنَ الْأَرْوَاحِ كَمَا تَرَى أَنَّ الذَّهَبَ وَالْحَدِيدَ وَالنُّحَاسَ أَصْبَرَ عَلَى النَّارِ
 مِنَ الْكِبْرِيَّتِ وَالزُّرْبِيِّ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَرْوَاحِ فَأَقُولُ إِنَّ الْأَجْسَادَ قَدْ كَانَتْ أَرْوَاحًا فِي
 بَدَنِهَا فَلَمَّا أَصَابَهَا حَرُّ الْكَيَانِ قَلَبَهَا أَجْسَادًا لِرَجَّةِ غَلِيظَةٍ فَلَمْ تَقْدِرِ النَّارُ عَلَى أَكْلِهَا
 لِإِفْرَاطِ غَلِيظَتِهَا وَتَلَزُّجِهَا . فَإِذَا أَفْرَطَتِ النَّارُ عَلَيْهَا صَيَّرَتْهَا أَرْوَاحًا كَمَا كَانَتْ أَوَّلَ
 خَلْقِهَا . وَإِنَّ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ اللَّطِيفَةَ إِذَا أَصَابَتْهَا النَّارُ أَثَبَتْ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى الْبَقَاءِ عَلَيْهَا
 فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا صَيَّرَ الْأَجْسَادَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ وَصَيَّرَ الْأَرْوَاحَ فِي هَذَا الْحَالِ فَهُوَ
 أَجَلُ مَا تَعْرِفُهُ . أَقُولُ إِنَّمَا أَثَبْتُ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ لِاشْتِعَالِهَا وَلَطَافَتِهَا . وَإِنَّمَا اشْتَعَلَتْ
 لِكثْرَةِ رُطُوبَتِهَا وَلِأَنَّ النَّارَ إِذَا أَحْسَتْ بِالرُّطُوبَةِ تَعَلَّقَتْ بِهَا لِأَنَّهَا هَوَائِيَّةٌ تُشَاكِلُ
 النَّارَ وَلَا تَزَالُ تَغْتَنِي بِهَا إِلَى أَنْ تَفْنَى . وَكَذَلِكَ الْأَجْسَادُ إِذَا أَحْسَتْ بِوُصُولِ النَّارِ
 إِلَيْهَا لِقِلَّةِ تَلَزُّجِهَا وَغَلِيظَتِهَا وَإِنَّمَا صَارَتْ تِلْكَ الْأَجْسَادُ لَا تَشْتَعِلُ لِأَنَّهَا مَرْكَبَةٌ مِنْ
 أَرْضٍ وَمَاءٍ صَابِرٍ عَلَى النَّارِ فَلَطِيفُهُ مُتَّحِدٌ بِكَثِيفِهِ لِطَوْلِ الطَّبَخِ اللَّيْنِ الْمَازِجِ
 لِلْأَشْيَاءِ . وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مُتَلَاشٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى بِالنَّارِ لِمُفَارَقَةِ لَطِيفِهِ مِنْ كَثِيفِهِ
 وَدُخُولِ بَعْضِهِ فِي بَعْضٍ عَلَى غَيْرِ التَّحْلِيلِ وَالْمُوَافَقَةِ فَصَارَ ذَلِكَ الْإِنْضِمَامُ وَالتَّدَاخُلُ
 مُجَاوِزَةً لَا مُمَازَجَةً فَسَهِّلَ بِذَلِكَ افْتِرَاقَهُمَا كَالْمَاءِ وَالذَّهْنِ وَمَا أَشَبَّهُهُمَا . وَإِنَّمَا
 وَصَفْتُ ذَلِكَ لِتُسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى تَرْكِيبِ الطَّبَائِعِ وَتَقَابُلِهَا فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ عِلْمًا شَافِيًا
 فَقَدْ أَخَذْتَ حَظَّكَ مِنْهَا . وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَخْلَاطَ الَّتِي هِيَ طَبَائِعُ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ مُوَافِقَةٌ لِبَعْضِهَا لِبَعْضٍ مُفَصَّلَةٌ مِنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ يَجْمَعُهَا نِظَامٌ وَاحِدٌ يَتَذَيَّرُ
 وَاحِدٌ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ غَرِيبٌ فِي الْجُزْءِ مِنْهُ وَلَا فِي الْكُلِّ كَمَا قَالَ الْفِيلَسُوفُ : إِنَّكَ إِذَا

أَحْكَمْتَ تَذْيِيرَ الطَّبَائِعِ وَتَأْلِيفَهَا وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا غَرِيباً فَقَدْ أَحْكَمْتَ مَا أَرَدْتَ
إِحْكَامَهُ وَقَوَامَهُ إِذِ الطَّبِيعَةُ وَاحِدَةٌ لَا غَرِيبَ فِيهَا فَمَنْ أَدْخَلَ عَلَيْهَا غَرِيباً فَقَدْ زَاغَ
عَنْهَا وَوَقَعَ فِي الْخَطِإِ . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ إِذَا حُلَّ لَهَا جَسَدٌ مِنْ قَرَائِنِهَا عَلَى
مَا يَنْبَغِي فِي الْحُلِّ حَتَّى يُشَاكِلَهَا فِي الرِّقَّةِ وَاللُّطَافَةِ انْتَبَسَطَتْ فِيهِ وَجَرَتْ مَعَهُ
حَيْثُمَا جَرَى لِأَنَّ الْأَجْسَادَ مَا دَامَتْ غَلِيظَةً جَافِيَةً لَا تَنْبَسِطُ وَلَا تَتَزَاوَجُ وَحُلُّ
الْأَجْسَادِ لَا يَكُونُ بِغَيْرِ الْأَرْوَاحِ فَافْتَهُمُ هَذَاكَ اللَّهُ هَذَا الْقَوْلُ . وَاعْلَمْ هَذَاكَ اللَّهُ أَنَّ
هَذَا الْحُلَّ فِي جَسَدِ الْحَيَوَانِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَضْمَحِلُّ وَلَا يَنْقُصُ وَهُوَ الَّذِي يَقْلِبُ
الطَّبَائِعَ وَيُمْسِكُهَا وَيُظْهِرُ لَهَا أَلْوَاناً وَأَزْهَاراً عَجِيبَةً . وَلَيْسَ كُلُّ جَسَدٍ يَحُلُّ
خِلَافَ هَذَا هُوَ الْحُلُّ التَّامُّ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلْحَيَاةِ . وَإِنَّمَا حَلُّهُ بِمَا يُوَافِقُهُ وَيُدْفَعُ عَنْهُ
حَرَقُ النَّارِ . حَتَّى يَزُولَ عَنِ الْغَلِظِ . وَتَنْقَلِبُ الطَّبَائِعُ عَنْ حَالَاتِهَا إِلَى مَا لَهَا أَنْ
تَنْقَلِبَ مِنَ اللُّطَافَةِ وَالْغَلِظِ . فَإِذَا بَلَغَتْ الْأَجْسَادُ نَهَائَتَهَا مِنَ التَّخْلِيلِ وَالتَّلَطُّيفِ
ظَهَرَتْ لَهَا هُنَالِكَ قُوَّةُ تُمْسِكٍ وَتَغْوُصُ وَتَقْلِبُ وَتَنْفُذُ وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَرَى لَهُ مُصْداقٌ
فِي أَوَّلِهِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَارِدَ مِنَ الطَّبَائِعِ هُوَ يُبَيِّسُ الْأَشْيَاءَ وَيَعْقِدُ
رُطُوبَتَهَا وَالْحَارَّ مِنْهَا يُظْهِرُ رُطُوبَتَهَا وَيَعْقِدُ يَبَسَهَا وَإِنَّمَا أَفْرَدْتُ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ
لِأَنَّهُمَا فَاعِلَانِ وَالرُّطُوبَةُ وَالْيَبَسُ مُنْفَعِلَانِ وَعَلَى انْفِعَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ
تَحْدُثُ الْأَجْسَامُ وَتَتَكَوَّنُ وَإِنْ كَانَ الْحَرُّ أَكْثَرَ فَعَمَلًا فِي ذَلِكَ مِنَ الْبَرْدِ لِأَنَّ الْبَرْدَ لَيْسَ
لَهُ نَقْلُ الْأَشْيَاءِ وَلَا تَحْرُكُهَا وَالْحَرُّ هُوَ عِلَّةُ الْحَرَكَةِ . وَمَتَى ضَعُفَتْ عِلَّةُ الْكَوْنِ وَهُوَ
الْحَرَارَةُ لَمْ يَتِمَّ مِنْهَا شَيْءٌ أَبَدًا كَمَا أَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَتِ الْحَرَارَةُ عَلَى شَيْءٍ وَلَمْ يَكُنْ ثُمَّ
بَرْدٌ أَخْرَقَتْهُ وَأَهْلَكَتَهُ . فَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْعِلَّةِ اخْتِيجُ إِلَى الْبَارِدِ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ لِيَقْوَى
بِهِ كُلُّ ضِدٍّ عَلَى ضِدِّهِ وَيُدْفَعُ عَنْهُ حَرُّ النَّارِ . وَلَمْ يَخْذَرْ الْفَلَاسِفَةُ أَكْبَرَ شَيْءٍ إِلَّا مِنَ
النَّيِّرَانِ الْمُحْرِقَةِ . وَأَمَرْتُ بِتَطْهِيرِ الطَّبَائِعِ وَالْأَنْفَاسِ وَإِخْرَاجِ دَنَسِهَا وَرُطُوبَتِهَا
وَنَفْيِ أَفَاتِنِهَا وَأَوْسَاحِهَا عَنْهَا عَلَى ذَلِكَ اسْتِقَامَ رَأْيُهُمْ وَتَذْيِيرُهُمْ فَإِنَّمَا عَمَلُهُمْ إِنَّمَا هُوَ
مَعَ النَّارِ أَوَّلًا وَإِلَيْهَا يَصِيرُ آخِرًا فَلِلذَلِكَ قَالُوا : إِيَّاكُمْ وَالنَّيِّرَانَ الْمُحْرِقَاتِ . وَإِنَّمَا

أَرَادُوا بِذَلِكَ نَفْيَ الْآفَاتِ الَّتِي مَعَهَا فَتَجَمُّعٌ عَلَى الْجَسَدِ آتَيْنِ فَتَكُونُ أَسْرَعُ لِهَلَاكِه .
وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى وَيَفْسُدُ مِنْ ذَاتِهِ لِتَضَادِّ طَبَائِعِهِ وَاخْتِلَافِهِ فَيَتَوَسَّطُ
بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَلَمْ يَجِدْ مَا يَقْوِيهِ وَيُعِينُهُ إِلَّا قَهَرَتْهُ الْآفَةُ وَأَهْلَكَتْهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْحُكَمَاءَ
كُلَّهَا ذَكَرَتْ تَرْدَادَ الْأَرْوَاحِ عَلَى الْأَجْسَادِ مِرَاراً لِيَكُونَ أَلْزَمَ إِلَيْهَا وَأَقْوَى عَلَى قِتَالِ
النَّارِ إِذَا هِيَ بَاشَرَتْهَا عِنْدَ الْإِلْفَةِ أَغْنَى بِذَلِكَ النَّارَ الْعُنْصُرِيَّةَ فَاعْلَمَهُ . وَلِنَقُلِ الْآنَ
عَلَى الْحَجَرِ الَّذِي يُمْكِنُ مِنْهُ الْعَمَلُ عَلَى مَا ذَكَرْتَهُ الْفَلَاسِفَةُ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ
مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْحَيَوَانِ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي النَّبَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْمَعَادِنِ
وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْجَمِيعِ . وَهَذِهِ الدَّعَاوَى لَيْسَتْ بِنَا حَاجَةً إِلَى اسْتِقْصَائِهَا
وَمُنَاطَرَةِ أَهْلِهَا عَلَيْهَا لِأَنَّ الْكَلَامَ يَطُولُ جُداً وَقَدْ قُلْتُ فِيمَا تَقَدَّمَ إِنَّ الْعَمَلَ يَكُونُ
فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالْقُوَّةِ لِأَنَّ الطَّبَائِعَ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ كَذَلِكَ فَتُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ
أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ الْعَمَلُ بِالْقُوَّةِ وَالْفِعْلُ فَتَنْقُصُ إِلَى مَا قَالَهُ الْحَرَّانِيُّ إِنَّ الصَّنْعَ كُلَّهُ أَخَذَ
صَنِيعَيْنِ ، إِمَّا صَنَعَ جَسَدِ كَالزُّعْفَرَانِ فِي الثُّوبِ الْأَبْيَضِ حَتَّى يَحُولَ فِيهِ وَهُوَ
مُضْمَحِلٌّ مُنْتَقِضُ التَّرَكِيبِ ، وَالصَّنْعَ الثَّانِي تَقْلِيبُ الْجَوْهَرِ مِنْ جَوْهَرٍ نَفْسِهِ إِلَى
جَوْهَرٍ غَيْرِهِ وَلَوْنِهِ كَتَقْلِيبِ الشَّجَرِ بِلِ التُّرَابِ إِلَى نَفْسِهِ وَقَلْبِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ إِلَى
نَفْسِهِ حَتَّى يَصِيرَ التُّرَابُ نَبَاتاً وَالنَّبَاتُ حَيَوَاناً وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِالرُّوحِ الْحَيِّ وَالْكَيَّانِ
الْفَاعِلِ الَّذِي لَهُ تَوَلِيدُ الْأَجْرَامِ وَقَلْبُ الْأَعْيَانِ . فَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَتَقُولُ إِنَّ الْعَمَلَ
لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ إِمَّا فِي الْحَيَوَانِ وَإِمَّا فِي النَّبَاتِ وَبُرْهَانُ ذَلِكَ أَنَّهُمَا مَطْبُوعَانِ عَلَى
الْغِذَاءِ وَبِهِ قَوَامُهُمَا وَتَمَامُهُمَا . فَأَمَّا النَّبَاتُ فَلَيْسَ فِيهِ مَا فِي الْحَيَوَانِ مِنَ اللَّطَافَةِ
وَالْقُوَّةِ وَلِذَلِكَ قَلَّ خَوْضُ الْحُكَمَاءِ فِيهِ . وَأَمَّا الْحَيَوَانُ فَهُوَ آخِرُ الْإِسْتِحَالَاتِ الثَّلَاثِ
وَنَهَايَتُهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْمَعْدِنَ يَسْتَحِيلُ نَبَاتاً وَالنَّبَاتُ يَسْتَحِيلُ حَيَوَاناً وَالْحَيَوَانُ
لَا يَسْتَحِيلُ إِلَى شَيْءٍ هُوَ الطُّفُّ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَنْعَكِسَ رَاجِعاً إِلَى الْعِلَظِ وَأَنَّهُ أَيْضاً
لَا يَوْجَدُ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ تَتَعَلَّقُ فِيهِ الرُّوحُ الْحَيَّةُ غَيْرَهُ وَالرُّوحُ الطُّفُّ مَا فِي الْعَالَمِ وَلَمْ
تَتَعَلَّقِ الرُّوحُ بِالْحَيَوَانِ إِلَّا بِمُشَاكَلَتِهِ إِيَّاهَا . فَأَمَّا الرُّوحُ الَّتِي فِي النَّبَاتِ فَإِنَّهَا

يَسِيرَةَ فِيهَا غَلِظَ وَكَثَافَةً وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مُسْتَغْرِقَةٌ كَامِنَةٌ فِيهِ لِيَغْلِظَهَا وَغَلِظَ جَسَدُ
النَّبَاتِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكَةِ لِيَغْلِظِهِ وَغَلِظَ رُوحُهُ . وَالرُّوحُ الْمُتَحَرِّكَةُ الْطُفُ مِنْ
الرُّوحِ الْكَامِنَةِ كَثِيرًا وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَحَرِّكَةَ لَهَا قَبُولُ الْغِذَاءِ وَالتَّنْقِيلُ وَالتَّنَفُّسُ وَلَيْسَ
لِلْكَامِنَةِ غَيْرُ قَبُولِ الْغِذَاءِ وَحَدَهُ . وَلَا تَجْرِي إِذَا قِيسَتْ بِالرُّوحِ الْحَيَّةِ إِلَّا كَالْأَرْضِ
عِنْدَ الْمَاءِ . كَذَلِكَ النَّبَاتُ عِنْدَ الْحَيَوَانِ فَالْعَمَلُ فِي الْحَيَوَانِ أَعْلَى وَأَرْفَعُ وَأَهْوَنُ
وَأَيْسَرُ . فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ إِذَا عَرَفَ ذَلِكَ أَنْ يُجَرِّبَ مَا كَانَ سَهْلًا وَيَتْرَكَ مَا يَخْشَى
فِيهِ عُسْرًا . وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَيَوَانَ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ يَنْقَسِمُ أَقْسَامًا مِنَ الْأُمُحَاتِ الَّتِي هِيَ
الطَّبَائِعُ وَالْخَدِيثَةُ الَّتِي هِيَ الْمَوَالِيدُ وَهَذَا مَعْرُوفٌ مُتَيَسِّرُ الْفَهْمِ فَلِذَلِكَ قَسَمْتُ
الْحُكَمَاءُ الْعَنَاصِرَ وَالْمَوَالِيدَ أَقْسَامًا حَيَّةً وَأَقْسَامًا مَيِّتَةً فَجَعَلُوا كُلَّ مُتَحَرِّكِ فَاعِلًا
حَيًّا وَكُلَّ سَاكِنٍ مَفْعُولًا مَيِّتًا . وَقَسَمُوا ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَفِي الْأَجْسَادِ الذَّائِبَةِ
وَفِي الْعَقَاقِيرِ الْمَعْدِنِيَّةِ فَسَمَوْا كُلَّ شَيْءٍ يَذُوبُ فِي النَّارِ وَيَطِيرُ وَيَسْتَيْعِلُ حَيًّا وَمَا
كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ سَمَوْهُ مَيِّتًا فَأَمَّا الْحَيَوَانُ وَالنَّبَاتُ فَسَمَوْا كُلَّ مَا انْفَصَلَ مِنْهَا
طَبَائِعُ أَرْبَعًا حَيًّا وَمَا لَمْ يَنْفَصِلْ سَمَوْهُ مَيِّتًا ثُمَّ إِنَّهُمْ طَلَبُوا جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْحَيَّةِ . فَلَمْ
يَجِدُوا لَوْفَقِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مِمَّا يَنْفَصِلُ فُضُولًا أَرْبَعَةً ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ وَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ
الْحَجَرِ الَّذِي فِي الْحَيَوَانِ فَبَحَثُوا عَنْ جَنْسِهِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَأَخَذُوهُ وَذَبَرُوهُ فَتَكَيَّفَ لَهُمْ
مِنْهُ الَّذِي أَرَادُوا . وَقَدْ يَتَكَيَّفُ مِثْلُ هَذَا فِي الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ بَعْدَ جَمِيعِ الْعَقَاقِيرِ
وَخَلِطَهَا ثُمَّ تَفَصَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ . فَأَمَّا النَّبَاتُ فَمِنْهُ مَا يَنْفَصِلُ بِنِغْصِ هَذِهِ الْفُضُولِ
مِثْلَ الْأَشْنَانِ ^(١) وَأَمَّا الْمَعَادِنُ فَفِيهَا أَجْسَادُ وَأَرْوَاحُ وَأَنْفَاسُ إِذَا مَرَجَتْ وَذَبَرَتْ كَانَ
مِنْهَا مَا لَهُ تَأْيِيرٌ . وَقَدْ ذَبَرْنَا كُلَّ ذَلِكَ فَكَانَ الْحَيَوَانُ مِنْهَا أَعْلَى وَأَرْفَعُ وَتَذْيِيرُهُ
أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ . فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمْ مَا هُوَ الْحَجَرُ الْمَوْجُودُ فِي الْحَيَوَانِ وَطَرِيقُ
وُجُودِهِ . إِنَّا بَيَّنَّا أَنَّ الْحَيَوَانَ أَرْفَعُ الْمَوَالِيدِ وَكَذَا مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ فَهُوَ الْطُفُ مِنْهُ

(١) الإشنان ، ما تفصل به الأيدي من الحمض . والأشنة شيء نباتي يتكون على الشجر والصخور

(القلقوس) .

كَالنَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ . وَإِنَّمَا كَانَ النَّبَاتُ اللَّطِيفُ مِنَ الْأَرْضِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ
جَوْهَرِهِ الصَّافِي وَجَسَدِهِ اللَّطِيفُ فَوَجِبَ لَهُ بِذَلِكَ اللَّطَافَةُ وَالرَّقَّةُ . وَكَذَا هَذَا الْحَجَرُ
الْحَيَوَانِيُّ بِمَنْزِلَةِ النَّبَاتِ فِي التُّرَابِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَيَوَانِ شَيْءٌ يَنْفَصِلُ
طَبَائِعَ أَرْبَعًا غَيْرَهُ فَافْهَمْ هَذَا الْقَوْلَ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُخْفَى إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ بَيْنَ الْجَهَالَةِ
وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ . فَقَدْ أَخْبَرْتُكَ مَا هِيَ هَذَا الْحَجَرُ وَأَعْلَمْتُكَ جِنْسَهُ وَأَنَا أَبَيِّنُ لَكَ
وُجُوهَ تَدَايِيرِهِ حَتَّى يَكْمُلَ الَّذِي شَرَطْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا مِنَ الْإِنْصَافِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
سُبْحَانَهُ . . .

(التدبير على بركة الله) خَذِ الْحَجَرَ الْكَرِيمَ فَأَوْدَعَهُ الْقُرْعَةَ وَالْإِنْبِيقَ وَفَصَّلَ
طَبَائِعَهُ الْأَرْبَعَ الَّتِي هِيَ النَّارُ وَالْهَوَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَهِيَ الْجَسَدُ وَالصَّنْغُ فَإِذَا
عَزَلْتَ الْمَاءَ عَنِ التُّرَابِ وَالْهَوَاءَ عَنِ النَّارِ فَارْفَعْ كُلَّ وَاحِدٍ فِي إِنَائِهِ عَلَى حِدَةٍ وَخُذِ
الْهَابِطَ أَسْفَلَ الْإِنَاءِ وَهُوَ الثُّفْلُ^(١) فَاعْسِلْهُ بِالنَّارِ الْحَارَّةِ حَتَّى تَذْهَبَ النَّارُ عَنْهُ
سَوَادُهُ وَيَزُولَ غِلْظُهُ وَجَفَاؤُهُ وَيَبْيَضُ تَبْيِيضًا مُحْكَمًا وَطَيِّرْ عَنْهُ فَضُولَ الرُّطُوبَاتِ
الْمُسْتَحِجَّةِ فِيهِ فَإِنَّهُ يَصِيرُ عِنْدَ ذَلِكَ مَاءً أَبْيَضَ لَا ظِلْمَةَ فِيهِ وَلَا وَسَخَ وَلَا تَضَادَ . ثُمَّ
اغْمِذْ إِلَى تِلْكَ الطَّبَائِعِ الْأُولَى الصَّاعِدَةِ مِنْهُ فَطَهِّرْهَا أَيْضًا مِنَ الْبُؤَادِ وَالتَّضَادِ وَكَرِّرْ
عَلَيْهَا الْغَسْلَ وَالتَّضْعِيدَ حَتَّى تَلْطَفَ وَتَرَقَّ وَتَضَفُّو . فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ
عَلَيْكَ قَابِدًا بِالتَّرْكِيكِ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ الْعَمَلِ . وَذَلِكَ أَنَّ التَّرْكِيكَ لَا يَكُونُ إِلَّا
بِالتَّزْوِيجِ وَالتَّعْفِينِ فَأَمَّا التَّزْوِيجُ فَهُوَ اخْتِلَاطُ اللَّطِيفِ بِالْغَلِيظِ وَأَمَّا التَّعْفِينُ فَهُوَ
الْتِمَاشِيَّةُ وَالسَّخْقُ حَتَّى يَخْتَلِطَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَصِيرَ شَيْئًا وَاحِدًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ
وَلَا تَقْصَانِ بِمَنْزِلَةِ الْإِمْتِزَاجِ بِالْمَاءِ . فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقْوَى الْغَلِيظُ عَلَى إِمْسَاكِ اللَّطِيفِ
وَتَقْوَى الرُّوحُ عَلَى مَقَابِلَةِ النَّارِ وَتَضَبَّرُ عَلَيْهَا وَتَقْوَى النَّفْسُ عَلَى الْغَوْصِ فِي الْأَجْسَادِ
وَالذَّبِيبِ فِيهَا . وَإِنَّمَا وَجَدَ ذَلِكَ بَعْدَ التَّرْكِيكِ لِأَنَّ الْجَسَدَ الْمَخْلُولَ لَمَّا اَزْدَوَجَ
بِالرُّوحِ مَا زَجَهُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَدَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ لَتَشَاكُلَهَا فَصَارَ شَيْئًا وَاحِدًا

(١) الثفل : ما يستقر في أسفل الشيء من كدرة (القاموس) .

وَوَجَبَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَغْرَضَ لِلرُّوحِ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ وَالْبَقَاءِ وَالشُّبُوتِ وَمَا
يَغْرَضُ لِلْجَسَدِ لِمَوْضِعِ الْإِمْتِزَاجِ . وَكَذَلِكَ النَّفْسُ إِذَا امْتَزَجَتْ بِهِمَا وَدَخَلَتْ فِيهِمَا
بِخِدْمَةِ التَّذْيِيرِ اخْتَلَطَتْ أَجْزَاؤُهَا بِجَمِيعِ أَجْزَاءِ الْآخَرِينَ أَغْيَبِي الرُّوحَ وَالْجَسَدَ
وَصَارَتْ هِيَ وَهَمَا شَيْئًا وَاحِدًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْجُزْءِ الْكُلِّيِّ الَّذِي سَلِمَتْ
طَبَائِعُهُ وَاتَّفَقَتْ أَجْزَاؤُهُ فَإِذَا أُلْقِيَ هَذَا الْمُرَكَّبُ الْجَسَدَ الْمَخْلُولَ وَالْحُجَّ عَلَيْهِ النَّارُ
وَأُظْهِرَ مَا فِيهِ مِنَ الرُّطُوبَةِ عَلَى وَجْهِهِ ذَابَ فِي الْجَسَدِ الْمَخْلُولِ . وَمِنْ شَأْنِ
الرُّطُوبَةِ الْإِسْتِعَالَ وَتَعَلَّقَ النَّارُ بِهَا فَإِذَا أَرَادَتْ النَّارُ التَّعَلُّقَ بِهَا مَنَعَهَا مِنَ الْإِتِّحَادِ
بِالنَّفْسِ مُمَازَجَةً الْمَاءِ لَهَا . فَإِنَّ النَّارَ لَا تَتَّحِدُ بِالذَّهْنِ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا .
وَكَذَلِكَ الْمَاءُ مِنْ شَأْنِهِ النُّفُورُ مِنَ النَّارِ . فَإِذَا أُلْحَتْ عَلَيْهِ النَّارُ وَأَرَادَتْ تَطْيِيرَهُ
حَبَسَهُ الْجَسَدُ الْيَاسِسُ الْمُمَازِجُ لَهُ فِي جَوْفِهِ فَمَنَعَهُ مِنَ الطَّيْرَانِ فَكَانَ الْجَسَدُ عِلَّةً
لِامْسَاكِ الْمَاءِ وَالْمَاءُ عِلَّةً لِبَقَاءِ الذَّهْنِ وَالذَّهْنُ عِلَّةً لِثَبَاتِ الصَّنِيعِ وَالصَّنِيعُ عِلَّةً لِظُهُورِ
الذَّهْنِ وَأُظْهِرَ الدَّهْنِيَّةُ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُظْلِمَةِ الَّتِي لَا نُورَ لَهَا وَلَا حَيَاةَ فِيهَا . فَهَذَا هُوَ
الْجَسَدُ الْمُسْتَقِيمُ وَهَكَذَا يَكُونُ الْعَمَلُ . وَهَذِهِ التَّضْفِيفَةُ الَّتِي سَأَلْتُ عَنْهَا وَهِيَ الَّتِي
سَمَّيْتُهَا الْحُكْمَاءُ بَيِّنَةً وَإِيَّاهَا يَفْنُونَ لَا بَيِّنَةَ الدُّجَاجِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْحُكْمَاءَ لَمْ تَسْمَعْهَا
بِهَذَا الْإِسْمِ لِغَيْرِ مَعْنَى بَلْ أَشْبَهْتُهَا . وَلَقَدْ سَأَلْتُ مُسَلِّمَةً عَنْ ذَلِكَ يَوْمًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ
غَيْرِي فَقُلْتُ لَهُ ، أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ أَخْبِرْنِي لِأَيِّ شَيْءٍ سَمِيتَ الْحُكْمَاءَ مُرَكَّبَ
الْحَيَوَانِ بَيِّنَةً ؟ اخْتِيَارًا مِنْهُمْ لِذَلِكَ أَمْ لِمَعْنَى دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ؟ فَقَالَ ، بَلْ لِمَعْنَى
غَامِضٍ فَقُلْتُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ وَمَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُنْفَعَةِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى
الصَّنَاعَةِ حَتَّى شَبَّهُوهَا وَسَمَوْهَا بَيِّنَةً ؟ فَقَالَ ، لِشَبَّهَهَا وَقَرَأَيْتَهَا مِنَ الْمُرَكَّبِ فَفَكَّرْتُ
فِيهِ فَإِنَّهُ سَيُظْهِرُ لَكَ مَعْنَاهُ . فَتَقَيُّتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مُفَكَّرًا لَا أَقْدِرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى
مَعْنَاهُ . فَلَمَّا رَأَى مَا بِي مِنَ الْفِكْرِ وَأَنَّ نَفْسِي قَدْ مَضَتْ فِيهَا أَخَذَ بِعَضْدِي وَهَزَّنِي
هَزَّةً خَفِيفَةً وَقَالَ لِي ، يَا أَبَا بَكْرٍ ذَلِكَ لِلنَّسَبَةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا فِي كَمِيَّةِ الْأَلْوَانِ عِنْدَ
إِمْتِزَاجِ الطَّبَائِعِ وَتَأْلِيفِهَا . فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ انْجَلَتْ عَنِّي الظُّلْمَةُ وَأَضَاءَ لِي نُورُ قَلْبِي

وَقَوِيَّ عَقْلِي عَلَى فَهْمِهِ فَتَهَضَّتْ شَاكِرًا اللَّهُ عَلَيْهِ إِلَى مَنْزِلِي وَأَقَمْتُ عَلَى ذَلِكَ شَكْلًا
هَنْدَسِيًّا يُبْرَهُنُ بِهِ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ مُسَلَّمَةٌ . وَأَنَا وَاضِعُهُ لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ .
مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرَكَّبَ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ كَانَ نِسْبَةُ مَا فِيهِ مِنَ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ إِلَى مَا فِي
الْبَيْضَةِ مِنَ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ كُنْشِيَّةً مَا فِي الْمُرَكَّبِ مِنَ طَبِيعَةِ النَّارِ إِلَى مَا فِي الْبَيْضَةِ مِنَ
طَبِيعَةِ النَّارِ . وَكَذَلِكَ الطَّبِيعَتَانِ الْآخَرَتَانِ ، الْأَرْضُ وَالْمَاءُ فَأَقُولُ ، إِنَّ كُلَّ شَيْئَيْنِ
مُتَنَاسِبَيْنِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ هُمَا مُتَشَابِهَانِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ تَجْعَلَ لِسَطْحِ الْبَيْضَةِ
هَزُوحٌ فَإِذَا أَرَدْنَا ذَلِكَ فَإِنَّا نَأْخُذُ أَقْلَ طَبَائِعِ الْمُرَكَّبِ وَهِيَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ وَنُضِيفُ
إِلَيْهَا مِثْلَهَا مِنَ طَبِيعَةِ الرُّطُوبَةِ وَنُدَبِّرُهُمَا حَتَّى تَنْشَفَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ طَبِيعَةُ
الرُّطُوبَةِ وَتَقْبَلَ قُوَّتَهَا . وَكَانَ فِي هَذَا الْكَلَامِ رَمْزًا وَلَكِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ . ثُمَّ تَحْمِلُ
عَلَيْهِمَا جَمِيعًا مِثْلَيْهِمَا مِنَ الرُّوحِ وَهُوَ الْمَاءُ فَيَكُونُ الْجَمِيعُ سِتَّةً أَمْثَالٍ . ثُمَّ تَحْمِلُ
عَلَى الْجَمِيعِ بَعْدَ التَّدْبِيرِ مِثْلًا مِنَ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ الَّتِي هِيَ النَّفْسُ وَذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَجْزَاءٍ
فَيَكُونُ الْجَمِيعُ تِسْعَةً أَمْثَالٍ الْيُبُوسَةِ بِالْقُوَّةِ . وَتَجْعَلُ تَحْتَ كُلِّ ضَلْعَيْنِ مِنَ الْمُرَكَّبِ
الَّذِي طَبِيعَتُهُ مُحِيطَةٌ بِسَطْحِ الْمُرَكَّبِ طَبِيعَتَيْنِ فَتَجْعَلُ أَوَّلًا الضِّلْعَيْنِ الْمُحِيطَيْنِ
بِسَطْحِهِ طَبِيعَةَ الْمَاءِ وَطَبِيعَةَ الْهَوَاءِ وَهُمَا ضِلْعَانِ (ا ح د) وَسَطْحُ (ا ب ج د) وَكَذَلِكَ
الضِّلْعَانِ الْمُحِيطَانِ بِسَطْحِ الْبَيْضَةِ اللَّذَانِ هُمَا الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ ضِلْعَانِ (ه ز و ح) فَأَقُولُ
إِنَّ سَطْحَ (ا ب ج د) يُشَبِّهُ سَطْحَ (ه ز و ح) طَبِيعَةُ الْهَوَاءِ الَّتِي تَسْمَى نَفْسًا وَكَذَلِكَ
(ب ج د) مِنْ سَطْحِ الْمُرَكَّبِ . وَالْحُكَمَاءُ لَمْ تَسَمَّ شَيْئًا بِاسْمِ شَيْءٍ إِلَّا لِشَبْهِهِ بِهِ .
وَالْكَلِمَاتُ الَّتِي سَأَلْتُ عَنْ شَرْحِهَا الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ وَهِيَ الْمُنْعَقِدَةُ مِنَ الطَّبَائِعِ
الْعُلُويَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ . وَالنُّحَاسُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ سَوَادَهُ وَقَطَعَ حَتَّى صَارَ هَبَاءً ثُمَّ حَمَرَ
بِالزَّاجِ حَتَّى صَارَ نُحَاسِيًّا وَالْمَغْنِيسِيَّا حَجَرُهُمُ الَّذِي تَجَمَّدُ فِيهِ الْأَرْوَاحُ وَتُخْرِجُهُ
الطَّبِيعَةُ الْعُلُويَّةُ الَّتِي تَسْتَحِينَ فِيهَا الْأَرْوَاحُ لِتَقَابُلِ عَلَيْهَا النَّارَ وَالْفَرْقَرَةُ لَوْنٌ أَحْمَرُ
قَانٍ يُخَيِّدُهُ الْكَيَانُ . وَالرُّصَاصُ حَجَرٌ لَهُ ثَلَاثُ قُوَى مُخْتَلِفَةٌ الشُّخُوصِ وَلَكِنَّهَا
مُتَشَاكِِلَةٌ وَمُتَجَانِسَةٌ . فَالْوَاحِدَةُ رُوحَانِيَّةٌ نَيِّرَةٌ صَافِيَةٌ وَهِيَ الْفَاعِلَةُ وَالثَّانِيَّةُ نَفْسَانِيَّةٌ

وَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ حَسَّاسَةٌ غَيْرَ أَنَّهَا أَغْلَظُ مِنَ الْأُولَى وَمَرْكَزُهَا دُونَ مَرْكَزِ الْأُولَى وَالثَّالِثَةُ قُوَّةُ أَرْضِيَّةٍ حَاسَّةٍ قَابِضَةٌ مُنْعَكِسَةٌ إِلَى مَرْكَزِ الْأَرْضِ لِثِقَلِهَا وَهِيَ الْمَاسِكَةُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالنَّفْسَانِيَّةُ جَمِيعاً وَالْمُحِيطَةُ بِهِمَا . وَأَمَّا سَائِرُ الْبَاقِيَةِ فَمُبْتَدَعَةٌ وَمُخْتَرَعَةٌ ، الْبَاسَا عَلَى الْجَاهِلِ ، وَمَنْ عَرَفَ الْمُقَدَّمَاتِ اسْتَغْنَى عَنْ غَيْرِهَا . فَهَذَا جَمِيعُ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ وَقَدْ بَعَثْتُ بِهِ إِلَيْكَ مُفَسِّراً وَنَزَّجُو بِتَوْفِيقِ اللَّهِ أَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ وَالسَّلَامَ . انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ بَشْرُونَ وَهُوَ مِنْ كِبَارِ تَلَامِيذِ مُسْلِمَةِ الْمَجْرِيطِيِّ شَيْخِ الْأَنْدَلُسِ فِي عُلُومِ الْكِيمِيَاءِ وَالسِّيْمِيَاءِ وَالسَّحَرِ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ وَمَا بَعْدَهُ . وَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ صَرَفَ الْفَاضِلُ كُلُّهَا فِي الصَّنَاعَةِ إِلَى الرُّمُزِ وَالْأَلْفَاظِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَبِينُ وَلَا تُعْرَفُ وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِصِنَاعَةٍ طَبِيعِيَّةٍ . وَالَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ فِي أَمْرِ الْكِيمِيَاءِ وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَفْعُضُهُ الْوَاقِعُ أَنَّهَا مِنْ جِنْسِ آثَارِ النُّفُوسِ الرُّوحَانِيَّةِ وَتَصَرُّفِهَا فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ ، إِمَّا مِنْ نَوْعِ الْكِرَامَةِ إِنْ كَانَتِ النُّفُوسُ خَيْرَةً أَوْ مِنْ نَوْعِ السَّحَرِ إِنْ كَانَتِ النُّفُوسُ شَرِّيرَةً فَاجِرَةً . فَأَمَّا الْكِرَامَةُ فَظَاهِرَةٌ وَأَمَّا السَّحَرُ فَلَا السَّاحِرَ كَمَا ثَبَتَ فِي مَكَانٍ تَحْقِيقِهِ يَقْلِبُ الْأَعْيَانِ الْمَادِّيَّةَ بِقُوَّتِهِ السَّحَرِيَّةِ . وَلَا بُدَّ لَهُ مَعَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَادَّةٍ يَقَعُ فِعْلُهُ السَّحَرِيُّ فِيهَا كَتَخْلِيْقِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ مَادَّةِ التُّرَابِ أَوْ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ وَبِالْجُفْلَةِ مِنْ غَيْرِ مَا ذُكِرَ الْمَخْصُوصَةِ بِهَا ، كَمَا وَقَعَ لِسَحَرَةِ فِرْعَوْنَ فِي الْجِبَالِ وَالْعِصِيِّ وَكَمَا يُنْقَلُ عَنْ سَحَرَةِ السُّودَانِ وَالْهِنُودِ فِي قَاصِيَةِ الْجَنُوبِ وَالتُّرْكِ فِي قَاصِيَةِ الشَّمَالِ أَنَّهُمْ يَسْحَرُونَ الْجَوْلَ لِلْأَمْطَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ تَخْلِيقاً لِلذَّهَبِ فِي غَيْرِ مَا ذُكِرَ الْخَاصَّةُ بِهِ كَانَ مِنْ قَبِيلِ السَّحَرِ وَالْمُتَكَلِّمُونَ فِيهِ مِنْ أَعْلَامِ الْحُكَمَاءِ مِثْلُ جَابِرٍ وَمُسْلِمَةَ . وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ حُكَمَاءِ الْأُمَمِ إِنَّمَا نَحْوُوا هَذَا الْمَنْحَى وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِيهِ أَلْفَاظاً حَذَرَا عَلَيْهَا مِنْ إِنْكَارِ الشَّرَائِعِ عَلَى السَّحَرِ وَأَنْوَاعِهِ لَا أَنَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الضَّنَانَةِ بِهَا كَمَا هُوَ رَأْيُ مَنْ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ . وَانْظُرْ كَيْفَ سَمَّى مُسْلِمَةُ كِتَابَهُ فِيهَا رُتْبَةَ الْحَكِيمِ وَسَمَّى كِتَابَهُ فِي السَّحَرِ وَالطَّلَسْمَاتِ غَايَةَ الْحَكِيمِ إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ مَوْضُوعِ الْغَايَةِ وَخُصُوصِ مَوْضُوعِ هَذِهِ

لأن الغاية أعلى من الرتبة فكان مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات . ومن كلامه في الفئتين يتبين ما قلناه ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية . والله العليم الخبير .

الفصل الحادي والثلاثون

في ابطال الفلسفة وفساد منتعلها

هذا الفصل وما بعده مهم لأن هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن . وضرتها في الدين كثير فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها . وذلك أن قوما من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك أدواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأفيسية العقلية وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فإنها بعض من مدارك العقل . وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليوناني محب الحكمة . فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على إصاية الفرض منه ووضعوا قانوناً يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطقي . ومحصل ذلك أن النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل إنما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية فيجرد منها أولاً صوراً منطبقة على جميع الأشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين أو شمع . وهذه مجردة من المحسوسات تسمى المقولات الأوائل . ثم تجرد من تلك المعاني الكلية إذا كانت مشتركة مع معانٍ أخرى وقد تميزت عنها في الذهن فتجرد منها معانٍ أخرى وهي التي اشتركت بها . ثم تجرد ثانياً إن شاركها غيرها وثالثاً إلى أن ينتهي التجريد إلى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني والأشخاص ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الأجناس العالية . وهذه

الْمَجْرَدَاتُ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ الْمَحْسُوسَاتِ هِيَ مِنْ حَيْثُ تَأْلِيْفُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ
 لِتَخْصِيْلِ الْعُلُومِ مِنْهَا تُسَمَّى الْمَفْقُولَاتِ الثَّوَانِي . فَإِذَا نَظَرَ الْفِكْرُ فِي هَذِهِ الْمَفْقُولَاتِ
 الْمَجْرَدَةِ وَطَلَبَ تَصَوُّرَ الْوُجُودِ . كَمَا هُوَ فَلَا بُدَّ لِلذَّهْنِ مِنْ إِضَافَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ
 وَنَفْيِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ الْيَقِيْنِيِّ لِيُخْصَلَ تَصَوُّرُ الْوُجُودِ تَصَوُّراً
 صَحِيحاً مُطَابِقاً إِذَا كَانَ ذَلِكَ بِقَانُونٍ صَحِيحٍ كَمَا مَرَّ . وَصِنْتُ التَّضْدِيقَ الَّذِي هُوَ
 تِلْكَ الْإِضَافَةُ وَالْحُكْمُ مُتَقَدِّمٌ عِنْدَهُمْ عَلَى صِنْفِ التَّصَوُّرِ فِي النَّهَايَةِ وَالتَّصَوُّرُ مُتَقَدِّمٌ
 عَلَيْهِ فِي الْبِدَاةِ وَالتَّغْلِيْمِ لِأَنَّ التَّصَوُّرَ التَّامَّ عِنْدَهُمْ هُوَ غَايَةُ الطَّلَبِ الْإِذْرَاقِيِّ وَإِنَّمَا
 التَّضْدِيقُ وَسِيلَةٌ لَهُ وَمَا تَسْمَعُهُ فِي كُتُبِ الْمُنْطَقِيِّينَ مِنْ تَقَدُّمِ التَّصَوُّرِ وَتَوَقُّفِ
 التَّضْدِيقِ عَلَيْهِ فَيَمَعْنِي الشُّعُورُ لَا يَمَعْنِي الْعِلْمُ التَّامُّ وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ كَثِيرِهِمْ
 أَرْسَطُو ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِذْرَاقِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مَا فِي الْحِسِّ وَمَا وَرَاءَ
 الْحِسِّ بِهَذَا النِّظَرِ وَتِلْكَ الْبِرَاهِينُ . وَخَاصِلُ مَذَارِكِهِمْ فِي الْوُجُودِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَمَا
 آتَى إِلَيْهِ وَهُوَ الَّذِي فَرَعُوا عَلَيْهِ قَضَايَا أَنْظَارِهِمْ أَنَّهُمْ عَشَرُوا أَوَّلًا عَلَى الْجِسْمِ السُّفْلِيِّ
 بِحُكْمِ الشُّهُودِ وَالْحِسِّ ثُمَّ تَرَقَّى إِذْرَاقُهُمْ قَلِيلاً فَشَعُرُوا بِوُجُودِ النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ
 الْحَرَكَةِ وَالْحِسِّ فِي الْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ أَحْسَوْا مِنْ قُوَى النَّفْسِ بِسُلْطَانِ الْعَقْلِ . وَوَقَّفَ
 إِذْرَاقُهُمْ فَقَضَوْا عَلَى الْجِسْمِ الْعَالِيِّ السَّمَائِيِّ بِنُحُومٍ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى أَمْرِ الذَّاتِ
 الْإِنْسَانِيَّةِ . وَوَجَبَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ لِلْفَلَكَ نَفْسٌ وَعَقْلٌ كَمَا لِلْإِنْسَانِ ثُمَّ أَنَّهُوَ ذَلِكَ
 نِهَايَةُ عَدَدِ الْأَحَادِ وَهِيَ الْعَشْرُ . تَسَعُ مَفْصَلَةٌ ذَوَاتُهَا جَمَلٌ وَوَاحِدٌ أَوَّلٌ مُفْرَدٌ وَهُوَ
 الْعَاشِرُ . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِذْرَاقِ الْوُجُودِ عَلَى هَذَا النُّحُوِّ مِنَ الْقَضَاءِ مَعَ
 تَهْذِيبِ النَّفْسِ وَتَخْلُقِهَا بِالْفَضَائِلِ وَأَنَّ ذَلِكَ مُمَكِّنٌ لِلْإِنْسَانِ وَلَوْ لَمْ يَرِدْ شَرْعٌ
 لِتَمْيِيزِهِ بَيْنَ الْفَضِيلَةِ وَالرَّذِيلَةِ مِنَ الْأَفْعَالِ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ وَنَظَرِهِ وَمِيلِهِ إِلَى الْمَحْمُودِ
 مِنْهَا وَاجْتِنَابِهِ لِلْمَذْمُومِ بِفِطْرَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ لِلنَّفْسِ حَصَلَتْ لَهَا الْبَهْجَةُ
 وَاللَّذَّةُ وَأَنَّ الْجَهْلَ بِذَلِكَ هُوَ الشَّقَاءُ السَّرْمَدِيُّ وَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ مَعْنَى النِّعَمِ وَالْمَذَابِ
 فِي الْآخِرَةِ إِلَى خَبْطِ لَهُمْ فِي تَفَاصِيْلِ ذَلِكَ مَعْرُوفٍ فِي كَلِمَاتِهِمْ . وَإِنَّمَا هَذِهِ الْمَذَاهِبُ

الَّذِي حَصَلَ مَسَائِلُهَا وَدَوَّنَ عِلْمَهَا وَسَطَرَ حَجَجَهَا فِيمَا بَلَّغْنَا فِي هَذِهِ الْأَخْقَابِ هُوَ
أَرِسْطُو الْمَقْدُونِيُّ مِنْ أَهْلِ مَقْدُونِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ تَلَامِيذِ أَفْلَاطُونٍ وَهُوَ مُعَلِّمُ
الْإِسْكَانْدَرِ وَيُسَمُّوهُ الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ عَلَى الْإِطْلَاقِ يَغْنُونُ مُعَلِّمَ صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ إِذْ لَمْ
تَكُنْ قَبْلَهُ مَهْدَبَةٌ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَتَّبَ قَانُونَهَا وَاسْتَوْفَى مَسَائِلَهَا وَأَحْسَنَ بَسْطَهَا وَلَقَدْ
أَحْسَنَ فِي ذَلِكَ الْقَانُونِ مَا شَاءَ لَوْ تَكَفَّلَ لَهُ بِقَضَائِهِمْ فِي الْإِلَهِيَّاتِ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِهِ
فِي الْإِسْلَامِ مَنْ أَخَذَ بِتِلْكَ الْمَذَاهِبِ وَاتَّبَعَ فِيهَا رَأْيَهُ خَذَوُ النَّغْلِ بِالنَّغْلِ إِلَّا فِي
الْقَلِيلِ . وَذَلِكَ أَنَّ كُتِبَ أَوْلَيْكَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَمَّا تَرَجَمَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ
اللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ إِلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ تَصَفَّحَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمَةِ وَأَخَذَ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ
مَنْ أَضْلَعَهُ اللَّهُ مِنْ مُنْتَحَلِي الْعُلُومِ وَجَاءُوا غَنَّا وَاخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلَ مِنْ تَفَارِيْعِهَا
وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ أَبُو نَصْرِ الْفَارَابِيُّ فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ لِعَهْدِ سَيِّفِ الدَّوْلَةِ وَأَبُو
عَلِيٍّ بْنُ سِينَا فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ لِعَهْدِ نِظَامِ الْمُلْكِ مِنْ بَنِي بُيُوتِهِ بِأَصْبَهَانَ
وغيرَهُمَا . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الرَّأْيَ الَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ بِاطِلَ بِجَمِيعِ وُجُوهِهِ . فَأَمَّا
إِسْنَادُهُمُ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِلَى الْعَقْلِ الْأَوَّلِ وَاكْتِفَاؤُهُمْ بِهِ فِي التَّرْقِيِ إِلَى الْوَاجِبِ فَهُوَ
قُصُورٌ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ رَتَّبَ خَلْقَ اللَّهِ فَالْوُجُودَ أَوْسَعُ نِطَاقًا مِنْ ذَلِكَ « وَيَخْلُقُ
مَا لَا تَعْلَمُونَ » وَكَأَنَّهُمْ فِي اقْتِصَارِهِمْ عَلَى اثْبَاتِ الْعَقْلِ فَقَطْ وَالْغَفْلَةِ عَمَّا وَرَاءَهُ بِمَثَابَةِ
الطَّبِيعِيِّينَ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى اثْبَاتِ الْأَجْسَامِ خَاصَّةً الْمُفْرَضِينَ عَنْ النُّقْلِ وَالْعَقْلِ
الْمُفْتَقِدِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ الْجِسْمِ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ شَيْءٌ . وَأَمَّا الْبَرَاهِينُ الَّتِي يَزْعُمُونَهَا
عَلَى مُدْعِيَاتِهِمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ وَيَعْرِضُونَهَا عَلَى مِغْيَارِ الْمَنْطِقِ وَقَانُونِهِ فِيهِ قَاصِرَةٌ
وغيرُ وَافِيَةٍ بِالْغَرَضِ . أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَيُسَمُّوهُ الْعِلْمَ
الطَّبِيعِيِّ فَوَجْهُ قُصُورِهِ أَنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ تِلْكَ النَّتَائِجِ الذَّهْنِيَّةِ الَّتِي تُسْتَخْرَجُ
بِالْحُدُودِ وَالْأَفْسِسَةِ كَمَا فِي زَعْمِهِمْ وَبَيْنَ مَا فِي الْخَارِجِ غَيْرِ يَقِينِيٍّ لِأَنَّ تِلْكَ أَحْكَامَ
ذَهْنِيَّةٍ كَلِيَّةٍ غَامَّةٍ وَالْمَوْجُودَاتُ الْخَارِجِيَّةُ مُتَشَخَّصَةٌ بِمَوَادِّهَا . وَلَقَدْ فِي الْمَوَادِّ
مَا يَمْنَعُ مُطَابَقَةَ الذَّهْنِيِّ الْكُلِّيِّ لِلْخَارِجِيِّ الشَّخْصِيِّ اللَّهُمَّ إِلَّا مَا لَا يَشْهَدُ لَهُ الْحِسُّ

مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلُهُ شُهُودُهُ لَا تِلْكَ الْبَرَاهِينُ فَأَيْنَ الْيَقِينُ الَّذِي يَجِدُونَهُ فِيهَا ؟ وَرُبَّمَا
 يَكُونُ تَصَرُّفُ الذَّهْنِ أَيْضاً فِي الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلِ الْمُطَابَقَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ بِالصُّوَرِ
 الْخَيَالِيَّةِ لَا فِي الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِي الَّتِي تَجْرِيدُهَا فِي الرُّتْبَةِ الثَّانِيَةِ فَيَكُونُ الْحُكْمُ
 حِينَئِذٍ يَقِينِيًّا بِمَثَابَةِ الْمُخْشُوسَاتِ إِذِ الْمَعْقُولَاتُ الْأَوَّلُ أَقْرَبُ إِلَى مُطَابَقَةِ الْخَارِجِ
 لِكَمَالِ الْإِنْطِبَاقِ فِيهَا فَتُسَلِّمُ لَهُمْ حِينَئِذٍ دَعَاوِيهِمْ فِي ذَلِكَ . إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا
 الْإِعْرَاضُ عَنِ النَّظَرِ فِيهَا إِذْ هُوَ مِنْ تَرْكِ الْمُسْلِمِ لِمَا لَا يَغْنِيهِ فَإِنَّ مَسَائِلَ الطَّبِيعِيَّاتِ
 لَا تَهْتَمُّنَا فِي دِينِنَا وَلَا مَعَاشِنَا فَوَجِبَ عَلَيْنَا تَرْكُهَا . وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ
 الَّتِي وَرَاءَ الْحِسِّ وَهِيَ الرُّوحَانِيَّاتُ وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ وَعَلِمَ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ
 فَإِنَّ ذَوَاتَهَا مَجْهُولَةٌ رَأْسًا وَلَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَيْهَا وَلَا الْبُرْهَانُ عَلَيْهَا لِأَنَّ تَجْرِيدَ
 الْمَعْقُولَاتِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ مُمَكِّنٌ فِيمَا هُوَ مُذْرَكٌ لَنَا .
 وَنَحْنُ لَا نَذْرِكُ الذَّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةَ حَتَّى نُجَرِّدَ مِنْهَا مَا هِيَ بِأُخْرَى بِحِجَابِ الْحِسِّ
 بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا فَلَا يَتَأْتِي لَنَا بُرْهَانٌ عَلَيْهَا وَلَا مُذْرِكٌ لَنَا فِي إِثْبَاتِ وُجُودِهَا عَلَى
 الْجُمْلَةِ إِلَّا مَا نَحْدُهُ بَيْنَ جَنْبَيْنَا مِنْ أَمْرِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَحْوَالِ مَذَارِكِهَا
 وَخُصُوصاً فِي الرُّؤْيَا الَّتِي هِيَ وَجْدَانِيَّةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ حَقِيقَتِهَا
 وَصِفَاتِهَا فَأَمْرٌ غَامِضٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ . وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَقِّقُوهُمْ حَيْثُ
 ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مَا لَا مَادَّةَ لَهُ لَا يُمْكِنُ الْبُرْهَانُ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُقَدِّمَاتِ الْبُرْهَانِ مِنْ شَرْطِهَا
 أَنْ تَكُونَ ذَاتِيَّةً . وَقَالَ كَبِيرُهُمْ أَفْلَاطُونُ : إِنَّ الْإِلَهِيَّاتِ لَا يُوَصَّلُ فِيهَا إِلَى أَيْنَيْنِ ^(١)
 وَإِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا بِالْأَخْلَقِ ^(٢) وَالْأَوَّلَى يَغْنِي الظَّنَّ ، وَإِذَا كُنَّا إِنَّمَا نَحْصُلُ بَعْدَ التَّعَبِ
 وَالنَّصَبِ عَلَى الظَّنِّ فَقَطُّ فَيَكْفِينَا الظَّنُّ الَّذِي كَانَ -أَوَّلًا- فَأَيُّ فَائِدَةٍ لِهَذِهِ الْعُلُومِ
 وَالِإشْتِغَالِ بِهَا وَنَحْنُ إِنَّمَا عِنَايَتُنَا بِتَحْصِيلِ الْيَقِينِ فِيمَا وَرَاءَ الْحِسِّ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ
 وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ الْأَفْكَارِ الْإِنْسَانِيَّةِ عِنْدَهُمْ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ

(١) وفي نسخة أخرى : يقين .

(٢) وفي نسخة أخرى : بالأحق .

الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ يَتْلَكَ الْبَرَاهِينُ فَقَوْلُ مُزَيْنٍ مَزْدُودٌ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ
 الْإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ جُزْءَيْنِ أَحَدُهُمَا جِسْمَانِيٌّ وَالْآخَرُ رُوحَانِيٌّ مُفْتَرَجٌ بِهِ وَلِكُلِّ
 وَاحِدٍ مِنَ الْجُزْءَيْنِ مَدَارِكٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ وَالْمَذْرُوكُ فِيهِمَا وَاحِدٌ وَهُوَ الْجُزْءُ الرُّوحَانِيُّ
 يُذْرِكُ تَارَةً مَدَارِكَ رُوحَانِيَّةً وَتَارَةً مَدَارِكَ جِسْمَانِيَّةً إِلَّا أَنَّ الْمَدَارِكَ الرُّوحَانِيَّةَ
 يُذْرِكُهَا بِذَاتِهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَالْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةَ بِوَاسِطَةِ آلَاتِ الْجِسْمِ مِنَ الدِّمَاغِ
 وَالْخَوَاسِ . وَكُلُّ مَذْرُوكٍ فَلَهُ ائْتِهَاجٌ بِمَا يُذْرِكُهُ . وَاعْتَبِرْهُ بِحَالِ الصَّبِيِّ فِي أَوَّلِ
 مَدَارِكِهِ الْجِسْمَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ بِوَاسِطَةِ كَيْفٍ يَنْتَهِجُ بِمَا يُبْصِرُهُ مِنَ الضُّوءِ وَبِمَا
 يَسْمَعُهُ مِنَ الْأَصْوَاتِ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْاِئْتِهَاجَ بِالْإِذْرَاكِ الَّذِي لِلنَّفْسِ مِنْ ذَاتِهَا بِغَيْرِ
 وَاسِطَةٍ يَكُونُ أَشَدَّ وَالَّذِ . فَالْنَّفْسُ الرُّوحَانِيَّةُ إِذَا شَعَرَتْ بِإِذْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا
 بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ حَصَلَ لَهَا ائْتِهَاجٌ وَلِذَلِكَ لَا يُعْبَرُ عَنْهُمَا وَهَذَا الْإِذْرَاكِ لَا يَخْصُلُ بِنَظَرٍ
 وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا يَخْصُلُ بِكَشْفِ حِجَابِ الْجِسْمِ وَنَسْيَانِ الْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةِ
 بِالْجُمْلَةِ . وَالْمَتَّصِفَةُ كَثِيرًا مَا يُغْنَوْنَ بِحُصُولِ هَذَا الْإِذْرَاكِ لِلنَّفْسِ بِحُصُولِ هَذِهِ
 الْبَهْجَةِ فَيُحَاوِلُونَ بِالرِّيَاضَةِ إِمَاتَةَ الْقُوَى الْجِسْمَانِيَّةِ وَمَدَارِكِهَا حَتَّى الْفِكْرِ مِنَ
 الدِّمَاغِ وَلِيَخْصُلَ لِلنَّفْسِ إِذْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا عِنْدَ زَوَالِ الشَّوَاغِبِ وَالْمَوَانِعِ
 الْجِسْمَانِيَّةِ يَخْصُلُ لَهُمْ بَهْجَةٌ وَلِذَلِكَ لَا يُعْبَرُ عَنْهُمَا . وَهَذَا الَّذِي زَعَمُوهُ بِتَقْدِيرِ
 صِحَّتِهِ مُسَلَّمٌ لَهُمْ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاقٍ بِمَقْصُودِهِمْ . فَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْبَرَاهِينَ وَالْأَدِلَّةَ
 الْعَقْلِيَّةَ مُحْصَلَةٌ لِهَذَا النُّوعِ مِنَ الْإِذْرَاكِ وَالْاِئْتِهَاجِ عَنْهُ فَبَاطِلٌ كَمَا رَأَيْتَهُ إِذِ الْبَرَاهِينَ
 وَالْأَدِلَّةَ مِنَ جُمْلَةِ الْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةِ لِأَنَّهَا بِالْقُوَى الدِّمَاغِيَّةِ مِنَ الْخَيَالِ وَالْفِكْرِ
 وَالذِّكْرِ . وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نَعْنَى بِهِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْإِذْرَاكِ إِمَاتَةُ هَذِهِ
 الْقُوَى الدِّمَاغِيَّةِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا مُنَازَعَةٌ لَهُ قَادِحَةٌ فِيهِ وَتَجِدُ الْمَاهِرَ مِنْهُمْ عَاكِفًا عَلَى كِتَابِ
 الشِّفَاءِ وَالْإِشَارَاتِ وَالنِّجَاءِ وَتَلَاخِيصِ ابْنِ رُشْدٍ لِلْقَصِّ مِنْ تَأْلِيلِ أَرِسْطُو وَغَيْرِهِ
 يُبَغِّضُ أَوْرَاقَهَا وَيَتَوَقَّقُ مِنْ بَرَاهِينِهَا وَيَلْتَمِسُ هَذَا الْقِسْطَ مِنَ السَّعَادَةِ فِيهَا وَلَا يَعْلَمُ
 أَنَّهُ يَسْتَكْبِرُ بِذَلِكَ مِنَ الْمَوَانِعِ عَنْهَا . وَمُسْتَنَدُهُمْ فِي ذَلِكَ مَا يَنْقُلُونَهُ عَنْ أَرِسْطُو

وَالْفَارِيقُ وَابْنُ سِينَا أَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ إِدْرَاكُ الْعَقْلِ الْفَعَالِ وَاتَّصَلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ فَقَدْ حَصَلَ حَظُّهُ مِنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ . وَالْعَقْلُ الْفَعَالُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ أَوَّلِ رُتْبَةٍ يَنْكَشِفُ عَنْهَا الْحِسُّ مِنْ رُتَبِ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَحْمِلُونَ الْإِتِّصَالَ بِالْعَقْلِ الْفَعَالِ عَلَى الْإِدْرَاكِ الْعِلْمِيِّ وَقَدْ رَأَيْتَ فَسَادَهُ وَإِنَّمَا يَعْنِي أَرْسَطُو وَأَصْحَابُهُ بِذَلِكَ الْإِتِّصَالَ وَالْإِدْرَاكِ إِدْرَاكُ النَّفْسِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَيَغْيِرُ وَاسِطَةً وَهُوَ لَا يَخْصُلُ إِلَّا بِكَشْفِ حِجَابِ الْحِسِّ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْبَهْجَةَ النَّاشِئَةَ عَنْ هَذَا الْإِدْرَاكِ هِيَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا فَبَاطِلٌ أَيْضاً لَأَنَّا إِنَّمَا تَبَيَّنَ لَنَا بِمَا قَرَّرُوهُ أَنَّ وَرَاءَ الْحِسِّ مُدْرِكاً آخَرَ لِلنَّفْسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَأَنَّهَا تَبْتَهِجُ بِإِدْرَاكِهَا ذَلِكَ ابْتِهَاجاً شَدِيداً وَذَلِكَ لَا يَعْينُ لَنَا أَنَّهُ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْآخَرَوِيَّةِ وَلَا بُدَّ بَلْ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَلَذَّاتِ الَّتِي لِتِلْكَ السَّعَادَةِ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَقَوْلٌ بَاطِلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا كُنَّا قَدْ مَنَّا فِي أَصْلِ التَّوْحِيدِ مِنَ الْأَوْهَامِ وَالْأَغْلَاطِ فِي أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ مُنْخَصِرٌ فِي مَدَارِكِهِ وَبَيَّنَّا فَسَادَ ذَلِكَ وَإِنَّ الْوُجُودَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ أَوْ يُسْتَوْفَى إِدْرَاكُهُ بِجُمْلَتِهِ رُوحَانِيًّا أَوْ جَسْمَانِيًّا . وَالَّذِي يَخْصُلُ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ أَنَّ الْجُزْءَ الرُّوحَانِيَّ إِذَا فَارَقَ الْقُوَى الْجَسْمَانِيَّةَ أَذْرَكَ إِدْرَاكاً ذَاتِيًّا لَهُ مُخْتَصِصاً بِصِنْفٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَهِيَ الْمَوْجُودَاتُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا عِلْمُنَا وَلَيْسَ بِعَامٍّ الْإِدْرَاكِ فِي الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِذْ لَمْ تَنْخَصِرْ وَأَنَّهُ يَبْتَهِجُ بِذَلِكَ النُّخُوضِ مِنَ الْإِدْرَاكِ ابْتِهَاجاً شَدِيداً كَمَا يَبْتَهِجُ الصَّبِيُّ بِمَدَارِكِهِ الْحِسِّيَّةِ فِي أَوَّلِ نَشْوَاهُ وَمَنْ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ بِإِدْرَاكِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ أَوْ بِحُصُولِ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدْنَا بِهَا الشَّارِعُ إِنْ لَمْ نَعْمَلْ لَهَا . هِيَئَاتِ هِيَئَاتِ لِمَا تُوْعَدُونَ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِتَهْدِيدِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِهَا بِمَلَائِسَةِ الْمُخْمُودِ مِنَ الْخَلْقِ وَمُجَانِيَةِ الْمَذْمُومِ فَأَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ ابْتِهَاجَ النَّفْسِ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا هُوَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا لِأَنَّ الرُّذَائِلَ عَائِقَةٌ لِلنَّفْسِ عَنْ تِمَامِ إِدْرَاكِهَا ذَلِكَ بِمَا يَخْصُلُ لَهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ الْجَسْمَانِيَّةِ وَالْوَانِيَا . وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَثَرَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ وَمِنْ وَرَاءِ الْإِدْرَاكَاتِ

الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ فَهَذَا التَّهْدِيْبُ الَّذِي تَوَصَّلُوا إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِنَّمَا نَفْعُهُ فِي الْبَهْجَةِ
 النَّاشِئَةِ عَنِ الْإِدْرَاكِ الرُّوحَانِيِّ فَقَطُّ الَّذِي هُوَ عَلَى مَقَايِسَ وَقَوَانِينَ . وَأَمَّا مَا وَرَاءَ
 ذَلِكَ مِنَ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدْنَا بِهَا الشَّارِعُ عَلَى امْتِثَالِ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ
 وَالْأَخْلَاقِ فَأَمْرٌ لَا يُحِيطُ بِهِ مَذَارِكُ الْمُدْرِكِينَ . وَقَدْ تَنَبَّهَ لِذَلِكَ زَعِيمُهُمْ أَبُو عَلِيٍّ
 ابْنُ سِينَا فَقَالَ فِي كِتَابِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ مَا مَعْنَاهُ : إِنَّ الْمَعَادَ الرُّوحَانِيَّ وَأَحْوَالَهُ هُوَ
 مِمَّا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمَقَايِسِ لِأَنَّهُ عَلَى نِسْبَةِ طَبِيعِيَّةٍ مَخْفُوظَةٍ
 وَوَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَنَا فِي الْبَرَاهِينِ عَلَيْهِ سَعَةٌ . وَأَمَّا الْمَعَادُ الْجِسْمَانِيُّ وَأَحْوَالُهُ فَلَا
 يُمْكِنُ إِدْرَاكُهُ بِالْبَرَهَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ وَقَدْ بَسَطْتُهُ لَنَا الشَّرِيعَةُ الْحَقَّةُ
 الْمُحَمَّدِيَّةُ فَلْيَنْظُرْ فِيهَا وَلْيَرْجِعْ فِي أَحْوَالِهِ إِلَيْهَا . فَهَذَا الْعِلْمُ كَمَا رَأَيْتَهُ غَيْرُ وَافٍ
 بِمَقَاصِدِهِمُ الَّتِي حَوَّمُوا عَلَيْهَا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ الشَّرَائِعِ وَظَوَاهِرِهَا . وَلَيْسَ لَهُ
 فِيمَا عَلَّمْنَا إِلَّا ثَمَرَةٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ شَخْذُ الذَّهْنِ فِي تَرْتِيبِ الْأَدِلَّةِ وَالْحُجَجِ لِتَحْصِيلِ
 مَلَكَةِ الْجُودَةِ وَالضُّوَابِ فِي الْبَرَاهِينِ . وَذَلِكَ أَنَّ نَظْمَ الْمَقَايِسِ وَتَرْكِيبَهَا عَلَى وَجْهِ
 الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ هُوَ كَمَا شَرَطُوهُ فِي صِنَاعَتِهِمُ الْمُنْطِيقِيَّةِ وَقَوْلُهُمْ بِذَلِكَ فِي عُلُومِهِمُ
 الطَّبِيعِيَّةِ وَهُمْ كَثِيرٌ مَا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي عُلُومِهِمُ الْحِكْمِيَّةِ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالتَّغَالِيمِ
 وَمَا بَعْدَهَا فَيَسْتَوْلِي النَّاطِرُ فِيهَا بِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِ الْبَرَاهِينِ بِشُرُوطِهَا عَلَى مَلَكَةِ
 الْإِتْقَانِ وَالضُّوَابِ فِي الْحُجَجِ وَالِاسْتِدْلَالَاتِ لِأَنَّهُا وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ وَافِيَةٍ بِمَقْصُودِهِمْ
 فَهِيَ أَصَحُّ مَا عَلَّمْنَاهُ مِنْ قَوَانِينِ الْأَنْظَارِ . هَذِهِ ثَمَرَةٌ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مَعَ الْإِطْلَاعِ عَلَى
 مَذَاهِبِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَرَائِهِمْ وَمَضَارِّهَا مَا عَلِمْتُ . فَلْيَكُنِ النَّاطِرُ فِيهَا مُتَحَرِّزًا جَهْدَهُ
 مَعَاطِبَهَا وَلْيَكُنْ نَظَرُ مَنْ يَنْظُرُ فِيهَا بَعْدَ الْإِمْتِلَاءِ مِنَ الشَّرْعِيَّاتِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى
 التَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ وَلَا يَكْبُنُ أَحَدٌ عَلَيْهَا وَهُوَ خُلُوٌّ مِنْ عُلُومِ الْعِلَّةِ فَقُلْ أَنْ يَسْلَمَ لِذَلِكَ مَنْ
 مَعَاطِبِهَا . وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ لِلضُّوَابِ وَلِلْحَقِّ وَالْهَادِي إِلَيْهِ . وَمَا كُنَّا لَنُتَهْدِيَ لَوْلَا أَنْ
 هَدَانَا اللَّهُ .

الفصل الثاني والثلاثون

في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصنعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومختمة فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية . فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقتصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن . وأذوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكررهُ إلى آحاد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم . وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤنة إبطاله . ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتأبيعهم من الخلق . وأما بطليمس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لأن فعل النيرين وأثرهما في العنصريات ظاهر لا يسع أحدا حجده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمرجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة وفواكه القناء^(١) وسائر أفعاله . ثم قال : ولنا فيما بعدها من الكواكب طريقان الأولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير مفتح للنفس والثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير

(١) فواكه القناء : فواكه الأشجار للغرسة في الحفر .

الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب
 عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف
 مضادته . ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال
 التثليث والتربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضاً إلى
 النير الأعظم . وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر .
 والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتتخلق به
 النطف والبز فتصير حالاً للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه
 المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال لأن كيفيات البزرة
 والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما . قال : وهو مع ذلك ظني وليس
 من اليقين في شيء وليس هو أيضاً من القضاء الإلهي يعني القدر إنما هو من جملة
 الأسباب الطبيعية للكائن والقضاء الإلهي سابق على كل شيء . هذا محصل كلام
 بطليموس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره . ومنه يتبين ضعف
 مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة
 أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما يتبين في موضعه . والقوى
 النجومية على ما قرروه إنما هي فاعلة فقط والجزء المنصري هو القابل ثم إن
 القوى النجومية ليست هي الفاعل بجمليتها بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في
 الجزء المادي مثل قوة التوليد للأب والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة التي
 تميز بها صنف من النوع وغير ذلك . فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل
 العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن . ثم إنه يشترط
 مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده الظن
 بوقوع الكائن . والحدس والتخمين قوى للنظر في فكره وليس من علل الكائن
 ولا من أصول الصناعة فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أذراجها عن الظن إلى
 الشك . هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا مغرور

لَمَا فِيهِ مِنْ مَعْرِفَةٍ حِسْبَانَاتِ الْكَوَاكِبِ فِي سَيْرِهَا لِتَتَعَرَّفَ بِهِ أَوْضَاعُهَا وَلَمَّا أَنَّ
اِخْتِصَاصَ كُلِّ كَوْكَبٍ بِقُوَّةٍ لَا ذَلِيلَ عَلَيْهِ . وَمَذْرُوكَ بَطْلِيمُسَ فِي إِثْبَاتِ الْقُوَى
لِلْكَوَاكِبِ الْخَمْسَةِ بِقِيَاسِهَا إِلَى الشَّمْسِ مُذْرَكٌ ضَعِيفٌ لِأَنَّ قُوَّةَ الشَّمْسِ غَالِبَةٌ لِجَمِيعِ
الْقُوَى مِنَ الْكَوَاكِبِ وَمُسْتَوَلِيَّةٌ عَلَيْهَا فَقُلْ أَنَّ يُشْعَرُ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا أَوْ النُّقْصَانِ مِنْهَا
عِنْدَ الْمُقَارَنَةِ كَمَا قَالَ وَهَيْدِهَ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تَغْرِيفِ الْكَائِنَاتِ الْوَاقِعَةِ فِي عَالَمِ
الْعُنَاصِرِ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ . ثُمَّ إِنَّ تَأْيِيرَ الْكَوَاكِبِ فِيمَا تَحْتَهَا بِاطِلَ إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ فِي
بَابِ التَّوْحِيدِ أَنَّ لَا فَاعِلَ إِلَّا اللَّهُ بِطَرِيقِ اسْتِدْلَالِيٍّ كَمَا رَأَيْتَهُ وَاحْتِجَ لَهُ أَهْلُ عِلْمِ
الْكَلَامِ بِمَا هُوَ غَيْبٌ عَنِ الْبَيَانِ مِنْ أَنَّ إِسْنَادَ الْأَسْبَابِ إِلَى الْمُسَبِّبَاتِ مَجْهُولُ الْكَيْفِيَّةِ
وَالْعَقْلُ مِنْهُمْ عَلَى مَا يُفَضَى بِهِ فِيمَا يَظْهَرُ بِأَدَى الرَّأْيِ مِنَ التَّأْيِيرِ فَلَعَلَّ اسْتِنَادَهَا
عَلَى غَيْرِ صُورَةِ التَّأْيِيرِ الْمُتَعَارِفِ . وَالْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ رَابِطَةٌ بَيْنَهُمَا كَمَا رَبَطْتُ جَمِيعَ
الْكَائِنَاتِ عُلُوًّا وَسُفْلًا سَيِّمًا وَالشَّرْعَ يَرُدُّ الْحَوَادِثَ كُلُّهَا إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَنْزِلُ بِمَا
سِوَى ذَلِكَ . وَالنُّبُوءَاتُ أَيْضًا مُنْكَرَةٌ لِشَأْنِ النُّجُومِ وَتَأْيِيرَاتِهَا . وَاسْتِقْرَاءُ الشَّرْعِيَّاتِ
شَاهِدٌ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ
وَفِي قَوْلِهِ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي . فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ
وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطَرْنَا بِنُوءِ كَذَا فَذَلِكَ
كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ الْخَدِيثِ الصَّحِيحِ . فَقَدْ بَانَ لَكَ بَطْلَانُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
مِنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ وَضَعْفُ مَذَارِكِهَا مَعَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ مَعَ مَا لَهَا مِنَ الْمَضَارِّ
فِي الْعُمَرَانِ الْإِنْسَانِيِّ بِمَا تَبَعَتْ مِنْ عَقَائِدِ الْعَوَامِّ مِنَ الْفَسَادِ إِذَا اتَّفَقَ الصَّدَقُ مِنْ
أَحْكَامِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ اتَّفَاقًا لَا يَرْجِعُ إِلَى تَغْلِيلٍ وَلَا تَحْقِيقٍ فَيُلْهَجُ بِذَلِكَ مَنْ
لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَيَظُنُّ اِطْرَادَ الصَّدَقِ فِي سَائِرِ أَحْكَامِهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ . فَيَقَعُ فِي رَدِّ
الْأَشْيَاءِ إِلَى غَيْرِ خَالِقِهَا . ثُمَّ مَا يَنْشَأُ عَنْهَا كَثِيرًا فِي الدُّوَلِ مِنْ تَوَقُّعِ الْقَوَاطِعِ وَمَا
يَنْبَعُ عَلَيْهِ ذَلِكَ التَّوَقُّعُ مِنْ تَطَاوُلِ الْأَعْدَاءِ وَالْمَرَبِّصِينَ بِالدُّوَلَةِ إِلَى الْفَتْكِ
وَالثَّوَرَةِ . وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا فَيَنْبَغِي أَنْ تُحْظَرَ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ

الْعُمَرَانِ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَضَارِّ فِي الدِّينِ وَالْدُّوَلِ ، وَلَا يَقْدَحُ فِي ذَلِكَ كَوْنُ
 وَجُودِهَا طَبِيعِيًّا لِلْبَشَرِ بِمُقْتَضَى مَدَارِكِهِمْ وَعُلُومِهِمْ . فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ طَبِيعَتَانِ
 مَوْجُودَتَانِ فِي الْعَالَمِ لَا يُمْكِنُ نَزْعُهُمَا وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ التَّكْلِيفُ بِأَسْبَابِ حُصُولِهِمَا
 فَيَتَعَيَّنُ السَّعْيُ فِي اكْتِسَابِ الْخَيْرِ بِأَسْبَابِهِ وَدَفْعِ أَسْبَابِ الشَّرِّ وَالْمَضَارِّ . هَذَا هُوَ
 الْوَاجِبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ مَقَاسِدَ هَذَا الْعِلْمِ وَمَضَارَّهُ . وَلْيَعْلَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ
 صَحِيحَةً فِي نَفْسِهَا فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ تَخْصِيلَ عِلْمِهَا وَلَا مَلَكَتَهَا بَلْ إِنْ
 نَظَرَ فِيهَا نَاطِرٌ وَظَنَّ الْإِخَاطَةَ بِهَا فَهُوَ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . فَإِنَّ
 الشَّرِيعَةَ لَمَّا حَظَرَتْ النَّظَرَ فِيهَا فَقَدْ إِيْجَتَمَعَ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانِ لِقِرَاءَتِهَا وَالتَّخْلِيْقِ
 لِتَعْلِيمِهَا وَصَارَ الْمَوْلَعُ بِهَا مِنَ النَّاسِ وَهُمْ الْأَقْلُ وَأَقْلُ مِنَ الْأَقْلِ إِنَّمَا يُطَالَعُ كُتُبُهَا
 وَمَقَالَاتُهَا فِي كِبَرِ بَيْنِهِ مُتَسَتِّرًا عَنِ النَّاسِ وَتَحْتَ رِبْقَةِ الْجُمْهُورِ مَعَ تَشَعُّبِ الصَّنَاعَةِ
 وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَاعْتِيَاصِهَا عَلَى الْفَهْمِ فَكَيْفَ يَخْصُلُ مِنْهَا عَلَى طَائِلٍ ؟ وَنَحْنُ نَجِدُ
 الْفِئَةِ الَّتِي عَمَّ نَفْعُهُ دِينًا وَدُنْيَا وَسَهَّلَتْ مَآخِذَهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَعَكَفَ الْجُمْهُورُ
 عَلَى قِرَاءَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ثُمَّ بَعْدَ التَّحْقِيقِ وَالتَّجْمِيعِ وَطُولِ الْمُدَارَسَةِ وَكَثْرَةِ الْمَجَالِسِ
 وَتَعَدُّدِهَا إِنَّمَا يَحْذَقُ فِيهِ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي الْأَعْصَارِ وَالْأَجْيَالِ . فَكَيْفَ يَعْلَمُ
 مَهْجُورٌ لِلشَّرِيعَةِ مَضْرُوبٌ دُونَهُ سُدُّ الْخَطَرِ وَالتَّخْرِيمُ مَكْتُومٌ عَنِ الْجُمْهُورِ صَغْبُ
 الْمَآخِذِ مُخْتَاجٌ بَعْدَ الْمُمَارَسَةِ وَالتَّخْصِيلِ لِأَصُولِهِ وَقُرُوعِهِ إِلَى مَزِيدِ خَدَسٍ وَتَعْمِيقٍ
 يَكْتَنِفَانِ بِهِ مِنَ النَّاطِرِ فَاثْنِ التَّخْصِيلِ وَالْحِذْقِ فِيهِ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا . وَمُدْعَى ذَلِكَ
 مِنَ النَّاسِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقِيهِ وَلَا شَاهِدَ لَهُ يَقُومُ بِذَلِكَ لِعَرَايَةِ الْفَنِّ بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَّةِ
 وَقَلَّةِ حَمَلَتِهِ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ لَكَ صِحَّةُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ فَلَا
 يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . وَمِمَّا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَعْنَى لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ
 عِنْدَمَا غَلَبَ الْعَرَبُ عَسَاكِرَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَخَاصَرُوهُ بِالْقَيْرَوَانِ وَكَثُرَ
 إِزْجَافُ الْفَرِيقَيْنِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ وَقَالَ فِي ذَلِكَ أَبُو الْقَاسِمِ الرُّوحِيُّ مِنْ شُعَرَاءِ أَهْلِ
 تُونِسَ :

اسْتَفْهِرَ اللَّهُ كُلَّ حِينٍ
 اضْبَحَ فِي تُونِسَ وَأَمْسَى
 الْخَوْفَ وَالْجُوعَ وَالْمَنَايَا
 وَالنَّاسَ فِي مِرْيَةٍ وَحَرْبٍ
 فَأَحْمَدِي يَرَى عَلِيًّا
 وَآخِرُ قَالَ سَوْفَ يَأْتِي
 وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ ذَا وَهَذَا
 يَا رَاصِدَ الْخُنُسِ الْجَوَارِي
 مَطْلَعُونا وَقَدْ زَعَمْتُمْ
 مَرَّ خَمِيسَ عَلَى خَمِيسٍ
 وَنِصْفَ شَهْرٍ وَعَشْرَ ثَانٍ
 وَلَا نَرَى غَيْرَ زُورٍ قَوْلٍ
 إِنَّا إِلَى اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا
 رَضِيتُ بِاللَّهِ لِي إِلَهًا
 مَا هَذِهِ الْأَنْجُمُ السُّوَارِي
 يُقْضَى عَلَيْهَا وَلَيْسَ تَقْضِي
 ضَلَّتْ عَقُولُ تَرَى قَدِيمًا
 وَحَكَمْتَ فِي الْوُجُودِ طَبِيعًا
 لَمْ تَرَ حُلُومًا إِزَاءَ مُرٍّ
 اللَّهُ رَبِّي وَلَسْتُ أَذْرِي
 وَلَا الْهَيُولَى الَّتِي تُنَادِي
 وَلَا وُجُودَ وَلَا أَنْعَادًا
 وَالْكَسْبُ لَمْ أَذْرِ فِيهِ إِلَّا

قَدْ ذَهَبَ الْعَيْشُ وَالْهَنَاءُ
 وَالصُّبْحُ لِلَّهِ وَالْمَسَاءُ
 يُخْبِئُهَا الْهَرَجُ وَالْوَبَاءُ
 وَمَا عَسَى يَنْفَعُ الْمِرَاءُ
 حُلَّ يَهْ هَلْكَ وَالتَّوَاءُ
 يَهْ إِلَيْكُمْ صَبًا رَحَاءُ
 يَقْضِي لِعَبْدِيهِ مَا يَشَاءُ
 مَا فَعَلْتَ هَذِهِ السَّمَاءُ
 أَنْكُمْ الْيَوْمَ أَمْلِيَاءُ
 وَجَاءَ سَبْتُ وَأَرْبَعَاءُ
 وَثَالِثَ ضَمَّةُ الْقَضَاءُ
 أَذَاكَ جَهْلٌ أَمْ أَزْدَرَاءُ
 أَنْ لَيْسَ يُسْتَدْفَعُ الْقَضَاءُ
 حَسْبُكُمْ الْبَذْرُ أَوْ دُكَاءُ
 إِلَّا عِبَادِيذُ أَوْ إِمَاءُ
 وَمَا لَهَا فِي الْوَرَى اقْتِضَاءُ
 مَا شَأْنُهُ الْجُرْمُ وَالْفَنَاءُ
 يُخْبِئُهُ الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ
 تَغْدُوهُمْ تَرْبَةً وَمَاءُ
 مَا الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ وَالْخَلَاءُ
 مَا لِي عَنْ صُورَةِ عَرَاءُ
 وَلَا ثُبُوتَ وَلَا انْتِفَاءُ
 مَا جَلَبَ الْبَيْعُ وَالشَّرَاءُ

وَأِنَّمَا مَذْهَبِي وَدِينِي	مَا كَانَ لِلنَّاسِ أَوْلِيَاءُ
إِذْ لَا فُضُولٌ وَلَا أَصُولٌ	وَلَا جِدَالٌ وَلَا رِيَاءُ
مَا تَبَعَ الصُّدْرَ وَاقْتَفَيْنَا	يَا حَبِذَا كَانَ الْإِقْتِفَاءُ
كَانُوا كَمَا يَعْلَمُونَ مِنْهُمْ	وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْهَذَا
يَا أَشْعَرِي الزَّمَانِ إِنِّي	أَشْعَرِي الصَّيْفُ وَالشَّتَاءُ
لَمْ أَجْزْ بِالشَّرِّ غَيْرَ شَرٍّ	وَالْخَيْرُ عَنْ مِثْلِهِ جَزَاءُ
وَأُنَبِّئُ إِنْ أَكُنْ مُطِيعاً	فَلَسْتُ أَغْصَى وَلِي رَجَاءُ
وَأُنَبِّئُ تَحْتَ حُكْمِ بَارٍ	أَطَاعَهُ الْعَرْشُ وَالشَّرَاءُ
لَيْسَ انْتِصَارٌ بِكُمْ وَلَكِنْ	أَتَاخُ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءُ
لَوْ حَدَّثَ الْأَشْعَرِي عَمَّنْ	لَهُ إِلَى رَأْيِهِ انْتِمَاءُ
لَقَالَ أَخْبَرَهُمْ بِأَنِّي	مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

الفصل الثالث والثلاثون

في انكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن
انتحالها

إِغْلَمَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَاجِزِينَ عَنْ مَعَاشِهِمْ تَحْمِلُهُمُ الْمَطَامِعُ عَلَى انْتِحَالِ هَذِهِ
الصَّنَائِعِ وَيَرَوْنَ أَنَّهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ الْمَعَاشِ وَوُجُوهِهِ وَأَنَّ اقْتِنَاءَ الْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ
وَأَسْهَلُ عَلَى مُبْتَغِيهِ فَيَزْتَكِبُونَ فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِ وَالْمَشَاقِّ وَمُعَانَاةِ الصَّعَابِ وَعَسْفِ
الْحُكْمِ وَخَسَارَةِ الْأَمْوَالِ فِي النِّفَقَاتِ زِيَادَةً عَلَى النَّيْلِ مِنْ غَرَضِهِ وَالْقَطْبِ آخِرًا إِذَا
ظَهَرَ عَلَى خَبِيئَةٍ وَهُمْ يَخْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَخْسِبُونَ صُنْعًا . وَإِنَّمَا أَطْمَعُهُمْ فِي ذَلِكَ رُؤْيَا أَنَّ
الْمَقَادِنَ تَسْتَحِيلُ وَيَنْقَلِبُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لِلْمَادَةِ الْمُشْتَرَكَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالْعِلَاجِ
صَيْرُورَةَ الْفِضَّةِ ذَهَبًا وَالنَّحَاسِ وَالْقَصْدِيرِ فِضَّةً وَيَخْسِبُونَ أَنَّهَا مِنْ مُمْكِنَاتِ عَالَمٍ

الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته
وفي المادة الموضوعية عندهم للعلاج المسماة عندهم بالحجر المكرم هل هي العذرة
أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك . وجملة التدبير عندهم
بعد تعيين المادة أن تمهي بالفهر على حجر صلب أملس وتسقى أثناء إمائها بالماء
وبعد أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها ويؤثر في
انقلابها إلى المعدن المطلوب . ثم تجفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار
أو تصعد أو تكلس لاستخراج مائها أو ترابها فإذا رضي بذلك كله من علاجها وتم
تدبيره على ما اقتضته أصول صنفته حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسوونه
الإكسير ويزعمون أنه إذا ألقي على الفضة المحمأة بالنار عادت ذهباً أو النحاس
المحمى بالنار عاد فضة على ما قصد به في عمله . ويزعم المحققون منهم أن ذلك
الإكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص
والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه إليها وتقلبه إلى صورتها
ومزاجها وتثبت فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى كالخميرة للخبز تقلب
العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في
المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء . وكذا إكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه
من المعادن يصرفه إليهما ويقلبه إلى صورتها . هذا محصل زعمهم على الجملة
فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه
وقواعده من كتب لأئمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم ويتناظرون في فهم
لغزها وكشف أسرارها إذ هي في الأكثر تشبه المعقّى . كتأليف جابر بن حيان
في رسائله السبعين ومسئلة المجريطي في كتابه رتبة الحكيم والطبراني
والمغبري في قصائده العريقة في إجادة النظم وأمثالها ولا يخلون من بعد هذا كله
بطائل منها . ففاوضت يوماً شيخنا أبا البركات التليفي^(١) كبير مشيخة

(١) وفي نسخة أخرى : التليفي .

الأندلس في مثل ذلك ووقفته على بغض التآليف فيها فتصفحة طويلاً ثم رده إلي وقال لي وأنا الضامن له أن لا يعود إلى بينته إلا بالخبية . ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط . إما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطهما على نسبة جزم أو جزءين أو ثلاثة أو الخفية كاللقاء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبيض النحاس وتليسه بالزوق المصعد فيجيء جسماً معديناً شبيهاً بالفضة ويخفى إلا على النقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع ذلتهم^(١) هذه سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويهاً على الجمهور بالخلاص . وهؤلاء أحسن الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة أموال الناس فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو شر من السارق . ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبية البربر المنتهدين بأطراف البقاع ومساكين الأغمار يأوون إلى مساجد البادية ويموّهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش . ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون إلى موضع آخر ويستجدون حالاً أخرى في استهواء بغض أهل الدنيا بأطماعهم فيما لديهم . ولا يزالون كذلك في انتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرذالة والاختراف بالسرقة ولا حاسم لعلتهم إلا اشتداد الحكم عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم لأن فيه إفساداً للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة . والسلطان مكلف بإصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها . وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن إفساد سكة المسلمين ونقودهم وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والقصدير إلى

(١) الدلس : (بفتح الدال وسكون اللام) الخديعة والدلة بضم الدال الظلمة (لسان العرب) .

الْفِضَّةِ بِذَلِكَ النُّخُو مِنَ الْعِلَاجِ وَبِالْإِكْسِيرِ الْحَاصِلِ عِنْدَهُ فَلَمَّا مَعَ هَؤُلَاءِ مُتَكَلِّمٌ
وَبَحْثٌ فِي مَدَارِكِهِمْ لِذَلِكَ . مَعَ أَنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ تَمَّ لَهُ هَذَا الْفَرْضُ
أَوْ حَصَلَ مِنْهُ عَلَى بُغْيَةٍ إِنَّمَا تَذَهَبُ أَغْمَارُهُمْ فِي التَّذْيِيرِ وَالْفَهْرِ ^(١) وَالصَّلَاةِ
وَالتَّضَعِيدِ وَالتَّكْلِيسِ وَاعْتِيَامِ الْأَخْطَارِ بِجَمْعِ الْعَقَائِيرِ وَالبَحْثِ عَنْهَا . وَيتَنَاقَلُونَ فِي
ذَلِكَ حِكَايَاتٍ وَقَعَتْ لغيرِهِمْ مِمَّنْ تَمَّ لَهُ الْفَرْضُ مِنْهَا أَوْ وَقَفَ عَلَى الْوُصُولِ يَقْنَعُونَ
بِاسْتِمَاعِهَا وَالْمُفَاوَضَاتِ فِيهَا وَلَا يَسْتَرِيبُونَ فِي تَصْدِيقِهَا شَأْنَ الْكَلِيفِينَ الْمُغْرَمِينَ
بِوَسَاوِسِ الْأَخْبَارِ فِيمَا يُكَلِّفُونَ بِهِ فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ تَحْقِيقِ ذَلِكَ بِالْمُعَايَنَةِ أَنْكَرُوهُ
وَقَالُوا إِنَّمَا سَمِعْنَا وَلَمْ نَر . هَكَذَا شَأْنُهُمْ فِي كُلِّ عَصْرِ وَجِيلٍ وَاعْلَمْ أَنَّ انْتِحَالَ هَذِهِ
الصَّنْعَةِ قَدِيمٌ فِي الْعَالَمِ وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهَا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالتَّأَخَّرِينَ فَلَنَنْقُلَ
مَذَاهِبَهُمْ فِي ذَلِكَ ثُمَّ تَتْلُوهُ بِمَا يَظْهَرُ فِيهَا مِنَ التَّحْقِيقِ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ
فَنَقُولُ إِنَّ مَبْنَى الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ عَلَى خِلَالِ الْمَعَادِينِ السَّبْعَةِ
الْمُتَطَرِّقَةِ وَهِيَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالرُّضَاصُ وَالْقَصْدِيرُ وَالنُّحَاسُ وَالْحَدِيدُ
وَالْخَارَصِينُ هَلْ هِيَ مُخْتَلِفَاتٌ بِالْفُضُولِ وَكُلُّهَا أَنْوَاعٌ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا أَوْ إِنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ
بِخَوَاصِّ مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ لِنَوْعٍ وَاحِدٍ ؟ فَالَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو النَّضْرِ
الْفَارَابِيُّ وَتَابَعَهُ عَلَيْهِ حُكَمَاءُ الْأَنْدَلُسِ أَنَّهَا نَوْعٌ وَاحِدٌ وَأَنَّ اخْتِلَافَهَا إِنَّمَا هُوَ
بِالْكَيْفِيَّاتِ مِنَ الرُّطُوبَةِ وَالْيَبُوسَةِ وَاللِّينِ وَالصَّلَاةِ وَالْأَلْوَانِ مِنَ الصَّفَرَةِ وَالْبَيَاضِ
وَالسَّوَادِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ لِذَلِكَ النَّوعِ الْوَاحِدِ وَالَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ سِينَا وَتَابَعَهُ
عَلَيْهِ حُكَمَاءُ الْمَشْرِقِ أَنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ بِالْفُضُولِ وَأَنَّهَا أَنْوَاعٌ مُتَبَايِنَةٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا قَائِمٌ
بِنَفْسِهِ مُتَحَقِّقٌ بِحَقِيقَتِهِ لَهُ فَضْلٌ وَجَنَسٌ شَأْنِ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ . وَبَنَى أَبُو النَّضْرِ
الْفَارَابِيُّ عَلَى مَذْهَبِهِ فِي اتِّفَاقِهَا بِالنَّوعِ إِمَّا كَانَ انْتِقَالٌ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لِإِمَّاكَانِ
تَبَدُّلِ الْأَغْرَاضِ حِينَئِذٍ وَعِلَاجِهَا بِالصَّنْعَةِ . فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ كَانَتْ صِنَاعَةُ الْكَيْمِيَاءِ

(١) الفهر : الحجر قدر ما يدق به الجوز ونحوه . وقيل هو حجر يملأ الكف (لسان العرب) وهنا تعني

عِنْدَهُ مُمَكِّنَةٌ سَهْلَةٌ الْمَأْخِذِ . وَبَنَى أَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا عَلَى مَذْهَبِهِ فِي اخْتِلَافِهَا
بِالنُّوعِ إِنْكَارَ هَذِهِ الصَّنِيعَةِ وَاسْتِحَالَةَ وُجُودِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْفَضْلَ لَا سَبِيلَ بِالصَّنَاعَةِ
إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يَخْلُقُهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَمَقْدَرُهَا وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَالْفُضُولُ مَجْهُولَةٌ
الْحَقَائِقِ رَأْسًا بِالتَّصَوُّرِ فَكَيْفَ يُحَاوِلُ انْقِلَابُهَا بِالصَّنِيعَةِ . وَغَلَطَ الطُّغْرَائِيُّ مِنْ
أَكَابِرِ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي هَذَا الْقَوْلِ . وَرَدَّ عَلَيْهِ بِأَنَّ التَّذْيِيرَ وَالْعِلَاجَ لَيْسَ فِي
تَخْلِيْقِ الْفَضْلِ وَإِبْدَاعِهِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي إِعْدَادِ الْمَادَّةِ لِقَبُولِهِ خَاصَّةً . وَالْفَضْلُ يَأْتِي مِنْ
بَعْدِ الْإِعْدَادِ مِنْ لَدُنْ خَالِقِهِ وَبَارِيهِ كَمَا يُفِيضُ النُّورُ عَلَى الْأَجْسَامِ بِالصَّقْلِ
وَالْإِمْنَاءِ . وَلَا حَاجَةَ بِنَا فِي ذَلِكَ إِلَى تَصَوُّرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ قَالَ : « وَإِذَا كُنَّا قَدْ عَشَرْنَا عَلَى
تَخْلِيْقِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ مَعَ الْجَهْلِ بِفُضُولِهَا مِثْلَ الْقُرْبِ مِنَ التُّرَابِ وَالنَّتَنِ وَمِثْلَ
الْحَيَاتِ الْمُتَكَوِّنَةِ مِنَ الشَّعْرِ وَمِثْلَ مَا ذَكَرَهُ أَصْحَابُ الْفِلَاحَةِ مِنْ تَكْوِينِ النُّحْلِ إِذَا
فَقَدَتْ مِنْ عَجَاجِيلِ الْبَقَرِ . وَتَكْوِينِ الْقَصَبِ مِنْ قُرُونِ ذَوَاتِ الظِّلْفِ وَتَضْيِيرِهِ
سُكْرًا بِحَشْوِ الْقُرُونِ بِالْعَسَلِ بَيْنَ يَدَيِ ذَلِكَ الْفُلْجِ لِلْقُرُونِ فَمَا الْمَانِعُ إِذَا مِنَ الْعُثُورِ
عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . فَتَتَّخِذُ مَادَّةً تُضَيِّفُهَا لِلتَّذْيِيرِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا
اسْتِعْدَادٌ أَوَّلٌ لِقَبُولِ صُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . ثُمَّ تُحَاوِلُهَا بِالْعِلَاجِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ فِيهَا
الِاسْتِعْدَادُ لِقَبُولِ فَضْلِهَا » . انْتَهَى كَلَامُ الطُّغْرَائِيِّ بِمَعْنَاهُ . وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي الرَّدِّ
عَلَى ابْنِ سِينَا صَحِيحٌ . لَكِنْ لَنَا فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَأْخِذٌ آخَرٌ يَتَبَيَّنُ مِنْهُ
اسْتِحَالَةُ وُجُودِهَا وَبُطْلَانُ مَزْعَمِهِمْ أَجْمَعِينَ لَا الطُّغْرَائِيُّ وَلَا ابْنُ سِينَا . وَذَلِكَ أَنَّ
حَاصِلَ عِلَاجِهِمْ أَنَّهُمْ بَعْدَ الْوُقُوفِ عَلَى الْمَادَّةِ الْمُسْتَعِدَّةِ بِالِاسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ يَجْعَلُونَهَا
مَوْضُوعًا وَيَحَادِّثُونَ فِي تَذْيِيرِهَا وَعِلَاجِهَا تَذْيِيرَ الطَّبِيعَةِ فِي الْجِسْمِ الْمَغْدَنِ حَتَّى
أَحَالَتُهُ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً وَيُضَاعَفُونَ الْقُوَى الْفَاعِلَةَ وَالْمُنْفِعِلَةَ لِيَتِمَّ فِي زَمَانٍ أَقْصَرَ . لِأَنَّهُ
تَبَيَّنَ فِي مَوْضُوعِهِ أَنَّ مُضَاعَفَةَ قُوَّةِ الْفَاعِلِ تَنْقُصُ مِنْ زَمَنِ فِعْلِهِ وَتَبَيَّنَ أَنَّ الذَّهَبَ إِنَّمَا
يَتِمُّ كَوْنُهُ فِي مَعْدِنِهِ بَعْدَ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ مِنَ السِّنِينَ دَوْرَةَ الشَّمْسِ الْكُبْرَى فَإِذَا
تَضَاعَفَتِ الْقُوَى وَالْكِيفِيَّاتُ فِي الْعِلَاجِ كَانَ زَمَنُ كَوْنِهِ أَقْصَرَ مِنْ ذَلِكَ ضَرُورَةً عَلَى

مَا قُلْنَاهُ أَوْ يَتَحَرَّوْنَ يَـعْلَـجُـهُـمْ ذَلِكَ حُـصُولُ صُورَةٍ مِرَاجِيَّةٍ لِتِلْكَ الْمَادَّةِ تُصَوِّرُهَا
 كَالْخَمِيرَةِ فَتَفْعَلُ فِي الْجِسْمِ الْمَعَالِجَ الْأَفَاعِيلَ الْمَطْلُوبَةَ فِي إِحَالَتِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْإِكْسِيرُ
 عَلَى مَا تَقَدَّمَ . وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مُتَكَوِّنٍ مِنَ الْمَوْلَدَاتِ الْعُنْصَرِيَّةِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ اجْتِمَاعِ
 الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى نِسْبَةٍ مُتَفَاوِتَةٍ إِذْ لَوْ كَانَتْ مُتَكَافِئَةً فِي النِّسْبَةِ لَمَا تَمَّ امْتِرَاجُهَا
 فَلَا بُدَّ مِنَ الْجُزْءِ الْغَالِبِ عَلَى الْكُلِّ . وَلَا بُدَّ فِي كُلِّ مُفْتَرَجٍ مِنَ الْمَوْلَدَاتِ مِنْ حَرَارَةٍ
 غَرِيزِيَّةٍ هِيَ الْفَاعِلَةُ لِكَوْنِهِ الْخَافِظَةُ لِصُورَتِهِ ؛ ثُمَّ كُلُّ مُتَكَوِّنٍ فِي زَمَانٍ فَلَا بُدَّ مِنْ
 اخْتِلَافِ أَطْوَارِهِ وَانْتِقَالِهِ فِي زَمَنِ التَّكْوِينِ مِنْ طَوْرٍ إِلَى طَوْرٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى
 غَايَتِهِ . وَانْظُرْ شَأْنَ الْإِنْسَانِ فِي طَوْرِ النُّطْفَةِ ثُمَّ الْعُلْقَةِ ثُمَّ الْمَضْغَةِ ثُمَّ التَّصْوِيرِ ثُمَّ
 الْجَنِينِ ثُمَّ الْمَوْلُودِ ثُمَّ الرُّضِيعِ ثُمَّ إِلَى نِهَائِهِ . وَنَسَبُ الْأَجْزَاءِ فِي كُلِّ طَوْرٍ تَخْتَلِفُ فِي
 مَقَادِيرِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا وَالْأَلَّكَانَ الطَّوْرُ الْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ هُوَ الْآخِرُ وَكَذَا الْحَرَارَةُ
 الْغَرِيزِيَّةُ فِي كُلِّ طَوْرٍ مُخَالِفَةٌ لَهَا فِي الطَّوْرِ الْآخِرِ . فَانْظُرْ إِلَى الذَّهَبِ مَا يَكُونُ لَهُ
 فِي مَعْدِنِهِ مِنَ الْأَطْوَارِ مِنْذُ أَلْفِ سَنَةٍ وَثَمَانِينَ وَمَا يَنْتَقِلُ فِيهِ مِنَ الْأَحْوَالِ فَيَحْتَاجُ
 صَاحِبَ الْكِيمِيَاءِ إِلَى أَنْ يُسَاقِقَ فِعْلَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَعْدِنِ وَيُخَازِيَهُ بِتَذْيِيرِهِ
 وَعِلَاجِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ . وَمِنْ شَرْطِ الصَّنَاعَةِ أَبَدًا تَصَوُّرُ مَا يَقْصَدُ إِلَيْهِ بِالصَّنْعَةِ فَمِنْ
 الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ لِلْحُكَمَاءِ أَوَّلُ الْعَمَلِ آخِرُ الْفِكْرَةِ وَآخِرُ الْفِكْرَةِ أَوَّلُ الْعَمَلِ . فَلَا بُدَّ
 مِنْ تَصَوُّرِ هَذِهِ الْحَالَاتِ لِلذَّهَبِ فِي أَحْوَالِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَنِسْبَتِهَا الْمُتَفَاوِتَةِ فِي كُلِّ طَوْرٍ
 وَاخْتِلَافِ الْحَارِ الْغَرِيزِيِّ عِنْدَ اخْتِلَافِهَا وَمِقْدَارِ الزَّمَانِ فِي كُلِّ طَوْرٍ وَمَا يَنْبُؤُ عَنْهُ
 مِنْ مِقْدَارِ الْقُوَى الْمُضَاعَفَةِ وَيَقُومُ مَقَامَهُ حَتَّى يَخَازِيَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ فِعْلَ الطَّبِيعَةِ فِي
 الْمَعْدِنِ أَوْ تَعَدُّ لِبَغْضِ الْمَوَادِّ صُورَةَ مِرَاجِيَّةٍ كَصُورَةِ الْخَمِيرَةِ لِلْخَبْزِ وَتَفْعَلُ فِي هَذِهِ
 الْمَادَّةِ بِالنَّاسِئَةِ لِقَوَاهَا وَمَقَادِيرِهَا . وَهَذِهِ كُلُّهَا إِنَّمَا يَخْصُرُهَا الْعِلْمُ الْمَحِيطُ
 وَالْعُلُومُ الْبَشَرِيَّةُ قَاصِرَةٌ عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا حَالٌ مَنْ يَدَّعِي حُصُولَهُ عَلَى الذَّهَبِ بِهَذِهِ
 الصَّنْعَةِ بِمِثَالِيَةٍ مَنْ يَدَّعِي بِالصَّنْعَةِ تَخْلِيْقَ إِنْسَانٍ مِنَ الْمَنِيِّ . وَنَحْنُ إِذَا سَأَلْنَا لَهُ
 الْإِحَاطَةَ بِأَجْزَائِهِ وَنِسْبَتِهِ وَأَطْوَارِهِ وَكَيْفِيَّةِ تَخْلِيْقِهِ فِي رَحِمِهِ وَعَلِمَ ذَلِكَ عِلْمًا

مُحْصَلًا بِتَفَاصِيلِهِ حَتَّى لَا يَشُدَّ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ سَلَمْنَا لَهُ تَخْلِيقَ هَذَا الْإِنْسَانِ
وَأَتَى لَهُ ذَلِكَ . وَلِنَقْرُبَ هَذَا الْبُرْهَانَ بِالِاخْتِصَارِ لَيْسَهْلَ فَهْمُهُ فَقُولُ ، حَاصِلُ
صِنَاعَةِ الْكِيمِيَاءِ وَمَا يَدْعُونَهُ بِهَذَا التَّذْيِيرِ أَنَّهُ مُسَاوَقَةُ الطَّبِيعَةِ الْمَغْدِنِيَّةِ بِالْفِعْلِ
الصَّنَاعِيِّ وَمَحَادَاتِهَا بِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ كَوْنُ الْجِسْمِ الْمَغْدِنِيِّ أَوْ تَخْلِيقُ مَادَّةٍ بِقُوَى
وَأَفْعَالٍ وَصُورَةٍ مَزَاجِيَّةٍ تَفْعَلُ فِي الْجِسْمِ فِعْلًا طَبِيعِيًّا فَتُصَيِّرُهُ وَتَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهَا .
وَالْفِعْلُ الصَّنَاعِيُّ مَسْبُوقٌ بِتَصَوُّرَاتِ أَحْوَالِ الطَّبِيعَةِ الْمَغْدِنِيَّةِ الَّتِي يَقْصُدُ مُسَاوَقَتَهَا
أَوْ مُحَادَاتَهَا أَوْ فِعْلِ الْمَادَّةِ ذَاتِ الْقُوَى فِيهَا تَصَوُّرًا مُفْصَلًا وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى . وَتِلْكَ
الْأَحْوَالُ لَا نِهَايَةَ لَهَا وَالْعِلْمُ الْبَشَرِيُّ عَاجِزٌ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِمَا دُونَهَا وَهُوَ بِمَنَآيَةِ مَنْ
يَقْصُدُ تَخْلِيقَ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ نَبَاتٍ . هَذَا مُحْصَلُ هَذَا الْبُرْهَانِ وَهُوَ أَوْثَقُ
مَا عَلِمْتُهُ وَلَيْسَتْ الْإِسْتِحَالَةُ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الْفُضُولِ كَمَا رَأَيْتُهُ وَلَا مِنَ الطَّبِيعَةِ إِنَّمَا هُوَ
مِنْ تَعَدُّرِ الْإِحَاطَةِ وَقُصُورِ الْبَشَرِ عَنْهَا . وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ سِينَا بِمَغْرُلٍ عَنْ ذَلِكَ وَلَهُ
وَجْهٌ آخَرٌ فِي الْإِسْتِحَالَةِ مِنْ جِهَةِ غَايَتِهِ . وَذَلِكَ أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي الْحَجَرَيْنِ
وَنَدَوْرَهُمَا أَنَّهُمَا قِيمَتَانِ لِمَكَاسِبِ النَّاسِ وَمُتَمَوِّلَاتِهِمْ . فَلَوْ حَصَلَ عَلَيْهِمَا بِالصَّنْعَةِ
لَبْطَلَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ وَكَثُرَ وَجُودُهُمَا حَتَّى لَا يَخْصُلَ أَحَدٌ مِنْ اقْتِنَائِهِمَا عَلَى
شَيْءٍ . وَلَهُ وَجْهٌ آخَرٌ مِنَ الْإِسْتِحَالَةِ أَيْضًا وَهُوَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَا تَتْرُكُ أَقْرَبَ الطَّرِيقِ فِي
أَفْعَالِهَا وَتَتَرَكَّبُ الْأَغْوَصُ وَالْأَبْعَدُ . فَلَوْ كَانَ هَذَا الطَّرِيقُ الصَّنَاعِيُّ الَّذِي يَزْعُمُونَ
أَنَّهُ صَحِيحٌ وَأَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ طَرِيقِ الطَّبِيعَةِ فِي مَغْدِنِهَا أَوْ أَقْلُ زَمَانًا لَمَا تَرَكَّتْهُ الطَّبِيعَةُ
إِلَى طَرِيقِهَا الَّذِي سَلَكَتْهُ فِي كَوْنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَتَخْلِقُهُمَا وَأَمَّا تَشْبِيهُ الطُّغْرَاءِ
هَذَا التَّذْيِيرَ بِمَا عَثَرَ عَلَيْهِ مِنْ مُفْرَدَاتِ لَأَمْثَالِهِ فِي الطَّبِيعَةِ كَالْفَقْرِيبِ وَالنَّحْلِ وَالْحَيَّةِ
وَتَخْلِيقِهَا فَأَمْرٌ صَحِيحٌ فِي هَذِهِ أَدَى إِلَيْهِ الْعُثُورُ كَمَا زَعَمَ . وَأَمَّا الْكِيمِيَاءُ فَلَمْ يُنْقَلْ
عَنْ أَحَدٍ مِنَ أَهْلِ الْعَالَمِ أَنَّهُ عَثَرَ عَلَيْهَا وَلَا عَلَى طَرِيقِهَا وَمَا زَالَ مُتَنَحِّلُوهَا يَخْبِطُونَ
فِيهَا عَشَوَاءَ إِلَى هَلُمَّ جَرًّا وَلَا يَظْفَرُونَ إِلَّا بِالْحِكَايَاتِ الْكَاذِبَةِ . وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لِأَحَدٍ
مِنْهُمْ لَحَفِظَهُ عَنْهُ أَوْلَادُهُ أَوْ تَلْمِيذُهُ وَأَصْحَابُهُ وَتَنَوَّلَ فِي الْأَصْدِقَاءِ وَضَمَّنَ تَصْدِيقَهُ

صَحَّةُ الْعَمَلِ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَشِرَ وَيَبْلُغَ إِلَيْنَا وَإِلَى غَيْرِنَا . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِنْكَسِيرَ بِمَثَابَةِ الْخَمِيرَةِ . وَإِنَّهُ مَرْكَبٌ يُحِيلُ مَا يَخْصُلُ قِيهِ وَيَقْلِبُهُ إِلَى ذَلِكَ فَاعْلَمُوا أَنَّ الْخَمِيرَةَ إِنَّمَا تَقْلِبُ الْعَجِينَ وَتَبْعِدُهُ لِلْهَضْمِ وَهُوَ فَسَادٌ وَالْفَسَادُ فِي الْمَوَادِّ سَهْلٌ يَقَعُ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالطَّبَائِعِ . وَالْمَطْلُوبُ بِالْإِنْكَسِيرِ قَلْبُ الْمُغْدِنِ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى فَهُوَ تَكْوِينٌ وَصَلَاحٌ وَالتَّكْوِينُ أَضْعَبُ مِنَ الْفَسَادِ فَلَا يُقَاسُ الْإِنْكَسِيرُ بِالْخَمِيرَةِ . وَتَحْقِيقُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكَيْمِيَاءَ إِنْ صَحَّ وَجُودُهَا كَمَا تَزْعُمُ الْحُكَمَاءُ الْمُتَكَلِّمُونَ فِيهَا مِثْلُ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ وَمَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْمَجْرِيطِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ فَلَيْسَتْ مِنْ بَابِ الصَّنَائِعِ الطَّبِيعِيَّةِ وَلَا تَتِمُّ بِأَمْرِ صِنَاعِيٍّ . وَلَيْسَ كَلَامُهُمْ فِيهَا مِنْ مَنَحَى الطَّبِيعِيَّاتِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنَحَى كَلَامِهِمْ فِي الْأُمُورِ السَّخَرِيَّةِ وَسَائِرِ الْخَوَارِقِ وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلْعِلَاجِ وَغَيْرِهِ وَقَدْ ذَكَرَ مَسْلَمَةُ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ مَا يُشَبِّهُ ذَلِكَ . وَكَلَامُهُ فِيهَا فِي كِتَابِ رُتْبَةِ الْحَكِيمِ مِنْ هَذَا الْمَنَحَى . وَهَذَا كَلَامُ جَابِرٍ فِي رِسَالَتِهِ وَنَحْوُ كَلَامِهِمْ فِيهِ مَعْرُوفٌ وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى شَرْحِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَأَمَرُهَا عَنْدهُمْ مِنْ كُلِّيَّاتِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ عَنْ حُكْمِ الصَّنَائِعِ فَكَمَا لَا يَتَدَبَّرُ مَا مِنْهُ الْخَشَبُ وَالْحَيَوَانُ فِي يَوْمٍ أَوْ شَهْرٍ خَشْباً أَوْ حَيَوَاناً فَيَمَّا عَدَا مَجْرَى تَخْلِيْقِهِ كَذَلِكَ لَا يَتَدَبَّرُ ذَهَبٌ مِنْ مَادَّةِ الذَّهَبِ فِي يَوْمٍ وَلَا شَهْرٍ وَلَا يَتَغَيَّرُ طَرِيقُ عَادَتِهِ إِلَّا بِإِرْفَادٍ مَا وَرَاءَ عَالَمِ الطَّبَائِعِ وَعَمَلِ الصَّنَائِعِ فَكَذَلِكَ مَنْ طَلَبَ الْكَيْمِيَاءَ طَلَباً صِنَاعِيّاً ضَيَّعَ مَالَهُ وَعَمَلَهُ وَيُقَالُ لِهَذَا التَّدْبِيرِ الصَّنَاعِيِّ التَّدْبِيرُ الْعَقِيمُ لِأَنَّهُ نِيلُهُ إِنْ كَانَ صَحِيحاً فَهُوَ وَاقِعٌ مِمَّا وَرَاءَ الطَّبَائِعِ وَالصَّنَائِعِ كَالْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ وَامْتِطَاءِ الْهَوَاءِ وَالنَّفُودِ فِي كَشَائِفِ الْأَجْسَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ أَوْ مِثْلِ تَخْلِيْقِ الطَّيْرِ وَنَحْوِهَا مِنْ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ . قَالَ تَعَالَى : « وَإِذْ تَخْلَقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهِ فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي » ^(١) وَعَلَى ذَلِكَ فَسَبِيلُ تَيْسِيرِهَا مُخْتَلِفٌ بِحَسَبِ حَالٍ مَنْ يُؤْتَاهَا . فَرُبَّمَا أُوتِيَهَا الصَّالِحُ وَيُؤْتِيهَا غَيْرُهُ فَتَكُونُ عَنْدهُ

(١) سورة المائدة من الآية ١١٠ .

مُعَاذَةً . وَرُبَّمَا أَوْتِيَهَا الصَّالِحُ وَلَا يَمْلِكُ إِيْتَاءَهَا فَلَا تَتِمُّ فِي يَدِ غَيْرِهِ . وَمِنْ هَذَا
الْبَابِ يَكُونُ عَمَلُهَا سِحْرِيًّا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهَا إِنَّمَا تَقَعُ بِتَأْثِيرَاتِ النُّفُوسِ وَخَوَارِقِ
الْعَادَةِ إِمَّا مُعْجِزَةً أَوْ كَرَامَةً أَوْ سِحْرًا . وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُ الْحُكَمَاءِ كُلِّهِمْ فِيهَا إِنْغَارًا
لَا يَظْفَرُ بِحَقِيقَتِهِ إِلَّا مَنْ خَاضَ لُجَّةً مِنْ عِلْمِ السَّحْرِ وَاطَّلَعَ عَلَى تَصَرُّفَاتِ النَّفْسِ فِي
عَالَمِ الطَّبِيعَةِ . وَأُمُورُ خَرَقِ الْعَادَةِ غَيْرُ مُنْخَصِرَةٍ وَلَا يَقْصُدُ أَحَدٌ إِلَى تَحْصِيلِهَا . وَاللَّهُ
بِمَا يَفْعَلُونَ مُحِيطٌ . وَأَكْثَرُ مَا يَحْمِلُ عَلَى التَّمَسُّكِ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَإِنْتِحَالُهَا هُوَ كَمَا
قُلْنَا الْعَجْزُ عَنِ الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيِّ لِلْمَعَاشِ وَإِيْتَاءُوهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ الطَّبِيعِيِّ
كَالْفِلَاحَةِ وَالتَّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ فَيَسْتَضَعِبُ الْعَاجِزُ إِيْتَاءُوهُ مِنْ هَذِهِ وَيَرُومُ الْحُصُولَ
عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَالِ دَفْعَةً بِوُجْهِهِ غَيْرِ طَبِيعِيِّ مِنَ الْكِيمْيَاءِ وَغَيْرِهَا . وَأَكْثَرُ مَنْ
يُعْنَى بِذَلِكَ الْفُقَرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانِ حَتَّى فِي الْحُكَمَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي إِنْكَارِهَا
وَإِسْتِحَالَتِهَا . فَإِنَّ ابْنَ سِينَا الْقَائِلَ بِإِسْتِحَالَتِهَا كَانَ عَلَيْهِ الْوُزَرَاءُ فَكَانَ مِنْ أَهْلِ
الْغِنَى وَالثَّرْوَةِ وَالْفَارَابِيُّ الْقَائِلَ بِإِمْكَانِهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَقْرِ الَّذِينَ يُعَوِّزُهُمْ أَذْنَى
بُلْغَةٍ مِنَ الْمَعَاشِ وَأَسْبَابِهِ . وَهَذِهِ تَهْمَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي أَنْظَارِ النُّفُوسِ الْمَوْلَعَةِ بِطَرَفِهَا
وَإِنْتِحَالِهَا . وَاللَّهُ الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل الرابع والثلاثون

في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل

إِغْلَمَ أَنَّهُ مِمَّا أَضُرَّ بِالنَّاسِ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْوُقُوفِ عَلَى غَايَاتِهِ كَثْرَةُ التَّأْلِيفِ
وَإِخْتِلَافُ الْإِصْطِلَاحَاتِ فِي التَّعَالِيمِ وَتَعَدُّدُ طُرُقِهَا ثُمَّ مُطَالَبَةُ الْمُتَعَلِّمِ وَالتَّلْمِيزِ
بِإِسْتِحْضَارِ ذَلِكَ . وَحِينَئِذٍ يُسَلِّمُ لَهُ مَنْصِبُ التَّحْصِيلِ فَيَحْتَاجُ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى حِفْظِهَا
كُلِّهَا أَوْ أَكْثَرِهَا وَمُرَاعَاةِ طُرُقِهَا . وَلَا يَفِي عُمْرُهُ بِمَا كُتِبَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا
تَجَرَّدَ لَهَا فَيَقَعُ الْقُصُورُ وَلَا بُدَّ دُونَ رُتْبَةِ التَّحْصِيلِ . وَيُمَثِّلُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْفِقْهِ فِي

الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ بِالْكِتَابِ الْمَدُونَةِ مَثَلًا وَمَا كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الشُّرُوحَاتِ الْفَقْهِيَّةِ
 مِثْلَ كِتَابِ ابْنِ يُونُسَ وَاللَّخْمِيِّ وَابْنِ بَشِيرٍ وَالتَّنْبِيهَاتِ وَالْمُقَدِّمَاتِ وَالْبَيَانِ
 وَالتَّحْصِيلِ عَلَى الْعَتَبِيَّةِ وَكَذَلِكَ كِتَابُ ابْنِ الْحَاجِبِ وَمَا كُتِبَ عَلَيْهِ . ثُمَّ إِنَّهُ يُحْتَاجُ
 إِلَى تَمْيِيزِ الطَّرِيقَةِ الْقَيْرَوَانِيَّةِ مِنَ الْقَرْطُبِيَّةِ وَالْبَغْدَادِيَّةِ وَالْمِصْرِيَّةِ وَطَرِيقِ
 الْمُتَأَخِّرِينَ عَنْهُمْ وَالْإِحَاطَةِ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَحِينَئِذٍ يُسَلِّمُ لَهُ مَنْصِبُ الْفَتَا وَهِيَ كُلُّهَا
 مُتَكَرِّرَةٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ . وَالْمُتَعَلِّمُ مُطَالِبٌ بِاسْتِخْصَارِ جَمِيعِهَا وَتَمْيِيزِ مَا بَيْنَهَا
 وَالْعُمُرُ يَنْقُضِي فِي وَاحِدٍ مِنْهَا . وَلَوْ اقْتَصَرَ الْمُعَلِّمُونَ بِالْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى الْمَسَائِلِ
 الْمَذْهَبِيَّةِ فَقَطْ لَكَانَ الْأَمْرُ دُونَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ وَكَانَ التَّعْلِيمُ سَهْلًا وَمَأْخُذُهُ قَرِيبًا
 وَلَكِنَّهُ دَاءٌ لَا يَرْتَفِعُ لِاسْتِقْرَارِ الْعَوَائِدِ عَلَيْهِ فَصَارَتْ كَالطَّبِيعَةِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ نَقْلَهَا
 وَلَا تَحْوِيلَهَا وَيُمَثِّلُ أَيْضًا عِلْمُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ كِتَابِ سَبْيَوِيَّةٍ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ عَلَيْهِ
 وَطَرِيقِ الْبَصْرِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ وَالْبَغْدَادِيِّينَ وَالْأَنْدَلُسِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَطَرِيقِ
 الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ مِثْلَ ابْنِ الْحَاجِبِ وَابْنِ مَالِكٍ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ
 كَيْفَ يُطَالَبُ بِهِ الْمُتَعَلِّمُ وَيَنْقُضِي عُمُرُهُ دُونَهُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي الْغَايَةِ مِنْهُ إِلَّا فِي
 الْقَلِيلِ النَّادِرِ مِثْلَ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ تَأْلِيفِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ
 صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ يُعْرَفُ بِابْنِ هَاشِمٍ ظَهَرَ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا أَنَّهُ اسْتَوَلَى
 عَلَى غَايَةِ مَنْ مَلَكَتِ تِلْكَ الصَّنَاعَةَ لَمْ تَحْصُلْ إِلَّا لِسَبْيَوِيَّةٍ وَابْنِ جَنِّي وَأَهْلٍ طَبَقْتَهُمَا
 لِعَظَمِ مَلَكَتِهِ وَمَا أَحَاطَ بِهِ مِنْ أَصُولِ ذَلِكَ الْفَنِّ وَتَفَارِيعِهِ وَحُسْنِ تَصَرُّفِهِ فِيهِ . وَذَلَّ
 عَلَى أَنَّ الْفَضْلَ لَيْسَ مُنْخَصَرًّا فِي الْمُتَقَدِّمِينَ سَيِّمًا مَعَ مَا قَدَّمَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الشَّوَابِغِ
 بِتَعَدُّدِ الْمَذَاهِبِ وَالطَّرِيقِ وَالتَّأْلِيفِ وَلَكِنْ فَضَلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ . وَهَذَا نَادِرٌ مِنْ
 نَوَادِرِ الْوُجُودِ وَالْأَفْظَاهِرُ أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ وَلَوْ قَطَعَ عُمُرُهُ فِي هَذَا كُلِّهِ فَلَا يَبْقَى لَهُ
 بِتَخْصِيلِ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ مَثَلًا الَّذِي هُوَ آلَةٌ مِنَ الْآلَاتِ وَوَسِيلَةٌ فَكَيْفَ يَكُونُ فِي
 الْمَقْصُودِ الَّذِي هُوَ الثَّمَرَةُ ؟ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

الفصل الخامس والثلاثون

في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف والغاء ما سواها

إِغْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الْبَشَرِيَّةَ خَزَائِنُهَا النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ
الْإِذْرَاكِ الَّذِي يُفِيدُهَا ذَلِكَ الْفِكْرُ الْمَحْصُلُ لَهَا ذَلِكَ بِالتَّصَوُّرِ لِلْحَقَائِقِ أَوَّلًا ، ثُمَّ
بِاثْبَاتِ الْعَوَارِضِ الدَّائِيَّةِ لَهَا أَوْ نَفْيِهَا عَنْهَا ثَانِيًا ، إِمَّا بِغَيْرِ وَسْطٍ أَوْ بِوَسْطٍ ، حَتَّى
يَسْتَنْتِجَ الْفِكْرُ بِذَلِكَ مَطَالِبَهُ الَّتِي يُغْنَى بِإِثْبَاتِهَا أَوْ نَفْيِهَا . فَإِذَا اسْتَقَرَّتْ مِنْ ذَلِكَ
صُورَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي الضَّمِيرِ فَلَا بُدَّ مِنْ بَيَانِهَا لِآخِرٍ ، إِمَّا عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ ، أَوْ عَلَى وَجْهِ
الْمُفَاوِضَةِ ، تَضَقُّلُ الْأَفْكَارِ فِي تَضْحِيحِهَا . وَذَلِكَ الْبَيَانُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعِبَارَةِ ، وَهِيَ
الْكَلَامُ الْمُرَكَّبُ مِنَ الْأَلْفَاظِ النُّطْقِيَّةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ فِي غُضُو اللِّسَانِ مُرَكَّبَةً مِنَ
الْحُرُوفِ ، وَهِيَ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ الْمُقْطَعَةِ بِعُضْلَةِ الْكَلِمَةِ وَاللِّسَانِ لِيَتَبَيَّنَ بِهَا
ضَمَائِرُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَهَذِهِ رُتْبَةٌ أُولَى فِي الْبَيَانِ عَمَّا فِي
الضَّمَائِرِ ، وَإِنْ كَانَ مُعْظَمُهَا وَأَشْرَفُهَا الْعُلُومَ ، فَبِهَا شَامِلَةٌ لِكُلِّ مَا يَنْدَرِجُ فِي
الضَّمِيرِ مِنْ خَبَرٍ أَوْ إِنْشَاءٍ عَلَى الْعُمُومِ . وَبَعْدَ هَذِهِ الرُّتْبَةِ الْأُولَى مِنَ الْبَيَانِ رُتْبَةٌ ثَانِيَّةٌ
يُؤَدِّي بِهَا مَا فِي الضَّمِيرِ ، لِمَنْ تَوَارَى أَوْ غَابَ شَخْصُهُ وَبَعْدَ ، أُولَئِكَ يَأْتِي بَعْدَ وَلَمْ
يُعَاصِرْهُ وَلَا لَقِيَهُ . وَهَذَا الْبَيَانُ مُنْخَصَرٌّ فِي الْكِتَابَةِ ، وَهِيَ رُقُومٌ بِالْيَدِ تَدُلُّ أَشْكَالُهَا
وَصُورُهَا بِالتَّوَاضُّعِ عَلَى الْأَلْفَاظِ النُّطْقِيَّةِ حُرُوفًا بِحُرُوفٍ وَكَلِمَاتٍ بِكَلِمَاتٍ ، فَصَارَ
الْبَيَانُ فِيهَا عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ بِوَاسِطَةِ الْكَلَامِ الْمُنْطَقِيِّ ، فَلِهَذَا كَانَتْ فِي الرُّتْبَةِ
الثَّانِيَّةِ وَاحِدًا ، فَسُمِّيَ هَذَا الْبَيَانُ . يَدُلُّ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ ،
فَهُوَ أَشْرَفُهَا . وَأَهْلُ الْقُنُونِ مُعْتَنُونَ بِإِيدَاعِ مَا يَخْصُلُ فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنْ ذَلِكَ فِي
بُطُونِ الْأَوْرَاقِ بِهَذِهِ الْكِتَابَةِ ، لِتَعْلَمَ الْفَائِدَةُ فِي حُصُولِهِ لِلْغَائِبِ وَالْمُتَأَخِّرِ ، وَهَؤُلَاءِ
هُمُ الْمُؤَلِّفُونَ . وَالتَّالِيفُ بَيْنَ الْعَوَالِمِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْأُمَّمِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَثِيرٌ ، وَمُنْتَقَلَةٌ فِي
الْأَجْيَالِ وَالْأَعْصَارِ وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الشَّرَائِعِ وَالْمَلِكِ وَالْأَخْبَارِ عَنِ الْأُمَمِ وَالْدَوْلِ .

وَأَمَّا الْعُلُومُ الْفَلَسَفِيَّةُ ، فَلَا اخْتِلَافَ فِيهَا ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَأْتِي عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ ، فِيمَا تَقْتَضِيهِ الطَّبِيعَةُ الْفِكْرِيَّةُ ، فِي تَصَوُّرِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، جِسْمَانِيَّتِهَا وَرُوحَانِيَّتِهَا وَفَلَكِيَّتِهَا وَغَنْصَرِيَّتِهَا وَمَجْرَدَهَا وَمَادَّتِهَا . فَإِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ لَا تَخْتَلِفُ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ الْاِخْتِلَافُ فِي الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ لِاخْتِلَافِ الْمِلَلِ ، أَوِ التَّارِيخِيَّةِ لِاخْتِلَافِ خَارِجِ الْخَبَرِ . ثُمَّ الْكِتَابَةُ مُخْتَلِفَةٌ بِاضْطِلَاحَاتِ الْبَشَرِ فِي رُسُومِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ قَلَمًا وَخَطًا . فَمِنْهَا الْخَطُ الْحَمِيرِيُّ ، وَيُسَمَّى الْمُسْنَدُ ، وَهُوَ كِتَابَةُ حَمِيرٍ وَأَهْلُ الْيَمَنِ الْأَقْدَمِينَ ، وَهُوَ يُخَالِفُ كِتَابَةَ الْعَرَبِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ مُضَرَ ، كَمَا يُخَالِفُ لُغَتَهُمْ . وَإِنَّ الْكُلَّ عَرَبِيًّا . إِلَّا أَنَّ مَلَكَهَ هَؤُلَاءِ فِي اللِّسَانِ وَالْعِبَارَةِ غَيْرُ مَلَكَهَ أُولَئِكَ . وَلِكُلِّ مِنْهُمَا قَوَانِينٌ كَثِيرَةٌ مُسْتَقَرَّةٌ مِنْ عِبَارَتِهِمْ غَيْرُ قَوَانِينِ الْآخَرِينَ . وَرُبَّمَا يَغْلُطُ فِي ذَلِكَ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَلَكَاتِ الْعِبَارَةِ . وَمِنْهَا الْخَطُ السُّرْيَانِيُّ ، وَهُوَ كِتَابَةُ النَّبِطِ وَالْكَلدَانِيِّينَ . وَرُبَّمَا يَزْعُمُ بَعْضُ أَهْلِ الْجَهْلِ أَنَّهُ الْخَطُ الطَّبِيعِيُّ لِقَدَمِهِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَقْدَمَ الْأُمَمِ ، وَهَذَا وَهَمٌ ، وَمَذْهَبٌ غَامِي . لِأَنَّ الْأَفْعَالَ الْاِخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا بِالطَّبِيعِ ، وَإِنَّمَا هُوَ يَسْتَمِرُّ بِالْقَدَمِ وَالْمِرَانِ حَتَّى يَصِيرَ مَلَكَهَ رَاسِخَةً ، فَيُظَنُّهَا الْمُشَاهِدُ طَبِيعِيَّةً كَمَا هُوَ رَأْيُ كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَاءِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَيَقُولُونَ : الْعَرَبُ كَانَتْ تَعْرُبُ بِالطَّبِيعِ وَتَنْطِقُ بِالطَّبِيعِ ، وَهَذَا وَهَمٌ . وَمِنْهَا الْخَطُ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي هُوَ كِتَابَةُ بَنِي عَابِرَ بْنِ شَالِحٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ . وَمِنْهَا الْخَطُ اللَّطِينِيُّ ، خَطُ اللَّطِينِيِّينَ مِنَ الرُّومِ ، وَلَهُمْ أَيْضًا لِسَانٌ مُخْتَصٌّ بِهِمْ . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ اضْطِلَاحٌ فِي الْكِتَابِ يُعَزَى إِلَيْهَا وَيُخْتَصُّ بِهَا . مِثْلَ التُّرْكِ وَالْفَرَنْجِ وَالْهِنُودِ وَغَيْرِهِمْ . وَإِنَّمَا وَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِالْأَقْلَامِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى . أَمَّا السُّرْيَانِيُّ فَلِقَدَمِهِ كَمَا ذَكَرْنَا ، وَأَمَّا الْعَرَبِيُّ وَالْعِبْرِيُّ فَلِتَنْزُلِ الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَةِ بِهِمَا بِلِسَانِهِمَا . وَكَانَ هَذَانِ الْخَطَانِ بَيَانًا لِمَتَلَوَّهُمَا ، فَوَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِمَنْظُومِهِمَا أَوَّلًا وَانْبَسَطَتْ قَوَانِينُ لِاطْرَادِ الْعِبَارَةِ فِي تِلْكَ اللُّغَةِ عَلَى أَسْلُوبِهَا لِتَفْهَمَ الشَّرَائِعَ التَّكْلِيفِيَّةَ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ الرَّبَّانِيِّ . وَأَمَّا اللَّطِينِيُّ فَكَانَ الرُّومُ ، وَهُمْ أَهْلُ ذَلِكَ

اللِّسَانِ ، لِمَا أَخَذُوا بِدِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَهُوَ كُلُّهُ مِنَ التَّوْرَةِ ، كَمَا سَبَقَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ ، تَرْجَمُوا التَّوْرَةَ وَكُتِبَ الْأَنْبِيَاءُ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ إِلَى لُغَتِهِمْ ، لِيَقْتَنِصُوا مِنْهَا الْأَحْكَامَ عَلَى أَهْلِ الطَّرِيقِ . وَصَارَتْ عِنَايَتُهُمْ بِلُغَتِهِمْ وَكِتَابَتِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ سِوَاهَا . وَأَمَّا الْخُطُوطُ الْأُخْرَى فَلَمْ تَقَعْ بِهَا عِنَايَةٌ ، وَأِنَّمَا هِيَ لِكُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ اضْطِرَّاحِهَا . ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ حَصَرُوا مَقَاصِدَ التَّأْلِيفِ الَّتِي يَنْبَغِي اعْتِمَادُهَا وَالْغَاءُ مَا سِوَاهَا ، فَعَدُّوْهَا سَبْعَةً ،

أَوَّلُهَا ، اسْتِنْبَاطُ الْعِلْمِ بِمَوْضُوعِهِ وَتَقْسِيمُ أَتْبَائِهِ وَقُصُولِهِ وَتَتَبُّعُ مَسَائِلِهِ ، أَوْ اسْتِنْبَاطُ مَسَائِلَ وَمَبَاحِثَ تَعْرِضُ لِلْعَالِمِ الْمُحَقِّقِ وَيَخْرُصُ عَلَى إِيْصَالِهِ بِغَيْرِهِ ، لِتَعْمُ الْمَنْفَعَةُ بِهِ فَيُودِعُ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ فِي الْمُضْخَفِ ، لَعَلَّ الْمُتَأَخِّرَ يَظْهَرُ عَلَى تِلْكَ الْفَائِدَةِ ، كَمَا وَقَعَ فِي الْأُصُولِ فِي الْفِقْهِ . تَكَلَّمَ الشَّافِعِيُّ أَوَّلًا فِي الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ اللَّفْظِيَّةِ وَلَخَصَهَا ، ثُمَّ جَاءَ الْحَنْفِيَّةُ فَاسْتَنْبَطُوا مَسَائِلَ الْقِيَاسِ وَاسْتَوْعَبُوهَا ، وَانْتَفَعَ بِذَلِكَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَى الْآنَ .

وِثَانِيهَا ، أَنْ يَقِفَ عَلَى كَلَامِ الْأَوَّلِينَ وَتَأْلِيْفِهِمْ فَيَجِدُهَا مُسْتَفْلِقَةً عَلَى الْأَفْهَامِ وَيَفْتَحُ اللَّهُ لَهُ فِي فَهْمِهَا فَيَخْرُصُ عَلَى إِبَانَةِ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ مِنْ عَسَاءَ يَسْتَفْلِقُ عَلَيْهِ ، لِتَصِلَ الْفَائِدَةُ لِمُسْتَحِقِّهَا . وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْبَيَانِ لِكُتُبِ الْمَقُولِ وَالْمَنْقُولِ ، وَهُوَ فَضْلٌ شَرِيفٌ .

وِثَالِثُهَا ، أَنْ يَغْتَرِ الْمُتَأَخِّرُ عَلَى غَلْطٍ أَوْ خَطَاٍ فِي كَلَامِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَشْهَرِ فَضْلُهُ وَبَعْدَ فِي الْإِفَادَةِ صِيْتَهُ ، وَيَسْتَوْثِقُ فِي ذَلِكَ بِالْبُرْهَانِ الْوَاضِحِ الَّذِي لَا مَدْخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ ، فَيَخْرُصُ عَلَى إِيْصَالِ ذَلِكَ لِمَنْ بَعْدَهُ ، إِذْ قَدْ تَعَذَّرَ مَخَوُّهُ وَنَزَعُهُ بِانْتِشَارِ التَّأْلِيفِ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَعْصَارِ ، وَشُهْرَةِ الْمُؤَلِّفِ وَوُثُوقِ النَّاسِ بِمَعَارِفِهِ ، فَيُودِعُ ذَلِكَ الْكِتَابَ لِيَقِفَ عَلَى بَيَانِ ذَلِكَ .

وَرَابِعُهَا ، أَنْ يَكُونَ الْفَنُّ الْوَاحِدُ قَدْ نَقَصَتْ مِنْهُ مَسَائِلُ أَوْ قُصُولٌ بِحَسَبِ

انقسام موضوعه فيقصد المطلع على ذلك أن يتم ما نقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله ، ولا يبقى للنقص فيه مجال .

وخامسها ، أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة ، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها ، ويجعل كل مسألة في بابها ، كما وقع في المدة من رواية سخون عن ابن القاسم ، وفي العشي من رواية العشي عن أصحاب مالك ، فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها فهذب ابن أبي زيد المدة وبقيت العشي غير مهذبة . فنجد في كل باب مسائل من غيره . واستغنوا بالمدة وما فعله ابن أبي زيد فيها والبرادعي من بعده .

وسادسها ، أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى فيتنبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجميع مسائله ، فيفعل ذلك ، ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم ، كما وقع في علم البيان . فإن عبد القاهر الجرجاني وأبا يوسف السكاكي وجدا مسائله مستقرية في كتب النحو وقد جمع منها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة ، تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم ، فكتبت في ذلك تأليفهم المشهورة ، وصارت أصولاً لفن البيان ، ولقنها المتأخرون فأرَبُوا فيها على كل متقدم .

وسابعها ، أن يكون الشيء من التأليف التي هي أمهات للفنون مطولاً مسبهاً فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك ، بالإختصار والإيجاز وحذف المتكرر ، إن وقع ، مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول .

فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف ومراعاتها . وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة التي يتعين سلوكها في نظر العقلاء .

مِثْلَ انْتِحَالِ مَا تَقَدَّمَ لغيرِهِ مِنَ التَّالِيفِ أَنْ يَنْسِبَهُ إِلَى نَفْسِهِ بِبَغْضِ تَلْبِيسٍ، مِنْ تَبْدِيلِ الْأَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِ الْمُتَأَخَّرِ وَعَكْسِهِ، أَوْ يَخْذِفُ مَا يَخْتِاجُ إِلَيْهِ فِي الْفَنِّ أَوْ يَأْتِي بِمَا لَا يَخْتِاجُ إِلَيْهِ، أَوْ يُبَدِّلُ الصَّوَابَ بِالْخَطِإِ، أَوْ يَأْتِي بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ. فَهَذَا شَأْنُ الْجَهْلِ وَالْقِحَّةِ. وَلِذَا قَالَ أَرِسْطُو، لَمَّا عَدَّدَ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ، وَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَفَضْلٌ أَوْ شَرٌّ، يَعْنِي بِذَلِكَ الْجَهْلَ وَالْقِحَّةَ. نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَمَلِ فِي مَا لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ سُلُوكُهُ. وَاللَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.

الفصل السادس والثلاثون

في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ إِلَى اخْتِصَارِ الطَّرِيقِ وَالْإِنْخَاءِ فِي الْعُلُومِ يُوَلِّعُونَ بِهَا وَيُدَوِّنُونَ مِنْهَا بِرِزَامَجٍّ مُخْتَصَرٍ فِي كُلِّ عِلْمٍ يَشْتَمِلُ عَلَى حَضَرِ مَسَائِلِهِ وَأَدْلَتِهَا بِاخْتِصَارٍ فِي الْأَلْفَاظِ وَحَشْوِ الْقَلِيلِ مِنْهَا بِالْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ مِنْ ذَلِكَ الْفَنِّ. وَصَارَ ذَلِكَ مُخْلًا بِالْبَلَاغَةِ وَعَسِيراً عَلَى الْفَهْمِ. وَرُبَّمَا عَمِدُوا إِلَى الْكُتُبِ الْأُمَمَاتِ الْمُطَوَّلَةِ فِي الْفُنُونِ لِلتَّفْسِيرِ وَالْبَيَانِ فَاخْتَصَرُوهَا تَقْرِيْبًا لِلْحِفْظِ كَمَا فَعَلَ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْفِقْهِ وَابْنُ مَالِكٍ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالْخَوْنِجِيُّ فِي الْمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهِمْ. وَهُوَ فَسَادٌ فِي التَّعْلِيمِ وَفِيهِ إِخْلَالٌ بِالتَّخْصِيلِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ فِيهِ تَخْلِيطٌ عَلَى الْمُبْتَدِيءِ بِالِقَاءِ الْغَايَاتِ مِنَ الْعِلْمِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَمْ يَسْتَعِدَّ لِقَبُولِهَا بَعْدَ وَهُوَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ كَمَا سَيَأْتِي. ثُمَّ فِيهِ مَعَ ذَلِكَ شُغْلٌ كَبِيرٌ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ بِتَتَبُعِ الْأَفَاطِ الْاِخْتِصَارِ الْعَوِيضَةِ لِلْفَهْمِ بِتَرَاخُمِ الْمَعَانِي عَلَيْهَا وَضَعْوِيَّةِ اسْتِخْرَاجِ الْمَسَائِلِ مِنْ بَيْنِهَا. لِأَنَّ الْأَفَاطِ الْمُخْتَصَرَاتِ تَجِدُهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ صَعْبَةً عَوِيضَةً فَيَنْقَطِعُ فِي فَهْمِهَا حِظٌ صَالِحٌ عَنِ الْوَقْتِ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَالْمَلَكَةُ الْخَاصِلَةُ مِنَ التَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ الْمُخْتَصَرَاتِ إِذَا تَمَّ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَقْبَلْهُ آفَةٌ فَهِيَ مَلَكَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ الْمَلَكَاتِ الَّتِي تَخْصُلُ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الْبَسِيطَةِ الْمُطَوَّلَةِ لِكثَرَةِ مَا يَقَعُ

فِي تِلْكَ مِنَ التَّكْرَارِ وَالْإِحَالَةِ الْمُفِيدَيْنِ لِحُصُولِ الْمَلَكَةِ الثَّامَةِ . وَإِذَا اقْتَصَرَ عَلَى التَّكْرَارِ قُصِّرَتِ الْمَلَكَةُ لِقَلَّتِهِ كَشَانِ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُخْتَصَرَةِ فَقَصِدُوا إِلَى تَسْهِيلِ الْحِفْظِ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ فَأَرْكَبُوهُمْ صَغْبًا يَقْطَعُهُمْ عَنْ تَخْصِيلِ الْمَلَكَاتِ النَّافِعَةِ وَتَمَكُّنِهَا . « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ » . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل السابع والثلاثون

فِي وَجْهِ الصَّوَابِ فِي تَعْلِيمِ الْعُلُومِ وَطَرِيقِ إِفَادَتِهِ

إِغْلَمَ أَنَّ تَلْقِينَ الْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى التَّدْرِيجِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَقَلِيلًا قَلِيلًا يُلْقَى عَلَيْهِ أَوَّلًا مَسَائِلُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ الْفَنِّ هِيَ أَصُولُ ذَلِكَ الْبَابِ . وَيَقْرُبُ لَهُ فِي شَرْحِهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَيَرَاغَى فِي ذَلِكَ قُوَّةُ عَقْلِهِ وَاسْتِعْدَادُهُ لِقَبُولِ مَا يَرِدُ^(١) عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الْفَنِّ وَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلَكَةٌ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ إِلَّا أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ . وَغَايَتُهَا أَنَّهَا هَيَأَتُهُ لِفَهْمِ الْفَنِّ وَتَخْصِيلِ مَسَائِلِهِ . ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى الْفَنِّ ثَانِيَةً فَيَرْفَعُهُ فِي التَّلْقِينِ عَنْ تِلْكَ الرُّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَيَسْتَوْفِي الشَّرْحَ وَالْبَيَانَ وَيَخْرُجُ عَنِ الْإِجْمَالِ وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْخِلَافِ وَوَجْهِهِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الْفَنِّ فَتَجُودَ مَلَكَتُهُ . ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَدَّ فَلَا يَتْرُكُ غَوِيصًا وَلَا مَهْمًا وَلَا مَعْلَقًا إِلَّا وَضَحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مَقْفَلَهُ فَيَخْلُصُ مِنَ الْفَنِّ وَقَدْ اسْتَوَى عَلَى مَلَكَتِهِ هَذَا وَجْهَ التَّعْلِيمِ الْمُفِيدِ وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكَرَّرَاتٍ . وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْبَعْضِ فِي أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يُخْلَقُ لَهُ وَيَتَسَرُّ عَلَيْهِ وَقَدْ شَاهَدْنَا كَثِيرًا مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي أَذَرَكْنَا يَجْهَلُونَ طُرُقَ التَّعْلِيمِ وَإِفَادَاتِهِ وَيُخْضِرُونَ لِلْمُتَعَلِّمِ فِي أَوَّلِ تَعْلِيمِهِ الْمَسَائِلَ الْمُقْفَلَةَ مِنَ الْعِلْمِ وَيُطَالِبُونَهُ بِإِخْضَارِ

(١) وفي نسخة أخرى : يورد .

ذَهْنِهِ فِي حَلِّهَا وَيَخْسِبُونَ ذَلِكَ مِرَانًا عَلَى التَّعْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ وَيُكَلِّفُونَهُ رَغَى ذَلِكَ
 وَتَخْصِيلَهُ وَيَخْلُطُونَ عَلَيْهِ بِمَا يُلْقُونَ لَهُ مِنْ غَايَاتٍ ^(١) الْفَنُونِ فِي مَبَادِيهَا وَقَبْلَ أَنْ
 يَسْتَعِدَّ لِفَهْمِهَا فَإِنْ قَبُولُ الْعِلْمِ وَالِاسْتِعْدَادَاتِ لِفَهْمِهِ تَنْشَأُ تَدْرِيجًا وَيَكُونُ الْمُتَعَلِّمُ
 أَوَّلَ الْأَمْرِ عَاجِزًا عَنِ الْفَهْمِ بِالْجُمْلَةِ إِلَّا فِي الْأَقْلَ وَعَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيبِ وَالِإِجْمَالِ
 وَالْأَمْثَالِ الْحِسِّيَّةِ . ثُمَّ لَا يَزَالُ الْإِسْتِعْدَادُ فِيهِ يَتَدَرَّجُ قَلِيلًا قَلِيلًا بِمُخَالَفَةِ مَسَائِلِ
 ذَلِكَ الْفَنِّ وَتَكَرُّرِهَا عَلَيْهِ وَالِإِنْتِقَالَ فِيهَا مِنَ التَّقْرِيبِ إِلَى الْإِسْتِيعَابِ الَّذِي فَوْقَهُ .
 حَتَّى تَبْلُغَ الْمَلَكَةُ فِي الْإِسْتِعْدَادِ ثُمَّ فِي التَّخْصِيلِ وَيُحِيطُ هُوَ بِمَسَائِلِ الْفَنِّ وَإِذَا أَلْقِيَتْ
 عَلَيْهِ الْغَايَاتُ فِي الْبِدَائَاتِ وَهُوَ حِينئِذٍ عَاجِزٌ عَنِ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ وَيَعِيدُ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ
 لَهُ كُلُّ ذَهْنُهُ عَنْهَا وَحَسِبَ ذَلِكَ مِنْ صُعُوبَةِ الْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ فَتَكَاسَلَ عَنْهُ وَانْحَرَفَ عَنْ
 قَبُولِهِ وَتَمَادَى فِي هُجْرَانِهِ . وَإِنَّمَا أَتَى ذَلِكَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ . وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِ أَنْ
 يَزِيدَ مُتَعَلِّمَهُ عَلَى فَهْمِ كِتَابِهِ الَّذِي أَكْبَرَ عَلَى التَّعْلِيمِ مِنْهُ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ
 قَبُولِهِ لِلتَّعْلِيمِ مُبْتَدِئًا كَانَ أَوْ مُنْتَهِيًا وَلَا يَخْلُطُ مَسَائِلَ الْكِتَابِ بِغَيْرِهَا حَتَّى يَعِينَهُ
 مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَيُحْصَلَ أَغْرَاضُهُ وَيَسْتَوْلِي مِنْهُ عَلَى مَلَكَةِ بِهَا يَنْفَعُ فِي غَيْرِهِ . لِأَنَّ
 الْمُتَعَلِّمَ إِذَا حَصَلَ مَلَكَةٌ مَا فِي عِلْمِهِ مِنَ الْعُلُومِ اسْتَعَدَّ بِهَا لِقَبُولِ مَا بَقِيَ وَحَصَلَ لَهُ
 نَشَاطٌ فِي طَلَبِ الْمَزِيدِ وَالنُّهُوضِ إِلَى مَا فَوْقَ حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَاتِ الْعِلْمِ وَإِذَا
 خَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ عَجِزَ عَنِ الْفَهْمِ وَأَذْرَكَ الْكَلَالَ وَانْطَمَسَ فِكْرُهُ وَيَبْسُ مِنَ التَّخْصِيلِ
 وَهَجَرَ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ لَا تُطَوِّلَ عَلَى
 الْمُتَعَلِّمِ فِي الْفَنِّ الْوَاحِدِ بِتَفْرِيقِ الْمَجَالِسِ وَتَقْطِيعِ مَا بَيْنَهَا لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى النِّسْيَانِ
 وَانْقِطَاعِ مَسَائِلِ الْفَنِّ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَيَعْسُرُ حُصُولُ الْمَلَكَةِ بِتَفْرِيقِهَا . وَإِذَا
 كَانَتْ أَوَائِلُ الْعِلْمِ وَأَوَاخِرُهُ حَاضِرَةً عِنْدَ الْفِكْرَةِ مُجَانِبَةً لِلنِّسْيَانِ كَانَتْ الْمَلَكَةُ أَيْسَرَ
 حُصُولًا وَأَحْكَمَ ارْتِبَاطًا وَأَقْرَبَ صِنْفَةً لِأَنَّ الْمَلَكَاتِ إِنَّمَا تَخْصُلُ بِتَتَابُعِ الْفِعْلِ
 وَتَكَرُّرِهِ وَإِذَا تَنَوَّسَى الْفِعْلُ تَنَوَّسِيَتِ الْمَلَكَةُ النَّاشِئَةُ عَنْهُ . وَاللَّهُ عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا

(١) وفي نسخة أخرى : غرائب .

تَعْلَمُونَ . وَمِنَ الْمَذَاهِبِ الْجَمِيلَةِ وَالطَّرِيقِ الْوَاجِبَةِ فِي التَّعْلِيمِ أَنْ لَا يُخْلَطَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ عِلْمَانِ مَعًا فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قَلَّ أَنْ يَظْفَرَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَا فِيهِ مِنْ تَقْسِيمِ الْبَالِ وَانْصِرَافِهِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى تَفْهَمِ الْآخَرِ فَيَسْتَعْلِقَانِ مَعًا وَيَسْتَضِعْبَانِ وَيَعُودُ مِنْهُمَا بِالْخَبِيَةِ . وَإِذَا تَفَرَّغَ الْفِكْرُ لِتَعْلِيمِ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِ فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ أَجْدَرَ لِتَخْصِيلِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُؤَفَّقُ لِلصَّوَابِ . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمُتَعَلِّمُ أَنِّي أَتَحَفُّكَ بِفَائِدَةٍ فِي تَعْلَمِكَ فَإِنْ تَلَقَّيْتَهَا بِالْقَبُولِ وَأَمْسَكْتَهَا بِيَدِ الصَّنَاعَةِ ظَفِرْتَ بِكَتَرٍ عَظِيمٍ وَذَخِيرَةٍ شَرِيفَةٍ وَأَقْدَمَ لَكَ مَقْدَمَةً تُعِينُكَ فِي فَهْمِهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْفِكْرَ الْإِنْسَانِيَّ طَبِيعَةً مَخْصُوصَةً فَطَرَهَا اللَّهُ كَمَا فَطَرَ سَائِرَ مُبْتَدِعَاتِهِ وَهُوَ (وَجَدَانُ حَرَكَةِ لِلنَّفْسِ)^(١) فِي الْبَطْنِ الْأَوْسَطِ مِنَ الدِّمَاغِ . تَارَةً يَكُونُ مَبْدَأٌ لِلْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ وَتَارَةً يَكُونُ مَبْدَأٌ لِعِلْمٍ مَا لَمْ يَكُنْ خَاصِلًا بِأَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَطْلُوبِ . وَقَدْ يُصَوِّرُ طَرَفِيهِ^(٢) يَرُومُ نَفْيَهُ أَوْ إِثْبَاتَهُ فَيَلُوحُ لَهُ الْوَسْطُ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا أَسْرَعَ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ إِنْ كَانَ وَاحِدًا . أَوْ يَنْتَقِلُ إِلَى تَخْصِيلِ آخَرٍ إِنْ كَانَ مُتَعَدِّدًا وَيَصِيرُ إِلَى الظَّفَرِ بِمَطْلُوبِهِ . هَذَا شَأْنُ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَمَيَّزُ بِهَا الْبَشَرُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ . ثُمَّ الصَّنَاعَةُ الْمَنْطِيقِيَّةُ هِيَ كَيْفِيَّةُ فِعْلِ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ تَصِفُهُ لِتَعْلَمَ سَدَادَةُ مِنْ خَطِئِهِ وَأَنَّهَا وَإِنْ كَانَ الصَّوَابُ لَهَا ذَاتِيًّا إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَغْرُضُ لَهَا الْخَطَأَ فِي الْأَقْلَ مِنْ تَصَوُّرِ الطَّرَفَيْنِ عَلَى غَيْرِ صَوْرَتِهِمَا مِنْ اشْتِبَاهِ الْهَيْئَاتِ فِي نَظْمِ الْقَضَايَا وَتَرْتِيبِهَا لِلنَّتَاجِ فَتُعِينُ الْمَنْطِقَ لِلتَّخْلُصِ مِنْ وَرْطَةِ هَذَا الْفَسَادِ إِذَا عَرَضَ . فَالْمَنْطِقُ إِذَا أَمَرَ صِنَاعِيًّا مُسَاقٍ لِلطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَمَنْطَبِقٌ عَلَى صُورَةٍ فَعَلِيَّاهَا وَلِكَوْنِهِ أَمْرًا صِنَاعِيًّا اسْتَغْنَى عَنْهُ فِي الْأَكْثَرِ . وَلِذَلِكَ تَجِدُ كَثِيرًا مِنْ فُحُولِ النُّظَارِ فِي الْخَلِيقَةِ يَخْضُلُونَ عَلَى الْمَطَالِبِ فِي الْعُلُومِ دُونَ صِنَاعَةِ عِلْمِ الْمَنْطِقِ وَلَا سِيَّمًا مَعَ صِدْقِ النَّيَّةِ وَالتَّعَرُّضِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنْ

(١) وفي النسخة الباريسية : فعل حركة في النفس وقوة .

(٢) وفي النسخة الباريسية : طريقه ..

ذَلِكَ أَكْثَرُ مَعْنَى . وَيَسْلُكُونَ بِالطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى سَدَادِهَا فَيَنْفِضِي بِالطَّبِيعِ إِلَى
حُصُولِ الْوَسْطِ وَالْعِلْمِ بِالْمَطْلُوبِ كَمَا فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنْ دُونِ هَذَا الْأَمْرِ
الصَّنَاعِيِّ الَّذِي هُوَ الْمَنْطِقُ مُقَدِّمَةٌ أُخْرَى مِنَ التَّعَلُّمِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْأَلْفَاظِ وَدَلَالَتُهَا
عَلَى الْمَعْنَايِ الذَّهْنِيَّةِ تَرُدُّهَا ^(١) مِنْ مُشَافَهَةِ الرُّسُومِ بِالْكِتَابِ وَمُشَافَهَةِ اللِّسَانِ
بِالْخُطَابِ . فَلَا بُدَّ أَيْهَا الْمُتَعَلِّمُ مِنْ مُجَاوَزَتِكَ هَذِهِ الْحُجُبِ كُلِّهَا إِلَى الْفِكْرِ فِي
مَطْلُوبِكَ . فَأَوَّلًا ، دَلَالَةُ الْكِتَابَةِ الْمَرْسُومَةِ عَلَى الْأَلْفَاظِ الْمَقُولَةِ وَهِيَ أَخْفَاهَا ^(٢) ثُمَّ
دَلَالَةُ الْأَلْفَاظِ الْمَقُولَةِ عَلَى الْمَعْنَايِ الْمَطْلُوبَةِ ثُمَّ الْقَوَائِنُ فِي تَرْتِيبِ الْمَعْنَايِ
لِلِاسْتِدْلَالِ فِي قَوَائِمِهَا الْمَعْرُوفَةِ فِي صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ . ثُمَّ تِلْكَ الْمَعْنَايِ مُجَرَّدَةٌ فِي
الْفِكْرِ اشْتِرَاطًا يُقْتَضِ بِهَا الْمَطْلُوبُ بِالطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ بِالتَّعَرُّضِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ
وَمَوَاهِبِهِ . وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَتَجَاوَزُ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ بِسُرْعَةٍ وَلَا يَقْطَعُ هَذِهِ الْحُجُبَ فِي
التَّعَلُّمِ بِسَهُولَةٍ . بَلْ رُبَّمَا وَقَفَ الذَّهْنُ فِي حُجُبِ الْأَلْفَاظِ بِالنَّمِيقَاتِ أَوْ عَثَرَ فِي
اشْتِرَاكِ الْأَدِلَّةِ بِشَغْبِ الْجِدَالِ وَالشُّبُهَاتِ وَقَعَدَ عَنْ تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ . وَلَمْ يَكُنْ
يَتَخَلَّصُ مِنْ تِلْكَ الْغَمْرَةِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ هَذَا اللَّهُ . فَإِذَا ابْتَلَيْتَ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَعَرَضَ
لَكَ ارْتِبَاكَ ^(٣) فِي فَهْمِكَ أَوْ تَشْغِيبِ الشُّبُهَاتِ فِي ذَهْنِكَ فَاطْرَحْ ذَلِكَ وَانْتَبِذْ حُجُبَ
الْأَلْفَاظِ وَعَوَائِقِ الشُّبُهَاتِ وَاتْرِكِ الْأَمْرَ الصَّنَاعِيَّ جُمْلَةً وَاخْلُصْ إِلَى فُضَاءِ الْفِكْرِ
الطَّبِيعِيِّ الَّذِي فَطَرْتَ عَلَيْهِ . وَسَرِّحْ نَظْرَكَ فِيهِ وَفَرِّغْ ذَهْنَكَ فِيهِ لِلْفَوْصِ عَلَى
مَرَامِكَ مِنْهُ وَاضِعًا لَهَا حَيْثُ وَضَعَهَا أَكْبَارُ النُّظَارِ قَبْلَكَ مُسْتَعْرِضًا لِلْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ
كَمَا فَتَحَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَهْنِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَعَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ . فَإِذَا فَعَلْتَ
ذَلِكَ أَشْرَقَتْ عَلَيْكَ أَنْوَارُ الْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ بِالظُّفْرِ بِمَطْلُوبِكَ وَحَصَلَ الْإِمَامُ الْوَسْطُ
الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ ^(٤) هَذَا الْفِكْرِ وَنَظَرِهِ عَلَيْهِ كَمَا قُلْنَا وَحِينَئِذٍ فَارْجِعْ

(١) وفي النسخة الباريسية : تؤديها .

(٢) وفي النسخة الباريسية : احفظها .

(٣) وفي النسخة الباريسية : ارتياب .

(٤) وفي النسخة الباريسية : من مفيضات .

به إلى قَوَالِبِ الأدلّةِ وَصَوَرِهَا فَأَفْرَغَهُ فِيهَا وَوَفَّهَ حَقَّهُ مِنَ الْقَانُونِ الصَّنَاعِيِّ ثُمَّ اكْتَسَهُ
صَوَرُ الْأَلْفَاظِ وَأَبْرَزَهُ إِلَى عَالَمِ الْخِطَابِ وَالْمُشَافَهَةِ وَثَبَتَ الْعُرَى صَحِيحَ الْبُنْيَانِ ،
وَأَمَّا إِنْ وَقَفْتَ عِنْدَ الْمُنَاقَشَةِ وَالشُّبْهِةِ فِي الأدلّةِ الصَّنَاعِيَّةِ وَتَمَجِّصِ صَوَابِهَا مِنْ
خَطِئِهَا وَهَذِهِ أُمُورٌ صِنَاعِيَّةٌ وَضَعِيَّةٌ تَسْتَوِي جِهَاتُهَا الْمُتَعَدِّدَةُ وَتَتَشَابَهُ لِأَجْلِ الْوَضْعِ
وَالِاضْطِلَاحِ فَلَا تَتَمَيَّزُ جِهَةٌ الْحَقِّ مِنْهَا إِذْ جِهَةُ الْحَقِّ إِنَّمَا تَسْتَبِينُ ^(١) إِذَا كَانَتْ
بِالطَّبِيعِ فَيَسْتَمِيرُ مَا حَصَلَ مِنَ الشَّكِّ وَالِارْتِيَابِ وَتُسَدَّلُ الْحُجُبُ عَلَى الْمَطْلُوبِ
وَتَقْعُدُ بِالنَّظَرِ عَنْ تَخْصِيلِهِ . وَهَذَا شَأْنُ الْأَكْثَرِينَ مِنَ النُّظَارِ وَالْمُتَأَخِّرِينَ سَيِّمًا
مَنْ سَبَقَتْ لَهُ عُجْمَةٌ فِي لِسَانِهِ فَرَبَطَتْ عَنْ ذَهْنِهِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ شَغَبٌ بِالْقَانُونِ
الْمُنْطِقِيِّ تَعَصَّبَ لَهُ فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ الذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الْحَقِّ بِالطَّبِيعِ فَيَقَعُ فِي الْخَيْرَةِ
بَيْنَ شُبْهِهِ الْأَدِلَّةِ وَشُكُوكِهَا وَلَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْهَا . وَالذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الْحَقِّ
بِالطَّبِيعِ إِنَّمَا هُوَ الْفِكْرُ الطَّبِيعِيُّ كَمَا قُلْنَا إِذَا جَرَّدَ عَنْ جَمِيعِ الْأَوْهَامِ وَتَعَرَّضَ
النَّاطِرُ فِيهِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الْمُنْطِقُ فَإِنَّمَا هُوَ وَاصِفٌ لِفِعْلِ هَذَا الْفِكْرِ
فَيَسَاوِقُهُ فِي الْأَكْثَرِ . فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَاسْتَمِطِرْ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى مَتَى أَغْوَزَكَ فِيهِمُ
الْمَسَائِلُ تُشْرِقُ عَلَيْكَ انْوَارُهُ بِالْإِلْهَامِ إِلَى الصَّوَابِ . وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى رَحْمَتِهِ وَمَا
الْعِلْمُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

الفصل الثامن والثلاثون

في أن العلوم الالهية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل

إِغْلَمَ أَنَّ الْعُلُومَ الْمُتَعَارِفَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ عَلَى صِنْفَيْنِ ، عُلُومٌ مَقْصُودَةٌ
بِالذَّاتِ كَالشَّرْعِيَّاتِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْخَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَعِلْمُ الْكَلَامِ وَكَالطَّبِيعِيَّاتِ
وَالْإِلَهِيَّاتِ مِنَ الْفَلَسَفَةِ ، وَعُلُومٌ هِيَ وَسِيلَةٌ أَلِيَّةٌ ^(٢) لِهَذِهِ الْعُلُومِ كَالْعَرَبِيَّةِ وَالْحِسَابِ

(١) وفي النسخة الباريسية : تتميز .

(٢) وفي نسخة أخرى : آلة ووسيلة .

وغيرهما للشرعيات كالمَنطِقِ لِلْفَلَسَفَةِ . وَرُبَّمَا كَانَ آلَةُ لِعِلْمِ الْكَلَامِ وَأَصُولِ الْفِقْهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ مَقَاصِدُ فَلَا حَرَجَ فِي تَوْسِيعَةِ الْكَلَامِ فِيهَا وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ وَاسْتِكْشَافِ الْأَدِلَّةِ وَالْأَنْظَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا فِي مَلَكَتِهِ وَإِضَاحًا لِمَعَانِيهَا الْمَقْصُودَةِ . وَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ آلَةُ لِغَيْرِهَا مِثْلَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهِمَا فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ هِيَ آلَةُ لِذَلِكَ الْغَيْرِ فَقَطْ . وَلَا يَوْسَعُ فِيهَا الْكَلَامُ وَلَا تُفْرَعُ الْمَسَائِلُ لِأَنَّ ذَلِكَ مُخْرَجٌ لَهَا عَنِ الْمَقْصُودِ إِذِ الْمَقْصُودُ مِنْهَا مَا هِيَ آلَةُ لَهُ لَا غَيْرُ . فَكَلَّمَا خَرَجَتْ عَنْ ذَلِكَ خَرَجَتْ عَنِ الْمَقْصُودِ وَصَارَ الْإِشْتَغَالُ بِهَا لُغَوًا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ صُعُوبَةِ الْحُصُولِ عَلَى مَلَكَتِهَا بِطَوَّلِهَا وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا . وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَائِقًا عَنْ تَخْصِيلِ الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ لَطَوِيلِ وَسَائِلِهَا مَعَ أَنَّ شَأْنَهَا أَهَمُّ وَالْعَمْرُ يَقْصُرُ عَنْ تَخْصِيلِ الْجَمِيعِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ فَيَكُونُ الْإِشْتَغَالُ بِهَذِهِ الْعُلُومِ الْآلِيَّةِ تَضْيِيعًا لِلْعَمْرِ وَشُغْلًا بِمَا لَا يَغْنِي . وَهَذَا كَمَا فَعَلَ الْمُتَأَخَّرُونَ فِي صِنَاعَةِ النُّحُوِّ وَصِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ وَأَصُولِ الْفِقْهِ لِأَنَّهُمْ أَوْسَعُوا دَائِرَةَ الْكَلَامِ فِيهَا وَأَكْثَرُوا مِنَ التَّفَارِيعِ وَالِاسْتِدْلالاتِ بِمَا أَخْرَجَهَا عَنْ كَوْنِهَا آلَةً وَصَيَّرَهَا مِنْ الْمَقَاصِدِ ^(١) وَرُبَّمَا يَقَعُ فِيهَا لِذَلِكَ أَنْظَارٌ وَمَسَائِلٌ لَا حَاجَةَ بِهَا فِي الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ فَهِيَ مِنْ نَوْعِ اللَّغْوِ وَهِيَ أَيْضًا مُضِرَّةٌ بِالْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ لِأَنَّ الْمُتَعَلِّمِينَ اِهْتِمَامَهُمْ بِالْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ أَكْثَرُ مِنْ اِهْتِمَامِهِمْ بِوَسَائِلِهَا ^(٢) فَإِذَا قَطَعُوا الْعَمْرَ فِي تَخْصِيلِ الْوَسَائِلِ فَمَتَى يَظْفَرُونَ بِالْمَقَاصِدِ ؟ فَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ لِهَذِهِ الْعُلُومِ الْآلِيَّةِ أَنْ لَا يَسْتَبْجِرُوا فِي شَأْنِهَا وَلَا يَسْتَكْثِرُوا مِنْ مَسَائِلِهَا وَيُنَبِّهُوا الْمُتَعَلِّمَ عَلَى الْغَرَضِ مِنْهَا وَيَقْفُوا بِهِ عِنْدَهُ . فَمَنْ نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ التَّوَعُّلِ وَرَأَى مِنْ نَفْسِهِ قِيَامًا بِذَلِكَ وَكِفَايَةً بِهِ فَلْيَرْقُ ^(٣) لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْمَرَاقِبِ صَغْبًا أَوْ سَهْلًا وَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ .

(١) وفي نسخة أخرى : وصيرها مقصودة بذاتها .

(٢) وفي نسخة أخرى : بهذه الآلات والوسائل .

(٣) وفي نسخة أخرى : فليختر لنفسه .

الفصل التاسع والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه

إِغْلَمَ أَنَّ تَعْلِيمَ الْوُلْدَانِ لِلْقُرْآنِ شِعَارُ الدِّينِ أَخَذَ بِهِ أَهْلُ الْمِلَّةِ وَدَرَجُوا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ لِمَا يَسْبِقُ فِيهِ إِلَى الْقُلُوبِ مِنْ رُسُوحِ الْإِيمَانِ وَعَقَائِدِهِ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَبَعْضِ مُتَوْنِ الْأَحَادِيثِ . وَصَارَ الْقُرْآنُ أَصْلُ التَّعْلِيمِ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ مَا يَحْصُلُ بَعْدَ مِنَ الْمَلَكَاتِ . وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ التَّعْلِيمَ فِي الصِّغَرِ أَشَدُّ رُسُوحًا وَهُوَ أَصْلٌ لِمَا بَعْدَهُ لِأَنَّ السَّابِقَ الْأَوَّلَ لِلْقُلُوبِ كَالْأَسَاسِ لِلْمَلَكَاتِ . وَعَلَى حَسَبِ الْأَسَاسِ وَأَسَالِيِبِهِ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَنْبَنِي عَلَيْهِ . وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِلْوُلْدَانِ بِاخْتِلَافِهِمْ بِاعْتِبَارِ مَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ مِنَ الْمَلَكَاتِ . فَأَمَّا أَهْلُ الْمَغْرِبِ فَمَذْهَبُهُمْ فِي الْوُلْدَانِ الْإِفْتِصَارُ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ فَقَطْ ، وَأَخَذَهُمْ أَثْنَاءَ الْمَدَارَسَةِ بِالرُّسْمِ وَمَسَائِلِهِ وَاخْتِلَافَ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ فِيهِ لَا يَخْلُطُونَ ذَلِكَ بِسِوَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ لَا مِنْ حَدِيثٍ وَلَا مِنْ فِقْهِ وَلَا مِنْ شِعْرِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَى أَنْ يَحْدُثَ فِيهِ أَوْ يَنْقَطِعَ دُونَهُ فَيَكُونُ انْقِطَاعُهُ فِي الْغَالِبِ انْقِطَاعًا عَنِ الْعِلْمِ بِالْجُمْلَةِ . وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بِالْمَغْرِبِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ قُرَى^(١) الْبَزْبَرِ ، أَمِمَ الْمَغْرِبِ فِي وَلَدَانِهِمْ إِلَى أَنْ يُجَاوِزُوا حَدَّ الْبُلُوغِ إِلَى الشَّيْبَةِ . وَكَذَا فِي الْكَبِيرِ إِذَا رَجَعَ^(٢) مَدَارَسَةَ الْقُرْآنِ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنْ عُمْرِهِ . فَهُمْ لِذَلِكَ أَقْوَمُ عَلَى رِسْمِ الْقُرْآنِ وَحَفِظِهِ مِنْ سِوَاهُمْ . وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَمَذْهَبُهُمْ تَعْلِيمُ الْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُرَاعَوْنَهُ فِي التَّعْلِيمِ . إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ أَصْلَ ذَلِكَ وَأُسَّةَ وَمَنْتَعِ الدِّينِ وَالْعُلُومِ جَعَلُوهُ أَصْلًا فِي التَّعْلِيمِ . فَلَا يَقْتَصِرُونَ لَذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَطْ بَلْ يَخْلُطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوُلْدَانِ رِوَايَةَ الشُّعْرِ فِي الْغَالِبِ وَالتَّرْسُلَ وَأَخَذَهُمْ بِقَوَانِينِ

(١) وفي النسخة الباريية ، من قراء البربر .

(٢) وفي نسخة أخرى ، راجع .

العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب . ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه . بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا^(١) بغض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم . لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول . وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم . وأما أهل أفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدرسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن واستنظار^(٢) الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك . وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس لأن سند طريقهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس . واستقروا بتونس وعندهم أخذ ولدانهم بعد ذلك . وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أدري بم عنايتهم منها . والذي يثقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراديه كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان . وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصير عن الإجادة ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه وبتتبعه من أهل صنعته . فأما أهل أفريقية والمغرب فأفادهم الإقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مضروفون عن الإتيان بمثله فهم مضروفون لذلك عن الاستفعال على أساليبه والاختداء بها . وليس لهم ملكة في غير

(١) شد من العلم : أخذ . . . (قاموس) .

(٢) وفي نسخة أخرى : استنظار .

أَسَالِيهِ فَلَا يَخْصُلُ لِصَاحِبِهِ مَلَكَةٌ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحَظُهُ الْجُمُودُ فِي الْعِبَارَاتِ وَقِلَّةُ التَّصَرُّفِ فِي الْكَلَامِ . وَرُبَّمَا كَانَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةٍ فِي ذَلِكَ أَخَفَّ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لَمَّا يَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمُ الْقُرْآنَ بِعِبَارَاتِ الْعُلُومِ فِي قَوَانِينِهَا كَمَا قُلْنَا فَيَقْتَدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَمُحَاذَاةِ الْمِثْلِ بِالْمِثْلِ إِلَّا أَنَّ مَلَكَتَهُمْ فِي ذَلِكَ قَاصِرَةٌ عَنِ الْبَلَاغَةِ كَمَا سَيَأْتِي فِي فَضْلِهِ . وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَأَقَادَهُمُ التَّفَنُّنُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثْرَةُ رِوَايَةِ الشُّعْرِ وَالتَّرْسُلُ وَمُدَارَسَةُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ الْعُمُرِ ، حُصُولُ مَلَكَةٍ صَارُوا بِهَا أَغْرَفَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . وَقَصُرُوا فِي سَائِرِ الْعُلُومِ لِبُعْدِهِمْ عَنْ مُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعُلُومِ وَأَسَاسُهَا . فَكَانُوا لِذَلِكَ أَهْلَ حَظٍّ وَأَدَبٍ بَارِعٍ أَوْ مُقْصَرٍ ، عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ التَّعْلِيمُ الثَّانِي مِنْ بَعْدِ تَعْلِيمِ الصَّبِيِّ ^(١) . وَلَقَدْ ذَهَبَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي كِتَابِ رِخْلَتِهِ إِلَى طَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ فِي وَجْهِ التَّعْلِيمِ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَأَ وَقَدَّمَ تَعْلِيمَ الْعَرَبِيَّةِ وَالشُّعْرِ عَلَى سَائِرِ الْعُلُومِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ . قَالَ : « لَأَنَّ الشُّعْرَ دِيْوَانُ الْعَرَبِ وَيَدْعُو عَلَى تَقْدِيمِهِ وَتَعْلِيمِ ^(٢) الْعَرَبِيَّةِ فِي التَّعْلِيمِ ضَرُورَةٌ فَسَادَ اللُّغَةِ ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى الْحِسَابِ فَيَتِمَّرُنْ فِيهِ حَتَّى يَرَى الْقَوَانِينَ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى دَرَسِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَتَيَسَّرُ عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْمَقْدَمَةِ » . ثُمَّ قَالَ : « وَيَا غَفْلَةً أَهْلَ بِلَادِنَا فِي أَنْ يُؤَخَّرَ الصَّبِيُّ بِكِتَابِ اللَّهِ فِي أَوَامِرِهِ ^(٣) يَقْرَأُ مَا لَا يَفْهَمُ وَيَنْصِبُ فِي أَمْرِ غَيْرِهِ أَهَمُّ مَا عَلَيْهِ مِنْهُ » . ثُمَّ قَالَ : « يَنْظُرُ فِي أَصُولِ الدِّينِ ثُمَّ أَصُولِ الْفِقْهِ ثُمَّ الْجَدَلِ ثُمَّ الْحَدِيثِ وَعُلُومِهِ » وَنَهَى مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَخْلُطَ فِي التَّعْلِيمِ عِلْمَانِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُتَعَلِّمُ قَابِلًا لِذَلِكَ بِجُودَةِ الْفَهْمِ وَالنَّشَاطِ . هَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ لِعَمْرِي مَذْهَبٌ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّ الْعَوَائِدَ لَا تُسَاعِدُ عَلَيْهِ وَهِيَ أُنْمَلِكُ بِالْأَخْوَالِ وَوَجْهِ مَا اخْتَصَّتْ بِهِ الْعَوَائِدُ مِنْ تَقْدِيمِ دِرَاسَةِ الْقُرْآنِ إِثَارًا لِلتَّبَرُّكِ وَالثَّوَابِ ، وَخَشْيَةً مَا يَغْرُضُ لِلْوَلَدِ فِي جُنُونِ الصَّبِيِّ مِنَ الْآفَاتِ وَالْقَوَاطِعِ

(١) وفي نسخة أخرى : الصبا .

(٢) وفي نسخة أخرى : تقديم .

(٣) وفي نسخة أخرى : أول عمره .

عَنِ الْعِلْمِ فَيَفُوتُهُ الْقُرْآنُ . لِأَنَّهُ مَا دَامَ فِي الْحَجَرِ مُنْقَادًا لِلْحُكْمِ . فَإِذَا تَجَاوَزَ الْبُلُوغَ
وَانْحَلَّ مِنْ رِبْقَةِ الْقَهْرِ قَرُبًا عَصَفَتْ بِهِ رِيَّاحُ الشَّيْئَةِ فَأَلْقَتْهُ بِسَاحِلِ الْبَطَالَةِ
فَيَفْتَنُمُونَ فِي زَمَانِ الْحَجَرِ وَرِبْقَةِ الْحُكْمِ تَخْصِيلَ الْقُرْآنِ لِئَلَّا يَذْهَبَ خُلُوعًا مِنْهُ . وَلَوْ
حَصَلَ الْيَقِينُ بِاسْتِمْرَارِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَقَبُولِهِ التَّغْلِيمَ لَكَانَ هَذَا الْمَذْهَبُ الَّذِي
ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَوَّلَى مَا أَخَذَ بِهِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ . وَلَكِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ
لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ .

الفصل الأربعون

في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وَذَلِكَ أَنَّ إِزْهَافَ الْحَدِّ بِالتَّغْلِيمِ مُضِرٌّ بِالتَّمَعُّلِ سَيِّئًا فِي أَصَاغِرِ الْوُلْدِ لِأَنَّهُ مِنْ
سُوءِ الْمَلَكَةِ . وَمَنْ كَانَ مَرْبَاهُ بِالْعُسْفِ وَالْقَهْرِ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ أَوِ الْمَمَالِيكِ أَوِ الْخَدَمِ
سَطَا بِهِ الْقَهْرُ وَضَيَّقَ عَنِ النَّفْسِ فِي انْبِسَاطِهَا وَذَهَبَ بِنَشَاطِهَا وَدَعَاهُ إِلَى الْكُسَلِ
وَحَمَلَ عَلَى الْكَذِبِ وَالْخُبْثِ وَهُوَ التَّظَاهُرُ بِغَيْرِ مَا فِي ضَمِيرِهِ خَوْفًا مِنْ انْبِسَاطِ
الْأَيْدِي بِالْقَهْرِ عَلَيْهِ وَعِلْمُهُ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ لِذَلِكَ وَصَارَتْ لَهُ هَذِهِ عَادَةٌ وَخُلُقًا
وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ الْإِنْسَانِيَّةُ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ الْإِجْتِمَاعُ وَالتَّمَرُّنُ ^(١) وَهِيَ الْحِمِيَّةُ
وَالْمُدَافَعَةُ عَنْ نَفْسِهِ وَمَنْزِلِهِ . وَصَارَ عَيْنًا عَلَى غَيْرِهِ فِي ذَلِكَ بَلْ وَكَسَلَتْ النَّفْسُ عَنْ
اِكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ وَالْخُلُقِ الْجَمِيلِ فَأَنْقَبَضَتْ عَنْ غَايَتِهَا وَمَدَى إِنْسَانِيَّتِهَا فَارْتَكَسَ
وَعَادَ فِي أَسْنَنِ السَّافِلِينَ . وَهَكَذَا وَقَعَ لِكُلِّ أُمَّةٍ حَصَلَتْ فِي قَبْضَةِ الْقَهْرِ وَنَالَ مِنْهَا
الْعُسْفُ وَاعْتَبَرَهُ فِي كُلِّ مَنْ يَمْلِكُ أَمْرَهُ عَلَيْهِ . وَلَا تَكُونُ الْمَلَكَةُ الْكَافِلَةُ لَهُ رَفِيقَةً
بِهِ . وَتَجِدُ ذَلِكَ فِيهِمْ اسْتِقْرَاءً وَانْظَرُهُ فِي الْيَهُودِ وَمَا حَصَلَ بِذَلِكَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ
السُّوءِ حَتَّى إِنَّهُمْ يُوصَفُونَ فِي كُلِّ أَفْقٍ . وَعَصَرَ بِالْحَرْجِ ^(٢) وَمَعْنَاهُ فِي الْإِضْطِلَاحِ

(١) وفي نسخة أخرى : التمدن .

(٢) وفي نسخة أخرى : بالخرج .

المشهور الثخائب والكيد وسببه ما قلناه . فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبد^(١) عليهما في التأديب . وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين : « لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً » . ومن كلام عمر رضي الله عنه : « من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله » . حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له فإنه أعلم بمصلحته . ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده . قال خلف الأحمر : بعث إلي الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال : « يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصيّر يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مفتتمة فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه . ولا تتمعن في مسامحته فيستجلي الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » . انتهى .

الفصل الحادي والأربعون

في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفصائل ، تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة . إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً . فعلى

(١) وفي النسخة الباريسية : يشدوا عليهم وفي نسخة أخرى : يستبدوا .

قَدَرِ كَثْرَةَ الشُّيُوخِ يَكُونُ حُصُولُ الْمَلَكَاتِ وَرُسُوحَهَا . وَالِاضْطِلَاحَاتُ أَيْضًا فِي تَعْلِيمِ الْعُلُومِ مُخْلَطَةٌ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ حَتَّى لَقَدْ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْعِلْمِ . وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ ذَلِكَ إِلَّا مُبَاشَرَتُهُ لِاخْتِلَافِ الطَّرِيقِ فِيهَا مِنَ الْمُعَلِّمِينَ . فَلِقَاءُ أَهْلِ الْعُلُومِ وَتَعَدُّدُ الْمَشَايِخِ يُفِيدُهُ تَمْيِيزَ الْاضْطِلَاحَاتِ بِمَا يَرَاهُ مِنَ اخْتِلَافِ طَرِيقِهِمْ فِيهَا فَيَجْرُدُ الْعِلْمَ عَنْهَا وَيَعْلَمُ أَنَّهَا أَنْحَاءُ تَعْلِيمٍ وَطُرُقُ تَوْصِلُ وَتَنْهَضُ قُوَاهُ إِلَى الرُّسُوحِ وَالِاسْتِحْكَامِ فِي الْمَكَانِ ^(١) وَتَصَحِّحُ مَعَارِفَهُ وَتُمَيِّزُهَا ^(٢) عَنْ سِوَاهَا مَعَ تَقْوِيَةِ مَلَكَتِهِ بِالْمُبَاشَرَةِ وَالتَّلْقِينِ وَكَثْرَتِهِمَا مِنَ الْمَشِيخَةِ عِنْدَ تَعَدُّدِهِمْ وَتَنَوُّعِهِمْ . وَهَذَا لِمَنْ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ طَرِيقَ الْعِلْمِ وَالْهِدَايَةِ . فَالرَّحْلَةُ لَا بُدَّ مِنْهَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِاِكْتِسَابِ الْفَوَائِدِ وَالْكَمَالِ بِلِقَاءِ الْمَشَايِخِ وَمُبَاشَرَةِ الرِّجَالِ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

الفصل الثاني والأربعون

في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُعْتَادُونَ النَّظَرَ الْفِكْرِيَّ وَالْفُغُوصَ عَلَى الْمَعَانِي وَانْتِزَاعَهَا مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ وَتَجَرِيدَهَا فِي الدَّهْنِ ، أُمُورًا كُلِّيَّةً عَامَّةً لِيُحْكَمَ عَلَيْهَا بِأَمْرِ الْعُمُومِ لَا بِخُصُوصِ مَادَّةٍ وَلَا شَخْصٍ وَلَا جِيلٍ وَلَا أُمَّةٍ وَلَا صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ . وَيُطَبِّقُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكُلِّيَّ عَلَى الْخَارِجِيَّاتِ . وَأَيْضًا يَقِيسُونَ الْأُمُورَ عَلَى أَشْبَاهِهَا وَأُمَثَالِهَا بِمَا اعْتَادُوهُ مِنَ الْقِيَاسِ الْفِقْهِيِّ . فَلَا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ كُلُّهَا فِي الدَّهْنِ وَلَا تَصِيرُ إِلَى الْمُطَابَقَةِ إِلَّا بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ . وَلَا تَصِيرُ بِالْجُمْلَةِ إِلَى الْمُطَابَقَةِ وَإِنَّمَا يَتَفَرَّغُ مَا فِي الْخَارِجِ عَمَّا فِي الدَّهْنِ مِنْ ذَلِكَ كَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّهَا فُرُوعٌ

(١) وفي نسخة أخرى : في الملكات .

(٢) وفي النسخة الباريسية : وتصحيح معارفها وتمييزها عن سواها .

عَمَّا فِي الْمَحْفُوظِ مِنْ أُدْلَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَتَطْلُبُ مُطَابَقَةً مَا فِي الْخَارِجِ لَهَا عَكْسُ
الْأَنْظَارِ^(١) فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تَطْلُبُ فِي صَحَّتِهَا مُطَابَقَتَهَا لِمَا فِي الْخَارِجِ . فَهُمْ
مَتَعَوِّدُونَ فِي سَائِرِ أَنْظَارِهِمُ الْأُمُورَ الذَّهْنِيَّةَ وَالْأَنْظَارَ الْفِكْرِيَّةَ لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا .
وَالسِّيَاسَةُ يَخْتِاجُ صَاحِبُهَا إِلَى مُرَاعَاةِ مَا فِي الْخَارِجِ وَمَا يَلْحَقُهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَيَتَّبِعُهَا
فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ . وَلَعَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَا يَمْنَعُ مِنَ إلْحَاقِهَا بِشَيْءٍ أَوْ مِثَالٍ وَيُنَاقِي الْكُلِّيَّ
الَّذِي يُحَاوِلُ تَطْبِيقَهُ عَلَيْهَا . وَلَا يُقَاسُ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ عَلَى الْآخِرِ كَمَا
اشْتَبَهَا فِي أَمْرِ وَاحِدٍ فَلَعَلَّهُمَا اخْتَلَفَا فِي أُمُورٍ فَتَكُونُ الْعُلَمَاءُ لِأَجْلِ مَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ
تَعْمِيمِ الْأَحْكَامِ وَقِيَاسِ الْأُمُورِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ إِذَا نَظَرُوا فِي السِّيَاسَةِ أَفْرَعُوا ذَلِكَ
فِي قَالِبِ أَنْظَارِهِمْ وَنَوْعِ اسْتِدْلَالَتِهِمْ فَيَقَعُونَ فِي الْغَلَطِ كَثِيرًا وَلَا يُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ .
وَيَلْحَقُ بِهِمْ أَهْلُ الذِّكَاةِ وَالْكَيْسِ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانِ لِأَنَّهُمْ يَنْزِعُونَ بِثَقُوبِ أَذْهَانِهِمْ
إِلَى مِثْلِ شَأْنِ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْفُوصِ عَلَى الْمَعَانِي وَالْقِيَاسِ وَالْمُحَاكَاةِ فَيَقَعُونَ فِي
الْغَلَطِ . وَالْعَامِيُّ السَّلِيمُ الطَّبِيعِ الْمُتَوَسِّطِ الْكَيْسِ لِقُصُورِ فِكْرِهِ عَنْ ذَلِكَ وَعَدَمِ
اعْتِيَادِهِ إِبَاهُ يَقْتَصِرُ لِكُلِّ مَادَّةٍ عَلَى حُكْمِهَا وَفِي كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ
عَلَى مَا اخْتَصَّ بِهِ وَلَا يُعَدِّي الْحُكْمَ بِقِيَاسٍ وَلَا تَعْمِيمٍ وَلَا يَفَارِقُ فِي أَكْثَرِ نَظَرِهِ
الْمَوَادَّ الْمَحْسُوسَةَ وَلَا يُجَاوِزُهَا فِي ذَهْنِهِ كَالسَّابِحِ لَا يَفَارِقُ الْبَرَّ عِنْدَ الْمَوْجِ . قَالَ
الشَّاعِرُ :

فَلَا تُوَعِّلَنَّ إِذَا مَا سَبَخْتَ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ

فَيَكُونُ مَأْمُوتًا مِنَ النَّظَرِ فِي سِيَاسَتِهِ مُسْتَقِيمِ النَّظَرِ فِي مُعَامَلَةِ أُنْبَاءِ جَنْسِهِ
فَيَحْسُنُ مَعَاشَهُ وَتَتَدَفَّعُ آفَاتُهُ وَمَضَارُهُ بِاسْتِقَامَةِ نَظَرِهِ . وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .
وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ^(٢) أَنَّ صِنَاعَةَ الْمَنْطِقِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ الْغَلَطِ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْإِنْتِزَاعِ
وَبُعْدِهَا عَنِ الْمَحْسُوسِ فَإِنَّهَا تَنْظُرُ فِي الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِي . وَلَعَلَّ الْمَوَادَّ فِيهَا

(١) الأصح أن يقول كلمة النظر لأنه لا وجود لكلمة انظار في (لسان العرب) .

(٢) وفي النسخة البازيسية : تعلم .

مَا يُمَانِعُ تِلْكَ الْأَحْكَامَ وَيُنَافِيهَا عِنْدَ مُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ الْيَقِينِي . وَأَمَّا النَّظَرُ فِي
الْمَقْذُولَاتِ الْأَوَّلِ وَهِيَ الَّتِي تَجْرِيدهَا قَرِيبٌ فَلَيْسَ كَذَلِكَ لِأَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ وَصُورُ
الْمَحْسُوسَاتِ حَافِظَةٌ مُؤَدَّنَةٌ بِتَصْدِيقِ انْطِبَاقِهِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ
التَّوْفِيقُ .

الفصل الثالث والأربعون

في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم

مِنَ الْغَرِيبِ الْوَاقِعُ أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَكْثَرُهُمُ الْعَجَمُ لَا مِنْ
الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا مِنْ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ . وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ الْعَرَبِيُّ فِي
نِسْبَتِهِ فَهُوَ أَعْجَمِيٌّ فِي لُغَتِهِ وَمَرْبَاهُ وَمَشِخْتِهِ مَعَ أَنَّ الْمِلَّةَ عَرَبِيَّةٌ وَصَاحِبُ شَرِيعَتِهَا
عَرَبِيٌّ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمِلَّةَ فِي أَوَّلِهَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا عِلْمٌ وَلَا صِنَاعَةٌ لِمُقْتَضَى
أَحْوَالِ السُّدَاجَةِ وَالْبِدَاوَةِ وَإِنَّمَا أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ الَّتِي هِيَ أَوْامِرُ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ كَانَ
الرِّجَالُ يَنْقُلُونَهَا فِي صُدُورِهِمْ وَقَدْ عَرَفُوا مَا أَخَذَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِمَا تَلَقَّوْهُ مِنْ
صَاحِبِ الشَّرْعِ وَأَصْحَابِهِ . وَالْقَوْمُ يَوْمئِذٍ عَرَبٌ لَمْ يَعْرِفُوا أَمْرَ التَّغْلِيمِ وَالتَّأْلِيفِ
وَالْتَدْوِينِ وَلَا دَفَعُوا إِلَيْهِ وَلَا دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ . وَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ زَمَنَ
الصُّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ الْمُخْتَصِّينَ بِحَمْلِ ذَلِكَ . وَنَقَلَهُ إِلَى الْقُرَاءِ أَيِ
الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ وَلَيْسُوا أَمِّيِّينَ لِأَنَّ الْأُمِّيَّةَ يَوْمئِذٍ صِفَةٌ غَائِمَةٌ فِي الصُّحَابَةِ بِمَا
كَانُوا عَرَبًا فَقِيلَ لِحَمَلَةِ الْقُرْآنِ يَوْمئِذٍ قُرَاءٌ إِشَارَةً إِلَى هَذَا . فَهُمْ قُرَاءٌ لِكِتَابِ اللَّهِ
وَالسُّنَّةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ إِلَّا مِنْهُ وَمِنَ الْحَدِيثِ
الَّذِي هُوَ فِي غَالِبِ مَوَارِدِهِ تَفْسِيرُ لَهُ وَشَرْحُ . قَالَ ﷺ : « تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ
تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا : كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّتِي » . فَلَمَّا بَعُدَ الثَّقَلُ مِنْ لَدُنْ دَوْلَةِ
الرَّشِيدِ فَمَا بَعُدَ احْتِجَاجٌ إِلَى وَضْعِ التَّفَاسِيرِ الْقُرْآنِيَّةِ وَتَقْيِيدِ الْحَدِيثِ مَخَافَةَ ضَيَاعِهِ ثُمَّ

اِحتِيجَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَسَانِيدِ وَتَعْدِيلِ النَّاقِلِينَ ^(١) لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَسَانِيدِ وَمَا دُونَهُ ثُمَّ كَثُرَ اسْتِخْرَاجُ أَحْكَامِ الْوَاقِعَاتِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَفَسَدَ مَعَ ذَلِكَ اللِّسَانُ فَاحْتِيجَ إِلَى وَضْعِ الْقَوَانِينِ النَّحْوِيَّةِ وَصَارَتِ الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا مَلَكَاتٍ فِي الْاسْتِنْبَاطَاتِ وَالِاسْتِخْرَاجِ وَالتَّنْظِيرِ وَالْقِيَاسِ وَاجْتَنَحَتْ ^(٢) إِلَى عُلُومٍ أُخْرَى وَهِيَ الْوَسَائِلُ لَهَا مِنْ مَعْرِفَةِ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ وَقَوَانِينِ ذَلِكَ الْاسْتِنْبَاطِ وَالْقِيَاسِ وَالذَّبِّ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدِلَّةِ لِكَثْرَةِ الْبِدْعِ وَالْإِلْحَادِ فَصَارَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ كُلُّهَا عُلُومًا ذَاتَ مَلَكَاتٍ مُخْتَاجَةً إِلَى التَّعْلِيمِ فَانْدَرَجَتْ فِي جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ . وَقَدْ كُنَّا قَدَمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ مِنْ مُنْتَحَلِ الْحَضَرِ وَأَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهَا فَصَارَتِ الْعُلُومُ لِذَلِكَ حَضَرِيَّةً وَبَعْدَ عَنْهَا الْعَرَبُ وَعَنْ سَوْقِهَا . وَالْحَضَرُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ هُمْ الْعَجَمُ أَوْ مَنْ هُمْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْمَوَالِي وَأَهْلُ الْخَوَاصِرِ الَّذِينَ هُمْ يَوْمِيذٍ تَبِعَ لِلْعَجَمِ فِي الْحَضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْجَرَفِ لِأَنَّهُمْ أَقْوَمُ عَلَى ذَلِكَ لِلْحَضَارَةِ الرَّاسِخَةِ فِيهِمْ مُنْذُ دَوْلَةِ الْفُرسِ فَكَانَ صَاحِبُ صِنَاعَةِ النُّحُوْسِيِّنَ وَالْفَارِسِيِّ مِنْ بَعْدِهِ وَالزَّجَاجِ مِنْ بَعْدِهِمَا وَكُلُّهُمْ عَجَمٌ فِي أَنْسَابِهِمْ . وَإِنَّمَا رُبُّوا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَانْتَسَبَوْهُ بِالْمَرْبِيِّ وَمُخَالَطَةِ الْعَرَبِ وَصَيْرُوهُ قَوَانِينَ وَفَنَّا لِمَنْ بَعْدَهُمْ . وَكَذَا حَمَلَةُ الْحَدِيثِ الَّذِينَ حَفِظُوهُ عَنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمْ عَجَمٌ أَوْ مُسْتَفْجِمُونَ بِاللُّغَةِ وَالْمَرْبِيِّ لِاتِّسَاعِ الْفَنِّ بِالْعِرَاقِ . وَكَانَ عُلَمَاءُ أَصُولِ الْفِقْهِ كُلُّهُمْ عَجَمًا كَمَا يُعْرَفُ وَكَذَا حَمَلَةُ عِلْمِ الْكَلَامِ وَكَذَا أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ . وَلَمْ يَقُمْ بِحِفْظِ الْعِلْمِ وَتَدْوِينِهِ إِلَّا الْأَعَاجِمُ . وَظَهَرَ مُضْدَاقُ قَوْلِهِ ﷺ : « لَوْ تَعَلَّقَ الْعِلْمُ بِأَكْنَافِ السَّمَاءِ لَنَالَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ » . وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ أَدْرَكُوا هَذِهِ الْحَضَارَةَ وَسَوْقَهَا وَخَرَجُوا إِلَيْهَا عَنِ الْبِدَاوَةِ فَشَغَلَتْهُمْ الرِّئَاسَةُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَمَا دَفَعُوا إِلَيْهِ مِنَ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ عَنِ الْقِيَامِ بِالْعِلْمِ . وَالنَّظَرُ فِيهِ . فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ الدَّوْلَةِ وَحَامِيَتِهَا وَأُولَى سِيَاسَتِهَا مَعَ مَا يَلْحَقُهَا مِنْ

(١) وفي النسخة الباريية : الرواة .

(٢) وفي النسخة الباريية : واحتيج .

الْأَنفَةِ عَنِ انْتِحَالِ الْعِلْمِ حِينَئِذٍ بِمَا صَارَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ . وَالرُّؤْسَاءُ أَبَدًا
يَسْتَنكِفُونَ عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْمِهَنِ وَمَا يَجْرُ إِلَيْهَا وَدَفَعُوا ذَلِكَ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ مِنَ الْعَجَمِ
وَالْمَوْلِدِينَ . وَمَا زَالُوا يَرَوْنَ لَهُمْ حَقَّ الْقِيَامِ بِهِ فَإِنَّهُ دِينُهُمْ وَعُلُومُهُمْ وَلَا يَخْتَفِرُونَ
حَمَلَتَهَا كُلَّ الْإِحْتِقَارِ . حَتَّى إِذَا خَرَجَ الْأَمْرُ مِنَ الْعَرَبِ جُمْلَةً وَصَارَ لِلْعَجَمِ صَارَتْ
الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ غَرِيبَةً النَّسَبَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْمُلْكِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُعْدِ عَنْ نِسَبَتِهَا
وَأَمْتِهَا حَمَلَتَهَا بِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ بَعْدَاءُ عَنْهُمْ مُشْتَغِلِينَ بِمَا لَا يُغْنِي وَلَا يُجِدِي
عَنْهُمْ ^(١) فِي الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي نَقْلِ ^(٢) الْمَرَاتِبِ الدِّيْنِيَّةِ . فَهَذَا الَّذِي
قَرَّرْنَاهُ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنْ حَمَلَةَ الشَّرِيعَةِ أَوْعَامَتُهُمْ مِنَ الْعَجَمِ . وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ
أَيْضًا فَلَمْ تَظْهَرْ فِي الْمِلَّةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَمَيَّزَ حَمَلَةُ الْعِلْمِ وَمَوْلَاهُ . وَاسْتَقَرَّ الْعِلْمُ كُلُّهُ
صِنَاعَةً فَاخْتَصَّتْ بِالْعَجَمِ وَتَرَكَّتْهَا الْعَرَبُ وَانْصَرَفُوا عَنِ انْتِحَالِهَا فَلَمْ يَحْمِلْهَا إِلَّا
الْمُعَرَّبُونَ مِنَ الْعَجَمِ شَأْنَ الصَّنَائِعِ كَمَا قُلْنَا أَوَّلًا . فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ فِي الْأُمُصَارِ
الْإِسْلَامِيَّةِ مَا دَامَتِ الْحِضَارَةُ فِي الْعَجَمِ وَبِلَادِهِمْ مِنَ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ
النَّهْرِ . فَلَمَّا خَرِبَتْ تِلْكَ الْأُمُصَارُ وَذَهَبَتْ مِنْهَا الْحِضَارَةُ الَّتِي هِيَ سِرُّ اللَّهِ فِي
حُصُولِ الْعِلْمِ وَالصَّنَائِعِ ذَهَبَ الْعِلْمُ مِنَ الْعَجَمِ جُمْلَةً لِمَا شَمَلَهُمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَاخْتَصَّ
الْعِلْمُ بِالْأُمُصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْحِضَارَةِ . وَلَا أَوْفَرَ الْيَوْمَ فِي الْحِضَارَةِ مِنْ مِصْرَ فَهِيَ أُمُّ
الْعَالَمِ وَإِيَّانَ الْإِسْلَامِ وَيَنْبُوعُ الْعِلْمِ وَالصَّنَائِعِ . وَبَقِيَ بَعْضُ الْحِضَارَةِ فِي مَا وَرَاءَ
النَّهْرِ لِمَا هُنَاكَ مِنَ الْحِضَارَةِ بِالدَّوْلَةِ الَّتِي فِيهَا فَلَهُمْ بِذَلِكَ حِصَّةٌ مِنَ الْعُلُومِ
وَالصَّنَائِعِ لَا تَنْكُرُ . وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى ذَلِكَ كَلَامُ بَعْضِ عُلَمَائِهِمْ مِنْ تَالِيفِ وَصَلَتْ إِلَيْنَا
إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ وَهُوَ سَعْدُ الدِّينِ التُّفْتَازَانِيُّ . وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْعَجَمِ فَلَمْ نَرِ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ
الْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ وَنَصِيرِ الدِّينِ الطُّوسِيِّ كَلَامًا يَعُولُ عَلَى نَهَائِيَّتِهِ فِي الْإِصَابَةِ .
فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَتَأَمَّلْهُ تَرَعْجِبًا فِي أَحْوَالِ الْخَلِيقَةِ . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لَا شَرِيكَ لَهُ

(١) وفي نسخة أخرى : عليهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : فصل .

لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ .

الفصل الرابع والأربعون

في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان

قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي

وَالسِّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ مَبَاحِثَ الْعُلُومِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي الْمَعَانِي الذِّهْنِيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ ،
مِنْ بَيْنِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ ، الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَبَاحِثِهَا فِي الْأَلْفَاظِ وَمَوَادِّهَا مِنَ الْأَحْكَامِ
الْمُتَلَقَّاةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلُغَاتِهَا الْمُؤَدِّيَّةُ لَهَا ، وَهِيَ كُلُّهَا فِي الْخِيَالِ ، وَبَيْنَ
الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَهِيَ فِي الذِّهْنِ . وَاللُّغَاتُ إِنَّمَا هِيَ تَرْجُمَانُ عَمَّا فِي الضَّمَائِرِ مِنْ
تِلْكَ الْمَعَانِي ، يُؤَدِّيهَا بَعْضٌ إِلَى بَعْضٍ بِالشَّافَهَةِ فِي الْمُنَاطَرَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَمُمَارَسَةِ
الْبَحْثِ بِالْعُلُومِ لِتَحْصِيلِ مَلَكَتِهَا بِطَوْلِ الْمِرَانِ عَلَى ذَلِكَ . وَالْأَلْفَاظُ وَاللُّغَاتُ
وَسَائِطٌ وَحُجُبٌ بَيْنَ الضَّمَائِرِ ، وَرَوَابِطٌ وَخَتَامٌ عَنِ الْمَعَانِي . وَلَا بُدَّ فِي اقْتِنَاصِ
تِلْكَ الْمَعَانِي مِنْ الْأَفَافِ لِمَعْرِفَةِ دَلَالَتِهَا اللُّغَوِيَّةِ عَلَيْهَا ، وَجُودَةِ الْمَلَكَاتِ لِنَظَرِ
فِيهَا ، وَإِلَّا فَيُقْتَنَاضُ عَلَيْهِ اقْتِنَاصُهَا زِيَادَةً عَلَى مَا يَكُونُ فِي مَبَاحِثِهَا الذِّهْنِيَّةِ مِنْ
الِإِعْتِيَاصِ . وَإِذَا كَانَتْ مَلَكَتُهُ فِي تِلْكَ الدَّلَالَاتِ رَاسِخَةً ، بِحَيْثُ يَتَبَادَرُ الْمَعَانِي
إِلَى ذَهْنِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَفَافِ عِنْدَ اسْتِعْمَالِهَا ، شَأْنُ الْبَدِيهِيِّ وَالْحِجْلِيِّ ، زَالَ ذَاكَ
الْحِجَابُ بِالْجُمْلَةِ بَيْنَ الْمَعَانِي وَالْفَهْمِ ، أَوْ خَفَّ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مُعَانَاةُ مَا فِي الْمَعَانِي
مِنْ الْمَبَاحِثِ فَقَطْ . هَذَا كُلُّهُ إِذَا كَانَ التَّعْلِيمُ تَلْقِينًا وَبِالْخَطَابِ وَالْعِبَارَةِ . وَأَمَّا إِنْ
اِخْتِاجَ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى الدِّرَاسَةِ وَالتَّقْيِيدِ بِالْكِتَابِ وَمُشَافَهَةِ الرُّسُومِ الْخَطِيَّةِ مِنْ
الدَّوَابِّ بِمَسَائِلِ الْعُلُومِ ، كَانَ هُنَالِكَ حِجَابٌ آخَرُ بَيْنَ الْخَطِّ وَرُسُومِهِ فِي
الْكِتَابِ ، وَبَيْنَ الْأَفَافِ الْمُقُولَةِ فِي الْخِيَالِ . لِأَنَّ رُسُومَ الْكِتَابَةِ لَهَا دَلَالَةٌ خَاصَّةٌ عَلَى

الألفاظ المَقُولَة . وَمَا لَمْ تُعْرَفْ بِتِلْكَ الدَّلَالَةِ تَعَذَّرَتْ مَعْرِفَةُ الْعِبَارَةِ ، وَإِنْ عُرِفَتْ
 بِمَلَكَهٖ قَاصِرَةٌ كَانَتْ مَعْرِفَتُهَا أَيْضاً قَاصِرَةً ، وَيَزْدَادُ عَلَى النَّاطِرِ وَالْمُتَعَلِّمِ بِذَلِكَ
 حِجَابٌ آخَرٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُطْلُوبِهِ ، مِنْ تَخْصِيلِ مَلَكَاتِ الْعُلُومِ أَغْوَصُ مِنَ الْحِجَابِ
 الْأَوَّلِ . وَإِذَا كَانَتْ مَلَكَتُهُ فِي الدَّلَالَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْخَطِيئَةِ مُسْتَحْكِمَةً ارْتَفَعَتْ الْحُجُبُ
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعَانِي . وَصَارَ إِنَّمَا يُعَانِي فِيهِمْ مَبَاحِثُهَا فَقَطْ . هَذَا شَأْنُ الْمَعَانِي مَعَ
 الْأَلْفَافِ وَالْخَطِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ لُغَةٍ . وَالْمُتَعَلِّمُونَ لِذَلِكَ فِي الصِّغَرِ أَشَدَّ اسْتِحْكَاماً
 لِمَلَكَاتِهِمْ . ثُمَّ إِنَّ الْمِلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَمَّا اتَّسَعَ مَلَكَهَا وَانْدَرَجَتْ الْأُمَمُ فِي طَيْبِهَا وَدَرَسَتْ
 عُلُومُ الْأَوَّلِينَ بِنَبُوتِهَا وَكِتَابِهَا ، وَكَانَتْ أُمِّيَّةَ النَّزْعَةِ وَالشَّعَارِ ، فَأَخَذَ الْمُلْكُ وَالْعِزَّةُ
 وَسُخْرِيَةُ الْأُمَمِ لَهُمْ بِالْحَضَارَةِ وَالتَّهْذِيبِ ، وَصَيَّرُوا عُلُومَهُمُ الشَّرْعِيَّةَ صِنَاعَةً ، بَعْدَ
 أَنْ كَانَتْ نَقْلاً ، فَحَدَّثَتْ فِيهِمُ الْمَلَكَاتُ ، وَكَثُرَتْ الدَّوَاوِينُ وَالتَّالِيفُ ، وَتَشَوَّفُوا إِلَى
 عُلُومِ الْأُمَمِ فَنَقَلُوهَا بِالتَّرْجُمَةِ إِلَى عُلُومِهِمْ وَأَفْرَعُوهَا فِي قَالِبِ أَنْظَارِهِمْ ، وَجَرَّدُوهَا
 مِنْ تِلْكَ اللُّغَاتِ الْأَعْجَمِيَّةِ إِلَى لِسَانِهِمْ وَأَرَبَوْا فِيهَا عَلَى مَذَارِكِهِمْ ، وَبَقِيَتْ تِلْكَ
 الدَّفَائِرُ الَّتِي بَلَّغَتْهُمْ الْأَعْجَمِيَّةُ نَسِياً مَنْسياً وَطِلَلاً مِنْهُجوراً وَهَبَاءً مَنْشوراً . وَأَضْبَحَتْ
 الْعُلُومُ كُلُّهَا بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَدَوَاوِينُهَا الْمُسْطَرَّةُ بِخَطِّهِمْ ، وَاحْتِجَاجُ الْقَائِمُونَ بِالْعُلُومِ
 إِلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَاتِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْخَطِيئَةِ فِي لِسَانِهِمْ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَلْسِنِ ، لَدَرَسِيهَا
 وَذَهَابَ الْعِنَايَةُ بِهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ اللُّغَةَ مَلَكَتُ فِي اللِّسَانِ ، وَكَذَا الْخَطُّ صِنَاعَةٌ
 مَلَكَتُهَا فِي الْيَدِ ، فَإِذَا تَقَدَّمَتْ فِي اللِّسَانِ مَلَكَتُ الْعُجْمَةِ ، صَارَ مُقْصِراً فِي اللُّغَةِ
 الْعَرَبِيَّةِ ، لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمَلَكَتُ إِذَا تَقَدَّمَتْ فِي صِنَاعَةٍ بِمَحَلٍّ ، فَقُلَّ أَنْ يُجِيدَ
 صَاحِبُهَا مَلَكَتُ فِي صِنَاعَةٍ أُخْرَى ، وَهُوَ ظَاهِرٌ . وَإِذَا كَانَ مُقْصِراً فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
 وَدَلَالَتِهَا اللَّفْظِيَّةِ وَالْخَطِيئَةِ اغْتَصَصَ عَلَيْهِ فِيهِمُ الْمَعَانِي مِنْهَا كَمَا مَرَّ . إِلَّا أَنْ تَكُونَ
 مَلَكَتُ الْعُجْمَةِ السَّابِقَةِ لَمْ تَسْتَخْكِمِ حِينَ انْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، كَأَصَاغِرِ أَبْنَاءِ
 الْعُجْمِ الَّذِينَ يَرَبُّونَ مَعَ الْعَرَبِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَخْكِمَ عُجْمَتَهُمْ ، فَتَكُونَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ
 كَانَتْهَا السَّابِقَةُ لَهُمْ ، وَلَا يَكُونُ عِنْدَهُمْ تَقْصِيرٌ فِي فِيهِمُ الْمَعَانِي مِنَ الْعَرَبِيَّةِ . وَكَذَا

أَيْضاً شَأْنٌ مَنْ سَبَقَ لَهُ تَعَلُّمُ الْخَطِّ الْأَعْجَمِيِّ قَبْلَ الْعَرَبِيِّ . وَلِهَذَا نَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْ
 عُلَمَاءِ الْأَعَاجِمِ فِي دُرُوسِهِمْ وَمَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ يَغْدُلُونَ عَنْ نَقْلِ التَّفَاسِيرِ مِنَ الْكُتُبِ
 إِلَى قِرَاءَتِهَا ظَاهِراً يُخَفِّفُونَ بِذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مَوْثِقَةً بَغْضِ الْحُجُبِ لِيَقْرُبَ عَلَيْهِمْ
 تَنَاوُلُ الْمَعَانِي . وَصَاحِبُ الْمَلَكَةِ فِي الْعِبَارَةِ وَالْخَطِّ مُسْتَفْنٍ عَنْ ذَلِكَ ، بِتَمَامِ
 مَلَكَتِهِ ، وَإِنَّ صَارَ لَهُ فَهْمُ الْأَقْوَالِ مِنَ الْخَطِّ ، وَالْمَعَانِي مِنَ الْأَقْوَالِ ، كَالْجِبِلَةِ
 الرَّاسِخَةِ ، وَارْتَفَعَتِ الْحُجُبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعَانِي . وَرُبَّمَا يَكُونُ الدُّوؤُبُ عَلَى
 التَّعْلِيمِ وَالْمِرَانِ عَلَى اللَّغَةِ ، وَمُمَارَسَةُ الْخَطِّ يُفِيضَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى تَمَكُّنِ الْمَلَكَةِ ،
 كَمَا نَجِدُهُ فِي الْكَثِيرِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَعَاجِمِ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي النَّادِرِ . وَإِذَا قَرُنَ بِنَظِيرِهِ مِنْ
 عُلَمَاءِ الْعَرَبِ وَأَهْلِ طَبَقَتِهِ مِنْهُمْ ، كَانَ بَاعُ الْعَرَبِيِّ أَطْوَلَ وَمَلَكَتُهُ أَقْوَى ، لِمَا عِنْدَ
 الْمُسْتَفْجِمِ مِنَ الْفُتُورِ بِالْعَجَمَةِ السَّابِقَةِ الَّتِي يُؤَثِّرُ الْقُصُورُ بِالضَّرُورَةِ وَلَا يَغْتَرِضُ
 ذَلِكَ بِمَا تَقَدَّمَ بِأَنَّ عُلَمَاءَ الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمُ الْعَجَمُ ، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَجَمِ هُنَالِكَ عَجَمُ
 النَّسَبِ لِتَدَاوُلِ الْحَضَارَةِ فِيهِمُ الَّتِي قَرَرْنَا أَنَّهَا سَبَبٌ لِإِنْتِحَالِ الصَّنَائِعِ وَالْمَلَكَاتِ
 وَمِنْ جُمْلَتِهَا الْعُلُومُ . وَأَمَّا عَجَمَةُ اللَّغَةِ فَلَيْسَتْ مِنْ ذَلِكَ ، وَهِيَ الْمُرَادَةُ هُنَا . وَلَا
 يَغْتَرِضُ ذَلِكَ أَيْضاً مِمَّا كَانَ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي عُلُومِهِمْ مِنْ رُسُوحِ الْقَدَمِ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا
 تَعَلَّمُوهَا مِنْ لُغَتِهِمُ السَّابِقَةِ لَهُمْ وَخَطَّتِهَا الْمُتَعَارِفُ بَيْنَهُمْ . وَالْأَعْجَمِيُّ الْمُتَعَلِّمُ لِلْعِلْمِ
 فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ يَأْخُذُ الْعِلْمَ بِغَيْرِ لِسَانِهِ الَّذِي سَبَقَ إِلَيْهِ ، وَمِنْ غَيْرِ خَطِّهِ الَّذِي
 يَعْرِفُ مَلَكَتَهُ . فَلِهَذَا يَكُونُ لَهُ ذَلِكَ حِجَاباً كَمَا قُلْنَا . وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ
 أَهْلِ اللِّسَانِ الْأَعْجَمِيِّ مِنَ الْفَرَسِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ وَالْبَرْبَرِ وَالْفَرَنْجِ ، وَسَائِرِ مَنْ لَيْسَ
 مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . وَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِلْمُتَوَشِّعِينَ .

الفصل الخامس والأربعون

في علوم اللسان العربي

أركانها أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفة ضرورتها على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة . وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفيق بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عليها فنأخذ والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولا لجعل أصل الإفادة . وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإغراب الدال على الإسناد والمُسند والمُسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر . فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليس كذلك اللغة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

علم النحو

إعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده . وتلك العبارة فعل لسانيّ ناشئ عن القصد بإفادة الكلام فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم . وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني . مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجزور أغني المضاف ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال أي الحركات إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى . وليس يوجد ذلك إلا في لغة

العَرَبِ . وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ اللُّغَاتِ فَكُلُّ مَعْنَى أَوْ حَالٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْفَاطِ تَخْصُّهُ
بِالدَّلَالَةِ وَلِذَلِكَ نَجِدُ كَلَامَ الْعَجَمِ مِنْ مُخَاطَبَاتِهِمْ أَطْوَلَ مِمَّا تُقَدِّرُهُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ .
وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : « أَوْتَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَاخْتَصَرْتُ لِيَ الْكَلَامُ
اخْتِصَارًا » . فَصَارَ لِلْخُرُوفِ فِي لُغَتِهِمْ . وَالْحَرَكَاتِ وَالْهَيْئَاتِ أَيِ الْأَوْضَاعِ اعْتِبَارٌ فِي
الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ غَيْرِ مُتَكَلِّفِينَ فِيهِ لِصِنَاعَةِ يَسْتَفِيدُونَ ذَلِكَ مِنْهَا . إِنَّمَا هِيَ
مَلَكَةٌ فِي أَلْسِنَتِهِمْ يَأْخُذُهَا الْآخَرُ عَنِ الْأَوَّلِ كَمَا تَأْخُذُ صَبِيَانُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ لُغَاتِنَا .
فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَفَارَقُوا الْحِجَازَ لِيَطْلُبَ الْمَلِكُ الَّذِي كَانَ فِي أَيْدِي الْأُمَمِ وَالْدُّوْلِ
وَحَالَطُوا الْعَجَمَ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الْمَلَكَةُ بِمَا أَلْقَى إِلَيْهَا السَّمْعُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ الَّتِي
لِلْمُسْتَعْرَبِينَ ^(١) . وَالسَّمْعُ أَبُو الْمَلَكَاتِ اللَّسَانِيَّةِ فَفَسَدَتْ بِمَا أَلْقَى إِلَيْهَا مِمَّا يُغَايِرُهَا
لِجُنُوحِهَا إِلَيْهِ بِاعْتِيَادِ السَّمْعِ . وَخَشِيَ أَهْلُ الْعُلُومِ مِنْهُمْ أَنْ تَفْسُدَ تِلْكَ الْمَلَكَةُ رَأْسًا
وَيَطْوُلَ الْعَهْدُ بِهَا فَيَنْغَلِقَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ عَلَى الْمَفْهُومِ فَاسْتَنْبَطُوا مِنْ مَجَارِي
كَلَامِهِمْ قَوَانِينَ لِتِلْكَ الْمَلَكَةِ مُطَرَّدَةً شِبْهَ الْكَلِّيَّاتِ وَالْقَوَاعِدِ يَقْيِسُونَ عَلَيْهَا سَائِرَ
أَنْوَاعِ الْكَلَامِ وَيُلْحِقُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِثْلُ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَالْمَنْفَعُولُ مَنْصُوبٌ
وَالْمُبْتَدَأُ مَرْفُوعٌ . ثُمَّ رَأَوْا تَغْيِيرَ الدَّلَالَةِ بِتَغْيِيرِ حَرَكَاتِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَاضْطَلَحُوا عَلَى
تَسْمِيَّتِهِ إِعْرَابًا وَتَسْمِيَةِ الْمَوْجِبِ لِذَلِكَ التَّغْيِيرِ عَامِلًا وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَصَارَتْ كُلُّهَا
اضْطِلَاحَاتٍ خَاصَّةٌ بِهِمْ فَقَيَّدُوهَا بِالْكِتَابِ وَجَعَلُوهَا صِنَاعَةً لَهُمْ مَخْصُوصَةً .
وَاضْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَّتِهَا يَعْلَمُ النُّحُو . وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا أَبُو الْأَسْوَدُ الدُّؤْلِيُّ مِنْ
بَنِي كِنَانَةَ ، وَيَقَالُ بِإِشَارَةِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَأَنَّهُ رَأَى تَغْيِيرَ الْمَلَكَةِ فَأَشَارَ عَلَيْهِ
بِحِفْظِهَا فَفَزَعَ إِلَى ضَبْطِهَا بِالْقَوَانِينِ الْحَاضِرَةِ الْمُسْتَقْرَأَةِ . ثُمَّ كَتَبَ فِيهَا النَّاسُ مِنْ
بَعْدِهِ إِلَى أَنْ انْتَهَتْ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ أَيَّامَ الرُّشِيدِ وَكَانَ النَّاسُ
أَخْوَجَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَيْهَا لِذَهَابِ تِلْكَ الْمَلَكَةِ مِنَ الْعَرَبِ . فَهَذَبَ الصَّنَاعَةَ وَكَمَّلَ
أَبْوَابَهَا . وَأَخَذَهَا عَنْهُ سَبْيُونِيهِ فَكَمَّلَ تَفَارِيعَهَا وَاسْتَكْثَرَ مِنْ أَدِلَّتِهَا وَشَوَاهِدِهَا وَوَضَعَ

(١) وفي نسخة أخرى - للمتعرِّبين من العجم .

فِيهَا كِتَابَةُ الْمَشْهُورِ الَّذِي صَارَ إِمَامًا لِكُلِّ مَا كُتِبَ فِيهَا مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ وَضَعَ أَبُو
 عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ وَأَبُو الْقَاسِمِ الرَّجَاجُ كُتُبًا مُخْتَصَرَةً لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَخَذُونَ فِيهَا حَذْوً
 الْإِمَامِ فِي كِتَابِهِ . ثُمَّ طَالَ الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَحَدَّثَ الْخِلَافُ بَيْنَ أَهْلِهَا فِي
 الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ الْمِصْرَيْنِ الْقَدِيمَيْنِ لِلْعَرَبِ . وَكَثُرَتِ الْأَدِلَّةُ وَالْحِجَاجُ بَيْنَهُمْ
 وَتَبَايَنَتِ الطَّرُقُ فِي التَّغْلِيمِ وَكَثُرَ الْإِخْتِلَافُ فِي إِغْرَابِ كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ
 بِاخْتِلَافِهِمْ فِي تِلْكَ الْقَوَاعِدِ وَطَالَ ذَلِكَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ . وَجَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِمَذَاهِبِهِمْ
 فِي الْإِخْتِصَارِ فَاخْتَصَرُوا كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ الطُّولِ مَعَ اسْتِيعَابِهِمْ لِجَمِيعِ مَا نُقِلَ كَمَا
 فَعَلَهُ ابْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ التَّسْهِيلِ وَأَمْثَالِهِ أَوْ اقْتِصَارَهُمْ عَلَى الْمَبَادِي لِلْمُتَعَلِّمِينَ .
 كَمَا فَعَلَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ فِي الْمُفْصَلِ وَابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْمُقَدِّمَةِ لَهُ . وَرُبَّمَا نَظَّمُوا ذَلِكَ
 نَظْمًا مِثْلَ ابْنِ مَالِكٍ فِي الْأَرْجُوزَتَيْنِ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى وَابْنُ مَعْطِيٍّ فِي الْأَرْجُوزَةِ
 الْأَلْفِيَّةِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَالْتَّالِيفُ فِي هَذَا الْفَنِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى أَوْ يُحَاطَ بِهَا وَطُرُقُ
 التَّغْلِيمِ فِيهَا مُخْتَلِفَةٌ فَطَرِيقَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مُغَايِرَةٌ لَطَرِيقَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ . وَالْكُوفِيُّونَ
 وَالْبَصْرِيُّونَ وَالْبَغْدَادِيُّونَ وَالْأَنْدَلُسِيُّونَ مُخْتَلِفَةٌ طَرِيقُهُمْ كَذَلِكَ . وَقَدْ كَادَتْ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةُ تَوَدُنُ بِالذَّهَابِ لِمَا رَأَيْنَا مِنَ النِّقْصِ فِي سَائِرِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِتَنَاقُصِ
 الْعُمَرَانِ وَوَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْعُصُورِ دِيْوَانٌ مِنْ مِصْرٍ مَنْسُوبٌ إِلَى جَمَالِ
 الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ مِنْ عُلَمَائِهَا اسْتَوْفَى فِيهِ أَحْكَامَ الْإِغْرَابِ مُجْمَلَةً وَمُفْصَلَةً . وَتَكَلَّمَ
 عَلَى الْحُرُوفِ وَالْمُفْرَدَاتِ وَالْجُمْلِ وَحَذَفَ مَا فِي الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَكَرِّرِ فِي أَكْثَرِ
 أَبْوَابِهَا وَسَمَّاهُ بِالْمَغْنِيِّ فِي الْإِغْرَابِ . وَأَشَارَ إِلَى نَكَبَاتِ إِغْرَابِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا وَضَبَطَهَا
 بِأَبْوَابٍ وَفُصُولٍ وَقَوَاعِدٍ انْتَضَمَ سَائِرُهَا فَوْقَهَا مِنْهُ عَلَى عِلْمِ جَمٍّ يَشْهَدُ بِعُلُوِّ قَدْرِهِ فِي
 هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَوُفُورِ بَضَاعَتِهِ مِنْهَا وَكَأَنَّهُ يَنْحُو فِي طَرِيقَتِهِ مَنْحَاةَ أَهْلِ الْمَوْصِلِ
 الَّذِينَ اقْتَفَوْا أَثَرَ ابْنِ جَنِّيٍّ وَاتَّبَعُوا مُصْطَلَحَ تَغْلِيمِهِ فَأَتَى مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ عَجِيبٍ
 ذَالَ عَلَى قُوَّةِ مَلَكَتِهِ وَاطَّلَاعِهِ . وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .

علم اللغة

هَذَا الْعِلْمُ هُوَ بَيَانُ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فِي الْحَرَكَاتِ الْمُسَمَّاةِ عِنْدَ أَهْلِ النُّحُوِّ بِالْإِعْرَابِ وَاسْتَنْبَطَتِ الْقَوَائِينَ لِحِفْظِهَا كَمَا قُلْنَا . ثُمَّ اسْتَمَرَّ ذَلِكَ الْفَسَادُ بِمَلَابَسَةِ الْعَجَمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ حَتَّى تَأْدَى الْفَسَادُ إِلَى مَوْضُوعَاتِ الْأَلْفَاظِ فَاسْتَعْمِلَ كَثِيرٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي غَيْرِ مَوْضُوعِهِ عِنْدَهُمْ مِثْلًا مَعَ هَجْنَةٍ ^(١) الْمُسْتَعْرَبِينَ ^(٢) فِي اضْطِلَاحَاتِهِمْ الْمُخَالَفَةِ لِصَرِيحِ الْعَرَبِيَّةِ فَاخْتِيجَ إِلَى حِفْظِ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ بِالْكِتَابِ وَالتَّنْذِيرِ خَشْيَةَ الدُّرُوسِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْجَهْلِ بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ فَشَمَرَ كَثِيرٌ مِنْ أَيْمَةِ اللِّسَانِ لِذَلِكَ وَأَمَلُوا فِيهِ الدَّوَاوِينَ . وَكَانَ سَابِقُ الْخَلِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ أَلَفَ فِيهَا كِتَابَ الْعَيْنِ فَحَصَرَ فِيهِ مَرْكَبَاتِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ كُلَّهَا مِنَ الثَّنَائِيَّ وَالثَّلَاثِيَّ وَالرُّبَاعِيَّ وَالْخَمَاسِيَّ وَهُوَ غَايَةٌ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ التَّرْكِيبُ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . وَتَأْتَى لَهُ حَضَرُ ذَلِكَ بِوُجُوهٍ عِدِيدَةٍ حَاضِرَةٍ وَذَلِكَ أَنَّ جُمْلَةَ الْكَلِمَاتِ الثَّنَائِيَّةِ تَخْرُجُ مِنْ جَمِيعِ الْأَعْدَادِ عَلَى التَّوَالِي مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ وَهُوَ دُونَ نِهَايَةِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِوَاحِدٍ . لِأَنَّ الْحَرْفَ الْوَاحِدَ مِنْهَا يُؤْخَذُ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعَةِ وَالْعَشْرِينَ فَتَكُونُ سَبْعَةٌ وَعَشْرِينَ كَلِمَةً ثَّنَائِيَّةً . ثُمَّ يُؤْخَذُ الثَّانِي مَعَ السَّبْعَةِ وَالْعَشْرِينَ كَذَلِكَ . ثُمَّ الثَّلَاثُ وَالرَّابِعُ . ثُمَّ يُؤْخَذُ السَّابِعُ وَالْعَشْرُونَ مَعَ الثَّامِنِ وَالْعَشْرِينَ فَيَكُونُ وَاحِدًا فَتَكُونُ كُلُّهَا أَعْدَادًا عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ فَتَجْمَعُ كَمَا هِيَ بِالْعَمَلِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ أَهْلِ الْحِسَابِ وَهُوَ أَنَّ تَجْمَعَ الْأَوَّلُ مَعَ الْآخِرِ وَتَضْرِبَ الْمُجْمُوعُ فِي نِصْفِ الْعِدَّةِ . ثُمَّ تُضَاعَفُ لِأَجْلِ قَلْبِ الثَّنَائِيَّ لِأَنَّ التَّقْدِيمَ وَالْتَّأَخِيرَ بَيْنَ الْحُرُوفِ مُعْتَبَرٌ فِي التَّرْكِيبِ فَيَكُونُ الْخَارِجُ جُمْلَةَ الثَّنَائِيَّاتِ . وَتَخْرُجُ الثَّلَاثِيَّاتِ مِنْ ضَرْبِ عَدَدِ الثَّنَائِيَّاتِ فِيمَا يَجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ عَلَى

(١) الهجنة في الكلام ، العيب والتعجب (قاموس) .

(٢) وفي نسخة أخرى ، للتعربين .

تَوَالِي الْعَدَدِ لِأَنَّ كُلَّ ثَنَائِيَّةٍ يَزِيدُ عَلَيْهَا حَرْفًا فَتَكُونُ ثَلَاثِيَّةً . فَتَكُونُ الثَّنَائِيَّةُ بِمَنْزِلَةِ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحُرُوفِ الْبَاقِيَةِ وَهِيَ سِتَّةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا بَعْدَ الثَّنَائِيَّةِ فَتُجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ وَيُضْرَبُ فِيهِ جُمْلَةُ الثَّنَائِيَّاتِ . ثُمَّ تُضْرَبُ الْخَارِجُ فِي سِتَّةٍ ، جُمْلَةُ مَقْلُوبَاتِ الْكَلِمَةِ الثَّلَاثِيَّةِ فَيَخْرُجُ مَجْمُوعُ تَرَكَيبِهَا مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ . وَكَذَلِكَ فِي الرَّبَاعِيِّ وَالْخُمَاسِيِّ . فَانْحَصَرَتْ لَهُ التَّرَاكِيِبُ بِهَذَا الْوَجْهِ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِالتَّرْتِيبِ الْمُتَعَارِفِ . وَاعْتَمَدَ فِيهِ تَرْتِيبَ الْمَخَارِجِ فَبَدَأَ بِحُرُوفِ الْحَلْقِ ثُمَّ بَعْدَهُ مِنْ حُرُوفِ الْحَنَكِ ثُمَّ الْأَضْرَاسِ ثُمَّ الشَّفَةِ وَجَعَلَ حُرُوفَ الْعِلَّةِ آخِرًا وَهِيَ الْحُرُوفُ الْهَوَائِيَّةُ . وَبَدَأَ مِنْ حُرُوفِ الْحَلْقِ بِالْعَيْنِ لِأَنَّهُ الْأَقْصَرُ^(١) مِنْهَا فَلِذَلِكَ سَمِيَ كِتَابُهُ بِالْعَيْنِ لِأَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ كَانُوا يَذْهَبُونَ فِي تَسْمِيَةِ دَوَائِينِهِمْ إِلَى مِثْلِ هَذَا وَهُوَ تَسْمِيَّتُهُ بِأَوَّلِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْكَلِمَاتِ وَالْأَلْفَاظِ . ثُمَّ بَيَّنَ الْمُهْمَلُ مِنْهَا مِنَ الْمُسْتَعْمَلِ وَكَانَ الْمُهْمَلُ فِي الرَّبَاعِيِّ وَالْخُمَاسِيِّ أَكْثَرَ لِقَلَّةِ اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ لَهُ لِثِقَلِهِ وَلِحَقِّ يِهِ الثَّنَائِيَّ لِقَلَّةِ دَوْرَانِهِ وَكَانَ الْإِسْتِعْمَالُ فِي الثَّلَاثِيِّ أَغْلَبَ فَكَانَتْ أَوْضَاعُهُ أَكْثَرَ لِدَوْرَانِهِ . وَضَمَّنَ الْخَلِيلُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي كِتَابِ الْعَيْنِ وَاسْتَوْعَبَهُ أَحْسَنَ اسْتِيعَابٍ وَأَوْعَاهُ^(٢) . وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ الزَّيْدِيُّ وَكَتَبَ لِهَشَامِ الْمُؤَيَّدِ بِالْأَنْدَلُسِ فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ فَاخْتَصَرَهُ مَعَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْإِسْتِيعَابِ وَحَذَفَ مِنْهُ الْمُهْمَلُ كُلَّهُ وَكَثِيرًا مِنْ شَوَاهِدِ الْمُسْتَعْمَلِ وَلَخَصَهُ لِلْحِفْظِ أَحْسَنَ تَلْخِيصٍ . وَأَلْفَ الْجَوْهَرِيُّ مِنَ الْمَشَارِقَةِ كِتَابَ الصَّحَاحِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمُتَعَارِفِ لِحُرُوفِ الْمُعْجَمِ فَجَعَلَ الْبِدَاءَ مِنْهَا بِالْهَمْزَةِ وَجَعَلَ التَّرْجُمَةَ بِالْحُرُوفِ عَلَى الْحَرْفِ الْآخِرِ مِنَ الْكَلِمَةِ لِإِضْطِرَارِ النَّاسِ فِي الْأَكْثَرِ إِلَى أَوَاخِرِ الْكَلِمِ فَجَعَلَ ذَلِكَ بَابًا . ثُمَّ يَأْتِي بِالْحُرُوفِ أَوَّلَ الْكَلِمَةِ عَلَى تَرْتِيبِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ أَيْضًا وَيُتْرَجَّمُ عَلَيْهَا بِالْفُصُولِ إِلَى آخِرِهَا . وَخَصَرَ اللَّغَةَ اقْتِدَاءً بِخَصْرِ الْخَلِيلِ . ثُمَّ أَلْفَ

(١) وفي نسخة أخرى : الأقصى .

(٢) وفي نسخة أخرى : وأوقاه .

فِيهَا مِنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ ابْنُ سَيِّدِهِ مِنْ أَهْلِ دَانِيَّةٍ فِي دَوْلَةِ عَلِيِّ بْنِ مُجَاهِدٍ كِتَابُ
الْمُخَكَّمِ عَلَى ذَلِكَ الْمَنْحَى مِنَ الْإِسْتِيعَابِ وَعَلَى نَحْوِ تَرْتِيبِ كِتَابِ الْعَيْنِ . وَزَادَ فِيهِ
التَّعَرُّضَ لِإِشْتِقَاقَاتِ الْكَلِمِ وَتَضَارِيفِهَا فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ الدَّوَاوِينِ . وَلِخُصَّةِ
مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ صَاحِبِ الْمُسْتَنْصَرِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ بِتُونِسَ .
وَقَلَّبَ تَرْتِيبَهُ إِلَى تَرْتِيبِ كِتَابِ الصَّحَاحِ فِي اغْتِبَارِ أَوَاخِرِ الْكَلِمِ وَبِنَاءِ التَّرَاجِمِ عَلَيْهَا
فَكَانَا تَوَاصِيًا وَحَرَمَ وَسَلِيلِي أُبُوَّةٍ وَلِكِرَاعٍ مِنْ أَيْمَةِ اللُّغَةِ كِتَابُ الْمُنْجِدِ . وَلَا بِنِ دُرَيْدِ
كِتَابُ الْجُمْهُرَةِ وَلَا بِنِ الْأَنْبَارِيِّ كِتَابُ الزَّاهِرِ هَذِهِ أَصُولُ كُتُبِ اللُّغَةِ فِيمَا عَلِمْنَا .
وَهُنَاكَ مُخْتَصَرَاتٌ أُخْرَى مُخْتَصَّةٌ بِصِنْفٍ مِنَ الْكَلِمِ وَمُسْتَوْعِيَةٌ لِبَعْضِ الْأَبْوَابِ أَوْ
لِكُلِّهَا . إِلَّا أَنَّ وَجْهَ الْحَضَرِ فِيهَا خَفِيَ وَوَجْهَ الْحَضَرِ فِي تِلْكَ جَلِيَ مِنْ قَبْلِ التَّرَاكِيِبِ
كَمَا رَأَيْتُ . وَمِنْ الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ أَيْضًا فِي اللُّغَةِ كِتَابُ الزَّمْخَشَرِيِّ فِي الْمَجَازِ
سَمَاءُ أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ بَيَّنَ فِيهِ كُلَّ مَا تَجَوَّزَتْ بِهِ الْعَرَبُ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَفِيمَا تَجَوَّزَتْ
بِهِ مِنَ الْمَذَلُولَاتِ وَهُوَ كِتَابُ شَرِيفِ الْإِفَادَةِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ الْعَرَبُ تَضَعُ الشَّيْءَ عَلَى
الْعُمُومِ ثُمَّ تَسْتَعْمِلُ فِي الْأُمُورِ الْخَاصَةِ أَلْفَاظًا أُخْرَى خَاصَةً بِهَا فَوْقَ ذَلِكَ عِنْدَنَا .
وَبَيَّنَ الْوَضْعَ وَالِاسْتِعْمَالَ وَاجْتِنَاجَ إِلَى فِقْهِ فِي اللُّغَةِ عَزِيزِ الْمَأْخِذِ كَمَا وَضَعَ الْأَبْيَضُ
بِالْوَضْعِ الْعَامِ لِكُلِّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ ثُمَّ اخْتَصَّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ مِنَ الْخَيْلِ بِالشَّهْبِ وَمِنْ
الْإِنْسَانِ بِالْأَزْهَرِ وَمِنَ الْغَنَمِ بِالْأَمْلَحِ حَتَّى صَارَ اسْتِعْمَالُ الْأَبْيَضِ فِي هَذِهِ كُلِّهَا لِحُنَا
وُخُرُوجًا عَنْ لِسَانِ الْعَرَبِ . وَاخْتَصَّ بِالتَّأْلِيفِ فِي هَذَا الْمَنْحَى الثُّعَالِبِيُّ وَأَفْرَدَهُ فِي
كِتَابٍ لَهُ سَمَاءُ فِقْهِ اللُّغَةِ وَهُوَ مِنْ أَكْثَرِ مَا يَأْخُذُ بِهِ اللَّغَوِيُّ نَفْسَهُ أَنْ يُحَرِّفَ اسْتِعْمَالَ
الْعَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِ . فَلَيْسَ مَعْرِفَةُ الْوَضْعِ الْأَوَّلِ بِكَافٍ فِي التَّرْتِيبِ حَتَّى يَشْهَدَ لَهُ
اسْتِعْمَالُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ . وَأَكْثَرُ مَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ الْأَدِيبُ فِي فَنِي نَظْمِهِ وَنَثْرِهِ
خَذْرًا مِنْ أَنْ يَكْثُرَ لِحْنُهُ فِي الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ فِي مَقَرَّدَاتِهَا وَتَرَاكِيِبِهَا وَهُوَ أَشَدُّ^(١)
مِنْ اللَّحْنِ فِي الْإِعْرَابِ وَأَفَحَشُ . وَكَذَلِكَ أَلْفَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْأَلْفَاظِ

(١) وفي نسخة أخرى ، أَشَرَّ .

المُشْتَرَكَةِ وَتَكْفُلَ بِحَضَرِهَا وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ إِلَى النِّهَايَةِ فِي ذَلِكَ فَهُوَ مُسْتَوْعِبٌ لِلْأَكْثَرِ .
وَأَمَّا الْمُخْتَصَرَاتُ الْمَوْجُودَةُ فِي هَذَا الْفَنِّ الْمَخْصُوصَةِ بِالْمُتَدَاوِلِ مِنَ اللُّغَةِ الْكَثِيرِ
الِاسْتِعْمَالِ تَسْهِيلاً لِحِفْظِهَا عَلَى الطَّالِبِ فَكَثِيرَةٌ مِثْلُ الْأَلْفَاظِ لِابْنِ السَّكَيْتِ
وَالْفَصِيحِ لِتَغْلِبَ وَغَيْرُهُمَا . وَبَعْضُهَا أَقْلُ لُغَةً مِنْ بَعْضٍ لِاخْتِلَافِ نَظَرِهِمْ فِي الْأَهَمِّ
عَلَى الطَّالِبِ لِلْحِفْظِ . وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

فصل : وَاَعْلَمُ أَنَّ النِّقْلَ الَّذِي تَثَبَّتْ بِهِ اللُّغَةُ ، إِنَّمَا هُوَ النِّقْلُ عَنِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ
اسْتَعْمَلُوا هَذِهِ الْأَلْفَاظَ لِهَذِهِ الْمَعَانِي ، لَا تَقُلْ إِنَّهُمْ وَضَعُوهَا لِأَنَّهُ مُتَعَدِّرٌ وَيَعِيدُ . وَلَمْ
يُعْرِفْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ . وَكَذَلِكَ لَا تَثَبَّتْ اللُّغَاتُ بِقِيَاسِ مَا لَمْ نَعْلَمْ اسْتِعْمَالَهُ ، عَلَى
مَا عُرِفَ اسْتِعْمَالُهُ فِي مَاءِ الْعِنَبِ ، بِإِغْتِبَارِ الْإِسْكَارِ الْجَامِعِ . لِأَنَّ شَهَادَةَ الْإِغْتِبَارِ فِي
بَابِ الْقِيَاسِ إِنَّمَا يَذُرُكُمَا الشَّرْعُ الدَّالُّ عَلَى صِحَّةِ الْقِيَاسِ مِنْ أَصْلِهِ . وَلَيْسَ لَنَا مِثْلُهُ
فِي اللُّغَةِ إِلَّا بِالْعَقْلِ ، وَهُوَ مُحْكَمٌ . وَعَلَى هَذَا جُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ . وَإِنْ مَالَ إِلَى الْقِيَاسِ
فِيهَا الْقَاضِي وَابْنُ سُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ . لَكِنَّ الْقَوْلَ يَنْفِيهِ أَرْجَحُ . وَلَا تَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ
إِثْبَاتَ اللُّغَةِ فِي بَابِ الْحُدُودِ اللَّفْظِيَّةِ ، لِأَنَّ الْحَدَّ رَاجِعٌ إِلَى الْمَعَانِي ، يَبَيِّنُ أَنَّ
مَذْلُولَ اللَّفْظِ الْمَجْهُولِ الْخَفِيِّ هُوَ مَذْلُولُ الْوَاضِحِ الْمَشْهُورِ . وَاللُّغَةُ إِثْبَاتُ أَنَّ اللَّفْظَ
كَذَا ، لِمَعْنَى كَذَا ، وَالْفَرْقُ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ .

علم البيان

هَذَا الْعِلْمُ خَادِثٌ فِي الْمِلَّةِ بَعْدَ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ وَاللُّغَةِ . وَهُوَ مِنَ الْعُلُومِ اللَّسَانِيَّةِ
لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْأَلْفَاظِ وَمَا تَفِيدُهُ . وَيَقْصُدُ بِهَا الدَّلَالَةَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي وَذَلِكَ أَنَّ
الْأُمُورَ الَّتِي يَقْصِدُ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا إِفَادَةَ السَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ هِيَ : إِمَّا تَصَوُّرَ مُفْرَدَاتٍ
تُسْنَدُ وَيُسْنَدُ إِلَيْهَا وَيُقْضَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ . وَالدَّالَّةُ عَلَى هَذِهِ هِيَ الْمُفْرَدَاتُ مِنَ
الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ وَالْحُرُوفِ وَإِمَّا تَمْيِيزَ الْمُسْنَدَاتِ مِنَ الْمُسْنَدِ إِلَيْهَا وَالْأَزْمِنَةِ . وَيَدُلُّ
عَلَيْهَا بِتَغْيِيرِ الْحَرَكَاتِ مِنَ الْإِعْرَابِ وَأَبْنِيَةِ الْكَلِمَاتِ . وَهَذِهِ كُلُّهَا هِيَ صِنَاعَةُ

النَّحْوِ . وَيَتَقَى مِنَ الْأُمُورِ الْمُكْتَنَفَةِ بِالْوَاقِعَاتِ الْمُحْتَاجَةِ لِلدَّلَالَةِ أحوالُ
الْمُتَخَاطِبِينَ أَوْ الْفَاعِلِينَ وَمَا يَفْتَضِيهِ حَالُ الْفِعْلِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ
مِنْ تَمَامِ الْإِفَادَةِ وَإِذَا حَصَلَتْ لِلْمُتَكَلِّمِ فَقَدْ بَلَغَ غَايَةَ الْإِفَادَةِ فِي كَلَامِهِ . وَإِذَا لَمْ
يَشْتَمِلْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ الْعَرَبِ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ وَاسِعٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ
عِنْدَهُمْ مَقَالٌ يُخْتَصُّ بِهِ بَعْدَ كِفَالِ الْإِعْرَابِ وَالْإِبَانَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُمْ (زَيْدٌ
جَاءَنِي) مُغَايِرٌ لِقَوْلِهِمْ (جَاءَنِي زَيْدٌ) مِنْ قَبْلِ أَنَّ الْمُتَقَدِّمَ مِنْهُمَا هُوَ الْأَهَمُّ عِنْدَ
الْمُتَكَلِّمِ فَمَنْ قَالَ : جَاءَنِي زَيْدٌ أَفَادَ أَنَّ اهْتِمَامَهُ بِالْمَجِيءِ قَبْلَ الشَّخْصِ الْمُسْنَدِ
إِلَيْهِ . وَمَنْ قَالَ : زَيْدٌ جَاءَنِي أَفَادَ أَنَّ اهْتِمَامَهُ بِالشَّخْصِ قَبْلَ الْمَجِيءِ الْمُسْنَدِ .
وَكَذَا التَّغْيِيرُ عَنْ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ بِمَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ مِنْ مَوْصُولٍ أَوْ مِنْهُمْ أَوْ مَعْرِفَةٍ .
وَكَذَا تَأَكِيدُ الْإِسْنَادَ عَلَى الْجُمْلَةِ كَقَوْلِهِمْ : زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْدًا لِقَائِمٍ
مُتَغَايِرَةٌ كُلُّهَا فِي الدَّلَالَةِ وَإِنْ اسْتَوَتْ مِنْ طَرِيقِ الْإِعْرَابِ فَإِنَّ الْأَوَّلَ الْعَارِي عَنِ
التَّأَكِيدِ إِنَّمَا يُفِيدُ الْخَالِي الذَّهْنَ وَالثَّانِي الْمَوْكَدَ بَيَانُ يُفِيدُ الْمُتَرَدَّدَ وَالثَّالِثُ يُفِيدُ
الْمُنْكَرَ فِيهِ مُخْتَلَفَةٌ . وَكَذَلِكَ تَقُولُ : جَاءَنِي الرَّجُلُ ثُمَّ تَقُولُ مَكَانَهُ بَعِيْنِهِ جَاءَنِي
رَجُلٌ إِذَا قَصَدْتَ بِذَلِكَ التَّنْكِيرَ تَعْظِيمَهُ وَأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يُعَادِلُهُ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ . ثُمَّ
الْجُمْلَةُ الْإِسْنَادِيَّةُ تَكُونُ خَبَرِيَّةً وَهِيَ الَّتِي لَهَا خَارِجٌ تَطَابَقُهُ أَوْ لَا ، وَإِنْشَائِيَّةً وَهِيَ
الَّتِي لَا خَارِجَ لَهَا . كَالطَّلَبِ وَأَنْوَاعِهِ . ثُمَّ قَدْ يَتَعَيَّنُ تَرْكُ الْعَاطِفِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ
إِذَا كَانَ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ ، فَيُشْرَكُ ^(١) بِذَلِكَ مَنْزِلَةُ التَّابِعِ الْمُفْرَدِ نَعْتًا
وَتَوْكِيدًا وَبَدَلًا بِلَا عَطْفٍ أَوْ يَتَعَيَّنُ الْعَطْفُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ ؛
ثُمَّ يَقْتَضِي الْمَحَلُّ الْإِطْنَابَ وَالْإِيجَازَ فَيُورَدُ الْكَلَامُ عَلَيْهِمَا . ثُمَّ قَدْ يُدَلُّ بِاللَّفْظِ وَلَا
يُرَادُ مَنْطُوقُهُ وَيُرَادُ لَازِمُهُ إِنْ كَانَ مُفْرَدًا كَمَا تَقُولُ : زَيْدٌ أَسَدٌ فَلَا تُرِيدُ حَقِيقَةَ
الْأَسَدِ الْمَنْطُوقَةَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ شَجَاعَتَهُ اللَّازِمَةَ وَتُسْنِدُهَا إِلَى زَيْدٍ وَتُسَمَّى هَذِهِ
اسْتِعَارَةً . وَقَدْ تُرِيدُ بِاللَّفْظِ الْمُرَكَّبِ الدَّلَالَةَ عَلَى مَلْزُومِهِ كَمَا تَقُولُ : زَيْدٌ كَثِيرٌ

(١) وفي نسخة أخرى : يَنْزِلُ .

الرَّمَاد^(١) وَتُرِيدُ مَا لَزِمَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنَ الْجُودِ وَقَرَى الضَّيْفَ لِأَنَّ كَثْرَةَ الرَّمَادِ نَاشِئَةٌ عَنْهُمَا فِيهِ ذَالَةٌ عَلَيْهِمَا . وَهَذِهِ كُلُّهَا دَلَالَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ مِنَ الْمَفْرَدِ وَالْمُرَكَّبِ وَإِنَّمَا هِيَ هَيْئَاتٌ وَأَحْوَالُ الْوَاقِعَاتِ جُعِلَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا أَحْوَالٌ وَهَيْئَاتٌ فِي الْأَلْفَاظِ كُلِّ بِحَسَبِ مَا يَفْتَضِيهِ مَقَامُهُ ، فَاشْتَمَلَ هَذَا الْعِلْمُ الْمُسَمَّى بِالْبَيَانِ عَلَى النَّبَحِثِ عَنْ هَذِهِ الدَّلَالَةِ الَّتِي لِلْهَيْئَاتِ وَالْأَحْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ وَجُعِلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ ، الصَّنَفُ الْأَوَّلُ يُنَبِّحُ فِيهِ عَنْ هَذِهِ الْهَيْئَاتِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي تَطَابِقُ بِاللَّفْظِ جَمِيعَ مُقْتَضِيَاتِ الْحَالِ وَيُسَمَّى عِلْمُ الْبَلَاغَةِ ، وَالصَّنَفُ الثَّانِي يُنَبِّحُ فِيهِ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى اللَّازِمِ اللَّفْظِيِّ وَمَلْزُومِهِ وَهِيَ الْإِسْتِعَارَةُ وَالْكِنَايَةُ كَمَا قُلْنَا وَيُسَمَّى عِلْمُ الْبَيَانِ . وَالْحَقُّوَا بِهِمَا صِنْفًا آخَرَ وَهُوَ النَّظَرُ فِي تَرْبِيعِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ بِنَوْعٍ مِنَ التَّنْمِيقِ إِمَّا بِسَجْعٍ يَفْصِلُهُ أَوْ تَجْنِيسٍ يُشَابِهَ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ أَوْ تَرْصِيعٍ يَقْطَعُ أَوْ تَوْرِيَةِ عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِإِيَّاهُم^(٢) مَعْنَى أَخْفَى مِنْهُ لِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَيُسَمَّى عَنْدهُمْ عِلْمُ الْبَدِيعِ . وَأُطْلِقَ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ اسْمُ الْبَيَانِ وَهُوَ اسْمُ الصَّنَفِ الثَّانِي لِأَنَّ الْأَقْدَمِينَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمُوا فِيهِ ، ثُمَّ تَلَاخَقَتْ مَسَائِلُ الْفَنِّ وَاحِدَةٌ بَعْدَ أُخْرَى وَكُتِبَ فِيهَا جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَالْجَا حِظُّ وَقَدَامَةُ وَأَمْثَالُهُمْ إِمْلَاءَاتٍ غَيْرَ وَافِيَةٍ فِيهَا . ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَسَائِلُ الْفَنِّ تَكْمُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ مَحَصَ^(٣) السَّكَاكِيُّ زُبْدَتَهُ وَهَدَّبَ مَسَائِلَهُ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنْفَاءً مِنَ التَّرْتِيبِ وَأَلَفَ كِتَابَهُ الْمُسَمَّى بِالْمِفْتَاحِ فِي النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْبَيَانِ فَجَعَلَ هَذَا الْفَنِّ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ . وَأَخَذَهُ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ كِتَابِهِ وَلَخَّصُوا مِنْهُ أَمْهَاتٍ هِيَ الْمُنْدَاوَلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا فَعَلَهُ السَّكَاكِيُّ فِي كِتَابِ التَّنْبِيَانِ^(٤) وَابْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ الْمِصْبَاحِ وَجَلَالُ الدِّينِ الْقَرْوِينِيُّ فِي كِتَابِ الْإِيضَاحِ وَالتَّلْخِصِ وَهُوَ أَصْغَرُ حَجْمًا

(١) وفي نسخة أخرى ، رماد القدور .

(٢) وفي نسخة أخرى ، بابها .

(٣) وفي نسخة أخرى ، مخض .

(٤) وفي النسخة الباريسية ، البيان .

مِنَ الْإِيضَاحِ وَالْإِعْنَايَةِ بِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَشْرِقِ فِي الشَّرْحِ وَالتَّعْلِيمِ مِنْهُ أَكْثَرُ
 مِنْ غَيْرِهِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمَشَارِقَةُ عَلَى هَذَا الْفَنِّ أَقْوَمُ مِنَ الْمَغَارِبَةِ وَسَبَبُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ
 كَمَا لِي فِي الْعُلُومِ اللَّسَانِيَّةِ وَالصَّنَائِعِ الْكَمَالِيَّةِ تَوَجَّدَ فِي وَقُورِ الْعُمَرَانِ . وَالْمَشْرِقِ أَوْفَرُ
 عُمَرَانًا مِنَ الْمَغْرِبِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . أَوْ نَقُولُ لِعِنَايَةِ الْعَجَمِ وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ
 كَتَفْسِيرِ الزَّمَخْشَرِيِّ ، وَهُوَ كُلُّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى هَذَا الْفَنِّ ، وَهُوَ أَضْلُهُ . وَإِنَّمَا اخْتَصَّ
 بِأَهْلِ الْمَغْرِبِ مِنْ أَصْنَافِهِ عِلْمُ الْبَيْدِيعِ خَاصَّةً ، وَجَعَلُوهُ مِنْ جُمْلَةِ عُلُومِ الْأَدَبِ
 الشَّعْرِيَّةِ ، وَفَرَعُوا لَهُ الْقَابَا وَغَدَدُوا أَبْوَابًا وَنَوَعُوا أَنْوَاعًا . وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ أَحْصَوْهَا مِنْ
 لِسَانِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْوَلُوعُ بِتَرْيِينِ الْأَلْفَاظِ ، وَأَنْ عِلْمُ الْبَيْدِيعِ سَهْلُ
 الْمَأْخِذِ . وَضَعَبَتْ عَلَيْهِمْ مَأْخِذُ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ لِدِقَّةِ أَنْظَارِهِمَا وَغُمُوضِ مَعَانِيهِمَا
 فَتَجَافَوْا عَنْهُمَا . وَمِمَّنْ أَلَفَ فِي الْبَيْدِيعِ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ ابْنُ رَشِيقٍ وَكِتَابُ الْعُمْدَةِ لَهُ
 مَشْهُورٌ . وَجَرَى كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ عَلَى مَنْحَاهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ ثَمَرَةَ هَذَا
 الْفَنِّ إِنَّمَا هِيَ فِي فَهْمِ الْإِعْجَازِ مِنَ الْقُرْآنِ لِأَنَّ إِعْجَازَهُ فِي وِفَاءِ الدَّلَالَةِ مِنْهُ بِجَمِيعِ
 مُقْتَضِيَاتِ الْأَحْوَالِ مَنْطُوقَةٍ وَمَفْهُومَةٌ وَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ مَعَ الْكَلَامِ فِيمَا
 يُخْتَصُّ بِالْأَلْفَاظِ فِي انْتِفَائِهَا وَجُودَةِ رَضِيهَا ^(١) وَتَرْكِيبِهَا وَهَذَا هُوَ الْإِعْجَازُ الَّذِي
 تَقْصُرُ الْأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ . وَإِنَّمَا يَذَرُكَ بَعْضُ الشَّيْءِ مِنْهُ مَنْ كَانَ لَهُ ذَوْقٌ بِمُخَالَطَةِ
 اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ فَيَذَرُكَ مِنْ إِعْجَازِهِ عَلَى قَدَرِ ذَوْقِهِ . فَلِهَذَا كَانَتْ
 مَذَارِكُ الْعَرَبِ الَّذِينَ سَمِعُوهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ أَعْلَى مَقَامًا فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فُرْسَانُ الْكَلَامِ
 وَجَهًا بِذَنْتِهِ وَالذَّوْقُ عِنْدَهُمْ مَوْجُودٌ بِأَوْفَرِ مَا يَكُونُ وَأَصَحُّهُ . وَأَخْرَجَ مَا يَكُونُ إِلَى
 هَذَا الْفَنِّ الْمُفَسِّرُونَ وَأَكْثَرُ تَفَاسِيرِ الْمُتَقَدِّمِينَ غُفْلٌ عَنْهُ حَتَّى ظَهَرَ جَارُ اللَّهِ
 الزَّمَخْشَرِيُّ وَوَضَعَ كِتَابَهُ فِي التَّفْسِيرِ وَتَتَبَعَ آيَ الْقُرْآنِ بِأَحْكَامِ هَذَا الْفَنِّ بِمَا يَبْدِي
 الْبَعْضُ مِنْ إِعْجَازِهِ فَانْفَرَدَ بِهَذَا الْفَضْلِ عَلَى جَمِيعِ التَّفَاسِيرِ لَوْلَا أَنَّهُ يُؤَيِّدُ عَقَائِدَ أَهْلِ
 الْبَيْدِيعِ عِنْدَ اقْتِبَاسِهَا مِنَ الْقُرْآنِ بِوُجُوهِ الْبَلَاغَةِ . وَلَاجِلِ هَذَا يَتَحَامَاهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ

(١) وفي النسخة الباريسية : وضعها .

السُّنَّةَ مَعَ وَفُورِ بِضَاعَتِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ . فَمَنْ أَحْكَمَ عَقَائِدَ السُّنَّةِ وَشَارَكَ فِي هَذَا الْفَنِّ
بِغَضِ الْمُشَارَكَةِ حَتَّى يَقْتَدِرَ عَلَى الرَّدِّ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِ كَلَامِهِ أَوْ يَعْلَمَ أَنَّهُ بِذَنْعَةٍ
فَيُغْرِضُ عَنْهَا وَلَا تُضُرُّ فِي مُعْتَقِدِهِ فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ النَّظَرُ فِي هَذَا الْكِتَابِ لِلظَّفَرِ
بِشَيْءٍ مِنَ الْإِعْجَازِ مَعَ السَّلَامَةِ مِنَ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ . وَاللَّهُ الْهَادِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى سَوَاءِ
السَّبِيلِ .

علم الأدب

هَذَا الْعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يُنْظَرُ فِي إِثْبَاتِ غَوَارِضِهِ أَوْ نَفْيِهَا . وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ
عِنْدَ أَهْلِ اللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ . وَهِيَ الْإِجَادَةُ فِي فَنِّي الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ . عَلَى أَسَالِيبِ
الْعَرَبِ وَمَنَاجِيهِمْ . فَيَجْمَعُونَ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا عَسَاهُ تَخَصَّلَ بِهِ الْكَلِمَةُ .
مِنْ شِعْرِ عَالِيهِ الطَّبَقَةِ . وَسَجْعِ مُتَسَاوِي فِي الْإِجَادَةِ . وَمَسَائِلَ مِنَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ مَبْنُوثَةً
أَثْنَاءَ ذَلِكَ . مُتَفَرِّقَةً . يَسْتَفْرِى مِنْهَا النَّاطِرُ فِي الْعَالِيِ مُعْظَمَ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ . مَعَ
ذِكْرِ بَعْضِ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ يَفْهَمُ بِهِ مَا يَقَعُ فِي أَشْعَارِهِمْ مِنْهَا . وَكَذَلِكَ ذِكْرُ الْمُهِّمِ
مِنَ الْأَنْسَابِ الشَّهِيرَةِ وَالْأَخْبَارِ الْعَامَةِ . وَالْمَقْصُودُ بِذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ لَا يَخْفَى عَلَى
النَّاطِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيِبِهِمْ وَمَنَاجِيِ بِلَاغَتِهِمْ إِذَا تَصَفَّحَهُ لِأَنَّهُ
لَا تَخْصُلُ الْمَلَكََةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِهِ فَيَخْتِاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ
فَهْمُهُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هَذَا الْفَنِّ قَالُوا . الْأَدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ
وَأَخْبَارِهَا وَالْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ يَطْرَفُ يُرِيدُونَ مِنْ عُلُومِ اللِّسَانِ أَوْ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ
مِنْ حَيْثُ مُتَوَنِّهَا فَقَطْ . وَهِيَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ . إِذَا لَا مَدْخَلَ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ فِي
كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُتَأَخَّرُونَ عِنْدَ كَلْفِهِمْ بِصِنَاعَةِ الْبِدْعِ مِنَ التَّوْرِيَةِ فِي
أَشْعَارِهِمْ وَتَرْسُلِهِمْ بِالِاضْطِلَاحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فَاخْتِاجَ صَاحِبِ هَذَا الْفَنِّ حِينَئِذٍ إِلَى
مَعْرِفَةِ اضْطِلَاحَاتِ الْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا عَلَى فَهْمِهَا . وَسَمِعْنَا مِنْ شَيْوَحْنَا فِي مَجَالِسِ
التَّعْلِيمِ أَنَّ أَصُولَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةٌ دَوَاوِينُ وَهِيَ : أَدَبُ الْكِتَابِ لِابْنِ قُتَيْبَةَ
وَكِتَابُ الْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ وَكِتَابُ الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ لِلجَاحِظِ وَكِتَابُ التَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ

الْقَالِي الْبَغْدَادِي . وَمَا سِوَى هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فَتَنَعَ لَهَا وَفَرَّغَ عَنْهَا . وَكُتِبَ الْمُخْدِثِينَ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةً . وَكَانَ الْغِنَاءُ فِي الصُّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْفَنِّ لِمَا هُوَ تَائِبٌ لِلشَّعْرِ إِذِ الْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ . وَكَانَ الْكِتَابُ وَالْفَضْلَاءُ مِنَ الْخَوَاصِّ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَخْصِيلِ أَسَالِيبِ الشَّعْرِ وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنْ انْتِحَالُهُ قَادِحًا فِي الْعَدَالَةِ وَالْمُرُوءَةِ . وَقَدْ أَلَفَ الْقَاضِي أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيُّ كِتَابَهُ فِي الْأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ الْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنَسَابَهُمْ وَأَيَامَهُمْ وَدَوْلَهُمْ . وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى الْغِنَاءِ فِي الْمِائَةِ صَوْتًا الَّتِي اخْتَارَهَا الْمُغَنُّونَ لِلرُّشِيدِ فَاسْتَوْعَبَ فِيهِ ذَلِكَ أَتَمَّ اسْتِيعَابٍ وَأَوْفَاهُ . وَلَقَمَرِي إِنَّهُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْتَاتِ الْمَحَاسِنِ الَّتِي سَلَفَتْ لَهُمْ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الشَّعْرِ وَالتَّأْرِخِ وَالْغِنَاءِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَلَا يُغْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذَلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ الْغَايَةُ الَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا الْأَدِيبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا وَأُنَى لَهُ بِهَا . وَنَحْنُ الْآنَ نَرْجِعُ بِالتَّحْقِيقِ عَلَى الْإِجْمَالِ فِيمَا تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ عُلُومِ اللِّسَانِ . وَاللَّهُ الْهَادِي لِلصُّوَابِ .

الفصل السادس والأربعون

في أن اللغة ملكة صناعية

إِغْلَمَ أَنَّ اللُّغَاتِ كُلَّهَا مَلَكَاتٌ شَبِيهَةٌ بِالصَّنَاعَةِ إِذْ هِيَ مَلَكَاتٌ فِي اللِّسَانِ لِلْعِبَارَةِ عَنِ الْمَعَانِي وَجُودَتِهَا وَقُصُورُهَا بِحَسَبِ تِمَامِ الْمَلَكَاتِ أَوْ نَقْصَانِهَا . وَلَيْسَ ذَلِكَ بِالنَّظَرِ إِلَى الْمُفْرَدَاتِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ إِلَى التَّرَاكِيِبِ . فَإِذَا حَصَلَتِ الْمَلَكَاتُ التَّامَّةُ فِي تَرْكِيبِ الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ لِلتَّعْبِيرِ بِهَا عَنِ الْمَعَانِي الْمَقْصُودَةِ وَمُرَاعَاةِ التَّأْلِيفِ الَّذِي يُطَبِّقُ الْكَلَامَ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ بَلَّغَ الْمُتَكَلِّمُ حِينَئِذٍ الْغَايَةَ مِنْ إِفَادَةِ مَقْصُودِهِ لِلْسَّامِعِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْبَلَاغَةِ . وَالْمَلَكَاتُ لَا تَخْصُلُ إِلَّا بِتَكَرُّرِ الْأَفْعَالِ لِأَنَّ الْفِعْلَ يَقَعُ أَوَّلًا وَتَعُودُ مِنْهُ لِلذَّاتِ صِفَةً ثُمَّ تَتَكَرَّرُ فَتَكُونُ حَالًا . وَمَعْنَى الْحَالِ

أَنَّهَا صِفَةٌ غَيْرُ رَاسِخَةٍ ثُمَّ يَزِيدُ التَّكْرَارُ فَتَكُونُ مَلَكَةً أَيْ صِفَةً رَاسِخَةً . فَالْمُتَكَلِّمُ مِنَ
 الْعَرَبِ حِينَ كَانَتْ مَلَكَتُهُ ^(١) اللَّفَّةُ الْعَرَبِيَّةُ مُوجُودَةٌ فِيهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَ أَهْلِ جِيلِهِ
 وَأَسَالِيهِمْ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَكَيْفِيَّةِ تَغْيِيرِهِمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ كَمَا يَسْمَعُ الصَّبِيُّ اسْتِغْمَالَ
 الْمُفْرَدَاتِ فِي مَعَانِيهَا فَيُلْقِنُهَا أَوَّلًا ثُمَّ يَسْمَعُ التَّرَاكِبَ بَعْدَهَا فَيُلْقِنُهَا كَذَلِكَ . ثُمَّ
 لَا يَزَالُ سَمَاعُهُمْ لِذَلِكَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَمِنْ كُلِّ مُتَكَلِّمٍ وَاسْتِغْمَالُهُ يَتَكَرَّرُ إِلَى
 أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ مَلَكَةً وَصِفَةً رَاسِخَةً وَيَكُونُ كَأَحَدِهِمْ . هَكَذَا تَصِيرَتِ الْأَلْسُنُ
 وَاللُّغَاتُ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ وَتَعَلَّمَهَا الْعَجَمُ وَالْأَطْفَالُ . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى مَا تَقُولُهُ
 الْعَامَّةُ مِنْ أَنَّ اللَّفَّةَ لِلْعَرَبِ بِالطَّنْعِ أَيْ بِالْمَلَكَةِ الْأُولَى الَّتِي أَخَذَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ
 يَأْخُذْهَا عَنْ غَيْرِهِمْ . ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمُضَرِّ بِمُخَالَطَتِهِمْ الْأَعَاجِمَ
 وَسَبَبَ فَسَادِهَا أَنَّ النَّاشِئَ مِنَ الْجِيلِ صَارَ يَسْمَعُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ كَيْفِيَّاتٍ
 أُخْرَى غَيْرَ الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ فَيَعْبُرُ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهِ لِكثَرَةِ الْمُخَالَطِينَ
 لِلْعَرَبِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَسْمَعُ كَيْفِيَّاتِ الْعَرَبِ أَيْضًا فَاخْتَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَأَخَذَ مِنْ هَذِهِ
 وَهَذِهِ فَاسْتَحْدَثَ مَلَكَةً وَكَانَتْ نَاقِصَةً عَنِ الْأُولَى . وَهَذَا مَعْنَى فَسَادِ اللِّسَانِ
 الْعَرَبِيِّ . وَلِهَذَا كَانَتْ لُغَةُ قُرَيْشٍ أَفْضَلَ اللُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَأُضْرَحَهَا لِبُعْدِهِمْ عَنْ بِلَادِ
 الْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ . ثُمَّ مَنْ اِكْتَنَفَهُمْ مِنْ ثَقِيفٍ وَهَذِيلٍ وَخَزَاعَةَ وَبَنِي كِنَانَةَ
 وَغُطَفَانَ وَبَنِي أَسَدٍ وَبَنِي تَمِيمٍ . وَأَمَّا مَنْ بَعْدَ عَنْهُمْ مِنْ رَبِيعَةَ وَلُخَمٍ وَجَذَامَ وَغَسَّانَ
 وَإِيَادَ وَقُضَاعَةَ وَعَرَبَ الْيَمَنِ الْمُجَاوِرِينَ لِأَمَمِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالْحَبَشَةِ فَلَمْ تَكُنْ لُغَتُهُمْ
 تَامَةً الْمَلَكَةَ بِمُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ . وَعَلَى نِسْبَةِ بُعْدِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَ الْإِحْتِجَاجُ
 بِلُغَاتِهِمْ فِي الصُّحَةِ وَالْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ
 وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

(١) الضمير يعود إلى اللفظة . وفي النسخة الباريسية ملكة اللفظة .

الفصل السابع والأربعون

في أن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير

وذلك أنا نجدُها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سُنَنِ اللِّسَانِ الْمُضَرِّي وَلَمْ يُفْقَدْ مِنْهَا إِلَّا دَلَالَةُ الْحَرَكَاتِ عَلَى تَعْيِينِ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَفْعُولِ فَاغْتَضَا مِنْهَا بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَبِقَرَأَتِنِ تَدُلُّ عَلَى خُصُوصِيَّاتِ الْمَقَاصِدِ . إِلَّا أَنَّ الْبَيَانَ وَالبَلَاغَةَ فِي اللِّسَانِ الْمُضَرِّي أَكْثَرُ وَأَعْرَقَ . لِأَنَّ الْأَلْفَاظَ بِأَعْيَانِهَا دَالَّةٌ عَلَى الْمَعَانِي بِأَعْيَانِهَا . وَيَبْقَى مَا تَقْتَضِيهِ الْأَحْوَالُ وَيُسَمَّى بِسَاطِ الْحَالِ مُخْتِاجاً إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ . وَكُلُّ مَعْنَى لَا بُدَّ وَأَنْ تَكْتَنِفَهُ أَحْوَالٌ تَخْصُهُ فَيَجِبُ أَنْ تُغْتَبَرِ تِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَقْصُودِ لِأَنَّهَا صِفَاتُهُ وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي جَمِيعِ الْأَلْسِنِ أَكْثَرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِأَلْفَاظٍ تَخْصُهَا بِالْوَضْعِ . وَأَمَّا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِأَحْوَالٍ وَكَيْفِيَّاتٍ فِي تَرَكَيبِ الْأَلْفَاظِ وَتَأْلِيْفِهَا مِنْ تَقْدِيرٍ أَوْ تَأْخِيرٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ حَرَكَةٍ أَغْرَابٍ . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَيْهَا بِالْحُرُوفِ غَيْرِ الْمُسْتَقْلَةِ . وَلِذَلِكَ تَفَاوَتْ طَبَقَاتُ الْكَلَامِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ الدَّلَالَةِ عَلَى تِلْكَ الْكَيْفِيَّاتِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ فَكَانَ الْكَلَامُ الْعَرَبِيُّ لِذَلِكَ أَوْجَزَ وَأَقْلَ الْأَفَاظِ وَعِبَارَةً مِنْ جَمِيعِ الْأَلْسِنِ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : « أَوْتَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَأَخْتَصِرُ لِي الْكَلَامَ اخْتِصَاراً » . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَا يُخَكِّي عَنْ عِيْسَى بْنِ عِمْرَ وَقَدْ قَالَ لَهُ بَعْضُ النُّحَاةِ : « إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ تَكَرُّراً فِي قَوْلِهِمْ : زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنْ زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنْ زَيْدٌ لِقَائِمٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ » . فَقَالَ لَهُ : إِنْ مَعَانِيهَا مُخْتَلِفَةٌ . فَالْأَوَّلُ : لِإِفَادَةِ الْخَالِي الذَّهْنِ مِنْ قِيَامِ زَيْدٍ ، وَالثَّانِي : لِمَنْ سَمِعَهُ فَتَرَدَّدَ فِيهِ . وَالثَّالِثُ : لِمَنْ عَرَفَ بِالْإِضْرَارِ عَلَى إِنْكَارِهِ فَاخْتَلَفَتِ الدَّلَالَةُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ . وَمَا زَالَتْ هَذِهِ الْبَلَاغَةُ وَالْبَيَانُ دِينُ الْعَرَبِ وَمَذْهَبُهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَلَا تَلْتَفِتْ فِي ذَلِكَ إِلَى خَرْقِ شِعَةِ النُّحَاةِ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ الْقَاصِرَةِ مَذَارِكُهُمْ عَنِ التَّحْقِيقِ حَيْثُ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْبَلَاغَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ ذَهَبَتْ وَأَنَّ

اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ فَسَدَ اعْتِبَارًا بِمَا وَقَعَ فِي أَوَاخِرِ الْكَلِمِ مِنْ فَسَادِ الْإِعْرَابِ الَّذِي
 يَتَذَارِسُونَ قَوَائِنَهُ . وَهِيَ مَقَالَةٌ دَسَّهَا التَّشْيِيعُ فِي طِبَاعِهِمْ وَأَلْقَاهَا الْقُصُورُ فِي أَفْئِدَتِهِمْ
 وَلَا فَتَحْنَا نَجْدَ الْيَوْمِ الْكَثِيرَ مِنَ الْفَاطِ الْعَرَبِ لَمْ تَزَلْ فِي مَوْضُوعَاتِهَا الْأُولَى وَالتَّغْيِيرُ
 عَنِ الْمَقَاصِدِ وَالتَّعَاوُنُ فِيهِ يَتَفَاوَتْ الْإِبَانَةُ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَسَالِيبُ
 اللِّسَانِ وَفَنُونُهُ مِنَ النُّظْمِ وَالنَّشْرِ مَوْجُودَةٌ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَفَهُمُ الْخَطِيبُ الْمِضْقَعُ فِي
 مَخَافِلِهِمْ وَمَجَامِعِهِمْ وَالشَّاعِرُ الْمُفْلِقُ عَلَى أَسَالِيبِ لُغَتِهِمْ . وَالذَّوْقُ الصَّحِيحُ وَالطَّبِيعُ
 السَّلِيمُ شَاهِدَانِ بِذَلِكَ . وَلَمْ يَفْقَدْ مِنْ أَحْوَالِ اللِّسَانِ الْمُدُونِ إِلَّا حَرَكَاتُ الْإِعْرَابِ فِي
 أَوَاخِرِ الْكَلِمِ فَقَطْ الَّذِي لَزِمَ فِي لِسَانِ مُضَرٍّ طَرِيقَةً وَاحِدَةً وَمَنْهَمًا مَعْرُوفًا وَهُوَ
 الْإِعْرَابُ . وَهُوَ بَعْضُ مِنْ أَحْكَامِ اللِّسَانِ . وَإِنَّمَا وَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِلِسَانِ مُضَرٍّ لِمَا فَسَدَ
 بِمُخَالَطَتِهِمُ الْأَعَاجِمَ حِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى مَمَالِكِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِضَرَ وَالْمَغْرِبِ
 وَصَارَتْ مَلَكَتُهُ عَلَى غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ أَوَّلًا فَانْقَلَبَ لُغَةً أُخْرَى . وَكَانَ الْقُرْآنُ
 مُنْزَلًا بِهِ وَالْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ مَقُولًا بِلُغَتِهِ وَهُمَا أَضْلَا الدِّينَ وَالْمِلَّةَ فَخَشِيَ تَنَاسِيهِمَا
 وَانْفِلَاقُ الْأَفْهَامِ عَنْهُمَا بِفَقْدَانِ اللِّسَانِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ فَاحْتِيجَ إِلَى تَدْوِينِ أَحْكَامِهِ
 وَوَضْعِ مَقَايِسِهِ وَاسْتِنْبَاطِ قَوَائِنِهِ . وَصَارَ عُلَمَاءُ فَصُولِ وَأَبْوَابِ وَمُقَدِّمَاتِ وَمَسَائِلِ
 سَمَاءُ أَهْلُهُ يَعْلَمُ النُّحُوَّ وَصِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ فَأَصْبَحَ فَنَاءً مَحْفُوظًا وَعِلْمًا مَكْتُوبًا وَسَلْمًا إِلَى
 فَهْمِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَأَفِيًا^(١) . وَلَعَلَّنَا لَوْ اِعْتَنَيْنَا بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ
 لِهَذَا الْعَهْدِ وَاسْتَقَرَّرْنَا أَحْكَامَهُ نَعْتَاضَ عَنِ الْحَرَكَاتِ الْإِعْرَابِيَّةِ فِي دَلَالَتِهَا بِأُمُورٍ
 أُخْرَى مَوْجُودَةٍ فِيهِ تَكُونُ بِهَا قَوَائِينُ تُخَصُّصُهَا . وَلَعَلَّهَا تَكُونُ فِي أَوَاخِرِهِ عَلَى غَيْرِ
 الْمِنْهَاجِ الْأَوَّلِ فِي لُغَةٍ مُضَرٍّ فَلَيْسَتْ اللَّغَاتُ وَمَلَكَاتُهَا مَجَانًا . وَلَقَدْ كَانَ اللِّسَانُ
 الْمُضَرِّيُّ مَعَ اللِّسَانِ الْحِمْيَرِيِّ بِهَذِهِ الْمَثَالَةِ وَتَغْيِيرٌ عِنْدَ مُضَرٍّ كَثِيرٌ مِنْ مَوْضُوعَاتِ
 اللِّسَانِ الْحِمْيَرِيِّ وَتَصَارِيفُ كَلِمَاتِهِ . تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْأَنْقَالَ الْمَوْجُودَةُ لَدَيْنَا خِلَافًا
 لِمَنْ يَحْمِلُهُ الْقُصُورُ عَلَى أَنَّهَا لُغَةٌ وَاحِدَةٌ وَيَلْتَمِسُ إِجْرَاءَ اللَّغَةِ الْحِمْيَرِيَّةِ عَلَى

(١) وفي نسخة أخرى ، راقيا .

مَقَائِسُ اللُّغَةِ الْمُصَرِّيَّةِ وَقَوَائِنُهَا كَمَا يَزْعُمُ بَعْضُهُمْ فِي اسْتِثْقَائِ الْقِيلِ فِي اللِّسَانِ
الْحَمِيرِيِّ أَنَّهُ مِنَ الْقَوْلِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَشْبَاهِ هَذَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ . وَلُغَةُ حَمِيرٍ لُغَةٌ
أُخْرَى مُغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرٍّ فِي الْكَثِيرِ مِنْ أَوْضَاعِهَا وَتَصَارِيفِهَا وَحَرَكَاتِ إِغْرَابِهَا كَمَا
هِيَ لُغَةُ الْعَرَبِ لِعَهْدِنَا مَعَ لُغَةِ مُضَرٍّ إِلَّا أَنَّ الْعِنَايَةَ بِلِسَانِ مُضَرٍّ مِنْ أَجْلِ الشَّرِيعَةِ
كَمَا قُلْنَا حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى الْإِسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِقْرَاءِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا لِهَذَا الْعَهْدِ مَا يَحْمِلُنَا
عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَيَدْعُونَا إِلَيْهِ . وَمِمَّا وَقَعَ فِي لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ حَيْثُ
كَانُوا مِنَ الْأَقْطَارِ شَائِنُهُمْ فِي النُّطْقِ بِالْقَافِ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْطُقُونَ بِهَا مِنْ مَخْرَجِ الْقَافِ
عِنْدَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ مِنْ أَقْصَى اللِّسَانِ وَمَا فَوْقَهُ
مِنَ الْحَنَكِ الْأَعْلَى . وَمَا يَنْطُقُونَ بِهَا أَيْضًا مِنْ مَخْرَجِ الْكَافِ وَإِنْ كَانَ أَسْفَلَ مِنْ
مَوْضِعِ الْقَافِ وَمَا يَلِيهِ مِنَ الْحَنَكِ الْأَعْلَى كَمَا هِيَ بَلْ يَحْيِيُونَ بِهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ
الْكَافِ وَالْقَافِ وَهُوَ مَوْجُودٌ لِلْجِيلِ أَجْمَعَ حَيْثُ كَانُوا مِنْ غَرْبٍ أَوْ شَرْقٍ حَتَّى صَارَ
ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ وَالْأَجْنَالِ مُخْتَصًا بِهِمْ لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ .
حَتَّى إِنْ مَنْ يُرِيدُ التَّقَرُّبَ ^(١) وَالِانْتِسَابَ إِلَى الْجِيلِ وَالِدُخُولِ فِيهِ يُحَاكِمُهُمْ فِي
النُّطْقِ بِهَا . وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ الْعَرَبِيُّ الصَّرِيحُ مِنَ الدَّخِيلِ فِي الْعُرُوبِيَّةِ
وَالْحَضَرِيِّ بِالنُّطْقِ بِهَذِهِ الْقَافِ . وَيُظْهَرُ بِذَلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرٍّ بَعَيْنِهَا فَإِنَّ هَذَا
الْجِيلَ الْبَاقِينَ مُعْظَمُهُمْ وَرُؤُسَاؤُهُمْ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي وَلَدِ مَنْصُورِ بْنِ عَكْرَمَةَ بْنِ
خَصْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ مِنْ سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ وَمِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَفْصَعَةَ بْنِ
مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ بْنِ مَنْصُورٍ . وَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَكْثَرُ الْأُمَمِ فِي الْمَعْمُورِ
وَأَغْلَبُهُمْ وَهُمْ مِنْ أَغْصَابِ مُضَرٍّ وَسَائِرِ الْجِيلِ مَعَهُمْ مِنْ بَنِي كَهْلَانَ فِي النُّطْقِ بِهَذِهِ
الْقَافِ أَسْوَةً . وَهَذِهِ اللُّغَةُ لَمْ يَتَبَدَّعْهَا هَذَا الْجِيلُ بَلْ هِيَ مُتَوَارِثَةٌ فِيهِمْ مُتَعَاكِبَةٌ
وَيُظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرِّ الْأَوَّلِينَ وَلَعَلَّهَا لُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعَيْنِهَا قَدْ ادَّعَى
ذَلِكَ فَقَهَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي أَمِّ الْقُرْآنِ « إِهْدِنَا إِلَى الصِّرَاطِ

(١) وفي نسخة أخرى ، التعرّب .

الْمُسْتَقِيمِ » بِغَيْرِ الْقَافِ الَّتِي لِهَذَا الْجِيلِ فَقَدْ لَحَنَ وَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ وَلَمْ أَذِرْ مِنْ آيِنِ
 جَاءَ هَذَا ؟ فَإِنَّ لُغَةَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَيْضاً لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا وَإِنَّمَا تَنَاقَلُوهَا مِنْ لَدُنْ سَلَفِهِمْ
 وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُصَرِّ لَمَّا نَزَلُوا الْأَمْصَارَ مِنْ لَدُنِ الْفَتْحِ . وَأَهْلُ الْجِيلِ أَيْضاً لَمْ
 يَسْتَحْدِثُوهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُ مِنْ مُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ . فَهَذَا يُرْجَحُ فِيمَا
 يَوْجَدُ مِنَ اللُّغَةِ لَدَيْهِمْ أَنَّهُ مِنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ . هَذَا مَعَ اتِّفَاقِ أَهْلِ الْجِيلِ كُلِّهِمْ شَرْقاً
 وَغَرْباً فِي النُّطْقِ بِهَا وَأَنَّهَا الْخَاصِيَّةُ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا الْعَرَبِيُّ مِنَ الْفُجِيِّ
 وَالْحَضَرِيِّ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْقَافَ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ الْجِيلِ الْعَرَبِيُّ الْبَدَوِيُّ
 هُوَ مِنْ مَخْرَجِ الْقَافِ عِنْدَ أَوَّلِهِمْ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ ، وَأَنْ مَخْرَجَ الْقَافِ مُتَّسِعٌ ، فَأَوَّلُهُ مِنْ
 أَعْلَى الْحَنَكِ وَآخِرُهُ مِمَّا يَلِي الْكَافَ . فَالنُّطْقُ بِهَا مِنْ أَعْلَى الْحَنَكِ هُوَ لُغَةُ
 الْأَمْصَارِ ، وَالنُّطْقُ بِهَا مِمَّا يَلِي الْكَافَ هِيَ لُغَةُ هَذَا الْجِيلِ الْبَدَوِيِّ . وَبِهَذَا يَنْدَفِعُ
 مَا قَالَهُ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْ فَسَادِ الصَّلَاةِ بِتَرْكِهَا فِي أَمِّ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ فَهَاءَ الْأَمْصَارِ كُلِّهِمْ
 عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ . وَبَعِيدٌ أَنْ يَكُونُوا أَهْمَلُوا ذَلِكَ ، فَوَجْهُهُ مَا قُلْنَا . نَعَمْ نَقُولُ إِنَّ
 الْأَرْجَحَ وَالْأَوَّلَى مَا يَنْطِقُ بِهِ أَهْلُ الْجِيلِ الْبَدَوِيِّ لِأَن تَوَاتُرَهَا فِيهِمْ كَمَا قَدْ مَنَاهُ .
 شَاهِدٌ بِأَنَّهَا لُغَةُ الْجِيلِ الْأَوَّلِ مِنْ سَلَفِهِمْ ، وَأَنَّهَا لُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ . وَيُرْجَحُ ذَلِكَ
 أَيْضاً إِذْغَامُهُمْ لَهَا فِي الْكَافِ لِتَقَارُبِ الْمَخْرَجِينَ . وَلَوْ كَانَتْ كَمَا يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ
 الْأَمْصَارِ مِنْ أَصْلِ الْحَنَكِ ، لَمَا كَانَتْ قَرِيبَةً الْمَخْرَجِ مِنَ الْكَافِ ، وَلَمْ تُدْغَمَ . ثُمَّ إِنَّ
 أَهْلَ الْعَرَبِيَّةِ قَدْ ذَكَرُوا هَذِهِ الْقَافَ الْقَرِيبَةَ مِنَ الْكَافِ ، وَهِيَ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ
 الْجِيلِ الْبَدَوِيِّ مِنَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، وَجَعَلُوهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ مَخْرَجِي الْقَافِ
 وَالْكَافِ . عَلَى أَنَّهَا خَرَفٌ مُسْتَقْبَلٌ ، وَهُوَ بَعِيدٌ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مِنْ آخِرِ مَخْرَجِ الْقَافِ
 لِاتِّسَاعِهِ كَمَا قُلْنَا . ثُمَّ إِنَّهُمْ يُصْرِّحُونَ بِاسْتِجَابَةِ وَاسْتِقْبَاحِهِ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَصِحْ
 عِنْدَهُمْ أَنَّهَا لُغَةُ الْجِيلِ الْأَوَّلِ . وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ إِتِّصَالِ نَطْقِهِمْ بِهَا ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا
 وَرِثُوهَا مِنْ سَلَفِهِمْ جَيْلاً بَعْدَ جَيْلٍ ، وَأَنَّهَا شِعَارُهُمُ الْخَاصُّ بِهِمْ ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لُغَةُ
 ذَلِكَ الْجِيلِ الْأَوَّلِ ، وَلُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا تَقْدَمُ ذَلِكَ كُلُّهُ . وَقَدْ يَزْعُمُ زَائِعٌ أَنَّ

هَذِهِ الْقَافُ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ الْأَمْصَارِ لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْحَرْفِ ، وَأَنَّهَا إِنَّمَا جَاءَتْ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ لِلْعَجَمِ ، وَإِنَّهُمْ يَنْطِقُونَ بِهَا كَذَلِكَ ، فَلَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ . وَلَكِنْ الْأَقْيَسُ كَمَا قَدْ مَنَّا مِنْ أَنَّهَا حَرْفٌ وَاحِدٌ مُتَّسِعٌ الْمَخْرَجِ . فَتَقْهَمُ ذَلِكَ . وَاللَّهُ الْهَادِي الْمُبِينُ .

الفصل الثامن والأربعون

فِي أَنَّ لُغَةَ أَهْلِ الْحَضَرِ وَالْأَمْصَارِ لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا لِلُّغَةِ مَضَرِ

إِغْلَمَ أَنَّ عَرَفَ التَّخَاطُبِ فِي الْأَمْصَارِ وَبَيَّنَّ الْحَضَرَ لَيْسَ بِلُغَةٍ مَضَرِ الْقَدِيمَةِ وَلَا بِلُغَةٍ أَهْلِ الْجِيلِ بَلْ هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا بَعِيدَةٌ عَنْ لُغَةِ مَضَرِ وَعَنْ لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي لِعَهْدِنَا وَهِيَ عَنْ لُغَةِ مَضَرِ أَبْعَدُ . فَأَمَّا إِنَّهَا لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهُوَ ظَاهِرٌ يَشْهَدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنَ التَّغَايُرِ الَّذِي يُعَدُّ عِنْدَ صِنَاعَةِ أَهْلِ النُّحُو لُحْنًا . وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَمْصَارِ فِي اضْطِلَاحَاتِهِمْ فَلُغَةُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ مَبَايِنَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ لِلُّغَةِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَكَذَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعَهُمَا وَكُلٌّ مِنْهُمْ مُتَوَصِّلٌ بِلُغَتِهِ إِلَى تَادِيَةِ مَقْصُودِهِ وَالْإِبَانَةِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ . وَهَذَا مَعْنَى اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ . وَفَقْدَانُ الْإِعْرَابِ لَيْسَ بِضَائِرٍ لَهُمْ كَمَا قُلْنَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَأَمَّا إِنَّهَا أَبْعَدُ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ مِنْ لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ فَلَأَنَّ الْبُعْدَ عَنِ اللِّسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِمُخَالَطَةِ الْعُجْمَةِ^(١) . فَمَنْ خَالَطَ الْعَجَمَ أَكْثَرَ كَانَتْ لُغَتُهُ عَنْ ذَلِكَ اللِّسَانِ الْأَصْلِيِّ أَبْعَدُ لِأَنَّ الْمَلَكَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِالتَّغْلِيمِ كَمَا قُلْنَا . وَهَذِهِ مَلَكَةٌ مُنْتَزَجَةٌ مِنَ الْمَلَكَةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ وَمِنَ الْمَلَكَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي لِلْعَجَمِ . فَعَلَى مِقْدَارِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْعَجَمِ وَيَرْبُونَ عَلَيْهِ يَبْعُدُونَ عَنِ الْمَلَكَةِ الْأُولَى . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ . أَمَّا أَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ فَخَالَطَتِ الْعَرَبُ فِيهَا الْبَرَابِرَةَ مِنْ

(١) وفي النسخة الباريسية : لمخالطة العجم .

العجم يوفور عمرانها بهم ولم يكذ يخلو عنهم مضر ولا جيل فقلبت العجمة فيها
 على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى ممتازة . والعجمة فيها
 أغلب لما ذكرناه فهي عن اللسان الأول أبعد . وكذا المشرق لما غلب العرب على
 أميه من فارس والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الأكرة والفلاحين
 والسبي الذين اتخذوهم خولا وذايات وأطارا ومراضع ففسدت لغتهم بفساد الملكة
 حتى انقلبت لغة أخرى . وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالة والإفرنجية . وصار
 أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم يخالف لغة مضر
 ويخالف أيضا بفضأ كَمَا نذكره وكأنه لغة أخرى لاستحكام ملكتها في
 أجيالهم . والله يخلق ما يشاء ويقدر .

الفصل التاسع والأربعون

في تعليم اللسان المضري

إعلم أن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ولغة أهل الجيل
 كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن وإنما هي لغة أخرى من امتزاج
 العجمة بها كَمَا قدامنا . إلا أن اللغات لما كانت ملكات كَمَا مر كان تعلمها
 ممكنا شأن سائر الملكات . ووجه التعليم لمن يتبغي هذه الملكة ويروم تحصيلها
 أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث
 وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أشجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين
 أيضا في سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور
 منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم . ثم يتصرف بعد ذلك في
 التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من

أَسَالِيهِمْ وَتَرْتِيبُ الْفَاطِمِمْ فَتَحْصُلُ لَهُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ بِهَذَا الْحِفْظِ وَالِاسْتِعْمَالِ وَيَزْدَادُ
يَكْثَرْتَهُمَا رُسُوحاً وَقُوَّةً وَيَخْتِاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى سَلَامَةِ الطَّبِيعِ وَالتَّفْهِيمِ الْحَسَنِ لِمَنَازِعِ
الْعَرَبِ وَأَسَالِيهِمْ فِي التَّرَاكِيِبِ وَمُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُقْتَضِيَاتِ الْأَخْوَالِ .
وَالذُّوقُ يَشْهَدُ بِذَلِكَ وَهُوَ يَنْشَأُ مَا بَيْنَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَالطَّبِيعِ السَّلِيمِ فِيهِمَا كَمَا
نَذَكُرُ . وَعَلَى قَدَرِ الْمَحْفُوظِ وَكَثْرَةِ الْاسْتِعْمَالِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَقُولِ الْمَصْنُوعِ نَظْماً
وَنَثْراً . وَمَنْ حَصَلَ عَلَى هَذِهِ الْمَلَكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لُغَةٍ مُضَرٍّ وَهُوَ النَّاقِدُ الْبَصِيرُ
بِالْبَلَاغَةِ فِيهَا وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَعَلُّمُهَا . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ
وَكَرَمِهِ .

الفصل الخمسون

فِي أَنَّ مَلَكَةَ هَذَا اللِّسَانِ غَيْرُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمُسْتَفْنِيَّةٌ عَنْهَا فِي التَّعْلِيمِ
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ قَوَانِينِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ
وَمَقَايِسِهَا خَاصَّةً . فَهُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ لَا نَفْسُ كَيْفِيَّةٍ . فَلَيْسَتْ نَفْسُ الْمَلَكَةِ وَإِنَّمَا
هِيَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَعْرِفُ صِنَاعَةَ مِنَ الصَّنَائِعِ عِلْماً وَلَا يُحْكِمُهَا عَمَلاً . مِثْلُ أَنْ يَقُولَ
بَصِيرٌ بِالْخِيَاطَةِ غَيْرُ مُحْكِمٍ لِمَلَكَتِهَا فِي التَّعْبِيرِ عَنْ بَعْضِ أَنْوَاعِهَا الْخِيَاطَةِ هِيَ أَنْ
يُدْخَلَ الْخِيْطُ فِي خَزَنِ الْإِبْرَةِ ثُمَّ يَفْرُزُهَا فِي لِفْقِي الثُّوبِ مُجْتَمِعِينَ وَيُخْرِجُهَا مِنْ
الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمِقْدَارِ كَذَا ثُمَّ يَرُدُّهَا إِلَى حَيْثُ ابْتَدَأَتْ وَيُخْرِجُهَا قَدَامَ مَنْفِذِهَا
الْأَوَّلِ بِمَطَرَحٍ مَا بَيْنَ الثُّقَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ ثُمَّ يَتِمَادَى عَلَى ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْعَمَلِ وَيُعْطِي
صُورَةَ الْخَبْكَ وَالتَّشْبِيتِ^(١) وَالتَّفْتِيحِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْخِيَاطَةِ وَأَعْمَالِهَا . وَهُوَ إِذَا طَوَّلَبَ
أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِيَدِهِ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ شَيْئاً . وَكَذَا لَوْ سُوِّلَ عَالِمٌ بِالنَّجَارَةِ عَنْ تَفْصِيلِ
الْخَشَبِ فَيَقُولُ : هُوَ أَنْ تَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَى رَأْسِ الْخَشَبِ وَتَمْسِكَ بِطَرَفِهِ وَآخَرُ

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : التَّشْبِيتِ .

قَبَالَتَكَ مُنْسِكَ بِطَرَفِهِ الْآخَرَ وَتَتَعَابَاهُ بَيْنَكُمَا وَأَطْرَافُهُ الْمُضْرَسَةُ الْمُحْدَدَةُ تَقْطَعُ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ ذَاهِبَةً وَجَائِيَةً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ^(١) الْخَشْيَةِ . وَهُوَ لَوْ طَوَّلَ بِهَذَا الْعَمَلِ أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ لَمْ يَحْكُمَهُ . وَهَكَذَا الْعِلْمُ بِقَوَانِينِ الْإِعْرَابِ مَعَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي نَفْسِهَا فَإِنَّ الْعِلْمَ بِقَوَانِينِ الْإِعْرَابِ إِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ وَلَيْسَ هُوَ نَفْسُ الْعَمَلِ . وَلِذَلِكَ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ جَهَا بِدَّةِ النُّحَاةِ وَالْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُحِيطِينَ عِلْمًا بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ إِذَا سُئِلَ فِي كِتَابَةِ سَطْرَيْنِ إِلَى أَخِيهِ أَوْ ذِي مَوَدَّتِهِ أَوْ شَكْوَى ظَلَامَةٍ أَوْ قَضْدٍ مِنْ قُصُودِهِ أَخْطَأَ فِيهَا عَنِ الصَّوَابِ وَأَكْثَرَ مِنَ اللَّحْنِ وَلَمْ يَجِدْ تَأْلِيفَ الْكَلَامِ لِذَلِكَ وَالْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقْصُودِ عَلَى أَسَالِيبِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . وَكَذَا نَجِدُ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُحَسِّنُ هَذِهِ الْمَلَكَةَ وَيَجِدُ الْفَنِّينَ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْشُورِ وَهُوَ لَا يُحَسِّنُ إِعْرَابَ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَفْعُولِ وَلَا الْمَرْفُوعِ مِنَ الْمَجْرُورِ وَلَا شَيْئًا مِنْ قَوَانِينِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ . فَمِنْ هَذَا تَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ الْمَلَكَةَ هِيَ غَيْرُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَنَّهَا مُسْتَفْنِيَةٌ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ . وَقَدْ نَجِدُ بَعْضَ الْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ بِصِيرٍ بِحَالِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَهُوَ قَلِيلٌ وَاتِّفَاقِيٌّ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ لِلْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سَيِّبُونِهِ . فَإِنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوَانِينِ الْإِعْرَابِ فَقَطْ بَلْ مَلَأَ كِتَابَهُ مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ وَشَوَاهِدِ أَشْعَارِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ فَكَانَ فِيهِ جُزْءٌ صَالِحٌ مِنْ تَعْلِيمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فَتَجِدُ الْعَاكِفَ عَلَيْهِ وَالْمُحَصِّلَ لَهُ قَدْ حَصَلَ عَلَى حَظِّ^(٢) مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَانْدَرَجَ فِي مَحْفُوظِهِ فِي أَمَاكِينِهِ وَمَفَاصِلِ حَاجَاتِهِ . وَتَنَبَّهَ بِهِ لِشَأْنِ الْمَلَكَةِ فَاسْتَوْفَى تَعْلِيمَهَا فَكَانَ أَتْلَغَ فِي الْإِفَادَةِ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سَيِّبُونِهِ مَنْ يَغْفُلُ عَنِ التَّفَقُّطِ لِهَذَا فَيَحْصُلُ عَلَى عِلْمِ اللِّسَانِ صِنَاعَةً وَلَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ مَلَكَةٌ . وَأَمَّا الْمُخَالِطُونَ لِكِتَابِ الْمُتَأَخِّرِينَ الْعَرَابِيِّينَ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ الْقَوَانِينِ النُّحَوِيَّةِ مُجْرَدَةً عَنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ ، فَقُلْ مَا يَشْعُرُونَ لِذَلِكَ بِأَمْرِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ أَوْ يَنْتَبِهُونَ لِشَأْنِهَا فَتَجِدُهُمْ يُحْسِنُونَ أَنَّهُمْ قَدْ

(١) وفي النسخة الباريسية : أسفل .

(٢) وفي نسخة أخرى : على خط .

حَصَلُوا عَلَى رُتْبَةٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ . وَأَهْلُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ
بِالْأَنْدَلُسِ وَمُعَلِّمُوهَا أَقْرَبُ إِلَى تَخْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَتَعْلِيمِهَا مِنْ سِوَاهُمْ لِقِيَامِهِمْ
فِيهَا عَلَى شَوَاهِدِ الْعَرَبِ وَأَمْثَالِهِمْ وَالتَّفَقُّهِ فِي الْكَثِيرِ مِنَ التَّرَاكِبِ فِي مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ
فَيَسْبِقُ إِلَى الْمُتَبَدِّي كَثِيرٌ مِنَ الْمَلَكَةِ أَثْنَاءِ التَّعْلِيمِ فَتَنْقَطِعُ ^(١) النَّفْسُ لَهَا وَتَسْتَعِدُّ إِلَى
تَخْصِيلِهَا وَقَبُولِهَا . وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَأَجْرُوا
صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ مُجَرَّدَ الْعُلُومِ بَخْشًا وَقَطَعُوا النَّظَرَ عَنِ التَّفَقُّهِ فِي تَرَاكِبِ كَلَامِ
الْعَرَبِ إِلَّا إِنْ أَغْرَبُوا شَاهِدًا أَوْ رَجَّحُوا مَذْهَبًا ^(٢) مِنْ جِهَةِ الْاِقْتِضَاءِ الذَّهْنِيِّ لَا مِنْ
جِهَةِ مَحَامِلِ اللِّسَانِ وَتَرَاكِبِيهِ . فَأَصْبَحَتْ صِنَاعَةُ الْعَرَبِيَّةِ كَأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ قَوَانِينِ
الْمَنْطِقِ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ الْجَدَلِ وَبَعْدَتْ عَنْ مَنَاجِي اللِّسَانِ وَمَلَكَتِهِ وَأَفَادَ ذَلِكَ حَمَلَتَهَا فِي
هَذِهِ الْأَنْصَارِ وَأَفَاقَهَا الْبُعْدُ عَنِ الْمَلَكَةِ بِالْكُلِّيَّةِ . وَكَأَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ فِي كَلَامِ
الْعَرَبِ . وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعَدُولِهِمْ عَنِ الْبَحْثِ فِي شَوَاهِدِ اللِّسَانِ وَتَرَاكِبِيهِ وَتَمْيِيزِ أَسَالِيْبِهِ
وَعَفْلَتِهِمْ عَنِ الْمِرَانِ فِي ذَلِكَ لِلْمُتَعَلِّمِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا تُفِيدُهُ الْمَلَكَةُ فِي اللِّسَانِ . وَتِلْكَ
الْقَوَانِينُ إِنَّمَا هِيَ وَسَائِلُ لِلتَّعْلِيمِ لَكِنَّهُمْ أَجْرَوْهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَصِدَ بِهَا وَأَصَارُوهَا
عِلْمًا بَخْشًا وَبَعْدُوا عَنْ ثَمَرَتِهَا . وَتَعَلَّمُوا مِمَّا قَرَّرْنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ حُصُولَ مَلَكَةِ
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ إِنَّمَا هُوَ بِكَثْرَةِ الْحِفْظِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَرْتَسِمَ فِي خَيَالِهِ
الْمِنْوَالُ الَّذِي نَسَجُوا عَلَيْهِ تَرَاكِبَهُمْ فَيَنْسَجُ هُوَ عَلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ بِذَلِكَ مَنْزِلَةً مِنْ نَشَأِ
مَعَهُمْ وَخَالَطِ عِبَارَاتِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ
الْمَقَاصِدِ عَلَى نَحْوِ كَلَامِهِمْ . وَاللَّهُ مُقَدِّرُ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ .

(٢) وفي نسخة أخرى ، فتنتطع .

(٣) وفي النسخة الباريسية : معنى .

الفصل الواحد والخمسون

في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنه
لا يحصل للمستعربين من العجم

إِغْلَمْ أَنَّ لَفْظَةَ الذُّوقِ يَتَدَاوُلُهَا الْمُعْتَنُونَ بِفُنُونِ الْبَيَانِ وَمَعْنَاهَا حُصُولُ مَلَكَةِ
الْبَلَاغَةِ لِلْسَّانِ . وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ الْبَلَاغَةِ وَأَنَّهَا مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِلْمَعْنَى مِنْ جَمِيعِ
وُجُوهِهِ بِخَوَاصِّ تَقَعُ لِلتَّرَاكِبِ فِي إِفَادَةِ ذَلِكَ . فَالْمَتَكَلِّمُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَالتَّبْلِغُ فِيهِ
يَتَحَرَّى الْهَيْئَةَ الْمُنْفِيْدَةَ لِذَلِكَ عَلَى أَسَالِيْبِ الْعَرَبِ وَأَنْحَاءِ مُخَاطَبَاتِهِمْ وَيَنْظِمُ الْكَلَامَ
عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ جُهْدَهُ فَإِذَا اتَّصَلَتْ مَقَامَاتُهُ ^(١) بِمُخَالَطَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ حَصَلَتْ لَهُ
الْمَلَكَةُ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَ التَّرْكِيْبِ حَتَّى لَا يَكَادُ
يَنْحَوِي فِيهِ غَيْرَ مَنْحَى الْبَلَاغَةِ الَّتِي لِلْعَرَبِ وَإِنْ سَمِعَ تَرْكِيْبًا غَيْرَ جَارٍ عَلَى ذَلِكَ
الْمَنْحَى مَجَّهٌ وَتَبَا عَنْهُ سَمْعُهُ بِأَذْنَى فِكْرِهِ . بَلْ وَبَغْيَرِ فِكْرِهِ . إِلَّا بِمَا اسْتَفَادَ مِنْ
حُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ . فَإِنَّ الْمَلَكَاتِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ وَرَسَخَتْ فِي مَحَالِّهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا
طَبِيعَةٌ وَجِبَلَةٌ لِذَلِكَ الْمَحَلِّ . وَلِذَلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ الْمُغْفِلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ شَأْنَ
الْمَلَكَاتِ أَنَّ الصُّوَابَ لِلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ إِعْرَابًا وَبَلَاغَةً أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ . وَيَقُولُ كَأَنَّهُ
الْعَرَبُ تَنْطَقُ بِالطَّبِيعِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسَانِيَّةٌ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ تَمَكَّنَتْ
وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ فِي بَادِي الرَّأْيِ أَنَّهَا جِبَلَةٌ وَطَبِيعٌ . وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا
تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلَى السَّمْعِ وَالتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَكَيبِهِ وَلَيْسَتْ
تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ الْقَوَانِيْنِ الْعِلْمِيَّةِ فِي ذَلِكَ الَّتِي اسْتَنْبَطَهَا أَهْلُ صِنَاعَةِ اللِّسَانِ فَإِنَّ
هَذِهِ الْقَوَانِيْنَ إِنَّمَا تُفِيدُ عِلْمًا بِذَلِكَ اللِّسَانِ وَلَا تُفِيدُ حُصُولَ الْمَلَكَةِ بِالْفِعْلِ فِي مَحَلِّهَا
وَقَدْ مَرَّ ذَلِكَ . وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَمَلَكَةُ الْبَلَاغَةِ فِي اللِّسَانِ تَهْدِي الْبَلِغَ إِلَى وَجُودِ النُّظْمِ

(١) وفي نسخة أخرى : معاناته لذلك .

وَحُسْنِ التَّرَكِيبِ الْمُوَافِقِ لِتَرَائِيبِ الْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلَامِهِمْ . وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ حَيْدًا عَنْ هَذِهِ السُّبُلِ الْمُعَيَّنَةِ وَالتَّرَاكِيبِ الْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَّرَ عَلَيْهِ وَلَا وَافَقَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِأَنَّهُ لَا يَفْتَادُهُ وَلَا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ الرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ . وَإِذَا عَرَضَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ حَائِدًا عَنْ أَسْلُوبِ الْعَرَبِ وَبَلَغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلَامِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهَ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ الَّذِينَ مَارَسَ كَلَامَهُمْ . وَرُبَّمَا يَفْجِرُ عَنِ الْإِخْتِجَاجِ لِذَلِكَ كَمَا تَضَنُّعُ أَهْلُ الْقَوَائِنِ النُّحُوِيَّةِ وَالْبَيِّنَاتِيَّةِ فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ الْقَوَائِنِ الْمَفَادَةِ بِالِاسْتِقْرَاءِ . وَهَذَا أَمْرٌ وَجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ . وَمِثَالُهُ : لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صَبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبَّى فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ الْإِعْرَابِ وَالبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوِيَ عَلَى غَايَتِهَا . وَلَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ الْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ . وَكَذَلِكَ تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْغَارِهِمْ وَخُطْبَتِهِمْ وَالمُدَاوِمَةِ عَلَى ذَلِكَ يَحِثُّ يَحْصُلُ الْمَلَكَةُ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبَّى بَيْنَ أَجْيَالِهِمْ ^(١) . وَالْقَوَائِنُ بِمَعْزَلٍ عَنْ هَذَا وَاسْتَعِيرَ لِهَذِهِ الْمَلَكَةَ عِنْدَمَا تَرَسَّخَ وَتَسْتَقَرُّ اسْمُ الذُّوقِ الَّذِي اضْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ صِنَاعَةِ الْبَيَانِ وَالذُّوقِ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِإِذْرَاكِ الطَّعْمِ . لَكِنْ لَمَّا كَانَ مَحَلُّ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي اللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ النُّطْقُ بِالْكَلَامِ كَمَا هُوَ مَحَلُّ لِإِذْرَاكِ الطَّعْمِ اسْتَعِيرَ لَهَا اسْمُهُ . وَأَيْضًا فَهُوَ وَجْدَانِيٌّ اللِّسَانِ كَمَا أَنَّ الطَّعْمَ مَخْصُوسَةً لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذُوق . وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ أَنَّ الْأَعَاجِمَ الدَّاخِلِينَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الطَّارِئِينَ عَلَيْهِ الْمُضْطَرِّينَ إِلَى النُّطْقِ بِهِ لِمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ كَالْفَرَسِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَكَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هَذَا الذُّوقُ لِقُصُورِ حُظِّهِمْ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي قَرَّرْنَا أَمْرَهَا لِأَنَّ قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُمُرِ وَسَبَقَ مَلَكَتُهُ أُخْرَى إِلَى اللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ أَنْ يَفْتَتُوا بِمَا يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُ مِصْرَ بَيْنَهُمْ فِي الْمُحَاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ . وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَبَعْدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ . وَإِنَّمَا لَهُمْ فِي

(١) وفي نسخة أخرى : أحيائهم

ذَلِكَ مَلَكَةٌ أُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْمَطْلُوبَةِ . وَمَنْ عَرَفَ أَحْكَامَ تِلْكَ
 الْمَلَكَةِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْمُسَطَّرَةِ فِي الْكُتُبِ فَلَيْسَ مِنْ تَخْصِيلِ الْمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ . إِنَّمَا
 حَصَلَ أَحْكَامُهَا كَمَا عَرَفَتْ . وَإِنَّمَا تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ بِالْمُمَارَسَةِ وَالِاعْتِيَادِ
 وَالتَّكْرُرِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ . فَإِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ أَنَّ سَبِيحِيهِ وَالْفَارِسِيَّ
 وَالزَّمَنْخَرِيَّ وَأَمْثَالَهُمْ مِنْ فُرْسَانِ الْكَلَامِ كَانُوا أَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ لَهُمْ
 فَأَعْلَمُ أَنَّ أَوْلَئِكَ الْقَوْمَ الَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إِنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ . وَأَمَّا
 الْعَرَبِيُّ وَالنِّشَاءُ فَكَانَتْ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَ مِنْهُمْ فَاسْتَوَلُوا
 بِذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى غَايَةِ لَا شَيْءَ وَرَاءَهَا وَكَانَتْهُمْ فِي أَوَّلِ نَشَأَتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ
 نَشَأُوا فِي أَجْيَالِهِمْ حَتَّى أَدْرَكُوا كُنْهَ اللَّفْظِ وَضَارُوا مِنْ أَهْلِهَا فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عَجَمًا فِي
 النَّسَبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَامٍ فِي اللَّفْظِ وَالْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا الْمِلَّةَ فِي غَفْوَانِهَا وَاللَّفْظَ فِي
 شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبِ آثَارُ الْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى الْمُمَارَسَةِ
 وَالْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى اسْتَوَلُوا عَلَى غَايَتِهِ . وَالْيَوْمَ الْوَاحِدُ مِنَ الْعَجَمِ إِذَا
 خَالَطَ أَهْلَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِالْأَمْصَارِ فَأَوَّلَ مَا يَجِدُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الْمُقْصُودَةَ مِنَ
 اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مُمْتَحِنَةً الْآثَارِ . وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمُ الْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخْرَى مُخَالَفَةً
 لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى الْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ وَأَشْغَارِهِمْ
 بِالْمُدَارَسَةِ وَالْحِفْظِ يَسْتَفِيدُ تَخْصِيلَهَا فَقُلْ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَنَّ الْمَلَكَةَ
 إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى فِي الْمَحَلِّ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مُخْدُوشَةً . وَإِنْ فَرَضْنَا
 أَعْجَمِيًّا فِي النَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ بِالْكَلِمَةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هَذِهِ
 الْمَلَكَةِ بِالْحِفْظِ وَالْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ لَكِنَّهُ مِنَ التَّدْوِيرِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى
 عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ . وَرُبَّمَا يَدْعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ
 هَذَا الذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أَوْ مُغَالِطَةٌ وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ
 الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ وَلَيْسَتْ مِنْ مَلَكَةِ الْعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
 طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ .

الفصل الثاني والخمسون

في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة

اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن

اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةٍ مُنَافِيَةٍ لِلْمَلَكَةِ الْمَطْلُوبَةِ بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ اللِّسَانِ الْخَضِرِيِّ الَّذِي أَفَادَتْهُ الْعُجْمَةُ حَتَّى نَزَلَ بِهَا اللِّسَانُ عَنْ مَلَكَتِهِ الْأُولَى إِلَى مَلَكَةٍ أُخْرَى هِيَ لُغَةُ الْخَضِرِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَلِهَذَا نَجِدُ الْمُعَلِّمِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى الْمُسَابَقَةِ بِتَعْلِيمِ اللِّسَانِ لِلْوِلْدَانِ . وَتَعْتَقِدُ النَّحَاةُ أَنَّ هَذِهِ الْمُسَابَقَةَ يَصْنَعُونَهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ بِتَعْلِيمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ اللِّسَانِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ . نَعَمْ صِنَاعَةُ النَّحْوِ أَقْرَبُ إِلَى مُخَالَطَةِ ذَلِكَ وَمَا كَانَ مِنْ لُغَاتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَغْرَقَ فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنْ لِسَانِ مُضَرٍّ قَصَرَ بِصَاحِبِهِ عَنْ تَعْلِيمِ اللُّغَةِ الْمُضَرِّيَّةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهَا لِتَمَكُّنِ الْمُنَافَاةِ ^(١) حِينَئِذٍ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ . فَأَهْلُ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ لَمَّا كَانُوا أَغْرَقَ فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ كَانَ لَهُمْ قُصُورٌ تَامَ فِي تَحْصِيلِ مَلَكَتِهِ بِالتَّعْلِيمِ . وَلَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الرَّفِيقِ أَنَّ يَفْعُزَ كُتَّابَ الْقَيْرَوَانِ كَتَبَ إِلَى صَاحِبِ لَهُ : يَا أَخِي وَمَنْ لَا عِدَمْتُ فَقَدْهُ أَغْلَمَنِي أَبُو سَعِيدٍ كَلَاماً أَنَّكَ كُنْتَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ تَكُونُ مَعَ الَّذِينَ تَأْتِي وَعَاقِفْنَا الْيَوْمَ فَلَمْ يَتَهَيَّأْ لَنَا الْخُرُوجُ . وَأَمَّا أَهْلُ الْمَنْزِلِ الْكِلَابِ ^(٢) مِنْ أَمْرِ الشَّيْنِ فَقَدْ كَذَّبُوا هَذَا بِاطِّلَالٍ لَيْسَ مِنْ هَذَا خَرْفًا وَاحِداً . وَكِتَابِي إِلَيْكَ وَأَنَا مُشْتَاقٌ إِلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَهَكَذَا كَانَتْ مَلَكَتُهُمْ فِي اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ شَبِيهَ بِمَا ذَكَرْنَا . وَكَذَلِكَ أَشْعَارُهُمْ كَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْمَلَكَةِ نَازِلَةٍ عَنِ الطَّبَقَةِ وَلَمْ تَزَلْ تَزُلْ كَذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِهَذَا مَا كَانَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ مِنْ

(١) وفي النسخة الباريسية ، الكفاة .

(٢) كالب الرجل كلابا ، أي عاداه جهاراً (قاموس) .

مَشَاهِيرُ الشُّعْرَاءِ إِلَّا ابْنُ رَشِيقٍ وَابْنُ شَرْفٍ . وَكَثُرَ مَا يَكُونُ فِيهَا الشُّعْرَاءُ طَارِئِينَ عَلَيْهَا وَلَمْ تَزَلْ طَبَقَتْهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ حَتَّى الْآنَ مَائِلَةٌ إِلَى الْقُصُورِ . وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى تَخْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِكَثْرَةِ مُعَانَاتِهِمْ وَامْتِلَائِهِمْ مِنَ الْمَحْفُوظَاتِ اللَّغَوِيَّةِ نَظْمًا وَنَثْرًا . وَكَانَ فِيهِمْ ابْنُ حَيَّانَ الْمُؤَرِّخُ إِمَامُ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَرَافِعُ الرَّايَةِ لَهُمْ فِيهَا وَابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ وَالْقُسْطَلِيُّ وَأَمثَالُهُمْ مِنْ شُعْرَاءِ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ لِمَا زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ اللِّسَانِ وَالْأَدَبِ وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ مِثْنَيْنِ مِنَ السَّنِينَ حَتَّى كَانَ الْإِنْفِصَاضُ وَالْجَلَاءُ أَيَّامَ تَغْلِبِ النُّصْرَانِيَّةِ . وَشَغِلُوا عَنْ تَعْلَمِ ذَلِكَ وَتَنَاقَصَ الْعُمَرَانِ فَتَنَاقَصَ لِذَلِكَ شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَقَصُرَتْ الْمَلَكَةُ فِيهِمْ عَنْ شَأْنِهَا حَتَّى بَلَغَتْ الْحَضِيضَ . وَكَانَ مِنْ آخِرِهِمْ صَالِحُ بْنُ شَرِيفٍ وَمَالِكُ بْنُ مُرَحَّلٍ مِنْ تَلَامِيذِ الطَّبَقَةِ الْإِسْبِيلِيِّينَ يَسْتَبْتُهُ وَكُتَابُ دَوْلَةِ بَنِي الْأَخْمَرِ فِي أَوَّلِهَا . وَأَلْقَتْ الْأَنْدَلُسُ أَفْلَادًا كَبِيدَهَا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَلَكَةِ بِالْجَلَاءِ إِلَى الْعُدُوَّةِ الْإِسْبِيلِيَّةِ إِلَى سَبْتَةِ وَمِنْ شَرْقِي الْأَنْدَلُسِ إِلَى أَفْرِيْقِيَّةِ . وَلَمْ يَلْبَثُوا إِلَى أَنْ انْقَرَضُوا وَانْقَطَعَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِمْ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لِعُسْرِ قَبُولِ الْعُدُوَّةِ لَهَا وَصُعُوبَتِهَا عَلَيْهِمْ بِعَوَجِ السِّنِّينَ وَرُسُوحِهِمْ فِي الْعُجْمَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِمَا قَلَنَاهُ . ثُمَّ عَادَتْ الْمَلَكَةُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ كَمَا كَانَتْ وَنَجَّمَ بِهَا ابْنُ بِشْرِينَ ^(١) وَابْنُ جَابِرٍ وَابْنُ الْجِيَابِ وَطَبَقَتْهُمْ . ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ السَّاحِلِيُّ الطَّرِيحِيُّ ^(٢) وَطَبَقَتْهُ وَقَفَاهُمْ ابْنُ الْخَطِيبِ مِنْ بَعْدِهِمُ الْهَالِكُ لِهَذَا الْعَهْدِ شَهِيدًا بِسَعَايَةِ أَغْدَائِهِ . وَكَانَ لَهُ فِي اللِّسَانِ مَلَكَةٌ لَا تَذَرُكَ وَاتَّبَعَ أَثَرَهُ تَلْمِيذُهُ مِنْ بَعْدِهِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَشَأْنُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْأَنْدَلُسِ أَكْثَرُ وَتَعْلِيمُهَا أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ مِنْ مُعَانَاةِ عُلُومِ اللِّسَانِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهَا وَعَلَى عُلُومِ الْأَدَبِ وَسَنَدِ تَعْلِيمِهَا . وَلَأنَّ أَهْلَ اللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ الَّذِينَ تَفْسَدُ مَلَكَتُهُمْ إِنَّمَا هُمْ طَارِئُونَ عَلَيْهِمْ . وَلَيْسَتْ عُجْمَتُهُمْ أَصْلًا لِلْغَةِ

(١) وفي نسخة أخرى : ابن سيرين .

(٢) وفي نسخة أخرى : الطوبجون .

أهل الأندلس والبربر في هذه العُدوة وهم أهلها ولسانهم لسانها إلا في الأمصار فقط . وهم مُنغمسون في بحر عجمتهم ورطابتهم البربرية فيضعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الأندلس . واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية فكان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه الملكة وإجادتها لبغدهم لذلك العهد عن الأعاجم ومخالطتهم إلا في القليل . فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم وكان فحول الشعراء والكتاب أوفر لتوفر العرب وأنبيأهم بالمشرق . وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأغاني من نظمهم ونثرهم فإن ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم وملتهم العربية وسيرتهم^(١) وأثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر معانيهم له فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب . وبقي أمر هذه الملكة مستحكما في المشرق في الدولتين وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد . حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم وصار الأمر للأعاجم والملك في أيديهم والتعلب لهم . وذلك في دولة الدليم والسلجوقية . وخالطوا أهل الأمصار والخواصر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكتهم وصار متعلمها منهم مقصرا عن تحصيلها . وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور وإن كانوا أكثرين منه . والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق لا رب سواه .

(١) وفي نسخة أخرى : وسير نبهم ﷺ

الفصل الثالث والخمسون

في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

إِغْلَمْ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَيْنِ فِي الشَّعْرِ الْمَنْظُومِ وَهُوَ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُقْفَى وَمَعْنَاهُ الَّذِي تَكُونُ أَوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ . وَفِي النَّثْرِ وَهُوَ الْكَلَامُ غَيْرُ الْمَوْزُونِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَنَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبٍ فِي الْكَلَامِ . فَأَمَّا الشَّعْرُ فَمِنْهُ الْمَدْحُ وَالْهَجَاءُ وَالرِّثَاءُ وَأَمَّا النَّثْرُ فَمِنْهُ السَّجْعُ الَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطْعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ يُسَمَّى سَجْعًا وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلَامُ إِطْلَاقًا وَلَا يَقْطَعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِزْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا . وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطْبِ وَالِدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيهِمْ . وَأَمَّا الْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا . بَلْ تَفْضِيلُ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ الذُّوقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا . ثُمَّ يُعَادُ الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثْنَى مِنْ غَيْرِ التِّزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا وَلَا قَافِيَةً وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشِعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » . وَقَالَ : « قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ » . وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهَا فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا التَّزَمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ . وَأُطْلِقَ اسْمُ الْمَثَانِيِّ عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَاخْتَصَّتْ بِأَمِّ الْقُرْآنِ لِلْعَلَبَةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثَّرِيَا وَلِهَذَا سُمِّيَتْ السَّنْعُ الْمَثَانِي . وَانْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَغْلِيلِ تَسْمِيَّتِهَا بِالْمَثَانِيِّ يَشْهَدُ لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ أَسَالِيبَ تُخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ النَّسِيبِ الْمُخْتَصِّ بِالشَّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالِدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْخُطْبِ وَالِدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخَّرُونَ أَسَالِيبَ الشَّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي الْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ

الْأَسْجَاعَ وَالْتِزَامَ التَّقْفِيَّةَ وَتَقْدِيمَ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَغْرَاضِ . وَصَارَ هَذَا الْمَنْثُورُ
 إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشُّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي الْوُزْنِ . وَاسْتَمَرَّ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ
 الْكُتَّابِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاسْتَعْمَلُوهَا فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا
 الْإِسْتِغْمَالَ فِي الْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هَذَا الْفَنِّ الَّذِي ارْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا الْأَسَالِيبَ فِيهِ
 وَهَجَرُوا الْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصاً أَهْلَ الْمَشْرِقِ . وَصَارَتِ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ
 لِهَذَا الْمَهْدِ عِنْدَ الْكُتَّابِ الْغَفْلَ جَارِيَةً عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ غَيْرُ
 صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ لِمَا يَلَاخِظُ فِي تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ
 الْمُخَاطَبِ وَالْمُخَاطَبِ . وَهَذَا الْفَنُّ الْمَنْثُورُ الْمُقْفَى أَدْخَلَ الْمُتَأَخَّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ
 الشُّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ الشُّعْرِ تُنَافِيهَا اللَّوْذِيعَةُ
 وَخَلَطَ الْجِدَّ بِالْهَزْلِ وَالْإِطْنَابَ فِي الْأَوْصَافِ وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ وَكَثَرَتِ التَّشْبِيهَاتُ
 وَالِاسْتِغَارَاتُ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذَلِكَ فِي الْخِطَابِ . وَالْتِزَامُ التَّقْفِيَّةِ أَيْضاً مِنْ
 اللَّوْذِيعَةِ وَالتَّزْيِينِ وَجَلَالَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَخِطَابُ الْجُمْهُورِ عَنِ الْمُلُوكِ
 بِالْتَّرْغِيبِ وَالتَّزْهِيهِ يُنَافِي ذَلِكَ وَيُبَايِنُهُ . وَالْمَحْمُودُ فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ
 التَّرْسُلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ الْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ . وَحَيْثُ
 تُرْسِلُهُ الْمَلَكَةُ إِرسَالاً مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ لَهُ ثُمَّ إِعْطَاءُ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى
 الْحَالِ فَإِنَّ الْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةً وَلِكُلِّ مَقَامٍ أَسْلُوبٌ يَخْصُهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِنْجَازٍ أَوْ
 خَذْفٍ أَوْ إِبْتَاتٍ أَوْ تَضْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ كِنَايَةٍ وَاسْتِعَارَةٍ . وَأَمَّا إِجْرَاءُ الْمُخَاطَبَاتِ
 السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هَذَا النُّحْوِ الَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ الشُّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ
 الْفُضَرِ إِلَّا اسْتِیْلَاءُ الْعُجْمَةِ عَلَى السَّنَنِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذَلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي
 مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ الْكَلَامِ الْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمْدِهِ فِي الْبَلَاغَةِ وَانْفِسَاحِ
 خُطُوبِهِ ^(١) . وَوَلَعُوا بِهَذَا الْمَسْجَعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى
 الْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ فِيهِ . وَيَجْبِرُونَهُ بِذَلِكَ الْقَدَرِ مِنَ التَّزْيِينِ بِالْأَسْجَاعِ

(١) وفي نسخة أخرى : خطوته .

وَالْأَلْقَابِ الْبَدِيعَةِ^(١) وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سَوَى ذَلِكَ . وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهَذَا الْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ الْمَشْرِقِ وَشُعْرَاؤُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخْلُونَ بِالْإِغْرَابِ فِي الْكَلِمَاتِ وَالتَّضْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرْجَحُونَ ذَلِكَ الصَّنَفَ مِنَ التَّجْنِيسِ . وَيَدْعُونَ الْإِغْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بَنِيَّةَ الْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُضَادِفُ التَّجْنِيسَ . فَتَأْمُلْ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنْهِ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الرابع والخمسون

في أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معا إلا للأقل
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَمَا يَبْنِيهِ مَلَكَةٌ فِي اللِّسَانِ فَإِذَا تَسَبَّقَتْ^(٢) إِلَى مَحَلِّ مَلَكَةٍ أُخْرَى قَصُرَتْ بِالمَحَلِّ عَنْ تَمَامِ الْمَلَكَةِ الْأَحَقَّةِ . لِأَنَّ تَمَامَ^(٣) الْمَلَكَاتِ وَحُصُولَهَا لِلطَّبَائِعِ الَّتِي عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ . وَإِذَا تَقَدَّمَ مَلَكَةٌ أُخْرَى كَانَتْ مُنَازَعَةً لَهَا فِي الْمَادَّةِ^(٤) الْقَابِلَةِ وَعَائِقَةً عَنْ سُرْعَةِ الْقَبُولِ فَوَقَعَتِ الْمُنَافَاةُ وَتَعَذَّرَ التَّمَامُ فِي الْمَلَكَةِ وَهَذَا مَوْجُودٌ بِهِ فِي الْمَلَكَاتِ الصَّنَاعِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَقَدْ بَرَهْنَا عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ بِنَحْوِ مَنْ هَذَا الْبَرْهَانِ . فَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي اللُّغَاتِ فَإِنَّهَا مَلَكَاتُ اللِّسَانِ وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَاعَةِ . وَانْظُرْ مَنْ تَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْعُجْمَةِ كَيْفَ يَكُونُ قَاصِرًا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ أَبَدًا . فَلَا عَجَبِي الَّذِي سَبَقَتْ لَهُ اللُّغَةُ الْفَارَسِيَّةُ لَا يَسْتَوِي عَلَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلَا يَزَالُ قَاصِرًا فِيهِ وَلَوْ تَعَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ . وَكَذَا الْبَرْبَرِيُّ وَالرُّومِيُّ . وَالْإِفْرَنْجِيُّ قَلَّ أَنْ تَجِدَ أَحَدًا مِنْهُمْ مُحْكِمًا لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ

(١) وفي نسخة أخرى ، البدئية .

(٢) وفي نسخة أخرى ، سبقت .

(٣) وفي نسخة أخرى ، قبول .

(٤) وفي نسخة أخرى ، في المدة .

الْعَرَبِيُّ . وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا سَبَقَ إِلَى السَّنَتِهِمْ مِنْ مَلَكَهَ اللِّسَانِ الْآخِرَ حَتَّى إِنْ طَالَبَ الْعِلْمُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَلْسُنِ إِذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ جَاءَ مُقْصَرًا فِي مَعَارِفِهِ عَنِ الْغَايَةِ وَالتَّحْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ اللِّسَانِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ مِنْ قَبْلُ أَنَّ الْأَلْسُنَ وَاللُّغَاتِ شَبِيهَةٌ بِالصَّنَائِعِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَمَلَكَاتِهَا لَا تَزْدَحِمُ . وَأَنَّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ إِجَادَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقُلْ أَنْ يُجِيدَ فِي أُخْرَى أَوْ يَسْتَوْلِيَ فِيهَا عَلَى الْغَايَةِ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .

الفصل الخامس والخمسون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هَذَا الْفَنُ مِنْ فُنُونِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالشَّعْرِ عِنْدَهُمْ وَيُوجَدُ فِي سَائِرِ اللُّغَاتِ إِلَّا أَنَّا الْآنَ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي الشَّعْرِ الَّذِي لِلْعَرَبِ . فَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ تَجِدَ فِيهِ أَهْلُ الْأَلْسُنِ الْآخَرَى مَقْصُودَهُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ وَإِلَّا فَلِكُلِّ لِسَانٍ أَحْكَامٌ فِي الْبَلَاغَةِ تَخْصُهُ . وَهُوَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ غَرِيبٌ النَّزْعَةِ عَزِيزُ الْمَنْحَى إِذْ هُوَ كَلَامٌ مُفْضَلٌ قِطْعًا قِطْعًا مُتَسَاوِيَةٌ فِي الْوُزْنِ مُتَّحِدَةٌ فِي الْحَرْفِ الْآخِرِ مِنْ كُلِّ قِطْعَةٍ وَتُسَمَّى كُلُّ قِطْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَاتِ عِنْدَهُمْ بَيْتًا وَيُسَمَّى الْحَرْفُ الْآخِرُ الَّذِي تَتَّفِقُ فِيهِ رَوِيًا وَقَافِيَةٌ وَيُسَمَّى جُمْلَةُ الْكَلَامِ إِلَى آخِرِهِ قَصِيدَةً وَكَلِمَةً . وَيَنْفَرِدُ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ بِإِفَادَتِهِ فِي تَرَكَيبِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ كَلَامٌ وَحْدَهُ مُسْتَقِلٌّ عَمَّا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ . وَإِذَا أَفْرَدَ كَانَ تَامًا فِي بَايِهِ فِي مَذَجٍ أَوْ تَشْبِيبٍ^(١) أَوْ رِثَاءٍ فَيُخَرِّصُ الشَّاعِرُ عَلَى إِعْطَاءِ ذَلِكَ الْبَيْتِ مَا يَسْتَقِلُّ فِي إِفَادَتِهِ . ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ كَلَامًا آخَرَ كَذَلِكَ وَيَسْتَطِرِدُّ لِلْخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ وَمِنْ مَقْصُودٍ إِلَى مَقْصُودٍ بِأَنْ يُوْطِئَ الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ وَمَعَانِيَهُ إِلَى أَنْ يُنَاسِبَ الْمَقْصُودَ الثَّانِيَّ وَيُبْعِدُ الْكَلَامَ عَنِ التَّنَافُرِ . كَمَا يَسْتَطِرِدُّ مِنَ التَّشْبِيبِ^(١) إِلَى الْمَذَجِ وَمِنْ وَصْفِ الْبَيْدَاءِ وَالطُّلُولِ إِلَى وَصْفِ الرِّكَابِ أَوْ الْخَيْلِ أَوْ

(١) وفي نسخة أخرى : نسيب .

الطَّيْنِ وَمِنْ وَضْفِ الْمَمْدُوحِ إِلَى وَضْفِ قَوْمِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَمِنْ التَّفْجِيعِ وَالْعَزَاءِ فِي الرِّثَاءِ إِلَى التَّأَثُّرِ ^(١) وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَيَرَاعِي فِيهِ اتِّفَاقَ الْقَصِيدَةِ كُلِّهَا فِي الْوِزْنِ الْوَاحِدِ حَذْرًا مِنْ أَنْ يَتَسَاهَلَ الطَّنْبُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ وَزْنٍ إِلَى وَزْنٍ يُقَارِبُهُ . فَقَدْ يَخْفَى ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْمُقَارَبَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ . وَلِهَذَا الْمَوَازِينَ شُرُوطٌ وَأَحْكَامٌ تَضُمُّنَهَا عِلْمُ الْعُرُوضِ . وَلَيْسَ كُلُّ وَزْنٍ يَتَّفِقُ فِي الطَّنْبِ اسْتَعْمَلْتَهُ الْعَرَبُ فِي هَذَا الْفَنِّ وَإِنَّمَا هِيَ أَوْزَانٌ مَخْصُوصَةٌ تُسَمِّيَهَا أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ الْبُحُورَ . وَقَدْ حَصَرُوهَا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ بَحْرًا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْمَوَازِينِ الطَّبِيعِيَّةِ نَظْمًا . وَاعْلَمْ أَنَّ فَنَ الشَّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ كَانَ شَرِيفًا عِنْدَ الْعَرَبِ . وَلِذَلِكَ جَعَلُوهُ دِيْوَانَ عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ وَشَاهِدَ صَوَابِهِمْ وَخَطِيئَتِهِمْ وَأَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ عُلُومِهِمْ وَحُكْمِهِمْ . وَكَانَتْ مَلَكَتُهُ مُسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ شَأْنُ الْمَلَكَاتِ كُلِّهَا . وَالْمَلَكَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ كُلُّهَا إِنَّمَا تُكْتَسَبُ بِالصَّنَاعَةِ وَالْإِرْتِيَاضِ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى يَخْصُلَ شَيْءٌ فِي تِلْكَ الْمَلَكََةِ . وَالشَّعْرُ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْكَلَامِ صَغْبُ الْمَأْخِذِ عَلَى مَنْ يُرِيدُ اكْتِسَابَ مَلَكَتِهِ بِالصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِاسْتِقْلَالِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ بِأَنَّهُ كَلَامٌ تَامٌ فِي مَقْصُودِهِ وَيَصْلُحُ أَنْ يَنْفَرِدَ دُونَ مَا سِوَاهُ فَيَخْتِاجُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى نَوْعٍ تَلَطَّفَ فِي تِلْكَ الْمَلَكََةِ حَتَّى يَفْرَغَ الْكَلَامَ الشَّعْرِيَّ فِي قَوْلِيهِ الَّتِي عُرِفَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ الْمَنْحَى مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ وَيَبْرُزُهُ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ . ثُمَّ يَأْتِي بِبَيْتٍ آخَرَ كَذَلِكَ ثُمَّ يَبْنِي آخَرَ وَيَسْتَكْمِلُ الْفُنُونَ الْوَافِيَةَ بِمَقْصُودِهِ . ثُمَّ يَنَاسِبُ بَيْنَ الْبُيُوتِ فِي مَوَالِيدِهَا بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْفُنُونِ الَّتِي فِي الْقَصِيدَةِ . وَلِصُعُوبَةِ مَنَاحِهَا وَغَرَابَةِ فَنِّهَا كَانَ مُحْكَمًا لِلْقَرَائِحِ فِي اسْتِجَادَةِ أَسَالِيِبِهِ وَشَحْذِ الْأَفْكَارِ فِي تَنْزِيلِ الْكَلَامِ فِي قَوْلِيهِ . وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَلَكََةُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ بَلْ يُخْتِاجُ بِخُصُوصِهِ إِلَى تَلَطُّفٍ وَمُحَاوَلَةٍ فِي رِعَايَةِ الْأَسَالِيِبِ الَّتِي اخْتَصَّصَتْهُ الْعَرَبُ بِهَا وَاسْتَعْمَلَهَا فِيهِ . لِنَذْكُرَ هُنَا سُلُوكَ ^(٢)

(١) وفي نسخة أخرى : التأين .

(٢) وفي نسخة أخرى : مدلول لفظة .

الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم . فأعلم أنها عبارة
عندهم عن المِنَوَالِ الذي يُنسَجُ فيه التراكيب أو القَالِبُ الذي يُفرغُ به . ولا يرجع
إلى الكلام باعتبار إفادته أصل^(١) المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ولا باعتبار
إفادته كمال^(٢) المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا
باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض . فهذه العلوم
الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب
المنظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة ينتزعها الذهن
من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المِنَوَالِ ثم ينتقي
التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما
يفعله البناء في القالب أو النساج في المِنَوَالِ حتى يتسع القالب بحصول التراكيب
الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي
فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال
الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله : « يا دار مئة بالعلياء فالسند »
ويكون باستدعاء الضحى للوقوف والسؤال كقوله : « قفا نسأل الدار التي خف
أهلها » . أو باستبكاء الضحى على الطلل كقوله : « قفا نبك من ذكرى حبيب
ومنزل » . أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله : « ألم تسأل
فتخبرك الرسوم » . ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحياتها
كقوله : « حي الديار بجانب الغزل »^(٣) . أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله :

أسقى طولهم أجش هزيم وعدت عليهم نضرة^(٤) ونعيم

أو سؤاله السقيا لها من البرق كقوله :

(١) وفي نسخة أخرى : كمال .

(٢) وفي نسخة أخرى : أصل .

(٣) وفي النسخة الباريسية : حي الدار بجانب الغزل .

(٤) وفي النسخة الباريسية : روضة .

يَا بَرْقُ طَالَعٍ مَنَزَلًا بِالْأَبْرِقِ وَاحِدِ السُّحَابِ لَهَا حِدَاءُ الْأَيْتُقِ^(١)

أَوْ مِثْلِ التَّفْجُعِ فِي الْجَزَعِ^(٢) بِاسْتِدْعَاءِ الْبُكَاءِ كَقَوْلِهِ :

كَذَا فَلْيَجْلُ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ وَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

أَوْ بِاسْتِعْظَامِ الْحَادِثِ كَقَوْلِهِ : « أَرَأَيْتَ مَنْ حُمِلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ
خَبَأَ ضِيَاءَ النَّادِي » . أَوْ بِالتَّشْجِيلِ عَلَى الْأَكْوَانِ بِالْمُصِيبَةِ لِقَدِّهِ كَقَوْلِهِ :

مَنَابِتِ الْعِشْبِ لَا حَامٍ وَلَا رَاحٍ مَضَى الرُّدَى بِطَوِيلِ الرُّمَحِ وَالْبَاعِ

أَوْ بِالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتَفَجَّعْ لَهُ مِنَ الْجَمَادَاتِ كَقَوْلِ الْخَارِجِيَّةِ :

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ

أَوْ بِتَهْنِئَةِ فَرِيْقِهِ^(٣) بِالرَّاحَةِ مِنْ ثِقَلٍ وَطَائِهِ كَقَوْلِهِ :

الْقَى الرِّمَاحَ رَبِيعَةً بَنُ نِزَارٍ أَوْدَى الرُّدَى بِفَرِيقِكَ^(٤) الْمِغْوَارِ

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ سَائِرِ فُنُونِ الْكَلَامِ وَمَذَاهِبِهِ . وَتَنْتَظِمُ التَّرَاكِيِبُ فِيهِ
بِالْجُمْلِ وَغَيْرِ الْجُمْلِ إِنْشَائِيَّةٌ وَخَبَرِيَّةٌ ، إِسْمِيَّةٌ وَفِعْلِيَّةٌ ، مُتَّفَقَةٌ ، مَفْضُولَةٌ
وَمَوْضُولَةٌ ، عَلَى مَا هُوَ شَأْنُ التَّرَاكِيِبِ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ فِي مَكَانِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ
الْأُخْرَى . يَعْرِفُكَ فِيهِ مَا تَسْتَفِيدُهُ بِالِازْتِيَاضِ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِنَ الْقَالِبِ الْكُلِّيِّ
الْمُجَرَّدِ فِي الذَّهْنِ مِنَ التَّرَاكِيِبِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي يَنْطَبِقُ ذَلِكَ الْقَالِبُ عَلَى جَمِيعِهَا .
فَإِنْ مَوْلَفَ الْكَلَامِ هُوَ كَالْبِنَاءِ أَوْ النُّسَاجِ وَالصُّورَةِ الذَّهْنِيَّةِ الْمُنْطَبِقَةَ كَالْقَالِبِ الَّذِي
يُبْنَى فِيهِ أَوْ الْمِنَوَالِ الَّذِي يُنْسَجُ عَلَيْهِ . فَإِنْ خَرَجَ عَنِ الْقَالِبِ فِي بِنَائِهِ أَوْ عَنِ

(١) وفي نسخة أخرى ، الأيتق .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الرثاء .

(٣) وفي نسخة أخرى ، قريعة .

(٤) وفي نسخة أخرى ، بقرمك .

الْمِنَوَالِ فِي نَسِجِهِ كَانَ فَاسِداً . وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ مَعْرِفَةَ قَوَانِينِ الْبَلَاغَةِ كَافِيَةٌ لِدَلِّكَ لِأَنَّا
 نَقُولُ قَوَانِينُ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا هِيَ قَوَاعِدُ عِلْمِيَّةٍ قِيَاسِيَّةٍ تُفِيدُ جَوَازَ اسْتِعْمَالِ التَّرَاكِيِبِ
 عَلَى هَيْئَتِهَا الْخَاصَّةِ بِالْقِيَاسِ . وَهُوَ قِيَاسٌ عِلْمِيٌّ صَحِيحٌ مُطَرِّدٌ كَمَا هُوَ قِيَاسُ
 الْقَوَانِينِ الْإِعْرَابِيَّةِ . وَهَذِهِ الْأَسَالِيِبُ الَّتِي نَحْنُ نَقَرَّرُهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقِيَاسِ فِي شَيْءٍ
 إِنَّمَا هِيَ هَيْئَةٌ تَرَسُّخٌ فِي النَّفْسِ مِنْ تَتَبُّعِ التَّرَاكِيِبِ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ لِحَرَيَانِهَا عَلَى
 اللِّسَانِ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ صُورَتَهَا فَيَسْتَفِيدَ بِهَا الْعَمَلُ عَلَى مِثَالِهَا وَالِاخْتِدَاءُ بِهَا فِي كُلِّ
 تَرْكِيبٍ مِنَ الشُّعْرِ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ بِإِطْلَاقٍ . وَإِنَّ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ مِنَ
 الْعَرَبِيَّةِ وَالْبَيَانِ لَا يُفِيدُ تَعْلِيمَهُ بِوَجْهِهِ . وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَصْحُحُ فِي قِيَاسِ كَلَامِ الْعَرَبِ
 وَقَوَانِينِهِ الْعِلْمِيَّةِ اسْتِعْمَلُوهُ . وَإِنَّمَا الْمُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَحَاءُ مَعْرُوفَةٌ يَطْلُعُ
 عَلَيْهَا الْحَافِظُونَ لِكَلَامِهِمْ تَنْدَرُجُ صُورَتُهَا تَحْتَ بِلْكَ الْقَوَانِينِ الْقِيَاسِيَّةِ . فَإِذَا نُظِرَ
 فِي شِعْرِ الْعَرَبِ عَلَى هَذَا النُّحْوِ وَبِهَذِهِ الْأَسَالِيِبِ الذَّهْنِيَّةِ الَّتِي تُصِيرُ كَالْقَوَالِبِ كَانَ
 نَظَرًا فِي الْمُسْتَعْمَلِ مِنْ تَرَكَيبِهِمْ لَا فِيمَا يَقْتَضِيهِ الْقِيَاسُ . وَلِهَذَا قُلْنَا إِنَّ الْمُحْصَلَ
 لِهَذِهِ الْقَوَالِبِ فِي الذَّهْنِ إِنَّمَا هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ . وَهَذِهِ الْقَوَالِبُ كَمَا
 تَكُونُ فِي الْمَنْظُومِ تَكُونُ فِي الْمَنْثُورِ فَإِنَّ الْعَرَبَ اسْتَعْمَلُوا كَلَامَهُمْ فِي كِلَا الْفَنَيْنِ
 وَجَاءُوا بِهِ مَفْضُلاً فِي النُّوعَيْنِ . فَفِي الشُّعْرِ بِالْقِطْعِ الْمَوْزُونَةِ وَالْقَوَائِي الْمُقَيَّدَةِ
 وَاسْتِقْلَالِ الْكَلَامِ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ وَفِي الْمَنْثُورِ يَغْتَبِرُونَ الْمَوَازَنَةَ وَالشَّابَهَ بَيْنَ الْقِطْعِ
 غَالِباً وَقَدْ يَقَيَّدُونَهُ بِالْأَسْجَاعِ . وَقَدْ يُرْسِلُونَهُ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ مَعْرُوفَةٌ فِي لِسَانِ
 الْعَرَبِ . وَالْمُسْتَعْمَلُ مِنْهَا عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يَنْبِي مُؤَلَّفُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ تَأْلِيْفُهُ وَلَا
 يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ كَلَامَهُمْ حَتَّى يَتَجَرَّدَ فِي ذَهْنِهِ مِنَ الْقَوَالِبِ الْمُعَيَّنَةِ الشَّخْصِيَّةِ
 قَالِبٌ كُلُّهُ مُطْلَقٌ يَخْذُو حَذْوَهُ فِي التَّأْلِيْفِ كَمَا يَخْذُو الْبِنَاءُ عَلَى الْقَالِبِ وَالنَّسَاجُ
 عَلَى الْمِنَوَالِ . فَلِهَذَا كَانَ مِنْ تَأْلِيْفِ الْكَلَامِ مُنْفَرِداً عَنْ نَظَرِ النُّحْوِيِّ وَالْبَيَانِيِّ
 وَالْعَرُوضِيِّ . نَعَمْ إِنَّ مُرَاعَاةَ قَوَانِينِ هَذِهِ الْعُلُومِ شَرْطٌ فِيهِ لَا يَتِمُّ بِدُونِهَا فَإِذَا
 تَحْصَلَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا فِي الْكَلَامِ اخْتَصَّ بِنَوْعٍ مِنَ النَّظَرِ لَطِيفٍ فِي هَذِهِ

الْقَوَالِبِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا أَسَالِيبَ . وَلَا يَفِيدُهُ إِلَّا حِفْظُ كَلَامِ الْعَرَبِ نَظْماً وَنَثْراً . وَإِذَا تَقَرَّرَ مَعْنَى الْأَسْلُوبِ مَا هُوَ فَلَنَذْكُرَ بَعْدَهُ حَدّاً أَوْ رَسْماً لِلشَّعْرِ بِهِ تَفَهُّمٌ ^(١) حَقِيقَتُهُ عَلَى صُعُوبَةٍ هَذَا الْغَرَضُ . فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيمَا رَأَيْنَاهُ . وَقَوْلُ الْعَرُوضِيِّينَ فِي حَدِّهِ إِنَّهُ الْكَلَامُ الْمُوزُونُ الْمُقْفَى لَيْسَ بِحَدِّ لِهَذَا الشَّعْرِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدِّدِهِ وَلَا رَسْمٍ لَهُ . وَصَنَاعَتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي الشَّعْرِ مِنْ حَيْثُ اتَّفَاقُ أُنْيَاتِهِ فِي عَدَدِ الْمُتَحَرِّكَاتِ وَالسَّوَاكِنِ عَلَى التَّوَالِي ، وَمُمَاثِلَةُ عَرُوضِ أُنْيَاتِ الشَّعْرِ لِضَرْبِهَا . وَذَلِكَ نَظَرٌ فِي وَزْنٍ مُجَدِّدٍ عَنِ الْأَلْفَاظِ وَدَلَالَتِهَا . فَتَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ حَدّاً عِنْدَهُمْ ، وَنَحْنُ هُنَا نَنْظُرُ فِي الشَّعْرِ بِإِعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الْإِعْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْوَزْنِ وَالْقَوَالِبِ الْخَاصَةِ . فَلَا جَرَمَ إِنْ حَدَّهُمْ ذَلِكَ لَا يَصْلُحُ لَهُ عِنْدَنَا فَلَا بُدَّ مِنْ تَغْرِيفٍ يُعْطِينَا حَقِيقَتَهُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ فَقَوْلُ ، الشَّعْرُ هُوَ الْكَلَامُ الْبَلِغُ الْمَبْنِيُّ عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ وَالْأَوْصَافِ ، الْمَفْضَلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ فِي الْوَزْنِ وَالرُّوْيِ مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِ . فَقَوْلُنَا الْكَلَامُ الْبَلِغُ جَنْسٌ وَقَوْلُنَا الْمَبْنِيُّ عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ وَالْأَوْصَافِ فَضَّلَ لَهُ عَمَّا يَخْلُو مِنْ هَذِهِ فَإِنَّهُ فِي الْغَالِبِ لَيْسَ بِشَّعْرِ وَقَوْلُنَا الْمَفْضَلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ الْوَزْنِ وَالرُّوْيِ فَضَّلَ لَهُ عَنِ الْكَلَامِ الْمَثُورِ الَّذِي لَيْسَ بِشَّعْرِ عِنْدَ الْكُلِّ وَقَوْلُنَا مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ بَيَانٌ لِلْحَقِيقَةِ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَا تَكُونُ أُنْيَاتُهُ إِلَّا كَذَلِكَ وَلَمْ يُفَضَّلْ بِهِ شَيْءٌ . وَقَوْلُنَا الْجَارِي عَلَى الْأَسَالِيبِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِ فَضَّلَ لَهُ عَمَّا لَمْ يَجْرِمْنَاهُ عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ ^(٢) الْمَعْرُوفَةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لَا يَكُونُ شِعْراً إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مَنْظُومٌ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَهُ أَسَالِيبٌ تَخْصُهُ لَا تَكُونُ لِلْمَثُورِ . وَكَذَا أَسَالِيبُ الْمَثُورِ لَا تَكُونُ لِلشَّعْرِ فَمَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ مَنْظُوماً وَلَيْسَ عَلَى تِلْكَ الْأَسَالِيبِ فَلَا يَكُونُ شِعْراً . وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ كَانَ الْكَثِيرُ مِمَّنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْأَدَبِيَّةِ

(١) وفي نسخة أخرى ، يفهمنا .

(٢) وفي نسخة أخرى ، الشعر .

يَرُونَ أَنَّ نَظْمَ الْمُتَنَبِّئِ وَالْمَعْرِيِّ لَيْسَ هُوَ مِنَ الشَّعْرِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَجْرِيَا عَلَى
أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فِيهِ ، وَقَوْلُنَا فِي الْخَدِّ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فَضَّلْ لَهُ عَنْ شِعْرِ
غَيْرِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَمَمِ عِنْدَمَا يَرَى أَنَّ الشَّعْرَ يُوجَدُ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ . وَمَنْ يَرَى أَنَّهُ
لَا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ فَلَا يَخْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ وَيَقُولُ مَكَانَهُ الْجَارِي عَلَى الْأَسَالِيبِ
الْمَخْصُوصَةِ . وَإِذَا قَدْ فَرَعْنَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى حَقِيقَةِ الشَّعْرِ فَلْنَرْجِعْ إِلَى الْكَلَامِ فِي كَيْفِيَّةِ
عَمَلِهِ فَتَقُولُ ، إِنْ لَعَلَّ الشَّعْرَ وَإِحْكَامَ صِنَاعَتِهِ شَرْطًا أَوَّلَهَا ، الْحِفْظُ مِنْ جَنْسِهِ
أَيَّ مِنْ جَنْسِ شِعْرِ الْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي النَّفْسِ مَلَكَهٌ يُنْسِجُ عَلَى مَنَوَالِهَا وَيَخْتَارُ
الْمَحْفُوظَ مِنَ الْحُرِّ النَّقِيِّ الْكَثِيرِ الْأَسَالِيبِ . وَهَذَا الْمَحْفُوظُ الْمُخْتَارُ أَقْلُ مَا يَكْفِي
فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ الْفُحُولِ الْإِسْلَامِيِّينَ مِثْلَ ابْنِ رَبِيعَةَ وَكَثِيرٍ وَذِي الرُّمَّةِ وَجَرِيرِ
وَأَبِي نَوَاسٍ وَحَبِيبٍ وَابْنِ خَلْفَةَ وَابْنِ الرُّمَيْثِيِّ وَأَبِي فَرَّاسٍ . وَأَكْثَرُهُ شِعْرُ كِتَابِ الْأَغَانِي
لَأَنَّهُ جَمَعَ شِعْرَ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهِ وَالْمُخْتَارُ مِنْ شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَمَنْ كَانَ
خَالِيًا مِنَ الْمَحْفُوظِ فَتَنْظُمُهُ قَاصِرٌ رَدِيءٌ وَلَا يُعْطِيهِ الرُّوْقُ وَالْحَلَاوَةُ إِلَّا كَثْرَةُ
الْمَحْفُوظِ . فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ عَدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ . وَاجْتِنَابُ
الشَّعْرِ أَوَّلَى بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحْفُوظٌ . ثُمَّ بَعْدَ الْإِمْتِلَاءِ مِنَ الْحِفْظِ وَشَخْذِ الْقَرِيحَةِ
لِلنَّسِجِ عَلَى الْمَنَوَالِ يُقْبَلُ عَلَى النُّظْمِ وَيَا لِكَثَارِ مَنْ تَشْتَخِكُ مَلَكَتَهُ وَتَرْسُخُ . وَرُبَّمَا
يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نِسْيَانُ ذَلِكَ الْمَحْفُوظِ لِتَمَحُّي رُسُومِهِ الْخَرْفِيَّةِ الظَّاهِرَةِ إِذْ هِيَ
صَادِرَةٌ^(١) عَنْ اسْتِعْمَالِهَا بِعَيْنِهَا . فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ النَّفْسُ بِهَا انْتَقَشَ
الْأَسْلُوبُ فِيهَا كَأَنَّهُ مَنَوَالٌ يُؤْخَذُ بِالنَّسِجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةٌ .
ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْخُلُوةِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَكَانِ الْمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَزْهَارِ وَكَذَا
الْمَسْمُوعِ لِاسْتِنَارَةِ الْقَرِيحَةِ بِاسْتِجْمَاعِهَا وَتَنْشِيطِهَا بِمَلَأَةِ السُّرُورِ . ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ
فَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَمَامٍ وَنَشَاطٍ فَذَلِكَ أَجْمَعٌ لَهُ وَأَنْشِطٌ لِلْقَرِيحَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ
ذَلِكَ الْمَنَوَالِ الَّذِي فِي حِفْظِهِ . قَالُوا ، وَخَيْرُ الْأَوْقَاتِ لِذَلِكَ أَوْقَاتُ الْبُكْرِ عِنْدَ

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى ، صَادَةٌ .

الْمُحِبُّ مِنَ النَّوْمِ وَفَرَاغِ الْمَعِدَةِ وَنَشَاطِ الْفِكْرِ وَفِي هَؤُلَاءِ ^(١) الْجَمَامُ . وَرُبَّمَا قَالُوا إِنَّ مِنْ بَوَائِيهِ الْعِشْقُ وَالْإِنْتِشَاءُ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ الْمَعْدَةِ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَفَرَدَ بِهِ الصَّنَاعَةَ وَإِعْطَاهُ حَقَّهَا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ . قَالُوا ، فَإِنْ اسْتَضَعَبَ عَلَيْهِ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيَتَرَكْهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ وَلَا يُكْرِهْ نَفْسَهُ عَلَيْهِ . وَلْيَكُنْ بِنَاءُ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ مِنْ أَوَّلِ صَوْغِهِ وَنَسْجِهِ بَعْضُهَا وَيَنْبِئِي الْكَلَامَ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّهُ إِنْ غَفَلَ عَنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ صَعَبَ عَلَيْهِ وَضَعُهَا فِي مَحَلِّهَا . فَرُبَّمَا تَجِيءُ نَافِرَةٌ فَلَقَّةٌ وَإِذَا سَمَحَ الْخَاطِرُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يُنَاسِبِ الَّذِي عِنْدَهُ فَلْيَتَرَكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ الْأَلْتِيقِ بِهِ فَإِنْ كُلُّ بَيْتٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا الْمُنَاسَبَةُ فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ الْخُلَاصِ مِنْهُ بِالتَّنْقِيحِ وَالنَّقْدِ وَلَا يَضُرَّ بِهِ عَلَى التَّرَكِّ إِذَا لَمْ يَبْلُغِ الْإِجَادَةَ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَفْتُونٌ بِشِعْرِهِ إِذْ هُوَ نَبَاتُ فِكْرِهِ وَابْتِخَارُ قَرِيحَتِهِ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِيهِ مِنَ الْكَلَامِ إِلَّا الْأَفْصَحَ مِنَ التَّرَاكِيِبِ . وَالْخَالِصُ مِنَ الضَّرُورَاتِ اللَّسَانِيَّةِ فَلْيَنْهَجْهَا فَإِنَّهَا تَنْزِلُ بِالْكَلامِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ . وَقَدْ حَظَرَ أَيْمَةُ اللَّسَانِ الْمُؤَلَّدُ مِنَ ارْتِكَابِ الضَّرُورَةِ إِذْ هُوَ فِي سَعَةِ مِنْهَا بِالْعُدُولِ عَنْهَا إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى مِنَ الْمَلَكَةِ . وَيَجْتَنِبُ أَيْضاً الْمَعْقَدَ مِنَ التَّرَاكِيِبِ جَهْدَهُ . وَإِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ أَلْفَاظَهُ إِلَى الْفَهْمِ . وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ الْمَعَانِي فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ فَإِنْ فِيهِ نَوْعٌ تَفْقِيدُ عَلَى الْفَهْمِ . وَإِنَّمَا الْمُخْتَارُ مِنْهُ مَا كَانَتْ أَلْفَاظُهُ طَبَقاً عَلَى مَعَانِيهِ أَوْ أَوفَى مِنْهَا . فَإِنْ كَانَتْ الْمَعَانِي كَثِيرَةً كَانَتْ حَشْواً وَاسْتَعْمِلَ ^(٢) الذَّهْنَ بِالْفُحُوصِ عَلَيْهَا فَمَنْعَ الذُّوقِ عَنِ اسْتِيفَاءِ مَذْرَكِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ . وَلَا يَكُونُ الشُّعْرُ سَهْلاً إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ أَلْفَاظَهُ إِلَى الذَّهْنِ . وَلِهَذَا كَانَ شَيْوَحُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَعْيبُونَ شِعْرَ أَبِي بَكْرٍ ^(٣) بِنِ جَفَاجَةِ شَاعِرِ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ لِكَثْرَةِ مَعَانِيهِ وَازْدِحَامِهَا فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ كَمَا كَانُوا يَعْيبُونَ شِعْرَ الْمُتَنَبِّئِيِّ وَالْمَعْرِيِّ

(١) وفي نسخة أخرى : هواء .

(٢) وفي نسخة أخرى : اشتغل .

(٣) قوله أبي بكر وفي نسخة أبي إسحاق الخ .

بَعْدَ النَّسْجِ عَلَى الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا مَرَّ فَكَانَ شِعْرُهُمَا كَلَامًا مَنْظُومًا نَازِلًا عَنْ طَبَقَةِ الشُّعْرِ وَالْحَاكِمِ بِذَلِكَ هُوَ الذَّوْقُ . وَلِيَجْتَنِبَ الشَّاعِرُ أَيْضًا الْحَوْشِيَّ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَقْصَرِ ^(١) وَكَذَلِكَ السُّوقِيُّ الْمُبْتَذِلُ بِالتَّدَاوُلِ بِالِاسْتِعْمَالِ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ بِالْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ وَكَذَلِكَ الْمَعَانِي الْمُبْتَذِلَةُ بِالشَّهْرَةِ فَإِنَّ الْكَلَامَ يَنْزِلُ بِهَا عَنِ الْبَلَاغَةِ أَيْضًا فَيَصِيرُ مُبْتَذَلًا وَيَقْرُبُ مِنْ عَدَمِ الْإِفَادَةِ كَقَوْلِهِمْ ، النَّارُ حَارَّةٌ وَالسَّمَاءُ فَوْقَنَا . وَبِمَقْدَارِ مَا يَقْرُبُ مِنْ طَبَقَةِ عَدَمِ الْإِفَادَةِ يَبْعُدُ عَنْ رَتْبَةِ الْبَلَاغَةِ إِذْ هُمَا طَرَفَانِ . وَلِهَذَا كَانَ الشُّعْرُ فِي الرُّبَائِيَّاتِ وَالنَّبَوِيَّاتِ قَلِيلَ الْإِجَادَةِ فِي الْغَالِبِ وَلَا يَخْذُقُ فِيهِ إِلَّا الْفُحُولُ وَفِي الْقَلِيلِ عَلَى الْعَشْرِ ^(٢) لَأَنَّ مَعَانِيهَا مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ الْجُمْهُورِ فَتَصِيرُ مُبْتَذَلَةً لِدَلِكِ . وَإِذَا تَعَذَّرَ الشُّعْرُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيُتَرَاوَضْهُ وَيُعَاوِذْهُ فَإِنَّ الْقَرِيحَةَ مِثْلَ الضَّرْعِ يَدِرُ بِالْإِمْتِرَاءِ وَيَجِفُ ^(٣) بِالتَّرَكِّ وَالْإِهْمَالِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَتَعَلَّمْهَا مُسْتَوْفَى فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ لِابْنِ رَشِيقٍ وَقَدْ ذَكَّرْنَا مِنْهَا مَا حَضَرْنَا بِحَسَبِ الْجُهْدِ . وَمَنْ أَرَادَ اسْتِيفَاءَ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ بِذَلِكَ الْكِتَابِ فَفِيهِ الْبُغْيَةُ مِنْ ذَلِكَ . وَهَذِهِ نُبْذَةٌ كَافِيَةٌ وَاللَّهُ الْمُعِينُ . وَقَدْ نَظَّمَ النَّاسُ فِي أَمْرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الشُّعْرِيَّةِ مَا يَجِبُ فِيهَا . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ وَأَظْنُّهُ لِابْنِ رَشِيقٍ ،

لَعَنَ اللَّهُ صَنْعَةَ الشُّعْرِ مَاذَا	مِنْ صُنُوفِ الْجَهَالِ مِنْهُ لَقِينَا
يُؤْثِرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا	كَانَ سَهْلًا لِلْسَّامِعِينَ مُبِينَا
وَيَرَوْنَ الْمُحَالَ مَعْنَى صَحِيحًا	وَحَسِيسَ الْكَلَامِ شَيْئًا ثَمِينَا
يَجْهَلُونَ الصُّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَذْ	رُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَا
فَهُمْ عِنْدَ مَنْ سَوَانَا يَلَامُوا	نَ وَفِي الْحَقِّ عِنْدَنَا يُعَذَّرُونَا
إِنَّمَا الشُّعْرُ مَا يُنَاسِبُ فِي النِّظْمِ	وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فَنُونَا

(١) وفي نسخة أخرى ، المقعر .

(٢) وفي نسخة أخرى ، العشر .

(٣) وفي نسخة أخرى ، يفرر .

فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا
كُلُّ مَعْنَى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ
فَكَانَ الْأَلْفَاظُ مِنْهُ وَجُوهٌ
إِنَّمَا فِي الْمَرَامِ حَسَبُ الْأَمَانِي
فَإِذَا مَا مَدَحْتَ بِالشَّعْرِ حُرًّا
فَجَعَلْتَ النَّسِيبَ سَهْلًا قَرِيبًا
وَتَنَكَّبْتَ مَا يُهْجُنُ فِي السَّمْعِ
وَإِذَا مَا عَرَضَتْهُ ^(٢) بِهَجَاءٍ
فَجَعَلْتَ التَّضْرِيحَ مِنْهُ دَوَاءً
وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى الْغَا
ثَلْتَ دُونَ الْأَسَى وَذَلَّلْتَ مَا كَا
ثَمَ إِنْ كُنْتَ غَائِبًا جِئْتَ بِأَلْوِ
فَتَرَكْتَ الَّذِي عَتَبْتَ عَلَيْهِ
وَأَصَحَّ الْقَرِيبُ مَا قَارَبَ النُّظْمَ
فَإِذَا قِيلَ أَطْمَعَ النَّاسَ طُرًّا

وَأَقَامَتْ لَهُ الصُّدُورُ الْمُتَوْنَا
تَتَمَنَّى وَلَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
كَأَدَ حُسْنًا يَبِينُ لِلنَّاطِرِينَا
وَالْمَعَانِي رُكِّنَ فِيهَا عُيُونَا
يَتَحَلَّى بِحُسْنِهِ الْمُنْشِدُونَا
رُمَتْ فِيهِ مَذَاهِبُ الْمُشْتَهِينَا ^(١)
وَجَعَلْتَ الْمَدِيحَ صِدْقًا مُبِينَا
وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مُؤَزُونَا
عَبَتْ فِيهِ مَذَاهِبُ الْمُرْقِينَا ^(٣)
وَجَعَلْتَ التَّغْرِيبَ ذَاءً دَفِينَا
دِينَ يَوْمًا لِلْبَيْنِ وَالظَّاعِنِينَا
نَ مِنَ الدَّمْعِ فِي الْعُيُونِ مَصُونَا
عِدَّ وَعِيدًا وَبِالصُّعُوبَةِ بَيْنَا ^(٤)
خَذِرَا أَمِنَا عَزِيزَا مَهِينَا
وَإِنْ كَانَ وَاضِحًا مُسْتَبِينَا
وَإِذَا رِيمَ أَعْجَزَ الْمُعْجَزِينَا

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم وهو الناشي ،

الشَّعْرُ مَا قَوَّمَتْ رَنَعَ صُدُورِهِ
وَرَأَيْتَ بِالْإِطْنَابِ شِعْبَ صُدُوعِهِ
وَشَدَّدْتَ بِالتَّهْذِيبِ أَسْ مُتُونِهِ
وَفَتَحْتَ بِالْإِنْجَازِ عَوْرَ عُيُونِهِ

(١) وفي النسخة الباريسية : للسبيينا .

(٢) وفي نسخة أخرى : قرضته .

(٣) وفي النسخة الباريسية : المرفقين .

(٤) وفي نسخة أخرى : لينا .

وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيْبِهِ وَيَعِيْدِهِ
وَإِذَا مَدَحْتَ بِهِ جَوَاداً مَا جِداً
أَصْفَيْتَهُ (بِتَفْشٍ وَرَضِيْتَهُ)^(١)
فَيَكُونُ جَزْلاً فِي مَسَاقِ صُنُوفِهِ
وَإِذَا بَكَيْتَ بِهِ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا
وَإِذَا أَرَدْتَ كِنَايَةً عَنْ رِيْبَةٍ
فَجَعَلْتَ سَامِعَهُ يَشُوبُ شُكُوكَهُ
وَإِذَا عَتَبْتَ عَلَى أَحَدٍ فِي زَلَّةٍ
فَتَرَكْتَهُ مُسْتَأْنِساً بِدَمَائِهِ
وَإِذَا نَبَذْتَ إِلَى الَّذِي عَلَقْتَهَا
تَيْمَنَتَهَا بِلَطِيفِهِ وَرَفِيقِهِ
وَإِذَا اغْتَذَرْتَ لِسَقَطَةٍ أَسْقَطْتَهَا
فَيَحُولُ ذَنْبُكَ عِنْدَ مَنْ يَغْتَنُّهُ
وَجَمَعْتَ بَيْنَ مُحِبِّهِ وَمَعِيْنِهِ
وَقَضَيْتَهُ بِالشُّكْرِ حَقَّ ذِيُونِهِ
وَخَصَصْتَهُ بِخَطِيرِهِ وَثَمِيْنِهِ
وَيَكُونُ سَهْلاً فِي اتِّفَاقِ فُنُونِهِ
أَجْرَيْتَ لِلْمَخْزُونِ مَاءَ شُؤْنِهِ^(٢)
بَايَنْتَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَبُطُونِهِ
بِثُبُوتِهِ^(٣) وَظُنُونِهِ بِتَقِيْنِهِ
أَذْمَجْتَ شِدَّتَهُ لَهُ فِي لَبِنِهِ
مُسْتَأْمِناً لَوَعُوْثِهِ وَحُزُونِهِ .
إِذَا صَارَ مَتَكَ بِفَاتِنَاتِ شُؤْنِهِ
وَشَفَقَتْهَا بِخَبِيْثِهِ وَكُفْنِهِ
وَأَشَكْتَ بَيْنَ مُحِيلِهِ وَثَمِيْنِهِ
عَتَباً عَلَيْهِ مُطَالِباً بِتَمِيْنِهِ

الفصل السادس والخمسون

فِي أَنْ صِنَاعَةَ النِّظْمِ وَالنَّشْرِ إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَلْفَافِ لَا فِي الْمَعَانِي
إِغْلَمَ أَنَّ صِنَاعَةَ الْكَلَامِ نَظْماً وَنَشْراً إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَلْفَافِ لَا فِي الْمَعَانِي وَإِنَّمَا
الْمَعَانِي تَبَعٌ لَهَا وَهِيَ أَضَلُّ . فَالصَّانِعُ الَّذِي يُحَاوِلُ مَلَكَةَ الْكَلَامِ فِي النِّظْمِ وَالنَّشْرِ

(١) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى : بِنَفْسِهِ وَرَضِيْنِهِ .

(٢) مَجَارِي الدَّمْعِ .

(٣) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى : بِثَنَائِهِ .

إِنَّمَا يُحَاوِلُهَا فِي الْأَلْفَاظِ بِحِفْظِ أَمْثَالِهَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ لِيَكْثَرَ اسْتِعْمَالُهُ وَجَزِيئُهُ عَلَى
 لِسَانِهِ حَتَّى تَسْتَقَرُّ لَهُ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ مُضَرٍّ وَيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعُجْمَةِ الَّتِي رُبِّيَ عَلَيْهَا
 فِي جِيلِهِ وَيَفْرَضَ نَفْسَهُ مِثْلَ وَلِيدٍ نَشَأَ فِي جَيْلِ الْعَرَبِ وَيُلْقَنَ لُغَتَهُمْ كَمَا يُلْقَنُهَا
 الصَّبِيُّ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي لِسَانِهِمْ . وَذَلِكَ أَنَا قَدْ مَنَّا أَنَّ لِللِّسَانِ مَلَكَةً مِنْ
 الْمَلَكَاتِ فِي النُّطْقِ يُحَاوِلُ تَخْصِيلَهَا بِتَكَرُّرِهَا عَلَى اللِّسَانِ حَتَّى تَحْصُلَ شَأْنُ
 الْمَلَكَاتِ وَالَّذِي فِي اللِّسَانِ وَالنُّطْقِ إِنَّمَا هُوَ الْأَلْفَاظُ وَأَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ فِي الضَّمَائِرِ .
 وَأَيْضًا فَالْمَعَانِي مَوْجُودَةٌ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ وَفِي طَوْعِ كُلِّ فِكْرٍ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَرْضَى
 فَلَا يَخْتَاجُ إِلَى تَكْلُفٍ صِنَاعَةٍ فِي تَأْلِيلِهَا وَتَأْلِيلُ الْكَلَامِ لِلْعِبَارَةِ عَنْهَا هُوَ الْمُخْتَاجُ
 لِلصَّنَاعَةِ كَمَا قُلْنَا وَهُوَ بِمِثَالَةِ الْقَوَالِبِ لِلْمَعَانِي . فَكَمَا أَنَّ الْأَوَانِي الَّتِي يُفْتَرَقُ
 بِهَا الْمَاءُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْهَا آتِيَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالصَّدْفِ وَالزُّجَاجِ وَالْخَزَفِ وَالْمَاءِ
 وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ . وَتَخْتَلِفُ الْجُودَةُ فِي الْأَوَانِي الْمَمْلُوءَةِ بِالْمَاءِ بِاخْتِلَافِ جِنْسِهَا
 لَا بِاخْتِلَافِ الْمَاءِ . كَذَلِكَ جُودَةُ اللَّفْظِ وَبَلَاغَتُهَا فِي الْإِسْتِعْمَالِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ
 طَبَقَاتِ الْكَلَامِ فِي تَأْلِيلِهِ بِإِعْتِبَارِ تَطْبِيقِهِ عَلَى الْمَقَاصِدِ . وَالْمَعَانِي وَاحِدَةٌ فِي نَفْسِهَا
 وَإِنَّمَا الْجَاهِلُ بِتَأْلِيلِ الْكَلَامِ وَأَسَالِيْبِهِ عَلَى مُقْتَضَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ إِذَا حَاوَلَ الْعِبَارَةَ
 عَنْ مَقْصُودِهِ وَلَمْ يُحْسِنْ بِمِثَالَةِ الْمُقْعَدِ الَّذِي يَرُومُ النُّهُوضَ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ لِفَقْدَانِ
 الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ . وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .



الفصل السابع والخمسون

في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَثْرَةِ الْحِفْظِ لِمَنْ يَرُومُ تَعَلُّمَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَعَلَى قَدَرِ
جُودَةِ الْمُحْفُوظِ وَطَبَقَتِهِ فِي جَنْسِهِ وَكَثْرَتِهِ مِنْ قَلْبِهِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَلَكَةِ الْحَاصِلَةِ عَنْهُ
لِلْحَافِظِ . فَمَنْ كَانَ مُحْفُوظُهُ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيِّينَ شِعْرَ حَبِيبٍ أَوْ الْعِتَابِيِّ
أَوْ ابْنِ الْمُعْتَزِّ أَوْ ابْنِ هَانِيٍّ أَوْ الشَّرِيفِ الرُّضِيِّ أَوْ رَسَائِلِ ابْنِ الْمُقَفِّعِ أَوْ سَهْلِ ابْنِ
هَارُونَ أَوْ ابْنِ الزُّيَّاتِ أَوْ الْبَيْدِيِّ أَوْ الصَّايِبِيِّ تَكُونُ مَلَكَتُهُ أَجْوَدَ وَأَعْلَى مَقَامًا وَرَتَبَةً
فِي الْبَلَاغَةِ مِمَّنْ يَحْفَظُ شِعْرَ ابْنِ سَهْلٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَوْ ابْنِ النَّبِيِّ أَوْ تَرْسُلِ
الْبَيْسَانِيِّ أَوْ الْعِمَادِ الْأَصْبَهَانِيِّ لِنُزُولِ طَبَقَةِ هَؤُلَاءِ عَنْ أَوْلَئِكَ . يَظْهَرُ ذَلِكَ لِلْبَصِيرِ
النَّاقِدِ صَاحِبِ الذُّوقِ . وَعَلَى مِقْدَارِ جُودَةِ الْمُحْفُوظِ أَوْ الْمَسْمُوعِ تَكُونُ جُودَةُ
الِاسْتِعْمَالِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ إِجَادَةُ الْمَلَكَةِ مِنْ بَعْدِهِمَا . فَبَارَتْقَاءَ الْمُحْفُوظِ فِي طَبَقَتِهِ مِنْ
الْكَلَامِ تَرْتَقِي الْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ لَأَنَّ الطَّبَقَ . إِنَّمَا يَنْسُجُ عَلَى مَنَوَالِهَا وَتَنْمُو قُوَى الْمَلَكَةِ
بِتَغْذِيَّتِهَا . وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ وَإِنْ كَانَتْ فِي جِلْبَتِهَا وَاحِدَةً بِالنُّوعِ فَهِيَ تَخْتَلِفُ فِي
الْبَشَرِ بِالْقُوَّةِ وَالضَّغْفِ فِي الْإِذْرَاكَاتِ . وَاخْتِلَافُهَا إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهَا
مِنَ الْإِذْرَاكَاتِ وَالْمَلَكَاتِ وَالْأَلْوَانِ الَّتِي تَكْنِفُهَا مِنْ خَارِجٍ . فَبِهَذِهِ يَتِمُّ وَجُودُهَا
وَتَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ صَوْرَتِهَا وَالْمَلَكَاتُ الَّتِي تَخْصُلُ لَهَا إِنَّمَا تَخْصُلُ عَلَى
التَّدْرِيجِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . فَالْمَلَكَةُ الشَّعْرِيَّةُ تَنْشَأُ بِحِفْظِ الشَّعْرِ وَمَلَكَةُ الْكِتَابَةِ بِحِفْظِ
الْأَسْبَاجِ وَالتَّرْسِيلِ . وَالْعِلْمِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ الْعُلُومِ وَالْإِذْرَاكَاتِ وَالْأَبْحَاثِ وَالْأَنْظَارِ .
وَالْفِقْهِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ الْفِقْهِ وَتَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ وَتَفْرِيعِهَا وَتَخْرِيجِ الْفُرُوعِ عَلَى الْأَصُولِ .
وَالتَّصَوُّفِيَّةُ الرُّبَانِيَّةُ بِالْعِبَادَاتِ وَالْأَذْكَارِ وَتَغْطِيلِ الْخَوَاسِ الظَّاهِرَةِ بِالْخُلُوعِ
وَالْإِنْفِرَادِ عَنِ الْخَلْقِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى تَخْصُلَ لَهُ مَلَكَةُ الرُّجُوعِ إِلَى حِسِّهِ الْبَاطِنِ
وَرُوحِهِ وَيَنْقَلِبُ رُبَانِيًّا وَكَذَا سَائِرُهَا . وَلِلنَّفْسِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَوْنٌ تَتَكَيَّفُ بِهِ

وَعَلَى حَسَبِ مَا نَشَأَتِ الْمَلَكَةُ عَلَيْهِ مِنْ جُودَةٍ أَوْ رَدَاءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ الْمَلَكَةُ فِي نَفْسِهَا
فَمَلَكَةُ الْبَلَاغَةِ الْعَالِيَةِ الطَّبَقَةِ فِي جَنْسِهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ بِحِفْظِ الْعَالِي فِي طَبَقَتِهِ مِنْ
الْكَلَامِ وَلِهَذَا كَانَ الْفُقَهَاءُ وَأَهْلُ الْعُلُومِ كُلُّهُمْ قَاصِرِينَ فِي الْبَلَاغَةِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا
يَسْبِقُ إِلَى مَحْفُوظِهِمْ وَيَمْتَلِئُ بِهِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِبَارَاتِ الْفَقْهِيَّةِ الْخَارِجَةِ
عَنْ أَسْلُوبِ الْبَلَاغَةِ وَالنَّازِلَةِ عَنِ الطَّبَقَةِ لِأَنَّ الْعِبَارَاتِ عَنِ الْقَوَانِينِ وَالْعُلُومِ لَا حَظَّ
لَهَا فِي الْبَلَاغَةِ فَإِذَا سَبَقَ ذَلِكَ الْمَحْفُوظُ إِلَى الْفِكْرِ وَكَثُرَ وَتَلَوَّنَتْ بِهِ النَّفْسُ جَاءَتِ
الْمَلَكَةُ النَّاشِئَةُ عَنْهُ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ وَانْحَرَفَتْ عِبَارَاتُهُ عَنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فِي
كَلَامِهِمْ . وَهَكَذَا نَجِدُ شِعْرَ الْفُقَهَاءِ وَالنُّحَاةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالنُّظَّارِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ
يَمْتَلِئُوا مِنْ حِفْظِ النُّقْيِ الْحُرِّ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ . أَخْبَرَنِي صَاحِبُنَا الْفَاضِلُ أَبُو
الْقَاسِمِ بْنُ رِضْوَانَ كَاتِبُ الْعَلَامَةِ بِالدَّوْلَةِ الْمُرِينِيَّةِ قَالَ : ذَكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أَبَا
الْعَبَّاسِ بْنِ شُعَيْبٍ كَاتِبَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَكَانَ الْمُقَدَّمُ فِي الْبَصَرِ بِالسَّانِ
لِعَهْدِهِ فَأَنْشَدْتُهُ مَطْلَعُ قَصِيدَةِ ابْنِ النُّحْوِيِّ وَلَمْ أَنْسِبْهَا لَهُ وَهُوَ هَذَا :

لَمْ أَذِرْ حِينَ وَقَفْتُ بِالْأَطْلَالِ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ جَدِيدِهَا وَالْبَالِيِ

فَقَالَ لِي عَلَى الْبَدِيدِيَّةِ : هَذَا شِعْرُ فُقَيْهِ . فَقُلْتُ لَهُ : وَمِنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ . فَقَالَ :
مِنْ قَوْلِهِ مَا الْفَرْقُ ؟ إِذْ هِيَ مِنْ عِبَارَاتِ الْفُقَهَاءِ وَلَيْسَتْ مِنْ أَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ .
فَقُلْتُ لَهُ : اللَّهُ أَبُوكَ إِنَّهُ ابْنُ النُّحْوِيِّ . وَأَمَّا الْكُتَّابُ وَالشُّعْرَاءُ فَلْيَسُوا كَذَلِكَ
لِتَخْيِرِهِمْ فِي مَحْفُوظِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ كَلَامَ الْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي التَّرْسُلِ وَانْتِقَائِهِمْ لَهُمْ
الْجَيِّدَ مِنَ الْكَلَامِ . ذَكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ وَزَيْرَ الْمُلُوكِ
بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ بَنِي الْأَخْمَرِ وَكَانَ الصُّدْرَ الْمُقَدَّمُ فِي الشُّعْرِ وَالْكِتَابَةِ فَقُلْتُ لَهُ : أَجِدُ
اسْتِصْعَابًا عَلَيَّ فِي نَظْمِ الشُّعْرِ مَتَى رُمْتَهُ مَعَ بَصْرِي بِهِ وَحِفْظِي لِلْجَيِّدِ مِنَ الْكَلَامِ
مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَقُنُونِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانَ مَحْفُوظِي قَلِيلًا . وَإِنَّمَا أُتِيتُ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ مِنْ قَبْلِ مَا حَصَلَ فِي حِفْظِي مِنَ الْأَشْعَارِ الْعِلْمِيَّةِ
وَالْقَوَانِينِ التَّالِيفِيَّةِ . فَإِنِّي حَفِظْتُ قَصِيدَتِي الشَّاطِئِي الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى فِي

الغزوات في الرسم واستظهرتَهما وتدارستَ كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول
وجمل الخونجي في المنطقي وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في
المجالس فامتلاً محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعددت^(١) لها
بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب تعاق القريخة عن بلوغها .
فنظر إلي ساعة متعجباً^(٢) ثم قال : الله أنت وهل يقول هذا إلا مثلك ؟ ويظهر لك
من هذا الفضل وما تقرر فيه سر آخر وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من
العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منشورهم ومنظومهم .
فإننا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والخطيب وجريرو والفرزدق
ونصيب وغيلان ذي الرمة والأخوص وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة
الأموية وصدرأ من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع
طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة
وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاوراتهم والطبع السليم
والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة . والسبب في ذلك أن هؤلاء
الذين أدرکوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين
عجز البشر عن الإتيان بمثلئهما لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها
نفوسهم فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل
الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم
أحسن ديباجة وأضفى رونقاً من أولئك وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه
من الكلام العالي الطبقة . وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل
الذوق والبصر بالبلاغة . ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي
غزنطة لمهدنا وكان شيخ هذه الصناعة أخذ بسبته عن جماعة من مشيختها من

(١) وفي نسخة أخرى : استعديت .

(٢) وفي نسخة أخرى : متعجبا .

تَلَامِيذُ الشُّلُوبِيِّينَ وَاسْتَبَحَرَ فِي عِلْمِ اللِّسَانِ وَجَاءَ مِنْ وَرَاءِ الْغَايَةِ فِيهِ فَسَأَلَتْهُ يَوْمًا مَا بَالُ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيِّينَ أَعْلَى طَبَقَةٍ فِي الْبَلَاغَةِ مِنَ الْجَاهِلِيِّينَ ؟ وَلَمْ يَكُنْ لِيَسْتَنْكَرَ ذَلِكَ بِذَوْقِهِ فَسَكَتَ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ لِي ، وَاللَّهِ مَا أَذْرِي ، فَقُلْتُ ، أَعْرَضَ عَلَيْكَ شَيْئًا ظَهَرَ لِي فِي ذَلِكَ وَلَعَلَّهُ السَّبَبُ فِيهِ . وَذَكَرْتُ لَهُ هَذَا الَّذِي كَتَبْتُ فَسَكَتَ مُعْجَبًا ثُمَّ قَالَ لِي ، يَا فَتِيهَ هَذَا كَلَامٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُكْتَبَ بِالذَّهَبِ . وَكَانَ مِنْ بَعْدِهَا يُؤَثَّرُ مَحَلِّي وَيُصَيِّخُ فِي مَجَالِسِ التَّغْلِيمِ إِلَى قَوْلِي وَيَشْهَدُ لِي بِالنَّبَاهَةِ فِي الْعُلُومِ ، وَاللَّهِ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ .

الفصل الثامن والخمسون

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع

وكيف جودة المصنوع أو قصوره

إِغْلَمُ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي هُوَ الْعِبَارَةُ وَالْخَطَابُ ، إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحُهُ فِي إِفَادَةِ الْمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلًا فَهُوَ كَالْمَوَاتِ الَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ . وَكَمَالُ الْإِفَادَةِ هُوَ الْبَلَاغَةُ عَلَى مَا عُرِفَتْ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ الْبَيَانِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ هِيَ مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ ، وَمَعْرِفَةُ الشُّرُوطِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي بِهَا تُطَابَقُ التَّرَاكِيِبُ اللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى الْحَالِ ، هُوَ فَنُ الْبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ الشُّرُوطُ وَالْأَحْكَامُ لِلتَّرَاكِيِبِ فِي الْمُطَابَقَةِ اسْتَقْرَيْتُ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ وَصَارَتْ كَالْقَوَانِينِ . فَالتَّرَاكِيِبُ يَوْضَعُهَا تَفِيدُ الْإِسْنَادَ بَيْنَ الْمُسْنَدَيْنِ ، بِشُرُوطٍ وَأَحْكَامٍ هِيَ جُلُّ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ . وَأَحْوَالُ هَذِهِ التَّرَاكِيِبِ مِنْ تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ ، وَتَعْرِيفٍ وَتَنْكِيرٍ ، وَاضْمَارٍ وَإِظْهَارٍ ، وَتَقْيِيدٍ وَإِطْلَاقٍ وَغَيْرِهَا ، يَفِيدُ الْأَحْكَامَ الْمُكْتَنَفَةَ مِنْ خَارِجِ الْإِسْنَادِ ، وَبِالْمُتَخَاطِبِينَ خَالَ التَّخَاطُبِ بِشُرُوطٍ وَأَحْكَامٍ هِيَ قَوَانِينُ لَفْنٍ ، يُسَمُّونَهُ عِلْمُ الْمَعَانِي مِنْ فَنُونِ

البلاغة . فتندرج قوانين العربية لذلك في قوانين علم المعاني لأن إفادتها الإسناد جزء من إفادتها لأحوال المكتتفة بالإسناد . وما قصر من هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال لخلل في قوانين الإغراب أو قوانين المعاني كان قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال ، ولحق بالمهمل الذي هو في عداد الموات .

ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال التفنن في انتقال التركيب بين المعاني بأصناف الدلالات ، لأن التركيب يدل بالوضع على معنى ، ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه ، فيكون فيها مجازاً ، إما باستعارة أو كناية كما هو مقرر في موضعه ، ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل في الإفادة وأشد . لأن في جميعها ظفر بالمذلول من دليله . والظفر من أسباب اللذة كما علمت . ثم لهذه الانتقالات أيضاً شروط وأحكام كالقوانين صيروها صناعة ، وسموها بالبيان . وهي شقيقة علم المعاني المفيد لمقتضى الحال ، لأنها راجعة إلى معاني التراكيب ومذلولاتها . وقوانين علم المعاني راجعة إلى أحوال التراكيب أنفسها من حيث الدلالة . واللفظ والمعنى متلازمان متضايقان كما علمت . فإذا علم المعاني وعلم البيان هما جزء البلاغة ، وبهما كمال الإفادة ، فهو مقصر عن البلاغة ويلتحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات المعجم وأجدر به أن لا يكون عربياً ، لأن العربي هو الذي يطابق بإفادته مقتضى الحال . فالبلاغة على هذا هي أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته .

ثم إعلم أنهم إذا قالوا : « الكلام المطبوع » فإنهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من إفادة مذلوله المقصود منه ، لأنه عبارة وخطاب ، ليس المقصود منه النطق فقط . بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة ، ويدل به عليه دلالة وثيقة . ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السجية التي له بالأصالة ضروب من التحسين والتزيين . بعد كمال الإفادة وكأنها تعطى روتق الفصاحة من تنميق الأسجاع ، والموازنة بين حمل الكلام وتقسيمه

بِالْأَقْسَامِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَحْكَامِ وَالتَّوْرِيَةِ بِاللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ عَنِ الْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ ،
وَالْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الْمُتَضَادَّاتِ ، لِيَقَعَ التَّجَانُّسُ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي ، فَيَخْصُلَ لِلْكَلامِ
رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي الْأَسْمَاعِ وَخِلَافَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى الْإِفَادَةِ .

وَهَذِهِ الصَّنْعَةُ مُوجُودَةٌ فِي الْكَلَامِ الْمُعْجَزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ : « وَاللَّيْلُ إِذَا
يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى » ، وَمِثْلُ : « فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » ،
إِلَى آخِرِ التَّقْسِيمِ فِي الْآيَةِ . وَكَذَا : « فَأَمَّا مَنْ طَفَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » إِلَى آخِرِ
الْآيَةِ . وَكَذَا : « هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » . وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ . وَذَلِكَ بَعْدَ
كَمَالِ الْإِفَادَةِ فِي أَصْلِ هَذِهِ التَّرَاكِيِبِ قَبْلَ وَقُوعِ هَذَا الْبَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ
الْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ ، لَكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ إِنَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرٍ .
وَأَمَّا الْإِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَصْدًا ، وَأَتَوْا مِنْهُ بِالْمَعْجَائِبِ . وَأَوَّلُ مَنْ أَحْكَمَ
طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ وَالبُّخْتَرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ ، فَقَدْ كَانُوا مُؤَلِّعِينَ
بِالصَّنْعَةِ ، وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِالْعَجَبِ . وَقِيلَ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى مَعَانِيهَا بَشَارُ بْنُ
بُرْدٍ وَابْنُ هَرْمَةَ ، وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . ثُمَّ اتَّبَعَهُمَا
عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ وَالْعُتَابِيُّ وَمَنْصُورُ النُّمَيْرِيِّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ وَأَبُو نَوَاسٍ . وَجَاءَ
عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبُ وَالبُّخْتَرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى الْبَدِيعِ وَالصَّنَاعَةِ
أَجْمَعًا . وَلَنَذْكُرَ مِثَالًا مِنَ الْمُطْبُوعِ الْخَالِيِّ مِنَ الصَّنَاعَةِ ، مِثْلُ قَوْلِ قَيْسِ بْنِ
دَرِيحٍ :

وَأَخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعْلَنِي أَحَدْتُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَالِيَا
وَقَوْلُ كَثِيرٍ :

وَإِنِّي وَتَهَيَّيْتُ بِعِزَّةٍ بَعْدَمَا تَخَلَّيْتُ عَمَّا بَيْنَنَا وَتَخَلَّسْتُ
لِكَالْمَرْتَجِي ظِلَّ الْقَمَامَةِ كُلَّهَا تَبَوَّأَ مِنْهَا لِلْمَقِيلِ اِضْمَحَلْتُ

فَتَأْمَلْ هَذَا الْمُطْبُوعَ ، الْفَقِيدَ الصَّنْعَةِ ، فِي إِحْكَامِ تَأْلِيْفِهِ وَثِقَافَةِ تَرْكِيبِهِ . فَلَوْ
جَاءَتْ فِيهِ الصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْأَصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا .

وَأَمَّا الْمَصْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ بَشَّارَ ، ثُمَّ حَسِبَ وَطَبَقَتْهُمَا ، ثُمَّ ابْنُ الْمُعْتَزِّ
خَاتَمُ الصَّنْعَةِ الَّذِي جَرَى الْمُتَأَخَّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مِثْلَانِهِمْ ، وَنَسَجُوا عَلَى مِثْوَالِهِمْ .
وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَصْنَافُ هَذِهِ الصَّنْعَةِ عِنْدَ أَهْلِهَا ، وَاخْتَلَفَتْ اصْطِلَاحَاتُهُمْ فِي الْقَابِهَا ،
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدرَجَةً فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي الْإِفَادَةِ ، وَأَنَّهَا هِيَ
تُعْطِي التَّحْسِينَ وَالرُّوْنُقَ . وَأَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْدِيعِ ، فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ
عَنِ الْبَلَاغَةِ . وَلِذَلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي الْفُنُونِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي لَا مَوْضُوعَ لَهَا . وَهُوَ رَأْيُ
ابْنِ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ لَهُ ، وَأَدْبَاءِ الْأَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الصَّنْعَةِ
شُرُوطًا ، مِنْهَا أَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَلَا اكْتِرَافٍ فِي مَا يَقْصَدُ مِنْهَا . وَأَمَّا الْعُقُوفُ فَلَا
كَلَامَ فِيهِ لِأَنَّهَا إِذَا بَرُئَتْ مِنَ التَّكْلُفِ سَلِمَ الْكَلَامُ مِنْ غَيْبِ الْإِسْتِهْجَانِ ، لِأَنَّ تَكْلُفَهَا
وَمُعَانَاتَهَا يَصِيرُ إِلَى الْغَفْلَةِ عَنِ التَّرَاكِيِبِ الْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ ، فَتُخْلُ بِالْإِفَادَةِ مِنْ
أَصْلِهَا ، وَتَذْهَبُ بِالْبَلَاغَةِ رَأْسًا . وَلَا يَبْقَى فِي الْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ التَّحْسِينَاتِ ، وَهَذَا هُوَ
الْغَالِبُ الْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ الْعَصْرِ . وَأَصْحَابُ الْأَذْوَاقِ فِي الْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كُلِّهِمْ
بِهَذِهِ الْفُنُونِ ، وَيُعَدُّونَ ذَلِكَ مِنَ الْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ . وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الْأَسْتَاذَ أَبَا
الْبَرَكَاتِ الْبُلْفِيْقِيَّ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرِ فِي اللِّسَانِ وَالْقَرِيْحَةِ فِي ذَوْقِهِ يَقُولُ ، إِنَّ
مِنْ أَشْهَى مَا تَقْتَرَحُهُ عَلَيَّ نَفْسِي أَنْ أَشَاهِدَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ مَنْ يَنْتَجِلُ فُنُونَهُ هَذَا
الْبَيْدِيعِ فِي نَظْمِهِ أَوْ نَثْرِهِ ، وَقَدْ عَوَّقَ بِأَشَدِّ الْعُقُوبَةِ ، وَنُودِيَ عَلَيْهِ ، يُحَذِّرُ بِذَلِكَ
تَلْمِيْذَهُ أَنْ يَتَعَاطَوْا هَذِهِ الصَّنْعَةَ ، فَيَكْلِفُونَهَا ، وَيَتَنَاسُونَ الْبَلَاغَةَ . ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ
اسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمُ الْإِقْلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ الْقَصِيدِ ، فَتَكْفِي فِي
زِينَةِ الشِّعْرِ وَرَوْنَقِهِ . وَالْإِكْتِسَارُ مِنْهَا غَيْبٌ ، قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ . وَكَانَ شَيْخَنَا
أَبُو الْقَاسِمِ الشَّرِيفُ السَّنِيْتِيُّ مُنْفِقُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِالْأَنْدَلُسِ لَوْقَتِهِ يَقُولُ ، هَذِهِ
الْفُنُونُ الْبَيْدِيعِيَّةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبَحُ أَنْ يُسْتَكْتَرَّ مِنْهَا ، لِأَنَّهَا مِنْ

مُحَسَّنَاتِ الْكَلَامِ وَمَزِينَاتِهِ ، فَهِيَ بِمَثَانِيَةِ الْخَيْلَانِ فِي الْوَجْهِ يَخْسُنُ بِالْوَاحِدِ
وَالْإِثْنَيْنِ مِنْهَا ، وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا . وَعَلَى نِسْبَةِ الْكَلَامِ الْمَنْظُومِ هُوَ الْكَلَامُ الْمَنْشُورُ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ . كَانَ أَوَّلًا مُرْسَلًا مُعْتَبَرُ الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ جُمْلِهِ وَتَرَائِكِيهِ ، شَاهِدَةٌ
مَوَازِنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ ، مِنْ غَيْرِ التَّرَامِ سَجَعٍ وَلَا اكْتِرَاطٍ بِصَنْعَةٍ . حَتَّى نَبَعَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ
هَلَالٍ الصَّايِبِيُّ كَاتِبُ بَنِي بُؤَيَّةٍ ، فَتَعَاطَى الصَّنْعَةَ وَالتَّقْفِيَةَ وَأَتَى بِذَلِكَ بِالْعَجَبِ .
وَعَابَ النَّاسُ عَلَيْهِ كُلَّهُ بِذَلِكَ فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ . وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ
فِي مَلُوكِهِ مِنَ الْعُجْمَةِ وَالْبُعْدِ عَنِ صَوْلَةِ الْخِلَافَةِ الْمُتَنَفِّحَةِ لِسُوقِ الْبَلَاغَةِ . ثُمَّ انْتَشَرَتْ
الصَّنَاعَةُ بَعْدَهُ فِي مَنْشُورِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَنْهُ التَّرْسِيلُ وَتَشَابَهَتْ السُّلْطَانِيَّاتُ
وَالْإِخْوَانِيَّاتُ وَالْعَرَبِيَّاتُ بِالسُّوقِيَّاتِ . وَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْهَنْدِلِ . وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ
عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ الْمَصْنُوعَ بِالمُعَانَاةِ وَالتَّكْلِيفِ ، قَاصِرٌ عَنِ الْكَلَامِ الْمَطْبُوعِ ، لِقَلَّةِ
الْإِكْتِرَاطِ فِيهِ بِأَصْلِ الْبَلَاغَةِ ، وَالْحَاكِمِ فِي ذَلِكَ الذَّوْقِ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَعَلَّمَكُمْ مَا لَمْ
تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

الفصل التاسع والخمسون

في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

إِغْلَمَ أَنَّ الشُّعْرَ كَانَ دِيُونًا لِلْعَرَبِ فِيهِ عُلُومُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَحُكْمُهُمْ . وَكَانَ
رُؤَسَاءُ الْعَرَبِ مُنَافِسِينَ ^(١) فِيهِ وَكَانُوا يَقْفُونَ بِسُوقِ عُكَاظِ لِإِنْشَادِهِ وَعَرَضَ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ دِيْبَاجَتَهُ عَلَى فُحُولِ الشَّانِ وَأَهْلِ الْبَصَرِ لِيُمَيِّزَ حَوْلَهُ . حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى
الْمُنَافَاةِ فِي تَغْلِيْقِ أَشْعَارِهِمْ بِأَرْكَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَوْضِعِ حُجَّتِهِمْ وَبَيَّنَتْ أَيْسَهُمْ
إِبْرَاهِيمُ كَمَا فَعَلَ امْرُؤُ الْقَيْسِ ابْنُ حُجْرٍ وَالنَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَمَى
وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَادٍ وَطَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْشَى وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ
الْمُعَلَّقَاتِ السَّنِيعِ ^(٢) . فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ إِلَى تَغْلِيْقِ الشُّعْرِ بِهَا مَنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ

(١) وفي نسخة أخرى ، متنافسين .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، السبع .

على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها
بالمعلقات . ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين
والنبوة والوحي وما أذهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا
عن الخوض في النظم والنثر زماناً . ثم استقر ذلك وأونس الرشد من العيلة . ولم
ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي ﷺ وأتاب عليه . فرجعوا
حينئذ إلى دينهم منه . وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قرينش لذلك العهد
مقامات فيه عالية وطبقة مرفقة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس
فيتقف لإستماعه معجباً به . ثم جاء من بعد ذلك الملك الفحل والدولة العزيزة
وتقرب إليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها . ويحيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز
على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويخرضون على استهداء أشعارهم
يطلمعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان . والعرب يطالبون ولدتهم
يحفظها . ولم يزل هذا الشأن أيام بني أمية وصدر من دولة بني العباس . وانظر
ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للأصمعي في باب الشعر والشعراء تجد
ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرأسوخ فيه والعناية بانتخاله والتبصر
بجيد الكلام ورديه وكثرة محفوظه منه . ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان
لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان وإنما تعلموه صناعة ثم مدحوا
بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبيين معروفهم فقط لا سوى ذلك
من الأغراض كما فعله حبيب والبخترى والمتنبى وابن هاني ومن بعدهم وهلم
جزاً . فصار غرض الشعر في الغالب إنما هو الكذب^(١) والاستجداء لذهاب المنافع
التي كانت فيه للأولين كما ذكرناه آنفاً . وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من
المتأخرين وتغير الحال وأصبح تغايطه هجنة في الرئاسة ومذمة لأهل المناصب
الكبيرة . والله مقلب الليل والنهار .

(١) وفي نسخة أخرى : للكذبة .

الفصل الستون

في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

إِغْلَمْ أَنَّ الشَّعْرَ لَا يَخْتَصُّ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَقَطْ بَلْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ لُغَةٍ
سِوَاءَ كَانَتْ عَرَبِيَّةً أَوْ عَجَمِيَّةً وَقَدْ كَانَ فِي الْفُرسِ شُعْرَاءٌ وَفِي يُونَانَ كَذَلِكَ وَذَكَرَ
مِنْهُمْ أَرِسْطُوبُ فِي كِتَابِ الْمَنْطِقِ أَوْ مِيرُوسَ الشَّاعِرِ وَأَتْنَى عَلَيْهِ . وَكَانَ فِي حَمِيرٍ أَيْضاً
شُعْرَاءٌ مُتَقَدِّمُونَ . وَلَمَّا فَسَدَ لِسَانُ مُضَرَ وَلَغَتْهُمْ الَّتِي دُونَتْ مَقَائِيسُهَا وَقَوَانِينُ
إِعْرَابِهَا وَفَسَدَتِ اللُّغَاتُ مِنْ بَعْدِ بِحَسَبِ مَا خَالَطَهَا وَمَازَجَهَا مِنَ الْعُجْمَةِ فَكَانَتْ
تُحِيلُ^(١) الْعَرَبُ بِأَنْفُسِهِمْ لُغَةً خَالَفَتْ لُغَةَ سَلَفِهِمْ مِنْ مُضَرَ فِي الإِعْرَابِ جُمْلَةً وَفِي
كَثِيرٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ وَبِنَاءِ الْكَلِمَاتِ . وَكَذَلِكَ الْحَضَرُ أَهْلُ الْأَمْصَارِ نَشَأَتْ
فِيهِمْ لُغَةٌ أُخْرَى خَالَفَتْ لِسَانَ مُضَرَ فِي الإِعْرَابِ وَأَكْثَرَ الْأَوْضَاعِ وَالتَّضَارِيفِ
وَخَالَفَتْ أَيْضاً لُغَةَ الْجِيلِ مِنَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَاخْتَلَفَتْ هِيَ فِي نَفْسِهَا بِحَسَبِ
اضْطِلَاحَاتِ أَهْلِ الْأَفَاقِ فَلَأَهْلِ الشَّرْقِ وَأَمْصَارِهِ لُغَةٌ غَيْرُ لُغَةِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ
وَتَخَالَفَهُمَا أَيْضاً لُغَةُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَأَمْصَارِهِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشَّعْرُ مَوْجُوداً بِالطَّبْعِ فِي
أَهْلِ كُلِّ لِسَانٍ لِأَنَّ الْمَوَازِينَ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي أَعْدَادِ الْمُتَحَرِّكَاتِ وَالسُّوَاكِينِ
وَتَقَابُلِهَا مَوْجُودَةً فِي طَبْعِ الْبَشَرِ فَلَمْ يَهْجُرِ الشَّعْرُ بِفَقْدَانِ لُغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ لُغَةُ مُضَرَ
الَّذِينَ كَانُوا فُحُولَهُ وَفُرسَانَ مِيدَانِهِ حَسْبَمَا اشْتَهَرَ بَيْنَ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ . بَلْ كُلُّ جِيلٍ
وَأَهْلُ كُلِّ لُغَةٍ مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْتَعِجِمِينَ وَالْحَضَرِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ يَتَعَاطُونَ مِنْهُ
مَا يُطَاوِعُهُمْ فِي انْتِحَالِهِ وَرَضْفِ بِنَائِهِ عَلَى مَهْنَعِ كَلَامِهِمْ . فَأَمَّا الْعَرَبُ أَهْلُ هَذَا
الْجِيلِ الْمُسْتَعِجِمُونَ عَنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ مِنْ مُضَرَ فَيَقْرُضُونَ الشَّعْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي سَائِرِ
الْأَعَارِيزِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمُ الْمُسْتَعْرِبُونَ وَيَأْتُونَ مِنْهُ بِالْمَطُولَاتِ مُشْتَمِلَةً

(١) وفي نسخة أخرى : لجيل .

على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام . ورُبما هجموا على المقصود لأول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون . فأهل أمصار المغرب من العرب يُسمون هذه القصائد بالأصمعيّات نسبة إلى الأصمعيّ زاوية العرب في أشعارهم . وأهل المشرق من العرب يُسمون هذا النوع من الشعر بالبدويّ والخورانيّ والقيسيّ . ورُبما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية . ثم يغنون به ويُسمون الغناء به باسم الخورانيّ نسبة إلى خوران من أطراف العراق والشام وهي من منازل العرب البادية ومساكينهم إلى هذا العهد . ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يحيئون به معصبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويّه ويلتزمون القافية الرابعة في كلّ بيت إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمرّيع والمخمّس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين . ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر صاحبها هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمجّ نظمهم إذا أنشد ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها . وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظيره وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع ذالاً على الفاعل والنصب ذالاً على المفعول أو بالعكس وإنما يدلّ على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه . فالدلالة بحسب ما يسطيح عليه أهل الملكة فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحة الدلالة وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك . وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر . ويتميز

عِنْدَهُمُ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ يَقْرَأُ الْكَلَامَ لَا يَحْرَكَاتِ
الْإِعْرَابَ .

فَمِنْ أَشْعَارِهِمْ عَلَى لِسَانِ الشَّرِيفِ بْنِ هَاشِمٍ يَتَكَبَّرُ الْجَازِيَّةُ بِنْتُ سَرْخَانَ .
وَيَذْكُرُ ظَعْنَهَا مَعَ قَوْمِهَا إِلَى الْمَغْرِبِ .

تَرَى كَيْدِي حَرَى شَكَّتْ مِنْ زَفِيرِهَا	قَالَ الشَّرِيفُ ابْنُ هَاشِمٍ عَلَيَّ
يَرُدُّ غُلَامُ الْبَدْوِ يَلْوِي عَصِيرِهَا	يَغْزِلُ لِلْغُلَامِ أَيْنَ مَا زَأَتْ خَاطِرِي
عِدَاةُ وَزَائِعُ تَلَفَ اللَّهُ خَيْرِهَا	وَمَاذَا شَكَاةُ الرُّوحِ مِمَّا طَرَا لَهَا
طَوَى وَهْنُ جَانِي ذِكْرِهَا	يَحْسُنُ إِنْ قَطَاعُ عَامِرٍ ضَمِيرِهَا
عَلَى مِثْلِ شَوْكِ الطَّلَحِ عَقَدُوا يَسِيرِهَا	وَعَادَتْ كَمَا خَوَارَةٌ فِي يَدِ غَاسِلٍ
عَلَى شَوْكِ لَعْنِهِ وَالْبَقَايَا جَرِيرِهَا	تَجَابَذُوهَا اثْنَيْنِ وَالنَّزْعَ بَيْنَهُمِ
شَبِيهَ دَوَّارِ السَّوَانِي يَدِيرِهَا	وَبَاتَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ ذَارِفَاتٍ لَشَانِهَا
مَرُونَ يَجِي مَتْرَاكِبًا مِنْ صَبِيرِهَا	تَدَارِكُ مِنْهَا النُّجُومُ حَذْرًا وَزَادَهَا
عَيُونَ وَلَجَازُ الْبَرْقِ فِي غَزِيرِهَا	يَصُبُّ مِنَ الْقِيَعَانِ مِنْ جَانِبِ الصُّفَا
نَاضَتْ مِنْ بَغْدَادِ حَتَّى فَقِيرِهَا	هَذَا الْغَنَى حَتَّى تَسَايَيْتَ غَزْوَةً
وَعَرَجُ عَارِيهَا عَلَى مُسْتَعِيرِهَا	وَنَادَى الْمُنَادِي بِالرَّحِيلِ وَشَدُّوا
عَلَى أَيْدِي دِينِ مَاضِي وَلَيْدِ مَقْرَبِ مِيرِهَا	وَشَدُّ لَهَا الْأَدْهَمُ دِيَابُ بْنُ غَانِمٍ
وَسَوَّقُوا النُّجُوعَ إِنْ كَانَ أَنَا هُوَ غَفِيرِهَا	وَقَالَ لَهُمْ حَسَنُ بْنُ سَرْخَانَ غَرَّبُوا
وَبِالْيَمِينِ لَا يَجِدُوا فِي مُغِيرِهَا	وَيَرْكُضُ وَبِيَدِهِ شَهَامُهُ بِالتَّسَامُحِ
وَمَا كَانَ يَرْضَى زَيْنَ حَمِيرٍ وَمِيرِهَا	غَدَرْنِي زِيَانُ السَّيْحِ مِنْ عَبَسِ
وَأَنَا لِيهِمَا مِنْ دَرَقَتِي مَا يَدِيرِهَا	غَدَرْنِي وَهُوَ زَعْمَا صَدِيقِي وَصَاحِبِي
بِحَرِّ الْبِلَادِ الْعَطَشَى مَا بَخِيرِهَا	وَرَجَعَ يَقُولُ لَهُمْ بِلَالُ بْنُ هَاشِمٍ
دَاخِلٌ وَلَا عَائِدٌ رَكِيزُهُ مِنْ نَعِيرِهَا	حَرَامٌ عَلَيَّ بَابُ بَغْدَادٍ وَأَرْضُهَا
عَلَى الشَّمْسِ أَوْ حَوْلِ الْغُضَامِ مِنْ هَجِيرِهَا	تَصْدَفُ رَوْحِي عَنْ بِلَادِ ابْنِ هَاشِمٍ

وباتت نيران العذارى قوادح يلود وبجرجان يشدوا أسيرها
وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي رِثَاءِ أَمِيرِ زَنَاتَةَ أَبِي سَعْدَى الْيَفْرَنْجِيِّ مُقَارِعَهُمْ بِافْرِيقِيَّةَ وَأَرْضِ
الزَّابِ وَرِثَاؤُهُمْ لَهُ عَلَى جِهَةِ التَّهْكُمِ :

تقول فتاة الحي^(١) سعدى وهاضها لها في طعون الباكرين عويل
أيا سائلي عن قبر الزناتي خليفه خذ النعت مني لا تكون هبيل
تراه يعالي وادي ران وفوقه من الربط عيساوي بناء طويل
أراه يميل النور من شارع النقا به الواد شرقاً واليراع دليل
أيا لهف كبدي على الزناتي خليفه قد كان لأعقاب الجياد سليل
قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم جراحه كافواه المزاد تسيل
أيا جائراً مات الزناتي خليفه لا ترحل إلا أن يريد رحيل
ألا واش رخلنا ثلاثين مرة وعشراً وستا في النهار قليل

وَمِنْ قَوْلِهِمْ عَلَى لِسَانِ الشَّرِيفِ بْنِ هَاشِمٍ يَذْكُرُ عِتَاباً وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
مَاضِي بَنِي مُقَرَّبٍ :

تبدي ماضي الجبار وقال لي أشكر ما نحنا عليك رضاش
أشكر أعد ما بقي ود بيننا ورانا عريب عربا لا بسين نماش
نحن غدينا نصدفو ما قضى لنا كما صادفت طعم الزباد طشاش
أشكر أعد إلى يزيد ملامه ليحدو ومن عمر بلاده عاش
ان كان نبت الشوك يلقح بأرضكم هنا العرب ما زدنا لهن ضياش

وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ رِخْلَتِهِمْ إِلَى الْغَرْبِ وَعَلَيْهِمْ زَنَاتَةُ عَلَيْهِ :

وَأَيُّ جَمِيلٍ ضَاعَ لِي فِي الشَّرِيفِ بْنِ هَاشِمٍ

وَأَيُّ رِجَالٍ ضَاعَ قَبْلِي جَمِيلُهَا

(١) كذا . وفي ب : نقاة الغد .

لقد كنت أنا وياه في زهو بيتنا
وعدت كأني شارب من مدامة
أو مثل شمطامات مظنون كبدها
أتاها زمان السوء حتى تدوحت
كذلك أنا مما لحاني من الوجى
وأمرت قومي بالرحيل وبكروا
قمعدنا سبعة أيام محبوس نجعنا
نظل على حداب الثنايا نوازي
عناني بحجة ما غباني دليلها
من الخمر فهو ما قدر من يميلها
غريباً وهي مدوخه عن قبيلها
وهي بين عربا غافلا عن نزيلها
شاكي بكيد باديتها زعيلها
وقووا وشذاد الحوايا حميلها
والبدو ما ترفع عمود يقيها
يظل الجرى فوق النضا ونصيلها

وَمِنْ شِعْرِ سُلْطَانِ بْنِ مُظَفَّرٍ بْنِ يَحْيَى مِنَ الرُّوَادَةِ^(١) أَحَدِ بَطُونِ رِيَّاحٍ
وَأَهْلِ الرِّيَّاسَةِ فِيهِمْ ، يَقُولُهَا وَهُوَ مُعْتَقَلٌ بِالْمَهْدِيَّةِ فِي سِجْنِ الْأَمِيرِ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ
أَبِي خَفْصٍ أَوَّلِ مُلُوكِ أَفْرِيْقِيَّةٍ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ :

يقول وفي بوح الدجا بعد وهنة
يا من لقلب حالف الوجد والأسى
حجازية بدوية عربية
مولعة بالبدو لا تألف القرى
غيات ومشتاها بها كل شتوة
ومرباها عشب الأراضي من الحيا
تشوق شوق العين مما تداركت
وماذا بكت بالما وماذا تناحطت
كأن عروس البكر لاحت ثيابها
فلاة ودهنها واتساع ومنة
ومشروبها من مخض ألبان شولها
حرام على أجفان عيني منامها
وروح هيامي طال ما في سقامها
عداوية ولها بعيد مرامها
سوى عانك الوعسا يؤتي خيامها
ممحونة بيها وبها صحيح غرامها
يواتي من الخور الخلايا جسامها
عليها من السحب السواري عمامها
عيون غرار المزن عذبا حمامها
عليها ومن نور الأقاحي خزامها
ومرعى سوى ما في مراعي نعامها
غنيم ومن لحم الجوازي طعامها

(١) كذا . وفي نسخة ، الدواودة .

تَفَانَتْ عَنِ الْأَبْوَابِ وَالْمَوْقِفِ الَّذِي
سَقَى اللَّهُ ذَا الْوَاذِي الْمَشْجَرِ بِالْحَيَا
فَكَافَأَتْهَا بِالْوَدِّ مَنِي وَلِيْتَنِي
لِيَالِي أَقْوَاسِ الصَّبَا فِي سَوَاعِدِي
وَفَرَسِي عَدِيدٍ تَحْتَ سِرْجِي مَشَاقَّةَ
وَكَمْ مِنْ رَدَاحٍ أَسْهَرْتَنِي وَلَمْ أَرَى
وَكَمْ غَيْرَهَا مِنْ كَاعِبٍ مَرَجَحْنَةَ
وَصَفَقَتْ مِنْ وَجْدِي عَلَيْهَا طَرِيحَةَ
وَنَارٍ بِخَطْبِ الْوَجْدِ تَوْهَجَ فِي الْحِشَا
أَيَا مِنْ وَعْدَتِي الْوَعْدِ هَذَا إِلَى مَتَى
وَلَكِنْ رَأَيْتُ الشَّمْسَ تُكْسِفُ سَاعَةً
بَنُودٍ وَرَايَاتٍ مِنَ السَّعْدِ أَقْبَلَتْ
أَرَى فِي الْفَلَا بِالْعَيْنِ أَطْعَانَ عَزَوْتِي
بِجِرْعَا عِتَاقِ النَّوْقِ مِنْ فَوْقِ شَامِسٍ
إِلَى مَنْزِلٍ بِالْجَعْفَرِيَّةِ لِلَّوَى
وَنَلَقَى سِرَاةً مِنْ هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ
بِهِمْ تَضْرِبُ الْأَمْثَالَ شَرْقاً وَمَغْرِباً
عَلَيْهِمْ وَمَنْ هُوَ فِي حِمَاهُمْ تَحِيَّةَ
فَدَعَ ذَا وَلَا تَأْسَفُ عَلَى سَالِفِ مَضَى

يَشِيبُ الْفَتَى مِمَّا يِقَاسِي زَحَامَهَا
وَبَلَا وَيَحْيَى مَا بَلَى مِنْ رَمَامَهَا
ظَفَرَتْ بِأَيَّامِ مَضَتْ فِي رَكَامَهَا
إِذَا قَمْتُ لَمْ تَحْظَ مِنْ أَيْدِي سَهَامَهَا
زَمَانَ الصَّبَا سِرْجاً وَبِيْذِي لِحَامَهَا
مِنْ الْخَلْقِ أَهْبَى مِنْ نِظَامِ ابْتِسَامَهَا
مُطَرِّزَةَ الْأَجْفَانِ بَاهِي وَشَامَهَا
بِكْفَى وَلَمْ يَنْسَى جَدَاهَا ذِمَامَهَا
وَتَوْهَجَ لَا يَطْفَأُ مِنَ الْمَاءِ ضَرَامَهَا
فَنِي الْعَمْرِ فِي دَارِ عِمَانِي ظَلَامَهَا
وَيَغْمِي عَلَيْهَا ثَمَّ يَبْدَأُ غِيَامَهَا
إِلَيْنَا بَعُونِ اللَّهُ يَهْفُو عِلَامَهَا
وَرَمَحِي عَلَى كَتْفِي وَسِيرِي أَمَامَهَا
أَحِبْ بِلَادَ اللَّهِ عِنْدِي حِشَامَهَا
مَقِيمٌ بِهَا مَا لَدَى عِنْدِي مَقَامَهَا
يَزِيلُ الصَّدَا وَالْغُلَّ عَنِّي سَلَامَهَا
إِذَا قَاتَلُوا قَوْماً سَرِيعَ انْهَزَامَهَا
مَدَى الدَّهْرِ مَا غَنَى يَفِينَا حِمَامَهَا
فَذِي الدُّنْيَا مَا دَامَتْ لِأَحَدٍ دَوَامَهَا

وَمِنْ أَشْعَارِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ قَوْلُ خَالِدِ بْنِ حَمْزَةَ بْنِ عَمْرِ ، شَيْخِ الْكُعُوبِ ،
مِنْ أَوْلَادِ أَبِي اللَّيْلِ . يَغَاتِبُ أَقْتَالَهُمْ أَوْلَادَ مُهْلِلٍ وَيُحْيِي شَاعِرَهُمْ شَيْلِ بْنِ
مُسْكِانَةَ بْنِ مُهْلِلٍ ، عَنْ أُنْيَاتٍ فَخَرَ عَلَيْهِمْ فِيهَا بِقَوْمِهِ :

يقول وذا قول المصاب الذي نشأ قوارع قيعان يعاني صعابها

يريح بها حادي المصاب إذا سعى
محيرة مختارة من نشاها
مغربة عن ناقد في غصونها
وهيض بتذكاري لها يا ذوي الندى
اشبل جنينا من حباك طرائفا
فخرت ولم تقصر ولا أنت عادم
لقولك في أم المتين بن حمزة
أما تعلم أنه قامها بعد ما لقي
شهاباً من أهل الأمرياً شبل خارق
سواها طفاهها أضمرت بعد طففيه
واضمرت بعد الطفيتين أن صحت
وبان لوالي الأمر في ذا انشحابها
كما كان هو يطلب على ذا تجنبت
ومنها في العتاب :

وليدا تعاتبوا أنا أغنى لأنني
عليّ ونا ندفع بها كل مبضع
فإن كانت الأملاك بغت عرايس
ولا بعدها الارهاف وذبل
بني عمنا ما نرتضي الذل غلمه
وهي عالما بأن المنايا تنيلها
ومنها في وصف الطعائن :

قطعنا قطوع البيد لا نخشي العدا

فنونا من انشاد القوافي عذابها
تحدى بها تام الوشا ملتها بها
محكمة القيعان ذابي ودابها
قوارع من شبل وهذي جوابها
فراح يريح الموجعين الغنا بها
سوى قلت في جمهورها ما أعابها
وحامي حماها عادي في حرابها
رصاص بني يحيى وغلاق دابها
وهل ريت من جاللوغى واصطلى بها
وأثنى طفاهها جاسراً لا يهابها
لفاس إلى بيت الننى يقتدى بها
فصار وهي عن كبر الاسنة تهابها
رجال بني كعب الذي يتقى بها

غنيت بمعلق الثنا واغتصابها
بأسياف ننتاش العدا من رقابها
علينا بأطراف القنا اختضاها
وزرق كالسنة الحناش انسلابها
تسير السبايا والمطايا ركابها
بلا شك والدنيا سريع انقلابها

فتوق بحوبات مخوف جناها

ترى العين فيها قل لشبل عرائف
 ترى أهلها غبّ الصباح ان يفلها
 لها كل يوم في الأرامي قتائل
 وكل مهاة محتظيها ربابها
 بكل حلوب الجوف ما سدّ بابها
 ورا الفاجر المزوج عفو رضاها

وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ

وَطَلَبُكَ فِي الْمُنْعُوعِ مِنْكَ سَفَاهَةٌ
 إِذَا رَأَيْتَ أَنَا سَأَ يَغْلِقُوا عَنْكَ بَابَهُمْ
 وَصُدُّكَ عَنْ صَدِّ عَنْكَ صَوَابُ
 ظَهَرُ الْمَطَايَا يَفْتَحُ اللَّهُ بَابُ
 وَمِنْ قَوْلِ شَبْلٍ يَذْكُرُ انْتِسَابَ الْكُعُوبِ إِلَى بُرْجَمَ :

لشيب وشبان من أولاد برجم
 وَمِنْ قَوْلِ خَالِدٍ يَعْتَابُ إِخْوَانَهُ فِي مَوَالَةِ شَيْخِ الْمُؤَحِّدِينَ أَبِي مُحَمَّدٍ بَنِي
 تَأْفَرَاكِينَ الْمُسْتَبِدِّ بِحِجَابَةِ السُّلْطَانِ بَتُونِسَ عَلَى سُلْطَانِهَا مَكْفُولَةِ أَبِي اسْحَقَ ابْنِ
 السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى وَذَلِكَ فِيمَا قَرُبَ مِنْ غَضْرِنَا :

يقول بلا جهل فتى الجود خالد
 مقالة حبر ذات ذهن ولم يكن
 تهجست معنا نابها لا حاجة
 وكنت بها كبدي وهي نعم صابة
 تفوّهت بأدي شرحها عن مآرب
 بني كعب أدنى الأقربين لئدنا
 جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم
 وبعضهم ملنا له عن خصيمه
 وبعضهم مروهوب من بعض ملكنا
 وبعضهم وجانا جريحاً تسمحت
 مقالة قوال وقال صواب
 هرجاً ولا فيما يقول ذهاب
 ولا هرج ينقاد منه معاب
 حزينه فكر والحزين يصاب
 جرت من رجال في القبيل قراب
 بني عمّ منهم شايب وشباب
 مصافاة ودّ واتساع جناب
 كما يعلموا قولي يقينه صواب
 جزاعاً وفي جوّ الضمير كتاب
 خواطر منها للنزير وهاب

وبعضهمو نظار فينا بسوء
رجع ينتهي مما سفها قبيحه
وبعضهمو شاكي من أوغاد قادر
فصمناه عنه واقتضي منه مورد
ونحن على دافي المدى نطلب العلا
وحزنا حمى وطن بترشيش بعدما
ومهد من الأملاك ما كان خارجاً
بردع قروم من قروم قبيلنا
جرينا بهم عن كل تاليف في العدا
إلى أن عاد من لا كان فيهم بهمة
وركبوا السبايا الثمنات من أهلها
وساقوا المطايا يالشر لا نسوا له
وكسبوا من أصناف السعايا ذخائر
وعادوا نظير البرمكيين قبل ذا
وكانوا لنا درعاً لكل مهمة
وخلوا الدار في جنح للظلام ولا اتقوا
كسوا الحي جلباب البهيم لستره
كذلك منهم حانس ما دار النبا
يظن ظنوناً ليس نحن بأهلها
خطا هو ومن وإتاه في سو ظنه
فوا عزوتي ان الفتى بومحمد
وبرحت الأوغاد منه ويحسبوا
جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع

تقناه حتى ما عنا به سنا
مراراً وفي بعض المرار يهاب
غلق عنه في أحكام السقائف باب
على كره مولى البالقى ودياب
لهم ما حططنا للفجور نقاب
نفقنا عليها سبقا ورقاب
على أحكام والي أمرها له ناب
بني كعب لاواها الغريم وطاب
وقمنا لهم عن كل قيد مناب
ريبها وخيراته عليه نصاب
ولبسوا من أنواع الحرير ثياب
جماهير ما يغلو بها بجلاب
ضخام لحزات الزمان تصاب
والا هلالا في زمان دياب
إلى أن بان من نار العدو شهاب
ملامه ولا دار الكرام عتاب
وهم لو دروا لبسوا قبيح جباب
ذهل حلمي ان كان عقله غاب
تمنى يكن له في السماح شعاب
بالاثبات من ظن القبائح عاب
وهوب لآلاف بغير حساب
بروحه ما يحيى بروح سحاب
لقوا كل ما يستاملوه سراب

وهو لو عطى ما كان للرأي عارف
وان نحن ما نستاملوا عنه راحة
وان ما وطا ترشيش يضيّاق وسعها
وانه منها عن قريب مفاصل
وعن فائنات الطرف بيض غوانج
يتيه إذا تاهوا ويصبوا إذا صبوا
يضلوه عن عدم اليمين وربما
بهم حازله زمه وطوع أوامر
حرام على ابن تافركين ما مضى
وان كان له عقل رجيح وفطنة
وأما البدا لا بدّها من فياعل
ويحمي بها سوق علينا سلاعه
ويمسي غلام طالب ريح ملكنا
أيا واكلين الخبز تبغوا أدامه

ولا كان في قلة عطاء صواب
وانه باسها التلاف مصاب
عليه ويمشي بالفزوع لزاب
خنوج عناز هوالها وقباب
ربوا خلف استار وخلف حجاب
بحسن قوانين وصوت رباب
يطارح حتى ما كأنه شاب
ولنذة مأكول وطيب شراب
من الودّ إلا ما بدل بحراب
يلجج في اليم الغريق غراب
كبار إلى أن تبقى الرجال كباب
ويحمار موصوف القنا وجعاب
ندوما ولا يمسي صحيح بناب
غلطتوا أدمتوا في السموم لباب

وَمِنْ شِعْرِ عَلِيٍّ بْنِ عَمْرِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ رُؤَسَاءِ بَنِي غَامِرٍ لِهَذَا الْعَهْدِ أُخِذَ
بُطُونِ زُعْبَةَ يَعْتَبُ بَنِي عَمِّهِ الْمُتَطَاوِلِينَ إِلَى رِيَاسَتِهِ :

محبرة كالدرّ في يد صانع
أباحها منها فيه أسياب ما مضى
غدامنه لام الحيّ حيين وانشطت
ولكن ضميري يوم بان بهم إلينا
والا كأبراص التهامي قوادح
والا لكان القلب في يد قابض
لما قلت سما من شقا البين زارني

إذا كان في سلك الحرير نظام
وشاء تبارك والضعفون تسام
عصاها ولا صبتا عليه حكام
تبرّم على شوك القتاد برام
وبين عواج الكانفات ضرام
أتاهم بمنشار القطيع غشام
إذا كان ينادي بالفراق وخام

ألا يا ربوع كان بالأمس عامر
وغيد تداني للخطا في ملاعب
ونعم يشوف الناظرين التحامها
وعرود باسمها ليدعو لسربها
واليوم ما فيها سوى اليوم حولها
وقفنا بها طوراً طويلاً نسالها
وَلَا صَحَّ لِي مِنْهَا سِوَى وَحْشٍ خَاطِرِي
ومن بعد ذاتى لمنصور بو علي
وقولوا له يا بو الوفا كلح رأيكم
زواخر ما تنقاس بالعود إنما
ولا قستموا فيها قياسا يدلکم
وعانوا على هلكاتكم في ورودها
أيا عزوة ركبوا الضلالة ولا لهم
الا غناهمو لو ترى كيف زايهم
خلو القنا يبغون في مرقب العلا
وحق النبي والبيت وأركانہ العلی
لبرّ الليالي فيه ان طالت الحیا
ولا برّها تبقى البوادي عواكف
وكل مسافة كالسد إياه عابر
وكل كميت يكتعض عض نابہ
وتحمل بنا الأرض العقيمة مدة
بالأبطال والقود الهجان وبالقنا
أتجحدني وأنا عقيد نقودها

بيحيى وحله والقطين لمام
دجى الليل فيهم ساهر ونيام
لنا ما بدا من مهرق وكظام
واطلاق من شرب لها ونعام
ينوح على اطلال لها وخيام
بعين سخينا والدموع سجام
وَسَقَمِي مِنْ أَسْبَابِ إِنْ عَرَفْتَ أَوْهَامِ
سلام ومن بعد السلام سلام
دخلتم بحور غامقات دهام
لها سيلات على الفضا وأكام
وليس البحور الطاميات تعام
من الناس عدمان العقول لئام
قرار ولا دنيا لهن دوام
مثل سراب فلاه ما لهن تمام
مواضع ما هيا لهم بمقام
ومن زارها في كل دهر وعام
يذوقون من خمط الكساع مدام
بكل رديني مطرب وحسام
عليها من أولاد الكرام غلام
يظل يصارع في العنان لجام
وتولدنا من كل ضيق كظام
لها وقت وجنات البدور زحام
وفي سن رمحي للحروب علام

ونحن كأضراس المواقف بنجعكم
متى كان يوم القحط يا ميرأبو علي
كذلك بوحمو إلى اليسر ابعته
وخل رجالاً لا يرى الضيم جارهم
ألا يقيموها وعقد بؤسهم
وكم ثار طعنها على البدو سابق
فتى ثار قطار الصوى يومنا على
وكم ذا يجيئوا أثرها من غنيمة
وإن جاء خافوه الملوك ووسعوا
عليكم سلام الله من لسن فاهم

حتى يقاضوا من ديون غرام
يلقى سعايا صايرين قدام
وخل الجياد العاليات تسام
ولا يجمعوا بدهى العدو زفام
وهم عذر عنه دائماً ودوام
ما بين صحاصيح وما بين حسام
لنا أرض ترك الظاعنين زمام
حليف الثنا قشاع كل غيام
غدا طبعه يجدى عليه قيام
ما غنت الورقا وناح حمام

وَمِنْ شِعْرِ عَرَبٍ نَمْرٍ بِنَوَاحِي حُورَانَ لِامْرَأَةٍ قُتِلَ زَوْجُهَا فَبَعَثَتْ إِلَى أَخْلَافِهِ مِنْ
قَيْسٍ تُغْرِيهُمْ بِطَلَبِ ثَأْرِهِ تَقُولُ :

تقول فتاة الحي أم سلامه
تببت بطول الليل ما تألف الكرى
على ما جرى في دارها وبو غيالها
فقدنا شهاب الدين يا قيس كلكم
أنا قلت إذا ورد الكتاب يسرني
أيا حين تسريح الذوائب واللقى

بعين أراع الله من لا رثى لها
موجعة كان الشقا في مجالها
بلحظة عين البين غير حالها
ونمتوا عن أخذ الثار ماذا مقالها
ويبرد من نيران قلبي ذبالها
وبيض العذارى ما حميتو جمالها



(الموشحات والأزجال للأندلس)

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا كَثُرَ الشَّعْرُ فِي قُطْرِهِمْ وَتَهَذَّبَتْ مَنَاجِيهِ وَفُتُونُهُ وَبَلَغَ التَّنْمِيقُ فِيهِ الْغَايَةَ اسْتَحْدَثَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْهُمْ قَنَّا مِنْهُ سَمُوهُ بِالْمَوْشَحِ يَنْظُمُونَهُ أَسْمَاطًا أَسْمَاطًا وَأَغْصَانًا وَأَغْصَانًا يُكْثِرُونَ مِنْ أَعَارِضِهَا الْمُخْتَلِفَةِ . وَيَسْمُونَ الْمُتَعَدَّدَ مِنْهَا بَيْتًا وَاحِدًا وَيَلْتَزِمُونَ عِنْدَ قَوَافِي تِلْكَ الْأَغْصَانِ وَأَوْرَاقِهَا مُتَتَالِيًا فِيمَا بَعْدَ إِلَى آخِرِ الْقِطْعَةِ وَأَكْثَرَ مَا تَنْتَهِي عَنْدهُمْ إِلَى سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ . وَيَشْتَمِلُ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى أَغْصَانٍ عَدَدُهَا بِحَسَبِ الْأَغْراضِ وَالْمَذَاهِبِ وَيَنْسَبُونَ فِيهَا وَيَمْدَحُونَ كَمَا يُفْعَلُ فِي الْقَصَائِدِ . وَتَجَارَوْا فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَاسْتَظَرَفَهُ النَّاسُ جُمْلَةً الْخَاصَّةُ وَالْكَافَّةُ لِسُهُولَةِ تَنَاوُلِهِ وَقُرْبِ طَرِيقِهِ . وَكَانَ الْمُخْتَرَعُ لَهَا بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ مُقَدَّمُ بْنُ مُعَاوِرٍ الْقُرَيْرِيُّ ^(١) مِنْ شُعْرَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَانِيِّ . وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ كِتَابِ الْعَقِيدِ وَلَمْ يَظْهَرْ لهُمَا مَعَ الْمُتَأَخِّرِينَ ذِكْرٌ وَكَسَدَتْ مَوْشَحَاتُهُمَا . فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بَرَعَ فِي هَذَا الشَّانِ عِبَادَةُ الْقُرَازِ شَاعِرُ الْمُعْتَصِمِ ابْنِ صَمَاحٍ الْمِزْيَةِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَكْرٍ بْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ : كُلُّ الْوُشَاحِينَ عِيَالٌ عَلَى عِبَادَةِ الْقُرَازِ فِيمَا اتَّفَقَ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ :

بَذَرْتُ . شَمْسُ ضَحَا غُضُنْ نَقَا . مِسْكُ شَم
مَا أَتَمَّ . مَا أَوْضَحَا مَا أَوْزَقَا . مَا أَنَمَّ
لَا جَرَمَ . مَنْ لَمَحَا قَدْ عَشَقَا . قَدْ حُرِمَ

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ وَشَاحَّ مِنْ مُعَاصِرِيهِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ الطُّوَائِفِ . وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَائِخِ أَنَّ أَهْلَ هَذَا الشَّانِ بِالْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ

(١) وفي نسخة أخرى : القبريري .

(٢) الضمير يعود إلى عبادة .

جَمَاعَةٌ مِنَ الْوُشَاحِينَ اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ بِأَشْبِيلِيَّةٍ وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ اضْطَنَعَ
مَوْشَحَةً وَتَأَنَّقَ فِيهَا فَتَقَدَّمَ الْأَعْمَى الطَّلِيْطِيُّ لِلْإِنْشَادِ فَلَمَّا افْتَتَحَ مَوْشَحَتَهُ الْمَشْهُورَةَ
بِقَوْلِهِ ،

صَاحِكَ عَنْ جُمَانٍ . سَافِرٌ عَنْ دُرٍّ^(١) ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانُ . وَحَوَاهُ صَدْرِي

صَرَفَ^(٢) ابْنُ بَقِيٍّ مَوْشَحَتَهُ وَتَبِعَهُ الْبَاقُونَ . وَذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلَيْوسِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ
ابْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ : مَا خَسَدْتُ قَطُّ وَشَاحًا عَلَى قَوْلِ إِلَّا ابْنُ بَقِيٍّ حِينَ وَقَعَ لَهُ ،

أَمَا تَرَى أَحْمَدَ . فِي مَجْدِهِ الْعَالِي لَا يُلْحَقُ أَطْلَعَهُ الْغَرْبُ . فَأَرَانَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقُ

وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا مِنَ الْمَوْشَحِينَ الْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ الْأَبْيَضُ . وَكَانَ فِي
عَصْرِهِمَا أَيْضًا الْحَكِيمُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ بَاجَةَ صَاحِبُ التَّلَاحِينَ الْمَعْرُوفَةِ وَمِنْ
الْحِكَايَاتِ الْمَشْهُورَةِ أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَ مَخْدُومِهِ ابْنِ تَيْفَلُوَيْتِ صَاحِبِ سِرْقَسْطَةَ
فَالْقَى عَلَى بَعْضِ قَيْنَاتِهِ مَوْشَحَتَهُ الَّتِي أَوْلَاهَا ،

جَرَّرَ الذَّيْلَ أَيْمًا جَرَّ وَصَلَ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ
فَطَرِبَ الْمَمْدُوحُ لِذَلِكَ لَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ ،

عَقَدَ اللَّهُ رَايَةَ النُّصْرِ لِأَمِيرِ الْعَلَاءِ أَبِي بَكْرٍ

فَلَمَّا طَرَقَ ذَلِكَ التَّلَحُّينُ سَمِعَ ابْنُ تَيْفَلُوَيْتِ صَاحٍ ، وَاطْرَبَاهُ ، وَشَقَّ ثِيَابَهُ
وَقَالَ ، مَا أَحْسَنَ مَا بَدَأْتَ وَخَتَمْتَ وَحَلَفَ بِالْإِيمَانِ الْمَغْلُظَةِ لَا يَمْشِي ابْنُ
بَاجَةَ إِلَى دَارِهِ إِلَّا عَلَى الذَّهَبِ . فَخَافَ الْحَكِيمُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ فَاحْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ ذَهَبًا
فِي نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ . وَذَكَرَ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ زُهَيْرٍ أَنَّهُ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي
بَكْرٍ بْنِ زُهَيْرٍ ذَكَرَ أَبِي بَكْرٍ الْأَبْيَضُ الْوُشَاحَ الْمُتَقَدِّمَ الذِّكْرَ فَقَصَّ مِنْهُ بَعْضَ
الْحَاضِرِينَ فَقَالَ كَيْفَ تَقْصُ مِنْ مَنْ يَقُولُ :

(١) وفي نسخة أخرى : بدر .

(٢) وفي نسخة أخرى : حرق .

مَا لَذَلِي شَرَابُ رَاحٍ « عَلَى رِيَاضِ الْأَقَا ح
أَوْ فِي الْأَصِيلِ » أَضْحَى يَقُولُ :
وَلِلشَّمَالِ « هَبَّتْ فَمَا لَ
مِمَّا أَبَادَ الْقُلُوبَا » يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيبَا
بَرْدُ غَلِيلٍ « صَبَّ عَلِيلٍ
وَلَا يَزَالُ » فِي كُلِّ خَالٍ

لَوْلَا هَضِيمُ الْوَشَاحِ « إِذَا أَسَا ^(١) فِي الصَّبَاحِ
مَا لِلشَّمُولِ « لَطَمَتْ خَدَيَّ ؟
غُصْنُ اغْتِدَالٍ « صَمَّةُ بُرْدِي
يَا لَحْظُهُ رُدُّ نُوبَا « وَيَا لَمَاءَ الشَّيْبَا
لَا يَسْتَحِيلُ « فِيهِ عَنْ عَهْدِي
يَرْجُو الْوَصَالَ « وَهُوَ فِي الصَّدِّ

وَاشْتَهَرَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ فِي صَدْرِ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ
شَرْفٍ . قَالَ الْحَسَنُ بْنُ دَوَيْدَةَ : رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى هَذَا الْإِفْتِتَاحِ :

شَمْسٌ قَارَبَتْ بَدْرًا رَاحٌ وَنُودِيمٌ
وَابْنُ بَهْرُودَسِ الَّذِي لَهُ :

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ وَالسَّعُودِ بِاللَّهِ عَوْدِي
وَابْنُ مُؤَهِّلِ الَّذِي لَهُ :

مَا الْبَعِيدُ فِي حُلَّةٍ وَطَاقٍ . وَشَمٌّ وَطِيبٌ . وَإِنَّمَا الْبَعِيدُ فِي التَّلَاقِي : مَعَ الْحَبِيبِ .

وَأَبُو إِسْحَاقَ الرُّومِيُّ ^(٢) قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ : سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ
يَقُولُ : إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى ابْنِ زُهَيْرٍ ^(٣) وَقَدْ أَسَنَّ وَعَلَيْهِ زِيُّ الْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِحُصْنِ
سَبْتَةَ ، فَلَمْ يَعْرِفْهُ فَجَلَسَ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ . وَجَرَّتِ الْمُحَاضَرَةُ فَأَنْشَدَ لِنَفْسِهِ
مَوْشَحَةً وَقَعَ فِيهَا :

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِي « مِنْ مُقْلَةٍ الْفَجْرِ « عَلَى الصَّبَاحِ
وَمِغْصَمُ النَّهْرِ « فِي حُلٍّ خُضْرِ « مِنْ الْبَطَاحِ

(١) وفي نسخة أخرى : إِذْ أُنَى . وفي نسخة ثانية إِذَا انشَأَ .

(٢) وفي نسخة أخرى : الرديني .

(٣) وفي نسخة أخرى : ابن زهر .

(٤) وفي نسخة أخرى : حصن أُنْتَبِهَ .

فَتَحَرَّكَ ابْنُ زُهَيْرٍ وَقَالَ أَنْتَ تَقُولُ هَذَا ؟ قَالَ ، اخْتَبِرْ ! قَالَ ، وَمَنْ تَكُونُ ؟
 فَعَرَفَهُ ، فَقَالَ ، ارْتَفَعَ فَوَاللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ ، قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ الْحَلْبَةِ الَّذِي أَدْرَكَ
 هَؤُلَاءِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ زُهَيْرٍ وَقَدْ شَرَقَتْ مَوْشِحَاتُهُ وَغَرَبَتْ ، قَالَ ، وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ
 سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قِيلَ لِابْنِ زُهَيْرٍ لَوْ قِيلَ لَكَ مَا أَبْدَعَ وَأَرْفَعَ مَا وَقَعَ لَكَ فِي
 التَّوْشِيحِ قَالَ كُنْتُ أَقُولُ ،

مَا لِلْمَوْلَى مِنْ سَكْرِهِ لَا يُفِيقُ . يَا لَهُ سَكَرَانِ . مِنْ غَيْرِ خَمَرٍ . مَا لِلْكُتَيْبِ الْمَشُوقِ .
 يَنْدُبُ الْأَوْطَانَ .

هل تستعاذ . أيامنا بالخليج . وليالينا
 أو نستفاد . من النسيم الأريج . منك دارينا
 أو هل يكاذ . حسن المكان البهيج . أن يحيينا ؟
 روض أطله . دوح عليه أنيق . موزق الأفنان . والماء يجري . وعائمه وغريق .
 من جنى الرئحان .

وَاشْتَهَرَ بَعْدَهُ ابْنُ حَيُّونَ الَّذِي لَهُ مِنَ الرَّجُلِ الْمَشْهُورِ قَوْلُهُ ،
 يُفَوِّقُ سَهْمَهُ كُلَّ حِينٍ بِمَا شِئْتَ مِنْ يَدٍ وَعَيْنٍ
 وَيُنْشِدُ فِي الْقَصِيدِ :
 خُلِقْتَ مَلِيحٌ عَلِمْتَ رَامِي فَلَئْسَ تَخْلَ سَاعٍ مِنْ قِتَالٍ
 وَتَعْمَلُ بِذِي الْعَيْنَيْنِ مَتَاعِي مَا تَعْمَلُ يَدِي بِالْبِئَالِ
 وَاشْتَهَرَ مَعَهُمَا يَوْمَئِذٍ بِعَرْنَاطَةِ الْمَهْرُ بْنُ الْفَرَسِ ، قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ ، وَلَمَّا سَمِعَ
 ابْنُ زُهَيْرٍ قَوْلَهُ ،

لِلَّهِ مَا كَانَ مِنْ يَوْمٍ بَهِيحٍ بَنَهْرٍ حِمَصَ عَلَى تِلْكَ الْمُرُوجِ
 ثُمَّ انْعَطَفْنَا عَلَى قَمِّ الْخَلِيجِ نَقَضُ فِي حَانِهِ مِنْكَ الْخِتَامِ

عَنْ عُسْجِدَ زَانَهُ صَافِي الْمَدَامِ وَرِثَاءِ الْأَصِيلِ ضَمُّهُ كَفَ الظَّلَامِ
 قَالَ ابْنُ زُهَيْرٍ: أَيْنَ كُنَّا نَحْنُ عَنْ هَذَا الرِّثَاءِ وَكَانَ مَعَهُ فِي بَلَدِهِ مَطَرٌ . أَخْبَرَ
 ابْنَ سَعِيدٍ عَنْ وَالِدِهِ أَنَّ مَطَرًا هَذَا دَخَلَ عَلَى ابْنِ الْفَرَسِ فَقَامَ لَهُ وَأَكْرَمَهُ . فَقَالَ :
 لَا تَفْعَلْ ! فَقَالَ ابْنُ الْفَرَسِ : كَيْفَ لَا أَقُومُ لِمَنْ يَقُولُ :

قُلُوبٌ تُصَابُ بِالْحَاطِظِ تُصِيبُ فَقُلْ كَيْفَ تَبْقَى بِلاَ وَجِدِ
 وَبَعْدَ هَذَا ابْنُ حَزْمُونَ بِمَرْسِيَّةَ . ذَكَرَ ابْنُ الرَّائِسِ أَنَّ يَحْيَى الْخَزْرَجِيَّ دَخَلَ
 عَلَيْهِ فِي مَجْلِسِهِ فَأَنشَدَهُ مَوْشَحَةً لِنَفْسِهِ فَقَالَ لَهُ ابْنُ حَزْمُونَ : لَا يَكُونُ الْمَوْشَحُ
 بِمَوْشَحٍ حَتَّى يَكُونَ عَارِيًا عَنِ التَّكْلِيفِ . قَالَ عَلَى مِثْلِ مَاذَا ؟ قَالَ عَلَى مِثْلِ قَوْلِي :

يَا هَاجِرِي هَلْ إِلَى الْوَصَالِ مِنْكَ سَبِيلُ
 أَوْ هَلْ تَرَى عَنْ هَوَاكِ سَالِي قَلْبُ الْعَلِيلِ

وَأَبُو الْحَسَنِ سَهْلُ بْنُ مَالِكٍ يَغْرِنَاطَةَ . قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ كَانَ وَالِدِي يَعْجَبُ
 بِقَوْلِهِ :

إِنَّ سَيْلَ الصَّبَاحِ فِي الشَّرْقِ عَادَ بَخْرًا فِي أَجْمَعِ الْأَفْقِ
 فَتَدَاعَتْ نَوَادِبُ الْوَرَقِ

أَتَرَاهَا خَافَتْ مِنَ الْغَرَقِ فَبَكَتْ سَحْرَةً عَلَى الْوَرَقِ
 وَاشْتَهَرَ بِأَشْبِيلِيَّةَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْفَضْلِ ، قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ عَنْ
 وَالِدِهِ ، سَمِعْتُ سَهْلَ ابْنَ مَالِكٍ يَقُولُ لَهُ : يَا ابْنَ الْفَضْلِ لَكَ عَلَى الْوُشَاحِينَ الْفَضْلُ
 بِقَوْلِكَ :

وَاحْشَرْنَا لِرِزْمَانَ مَضَى عَشِيَّةً بِأَنَّ الْهَوَى وَانْقَضَى
 وَأَفْرَدْتُ بِالرَّغْمِ لَا بِالرَّضَى وَبِتُّ عَلَى جَمْرَاتِ الْفَضَى
 أَغَانِقُ بِالْفِكْرِ تِلْكَ الطُّلُولِ وَالْتَمُّ بِالْوَهْمِ تِلْكَ الرُّسُومِ

قَالَ وَسَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنَ الصَّابُونِيِّ يُنْشِدُ الْأَسْتَادَ أَبَا الْحَسَنِ الدَّبَّاجَ
مَوْشَحَاتِهِ غَيْرَ مَا مَرَّةً ، فَمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لَهُ اللَّهُ دَرَكٌ ، إِلَّا فِي قَوْلِهِ :

قَسَمًا بِالْهَوَى لِيَذِي جِحْرِ مَا لِلَّيْلِ الْمَشُوقِ مِنْ فَجْرِ
جَمَدِ الصُّبْحِ لَيْسَ يُطْرَدُ مَا لِلَّيْلِ فِيمَا أَظُنُّ غَدُ إِضْحَ يَا لَيْلُ إِنَّكَ الْأَبَدُ
أَوْ قَفَصَتْ قَوَادِمُ النَّسْرِ فَتُجُومُ السَّمَاءَ لَا تُشْرِي
وَمِنْ مَخَاسِنِ مَوْشَحَاتِ ابْنِ الصَّابُونِيِّ قَوْلُهُ :

مَا حَالُ صَبٍّ ذِي ضَنْىٍ وَاكْتِنَابِ أَمْرَضُهُ يَا وَيْلَتَاهُ الطَّيِّبِ
عَامِلُهُ مَحْبُوبُهُ بِاجْتِنَابِ ثُمَّ اقْتَدَى فِيهِ الْكَرَى بِالْحَبِيبِ
جَفَا جُفُونِي النَّوْمُ لَكِنِّي لَمْ أَبْكِهِ إِلَّا لَفَقْدِ الْخِيَالِ
وَذَا الْوِصَالِ الْيَوْمَ قَدْ غَرَّنِي مِنْهُ كَمَا شَاءَ وَشَاءَ الْوِصَالِ
فَلَسْتُ بِاللَّائِمِ مِنْ صَدْنِي بِصُورَةِ الْحَقِّ وَلَا بِالْمُحَالِ

وَاشْتَهَرَ بِبَرِّ أَهْلِ الْعُدُوَّةِ ابْنُ خَلْفِ الْجَزَائِرِيِّ صَاحِبُ الْمَوْشَحَةِ الْمَشْهُورَةِ :
يَدُ الْإِصْبَاحِ قَدَحَتْ زَنَادَ الْأَنْوَارِ فِي مَجَازِ الزَّهْرِ
وَابْنُ خَزَرِ الْجَائِي وَلَهُ مِنْ مَوْشَحَةٍ :

تَغَرُّ الزَّمَانِ مُوَافِقُ حَبَاكَ مِنْهُ بِائْتِسَامِ
وَمِنْ مَخَاسِنِ الْمَوْشَحَاتِ لِلْمُتَأَخِّرِينَ مَوْشَحَةُ ابْنِ سَهْلٍ شَاعِرِ أَشْبِيلِيَّةٍ وَسَبْتَةِ
مِنْ بَعْدِهَا فَمِنْهَا قَوْلُهُ :

هَلْ دَرَى ظَنِّي الْجَمَى أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهْ عَنْ مَكْنَسِ
فَهْوٍ فِي نَارٍ وَخَفَقِ مِثْلَ مَا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ
وَقَدْ نَسَجَ عَلَى مَنَوَالِهِ فِيهَا صَاحِبُنَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ الْخَطِيبِ شَاعِرُ
الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ لِعَضْرِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فَقَالَ :

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى
لَمْ يَكُنْ وَصْلَكَ إِلَّا خُلَمَا
إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمَنَى
زَمْرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثَنَا
وَالْحَيَا قَدْ جَلَّلَ الرُّوضَ سَنَى
وَرَوَى النِّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ
فَكَسَاهُ الْحُسْنُ ثَوْبًا مُعْلَمًا
فِي لَيَالٍ كَتَمْتَ سِرَّ الْهَوَى
مَالَ نَجْمِ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى
وَطَرٌ مَا فِيهِ مِنْ غَيْبٍ سِوَى
حِينَ لَذَّ النَّوْمُ مِنَّا^(١) أَوْ كَمَا
غَارَتْ الشُّهُبُ بِنَا أَوْ رُبَّمَا
أَيُّ شَيْءٍ لَأَمْرِيءٍ قَدْ خَلَصَا
تَنْهَبُ الْأَزْهَارُ فِيهِ الْفُرَصَا
فَإِذَا الْمَاءُ يُنَاجِي وَالْخَصَا
تُبْصِرُ الْوَرْدَ غَيُورًا بَرَمًا
وَتَرَى الْأَسَّ لَبِيًّا فَمَا
يَا أَهْيَلُ الْحَيِّ مِنْ وَادِي الْغَضَا
ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْفَضَا

يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلَسِ
فِي الْكَرَى أَوْ خَلْسَةِ الْمُخْتَلَسِ
يَنْقُلُ الْخَطُوعَ عَلَى مَا يَرْسِمُ
مِثْلَ مَا يَدْعُو الْوُفُودُ^(٢) الْمَوْسِمُ
فَتُغَوَّرُ الزَّهْرُ^(٣) فِيهِ تَبْسِمُ
كَيْفَ يَرَوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسٍ ؟
يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسِ
بِالدُّجَى لَوْلَا شُمُوسُ الْغُرَرِ^(٤)
مُسْتَقِيمِ السَّيْرِ سَعْدِ الْأَثَرِ
أَنَّهُ مَرَّ كَلْمَجِ الْبَصْرِ
هَجَمَ الصُّبْحُ هُجُومًا^(٥) الْحَرَسِ
أَثَرَتْ فِينَا عُيُونُ النَّرْجِسِ
فَيَكُونُ الرُّوضُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ
أَمِنْتُ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهِ
وَحَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
يَسْرِقُ الدَّمْعَ بِأَذْنِي فَرَسِ
وَيَقْلِبِي مَسْكِنًا أَتَمَّ بِهِ
لَا أَبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ

(١) وفي نسخة أخرى : الحبيج .

(٢) وفي نسخة أخرى : الأزهار .

(٣) وفي نسخة أخرى : القدر .

(٤) وفي نسخة أخرى : شيئاً . نجوم .

فَأَعِيدُوا عَهْدَ أَنْسٍ قَدْ مَضَى
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَخِيُوا مُغْرَمًا
حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا
وَبَقَلْبِي مِنْكُمْ مُقْتَرِبٌ
قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ
قَدْ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَوْ مُذْنِبٌ
سَاحِرٌ^(٣) الْمُقْلَةَ مَعْسُولُ اللَّمَى
سَدَّدَ السَّهْمَ فَأَضْمَى إِذْ رَمَى
إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابِ الْأَمَلُ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَيْبٌ أَوَّلُ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمَثَّلُ
حَكَمَ اللَّحْظِ بِهَا فَاجْتَكَمَا
يُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا
مَا لِقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا
كَانَ فِي اللُّوحِ لَهُ مُكْتَتَبَا
جَلَبَ الِهَمُّ لَهُ وَالْوَصْبَا
لَاعِجٌ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرَمَا
لَمْ يَدْعُ مِنْ مُهْجَتِي إِلَّا الدِّمَا^(٦)

تَنْقِذُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ^(١)
يَتَلَاشَى نَفْسًا فِي نَفْسٍ
أَفْتَرَضُونَ خَرَابَ الْحَبْسِ^(٢)
بِأَحَادِيثِ الْمُنَى وَهُوَ يَعِيدُ
شَقْوَةَ الْمَغْرَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ
فِي هَوَاهُ يَبْنِ وَعْدٍ وَوَعِيدُ
جَالٌ فِي النَّفْسِ مَجَالُ النَّفْسِ
بِفَوَادِي نَبْلَةِ الْمُفْتَرَسِ^(٤)
وَفَوَادِ الصَّبِّ بِالشُّوقِ يَذُوبُ
لَيْسَ فِي الْحُبِّ لِمَحْبُوبٍ ذُنُوبُ
فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَاهَا وَقُلُوبُ
لَمْ يَرِاقِبْ^(٥) فِي ضِعَافِ الْأَنْفُسِ
وَيَجَازِي الْبِرَّ مِنْهَا وَالْمُسِي
عَادَهُ عَيْدٌ مِنَ الشُّوقِ جَدِيدُ
قَوْلُهُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدُ
فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جُهْدٍ جَهِيدُ
فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَبْسِ
كَبْقَاءِ الصُّبْحِ بَعْدَ الْغُلَسِ

(١) وفي نسخة أخرى : تنقذوا عانذك . . الخ وفي النسخة الباريسية : تمتقوا عانيك من كربه .

(٢) وفي النسخة الباريسية : افترضون عفاء الحبس .

(٣) وفي نسخة أخرى : احور القله .

(٤) وفي نسخة أخرى : سد السهم وسمى ورمى ففوادي نبهة المفترس

(٥) لم يراقب ، أي لم يحاذر الله .

(٦) وفي نسخة أخرى : ذما والذماء ، بقية الروح

سَلَمِي يَا نَفْسَ فِي حُكْمِ الْقَضَا وَاعْبُرِي الْوَقْتَ بِرُجْعِي وَمَتَابِ
وَأَتْرُكِي^(١) ذِكْرِي زَمَانَ قَدْ مَضَى بَيْنَ عُتْبَى قَدْ تَقَضَّتْ وَعَتَابِ
وَاصْرِفِي الْقَوْلَ إِلَى الْمَوْلَى الرَّضَى مَلِهِمُ التَّوْفِيقَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
الْكَرِيمِ الْمُتَنَهَى وَالْمُنْتَهَى أَسَدِ السَّرْجِ وَبَذْرِ الْمَجْلِسِ
يَنْزِلُ النُّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا يَنْزِلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدْسِ

وَأَمَّا الْمَشَارِقَةُ فَالْتَّكَلَّفُ ظَاهِرٌ عَلَى مَا عَانُوهُ مِنَ الْمُوشَّحَاتِ . وَمِنْ أَحْسَنِ
مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مُوشَّحَةُ ابْنِ سِنَاءِ الْمَلِكِ الَّتِي اشْتَهَرَتْ شَرْقًا وَغَرْبًا وَأَوَّلُهَا :

حَبِيبِي أَرْفَعِ حِجَابَ النُّورِ عَنْ الْعَذَارِ
تَنْظُرُ الْمَسْكَ عَلَى كَافُورٍ فِي جَلَنَارِ
كَلَّلِي يَا سُخْبَ تَيْجَانِ الرَّبِّي بِالْحَلَى وَاجْعَلِي
سَوَارَهَا مَنْعُطَ الْجَدُولِ

وَلَمَّا شَاعَ فُنُ التَّوْشِيحِ فِي أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَخَذَ بِهِ الْجُمْهُورُ ، لِسَلَاْسِيَّتِهِ وَتَنْمِيقِ
كَلَامِهِ وَتَرْصِيعِ أَجْزَائِهِ ، نَسَجَتِ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْأُمَصَارِ عَلَى مَنَوَالِهِ ، وَنَظَّمُوا فِي
طَرِيقَتِهِ بَلَّغَتِهِمُ الْحَضَرِيَّةُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْتَزِمُوا فِيهَا إِغْرَابًا . وَاسْتَحْدَثُوا فَنَاءَ سَمُوهُ
بِالزَّجَلِ ، وَالتَّزَمُوا النِّظْمَ فِيهِ عَلَى مَنَاحِيهِمْ . لِهَذَا الْعَهْدِ ، فَجَاءُوا فِيهِ بِالْفَرَائِبِ
وَاتَّسَعَ فِيهِ لِلْبَلَاغَةِ مَجَالٌ بِحَسَبِ لُغَتِهِمُ الْمُسْتَعْجَمَةِ .

وَأَوَّلُ مَنْ أَبْدَعَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ . الزَّجَلِيَّةُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ قَزْمَانَ ، وَإِنْ كَانَتْ
قِيلَتْ قَبْلَهُ بِالْأَنْدَلُسِ ، لَكِنْ لَمْ يَظْهَرْ حَلَاها ، وَلَا انْسَبَكَتْ مَعَانِيها وَاشْتَهَرَتْ
رِشَاقَتُها إِلَّا فِي زَمَانِهِ . وَكَانَ لِعَهْدِ الْمُلْكَمِينِ ، وَهُوَ إِمَامُ الزَّجَالِينِ عَلَى الْإِطْلَاقِ .
قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ ، وَرَأَيْتُ أَرْجَالَه مَرْبُوءَةً بِبَغْدَادَ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُهَا بِحَوَاضِرِ الْمَغْرِبِ .
قَالَ ، وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ بْنَ جُحْدَرِ الْأَشْبِيلِيِّ ، إِمَامَ الزَّجَالِينِ فِي عَصْرِنَا يَقُولُ :

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى ، وَدَعِي .

مَا وَقَعَ لِأَحَدٍ مِنْ أُنْمَةِ هَذَا الشَّانِ مِثْلَ مَا وَقَعَ لِابْنِ قَرْمَانَ شَيْخِ الصِّنَاعَةِ ، وَقَدْ خَرَجَ إِلَى مُنْتَرَهٍ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ ، فَجَلَسُوا تَحْتَ عَرِيشٍ وَأَمَامَهُمْ تَمَثَّلَ أَسَدٌ مِنْ رُخَامٍ يُصَبُّ الْمَاءُ مِنْ فِيهِ عَلَى صَفَائِحٍ مِنَ الْحَجَرِ مُتَدَرِّجَةً فَقَالَ :

وَعَرِيشٌ قَدْ قَامَ عَلَى دَكَانٍ	بِحَالِ رَوَاقٍ
وَأَسَدٌ قَدْ ابْتَلَعَ ثَعْبَانٍ	مِنْ غِلْظِ سَاقٍ
وَفَتَحَ فَمَهُ بِحَالِ إِنْسَانٍ	بِيهِ الْفِرَاقُ
وَانْطَلَقَ مِنْ ثَمَ عَلَى الصَّفَاحِ	وَأَلْقَى الصِّيَاحَ

وَكَانَ ابْنُ قَرْمَانَ ، مَعَ أَنَّهُ قُرْطُبِيُّ الدَّارِ ، كَثِيرًا مَا يَتَرَدَّدُ إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ وَنِيَّتَابِ نَهْرِهَا ، فَاتَّفَقَ أَنْ اجْتَمَعَ ذَاتَ يَوْمٍ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْلَامِ هَذَا الشَّانِ . وَقَدْ رَكِبُوا فِي النَّهْرِ لِلنُّزْهَةِ ، وَمَعَهُمْ غُلَامٌ جَمِيلُ الصُّورَةِ مِنْ سَرَوَاتِ أَهْلِ الْبَلَدِ وَبُيُوتِهِمْ . وَكَانُوا مُجْتَمِعِينَ فِي زُرْقٍ لِلصَّيْدِ ، فَتَنَظَّمُوا فِي وَصْفِ الْحَالِ ، وَبَدَأَ مِنْهُمْ عَيْسَى الْبَلِيدِيُّ فَقَالَ :

يَطْمَعُ بِالْخُلَاصِ قَلْبِي وَقَدْ فَاتُوا	وَقَدْ ضَمَنِي عَشَقُوا لَشَهْمَاتُوا
تَرَاهُ قَدْ حَصَلَ مَسْكِينٌ مَحَلَاتُوا	يَغْلُقُ وَكَذَاكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ صَابَاتُوا
تَوْحَشَ الْجَفُونَ الْكَحْلُ إِنْ غَابُوا	وَذِيكَ الْجَفُونَ الْكَحْلُ أَبْلَاتُوا

ثُمَّ قَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الزَّاهِرِ الْأَشْبِيلِيُّ :

نَشَبَ وَالْهَوَى مِنْ لَجٍ فِيهِ يَنْشَبُ	تَرَى آيَشَ دَعَاهُ يَشْقَى وَيَتَعَذَّبُ
مَعَ الْعَشَقِ قَامَ فِي بِالْوَانِ يَلْعَبُ	وَخَلَقَ كَثِيرٌ مِنْ ذَا اللَّعْبِ مَاتُوا

ثُمَّ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْمُقَرَّرِيُّ الدَّانِيُّ :

نَهَارٌ مَلِيحٌ يَعْجِبُنِ أَوْصَافُوا	شَرَابٌ وَمَلَا حٍ مِنْ حَوْلِي قَدْ طَافُوا
وَالْقَلْبَيْنِ يَقُولُ مِنْ فَوْقِ صَفْصَافُوا	وَالْبُورِيِّ أُخْرَى فَقَلَاتُوا

ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بِنِ مَرَّتَيْنِ :

الحق تريد حديث بقالي عاد
لسنا حيتان ذيك الذي يصطاد
في الواد النزيه والهوري والصيد
قلوب الورى هي في شبكاتو

ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بِنِ قَرَمَانِ :

إذا شمر كمامو يرميها
وليس مرادو أن يقع فيها
ترى البوري يرشق لذاك الجيها
إلا أن يقبل بدياتو
وَكَانَ فِي عَصْرِهِمْ بِشْرِقِ الْأَنْدَلُسِ مُخْلِفُ الْأَسْوَدَ ، وَلَهُ مَحَاسِنُ مِنَ الرِّجْلِ مِنْهَا
قَوْلُهُ :

قد كنت منشوب واختشيت النشب
حتى تنظر الخدَّ الشريق البهي
ورَدَّنِي ذَا الْعَشَقِ لِأَمْرٍ صَعِبَ
تنتهي في الخمر إلما تنتهي
يا طالب الكيميا في عيني هي
تنظر بها الفضة وترجع ذهب
وَجَاءَتْ بَعْدَهُمْ حَلْبَةٌ كَانَ سَابِقُهَا مَدْغَلِيسَ ، وَقَعَتْ لَهُ الْعَجَائِبُ فِي هَذِهِ
الطَّرِيقَةِ ، فَمِنْ قَوْلِهِ فِي رَجَلِهِ الْمَشْهُورِ :

وَرَدَّاذُ دَقٍ يَنْزِلُ
فَتَرَى الْوَاحِدَ يَفْضُضُ
وشعاع الشمس يضرب
وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر
وتريد تجي إلينا
والغصون ترقص وتطرب
ثم تستحي وتهرب

وَمِنْ مَحَاسِنِ أَرْجَالِهِ قَوْلُهُ :

لاح الضيا والنجوم حيارى
شربت ممزوج من قراعا
فقم بنا ننزع الكسل
أحلى هي عندي من العسل
يا من يلمني كما تقلد
قلدك الله بما تقول

يقول بان الذنوب تولد وأنه يفسد العقول
لارض الحجاز موريكن لك أرشد
مر أنت للحج والزيارا ودعني في الشرب منهمل
من ليس لو قدره ولا استطاع النية أبلغ من العمل
وظهر بعد هؤلاء بأشيلية ابن جحدر الذي فضل على الزجالين في فتح
ميورقة بالرجل الذي أوله هذا :

من عائد التوحيد بالسيف يحق أنا بري ممن يعاند الحق
قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه الممتع صاحب الرجل المشهور الذي
أوله :

يا ليتني ان رأيت حبيبي أقتل اذنو بالزسيلا
ليش أخذ عنق الغزيل وسرق فم الحجيلا
ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل ابن مالك إمام الأدب ، ثم من بعدهم
لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة
الإسلامية غير مدافع ، فمن محاسنه في هذه الطريقة :

امزج الأكواس واملاي تجدد ما خلق المال إلا أن يبدد
ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششتري منهم :

بين طلوع وبين نزول اختلطت الغزول
ومضى من ليم يكن وبقي من لم يزول

ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى :

البعد عنك يا بني أعظم مصايبي وحين حصل لي قربك سببت قاربي

وَكَانَ لِعَصْرِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْخَطِيبِ بِالْأَنْدَلُسِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَظِيمِ مِنْ أَهْلِ
وَادِي آشَ ، وَكَانَ إِمَامًا فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَلَهُ مِنْ زَجَلٍ يُعَارِضُ بِهِ مَذْغَلِيسَ فِي
قَوْلِهِ :

لاح الضياء والنجوم حيارى بقوله :

حل المجون يا أهل الشطارا	مذحلت الشمس في الحمل
تجددوا كل يوم خلاعا	لا تجعلوا بينها ثمل
إليها يتخلعوا في شنبيل	على خضورة ذاك النبات
وحل بغداد واجتياز النيل	أحسن عندي من ذيك الجهات
وطاقتها أصلح من أربعين ميل	ان مرت الريح عليه وجات
لم تلتق الغبار امارا	ولا بمقدار ما يكتحل
وكيف ولاش فيه موضع رقاعا	إلا ونسرح فيه النحل

وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ الزَّجَلِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ هِيَ فَنُ الْعَامَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ مِنَ الشَّعْرِ ، وَفِيهَا
نَظْمُهُمْ حَتَّى أَنَّهُمْ لَيَنْظُمُونَ بِهَا فِي سَائِرِ الْبُحُورِ الْخَمْسَةِ عَشَرَ ، لَكِنْ يُلَفَّتُهُمُ الْعَامِيَّةُ
وَيُسَمُّونَهُ الشَّعْرَ الزَّجَلِيَّ مِثْلَ قَوْلِ شَاعِرِهِمْ :

دهر لي نعشق جفونك وسنين	وأنت لا شفقة ولا قلب يلين
حتى ترى قلبي من أجلك كيف رج	صنعة السكة بين الحدادين
الدموع ترشرش والنار تلتهب	والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله النصارى للغزو	وأنت تغزو قلوب العاشقين

وَكَانَ مِنَ الْمُجَحِّدِينَ لِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمَائَةِ الْأَدِيبِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ
الْمُوشِي وَلَهُ فِيهَا قَصِيدَةٌ يَمْدَحُ فِيهَا السُّلْطَانَ ابْنَ الْأَحْمَرِ :

طل الصباح قم يا نديمي نشربو	ونضحكو من بعد ما نظربو
سبيكة الفجر أحكت شفق	في ميلق الليل فقم قلبو

ترى عيارها خالص أبيض نقى
فتتفق سكتوا عند البشر
فهو النهار يا صاحبي للمعاش
والليل أيضاً للقبل والعناق
جاد الزمان من بعدما كان بخيل
كما جرع مرو فما قد مضى
قال الرقيب يا أدبا إيش ذا
وتعجبوا عذالي من ذا الخبر
نعشق مليح الا رقيق الطباع
ليش يربح الحسن إلا شاعر أديب
أما الكاس فحرام نعم هو حرام
ويد الذي يحسن حسابه ولم
وأهل العقل والفكر والمجون
ظبي بهي فيها يطفى الجمر
غزال بهي ينظر قلوب الأسود
ثم يحييهم إذا ابتسم يضحكوا
فميم كالخاتم وثغر نقى
جوهر ومرجان أي عقد يا فلان
وشارب أخضر يزيد لاش يريد
يسبل دلال مثل جناح الغراب
على بدن أبيض بلون الحليب
وزوج هندات ما علمت قبلها
تحت العكاكن منها خصر رقيق

فضة هو لكتن الشفق ذهبو
نور الجفون من نورها يكسبو
عيش الغني فيه بالله ما أطيبو
على سرير الوصل يتقلبو
ولش ليفلت من يديه عقربو
يشرب بيننو وياكل طيبو
في الشرب والعشق ترى ننجبو
فقلت يا قوم من ذا تتعجبوا
علاش تكفروا بالله أو تكتبوا
يفض بكرو ويدع ثيبو
على الذي ما يدري كيف يشربو
يقدر يحسن الفاظ أن يجلها
يغفر ذنوبهم لهذا إن أذنبوا
وقلبي في جمر الغضى يلهبو
وبالوهم قبل النظر يذهبوا
ويفرحوا من بعدما يندبوا
خطيب الأمة للقبل يخطبو
قد صففه الناظم ولم يثقبو
من شبهه بالمسك قد عيبو
ليالي هجري منه يستغربوا
ما قطر راعي للغنم يحلبوا
ديك الصلايا ريت ما أصلبو
من رقتو يخفي إذا تطلبوا

أرق هو من ديني فيما تقول
أي دين بقالي معاك وأي عقل
تحمل ارداف ثقال كالرقيب
ان لم ينفس عدر أو ينقشع
يصير إليك المكان حين تجي
محاسنك مثل خصال الأمير
عماد الأمصار وفصيح العرب
بحمل العلم انفرد والعمل
ففي الصدور بالرمح ما أطعنه
من السماء يحسد في أربع صفات
الشمس نورو والقمر همتو
يركب جواد الجود ويطلق عنان
من خلعتو يلبس كل يوم بطيب
نعمتو تظهر على كل من يجيه
قد أظهر الحق وكان في حجاب
وقد بنى بالسر ركن التقى
تخاف حين تلقاه كما ترتجيه
يلقى الحروب ضاحكاً وهي عابسة
إذا جبد سيفه ما بين الردود
وهو سمي المصطفى والاله
تراه خليفة أمير المؤمنين
لذي الإمارة تخضع الرؤوس
ببيته بقى بدور الزمان

جديد عتبك حق ما أكذبو
من يتبعك من ذا وذا تسلبو
حين ينظر العاشق وحين يرقبو
في طرف ديسا والبشر تطلبو
وحين تغيب ترجع في عيني تبو
أو الرمل من هو الذي يحسبو
من فصاحة لفظه يتقربو
ومع بديع الشعر ما أكتبو
وفي الرقاب بالسيف ما أضربو
فمن يعدّ قلبي أو يحسبو
الغيث جودو والنجوم منصبو
الاغنيا والجند حين يركبوا
منه بنات المعالي تطيبوا
قاصد ووارد قط ما خيبوا
لاش يقدر الباطل بعدما يحجبو
من بعد ما كان الزمان خربو
فمع سماحة وجهو ما أسيبو
غلاب هو لا شي في الدنيا يغلبو
فليس شيء يغني من يضربو
للسلطنة اختار واستنخبو
يقود جيوشو ويزين موكبو
نعم وفي تقويل يديه يرغبو
يطلعوا في المجد ولا يغربوا

وفي المعالي والشرف يبعدوا وفي التواضع والحياء يقربوا
والله يقيهم ما دار الفلك وأشرق شمسهم ولاج كوكبو
وما يغني ذا القصيد في عروض يا شمس خدر ما لها مغربو

ثُمَّ اسْتَحْدَثَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ بِالْمَغْرِبِ فَنَأَى خَرَمِ الشَّعْرِ ، فِي أَغَارِضِ مُزْدَوِجَةٍ
وَشَحْ ، نَظَّمُوا فِيهِ بِلَغَتِهِمُ الْخَضْرِيَّةَ أَيْضاً وَسَمَّوْهُ عُرُوضَ الْبَلَدِ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ
بَدَأَهُ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ نَزَلَ بِقَاسٍ يُعْرَفُ بِأَبْنِ عُمَيْرٍ ، فَتَنَزَّاهُ قِطْعَةً
عَلَى رِيقَةِ الْمَوْشِجِ وَلَمْ يَخْرُجْ فِيهَا عَنْ مَذَاهِبِ الْإِغْرَابِ إِلَّا قَلِيلاً مَطْلَعَهَا ،

اني بشاطي النهر نوح الحمام
، السحر يمحو مداد الظلام
ت الرياض والطل فيها افتراق
مع النواخير ينهرق انهراق
الغصون خلخال على كل ساق
ب الندى تحرق جيوب الكمام
الصبا يطلى بمسك الغمام
الحمام بين الورق في القضيبي
تنوح مثل ذاك المستهام الغريب
ولكن بما أحمر وساقو خضيب
جلس بين الأغصان جلسة المستهام
وصار يشتكي ما في الفؤاد من غرام
قلت يا حمام احرمت عيني الهجوع
قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع
على فرخ طار لي لم يكن لورجوع
كذا هو الوفا وكذا هو الزمام

على الغصن في البستان قريب الصباح
وماء الندى يجري بشجر الاقحاح
كثير الجواهر في نحور الجوار
يحاكي ثعابين حلفت بالثمار
ودار الجميع بالروض دور السوار
ويحمل نسيم المسك عنها رياح
وجرّ النسيم ذيلو عليها وفاح
قد ابتلت ارياشو بقطر الندى
قد التف من توبو الجديد في ردا
ينظم سلوك جوهر ويتقلدا
جناحا توسد والتوى في جناح
منها ضمّ منقاره لصدره وصاح
أراك ما تزال تبكي بدمع سفوح
بلا دمع نبقي طول حياتي ننوح
ألفت البكا والحزن من عهد نوح
انظر جفون صارت بحال الجراح

وأنتم من بكى منكم إذا تم عام
قلت يا حمام لو خضت بحر الضنى
ولو كان بقلبك ما بقلبي أنا
اليوم تقاسي الهجر كم من سنا
ومما كسا جسمي النحول والسقام
لوجتني المنايا كان يموت في المقام
قال لي لو رقدت لاوراق الرياض
وتخضبت من دمعي وذاك البياض
أما طرف منقاري حديثو استفاض
يقول عناني ذا البكا والنواح
كنت تبكي وترثي لي بدمع هتون
ما كان يصير تحتك فروع الغصون
حتى لا سبيل جملة تراني العيون
أخفاني نحولي عن عيون اللواح
ومن مات بعد يا قوم لقد استراح
من خوفي عليه ودا النفوس للفؤاد
طوق العهد في عنقي ليوم التناد
باطراف البلد والجسم صار في الرماد

فَاسْتَحْسَنَهُ أَهْلُ فَاسٍ وَوَلَعُوا بِهِ وَنَظَّمُوا عَلَى طَرِيقَتِهِ . وَتَرَكُوا الإِغْرَابَ الَّذِي
لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ . وَكَثُرَ سَمَاعُهُ بَيْنَهُمْ وَاسْتَفْحَلَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَنَوْعُوهُ أَصْنَافاً إِلَى
الْمُزْدَوِجِ وَالْكَازِي وَالْمَلْعَبَةِ وَالْفَزْلِ . وَاخْتَلَفَتْ أَسْمَاؤُهَا بِاخْتِلَافِ اِزْدَوَاجِهَا
وَمَلَاخِظَاتِهِمْ فِيهَا . فَمِنْ الْمُزْدَوِجِ مَا قَالَهُ ابْنُ شِجَاعٍ مِنْ فَصُولِهِمْ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ
تَارَا ،

المال زينة الدنيا وعز النفوس
فها كل من هو كثير الفلوس
يكبر من كثر ماله ولو كان صغير
من ذا ينطبق صدري ومن ذا تغير
حتى يلتجي من هو في قومي كبير
لذا ينبغي يحزن على ذي العكوس
اللي صارت الاذئاب أمام الرؤوس
ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان
اللي صار فلان يصبح بو فلان
يبهي وجوها ليس هي باهيا
ولسوه الكلام والرتبة العاليا
ويصغر عزيز القوم اذ يفتقر
وكاد ينقع لولا الرجوع للقدر
لمن لا أصل عندو ولا لو خطر
ويصنع عليه ثوب فراش صافيا
وصار يستفيد الواد من الساقيا
ما يدروا على من يكثر واذ العتاب
ولو رأيت كيف يرد الجواب

عشنا والسلام حتى رأينا عيان
كبار النفوس جدًا ضعاف الاسوس
يروأنهم والناس يروههم تيسوس
أنفاس السلاطين في جلود الكلاب
هم ناحيا والمجد في ناحيا
وجوه البلد والعمدة الراسيا

وَمِنْ مَذَاهِبِهِمْ قَوْلُ ابْنِ شُجَاعٍ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ مَزْدُوجَاتِهِ :

تعب من تبع ذا الزمان
ما منهم مليح عاهد الا وخان
يهبوا على العشاق ويتمنعوا
وان واصلوا من حينهم يقطعوا
مليح كان هويتو وشت قلبي معو
ومهدت لو من وسط قلبي مكان
وهون عليك ما يعتريك من هوان
حكمتوا علي وارتضيت بو أمير
يرجع مثل در حولي بوجه الغدير
وتعلمت من ساعا بسبق الضمير
ويحتل في مطلو لوان كان
ويمشي بسوق كان ولو باصبهان

اهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان عاهدوا خانوا على كل حال
وصيرت من خذي لقدمو نعال
وقلت لقلبي اكرم لمن حل فيك
فلا بد من هول الهوى يعتريك
فلو كان يرى حالى اذا يبصرو
مرديه ويتعطس بحال انحرو
ويفهم مرادو قبل أن يذكرو
عصر في الربيع أو في الليالي يريك
وايش ما يقل يحتاج لو يجيك

حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهَا .

وَكَانَ مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ الْمُؤَدِّ بْنِ يَتْلِمَسَانَ ، وَكَانَ لِهُذِهِ الْعُصُورِ الْقَرْيَةِ مِنْ
فُحُولِهِمْ بَزْرَهُونَ مِنْ ضَوَاحِي مَكْنَسَةِ رَجُلٍ يُعْرَفُ بِالْكَفِيفِ ، أَبْدَعَ فِي مَذَاهِبِ
هَذَا الْفَنِّ . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا عُلِقَ لَهُ بِمَحْفُوظِي قَوْلِهِ فِي رِخْلَةِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ
وَبَنِي مَرَيْنَ إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ يَصِفُ هَزِيمَتَهُمْ بِالْقَيْرَوَانِ ، وَيُعْزِيهِمْ عَنْهَا وَيُؤْنِسُهُمْ بِمَا
وَقَعَ لغيرهم بعد أن عَيَّبَهُمْ عَلَى غَزَاتِهِمْ إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ فِي مَلْعَبَةٍ مِنْ فُنُونِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ

يَقُولُ فِي مُفْتَتِحِهَا ، وَهُوَ مِنْ أُبْدَعِ مَذَاهِبِ الْبَلَاغَةِ فِي الْأَشْعَارِ بِالْمَقْصِدِ فِي مَطْلَعِ
الْكَلَامِ وَافْتِتَاجِهِ وَيُسَمَّى بَرَاغَةَ الْإِسْتِهْلَالِ :

سبحان مالك خواطر الامرا ونواصيها في كل حين وزمان
ان طعنناه أعظم لنا نصرا وان عصيناه عاقب بكل هوان
إلى أن يَقُولَ فِي السَّوَالِ عَنْ جُيُوشِ الْمَغْرِبِ بَعْدَ التَّخْلُصِ :

كن مرعى قل ولا تكن راعى	فالراعى عن رعيته مسؤول
واستفتح بالصلاة على الداعي	للاسلام والرضا السني المكمول
على الخلفاء الراشدين والاتباع	واذكر بعدهم اذا تحب وقول
أحجاجا تخللوا الصحرا	ودّوا سرح البلاد مع السكان
عسكر فاس المنيرة الغرا	وين سارت بو عزائم السلطان
أحجاج بالنبي الذي زرم	وقطعتم لو كلاكل البيدا
عن جيش الغرب حين يسألکم	المتلوف في افريقيا السودا
ومن كان بالعطايا يزودکم	ويدع برية الحجاز رغدا
قام قل للسد صادف الجزرا	ويعجز شوط بعدما يخفان
ويزف كر دوم تهب في الغبرا	أي ما زاد غزالهم سبحان
لو كان ما بين تونس الغربا	وبلاد الغرب سدّ السكندر
مبنى من شرقها إلى غربا	طبقا بحدید أو ثانيا بصفر
لا بد الطير أن تجيب نبا	أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر
ما أعوصها من أمور وما شرا	لو تقرا كل يوم على الديوان
لجرت بالدم وانصدع حجرا	وهوت الخراب وخافت الغزلان
أدرلي بعقلك الفحاص	وتفكر لي بخاطرک جمعا
ان كان تعلم حمام ولا رقاص	عن السلطان شهر وقبله سبعا
تظهر عند الميمن القصاص	وعلامات تنشر على الصمعا

الا قوم عاريين فلا ستر
 ما يدروا كيف يصوروا كسرا
 امولاي أبو الحسن خطينا الباب
 فقنا كنا على الجريد والزاب
 ما بلغك من عمرفتي الخطاب
 ملك الشام والحجاز وتاج كسرى
 ردّ ولدت لو كره ذكرى
 هذا الفاروق مردي الاعوان
 وبقت حمى إلى زمن عثمان
 لمن دخلت غنائمها الديوان
 وافترق الناس على ثلاثة أمرا
 اذا كان ذا في مدة البرار
 وأصحاب الحضري مكناساتا
 تذكر في صحتها أبياتا
 ان مزين إذا تكف براياتا
 قد ذكرنا ما قال سيد الوزرا
 قال لي رأيت وأنا بذا أدري
 ويقول لك ما دهى المرينيا
 أراد المولى بموت ابن يحيى
 مجهولين لا مكان ولا امكان
 وكيف دخلوا مدينة القيروان
 قضية سيرنا إلى تونس
 واش لك في اعراب افريقيا القوبس
 الفاروق فاتح القرى المولس
 وفتح من افريقيا وكان
 ونقل فيها تفرق الاخوان
 صرح في افريقيا بذا التصريح
 وفتحها ابن الزبير عن تصحيح
 مات عثمان وانقلب علينا الريح
 وبقي ما هو للسكوت عنوان
 اش نعمل في أواخر الازمان
 وفي تاريخ كآنا وكيوانا
 شق وسطيح وابن مرانا
 لجدا وتونس قد سقط بنيانا
 عيسى بن الحسن الرفيع الشأن
 لكن إذا جاء القدر عميت الأعيان
 من خضرة فاس إلى عرب دياب
 سلطان تونس وصاحب الأبواب

ثُمَّ أَخَذَ فِي تَرْجِيلِ السُّلْطَانِ وَجَيْوشِهِ ، إِلَى آخِرِ رَحْلَتِهِ وَمُنْتَهَى أَمْرِهِ . مَعَ
 أَغْرَابِ إِفْرِيقِيَّةٍ ، وَأَتَى فِيهَا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ مِنَ الْإِبْدَاعِ . وَأَمَّا أَهْلُ تُونِسَ فَاسْتَحْذَتْهُ
 فَنَ الْمُلْعَبَةِ أَيْضاً عَلَى لُغَتِهِمُ الْحَضَرِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَهُ رَدِيءٌ وَلَمْ يَغْلُقْ بِمَخْفُوظِي
 مِنْهُ شَيْءٌ لِرِذَائَتِهِ .

الموشحات والأزجال في المشرق

وَكَانَ لِعَامَّةِ بَغْدَادَ أَيْضاً فَنَ مِنَ الشَّعْرِ يُسَمُّونَهُ الْمَوَالِيَا ، وَتَحْتَهُ فُنُونٌ كَثِيرَةٌ
يُسَمُّونَ مِنْهَا الْقُومَا ، وَكَانَ وَكَانَ ، وَمِنْهُ مَفْرَدٌ وَمِنْهُ فِي بَيْتَيْنِ ، وَيُسَمُّونَهُ دَوْنِيَّتَ
عَلَى الْإِخْتِلَافَاتِ الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا ، وَغَالِبُهَا مُزْدَوِجَةٌ مِنْ أَرْبَعَةِ
أَغْصَانٍ ، وَتَبَعُهُمْ فِي ذَلِكَ أَهْلُ مِصْرَ الْقَاهِرَةِ وَأَتَوْا فِيهَا بِالْغَرَائِبِ ، وَتَبَخَّرُوا فِيهَا فِي
أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ بِمُقْتَضَى لَفْتِهِمُ الْحَضَرِيَّةِ ، فَجَاءُوا بِالْعَجَائِبِ ، وَرَأَيْتُ فِي دِيَوَانِ
الصَّفِيِّ الْحَلِيِّ مِنْ كَلَامِهِ « أَنَّ الْمَوَالِيَا مِنْ بَحْرِ الْبَسِيطِ ، وَهُوَ ذُو أَرْبَعَةِ أَغْصَانٍ
وَأَرْبَعِ قَوَافٍ ، وَيُسَمَّى صَوْتاً وَبَيْتَيْنِ ، وَأَنَّهُ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ أَهْلِ وَاسِطَ ، وَأَنَّ كَانَ
وَكَانَ فَهُوَ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَوْزَانٌ مُخْتَلِفَةٌ فِي أَشْطَارِهِ ، الشَّطْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْبَيْتِ أَطْوَلُ
مِنَ الشَّطْرِ الثَّانِي وَلَا تَكُونُ قَافِيَتُهُ إِلَّا مُرْدَفَةً بِحَرْفِ الْعِلَّةِ وَأَنَّهُ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ
الْبَغْدَادِيِّينَ ، وَأَنْشَدَ فِيهِ لَنَا :

بَغْمَزِ الْحَوَاجِبِ حَدِيثُ تَفْسِيرٍ وَمُنُو أَوْبُو ، وَأُمُّ الْأَخْرَسِ تُعْرِفُ بِلُغَةِ
الْخُرْسَانِ « . إِنْتَهَى كَلَامُ الصَّفِيِّ ، وَمِنْ أَعْجَبِ مَا عَلِقَ بِخَفْطِي مِنْهُ قَوْلُ
شَاعِرِهِمْ :

هَذَا جِرَاحِي طَرِيَا	وَالدِّمَا تَنْضَحُ
وَقَاتِلِي يَا أَخِيَا	فِي الْفَلَا يَمْرَحُ
قَالُوا وَنَاخِذْ بَثَّارَكَ	قُلْتَ ذَا أَقْبَحُ
إِلَى جِرْحَتِي يَدَاوِينِي	يَكُونُ أَصْلَحُ

وَلِغَيْرِهِ :

طَرَقَتْ بَابَ الْخَبَا قَالَتْ مِنَ الطَّارِقِ	فَقُلْتُ مَفْتُونٌ لَا نَاهِبٌ وَلَا سَارِقُ
تَبَسَّمَتْ لَاحَ لِي مِنْ ثَغْرِهَا بَارِقُ	رَجَعْتُ حَيْرَانٌ فِي بَحْرِ أَدْمَعِي غَارِقُ

وَلِغَيْرِهِ :

عهدي بها وهي لا تأمن عليّ البين
لن يغاين لها غيري غلام الزين
وَلَفَّيْرُهُ فِي وَضْفِ الْحَشِيشِ ،

وان شكوت الهوى قالت فدتك العين
ذكرتها العهد قالت لك على دين

دي خمر صرف التي عهدي بها باقي
قحبا ومن قحبها تعمل على احراقي
وَلَفَّيْرُهُ ،

تغني عن الخمر والخمار والساقبي
خببتها في الحشى طلت من احداقي

يا من وصالو لأطفال المحبة بح
أودعت قلبي حوحو والتصبر بح
وَلَفَّيْرُهُ ،

كم توجع القلب بالهجران أوّه أح
كل الوري كخ في عيني وشخصك دح

ناديتها ومسيبي قد طواني طي
قالت وقد كوت داخل فؤادي كي
وَلَفَّيْرُهُ ،

جودي عليّ بقبلة في الهوى يا مي
ما ظن ذا القطن يغشى فم من هوجي

راني ابتسم سبقت سحب أدمعي برقه
اسبل دجى الشعرتاه القلب في طرقه
وَلَفَّيْرُهُ ،

ماط اللثام تبدي بدر في شرقه
رجع هدانا بخيط الصبح من فرقـه

يا حادي العيس ازجر بالمطايـا زجر
وصيح في حيمهم يا من يريد الأجر
وَلَفَّيْرُهُ ،

وقف على منزل أحبابي قبيل الفجر
ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر

عيني التي كنت ارعاكم بها باتت
وأسهم البين صابنتي ، ولا فانت

ترعى النجوم وبالتسديد اقتاتت
وسلوتي عظم الله أجركم ماتت

وَلْيَغْيِرْهُ .

هويت في قنطرتكم يا ملاح الحكر غزال يبلى الاسود الضاريا بالفكر
غصن اذا ما اثنتى يسبي البنات البكر وان تهلل فما للبدر عندو ذكر

وَمَنْ الَّذِي يُسْمُونَهُ دُوَيْتَ .

قد أقسم من أحبه بالباري أن يبعث طيفه مع الاسحار
يا نار أشواقى به فاتقدي ليلاً فعساه يهتدي بالنار

وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَذْوَاقَ كُلَّهَا فِي مَعْرِفَةِ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا تَحْصُلُ لِمَنْ خَالَطَ تِلْكَ اللَّفْظَ
وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ لَهَا وَمُخَاطَبَتُهُ بَيْنَ أَجْيَالِهَا حَتَّى يُحْصَلَ مَلَكَتْهَا كَمَا قُلْنَا فِي اللَّفْظِ
الْعَرَبِيِّ . فَلَا يَشْعُرُ الْأَنْدَلُسِيُّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَا الْمَغْرِبِيُّ
بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ وَلَا الْمَشْرِقِيُّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ
الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ . لَأَنَّ اللِّسَانَ الْحَضَرِيَّ وَتَرَاكِيِبَهُ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِمْ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
مَذْرُوكٌ لِبَلَاغَةِ لُغَتِهِ وَذَاتُوقٌ لِمَحَاسِنِ الشَّعْرِ مِنْ أَهْلِ جِلْدَتِهِ وَفِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّتِّكُمْ وَالْوَانِكُمْ آيَاتٌ لِلْعَالَمِينَ وَقَدْ كِدْنَا نَخْرُجُ عَنِ الْفَرْضِ .

★ ★ ★

وَجَاءَ مُضَلِّيًا خَلْفَهُ مِنْهُمْ ابْنُ رَافِعٍ ، رَأْسٌ ^(١) شَعْرَاءُ الْمَأْمُونِ ابْنِ ذِي النُّونِ
صَاحِبِ طَلَيْطَلَةٍ . قَالُوا وَقَدْ أَحْسَنَ فِي ابْتِدَائِهِ فِي مُوَشَّحَتِهِ الَّتِي طَارَتْ لَهُ حَيْثُ
يَقُولُ ،

الْعُودُ قَدْ تَرَنَّمَ بِأَبْدَعِ تَلْحِينٍ وَسَقَتْ الْمَدَائِبُ رِيَاضَ الْبَسَاتِينِ
وَفِي انْتِهَائِهِ حَيْثُ يَقُولُ ،

تَخْطُرُ وَلَا ^(٢) تَسْلُمُ عَسَاكَ الْمَأْمُونُ مَرْوَعُ الْكَتَائِبِ يَخْيِي بَنُ ذِي النُّونِ
ثُمَّ جَاءَتْ الْحَلَبَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي دَوْلَةِ الْمُلْكُمِينَ ، فَظَهَرَتْ لَهُمُ الْبِدَائِعُ ، وَسَابَقُ
فُرْسَانِ حَلَبَتِهِمُ الْأَعْمَى الطَّلَيْطَلِي ^(٣) . ثُمَّ يَخْيِي بَنُ بَقِيٍّ ، وَلِلطَّلَيْطَلِيِّ مِنَ
الْمَوْشُوحَاتِ الْمُهَذَّيَةِ قَوْلُهُ ،

كَيْفَ السَّيْلُ إِلَى صَبْرِي وَفِي الْعَالَمِ أَشْجَانِ
وَالرُّكْبُ وَسَطُ الْفَلَا بِالْخَرْدِ النَّوَاعِمِ قَدْ بَانِ

خاتمة

وَلِذَلِكَ عَزَمْنَا أَنْ نَقْضَ الْعِنَانَ عَنِ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ
طَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ وَمَا يَغْرُضُ فِيهِ وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ مَا حَسِبْنَاهُ كِفَايَةً لَهُ .
وَلَعَلَّ مَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا مِمَّنْ يُؤَيِّدُهُ اللَّهُ بِفِكْرٍ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ مَبِينٍ يَغُوصُ مِنْ مَسَائِلِهِ
عَلَى أَكْثَرِ مَا كَتَبْنَا فَلْيَسْ عَلَى مُسْتَنْبِطِ الْفَنِّ إِخْصَاءَ مَسَائِلِهِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ تَغْيِينُ مَوْضِعِ
الْعِلْمِ وَتَنْوِيعُ فُضُولِهِ وَمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَالْمُتَأَخَّرُونَ يُلْحِقُونَ الْمَسَائِلَ مِنْ بَعْدِهِ شَيْئًا
فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَكْمُلَ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

قال مؤلف الكتاب عفى الله عنه ، اتممت هذا الجزء الأول المشتمل على
المقدمة بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهديب في مدة خمسة أشهر آخرها
منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة . ثم نقحته بعد ذلك وهذبته والحققت به
تواريخ الأمم كما ذكرت في أوله وشرطته . وما العلم الا من عند الله العزيز
الحكيم .

(١) وفي النسخة الباريية ، منهم ابن ارفع رأسه شاعر المأمون .

(٢) وفي النسخة الباريية ، وليست .

(٣) وفي النسخة الباريية ، التطيلي .

الجزء الأول من تاريخ الأمم والملوك

٣	مقدمة الناشر .	٧٣	الاقليم الثاني .
٥	مقدمة المؤلف .	٧٥	الاقليم الثالث .
١٣	المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها .	٨٢	الاقليم الرابع .
٤٦	الكتاب الأول : في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب وفيه (ستة أبواب) .	٩٠	الاقليم الخامس .
٥٤	الباب الأول من الكتاب الأول : في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات .	٩٧	الاقليم السادس .
٥٧	المقدمة الأولى : في أن الاجتماع الانساني ضروري .	١٠٠	الاقليم السابع .
٦٣	المقدمة الثانية : في قسط العمران من الأرض والأشارة إلى بعض ما فيه من الأشجار والأنهار والأقاليم .	١٠٣	المقدمة الثالثة :
٦٧	تكملة المقدمة الثانية : في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك .	١٠٨	المقدمة الرابعة :
٦٨	تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا الاقليم الأول .	١٠٩	المقدمة الخامسة :
			في أثر الهواء في أخلاق البشر
			من أحوالهم .
			في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم .
			المقدمة السادسة :
			في أصناف المدركين من البشر بالفطرة أو الرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا .
			حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا وشأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب .
			الوحي
			الكهانة .
			الرؤيا .
			الباب الثاني من الكتاب الأول :
			في العمران البدوي والأمم الوحشية

- في اختلاط الأنساب كيف يقع .
 ١٦٤ الفصل الحادي عشر :
 في أن الرياسة لا تزال في نصابها
 المخصوص من أهل العvisية .
 ١٦٥ الفصل الثاني عشر :
 في أن الرياسة على أهل العvisية لا
 تكون في غير نسبهم .
 ١٦٧ الفصل الثالث عشر :
 في أن البيت والشرف بالاصالة
 والحقيقة لاهل العvisية ويكون
 لغيرهم بالمجاز والشبه .
 ١٦٩ الفصل الرابع عشر :
 في أن البيت والشرف للموالي وأهل
 الاصطناع إنما هو بمواليهم لا
 بانسابهم
 ١٧٠ الفصل الخامس عشر :
 في أن نهاية الحسب في العقب
 الواحد أربعة آباء .
 ١٧٢ الفصل السادس عشر :
 في أن الأمم الوحشية أقدر على
 التغلب من سواها
 ١٧٤ الفصل السابع عشر :
 في أن الغاية التي تجري اليها العvisية
 هي الملك
 ١٧٥ الفصل الثامن عشر :
 في أن من عوائق الملك حصول
 الترف وانغاس القبيل في النعيم
 ١٧٦ الفصل التاسع عشر :
 في أن من عوائق الملك المذلة للقبيل
 والانقياد الى سواهم .
 ١٧٨ الفصل العشرون :

- والقبائل وما يعرض في ذلك من
 الأحوال وفيه فصول وتمهيدات .
 ١٤٩ الفصل الأول :
 في أن أجيال البدو والحضر طبيعية .
 ١٥١ الفصل الثاني :
 في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي
 ١٥٢ الفصل الثالث :
 في أن البدو أقدم من الحضر وسابق
 عليه وأن البادية أصل العمران
 والامصار مدد لها .
 ١٥٣ الفصل الرابع :
 في أن أهل البدو أقرب الى الخير من
 أهل الحضر .
 ١٥٥ الفصل الخامس :
 في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة
 من أهل الحضر .
 ١٥٧ الفصل السادس :
 في أن معاناة أهل الحضر للأحكام
 مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة
 منهم .
 ١٥٩ الفصل السابع :
 في ان سكنى البدو لا يكون الا
 للقبائل أهل العvisية .
 ١٦٠ الفصل الثامن :
 في أن العvisية إنما تكون من
 الالتحام بالنسب أو ما في معناه .
 ١٦١ الفصل التاسع :
 في أن الصريح من النسب إنما يوجد
 للمتوحشين في القفر من العرب ومن
 في معناتهم .
 ١٦٣ الفصل العاشر :

- في أن من علامات الملك التنافس
في الخلال الحميدة وبالعكس
١٨١ الفصل الحادي والعشرون :
في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان
ملكها أوسع
١٨٢ الفصل الثاني والعشرون :
في أن الملك إذا ذهب عن بعض
الشعوب من أمة فلا بد من عوده
إلى شعب آخر منها ما دامت لهم
العصية .
١٨٤ الفصل الثالث والعشرون :
في أن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء
بالغالب في شعاره وزيه ونخلته وسائر
أحواله وعوائده .
١٨٥ الفصل الرابع والعشرون :
في أن الأمة إذا غلبت وصارت في
ملك غيرها أسرع إليها الفناء
١٨٦ الفصل الخامس والعشرون :
في أن العرب لا يتغلبون إلا على
البسائط .
١٨٧ الفصل السادس والعشرون :
في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان
أسرع إليها الخراب .
١٨٩ الفصل السابع والعشرون :
في أن العرب لا يحصل لهم الملك
إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو
أثر عظيم من الدين على الحملة
١٨٩ الفصل الثامن والعشرون :
في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة
الملك .
١٩١ الفصل التاسع والعشرون :

- في أن البوادي من القبائل
والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار
١٩٣ الباب الثالث من الكتاب الأول :
في الدولة العامة والملك والخلافة
والمراتب السلطانية وما يعرض في
ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد
ومتممات :
١٩٣ الفصل الأول :
في أن الملك والدولة العامة إنما
يحصلان بالقبيل والعصية
١٩٤ الفصل الثاني :
في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت
فقد تستغنى عن العصية
١٩٦ الفصل الثالث :
في أنه قد يحدث لبعض أهل
النصاب الملكي دولة تستغنى عن
العصية .
١٩٧ الفصل الرابع :
في أن الدولة العامة الاستيلاء
العظيمة الملك أصلها الدين أمان
نبوة أو دعوة حق .
١٩٨ الفصل الخامس :
في أن الدعوة الدينية تريد الدولة في
أصلها قوة على قوة العصية التي
كانت لها من عددها .
١٩٩ الفصل السادس :
في أن الدعوة الدينية من غير عصية
لا تتم .
٢٠٢ الفصل السابع :
في أن كل دولة لها حصة من الممالك
والأوطان لا تريد عليها .

- ٢٠٤ الفصل الثامن :
في ان عظم الدولة واتساع نطاقها
وطول امدها على نسبة القائمين بها
في القلة والكثرة
- ٢٠٦ الفصل التاسع :
في ان الاوطان الكثيرة القبائل
والعصائب قل أن تستحكم فيها
دولة .
- ٢٠٨ الفصل العاشر :
في ان من طبيعة الملك الانفراد
بالمجد .
- ٢٠٩ الفصل الحادي عشر :
في أن من طبيعة الملك الترف
- ٢١٠ الفصل الثاني عشر :
في أن من طبيعة الملك الدعة
والسكون .
- ٢١٠ الفصل الثالث عشر :
في أنه اذا استحكمت طبيعة الملك
من الانفراد بالمجد وحصول الترف
والدعة اقبلت الدولة على الهرم
- ٢١٣ الفصل الرابع عشر :
في أن الدولة لها اعمار طبيعية كما
للاشخاص .
- ٢١٥ الفصل الخامس عشر :
في انتقال الدولة من البداوة الى
الحضارة .
- ٢١٨ الفصل السادس عشر :
في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة
الى قوتها .
- ٢١٩ الفصل السابع عشر :
في اطوار الدولة واختلاف أحوالها
- ٢٢١ الفصل الثامن عشر :
في ان آثار الدولة كلها على نسبة
قوتها في اصلها .
- ٢٢٩ الفصل التاسع عشر :
في استظهار صاحب الدولة على
قومه وأهل عصبته بالموالي
والمصطنعين
- ٢٣٠ الفصل العشرون :
في أحوال الموالى والمصطنعين في الدول
- ٢٣٢ الفصل الحادي والعشرون :
فيما يعرض في الدول من حجر
السلطان والاستبداد عليه
- ٢٣٣ الفصل الثاني والعشرون :
في ان المتغلبين على السلطان لا
يشاركونه في اللقب الخاص بالملك
- ٢٣٤ الفصل الثالث والعشرون :
في حقيقة الملك واصنافه .
- ٢٣٦ الفصل الرابع والعشرون :
في أن ارهاف الحد مضر بالملك
ومفسد له في الاكثر
- ٢٣٧ الفصل الخامس والعشرون :
في معنى الخلافة والامامة
- ٢٣٩ الفصل السادس والعشرون :
في اختلاف الامة في حكم هذا
المنصب وشروطه .
- ٢٤٦ الفصل السابع والعشرون :
في مذاهب الشيعة في حكم الامة
- ٢٥٣ الفصل الثامن والعشرون :
في انقلاب الخلافة الى الملك .
- ٢٦١ الفصل التاسع والعشرون :

في معنى البيعة	٣٢٦	الخاتم .
٢٦٢ الفصل الثلاثون :	٣٢٩	الطراز .
في ولاية العهد .	٣٣٠	الفساطيط والسياج .
٢٧٢ الفصل الحادي والثلاثون :	٣٣٢	المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة .
في الخطط الدينية الخلافة	٣٣٤	الفصل السابع والثلاثون :
٢٨٠ الحسبة والسكة .		في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها .
٢٨٢ الفصل الثاني والثلاثون :	٣٤٤	الفصل الثامن والثلاثون :
في اللقب بامير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء .	٣٤٥	الفصل التاسع والثلاثون :
٢٨٧ الفصل الثالث والثلاثون :		في ضرب المكوس أواخر الدولة .
في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهم عند اليهود	٣٤٦	الفصل الاربعون :
٢٩٢ الفصل الرابع والثلاثون :		في التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية .
في مراتب الملك والسلطان وألقابها	٣٤٩	الفصل الواحد والاربعون :
٢٩٤ الوزارة .		في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة .
٢٩٩ الجباية .		٣٥٣ الفصل الثاني والاربعون :
٣٠٢ ديوان الاعمال والجبايات .		في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية .
٣٠٥ ديوان الرسائل والكتابة .		٣٥٣ الفصل الثالث والاربعون :
٣١١ الشرطة .		في أن الظلم مؤذن بخراب العمران .
٣١٢ قيادة الاساطيل :		٣٥٧ الاحتكار .
سفائن الحرب .		٣٥٨ الفصل الرابع والاربعون :
٣١٨ الفصل الخامس والثلاثون :		في أن الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم .
في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول .		٣٦٠ الفصل الخامس والاربعون :
٣١٩ الفصل السادس والثلاثون :		في انقسام الدولة الواحدة بدولتين
في شارات الملك والسلطان الخاصة به .		٣٦٢ الفصل السادس والاربعون :
٣٢٢ السرير والمنبر والتخت والكرسي .		في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع
٣٢٢ السكة .		٣٦٣ الفصل السابع والاربعون :
٣٢٤ مقدار الدرهم والدينار الشرعيين .		

في كيفية طروق الخلل للدولة .

٣٦٧ الفصل الثامن والاربعون :

فصل في اتساع الدولة ، أولاً الى نهايته ثم تضايقه واضمحلال الدولة .

٣٧١ الفصل التاسع والاربعون :

في حدوث الدولة وتجدها كيف يقع .

٣٧٢ الفصل الخمسون :

في أن الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة .

٣٧٢ الفصل الحادي والخمسون :

في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

٣٧٧ الفصل الثاني والخمسون :

في أن العمران البشري لا بد له من سياسة يتنظم بها أمره .

٣٨٨ الفصل الثالث والخمسون :

في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك .

٣٩٠ الفصل الرابع والخمسون :

في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر .

٤٢٦ الباب الرابع من الكتاب الأول :

في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق .

٤٢٦ الفصل الأول :

في أن الدول اقدم من المدن والامصار وانما توجد ثانية عن الملك .

٤٢٨ الفصل الثاني :

في أن الملك يدعو إلى نزول الامصار

٤٢٩ الفصل الثالث :

في أن المدن العظيمة والهيكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير

٤٣١ الفصل الرابع :

في أن الهيكل العظيمة جداً لا تستقل بينها الدولة الواحدة

٤٣٢ الفصل الخامس :

فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المراقبة

٤٣٥ الفصل السادس :

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم .

٤٤٦ الفصل السابع :

في أن المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة .

٤٤٧ الفصل الثامن :

في أن المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها

والى من كان قبلها من الدول

٤٤٨ الفصل التاسع :

في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب في الاقل

٤٤٨ الفصل العاشر :

في مبادئ الخراب في الامصار

٤٥٠ الفصل الحادي عشر :

في أن تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق

انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة
والقلة

٤٥٣ الفصل الثاني عشر :

في اسعار المدن .

٤٥٦ الفصل الثالث عشر :

في قصور أهل البادية عن سكنى
المصر الكثير العمران .

٤٥٧ الفصل الرابع عشر :

في ان الاقطار في اختلاف احوالها
بالرفة والفقر مثل الامصار .

٤٥٩ الفصل الخامس عشر :

في تأثّل العقار والضياح في الامصار
وفوائدها ومستغلاتها .

٤٦٠ الفصل السادس عشر :

في حاجات المتمولين من أهل
الامصار الى الجاه والمدافعة .

٤٦١ الفصل السابع عشر :

في أن الحضارة في الامصار من قبل
الدول وانها ترسخ باتصال الدولة
ورسوخها .

٤٦٥ الفصل الثامن عشر :

في أن الحضارة غاية العمران ونهاية
لعمره وانها مؤذنة بفساده .

٤٦٩ الفصل التاسع عشر :

في ان الامصار التي تكون كراسي
للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها

٤٧٢ الفصل العشرون :

في اختصاص بعض الامصار
ببعض الصنائع دون بعض .

٤٧٢ الفصل الحادي والعشرون :

في وجود العصيبة في الامصار

وتغلب بعضهم على بعض

٤٧٤ الفصل الثاني والعشرون :

في لغات أهل الامصار .

٤٧٦ | الباب الخامس من الكتاب الأول :

في المعاش ووجوهه من الكسب
والصنائع وما يعرض في ذلك كله
من الاحوال وفيه مسائل .

٤٧٦ الفصل الأول :

في حقيقة الرزق والكسب وشرحها
وان الكسب هو قيمة الاعمال
البشرية .

٤٧٩ الفصل الثاني :

في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه
الفصل الثالث :

في ان الخدمة ليست من المعاش
الطبيعي .

٤٨١ الفصل الرابع :

في ابتغاء الأموال من الدفائن
والكنوز ليس بمعاش طبيعي

٤٨٧ الفصل الخامس :

في ان الجاه مفيد للمال .

٤٨٨ الفصل السادس :

في ان السعادة والكسب انما يحصل
غالباً لاهل الخضوع والتلق وان
هذا الخلق من أسباب السعادة

٤٩٢ الفصل السابع :

في ان القائمين بامور الدين من
القضاء والفتيا والتدريس والامامة .

والخطابة والاذان ونحو ذلك لا
تعظم ثروتهم في الغالب .

٤٩٣ الفصل الثامن :

٥٠٦	الفصل العشرون :
	في أن الامصار إذا قاربت الخراب
	انتقصت منها الصنائع .
٥٠٦	الفصل الحادي والعشرون :
	في أن العرب أبعد الناس عن
	الصنائع .
٥٠٧	الفصل الثاني والعشرون :
	فيمن حصلت له ملكة في صناعة
	فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى
٥٠٨	الفصل الثالث والعشرون :
	في الإشارة الى امهات الصنائع
٥١٠	الفصل الرابع والعشرون :
	في صناعة الفلاحة .
	الفصل الخامس والعشرون :
	في صناعة البناء .
٥١٤	الفصل السادس والعشرون :
	في صناعة التجارة .
٥١٦	الفصل السابع والعشرون :
	في صناعة الحياكة والخياطة
٥١٧	الفصل الثامن والعشرون :
	في صناعة التوليد .
٥٢٠	الفصل التاسع والعشرون :
	في صناعة الطب وانها محتاج اليها في
	الحواضر والامصار دون البادية
٥٢٤	الفصل الثلاثون :
	في أن الخط والكتابة من عداد
	الصنائع الانسانية
٥٣٢	الفصل الحادي والثلاثون :
	في صناعة الوراقة .
٥٣٤	الفصل الثاني والثلاثون :
	في صناعة الغناء .

	في ان الفلاحة من معاش المتضعين
	وأهل العافية من البدو .
٤٩٤	الفصل التاسع :
	في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها
٤٩٥	الفصل العاشر :
	في أي أصناف الناس يحترف
	بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب حرفها
٤٩٦	الفصل الحادي عشر :
	في ان خلق التجار نازلة عن خلق
	الاشراف والملوك
٤٩٦	الفصل الثاني عشر :
	في نقل التاجر للسلع
٤٩٧	الفصل الثالث عشر :
	في الاحتكار .
٤٩٨	الفصل الرابع عشر :
	في أن رخص الاسعار مضر بالمحترفين
	بالرخص .
٥٠٠	الفصل الخامس عشر :
	في أن خلق التجار نازلة عن خلق
	الرؤساء وبعيدة من المروءة .
٥٠١	الفصل السادس عشر :
	في أن الصنائع لا بد لها من العالم
٥٠٢	الفصل السابع عشر :
	في أن الصنائع انما تكمل بكمال
	العمران الحضري وكثرته .
٥٠٣	الفصل الثامن عشر :
	في أن رسوخ الصنائع في الامصار
	انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها .
٥٠٥	الفصل التاسع عشر :
	في أن الصنائع انما تستجد وتكثر
	إذا كثر طالبيها .

٥٤١ الفصل الثالث والثلاثون :

في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب .

٥٤٢ الباب السادس من الكتاب الأول :

في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض من ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق .

٥٤٢ الفصل الأول :

في أن العلم والتعليم طبعي في العمران البشري .

٥٤٣ الفصل الثاني :

في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع .

٥٤٨ الفصل الثالث :

في أن العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتغظم الحضارة .

٥٤٩ الفصل الرابع :

في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد .

٥٥١ الفصل الخامس :

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

٥٥٦ الفصل السادس :

في علوم الحديث .

٥٦٣ الفصل السابع :

في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

٥٧١ الفصل الثامن :

في علم الفرائض .

٥٧٣ الفصل التاسع :

في أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات .

٥٨٠ الفصل العاشر :

في علم الكلام .

٥٩٢ الفصل الحادي عشر :

في أن عالم الحوادث العقلية انما يتم بالفكر .

٥٩٤ الفصل الثاني عشر :

في العقل التجريبي وكيفية حدوثه

٥٩٥ الفصل الثالث عشر :

في علوم البشر وعلوم الملائكة .

٥٩٧ الفصل الرابع عشر :

في علوم الانبياء عليهم الصلاة والسلام

٥٩٩ الفصل الخامس عشر :

في أن الانسان جاهل بالذات عالم بالكسب .

٦٠٠ الفصل السادس عشر :

في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب السنة وما حدث لاجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقادات .

٦١١ الفصل السابع عشر :

في علم التصوف .

٦٢٥ الفصل الثامن عشر :

في علم تعبير الرؤيا .

٦٢٩ الفصل التاسع عشر :

في العلوم العقلية واصنافها

٦٣٤ الفصل العشرون :

في العلوم العددية .

٦٣٩ الفصل الحادي والعشرون :

في العلوم الهندسية .

٦٤١ الفصل الثاني والعشرون :

في علم الهيئة

٦٤٤ الفصل الثالث والعشرون :

في علم المنطق .

٦٤٩ الفصل الرابع والعشرون :

في علم الطبيعيات .

٦٥٠ الفصل الخامس والعشرون :

في علم الطب .

٦٥٢ الفصل السادس والعشرون :

في الفلاحة .

٦٥٣ الفصل السابع والعشرون :

في علم الآليات .

٦٥٥ الفصل الثامن والعشرون :

في علوم السحر والطلسمات .

٦٦٤ الفصل التاسع والعشرون :

علم اسرار الحروف .

٦٧١ الكلام على استخراج نسبة الأوزان

وكيفياتها ومقادير المقابل منها وقوة

الدرجة المتميزة .

٦٧٦ كيفية العمل في استخراج اجوبة

المسائل من زايحة العالم بحول الله

منقولاً عن لقبناه قائماً عليها

٦٨٧ فصل في الاطلاع على الاسرار

الخفية من جهة الارتباطات الحرفية

٦٩٢ فصل في الاستدلال على ما في

الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية

٦٩٥ الفصل الثلاثون :

في علم الكيمياء .

٧٠٧ الفصل الحادي والثلاثون :

في ابطال الفلسفة وفساد متحلها

٧١٤ الفصل الثاني والثلاثون :

في ابطال صناعة النجوم وضعف

مداركها وفساد غايتها .

٧١٩ الفصل الثالث والثلاثون :

في انكار ثمرة الكيمياء واستحالة

وجودها وما ينشأ من المفسد عن

انتحائها .

٧٢٧ الفصل الرابع والثلاثون :

في ان كثرة التأليف في العلوم عائقة

عن التحصيل .

٧٢٩ الفصل الخامس والثلاثون :

في المقاصد التي ينبغي اعتمادها

بالتأليف والغناء ما سواها .

٧٣٣ الفصل السادس والثلاثون :

في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في

العلوم محلة بالتعليم

٧٣٤ الفصل السابع والثلاثون :

في وجه الصواب في تعليم العلوم

وطريق افادته

٧٢٨ الفصل الثامن والثلاثون :

في ان العلوم الالهية لا توسع فيها

الانظار ولا تفرع المسائل .

٧٤٠ الفصل التاسع والثلاثون :

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب

الامصار الاسلامية في طرقه .

٧٤٣ الفصل الأربعون :

في أن الشدة على المتعلمين مضرة

٣٣

٧٤٤ الفصل الحادي والأربعون :

في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء

المشيخة مزيد كمال في التعلم

٧٤٥ الفصل الثاني والأربعون :

في أن العلماء من بين البشر أبعد عن

السياسة ومذاهبها .

في أن أهل الامصار على الاطلاق	٧٤٧	الفصل الثالث والأربعون :
قاصرون في تحصيل هذه الملكة		في ان حملة العلم في الاسلام
اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن		اكثرهم العجم
كان منهم ابعد عن اللسان العربي	٧٥٠	الفصل الرابع والأربعون :
كان حصولها له أصعب وأعسر .		في أن العجمة إذا سبقت اللسان
الفصل الثالث والخمسون :	٧٨١	العربي .
في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر		الفصل الخامس والأربعون :
الفصل الرابع والخمسون	٧٧٣	في علوم اللسان العربي .
في أنه لا تتفق الاجادة في فني		٧٥٣ علم النحو .
المنظوم والمنثور معا إلا للأقل .		٧٥٦ علم اللغة .
الفصل الخامس والخمسون :	٧٨٤	٧٥٩ علم البيان .
في صناعة الشعر ووجه تعلمه .		٧٦٣ علم الأدب .
الفصل السادس والخمسون :	٧٩٤	الفصل السادس والأربعون :
في أن صناعة النظم والنثر انما هي		في أن اللغة ملكة صناعية .
في الالفاظ لا في المعاني .		٧٦٦ الفصل السابع والأربعون :
الفصل السابع والخمسون :	٧٩٦	في أن لغة العرب لهذا العهد لغة
في أن حصول هذه الملكة بكثرة		مستقلة مغايرة للغة مضر وحميز .
الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ .		٧٧٠ الفصل الثامن والأربعون :
الفصل الثامن والخمسون :	٧٩٩	في ان لغة أهل الحضرة والامصار
في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع		قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر .
وكيف جودة المصنوع أو قصوره .		٧٧١ الفصل التاسع والأربعون :
الفصل التاسع والخمسون :	٨٠٣	في تعليم اللسان المضري .
في ترفع أهل المراتب عن انتحال		٧٧٢ الفصل الخمسون :
الشعر .		في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة
الفصل الستون :	٨٠٥	العربية ومستغنية عنها في التعليم .
في أشعار العرب وأهل الامصار لهذا		٧٧٥ الفصل الواحد والخمسون :
العهد .		في تفسير الذوق في مصطلح أهل
الموشحات والازجال للاندلس .	٨١٧	البيان وتحقيق معناه وبيان ان لا
خاتمة .	٨٤٠	يحصل غالباً للمستعربين من العجم .
الفهرس	٨٤١	٧٧٨ الفصل الثاني والخمسون :